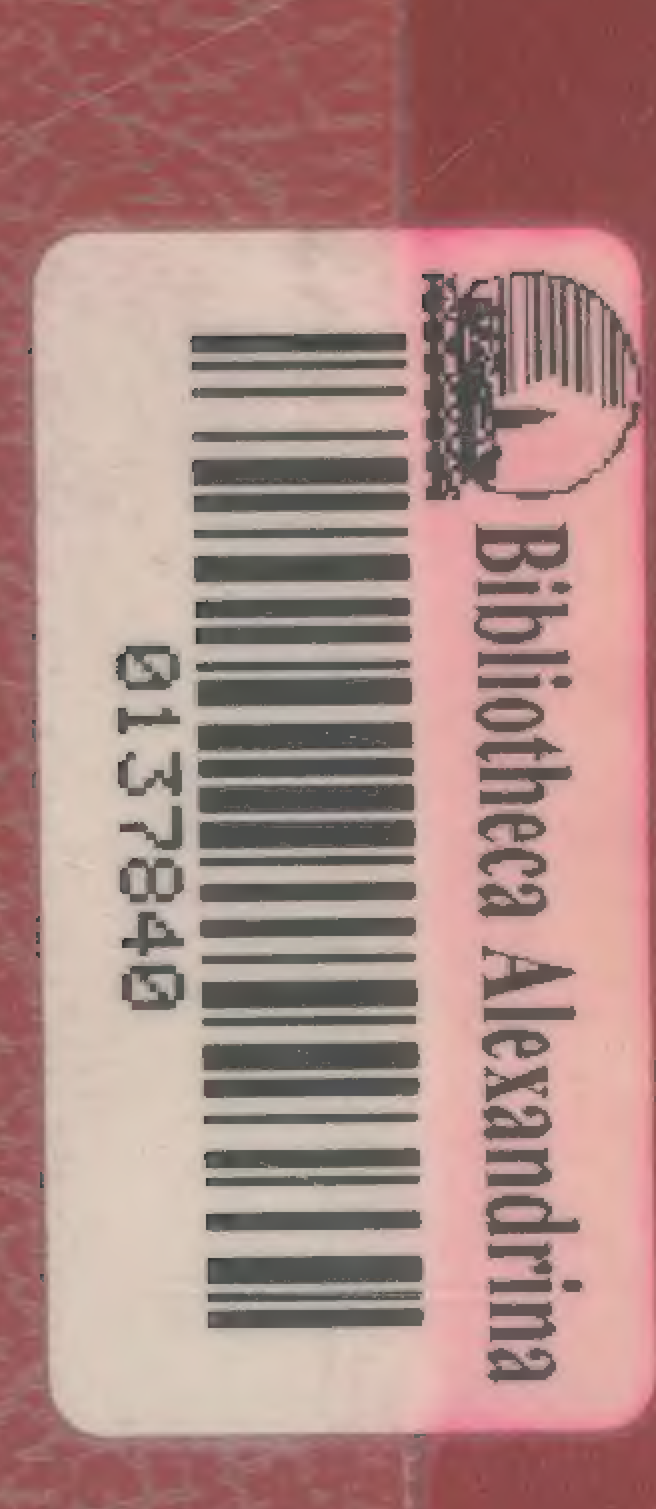
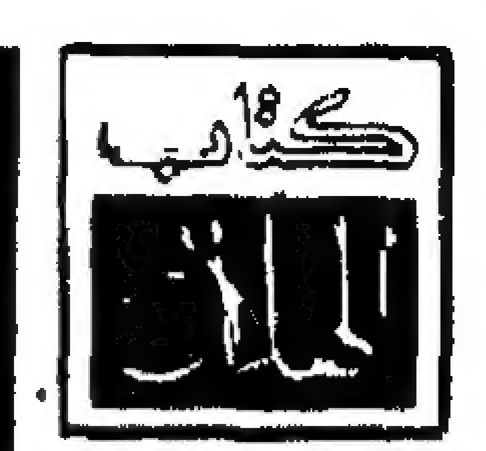




د. عزة عزت
الشخصية المصرية
في الأمثال الشعبية
حلمي التوني 97



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦١ - جماد أول - سبتمبر ١٩٩٧ No: 561-SE-1997

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

اسعار بيع العدد فئة ٧٠٠ قرش

سوريا٢٠٠ ليرة - لبنان١٢٠٠٠ ليرة - الأردن ٤٦٠٠ فلس- الكويت٢٥٠٠ فلس- السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

الشخصية المصرية في الأمثال الشعبية

تأليف

د. عزة عزت

●

دار الهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

(.. وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

(.. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون)

صدق الله العظيم

الغلاف للفنان

حلمى التونى

مقدمة

لماذا هذا الكتاب ؟

راودتنى كثيراً فكرة عمل كتاب يضم الأمثال الشعبية المصرية .. بل لعل هذه الفكرة قد بدأت معى منذ حوالى ثلاثين عاماً أو يزيد .. وكنت آنذاك مجرد طالبة فى المرحلة الثانوية .. وبغرور ومشاعر هذه المرحلة من العمر وطموحاتها .. بدأت بالفعل فى تجميع الأمثال الشعبية ، والتعبيرات ، والتشبيهات ، بل وأيضا عبارات التحية المتبادلة والأدعية التى تجرى على ألسنة العامة ممن ألتقى بهم وأعايشهم .. وبالطبع كانت أكثريتهم من النساء ، جدتى ، وأمى ، ومربية عجوز كانت تعيش معنا فى البيت الكبير .. وبينما كانت الصديقات يجمعن فى دفاترهن الخاصة كلمات الأغانى ، والأقوال المأثورة ، والأشعار الغزلية ، كنت أنا أجمع الأمثال الشعبية .. لأضع كتاباً واحداً يضمها فأكون بذلك أول من جمعها - وكان الطموح أيامها يهد الجبال ، ويقيم الدنيا ولا يقعدها وفكرة التفرد والتميز بل والخلود هى المسيطرة - وشعارى فى ذلك آنذاك توصية أوصى بها الأستاذ خالد محمد خالد فى كتابه «الوصايا

العشر» .. تقول : «اجعل مناط سعيك ما لم يفعله أحد من قبل ، واطرق الأبواب غير المطروقة ..» .

وبعد أن قطعت شوطاً كبيراً فى مرحلة التجميع والفهرسة وفقاً للأبجدية العربية ، وقضيت فى ذلك أكثر من عام .. كنت أجلس فيه إلى جدتى .. وأستثير ذاكرتها ، لتتدفق على لسانها الأمثال ، والعبارات التى تلخص الحكمة كلها فى كلمات قليلة . وبإيجاز معجز ، وحسم كنت أدهش له .. وأعجب به فى آن معاً .

وبعد أن ملأ نفسى الغرور بأنى سأقدم للمكتبة العربية كتاباً فريداً .. وقع فى يدى وبمحض الصدفة فى مكتبة المدرسة الثانوية (★) كتاب العلامة الكبير أحمد تيمور باشا «الأمثال العامية» ووجدتها مرتبة أبجدياً ، ومشروحة لغوياً ، ومذكوراً عنها معلومات قيمة عن مناسبة قولها ، وفيما تضرب ، وكانت بالنسبة لى أكثر من صدمة .. وبنفس البراءة تخليت عن فكرة مخطوطى النادر ، ومؤلفى الفريد ، وأهملت الموضوع برمته .. حتى كدت أنساه ، وإن ظلت الأمثال العامية الشعبية – بعد أن عايشتها وعشقتها لمدة عام أو يزيد – تجرى على لسانى ، فى كل مناسبة بما يليق بها .. حتى اشتهرت بين الأهل والأصدقاء بضرب الأمثال .. رغم أن عادة إطلاق الأمثال كانت قد بدأت تتلاشى إلى حد

(★) مدرسة مصر الجديدة الثانوية للبنات .

ما ؛ لارتباطها «بالعواجيز» أى بكبر السن وتقدمه أحيانا ؛ ولارتباطها بفئة شعبية من الناس ، يطلق عليهم أبناء الطبقة المتوسطة ، وما يعلوها من طبقات فى سلم المجتمع المصرى «الناس البلدى» .. بل وكانوا يتهكمون أحيانا على كل من يقول : «على رأى المثل» وكثيراً ما كان معارفى يقولون لى العبارة الإذاعية الشهيرة : «قولى يا أم على» وهو اسم لخادمة فى أحد أشهر المسلسلات الإذاعية الصباحية الموجهة إلى ربات البيوت .

ورغم أن «أم على» الأصلية ماتت ، وتوارى إلى حد ما الاستشهاد بالأمثال من الإذاعة .. وأيضاً بين غالبية الناس .. إلا أنى ظللت على عشقى لهذا اللون من التراث ، وبدأ يفزعنى تحريف الأمثال الشعبية فى الأعمال الدرامية ، وعلى ألسنة العامة .. .. فاقتنيت كتاب الأمثال العامية لأحمد تيمور باشا ، وكتاب «مجمع الأمثال» مختارات الميدانى وتحقيق محمد على قاسم (★) وهو يضم مئات الأمثال العربية ، التى وجدت أن بعضها يتطابق معنى ، ولفظا مع الأمثال العامية المصرية ، وأن بعضها يتطابق معها معنى فقط ، وإن اختلفت الألفاظ والتراكيب تماماً .. بل وإن بعض هذه الأمثال كان متداولاً بين العامة المثقفة المصرية ، ويستشهد به فى مناسبات عدة ، وكأنه مثل شعبى ، رغم كونه عربيا فصيحا ، كما سيأتى بيانه فى أحد فصول هذا الكتاب .

(★) منشورات مكتبة المعارف – بيروت – لبنان – ١٩٨٦ .

ثم كان الحافز الحقيقى الذى جعلنى أعود إلى سابق اهتمامى بموضوع الأمثال العامية المصرية ، هو صدور كتاب الدكتور سيد عويس «أمثال وتعبيرات شعبية مصرية» (★) الذى حرصت على اقتنائه لاهتمامى بالموضوع أولاً ، ثم لإعجابى الشديد بكتابات د . سيد عويس، إذ تصورت أنى سأستمتع بدراسة اجتماعية ، وتحليل لمضمون الأمثال الشعبية المصرية ، وما تفرزه من قيم إنسانية ، ومبادىء أصيلة ، وما تعكسه على الشخصية المصرية ، وعلى السلوك اليومى للشعب المصرى ، ومدى تأثرها أيضا بهذا الشعب ، وتأثيرها فيه .

ولكن صدمنى ما وجدته بين دفتى الكتاب ، إذ لا أتصور أن د . سيد عويس لو امتد به العمر كان سينشر مثل هذه الدراسة بهذا الشكل ، وأغلب ظنى أنه لم يكن يقصد مطلقاً عملية التجميع والتحقيق – لأن هذه المهمة قد قام بها باقتدار لا يبارى أحمد تيمور باشا ومن قبله شرف الدين الأسدى صاحب مخطوط الأمثال الشعبية (★★) – ولكن دكتور سيد عويس جمع هذه الأمثال ؛ ليخرج منها بدراسة

(★) الصادر عن مؤسسة أخبار اليوم – كتاب اليوم العدد ٣١٦ – ديسمبر ١٩٩٠ م .

(★★) عثر على هذا المخطوط فى منزل والد أحمد تيمور باشا وأغلب الظن أنه اعتمد عليه فى كتابه .

اجتماعيــة عميقة ، تسبر غور الشخصية المصرية ، وتغوص فى أعماقها ؛ لأنه كعالم اجتماع .. بل ابو علم الاجتماع المصرى الحديث ، لا يقف دوره عند مهمة التجميع والفهرسة .. ولعل خروج الكتاب على هذه الصورة هو الدافع الحقيقى الذى أعاد إلى الرغبة فى عمل دراسة للأمثال العامية المصرية .. وتحليل مضمونها ، والتعليق عليها مسترشدة بالدراسات السابقة على كثرتها ، مستعينة بها ، لأبدأ من حيث انتهوا وليس لتكرار ما قاموا به .. علنى أكمل ما بدأه دكتور سيد عويس ولم يمهله العمر لاتمامه ، وهى محاولة ستكون مفيدة إلى حد ما ليس من الناحية التراثية فحسب ، ولكن كدراسة اجتماعية وأدبية ، وستكون كما أتعشم أول دراسة تحليل مضمون للأمثال العامية المصرية للتعرف على ملامح الشخصية المصرية من خلالها .

د . عزة عزت

مدينة نصر فى مارس ١٩٩٦

تمهيد

يضم هذا التمهيد تعريفا بالأسس التى ستقوم عليها هذه الدراسة ، وهى : تجميع الأمثال من أفواه العامة ، أى الأمثال الباقية حتى الآن ، ومازال الناس يرددونها ويحفظونها ، واستبعاد ما يعتبر غير متداول أو بطل استخدامه ؛ إما لأنه لم يعد مناسباً للعصر ؛ أو لأن له بديلا أبسط، أو لإغراقه فى الشعبية ، بحيث يحتوى على ألفاظ ذات دلالات غير معروفة الآن - أو لأى سبب آخر - فإذ كان أحمد تيمور باشا قد رصد ٣١٨٨ مثلا ، ثم جاء من بعده د . سيد عويس ليرصد ١٨١٥ مثلا اختارها وفقاً للموضوع وإن احتفظ بترتيبها الهجائى ؛ لأنه استخلصها أصلا من الكشاف التحليلى لكتاب أحمد تيمور ، مركزا على موضوعات اجتماعية بعينها ليتناولها بالتحليل .. فإنى فى هذا البحث حرصت على أن أركز على المتداول من الأمثال ، والأكثر شيوعا بين الناس حتى الآن والذى أقوله وأحفظه وأسمعه ، مع الاستعانة بالمراجع للتذكرة فقط ، ويلى هذه المرحلة ، خطوة أخرى هى : تحليل مضمون هذه الأمثال التى سأوردها ، وفقاً لموضوعها ، ومضربها ، دون الاهتمام بالترتيب الأبجدى ، الذى سبقنى إليه الآخرون .

هذا وسأوحاول أن أفرق بين المثل الذى يحمل موضوعاً متكاملاً ، وحكمة أو نصيحة محددة وبين التعبير الشعبى الذى اكتسب دلالة محددة ، لدى المصريين ، فأصبح يتفاهم به بين الناس دون إضافة ، إذ يكفى ذكره لتتداعى للسامع معانٍ محددة وواضحة تماما ، وسوف أفرد لهذا النوع من الصيغ الشعبية فصلاً بذاته بعنوان «اصطلاحات ذات دلالة» كما سأفرد فصلاً للتشبيهات التى يكفى أن تقال ؛ لنلم بما تعنيه، وما تكسبه للشخص أو الشيء الموصوف ، من سمات واضحة محددة ، ناهيك عن العبارات التى تمثل كناية بليغة ، غاية البلاغة ، عن أشياء ومواقف ، وأشخاص يندر أن نجدها بهذه الدقة فى أى عامية أخرى .

وسأخصص فصلاً للأدعية أو الدعوات الشعبية الموجزة سواء الداعية بالخير ، أو بالشر ؛ لأنها جزء من هذا التراث الشعبى الذى أسماه أستاذنا د. سيد عويس باللهجات والتعبيرات الشعبية المصرية .

وأيضاً سأرصد الأمثال الواردة فى القرآن الكريم والمتداولة بين الناس وكأنها مثل شعبى .

كما أخصص فصلاً أخيراً للأمثال العربية الفصحى التى تتداول بين العامة على أنها شعبية ، فى حين أنها عربية لفظاً ومعنى أو محرفة عن العربية .

ذلك كله مع الحرص على أن تكون الأمثال الشعبية هى المحور الأساسى للكتاب . وما الفصول التى أشرت إليها إلا فصول مكملة للموضوع الأصلى ؛ لارتباطها به ؛ ولما لها من أهمية ؛ لتسهيل التعرف على الفرق بين المثل السائر ، والتشبيه الشعبى البليغ ، والمصطلح ذى الدلالة الخاصة : وكنموذج لهذه الأنماط المختلفة من التعبير نورد فيما يلى نماذج لكل منهم :

★ الأمثال :

- لبس البوصة تبقى عروسة .
- معاك قرش تساوى قرش ، ممعكش حاجة متساويش حاجة .
- القرد فى عين أمه غزال .

★ التشبيهات :

- زى الطبخة البايتة .
- زى مأمور الهدد .
- زى السمك بياكل بعضه .

★ المصطلحات :

- يمسكوا فى شواشى بعض (كناية عن الشجار) .
- يلبسه العمة ، أو ينفخ فيه (كناية عن الإيهام بالأهمية) .
- كسبنا صلاة النبى (كناية عن عدم الربح المادى) .

★ الأدعية :

- جار عليك الزمان .

- كبرت علتك .

- إتخلخلت ضراسك .

★ الأمثال العربية :

- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .

- إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

- من راقب الناس مات هماً .

★ الأمثال فى القرآن :

- نظرة إلى ميسرة .

- لا تكتموا الشهادة .

- وأمره إلى الله .

- ولا هم يحزنون .

هذا وسأتناول فى ختام هذه الدراسة مدى إمكانية استحداث تعبيرات ، أو مأثورات شعبية جديدة من عدمه ، وهل يمكن أن تكون لها صفة الدوام ، والاستمرار فى وجدان الناس ، فتصبح رصيدا جديدا من الأمثال ، والتعبيرات .. خاصة أن إمكانات انتشارها حاليا متاحة ، وأكثر تأثيراً .. وذلك من خلال ما يسميه البعض «إفيهات» فى الأعمال

المسرحية ، والأعمال الفنية الفكاهية ، ودراسة إمكانية أن تكتسب صفة الدوام كتراث شعبى متوارث .. وهل يمكن أن تكتسب دلالة خاصة تفهم مباشرة بالتداول ؟

هذا وسأهتم بالأمثال وفقاً للترتيب الموضوعى المتسلسل وليس وفقاً للأبجدية ، وسأحاول - قدر الإمكان - إبراز أن الأمثال قد اهتمت بكل مناحى الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية المتعلقة بالسلوكيات ، والحياة اليومية ، وأنها عبرت بدقة عن المفاهيم السائدة بين الشعب المصرى عبر العصور ، فعبرت عن رأى الأغلبية ، كما أن رأى الأقلية كان له صوت - ولو خافت - فى التراث الشعبى الموروث ، فالأمثال تعبر عن وجهتى النظر بديمقراطية شديدة .. حتى لنعجب بشدة أن الأمثال الشعبية تعبر فى كل الموضوعات عن وجهتى نظر مختلفتين .. وإن تغلبت إحداها على الأخرى .. لكن لكل منهما احترامه ومكانته ؛ ولذلك سأحاول من خلال تحليل مضمون الأمثال الشعبية ، الوقوف على وجهة النظر السائدة ، أو التى تحظى بكثير من التأييد ، سواء بالتكرار ، أو كثرة الأمثال المنادية أو المعبرة عنها ، أو بمدى تداول المثل ، واستمرار هذا التداول ، حتى الآن ، وهو ما يؤكد رسوخ هذا المفهوم ، أو ذاك ، وثباته فى الوجدان الشعبى المصرى .. بحيث يعطى ملمحا أساسياً فى الشخصية المصرية - التى أهدف أساساً إلى رصد سماتها وملامحها من خلال تحليل

مضمون الأمثال العامية والعبارات الشعبية - فعلى سبيل المثال نجد مثال يحبـذ السعى فى الزواج مثل : «يابخت من وفق راسين فى الحلال» وبالمقابل مثلا آخر يقول «امشى فى جنازة ولا تمشيش فى جوازه» فأيهما أرسخ فى الوجدان المصرى ؟؟ ذلك ما سيثبته تحليل المضمون .. كما سيدل على كثرة الموضوعات التى نشعر أن الوجدان المصرى منقسم حولها ، أو لم يتفق بشأنها على رأى واحد ، أو لنقل أنه أعد لكل موقف القول المناسب له .. وسنلاحظ ذلك بشكل خاص فى الموضوعات المتعلقة بالصبر والتحمل .. والقضاء والقدر ، والكوارث ، فإذا ما حلت مصيبة ، فهناك مثل يواسى ، ومثل يتشفى ، ومثل يشاطر المصاب ، ومثل يشمت فيه على أنه انتقام وعدالة من السماء ، ومثل يقول بأن : «المؤمن منصـــاب» ، وآخر يقول : «من أعمالكم سلط عليكم» بل إن هناك العـديد من الأمثال للموقف الواحد أو المناسبة الواحدة .

هذا ونكاد نجزم بأن الأمثال الشعبية المصرية لم تترك مناسبة أو معنى لم تعبر عنه ، سواء اجتماعيا أو سلوكيا أو اقتصاديا أو نفسياً فقد غطت كل مناحى الحياة ، وتناولت كل الأمور :

«المرأة والرجل والزواج ، وعلاقات الحب والمودة والعشرة والصداقة، والجوار والنسب . والانجاب ، والوراثة ، وتبدل الأحوال . والفقر والغنى،

والجمال . والقبح ، والسمار والبياض ، والنقص والكمال ، والفكر والذكريات . والهم والموت . والفشل والنجاح . والحداثة» .

كما فرقت بين :

«المقدر والمكتوب» و «النصيب والقسمة» و «الحظ والبخت» ، و «الشطارة أو المهارة» و «الصبر والرضا» و «القناعة والطمع» و «الحسد والغيرة» و «الإدعاء والزهو والخيلاء والظلم» و «الحذر والخوف» و «التأني والتعجل» و «الخجل والتستر» و «الأعذار والحجج» و «القدرة والاقتدار» و «حسم الأمور والأعمال غير المجدية» . والسفر وترك الديار، والتدخل فيما لا يعني . والعلم والجهل . والخذلان أو انقلاب الهدف على صاحبه والوفاء ، والتعود ، والتمسك بالقديم . والتكبر . والمبالغة والشماتة والتهكم والسخرية والاستهانة والاستهتار والفرح والتفاؤل والعمل الطيب أو البر والإحسان والاتكال أو التواكل . واليتم . والاعاقة. وسوء الخلق ، والمراءاة ، والاخبار والاسرار والسلف والدين سواء ماديا أو معنويا . بمعنى (تخليص الحق) والمصائب والكوارث والشر . والكرم والضيافة .

كما تناولت الأمثال أموراً اقتصادية كثيرة ترتب العلاقة بين الناس مثل :

المال . العوز والعذر. والبيع والشراء . والتعاقد والانفاق والإسراف.

والاقتصاد والتدبير . والسعى على الرزق . والقيمة أو الثمن. والاستغناء والشراكة . والعمل أو المهن .

ناهيك عن المعانى والقيم المطلقة ، التى تناولتها الأمثال ببساطة تدعو للعجب ، والتفريق الدقيق بين المعانى ، ووضع أسس وقواعد للسلوك الإنسانى وفقاً لقواعد دقيقة مثل : «الحق . والحرية والجمال ، والخير» ، مفرقة بين الحرية المطلقة والحرية الشخصية وحدود التدخل فى شئون الغير ، والفرق بين القيم الجمالية الروحية والمادية ، وسنلاحظ هذا التفريق الدقيق حينما نستعرض نتائج تحليل مضمون هذه الأمثال .

كما تتناول الأمثال أيضاً السلوكيات الرديئة فتدينها ، وكنموذج لهذه السلوكيات :

«النهم . والنميمة . وخلف الوعد . والنفاق . والنذالة . والخبث . والمعايرة . والذم . وتعاطى الخمور . والتطفل . واللامبالاة . والكسل . والكراهية . والكذب . والفتنة . والقذارة . والفساد . والغرور . والغش . وانكار الجميل . والحمق والغباء . وسوء النية . والسفاهة . والرشوة والخديعة . والتسول . والتردد . والتجسس . والتبرج . والإهمال . والإلحاح . والانتهازية . وسوء الخلق بوجه عام» .

هذا ونجد أن الأمثال الشعبية المصرية بقدر ما عبرت عن معانٍ

شتى ، بقدر ما عكست ملامح الشخصية المصرية .. وعبرت عن وجدان الإنسان المصرى ، وقناعاته ، وقيمه ، ومعتقداته . بل ومواقفه من كل شيء فى الدنيا محسوس أو معنوى .

كما سنلاحظ أن المصرى لم يفرق تفريقا واضحاً بين قول مأثور ، ومثل عربى ، وحكمة متوارثة . وقاعدة دينية أو معتقد مصاغ بإيجاز ، فتواصل الروح المصرية عبر العصور ، وما حدث فيها من تطورات جعل المصرى يجرى على لسانه ، كل هذه الأشكال اللغوية العامية والفصحى، مجرى اللغة الشعبية الدارجة .. التى تمتزج فيها بقايا ألفاظ من اللغة الهيروغليفية . فالهلينية ثم القبطية ، فالعربية ، مع مداخلات لفظية من لغات الغزاة : الأتراك ، ثم الإنجليز ، أو كما كان يسميهم «الفرنجة» ، وسنجد ذلك واضحاً ، حينما نستعرض كل ملمح من ملامح الشخصية المصرية ، وكيف عبرت عنه الأمثال الشعبية ، بما تضمه من ألفاظ ، قد تبدو غريبة ، وما هى إلا نحت من لفظ جاء من لغة سادت ثم بادت فى مصر ، أو مرت عليها ، لكن اللهجة العامية المصرية الثرية بأصولها ومشتقاتها بقيت ، كأحلى ما تكون اللهجات العربية على الإطلاق .. وبدون تحيز .. وسنلاحظ كيف أن المثل العربى القديم ، أو الحديث النبوى الشريف ، على رصانة لغته ، يجرى على اللسان المصرى بنعومة ، وكأنه

عاميــة دارجة ، يرددها الشعب المصرى ، بكل طوائفه أو معظمها ، دون أن يدرك أنها عربية فصحى .

هذا وسنلاحظ أن الإنسان المصرى ، يستخدم الأمثال وكأنها عبارات مصاغة جاهزة ، يسهل بها إعمال الذهن ، ومعالجة المواقف المختلفة على نحو تلقائي ومألوف .. وذلك عبر أجيال وأجيال ، مما يعكس تمسكه بالقديم والموروث من العادات ، والمفاهيم والقيم .. ويجد المصرى فى استخدام الأمثال اختزالا للكثير من الكلام ، حيث انها المختصر المفيد ، أو الحكمة كلها ، مصاغة فى عبارة موجزة ، تفيد فى موقف محدد ، وكأنها فصلت له خصيصا .. وتكون أبلغ ما يكون التعبير ، وأفضل من الإكثار فى الشرح والتوضيح .. وما أكثر العبارات التى تناسب كل المواقف على اختلافها ، نظراً لكثرة وثراء الأمثال الشعبية المصرية ، المتأثرة بالفكر الفرعونى ، والتراث المسيحى ، والإسلامي العربى ، وأيضاً وهو الأهم - المتأثرة - بطبيعة الشخصية والروح المصرية الفكهة الساخرة .. التى لم يصل أحد بعد لتحديد أسبابها هل هى موهبة إلهية خص بها الله هذا الشعب دون غيره ؟ أى أنها فطــرة .. أم هى نتاج مكتسب من عصور القهر التى عاشتها مصر ؟؟

فكلنا يعرف أن الإنسان المصرى طالما عانى ، ومازال يعانى من

الكبت السياسى ، ، والاجتماعي ، والدينى ، ولعل ذلك ما جعله إنسانا مبدعاً ، يتحايل على وسائل القهر والكبت ، والإحباط باصطناع أقوال أو نكات ، أو فنون شعبية ، ينفس فيها ، وبها عما يعانيه من كبت ، إذ أجبرته ظروفه أن يكون إنساناً حضارياً .. وليس مجرد إنسان عادى طبيعي يعيش الحياة لذاتها ؛ ولأن المصرى أكثر طاعة وامتثالاً ، وتقديراً للسلطات ، بكل أشكالها الأبوية ، والسياسية ، والدينية أكثر من غيره من الجنسيات - العربية وغير العربية - ؛ لذلك نجده أكثر احتراماً ، بل وتقديساً للتقاليد ، والقيم السائدة ، والعرف ، والدين ، والتشريعات ، وكثير من وسائل الحظر والمنع والتعويق .. ولعل ذلك ما فجر لديه ينبوع الحكمة الساخرة الموجزة ، الممثلة فى كل ما يجرى على لسانه من عبارات لاذعة فى شكل نكتة ، أو «قفشة» أو مثل ، يلخص القضية المطروحة ، بل ويضع لها الحل ، فى عبارة موجزة هى : المثل الشعبى السائر على الألسنة منذ مئات السنين .

ورغم وجود العديد من المؤثرات الفاعلة فى الشخصية المصرية كالدين ، والبيئة الاجتماعية (سواء حضر أو ريف أو صحراء أو أودية جبلية) ناهيك عن المستوى الإجتماعى داخل هذه البيئة والمستوى التعليمي ، والمستوى الاقتصادى - أقول رغم تعدد هذه المؤثرات ، وتداخلها - نجد أن الأمثال الشعبية دون غيرها من الفنون الشعبية ،

تتردد على ألسنة العامة والخاصة .. بل وتقتحم اللغة المكتوبة أيضاً بعفوية شديدة ، سواء فى الأعمال الدرامية أو الأدبية ، أو فى المقالات الصحفية ، وحتى فى الكتابات السياسية نجد أن الأمثال تتردد فى ثناياها ، بل وفى عناوينها ، بوصفها خلاصة القول وصفوته ، والمعنى الأكثر تركيزاً لشرح شتى الأمور والمعضلات ، التى يصعب شرحها إلا بإسهاب ! لذا أصبحت الأمثال جزءا من لغة الخاصة المثقفة ، وليس فقط العامة والبسطاء ، وهو ما يعكس وجود سمات متقاربة بين فئات الشعب المصرى ، بغض النظر عن درجة الاختلاف الفردى ، والفروق الطبقية ، والاجتماعية ، والثقافية .. ذلك أن الاشتراك فى الاقتناع بما تطرحه الأمثـــال الشعبية من قيم ، يعكس شخصية واضحة لها سمات متشابهة ، إن لم نقل متماثلة ، أو واحدة للإنسان المصرى ، يظهر فى تمسـك المصرى بأمثاله العامية ، أو معظمها ، وحفاظه عليها عبر الأجيال ، وترديدها ، بما يعنيه ذلك من إعجاب أو موافقة على ما تتضمنه من معانٍ ، وإيمان بحكمتها وبلاغتها ، فالأمثال خلاصة الحكمة بالنسبة لأى شعب .

هذا ولا نكون مبالغين إذا قلنا بأن الأمثال الشعبية تخلق شكلاً من الارتباط بين الطبقات فى مصر ، فارتباط الطبقة المثقفة المصرية بالتراث ، والعادات ، والتقاليد ، والفنون الشعبية ، ارتباط وثيق ، لا

يقف عند حد الاقتناع ، أو الترديد الشفهى ، بل يصل إلى حد ممارسة طقوس تقترب من الخرافة ، والإيمان بالغيبيات ، خاصة فى الملمات ، أو ما قد يصيب الفرد من إحباط فى ممارساته وحياته اليومية ، فنجد أحياناً أنه لا فرق بين مصرى مثقف وآخر من البسطاء ، من حيث التمسك بقيم راسخة تعكسها الأمثال الشعبية ، التى يرددها العامة والخاصة ، وكأنها مسلمات .

فكثيراً ما نرى أن مجرد إيراد مثل شعبى ، قد يحقق النجاح فى مساعٍ لعقد صلح ، أو فض معركة ، أو جعل إنسان مصرى - أمى أو مثقف - يتخذ قراراً حاسما فى حياته . كالزواج أو الطلاق أو الارتباط والمشاركة فى شيء ما ، إلى غير ذلك من علاقات رسمت لها الأمثال الشعبية دستوراً محكماً ، لم تفلت منه شاردة أو واردة فى المعاملات الإنسانية الاجتماعية والاقتصادية والحياتية .. وهو ما سيتضح فيما بعد .

هذا وسنلاحظ أن الأمثال الشعبية بقدر تأثيرها فى حياة الناس وسلوكهم ؛ بما لها من آثار نفسية على الشخصية المصرية سنجدها أيضاً تتأثر بما يعترى هذه الشخصية من تغير وتطور ، ويتضح ذلك من احتفاظ المصرى ببعض الأمثال دون غيرها ، وترديده الدائم لها ، فى حين ينقرض بعضها الآخر بنسب كبيرة ، سنعرض لها كماً وكيفاً فى

فصل من فصول هذا الكتاب ، بما يؤكد أن الامثال تؤثر وتتأثر بالشخصية المصرية ، بل هى نتاج لهذه الشخصية ، بكل ما يعتريها من تغيرات .

وقبل أن أختم هذا الحديث التمهيدى لدراستى للشخصية المصرية كما تعكسها الأمثال العامية لابد من إشارة مهمة إلى الأسلوب الذى سأتبعه في هذه الدراسة .. التى لم أضع لها نتائج مسبقة وإن كان لدى فروض قد تثبت أداة تحليل المضمون صحتها ، أو تدحضها كلياً أو جزئياً .. وأجدنى مرحبة تماماً بما ستأتى به دراسة علمية متأنية .. لا تعتمد على الانطباعات الشخصية أو الذاتية ، فما حدانى إلى مثل هذه الدراسة هو الشعور بما يعترى الشخصية المصرية من تغير سريع - أو هكذا أستشعر سرعته - لا أقول تغيراً إلى أحسن أو إلى أسوأ .. لكنه تغير ملموس ومحسوس من الجميع ، ويتردد ذكره على الألسنة فى المجالس ، فى شكل ترحم على الماضى وأيامه ، والعلاقات الحميمة فيه ، وما كان يسوده من قيم نبيلة كنا نحسد عليها .. بل لعلها السبب الأساسى فى الريادة المصرية فى كل المجالات .. والتفوق المصرى ليس على المستوى الإقليمى وحسب .. ولكن عالمياً .. فالحضارة المصرية حضارة عالمية ، خلقها الإنسان المصرى القديم ، أو جدنا المصرى الأول .. فهل بقى لنا شىء من ملامحه وسماته ؟ أم ترى أن سنوات من التيه

محت إنسان هذه الحضارة القديمة !! وسكن مصر بدلاً منه إنسان آخر لا يمت له بصلة أو نسب ، ولم تلعب عوامل الوراثة دورها فى إكسابه سمات أجداده ؟! هى تساؤلات حيرى ! يحسمها أحياناً حدث كبير ، يظهر المعدن الأصيل للإنسان المصرى ، بما يؤكد أنه بالفعل حفيد بناة الحضارة العظماء .. وخلاصة الطبقات المتراكمة من الحضارات على هذه الأرض من فرعونية وقبطية وإسلامية عربية ، وأنه اكتسب الجميل والنبيل من صفات من مروا بأرضه فاتحين أو غزاة ، فعلمهم ، وتعلم منهم .. واحتفظ بصفاته الأصيلة .. ولكن ما تلبث مجريات الأحداث اليومية أن تكذب هذا الظن وتخلفه .. وتوضح الهوة بين ما كان ، وما آل إليه اليوم حال الإنسان المصرى وسماته الشخصية .

وعلى أى حال سأسير بهذه الدراسة مستعرضة للسمات الشخصية للشعب المصرى ، كما وردت فى عدد من الدراسات ، ثم أحاول دراسة هذه السمات وفقاً لما سأخرج به من نتائج تحليل مضمون الأمثال . الشعبية ، دون أن أتحيز لتأكيد أى فرض مما يدور بخلدى .. ودون أن أتحيز لمعتقد مسبق .. فنظرتى مازالت متوازنة تماماً .. فأنا أرى أن أحسن ما فى مصر شعبها أو «ناسها» كما يقول العامة ، فمصر منورة بأهلها .. وهى هبة المصريين وليست هبة النيل . كما تمر بى لحظات - قصار على أى حال - أرى أن أكثر ما يشوه وجه مصر هم الناس

فكيف يستقيم هذا التناقض ؟! وما وجه الحقيقة فيه وبدقة ؟! هذا ما ستســفر عنه نتائج هذه الدراسة التي أبدأهـا بالحديث عن الشخصية المصرية وسماتها ، ثم عن الأمثال الشعبية نظرياً .. وأهميتها فى تقويم طبيعة الشعب المصرى وسماته .. ثم أستعرض نتائج تحليل مضمون الأمثال الشعبية كماً وكيفاً ، مستشهدة بنماذج متعددة لأشرك القارىء فى استخلاص النتائج معى ، وأمتعه بما استمتعت به من حكمة شعب عظيم على كل حال .. ويكفيه فخراً هذه الصفة .. إلى جانب سمات أخرى سنخوض فى دراستها فيما يلى من صفحات .

الفصل الأول

الشخصية المصرية

تتشكل الشخصية القومية بوجه عام من مجموع السمات الفردية التى تكتسب صفة العمومية ، والتى يمكن أن نقول عنها إنها سمات سائدة بين معظم أفراد مجتمع ما، وذلك كسمات عامة إيجابية وسلبية معاً، وكما تشكل السمات الفردية الشخصية القومية ، تشكل أيضاً العيوب الفردية فى تجمعها عيوب المجتمع ، أو الشخصية القومية بإيجابياتها وسلبياتها ؛ ولذلك حينما يراد إصلاح المجتمع لابد أن نبدأ بالتفكير فى إصلاح الفرد، لينصلح المجموع.

والشخصية المصرية بالذات قد حظيت بدراسات عديدة اهتمت بها ورصدت سماتها ، معتمدة على عدة مناهج تاريخية، رصدت أثر الغزاة - وما أكثرهم - على الشخصية المصرية، وأخرى اهتمت بالأدب الشعبى - الموال والسيرة والأغنية والمثل - وأثره على الشخصية المصرية ، ولعل الأخيرة هى الأصدق والأقرب إلى الواقع ، بالإضافة

إلى الدراسات المهمة المسماة «شخصية مصر» للدكتور جمال حمدان ، والتى اهتمت بدراسة شتى الظواهر المؤثرة فى الشخصية المصرية ، من أول عبقرية المكان ، إلى العنصر التاريخى والاجتماعى، وشتى الظروف المكونة للشخصية المصرية.

وهناك من اعتمدوا في دراستهم على التاريخ منطلقين من فترة أو أزمة ما ، ومنهم الدكتورة نعمات أحمد فؤاد التي اهتمت بدراسة شخصية مصر إثر نكسة ١٩٦٧ ، دراسة خرجت منها بخلاصة عظيمة وهى : أن كل الغزاة الذين أتوا إلى مصر ، كانت مصر تقابل غزوهم الخارجي بغزو داخلى يمس الجوهر والكيان، وأن ما كان يحدث للشخصية المصرية إنما هو مجرد تكييف قشرى ، لا يمس الأعماق ولا ينفذ للصميم ، وحتى العرب الذين عربوا مصر لغوياً ودينياً ، قد مصرتهم مصر حضارياً ومادياً .. وقد جاء كتاب «شخصية مصر» للدكتورة نعمات فؤاد بمثابة ضماد لجرح عميق وغائر هز الكيان المصرى بشدة ، وأثر فى الشخصية المصرية ، وقادها إلى عملية نقد ذاتى لاذع .. كان من الممكن أن يهدم الكيان الشخصى الفردى والجماعى للمصريين .. بل يمكن أن نقول انه أفقد الشخصية المصرية سمة مهمة من سماتها وهى الثقة بالنفس . وأبرز على السطح سمة أخرى كامنة وهى : السخرية من الذات ، والمقارنة بين المصرى

والغازى.. أو ما اصطلح على تسميته «عقدة الخواجة» التى تكمن وتطفو ثم تكمن وتطفو ، عبر عقود وأزمان، وفقا للظروف السياسية والاقتصادية التى تمر بمصر .

هذا وقد اتفق دكتور ميلاد حنا فى كتابه «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» مع الدكتورة نعمات فؤاد ، فى أن الشخصية المصرية هى نتاج لتعاقب حضارات توالت على مصر ، هى الفرعونية ، ثم اليونانية - الرومانية ، والقبطية ، والإسلامية العربية ، ناهيك عن موقع مصر الجغرافى المؤثر فى شخصيتها ، والمتمثل فى انتمائها إلى العالم العربى ، وانتمائها إلى مجموعة دول حوض البحر المتوسط ثم انتمائها إلى افريقيا .. وانفتاحها على كل هؤلاء الذى جعلها تحتك بأجناس مختلفة تدين بديانات مختلفة وتتحدث بلغات مختلفة ، بحكم الغزو والاحتكاك الحضارى .. لكن هذه الحضارات مرت على مصر ، وسادت ثم بادت ، وبقيت مصر هى مصر ، تعلوها طبقات حضارية متباينة .. لكنها مصر بشخصيتها المتميزة المتفردة بحلوها ومرها .. تطفو أحياناً سماتها الإيجابية الفذة ، وتخبو أحياناً أخرى ؛ لتظهر بعض سماتها السلبية ..

وإذا كنا هنا بصدد دراسة هذه الشخصية ، من خلال أحد أهم المأثورات الشعبية ، ألا وهى : الأمثال العامية ، وتحليل مضمون هذه

الأمثال .. أو لنقل تحديداً ، ما تبقى منها ، ومازال متداولاً على الألسنة، إذ يمكننا القول بأن هذا المتبقى هو ما يعبر بحق عن فلسفة الشعب المصرى الذى نعرفه الآن ... ولا نكون مبالغين إذا ما قلنا : إن المثل العامى بوصفه فلسفة شعبية تعبر عن قيم أى شعب ، فهى أيضاً تعكس خصائصه وسماته ، وقيمه وقناعاته ومعتقداته ، وتشير إلى عاداته.

لذلك نجد محمد إبراهيم أبو سنة فى كتابه «فلسفة المثل الشعبى» يربط بين خصائص المثل الشعبى المصرى ، وسمات الشعب المصرى ، ويرى أن أولى خصائص المثل ، وما يعبر عنه الصبر ، وهو أيضاً سمة من سمات الشعب المصرى ؛ نتيجة لاحتراف المصرى للزراعة ، ويرى أن هذا الصبر يستتبعه بالضرورة تأمل حزين ، باحث عن قوة غيبية يستجلبها المصرى بالعبادة ، وهما سبيله إلى التحمل والصبر والإيمان بالأسرار الغيبية ؛ وذلك كرد فعل أو نتيجة لتعاقب فترات القهر وما عاناه فيها ، مما خلق لديه صوفية سلبية ، تصل إلى حد الهزيمة أو الروح الانهزامية ، ثم أخيراً يرى أن الفكاهة وهى إحدى خصائص المثل المصرى ، والشعب المصرى أيضاً واضحة جداً فى كليهما ؛ نتيجة لقدرة المصرى على تحويل حياته المبتلة بالدموع إلى ضحكة كبيرة لا مبالية . ونكتة عارية نافذة . كوسيلة تفريغ للمرارة فى وضع مقلوب هرباً من القيود [1] .

---

(١) عادل حمودة ، فلسفة المثل الشعبى . ص ٢١.

ويؤكد ذلك أيضاً د . حسين فوزى فى كتابه «سندباد مصرى» إذ يرى أن الشعب المصرى فيلسوف مسالم ، يتكلم بالكناية . ويقول عنه : إنه شعب علمه (ظالموه الحذر وصون اللسان كما فرضوا عليه ممارسة السخرية المتسترة ، فما عرفت والله شعباً فى مثل قدرته على التندر بالحكام ، وفى قدرته على التلاعب بالألفاظ) ، وبالطبع نجد أن المثل الشعبى هو أصدق تعبير مكني عن سخرية هذا الشعب وفلسفته . وقد ذهب عادل حمودة فى هذا الصدد إلى منتهاه فى كتابه «النكتة السياسية - كيف يسخر المصريون من حكامهم» ، والذى سنستشهد كثيراً بما ورد فيه فى غضون مناقشتنا الأولى لأهم السمات المصرية وهى «السخرية والفكاهة وخفة الظل».

هذا وقد تبرز آراء ، تقول بأن اختيار المثل الشعبى بالذات لتحليل مضمونه ، والخروج بنتائج ، تحدد سمات شعب مصر، اختيار فيه قدر من التحيز ؛ محتجين بأن الأمثال الشعبية غير متداولة إلا بين العامة من الناس ، بل وينظر إليها البعض على أنها أسلوب سوقى فى الحديث، وأنها مجرد تراث ، لا يعبر عن قيم العصر .. لكنى لاحظت أن الأمثال - أو المتبقى منها على الأقل - متداول بين جميع أفراد الشعب المصرى ، وأن من لا يحفظونه ويرددونه يعجبون به عند سماعه ، ويستعيدون قائله ، ويحاولون تكراره لتذكره . وربما لاستخدامه فيما

بعد ، كما أن لكل فئة أو طبقة أمثالها المختارة المتداولة بينها ، والتى تعبر عن بيئتها وقيمها .. فإذا ما أخذنا فى الاعتبار أن مقومات الشخصية الفردية لم تعد مجرد نتاج للتربية والتنشئة والتعليم الأسرى ، أو البيئى فقط ، ولكن تؤثر فيها عمليات الاتصال المختلفة ، على المستوى الشخصى، وعلى المستوى الجماهيرى ، من خلال ما يتعرض له الفرد من إلحاح إعلامى ، فسنجد أن الأمثال الشعبية تنتقل ، وتنتشر، وتؤثر فى الناس كل الناس ، من خلال عمليات الاتصال الشخصي ، ومن خلال الأعمال الدرامية التى تعج بالأمثال الشعبية ، لا بل والمقالات والمواد الصحفية ، التى تتضمن العديد من الأمثال الشعبية ، وبذلك تتجمع عدة عوامل لتؤثر فى الشخصية المصرية ، وفى مقدمتها التنشئة الاجتماعية والثقافية التى يبرز المثل الشعبى فيها بشكل واضح .. خاصة إذا ما اعترفنا بأن الأم هى العنصر الأهم والمؤثر فى الشخصية - والنساء وهن مجموع الأمهات - هن الأكثر ترديداً واستخداماً للأمثال الشعبية ، وهن اللاتى أطلق عليهن د. سيد عويس لقب «حاملات الثقافة» ، وهن بحق من حافظن على هذا التراث الجميل ، بكل قيمه وفلسفته العميقة .

وإذا كان من المتعذر أن نطلق - بوجه عام - حكما أو وصفا معينا للشخصية المصرية ، أو نحدد سمات بعينها لنصفها بها ، كنتاج

لدراسة علمية .. فإننا – على الأقل – يمكننا القول بأن هناك صفات متميزة للشعب المصرى ، ينفرد بها دون غيره من الشعوب ، ولا يمكن لأحد إنكارها ، وهى التى يتكون من مجموعها خلق عام ، وسلوك مشترك حيال الكثير من المواقف والقضايا ، رغم التقدم الحضارى المتفاوت بين مناطق الحضر والريف والبادية ، والاتساع الجغرافى المترامى لمصر ، ورغم التعارض بين مصالح الأفراد، واختلاف اتجاهاتهم ، بل واختلاف نفسياتهم ومواقفهم المتباينة من الامور ، وردود أفعالهم الفردية .. إلا أن هناك مواقف شبه موحدة ، وسلوكا يكاد يتماثل تجاه الكثير من القضايا ، رغم البعد الطبقى، والبعد الريفى أو الحضـرى ، والبعد الجنسى ، بل والبعد الوظيفى أو المهنى ، فحيال القيـم تكاد تتطابق المواقف .. ويعكس ذلك المثل الشعبى ، فى تقديره أو تقويمه للمـال كقيمة ، أو للعـلم ، أو الجمـال ، أو أى من الموضوعات التى سـندرسها تفصيلا ؛ لنرى كيف تعكس سمات مشتركة للمصريين .. ذلك رغم ما اعترى السلم القيمى فى مصر من اختلاف فى ترتيب درجاته خلال العقدين الماضيين (السبعينيات والثمانينيات).

وقبل الخوض فى تفصيل هذه السمات العامة ، لابد أولاً : من الإشارة إلى عدة نقاط يجب أن توضع فى الحسبان ، قبل القفز إلى

النتائج .. أو حتى قبل بداية التحليل ، وصولاً إلى النتائج ، ألا وهى : أن ما سنصل إليه ، هو أبرز السمات العامة ، مع القناعة بأن هناك فروقاً فردية ، وأن هناك فروقاً بين الأسر أو الجماعات ، ذلك أن لكل أسرة ملامحهـا الخاصة ، التى تجلعنا نراها كوحدة أو كل مستقل .. فى اتجاهاته ومبادئه ، التى تختلف تبعاً لثقافة كل جماعة، وأن التفاصيل تتيح صفات خاصة بكل جماعة ، أو صفات قومية مشتركة تصل بنا إلى الشخصية المصرية عامة ، بل وتصل ببعض الباحثين إلى الشخصية العربية المشتركة . فيرى «مورو بيرجر» كمثال أن الشخصية العربية ذات أصول متعـددة ، وأنها تستمد كيانها من عدة روافد .. لكنه فى النهاية يصل إلى سمات مشتركة بين العرب ، يلخصها فى «الأنانية والكـرم ، والعـداء ، كطابع للشخصية العربية» ، ومع ذلك فهو يشير إلى الأصـول المتعددة التى تستمد منها الشخصية العربية كيانها وهى:

١ - قيم البدو والرحل ، التى أثرت فى الجماعات العربية والإسلامية.

٢ - مطالب الدين .

٣ - تاريخ الاحتلال على طول الأجيال .

٤ - الفقر الشديد .

٥ – أساليب تربية النشء (★)

هذا ولن نركز كثيراً على السمات التى وصف بها «مورو بيرجر» الشخصية العربية : ذلك أن كونه أجنبيا يجعلنا نقوم هذه السمات ونراها على أنها صورته الذهنية عن الشخصية العربية وليست سمات أصيلة فيها ، ومع ذلك نشير إليها فقط من باب الإلمام بها ، وأيضاً لنقارن بينها وبين ما خلص إليه الباحثون العرب من سمات ، «فمورو» يرى أن ما مر بالعرب من فترات ، أو أجيال طويلة يسودها الركود والتعاسة أكرهوا فيها على اتباع أساليب الغزاة ، مع ضياع جهودهم الكبيرة للسيطرة على شئونهم الخاصة ، قد أبرز «تأثيرين واضحين هما الكبرياء الجريح للحصول على المناصب ثم الشعور بالاتهام» ... أما العامل الأول وهو الرغبة فى الحصول على المناصب فهو من السمات البارزة فى الشخصية القومية العربية، لكن مظهر تقدير الذات المبالغ فيه يتضح بجلاء، فى سلوك الفرد العربى فى علاقاته اليومية بالآخرين ، بعيداً عن السياسة وشئونها . ويشير دكتور ميلاد حنا إلى مثل هذه الصفات بالنسبة للشخصية المصرية بالذات ، فى مقارنة بين الشخصية الصينية والشخصية المصرية قائلاً : «إن

(★) Moroe Berger. Thc Arab world today a double day. Ancor.look chap. 5.19.p.136

الشخصية الصينية لديها – مثل الشخصية المصرية – عقدة الكبرياء لأنهم يدركون أنهم أقدم حضارة فى الشرق الأقصى ، ولهم تأثيرهم فيها حضارياً وسياسياً وثقافياً ... ولكن لديهم أيضاً عقدة النقص مثلنا، لأنهم يعرفون أن أمامهم شوطاً كبيراً لرفع مستوى المعيشة» (١).

وترى د. فاطمة المصرى أن «العربى ينطوى على دافعين على أعلى درجة من التناقض وهما الأنانية والإنقياد . الأول يظهر في شكل توكيد الذات أمام الغير . والكبرياء والحساسية نحو النقد . والثاني ينعكس فى الخضوع لبعض القيم الجماعية الخاطئة» (٢) ، وعن هذه السمات بالذات تحدثت أيضاً د. نادية سالم فى دراستها عن «صورة العرب والإسرائيليين فى الصحافة الأمريكية» ، كما تناولته سابقاً فى دراستى عن صورة عرب الخليج فى الصحافة البريطانية .. لكننا نرى أنها سمات فى الصورة ، وليست بالضرورة أن تكون سمات فى الشخصية العربية – وبالتالى الشخصية المصرية – ما لم يثبت هذا البحث عكس ذلك ، بما ستعكسه الأمثال العامية من أنانية وكبرياء وحساسية للنقد أو نقد للذات ، لنرى أيهما أبرز كسمة عامة.

---

(١) د. ، ميلاد حنا ، الأعمدة السبعة للشخصية المصرية ، ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى ، ص ٢١٣ .

ثانياً : والأمر الآخر الذى لابد من الإشارة إليه قبل الولوج إلى النتائج ومناقشتها ، هو الخلاف بين الباحثين فى الشخصية المصرية ، وهل هى امتداد طبيعي للشخصية الفرعونية .. أم الشخصية العربية ؟ أم هى مزيج منهما معاً ، تبرز فيه أحياناً السمات الفرعونية أكثر .. أو العربية أكثر ؟ وأرى - ويتفق معى كثير من الباحثين - أن الشخصية المصرية الحالية هى مزيج من ثقافات مختلفة ، أثرت فى حياة هذا الشعب الفرعوني وفكره ، بنسب متفاوتة ، وفقاً لمدى تقبله ، أو رفضه لبعضها ، فلا أحد يستطيع أن ينكر أثر الثقافة اليونانية والرومانية .. والديانتين المسيحية والإسلامية ، ناهيك عن اثر اللغة العربية والثقافية العربية ، والتداخل بين الحضارات المجاورة جميعها ، ليس بالغزو فقط ، ولكن بالاتصال بالحضارات القديمة والجديدة ، والاتصال بالأجناس المختلفة بالترحال أو التجارة ، ووفود فئات من الترك ، والفرس ، والعرب والبربر ، وانصهارهم فى الروح المصرية .. حتى لا نكاد نميزهم الآن بين الجمهور المصرى الصميم .. وحتى أنه يصعب الآن تحديد العنصر المصرى الخالص .. ولا اتصور وجود خلاف بين الباحثين، أو حتى بين العامة من الناس ، على خاصية مصر فى الجذب والصهر .. فقد اجتذبت مصر عبر الأجيال العديد من البشر من كل جنس ولون ، جاءوها غزاة فاتحين ، أو تجاراً ، أو مغامرين أو مهاجرين ، واستقروا

بها ، وذابوا فيها ، فتكلموا عاميتها ويرعوا فيها كأهلها ، ومارسوا عاداتها وتمسكوا بها ، وكأنها عاداتهم الأصيلة ، وعاشوا مصر حتى النخاع، حتى لا يكادون يميزون عن أهلها ، ولا يستطيعون هم أنفسهم أن يميزوا أنفسهم عن المصريين ، اللهم إلا فى حكايا الجدود عن الأصل والمنشأ ، بل إن روح الفكاهة والسخرية المصرية ، وهى أبرز سمات المصريين قد تلبست هؤلاء الوافدين ، فجرت على ألسنتهم جريانها على ألسنة المصريين الأصليين ، وتشير د. فاطمة المصرى إلى نفس الفكرة قائلة :

«إن الشخصية المصرية شخصية عربية ذات ذاكرة تاريخية، تجعلنا نحتفظ ضمن اللاشعور بماضينا السحيق ، فتحدد لنا الكثير من سلوكنا وقيمنا وآدابنا الاجتماعية ، على أننى لا أقف بالذاكرة التاريخية عند الحد الذى أوضحه لها (هالفاكس) من ارتباط بالماضى القريب بل أتعدى ذلك إلى ماضى البشرية برمتها إلى الماضى السحيق».

«إذن فماضينا يغلب علينا ويرسمنا بصفات تميزنا عن غيرنا حتى لو تشابهنا ، فها هم العرب جميعاً يتفقون فى صفات جوهرية رئيسية ، ولكنهم مع ذلك يختلفون من بلد إلى آخر فى تفاصيل ، تلك الصفات ، وذلك يبدو بجلاء بين المصرى والسعودى النجدى والسورى الصميم ، والأمثلة على ذلك كثيرة ومعروفة لنا جميعاً» (١).

(١) د. فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية ، ص ٦، ٧.

ونذهب إلى أكثر من ذلك فنقـول بوجـود اختلافات بين سكان بلد أو مدينـة وأخـرى ، داخل مصـر نفسـها ، أو بين سكان الريف، وسكان المدن، وسكان الصحارى ووديان الجبال .. لكن تجمعهم فى النهاية سمات عامة سائدة ، تعكس بعض التجانس ، وبعض التباين ، وفقاً للمؤثرات الاجتماعية ، والثقـافية ، والنفسـية ، والدينيـة أو الاخلاقية ، بما تفرضه التقـاليد والعـادات ، والمعتـقدات أو الموروثات الشعبية المتعلـقة بطبيعـة كل منطـقة وظروفـها البيئية ، وتداخل عوامل أكثر من أن نحيط بها أو نحصرها ، تتفاعل فيما بينها : لتنتج سلوكاً يتصف بصفات معينة لها خصوصيتها .

ومن الاختـلافات الفـردية أو الجمـاعية التى تفرق بين أفراد الشـعب الواحد وجمـاعاته شـبكة مـن العـوامل يمكن أن نوجزها فيما يلى :

١ - البيئة الاجتماعية : المدينة ، القرية ، أطراف المدن ، الصحراء والجبال .

٢ - المستوى الاقتصادى : ثرى ، متوسط الحال ، فقير ، معدم.

٣ - العمل أو المهنة : عامل ، فلاح ، موظف ، صاحب عمل أو تاجر، وأيضاً (عاطل أو طالب) أو طفيلى ، أو «أرزقى» كما يقولون.

٤ - القناعات الإيمانية : متدين ، متعصب ، علمانى، ملحد

(وينضوى تحت هذا التقسيم فئات أخرى هى «متزمت ، مرن ، منحل»).

٥ - المستوى التعليمى : مثقف ، متعلم (عال أو متوسط) ، ملم بالقراءة ، وأمى.

ذلك بالإضافة إلى العوامل النفسية المتعلقة بشخصية كل فرد ، من حيث اتجاهاته الاجتماعية ، كانطوائه أو انعزاله ، أو نظرته التشاؤمية ، أو شخصيته المنبسطة المتفائلة ، وما إلى ذلك من فروق فردية ، تحكمها عقده النفسية ، ونشأته وتربيته .. لكننا وإن وضعنا ذلك فى الاعتبار ، سنجد أيضاً سمات عامة سائدة تحدد ملامح الشخصية القومية المصرية ، وتشترك فيها الأغلبية العظمى ، وهى القاعدة ، وما عداها حالات فردية شذت عن القاعدة ، أو هى فروق فردية تميز كلا منا عن الآخر ، فمن غير المعقول أن يكون شعب ما نسخا كربونية مكررة.

ومن محصلة ما كتب عن الشخصية المصرية نستطيع أن نستخلص عشرات السمات ، وننسبها إلى أصحابها ، ثم نحاول فيما يلى من فصول دراسة كل سمة من هذه السمات ، وكيف عبرت عنها الأمثال الشعبية دحضاً أو تأييداً : لنخرج بصورة أو «بورتريه» للشخصية المصرية ، تبرز فيها عشر سمات أساسية ، وما يتفرع عنها من سمات ثانوية ، فى حدود العشر أيضاً .

ولنبدأ بالسمات التى استخلصتها من رؤية إبراهيم أبو سنة فى دراسته لفلسفة المثل الشعبى . فهو يرى أن المصرى:

حساس ، سريع الانفعال ، يعشق الحرية . لديه روح المقاومة ، شجاع يحب الاستقرار (بوصفه فلاحا). تفكيره غيبى محب للفكاهة خاصة الفكاهة العارية (وهى وسيلته للتنفيس وإظهار أعماقه الحزينة) ، سلبى فهو (يصبر وهو مؤمن بأن الله ينصر الخير دائماً) . متسامح (فالصبر والتسامح نوع من المقاومة الشعبية المصرية) . يهرب من المجهول ومواجهته ويسلم بالواقع ، متفائل تفاؤلا غامضاً غير مبررلربما ناتجا عن إيمانه فى الغد الأفضل) يستجيب سريعاً للحزن (روح عاطفية حزينة) .يكره الغربة ويشكو منها ، ويشعر بالضياع فى الغربة (حتى أنه اعتبر الفقر غربة نفسية). متدين (فالمنهاج الدينى هو المنهاج الأساسى والثقافى لديه). يؤمن بخلود الروح ، ويهتم بالموتى ، يؤله القدر وابنه الصبر ، وسفراءه البخت والحظ والنصيب. يؤمن بالفردية المطلقة (وهى عنده ممثلة فى شخصية جحا التى يعتبرها قمة الحكمة والحماقة معاً).

أما أحمد صادق الجمال صاحب كتاب «الأدب العامى فى مصر» فيرصد سمات الشخصية المصرية منذ أقدم العصور، قائلاً :

«المصرى معروف بخفة الروح منذ أقدم العصور، تجده متناقضا مع

نفسه ، فبينما هو يعانى حزناً وألما يطلق نكتة لا تجعل السامع يراعى المقام ، فلا يتمالك نفسه من الضحك، وكما اختص المصريون بالفكاهة والملحة والنكتة النادرة اختصوا كذلك بالسخرية اللاذعة والتهكم الذى يصل فى بعض الأحيان إلى درجة الفحش فى الهجاء ... فهم إن أحسوا بظلم الحاكم ليس لديهم سوى اتخاذه مادة لسخريتهم وتهكمهم .. والتلاعب بالألفاظ .. والتورية العميقة .. وقد استخدم التورية فى الفكاهة فحملها أعمق المعانى[1] .

وقد حرصت أن أورد فى البداية آراء من تناولوا الشخصية المصرية من منطلق دراسة الأدب الشعبى وفلسفته ؛ لأنها فى تصورى المنطلق الصحيح للاقتراب من شخصية أى شعب . وقد أضاف الجمال إلى ما سبق بعض السمات المصرية ، التى رصدها من خلال دراسته للفكاهة فذهب إلى القول بأن المصرى يسخر أحياناً من نفسه وأهله ، ويضحك الناس عليهم ، فيما يسمى التحامق .. بأسلوب المضحك المبكى ، خاصة إذا ما كان يسخر من موضوع مؤلم . فهذه طبيعة المصريين الذين يمزحون فى ساعات الضيق . ويخلطون الجد بالهزل ؛ والسخرية بالحقيقة [2].

ولعل الجمال هنا قد لمس من خلال دراسته للأدب العامى عصبا

---

(١) أحمد صادق الجمال ، الأدب العامى فى مصر ، ص ٨٣ ،٨٤.

(٢) المرجع السابق ، ص ٨٥ .

مهما فى الشخصية المصرية ، وهو أحد أهم سلبياتها ، وهو خلط الجد بالهزل ، وهو إن كان يراها ميزة فى الفكاهة المصرية، فهى فى رأيى عيب كبير فى شخصية المصرى ، تقلل من مساحة الجد الفاعل فى الشخصية القومية لأى شعب .. خاصة إذا ما قارنا فى هذا الصدد بين المصرى والياباني أو الإنجليزى كمثال .

أما التقسيم الذى قام به فريق من باحثى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى دراستهم للبيئة المصرية ومشكلات المجتمع المصرى فلابد من الإشارة إليها - رغم اختلافنا مع هذه التقسيمة فى بعض التفاصيل والتفريعات كما سأوضح فيما بعد - فقد رأوا أن المصرى قد خلط بين الأضداد والمتناقضات . فخرجت الشخصية المصرية ذات نمطين كل منهما يحوى جملة سمات ، وقد سموا النمط الأول «ابن البلد» ، والثانى «الفهلوى» ، وقالوا بأنه لا يوجد حد فاصل بين النمطين إلا شكلياً ، فالمصرى غالباً ما يجمع فى طيات شخصيته بين سمات النمطين معاً بتداخل .

وذهبت هذه المجموعة من الباحثين إلى أن شخصية «ابن البلد» تتألف من ثلاث مجموعات من الخصال المركبة :

فالمجموعة الأولى : التى أطلقوا عليها اسم «الجدعنة» ، ينضوى تحتها الشخص الجدع ، وهو عندهم : «الناصح ، الذكى، الكريم ،

الشجاع ، الذى يتميز بإيمانه بالعلم والعمل ، وتعينه على ذلك صفاته المميزة ، وهى المهارة والذكاء وسرعة الفهم والبديهة ، وقوة الذاكرة ، وهو يرفض التبعية والتواكل .

أما المجموعة الثانية : وهى ما سميت «ابن نكتة» فيندرج فيها الشخص الضاحك المشرق الوجه ، الشديد الشغف بالنكتة والمرح ، حتى فى وقت الشدائد ، وهذا الشخص يرضى بما قدر له ، ويأمل فى رحمة ربه حتى يأتيه الفرج ، وروحه متفائلة ، ولديه أمل فى المستقبل ، وهو ذو حس جمالى نواق ، خصب الخيال ، وله قدرة على الإبداع والخلق والابتكار ، وهو صدوق وودود ، يؤمن بالصداقة ويقدسها .

أما المجموعة الثالثة : فتضم الانسان الطيب ، الذى يتصف بالتدين والكرم فهو مضياف محسن ، صبور قانع لا يهمه المظهر ويتسم بالجدية والعدالة .

ويذهب هؤلاء الباحثون ، فى تقسيمهم للشخصية المصرية إلى نمطين، إلى تقسيم النمط الثانى وهو «الفهلوى» (★) إلى أربع مجموعات ذات خصال مركبة لكل منها ملامح محددة وهى :

(★) استخدم هذه التسمية د. حامد عمار فى كتابه «بناء البشر» ويعتبرها صفة الشخصية القومية بوجه عام، وقد أضاف مؤلفو «التربية ومشكلات المجتمع» إلى ذلك «ابن البلد» إذ يرون أن « الفهلوى » يعبر عن الشخصية غير الأصيلة بالنسبة للمصرى.

المجموعة الأولى : وتتصف بالزلفى والاستكانة ، وسماتها المميزة الانتهـازية ، والنفاق ، والأنانية ، والحقـد ، واللامبلاة ، والسخرية والحزن ، والكآبة كصفة ملازمة للسخرية.

والمجموعة الثانية : وتتصف بالتواكلية ؛ وذلك لاعتمادها على البخت والحظ والقدر والمكتوب والقسمة والنصيب ، وإن كنت أرى أن مجموع الشعب المصرى كله يؤمن بهذه الأشياء بنسب متفاوتة ، كما تعبر عن ذلك أمثاله العامية وكما سيتضح فيما يلى .

المجموعة الثالثة : العاطفية المتزايدة أو المبالغ فيها ، ويتضح ذلك من إسرافها فى الأفراح والأحزان ، نظرا لعدم قدرتها على الانضباط الانفعالى ، كذلك عدم إتزانها وسرعة انفعالها . وحتى هذه الصفات أرى أنها قد بدأت تخف حدتها مؤخراً .. فلم تعد المغالاة فى إظهار الحزن سمة مصرية سائدة رغم أنها كانت سمة راسخة قبل عقود.

المجموعة الرابعة : المظهرية كاتجاه يعبر عن قصر النظر ، والخواء الفكرى ، والبعد عن جوهر الحياة والتمسك بقشورها (★).

وتبرز هذه السـمات الأخيرة بالذات لدى الفقراء إذ يهتمون بمظاهر كاذبة يخفـون وراءها شـعورهم بالدونيـة ، ويظهرون أثرى من الواقع ، فى حين نرى بعض الأغنيـاء يبدون تواضعاً ، ويخفون ثرواتهم خوفاً من الحسد.

(★) راجع عبد الهادى عفيفى وآخرون ، البيئة ومشكلات المجتمع ، الأنجلو.

أما الدكتور سيد عويس أبو الاجتماعيين وشيخهم ، الذى اهتم فى مؤلفات عديدة بدراسة ملامح المجتمع المصرى وسماته من خلال الأدب الشعبى تارة ، ومن خلال «هتاف الصامتين» تارة أخرى - وهى دراسته الرائعة للعبارات المكتوبة على السيارات والمقطورات - وأيضاً تلك الدراسة الفذة للرسائل التى يرسلها المصريون للإمام الشافعى ، والتى تكشف عن نفسية المصرى البسيط ، فى تعرية للذات أمام ولى من أولياء الله ، الذين يؤمن غالبية المصريين - بنسب متفاوتة أيضاً - بكراماتهم .

وقد استخلصت من كل هذه الدراسات رؤية دكتور سيد عويس للمجتمع المصرى الذى يرى : أنه مجتمع فريد متميز عمن حوله ، رغم وجود تشابه وتفاوت بينه وبينهم ، وهو أصل حضارة الإنسان منذ وجد، وهو مصدر للقيم الاجتماعية ، وهو مجتمع لم يفن ، ولم تتغير خريطته رغم الحكام والطغاة ، وسنوات القهر والمعاناة .

أما رؤيته للإنسان المصرى فتتلخص فى أنه :

إنسان يقدس الأم ويقدس بيته ويحبه ويدعو إلى صلة الرحم ، رغم حذره من الأهل وتحسبه منهم . إذ أن له دستوره فى الحب والعشرة والصداقة والجوار . ونادراً ما كان أعزب . فهو يقدس الزواج ويحرض عليه مبكراً ، يقدس الحياة الزوجية ، ويسعد بالإنجاب . وعلاقته بأبنائه

طيبة بل رائعة ، ويفضل الذكور على الإناث . ذلك أنه يؤمن بديمومة الحيـاة. ومن هنـا فأبناؤه امتداد له ولحياته . والمصرى يقدس الأموات ويعتقد فى نفوذهم وتأثيرهم فى حياته. ذلك أنه يؤمن بالأساطير. والأولياء وبركاتهم . فالشعب المصرى شعب متدين ، يؤمن بالروحانيات . لديه إيمان عميق فى أمل موعود ، لذلك فهو زاهد يرضى بالقليل . وهو مبالغ فى مشاعر حزنه وفرحه وحتى أكله ، وهو يتميز بالذكاء والتلقائية والعيش على الفطرة والمصرى يتمسك بالقديم والموروث(★).

ورغم ما رصده دكتور عويس من ميزات للإنسان المصرى نراه أيضا - وبمنتهى الموضوعية - يرصد له بعض العيوب والسلبيات وهى:

الأنا وانعـدام روح الفريق والمظهـرية . والنهـم والإستهلاك والتـواكل . والسـلبية والإنكفـاء على الذات . والنجـومية وحب التفرد ، واختفاء التفاؤل بعد أن كان سائداً .

ويرى دكتور عويس أن هذه السلبيات لم تكن موجودة . لكنها ظهرت؛ نتيجة للظروف الاقتصادية .. وأتفق معه فى ذلك إلى حد بعيد . فالظروف الاقتصادية بحلوها ومرها تصنع البشر ، وتؤثر فيهم بشدة ، ولعلها السبب الأساسى الذى من أجله انقلب السلم القيمى المصرى منذ

(★) راجع د. سيد عويس ، من وحى المجتمع المصرى المعاصر .

عقد السبعينات وما تلاه ، وحتى الآن ، فتقديس المال ، والأسلوب الاستهلاكى الاستفزازى ، والمظهرية الكاذبة ، لم تكن من السمات السائدة قبل ذلك ، بل كان محلها القناعة والرضا بالقليل ، وتقديم قيمة العلم على المال .. إلى غير ذلك من سمات يعد من نافلة القول تكرارها ، أو التأكيد عليها كسمات طفت على السطح ، وبرزت وتقدمت غيرها من السمات ، التى طالما تميز بها الشعب المصرى عبر قرون، ولعلها طفت على السطح فى معظم أنحاء العالم أيضاً نتيجة للتقدم المادى.

يجرنا ذلك إلى الحديث عن نقطة مهمة وأساسية فى دراسات الشخصية القومية ألا وهى عدم جمود الشخصية القومية ، بل يمكن القول بديناميكيتها ، وتغيرها ، أو على الأقل تقدم سمات ، وتراجع أخرى بالتبادل ، عبر العصور والحقب ؛ نتيجة لتأثير عوامل سياسية واقتصادية تؤثر فى المجتمع ، وتشكله أو تعيد تشكيله ، وتعيد ترتيب سماته ، فتكمن بعض السمات لفترات ، ثم ما تلبث أن تظهر مرة أخرى، وهكذا وفقاً للظروف المتغيرة .. مع الاحتفاظ - بالطبع - بالسمات الأصيلة الراسخة ، التى يمكن إعادة بعثها بتغير هذه الظروف، وببرامج التنمية البشرية وبحملات التوعية والتنوير؛ ولذلك حرصت على الإطلاع على دراسات الشخصية عبر العصور؛ للتعرف على هذه السمات الأصيلة التى لم تتغير، بل كمنت إلى حين، والتى

يذكرها معظم الباحثين .. ولنأخذ نموذجاً لذلك من كتاب «ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى» لمؤلفه رأفت عبد الحميد الذى أكد على سمة أساسية وهى التقوى والتدين ، فالمصرى متدين بفطرته ، سواء مسيحي أو مسلم ، أو حتى فى عصر ما قبل الميلاد ، إذ يتضح لنا من التاريخ الفرعونى أنه كان يقدس آلهته، ويمنحها القرابين ، ويقدس رجال الدين أو الكهنة ، ويحترم كل رموز الألوهية ، ويمارس طقوساً دينية صارمة .. ويقودنا ذلك إلى العودة لما رصده رأفت عبد الحميد فى كتابه السالف الذكر، كأبرز مميزات الشخصية المصرية ، والتى بدأها :

بالتقوى والتدين والبساطة . والاطمئنان إلى المعتقد أو الوحدانية والبعث، ومزجه الدين بالدنيا والحياة ، والروحانية التي تمثلت فى تحويله لأحداث البطولة إلى أسطورة أو ملحمة شعبية ، وعناده وإصراره حتى الاستشهاد . ذلك أن روحه صامدة تأبى القهر ، وتتميز بالبسالة والشجاعة والاباء، خاصة فيما يتعلق بالمعتقد الدينى (★) والمصرى صاحب فكر ، ومحب للحرية . لذلك فهو يخاف من الاضطهاد، خوفا يصل إلى حد العقدة . وقد خلق الاضطهاد - الذى عانى منه المصرى - لديه روحا زاهدة (★★).

(★) لعل تاريخ الشهداء المسيحي في مصر خير شاهد على ذلك .

(★★) راجع رأفت عبد الحميد ، ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى.

ولعل ذلك ما يفسر لنا الدور العظيم الذى قامت به مصر بالنسبة للديانة المسيحية ، وخلق الرهبانية ، وبعث الروح القبطية كنظام مستقل ، له فكره ، ومذاهبه ، ومراسيمه اللاهوتية، المتميزة٤٨كنسى عن غيرها من المذاهب المسيحية العالمية ، فروح مصر قادرة على العطاء بأكثر من قدرتها على الأخذ ، وذلك ما يؤكده أيضاً د. ميلاد حنا فى كتابه «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» فى حديثه عن العصر القبطي كرقيقة من الرقائق المتعاقبة المكونة للشخصية المصرية .

ونعود مرة أخرى إلى الكتب التى اهتمت بدراسة الشخصية المصرية من خلال الأدب الشعبى ، وتحديداً المثل الشعبى سواء كان هدفها دراسة الشخصية المصرية كدراسة اجتماعية ، أو دراسة الأمثال المصرية كدراسة أدبية عبرت عن النفس المصرية ، وسماتها الشخصية، وقناعاتها، ومن هذه الدراسات نذكر كتاباً اهتم برصد الأمثال أكثر من اهتمامه بتقويم الشخصية ، لكننى خلصت منه إلى سمات وردت فى إطار ما ذكره المؤلف من أمثال ، فهو يرى أن المصرى :

طيب القلب ، صبور ، حكيم ، مجرب ، لماح ، يمتاز بروح المرح والفكاهة أو الدعابة ، حتى فى أحلك الأوقات ، وهو يقدس الأرض والفلاحة ، ويحب الزراعة ثم التجارة ، ولديه قدرة ناقدة ، أو روح ناقدة تتميز بالفكاهة ..

ويرجع ذلك إلى المنابع التى نهلت منها الشخصية المصرية وهى:
الحكمة ، والقناعة ، والإيمان ، وروح الفكاهة ، فالمصرى المؤمن المتسامح غير المتعصب فى معاملاته الاجتماعية. عبرت أمثاله عنه فدعت إلى الصبر ، والرضا بالمقسوم والمكتوب ، والقناعة وقبول الحياة بحلوها ومرها (★).

وأخيراً يجب أن نذكر أحد أهم الدراسات الحديثة للشخصية المصرية من خلال الأدب الشعبى ، والتى كانت فى الأصل دراسة لنيل درجة الدكتوراه ، وهى دراسة اجتماعية ونفسية - وليست أدبية - استخلصت فيها الباحثة (★★) سمات للشخصية المصرية ، سأعتمد عليها فى تحليلى لمضمون الأمثال العامية المصرية ، إلى جانب السمات التى رصدتها دكتورة نعمات فؤاد ، رغم ميلى إلى الاعتقاد بأن الدكتورة نعمات فؤاد عاشقة لمصر والمصريين ، بشكل عاطفى عنيف، جعلها تهتم بالتركيز على الإيجابيات مع مجرد رصد للسبيات أو لنقل على الأقل انها ركزت على السمات الطيبة وأكدتها، ومرت مرور الكرام على العيوب والمثالب فى الشخصية المصرية ، ولعل مرد ذلك إلى الفترة العصيبة التى وضعت فيها مؤلفها القيم «شخصية مصر» عقب نكسة يونيو ١٩٦٧ .. وإن كنت سأورد فيما يلى السمات التى رصدتها دكتورة

(★) راجع محمد صفوت ، الأمثال الشعبية .

(★★) د. فاطمة المصرى.

فاطمة المصرى بعد دراسة علمية ميدانية ، والسمات التى رصدتها دكتورة نعمات فؤاد بعد دراسة تاريخية أدبية فيها تغليب للعاطفة ، لأبنى تحليلى عليهما معاً ؛ كى أخرج بنتائج أقرب إلى الحقيقة ، دون تغليب للعاطفة وحدها ، أو العقل وحده ، فدراسات الشخصية ، ليست من الجمود بحيث تُدرس معمليا أو ميدانيا فقط ، وليست من الأمور التي تحتمل التنبؤ والاستقراء، والإتيان بالنماذج والأمثلة المؤيدة للجانب الإيجابى فقط، حتى ولو كانت هذه النماذج حقيقية من قلب التاريخ ومن واقع الحياة .. فدائماً إلى جانبها نجد شواهد أخرى تدحضها ، وتؤكد عكسها، إذا ما أردنا تقليب صفحات التاريخ .. خاصة وأن الشعب المصرى غالباً ما يفاجىء العالم بل ويفاجىء نفسه بأمور غير متوقعة ، وأحداث غير منتظرة ، فقانون الصبر والثورة عند الشعب المصرى قانون فريد من نوعه فى العالم ، لا يمكن التنبؤ به ، ولعل أبرز مثل من التاريخ على ذلك ما أفشل ثورة عرابى من خيانة، وهو ما عبر عنه المثل الشعبى القائل : «الولس قتل عرابى» ، وأيضاً كمثال من التاريخ المعاصر ما أسفر عنه حادث المنصة الشهير فى أكتوبر عام ١٩٨١، من اغتيال الرئيس السادات ، وسط جنده ، وضيوفه فى مظاهرة عسكرية مهيبة ، وممن ؟؟؟؟! من شاب متدين أشد ما يكون التدين ، وبعد سنوات قليلة من نصر عسكرى باهر (فى أكتوبر

١٩٧٣) وهو أمر لا يتفق وطبيعة الشعب المصرى الطيب المتسامح الصابر ، الذى طالما صبر على قهر حكام وطغاة غير مصريين ، ولم يمارس حيالهم مثل هـذا المشـهد الدموى البشـع الذى يخالف طبيعته، فهو من ثار ثـورة بيضـاء عام ١٩٥٢ ، ولم يمارس حيال طاغية تركى فاسـد وأسرته ، ما مارسـه مع ابن بلده ، بل تركه يغادر مصر بسلام - مع الفارق بالطبـع فى الظرف التاريخى والدافع - لكنى هنا أرصد الحدثين من منطلق تواؤم مع الذات المصرية ، وطبيعتها السمحة.

وهنا نعود ثانية إلى السمات التى رصدتها «دكتورة فاطمة المصرى» فنوجزها فيما يلى ·

- تمجيد المال ، والعمل (فالجانب الاقتصادى مهم فى حياة الشخصية المصرية).

- الاتجاه إلى الله والتعلق بالأمل فى التعويض ، فى الآخرة والجنة.

- السخرية من تبدل الطبقات .

- الأنين من الظلم ، وإلقاء اللوم على أشياء غيبية كالأيام.

- اللمسة الفرعونية ، المتمثلة فى الاعتـزاز بالـذات حتى بالنسبة لأشـد النـــاس هواناً (وإن كانت غير معلنة وتتداول فى الخفاء) .

- الطاعة للسلطة ، وولى الأمر أيا كان (فالمصرى عندها سلطوى خاضع).

- تقدير الذات ، والشعور بعدم تقدير الآخرين له ومعرفة قدره.

- السخرية من الحاكم بشكل دائم (لطغيانه وكتمه للأنفاس).

- المصرى فنان بفطرته لذلك يستشعر الفن ويردده ويحبه ويقدره (فهو مولع بالغناء - يقدر الفنانين - يغنى فى كل وقت) .

- المصرى مغرم بالاستقرار ، ويعشق الأرض ، ويرفض الغربة، ويتباكى على الوطن (بسبب طبيعته الزراعية).

- يؤمن بالقدر ويستسلم له ويتحمله ، ويمتثل لمشيئة الله .

- يستسلم للوضع القائم لفترات طويلة دون محاولة للتغيير أو تقدير المستقبل .

- يشعر بالنقص أو بالدونية ، ويميل إلى الحزن والمآسى والحسرة.

- روح الفكاهة والسخرية المريرة ، التى تصل إلى حد الضحك من البلايا.

- الذكاء وسرعة البديهة (وهى أمور تخدمه فى مجال الفكاهة) .

- روح المصرى تميل إلى ما يمكن تسميته «بالتهكم الاجتماعى» الرامى إلى الإصلاح ، فيما يشبه السخرية المتفلسفة.

– الانتقام عن طريق السخرية .

– صفاء المزاج المصرى وميله للصراحة والبساطة .

– المصرى يشعر بالأمان إلا بالنسبة لغدر الزمان .

– المصـرى مؤمن غير متشكك فى المصير .. وإن كان يقدس الموتى، مع إيمانه وتسليمه بأن الموت حق وطريق لابد من وروده .

– قوة شخصية وجاذبية خاصة تؤثر ولا تتأثر (بدليل أن المصرى لم يتأثر بالغزاة ، ولكنه أثر فيهم).

– السلبية وتعليق الأمور كلها على عاتق المسئول، سواء كان الأب ، أو الحاكم ، أو السلطة .

– يميل المصرى إلى المرح واقتناص فرص الفرح والتفاؤل ، رغم الشجن.

– الإنسان المصرى ذو خبرة بالحياة ، ويعلم أنه لا دوام لحال مهما طال.

– المصرى لا ينشد الكمال ، فهو مقتنع بأن الكمال لله وحده .

– المصرى يتميز بالغفلة عن العواقب ، والانصراف عن المشاكل (كما يرى ابن خلدون).

– المصرى يقدس القناعة ويرضى بالقليل .

– للإنسان المصرى ذاكرة حافظة خاصة بالنسبة لتراثه (والدليل

على ذلك حفظه للأمثال عبر القرون منذ القرن التاسع الهجرى ، وأيضاً بعض الأمثال الفرعوية مازالت باقية) (★).

كل هذه السمات استخلصت من الدراسة العامة للفولكلور المصرى، السيرة، والأغنية الشعبية ، والموال ، وإن ركزت بعد ذلك على بعض السمات التى برزت بشكل خاص من خلال الأمثال الشعبية ، سأشير إليها فى حينه فى سياق تحليلى لمضمون الأمثال الشعبية .

أما دكتورة «نعمات أحمد فؤاد» فقد استخلصت من حديثها العذب المتغنى بالشخصية المصرية عبر العصور ، وحتى الآن العديد من السمات الإيجابية الكثيرة ، فى مقابل عدد من السلبيات التى رصدتها فى نهاية كتابها على استحياء وباختصار وإيجاز ، لا يتفق وما أسهبت فى التغنى به من ملامح طيبة فى الشخصية المصرية .. رغم أن معظم هذه الملامح والسمات قد تلاشت الآن - أو كادت - لدى غالبية الشعب المصرى ، فى إطار الانقلاب القيمى، الذى بدأ منذ عقدين على التقريب، هذا وسأركز على ما ذكرته الدكتورة «نعمات فؤاد» كسمات حالية، وليس عبر العصور التاريخية؛ لأنها الآن سمات شبه منقرضة كما أتصور ، واعتقد أن الكثير من المصريين يتفقون معى فى هذا التصور،

(★) راجع د. فاطمة حسين المصرى ، الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفولكلور المصرى - دراسة نفسية تحليلية إنثروبولوجية - مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وستثبت الدراسة ذلك فيما يلى من فصول، بعد ذكر هذه السمات والسلبيات وهى:

- الودادة، والوداعة ، والسماحة ، والشفافية، والطيبة ، ورقة الإحساس.
- التعاطف ، ونزعة التوحـد والتعـاون وروح الفريق (أين هى الآن ؟).
- التوحيد والإيمان.
- روح التصوف والروحانية .
- النظافة «كانت عند المصريين عقيدة قبل أن تكون سبيلاً للصحة» (أين هى الآن؟).
- التلقائية والفطرة .
- الرغبة فى الاستشهاد والجهاد (استعذاب الألم).
- الاعتزاز والفخر بالماضى .
- الاعتزاز بالوطن والشغف بالبلاد .
- الجلد والإصرار (حينما يريد ذلك).
- نزعة التنظيم والتنسيق والتحديد (التنظيم الرئاسى).
- مطبوع على الجمال ، نواقة له .
- الظرف والصفاء.

- عدم التزمت .

- العطاء والوفاء والسخاء.

- طبع فنان (أهل مصر كانوا أصحاب فن وأهل ذوق وعشاق تطريب).

- دقة وتنوع فى الفن .

- حسن شاعر مرهف .

- حب المساواة ورفض الطبقية.

- عدم الاستخفاف والهدر (أين هو الآن؟!)

- الإحساس بالقيمة (أين هو الآن؟!)

- السلام وسكون النفس المصرية .

- القوة والجبروت (برغم رقته).

- الارتكاز والثبات والدوام .

- روح السخرية والفكاهة ، وخفة الظل ، والقدرة على التندر والتهكم.

الاهتمام بالجوهر وتقدير القيم والمعانى (تقدير الكتابة والكتاب والعلم).

- الشخصية المؤثرة .

- وقدة حس وذهـــن ، تزيد الذكاء اللمـــاح بريقـاً وســحراً وبديهـة حاضرة.

- المهارة والحيلة والذكاء (أى الفهلوة المصرية).
- مروءة وشهامة ، وبارقة رحمة .
- التهويل مزاج مصرى ، والإفراط فى المباهاة والتزيد فى الحديث.
- المبالغة فى التصرف (المظاهر المكلفة).
- حكمة النصيحة .
- اصطناع الصبر والأناة والسكينة والهدوء فى مقابلة الأحداث .
- المزاج المصرى يرتاح إلى التكرار.
- إيمان بالغيبيات والكرامات (إيمان مؤيد بالأدب الشعبى).
- الرغبة في تأكيد الذات.
- المصرى متحضر حضارة ذات مستوى رفيع .
- الزعامة المصحوبة بقوة الإبداع والصلاحية للقيادة (كما يبدو من بناية الهرم).
- الجرأة وإرادة التصميم وعزم التنفيذ.
- النضج النفسى نتيجة للبناء والاختراع والتفوق فيهما .
- نضج حضارى مستقر فى النفس المصرية .
- الاستكانة والخضوع للغزاة!!.
- الانبهار بالغريب .

- معرفة بالأصول والعيب (قيم أخلاقية).
- التقوقع على الذات لإعادة صياغتها .
- الشخصية المصرية لا تستسلم أبداً ، مهما طال الزمن ، ولكن تكمن لتثب .
- الوحدة خط عريض من خطوط الشخصية المصرية .
- المصرى لم يعش ترفا حقيقيا لذلك لم يضعفه الترف (★).

وإذا كانت الدكتورة نعمات فؤاد قد رصدت خمسين سمة تراها الآن كسمات إيجابية فى الشخصية المصرية، ناهيك عما رصدته لها عبر العصور القديمة -الفرعونية والمسيحية والإسلامية - من سمات تؤكد أنها لم تتلاش ولكنها تكمن جميعها فى أعماق الشخصية المصرية المعاصرة، فالمصرى عند نعمات فؤاد له موقف وعطاء طوال تاريخه ، فهى ترى أن:

خلاصة المصـــرى القديم	حضارة
خلاصة المصرى المسيحى	تجرد وشهادة
خلاصة المصرى المسـلم	جهاد وخلوص لله
خلاصـة المصـرى المعاصر	أسلوب تفكـــير تتوافـق فيه الوسيلة مع الغاية.

(★) راجع د.نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وتختلف الأديان والعصور والمصرى يجمع فى كيانه هؤلاء جميعاً (١).

ولذلك نجد د. نعمات فؤاد لا ترصد للمصرى - الذى تراه قمة التحضر وخلاصة عدة حضارات وأديان - لا ترصد له من السلبيات إلا ما يتعلق بالسلوك وليس بالطباع الثابتة ، وهى على أى حال أقل عدداً قياساً بالإيجابيات .. لا بل وتتناقض مع بعض ما ذكرته أنه إيجابيات .. فالسلبيات كما تراها هى :

- فردية متضخمة مريضة .
- سلبية وتفريط.
- شخصية الخولى (فى مراكز السلطة).
- سوء فهم للتقدم والتخلف.
- تبعية فكرية .
- افتقار للوعى الدينى.
- التواكل أو الإتكالية (المشيخة بمعنى أن تعمل القرية شيخا وتصدقه).
- مفهوم خاطىء للولاية والأولياء.
- مرض الاسترخاء الفكرى.

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٩١ .

- كبت الحرية الفكرية .

- نفوس مبعثرة من الداخل .

- فخر إلى حد الطنطنة (أو تهوين بالنفس إلى حد فقدان الثقة).

- شكوى الزمان ، والخوف من السرور .

- المصابرة والمراوغة.

- عدم الشعور بضمان الأيام والدهر وما يخبئه .

- نهم فى الحياة الاقتصادية ، والخلقية (الاستهلاك نتيجة لعدم ضمان بكره) .

- الكسب بطريقة مشروعة أو غير مشروعة وبسرعة .

- عدم الثقة بأى نظام سياسى.

- الطابع الغيبى فى التفكير .

- التخفى والاحتيال .

- الخوف .

- الرضا والتفويض والتسليم بقضاء الله .

- الحزن الشديد عند الموت (ممثلا فى زيارة الأضرحة والرحمة والقرابين).

- التقليد إلى حد المسخ (فلم يعد للمصرى أسلوب خاص).

- عقدة الخواجة .

- إشاعة العبارات الدينية في الحديث دون عمل خيرى فعلى .
- أمية العقل والشعور .
- القذارة .
- الفضول .
- افتقاد القيم الحقيقية .
- الافتقار إلى منهج (الإرتجال).
- المداهنة والنفاق .
- التطرف فى الحب والكراهية (وبالتالى فى المدح والذم).
- خلع الألقاب جزافاً .
- عبادة وتقديس السلطة ورفعها ، والذل والاستكانة.
- عدم احترام العلم ، وعدم الإيمان بالتخصص.
- الثرثرة.
- إضاعة الوقت . والفراغ والهدر.
- المظهرية والمبالغة والتهويل .
- الإنسان الصفر (ضياع الفرد) (★) .

من كل ما سبق نستطيع أن نلحظ مدى التطابق بين الباحثين فى رصد العديد من السمات ، فى حين ينفرد بعضهم بسمات لم يذكرها

(★) راجع د. نعمات فؤاد ، شخصية مصر ، ص ٢٧٧ وما يليها.

غيره ، ولكل منهم حجته وأسانيده ، لكن الذى لاشك فيه أن أبرز السمات هى التى اتفق عليها الجميع ولم يختلفوا فيها ، وهي ما سنستخلصه فى الختام ، وإن كنت أضع من البداية بعض الفروض التى اتصور مبدئياً أن البحث والتحليل قد يؤكدها ، فالإنسان المصرى إنسان معجز بكل المقاييس ، أبهر العالم القديم ، ومازال يستطيع ذلك إذا أراد ، لذا يجب على البشرية أن تسمع إذا تحدث الشعب المصرى ، فكما يقول د. يوسف إدريس إن من استطاع بناء الأهرام يستطيع أن يبدع أكثر وأدوم ؛ فالمصرى قادر على التوافق مع أى موقف ، إذ أنه يضع برنامجاً لنفسه كل دقيقة . لكن مشكلة الإدارة هى المعوق أمام إبداع المصرى (★) ، وأياً كان المعوق أمام الإنسان المصرى ليستعيد مجده .. فنحن بصدد دراسة هذه الشخصية الخصبة التى أتفق مع د. إدريس فى أنها شخصية غنية تنعكس سماتها من خلال الأدب الشعبى والأمثال .. فلنتدراسها .

(★) حديث تليفزيونى مذاع .

الفصل الثانى

الأمثال الشعبية

تعبر الأمثال الشعبية كغيرها من المظاهر الفولكلورية عن الفكر الشعبى ، والاتجاه الشعبى حيال ظواهر وممارسات ، تعتمد على طقوس وأساليب ومعتقدات شعبية أو خرافية ، تكشف الخبايا النفسية لكل شعب .. وهى أيضاً قوانين اجتماعية شبه ملزمة ، تمس كل القيم والمعايير ، ويخضع لها الجميع بصورة عامة ، أياً كانت طبقتهم ، خاصة الطبقة الشعبية ، بل وأغلبية الطبقة المثقفة ، وهذه القوانين لها قوة ونفوذ لدى الغالبية العظمى ، أو السواد الأعظم من الشعب ، وهى أحكام قاطعة وصريحة ، رغم ما تعبر عنه أحياناً من جمود أو تزمت ، أو مفاهيم عفى عليها الزمان ، إذ كانت تناسب العصر الذى أطلقت فيه وتتواءم معه تماماً ، فى حين أن ما تطرحه الآن قد لا يناسب الحاضر ، أو قد يمثل قيماً سلبية بالمفهوم الحالى .

والمثل العامى لا يتناقض فقط مع القيم السائدة أحياناً ، ولكنه أيضاً يتبنى الكثير من الألفاظ والتعبيرات التى ظهرت فى فترات مختلفة، وهى احيانا ألفاظ مقتبسة من لغات أخرى ، حدث تقارب بين الشعب المصرى ، وشعوب تتحدث هذه اللغات فى فترات منصرمة ، كما تعبر الأمثال أحياناً عن اتجاهات كانت وافدة على المجتمع المصرى ، ومتأثرة بظروف معينة ، أو حوادث بعينها ، مشتملة على ألفاظ لم نعد نتداولها الآن ، أو حوادث لسنا ملمين بها الآن جميعاً ، لكن منطوق المثل المعبر عن هذه الحوادث قد وصل إلينا - وإن لم يصل الحدث نفسه - لكنا نردد هذه الأمثال ، دون وعى كامل بمعناها ومراميها ، إذ أنها صارت مثلاً يضرب فى موقف معين نلتزم بترديده فيه .. وإن كانت الغالبية العظمى من هذه الأمثال انقرضت ، أو كادت وهى موجودة فقط فى كتب التراث لكنها غير متداولة على ألسنة العامة الآن .

ولذلك سأحرص فى هذا البحث على تحليل مضمون الأمثال ، التى مازالت متداولة ، ومعروفة للغالبية العظمى من الشعب المصرى بفئاته المختلفة ، واستبعد لفظا أو معنى عن حدث تاريخى غير معروف ، ذلك أن المصرى رغم ما يتمتع به من ذاكرة حافظة لتراثه وتاريخه ، وتمسكه بهذا الموروث العظيم .. إلا أن الأمثال الشعبية - ككل شىء - يصيبها تقادم الزمن ، بنوع من الانقراض أو التناسى ؛ أرى أن سبب اختلاف

ما تطرحه من قيم قديمة مع القيم السائده حالياً ، وأيضاً اختلاف ما يتضمنه لفظاً عن المفردات الشعبية المستخدمة حالياً ، ناهيك عن تميز بعض الأمثال العامية بالفحش معنى ولفظا مما جعل الباحثين فى التراث ، والحريصين على تدوينه يستبعدون الأمثال المتضمنة لألفاظ بذيئة ، فيتجاهلونها تماماً أو يشيرون إليها دون ذكر اللفظ المستهجن ، ولعل أبرز مثال على ذلك كتاب المستشرق السويسرى «چون لويس بوركهارت» الذى اعتمد على مخطوط شرف الدين الأسدى (*) عن الأمثال الشعبية - والذى عثر عليه فى مكتبة إسماعيل تيمور باشا ، والد أحمد تيمور باشا ، محقق كتاب الأمثال العامية - الذى اعتمد أيضاً على هذا المخطوط ولم يقم بتجميع الأمثال بنفسه - فقد استبعد تيمور باشا الغث والبذىء معنى ولفظاً .. فى حين أشار إليها المحقق السويسرى .. ربما لأنه لم يستشعر قبح استخدام اللفظ العامى المعبر عن الأعضاء الجنسية ، وإن أشار إليها فى الحشايا معنى وليس لفظا .

وقد أثار إطلاعى على كتب الأمثال القديم منها والحديث رغبتى فى إجراء تجربة بسيطة لقياس نسبة انقراض الأمثال من عصر إلى عصر قياساً على ما ورد فى كتاب «چون لويس بوركهارت» الذى شرح وترجم ٧٨٢ مثلاً شعبياً وطبعها فى كتاب عام ١٨٣٠م (**) ، فوجدت أن

(*) ولد عام ٦٧٠هـ ومات ٧٢٨هـ

(**) راجع تحقيق هذا الكتاب فى اللغة العربية للدكتور إبراهيم أحمد شعلان ، «العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية فى عهد محمد على» .

المتبقى أو المتداول حتى الآن من هذا العدد هو ١٨٩ فقط أى بنسبة ١٧ . ٢٤٪ تقريباً ، أى أن ما يقرب من الربع فقط هو الذى بقى متداولاً تداولا شعبيا ، فى حين إندثرت ثلاثة أرباع الأمثال التى كانت متداولة حتى عام ١٨٣٠م ، أى خلال حوالى قرن ونصف قرن من الزمان .

وقد حاولت الشيء نفسه مع كتاب الأمثال العامية لأحمد تيمور باشا ، ويضم ٢١٨٨ مثلا ، فوجدت أن معظمها كاد ينقرض ، خاصة ما يضم منها لفظاً أو معنى لم يعد متداولاً فى مفرداتنا العامية ، أو استعيض عنه بتبسيط له .. خاصة الأمثال ذات المتن الطويل .. اختصرت فصار المتداول منها الجزء الذى يمثل الخلاصة ، وليس كل المثل المسجوع .. كما سيتضح ذلك فيما يلى من صفحات ، وذلك ما عبرت عنه أيضاً الدكتورة فاطمة المصرى من أن تداول الفنون الشعبية بوجه عام - الموال والنكتة والمثل ، والسيرة ، والأغنية الشعبية - وانتشارها بين العامة وكثرة ترديدهم لها جعلها ملكاً للشعب وكأنما هى نتاج مشترك بين كل أفراد الشعب ينالها التحرير والتهذيب من جيل إلى جيل . وفقا للاتجاهات العامة في كل زمان [١] وهى تشير أيضاً إلى وجود أمثال حية من القرن التاسع الهجرى ، وردت فى كتاب الأبشيهى (المستطرف فى كل فن مستظرف) ومازالت هذه الأمثال تتفق فى كثير

---

(١) د. فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية . ص١٠٤ .

من ألفاظها مع ما ينطق به رجل الشارع اليوم ، كما أن مفاهيمها مازالت تعيش بيننا ، ومازلنا نجد لها مكاناً فى حياتنا ، وتقول :

ولاشك أن هذه الأمثال كانت موجودة تتردد قبل الأبشيهى أى قبل القرن التاسع الهجرى ، وأنها بقيت على حالتها يرويها الشعب جيلاً بعد جيل ، ويأخذها الصغير عن الكبير بدون تغيير يذكر ، لا لشىء إلا لأنها تمثل الحياة المصرية بالرغم مما أصاب حياتنا من تغيير وتطور ، وهذا يدل من ناحية أخرى على أن مصر تتمتع بميزة المحافظة وحب الجديد فى الوقت نفسه ، فهى تحب الاحتفاظ بشخصيتها وبتقاليدها .... وهذه الأمثلة هى :

- البلاش كتر منه .
- بعد ما شاب ودوه الكتاب .
- بفلوسك بنت السلطان عروسك .
- آخد ابن عمى واتغطى بكمى .
- البهيم من ودنه وبنى أدم من لسانه .
- أخر خدمة الغز علقه (١) .

ومع ذلك فأنا أقول بانقراض الأغلبية العظمى التى تربو على النصف ، أو الثلاثة أرباع ؛ نتيجة لتغير الظروف ، وتغير المفردات

---

(١) المرجع السابق . ص ١٠٥ - ١٠٦ .

العامية وطبيعة العصر .. وكنموذج لذلك الأمثال المتعلقة بالشهور القبطية ، التى كادت تندثر ، خاصة فى المدن ، حيث لا نكاد نعمل بها ، أو نعرف ترتيبها ، فيما عدا طوبة وأمشير لتميز الجو فيهما بالبرد فى طوبة والزعابيب فى أمشير .. لكن الفلاح المصرى - أو ما تبقى منه - مازال يعمل بها ويعرفها ، وربما يحفظ الأمثال المتلعقة بها ، وذلك ما يحدونى للقول بضرورة تدوين الأمثال الشعبية كل نصف قرن على الأقل؛ لحفظها كتراث قبل أن تنقرض .

ويقودنا الحديث إلى تاريخ تدوين الأمثال الشعبية والعناية بحفظها مكتوبة ، بدلا من اندثارها عبر العصور .. نتيجة للحفظ الشفهى الذى يهمل ما لا يناسبه ، ويحتفظ فقط بما يوائم متطلبات كل عصر ، وهو ما يحدثنا عنه محمد إبراهيم أبو سنة فى كتابه فلسفة المثل الشعبى إذ يقول بأن :

أول مدون للأمثال العامية المصرية ربما لا يكون أقدم من مدون شهاب الدين محمد بن أحمد أبى الفتح الأبشيهى المحلى (٧٩٠هـ - ٨٥٠هـ) (*) فى كتابه المستطرف فى كل فن مستظرف ، وقد جمع فى هذا الكتاب ما يقرب من ثلاثمائة مثل بعضها مازلنا نتناوله إلى الآن مع

(*) أرى أن مخطوط شرف الدين الأسدى المصرى أقدم حيث عاش فى الفترة من ٦٧٠هـ - ٧٣٨هـ) .

بعض التغيير مثل ما جاء في المستطرف نوايه تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير ، ونحن نقول النوايه تسند الزير فقط [١] .

كما يشير أبوسنة إلى أن الشائع من أمثال ذلك العصر يعكس الأخلاق التركية.. كما أنها محتشدة بالملاحظات أو التلميحات الجنسية، التى كانت بلاشك مظهرا من مظاهر الانحطاط فى العصر التركى .. وهو ما أشرت إليه سلفاً في الحديث عما رصده شرف الدين الأسدى المصرى، وحققه الرحالة السويسرى بوركهارت.. فى كتاب ترجمه وحققه د. إبراهيم أحمد شعلان تحت عنوان : «العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية في عهد محمد على» وهو أول من اهتم بمخطوطات الأسدى التى أهملت جميعها لاتسامها بالمجون .. فالمعروف أن شرف الدين الأسدى ولد فى عصر الظاهر بيبرس، وكان - كما يشير الدكتور عبدالحميد يونس أستاذ الأدب الشعبى بجامعة القاهرة فى تقديمه لكتاب «الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكي» - ماجنا من الأدباء الشعبيين المتحامقين ، وأن السلطان الظاهر بيبرس حاول الوقوف أمام تيار المجون آنذاك، إذ كانت البيئة المصرية قد أثقلتها هموم الحرب إبان حكم المماليك، فنفست عن نفسها بالفكاهة والخلاعة والمجون.. وقد أبدع الأدباء الشعبيون - برغم عدم العناية بنتاجهم -

---

(١) محمد إبراهيم أبو سنة ، فلسفة المثل الشعبى ص٦ .

آنذاك ، إذ كان العهد يموج أيضاً بالاتجاهات الصوفية فى القرن السابع الهجرى .

كما يقول أحمد صادق الجمال فى كتاب «الأدب العامى فى مصر» :
إن شرف الدين بن أسد المصرى كما جاء فى «فوات الوفيات» كان شيخاً ماجناً متهتكاً ظريفا خلعاً .. له مصنفات عديدة فى النوادر والأمثال والأزجال ، كما يقول بأنه - أى شرف الدين - كان له نفس سمات الشخصية المصرية وملامحها وهى :

- الفكاهة الحلوة - التريقة كما يسميها العامة فى مصر .
- تقبل الشدة بتحمل كبير للأزمات بمرح وخفة روح .
- يحب الضحك والمزاح .. ويسخر من الرزايا ومن نفسه أيضاً .
- يسلى نفسه ويعزيها ويتأسى بالمرح الذى يشبه الخلاعة ، رغم أنه من شدة الألم ، وكأن فى ذلك عزاء وسلوى [(١)] .

وعوضاً عن الاسترسال فى التأريخ لتدوين الأمثال الشعبية ، يكفينا أن نقول : إنها دائماً وستظل أبداً تعبر عن مكنون الشخصية المصرية بكل تناقضاتها عبر العصور ، وستظل ممتدة - رغم اندثار بعضها أو معظمها - ستظل تصل إلينا بعض الأمثال التى يمتد تاريخها إلى ما قبل القرن التاسع الهجرى ، بل وأيضاً إلى العصور الفرعونية ، وتشير

(١) المرجع المشار إليه ، ص١٨٢ ، ١٨٤ .

إلى ذلك عدة مراجع يقول أحدها ان بعض المصريين القدماء أمثال (بتاح حتب) قد جاء بحكم وأمثال شبيهة أشد الشبه بما يردده الناس حتى وقتنا الحاضر . مما يدعم الاعتقاد بأن تلك القوانين الخالدة تعتبر خلقاً عاماً للجماعة يجب الحفاظ عليه (١) .

وتؤكد دكتورة فاطمة المصرى أنها عندما درست موضوع الأمثال وفقاً للمنـهج التـاريخي عجبت إذ تبينت : أن كثيـراً من تلك الأمثـال قد نطق به حكماء الفراعنـة أمثـال أمحتب وجاءت على ألسنة آلهتهم وكهنتهم (٢) .

وتؤكد ذلك أيضـاً دكتـورة نعمـات فؤاد إذ تشـير إلى أن من حكم أمينموبى (لاتقولن لا أحمل خطيئـة فليس بين يدى الله إنسان كامل) (٣) وهو نفس المعنى الذى يلخصه المثل الشعبى «ألكمال لله وحده» ، أو «الحلو ما يكملش» .. وغير ذلك كثيـر مما سنتعرض له فيما بعد .

هذا ولابد قبل الدخول إلى تحليل مضمون الأمثال العامية والكنايات العامية أيضاً ، التى قد لا ترقى.إلى مستوى المثل ، الذى يشكل حكمة بليغة ، بل وخلاصة الحكمة ، لابد من تعريف كل منها ،

---

(١) د. فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية . ص٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٢ .

(٣) نعمات فؤاد ، شخصية مصر ، ص٤٩.

فالكنايات العامية التى سأحاول أن أجمعها ، وأحلل مضمونها ، ستجعلنا نقف على مدى بلاغة المصرى في التشبيه وفى الكناية ، فتعبير بسيط بلهجته العامية قد يغنى عن مقال طويل مسهب ، بل هو عبارة تمثل خلاصة القول ، ودقة التشبيه ، وعميق الكناية ، لذلك قبل الدخول إلى مرحلة التحليل ، لابد من وضع تعريفات إجرائية لما هو : المثل العامى ، وما هو التعبير الشعبى ، وما هى الكنايات العامية البليغة التى يجب أن ترصد ، وتحلل وتقوم مضامينها ، أسوة بالأمثال ، فإذا رجعنا إلى التعريفات الغربية للأمثال ، سنجد أن «آرثر تايلور» قد عرف المثل بقوله : المثل أسلوب تعليمى ذائع بالطريقة التقليدية ، يوحى فى أغلب الأحيان بعمل ، أو يصدر حكماً على وضع من الأوضاع [1] ، ويحدد هذا الباحث الغربى أركان وملامح المثل الشعبى بأنه يتميز بالاختصار ، والتنغيم ، والمجازية في الأسلوب ، والواقعية في صوره البلاغية .

أما فريدريك زيلر فقد حدد خصائص المثل الشعبى فى إطار تعريفه للأمثال الألمانية عام ١٩٢٢ بأنها أوجز الأشكال الأدبية وحددها فى نقاط أربع هى :

١ – ذو طابع شعبى .

٢ – ذو طابع تعليمى .

---

(١) راجع أحمد رشدى صالح ، الأدب الشعبى .

٣ – ذو شكل أدبى متكامل .

٤ – يسمو عن الكلام المألوف رغم أنه يعيش فى أفواه الشعب (١).

وتضيف إلى هذه الخصائص د. فاطمة المصرى ثلاثة خصائص أخرى هى :

١ – أنه خلاصة لتجارب الإنسان ومحصلة لخبرته .

٢ – يتمثل فيه جمال الأسلوب من إيجاز وبلاغة .

٣ – يوجه إلى فكرة صحيحة أو تجربة صادقة (٢) .

أما إبراهيم أبو سنة فقد وضع تعريفات عدة للأمثال الشعبية ، خلال تناوله لفلسفة المثل الشعبى ، فهو يراه – كأى مظهر من مظاهر الفكر الشعبى «موقف صادق يختزن وجهة نظر . قد لا تكون في الامتداد الأيديولوجى السليم ، ولكنها تحمل غبار التجارب الاجتماعية المادية ، والمثل كتعبير يصوغ الموقف المادى بلا وساطة نظرية» (٣) ، والمثل عنده هو «تاريخ وفلسفة هذا الشعب» (٤) ، وهو أيضاً «حكمة شعبنا وفهمه للحياة» (٥) ، وهو «حقنة مورفين حالمة» (٦) ، ذلك لأنه

---

١) راجع د. فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية ، ص١٠٢ .

(٢)المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٣) إبراهيم أبوسنة ، فلسفة المثل ، ص١٠ .

(٤) المرجع السابق ، ص١٢ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٧ .

(٦) المرجع السابق ، ص١٥ .

طافح بالمعانى المواسية والمثبطة والتواكلية ، وهو يكاد «يكون موعظة شعبية وقورة» (١) ، وهو أخيرا «فلسفة شامخة تتصايح فى جوانبها آلام القرون وحكمة الهزيمة» (٢) .

وإذا استرسلنا فى محاولات التعرف على آراء الباحثين الغربيين ، وأيضاً العرب فلن ننتهى ، لكننى من خلاصة كل ما قرأته عن الأمثال الشعبية - عربية كانت أم أجنبية - استطيع استخلاص عدد غير قليل من الخصائص ، والصفات ، والميزات ، التى يتميز بها المثل الشعبى ، والتى جعلتنى بحق أعتبره أصدق ، وأقرب ، المأثورات التراثية الشعبية تعبيرا عن سمات الشخصية المصرية ، بإيجاز معجز ، ويصدق معبر ، وهو الطريق الأمثل لقياس عوامل الثبات والتغير في المجتمع المصرى ، عبر سنوات تقدمه وتطوره ، وطرحه لقيم معينة جانباً ، وتمسكه بقيم أخرى ، عبر الأزمان والحقب ، كما أنه من خلال دراسة الأمثال - كتراث يتميز بالعراقة - يمكننا التعرف على الحياة الفكرية والروحية ، والاجتماعية لأجدادنا ، ومعرفة عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، ما كان سائدا منها وما لا يزال ، وما تلاشى واندثر مع الأيام ، ومن خصائص المثل الشعبى التى توصلت إليها من كل ما قرأت :

- سهولة الحفظ والتداول والشيوع .

(١) المرجع السابق ، ص١٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص٢٢ .

- الصراحة والواقعية .

- الشعبية أو العمومية والقرب من عامة الناس ، ومخاطبة وجدانهم.

- العراقة والقدم .

- التعبير بصدق عن الحياة فى وجهيها المثالى الجاد والهزلى المستهتر .

- معالجة المواقف - على اختلاف - كل وفقا لما تتطلبه .

- البلاغة والدقة فى التشبيه والتكنية لغويا .

- الثراء اللغوى ، والقدرة على الاشتقاق من لغات أُخرى .

- استخدام السجع والتنغيم - مما يساعد على سهولة حفظه .

- الإيجاز السهل الممتنع أو الاختصار المحكم .

- المباشرة والجرأة فى تناول الأمور بوضوح .

- تلخيص التجربة والخروج بحكمتها وفلسفتها .

- النضج الفنى فى استخدام الرمز الموحى .

- القدرة على تبنى وجهتى نظر متباينتين .

- القدرة على البقاء خارج الخصائص الزمنية للأحداث .

- الفهم الواعى لكل العلاقات الاجتماعية من وجهات نظر مختلفة .

- التفلسف العميق المتسم بالبساطة والتلقائية .

- القدرة على رسم الواقع الفعلى دون محاولة الارتقاء عليه أو تزييفه أو تزيينه .

- التعبير عن كل فئات الشعب على اختلافها ، وتمثيلهم جميعاً .

- الاحتفاظ بروح إيمانية عالية تعين على الاستمرار والتحمل .

- القدرة على البقاء والديمومة .

- الاشتمال على معارف شتى .

- القدرة على التأثير فى النفس والحث على الانفعال والفعل .

- قوة الإلزام التلقائى غير القسرى التى لا يمكن تجاهلها .

- القدرة على التعليم ، وتأكيد القيم ، والنصح ، وتوجيه السلوك .

- فالمثل أرقى من أى كلام عامى رغم أن مفرداته كلها عامية .

وبعد ، فالأمثال الشعبية أيا كانت تعريفاتها أو خصائصها ومميزاتها ، فهى بلاشك ثروة شعبية تمثل دستوراً للحياة بكل جوانبها ، وهى تؤثر فى هذه الحياة وتنظمها بقدر ما تعكسها ، وتعكس ما هو سائد فيها من عادات وتقاليد ومفاهيم ، وما يتصف به صاحب هذه التقاليد من سمات شخصية ، ولعل ذلك ما جعلنى أومن بأنه الأداة المثلى للتعرف على سمات الشخصية . وقبل الدخول فى الدراسة والتحليل لابد من الإشارة إلى أن المثل الشعبى يفوق غيره من الفنون الشعبية الأخرى فى أمر مهم ، إذ لا يتطلب انتشاره أداة أو واسطة ،

فهو لا ينتشر عن طريق نص مكتوب أو مكان محدد أو زمان بعينه ، أو موسيقى .. أو وسيلة أو واسطة اتصال غير اللسان والأذن .. فهو يتردد فى كل مكان وزمان .. وعلى كل الألسنة ، وتسمعه كل الآذان ، دون وسيط ، ومع ذلك فالمثل قد أصبح جزءاً متضمناً وداخلاً وفاعلاً فى معظم الفنون الشعبية الأخرى ، ومساهما فيها ومضيفا إليها .. فالموال والملحمة والأسطورة - بل وحتى الحدوته - لا تخلو من مثل شعبى يتردد على ألسنة أبطالها أو مردديها ، كما أنه فى العصر الحديث .. لا يخلو حوار درامى فى أى من وسائل الإعلام من إذاعة وتليفزيون ومسرح وسينما .. من مثل شعبى أو عدة أمثال .. بل وحتى الكتابات القصصية والروائية والصحفية لا تخلو منه ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ولذا اعتمدته وسيلة لدراسة الشخصية المصرية .

الفصل الثالث
الدراسة التطبيقية
سمات الشخصية من الأمثال العامية

لعل كل ما ورد فى الفصلين السابقين عن سمات الشخصية المصرية، وتعريف بالأمثال الشعبية وخصائصها يصلح أن يكون مقدمة نظرية تمهد لفهم المرتكزات التى ستبنى عليها الدراسة التطبيقية للأمثال العامية، بهدف التعرف على أبرز سمات الشخصية المصرية، التى وضحت من مضمون الأمثال الشعبية، وعكست القيم والمعتقدات المصرية، بل وأخلاقيات المصرى وسلوكه فى كل المواقف اليومية، وتصرفه فى مواجهة المشاكل، والحلول التى يقترحها أو يمارسها حيال ما يجابهه من معضلات، فيما يتعلق بذاته وعلاقته بنفسه، أو علاقته بالآخرين ، أيا كانت طبيعة هذه العلاقات ومدى توثقها أو قربها منه، وسواء كانت أمورا تتعلق بالمجتمع المحيط به كعلاقات قربى أو نسب أو صداقة أو جوار، أو علاقات تتعلق بمشاكله النفسية، وما يعانيه من قلق

أو توتر، أو كبت، أو قهر أو ظلم، أو خوف، وكيف يجابه كل هذه العلاقات سواء مع الغير، بالمحبة أو العداء أو التعاون والمشاركة، أو النزاع والشجار، وأيضا كيف يجابه مشاكله النفسية بالانطواء أو التحمل والصبر، أو الاستعلاء على المشاكل، والسخرية منها أو التفكه عليها.. كما ستتعرض لسلوك المصرى حيال حياته كلها، وما فيها من قدر غير محدود من الإحباط والخذلان من الغير، أو من قدره ونصيبه من الدنيا، ومظاهر هذا السلوك المنتمى إلى الخير أو الشر، الصدق أو الكذب، الصراحة، أو النفاق والمراء، والخداع، الأثرة والوفاء، الحذر والخوف، والتستر والخجل، وتحمل المسئولية أو الإتكالية والتواكل والكسل، ناهيك عما سنتعرض له من مجالات كانت مضربا للأمثال المصرية، عبرت بأبلغ ما يكون التعبير عنها وهى تلخص مفهوم المصرى للحياة وتقلبها ، والموت كمصير حتمى ، والمعاملات الاجتماعية والاقتصادية. وسنرى كيف لم يترك المثل الشعبى شاردة أو واردة لما يلخصها فى مثل بليغ ، لا يضم بالضرورة حكمة ما أو خلاصة تجربة لكنه يكون أحيانا مجرد سخرية أو فكاهة، تلخص وجهة نظر المصرى فى هذا الأمر أو ذاك، وهو بذلك يوجه سلوك الأفراد دون تلقين مباشر، ويصل بالفعل إلى هدفه ومرماه بدقة لا تبارى ، وبأفضل من مائة نصيحة أو توجيه مباشر.

هذا وسوف نسير فى عرض وتحليل كل تلك الموضوعات التى طرحتها الأمثال الشعبية المصرية، وفقا لما يقتضيه المنطق تعبيرا عن الذات المصرية، ورؤية المصرى لبلده ولذاته، وننطلق من هذه الذاتية بكل معالمها إلى العلاقات، فالسلوكيات.. فالرؤية المصرية للقيم، والعموميات المطلقة. ولذا نبدأ بما ذكرته الأمثال الشعبية عن مصر والمصريين وهو ما سنطلق عليه تسمية:

مصريات

المصرى يعتز كثيرا ببلده .. ولذلك لم يكن يرحب بالسفر أو الهجرة حتى وقت قريب، بل لعل ما نراه الآن من هجمة شديدة على السفر للعمل فى الخارج أو الهجرة، مرده إلى الظروف الاقتصادية الضاغطة على الأغلبية العظمى من المصريين، خاصة قطاع الشباب الذى تحول ظروفه المادية دون الأمل أو الحلم- ولا نقول تحقيق الحلم .. أو مجرد الخطو نحو تحقيقه - بالإضافة إلى الإحباط الذى تعانيه الأغلبية أيضا، نتيجة لما ألم بالمجتمع المصرى حاليا أكثر من ذى قبل من تفشى المحسوبية والوساطة والرشوة.. ولا نقول انها سلبيات جديدة بل هى قديمة.. كانت كامنة، أو غير محسوسة بهذا الشكل الفج، ولم يكن من يمارسها يجرؤ على أن يجاهر بها بهذه القحة.

ولعل أهم ما جعل الناس تشعر بالإحباط فى مجابهة هذه الآفات..

هو الكثرة العددية التى قللت من فرص الناس فى الحصول على عمل، أو فى إيجاد فرصة ترق ، أو تقدم، أو ظهور فى أى مجال، فالقمة أصبحت مزدحمة بشكل لا يتيح فرصة لأنصاف الموهوبين، ولا حتى للموهوبين الذين لا يملكون السند ، الذى يدعمهم، ويأخذ بيدهم ويقدمهم.. ولسنا هنا بصدد تقويم أسباب ترحيب المصريين الآن بالسفر والسعى له.. ولكن نريد فقط التأكيد على أن المصرى فى الأصل كان حريصا على ألا يترك مصر لأى سبب، بل لم تكن تخطر بباله أصلا فكرة السفر.. وحتى من تضطرهم الظروف الآن للسفر والغربة، يتأكد الملاحظ لحديثهم ولسلوكهم، أنهم يعيشون فى الغربة ومصر بداخلهم.. يدخرون لينفقوا فيها، ويعملون بدأب على أمل العودة والاستقرار والاستمتاع فى مصر.. والبناء فى مصر، والخيلاء بما يملكون على أرض مصر.. فالمصرى فى الغربة يعد طول العام ليوم بعثه.. يوم يعود إلى وطنه .. فالجديد يحتفظ به ليرتديه فى مصر.. والجميل يحمله إليها.. ويمارس شهوة الاقتناء الفرعونية المتأصلة فى أعماقه، انتظارا ليوم يبعث من جديد فى أرض مصر .. وهو يعتبر حياته خارجها مرحلة انتقالية ، وليست استقرارا. وهو فى أحاديثه يتفكه على أهل البلاد التى يسافر إليها، ويسخر منهم، ويستعلى بذاته - ولو بطرف خفى - على كل ما يمارسونه .. فهو يدرك قيمته ومعدنه، ويعتبر

احتياجه إليهم انقلابا فى الأحوال غير منطقى.. والحديث يطول إذا ما استرسلنا في تفصيل مشاعر، وتصرفات المصرى بعيدا عن مصر .. وهو ما سنتحدث عنه فى إطار تناول موضوع كراهة المصرى للغربة، وحبه للاستقرار.. لكنا نذكره هنا.. ليكون مدخلا للحديث عن رؤية المصرى لمصر، كما وضحت فى أمثاله الشعبية التى تقول:

- مصر أم الدنيا.
- مصر المحروسة.
- عمار يا مصر.
- عظيمة يا مصر.
- إللى بنى مصر كان فى الأصل حلوانى.
- والذوق مخرجش من مصر (الذوق ما فتش باب النصر)
- مصر أم الذوق.

فالمصرى فى الأصل معتز ببلده، وبمصريته، فهو يراها أحلى وأغلى بلاد الدنيا، وأعظمها، وهى عامرة ، ومحروسة دائما، وأن أهلها يتميزون على من عداهم بالذوق، الذى لم يخرج منها إلى غيرها.

ويعبر المصرى أحيانا عن رؤيته لغيره من الشعوب.. بل ولأقرب الشعوب إليه بسخريته المعهودة قائلا:

- العرب جرب.

– كله عند العرب صابون.

ومع ذلك فالمصرى بروحه الفكهة التى تسخر من الآخرين لا يتوانى عن نقد ذاته بقسوة، سواء بوصفه لكل الشعب المصرى بأنه «تجمعهم بطبلة، وتفرقهم بزقلة»، أو «شعب بزرميط»، أو لتقسيمه لكل فئة أو جماعة والسخرية منهم على حدة، ولعل أشهر أمثاله وأقواله فى هذا الصدد ما يطلقه على أهل كل محافظة من أمثال نورد كنموذج لها:

– المنوفى لا يلوفى ولو أكلته لحم الكتوفى.

– إذا أخذت من الحمار صوف تأخذ من المنوفى المعروف.

–ماية مالحة ووشوش كالحة (كوصف لسكان الساحل).

– جوز ابنك لدمياطية ، ولا تجوز بنتك لدمياطى (لشهرته بالحرص).

– يا مريحه العازب يا منصورة .

– إسكندرية مارية .

– ما حوالين الصعايدة فايدة .

– كل شئ ييجى من الصعيد مليح إلا رجالها والريح (لشدتهم).

– شرقاوى كريم وعبيط .

ذلك عن رؤية المصرى لبلده ، ولشعبه كُلاً وجزءا ، ولمن يحيطون به.. فماذا عن سماته وخصاله الحقيقية التى عبر عنها فى أمثاله؟

الأمثـال كثيرة ، وعبـرت عن آلاف السمات ، ولكنا سنتتبـع أبـرز السمات وهى التى لا خـلاف عليهـا البتة بين جميع الباحثين وهى بداية:

الفكاهة والسخرية

حب المصرى للفكاهة، وخفة روحه أمر لا خلاف عليه، وهما دافعه للسخرية اللاذعة والتهكم حتى في ساعات الجد والألم.. فهو يسخر من نفسه، ومما يصيبه، وكأنه يستعلى على المحن، بأسلوب يبدو للعامة وكأنه وسيلة إضحاك، وإن انطوى على تلميحات لاذعة ، تسخر من الحياة ومن سلوك المجتمع ، وتنتقده بشدة، قد تصل إلى حد الفحش أحيانا ، بهدف التأثير فى النفس بعنف، وكأنها دعوة للرفض والتعبير، وبالطبع يسخر المصرى من ذاته أيضا فيما يسميه نقاد الفنون والآداب الشعبية «بالتحامق» (*) بأسلوب المضحك المبكى، وذلك ما جعل الدكتور محمد كامل حسين يعلل ظهور الخلاعة والمجون فى أقسى فترات المعاناة المصرية من العنت والقهر ، فى حين لجأ بعضهم إلى الاتكال على الله والزهد فى الحياة الذى يصل إلى حد التصوف، مما سهل على الصوفية نشر مبادئهم. ومع ذلك كله لم يترك المصريون لهوهم ومجونهم وهم فى هذا الضيق الشديد وهذا شأنهم دائما فى كل أزمة تقابلهم لا

(*) راجع أحمد صادق الجمال، الأدب العامى فى مصر، ص ٨٣ : ٨٥.

يجدون متنفسا لهم من الهم والكرب إلا بالمجون والفكاهة [1]. ولعل فترات القهر والبطش التى عانى منها الشعب المصرى، هى التى أنتج فيها معظم تراثه الشعبى، وخاصة الأمثال الشعبية التى عبرت عن مشاعره أصدق تعبير، على لسانه أو على لسان بعض الشخصيات التى يصطنعها، أو هى موجودة بالفعل ويصنع على لسانها ما يريد قوله كشخصية «جحا» أو «أبو نواس» كتعبير عن الظرف والتفكه - أو حتى التهريج - ولعل لجوء المصرى إلى هذه الحيلة لوضع ما يريد قوله على لسان شخصيات تراثية أو تاريخية، يعد شكلا من أشكال الحذر والخوف، إذ أن إطلاق الحكمة الشعبية أو المثل الشعبى على لسان هذه الشخصيات قد أكسبها قوة.. مع تجهيل لقائلها الحقيقى زيادة فى الحرص ، ولعل هذا التجهيل هو ما أعطى المثل الشعبى الفرصة للتعبير بحرية وصراحة لا تتوافر لغيره من الفنون المعروفة المؤلف.. أو الفلسفات الكلاسيكية التى تنسب لواضعيها.

وتقول الدكتورة نعمات فؤاد: إن البشر من أسرار الشخصية المصرية فهو يغسل بحرا من الهموم، وإن الشعب المصرى يطرب ويضحك ويتفكه فيحسبه الجاهل به سهلا وهو صعب (*)، وأتفق

---

(١) دكتور محمد كامل حسين ، دراسات فى الشعر ، ص ١٥٣.

(*) راجع نعمات أحمد فؤاد، شخصية مصر.

معها فى ذلك، لأن المصرى البسيط الذى قد يتبادر للذهن أنه غير عابىء بصروف الحياة.. يضحك منها ويتفكه عليها، نجد ما يصدر عنه من سخرية فى أمثاله - بل وفى شتى فنونه الشعبية - مليئا بالشجن والحزن.. حتى لنشعر وكأن لسان حاله يقول: «شر البلية ما يضحك»، وهو بالفعل يلجأ للسخرية والفكاهة هروبا من البكاء، وانتصارا على البلاء ، واستعلاء على الألم، فالمصرى يتفكه فى أسوأ الأحوال، ولعل أقرب مثل من التاريخ المعاصر للتفكه المصرى على المصائب.. ما خرج من الجعبة المصرية من نكات فى الفترة التى أعقبت نكسة يونيو ١٩٦٧م، ففى هذه الفترة بالذات، نشطت البديهة المصرية ، لاستخراج النكات اللاذعة، كما كان التحامق على أشده فى مصر، فترة حكم المماليك بكل ما فيها من قهر، وقسر، وطغيان.

هذا ويتفق الجميع على أن الشعب المصرى ساخر بطبعه، وبحكم ظروفه، والمصرى لا يسخر فقط فى أمثاله.. ولكن له أسلوبا آخر أشد قسوة هو النكات.. ولعل أبرزها النكات السياسية التى يسخر فيها المصرى أحيانا من نفسه ، ويشير عادل حمودة فى كتابه «النكات السياسية» إلى إصرار صلاح حافظ على أننا نسخر من أى شئ ومن كل شئ بغض النظر عن علاقتنا به، بل إننا لا نتردد أحيانا فى

السخرية من أنفسنا.. قائلا: اشمعنى هيه لا لكنه يستدرك فيقول: واذا كنا سخرنا من انفسنا فليس معنى ذلك أننا مختلفون معها.. أو أننا نكرهها[1] هذا ويرى عادل حمودة أننا شعب (ابن نكتة) والسخرية تحتل ثلاثة أرباع مزاجنا القومى[2] .

ولعل النكتة الآن هى التى تحتل الصدارة فى مجال السخرية أكثر من المثل الشعبي.. فقريحة المصرى الحديث لم تعد تجود بالجديد من الأمثال الشعبية الساخرة التى تلخص الحكمة.. بل كل ما تجود به هو النكات اللاذعة، وبعض العبارات المستحدثة التى لا ترقى إلى أن تصير مثلا.. لكنها تشبيهات وكنايات شعبية موجزة تكتسب مدلولها بالتداول، وتتميز بالإيجاز المعجز ، فهى لا تزيد على كلمة أو كلمتين على الأكثر.. فهو يصف المحسوبية والوساطة بكلمة «كوسة».. واكتسبت هذه الكلمة مدلولها بين العامة والخاصة دون نزاع، وبين كل فئات المجتمع المصرى.. حتى الريفي.. أو كلمة «همبكة» للتدليل على الشخصية التى تملأ المكان حركة دون فعل حقيقى مجد.

ولعل أخطر ما يؤخذ على المصرى وسخريته حيال الأزمات العنيفة، وسخريته من ذاته أنه يكتفى بالسخرية من الشيئ أو الشخص أو الأزمة، ويضحك ملء شدقيه.. ويسعى لنشر ما يطلقه من سخرية

---

(١) عادل حمودة ، النكتة السياسية ، ص ١٦٢.

(٢) النكتة السياسية ، ص ١٥

في شكل مثل أو تعبير سيـار أو نكتة .. ولسـان حاله يقول: «شر البلية ما يضحك».. ويكتفي بذلك وكأن السخرية قد حلت الأزمة.. أو غيرت الأمـور من حـال إلى حـال غير مدرك أن السخـرية ليست وسيلة تغيير، ولا طريقا إلى حياة أفضل.. وذلك يعنى أننا شعب غير مدرك للعواقب.. وذلك في تصورى هو السلبيـة الأسـاسية للسخرية المصرية.. ومكمن الخطـر فيها، إذ هى وسيـلة تفـريغ لشحنة من الكبت والقهر والحزن، يكتفي بها المصرى ويستعيض بها عن عمل فاعـل مغير.. والغريب أن هذا هـو دأب الإنسـان المصرى منذ الأزل فقد لاحظ عبد الرحمن بن خلـدون ذلك منذ نزوله مصر وقال: أهل مصر كأنهـم فرغـوا مـن الحسـاب.. أى كأنهم تجاوزوا كل ما هو جاد.

أما تلميذه المقريزى فكان أشد صراحة منه عندما قال:

من أخلاق أهل مصر الإعراض عن النظر في العواقب .. والانهماك في الملذات والاشتغال بالترهات.. وهم بارعون في الملق والبشاشة إلى حد التفوق على كل من تقدم ومن تأخر(١) .

هذا ويلاحظ أحمد أمين أن أشد الناس بؤسا وأسوأهم عيشة وأقلهم مالا أخلاهم يدا أكثرهم سخرية، وهم صناع النكات على المقاهى الشعبية، فابن النكتة بينهم محبوب مقدر، يفتقد إذا غاب.

---

(١) أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، مكتبة النهضة المصرية ، ص ١٠.

ويعلق على ذلك عادل حمودة قائلا إنه الألم إذا مازاد على الحد انقلب إلى هـزل والتراجيديـا اذا ما تجاوزت الحجم انقلبت إلى كوميديا [١] .

إنها طبيعة المصرى وفطرته التى فطره الله عليه.. ولم تتغير منذ الأزل.. بل تزداد حدة فى فترات القهر.. فالسخرية اللاذعة تحمل فكرة ذكية، ولغة متفلسفة، وخفة ظل وقدرة وكفاءة على التخيل.. والدليل على تمكن المصرى من السخرية وصف هيرودوت لمصر والمرح والمجون الذى كان الأجداد يمارسونه فى الأعياد المقدسة، ونقله لمقولة الشاعر الرومانى ثيوكريتوس قبل الميلاد بحوالى مائتى عام من أن المصريين شعب ماكر لاذع القول روحه مرحة [٢] .

ولكن.. مم يسخر المصرى؟ وعلى ماذا يتهكم؟!

، سنجد أن المصرى ساخر بصفة عامة فى أمثاله، لاذع فى اختيار لفظه، وفى وجه التشبيه أو الكناية، مع استخدام للرمز بشكل أكثر من رائع.. فهو يذكر شيئا ليعبر عن موضوع أو شئ آخر تماما .. ومن أهم الموضوعات التى سخر منها المصرى- الذى يتوسم فى ذاته الذكاء والفطنة - سخريته من الحمق وقلة الحيلة، ومن عدم تقدير الغير له ولقدراته، ومن التطاول عليه، ومن التسيب والإهمال، ومن التكبر الكاذب

---

(١) عادل حمودة ، النكتة السياسية ، ص ٦٢.
(٢) صقر خفاجة، هيرودوت يتحدث عن مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧ ص ١٦٠.

والادعاء، ومن الزهو والخيلاء والاهتمام بالمظاهر، ومن العمل غير المجدى وانقلاب الهدف، وهو يسخر ويتهكم على كل ذلك، ويشمت فى نتائج هذه الأفعال والتصرفات، معلنا عن ذلك أحيانا بكثير من الاستهانة والاستهتار، التى قد تصور المصرى لأول وهلة إنسانا يضرب عرض الحائط بكل القيم، فهو من قال مستهينا بكل شئ :

- إللى يعرف أبويا يروح يقوله . واللى كاتب كتابى يروح يحله .
- ما بان منى زكاة عنى .
- إسرق وصدق يا عبد الله.
- إللى راح راح يا قلبى.
- ضربوا الأعور على عينه قال خسرانة خسرانة.
- السجن للجدعان.
- السكران سلطان زمانه .
- المجانين فى نعيم، أو خذوا الحكمة من أفواه المجانين.
- إعمل ودن من طين والثانية من عجين .
- طظ يا عاشور.
- كله محصل بعضه.
- علقه تفوت ولا حد يموت.
- الشقى عمره بقى.

- الرشوة حلت عمة القاضي. أو الدعوة الزور تفتح كيس القاضي.
- إرشوا تشفوا.
- حاميها حراميها.
- إيش على بال القرد من سواد وشه (أو حمار ....).
- قالوا للقردة اتبرقعي قالت دا وش واخد على الفضيحة.
- يفتي على الابرة ويبلع المدرة. أو سألوا القاضي الحيطه اتنجست قال تتهد وتتبنى سبع مرات.. قالوا دى الحيطه إللى بيننا وبينك.. قال أقل الماء يطهرها.

وقد تبدو هذه الأمثال معبرة عما يمكن أن نسميه الآن «الاستبياع»، فلا يهم شئ طالما «كلها محصله بعضها» فالجنون هو السائد، والشقاوة لن تفنى العمر، و«السكران سلطان» فلا تحريم للرشوة أو السرقة، أو العرى والفضيحة، ومرحبا بالسجن، طالما ساد اليأس، وشعر المرء أن من راح لن يعود، وأنها «خسرانة خسرانة» ومن يستطيع المحاسبة فليحاسب ، فلن نسمع لنصح ولن نطيع.. وكل هذه الأمثال قالها المصرى لاشك فى أشد حالات يأسه من أى إصلاح، حينما وجد القاضي مرتشيا، وحامى الحمى حرامى ، والمفتى يغير ذمته وفتواه لصالحه.

والمصرى يطلق تشبيهات أو تعبيرات يصف بها المرتشين ومن يفتون

زورا واللصوص فيقول: كرشه واسع ذمته واسعه أو ذمته أستك أو غير ذمته» وهى على أى حال تعبيرات مستحدثة قد تصير مثلا مع الأيام.. وهى كناية أو تشبيه.. لكنها لا تقدم أكثر من الوصف.. فهى ليست كالمثل لها مقدمة ونتيجة.. أو تعرض لمقدمات ثم نتائج أو توابع وجوابات للشرط.

واذا كانت بعض الأمثال تعكس لونا من الاستهتار يتمثله المصرى يأسا أو تفكها مريرا من صيرورة أحواله، فيقوده ذلك إلى الاستهتار بالقيم، ويكملها بالاستهانة بالأشياء، والأشخاص والأعمال، فلا يأبه لشئ ولا يبالى بأحد، ويستهين بالجميع فنجده يقول:

- الجنازة حارة والميت كلب.
- الميت مش مستأهل القراية.
- مفيش عليه الطلا.
- ما حد بيجى من الغرب يسر القلب.
- ياما جاب الغراب لأمه.
- جلاب الكحل الزين.
- يعنى فتح عكا.
- جايب رأس كليب.
- يعنى جاب الديب من ديله.

- بعجر أغا ما فيه إلا شناب.

- يعنى بضاعة والناس عليها جواعى.

- - لو كان فيه خير ما كان رماه الطير.

- يا سلام شفت النبى وأنواره.

- كسبنا صلاة النبى أى ليس ربحا طالما أنه غير مادى.

ويبلغ اليأس مبلغه بالمصرى، فيتمادى أكثر، بتعبيرات قد لا ترقى إلى حد أن تكون مثلا.. لكنها تعبيرات وتشبيهات متداولة بين العامة، يمكن أن نسميها تعبيرات شعبية شائعة ومنها:

- إخبط راسك فى الحيط.

- مطرح ما تحط راسك حط رجليك.

- بلهم واشرب ميتهم.

- اللى يزعل يشرب من البحر.

- هم شاريين اسلافنا.

- هو أنا الحيطه الهبيطة (أو الواطية)؟!

- وعلى من ده بإيه؟!

- إتفلق.

- أعلى ما فى خيلك إركبه (ويقولها المصرى القوى مستهينا بغيره)

– أدى دقنى لو حصل (تعرب عن اليأس).

– أقطع دراعى لو حصل .

– ابقى تف على وشى لو حصل .

– إن كنت ميت إبقى «شخ» على تربتى.

– إبقى قابلنى لو حصل.

– سعد باشا قال مفيش فايدة (ويضيف إليها البعض، غطينى وصوتى يا صفيه – بقصد صفية زغلول).

هذا ويسخر المصرى أيضا ممن لا يقدرونه حق قدره ويقودهم ذلك إلى إنكار تميزه ، فيقول فى عدم تقدير قومه لقدراته :

– مغنى الحى لا يطرب.

– لا كرامة لنبى بين قومه.

– الشيخ البعيد سره باتع.

– إللى تملكه اليد تزهده النفس.

– زى القرع يمد لبره.

وعن التطاول عليه، والناتج أيضا عن عدم تقدير الغير له، وعدم معرفتهم بأقدارهم يقول:

– سكتنا له دخل بحماره.

– كلم «القحبة» تدهيك وإللى فيها تجيبه فيك.

- الحيطه الواطيه ينطوا عليها الكلاب.

- أول ما شطح نطح.

- خلى لك الجو (وهو مأخوذ عن المثل العربى القائل (خلا لك الجو فبيضى وأصفرى).

هذا وتكون السخرية المصرية أشد ما يمكن حينما يتفكه المصرى على الحمق والحمقى، وقليلى الحيلة أو من لا يحسنون التصرف .. فيقول المثل:

- من قل عقله تعبته رجليه.

- رزق الهبل على المجانين.

- الحاجة فى السوق تقول: «نينى نينى فين الخايب ييجى يشترينى.

- ماشافوهمش وهما بيسرقوا شافوهم وهما بيتحاسبوا .

- لما تتخانق الحرمية يبان المسروق.

- دبور زن على خراب عشه.

- لو جابوا للمجنون الف عقل على عقله ميعجبوش إلا عقله.

- رايح لطيز الكلب يشمها .

- خالف تعرف (زى الشريك المخالف).

- إيش دخل طوخ فى مليج.

- إشترى وجع قلبه بإيديه (ألا من يشترى سهرا بنوم - مثل عربى متداول).

- جه للموت برجليه (أتتك بجائن رجلاه).

- أصحاب العقول فى راحه (استراح من لا عقل له).

- كانت قاعده ومرتاحه جابت لها حاحه.

- إللى يوضيهم زى اللى يخريهم .

- الصابونه فى إيد و «النجاسة» فى إيد.

- إللى يقدر يحلها بإيديه ليه يحلها بأسنانه.

- إن طلع العيب من أهل العيب ما يبقاش عيب (أى أن الحمقى لا لوم عليهم).

- قالوا تعرف الهايف بإيه ؟ قال بكلامه . وتعرف الثقيل بإيه ؟ قال بسؤاله .

- فار ما وسعه شقه حط فى قعره مرزبه .

- مخه مركب شمال .

- من عجبك يا فتى تلبس هدوم الصيف فى الشتا .

- عذر أقبح من ذنب.

- يغرق فى شبر ميه .

- ودنك منين يا جحا .

- زود المبلة طين (أو زاد الطين بلة)
- أجسام البغال وعقول العصافير .
- قلة العقل مصيبة .
- قحب ما تقحب ، لكن أفعال القحاب تعمل .
- خربها وقعد على تلها .
- لا منه ولا كفاية شره .
- مش ناوى يجيبها البر (بسلوكه الأحمق أو الأهوج) .
- بيبيع الميّه فى حارة السقايين .
- يدلقوا القهوة من عماهم ويقولوا خير من الله جاهم .
- بيقدم رجل ويأخر التانيه (كناية عن التردد وهو حمق) .
- عين فى الجنة وعين في النار (تقال للأحمق المتردد الذى يضيع الفرص ، ويصفوه بأنه «ملألأ» أو «مخه بيجيب وبودى» .
- كلمة تجيبه وكلمة توديه (أى متردد وودنى وهو لون من الحمق) .
- دوبت هدومك يا هبيل من كتر الغسيل .
- زى الجمل اللى يحرته يبططه (لمن يفسد عمله بحمقه) .
- يكرى على خرطه زى الملوخية .

ومما يسخر منه المصرى فى أمثاله اجتماع الحمقى .. حيث يدرك

بفطرته أن ذلك الإجتماع لن يسفر عن شئ ذى قيمة .. إن لم يجلب الأذى ، وكنموذج لما قيل فى هذا الصدد :

- إتلم المتعوس على خايب الرجا .
- حطوا عيشة على أم الخير .
- أعمى يقول لأعمى صدفة سعيدة اللى اجتمعنا.
- عمية تحفف مجنونة وتقول لها حواجبك سود ومقرونة .
- إتبع البوم يوديك الخراب .
- عايبة بتعلم خايبة ، الأتنين نايبة .

وبالاضافة إلى الحمق وقلة الحيلة ، يسخر المصرى فى أمثاله من التسيب والإهمال ، ويعتبرهما أيضا ضربا من الحمق وسوء التصرف فيقول :

- المال السايب يعلم السرقة .
- المفرط أولى بالخسارة .
- إللى ما يربط بهيمه ينسرق .
- البهيم السايب متروك عرضه .
- فاتت ابنها يعيط ، وراحت تسكت ابن الجيران .
- فاتت عجينها فى الماجور ، وراحت تضرب الطمبور .

ويسخر من الكسل فى أمثال تقول :

- زى تنابلة السلطان يقوم من الشمس للضل بعلقة .
- زى الكلاب يحب الجوع والراحة .
- راس الكسلان بيت الشيطان .
- طيزه تقيله (كناية عن قلة الحركة والبلادة والكسل) .
- أكل ومرعى وقلة صنعة .
- قشش على ميتك تسخن (دور على ..)
- عايز سخام منتوف ومحرمة جنبه .

فالمصرى بطبعه الأصيل يقدس العمل ويسخر من الكسالى ، وسيتضح ذلك عندما نتناول الأمثال التى تتحدث عن قيمة العمل وضرورته أو حتميته : لتستمر الحياة ، فالعمل هو دأب المصرى عبر عصور التاريخ ، وهو مجال إبداعه ، وإن تغير الحال إلى حد ما .

وعوضا عن الإسترسال فى استعراض الأمور التى يسخر منها المثل المصرى ، ويعرض بها ، نعود لنحلل مضمون ما سبق من أمثال فنقول : إنه لو حللنا هذه الأمثال كميا فسنلاحظ أن أكثر ما سخر منه المصرى هو الحمق والحمقى وعدم جدوى إجتماعهم فى أى عمل . إذ يصل عدد المتداول حتى الآن من هذه الأمثال (٤٤) ، وذلك يعد كثيراً إذا ما قيس بعدد الأمثال التى تعكس روح اليأس أو الاستهتار

بالقيم ، التى بلغ عددها (٢٠) مثلا فقط ، إذا استبعدنا الأمثال التى تعبر عن إستهانة المصرى بالأشخاص والأعمال والأشياء ؛ لأنها قد تعبر بوجه آخر عن إعتزاز كل فرد مصرى بذاته ، واستهانته بالآخرين ، واعتزازه بعمله ، والإستهانة بعمل الآخرين ، فهو يرى أن أى عمل مهما كان لن يكون فتح عكا ! وأن أى شئ لن يكون بضاعة نتهافت عليها ، أو شئ عليه الطلا ، بل يسخر منه بتشبيهه بما أتى به الغراب الشؤم لأمه - وكأنه هدية - ولا يخفى ما فى هذا المثل بالذات من رنة سخرية لاذعة وتفكه نادر بليغ .

وإلى جانب السخرية من الحمق والحمقى نجد أن المصرى يسخر بنفس القدر تقريبا من التكبر الكاذب ، والزهو بالمظاهر ، فهو فى أعماقه يعتقد أن الزهو لابد وأن يكون بالأفعال ، وبالجوهر وليس بالمظهر .. وهذا يعكس اهتمام المصرى بالقيمة أكثر من اهتمامه بالشكل أو القشور .. وسنجد أن سخريته من المتكبرين بلا داع تبدو أشد أنواع السخرية ، وأكثرها اقترابا من الفكاهة ؛ لجمعها بين الأضداد والمتناقضات من الأمور ، ومثالاً على ذلك قوله :

- زبال وفى إيده وردة .

- ملقوش فول يدشوه ، جابوا عبد يلطشوه .

- ملقوش عيش ينتشوه ، جابوا عبد يلطشوه .

- عرايا مقفقفين جابوا بعشاهم ياسمين .

- من بره هلالا هلالا ، ومن جوه يعلم الله .

- من بره طق طق ، ومن جوه فاش ويق .

- ملقوش عيش يتعشوا جابوا فجل يدشوا .

- فقرا ويمشوا مشي الأمرا .

- أمه عياشة وعامل باشا .

- بدل اللحمة والبتنجان هات لك قميص يا عريان .

- فقر وعنطزة .

- بواب ومالوش باب .

- عمايم على بهايم (حمير تحمل أسفارا)

- حسنة وأنا سيدك .

- شحات وعايز رغيف طرى .

- زى شحات الترك جعان ويقول مش لازم .

- زى براغيت القنطرة ، عرى وزنطرة (أى تتكبر وتنب من هنا لهناك) .

- زى ديك الخماسين عريان ومزنطر .

- قلة وعامل قناطة .

- سرباتى وإسمه عنبر .

- عريان «الطيز» ويحب التأميز ويقول باب الخمارة منين ؟

- قال ، إيش ناقصك يا العريان ؟ قال الخاتم يا مولاى .

- ميغركش الباب وتزويقه ، بص على نشفان ريقه .

- شحاته بالرومى .

- فجل يا كلاب .

- تحتيهم إفى . وفوقهم إفى ، ويقولوا ريحة إفى .

- إللى شمها هو ابن عمها (يقال لمن يتأفف من شئ هو فيه) .

- من بره رخام ومن جوه سخام .

- الفشر والنشر والعشا خبيزة .

- نفخة وشمخة وبصلة فى الجيب .

- قاعد على نخ وعمال يجخ (النخ فراش كالحصير) .

- كلب أجرب وانفتح له مطلب .

ويقول المثل عمن يتكبر ويفتخر بشئ بعيد ، متمسحاً به ، وهو على أى حال أمر غير مدعاة للفخر :

- زى الأغوات يفرحوا بولاد أسيادهم .

- هش يا دبانة أنا حبلى من مولانا .

- أسأله عن أبوه يقول ، خالى شعيب .

- قالوا للحمار أبوك مين ؟ قال خالى الحصان .

- القرعة تتباهى بشعر بنت أختها .

- ما لك بتجرى ما بتدرى ؟ قال نسيب نسيبى فى الساحل .

- ما لك بتجرى وتشلحى ؟ قالت : مفتاح القوالح معى .

- يا محلى طولك فى إللى ما هو لك ، كمان شوية يقعلوا لك .

وتسترسل الأمثال في السخرية ممن يزهون ويتكبرون غير مدركين لقيمتهم الحقيقية ، موردة للمتناقضين فى أحوال وسلوك البشر .. فتقول :

- أقرع ونزهى .

- غشيم ومتعافى .

- زى الطبل صوت عالى ، وجوف خالى (أى منفوخ على الفارغ) .

- مكسحة وتقول للصايغ تقل الخلخال .

- أخته في الخمارة ، وعامل أمارة .

- إيش كبرك عنه وإنتى بنت عمه .

- إيش إنتى فى الحارة ، يا منخل بلا طارة .

- بعد العركة ينتفخ المفش .

- قالوا للدبة : طرزى قالت : دى خفة أيادى .

- أنا وحشة وأعجب نفسي وأشوف الحلوين تقرف نفسى .

ويرى المثل الشعبى أن الكبر والتكبر ، خاصة فى مجال العمل قد يعطله .. بل إن الكبر أحيانا يضيع الفرص ، ويقطع النصيب ، ويضر بصاحبه ، فتقول الأمثال مؤكدة هذه المعانى بصيغ متشابهة تكرر نفس المعنى :

- أنا كبير وأنت كبير ، ومين يسوق الحمير ؟

- أنا أمير وأنت أمير . ومين بقي يسوق الحمير ؟

- لما أنا ست ، وإنتى ست ، مين يكب الطشط ؟ (أو الدست) .

- الكبر قاتلنا موش بخاطرنا (ويروى أيضا العجب قاتلنا) .

- كبر النفس قطع نصيب .

- زى مرزوق يحب العلو ، ولو على خازوق .

ويدعو المثل إلى عدم الكبر أو الزهو ، فلا مجال لها بين من يعرف بعضهم بعضاً فكل شئ لابد سينكشف ، فيقول المثل :

- بلدنا صغيرة ، ونعرف بعض .

- الشهر تلاتين يوم والناس تعرف بعضها من زمان (أى لا مجال للكبر) .

- نص البلد ما يعجبنى ، وأنا أعجب مين ؟!

- عيشوا عيشة أهاليكم .

- نشفت البركة وبانت زقازيقها .

ويستمر المثل الشعبى يسخر ممن يزهون بأنفسهم على أمور لا تستحق الزهو أو الخيـلاء ، فيسـفه ما يفخرون به ، ويهزأ به ويهم قائلا :

- الطول على النخل ، والتخن على الجميز .
- زى الطاووس يتعاجب بريشه .
- زى الغراب يتعاجب بعوارة عينه .
- كلب أبيض وكلب أسود قال ، كلهم كلاب .
- ما تتهزيشى ما فى الوسط إيشى .
- من عجبه حسه علاه ، ومن عجبه جسمه عراه (*) .
- زى قبور الكفار من فوق جنينة ومن تحت نار .

وينبه المثل إلى أن من يفخر بشئ أو يزهو به لو رأى ذلك الشئ على حقيقته - أى لو أدرك قيمته - لما وجد مـدعـاة لهذا الزهو .. ولذا يقول :

- الكلب إن بص لحاله ميهزش ودانه .
- لو الجمل شاف صنمه كان إندار قطمه .

ومن التعبيرات الشائعة عن الزهو والخيلاء تشبيهات بليغة تعبر عن

(*) يستعمل عادة لفظ بذئ يدل على عضو التأنيث فى المرأة .

مشاعر من يشعرون بتميزهم والمزهوين بأنفسهم ، كالقول :

- خرطة الخراط وإتد قلج مات .

- عامل فرخة بكشك .

- عايق ومتضايق (عايقة ومتضايقة) .

- عامل عنب والباقى فراطة .

- عامل ليمونة فى بلد قرفانة .

- ميعجبوش العجب ولا الصيام فى رجب (من شدة إعجابه بذاته) .

- ابن بارم ديله :

- سبع البرومبة .

- زى قنصل الوز .

- عامل قمع .

- عامل ابو على .

- عامل قعر مجلس .

- قصر ديل يا أزعر (ويقولها المزهو بنفسه لمن يشعر أنهم دونه إذا لاموه على عجبه) .

- يا أرض اتهدى ما عليك قدى ، أو (يا أرض ما عليك إلا أنا) .

ومع أن الأمثـال المصـرية تسخر من الكبر والزهـو كقاعدة .. نراها تدعـو لذلك فى أمور أخرى تستحق الفخر ، وهى : العمل والشرف وما يقدم الإنسان من فضـل وإحسـان ، وفى ذلك تقول الأمثال :

- الشاب بسعده لا أبوه ولا جده .

- فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله (إنما أصل المرء ما قد حصل) .

- الشرف بالهمم العالية لا بالرمم البالية .

ويدعو المثل الشعبى إلى الحفاظ على المظاهر مهما كانت حقيقة الظروف فيقول :

- إملى بطنك بالتبن ، وبل شفايفك بالسمن .

- إمشى على عدوك معرش ، ولا تمشيش مكرش .

هذا ونجد أنه لو قارنا نسبة الأمثال التى تسخر من الزهو والكبر وتقبحهما ، بالأمثـال التي تدعو للحفاظ على المظاهر ولو بالكذب ، سـنجد أن النسبة ٨٠ : ٢ ، فيما عـدا الأمثال التى تبين مواضع الفخر ، التى يجب أن يعتز ويزهو بها الإنسان ، وذلك يدعونا إلى الإشارة إلى أن الإنسان المصرى كغالبية ، متواضع بطبعه ، غير ميال إلى الفخر بل يسخر منه .. وهى سمة تكررت كثيراً ضمن السمات التى

رصدها للشخصية المصرية عدد غير قليل من الباحثين . فالمصرى متواضع بطبعه ، وإن كانت سمة الفخر والزهو من السمات العربية السائدة ، لكنها كما هو واضح من دراسة الأمثال العامية المصرية ، سمة غير سائدة لدى المصريين ، رغم اعتزازهم بذواتهم ، وبكفاءتهم .. إلا أنهم غير ميالين إلي الجهر بذلك ، والتعبير عنه فى أمثالهم ، وبالتالى فى حياتهم اليومية .. لكن كثرة الأمثال التى تسخر من الكبر والزهو والفخر لا شك تعكس أن هذه السمات موجودة فى عدد غير قليل من المصريين ، وإلا لما صدر عن الوجدان الشعبى هذا الكم من السخرية من المتكبرين ، داعيا إياهم إلى ترك هذه السمة ونبذها .. فالمثل الشعبى كان ومازال له دور تعليمى لا ينكر .. وقد جاء هذا الدور بشكل غير مباشر بأسلوب ساخر ، يتفق وطبيعة الروح المصرية المتفكهة المعبرة بسخرية عن كل ما لا يعجبها .. مقومة للمجتمع وأفراده بأسلوبها الخاص . ولعل سمة التفاخر اكتسبت بعد الفتح العربى الإسلامى لمصر ، فاكتسبها المصريون من العرب ، ثم من الترك فى العصر العثمانى .. وظل الوجدان المصرى الأصيل رافضا لها ساخراً منها .. وسيأتى على أى حال تفصيل للفروق بين سمات الشخصية الإقليمية أو الفرعية للمصريين ، وسمات الشخصية العربية

القوميـة ، وما أخذه المصريون عنها وما لم يتسموا به من سماتها السائدة .

واستكمالا لما بدأناه من تتبع للأمور التى يسخر منها المصرى فى أمثاله سخريته ممن يقومون بأعمال غير مجدية ، ولا طائل من ورائها .. فهو يسخر من ذلك ، بل ويظهرشماتة شديدة فيمن يمارسون عملا غير مجد ، بل وأيضا يسخر ممن يقومون بأعمال فتنقلب عليهم . وكنموذج للسخرية من العمل غير المجدى فيما هو متداول من أمثال ومازال يتردد على الألسنة :

– كأنك يا أبـو زيد ما غزيت ، أو (كأنك يا أبو زيد لا رحت ولا جيت) .

– رجع قفاه يقمر عيش .

– رجع يا مولاى كما خلقتنى .

– مين دارى بك يا اللى فى الظلام بتغمز .

– رجع بخفى حنين (وهو مثل عربى متداول بين العامة) .

– يادى الشيلة يا دى الحطة رحت على جمل ، وجيت على قطة .

– أكننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

– آخرة الزمر طيط .

– طلع من المولد بلا حمص .

- بينفخ فى قربة مقطوعة .

- لا طال عنب الشام ولا بلح اليمن .

- عمر التشفيط ما يملاش قرب .

- يا مستنى السمنة من «طيز» النملة .. عمرك ما حتقلى .

- تصوم تصوم وتفطر على بصلة (ويضرب أيضا فى الزواج بعد عزوبية طويلة) .

- يصوم سنة ويفطر على بصلة .

- إياك على الطلـق ده كله يكـون المولود غـلام ، ولا تكنـش بنية وتشـمت الجيـران (وهو يعتبـر التعـب فى إنجاب البنت عملا غير مجد .

- البقرة بتولد والطور بيحزق ليه ؟ قال ، أهو تحميل جمايل .

- طاهرت أنا عمبر قام فرشح سعيد .

- زى جمعية الغربان أولها كاك وآخرها كاك .

- زى اللى رقص على السلالم . لا اللى فوق شافوه ولا اللى تحت شافوه .

- إللى نبات فيه نصبح فيه .

- حلينا القلوع ورسينا وأصبحنا على ما أمسينا .

- المركب أم ريسين تغرق (أى أن العـمل عليها غير ذى جدوى).

أما التشبيهات والتعبيرات الشـائعة عمن يـقومون بعمل غير مجد فتقول لهم ، وتصفهم بعبارات نورد منها على سبيل المثال لا الحصر :

- كان غيرك أشطر .
- أمير وعاقل لا يهش ولا ينش (عديم الفائدة) .
- زى الخيلة الكدابة (أى ذهاب ورواح دون فائدة) .
- لا يودى خبر ولا يجيب أثر (الشائع منها لا يودى ولا يجيب) .
- قاعد ينش (وتضرب أيضا للعاطل المفلس) .
- بيرعى الكلاب بالنص .
- لا له فى الطور ولا فى الطحين .
- لا فى العير ولا فى النفير .
- بنقرأ فى سورة عبس (أى لا جدوى مما تقول) .
- بيدن فى مالطا .
- لا ينفع ولا يشفع .
- لا يحل ولا يربط .

والمصرى دائما يربط بين العمل وجدواه ، وبين قمية الشخص ، أو ما نسميه نحن الآن «المكانة» والشخصية أو قوة الشخصية .. ولذلك تزخر الأقوال والتعبيرات الشعبية بالكثير من التشبيهات للشخص عديم الشخصية ، نجد معظمها ينصب على أن ما يقوم به لا قيمة له ، أو أنه

لا يعمل شيئا مجديا .. وكنموذج لما ورد فى الكنايات الشعبية حول الشخصية ما نورده أيضا على سبيل المثال وليس الحصر ، حيث ان العامية المصرية غنية بالتشبيهات والكنايات المتداولة - القديم منها والمستحدث - والتى لا نستطيع حتى الوصول إلى كنهها أو معرفة مم اشتقت أو نحتت ؟ أو المناسبة التى قيلت فيها ؟ وتدليلا على ذلك نورد صفات الشخص الذى لا جدوى منه أو مما يعمل :

- قاعد زى قرد قطع .
- خايب وخايب ظله (أى لا أمل فيه ولا فائدة منه)
- زى دلدول الأحزاب (أو دلدول فقط بمعنى إمعة أو تابع غير مبادر) .
- زى شرابة الخُرج (وهو اختصار لمثل يقول زى شرابة الخرج لا تعدله ولا تميله) .
- قاعد يقشر بصل (أى عاطل لا يعمل شيئا مجديا) .
- لا شغلة ولا مشغلة (ويقول الشوام لا شغلة ولا عَملة) .
- قاعد زى الشيخ اللى انقطع ندره .
- سكتم بكتم .
- فنجرى بق أو كلام (لمن يقول ولا يعمل بما يقول) .
- طلع على فاشوش .

- قاعد زى العمل الردى .

- زى خيال المآته .

- زى قلته (أو قلته أحسن) .

- وجوده زى عدمه (أو زى قلته) .

- كداب زفة (أى لا عمل حقيقيا له) .

- مهياص أو صبى عالمة (أى لا عمل حقيقيا له) .

- زى الدلو أو الجردل (يحملونه على العمل ولا يبادر به) .

- زى رجل البنطلون (وهو قول مستحدث) .

وباختصار معجز يطلق المصريون كلمة واحدة ، تدل على مئات المعانى ، بدلالة بالغة يتفهمها ، أو يصطلح عليها الجميع ، فهم يصفون بعض الشخصيات بأنها : «هلفوت - حرفوش - فرفور - هفية - دلدول - دُهُلْ - خيخة - خرنج - لوح - لطخ - كاورك (١) » إلى آخر هذه التسميات المستحدثة فى مجملها .. وإن كان لها بالضرورة أصول قديمة ، أو هى تحريف لكلمات ، ومعان ، ودلالات قديمة ، ليس من السهل التعرف عليها ، أو ادعاء معرفة أصولها اللغوية - وهو على أى حال ليس موضوعنا - وإن أوردتها للدلالة فقط على صدق ما أسوقه من آراء .

---

(١) كلمة كاورك كانت نوعا من السجائر عليه صورة طائر أو عصفورة أصبحت توشم بها أصداغ البسطاء أو من يسمونهم «داقين عصافير» أى سذج .

أما بالنسبة لانقلاب الهدف ، أو السعى إلى شئ فينقلب على صاحبه ، أو يخيب ظنه فيه ، فقد عبرت الأمثال عن السخرية من انقلاب الهدف خير تعبير ، وبروح فكاهة متميزة ، تظهر فيها المقابلة بين الأضداد بذكاء نادر ، وتشبيهات غاية فى البلاغة ، وقد احتفظت الذاكرة المصرية بعدد غير قليل من هذه النوعية من الأمثال نذكر منها :

- تيجى تصيده يصيدك .
- طمعنجى بنى له بيت فلسنجى سكن له فيه .
- مزين فتح ، براس أقرع استفتح (ويضرب لسوء الحظ أيضا) .
- قال : يا صياد رميت الشبكة ، طلعت ضفدعة مطلعتش سمكة .
- طلع نقبه على شونه .
- جوزناها تتاخر ، راحت وجابته راخر .
- جت تكحلها عميتها (أو جا يكحلها عماها) .

وتضرب هذه الأمثال أيضا فى توقع الخير فينقلب إلى شر ، أو الاعتماد والاستعانة بأحد ، فلا نجد لديه هذا العون وكنموذج لذلك :

- جبتك يا عبد المعين تعينى .. لقيتك عايز تتعان .
- اتكل على حيطه مايله (أو مسنود .. أو مركون) .

- جيت الأقرع يونسني .. كشف راسه وخوفني ..

- إللي يتكل عليه يبيع هدومه (أو يبيع عياله) .

- إللي تحسبه موسى يطلع فرعون .

- فرحنا بالنيل ، جا النيل غرقنا .

- خيرا تعمل شرا تلقى (ويضرب أيضا في نكران الجميل) .

وعدا السخرية والتهكم .. تضيف الأمثال المصرية لوناً آخر من التفكه المرير .. إلى رصيدها الساخر وهو «الشماتة» .. وفيه يشمت المثل المصرى من أمور كثيرة ، ونتبينها من رصيد زاخز بقى منه ما يلى :

- وقعتم ، ولا حدش سمى عليكم .

- نخنخت يا جمل ، ولا طولتش أمل .

- تروح فين يا صعلوك بين الملوك ؟!

- إللي يشيل قربة مخرومة تنز على ظهره .

- إللي يشيل قفة مخرومة تخر على دماغه .

- ربنا يهني سعيد بسعيدة .

- بقى عبرة لمن يعتبر .

- الحجر الداير لابد عن لطه (أى أن التصدع نتيجة لابد منها)

– مبروك الطهارة يا معاشر الأمارة .

ويتضرر المصرى جدا من الشماتة ، ويعمل لها ألف حساب ، خاصة شماتة الأعداء فيما يصيبه من مكاره ، فيقول :

– شامتة ومعزية .

– عدوتى وعملت مغسلتى .

– الشماتة تبان فى عين الشمتان .

– إللى تعايرنى به النهاردة تقع فيه بكره (أى كله سلف ودين) .

– إيش حدا فيما بدا ياللى كلامك ضرنى ؟! منين شمت الناس ؟ ومنين صالحتنى ؟!!

– يا بخت من بكانى .. وبكى على . ولا ضحكنى . وضحك الناس على .

– حى طلب موت حى .. مجنون يستاهل الكى .(أى لا شماتة فى الموت) .

– ذنبه على جنبه (وتقال شماته فيمن لا يسمع النصيحة) .

ويرتبط بموضوع الشماتة مما يصيب الإنسان موضوع آخر ، ربطت الأمثال بينه وبين الشماتة .. وهو السلف والدين – ليس بمعنى السلف المادى .. ولكن بمعنى أن «الدنيا دوارة» .. وأن ما يشمت فيه

الناس الآن قد يصيبهم غداً ، فلا مفر من ذلك ، خاصة فى الموت والمرض والفقر .. وما إلى ذلك من أمور غير مضمون قدرة البشر على إتقانها ، ويخلص المثل الشعبى المصرى إلى نتيجة ، أو حكمة بليغة، هى خلاصة الحكمة كلها .. وهى أن «كله سلف ودين» وتضرب بمعنى أن كل ما يفعله الإنسان يرد عليه – ولو بعد حين – حتى الشماتة والمعايبة ، والفرح فيما يصيب الناس من مكروه .. وأيضا الأفعال كلها بحلوها ومرها ، فيما يخص التعامل مع الغير .. وسلوك الفرد تجاههم بالخير أو بالشر .. وفى ذلك تقول الأمثال المصرية :

– كله سلف ودين حتى المشى على الرجلين .

– من عايب ابتلى (أو من عاير ابتلى ، ولو بعد حين) .

– كلمة الفم سلف ، ولو بعد حين .

– لا تعايرنى ولا أعايرك .. الهم طايلنى وطايلك .

– عامل تعامل .

– من حفر حفرة لأخيه وقع فيها (عربى متداول) .

– كل عين وقصادها صباع .

– ذنب ناس يخلصوه ناس .

– ربنا بيسلط أبدان على أبدان .

- داين تدان .

- عملك عمالك .

- على الباغى تدور الدوائر (عربى متداول) .

- يمهل ولا يهمل (عربى متداول) .

- الجزاء من جنس العمل (عربى متداول) .

- من حكى لك حكى عليك .

- حط إيدك على عينك . زى ما توجعك توجع غيرك .

- من قدم شيء بيداه إلتقاه .

- حط إشى تلقى إشى .

- من أعمالكم سلط عليكم (عربى متداول) .

- تدوس على ديل القط يخربشك .

- العين بالعين والسن بالسن (عربى مُتداول) .

- إن الله لمخلصان (تُقال شماته فيمن انتقم الله منه) .

- طباخ السم لابد يدوقه .

ودون تفلسف أو ادعاء .. يمكننا القول بأن المصرى يؤمن إيماناً يكاد يكون مطلقاً .. بأن ما يمارسه لابد وأنه مردود إليه يوما ما .. وذلك ما يجعله يتقى الظلم فى سلوكه اليومى خوفا من أن ينقلب عليه ويمارس ضده ، وهو إذا ما أصابته مصيبة ، نجد أن أول ما يتبادر إلى

ذهنه تساؤل ملح مؤداه : «أنا عملت إيه فى دنيتى كى يحدث لى ذلك ؟ «وهو تساؤل يعكس ما لدى المصرى من خشية وتقوى الله .. والإيمان بأنه مخلص الذنوب ، والمنتقم .. ويقودنا هذا الحديث إلى السمة الثانية الأكثر بروزاً فى الشخصية المصرية عبر العصور ... والتى ربما لم تنل منها الأيام .. ولم تغيرها الظروف الإجتماعية والإقتصادية المتعاقبة بل زادتها عمقاً .

التـــدين

— أما عن الســمة الثانية التى أجمعت علـيها معظم الدراسات الخاصة بالشـخصية المصرية، ولم يختلف عليها أحد، فهى سمة «متدين»، فالمصرى فى كل عصــور تاريخـه القديم والحديث متدين، حتى قبل ظهور الديانات الســماوية الثلاث ، وحتى فى عصور تعدد الآلهة ، كان المصرى يتصف بالتدين ، والتمسك بمعتقده الدينى، وممارسة طقوس عبادته بالتزام ، وفى العصر المسيحى ، بلغ التدين حد الاستشهاد فى سـبيل العقيدة ، بل إن الروح المصرية اضافت إلى الديانة المسيحية الكثير ، وفى مقـدمة ذلك الرهبانية .. وفى العصر الاسلامى لا مجال لتكرار الحديث عن الدور الذى قامت به، ولا تزال تقوم به مصر فى سبيل نشر العقــيدة الاسلامية فى العالم . ولا يخفى على أحد ان المصرى دائما ـ وفى كل عصوره ـ كان الدين ملجأه

الاول والاخير - الى جانب الفكاهة (١) - فى مواجهة ما يعترضه من صعاب ، وما يجابهه من قهر وظلم، من حكامه أو مستعمريه ، ومن ظروف فقره واحتياجه، أو حتى مواجهة ما يصادفه من أمور غيبية لا يعرف لها مبررا ، ولا يردها عنه ، ويسرى عنه اصابته بها، إلا الايمان والصبر، واعتبار كل ما يصيبه من عند الله ، ولذلك يقول: «إللى منه هل بت عنه» أي ما هو عند الله لابد ان يحدث، ولا راد لقضائه.

فالمصرى يرى كل شيء من خلال قدرة خفية، او قوة غير مرئية تسير الأمور، وتحدد المصائر. ولا يملك الإنسان المصرى حيالها، إلا الصبر، وقبول الواقع، والتسليم به، مع السخرية من القدر والدنيا، واحوالها المتقلبة، مستسلما فى إيمان - أقرب إلى السلبية - مسلما بالقدر والمقدر والمكتوب، الذى لا مهرب منه ، فى نظر الإنسان المصرى، إلا بالصبر - الذى أصبح كالمخدر بالنسبة لآلام المصريين - منتظرًا أن يأتى يوم ينتصر فيه ويعتدل نظام الكون الذى مال به ، وهو فى ذلك يؤمن بانتصار الخير والحق فى النهاية - مهما طال المدى - وذلك نابع من إيمانه بعدالة السماء، أو عدالة الإله أيا كان - واحدا أو متعددا - أي أنه إيمان بالقيم المطلقة وصدقها - مهما بدا عكس ذلك -

---

(١) ولعل ذلك ما يبرر تواكب ظاهرتي المجون والتصوف في كل عصور القهر التي عانى منها المصريون ولعل مما نمر به الآن من تطرف ديني وانفصام [illegible] والادمان والتعصب دليل اخر على ذلك.

وسيأتى ذلك تفصيلا فى حينه ـ حيث سنتحدث أولاً عن إيمان المصرى ، وتدينه بشكل عام.. ثم نتناول بعد ذلك كل ما ترتب على هذا الايمان المطلق من تفريعات، ومنها الإيمان بالقدر والمكتوب ، والنصيب والقسمة، والحظ أو البخت، وما يجره هذا الايمان من رضا وتسليم، وصبر واحتمال للمكاره.. بل سيقودنا الحديث عن تسليم المصرى، واعتقاده فى كل هذه الامور، الى الحديث عن رؤيته الخاصة للمرض والموت.. وهما حقيقتان يجابهها بوسائله الخاصة فى المواجهة: «الصبر والتسليم»، وسيقودنا ذلك ايضا الى الحديث عن نظرة المصرى «للدنيا والزمان» وتقلبهما ، و«تبدل الاحوال» تبعا لذلك، وما يستتبع كل هذه الظروف من ظهور طبقات من «المحدثين» الذين يسخر منهم المصرى سخريته المعتادة.. ولكن بمزيد من المرارة.

وبالضرورة سيقودنا الحديث عن معتقدات المصرى ، وإيمانه بالغيبيات وببعض الأمور التى لا يملك لها درأً ـ إلا بوسيلته العاجزة «الصبر» والاحتمال ومن هذه الامور كمثال الاعتقاد فى الحسد كأمر وارد فى الديانات السماوية ، والاعتقاد فى بعض الغيبيات التى لا سند لها من الواقع ، والتى يسلم المصرى بنتائجها تسليمه بقدره ، وإيمانه بأن الله وحده هو الذى يمكنه ان يرفع عنه ما يصيبه من بلاء بسببها .. أو من جراء اعتراضها لمسيرة حياته، وتعويقها لمساره.

وأقول انه يجابه كل ذلك بوسيلته العاجزة.. لأنه حيال هذه الأمور لا يجد ما يعمله سوى القول الخاضع :-«العمل عمل ربنا» أو «قول: يارب». فالمصرى يقابل تصاريف القدر بالصبر والسلوى ، ويتألم حسرة إذا لم يصب مرامه ، أو يحقق هدفه .. معتقدا ان ذلك بسبب سوء الحظ، الذى غالبا ما يرجع إليه كل إحباط يصيبه.

وقبل ان ندخل فى تعريف الفلسفة المصرية حيال ما يصيب البشر من نكبات، أو ضربات حظ غير مبررة.. سنتناول أولا سمة «التدين» وكيف انعكست بجلاء فى الامثال الشعبية الداعية إلى الاتكال على الله ، والاعتماد عليه في كل الامور ، كالعمل ، والرزق والعطاء ، والانتقام ، والتدبير ، والغيب ، والستر، والنصر، وهو قبل كل ذلك مؤمن إيمانا عقلانيا مطلقا بالله، لا يمكن التشكيك فيه.. فالمثل المصرى يقول:

- ربنا ما شفناه بالعقل عرفناه.
- ربنا كبير (اى لا تعلوه قوة).
- ربنا موجود.
- ما يعلم الغيب إلا الله.
- ربنا هو المنتقم.
- سلم امرك لله تسلم (دعوة صريحة للاتكال على الله).

- إتكل على اللى خلق الخلق (دعوة صريحة للاتكال على الله).

- الخيرة فيما اختاره الله (رضا بأى شىء).

- خد من عبدالله واتكل على الله.

- إللى سترها فى الاول يسترها فى الآخر (أو فى الثانى).

- قولى يارب.

- النصر من عند الله.

- تبات نار تصبح رماد. لها رب يدبر.

فالمصرى يعتبر النصر والستر، وتدبير الامور، وعلم الغيب. والقوة والقدرة على الانتقام من عند الله ، فليعتمد عليه فى هذه الامور، وإن لم يخل المثل من دعوة للعمل والسعى، خاصة فى مجال الرزق.. ولكن بنسبة اقل، فالمثل يقول ايضا:

- إسعى يا عبد وانا اسعى معاك.

- اعقلها وتوكل (مثل عربى متداول وهو اصلا حديث شريف).

- إستعنا على الشقا بالله (تقال عند الشروع فى العمل).

- إعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا.. واعمل لاخرتك كأنك تموت غدا (حديث متداول).

- إذا عزمت فتوكل على الله..

- كبب وربنا المسبب.

ـ إعمل إللى عليك وسيب الباقى على ربنا.

فمع ايمان المصرى بضروة العمل الى جانب الاعتماد على الله ـ فهو الرازق ـ نجد بعض الامثال ترجع مسألة الرزق كاملة لله.. دون دعوة للسعى والعمل ـ وهو ما سنناقشه فيما بعد فى الحديث عن الجوانب الاقتصادية المتعلقة بالمال والاعمال ـ وإن اشرت هنا الى بعض الامثال التى تبرز مدى اتكال المصرى ـ ولا اقول تواكله ـ على الله إتكالا مطلقا كقوة إيمانية تعينه على استمرار الحياة، وتحمل ما قد يصيبه من إنقطاع رزقه، او كساد تجارته.. ومن هذه النماذج الامثال القائلة:

ـ مطرح ما ترسى دق لها (أى لا تعاند القدر).

ـ إجرى يا ابن آدم جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش.

ـ قال إجرى ومد..شىء يهد (دعوة للتواكل) ..

ـ ربك يرزق الهاجع والناجع والنايم على صماخ ودنه.

ـ إللى خلق الاشداق متكفل بالارزاق.

ـ من كان رزقه على الله فلا يحزن .

ـ أنت تريد، وانا أريد .. والله يفعل ما يريد (عن المصير كله).

– ربك رب العطا يدى البرد على قد الغطا (عما يصيب الانسان من بلاء).

- ربنا قبل ما بيبلى بيدبر.

- بيخلق فى قضاه رحمه (لأنه الله).

وفى هذا الاعتماد والاتكال المطلق على الله نجد المصرى يعتمد على حدسه فى ذلك ، فهو يرى ان:

- قلب المؤمن دليله.

- النار ما تحرقش مؤمن.

فشرط الاتكال مع إصابة الخير، واتقاء الاذى هو الإيمان المطلق، فالمؤمن هو الذى يعتمد على الله فيعطيه ، ويكفيه الاذى، وينتقم له أو (نيابة عنه)..

وعدا عن الايمان بالله ، نرى المصرى اتكاليا بوجه عام ، فهو يعتمد على ان الامور تسير فى اعنتها، ولا داعى للحرص أو الحذر.. او الحكمة والتدبير ، فما سيصيبه سيصيبه مهما احتاط او تحسب، فالمصرى يؤمن ايمانا خفيا بأنه مسير لا مخير ، وذلك ما تدل عليه امثاله الشعبية.. فهو لا يحسب حسابا للغد ويترك نفسه نهبا للايام وما تقدره.. ويصل ذلك احيانا الى حد الاستهتار بالخطر والاسراف على النفس.. فالمصير او كل ما يصيب الانسان لا يد له فيه، فالمثل يقول:

- إن حلى لك زادك كله، ها يجى يوم ما تقدر تشمه.

- اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب.
- ان جالك الفرج إنهبه نهبيه.
- كل الدود قبل ما ياكلك.
- من عاش بالحكمة مات بالمرض (فلا داعي للحذر بل إتكل).
- سيبها لما ييجى وقتها (وقتها يحلها ربنا).

وإيمان المصرى وتدينه هو الذى دعاه الى الاتكال على قدرة الله فى تصريف معظم شئونه.. ليس اليوم فقط.. لكن عبر كل العصور.. فالدكتورة نعمات فؤاد تقول عن تدين المصرى: إن الايمان الصفة الاولي لمصر فحضارتها منذ البداية دينية (١) ولذلك فقد افردت فصلا او عدة فصول للحديث عن فكرة ان حضارة مصر دينية ، وقالت بأن فلسفتها تقوم على اربعة عناصر هى: النور ، والسماء ، والماء ، والحجر .. وهى فى الوقت نفسه عناصر الشخصية المصرية والفلسفة المصرية. مع ولع بالرائع وتعلق بالاعلى.. واستمراء للعمل الجميل.. يجرى عليها فترتفع الشوامخ من اعمالها معابد .. ومساجد وفنونا وعلوما وحكمة.. تعلمت مصر من الحجر الصبر ومن النور البهجة ومن الماء الرقة والعذوبة ، ومن السماء الرحمة والسعة (٢) . ولا يتسع المجال هنا الى استعراض كل النقاط التى أوردتها الدكتورة

---

(١) نعمات فؤاد: شخصية مصر. ص ٤٥.
(٢) المرجع السابق، ص ٤٦.

نعمات عن ايمان المصرى ، وتدينه الذى خلق لديه قدرة فائقة على الخلق، والذى كان عندها مصدرا لقوة شخصية المصرى، وليس لتبعيته او ضعفه، وهو ما سيتضح لنا من استعراض الامثال التى تعبر عن ايمان المصرى ، ليس بالله فقط.. ولكن بكثير من الامور الاخرى.. النابعة من ايمانه المطلق بالله وقدرته وتسييره للامور.. فإيمان المصرى بأن «المقدر والمكتوب» له سيراه ايمان لا حدود له.. فالمثل المصرى يرى ان:

- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.
- المكتوب ممنوش هروب.
- إللى منه هلبت عنه.
- ساعة القدر يعمى البصر (ساعة القضاء).
- الحذر ما يمنعش قدر.
- يا هارب من قضايا.. مالك رب سوايا.
- خارج من الحريقة قابله الغراب زغطة (لان ذلك قدره).

والمصرى يعتبر الرضا بالمقدر والمكتوب حتمية وضرورة فبعض الامثال تدعو لذلك قائلة:

- إرض بالمكتوب.
- مقدرْ ومكتوب (أى لا مفر منه).

- «امتحان من ربنا (لابد من التسليم به).

- إللي كتب غلب.

ومع ذلك يلوم المثل المصرى، من يخطىء ويتصرف بحمق ثم يدعى ان ذلك قدره وما كتب عليه ، ويسخر المثل منه قائلا:

- يفتح عينه للدبان ويقول دا قضا الرحمن (١).

- العاجز فى التدبير يحيل على المقادير.

- أنا كل ما اقول التوبة.. ترمينى المقادير (تغنى ايضا فى موال).

وزيادة فى السخرية من مقدرات البشر وأقدارهم يقول المثل الشعبى:

- خلق ناس وتحفهم وكبب ناس وحدفهم . (او اختصاره).

- قدر ولطف.. وكبب وحدف..

هذا ويرضى المصرى بالمقدر له. لكنه يرفض انتظاره.. فإذا كان بلاء فليأت.. وسنتقبله.. بحلوه ومره. فيقول المثل فى ذلك:

- نزول البلا ولا انتظاره (وتقال ايضا وقوع البلاء).

- قال : نام لما أدبك : قال «شىء يطير النوم».

- مفيش امر من الانتظار.

ويفرق المصرى بحكمة بليغة ووعى شديد بين كثير من الامور

---

(١) وتقال ايضا بمجون وتحامق (يعرى طيزه للديان).

التى تصادفه فى حياته ، فهو يفرق بين «المقدر والمكتوب» وبين «النصيب والقسمة».. و«الحظ والبخت» بذكاء شديد.. وترى دكتورة فاطمة المصرى ان ايمان المصرى بهذه المسلمات يرجع ايضا لتدينه الشديد، فهى تقول «إن الشعب المصرى يؤمن بالقضاء والقدر.. ويرضى بما قسمه الله» وذلك كنتيجة للنزعة الدينية المتوارثة، وقد لا يكون ذلك دليلا على تمسك العامة بدينهم.. ولكن هناك صفات مصاحبة.. لها من الاثر ما يفوق الصعاب الاساسية ولذلك نجد القدرية والرجعية والكرم والتسامح تعتبر صفات مصاحبة للتدين، ولها اثرها الواضح فى الجماعة (١).

وترى ايضا ان الانسان المصرى مستسلم خائف خاضع راض - طيب السريرة، ساذج (خاصة فى الفئات الدنيا كالفلاحين الفقراء).. وهو متواضع ومغلوب على أمره.. وهذه كلها سمات ترتبط فى رأيى ايضا بتدين المصرى واتكاله وتسليمه بالقدرة الاعلى، التى تسير وتصرف اموره، وهى التى جعلته يؤمن بالحظ والبخت ايمانه بالقدر والمكتوب الذى لا مهرب من التسليم به.

هذا وقبل أن نتناول الأمثال التى تعبر عن إيمان المصرى «بالحظ والبخت» لابد أن نناقش أولاً مفهومه لهاتين الكلمتين . وفقا لما ورد فى

(١) فاطمة المصرى، الشخصية المصرية، ص ١٤٥.

تحليل هذا الفهم لدى عدد من الباحثين ، وكنموذج : أشارت دكتورة فاطمة المصرى إلى أن الإنسان المصرى يرجع الفشل إلى البخت والقدر إذا كان متعلقا بنفسه ، أما إذا تعلق بغيره ، فيرجعه إلى التبذير أو التجبر أو الانتقام العادل من الله ، فالإيمان بالحظ والبخت هو الذى جعل المصرى مازال متمسكاً بالكثير من الأمثال التى تؤكد جانب الحظ، وتغلبه على الاجتهاد والعمل .. وذلك ما يجعل حتى المثقفين يلجأون أحياناً للعمل بالغيبيات للتعرف على الطالع ومستقبل الأيام ، وما يخبئه القدر . وأتفق معها فى ذلك .. مع إرجاع الأمور إلى أصلها وهى أن هذه القناعات والممارسات ترجع إلى إيمان المصرى بالله ، مصرف الأمور كلها ، مع إيمانه بأنه «لا يعلم الغيب إلا الله» .. لكن المصرى يلجأ إلى معرفة الغيب بفتح المندل ، وقراءة الطالع فى الفنجان، أو الكف حينما ييأس ، وتحيط به الكوارث من كل حدب وصوب ، ويطول أمدها دون أن ترفع عنه الغمة ، ولا يعرف لذلك مبرراً أو سبباً .. فلا يلجأ إلى مثل هذه الوسائل إلا اليائسون المبتلون ، وليس السعداء .. فالإنسان المصرى بعفويته المعهودة ، أطلق أمثالاً عن «القدر والحظ والبخت» تعبر عن فلسفة عميقة ، وتفرق بين كل منها تفرقة دقيقة ، فالمصرى يفرق بين «الحظ» السريع الذى يجب ألا يفوته ركبه المنطلق ، وبين «القدر» العادل الذى يجب أن يرضى به ، لأنه كما يقول أبو سنة فى «فلسفة المثل

الشعبى» : إننا نؤمن بعدالة القدر وبلاهه الحظ .. ولذلك أورد نصاً أو اقتباساً طويلاً ، يفسر هذا المعنى بأدق أساليب التعبير – التى قد أعجز عنها – وإن كنت سأورد بعدها نماذج من الامثال تؤكد هذا التفسير العميق لمفهوم المصرى للقدر والحظ والبخت وتفريقه بينهما.. إذ يقول ابو سنة نصا:

«وإذا اردنا تصنيفا فكريا لهذه الكلمات فإننا نستطيع ان نقول : إن القدر كلمة دينية خالصة ـ اما الحظ والبخت فكلمتان اجتماعيتان ، لهما تاريخ حافل بالسعادة والشقاء فى حياة البشر . فإذا نظرنا الى الكلمات الثلاث من خلال وظائفها وجدنا ان:

١ ـ القدر هو التصرف المطلق بطريقة كلية.

٢ ـ الحظ اشبه بالثرى الابله الذى يمنح بلا وعى ويبذر امواله فى جيوب لا تنتظر منه شيئا فهو كثير ما يدى الحلق للى بلا ودان.

٣ ـ البخت هو إله خامل فاشل يقود ضحاياه الى متاعبهم وآلامهم.

ومن هنا ندرك ان القدر اقرب الى المعتقد الاخلاقى الذى يدرك الجانبين المتنابذين ، الجانب الخير والجانب الشرير، وهو فى النهاية يفرض على الجميع عدالته المطلقة كما انه لا يترك الامور تعتنق سليقتها بل يوجهها . ويعمل دائبا من وراء ستائره الكثيفة . ولكنه

للاسف يترك على الارض سفراء ليسوا بالذكاء الكافى لتغطية وقاره فى اعين ضحاياه «أو رعاياه» ، فالحظ يعطى الحلق للى بلا ودان وهو ابن بكر للمصادفة العمياء .. وهو يمارس دوره فى حدود الشخصيات لا فى حدود الامم او الجماعات فهو اشبه بمغامر مخمور يوزع هباته بطريقة لا عدل فيها ولا وعى (١).

ولكن كيف عبرت الامثال عمليا، او وفقا للدراسة التطبيقية عن ذلك.. تقول الامثال معبرة عن علاقة البخت بالمهارة والعمل المتقن كعلاقة عكسية :

- قيراط بخت ولا فدان شطارة.
- سبع صنايع والبخت ضايع.
- سبع صنايع فى ايديه والهم جاير عليه.
- ناس تتعب ولا تكسبش وناس تكسب ولا تتعبش..
- ان عمل مهما (واللا ما) عمل متعوس وخايب الامل.
- الحظ لما يأتى يخلى الاعمى ساعاتى.
- بتيجى مع العمى طابات (ويقال مع العور او الهبل).
- يدّى الحلق للى بلا ودان، ويدى الفول للى بلا سنان.
- حظ فى السحاب وعقل بى فى التراب.

---

(١) محمد ابراهيم ابو سنة «فلسفة المثل الشعبى» ص ١٠١.

- إعمل انت يا شقى لده المتكى.

- اجرى يامشكاح للى قاعد مرتاح.

- يا حمار العرس بيدعيك قال «ياللسخرة يا لكب تراب.

- السعد ما هوش بالشطارة.

- جينا نتاجر فى الحنا كترت الاحزان.

- جيت اتاجر فى الكتان ماتت النسوان.

وعن مفهوم الحظ الأهوج لدى المصريين، وأنه سريع غير متأن، يمكن ان يرفع الشخص من اسفل الى اعلى بسرعة، دون منطق او مبرر، تعرف الامثال الحظ بأنه :

- خبطة حظ أو ضربة حظ (كناية عن السرعة وعنصر المفاجأة).

- الحظ إبن لحظة..

- العناية صدف (أى يابخت من تصادفه).

- ساعة الحظ.. ما تتعوضش (أى لا تأتى مرة اخرى).

- حسك تفوت الحظ إن كان حابك (بمعنى السرور والانبساط).

- يا صابت يا خبت (اى مرة واحدة لا تكرار لها).

- صابت يا اتنين عور (فى نفس المعنى).

- السعد وعد (اى دون ميعاد او ترتيب مسبق).

وتعبيرا عن حتمية البخت، وكأنه قدر لا فكاك منه، ولا يمكن تغييره -

ولا بفروغ الاجل ـ تقول الامثال بلهجة ساخرة من قليلى البخت او الحظ ، والتعساء :

ـ شرد من الموت وقع فى حضرموت.

ـ عديم البخت يلاقى العظم فى الكرشه (وتقال قليل البخت).

ـ قليل البخت عضه الكلب فى المولد.

ـ جت الحزينة تفرح ملقتلهاش مطرح.

ـ سلم من الدب وقع فى الجب.

ـ راحت من الغز هارية قابلوها المغاربة.

ـ ربنا ما يقطع بيك يا متعوس يروح البرد ييجى الناموس.

ـ جيت اغير البخت لبخت.

ـ المغلوب مغلوب وفى الآخر يضرب الطوب (أى يعمل فى ضرب الطوب فى الآخر أيضا).

ـ من يوم ما ولدونى فى الهم حطونى.

ـ على ما يسعد المتعوس يكون فرغ عمره (اى سيىء الحظ طول عمره).

وترى الامثال انه لا مفر لانسان من بخته او حظه ، فإذا كان تعيسا فلا سبيل الى تغير حظه ، مهما فعل او حاول التغيير، أو حتى الاعتراض على بخته، فحظه يتبعه اينما ذهب، ولا مفر منه، ولا سبيل

لتغييره ، وتؤكد ذلك الامثال القائلة بسخرية وبأسلوب فكه، يضحك بقدر ما يؤلم:

- يا بخت مالك من دون البخوت لبخت.. قال : إن ما كنت تسكت ها اسقط شوية لتحت.

- بختي لقاني في الطريق يعرج قاللي، إرجعي ياخايبة لارقد.

- قلت لبختي انا رايحة اتفسح.. قال لي وانا مانيش مكسح (اى ساتي معك).

- قلت لبختي انا رايحة للجيران، قال ، وأنا مانيش تعبان.

- قلت لبختي انا رايحة لاهلي، قال وانا امشي واحدة واحدة على مهلي (اى مهما حاولت الهرب منه فهو سيتبعك).

- المنحوس منحوس ولو علقوا على راسه فانوس.

وذلك لان:

- البخت يتبع اصحابه.

ولذلك فإن:

- بختها معها منين ما تمشي يتبعها (إذا كان حسنا او سيئا).

- له في كل خرابة عفريت.

- ارميه البحر يطل وفي بقه سمكة (لان الحظ الحسن ايضا تابع لصاحبه مهما حدث).

ولكن ما هى الحظوظ السيئة ؟ وما هى الحظوظ الحسنة؟

وكيف عرفتها الامثال؟ وذلك ما سنعرفه تحديدا من مجموعة امثال تناولتها بسخرية ايضا، فقالت:

- يا بخت من كان النقيب خاله (فلا داعى للمهارة فذلك حظ له).

- من سوء بختي حبوني الكلاب.

- عيشك يحلى لى يا خالى ، قال ده من سوء بختي يا ابن اختى .

- عيشك كويس يا خالتى . قالت: من سوء بختي يا بنت اختى.

- بختك يا ابو بخيت (اى ما قسم لك).

- انت وحظك أو انت وبختك (اى ما قسم لك).

- خبطتين فى الراس توجع.

- الفقى لما يسعد تيجى له ختمتين فى ليلة (من سوء الحظ ان لا يوزع الرزق على الايام لنستطيع السعى له وجلبه).

- جارية تخدم جارية دى داهية عالية (وهى من امثال عصر المماليك الذى كان الحظ فيها يصعد ببعضهم الى الامارة).

وعن التفاوت فى الحظوظ بين الناس ، وهو امر لا مبرر له او يجب ألا نحاول تبريره ، بل نسلم كما يقول المثل بأن:

- ناس تاكل البلح ، وناس تنضرب بالشماريخ.

- ناس تاكل البلح ، وناس يترموا بالنوى .

- ناس ليهم العنب، وناس ليهم الحصرم.

- شخوا عليّ كلكم ، ياللى الزمان خلانى لكم.

- من لقى بخته، خرى تحته وجاب عدى البخت يمسح له (١)

وعن الحظ الحسن يعبر المثل قائلا:

- جت له على الطبطاب (وهو اول قطفه فى البوظه).

- باضت له فى القفص (اى لن يبحث عنها فهى عنده).

وعن الحظ السيىء يقول المثل:

- من حفره لطوبه يا قلبى لا تحزن.

- تخلص من حفرة تلاقى دحدوره.

- يطلع من نقره يقع فى دحديره.

- فى حزنهم مدعية وفى فرحهم منسية (عن سوء الحظ مع الناس).

- يا فرحة ماتمت خدها الغراب وطار.

- جيت ادعى عليه لقيت الحيطة مايلة عليه.

- ياقلة بختى (وتقال فى التحسر).

والمثل يعتبر ان الحظ بحلوه ويسوئه من عند الله، ومقدر للشخص، ولا يد له فى تبديله، بدليل الاستفهام الاستنكارى القائل:

- حد بيقول يارب اتعسنى؟!

---

(١) وقد اوردت هذين المثلين رغم ما بهما من ألفاظ نابية لبلاغتهما فى التعبير.

- حد يبقى القلم فى ايده ويكتب نفسه شقى؟!

- هو حد بيميل بخته بإيده؟!

ورغم ذلك نجد المثل الشعبى يدعو الى اقتناص الفرصة إذا عثر المرء على بغيته ومناه، وان ورد ذلك فى مثل واحد انتهازى يقول ناصحا المرأة:

- خدى بختك من حجر اختك (او حضن اختك).

وهو إختصار للقول:

- إن لقيتى بختك فى حضن اختك خديه واجرى،

وهو فى تصورى معنى مجازى لا يعنى التركيب اللفظى ذاته ولكن يعنى اينما وجد البخت على الانسان اقتناصه رغم الاستحالة .

ولهذا يرى ابو سنة - واتفق معه - ان:

هذا المغامر المسمى بالحظ قادر بطريقته الخاصة على نقلنا من ادنى درجات السلم الى المراقى العالية.

والحقيقة ان الحظ والبخت والنصيب مجرد اقنعة غامضة تستر طبيعة المتناقضات فى هذا الواقع، وتخفى اعراض العلاقات الاجتماعية فى المجتمعات المتخلفة.. ووجه المجتمع الدميم الذى ينضح بالرشوة.. والفسق.. والنفاق.. والوساطات لا يجد من المساحيق إلا مثل هذه الكلمات الخادعة وهذا ملاحظ فى واقع سلوكنا اليومى (١).

---

(١) إبراهيم ابو سنة، فلسفة المثل ، ص ١٠٢.

وهى على اى حال كلمات نعبر بها عما يصيبنا من احباط غير مبرر.. او هى وسيلة تعيننا على تحمله.. باسناد كل الامور الى الحظ والقدر والنصيب.. بدلا من تسمية الامور بمسمياتها الحقيقية ـ والموت غيظا او كمدا ـ وان كانت الامثال تشير اليها بطرف خفى كما فى القول السابق الاشارة اليه:

ـ يابخت من كان النقيب خاله.

ـ إللى له ظهر ماينضربش على بطنه.

وتضيف الامثال لونا آخر من المسلمات الغيبية، التى تقحم نفسها على مسيرتنا، ويسمونها القسمة والنصيب، ترى ان لها حظها ايضا من الالتزام بأصحابها والبحث عنهم وتتبعهم لتلقاهم وتعطيهم المقسوم لهم أو نصيبهم من الدنيا، حتى لو لم يكونوا من الموعودين به او المنتظرين له.. ومن الامثال الشائعة عن القسمة والنصيب والقائلة بتحكمهما فى كل شىء:

ـ كل شىء قسمة ونصيب.

ـ الجواز قسمة ونصيب.

ـ اللقا نصيب.

ـ اعزم واكل العيش نصيب..

ـ إللى من نصيبك يصيبك (أو لازم او لابد يصيبك).

- كل واحد بيأخد نصيبه محدش بيأخد إلا نصيبه).

- النصيب بيدور على صاحبه.

- قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا (من القرآن الكريم).

- مش ها يصيبك إلا نصيبك.

- إللى من نصيبك محرم على غيرك.

- محدش بيأخذ نصيب حد.

- ده للمقسومين مش للموعودين.

- إرض بنصيبك تعيش.

وكل هذه الامثال فى معنى واحد، مع اختلاف الصياغة فى الالفاظ تقديما وتأخيرا.. ولكن المثل الشعبى الذى يعطى النصيب بعض سمات القدر والبخت من حيث لزوميته لصاحبه وتتبعه له، والاعتقاد فى انه مكتوب لا مهرب منه، ولابد من الرضا به، بل ان الرضا به من الايمان بدليل المثل القائل: «الرضا بالمقسوم عبادة».

يمنحه ايضا صفة مميزة له، وهى انه غير طائش، بل انه يعطى لمن يستحق وذلك يتضح فى الامثال القائلة:

- لكل مجتهد نصيب (فى معنى من جد وجد).

- إذا حضرتم القسمة فاقتسموا (اى ان الوجود يعطى الحق فى نصيب).

ـ الغايب مالوش نايب (اى من يتأخر او يغيب يضيع نصيبه).

ويؤكد المثل ايضا ان النصيب والقسمة لا يمكن الاغترار بامتلاكهما لمجرد الاقتراب منهما، او كونهما امامنا ، او فى ايدينا .. فإن العبرة بالنهاية فى مسألة النصيب وقد عبر المثل عن هذا المعنى فى قوله:

ـ تبقى فى بقك وتقسم لغيرك.

ـ تكون فى ايدك وتقسم لغيرك.

ـ قالوا للبايرة جالك عريس قالت : مش حصدق إلا لما اعنق .

هذا وسنجد الكثير من الامثال التى تعبر عن القسمة والنصيب، ودورهما الفاعل، خاصة فى الزواج والحب ـ حيث سنتناول هذا الموضوع فى حينه ـ لكنا نؤكد ان النصيب والقسمة قد ادرجهما المثل الشعبى، والاقوال والتعبيرات الشعبية كوسائل لمواجهة الاحباط ، أو فوات الانسان لشيء ما، معللا ذلك بأنه:

ـ ماليش نصيب فيه.

ـ ده مش من نصيبى.

أو الاكتفاء بالقول:

ـ قسمة ونصيب!!

ومنحهما المثل الدوام والملازمة لصاحبهما كما فى الحظ العسر، كما يتضح من المثل القائل:

– قسموا القسايم خدت أنا كومى ، قالوا ، مسكينة !! قدلت من يومى .

- المتعوس متعوس ولو علقوا على رَاسه فانوس (*)

وهذان المثلان بالذات يؤكدان لنا ما سبق أن ذكرناه عن ملازمة الحظ والبخت والقسمة والنصيب والمقدر والمكتوب للشخص وعدم إمكانية الهروب منها .. فالمثل الشعبي يؤكد على ديمومة واستمرار طابع ما يصيب الفرد طوال حياته ، وكأنه بذلك يؤكد له أنه لا داعى لمحاولة التغيير حيث لا فائدة من ذلك نهائيا .. ويعبر عن ذلك إبراهيم أبو سنة إذ يقول :

«إن الاستخدام العربى قد جعل كلمة البخت ظلا قاتما على مصائب الناس التى يلحق بهم الفشل المتكرر فى حياتهم» (١) .

ويعود أبو سنة ليؤكد فى موضع آخر أن :

«البخت بتعبيــر أوضـــح ، وفى غالب إطلاقاته ، هو مجموعة الظروف الفاشلة . أما الحـظ فهو المصادفة الخارجية . وقد توسعوا فى كلمة البخت حتى أطلقـوها على مطلـق الغيب والمجهول ، وإذا أردنا التحديد وجدناه «القانون العـام لحيـاة الشخص . وهو الطابع الملازم الذى يعود فى أصـله إلى أم الكتـاب . ولهذا نراهم يطلقون على العـرافات «قارئات البخت» أى أنه التصـميم الأزلى لمواليد الأبراج السـماوية عند الفلكيين . حيث تكـتب لبعضـهم السعادة

(*) ويقال أيضا تأكيدا للاستحالة «لو علقوا على باب طيزه فانوس»

(١) إبراهيم أبو سنة ، فلسفة المثل ، ص ١٠٣.

الأبدية . وللبعض الآخر الشقاء الخالد ، فهو خط طولى للأحداث الشخصية ينتهى مع الحياة كما بدأ معها . وهذا الاستعمال الشائع الآن لكلمة البخت مأخوذة من إيمان بعض الناس فيما تقوله العرافات أو قارئى الكف للكشف عن الخط العام لحياته المرسوم فى لوح الأزل» (١) .

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن إيمان المصرى بكل هذه الأمور الغيبية ، لا يرجع فقط إلى تدينه .. لكنه كمعظم تراثه الثقافى الذى مازال يعتنقه ويمارسه حتى الآن يرتبط بنمط تفكيره الحسى غير العلمى .. ويشير د. سيد عويس إلى أن هذا النمط من التفكير غير مقصور على الفلاحين والجهلاء بل إن بعض المثقفين والكتاب يتناول فى الصحف اليومية والأسبوعية أمورا عن :

«السحر وقراءة الكف والفنجان والرمل والودع والمندل وقراءة السحب والبرق وأوراق الشجر والعمل والنفخ فى العقد والرؤيا الصادقة واستحضار الأرواح وتجسيدها» . (٢) .

ويعلقون على ذلك بأن هذا ممكن ومعقول ، ولا يتنافى مع العلم والدين ، وأن العقل لا يستطيع أن يرفض ذلك ؛ لأن العقل محدود ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٤.

(٢) د. سيد عويس ، الإزدواجية فى التراث الدينى المصرى . ص ٣٦ .

والدين يؤكد ما تذهب إليه هذه المعتقدات ، ويشير إلى نماذج كتابات أنيس منصور كمثال على صدق قوله .

هذا ونجد أنه نتيجة لإيمان المصرى بأن مصيره قد حدد مسبقا فى اللوح المحفوظ ، وأنه لا سبيل إلى تغييره ، حيث انه «قد جفت الأقلام ورفعت الصحف» التى دون فيها نصيبه من الدنيا وكتبت فيها خطواته التى يمشيها ، وهو إيمان نابع من تدينه العميق . وقناعته بأن «الإنسان مسير مش مخير» فى هذه الحياة . أقول نتيجة لذلك نجد أن المصرى لم يجد بداً من التعايش مع قدره بالتسليم و«الرضا والقناعة» وهى أمور عبر عنها المثل الشعبى بمنتهى الدقة ، ودعى إليها كوسيلة لتحقيق السلام النفسى للأفراد ، مهددا لهم أيضا بأنهم إن لم يرضوا ويسلموا فسيصيبهم ما هو أشد وأنكى .. وكنموذج لما قيل فى هذا الصدد من أمثال :

- رضى وعين جبنة والتانيه مش (أى مضطرا للرضا) .
- اللى ما يرضاش بالتوت يرضى بشرابه (تعبيرا عن نتيجة عدم الرضا) .
- اللى ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون (نتيجة لعدم الرضا).
- اللى عاجبه ده الكحل يتكحل . واللي مش عاجبه يرحل .

- لو علمتم الغيب لرضيتم بالواقع (مثل عربى متداول) .

- اللى يبص لفوق يتعب أو توجعه رقبته .

ويدعو المثل الشعبى إلى الرضا والقناعة بالقليل ، أو حتى بالبلاء والشر وما يصيب المرء من حادثات ، فيقول المثل بشكل مباشر ودون مواربة :

- الأعور وسط العميان ملك .

- نص العمى ولا العمى كله (الطشاش ولا العمى).

- شئ أهون من شئ (شئ خير من لا شئ) .

- الحمد لله اللى جت على قد كده (تقال كدعوة للرضا بما أصاب) .

- أدى الله وأدى حكمته .

- كده رضا .

- ما كل ما يتمنى المرء يدركه (مثل عربى متداول بين العامة) .

- القناعة كنز لا يفنى (عربى متداول) .

- القناعة مال وبضاعة .

- عصفور فى اليد ولا عشرة على الشجرة (أو فى الغد) .

- بيضة النهاردة أحسن من فرخة بكرة (فى الرضا بالموجود وعدم التطلع) .

- إقنع بالحاضر على ما بيجى الغايب .

- إرض بما قسم الله لك تأتيك السعة (عربى متداول).

- من رضى بقليله عاش .

- غنى النفس هو الغنى الكامل (دعوة للقناعة والرضا) .

- عز من قنع وذل من طمع (مثل عربى متداول) .

- أقله أبركه .

- أقل موال ينزه صاحبه .

- إللى عنده عيش وبله عنده الفرح كله (أو الخير كله) .

- إن حضر العيش يبقى المش شبرقة .

- بخمسة قهوة تقضى الشهوة .

- بيضتها أحسن من ليلتها (وهو فى معنى المثل العربى قليل دائم خير من كثير منقطع) .

- إفتكاره رحمة (ويضرب في ضرورة الرضا بالمرض) .

فالله فى كل ما يصيب البشر «له فى ذلك حكمة» ، و«دى إرادة ربنا» و«أدى السما وآدى الأرض» .

هذا وتحاول الأمثال الشعبية أن تصف حال الراضين بما لديهم ، وبقليلهم ، مركزة على الجانب المادى من الرضا بالمقسوم ، وذلك لأن الفقر كان ومازال أحد أهم البلايا التى عانى ، ويعانى منها الإنسان

المصرى ، وتجدر الإشارة إلى أن فكرة القناعة والرضا فكرة مصرية قديمة ، فمن تعاليم «كا أرسو» لابنه الأكبر :

«إذا جالست قوما فتعفف عن الطعام ولو كنت تشتهيه .. فإنها برهة قصيرة تقهر الرغبة فيها .. وقد خسأ من شره جوفه» .. «رب حسنة تقوم مقام الخير كله .. ونزر يسير يغنى عن الكثير كله» (١) .

ويحاول المثل أيضا أن يصبر على كل مصاب ، واعداً بما هو أفضل .. إذ تقول الأمثال عن الراضين بما لهم وما ينتظرهم :

- يشم ضهر ايده يشبع .
- زى بلد أبو راضى . المشنة مليانة والسر هادى .
- السكوت علامة الرضا (ويضرب غالبا فى الزواج) .
- زى أبو قردان صايم عن زاد الدنيا (أى زاهد فيها) .
- رطل نحاس بيغنى ناس (أى قليل لكنه يرضى) .
- ما بعد الضيق إلا الفرج (وعد بالخير بعد الرضا والصبر) .

كما يصف المثل الشعبى الإنسان غير الراضى أيضا ، وغالبا ما يسميه «البطران» أو المتبطر على النعمة ، أو «رافس النعمة» . ويتوعده بما هو أسوأ مما أصابه .. فتقول الأمثال عن البطر وعدم الرضا والطمع .

(١) محمد عبدالحميد بسيونى ، آداب السلوك عند المصريين القدماء ، ص ١٠ .

- البطر عقبه وحش .

- البطران عليه قطران .

- رفس النعمة برجله .

- الاكلانة تولد ميه . وتقول يا قلة الذريه .

- لا يعجبه العجب ولا الصيام فى رجب (أى لا يرضى عن أى شئ) .

- لما اتفرقت العقول كل واحد عجبه عقله . ولما اتفرقت الأرزاق محدش عجبه رزقه (فالكل غير راض عما أصاب من رزق) .

وتستمر الأمثال الشعبية فى تناول موضوع الرضا والقناعة بما أصاب المرء : لتضع قانونا لذلك .. يدعو إلى الرضا بالمقسوم ، وعدم السعى لما لدى الغير ، أو التطلع إليه ، حيث لن يغنى ولن يسمن ، أو يشبع .. بل إن عواقبه قد تكون المعايرة والمن والأذى .. إذ يقول المثل فى ذلك :

- ألحس مسنى . وأبات مهنى ، ولا كبابك اللى قاتلنى .

- لقمة جارى ما تشبعنى . وعارها متبعنى .

- قطع الطشت الدهب اللى أطرش فيه الدم .

- شعيرنا ولا قمح غيرنا .

- كتاننا ولا حرير الناس .

– لقمة تحت الحيطه ولا خروف بعيطه .

– اللى ينشرى ما ينشهى (أو اللى تشتريه الفلوس ما تشتهيه النفوس) .

لكن المثل الشعبى يستنكر الرضا مرة واحدة ، ويسخر من عاقبته خاصة فى التعامل مع الناس السيئين ، والرضا بما يلحق المرء منهم ، فيقول ساخرا بمرارة :

– رضينا بالهم . والهم مرضيش بينا .

وكأمر ملازم للرضا والقناعة نجد المصرى يتحلى «بالصبر» والقدرة على الاحتمال .. مهما كانت الشدائد والمصائب مادية أو معنوية .. فالصبر وسيلته الثانية بعد الرضا والتسليم . فالإنسان المصرى صبور بطبعه ، ويستمد قوته على الصبر والاحتمال من إيمانه أيضا ، بل هو يربط دائما بين «الصبر والإيمان» ، ويعتبر الصبر إمتدادا لإيمانه العميق ، وتسليمه ورضاه بكل ما يصيبه .. من الله .

ويشير د. سيد عويس إلى أن مفهوم الصبر ومشتقاته قد وردت فى الكتاب المقدس فى أسفاره واصحاحاته ٥٢ مرة ، كما ورد هذا المفهوم ، لفظه ومشتقاته فى القرآن الكريم ، فى سوره وآياته ١٠٣ مرات (★) .

(★) راجع د. سيد عويس ، الإزدواجية فى التراث الدينى المصرى ، ص ٣٢ .

ويصبر المصرى على كل ما يصيبه سواء من الله أو من الغيبيات التى يؤمن بها ، والمتمثلة كما سبق القول فى القدر والمكتوب ، والقسمة والنصيب ، والحظ والبخت .. فالصبر عند المصرى هو التبرير النفسى الذى يصطنعه لاحتمال تصاريف القدر ، وهو كما يقول أبو سنة :

«مرحلة التعبئة الضرورية قبل الانطلاق . فإن القدر لا يصلح أن يكون تبريرا معقولا فى مجتمع تنهشه الأمراض الاجتماعية القاتلة ، ويصبح هذا الثالوث الخرب (القدر والبخت والحظ) مجرد عربة محطمة على طريق التاريخ الطويل . (١) .

كما ترى دكتورة نعمات فؤاد أن الصبر «قدرة مصرية خاصة» وهو عندها أيضا نابع من «الإيمان الراسخ» الذى له رصيد فى قلب المصرى .. يعتبر كنزه المكنون .. إذ يملك المصرى قدرة على امتصاص المحن ، وقهر الصعاب ، والاستعلاء على الأحداث ، نتيجة لثقته بالله ، ويقينه بأن النصر لابد أن يكون حليفه فى النهاية .. ولذلك تقترن لدى المصرى عقيدة الحياة بالثواب والعقاب والجنة والنار والخير والشر ، والإحساس بهذا كله هو بعينه الضمير .. الذى يجعل المصرى - فى رأيى أنا أيضا - يصبر على ما يصيبه ، ولا يقابِل الأذى بأذى ، صابراً محتملاً .. وهو مؤمن فى قرارة نفسه ، أنه سيعوض فى الدنيا ، أو فى الآخرة خيراً جزاء لصبره .. وهذا أيضا نابع من إيمانه بأن «الله ولى الصابرين» ،

(١) إبراهيم أبو سنة ، فلسفة المثل ، ص ١٠٢ .

وأنه و «لئن صبرتم لهو خير لكم» .. مستلهما فى ذلك الصبر ، النبى «أيوب» مثال الصبر عند المصرى ، والذى يستدعيه فى مأثوراته قائلا :

- يا صبر أيوب .

فالنبى أيوب عند المصريين مصرى .. وهو من ابتلى بالمرض ، فصبر حتى عجز الصبر عن صبره .. ويسميه المصريون «أيوب المصرى» أو «أيوب المبتـلى» .. ويقدر اقتناع المصرى بضرورة التأسى بهذا الصابر العظيم ، مترسـماً خطـوات سيرته ، وكيف انتصر فى النهاية على المرض ، وعلى الشـامتين فيه .. وفى هذا يطلق المثل المصرى العـديد من الصـفات على الصبر والصابرين ، واعدا إياهم بكل الخير والفرج والعـوض ، وتحقيـق الأمل ، ونوال المطالب ، وتحقيق الأحلام بل والمسـتحيلات ، فالصبـر عند المصرى خير دواء لكل داء ، وله سمات جيدة .. منها أنه طـيب وخـير ، ومع ذلك نجد أمثالا أخـرى يائسة تسخر من الصـبر والصابرين بمرارة .. وسأورد أولا الأمثال الداعية للصبر ، والمحـبذة له ، والواعـدة بالخـير من بعـده .. ثم أتبع ذلك بالأمثـال اليائسـة السـاخرة منـه ؛ لنعقد مقارنة ، ونقدم تحليلا كميا لمضمون الأمثال المصرية عن الصبر ؛ لنتعرف على الموقف المصـرى ، من هذه الوسـيلة الدفاعية ضد كل بلاء .. وهل حقا يؤمن المصرى بالصبر وجدواه ؟ ؛ نتيجة لتجربته الطويلة معه ، عبر عصـور

من القهر والعنت ، وشظف العيش . أم أنه يضج منه ويسخر منه ؟ وأى التيارين أقوى لدى المصريين ؟ وماذا قال المثل المحبذ للصبر والداعى له ؟ هذا ما سنحدده فى السطور التالية :

- الصبر طيب .. بس اللى يرضى به (استدراك) .
- الصبر مفتاح الفرج .
- الصبر جميل (أو خير) .
- الصبر أحسن دوا .
- الصابرين بخير .
- الصابرين لهم الجنة .
- إن صبرتم أجرتم وأمر الله نافذ . ما صبرتم كفرتم وأمر الله نافذ .
- إن صبرتم نلتم وأمر الله نافذ ، وإن ما صبرتم قبرتم وأمر الله نافذ .
- ما ضاقت إلا ما فرجت (بكره تفرج) .
- العوض على الله .
- إذا اشتد الكرب هان (اشتدى أزمة تنفرجى) .
- أصبرى يا ستيت لما يخلى لك البيت .
- خليك فى عشك لا ييجى حد يهشك (ويضرب أيضا فى عدم العجلة) .

- شدة وتزول (تقال فى المرض أيضا) .
- طولة البال تبلغ الآمال (أو توصل للمحال وطولة العمر أيضا) .
- المعيشة تحب طولة البال (خاصة بين الرئيس والمرؤوس) .
- طولة البال تهد الجبال .
- من صبر نال ومن لح ملوش .
- أصبر تنول (من صبر ظفر) أو صبر ونال .
- اللى ييجى فى الريش بقشيش (كدعوة للتصبر على المصاب) .
- الله جاب . الله خد . الله عليه العوض .
- فرجه قريب (فرج الله قريب) .
- اللى يصبر على المر لابد يدوق الشهد .
- وجع ساعة ولا كل ساعة (دعوة للتحمل أملا فى الشفاء) .
- المؤمن دايما منصاب (فمن شيمته الصبر) .
- يا قلبى يا كتكت . اسمع الكلام واسكت .
- كل شئ دواه الصبر .. لكن قلة الصبر مالهاش دوا .
- كل شئ فى أوله صعب (أى أصبر حتى تعتاد) .
- كل عقدة ولها حلال .
- اتقل على الرز يستوى .
- مسيرها تيجى البر ولو ألواح (عن المركب) .

- خللى أملك فى ربنا كبير (أى أصبر سيأتيك الخير) .

- تيجى على أهون سبب بس أصبر .

وتستمر الأمثال المحبذة للصبر فى تعديد مزاياه ، والدعوة له ، طالما أن الإنسان يرغب فى الخير، أو يسعى لشئ فى صالحه وهو طامح فى تحقيق نفع من ورائه ، فعليه بالصبر والتحمل ، ومن جملة الأمثال فى هذا الصدد :

- اللى يحب الدح ميقولش أح .

- مفيش حلاوة من غير نار .

- اللى يحب العسل يستحمل قرص النحل (أو يصبر لقرص النحل) .

- اللى ينزل البحر يستحمل الموج .

أما عن الأمثال التى تضج من الصبر ، وعدم القدرة على التحمل ، وترد على الداعين إلى الصبر ومن يطلبون منه الاحتمال بأنهم لا يكابدون ما يكابده ، فهى على أى حال لا تعادل كما الأمثال المحبذة للصبر ، والواصفة له بكل الصفات الجيدة .. فهناك أمثال تصف الصبر بأنه :

- الصبر مر .

- الصبر حرق الدكان .

- بعد الصبر القبر (أو ما ورا الصبر إلا القبر) .
- فرج صرمه خرج (من الصبر والتحمل) .

وأمثال تضج من الصبر وترد على الداعين له قائلة :

- فاض بى الكيل . أو الكيل طفح (تعبيرا عن عدم القدرة على مزيد من الصبر) .
- يا قلبى يا كتاكت ياما انت شايف وساكت .
- يا قلبى يا كتاكت ياما فيك وانت ساكت .
- اللى ايده فى الميه مش زى اللى إيده فى النار .
- ما يشعر بالنار إلا اللى كابشها .
- النار ما تحرقش إلا اللى كابشها .
- اللى ياكل الضرب مش زى اللى يعده .

وبذلك نجد أن نسبة الأمثال المحبذة للصبر والواعدة بخير يعقبه ، إلى تلك التى تصفه بالمرارة ، وعدم الجدوى ، وتضج منه ، وترد على الداعين له ، حوالى ٣٨ : ٩ .. وهذه النسبة تؤكد أن الشعب المصرى فى مجمل أحواله يفضل الصبر ، ويرى فيه خيره .. وانتظاراً لسعادته وتفريج كرباته ؛ وهذا كما سبق القول نابع من إيمانه وتدينه : ولذلك لم يختلف كثير من الباحثين حول وصف الشعب المصرى بأنه شعب «صبور» ، وقادر على التحمل .. بل يتخذ من الصبر وسيلة لمواجهة الصعاب .

ويلعب الصبر دورا بارزا كضابط اجتماعى يحمى المجتمع من كثير من الشرور التى قد تنتج عن رد الأذى بالأذى ، بدلا من الصبر عليه حتى ينتقم الله .. فالمصرى يرى أن (دولة الظلم ساعة) وأن (الظالم له يوم) وهو يصبر انتظارا لهذا اليوم أن يأتى ، بدلا من المبادرة بالرد على الظلم ، وقد اثبتت الأيام له صدق هذا المعتقد ، وإلا لما بقيت كل هذه الأمثال تحبذ الصبر وتعدد مزاياه وتدعو له .. تاركة الأمور لتحلها الأيام ، وفى ذلك أيضا قالت الأمثال :

- لو صبر القاتل على المقتول كان اتقتل وحده .

- يا يموت العبد يا يعتقه سيده .

- صبرى على نفسى ولا صبر الناس علىّ (أو صبر الجزار علىّ) .

- الجايات أكثر من الرايحات (وعد بأن الفرص آتية بكثرة للانتقام) .

- أصبر على جار السوء يا يرحل يا تجيله داهية .

هذا ويختلف مفهوم الصبر عند المصرى ، ويتدرج من قمة الاستعلاء إلى قاع الذلة والمسكنة .. فكما يلاحظ د. سيد عويس :

«إن المفاهيم الثقافية تتطور وتتغير ، وإذا بقيت بألفاظها فإن معانيها فى ضوء الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية

فى المجتمع تتطور وتتغير كذلك . فقد يعنى اللفظ المفهوم معنى معينا فى ضوء ظروف معينة . وفى ضوء ظروف أخرى قد يعنى معنى آخر والأمثلة عديدة» .

«فالصبر كقيمة اجتماعية قد يعنى فى بساطة (حبس النفس عن الجزع) والصبر بهذا المعنى قيمة اجتماعية ايجابية . فالحياة الإنسانية لا تخلو من الجزع . وهى كذلك لا تخلو من الطمأنينة ، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن مفهوم الصبر لا يعنى حبس النفس عن الجزع دائما .. فقد يكون صبرا على الضيم . وقد يكون صبرا على الإهانة . وقد يكون إذعانا إلى حد الذلة والضعة . وقد يكون صبرا على ضياع الحقوق '» (١).

وأيا ما كان المعنى والمدلول الخاص بالصبر الذى يمارسه المصريون فهى سمة أساسية فى الشخصية المصرية .. يمارسها العامة والخاصة بتسليم ، والصبر نابع من التدين المصرى الذى لاشك فيه .. وإن كنت أعتبر الصبر على الإهانة والظلم إحدى سلبيات المصرى .. فى حين أن صبره على المشاق وتحمله لها .. إحدى ايجابياته .

وكعادة الإنسان المصرى فى السخرية ممن يقحم نفسه فى شئ فيصيبه الأذى .. يسخر المثل الداعى للصبر من هؤلاء قائلا :

- اللى يكرى (طيزه) ميحسش عليها .

(١) د. سيد عويس ، الازدواجية فى التراث الدينى المصرى ، ص ٣٢ .

- اللى يعمل طهره قنطرة يستحمل الدوس (وتقال أيضا فى الخضوع) .

- اللى يعمل خده مداس يستحمل الدوس .

ويسخر المثل من اللجوجين حتى فى شئ لا يعنيهم فيقول :

- أصحاب الميت صبروا .. والمعزيين كفروا .

والمثل المصرى يرى أن من لا يصبر كافر .. ذلك أنه يرى الصبر هبة من الله :

- الصبر من عندك يا رب (دعوة لاستجلاب الصبر) .

- يا رب ألهمنا الصبر .

- يا رب صبرنا .

وتحبيذاً للصبر يدعو المثل الناس إلى المقارنة ، بين مصابهم ومصاب غيرهم ؛ حتى يهون عليهم ، ويستطيعون الصبر عليه وتحمله ، فيقول :

- من شاف بلوة غيره هانت عليه بلوته .

- اللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته .

هذا وتزخر الأمثال والتعبيرات الشعبية بالكثير من عبارات التهوين من البلايا ، وتصبير الناس عليها ، بتقريب البعيد ومحاولة استعجال الحل ، ولو بالكلام أو الوعود بأن الأيام تمر سراعا ، وأن الوقت كفيل

يحل كل المشاكل والمعضلات ، وكنماذج على ذلك الأمثال القائلة :

- فات الكتير ما بقى إلا القليل .
- كل آت قريب (عربى متداول) .
- ربنا يقرب البعيد .
- كلها شهر وشهير والتانى قصير و ....
- كل شئ بأوان (أى أصبر ولا تلج ولا تقلق) .
- آهى ليلة وتعدى (أو آهى ليلة فراقها صبح) .
- كل شئ وله آخر (أو اللى له أول له آخر) .

بعد كل ما أوردناه من أمثال عن الرضا والتسليم والصبر والاحتمال ، لاشك أن المصرى - كنتيجة مستخلصة من واقع الدراسة التطبيقية : ميال إلى الصبر ، فهو وسيلته فى الاستعلاء على المحن واحتمالها ، وترى دكتورة نعمات فؤاد أن المصرى تعلم الصبر من الزراعة التى علمته «الصبر الطويل الرحيم ، وسعة الصدر ، والسكينة والمسالمة وطمأنينة الرضا وجلال التواضع» ، وأنا أرد كل هذه السمات ، ليس إلى عمل المصرى بالزراعة فقط - فهى عامل واحد - نضيف إليه العامل الأهم وهو التدين الذى علم المصرى الإدراك العميق للأمور ، والعشم فى وجه الله . ولذلك فالمصرى صابر مع

عقيدة ثابتة لديه بأن الصبر والاحتمال بطولة .. فهو بطل لا يبارى في القدرة على التحمل لدرجة الاستشهاد .. وإن كنت أرى أن المصرى يبالغ أحيانا فى صبره !! الذى قد يودى به إلى حتفه ، ويجعله يستكين لأمور غير مقبولة أو معقولة ، ويستسلم للظلم والقهر والعنت ،، فيما يشبه الخضوع المطلق ، ولفترات طويلة تثير العجب !! لكنى ألاحظ أن الشخصية المصرية تستعذب الألم والشكوى ، إلى حد يصل أحيانا إلى المذلة .. بل إنه يستعذب الشعور بأنه شهيد وضحية ، ويستعذب الشعور بالظلم والضيم ، ويستشعر البطولة فى تحمله للألم والعذاب والهموم ، ويرى أنه بذلك يتحمل ما لا تستطيع حمله الجبال أو الأبطال ، ويرى نفسه بطلا فى التحمل والصبر ، وكأن الصبر الذى هو فى الأصل حيلته الدفاعية التى يرد بها الظلم والقهر .. قد أصبح غاية وهدفا فى حد ذاته .. يتمسك به ، ليثبت لنفسه أولا وللآخرين - ثانيا - قدرته وبطولته ، ومن قبل كل ذلك إيمانه وتدينه ، ولذلك نجد أن أحد الحكم العربية التى يلتزم بها المصرى ، ويجعل منها تحديا للصبر ولذاته معا :

- سأصبر حتى يعجز الصبر عن صبرى ، وأصبر حتى يأذن الله فى أمرى ، وأصبر حتى يعلم الصبر أنى صبرت على شئ أمر من الصبر .

ونجد هذه المقولة ليس فقط على الألسنة .. لكنها مطبوعة فى لافتات تعلق في بعض الحوانيت .. وفي بيوت البسطاء من الناس .

هذا ومن الأمـور المهمة الأخرى التى تعكس تدين المصرى ، وإيمانه ، وأيضا تسليمه واستسلامه للأمور التي تأتيه من الله ، أو من غيبيات لا يعرف مبررا لها «المرض والموت» وهما أمران يشعر المصرى تجاههما بالعجز ، والحتمية ، ولا يملك أمامهما إلا التسليم .. ولذلك نحلل فيما يلي مضمون الأمثال الشعبية التى تناولت المرض والموت ؛ لنتعرف على رأى المصرى فيهما ، وموقفه منهما .. وسلوكه أو تصرفه حيالهما .

بداية لابد من الإشارة إلى خاصية مهمة فى الشخصية المصرية .. ربما متوارثة منذ العصر الفرعونى ، وهى تقديس الموتى والإهتمام بممارسة طقوس متعددة لتوديع الميت ، والحزن عليه ، كإعلان الحداد والحزن ثلاثة أيام متصلة ، ثم إعلانه والتجمع من أجله مرة ثانية كل يوم - خميس ، ولمدة أربعة أسابيع ، ثم عمل خاتمة للأربعين كيوم حزن ، يستتبعها الإحتفال بالذكرى السنوية ، ولعدة سنوات ، والإعلان عن الحزن فى الصحف .. ولعل صفحة الوفيات فى الصحف اليومية المصرية ، وما تزخر به من صور ، ومن عبارات تعلن عن الحزن والأسى والاستمرار فى ذرف الدموع ، والحفاظ على الذكرى، وهى عبارات

موجهة بالخطاب للموتى أنفسهم .. لعل هذا الأسلوب فى الإعلان عن الحزن لا مثيل له فى أى بلد عربى آخر ، إن لم نقل انه لا مثيل له فى كل أنحاء العالم ، فهو خاصية مصرية مميزة وذلك عدا عن لبس السواد لسنة أو أكثر ، وما كان مصاحبا لذلك - إلى ما قبل عقدين - من عدم استخدام المذياع أو التليفزيون ، وعدم الاشتراك في أى مناسبة مفرحة ، أو الذهاب للاصطياف ، أو الاحتفال بالأعياد وما يستتبعها من عمل الكعك وخلافه - وذلك لمدة سنة على الأقل - وكأن المصريين يستعذبون الحزن والشجن والأسى ، ويمارسونه بحب وشغف ملحوظ .. وإن خفت حدة هذه الممارسات الآن ، خاصة فى القاهرة وفى المدن الكبرى ، مع احتفاظ أهل الريف والصعيد وسكان الأحياء الشعبية بمعظم هذه الطقوس والممارسات ، ناهيك عن التعبير عن الحزن على الموتى بأساليب أقل ما يقال عنها اتصافها بالعنف والمبالغة - وهى سمة أخرى فى الإنسان المصرى سنتناولها فيما بعد - إذ يبالغ المصريون عادة فى حزنهم وأيضا فى فرحهم .. ومن هذه الممارسات : لطم الخدود وشق الجيوب والصراخ والعويل ، والندب وتعديد صفات الميت ومحاسنه بكثير من المبالغة ، وكأنه ملاك مطهر من كل سوء ، ومن كل نقيصة .. ناهيك عن تعفير الرؤوس بالتراب ، وصبغ الوجوه بالطين أو النيلة الزرقاء - وإن كانت هذه المظـاهر قد بدأت تخف عن السابق إلى حد

ما - مع الاحتفــاظ والاهتمام بإعلان الحزن على صفحات الصحف ، وإتخاذه وسيلة للتفــاخر بالأنساب والألقاب ، والعزوة ، والمراكز المرموقة لأقارب الميت ، وظاهرة أخرى مستحدثة وهى تكبير صورة الميت ووضعها فى إطار مميز وكتابة النعى أو الشكر أو الذكرى بخط كبير .. رغم ما يتكلفه ذلك من أمــوال طائلة ، وما يجره من مشاكل إذا ما سقط سهوا اسم من اسـماء أهل الميت .. وهى أمور معروفة للجميع ولا يكاد يخلو بيت مصرى منها .. فيما يتعلق بالصـفوة التى تهتم بالإعــلان فى الصحف ، وتلقى البرقيات ، وعمل احتفالات فى سرادقات ، وجنازات تتكلف الكثير (★) . ومع ذلك يتمسك بها المصريون بإصرار ، ويتمسك بها من لا يملكون ما يفعلون به ذلك . بالإعلان عن حــزنهم بالأســاليب البدائية - السابق الإشارة إليها - فى الإعلان عن الحزن .. والمبالغة فى ذلك إلى حد يصل إلى شبه تأليه للميت ، واعتباره وليا من الأوليــاء ، بما يصبغون عليه من صفات - وألقاب «المرحوم ، الغالى» وما إلى ذلك .

ويتناقض هذا الحال مع ما تعكسه الأمثال الشعبية من إيمان المصرى بأن الموت قدر محتوم لكل حى ، وأنه لا مهرب منه ، ولا وسيلة

(★) لعــل تصوير الجنــازات بالفيـديو هى آخر صرعات بعض المصريين فى مناسبة الموت .

لتجنبه ، والدعوة إلى الصبر في مواجهته ، وتقبله دون جزع كواقع مرير لا مفر منه .

ومن الأمثال التي تؤكد على التسليم بالموت وحتميته علينا جميعا ، وأنه لا رد له ، ولا سبيل إلى تقديمه أو تأخيره عن الموعد المكتوب في السماء :

- الموت كاس داير على العباد .
- الموت سيف على رقاب العباد .
- الموت علينا حق .
- أبو جوخة وأبو فلة في القبر بيدلى .
- آخرة الحياة الموت .
- كلها عيشة وآخرها الموت .
- لكل أجل كتاب (قرآن كريم) .
- اللى بيروح مبيرجعش .
- ابن يومين ميعيش تلاتة .
- العمر واحد والرب واحد .
- الأجل محتوم .
- اللى جرى واللى مشى ماراحش من الدنيا بإشى .
- الأعمار بيد الله .

- مادايم إلا وجه الله .

- محدش بيموت ناقص عمر .

- إحنا ضيوف على الدنيا (أى لابد راحلون).

- النهاردة دنيا وبكرة آخرة .

- اللى ما يموت اليوم يموت بكره .

- اللى ما يموت منين يفوت .

- ربنا ما سوانا إلا بالموت .

- القبر ما يرجعش ميت .

- كتروا باللمة لا بد عن الفراق.

- يا دوم ما لك يوم .

- إدينى عمر وارمينى البحر .

- الحي ما له قاتل .

- ياهلترا مين يعيش لبكره ؟!

ذلك عن الحتمية على الجميع غنيا وفقيرا ، وعن الأجل المقدر باليوم لا يستقدم ولا يستأخر.. ولكن ماذا قالت الامثال عن الموت ترحيبا او رفضا وكراهية.. بما يؤكد أو يدحض حب المصرى للحياة برغم قسوتها، وكراهة الموت.. وإن كان راحة من مشاق الدنيا.. تقول الأمثال المحبذة للموت ، هربا من حياة قاسية أو فضيحة أو عناء :

- الراحة يوم الراحة أى يوم الموت ستكون راحتنا .

- الموت راحة .

- موته ستره يقال لطلب موت انسان سيىء .

- موت البنات سترة .

- الندب بالطار ولا قعاد الراجل فى الدار (أى الموت افضل من البطالة .

- من عرف مبتداه هان عليه منتهاه ..

وربما ترجع تلك النظرة الى الموت الى اصول فرعونية قديمة إذ أثر عن عنخ شاشنقى قوله : الموت خير من الحاجة (١) ويظهر معناه اعتزاز المصرى بكرامته، وتفضيله للموت على الاحتياج والفقر وتقديره للمال بوصفه قيمة وكراهته للفقر وتفضيل الموت عليه .

أما الأمثال التى تؤكد على كراهة الموت.. وأن أسوأ حياة أفضل منه، وأنه أمر محزن حقا.. فمنها ما يقول :

- الطفل يكبر والشعر يتربى حزنى عليك يا ساكن التربة .

- موت وخراب ديار .

- الموت له رهبة أي مخيف .

- اللى سلم من الموت اتجنن ..

- ما بالميت موته ، وما به زنقة القبر (أمران أسوأ من بعضهما) .

---

(١) محمد عبد الحميد بسيونى، آداب السلوك ، ص ١٦ .

- ألف عيشه بكدر ولا نومة تحت الحجر .

- أقل عيشه احسن من الموت .

- العمر مش بعزقة أى لا ترم بنفسك للتهلكة والموت !

- اللى ماتت عشيرته ياحيرته (أهله وزوجته) .

حد يروح للموت برجليه ؟!

(استنكار لطلب الموت) .

ومما سبق يتضح أن المصرى يكره الموت كقاعدة عامة ويراه خرابا للديار وأمرا مخيفا له رهبة ، وأنه جالب للحيرة والحزن ، ويفضل عليه أقل حياة ولو بكدر وغم وذلك فإن تسعة امثال فى مقابل اربعة امثال فقط تطلب الموت مضطرة أمام قسوة الحياة ، اعتقادا فى أن الموت قد يجلب الراحة من الشقاء والبطالة والفقر ويكون سترا من الفضائح .

ولعل غلبة الأمثال التي تؤكد كراهية المصرى للموت بأكثر من ٥٠٪ تبرر المبالغات التى يمارسها المصريون حياله.. فرغم أن رؤية المصرى للموت كحق فى الموعد والمكان المقدر الذى لا يقدم ولا يؤخر فإيمان المصرى بذلك حتمي - وإن كان لا يملك حياله إلا الجزع والتنفيس عن كرهه له بما يمارس من مبالغات وتصرفات تبدو مستنكرة ومتناقضة مع تدينه .

هذا وإن كان المصرى يوقن أن علمه عند الله.. وهو علم غيبى لا يستطيع تحديده .. فالموت عند المصريين لا سبب مباشرا له - ولا حتى المرض - ولا يجدى لتجنبه الحذر والوقاية من الأمراض ، بل لعل ذلك أحيانا مجلبة للموت فالموت فيه عنصر المفاجأة ويأتى لنا دون سابق استعداد أو تأهب ، وأن الله حكيم - يبتلى ويدبر - وهو ايضا يختار أفضل الناس بدقة، ويترك السيئين ، وفى ذلك تقول الأمثال:

- جالك الموت يا تارك الصلاة، أى دون تأهب له .

- التراب بينادى صاحبه (ليموت فى المكان المقدر له) .

- ربنا بيقطع من هنا ويوصل هنا (ويقال ايضا فى قطع الرزق).

- محدش عارف الموت من الحيا .

- طبق نحاس يا ما يفنى ناس .

- من عاش بالحكمة مات بالمرض او مات بالنقمة .

- من يعاشر الحكيم يموت سقيم .

- قال ايش حال مريضكم قال سليمنا مات .

- أخذه يزين جنته .

- راحت الناس وفضل النسناس .

- ما يقعد على المداود إلا شر البقر (أو ما يبقى على المداود).

وكعادة المصرى لا يستطيع أن يتخلى عن سخريته حتى فى أحلك

المواقف وأسوأ الأمور. وفي مقدمتها الموت كأسوأ ما يصيب انسان – ولكن مم يسخر المثل ؟! يسخر من بعض الموتى الذين لا يرى قيمة لهم وأن الموت طالما قبض ارواح من هم افضل منهم ويسخر من اساليب الحزن والمبالغة فيها كنقد ذاتي يمارسه المصرى حيال نفسه – ويعطي العبرة للأحياء بسخريته ممن يتكالبون على الميراث أو يبالغون في الأحزان ومن يغترون بالدنيا وينسون أنهم يوما ما تاركوها . وأكثر ما يسخر منه المثل الشعبي المبالغة في مدح المتوفى . ووصفه بما ليس فيه، ونسيان كل مخازيه .. وفي ذلك يقول :

– لما راح المقبرة بقى في حنكه (★) سكره .
– إن مال لقاش زيه يبقى يرجع (استهانة بالميت) .
– الجنازة حارة والميت كلب.
– يموت الجبان يبقى فارس خيل .
– عاشم ما ريحونا ماتم ما ورثونا .
– حسبوه علينا نفر أو فارس خيل .
– غسله واعمل له عمة قال أنا مغسل وضامن جنه .
(او يكتفى حاليا بالنصف الأخير من المثل) .
– قال يا وارث من يورثك ؟ ويا باكى مين يبكي عليك .
– ما يبكى على الميت إلا كفنه .

(★) وتقال ايضا من باب المبالغة والتهويل بقى في طيزه سكره .

- قال مال الجنازة حارة ؟ قال كل واحد بينعى أو يبكى حاله .

- المعددة تعدد وكل واحده تبكى بكاها .

- بكره تموت يا أبو جبه . وأعمل لك فوق قبرك قبه (تهكم على المتباهى) .

- حزن الهلافيت الوسخ والشراميط .

ونظرا لأهمية الموت كحدث ، والموتى كأفراد عزاز .. يعتقد المصرى أنهم خيار الناس وافضلهم ويتناسى مخازيهم ، ولا يذكر إلا المآثر ويدعو الى ذلك بإلحاح فرغم سخريته ممن يبالغون فى ذلك - كما سبق القول - نجد الأمثال تضع قاعدة وقانونا لذكر محاسن الموتى فقط ، وتجنب الاساءة اليهم ، كما تضع قواعد كثيرة لمعاملة الموتى.. كسرعة الدفن . وتسليم الميت لاهله فهم أولى به ومن هذه الأمثال نذكر :

- إكرام الميت دفنه .

- الضرب فى الميت حرام يقال طلبا للرحمة بدلا من السب .

- اذكروا محاسن موتاكم .

- اللحم إن نتن مالوش إلا أهله .

- الحى أبقى من الميت .

- كرامة الميت تظهر عند غسله .

وقبل أن ننهى الحديث عن الموت لا بد أن نذكر مثلا مهما يتردد

كثيراً فى معنى أخر هو حب المصرى أن يعيش اللحظة دون الاهتمام بما قد يحدث له فى الغد .. وإن كان هذا المثل ايضا يعكس ايمان المصرى بأن الموت آت لا ريب فيه ، وقريب جدا -- قد يكون فى الغد ، وهو المثل القائل ·

- احيينى النهارده ، وموتنى بكره .

وهو مثل يتفق عليه أغلبية الشعب المصرى، وقد أجرت دكتورة فاطمة المصرى استبيانا لقياس الميل للاستمتاع باللحظة الراهنة وترك أمر الغد للغد متخذة هذا المثل مقياسا لذلك فوافق عليه أو على الاعتقاد فى صحته ٧٢.٥٪ اجابوا بنعم في مقابل ٢٧.٥٪ اجابوا بلا.. وقد أرجعت دكتورة فاطمة المصرى ذلك الى الضغوط التي تحيط بالفرد في الوقت الحاضر.. وسنناقش ذلك فيما بعد فى تناول الجوانب الاقتصادية فى حياة الانسان المصرى ، ويرتبط ذلك ايضا باتكالية المصرى ، وعدم استعداده للغد، بما يجابه ما قد يأتي به الغد من شرور فهو يترك أمره لله معتمدا عليه غير متحسب للغد .. ويعلنها هذا المثل صراحة.. حتى لو كان الغد سيأتيه بأسوأ ما يمكن وهو «الموت» .

ولعل المصرى المعاصر الان لا يتحسب كثيرا حتى للموت .. وذلك لأنه يعانى أكثر . ويتحمل ضغوطا اكبر ولذلك نجد الكثيرين يصفون من مات بأنه ارتاح .. ولم يعد لدى المصريين المعاصرين نفس المشاعر

تجاه الموت نتيجة للايمان بأن الآخرة تدخر للمؤمنين ما هو أفضل من الدنيا - وسيتضح ذلك حينما نناقش نظرة المصرى للدنيا والزمان وأحوالهما وتقلبهما ، فقد كانت أولى خطوات المصرى القديم فى مواجهة الموت هى الايمان بخلود الروح (١) ولذلك كان الفراعنة يعدون العدة للحياة الاخرة.. ويحسبون لها الف حساب.... ويزودون الميت فى قبره بكل ما قد يحتاجه وكل ما يكفيه من مئونة فى العالم الاخر. وكان الاعتقاد بهذه الحياة الاخرى تعبيرا مباشرا عن رفضهم التام للموت كحل نهائى لمشكلة المصير من ناحية وتعبيرا عن هربهم من الموت والرغبة فى مواصلة الحياة ، فكان ان تصوروا هذا الامتداد قائما خلف هذه الرقدة الغامضة المفاجئة (٢) .

وهنا لابد من وقفة نتأمل فيها الامثال او الحكم الفرعونية التى تناولت الحياة والموت وفلسفة مجابهتهما ونذكر على سبيل المثال لا الحصر بعض الأقوال التى تعكس الى حد ما أن نظرة المصرى لمتعة الحياة ولرهبة الموت هى امتداد لرؤية المصرى القديم ، فمن اقوال بتاح حتب حول هذا الموضوع :

- كن صبوح الوجه ما دمت حيا (٣)

---

(١) ابراهيم ابو سنة ، فلسفة المثل الشعبى ، ص ١١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١١٥ .

(٣) محمد عبد الحميد بسيونى آداب السلوك ص ٧٣

- اقض اليوم في سعادة .. ولا تجهدن نفسك فإن احدا لم يأخذ متاعه معه .. اصغ فليس في قدرة اسنان قد ولى ان يعود ثانية (١).

- لم يأت أحد من هناك ليحدثنا كيف حال من قبلنا ويخبرنا عما يحتاجون اليه ... كن فرحا حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوما ما بموتك فمتع نفسك ما دمت حيا .

- لا تغضب قلبك حتى يأتى يوم نعيك .

- إن صاحب القلب الساكن لا يسمع عويلهم .

- وان الصياح لا ينجى انسانا من العالم السفلى (٢)

ويتضح مما سبق مدى اتساق وامتداد الفكر المصرى عبر العصور ومنذ الأزل .. وسيتضح ذلك ايضا اذا ما قارنا كثيرا من الحكم الفرعونية بما هو سائد الآن من أمثال حول الاستمتاع بالحياة إلى أن يأتى الموت.. بل وأكثر من ذلك اقتناص ساعات الحظ. ، والإيمان بأن الأمور كلها من عند الله ؛ الثروة والمصير وكل شىء ، وبالمقارنة أو المقابلة سنجد فكرة أن الذى (راح راح يا قلبى أو إن اللى بيروح ميتعوضش) قد عبر عنها بتاح حتب بالقول إن ما يخرج من الشونه لن يعود فيدخلها وأن (ساعة الحظ متتعوضش) ، يقابلها اياك أن تبتر ساعة المتعة (٣) وغير ذلك كثير - كما سنأتى على ذكره كلا فى حينه .

٣- نفس المرجع ص ٧٤ ، ٧٥.

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٤

(٣) المرجع السابق ص ٩ - ١٠ .

أما المصرى المسلم المؤمن فقد تأثر لفترة بالنهج الفرعونى وإن تخلص منه الآن واصبح يضع الميت فى أقل وأبسط الاكفان مؤمنا أن ما سينفعه حقا فى الآخرة ابتداء من القبر وحسابه هو عمله فقط.. ولذلك يقول المثل :

- الكفن ما لوش جيوب .

- ما ينفع ابن ادم الا عمله .

- ايه .. واللى قبلنا خدوا ايه .؟!

هذا ويعلم المصريون أن ما يمارسونه على سطح الارض من مظاهر الحزن والاحتفال ، ما هى إلا مظاهر دنيوية يفاخرون بها على بعضهم .. أكثر من إيمانهم بجدواها للمتوفى بل لعل الأغالبية الآن لا يذكرون موتاهم لأكثر من عام أو عامين ، ثم تجرفهم مشاغل الحياة ومصاعبها .. فيتلهون بأنفسهم وأمورهم ناسين موتاهم ، مترحمين عليهم كلما تذكروهم ، وأحيانا حاسدين لهم على ما هم فيه من راحة من مشاق الحياة .

ذلك وإن ظل الشعور المصرى بقيمة الفرد وأهميته لهم ، خاصة بالنسبة لأسرته وأهله باقية سواء كقيمة اقتصادية نفعية أو قيمة معنوية ناتجة عن الترابط الاسرى والاجتماعى ، الذى كان اقوى ما يمكن الى ما قبل ثلاثة عقود على وجه التقريب .. كما أن

كثرة النسل وايضا مواجهة المصرى المعاصر للموت اصدقاء او اقرباء او معارف ومواجهة الموت الطبيعى او نتيجة للحوادث الكثيرة وللحروب الطاحنة .. قد جعل المصرى يتقبل الموت كواقع يومى ولا يكترث له طويلا كسابق عهده إلا بمجرد الحزن او الاسى القصير الوقت ثم لا يلبث أن ينصرف الى مشاغله .. دون الوقوف عند الحزن طويلا كما في السابق وذلك فى حد ذاته تغير وتطور فى الشخصية المصرية التى كانت تقدس الموت والموتى وتحتفل بهم ايما احتفال .. بل كانت تنظر الى الموت كعالم مجهول ، ملىء بالتصورات المبهمة والغامضة عن المصير .. لكن الايمان بالديانات السماوية وما قدمته من تصورات جاهزة للحياة بعد الموت ، من حساب وعقاب وجنة ونار قد حلت امام المصرى معضلة الموت وجردتها من غموضها ، ليصبح الموت مصيرا حتميا لكل حى معلوما ما وراءه الى حد كبير ، خاصة بالنسبة لشديدى التدين والايمان ، ومن يسلمون تلقائيا بكل ما ورد فى الديانة الاسلامية او المسيحية عن الحياة الآخرة والدخول فى ملكوت الله . ولعل من ينظرون الى لغز الموت بخوف ورهبة ، ويفكرون كثيرا فيما وراءهم هم الأقل ايمانا او الملحدون وهم قلة لا تكاد تذكر فى الشعب المصرى - المعروف بالتدين الصادق وعموما فالمصرى يرى فى اولاده امتدادا لحياته - فهى عقيدة لديه - لا يقولها فقط من

باب الدعوة للصبر فى مواجهة الموت لكنه مؤمن بها ، ويتضح ذلك فى المثل القائل :

– اللى خلف مماتش أو من خلف ما مات .

وغيره كثير مما سنذكره حينما نتحدث عن الأبناء وكيف تناولتهم الامثال الشعبية .

من كل ما تقدم نستطيع أن نقول : ان المصرى عبر العصور كان ذلك الانسان المتدين الذى يسلم بما تأتى به ديانته ... حتى بالنسبة للغامض والمبهم من الأمور : وذلك ما جعل المصرى القديم يعتقد فى الأبدية والخلود ويعلمهما للآخرين . بمعنى تجاوز الحياة الدنيا الى ما بعد الموت او اتجاوز الحدود الى ما بعد العدم وأن يمد جسورا من الايمان بين الارض والسماء ، بين عالمنا والعالم الآخر وأن يكون الفناء جزءاً من البقاء، فلا ضياع ولا انقطاع فالموت انتقال من حياة الى حياة، لذلك لا أحد منا يقطع صلته بالموتى .. لقد احب المصريون الحياة ، فانتصروا على الموت بالخلود ومن حبهم فى الحياة ، لاينطقون اسم الموت بل يقولون رحل إلى السماء او انتقل الى الرفيق الاعلى او توكل .. وكان الفراعنة يقولون : سافر حيا او عبر الى الضفة الاخرى او انتقل الى الحياة الاخرى – حيث النعيم – فالموت اذن ليس شرا ولا فناء .. وإنما سلم للصعود الى عالم افضل (١) ذلك هو مفهوم المصرى

---

١ – عادل حموده كيف يسخر المصريون من حكامهم ص ٤٥ .

القديم للموت ولعل آثارا باقية منه الى الآن دعمتها الديانات السماوية..
وظل المصرى على اعتقاده بأن الديمومة هى الآخرة .. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وأن الآخـرة خير وأبقـى .. و إنه مع المسيح ذلك افضل جدا ..

ومنذ العصر الفرعوني والملك خيتي يخاطب ابنه مسديا اليه النصيحة قائلا : لا تجعل عقيدتك في طول الحياة الدنيا .. ولا تغتر بها فإن وقت الحياة الدنيا قصير كساعة واحدة على الارض. ولا يبقى للانسان فى آخرته إلا عمله فهو كالكنز الثمين (١) .

هذا ويجرنا الحديث عن الحياة والموت ونهاية كل حى الى رؤية المصرى «للدنيا وأحوالها» والزمن وتصاريفه ، والدهر والأيام وتقلبهما وتبدل الأحوال معهما وإيمانه بأنه ما دايم إلا وجه الله) .

فالمصرى يصف الدنيا في امثاله الشعبية فيقول :

- الدنيا غداره ويقال أيضا الزمن غدار .
- الدنيا فانية .
- الدنيا بلايه .
- الدنيا قلابة دواره او دولاب داير .
- الدنيا متستهلش او ماتسواش .
- الدنيا مبتدمش لحد او متبدمش على حال .

(١) عبد الحميد بسيونى اداب السلوك ص ٦٢ .

- الدنيا وحشه .

- الدنيا ما تنضمنش .

- الدنيا مش دايمة .

- الدنيا يوم ، (أى قصيرة) .

- الدنيا غروره .

- الدنيا على كف عفريت .

- الدنيا ميتبكيش عليها محدش يبكى عليها او اللى راجع الدنيا يبكى عليها .

- الدنيا لمن غلب اى للآقوى .

- ملعون ابو الدنيا .

- أدى حال الدنيا تقال فى الموت والمصائب .

وإن كانت هذه هى الصفات السيئة التى وصف بها المثل المصرى الدنيا فى كلمة واحدة موجزة لمعان كثيرة .. حتى وصل به الحال الى لعنها . فهناك امثال تفصل القول ، وتقدم مقدمات ونتائج للتعامل مع الدنيا فى عبارات بليغة وكنموذج لذلك :

- محدش واخد منها حاجة .

- إن كان بدك تشوف الدنيا بعد عينك شوفها بعد غيرك .(فى الاتعاظ من الموت) .

- الدنيا زى الغازية ترقص لكل واحد شوية .
- الدنيا اشغال شاقة . وآخرتها الإعدام .
- الدنيا تلاهى حازوها الملاهى . وفاتوها كما هى .
- أولها عيشة وآخرتها موت .
- الدنيا مبتديش محتاج اى عنيدة .
- الدنيا لا بتخلى الماشى ماشى. ولا الراكب راكب .
- الدنيا بدل يوم عسل ويوم بصل يوم لك ويوم عليك .
- الدنيا يوم تدى ويوم تاخد .
- ساقية يوم فى العالى ويوم فى الواطى .
- الدنيا اللى متغطى بيها عريان (المتغطى بالايام عريان) .
- الدنيا حلوة على مرة . ومرها اكثر .
- الدنيا زى المرجيحة تجيب الواطى عالى والعالى واطى .
- هى دامت لمين يا هبيل (فى معنى لو دامت لغيرك ما آلت اليك).
- اللى يبكى على الدنيا يدور عليها او مين يبكى عليها .
- اللى يعيش فى الدنيا ياما يشوف عجب ..

ومن محصلة ما سبق من أمثال يمكن أن نقول : إن المثل المصرى يكيل للدنيا الكثير من المعايب لفظا ومعنى فى كلمة أو عبارة وإن استدرك احيانا .. وتذكر أن لها وعليها . فإذا اردنا ان نحصى كميا ما

يصف به الدنيا من مثالب.. قياسا بما يذكره لها من طيبات .. أو ما يذكره لها بموضوعية وواقعية من سلبيات وايجابيات سنعجب للفارق الرقمي .. فما يذكره من محاسن يرد في امثال قليلة العدد بقى منها متداولا :

- الدنيا لسه بخير (وهو استدراك لا ينفى السوء) .
- يا سلام على الدنيا لما تضحك (استغراب لاحوالها الحسنة) !
- ارزاق يا دنيا !

وباستعراض المعاني والصفات التي يرصدها المصرى للدنيا نجد أنه يراها غير معطاءة .. وإذا ما أعطت لا تعطى المحتاج فهى عنيدة وعجيبة في تصرفها .. وخائنة غادرة لا تؤتمن. ومتقبلة متأرجحة غير مضمونة ، وقاسية بما فيها من عمل شاق ومشاغل لاهية .. وسيئة.. وحتى إن كان فيها حلاوة فمرارتها أكثر.. وهى «فانية» كخلاصة للقول.. وعلى كف عفريت أى غير مستقرة.. وهذه الصفات على كثرتها وتنوع صياغتها في الامثال يبلغ عددها اضعاف الصفات الطيبة التى أتت على استحياء، لتؤكد أنها ما زالت تحمل خيرا من باب المواساة وأنها احيانا تضحك .. وإن كان المثل يعجب لها حينما تضحك ! وترزق أحدا ، وكأنه يقول: إنها لما تضحك وترزق أحدا تفعل ذلك دون منطق، وبمبالغة عجيبة .. وإذا كان ما اعلق به كتحليل كيفى فقط للأمثال التى تصف الدنيا

تحديدا ولم اورد تحليلا كميا له فذلك لأن وصف الدنيا وأحوالها في المثل المصرى لم يقف فقط على لفظ الدنيا .. بل تجاوز هذا اللفظ وتحدث مجازا عنها بمسميات اخرى هي الدهر ، والزمن والأيام فقال :

- زمن صعب .
- عجبت لك يا زمن .
- يا زمان العبر .
- الزمان يقلب ويعابر (اى يفعل ما يريد) .
- الزمان ما لوش امان .

هذا ويرصد المثل ايضا للزمن والأيام صفات طيبة هي :

- الزمن مداوى .
- الايام كفيلة تصلح كل شيء.

ويوصي المثل الناس بكيفية التعامل مع الدنيا ، بأوامر واضحة صريحة ، فيقول ناصحاً :

- الدنيا مراية توريها توريك .
- إضحك تضحك لك الدنيا .
- الدنيا أخذ وعطا (أى تعاون)
- إن نام لك الذر متتاملوش (أولا تنم له).

هذا ويفلسف المثل الشعبى أحوال الدنيا ، وتصاريف الزمن ،

خاصة من حيث «تبدل الأحوال » ، وما ينتج عنه من ظهور طبقات طفيلية محدثة نتيجة لهذا التقلب غير المبرر .. وسنلاحظ أن هذه الأمثال تعكس إيمان المصرى كما تعكس ايضا سخريته اللاذعة ، كما سنلاحظ أن بعضها من الأمثـال العربية الفصحى المتداولة ، وكأنها عامية شعبية ، ومن الأمثال الدارجة التى مازالت متداولة تعبيرا عن تبدل الأحوال :

- سبحان مغير حال عن حال (سبحان مغير الأحوال).
- سبحان الذى يغير ولا يتغير .
- كنا فين ؟ وبقينا فينا ؟!
- ماطار طير وارتفع .. إلا كما طار وقع (عربى متداول).
- دوام الحال من المحال .
- اللى أكلوه وز .. وز نزلوه بط ... بط .
- كداب اللى يقول الدهر دام لى .
- جار عليه الزمان (وصف لمن اصابه الفقر بعد غُنى).
- العفش نفش .
- الترعة نشفت . وبانت زقازيقها .
- جه زمن نترحم على فرعون .
- السبع لما يعجز تلعب على ضهره القرود .

– إرحموا عزيز قوم ذل (عربى متداول).

– بعد نومك مع الجديان ، بقى لك مطل على الجيران .

– إن لبست خيشة برضها عيشة .

– إن لبسنا عوايدنا ، وإن ما لبسنا عين وصابتنا .

– حطوا علىّ كلكم ، ياللى الزمان خلانى تحتكم (أو لكم).

هذا ويوصى المثل بأن نتحين الأيام ، قبل أن تقلب لنا وجهها وترينا المكاره .. ويحذر الظالمين من تبدل الأيام والأحوال ، فيقول :

– يا قوم لكم يوم .

– إضحك والضحك رخيص ، قبل ما يغلى ويبقى بفلوس .

– ساعة الحظ ماتتعوضش .

– إن جالك الفرح إنهبه نهبيه .

و«الإحداث » إحدى موروثات تقلب الأحوال وتبدلها ، والمصرى يسخر منه ومن «المحدثين » أو « محدثى النعمة » فى أمثاله بشكل واضح فيقول :

– طلعت القصر إمبارح العصر .

– شىء ما كان له ، ربنا دله .

– محروم اللحمة شاف «بتاع» أمه انهبل !

- الواطى لما يعلى إدعوا له بثبتان العقل .

- معدش فى الخن ريش إلا المقصقص والضعيف !!.

- والله بقى «للخرى » مرة . يحلف عليها الطلاق !!

- كان فى جره وطلع لبره !.

- شبعة بعد جوعة !

- كبر البصل وإدور ونسى حاله الأول .

- مهما الفلاح اترقى تبان فيه الدقة .

- إيش فهم الفلاح فى اكل التفاح .

- المحدث ليلة يطبخ بيات يصرخ .

- هاتوا من المزابل حطوا على المنابر .

- اللى علي علي يابا .

- الانصاص قامت . والقوالب نامت .

- العلامة انكبت . والنخالة قبت .

- الغربال الجديد له شدة .

ويجرنا الحديث - مهما حاولنا تجنب الاستطراد - الى تناول رؤية المصرى «للطبقات والمقامات » .. ونظرته للمساواة بين البشر ليتضح لنا من خلال الأمثال مدى إيمان المضرى بالمساواة من عدمه .. ومدى اعتناقه للطبقية كنظام اجتماعى يجب احترامه .. أو على الأقل التسليم

به بوصفه واقعا معاشا لا مفر منه .. فرضته الأقدار عليه .. فالمثل المصرى يقول عن المساواة مؤكدا لها :

- كلنا ولاد تسعة .

- كلنا ولاد حوا وآدم.

- الناس كلها خير وبركة .

- محدش على راسه ريشه .

- البلاد بلاد الله . والخلق عبيد الله .

- محدش أحسن من حد (مفيش حد أحسن من حد) .

- أحمد زى الحاج أحمد .

- الحسن خى الحسين .

- الناس سواسية كأسنان المشط (عربى متداول) .

- زيك زى غيرك .

- مين يعرف عيشه فى سوق الغزل (أى الناس سواء فى الزحام).

وإذا كان المصرى مازال يعلن عن قناعته بالمساواة فى عشرة أمثال مازالت متداولة بين العامة والخاصة .. فبالمقابل يقول المثل معبرا عن وجود الفوارق والطبقات والمقامات :

- ربنا ما سوانا إلا بالموت (أى هناك فروق والمساواة فى الموت وحده) .

- العين متعلاش على الحاجب .

- الميه متجريش فى العالى (أو ماتمشيش).

- الناس معادن . ومن أغلى المعادن ناس.

- لو كان الاسم بيشترى كان الفلاح سمى إبنه خرى (لتدنى طبقته) .

- تروح فين يا صعلوك ما بين الملوك .

- المقامات محفوظة .

- الناس مقامات .

- اللى ملوش ضهر ينضرب على بطنه (اللى له ضهر مينضربش على بطنه) .

- صوابعك مش زى بعضها (يقال أيضا فى التفاوت والفروق الفردية).

- إن طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشا .

- عمر الفلاح إن فلح .

-أصفر ومعلول وبعدى ولاد الأصول .

- من عرف مقامه فى الهنا بات . ما همه اللى جاى ولا اللى فات .

- اللى يبص لفوق يتعب (أو توجعه رقبته) (وفيه إنكار للتطلع).

ومما سبق يتضح لنا أن احترام المصرى للطبقات والمقامات

واستنكاره لتطلع الفقراء والفلاحين لمن يعلوهم طبقة أمر واحد ، إذ يجعلهم سخرية ويشير الى أنهم مهما طمحوا فلن يكون من بينهم من يصير باشا ، أو يعلو مقامه ، أو حتى يأكل التفاح ، أو يسمى ابنه باسم جميل - فمن اين له ذلك ؟! وهو « عبد مأمور » ، وبقدر ما يحاول المثل الشعبى تصوير استحالة تفوق السفلة من القوم ، وعلوهم على غيرهم «فالميه ماتجريش » و « العين متعلاش » ، « فأين موضع الصعلوك بين الملوك ؟! » ، فلا داع لمجرد محاولة التطلع من قبل من هم أدنى .. حتى لا يتعبون رقابهم .. ورغم ذلك فالمثل المصرى يرسم لهؤلاء القوم طريقا يمكنهم من خلاله العلو - ولو قليلاً - عن وضعهم ، فيقول المثل :

- اللى مالوش كبير يشترى له كبير .
- من كتر كلامه اتقل مقامه .

ويتضح من كمية الأمثال السابقة أن المصرى يؤمن بالطبقية أكثر من إيمانه بالمساواة بين البشر ، وذلك بنسبة ١٠ : ١٥ ، وذلك يتضح ليس فقط من الأمثال .. ولكن يتضح أيضا من سلوك الإنسان المصرى .. واحترامه لمن يعلوه مقاما سواء بالنفوذ والسلطة ، أو بالمال والجاه ، أو الحسب والنسب . ورغم أن الأمور قد تغيرت إلى حد كبير منذ خمسة وأربعين عاما ، هى عمر الثورة الاجتماعية التى بدأت عام

١٩٥٢، وحاولت إذابة هذه الفوارق إلا أن الإنسان المصرى البسيط كثيرا ما نراه مازال « عبدا للمأمور» .. مستكينا خاضعا لمن يعلوه .. ولعل مرد ذلك إلى طيبته وعفويته التى نرصدها له كسمة ثالثة لم يختلف عليها الباحثون في الشخصية المصرية ، فالمصرى عندهم :

- ساخر بما يستتبع هذه السمة من سمات فرعية .
- متدين بما يستتبع هذه السمة ايضاً .
- طيب تلقائى وعفوى بسيط ، كما سيتضح فيما يلى .

طيب عفوى

استقر كثير من الباحثين والمتحدثين عن الشخصية المصرية علي أن المصرى إنسان طيب، عفوى ، ولم يختلفوا حول هذه السمة.. ولكن اختلفوا فى تعريفهم لها، أو تفصيلهم لمعنى الطيبة والمسالمة والعفوية .. فالبعض يرى أن صبر المصرى على الضيم والقهر ، وتسامحه مع ظالميه أو حتي جلاديه ، واستسلامه الطويل لهم ، والاكتفاء بالسخرية والتعالى ، أو التسامى عن رد الظلم بالظلم ، يرجع إلى طيبة قلب المصرى ومثاليته ، واحترامه للآخرين خاصة الكبار أو من يمثلون بالنسبة له السلطة ، سواء السلطة الأبوية أو السلطة فى العمل أو السلطة المطلقة - أى الحاكمة أي كان نوعها - فالمصري فى تاريخه الحديث عندما ثار على مستعمريه وحكامه ، ثار ثورة بيضاء غير دموية

لاتقـاس بحـال من الأحوال بالثورات المعاصـرة التى مثلت فيها الشعوب بحكامها ، ولم تكتف بقتـلهم بل سـحلتهم فى الشـوارع .. وذلك ما لم يحدث فى تاريخ مصـر عـلى إطلاقه ، القديم أو الوسيط أو المعاصر ..

والمصرى بصفة عامة وديع مستكين ، عاطفى بمعنى أنه يغلب العاطفة والقلب على العقل وأحكامه ، فهو محب للآخرين ويرى أنه الرابح فى النهاية إذا ما غلب المحبة على الكراهية، والمودة على العداء فهو في أمثاله يرى على المستوى الفردى أن حب الآخرين من حب الله ورضاه عنه إذ يقول :

- من حبه ربه ، حبب فيه خلقه .

والطيبة بهذا المعنى امتداد لسمته الثانية : «متدين» وما ترتب عنها مثل سمة «صبور» .

والمصرى الطيب بسيط ، يستطيع العيش بأى أسلوب، ويرضى بالقليل - رغم تحسره أحياناً على وضعه - وذلك امتداد لسمة «راضي وقانع» ، وهو بسيط كما يبدو للآخرين .. رغم أنه يبدى أحياناً مكراً يتناقض مع ما يتصوره البعض عنه من طيبة وبساطة ، تبدو وكأنها لون من السذاجة .. ولعل ذلك ما جعل الشخصية المصرية العبقرية المركبة تبدو ششخصية محيرة ، صعبة التفسير والفهم على بساطتها

وعفويتها، ولعل مرد ذلك يرجع إلى اتساع رقعة الأرض المصرية ، وتباين الفئات والطبقات التى تعيش عليها، فالسمة كمفهوم هى : الصفة الدائمة والثابتة نسبيا ، والتى قد تكون موروثة أو مكتسبة ، ولكنها فردية يتميز بها الشخص دون الآخر ، ونستدل علي وجودها من خلال ملاحظاتنا لسلوك وعادات الفرد ، وأفعاله المتكررة .. ولذلك فإن سمة طيب تعتبر سمة سائدة بين الأفراد المصريين .. بل وأحيانا يجمع الفرد المصرى بداخله النقيضين .. ونقر أحيانا بذلك خاصة بالنسبة للعامة والبسطاء من الناس ، ومن أهل الريف على وجه الخصوص، إذ يجمعون أحياناً بين الطيبة والخبث ، أو بين البساطة والسذاجة والمكر .. ويؤتون – بناء على ذلك – تصرفات وأقوالا معجزة ومحيرة ، تجعل من الصعب الحكم عليهم ، أو تفسير مسلكهم المتناقض مع طبيعتهم ، ولعل ذلك ما حدا بهيرودوت إلى القول بأن : مصر بلد المتناقضات.

ولعل التناقض فى الشخصية المصرية الطيبة ، المسالمة، الودودة، الخلوقة ، يعتبر من الظواهر المرضية التى عالجها دكتور سيد صبحى (★) من خلال الأصالة المصرية فى تراثنا القيمى والخلقى ، المعبر عن الشخصية المصرية ، التى لاتعرف إلا الصدق والمروءة والمفهومية فى التعامل والتصرف ، واعتبر الخروج عن هذه الأصالة وهذه السمات الخلقية الكريمة، سلوكا مرضيا بدأ ينتشر عند البعض

(★) أستاذ ورئيس قسم الصحة النفسية ، كلية التربية – جامعة عين شمس .

متمثلاً فى الحيل الهروبية ، وسلوك العدوان والأذى ، وقد أطلق على هذا الأسلوب «تماحيك وتلاكيك» على اعتبار أن الإنسان فى بعض اللحظات يكون مراوغا ، يميل إلى الانسحاب .. ولذلك أرى معه أن المسالمة والطيبة هي السمة الغالبة والسائدة نسبياً ، وماعداها من عدوانية وعنف هو الاستثناء الذى أصاب البعض مؤخراً ، بسبب ظروف ضاغطة كلنا يعلمها .. وليس مجالها الآن.. حيث أن هدفنا من هذا البحث هو إقرار واقع سمات الشخصية وليس تبريرها وتفنيد أسبابها.

هذا ويؤكد هذا الرأى أيضا مجموعة من الأساتذة الجامعيين، يرون أن الشخصية المصرية من أبرز سماتها التناقض، والنموذج على ذلك كما يقولون «الفلاح المصرى البسيط والماكر فى آن معاً» كما يرون أن من سمات المصرى «الدعة» بمعنى الاستكانة والمبالغة فى الحزن والفرح، وهى أيضا من سمات الإنسان الطيب ، الذى يتصرف بعفوية ، ودون تقنين وتدبر ماكر لتصرفاته ومظاهر سلوكه .. والمصرى - كما يرون - «عاطفى» وصبور ومتدين وهو شخصية محيرة صعب تفسيرها فهى شخصية «مركبة وعبقرية» (★)

وفى إطار القول بأن المصرى طيب لابد من الإشارة إلى ملمح من ملامح الطيبة، وهو العفوية ، بمعنى التلقائية فى التصرف، والانفعال

(★) برنامج المنتدى الثقافى ، المذاع يوم الأربعاء ١٩٩٥/٩/٢٧ . القناة السابعة - المنيا (خلاصة آراء الضيوف حول الشخصية المصرية) .

غير المحسوب فى الفرح والحزن بعفوية ومبالغة وتهويل فى كلتا الحالتين .. ويتفق معى فى هذا القول عدد آخر من الشخصيات العامة ، ومن الجمهور العادى رأوا فى تقييمهم للشخصية المصرية «من وحى أكتوبر» أن المصرى «إنسان صبور طيب يستطيع العيش بأى أسلوب ، ولديه إصرار على الحياة ، ولديه جلد وصمود» فى مجابهة المصاعب (★) .

هذا ويرى يوسف عوف فى كتابه «هموم ضاحكة» ، أن المصرى يبالغ فى كل شىء حتى طعامه واستهلاكه ، ويراه إنساناً صابراً يقدس السلطة والوساطة ، ويستهين بالأمور ويهونها .. وكلها سمات ترتبط بشكل أو بآخر - كما أرى - بسمة طيب وعفوى .. وقد نتج عنها أو ارتبط بها سمات أخرى - قد تعتبر سلبية - مثل : التواكل وعدم الإنتاجية والاهمال والتمسك بالبيروقراطية .. وأيضا الإيمان والتسليم بغيبيات تصل إلى حد الخرافات ، كجانب ساذج من الشخصية الطيبة، المسالمة ، البسيطة ، التى قادت تفكيره إلى أن يكون غيبيا غير عقلانى .. وقادته إلى أن يكون إنسانا سلبيا لا مباليا ، انهزاميا ، أعماقه حزينة، يتحسر على ذاته ، ويتفلسف إلى حد التلاعب البليغ بالألفاظ والكنايات ، التى يسخر فيها أحيانا من نفسه ، بشكل قد يتصوره البعض شعوراً بالدونية ، أو يصل بالبعض فعلاً إلى الشعور بالدونية

(★) برنامج حديث المدينة ، المذاع يوم الثلاثاء ١٠ / ١٠ / ١٩٩٥ ، القناة الأولى (خلاصة أراء الضيوف) .

وعقد النقص .. كما يصل بالبعض الآخر إلى الحساسية المفرطة للكرامة والكبرياء - ولو كان كاذباً - ويصل بالبعض إلى القناعة والزهد والصوفية السلبية ، والخوف والحذر ، وفى المقابل يبالغ البعض الآخر فى التلقائية والتصرف بشجاعة متهورة ، والتحرر الفطرى الفج ، والتذاكى .

وينتج أيضا عن التلقائية والعفوية والبساطة تميز بالصراحة، التى تصل أحياناً إلى حد الثرثرة ، وعدم كتمان السر، الذى يصل بدوره إلى حد الغفلة عن العواقب ، وقد عبر دكتور يوسف إدريس عن سمة العفوية والطيبة لدى الإنسان المصري قائلا :

«هذا الصدر المصرى الحبيب ينفتح على مصراعيه لى ولأى غريب ، فينسى الغريب غربته ويجد نفسه فى ثانية قد دخل الصدر وأصبح قريبا من القلب».

ومن القلب إلى القلب مضى الحديث يدور .. وما هكذا أى شعب آخر ، ولهذا ننفرد ونسمو نحن المصريين ، وليس عيباً أبداً أننا نفتح الصدور على مصاريعها حين نلتقى فهذا هو الشىء الجدير بالإنسان - إذا كان إنسانا حقا - أن يفعله» (★)

وعوضا عن الاسترسال فى تفنيد الآراء ، والاستشهاد بما قيل عن

(★) د. يوسف ادريس عن عمد اسمع تسمع ص ٧٢ .

طيبة المصرى وعفويته .. نعود إلي موضوعنا الأصلى وهو الأمثال الشعبية، وكيف عبرت عن كل ما سبق ان أصطلحنا على اعتباره نوعا من الطيبة والوداعة والعفوية ، كملامح تصب كلها فى سمة «طيب وعفوى».

ترتبط الطيبة المصرية بالأخلاق الحميدة والإحسان ، والمحبة المتبادلة بين الناس والتى يضع لها المثل الشعبى المصرى قواعد وشروطا ، ويرى أنها علاقة تبادلية بين البشر ، فالمثل يقول :

- من القلب للقلب رسول.
- إن كان حبيبك فى خير إفرح له.
- إللى يحب حد يكتر من ذكره.
- إللى يحب ميكرهش.
- داخل بيت عدوك ليه ؟ قال : حبيبى فيه .
- إن كان لك حبيب وبدك تبقيه لاتاخد منه ولاتديه.
- لجل الورد ينسقى العليق.
- من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه .. ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه .

وإذا كانت هذه الأمثال يطلقها البعض على علاقة الحب بين الرجل والمرأة بالذات ، فالغالبية العظمى تطلقها كقوانين لعلاقة المحبة أو المودة

بين الناس ، فمن نحبه بالضرورة سيحبنا ، وأنه من الواجب أن نفرح لما يصيب الناس من خير .. حتى لو كان فى غير صالحنا .. وأن من يحب لايستطيع أن يكره ، فالحب كعاطفة لا تنقلب للضد مهما كانت الظروف .. وأنه من شروط المحبة ودوامها ذكر المحبوبين بالخير، كما نحب لهم الخير، وأن لاندخل المعاملات المادية ، والأخذ والعطاء فى العلاقة إذا أردنا الإبقاء على هذه المحبة .. وإن ورد مثل آخر يقول بعكس ذلك . «صار متاعنا متاعه» كاستدراك.

وتنبثق عن المحبة مشاعر الألفة والحنان ، وشروط العشرة الطيبة بين الأفراد والجماعات .. وبين أفراد الأسرة ، وخارج نطاقها بين الأهل والأقارب والجيران والأصدقاء .. فالمصرى من خلال أمثاله العامية يعتز كثيرا بعلاقة الدم، ويراها مدعاة للمحبة والحنان فيقول :

- الدم يحن

- الدم ما يبقاشماية (أو عمر الدم ما يبقى ميه).

- إذا كانت الداية أحن من الوالدة، كانت تبقى خيبة زايدة.

وللحنان فى مصر شروطه ، وفى مقدمتها العطاء .. ويسخر المثل المصرى من الحنان غير المصحوب بالعطاء فيقول فى تشبيه بليغ الصورة:

- زى حنية الوز ، حنية من غير بز (زى الوز حنية بلا بز) .

- إدى ابنك للى له أولاد .

ويقدس المصرى كما يتضح من أمثاله الشعبية العشرة، ويرى أنها يجب أن تصان وأن لها حقوقا ، وأن من تهون عليه ملعون و «ابن حرام» فالأمثال المصرية تقول فى هذا الصدد :

- من عاشر القوم ٤٠ يوم صار منهم .

- من عاشر الحداد ينكوي بناره .

- العشرة متهونش إلا على ابن الحرام.

- إللى يعاشر طبيب يموت سقيم.

- إللى يعاشر التعابين لازم يتشغل حاوى.

فكما يرى المثل أن العشرة يجب أن تصان ، ويعبر عنها المصرى فى تعبيراته الدارجة بمعانى أخرى مثل «واكلين عيش وملح» أى بينهم عشرة لها حرمتها وقدسيتها ، يرى أن كثرة المعاشرة تجعل للفرد حقوقا، وأنه قد صار واحدا من القوم الذين عاشرهم ولو كان غريبا عنهم .. بل إنه يتشبه بهم ويتأثر بهم إلى أبعد الحدود ، كما يرى المثل الشعبى أن العشرة تولد المعرفة الدقيقة إذ يقول :

- تعرف فلان ؟ أعرفه .. عاشرته ؟ ! لا ... تبقى متعرفوش.

- لا تذم ولاتشكر إلا بعد سنة وست أشهر .

والإنسان المصرى إجتماعى بطبعه ، وعشرى ، ويحب الناس ،

ويفتح لهم قلبه بسهولة ويرى فى معرفتهم كنز .. والقرب منهم خيرا .. وأنه لابد من حسن المعشر ، لأننا يوما ما سنفترق ، وتقول الأمثال فى ذلك:

- عاشر عاشر مصيرك تفارق (مسيرك تفارق).

- جنة من غير ناس ما تنداس (مثل يعكس روح الجماعة وحب العشرة).

- معرفة الناس كنوز .

وفي مقابل هذا الكم من الأمثال الداعية للألفة والاجتماع والحنان والعطاء ، نجد عدداً قليلا من الأمثال يحبذ الوحدة والابتعاد عن الناس خاصة إذا ما كانوا «كالشريك المخالف» ، أو كانت معرفتهم تجلب المتاعب ، وتقول هذه الأمثال على قلتها :

- البعد عن الناس غنيمة.

- الإقتصار عبادة (أو الوحدة عبادة)

- الوحدة ولارفيق المتاعب (تحوير للمثل العربى الوحدة خير من جليس السوء).

وإذا أردنا تحليلاً كمياً لهذه الأمثال سنجد المصرى يحبذ من خلال أمثاله العشرة وصحبة الناس على الوحدة والاقتصار والبعد بنسبة ١٠:٣ .

وكما للمحبة والعشرة قانونها وقواعدها التى حددها المثل الشعبى ، نجد أن للكراهية والعداوة أيضا دستورها الذى يرسمه ويحدده المثل العامى ، فالمصرى محب بطبعه ، لايتحول الحب لديه إلى كراهية.. ولايكره إلا لسبب أو أسباب .. ولا يعادى إلا لعلة .. وحتى إذا كره فهو غير عدوانى بطبعه ، بل يسالم إلى أبعد الحدود .. ولايعاقب إلا رداً للعدوان .. ويعاقب بمثل ما عوقب به، فلا يبدأ بالعداوة من جانبه .. ولعلاقة القربى والأخوة قواعدها فى قانون العداء والكره المصرى ، وذلك سيتضح مما سنورد من أمثال ، وما سنعلق به عليها من تحليل لفحواها :

- أنا وأخويا علي ابن عمي وأنا وابن عمي علي الغريب.
- ابن عمك عدوك .. وعدو إللي يعاديك (فيه استدراك).
- صديق عدوى عدوى ، وعدو عدوى صديقى.
- عين العدو تبان ولها زبان.
- العين متكرهش إلا إللي أحسن منها .
- عادي أمير ولاتعادى غفير.
- عدو قريب ولاحبيب بعيد.
- نهار العدو ما يصفى يخفى .
- عدو عاقل خير من صديق جاهل (مثل عربى متداول)

– عدوك عدو دينك.

– إللى تكره وشه يحوجك الزمان لقفاه (إللى تكرهه النهاردة تعوزه بكرة).

وهذه الأمثال توضح أن اختلاف الدين والحسد بين الناس هى من أسباب العداوة ، ورغم ذلك فعلاقة الأخوة أو العمومة تحكم بحيث يمكن أن يتفق الأخوة أو أبناء العمومة على العدو الغريب .. كما أن العدو قد يكون أفضل أو أفيد للمرء من الصديق ، إذا كان قريبا كى يستغيث به .. وأن على المرء ألا يعادى سفيها، حتي لا يجره إلى تدنى فى العداء والسلوك العدوانى ، وحتى العداء إذا فرض على الانسان المصرى لابد من قواعد تحكمه ، فنجد أن المصرى يتحسب من المبالغة في العداوة،. وأن يتجنبها بالمسالمة ولا يبدأها حتى ولو برش الماء .. وفى هذا الصدد تقول الأمثال المصرية :

– صباح الخير يا كنيسة ، وإللى فى القلب فى القلب (أى كره وليس عدوان).

– إقطع لسان عدوك بسلام عليكم.

– إمشى دغرى يحتار عدوك فيك.

– حبيبك يمضغ لك الظلط وعدوك يتمني لك الغلط.

– من «شخ» عليك «شخ» عليه ، وهى كلها نجاسة.

- فوت على عدوك مكسى ولاتفوت عليه محشى (خوف من الشماتة).

- إمشى على عدوك جعان ولا تمشيش عريان (خوفا من الشماتة).

- فوت على عدوك معرش ولاتمشيش مكرش (خوفا من الشماتة).

- كبر الجرن ولاشماتة الأعادي.

- كل عيش حبيبك تسره ، وكل عيش عدوك تضره .

- ضمة القبور ولا ضمة عدو .

ومما سبق يضح أن المصريين فى تعاملهم العدائى يتجنبون العنف، ولايتوقعون من العدو إلا الشماتة، وتمنى الخطأ ، والضرر الطفيف المتمثل فى أكل عيشه ، أو تنجيس ثوبه، ويتحرزون بشدة من ذلك ، ويكرهون أن يشمت فيهم العدو ، فينصحون بتجنب ذلك بالمظهر الجيد، وباتقاء الشر بإلقاء السلام ، أو على أسوأ تقدير المعاملة بالمثل ، وذلك يتضح في مثل واحد أو مثلين على الأكثر من بين هذه الأمثال .. وتحث الأمثال على التعاون للتصدى للعداء .

والمصرى يخشى من يعاديه ، ولا يأمن له ، ويعبر المثل عن ذلك بالقول :

- عدو زمان مالوش أمان.

- عمر العدو مايبقى حبيب ، وعمر شجرة التين ما تطرح زبيب

- عمر العدو ما يبقى حبيب وعمر الحمار ما يبقى طبيب.

ومع ذلك فهناك من الأمثال ما يكذب هذا المعنى الأخير، ويقال غالبا في إصلاح ذات البين بين المتخاصمين:

- مكتوب على ورق الحلاوة ما محبة إلا بعد عداوة.

ويكتفى الآن بالشطر الأخير من المثل تعبيراً عن ضرورة نبذ العداء والخلاف ، وأن المحبة لاتأتى إلا بعد العداء .. ويعبر التشبيه المصرى البليغ عن سوء العلاقة بين الناس وطبيعة العداء بالقول :

- بينهما ما صنع الحداد .

- إنت من سكة وهو من سكة (أو أنا من سكة كناية عن الخلاف).

- قاعد له على السقطة واللقطة (أى يتمنى له الخطأ).

ويقول المثل أيضا :

- إذا كان الدعا بيجوز ما خلى صبحى ولا عجوز .

وذلك يظهر لنا أقصى ما يمكن أن يتمادى فيه الدعاء المصرى، وهو الدعاء على العدو .. ومع ذلك يستدرك المثل الشعبى السابق ويهون من أثر الدعاء .

، هذا ويجرنا الحديث عن الكره والعداوة على الطريقة المصرية لنرى كيف هى هينة، إذا ما قيست بما بين الشعوب الأخرى من عادات حقيقية ، العرب مثلا (★) - يجرنا هذا الحديث إلى تناول الأمثال

(★) وذلك سيأتى ذكره تفصيلا فيما بعد .

الداعية للمصالحة بين المتخاصمين ، لنرى أنها فى الأغلب الأعم تميل إلي جانب السلم والتسامح ، وليس إنكاء العداوة .. وهذا يعد تأكيداً آخر لسمة طيب ومسالم ووديع ، ومن هذه الأمثال ما يقول :

- الصلح خير .
- السلام لله.
- المسامح كريم
- إللى يدق يتعب.
- أهل السماح ملاح.
- المصارين فى البطن بتتعارك (بتتخانق)
- اللى إنكسر يتصلح (اللى وقع يتصلح).
- الغلط مرفوع والزعل ممنوع.
- هى الشتيمة بتلزق.
- عفا الله عما سلف (من القرآن الكريمة أية ٩٥ سورة المائدة).
- مسيرة الماية ترجع لمجاريها (تقال فى تأكيد أن الصلح سيتم).
- اللى فات مات وإحنا ولاد النهاردة (بمعنى فتح صفحة جديدة).
- ما شتمك إلا إللي بلغك (تقال فى الصلح درءاً للفتنة).
- من جه بيتك جاب الحق عليه.
- العند يورث الكفر (درءاً للعناد فى سبيل الصلح).

- الغلط مردود .

- من قر بذنبه غفر له ربه (كسبيل للعفو والتسامح بين الناس).

كل هذه الأمثال والعبارات يرددها المصرى كدعوة للصلح والتسامح، لأنه يرى فى الصلح والسلام الخير والكرم والراحة والملاحة، لأن كل شيء ممكن جبره وإصلاحه ، ولأن الإنسان في داخله «مصارينه بتتعارك» ، ولأن الغلط مردود ومرقوع .. ولأن السماح والعفو من عندالله والسلام له ، ولأنه لابد أن تعود المياه لمجاريها ، ولأن العند يورث الكفر والعياذ بالله .. ويمعن المصرى فى تحبيذ الصلح والسعي فيه .. رغم ما يجره أحياناً على من يقوم به، فتقول الأمثال عنه :

- ما ينوب المخلص إلا تقطيع هدومه.

- يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلى صنتها .

- قاضى العيال إشتكى روحه .

- إمسحها في دقنى أو إمسحها فىّ (يقولها المتداخل للصلح).

ومما سبق يتضح أن المصرى يحبذ التسامح استكمالا لسمة الطيبة التى اختص بها دون شعوب الأرض ، وهو عدا من الأمثال التى تؤيد ذلك يطلق تشبيهات وصورا بليغة وحية للصلح ، فيرى أن المتصالحين قد أصبحوا «سمن علي عسل» وأن «المياه رجعت لمجاريها» .. وفى إطار التصالح لايستغنى المصرى عن روحه الفكهة فيطلق بعض الأمثال التى

تتهكم على ذلك ، والتى تقول على ندرتها :

- يخانقنى في زفة ، ويصالحنى فى عطفة .

- شيل أبوك عن أخوك

- شيل ده من ده يرتاح ده عن ده.

- مخلوش للصلح مطرح (كناية عن فداحة الخطأ)

- حد الله ما بينى وبينك.

وهى على قلتها أمثال تحض على القطيعة وعدم التسامح بما لايقارن بما سبق دعوة للصلح والسلام والمغفرة.

وإذا أتينا لمناقشة سمة طيِّب من منطلق معنى مهذب أو خلوق ، سنجد المصري بوجه عام يعتبر بهذا المعنى بالفعل طيبا، وتعبر أمثاله الشعبية عن احترامه للآخرين ، وتعامله مع أصدقائه وجيرانه بأسلوب خير ، وهو يحترم من هم أكبر منه، وتضع الأمثال المصرية دستوراً لكل آداب السلوك أو الآداب العامة فى التعامل ، إذ تعبر فى مجملها أو أغلبيتها عن سلوك إنسانى رفيع .. فتدعو إلي حفظ اللسان ، والابتعاد عن الشر وتفضيل الأدب حتي عن العلم، والاعتدال فى الأمور والتصرفات ، وعدم التمادى أو التطاول ، وإتقاء غضب الآخرين ، وعذرهم إذا أخطأوا .. ومن هذه الأمثال :

- لسانك حصانك إن صنته صانك ، وإن هنته هانك.

- طاعة اللسان ندامة.

- سلامة الإنسان فى حلاوة اللسان.

- لولاك يا لساني ما إتسكيت يا قفايا.

- الملافظ سعد .

- أقعد معوج واتكلمْ عِدل.

- الأدب فضَلوه عن العِلم.

- إقصر الشر..

- إتقُ شر غضبة الحليم (مثل عربى متداول).

- يا رايح كتَّر من الملايح

- خير الأمور الوسط (أو أوسطها).

- المخزوق يشتم السلطان (وتقال فى الصلح أيضا).

- إذا يأس الإنسان طال اللسان.

وفى الأمثال الأخيرة نجد أن المصرى يعطى بعض العذر لمن يضطر لإساءة الأدب، أو إطالة لسانه على الآخرين ، وفي ذلك أيضا شكل من أشكال التسامح والطيبة ، ولمن يسيء الأدب يضع المثل الشعبى المصرى أسلوب العقاب والردع أحيانا فيقول المثل :

- العصا لمن عصى (عربى متداول).

- أخليه يمشى على العجين ميلخبطوش (أو مشيه على العجين...).

والمصرى يقدس العلاقات الإنسانية ، ويحرص على أن تكون طيبة ، وأمثاله الشعبية تقنن هذه العلاقة ، و تربط بينها وبين الصدق ، وبين وجوب التآزر بين الأصدقاء فى الشدة .. كما تربط بين الصداقة والبخت، وتعتبر الطباع المتشابهة دافعا للترابط والصداقة ، وتضع للصداقة شروطا .. وبقدر ما تحذر أحياناً من الأصدقاء .. بقدر ما تضع الصديق أحياناً فى درجة تسبق الأخ والأهل ، وتحبذ اختياره بعناية ، حتي قبل اختيار الطريق ... ويقول المثل المصري في كل ذلك :

- طول ما أنت طيب تكتر أصحابك

- صديقك من صدقك

- الصديق وقت الضيق

- عند الشدة والضيق يبان العدو من الصديق.

- إذا لم تكن لى والزمان شرم برم ، فلا خير فيك والزمان ترللى (تحريف لبيت من الشعر العربى) .

- صاحبك من بختك.

- البيض الفاسد يتدحرج على بعضه (وفى قول أخر الخسران أو المشش).

- الطيور على أشكالها تقع (مثل عربى متداول).

- قل لى من صاحبك أقل لك من أنت .

– إللى ترافقه وافقه (شرط المرافقة الموافقة).

– التعبان من رفيقه يوسع.

– صديق صح خير من أخ .

– رب أخ لم تلده أمك (ويقصد الصديق).

– صاحبك وجارك أدرى بحالك.

– اختار الصديق قبل الطريق.

وفى التحذير من الأصدقاء نجد عدداً قليلا من الأمثال ، تقول على سبيل الحيطة والحذر :

– ما يفضحك غير صاحبك (لأنه المطلع على أسرارك).

– حاسب من صاحبك ولاتخونه (حرص من صاحبك..)

– الصاحب إللى يخسر هو العدو المبين .

– من لقى أحبابه نسى أصحابه.

يتضح مما أوردنا من أمثال حول الصداقة مدى تمسك المصري بالصداقة ، وإيمانه بأنها أفضل العلاقات التى يجب الحرص عليها وصيانتها ، وتفضيلها على ما عداها من علاقات ، وأن الطيبة هى الطريق الأمثل لكثرة الأصحاب ، ولكسب محبة الناس .. وذلك فى مقابل أربعة أمثال فقط تحذر من الصديق فى حالات خاصة مثل إفشاء السر، وتطالب بالحذر فقط وتنبه له .. ولكن لا تستثير عداوة ، وذلك دأب

المصرى دائما فى كل علاقاته ، ومنها علاقة الجوار ، التى سنستعرض ما قالته الأمثال حولها ، لما لها من ارتباط وثيق أيضا بآداب السلوك عند المصرى ، وطيبة قلبه وحسن معشره .. إذ تقول الأمثال عن الجيران:

- اختار الجار قبل الدار .
- النبى وصى على سابع جار .
- إن كان جارك فى خير إفرح له .
- إن كان لجارى ما يهنى لى .
- أطلب لجارك الخير، إن ما نلت منه تكتفى شره .
- الجار أولى بالشفعة (مبدأ قانوني معمول به كحق الإرث).
- الجار جار وإن جار .
- جارك قدامك ووراك ، إن ما شاف وشك يشوف قفاك.
- قبل ما أقول يا أهلى يكونوا جيرانى غاتونى.
- ربك وجارك أعلم بحالك.
- لولا جارتى لانفقعت مرارتى
- من جاور السعيد يسعد.
- غير من جارك ولاتحسده.
- يا جار الدهر إحزن لى شهر.

- الجار للجار ستر وغطا .

هذا ويضع المثل المصرى الحكيم قواعد للعلاقة ، فهو لا يتصور أن العلاقة الدائمة التى تتطلب إحتكاكا مستمراً ستدوم كلها على وجه خير .. لكنها بالضرورة ستعكرها بعض الأمور ، التى تتطلب الحكمة فى التعامل ، والتسامح ، وعدم رد الإساءة بإساءة .. بل التنحى والانسحاب بهدوء .. بأساليب حددتها الأمثال القائلة :

- صباح الخير يا جارى ، إنت فى حالك وأنا فى حالى (أو إنت فى دارك وأنا فى دارى).

- أصبر على جار السو ، ياتجيله داهية يا يرحل .

- من جاور الحداد ينكوى بناره .

- إن غسلت توبك إنقيه ، وإن خاصمت جارك إبقيه .

- خلصت حاجتى من عند جارتى (أى الإنسحاب بسلام).

- إن جار عليك جارك حول باب دارك.

- إن كرهك جارك غير باب دارك.

- إن كان جارك بلا (بلاء) حك به جسمك.

- إياك أعنى واسمعى يا جاره (عربى متداول).

- الكلام لك يا جاره .. وإنت حماره .

وبقدر ما يرى المثل المصرى فى علاقة الجوار محاسن، ونجدة

وغوثا، وتسلية ، وتعاطفا ، يرى فيها بعض الشرور، والمخاوف ، والمحاذير ، التى وضع أساليب طيبة لتجنبها أو الرد عليها ، كما وضح من الأمثال (العشر) السابقة التى تبعد الجار عن العدوان أو التطاول على جاره ، أو رد الأذى بمثله .. فى مقابل ذلك نجد أمثالا قليلة نسبيا (٣ أمثال فقط) تحرض على مقابلة العدوان بالعدوان وتقول :

- الأبيحة ست جيرانها .

- خلص تارك من جارك

- ما بعد حرق الزرع جيره (أى قطيعة كاملة).

وعن المحاذير التى يصف بها المثل المصرى ما قد يلاقيه المرء من جيرانه ، تقول الأمثال :

- البلاوى تتساقط من الجيران .

- جارنا السو ما أرداه إللي معانا كله ، واللى معاه خباه .

- دقوا فى أوانهم وسمعوا جيرانهم.

- أنا رحت الغيط حرست جارى ، سرق البرسيم وخد حماري.

- الحسد عند الجيران والبغض عند القرايب .

- الجار السو يحسب الداخل ما يحسب الخارج.

- لليهود والنصارى ولا ولاد الحارة (تقوله المرأة البغى خوفاً من كلام الجيران).

- الشاطرة تقضي حاجتها والخايبة تنده جارتها (أى أن الجيران يكونون مصدر تعطيل أحيانا).

- الشاطرة تعمل حاجتها والخايبة قاعدة تحدتها .

وفى مقابل كل هذه المحاذير من حسد ، وتعطيل ، ونميمة، وأخذ دون عطاء .. أو تباهى بما لدينا دون الحفاظ على مشاعر جيراننا يدعو المثل الشعبى قائلا :

- الله لايجعل لنا جار وله عينين.

وعوضا عن الاسترسال فى توضيح فلسفة المصري فى تقنين علاقاته الطيبة بغيره من أصدقاء ، وجيران ، وأهل وأقارب ...إلخ مما سيأتى تفصيله فيما بعد - عندما نتعرض لسمات أخرى مصرية - نوجز القول بأن المصرى «الطيب» يحترم الكبير ويجله، ولاينتظر المعايب منه.. وهو فى ذلك يحترم سلطة الأب ، وكبار السن ، ويحترم السلطة بوجه عام .. وذلك ما دعا بعض الباحثين إلى وصمه بسمة «سلطوى» أى يقدس السلطة ، ويخضع لها، ولعل هذه السمة بالذات تعتبر سمة أصلية فى المصرى منذ العصور الفرعونية ، التى كانت فيها سلطة الحاكم لها صفة الألوهية ، إذ كانوا يرون فى الفرعون الإله ، الذى تجب طاعته ، وحمايته، والرضوخ له حتى فى العمل بالسخرة - وإن اختلف الباحثون حول النظرية القائلة بأن المصرى بنى الهرم بالسخرة - وأنا

مع القول بأن المصرى المؤمن المتدين ، الخاضع للفرعون الإله قد بنى الهرم «أو مقبرة الإله» طاعة ، وخضوعاً ، وعملاً طيبا يحسب له فى الآخرة، وليس بالقهر ، وإنما بالرضا والحب للحاكم ، واحترامه وتأليهه.. وأيا كان الأمر فلنستعرض معاً الأمثال الشعبية التى تعبر عن مدى احترام المصرى «الطيب» المهذب لمن يعلونه سنا ، أو قدراً أو مقاما ، وهذه تحسب له .. وإن انبثق عنها سمات أخرى سلبية ، كالتذلف والمراءاة والنفاق – مما سيأتي بيانه – فالمصرى يري في :

– الكبر هيبة .

– الشيبه هيبه .

– دول الخير والبركة.

– الدهن فى العتاقي.

– أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة (أى أن الكبر خبرة).

أما عن وجوب طاعة الأب – كأول سلطة – فتقول عنها الأمثال المصرية:

– إللى ما يسمع كلام والديه يا لطمه على خديه.

– أنت ومالك لأبيك (عربى متداول).

– إلشجرة اللى متضللش على أهلها تستحق قطعها.

– الولد ولد ولو كان شيخ البلد (أى لابد يحترم أباه).

وغير ذلك كثير مما يقنن العلاقة الأبوية - سنستعرضه آنفا - أما عن علاقة المصرى الصبور «الطيب» بحاكمه ، أو بالسلطة ووجوب احترامها - ولو ظاهريا - فتقول عنها الأمثال :

- أنا أول من أطاع وآخر من عصي.

- حد يقول للفولة عينك حمر ؟! (أيا كانت سلطة أو قوة أو حاكم).

- الملك من هيبته بينشتم فى غيبته (وتقال أيضا درءا للفتنة عن النمام).

- آه يا بلد من غير عمدة (تعبيراً عن الحاجة الدائمة إلى السلطة منعاً للتسيب).

- إللى مالوش كبير يشترى له كبير (تعبيرا عن ضرورة وجود كبير أو حاكم).

والمصرى الذى يحترم السلطة فى العلن .. لا يلبث أن يسخر منها فى السر أو فى أمثاله ، وكنموذج لذلك قوله :

- جبناك يا حكومة تحمينا .. حمتيى النار وكوتينا.

هذا وإن كنا لا نجد كثيراً من الأمثال الشعبية التى تواجه الحكومة هكذا وبصراحة .. وترد فيها كلمة حكومة أو عمدة أو ملك .. بل نجد أن المصرى ينفس عن شعوره بالقهر من الحكام بالنكتة أكثر من المثل .. وإذا ما نفس بالأمثال فغالبا ما يستعيض بتشبيهات مثل :

قوله «الغولة».. وهو يستنكر أن يجابهها أحد بالنقد، حتي ولو كان عيبا فيها بالفعل «عينها حمرة».. ولعل هذه السمة الطيبة وهي الاحترام والولاء الظاهري للحاكم، قد أوصل المصري المهذب إلي حد النفاق والمراءاة للسلطة، أو للغير بوجه عام، كهروب من المواجهة، رغم أن كثيرا من الأمثال تستنكر النفاق والمراءاة أو المداهنة، فأي الجانبين يرجح المثل الشعبي المصري؟! تقول الأمثال الرافضة لهذه السمة المعيبة:

- في الوش مراية وفي القفا سلاية.
- أبو وشين يلعب علي الحبلين (أي كالبهلوان).
- بوس الأيادي ضحك علي الدقون (أي لاتصدقه).
- ده كله مسح جوخ (أي لاتصدقه).
- لما تقع البقرة تكتر سكاكينها (يقال للكبير إذا وقع وهاجمه الجميع).
- ضلالي وعامل إمام، والله حرام.
- يأدي (أو يصلي) الفرض وينقب الأرض.
- زي المش كل ساعة بوش.
- تحت البراقع سم ناقع.
- زي القط يسبح ويسرق (وتقال أيضا في التناقض).

وإذا كانت الأمثال التي تسخر من النفاق والمنافقين تصفهم

«بالضلال» و«السم الناقع» وأنهم «بوشـين» ومثل «القطط والمش» (عشرة فقط) نجد أن الأمثال المحبّذة للمراءة والنفاق، والاستسلام والكلمة الطيبة، تحسبا من البطش والقوي الغامشة، او مايسمي «المطاطية» إي إجناء الرأس للريح، ودرء الشر بكلمة طيبة ، فهي كثيرة، نذكر منها علي سبيل المثال لا الحصر مما تبقي علي اللسان المصري من أمثال:

- إن كان لك عند الكلب حاجة قوله ياسيدي (نفاق أم مرونة؟!)
- اتمسكن لحد ماتتمكن (دعوة للاستضعاف ولو لحين).
- الأيد اللي متقدرش تقطعها بوسها.
- اللي متقدرش توافقه نافقه.
- إن لقيت بلد بتعبد عجل حش واديله.
- أرقص للقرد في دولته (أي زمان حكمه).
- إلعب مع القرد لما توفي أيامه (أي إلي حين).
- من طاطا لها فاتت.
- علشان ما نعلي لازم نطاطي.
- طاطي رأسك مابين الروس الا الماشي عليك يدوس.
- كلمة باطل تجبر الخاطر (فهو يراها مجاملة وليست نفاقا).
- إن قابلك السفيه داريه بما فيه. وهات كحكة بسكر وهاديه.

- اتوصوا علينا ياللي حكمتوا جديد، إحنا عبيدكم وأنتم علينا سيد.

- معاهم معاهم.. عليهم عليهم (أي موافقة إلي حد المداهنة).

- لأجل الضرورة أروح للندل البيت، وأقول له، العفو يا سيدي، أشيل مداسه وأمسح تراب رجليه (قمة النفاق للضرورة .. حكمة!!).

وإذا كانت نسبة تحبيذ المثل الشعبي للمداهنة والنفاق أكبر بنسبة ١٥ : ١٠ قياسا بالرافضة له، فإننا من سياق المثل الشعبي، ومن تحليل مضمونه، والوقوف عند كل لفظة فيه تفسر أسباب ما يدعو له، نجد أنه يعكس ما لدي المصري «الطيب» المجامل الودود من مكر وحيلة ودهاء، فهو يستكين أو «يتمسكن» الي حين أن «يتمكن».. وهو يداري السفهاء تحسبا من سفههم، ويطأطيء رأسه، حتي لاتداس، وحتي تمر العاصفة.. طالما هو ضعيف إلي أن يعلو قدره.. وهو في إطار دعوته للانحناء للقوة والسلطة، يسبها ويسخر منها، ويشبهها مرة بالكلب، ومرة بالقرد، ومرة بالعجل.. فهو كعادته وفقا لسمته الأولي «ساخر» حتى وهو مستكين وداعٍ للمداهنة والنفاق، وإخفاء مايبطن من رفض أو احتقار، وهناك أمثلة أخري تؤكد ذلك وتقول:

- ياكنيسة الرب إللي في القلب في القلب (قاله المسيحيون حينما أسلموا).

- قالوا ياكنيسة اسلمي قالت: اللي في القلب في القلب.

- صباح الخير ياكنيسة واللي في القلب فيّ القلب (يقولها المسلمون).

- إن فعلت ما تقول إن قلت ما تفعل (أي أظهر عكس ما تبطن).

- دي نقرة ودي نقرة (ويقال أيضا لمن يفعل الشر والخير معا).

والمصري من محصلة ما سبق نجده يضطر للنفاق، أو يمارسه وكأنه مجبر عليه - رغم أن أمثاله الشعبية تحبذه كحل لما يلاقيه - فهو غالبا محتاج أو فقير، أو ليس أمامه اختيار، فهو مجبر، ومسير، وغريق وجائع، وواقع تحت ضغوط، أو بين نارين، وتأكيدا لذلك تقول الأمثال في الاضطرار الذي يقود إلي تصرف لا ترضاه نفس المصري الأبية:

- المضطر يركب الصعب.

- قال إيه رماك علي المر.. قال إللي أمر منه.

- الضرورة لها أحكام (للضرورة أحكام).

- الضرورات تبيح المحظورات (قاعدة فقهية متداولة).

- الجوع كافر.

- ما باليد حيلة.

- الغريق بيتعلق بقشاية.

- علشان بطنه حلقوا دقنه (أي أهين ورضي لفقره).

- أدي السماء وأدي الأرض.

- اللوح قال للمسمار، انت قلقتني، قال المسمار، لو كنت تعرف الدق اللي علي راسي كنت عذرتني!

- قال : ياللي أبوك مات من الجوع، قال: هو كان لقي أكل ولا أكلش (اضطرارا فلا داعي للشماتة).

- ماله الدست بيغلي؟ قال: من كثرة ناره.

- يرضي ورجله فوق رقبته.

والمصري الذي يعترف باضطراره الذي يلجئه إلي مايكره، وإلي الصعب، والي الرضوخ للإهانة، أو ممارسة النفاق، أو الإلحاح، أو التعلق بالواهي من الأمور، نجده يسخر في أمثال أخري ممن يتحايلون علي اضطرارهم بالصلاة والصوم كشكل من أشكال النفاق الي أن يزول العوز، أو اللجوء إلي الله وقت الضيق والغرق فقط:

- زي المراكبية مايفتكروش ربنا إلا وقت الغرق.

- مايعرفش ربنا إلا وقت زنقة.

- من صلي وصام لأمر كان. فإذا قضي الأمر لاصلي ولا صام (عربي متداول).

والمصري الذي يصبر ويداهن وينافق أمام الاضطرار أحيانا، تجده نادرا مايثور.. بل ويعبر عما يقع عليه من قهر بالكلام، أو بالبكاء، أو

بالتحسر أو الشكوي قائلا:

- حاجة تخلي الأخرس ينطق.

- طفح الكيل (أي بلغ السيل الزبي).

- كتر الحزن يعلم البكا.

- هم يضحك.. وهم يبكي.

- اشكي لي وأنا أبكي لك.

- الأيام الزفت فايدتها نوم (كوسيلة هروب من القهر).

- انسي الهم ينساك (التسرية والنسيان كحل).

- بعد الكثير وبعد ما كنا صار القليل يجبر خواطرنا (تحسر).

هذا ويدخل في إطار «طيبة» المصري واستسلامه لمقاديره، ورضاه بالمقسوم له، انه غالبا لايحاول تغيير واقعه، أو الثورة عليه، بل يعتبره نوعا من الهم والحزن والكدر الذي يصيبه، فيستسلم له متحسرا، ومكتفيا بالقبول الخانع بالهم والغم، واتخاذ ذرائع هروبية كالتحسر أو الضحك أو التشاكي، أو التصبر بأن ما أصابه مصاب عام، أو الاكتفاء بأن «يدق الهم وينخله» أو «يقلب ويعاير» أو يسلي الهم «بزبيبة» أو بنوع من المخدر - المشتق من زهرة الأفيون - ومن الأمثلة علي ذلك القبول للهموم:

- بجملة الهم ياعم (استزادة وتقبل).

- يدق الهم وينخله.

- قاعد يقلب ويعاير.

- هم مايتلم (مجرد توصيف لكثرة الهم).

- إللي فينا مكفينا.

- شر البلية مايضحك (عربي متداول).

- هم يضحك وهم يبكّي.

- ضيع الهم بزبيبة.

- إن كترت عليك الهموم أرقد نوم.

- أترك الهم ينساك، تلقي سعدك وتنسي اساك.

- أشكي لمين وكل الناس مجاريح.

- الهم في الدنيا كتير بس مفرق.

- الضحك علي الشفاتير والقلب يصبغ مناديل.

- الوش مزين ، والقلب حزين .

- متعيطوش علي فخاركم ده له زي أعماركم.

- وقوع البلا ولا انتظاره.

- قضيت العمر في قهر، قال، هو العمر فيه كام شهر (دعوة للفرح).

- ما شيلتك يادمعتي الا لشدتي (اللجوء للبكاء كحل).

هذا ويتصور المصري - كما يتضح من أمثاله - أن الهم أو القهر والكدر مكتوب عليه، يسعي له، ويختاره دون سواه، وكعادته يسخر من ذلك سخرية لاذعة، ويصور ذلك بصور غاية في البلاغة ودقة التصوير.. واستشهادا علي ذلك بالأمثال يقول المصري:

- جت الحزينة تفرح .. مالقيتلهاش مطرح.
- قلوب عليها دروب، وقلوب من الهم تدوب.
- من يوم ما ولدوني في الهم حطوني.
- مشفتش يوم أحكي عليه (أي يوم سعيد في العمر كله).
- رضينا بالهم، والهم مرضيش بينا.
- يافرحة ما تمت.. خدها الغراب وطار.
- نص الفطره خروب (أي حتي الشيء المفرح نصفه لا قيمة له).
- كل هم في البلد بيجي عندي ويتسند.
- بيدور علي النكد بمنكاش (يقال عن الشخص النكدي).

والمصري الذي لم تفسده النعمة، والذي طالما عاني الفقر واليتم، وعدم الاستطاعة والعجز والعوز، أو ما يسميه العذر والضيق، نجده يتخذ من هذه الأمور المذلة القاهرة مادة لسخريته المعتادة.. بوصفها أول سماته النفسية - فهو رغم غلبة الفقر - يسخر في أمثاله من الفقراء، ويقرر لهم نصيبهم من الدنيا، الذي يجب ألا يتطاولوا ويطمحوا

إلي أكثر منه.. بل وضع صورا لتعجب الناس من الفقراء، إذا ما كانت يدهم العليا، أو حاولوا التشبه بالأغنياء، أو التمثيل بهم، وفي كل ذلك تقول الأمثال في الفقر واليتم:

– الفقير ريحته وحشة.

– لو كان الاسم بيتشري كان الفلاح سمي ابنه (خري).

– طول ما أنا علي الحصيرة لا شايف طويلة ولاقصيرة (أي طالما فقير فلن يجد عروسا).

– إذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من الشباك (فالفقر طارد للحب).

– اللي مايكون سعده من جدوده يالطمه علي خدوده (اي الغني يأتي بالإرث وليس بالسعي).

– طلب الغني شقفه، كسر الفقير زيره، جته داهية ما أقل تدبيره.

– علشان كبابك، أكب انا عدسي.

– إذا شفت الفقير بيجري اعرف انه بيقضي حاجة للغني.

– العايز أهبل.

– دلع الفقاري يفقع المرارة.

– الغني شكته شوكة بقت البلد في دوكة، والفقير قرصنه تعبان قالوا اسكتوا بلا كلام.

- الغني غنوا له، والفقير منين تروحوا له.

- غني مات جروا الحبر (★) . فقير مات مافيش خير.

- الفقير لا يتهادي ولا يدادي ، ولاتقوم له في الشرع شهادة.

- الكرشة عند المقلين زفر.

- الكسبة عند الفقراء حلاوة.

- قال مامزكي حالك يبكي.

- إن عاشوا كلوا الديدان، وإن ماتوا مايلاقوا أكفان.

- حلم القطط كله فيران (يقال عن المحرومين).

- خذوا من فقرهم حطوا علي غناهم.

- أنضف من الصيني بعد غسيله (كناية عن الفلس).

- قالوا ، ياجحا عد غنماتك، قال، واحدة قايمة وواحدة نايمة.

- الجعان بيحلم بسوق العيش.

- سألوا الجعان، واحد × واحد بكام، قال ، برغيف عيش.

- محدش بيموت من الجوع.

- محدش بيبات جعان (أو من غير عشا.. وتلك حقيقة في مصر نظرا للتكافل).

- ابن مين اللي محمول؟! ابن اللي عندها مأكول، وابن مين اللي ماشي؟! ابن اللى معندهاشي.

(★) جمع حبرة أى ملاءة أو عباية.

- غني كل جية قالوا، من حكمته، واذا أكلها الفقير قالوا، من حموريته.

- الفقير قال للفار كل الورق، قالوا كداب ده كلام! الغني قال، للفار كل الذهب، قالوا، تمام أو ده الكلام.

- يتعلم الحجامة في روس اليتامي.

- متعلمش اليتيم بكي.

- الكحكة في أيد اليتيم عجبه.

ومن خلاصة ما سبق من أمثال (٣٢ مثلا) يتضح لها مدي سخرية المصري من المجتمع الذي يحابي الغني علي الفقير، وينصبره ، ويصدقه في مقابل تكذيب الفقير ، وعدم مبادلته الهدايا ، وعدم الاعتراف بشهادته ، والتهكم علي مجرد تشبهه بالغني في التصدق والزكاة والتدلل، فدلالهم غير مقبول ، ومحاولتهم المساعدة تفسر علي أنه قلة تدبير وسفه ، فليس من حق الفقير وفقا للمثل الشعبي المصري التطلع، أو حتي التسمي بأسماء جميلة .. وهو محتقر في كل أحواله ، إذا عاش، وإذا مات ، وإذا طلب الزواج بطويلة أو قصيرة ، وهو موضع سخرية حتي في أحلامه، وحتي الكحكة في يده عجبه، وإذا أكل كرشة أو حتي كسبه فهو موضع سخرية، اذا مارضي بها وفرح.

كل ذلك رغم ان الغالبية العظمي من الشعب المصري فقراء، نظرا

لما عاشه المجتمع المصري من عصور اقطاع طويلة.. ولما يتنادى به الناس من أن الله خلقهم طبقات - وقد تعرضنا سلفا لنظرة المصري للطبقات والمقامات وسخريته ممن يتطاول ويتطلع إلي غير طبقته - وهذا أمر ليس بمستغرب علي المصري ذي الشخصية المركبة، التي تتضمن النقيضين معا.. فالمصري الأسمر الجميل الأصيل يسخر من سمرته ويتنكر لها - وهذا ماسنتعرض له فيما بعد حينما نتناول نظرة المصري للقيم الجمالية، وتقويمه للجمال والقبح وهو ليس موضوعنا الآن علي أي حال.. لكننا نذكره فقط للتشبيه الي أن يأتي أوان الحديث عنه - المهم ان المصري يحاول من خلال عدد ضئيل من أمثاله الشعبية أن يعرف الفقر تعريفا لا يقصره علي مجرد الفقر في المال.. بل يسمو بنفس الفقير، ويري أنها نفس غنية، وأن الفقر غربة، ويري أنه حشمة، حيث لايحرض الناس علي الترف ومايجره من تبذل.. وأن الفقير دائما حمله أخف، ولا يوجد ما ينغص عليه عيشته أو يقلقه، وتقول هذه القلة من الأمثال:

- سيدي ما أخفه لا في ايده ولا في طرفه.
- العريان في القافلة مرتاح.
- فقر بلا دين هو الغني الكامل.
- الفقر حشمة والعز بهدلة.

- الفقر مش عيب، ما عيب الا العيب.

- فقر المرء في وطنه غربة.

- غني المرء في الغربة وطن.

- الغني غني النفس (غني النفس هو الغني الكامل).

- الله الغني (تقال في الاستغناء والقناعة).

- إن مال عليك الزمان ميل علي دراعك.

وبذلك نري ان المثل الشعبي يرسم للفقير طريق الخلاص من الفقر بالعمل ، لكن ذلك يأتي في مثل واحد فقط.. ويري أن غني النفس والاستغناء سبيل آخر للخلاص من الفقر، ويري المثل العامي ان «الفقر مش عيب» وان الاكتفاء غني، طالما غير مصحوب بدين يذل بالنهار ويهم بالليل .. ومع ذلك يتواتر علي ألسنة العامة في مصر المأثور العربي القائل:

- لو كان الفقر رجلا لقتلته.

ويدعو المصري الله أن يعطيه ويغنيه بعبارة دراجة علي ألسنة العامة تقول:

- إللي عطاك يعطينا يابا.

وحول عدم الاستطاعة والعذر والعوز يواسي المثل المصري.

إذا ما وصل أمر العجز عن الوفاء إلي حد الاستحالة - يواسي المحتاجين وغير القادرين قائلا:

- العين بصيرة والايد قصيرة.

- حيلة العاجز دموعه.

- العاجز في التدبير يحيل علي المقادير.

- يعني أضرب الأرض تطلع بطيخ.

- نقول، تور، يقولوا احلبوه (كناية عن الاستحالة).

- عشم ابليس في الجنة (كناية عن الاستحالة).

ويقال أيضا في عدم الاستطاعة (أو العجز) من حيث قلة الحيلة، أو قلة القدرة والمهارة.

- هو أنا مكفن وضامن جنة (أي أعمل ما علي والنتائج علي الله).

- قالوا للجمل زمر قال: ياريبت، لاصوابعي مبرومة ولا شفايفي مضمومة (ويقولها الفقير عند عدم الاستطاعة).

هذا ويتفكه المثل المصري علي العذر والعوز فيقول:

- ما كانش انعذر ولاباع جزر.

- ماكانش ينعز (إن وجد).

- قال، إيش غرض الأعمي. قال،، قفة عيون.

- الحوجة مرة.

- المحتاجة غناجة (أي مضطرة).

- إيش ياخد الريح من البلاط (كناية عن الافلاس).

– كلمة بكرة زرعوها مطلعتش (وتقال عند تسويف المدين).

– شدة وتزول (وتقال كتسرية عند الضائقة وفي المرض).

– الشكوي لأهل بصيره عيب.

– علي لساني ولا تنساني (تقال في السؤال وفي الضيافة أيضا)!

– شحات يكره شحات، وصاحب البيت يكره الاتنين.

– شحات يشحت من شحات تطلع له في.. حسنة.

– التاجر لما يفلس يدور في دفاتره القديمة (ويقال الخواجة لما..).

وبعيدا عن هذا المفهوم للطيبة بمعني الاستكانة، والفقر والمسكنة، والعوز، والحاجة التي تجبر المرء علي أن يكون طيبا، لاحتياجه للآخرين، نجد أن «الطيبة» المصرية لها مفاهيم أخري ترتبط بسلوك المواطن المصري، من حيث تعاونه وتكافله مع الآخرين. ومن حيث كرمه وحسن ضيافته، ومن حيث كراهيته للانسان السيء الخلق، ونبذة السخرية منه، والتمسك بعادات وخصال حسنة في مقدمتها الصدق والأمانة وعدم التدخل فيما لايخصه، وهنا سنورد ما أطلق المصري من أمثال تؤكد ما ذهبنا اليه.. وفي مقدمة ذلك ما قالته الأمثال عن العمل الطيب والاحسان.. وكراهة الشر كوجه من أوجه الطيبة المصرية :

– الطيب أحسن.

– اعمل خير وارميه البحر (وتقال اعمل المعروف أو الطيب..).

- اصنع (أو اعمل) المعروف في أهله وغير أهله.

- الساعي في الخير كفاعله (أو الجاري).

- الباني طالع والفاحت نازل.

- الحلم سيد الأخلاق.

- سلامة الانسان في حلاوة اللسان.

- ان عملت خير ماتشاور.

- خير البر عاجله.

- الخير يخير والشر يغير.

- زيادة الخير خيرين.

- سلامة في خير وخير في سلامة (تقال كبداية للحديث أيضا).

- مابين الخيرين حساب.

- الدنيا لسه بخير.

- اللي عند الله مايضعش (من العمل الطيب والاحسان).

- اللي تزرعه تقعله أو تضمه (لان الطيب جزاؤه الطيب).

- كل واحد بياخذ علي قد نيته (لأن الطيب جزاؤه الطيب).

- إنما الاعمال بالنيات (فمجرد نية الخير تحسب).

- ربك رب قلوب.

- بير تشرب منه ماترميش فيه حجر.

- اصلح (أو اخلص) النية، ونام في البرية (يقابله لقد حكمت فعدلت فنمت آمنا ياعمر).

واذا كانت هذه هي حصيلة الأمثال الداعية الي الخير (٢٠ مثلا) وعمل الطيب والاحسان، وخلوص النوايا، وذلك مايطالب به المثل ويحبذه، ويؤكد انه بالضرورة مردود علي فاعله بالخير والطمأنينة، وأن الخير عند الله ولن يضيع، وسيجازي الله عنه.. وحتي وإن كان مجرد نية وسعي وليس فعلا حقيقيا ، ويري المثل ضرورة الاستزادة من الخير، وعدم المشورة فيه بل التعجيل به، كما يري انه ليس بين الخيرين حساب، وأن علي المرء فعل الخير وعدم انتظار الأجر والثواب.. بل إلقاؤه في البحر.. وإن علي الانسان فعل الخير في أهله وغير أهله.. وان كانت بعض الأمثال علي قلتها (٥ أمثال فقط) تحذر ممن نحسن اليهم، وتؤكد علي فعل الخير فيمن يستحقونه فقط، وكنموذج لذلك الأمثال القائلة:

- اتق شر من أحسنت اليه (مما جاء في الأثر).

- اطعم مطعوم ولاتطعم محروم.

- إن أنت أكرمت الكريم ملكته وان اكرمت اللئيم تمرد (عربي متداول).

- خير ماعملنا والشر جانا منين؟! (خير تعمل شر تلقي).

واستكمالا لحديث الخير والشر، ورؤية المصري لهما من خلال أمثاله.. نتعرض كوجه آخر لحب المصري «الطيب» للخير وفعله، ونبذه للشر وتصويره هو وفاعليه بصور كريهة غير محببة، تحبذ عمل الخير أيضا، وتؤكد ما ذهبنا اليه سلفا عن طيبة المصريين، فالأمثال تقول عن «الشر»:

- ابعد عن الشر وغني له (ويقال قنى له.. اي اجعل بينك وبينه قناية).

- إن كان بينك وبين الشر جسر اقطعه قبل مايعدي لك.

- الجاري في الشر ندمان (أو فاعل الشر ندمان).

- طباخ السم لابد يدوقه.

- يافاحت البير ومغطيه لابد من وقوعك فيه.

- من حفر حفرة لأخيه وقع فيها (عربي متداول).

- من شاف الشر ودخل عليه يستاهل ما يجري عليه.

- اللي يعفر تعافير بتيجي علي دماغه.

- شرارة تحرق الحارة.

- طوبة علي طوبلة تخلي العركة منصوبة.

- كل واحد له شيطان.

- اللي ما فيه الخير تركه أخير.

- تضرب القطة تخربشك (وتقال كلم القط أو دوس علي ديل القط..).

- دارت الدورة عليك ياعورة.

- وقع في شر أعماله.

- الشر إن بات فات (فيه دعوة لعدم إذكاء الشر).

- قالوا للغراب، ليه بتسرق الصابون؟ قال: الأزية طبع.

- مات قتيل، وساب فتيل (أي عواقب الشر تبقي حتي بعد انقضائه.

- أبوك ما هو أبوك، أخوك ما هو أخوك (أي وقت الشر لا حرمة ولا أبوة ولا أخوة).

- صباح الخير ياعورة.. قالت: ده شر بايت.

- قال: صباح الخير ياعورة.. ده باب شر.

- فضي ابليس لقلع الديس (أي الثبات).

- لامنه ولا كفاية شره (تقال عن المؤذي).

- ما اسخم من ستي الا سيدي (أي كلاهما أسوأ من الآخر).

- قال: اديني تقاوي البلاوي، قال كلمتين فارغين.

- الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح.

- باب مردود شر مطرود.

وعلي كثرة هذه الأمثال (٢٦ مثلا) النابذة للشر وفاعليه، نجد بعض الأمثال التي تعرف الشر وتوصفه، وتراه في اشياء أخري كثيرة غير الأذي المباشر، مثل تعطيل مصالح الناس أو تعقيد الأمور، وتري الأمثال صورا مختلفة لما يمكن ادراجه تحت بند الأعمال الشريرة مثل:

- شنق ولا خنق.. قال.. كله في الرقبة.
- حطوا العقدة في المنشار (لتعقيد الأمور).
- يوقف المراكب السايرة (اي يعطل المصالح).
- زي عفاريت القيالة ميتهدوش (استمرار الشر).
- ولاد الحرام كتير (كناية عن كثرة الأشرار).
- لايرحم ولايسيب رحمة ربنا تنزل (أي أن منع الخير لون من الشر)
- خربها وقعد علي تلها.
- يحجج الجمل والبردعة، ويروح بذنب ويجي بأربعة (أي لايتوب عن الشر).
- إبليس ما يخربش بيته.

هذا ويستعيذ المصري من الشر وفاعليه بالعديد من العبارات الشعبية التي صارت مثلا، وتواترت علي الألسنة مثل:

- حوالينا ولا علينا (وتقال أيضا لا حوالينا.. درءا للشر).

- فالكوا في داركوا (حينما يتلفظ بوقوع الشر).

- يادار ما دخلك شر.

- ياقاعدين يكفيكوا شر الجايين.

وبين الشر والأذي وفاعليه وبين سوء الخلق بوجوهه المختلفة ارتباط وثيق، قالت عنه الأمثال الشعبية المصرية الكثير.. مما يعكس مفهوم المصري غير القاصر للشر وسوء الخلق، إذ يري ذلك في طول اللسان أو مايسميه «القباحة» أو العيب ويراه في النذالة والفتنة، والنميمة، والعار، والزنا، والهروب من الحق، والرزالة وسوء الحديث، وسب الآخرين أو ضربهم، وعمل السحر والأعمال، كل ذلك يري فيه المثل المصري سوء خلق، لابد من البعد عنه واجتنابه، مما يدل علي مدي «طيبة» المصري وحبه للخير.. كما يتضح مما يلي:

- زي الفجر يقبح ويصبح.

- يارايح كتر من القبايح.

- العيب لو طلع من أهل العيب ميبقاش عيب.

- كل إناء بما فيه ينضح (عربي متدأول).

- لا إحسان ولا حلأوة لسان.

- لا ود، ولا حديث بلد.

- يأكل ويشرب ووقت الحاجة (أو الدفع) يهرب.

- الندالة لها ناس.

- عند الضيق لا أخ ولا صديق.

- عويل شتم أصيل نهار نادي!! (إذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الدليل علي أني كامل).

- ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

- الاسم لطوبة والفعل لأمشير.

- ان عضني الكلب ماليش ناب أعضه، وان سبني الندل ماليش لسان اسبه.

- الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها (عربي متداول).

- الفتنة أشد من القتل (حديث متداول).

- زي مايقول لك يقول عليك (يقال عن النمام).

- العار أطول من العمر.

- الزاني ما يأمن علي مراته.

- الجيد ينتخي، والندل لا.

- تفوا علي وش الرزيل قال دي مطره.

- قال ياأبويا علمني الرزالة، قال ، يابني اللي تقوله عيده.

- قال ياأبويا علمني الرزالة، قال تعال في الهايفة واتصدر.

- روحي ياساحرة لا نابيك دنيا ولا آخرة.

- البحرماينفد فيه السحر.

- أول الرقص حنجلة.

- زي حداد الكفار حياته وموته في النار.

- زي اليهود وش نضيف . وجبه زي الكنيف (تقال أيضا في المراءة).

- زي ترب اليهود بياض غلي قلة (تقال أيضا في المراءة).

- زي فقر اليهود لا دنيا ولا آخرة.

- دموع الفواجر حواضر (تقال عن الكهانة لدي سيء الخلق).

- أقل بصلة تنزل الدمعة.

- إيش افتكر لك يابصلة مع كل عضة دمعة.

- الحداية الشكاية، النعاقة البكاية، الرغاية النمامة، العيابة الفتانة قطع لسانها من اللغلوغ.

هذا ومن المسالب والمعايب التي ينبذها المثل المصري «الكذب والادعاء» والحنث في الوعد وعدم الحفاظ علي الكلمة، خاصة كلام الرجال، اذ يكفي المصري أن يقول: «كلام رجاله» حتي يكون ما يعد به كلمة صدق لا رجعة فيها.

ويفرق المثل المصري بين ألوان الكذب المختلفة ويسميها «الفشر» و«النتش» و«الجخ» ويضع ضوابط لمعرفة كل نوع من أنواع الكذب،

ويصور ذلك بأسلوب غاية في الدقة وخفة الظل معا، كما يعد الكذاب بأشد العقاب،. حينما يكتشف كذبه، ومن أمثلة ذلك:

- الكذب خيبة.

- الصدق منجي (أو منجي).

- بيت النتاش مايعلاش.

- كلام الليل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح.

- الحداية مبتحدفش كتاكيت.

- «علوق»» عمنول عملوا غفرة السنة.

- تحلف لي أصدقك، أشوف أمورك استعجب.

- علي وشك يبان يا مداغ اللبان.

- قالوا للحرامي، احلف، قال، جالك الفرج.

- حلفوا القاتل، قال «جالك الفرج ياقليط.» .

- قالوا لحرامي الدقيق، احلف ، قال ، يامري انخلي.

- الراجل (أو بني آدم) يتربط من لسانه، والبهيم من ودانه.

- البهيم من ودنه وبني آدم من لسانه.

- المماية تكذب الغطاس.

- خليك وراء الكذاب لحد الباب.

- قالوا، الجمل طلع النخلة.. آدي الجمل وآدي الجمال (أو وآدي النخلة).

- إيش عرفك إنها كدبة، قال، كبرها.

- البطيخة القرعة لبها كثير.

- اللي علي البر عوام (أي له أن يدعي أي شيء).

- الكذب مالوش رجلين.

- كدب مساوي ولاصدق مبعزق.

- قاعد علي نخ وعمال يبخ (أي قاعد علي حصير ويتفاخر كذبا).

- فين عزمك يافشار آدي السيف وآدي صاحب التار.

- لولا شالوني من تحته كنت قتلته.

- صاحب بالين كداب، وصاحب ثلاثة منافق.

- إن قال لك، الحرامي علي الباب، نام وطرطر رجليك (لأنه كاذب).

- عشـمتني بالحلق خرمت أنا وداني، لاجبت انت الحلق ولا نبني أنا وداني.

- حبر علي ورق (أي وعد كاذب واتفاق لاقيمة له).

- وعد الحر دين عليه.

- إذا كنت كذوبا فكن ذكورا (عربي متدأول).

- إن كنت كداب افتكر.

- اللي يكدب نهار الوقفة يسود وشه نهار العيد (أي لابد أن ينفضح امره).

- ماينوب الكداب الا سواد وشه (جزاء الكذب).

- زى قاية اليهود تلتينها كدب .

- أكذب من مسيلمة (عربي متدأول).

- أفلح إن صدق (حديث متدأول).

- عينك ماتفشك (أي أصدق من الكلام).

- شفت بعيني محدش قال لي (أي صدق وليس شائعة).

- ربك وصاحبك لاتكذب.

كل ما سبق ذكره من أمثال (٣٨ مثلا) يتضح لنا مدي احتقار المصري للكذب بكل أنواعه - الجخ والنتش والفشر والكذب الصريح وخلف الوعد - وكيف يضع أسلوبا لكشف الكذب بالمواجهة «أدي الجمل وأدي الجمال»، وبالوصول بالكداب الي باب الدار.. الي غير ذلك من تشبيهات وصور بليغة ودقيقة في التصوير ومتنوعة أيضا.. كما يؤكد أن مصير الكذاب دائما افتضاح امره، واحراجه الي حد إلي أن يسود وجهه، وليس فقط أن يحمر خجلا..

ومن الأمور الأخري التي تؤكد سمة «طيب» بمعني طيبة القلب وعدم المكر أو الخبث والتخابث، ما تقوله الأمثال الشعبية المصرية عن الخبثاء ومن يظهرون غير ما يبطنون، ويكسبون سمعة طيبة بالإدعاء والكذب و«الخبث» الذي تصوره الأمثال قائلة:

- يقتل القتيل ويمشي في جنازته.

- ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

- يخانقني في زفة ويصالحني في عطفة.

- اللي تحسبه موسي يطلع فرعون.

- زي العقربة يقرص ويلبد (قرصتها والقبر).

- يعرف ألكفت فين!

- يلعب بالبيضة والحجر.

- يوديك البحر ويرجعك عطشان.

- يعرف من أين تؤكل الكتف (عربي متدأول).

- من دقنه ويفتل له حبل (من دقنه وافتل له).

- تحت الدفة قرود ملتفة (شامي متدأول).

- ياما تحت السواهي دواهي.

- ياما في الجراب ياحاوي.

- فم يسبح ويد تدبح.

-ماية من تحت تبن (اي غير ظاهرة).

- يدي باليمين وياخد بالشمال.

- راح يخطبها له اتجوزها.

- زي ولاد بلبيس يبيعوا العيش ويشحتوه.

- يلهي الوز بالغرق.

- يلهي الكلب بعضمة.

- الفار وقع من السقف، القط قاله ، اسم الله عليك.

وكما توصف الأمثال «المكر والخبث» تحذر منهما أيضا، وتضع صفات كي نعرف صاحبهما، أو من يتصف بهما.. وتضع لنا قواعد وعبارات مأثورة نقولها لكشف الماكرين، وايقافهم عن التخابث، وفي التحذير قالت الأمثال:

- كل قصير مكير وكل طويل هبيل.

- احذروا كل من اقترب من الأرض (أي قصار القامة).

- قبطي بلا مكر سجرة بلا طرح (أو بلا تمر).

أما عن أساليب مواجهة الخبث فتقول فيها الأمثال:

- مبروم علي مبروم ميفتلش.

- بهلوان علي بهلوان ميلعبش.

- اتغذي بيه قبل مايتعشي بيك.

- بتبيع الماية في حارة السقايين (يقال للخبيث حينما يتذاكي علي الأذكياء).

- ستي لئيمة، وانا ألأم منها.. تعد اللحمة وانا اقطع منها (أو اقطم منها).

والمصري «الطيب» خجول ، يتستر اذا أخطأ، وهو حذر يخاف ، ويحذر أمور كثيرة - ستتضح فيما يلي - ويتأرجح المثل المصري بين تحبيذ الخجل والتستر. واعتبار الستر من عند الله - فهو الستار - وبين تحفيذ الناس علي عدم الخجل، وتتأرجح الأمثال المصرية ، التي سنذكرها لنوضح ميل المصري الي أي الجانبين، إذ تقول الأمثال المحبذة للخجل والتستر أو طلب الستر:

- إذا بليتم فاستتروا (عربى متداول) ..
- ربنا أمر بالستر .
- إن الله حليم ستار (تقال لمن يفضح الآخرين حتى يسكت) .
- الليل ستار (ويستكمل أحيانا والنهار له عينين) .
- اللى ما يستحي يفعل ما يشتهى (اذا لم تستح فافعل ما شئت) .
- اللى يستره ربه ما يفضحوش مخلوق .
- خلى الطابق مستور !
- الستار موجود (أو ربنا ستار) .
- دارى يا سترة عاري .

وعن طلب الستر أو الدعوة بالستر يقول المصرى فى أمثاله أو مأثوراته أو أدعيته :

- يا أرض انشقى وابلعينى .
- قول يا حيط دارينى .

- عينى منكم فى الأرض .

- يارب استرها دنيا وآخره .

أما عن توصيف الخجل والستر ومن يخجلون فيقول فيهم المثل المصرى :

- إطعم الفم تستحى العين

- بقيت فى نص هدومى (كناية عن الخجل)

- اسود وشة (من الخجل) .

- قلعت برقع الحيا ! (أى أصبحت لا تخجل) .

- ماله رايح وعرضه فايح (أى غير مستور)

- ناس تخاف ما تختشيش !! (تعجب ممن لا يخجلون) .

كل ذلك (٢٠ مثلا) يحسب للمصرى كإنسان خجول مهذب ، يسعى لستر أخطاءه . أما الأمثال الداعية لعكس ذلك ، تمثل لونا من الاستهتار والمجون ، أو ما يسميه المصرى «الاستبياع» ، وكنموذج لها :

- اللى ينكسف من بنت عمه ميجبش منها عيال .

- اللى اختشوا ماتوا (وتقال أيضا فى التعجب ممن لا يخجلون) .

- المكسوفة تغطى وشها بمنخل .

- اللى بيزمر ميخبيش دقنه (أو ميغطيش دقنه) .

- البلد إللى محدش يعرفك فيها شلح وإجرى فيها .

والمصرى الخجول مهذب ، يخجل أن تمتد له يد فيردها خالية ، ويلجأ إلى الاعذار والحجج ؛ حتى لا يواجه أحد بالرفض ؛ وحتى لو كان ذلك للصلاة ، وحتى لو أتى اعتذاره أحيانا أقبح من الذنب الذى اقترفه أو العذر الذى يبديه لسائله .. وكنموذج لذلك ولما ورد فى هذا الصدد من أمثال :

- بركة يا جامع اللى جت منك ولا جتش منى (قالها من وجد المسجد مغلقا) .

- اللى مش عايزة تسلف جارتها الحبل تقول ، ناشرة عليه الدقيق .

- عذر أقبح من ذنب .

- إيش حايشك عن الرقص قال : قصر الاكمام .

- من قلة مفيش .

- احتاجوا اليهودى قال : اليوم عيدى .

وسيتضح تهذيب المصرى وطيبته أكثر حينما نتناول قضية الكرم والضيافة ، والتعاون والتكافل المصرى ذو الطابع الخاص جدا .

هذا ويعتبر المصرى «طيب» بمفهوم أخر هو أنه «مستكين» يخاف من أشياء كثيرة ، ويحذر فى كل خطوة يخطوها ، ومن كل شئ يقدم عليه ؛ ويرى فى ذلك سلامته وقد يرى البعض أن سمة الحذر والخوف

نوع من عدم الإقدام والجبن ، وأنه أمر لا علاقة له بالطيبة .. لكنى أرى أنها سمة فرعية تنبثق أيضا عن سمة «طيب» بوصفها نوع من عدم التجبر أو الشعور المتضخم بالقدرة والقوة ، تجعل المصرى حذر فى كل شئ ، وإن عبر المثل الشعبى - كالعادة - عن وجهتى نظر فيما يختص «بالحذر والخوف» ، إذ تقول الأمثال المحبذة لهما والتى تحرض على عدم المجازفة . والحفاظ على العمر وعلى السلامة :

- امشى سنة ولا تخطى قنا .

- امشى يوم ولا تطلع كوم .

- من خاف سلم .

- العمر مش بعزقة .

- لا تلقى بنفسك إلى التهلكة (عربى متداول)

- اللى يتلسع من الشوربة ينفخ فى الزبادى .

- اللى تلدغة الحية يخاف من الحبل (وتقال اللى مقروص من التعبان يخاف من الحبل) .

- اللى تقرصه الحية من ديلها يخاف .

- الاحتياط (أو الاحتراس) واجب .

- اللى ما يخاف من الله خاف منه .

- الباب المقفول يرد القضا المستعجل (تقال أيضا الباب المترجل يحوش ..)

- الباب اللى يجى لك منه الريح سده واستريح (مكرر ويقال فى معنى الحذر والبعد عن مواطن الخطر) .

- جحا طلع النخلة خد بلغته معاه (على سبيل الاحتياط والحذر).

- مش كل مرة تسلم الجرة .

- لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين (عربى متداول) .

- دخول الحمام مش زى خروجه (أو طلوعه) .

- أربط الحمار مطرح ما يقول صاحبه (ليس طاعة ولكن حيطة وحذر من تحمل المسئولية) .

- قبل ما تفصل قيس (أى اعمل حسابك واحتاط) .

- حرص ولا تخون .

- حط رأسك بين الروس تسلم (دعوة للتجمع وعدم الانفراد تحسبا) .

- اشترى وما تبيعش (فى الكلام اسمع ولا تقول حذرا كى لا تلام) .

- ماتبيعش رخيص ، قال : متوصيش حريص

- قال «مالك مرعوبة ؟ قالت : من ديك النوبة .

- يبقى ابنى على كتفى ، وأجرى أدور عليه (يقولها الحذر لكى لا يفرط فى شئ) .

- اضرب المربوط يخاف السايب .

- اضرب البرئ يخاف الفاعل .

- حطها حلقة في ودنك (أى احذر وتعلم الدرس) .

- أكنس بيتك ورشه ، ما تعرف مين يخشه (أى احذر واستعد) .

- اللى تقول عليه موسى تلتقيه فرعون (ضرورة الحيطة ورفض لحسن الظن بالناس) .

- احذر عدوك مرة ، واحذر صديقك ألف مرة .

- ابن الحرام مخلاش لابن الحلال حاجة (أى لابد من الحذر حتى من الطيبين) .

- اتقى شر من أحسنت إليه (مأثور متداول)

- اللى على رأسه بطحة بيحسس عليها (خوفا من اكتشاف أمره) .

- مش كل الوقعات زلابية (أى احذر ولا تغتر) .

- متأمنش لأبو راس سوبة (أى الانسان) .

ويصف المثل الخوف والخائفين والحذرين قائلا :

- الخوف يرج الجوف .

- بيخاف من خياله .

- يكاد المريب يقول خذونى (عربى متداول)

- بيشك في صوابعه (وصف أو تعبير وليس مثلا) .

ويؤكد ما ذهبت اليه .. وما ذهبت إليه الأمثال عن خوف المصريين قول عادل حمودة :

«وفي مخزون المصريين الحضاري خوف وحذر لا نهاية لهما من السُلطة » .

«فهم أقدم محكومين على وجه الأرض وبهذه الأقدمية أصبح الحكام آلهة ، وفي عصور الانفراجة الديمقراطية كانوا أنصاف آلهة .. قالوا ، يا فرعون إيه فرعنك ؟ قال : ملقيتش حد يردني » (١) .

أما عن الأمثال التي تحض علي نبذ الخوف والحذر ، وتشجع المصري علي الإقدام والشجاعة ، والمواجهة ، خاصة إذا كان ما نخافه رئيس أو قوة أعلى ، أو ربما شخص لا نعرفه ، وقد يكون طيب لا خوف منه ، فسنجد هذه الأمثال تؤكد بأن الخوف لن يمنع القدر ، وأن من يخاف من شئ يستجلبه ، وأننا مهما تحسبنا لأمور فلن نتحسب لكل شئ ، فقد يظهر لنا ما لم يكن في الحسبان ، وأنه لا داعي للخوف من أشياء مجهولة أو غيبية ، فالإنسان أولى أن يخشى من الإنسان ، وأنه كلما توكلنا ، وتصرفنا بدون تدبير وحذر ، كلما كانت النتائج أفضل ، وكنموذج للأمثال التي تحمل هذه المعاني :

---

(١) النكتة السياسية .. كيف يسخر المصريون من حكامهم ، ص ٩٠ .

- إن غاب القط ألعب يا فار .

- إن قلت متخافش ، وإن خفت متقولش (أى واجه) .

- زى ما تكون لى أكون لك .. مانتش رب أخاف منك .

- اللى يخاف من العفريت يطلع له (أو من الديب) .

- ما عفريت إلا بنى آدم .

- اللى تخاف منه .. متلقاش أحسن منه .

- الحذر ما يمنعش قدر .

- حسبنا حساب الحية ، والعقربة ما كانت على البال .

- ابن الهبلة يعيش أكثر

- ابن الكبة طلع القبة ، ولاد اسم الله خدهم الله (نبذ للحذر) .

ومما سبق يتضح لنا أن الأمثال المصرية تحض على الحذر واتخاذ الحيطة بنسبة كبيرة (٣٤ : ١٠) قياسا بالأمثال التى تحرض على المواجهة ، وعدم الخوف ، أو توخى الحذر .. ذلك فيما عدا الأمثال المحايدة ، التى تصف الخوف والخوافين .. دون أن تميل إلى تحبيذ أو رفض كاتجاه .. وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه من أن المصرى كاتجاه عام ميال إلى الحذر والخوف منه إلى الشجاعة والاقدام .. وهى سمة تحسب كجزء مكمل لطيبته ، وليست كسلبية فى شخصيته ، لأنه بحكم ظروفه شبه الدائمة ، المتراوحة بين فقر وقهر وتسلط مضطر للحذر .

ويرى دكتور يوسف ادريس أن المصرى من أكثر شعوب الأرض تعقلا ليس عن حكمة :

« إعمال عميق للتفكير ومقارنة بين الاحتمالات الكثيرة والحلول، ثم اختيار قائم على تفضيل الأحسن بالنسبة للشخص أو للشعب .. فنحن نتعقل أولا وبادئ ذى بدء معنى أننا بالتلقاء والسليقة نختار أقرب الحلول للسلامة وحفظ الذات والإفلات من الموقف ، ولو كان هذا على حساب النتيجة على المدى الطويل » (١) .

ويختلف د. إدريس مع ما ذهبت اليه استخلاصا من فلسفة المصرى الواضحة من خلال أمثاله ،، فهو يرى المصرى غير حذر .. لكنه يتصرف أمام الخطر بالتعامى عنه ، وكأنه يلغيه من الحقيقة دون ادراك له ، أو اتخاذ الاحتياطات اللازمة والكافية لتجنبه .. بل يرى أننا غالبا ما نلجأ «بفهلوة غريبة ، وباعتماد على ثقة مجهولة أن شيئا لن يمسنا ، نعرض أنفسنا للخطر . ونستغرب بعد هذا إذا أصابنا وكأن تلك القوى المجهولة نوع من الهروب من مواجهة الواقع » (٢) .. ورغم الخلاف فى وجهتى النظر فأنا أرى وفقا لما خلصت إليه من استقراء الأمثال أن المصرى حذر ولكن ليس جبانا .. فالخوف ليس سمة أصيلة فيه ، إذ نجده بالنسبة للأمور الايمانية لا يخاف ولا يحذر ، ولا يحطات .. بل غالبا ما

---

(١) د. يوسف ادريس عن عمد اسمع تسمع ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .

يتوكل على الله – كما سبق القول حينما تحدثنا عن السمة الأولى له وهى «متدين» – وكما سيأتى تفصيله ، حينما نتحدث عن الجوانب الاقتصادية من حياة المصرى المسرف الذى يميل إلى عدم الحذر فى الانفاق ، بل ويميل إلى التبذير والمبالغة ، إذ سنجده «يصرف ما فى الجيب» دون تحسب للأيام ، أو خوف من انقطاع الرزق الذى – قلنا أنه – يؤمن بأنه من عند الله .

هذا ونذكر استكمالا لسمة «طيب» ما ورد فى الامثال المصرية حول «القدرة والاقتدار » بكل معانيها ، لنوضح أن المصرى قد عبر عن فلسفته الخاصة – من خلال ما أطلق من أمثال – حيال أمور توضح طيبته ، وأنه إذا قدر عفي وتسامح ، وأن القادر بالنسبة له هو الله . وأن «العفو عند المقدرة» ... وأن الضعف أحيانا يكون مصدر قوة أو شكل من أشكالها .. وأن علامات الرجولة تبدو أحيانا فى النخوة والخضوع ، وسنجد بوجه عام أن الأمثال المتحدثة فى هذا الصدد قد انقسمت إلى مؤيد ومعارض لاستخدام القوة والاقتدار ، أو تجنب استخدامهما ، وهو ما سيتضح مما يلى من أمثال تحث على نبذ العنف أو استخدام القوة .. حتى لمن يملكها :

- يا بخت من قدر وعفى .
- العفو عند المقدرة .

- الضرب فى الميت حرام (أى الضعيف لأننا أقوى منه) .

- ما قوى إلا الله .

- إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس ، فتذكر قدرة الله عليك (عربي متداول) .

- حكم القوى على الضعيف (تقال كاستسلام للأقوى) .

- يوضع سره فى أضعف خلقه .

- الخضوع عندد الحاجة رجولية .

- اللى ما تقدر عليه حيل ربنا عليه .

- سلاح الضعيف الشكية (أو دموعه) .

- السبع سبع ولو فى قفص (يقولها المصرى اعتزازا بقوته وهو مقهور) .

- البحر ما يتعكرش من ترعة (يقولها المصري استعلاء) .

- أسد عليّ ، وفى الحروب نعامة (عربى متداول)

- حكمك غريمك إن ما طعته يضيمك .

- ما يقدر على القدرة الا الله (إلا الا اللى خلقها ، وتقال أيضا في الاحتياج) .

وقبل الولوج إلى الامثال الداعية لاستخدام القوة .. والرد علي الجبارين بالمثل ، ومقابلة القوة بالقوة .. نورد الامثال المحايدة ، التى

وصفت القوة ، دون أن تحبذها ، أو تحرض عليها . وإن ظهرت فيها الروح الساخرة للمصرى .. واستهزائه من الأقوياء احيانا ، أو وصفهم بالفجر ، والادعاء ، والاستقواء على الضعفاء فقط ، وهم فى حقيقة الأمر يخشون ويخافون من الأقوى منهم .. وفي كل ذلك تقول الأمثال :

– قادر وفاجر (وصف وتشبيه) .

– يقدر علي كل كبيرة ..

– قال ، يا فرعون مين فرعنك ؟ قال : ملقيتش اللي يرجعني .

(فيه دعوة لمواجهة القوى حتي لا يطغى) .

– مقدرش على الحمار اتشطر عل البردعة .

– كل ذى عاهة جبار (مثل فيه تحذير منهم رغم ضعفهم البادى) .

– الفرس الهادية ينتف ديلها (فيه دعوة أيضا لنبذ الضعف) .

– اللى يربط في رقبته حبل ألف من يسحبه (نبذ للاستضعاف) .

- اللى يوطى راسه يتركب (نبذ للاستضعاف) .

– الحيطة الواطية ينطوا عليها الكلاب .

– دبور زن على حجر مسن ، قال ، عايز إيه ؟ قال : عايز ألحسك ، قال : أنا الحس الحديد (أى لا تواجه القوى) .

– اللى يعمل ريس يجيب الريح من قرونه (أى من يتصدر للقيادة لابد أن يكون قادرا) .

- كلب ينبح ما يعضش .

- اللى له ظهر مينضربش على بطنه (أى المقتدر بعزوته لا يقدر عليه أحد) .

أما الامثال الداعية للمواجهة والقوة ، والتحايل بكل وسيلة للحصول على الغلبة ، والداعية للتعاون فيما بين الضعفاء ، لمواجهة القوة الغاشمة ، والمطالبة بعدم الرأفة أو الرحمة ، وتخليص الحق باليد ، وبأراقة الدم ، فيقول :

- اللى تغلب به ألعب به .

- اللى ما يقدر عليه القدوم يقدر عليه المنشار (أى لابد من وسيلة لغلبة القوى) .

- القوى مالوش الا اللى أقوى منه .

- ونما على الأرض القوى مسيطر (عربى متداول)

- الكترة تغلب الشجاعة (دعوة لتعاون الضعفاء لمواجهة الأقـوياء).

- اضرب الأعمى ، واكسر عصاه ، ما أنتش أعدل مِن ربه اللي عماه (بلا رحمة بأحد) .

- خلص حقك بايدك .

- اللى يرشك بالماية رشه بالدم (الانتقام وتخليص الحق) .

- اللى يدى لك كتفه أدى له ظهرك .

- اللى يحاديك حادية واجعل عيالك عبيده ، واللى يعاديك عادية ولو كانت روحك فى أيده .

- العين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم .

- الأيد اللى تتمد ولا تضربش تستاهل قطعها (أى أن الشروع والتهديد لا يكفيان) .

من كل ما سبق يتضح لنا أن المثل المصرى يحبذ عدم مواجهة القوى بالقوة بنسبة (١٥ : ١٢) والاستعانة بالله القوى ، للرد وتخليص الحق .. وإن كانت الامثال المحايدة يتضح من معناها أيضا رفض الاستضعاف والاستكانة مما يمكن اعتباره أيضا اسلوبا مصريا لمواجهة القوى الغاشمة بكل أشكالها ،سواء بالسخرية ، أو بالرد المباشر ، أو بالحيلة ، أو بالتعاون لغلبتها .. لكن المحصلة تقول : أن المصرى لا يميل لمواجهة القوة بالقوة والعنف كاتجاه عام .. حتى وإن قال : «طاطى لها تفـوت» فهـو تسـويف إلى حين .. وذلك ما قالت به د. نعمات فؤاد من أن المصرى يتقوقع على نفسه ليعيد صياغتها ، ويعد نفسه ليثب من كبوته ، دون أن يسلم بها .. لكن فلسفته فى الصبر وإعادة الصياغة ، التى قد تطول ، لا نستطيع تفسيرها أو تبريرها بسهولة ، ولذلك نميل إلى القول بأن المصرى غير عنيف أو ثورى فى رده

على من هم أقوى منه ، أو على ظالميه .. بل له أسلوب خاص فى ذلك ، يتضح أيضا من تقويمه لكل موقف على حده .. وهو ما تفسره أمثاله الشعبية التى تتناول مفهوم «الظلم والعدل» لدى المصرى وتعريفه لهما .. وتحسره على وضعه كمظلوم .. وإن كان يرى أنه من حسن الحظ أن يبيت المرء مظلوما وليس ظالما !! ورؤيته لأوجه الظلم الواقعة عليها ومصادرها ، التى يراها دائما مصادر غيبية ، من ميراث معتقداته فى : البخت والحظ ، والمقدر والمكتوب ، والنصيب والقسمة .. إلى آخر هذه السلسلة من الأسباب ، التى يبتعد بها عن ظالمه الحقيقى ليواجهه .. وأيضا نتيجة لسمته الأولى وهى «متدين» والتى انبثقت عنها سمات فرعية مثل «صبور» وذلك ما سيتضح من الأمثال التالية :

- يا ظالم لك يوم (إيمانا بأن الله سيرد عنه) .
- دولة الظلم ساعة ، ودولة الحق حتى قيام الساعة (إيمانا بأن الظلم حتما سينتهى)
- يا بخت من بات مظلوم ، ولا بتش ظالم .
- نوم الظالم عبادة (فهو يكتفى بهجوع الظالم ولو لحين) .
- المساواة فى الظلم عدل (فهو لا يجد كراهة فى عمومية الظلم) .
- الرحمة تخص والنقمة تعم .
- جور الغز ولا عدل العرب .

- الرحمة فوق العدل (من قول الله سبقت رحمتى عدلى) .

ويوصف المثل المصرى «الظلم والعدل» ويعرفهما ، ويصورهما بعدة صور بليغة ، تتضح فى مجموعة من الأمثال والتشبيهات ، والعبارات المكناة التي يتضح منها مدى تحسر المصرى على حاله مما يقع عليه من ظلم .. إذ يقول :

- ياما فى الحبس مظاليم .

- واحد واخد وعشرة متهومين .

- البيت بيت أبونا ، والغرب بيطردونا .

- من ماله ولا يهنا له .

- ارحموا عزيز قوم ذل .

- بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب (عربي متداول) .

- حرام علينا وحلال علي الغريب .

- وراه النجوم فى عز الضهر .

- وراه الأمرين (أى الفقر والعجز) .

- قفل فى وشه باب الرحمة (شكل من أشكال الظلم) .

- السمك الكبير بياكل الصغير (تقرير واقع)

- القاضى مالوش الا اللى قدامه .

- الناس لها الظاهر .

- ربنا ميرضاش بكده (أو بالظلم).

- قاتل بلا بينة سلطان .

- كلمة الحق تقف فى الحلق (سخرية من الظالمين بحبس الشهادة أو قول الحق) .

- عايز الحق ولا ابن عمه (مناورة هروبا من قول الحق ؟) .

- معندوش يامه ارحميني (أى ظالم وقاسى) .

- قاضى العيال اشتكى روحه (لاستحالة العدل بينهم) .

وإذا كانت الامثال والتعبيرات الشائعة السالفة توضح الرؤية المصرية للظلم ، والرضا والاستسلام له والاكتفاء بالوصف الساخر منه .. فإن عددا آخر من الأمثال يحض المصرى على رفض الظلم ومواجهته .. وإن كان يمثلها عدد قليل (٨ أمثال فقط) تقول :

- الساكت فى الحق زى الناطق فى الباطل (دعوة للشهادة بالحق وعدم كتمانها) .

- صاحب الحق عينه قوية (فواجه إذا كنت صاحب حق) .

- الحق صوته عالي .

- كلمة الحق لازم تتقال .

- الساكت عن الحق شيطان اخرس (عربى متداول) .

- المتهم برئ حتى تثبت ادانته (قاعدة شرطية متداولة وإن كانت غير معمول بها) .

– بين حقك واتركه (احقاقا للحق) .

– خد بحقك حلفه واحرقه (أى خلصه من ظالميك) .

وعن استخلاص الحق أو اثباته على الطريقة المصرية أو كما يقول د. يوسف ادريس تحت عنوان «الخناقة على الطريقة المصرية » . يقول: «لا يتساءل المصرى المتخانق من سيوقع هذا العقاب – إن وجد الانصاف – وإنما المهم أن يثبت للعالم أنه مظلوم وأنه يستحق الانصاف وأنه – لولا التعقل – لارتكب القتل والضرب والجنايات » (١) أى أنه يشهد العالم على قدرته وقوته .. ويحاول إثبات حقه .. لمجرد احقاق الحق .. واظهار الحقيقة ولوم الظالم .. حتى وإن لم يفعل بهذا الحق شيئا أو كما يقول المثل : « خذ بحقك حلفة واحرقه » . والمعروف أن نبات الحلفة غير ذى قيمة ، لكنه يتمسك بأخذ حقه منه حتى ولو احرقه .

أما عن السلوك المصرى «الطيب» المتعلق بالحنو على الآخرين ، واكرام وفادتهم ، وحسن استقبالهم ، والتعاون معهم فى مصابهم ، وشتى أشكال التكافل الاجتماعى ، التى بدأنا نفتقدها مؤخرا – مع الهجمة المادية التى اجتاحت مصر والعالم خلال العقود الثلاث الأخيرة – فتتناولها الأمثال الشعبية التى تعبر عن القيم الأصيلة فى الشعب

(١) د يوسف ادريس ، عن عمد اسمع تسمع ، ص ٨٢ .

المصرى ، وليس ما آل إليه حاله اليوم ، أو المستحدث من سماته ، التى ستعبر عنها أقوال مستحدثة ، قد تصير مثلا فى مستقبل الأيام ، لتعبر عن فلسفة المصرى المعاصر ، وعن فلسفة العصر المادى الذى يعيشه .. لكننا هنا نؤكد على سمة «متعاون» كسمة فرعية تعد أيضا دليلا على الطيبة ، وحب الغير والتكافل مع الآخرين ، وهو ما عبرت عنه الأمثال المصرية قائلة :

- الايد لوحدها متسقفش .

- القفة أم ودنين يشيلوها اثنين .

- من قدم السبت يلقى الحد قدامه .. ومن يخدم الناس صارت الناس خدامه .

- زى قواديس الساقية المليان يكب على الفارغ (يكتفى الان بالنصف الأخير من المثل) .

- الكثرة تغلب الشجاعة (تقال فى التعاون وفى القدرة لذلك أكرره).

- الناس لبعضها .

- النواية تسند الزير (أى مهما كانت المساندة ضعيفة فلها فائدتها) .

- غالى والطلب رخيص (تقال فى الاستجابة للسائل) .

- أنصر أخاك ظالما أو مظلوما (حديث متداول) .

- أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمى على الغريب .

- أيد على أيد يكبر ويزيد (تقال عن التعاون فى البناء والزرع) .

- البركة فى كتر الايادى .

- أيد على أيد تساعد أو تقرب البعيد .

- البركة فى اللامة .

- اللى ماله خير في أخاه ، الغريب ما يسترجاه (أى لا تأمل فى تعاون من لا يعاون أهله) .

- اللى قيدنى بيفتل لك (ضرورة التعاون لأن المصير واحد) .

- بعد ما طارت ساعدها بقوة هش (سخرية ممن لا يقدمون عونا حقيقيا وفى الوقت المناسب) .

- البقرة بتطلق والعجل بيحزق ليه ؟! قال : تحميل جمايل .

- عمر الشبعان ما يفت للجعان (تحسر لانعدام التكافل) .

وأيا ما كان ما ذهبت اليه الأمثال المتحدثة عن التعاون والتكافل ، فى صيغ مباشرة ، أو تشبيهية ، أو سخرية ممن يحملون الاخرين جمايل ، دون عون حقيقى ، أو يقيمون على التعاون بعد فوات الأوان ، وبعد أن ينقضي الأمر المطلوب التعاون فيه .. أيا ما كانت الصيغ فإنها تفوق كثيرا الأمثال المصرية التى تبرز عنصر الانانية ، وتغلبه على

مساعدة الآخرين . بل ولا أكون مبالغة إذا ما قلت : إننى لم أجد مثلا مصريا واحدا يحض على الأنانية ، وعدم مساعدة الغير إلا إذا اعتبرنا أن المثل القائل :

- اللي يحتاجه البيت يحرم على الجامع (أو الزيت إن عازه البيت يحرم على الجامع) .

شكلا من أشكال تفضيل الذات على الغير ، أو الأنانية في مقابل معاونة الآخرين .. وأغلب ظنى أنه ليس دعوة لعدم البر بالآخرين ، طالما هناك مستلزمات ضرورية لأهل الدار .. فهذا المثل مردود عليه بمثل آخر، يوضح الرؤية السليمة للمصرى فى موضوع البر ، ومساعدة المحتاجين إذ يقول المثل :

- كل لقمة في بطن جايع أخير من بناية جامع .

وهذا يؤكد أن قيمة الإحساس ، ومساعدة الفقراء تعلو لدى المصرى على ما تحتاجه حتى بيوت الله ، لعمارتها أو بنائها .. رغم أنه عمل يعتبره المصرى شراء لقصر فى الجنة ، ويرى أن له ثوابه الكبير ، الذى فضلت عليه الحكمة المصرية الشعبية مساعدة المحتاجين والجياع .. وهو مثل يعكس أيضا الفطرة السليمة للمصرى وفهمه السديد لمتطلبات دينه ولمساعدة قومه ومجتمعه .. بأسلوب يوضح وعى سليم بمعنى التدين وأولويات الخير والعمل الطيب .

وقد أجرت د. فاطمة المصرى (★) استبيانا على بعض الأمثال ، التى تؤكد أو تضحد بعض السمات المصرية، كان من بينها المثل القائل: « أردب ما هو لك ما تحضر كيله» ، فوافقت عليه نسبة ٣٥٪ من العينة.. بينما ٦٥٪ قالوا : لا رافضين له ، مما يعنى أن صفة «متعاون» مازالت تغلب على الشعب المصرى .. رغم ما يطفوا على السطح من سلوك سلبى أو أنانى .

كما كانت نتيجة الاستبيان بالنسبة للمثل القائل : « إن جاك الطوفان حط ولدك تحت رجليك» ، ٣٠٪ نعم ، ٧٠ ٪ لا ، وذلك يعنى أن المصرى يرفض الأنانية ، وتفضيل النجاة من الخطر بالتضحية بأقرب الناس ، وذلك يعنى أن الغيرية والمحبة مازالت من السمات السائدة .. هذا وسنتعرض للأمثال الداعية للأنانية حينما نتناول سمة «ذكى» التى ترتبط لدى المصرى بمعنى تغليب مصلحته الخاصة على مصلحة الغير .

أما عن قواعد «الكرم والضيافة» المصرية كما سنستخلصها مما تطرحه فلسفة المثل الشعبى .. فيمكن أن نخلص منها إلى أن المصرى كريم مضياف – كسمة سائدة – حتى وإن عبرت أمثاله عن وجهتى نظر، في هذا الأمر أيضا .. فالمصرى «الطيب» كريم ، والمصرى «المتدين» كريم ، والمصرى «الساخر» كريم ، يسخر من البخلاء ، ويتندر

(★) د. فاطمة المصرى ، مرجع سبق ذكره .

ببخلهم ، ويصورهم بأبشع الصور ، ويصفهم بأسوأ الصفات «يخافو يشخوا يجوعوا» أو القول : «وجع البطن ولا كب الطبيخ» إلى غير ذلك كثير .. ولتأكيد كرم المصرى نورد فيما يلى الأمثال القائلة :

- لقمة هنية تكفى مية (اذا صفت النية اللقمة تكفى مية) .
- جحر ديب يساع ميت حبيب .
- بيت المحسنين عمار .
- الجودة من الموجودة .
- الفضلة للفضيل .
- تكلوه يروح ، تفرقوه يفوح .
- الخير على قدوم الواردين .
- ألف طق طق .. ولا سلام عليكم (أى مرحبا بالقادمين أفضل من وداعهم) .
- ده وشك وللا وش القمر (تقال لمن يزور كل شهر مرة كالقمر) .
- الرجل تدب مطرح ما تحب
- لجل عين تكرم ألف عين .
- لجل الورد ينسقى العليق .
- ضيف يستاهل الدبح (تقال كدعابة) .
- اللى يأكل لوحدة يزور .

- اللقمة بتنادى أكالها (تقال للدعوة على الطعام) .

- اللقم تمنع النقم .

- الخير يبان على الضبة .

- إن أطعمت اشبع ، وإن ضربت اوجع (تقال أيضا فى الحسم) .

- رب صدفة خير من ألف ميعاد (تقال فى الضيافة) .

- يارب ضيف عزيز وناكل من جاره .

وإذا كانت هذه الأمثال (٢٠ مثلا) تتحدث عن وجوب اكرام الضيف بإطعامه، فإن الكرم والضيافة المصرية لاتقف عند هذا الحد (مجرد الأكل) .. بل تتعداه إلى أمور أخرى مثل : حسن الاستقبال ، ومعاتبة الضيف على إقلاله من الزيارة ، وترديد عبارات مصطلحية تعبر عن الاشتياق والوحشة له ، والرغبة فى استبقائه بعد الطعام ولو بالمداعبة بأقوال مأثورة نذكر منها :

- الضيف المجنون يأكل ويقوم .

- هو خالتى عندكم؟ مجتش (تقال لاستبقاء الضيف).

- جاى تزور الطريق؟ أو السكة.

- هى رجل البواب اتكسرت (تقال للضيف الذى طال غيابه). .

- لاقينى ولاتغدينى.

- إذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين (يتبادلها من يستأذن فى الخروج مع غيره من الضيوف).

ـ كل وبحلق عنيك أكلة واتحسبت عليك (تقال للاستزادة فى الطعام).

ـ راح وأدى وش الضيف (تقال لمن أطال الغيبة).

ـ راح وقال عدو لي.

ـ على رجليك نقش الحنة؟! (أى ماذا يمنعك من الزِّيارة).

وبنفس قدر ترحيب المصري بضيوفه، واستبقائه لهم بأقوال ومجاملات كثيرة مثل: آنستونا وشرفتونا، وخطوة عزيزة، وزارنا النبى، وما هو بدري.... إلخ... نجده يستاء من الضيف الثقيل، الذى يأتى دون موعد و«يطب فجأة» ويطيل الجلسة، ويزور يوميا.. أو الذى ينهمك فى الطعام فلا يتبادل الحديث مع مضيفيه، أو الضيف غير النظيف.. إلى آخر هذه المساليب التى تقول عنها الأمثال:

ـ يابخت من زار وخفف.

ـ زر غبا تزداد حبا (عربى متداول).

ـ المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب.

ـ إكسروا وراه قلة (كي لايعود).

ـ باب الشقة يقول لباب السطوح، إللى يجى، يجى، واللى يروح يروح.

ـ جبنا سيرة القط جه ينقط (تقال على سبيل الدعابة مع الضيف).

ـ افتكرنا القط جانا ينط.

ـ ياريتنا افتكرنا حاجة عدلة.

ـ ياريتنا افتكرنا مليون جنيه (أو عزبة ـ قول مستحدث).

ـ داخل لا إحم ولا دستور (تقال لمن يتطاول ويدخل دون استئذان).

ـ مايضايق الزريبة إلا الحمارة الغريبة.

ـ ساعة البطون تتوه العقول!.

ـ إضرب الطاسة تيجى لك ألف لحاسة.

ـ كل مع الكافر ولا تأكل مع أبوضوافر.

ـ يابخت من يأكل قرصة ويأنس الناس بحسه (أى يزور ولا يأكل).

ـ يادخلتى على اللى ما يريدونى. لا سلامات ولا وحشتونى.

ـ بلاش توكلنى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة (عن المن الذى يتبع الكرم).

ـ طعمتنى وذكرت ماعشت يوم كلت.

ـ يتمزرط فى بيت الزبون (أى يطلب المزيد فى بيت غيره).

ـ زى العوالم يتبغددوا فى بيت الزبون.

ـ عينه فى الطبق وودنه لمن زعق (أى يتصنت وهو يبدو منهمك فى الأكل).

- لولاك ياكمى ما كلت يافمى (أى لولا الوجاهة مادعيت لوليمة).

- أهى أكلة والوداع.

- أكلنا إيه نشرب عليه؟! (يقولها الضيف إذا قدم له شراب دون طعام).

- الغايب مالوش نايب (تقال كإعتذار للضيف المتأخر).

- اللى إيدى ماهى فى مرجونته، ولا على بالى منه، ولا من جودته (تقال أيضا فى الاستغناء).

لعل ماسبق يؤكد لنا معنى أو كيف كرم المصرى، وحبه لضيوفه، وحسن استقباله لهم، وحرصه على استبقائهم، وذلك فى (٢٠ مثلا و١٠ تعبيرات) تقال للأضياف على سبيل الدعابة والتفكه، فإذا ما قسنا ذلك كما بالأمثال التى لاترحب بالضيف سنجد الكم متقاربا .. لكن رفض المصرى للضيف له مبرراته، التى سبق ذكرها ووضحت من الأمثال المذكورة أخيرا، والتى توضح آداب الضيافة المصرية، وما تضمه التعبيرات المصرية الشائعة فى هذا الصدد من حسن استقبال المصرى للضيف، خاصة إذا كان غريبا... فالعامية المصرية غنية بعبارات المجاملة للضيوف... ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر «يادى النور، نورت مصر، البيت بيتك، إن ما شاليتكش الأرض نشيلك فى عنينا أو فوق رءوسنا، وحلت البركة و...... و...... إلخ».

أما عن المصرى «الطيب» من منطلق آخر للطيبة وهو التهذيب، بمعنى عدم التدخل فى أمور الغير، فهناك كم هائل من الأمثال يتناولها... سيوضح لنا مدى ما يتصف به المصرى من طيبة، قد تصل أحيانا إلى حد السلبية، التى تصل إلى حد عدم الخوض فى الأمور التى تحتمل الصواب والخطأ... أو التى تجلب عليه المشكلات، أو تضعه فى موقف متناقض أمام الغير، إذ الأولى به أن يهتم بذاته وشئونه.. بدلا من مساعدة الآخرين فى إصلاح أمورهم وتدبيرها.. ويسخر المثل من هؤلاء الناس، ويعيب سلوكهم بعدة أساليب... وفى هذا الصدد لا ينقسم المثل المصرى إلى اتجاهين... بل سنجد كما كبيرا من الأمثال (٢٤ مثلا) تؤكد كلها على نبذ التدخل فيما لايعنينا... إلى درجة تدعو أحيانا إلى السلبية والانطواء، أو التقوقع على الذات، وعلى ما يخص المرء وحده.. ولعل لذلك أسبابه، التى أعتقد أن فى مقدمتها أن المصرى بفطرته وطبيعته اجتماعى ودود، يتكافل مع الآخرين، ويحاول أن يتدخل لإصلاح ذات البين والمساعدة.. وقد يناله من الأذى الكثير، ولذلك نجد أن المثل الشعبى يحاول تبنى فكرة إقصاء المصريين عن هذا السلوك، خاصة أنه مصدر لجلب المتاعب... وأحيانا يكون مصدرا للسخرية ممن يتدخل فيما لايعنيه، لأنه يعانى بنفسه وفى بيته من العيب نفسه، الذى يحاول بإيجابية فاعلة التدخل لإصلاحه.. وسنجد أن بعض هذه الأمثال قد

ذكرناها سلفا ـ فى معرض الحديث عن الصلح وعن الإبتعاد عن الشر وفى أمور أخرى ـ لكنى أعيد تكرارها هنا، لأنها تضرب أيضا فى هذا الموضع، ولأنها تساعدنا فى النهاية على استخلاص النتيجة القائلة: بأن المثل المصرى بوجه عام يحذر من التدخل فيما لا يعنينا.... كما يتضح مما يلى:

ـ من يتدخل فيما لايعنيه.. يسمع مالا يرضيه (عربى متداول).

ـ من راقب الناس مات هما (عربى متداول).

ـ ياداخل بين البصلة وقشرتها، ماينوبك إلا صنانتها.

ـ ياداخل بين المسك والريحة، ماينوبك إلا الفضيحة (منعا للقيل والقال).

ـ ياداخل بلا مشورة.. إن ما مسخرك الراجل تمسخرك المرة (فيمن يتدخل بين زوجين).

ـ واحد شايل دقنه والتانى تعبان ليه؟! (أو زعلان ليه).

ـ أردب ماهو لك ماتحضر كيله.. تتعفر دقنك.. وتتعب فى شيله.

ـ إللى يحضر تعافير بتيجى على دماغه.

ـ ماينوب المخلص إلا تقطيع هدومه.

ـ ضربوا بتاع الكمون(خرى) بتاع الكسبرة !

ـ مالك ومال «الخناث» يا أبو «صرم» ضيق؟!

ـ إللى مالكش فيه ماتتحشرش فيه.

ـ لا لك فى الطور ولا فى الطحين!! (فلماذا تتدخل؟).

ـ إكفى خيرك شرك (أصلها، خلينا على قدنا، نكفى خيرنا شرنا).

ـ ياعين إن شفتى ماريتى، وإن شهدوكى قولى، كنت فى بيتى (دعوة لكتم الشهادة).

ـ جم ينعلوا خيل الباشا قدمت أم قويق رجلها !.

ـ فاتت ابنها يعيط ، وراحت تسكت إبن الجيران !.

ـ يا مداوى عماص الناس ، داوى عماصك.

ـ يا مداوى خيل الناس ، حصانك من عند زره خايب.

ـ عليل وعامل مداوى!.

ـ بدال ماتعدل على الناس عدل على روحك (أول المثل يقول، يا سيدنا الدموية تقدد لوحك....).

ـ أبوها راضى وأنا راضى... مالك إنت ومالنا ياقاضى؟!

ـ أنا وحبيبى راضى.. وأنت مالك يا قاضى؟!.

ـ عيوبى لا أراها... وعيوب الناس أجرى وراها!

من كل ماتقدم يتضح، لنا بكل الصيغ والأساليب والصور، أن المثل المصرى ينبذ التدخل فى شئون الغير.. بل إن هناك من التشبيهات ما ينفر ممن يقومون بذلك، ويصفهم بأنهم «زى الملح داخل فى كل حاجة..

أو محشور فى كل طعام»، أو أن هذه النوعية من الناس «تدس أنفها فى كل حاجة»، وكثير ماتدعو الأقوال والتعبيرات إلى نبذ هذه الخصلة أو السمة، بالدعوة إلى السلبيَة المطلقة كالقول: «مالكش دعوة... خليك فى حالك»، بل ونجد المصرى الآن إلى حد كبير يميل إلى السلبية والقول «وأنا مالى»، طالما أن التدخل فى أمر ما لن يقع عليه بضرر مباشر.. أو أن الأمر لا يعنيه.. فلم تعد الإيجابية سمة مصرية.. يتسم بها المصرى المعاصر.. رغم أنها كانت سمة أصيلة لقرون مضت.. خاصة فى الريف المصرى وفى الأحياء الشعبية، التى كان المصرى فيها يرى أن من واجبه التدخل لإصلاح الأمور، أو إصلاح ذات البين، كواجب اجتماعى ملزم.. ولكن هل ظلت هذه السمة سائدة؟! أم أن المصرى الآن «عامل ودن من طين وودن من عجين»، فهو كما تقول العبارات المستحدثة «ضاربها طناش... أو مطنش»... ويرد على هذا التساؤل الحائر ـ الذى لا أستطيع حسمه بالنسبة لحالنا اليوم ـ دكتور يوسف إدريس بأن الناس فى مصر مازالوا شديدو الاهتمام بالآخرين بل إن كلا منا ولى أمر الآخر وناصحه.. ويذهب إلى أكثر من ذلك أن مهمتنا حيال بعضنا البعض تكسير المقاديف (*).

أما عن آداب السلوك الأخرى التى تبرز سمة الطيبة المصرية الأصيلة، وتبرزها الأمثال الشعبية المتحدثة عن «الكلام» والأخبار

(*) د. يوسف إدريس، عن عمد إسمع تسمع، ص ٢١.

والأسرار»، فكما سبق وقلنا، أن المثل المصرى يعتبر الكلام مصدرا للشر أحيانا، كما اتضح من المثل القائل: «تقاوى البلاوى كلمتين فارغين» فإن كثير من الأمثال والتعبيرات تتناول الكلام بوصفه نميمة، أو بوصفه عاملا مؤثرا قد يفوق أثره مفعول السحر، وأنه قد يكون شائعة تدمر من تصيبه، وأنه قد يكون ثرثرة لاداعى لها، تدمر من تصيبه، وأنه قد يكون ثرثرة لا داعيا لها، وأن خيره أقله، وقد يكون لا قيمة له.. بل سيتحسر قائلينه، وأن السكوت عن الكلام أفضل.. وكنموذج لهذه المعانى ما قالته الأمثال:

- الكلام بيجى عند صاحبه ويقف (إذا كان نميمة).
- العيار إللي ما يصبش يدوش (إذا كان الكلام شائعة).
- خير الكلام ما قل ودل (عربى متداول).
- كلمة ورد غطاها.
- كلام بحسرة قايلينه.
- كلام مش جايب همه.
- الدوى على الودان أمر من السحر.
- الدى على الودان يقلب القفدان (أى يؤثر فى العقل والرأى).
- إن كان المتكلم مجنون يكون المستمع عاقل (إذا كانت الشائعة مبالغا فيها).

ـ إسمع من هنا وسيب من هنا (أي طناش... وهو تعبير دارج الآن).

ـ ما كل ما يعرف يقال (عربي متداول).

ـ الكلام أخذ وعطاء.

ـ الكلام بيجيب بعضه.

ـ إشترى وما تبيعش (في الكلام).

ـ هو الكلام عليه جمرك (إذا كان كذبا).

ـ من كتر كلامه إتقل مقامه (إذا كان مجرد ثرثرة).

ـ إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب (عربي متداول).

ـ قصر الكلام منفعة (ويكتفى بالقول، «قصر الكلام» أى اختصر).

ـ ما طق إلا حق (أي أن الكلام لابد له من أصل).

ـ مفيش دخان من غير نار (يقال كميل لتصديق الشائعات).

ـ زى سيرة الثعابين (أى كلام لا ينتهي).

ـ ما تأكل إلا القملة، ولا توجع إلا الكلمة (الإيلام بالكلام).

ـ بيدن في مالطا (أى لا فائدة من كلامه).

ـ يدخل من هنا ويخرج من هنا (أو يسمع بودن ويخرج من الثانية).

ـ سكت دهرا ونطق كفرا (عربي متداول).

ـ خدوهم بالصوت قبل ما يغلبوكم (فالصوت العالى قد يغلب).

ـ فضوها سيرة.

مما سبق يتضح لنا فلسفة المثل المصرى حيال الكلام وأنواعه: نميمة، شائعة، كلام فارغ، كلام مؤلم، سيرة، ثرثرة، كلام أمر من السحر، كذب.... إلى آخر أنواع الكلام كتوصيف دقيق، ينبذ بعضه، ويحض على تركه والابتعاد عنه، أو عدم تصديقه.. وينبه لبعضه، ويوجهنا إلى التصرف السليم حياله.. ومن أنواع الكلام التى تعرضت لها الأمثال بما يوضح موقف السلوك المصرى منها «الأخبار» و«الأسرار» فالمثل المصرى يحضنا على عدم التكالب لسماع الأخبار، فقد تأتينا من جراء نفسها دون السعى لها.. ومجانا دون تكبد عناء أو نفقات، وأن كثيرا من الأخبار لايمكن إخفاؤها.. بل سيحملها الركبان مهما بعدت المسافة.. وأن الإنسان فى حالة اتصال وتواصل دائم، وهو ما تعبر عنه السياسات الإتصالية أو الإعلامية الحديثة قائلة أن العالم أصبح «قرية إعلامية»، لايمكن إخفاء أى خبر فيها.. وأن التكرار لابد سيؤتى أثره، أو تأثيره وكأنه سحر ـ كما وضح من مثل سبق ذكره ـ هذا وعوضا عن الإسترسال فى الحديث، نستعرض الأمثال الشعبية التى ورد فيها ذكر كلمة خبر أو أخبار:

ـ ياودن طنى خبر جديد.

ـ قال يا خبر بفلوس.. بكره يبقى ببلاش.

ـ بكره نقعد على الحيطة ، ونسمع الظيطة (أو العيطة).

ـ مين يسمع، ومين يقرا (أى من يتعلم ويستفيد).

ـ الحيطان لها ودان (أى الأخبار والأسرار ستسمع).

ـ مفيش حاجة بتستخبى (وما يخفى إلا ويستعلن) كما جاء فى الإنجيل).

ـ بكره المستخبى يبان.

ـ إللى تولد فى مكة تجيب أخبارها الحجاج.

ـ الخبر الشؤم يوصل بالعجل.

ـ سارت به الركبان (يقال عن شيوع الخبر).

ـ إللى يطلع من الراس يوصل للناس (أى الأفكار حينما تقال).

ـ أم عبر جلابة الخبر (أى المرأة التى تنقل الأخبار).

ـ اللى تحبل فى الفرن تولد فى الجرن (فهو أمر لاسبيل لإخفائه).

ـ جاب الخبر من عند خاله، قال، كل إنسان ملهى بحاله.

ـ جاب الخبر من عند عمه، كل واحد ملهى بهمه.

ـ بيشم على ظهر إيده (أى يعرف الغيب).

ـ يحب يرسى علي البير وغطاه (أى الخبر الظاهر والباطن بكل التفاصيل).

ـ إكفى على الخبر ماجور (أى إخفيه).

ـ ماخفى كان أعظم.

ـ جابوا الخبر من أبوزعبل، إن العجايز تحبل (اى حبر كاذب، ومصدره لايدعمه).

ـ عيش نهار تسمع أخبار.

ـ اللي يعيش ياما يسمع!! (أو ياما يشوف.. للتعجب).

ـ ماسك أفادانه (أى يطيل ذكره وسيرته).

ـ إقطع خبره (أى ذكره وسيرته أى اقتله).

ـ زى ساعى اليهود ما يودى خبر ولا يجيب خبر (يكتفى بالقول لا يودى خبر ولا يجيب أثر).

ـ ماعلى الرسول إلا البلاغ (آية ٩٩ من سورة المائدة).

ـ لاحس ولا خبر (أى لا جديد).

تلك إذن السياسة الإخبارية ـ إن صح التعبير ـ للمثل المصرى أو للإنسان المصرى.. ولكن ماذا عن الأسرار وإفشائها؟ أو الحض على كتمانها؟ لما لذلك من علاقة بآداب السلوك المصرى المهذب.. وهل المصرى «الطيب العفوى» الثرثار، الدائم التدخل فى أمور الغير ونشر أخبارهم يكتم السر؟! أم إن إفشاء السر أمر شائع بين المصريين؟!... ولذلك جاءت الأمثال الشعبية القديمة، لتضع دستورا للتعامل بشأن هذا

الموضوع.. بعد أن أكدت الحصيلة السابقة من الأمثال (١٥ مثلا) أن هناك أمورا لايمكن إخفاؤها.. بل لابد ستشنيع وتذاع، ويعرفها الناس، هذا ما ستؤكده.. أو تضحده الأمثال المتحدثة عن الأسرار:

ـ السر لو خرج ما بين اتنين ميبقاش سر (أو ينعرف).

ـ السر بين اتنين درج، وبين تلاتة فتح الباب وخرج.

ـ إدى سرك للى يصونه.

ـ إكتم سرك تملك أمرك.

ـ الراجل ومراته زى القبر وأفعاله (أى أن ما بينهما سر دفين).

ـ البيوت أسرار.

ـ بيوت مقفلة على بلاوى متلتلة.

ـ دارى على شمعتك تقيد (إخفاء الأمور خوفا من الحسد).

ـ حاجة الست فى الصندوق، وحاجة الجارية فى السوق.

ـ خليها فى القلب تدبح، ولا تطلع لبره تفضح.

ـ السر فى بير (تقال تأكيدا على حفظ السر).

ـ ماتتبلش فى بقه فولة (وصف لمن لا يستطيع حفظ السر).

ومما سبق يتضح لنا أن الأمثال المصرية متوازنة، بشأن الأخبار والأسرار.. فهى شبه متساوية، من حيث تحبيذ كتم السر، أو القول بأن كل شىء لابد سيذيع، ولن يظل خافيا طويلا.. لكن الأمثال توضح

وتشرح وتفسر ما لا يمكن إخفاؤه من أمور، وما هو واجب وضرورى إخفائه ، كالعلاقة بين الرجل والمرأة، التى شبهها بأنها مثل مايحدث فى القبر، دفين لا يطلع عليه أو يجب ألا يطلع عليه أحد.. كذلك مشكلات البيوت، والكلمات التى قد تسيء للسمعة كتمها أفضل.. كما أن كتم السر من عادات السادة، بينما العبيد أو الجوارى أسرارهم مفضوحة، وأن إخفاء بعض الأمور يدرأ الحسد ـ وهو أمر يخشاه المصريون كثيرا ومازالوا ـ وإمعانا فى إخفاء الأمور، يتبادل المصريون عبارات مصطلحية، يتفاهمون بها بخصوص قضاء بعض الحاجات، مثل القول: «سبع ولا ضبع» أو «قمح ولا شعير» وتقال استفسارا عن الأخبار أمام الغير، بأسلوب يحمل معنى التكتم.. وهو أسلوب شائع الاستعمال فى مصر.

ويجرنا الحديث إلى تناول ما قالته الأمثال الشعبية عن «الحسد»، كأمر غيبى يؤمن به المصرى «الطيب» ويفسر به الكثير من الأمور والملمات غير المبررة، التى قد تصيبه، ويشعر حيال تفسيرها بالعجز، فيرجعها للحسد، و«العين» التى أصابته، والتى «تفلق الحجر».. ورغم ما قد يبدو من استطراد أو إقحام للإيمان بالحسد كمظهر من مظاهر الطيبة المصرية.. إلا أننى أرى أن لجوء المصرى قديما، وحتى الآن إلى التفكير والتفسير غير الواقعى.. بل والإكثار من الإعتقاد فى أمور غيبية،

مثل الحسد، وتبرير كل الأمور (الفقر والمرض والمصاب الفادح، والشجار.. إلخ) على أنها بسبب «العين».. واتخاذ التمائم والأحراز، والخرز الأزرق والفاسوخة، والخمسة وخميسة.. وما إلى ذلك، كعوامل درأ للحسد.. رغم عدم معقوليتها، ورغم أن الإسلام يقول بأن: «من ارتدى تميمة لا أتم الله عليه»، فالإعتقاد بأن مجرد «التخميس» أو ارتداء التمائم، سيمنع الحسد أمر غير مقبول علميا، كما أن المرض مثلا لايمكن أن يكون سببه الحسد.. بل الميكروب والفيروس، والعدوى، والقذارة... إلى آخر هذه المسببات الواقعية الملموسة، والتى يتعامى غالبية المصريين عنها، ويرجعون أسباب المرض للحسد وحده.. وكذلك نجد أن الشجار قد يأتى من الخلاف فى وجهات النظر، أو القهر، أو الظلم، أو طولة اللسان، ومع ذلك يرجعه المصرى غالبا إلى الحسد و«العين».. والقياس على ذلك كثير.. ولكن إلى أى مدى يؤمن المصرى «الطيب» ذو التفكير الغيبى الساذج فى الحسد؟! هذا ما توضحه الأمثال والعبارات الشعبية التالية:

- خزانة من غير باب، ويقولوا، يا الله إكفينا شر الحساد.
- دارى على شمعتك تقيد.
- من قروا عليه عزوه (من حسده الناس عزوه).
- إمسكوا الخشب (إعتقادا فى أنه يدر الحسد).

- خمسة وخميسة (قول لدرء الحسد).

- عين الحسود فيها عود (دعاء على الحاسد).

- حصوة فى عين اللى ما يصلى على النبي.

- العين فلقت الحجر.

- السم في اللسان (أى قد يأتى الحسد من مجرد ذكر المحاسن).

- مايحسد المال إلا أصحابه (بمعنى أن المرء قد يحسد نفسه).

- الحسد عند الجيران، والبغض عند القرايب.

- عمر الحسود ما يسود.

- عينك الصافية ما خلت عافية.

- عينك الصافية تجيب الكافية.

- الحسود تعبان.

- غير من جارك ولا تحسده.

كل ذلك (١٦ مثلا) فى مقابل مثل واحد يعلى قيمة الحظ والبخت أو من رزقه الله فى مواجهة الحسد، وفيه قول استنكارى:

- إيش يعمل الحسود فى المرزوق؟!

وكما هى عادة المصرى ساخر دائما، حتى وهو متخوف من الحسد، ويحاول بأمثاله درء الحسد، بإدعاء أن ما لديه قليل، وأن حاسده أحسن حالا منه، فلا داعٍ أن ينظر لما لديه، كما وأن الأمثال التالية تخلق مقابلة

لفظية بليغة.. وتعطي صورا وتشبيهات كثيرة، للمقارنة بين الحاسد والمحسود، موضحة أن الحاسدين يمكن أن ينظروا لما في أيدي الآخرين، ويغبطوهم عليه، أو يستكثروه عليهم.. حتى ولو كان «موتة الجمعة» أو «الموت» أو مجرد «شراية الصابون»، أو «كبر الشوارب» أو «ظل الشجر» أو.... إلى آخر ما سيتضح من صياغة هذه الأمثال:

ـ أبو جمل حسد أبومعزة!

ـ أبو ميه حسد أبو تنية! (التنية شاة صغيرة عمرها سنتان).

ـ أبو ألف حسد أبو ميه!.

ـ حسدوا البين على كبر شواربه! (أو حسدني البين أي الزمن على كبر شواربي).

ـ حسدوا الفجر على ضل الشجر!

ـ حسدوا الميت على موتة الجمعة!

ـ حتى على الموت لا أخلوا من الحسد! (عربي متداول).

ـ حسدوا القرد على حمار «طيزه»!

ـ حسدوا الأقرع على شعر حواجبه!

ـ يحسدوا العريان على شراية الصابون.

ويتضح مما سبق أن المصري يعجب ويستنكر من استكثار البشر لما في أيدي غيرهم.. رغم أنهم يملكون أكثر منه.. كما يستنكر الحسد على مالا يستحق أن يحسد المرء عليه!!.

واستكمالا للسمات الفرعية لسمة «طيب وعفوى» نستعرض فيما يلى الأمثال التى تصف وتسخر من مبالغة المصرى، وعدم الاعتدال والتعقل والتدبر فى تصرفاته، التى تتسم من فرط عفويتها بأنها هوجاء، فيها كثير من التهويل، والإسراف، والمبالغة فى الفرح والحزن والإنفاق، مما يتضح منه أنه من فرط طيبته لا يتحسب للأمور، ويأخذها على أعنتها دون تدبير.. وكمثال لذلك المبالغة فى القول، والفعل وفى تقدير الأمور.. وهنا تنقسم الأمثال ما بين توصيف وتشبيه «المبالغة» بأسلوب ساخر.. وبين توجيه مباشر للناس بضرورة الاعتدال واختيار الأمور الوسط، دون مغالاة .. ففى التوصيف تقول الأمثال:

- يعمل من الحبة قبة !.
- يعمل البحر طحينة ويصطاد قلقاس!.
- عايز جنازة ويشبع فيها لطم!.
- يزود الطين بلة! (أو يزود المبلة طين!).
- ما يعجبوش العجب ولا الصيام فى رجب!.
- جارية وزبدية على بتنجانة مقلية!.
- الست والجارية على صحن بسارية!
- يا واخدة كله يا فايتة كله!.
- قطه جمل!.

ـ عملوه فارس خيل! (مبالغة فى التقدير اختصارا للمثل القائل : يموت الجبان يبقى فارس خيل).

ـ يلبسوا لما يقرفوا!.

ـ يا يحراقة يا غراقة!.

ـ ياقنديلين وشمعة يا فى الضلمة جمعة!

ـ تفانينوا عجب! (أى مبالغ).

أما الأمثال الداعية للإعتدال فى كل شىء فتقول مباشرة:

ـ خير الأمور الوسط (قول للحسن البصرى يضرب فى نبذ لمبالغة).

ـ ساعة لقلبك وساعة لربك (تقال نبذا للمبالغة حتى فى التدين).

ـ الشىء إن زاد عن حده ينقلب لضده.

ـ لا تشد ولا ترخى.

ـ إمسك العصايا من النص.

ذلك عن المبالغة بوجه عام.. ولكن ماذا عن مبالغة المصرى فى «الفرح والتفاؤل»؟ ـ فقد استعرضنا سلفا مبالغة المصرى فى الحزن عندما تناولنا نظرته للمرض، والموت، وتصاريف الزمن والأيام.. سنجدأن الأمثال صوت عاقل يمثل ضمير هذا الشعب... الذى يلجمه إذا بالغ، أو تزيد، وهو فى الوقت نفسه يعكس فلسفته ورؤيته للأمور..

فكلنا يعرف أن المصرى «الخفيف الظل»... «الساخر»، «المرح» بداخله قدر من الحزن والشجن، الذى يرجعه البعض لما يعترض المصرى من ظروف فقر وقهر.. و.... إلخ... لكنه أحيانا شجن غير مبرر: لأنه يطفو أحيانا في غير أوانه... إذ في عز الفرح نجد المصرى يتحسر... بل نجده أحيانا يخشى الفرح والضحك، ويتحسب ويحذر مما يليهما.. ويفترض بالضرورة أنه نكد... بل ويرجب ـ كما تقول أمثاله ـ بالنوم... أو بإخفاء الفرح، وكتم الضحك، ويتضح ذلك من الأمثال التالية:

ـ كل نومة وتمطيطة أحسن من فرح طيطة.

ـ الضحك من غير سبب قلة أدب.

ـ أخرة الضحك نكد.

ـ زغرتي في عبك (إخفاءً للفرح).

ـ ما تفرحش للي رايح.. قبل ماتشوف اللى جاى.

ـ إن الله لايحب الفرحين.

ـ فى فرحكم منسية، وفى حزنكم مدعية.

ـ الثقل ورى يا قبانى (أى لا تتفاءل... إنتظر ما سيأتى).

ـ دقوا الطبل على التلة، جريت كل مختلة.

ـ جات الحزينة تفرح ملقتلهاش مطرح (تقال تحسرا أيضا).

ـ يدلوقوا القهوة من عماهم ، ويقولوا، خير من الله جاهم.

تلك هى الأمثال الخائفة من الفرح والتفاؤل .. والمتحسبة مما سيعقبهما .. ولكن ماذا عن الأمثال الداعية للفرح، والضحك، والتفاؤل؟!:

ـ زغرتى يا للى مانتيش غرمانة (أى أن الفرح الحقيقى، يكون لغير المسئولين).

ـ يوم النصر مافيهش تعب (أى يوم الفرح).

ـ فال الله ولا فالكم (الفال السيىء).

ـ خدوا فالكم من عيالكم (الفال الحسن).

ـ الحزن يعلم البكا، والفرح يعلم الزغاريط (أى تعود).

ـ إضحك والضحك رخيص.. قبل ما يغلى، ويتعبى فى قراطيس.

ـ الذهب يفرح القلب (حديث متداول).

ـ الشؤم عند التشاؤم.

ـ ساعة الحظ ما تتعوضش.

ـ الفرح مليح ولو بصفيح.

ـ إن جالك الفرح إنهبه نهيبة.

ـ ريحة الفرحة تبان زى السمنة السايحة تمام (أى رائحة محببة)..

ـ خد الشر وراح (تقال عند كسر شيء درءا للتشاؤم والإحساس بالخسارة).

ـ بتيجي على أهون سبب (أى الميسرة والخير).

ـ فرحان فرحة مجنون (كناية عن صدق الفرحة وخلوها من الشجن).

ـ إللي يقرصها في ركبتها يحصلها في جمعتها (تفاؤلا بالعروس).

ـ إللي يقرصها في وسطها يحصلها في شهرها.

ـ وأيا ما كان أمر المصرى، وما تعبر عنه أمثاله فالسمعة الغالبة هى المبالغة في الحزن والفرح.. كما اتضح مما أوردت من أمثال ويتفق ذلك مع ماذهب إليه الكاتب أحمد بهجت واصفا الإنسان العربى فى إحدى مقالاته من «أن المبالغة في التشاؤم أو التفاؤل من عيوب العقل العربي وهذه المبالغة تطمس عادة وجه الحقيقة وتخفى ملامحها، فلا نرى سوى هواجسنا ومخاوفنا، أو آمالنا الوردية دون مخاوف» (١).

ذلك عن المبالغة فى الفرح أو خشيته، التى تبدو واضحة كما، فى جانب التفاؤل والفرح.. وإن شابته شوائب الحزن المصرى الدفين، وخشية العواقب بنسب متقاربة.. ولكن ماذا عن «المبالغة» فى الإنفاق أو الإسراف بالمعنى المادى، وهل المثل المصرى يدعو لترشيد السلوك في

---

(١) جريدة الاتحاد الظبيانية ـ في العدد ٦٢٥٧ ـ الصادر ١٦/١١/١٩٩١ ـ ص ٧، مقال بعنوان «مكاسبنا فى مؤتمر السلام وخسائرنا».

هذا الصدد؟ أم يدعو للإستهلاك والإسراف؟ مع الوضع فى الإعتبار أن المبالغة فى المعنويات كالفرح أو الحزن لا ضرر منهما ـ عدا ما يختبىء فى المصرى نفسه من شجن دفين ـ فى حين أن المبالغة فى الإنفاق والإستهلاك لهما عواقبهما الوخيمة فى مجتمع لا يتسم بالثراء... بقدر معاناته من الفقر... فإلى ما يدعو المثل المصرى فى هذا الصدد؟!.

ـ إن خلى لك زادك كله كله.

ـ إن طاب لك عيشك كله كله.

ـ هين قرشك ولا تهين نفسك.

ـ إللى معاه حنة يحنى فلس جحشه (تقال أحيانا سخرية من المسرف).

ـ إللى معاه قرش محيره يجيب حمام ويطيره.

ـ الحساب يوم الحساب (أى أسرف على نفسك).

ـ الحساب يجمع.

ـ الزائد أخو الناقص (أى كله واحد فإنفق).

ـ كل وإشرب، وخلى الدنيا تخرب.

ـ هاتى يا سدرة، ودى يامدرة.

ـ قال، ياجارية إطبخى، قالت، ياسيدى كلف (تقال فى طلب المزيد من الإنفاق).

ـ اللى يجى بالسهل يروح بالسهل.

ـ شرى العبد ولا أنيته (الأخذ بالأسهل ولو كان مكلفا).

ـ أصرف ما فى الجيب يأتيك مافى الغيب.

ـ دقى ياخايبة للغايبة!

ورغم وجود كل هذا الكم من الأمثال الرافضة للإدخار كقيمة .. والقائلة بأن كله زائل، فلننفق ونهنأ.. نجد بعض الأمثال تسخر من المسرفين وإن كانت قليلة (٣ أمثال فقط)، وفيها مواربة وتحتمل معنيين كالقول:

ـ داق الطعمية، وباع الطاقية.

ـ اللى تجمعه النملة فى سنة ياخده الجمل فى خفه.

ـ اللى تخلفه الجدود تفنيه القرود.

كذلك هناك أمثال تحض على عدم المبالغة فى الإنفاق بل تشجع على الإدخار، وعمل حساب للزمن.. وكنموذج عليها الأمثال التى نادت بالإقتصاد والتدبير.. والقائلة:

ـ جوع سنة تغتنى العمر.

ـ إللى معهوش مايلزموش.

ـ يامستكتر الزمن أكتر (أى حتى لو كان لديك الكثير لا تغالى).

ـ جبال الكحل تفنيها المراود، وكتر المال تفنيه السنين.

ـ بدال اللحمة والبدنجان، هات لك قميص ياعريان (أى ضع أولويات للإنفاق).

ـ القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود.

ـ إللى تسكر به إفطر به.

ـ من وفر غداه لعشاه إلتقاه (أو ماشمت فيه عداه).

ـ دبر غداك تلقى عشاك.

ـ على قد لحافك مد رجليك.

ـ خد من التل يختل (نبذا للتبذير).

ـ القوت ليموت (أى القليل يكفى حتى لايموت المرء).

ـ إللى يرقع مايدوبش تياب (ما يدوبش دايب وراه مرقع).

ـ التدبير نص المعيشة.

ـ إن كنت على بير أصرف بتدبير.

ـ شعرة من هنا وشعرة من هنا يعملوا دقن.

ـ قال، يا نعمة رايحة فين؟ قالت، عند إللى يصونى (أى أن النعمة تزول عن المسرف).

ـ عصفور فى اليد خير من عشرة على الشجر (أو فى الغد).

ـ لايغرك رخصه ترمى نصه (لو اقتصدنا فيه).

ـ البركة فى القليل.

- خلى حبة لبكرة (أو خلى شربة لبكرة).

- بقرش قهوة يرد الشهوة (أى قليل من الشيء كفاية).

- الطباخة الشاطرة تكفى الفرح بوزة.

- غطى خدك، وإمشى على قدك.

- ما توصيش حريص.

- شـربة من برة توفر الجرة (رغم مافى ذلك من استغلال للآخرين).

- شعرة من خنزير خير منه (عربي متداول... وفيه معنى الاستغلال أيضا).

- لبس طاقية ده لده.

ورغم هذا الكم من الأمثال الداعية للاقتصاد (٢٨ مثلا) إلا أن المثل المصرى يسخر أحيانا من المقتِّرين على أنفسهم والبخلاء، ومدعى الفقر، وفى ذلك يقول المثل:

- وجع البطن ولا كب الطبيخ.

- يخافوا يشخوا يجوعوا.

- إللى يفنجر من جيبه (لمن يبخل ويبذِّر من جيب غيره).

- الشحاته كيميا (أى فن).

وكما يحرص المصرى على ماله .. يحرص على مال الآخرين ..

فالمصرى «الطيب» أمين لا يخون من يأتمنه.. ويحرص أن يكون رزقه حلالا.. ويرى أن ما يكتسبه عنوة أو خيانة سيضيع البركة، وسيضيع حتما، ولذلك لا يحترم المصرى - كما يتضح من أمثاله - من يخون، ومن يسرق، ويسخر منهم .. وتنقسم الفلسفة المصرية الشعبية فى هذا الصدد إلى توصيف وتحذير، فلا يوجد مثل واحد يحبذ خيانة الأمانة، أو السرقة.. إلا على سبيل السخرية أو التحامق كالقول باستنكار: «إسرق وصدق يا عبدالله !!» وهو قول يوصف المرائين، الذين يتصدقون وكأنهم يمارسون ما نسميه الآن: «غسيل الأموال» وقد انتشرت الأمثال التى تتحدث عن «الأمانة» فى العصور التى انتشرت فيها الأوقاف الخيرية، التى كان يعين لها حارس غالبا ما ينهبها .. ولذلك سخرت الأمثال المصرية من حماة الأموال الذين يسرقونها، ووصفتهم كى نعرفهم.. وقيل فى هذا الصدد:

- سلموا القط مفتاح الكرار (والقط معروف بالخيانة والسرقة).
- حاميها حراميها!!
- حلال كلنا .. حرام كلنا!!
- عويل قال لكفه إللى تفرقه سفه.
- يسرق الكحل من العين.

أما عن التفريق الدقيق بين الحلال والحرام.. والتحذير من أن المال

الحرام لا يربى على سارقه، والحض المباشر على الأمانة وضرورة حفظها، وأيضا السخرية ممن يؤمنون من لا يؤتمن.. وكأنهم يحرضونه ويعلمونه السرقة.. عن كل ذلك قالت الأمثال:

- سرقوا الصندوق يا محمد لكن مفتاحه معايا (عن الغفلة).
- المال السايب يعلم السرقة (عن التهاون).
- إللى يسرق البيضة يسرق الفرخة (فهو غير مؤتمن).
- إللى يسرق البيضة يسرق الجمل.
- المال إللى ما يشبه اصحابه حرام (لأنه شبهه).
- مال تجيبه الريح تأخذه الزوابع.
- مال الوقف يهد السقف.
- الحرام يتاكل بإيه؟!.
- بتاع الناس كناس (مال أو متاع).
- عمر الحرام ما يربى.
- من آمنك لم تخونه.. ولو كنت خاين.
- الحرامى يا قاتل يامقتول (كمصير حتمى).

وعن المثل القائل: «مال الناس كناس» استطلعت د. فاطمة المصرى اتجاهات عينة من المصريين، وافق منها ٩٠٪ على معنى المثل، ورفضه ١٠٪ فقط، ويتضح من ذلك أن الاتجاه العام هو رفض مال الغير،

والتمسك «بالقرش الحلال» مما يؤكد أمانة الإنسان المصرى «الطيب» و«المتدين» معا.

وكما يصف المثل المصرى ويحذر من السرقة والخيانة يطمئن إلى أن:

- عمر المال الحلال ما يضيع.

بينما يرى أن المال الحرام يضيع ، ويقول عنه «ضاع سلقط فى ملقط».

ويعتبر المثل المصرى النذر شكل من أشكال الأمانة التى يجب الوفاء بها، وهو شكل آخر من الوفاء بالوعد، والصدق ، ولذا يقول :

- قل من النذر واوفى.

كل ما سبق تناولنا فيه سمة المصرى «الطيب العفوى» بكل ما تفرع عنها من سمات الصدق ، والأمانة وحب الخير والإحسان للآخرين والتعاون والكرم ، والخوف أو الحذر .. إلى آخره .. ولكن ماذا عن المصرى المنتمى ، المحب لوطنه وبلده وأسرته وبيئته؟؟ .

وكيف عبرت الأمثال الشعبية عن ذلك؟ وهل مازال المصرى الأصيل هو عاشق ترابه ، الرافض للغربة «المحب للاستقرار»؟!! .

عاشق للاستقرار

المصرى محب لبلاده بوجه عام، يرتبط بها كوطن.. ولا يرحب بتركها أو البعد عنها.. ولديه كراهة شبه فطرية للغربة والاغتراب، والوطن لدى المصرى ليس مصر ككل .. ولكن مدينته أو قريته أو الشارع أو الحارة، بل والبيت الذى يسكنه.. فالمصرى الأصيل ينتمى للمكان .. ولا يرحب بسهولة بتركه.. وإذا اضطر لذلك يداخله شجن خفى.. وحنين وشوق للمكان الذى تركه.. ويرجع البعض هذه السمة إلى طابع الاستقرار الذى صبغ به النهر والمجتمع الزراعى سلوك المصرى، الذى استقر على ضفتى النيل.. وزرع الشريط الموازى له.. وبنى بيته، وأنشأ مجتمعه الصغير، كفور ونجوع وقرى، ثم مدن ومحافظات، وكل ينتمى للمكان الذى ولد ونشأ وتربى فيه، يحرص على البقاء فيه، ويعتبر نفسه تغرب لو انتقل من مدينة لأخرى للدرس أو العمل.. ويحن للرجوع إلى مسقط رأسه بشوق المغترب، هذا-ويشبه البعض هذه السمة - وهى الاشتياق إلى الديار- بما يشعر به العربى من حنين للمضارب السابقة، التى يعود للبكاء على أطلالها، بعد أن تضطره ظروفه لتركها، ولقد ظل المصرى على هذا الحال حتى عقود ثلاثة ماضية، إلى أن أجبرت الظروف الاقتصادية المصرى على الهجرة إلى دول النفط، فبعد أن كانت

قلة قليلة من المعلمين والأطباء ترسلهم مصر فى بعثات إلى البلدان العربية الخليجية فى الخمسينيات والستينيات .. شهد عقد السبعينيات بداية هجرة واسعة إلى الدول العربية، وشهد عقدا الثمانينيات والتسعينيات هجرة إلى بلدان المهجر (أمريكا وكندا وأستراليا) . فهل يمكن أن نقول بعد كل هذه الموجات من الهجرة - التى بلغ تعدادها الملايين - أن المصرى المعاصر مازال هذا الإنسان المنتمى لترابه، المحب لوطنه العاشق للاستقرار الرافض للهجرة والغربة أو الاغتراب؟!.

هذا ما ستجيب عليه نتائج تحليل المضمون الكمى والكيفى للأمثال الشعبية المصرية، التي صيغت قبل قرون، لتعبر عن نفسية ونهج المصرى آنذاك، ومازال الوجدان المصرى محتفظا بها، ومازال اللسان المصرى يرددها، ويستشهد بها.. وهل اقتصر مفهوم الوطن لدى المصرى على البيت الصغير، أو الأسرة الصغيرة - ولا أقول العائلة - التى يحافظ على تماسكها ويرحل بها؟! أم أن هذه الأسرة الصغيرة أيضا تمزقت بسبب الهجمة المادية التى جعلت المصرى يرحب بالهجرة؟!.

قبل أن نقفز إلى النتائج.. لابد أن نفسد مفهوم المصرى للاستقرار، واهتمامه بأسرته، وتعلقه بها، بوصفها أول نواة للانتماء، واهتمامه بالأصل والتأصيل، كشكل من أشكال الانتماء، ورجوعه

بجذوره إلى أجداده الفراعنة، واعتزازه بهم، وفخره بنفسه، لأنه من سلالتهم - رغم الهوة الساحقة بينه وبينهم - وتمسكه بالقديم والموروث، بما له من ذاكرة حافظة لكل القيم والموروثات الشعبية، وحبه للاقتناء، وسيجرنا كل ذلك للحديث عن تمسك المصرى بالقيم، وهل مازال مستقرا؟! أم حدث انقلاب قيمي، قدم بعض القيم، ونحى أخرى، وغير ترتيب السلم القيمى المصرى وأولوياته.. حيث سنستعرض رؤية المصرى للعلم والجمال والحب والعمل، والحرية والمسئولية ، والمال استكمالا لما أوضحناه سلفا لرؤية المصرى للخير والحق كقيم مطلقة مازال يتمسك بها تعبيرا عن ذاته الطيبة وسلوكه العفوى وعن تدينه الشديد.

قلنا إن المصرى يكره السفر والبعد، ولا يترك دياره بسهولة وقد عبرت الأمثال عن ذلك قائلة:

- من خرج من داره ينقل مقداره.
- الغربة طربة تقل الأصول.
- البعد جفا.
- البعيد عن العين بعيد عن القلب.
- اللى ما تصبحه وتمسيه ما تعرف إيه جرى ليه .
- الغريب أعمى ولو كان بصير.
- ما نابنا من غربتنا إلا عوجة ضبتنا.

- خليك فى عشك لما الدبور يهشك.

- الحجر الداير لابد عن لطه (أو ما ينوبه غير لطه).

- البلد دى أحسن من غيرها.

- البطيخة ما تكبرش إلا فى لبشتها (الوطن والأرض).

- زى السمك إن طلعْ من المايه يْموت.

- عزال يوم خراب سنه.

- طول الغيبة وجه بالخيبة.

- الشيخ البعيد مقطوع ندره (رغم القول بأن سره باتع).

- رايح يحج جاور.

- الغايب حجته معاه (تقال درءا للقلق على الغائب).

- المراسلة نصف المشاهدة (تقال حثا على المراسلة لمن سيغيب).

- متقطعوش الجوابات.

- الغايب مالوش نايب.

- اللقا نصيب (تقال تحسبا من الموت فى السفر).

- الغريب لابد يكون أديب.

- بلد تشيلنا وبلد تحطنا (عن مشقة السفر).

- رب هنا رب هناك (أصلها يا رايح الشام لأجل الغنى ، رب هناك رب هنا).

- مسير الغريب يروح بلده (المصرى يعيش على هذا الأمل).

- راح وقال عدو لى (أى أطال الغياب).

كل هذه الأمثال (٢٦ مثلا) تقول بصيغة أو بأخرى: أن السفر والبعد والغربة لها مساوئها، فهى تقل المقدار وتضيع الأصول، أنها «طربة»، ولن تفيد منها شيئا عدا عن «عوجة ضبتنا» أو الضرر «لابد من لطه» و«الخيبة»، والخراب والمشقة، وأن الغريب «أعمى ولو كان بصير»، وأن من يبعد سنجفوه، ولن يعد قريبا من قلوبنا، و«مالوش نايب» وسيقطع ندره حتى ولو كان شيخا وسره باتع، والمصرى قلق على من يسافر، ويرجوه ألا يقطع المراسلة، والجوابات، ولا يطيل الغياب، وحتى من يسافر هربا من شئ ، أو سعيا وراء رزق أو طمعا فى غنى ، فالمثل يؤكد له أن «رب هنا رب هناك».

وبالمقابل نجد بعض الأمثال (٥ أمثال فقط) تحبذ السفر وترى فيه فوائد، وتحث على الترحال فى بلاد الله، وترى فى البعد اشتياقا محببا، فماذا تقول هذه الأمثال على قلتها؟ :

- فى الأسفار سبع فوائد (عربى متداول).

- المركب إللى تودى أحسن من إللى تجيب (يقال أيضا عن الضيوف أو الشر).

- سكة أبو زيد كلها مسالك.

- بلاد الله لخلق الله (حث على الترحال).

- الشيخ البعيد سره باتع (يقال أيضا لمن يستهين بالقريب).

ومن ملامح حب المصرى للاستقرار، تمسكه بالقديم والموروث، وتمسكه الشديد بعاداته.. بل نظرته للثبات والاستقرار فى الأمور.. وعدم اقتناعه بسهولة بالتغيير، فى ذاته أو فى عاداته، أو فى عادات الآخرين وتصرفاتهم.. فحول «التمسك بالقديم» تقول الأمثال المصرية:

- من فات قديمه تاه.

- قطع الورايد ولا قطع العوايد.

- إللى مالوش قديم مالوش جديد (فالتمسك بالقديم يعنى الأصالة).

- ربنا ما يقطع لنا عادة (دعاء).

وعن «التعود والنكوص» ترى الأمثال أن من يتعود على شئ لابد راجع إليه.. ولا يمكن التخلص منه.. وبقدر ما يرى فى التمسك بالقديم من قيمة، بقدر ما يسخر أحيانا من أصحاب العادات الذميمة، الذين لا يمكنهم التخلص منها ، ولا يصدق المصرى أنهم قد تابوا عنها، وتقول الأمثال فى ذلك:

- تموت الرقاصة ووسطها بيلعب.

- يموت الزمار وصباعه بيلعب.

- تموت الحدادى وعينها فى الصيد.

- من شب على شئ شاب عليه (عربى متداول).

- رجعت ريمه لعادتها القديمة.

- ناهيتك ما انتهيت، وبالطبع فيك غالب، وعمر ديل الكلب ما ينعدل، ولو علقوا فيه قالب.

- الطبع يغلب التطبع.

- الطبع غلاب.

- عادتهم وللا هايشتروها؟! (أصله ده طبعه فين يوديه؟ هو كان طبعه وللا هايشتريه؟!).

- الطبع والروح فى الجسد ما يطلعش إلا لما تطلع.

- كل إنسان يحكم بطبعه.

- الناس طبايع.

- إللى فينا فينا ولو حجينا وجينا.

- طول عمرك يا رضا وانت كده (أى هذا طبعك).

- من يومك يا خالة وإنت على دى الحالة.

من يومك يا دبيبه وفيك ده العود.

رجع لعشب دبيو.

- اللى فيه خصلة مايبطلهاش.

- إللى نبات فيه نصبح فيه (العودة والتكرار).

- إللى مش واخد على البخور تتحرق «طيزه».

- الدناوة طبع.

- يرجع أخوك عندك أبوك (أى يعود لسابق عهده).

- خذ متعود على اللطم.

- الحمام الغيطى عمره ما يبقى بيتى (ويضرب أيضا فى المرأة).

- إن كانت الماية تروب تبقى الفاجرة تتوب.

- إن تابت «القحبة» عرصت وإن عميت «....»(★).

هذا ويهتم المثل المصرى بالقديم والعادات، فيطلق عليها كثيرا من الأمثال (٣٠ مثلا) ، فى حين لانجد إلا مثلا واحدا عن الجديد .. يسخر منه ، ويرى أنه غير دائم وأنه قد تكون له زهوته لكنها إلى زوال فيقول المثل:

- الغربال الجديد له شدة.

ذلك يعنى أنه يرى أن الدوام للقديم، لأنه الأصيل .. ومن لا يتمسك به يتوه.. وأيضا لن يتمسك بالجديد، بمعنى أنه غير مخلص، ولا يتميز بالأصالة، ولذلك نجد أن المصرى أطلق كثيرا من الأمثال عن «الأصل والأصول» التى يعتز بها كثيرا فيقول:

- ابن الأصول عمره ما يعيب.

(★) يلاحظ على بعض الأمثال استعمال الفاظ بذيئة بعضها عربى فصيح وبعضها عامى.

- على الأصل دور (أغنية صارت مثلا أو العكس).
- إللي ما يكون سعده من جدوده يالطمه على خدوده.
- التنا ولا الغنى (أى الأصل الطيب ولا المال).
- تتاه على ظهر إيده (أى غير أصيل ولا يصون جميل).
- كل واحد بيعمل بأصله.
- كل شئ بيرجع لأصله.
- الأصل الردى بيردى على صاحبه.
- الزيت من الزيتونه.
- دود المش منه فيه.
- الفرس الأصيلة ما يعيبها جلالها.
- العلامة إنكبت والنخالة قبت (تحسر على مما أصاب أبناء الأصول).
- إذا لبسنا عوايدنا.. وإن ما لبسنا عين وصابتنا.
- أكل فول ورجع لأصوله.
- إللى فى الدست تطلعه المغرفة.
- كل إناء بما فيه ينضح (عربى متداول).
- إن طلع العيب من أهل العيب .. مايبقاش عيب.

ورغم اعتزاز المصرى بأصله، وإرجاعه للأمور بحسنها وسيئها إلى

الأصول، ومحاولته ربط أعمال المرء بأصله وجذوره.. نجد بعض الأمثال - بالأسلوب المصرى الساخر المعتاد- تتهكم علىَ من يحاولون تأصيل أنفسهم، والفخر بمن ينتسبون لهم.. حتى لو كانوا فروعا بعيدة ، وفى ذلك قالت الأمثال:

- قالوا للحمار، أبوك مين؟ قال خالى الحصان.
- أسأله عن أبوه يقول خالى شعيب.
- القرعة تتباهى بشعر أختها.
- قال يا أبويا شرفنى قال لما يموت إللى يعرفنى.
- يا دودة تتمطعى تتقطعى.

ومن ذلك نرى أن المثل الشعبى يعتز بالأصول بشكل مباشر (١٥ مثلا)، وسُخر ممن لا أصل لهم.. ومع ذلك يتمسحون فى أصحاب الأصول (٥ أمثال) بما يعكس أيضا اهتمام المصرى بالأصل والتأصيل.. وذلك الوضع يؤكد عنصر الثبات واستقرار الأوضاع الاجتماعية فى المجتمع المصرى.. لكن الأمر لم يخل من بعض الأمثال التى-تؤكد أن الأصل ليس بالمال، وليس بالجدود.. ولكنه بسلوك المرء، وأفضاله، وأعماله الخيرة أو الحسنة، وذلك لتحفيز الناس على العمل الطيب.. والقول بأنه - أى العمل الطيب - كفيل أن يغير من وضع الفرد وطبقته.. ويدخله فى زمرة من يسميهم المصرى: «ولاد الأصول»، الذين

يرى أنهم لا يعيبون ولا يخطئون، لأن أصلهم «يردى» عليهم.. كما ترى الأمثال أن البعض دون أن نعرف أصولهم يمكن أن نحكم عليهم بمجرد رؤيتهم، أو الإطلاع على سلوكهم.. فنذر يسير من التصرفات أو السمات يمكننا بها الحكم على الشخص، إن كان أصيلا أو «عويل»، كما يسمى المصرى من يصنفهم عديمى الأصول.. وفى هذا الصدد تقول الأمثال على قلتها نسبيا.

- أصلك عملك (أى إعمل طيب تدرج بين أبناء الأصول).
- الشاب بسعده.. لا لأبوه ولا لجده.
- فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله.
- إنما أصل المرء ما قد حصل (عربى متداول).
- سيماهم على وجوههم (عربى متداول).
- العينّه بينه.
- الكتاب يتعرف من عنوانه (أو الجواب ينقرى من عنوانه).

ومن اعتزاز المصرى بأصله نجده دائما يستشعر عدم تقدير الغير له.. ولما يقدم من خير.. ولذلك نجد العديد من الأمثال التى تتحدث عن «نكران الجميل» كوجه من أوجه «قلة الأصل» كما يقيمها المصرى، فرغم اعتقاده فى أن «الجزاء من جنس العمل» – كما سيأتى بيانه فيما بعد – نجده يصف نكران الجميل بأسلوب دقيق، وتشبيهات غاية فى البلاغة،

ويربط بينه وبين الأصل الخسيس.. وعدم صيانة ما يسميه «العيش والملح»، وهو ما يتعتز به المصرى ويجعل له حقا مصانا .. فهو يقول عن ناكرى الجميل:

- أكله لحم ورماه عضم.
- ما راعاش العيش والملح.
- العيش والملح ما يهونش إلا على ولاد الحرام.
- عض الأيد إللى اتمدّت له.
- إللى «يخربه» زى إللى يوضيه.
- تزرعه يقلعك (كل شئ تزرعه تقلعه إلا أبو راس سودة تزرعه يقلعك).
- زى القطط يأكلوا وينكروا.
- زى العرسة يأكل وينسى.
- لما يطيب العليل ينسى جميل المداوى.
- أكلوا الهدية وكسروا الزبدية.
- لحم كتافه من خيرى (تقال عن ناكر الجميل).
- زى عواجيز الفرح يأكلوا وينتقوروا.
- بعد ما كل واتكى قال ده ريحته مستكه.
- جزاء سنمار (عربى متداول).

- ربيت كلب إندار عقرنى.

- لو قيدت له صوابعي العشرة شمع (تبسيط لمثل عربى يقول، لو أوقدت لك العشرة ما رأيتهم إلا ظلاما).

- أنا فيك بدادى وأنت بتقطع أوتادى.

- خير عملنا.. والشر جانا منين؟!.

- آخر المعروف ينضرب بالكفوف (أو جزاء المعروف ضرب الكفوف!!).

- آخر خدمة الغز علقة.

- خير تعمل شر تلقى.

- يا شاكر غيرى يا ناكر خيرى.

- ربيت فلان مطمرش فيه.

وتتوعد الأمثال ناكرى الجميل بأمور من جنس عملهم وأسوأ، فتقول موجهة الخطاب لهم:

- ماتعرف مقدار أمك إلا لما تعاشر مرات أبوك.

- يا ناكر خيرى بكره تعرف زمانى من زمن غيرى.

هذا ويتبنى الوجدان المصرى ترديد المأثور العربى المتداول، والمحذر للخيرين والمحسنين، مما قد ينالهم من عديمى الأصل وناكرى الجميل والقائل:

- إتق شر من أحسنت إليه.

هذا ونجد المصرى « المحب للاستقرار»، والمتمسك بالقديم والموروث، والميال لإرجاع الأمور إلى جذورها وأصولها، نجده يضع دستورا محكما من أمثاله الشعبية، ليحكم به صيرورة الحياة مستقرة، وذلك نجد للحب والمحبة دستورها وقوانينها، التى تحفظ استقرارها ودوامها.. كما نجد للأسرة الصغيرة، متمثلة فى العلاقة بين الرجل والمرأة والأبناء قوانينها الملزمة من خلال الأمثال الشعبية، التى لم تترك شاردة أو واردة إلا وناقشتها، ووضعت لها الحدود التى تضمن لها الاستقرار، كذلك علاقات القربى والروابط بين الأهل، التى تضمن تنظيم العلاقات العائلية واستقرارها بل وأكثر من ذلك اهتمت الأمثال بأمور «الحب والمشاعر» بوصفهما النواة التى تقوم عليها شتى العلاقات الاجتماعية المستقرة، وفى ذلك تناولت الأمثال كل ما يتعلق بهذه المشاعر من علاقات شد وجذب، وغيرة، وألفة ، ودلال أو «تقل» وغواية، وتحمل من المحبين لكل من يأتى من أحبائهم ليصل أحيانا إلى حد الذل و«البهدلة».

وفى هذا الصدد أيضا انقسمت الأمثال ما بين التوصيف والتقنين للأمور رفضا أو قبولا .. ففى مجال التوصيف تقول الأمثال عن «الحب والمشاعر»، وما يرتبط بهما:

- الحب خايلة بنار هايلة عوج السليم وعدل المايله.

- الحب بهدلة.

- العين وما تهوي والقلب وما يريد (أى لا مبررات ولا أسباب).

- النفس وما تشتهى، والقلب وما يريد.

- مراية الحب عامية (الحب أعمى).

- التقل صنعه.

- القلب له أحكام.

- الحب مش بالعافيه (لا إجبار فيه).

- حبنى وخد لك زعبوط، قال هى المحبة بالنبوت؟!.

- الغرض مرض.

- كل من جانا يحب مرجانة.

- وقعت وللا الهوى رماك؟!.

- حبيبك إلى تحب.. ولو كان دب (ولو كان عبد نوبى).

- ما تَعب إلا تعب القلب.

- القلب له واحد (عن الوحدانية فى الحب).

- قد الودعة وله فى القلب لدعه (وتقال أيضا فى معنى جنسى).

هذا ويؤمن المثل المصرى بالوحدانية فى الحب، وأنه يأتى دون مبررات أو أسباب ، ولا يكون بالإكراه .. أو حتى بالإغراء المادى ، وهو أعمى .. بل ويقلب الأمور وفقا لما يشتهى ، والحب كما يرى المثل

المصرى علاقـة تبـادلية ، تعتمد على العطاء والبذل المتبادل ، وفى ذلك يقول المثل:

- إللى يبص لى بعين أبص له باتنين.
- تراعينى قيراط اراعيك قراطين.
- من القلب للقلب رسول.
- من رادك ريده، ومن طلب بعدك زيده.
- من فاتك فوته.
- من حبنا حبناه وصار متاعنا متاعه .. ومن كرهنا كرهناه يحرم علينا اجتماعه.

وإذا كانت الأمثال ترى ضرورة التبادلية فى العطاء فى هذا العدد من الأمثال (٦ أمثال فقط) ، فهى ترى الحب عطاء وبذلاً دون مقابل فى كثير من الأمثال ، نذكر منها :

- الغاوى ينقط بطاقيته (أى بأى شىء أو آخر ما يملك) .
- من حبه فى القلقاس حلقوا له ظلبطه (أى رضى بأى شىء) .
- إللى يحب الكموث يتمرغ فى ترابه .
- إن كان حبيبك تعبان إتلفح به .
- إن حبتك حية إتلفح بيها (أو إطوق بيها) .
- غالى والطلب رخيص (أى يرخص كل شىء من أجل الحبيب) .

– خلى حبيبك على هواه لما ييجى ديله على قفاه (أى تحمل إلى آخر مدى) .

– الرجل تدب مطرح ما تحب .

– قلوب عليها دروب وقلوب من الهم تدوب (أو من الهوى تدوب) .

– نموت ونحيا فى حب يحيى .

– عيش ياحبيبى ولو تبكينى ، حسك فى الدنيا يكفينى (منتهى الأثرة) .

– من لقى أحبابه نسى أصحابه (ترك كل عزيز من أجل الأحباب) .

– ياعينى على اللى حب ولا طالشى !! .

هذا ويسخر المثل المصرى أحيانا من تدله المحبين ، ومن أنهم لا ينتظرون مقابل لحبهم وعطائهم .. بل يحبون دون منطق ، ودون مبرر مفهوم ، ويرون فى الحبيب ما لا يراه غيرهم ، ويرضون بالقليل من عطائه بل يرون فيه الكثير .. وفى ذلك تقول الأمثال :

– بصلة المحب خروف .

– ضرب الحبيب زى أكل الزبيب .

– القط ما يحبش إلا خناقه .

– البوسة فى إيده رطل (أى الحبيب) .

– إللى يلاقى دلع ولا يتدلعش ربنا يحاسبه !! .

- إن كان حبيبك عسل متلحسوش كله (منعاً للعشم الزائد) .

- لما يحب «يخرى» !! .

- يا نعيش سوا يا نموت سوا !! .

- المحبة تقلل شروط الأدب (إذ تسمح بالتطاول) .

- شدة الألفة تسقط الكلفة .

- إللى موش فى القلب همه صعب .

أما عن الدلال والتمنع ، والمراوغة فى الوصال والحب فلها قواعدها التى وضعها المثل الشعبى المصرى قائلاً :

- نفسى فيه .. إخى عليه !! .

- عبنا فيه ونقول إخيه !! .

- نفسها بس خايفة من الحبل

- من ده أكش ، ومن ده أخاف ، ومن ده أخرج حبلة من تحت اللحاف .

- يتمنعن وهن الراغبات (عربى متداول) .

- تماحيكو عجب !! .

- لا باحبك ولا أقدر علي بعدك ! .

- إذا رأيته يسبه إعرف إنه يحبه (ولكن يتدلل) .

أما عن «الغيرة» كسلوك مرتبط بالحب ، فلها أيضاً قواعدها ، التى

يرسمها المثل المصرى ترحيبا ، أو رفضاً ، أو إقراراً ؛ لأنها ملمح من ملامح الحب وضروراته .. وفيها يقول المثل :

- الغيرة مرة ، والصبر على الله .

- إللى ما يغير ولا من الحمير .

وترى الأمثال أن الحب لا يخفى أمره ، ويظهر للجميع وتقول في ذلك :

- الحب والحبل ، والركوب على الجمل ما يختفى .

- مادام تحب بتنكر ليه ؟!! (تساؤل إستنكارى) .

- هو الحب بيستخبى ؟!! .

- إذا حبيت دارى ، وإذا كرهت وارى (توجيه صريح بالإخفاء) .

وتضع الأمثال قواعد أخرى مختلفة للحب ، ومتطلبات تراها ضرورية لاستمراره ودوامه واستقراره ، إذ تقول :

- إن عشقت إعشق قمر ، وإن سرقت إسرق جمل (شرط الجمال) .

- قرد موالف ولا غزال شارد (شرط الوفاق .. وهو عكس المثل السابق) .

- الحب عاوز كلفه ، علشان تدوم الألفة (شرط المال) .

– إذا دخل الفقر من الشباك خرج الحب من الباب (فى نفس المعنى، الغنى) .

– أقرب طريق لقلب الراجل معدته (شرط المهارة فى الطهى) .

– الحب من أول نظرة .

– الأذن تعشق قبل العين أحياناً (حلاوة الصوت) .

– كتر الأسية تقطع عروق المحبة .

– كتر العتاب يفرق الأحباب .

والمصرى يرى فى الحب ذاته ضرورة للحياة .. ويرى أن من لا يحب ولا يعشق لا يستحق أن يوصف بأنه إنسان ، وفى ذلك يقول المثل :

– – إيش تقولوا فى جدع لا عشق ولا إتمعشق ؟ قالوا ، يعيش حمار ، ويموت حمار .

فالحب ضرورة يمارسها المصرى ، ويعتز بها .. حتى ولو قتلته .. فعنده أن «حب الدبة قتل صاحبها !» وأنه «ومن الحب ما قتل !» ، وأن «إللى تكرهه إنت يحبه غيرك» . لكن الحب دائما هو محور حياة المصرى ؛ كعنصر مكمل لتدينه وطيبته ، وأيضاً كمحرك لحياته الاجتماعية ، والأسرية ، وعنصر فاعل فى بقائها واستمرارها ، وسيتضح ذلك أيضاً من تحليلنا للأمثال الشعبية المصرية التى تتناول «الزواج والأزواج» وهو ما يوضح لنا تمسك المصـــرى بالحب كرباط

أســـاسى لاســـتقرار الزواج ، وترحيبه بالزواج كضـــرورة اجتماعية – حتى ولو كانت شرا – وحتى لو كان الرجل مجرد «ظل» .. وفى ذلك تقول الأمثال :

– يا بخت من وفق راسين فى الحلال (تحبيذ للسعى فى التزويج) .

– ما جمع إلا أما وفق (أى تشابه أو توافق إجتماعى) .

– جوزوا زقزوق لظريفة .

– يا واخدة القرد على ماله ، يروح المال ويفضل القرد على حاله .

– خدوهم فقرا يغنيكم ربنا .

– تغور العورة بفدانها .

– خد الأصيلة ولو كانت على حصيرة .

– قلة الذكر تاسى على النظر(أى أن الرجل ضرورة) .

– ضل راجل ولا ضل حيطة (ضرورة الزواج) .

– بلدك فين ياجحا ؟ قال ، إللى فيها مراتى (فالمرأة وطن) .

– ربنا يهنى سعيد بسعيدة (عن الوفاق) .

– إن كان بدك تصون العرض وتلمه جوز البنت للى عينها منه (أى من تحبه) .

– أقعد على البساط وإختار ست الستات .

– تقعد فى المجال وتاخد سيد الرجال .

- يحرم على بيت الأهلية .. أحسن يقولوا ، العاوزة جاية .

- قعدتى بين أعتابى ، ولا قعدتى بين أحبابى (تفضيل لبيت الزوج عن بيت الأهل) .

- جهنم جوزى ولا جنة أبويا .

- إن ماكنش لك أهل ناسب (فى الحض على الزواج طلباً للعزوة) .

- الجواز نص الدين .

- عريس الهنا يارتنى كنت أنا .

- أخطب لبنتك .. ولا تخطبش لابنك .

- كل شىء ييجى بالخناق .. إلا الجواز بالإتفاق .

- الجواز شر .. لابد منه .

- دور الحق على غطاه لما إلتقاة (عن التوافق الإجتماعى) .

مين يشهد للعروس إلا العريس .

- إيش طبخت العمشة لجوزها يتعشى (نوع من الرضا والوفاق) .

- قبل ما تناسب حاسب (أى دقق) .

- إسأل قبل ما تناسب يبان لك الردى والمناسب .

- أقل الرجال يغنى النسا (عن ضرورة الزواج) .

- لا بمالك ترغبنى ، ولا بحلاوتك تعجبنى (أى لا أحبك) .

- جوزوها له مالها إلا له (من فرط التشابه والوفاق) .

ذلك كله عن تحبيذ الزواج ، والترغيب فيه ، ووضع الوفق والتوافق الاجتماعى والحب كأحد شروطه وأولوياته ، وضحت كثرتها (٣١ مثلا) فى مقابل عدد من الأمثال التى لا تحبذ الزواج ، ولا تحض عليه ، وتفضل العزوبية عليه .. ولكن إذا كان غير مناسب .. فالمثل الشعبى هو خلاصة الحكمة المقطرة .. بعد طول تجارب .. فقد تكون العزوبية أفضل إذا كانت الزيجة يتوقع لها الفشل ، أو لا تحقق السعادة والاستقرار المنشود ، وفى ذلك تقول الأمثال :

- الجواز دفع مهر ، وفرح شهر ، وغم دهر .

- العروسة أول أسبوع فانوس منور ، وثانى أسبوع قرد مصور .

- ما كان ناقص على ستى إلا طرطور سيدى (فالزواج لم يضف لها جديداً) .

- متجوزة عدس وعازبة عدس .

- ما تحسبوش يا بنات إن الجواز راحة .

- العزوبية ولا الجوازة الردية (وتقال أيضاً الجوازة العرة) .

- قعاد الخزانة ولا الجوازة الندامة .

- إمشى فى جنازة ولا تمشيش فى جوازة (عكس يابخت من وفق راسين) .

- ألف رفيقة ولا لزيقة (يقال تهرباً من مسئولية الزواج) .

ومما سبق يتضح مدى تحبيذ المثل المصرى للزواج وتكوين الأسرة بنسبة (٣١ : ٩) ، وذلك كمدعاة لاستقرار المجتمع : باستقرار نواته الأولى ، وهى الأسرة .

ورغم أن «تعدد الزوجات» حق للرجل .. فإن المثل المصرى تناول هذا الحق بحكمة شديدة ؛ لما له من مضار تهدد أمن الأسرة وتهدد الاستقرار الذى ينشده للمجتمع ككل .. فسخر بشدة من الرجل المزواج، كما سخر وتهكم على المرأة التى تقبل الزواج من متزوج - بوصفها عنصراً فاعلاً فى إتمام مثل هذا الزواج وممارسة ما يهدد الاستقرار .. وعن ذلك قالت الأمثال :

- من كثـرت ماليته هانت عليه وليته (كثرة المال كعامل من العوامل) .

- إللى يتجوز اثنين ياقادر يا فاجر .

- من عمل النسوان تجارته باخسارته .

- عقربتين فى الحيط ولا ستتين فى البيت

- الضرة مرة .

- يا واخدة جوز المرة يامسخرة .

- تاخدى جوزى وتغيرى .. ما تخيلى (تقوله الزوجة الأولى لضرتها).

– جنازته ولا جوازته (تدعو به الزوجة الأولى على زوجها) .

– آدينى حيــة لما آشـــوف إللى جــاية !! (إذا كانت أحسن منها أم لا ؟) .

– زى الفريك ميحبش شريك (تقال رفضاً للضرة) .

– القديمة تحلى .. ولو كانت وحلة (تقال تأكيداً لندم الزوج وعودته لبيته الأول) .

– هو عايز نقرة ، وللا مصطبة يقرا (تقال لمن يعيب زوجته كحجة للزواج من أخرى) .

– يا مآمنة للرجال يا مآمنة للماية فى الغربال (تأكيداً لخيانة الرجل وعدم إخلاصه) .

– قصقصى طيرك لا يلوف بغيرك (نصيحة للمرأة) .

– برة فرشت لك ، وجوة فرشت لك ، وإنت مايل مين يعدلك .

– الأم تعشش والأب يطفش (اتهام للرجل الذى يهدم بيته) .

– الأب عاشق ، والأم غيرانة ، والبت حيرانة (نموذج للعلاقات الأسرية غير القويمة) .

وكما هى عادة المثل الشعبى المصرى يعبر عن وجهتى النظر .. حتى وإن مثلت إحداهمــا رأى الأقلية ، ويعود فيحبذ تعدد الزوجات قائلاً :

- جوز الاثنين عريس كل ليلة .

- الضرة بتعدل العصبية (أى دواء للزوجة المهملة) .

ولما كانت المرأة هى «حاملة الثقافة» على حد قول أبو الاجتماعيين د. سيد عويس .. فإن المرأة - كما أتصور - هى من أطلقت هذا الكم الكبير (١٧ مثلا) من الأمثال المندِّدة بالزواج الثانى .. وبمن يتزوج عدة مرات ، وهى التى حفظت هذا التراث من الأمثال ، ورددته حتى استقر فى وجدان الشعب المصرى ، ومازال يتداوله حتى الآن .. فى مقابل مثلين فقط قد يكون الرجل هو من أطلقهما ، أو أطلق أولهما ؛ كترغيب لأمثاله من الرجال فى الزواج من أكثر من واحدة ؛ حتى يسعد كل ليلة بلقاء جديد .. أو ليتباهى على أقرانه بأنه «عريس كل ليلة» ، فى حين أن المثل الثانى قد تكون أطلقته إمرأة حكيمة أو «حماه» كعقاب لزوجة ابنها ذات العصبة المعوجة ، ناصحة به ابنها ؛ كى يتزوج ثانية ، ويأتى بضرة للزوجة الأولى .. ولكن أياً ما كان الأمر فهم مثلان فقط ؛ يحبذان عادة تهدد استقرار المجتمع المحب للاستقرار والديمومة ؛ لأنهما مظهر من مظاهر الأمان والطمأنينة ، فى الأسرة نواة استقرار المجتمع كله .

وإذا كان المثل المصرى لا يحبذ التعدد كماً .. فهو يرى فى الطلاق حلاً للحياة الزوجية الفاشلة .. إذا استحالت العشرة ، ولم يطرح التعدد

كبديل .. ومع ذلك فالأمثال القائلة بالطلاق أيضا ليست كثيرة ، قياساً بالداعية للزواج (٣١ : ١٤٠) ، وهو ما سيتضح من استعراضها وتحليلها .. وهى تقول .

– هي جيزة نصارة ؟! (أى أن الطلاق أمر ممكن كحل) .

– جوازة نصرانية .. لا فراق إلا بالخناق .

– الراجل فى السوق بينباع وبينشرى (أى ممكن تركه) .

– زى ما دخلنا بالمعروف نخرج بالمعروف (تبسيط للطلاق بسلام) .

– عريس الغفلة والباب بلا أقلة (أى يمكن رده أو طرده) .

– إنت تاخدى سيد سيده (يضرب للأزواج عند الطلاق) .

– أنت تاخد ست ستها (يضرب للأزواج عند الطلاق) .

– بفلوسك بنت السلطان عروسك (ويقال تحبيذا للمال عند الزيجة الأولى وأيضاً إذا ما رفض العريس) .

– الزمان ده ياالله يهده .. لما الراجل يغضب والست ترده (يقال فى الخلافات الزوجية) .

– لا إتجوزت ولا خلى بالى .. ولا أنا فضلت على حالى .

– زى الحرمة المفارقة .. لا هى مطلقة . ولا هى معلقة .

– خالتى وخالتك وإتفرقت الخالات (يقال عند التطليق بمعنى انقطاع الصلة) .

– لا طلاق ولا عتاق (عن الخلاف الزوجى) .

– عشيقك ما تاخديه ، وطليقك ما ترديه (لأنه سيظل يعايرك) .

وعن جانب التحبيذ للطلاق فيما سبق ذكره من أمثال (١٤ مثلاً) سنجد ستة أمثال – أو أقوال – فقط ، هى التى تقال فى تشجيع الطلاق ، والباقى مجرد توصيف لحالات الخلاف الزوجى .. وفى حالات رفض العريس .

هذا وتضع الأمثال المصرية قواعد عامة للعلاقات الزوجية ، تحبذ فيها بعض الأمور ، وترفض بعضهـا .. فعن زواج الأقارب قالت الأمثال :

– ناسب من الزرايب ، ولا تناسب من القرايب .

– إن كان لك قريب لا تشاركه ولا تناسبه .

– الدخان القريب يعمى .

– بارك الله فى المرة الغريبة ، والزرعة القريبة .

وكأن الوجدان المصرى قد أدرك بالفطرة ما فى زواج الأقارب من مشاكل .. وتعكير صفو الأهل وأمراض وراثية ، وفى مقابل ذلك نجد مثلين فقط يحبذان زواج الأقارب .. وإن كانت تعبيراً عن صوت فردى ، إذ تقول الفتاة :

– آخد ابن عمى .. وأتغطى بكمى (أى حتى لو كـان لا يملك شيئاً) .

– نار القريب ولا جنة الغريب .

وعن البوار .. وكراهة المرأة له .. وتصور استحالة الزواج بعد طول بوار ، بل وعدم رغبة الرجل المصرى فى الفتاة العانس .. فهو أحياناً يفضل عليها الأرملة ، أو المطلقة ، عالجت الأمثال هذا الأمر قائلة :

– قالوا للبايرة ، جالك عريس ، قال مش حصدق إلا لما أعنق (ويضرب أيضا لإستحالة شيء بعيد المنال) .

– لا مال ولا جمال ، منين ييجى الفال (استبعد الجزء الأخير ويقال الأول تحسراً) .

– من كتر خطابها بارت . مسى عليها الليل واحتارت .

– خطبوها إتعززت . وفاتوها إتندمت .

– البايرة أولى ببيت أبوها .

– البنات مربطهم خالى .

– دور مع الأيام إذا دارت ، وخد بنت الأجاويد إذا بارت .

وعن قواعد السلوك .. والتعامل بين الزوج والزوجة قالت الأمثال الكثير ، والمتراوح بين المطالبة بالشدة والإرهاب ، وبين الاحترام والتقدير خاصة أمام الآخرين . وضرورة أن يكون الزوج – بوصفه رب البيت – قدوة لزوجته وأبنائه .. وأن يقوم الزوج بواجباته كى يعجب مراته ويعجب الناس ، وأن يتخير الرجل الزوجة المناسبة من البداية ،

وألا يثقل على أهل زوجته بكثرة الزيارة ، أو بالإقامة معهم ، عن كل ذلك وغيره قالت الأمثال :

- جوزناها تتاخر ، راحت وجابته راخر .

- إذا كان رب البيت بالدف ضارب فشيمة الصبيان كلهم الرقص (عربي متداول) .

- إللي يقول لمراته ياعورة ، تلعب بيها الناس الكورة ، واللي يقول لها يا هانم ، تقف لها الناس على السلالم .

- من همه خد واحدة قد أمه .

- إلبس تعجب مراتك ، ولبس مراتك تعجب الناس .

- إدبح بسك ليلة عرسك (أى إرهبها من أول ليلة) .

- أبويا وطاني وجوزي علاني (تقوله الزوجة إعزازاً لزوجها) .

- إن درى جوزك بغيبتك كملي يومك وليلتك (في حالة عدم استئذان الزوج في الخروج) .

- الراجل ومراته زي القبر وأفعاله (سر دفين) .

هذا ويسخر المصري كعادته ، ويتفكه على مدى الوفاق بين الأزواج خاصة إذا كانت سماتهم مما يدعو للسخرية ، وأيضاً إذا كانا يتميزان بالقبح ونبالغ في الفرح بهما .. كما يصف من يسعون في الفرح بمبالغة بأنهم «متاعيس» ، وكنموذج لذلك الأمثال القائلة :

- العروسة للعريس والجرى للمتاعيس .

- الحمارة النكدة تقع فى أردى التلاليس .

- تبقى عورة وبنت عبد ، ودخلتها ليلة الحد . ومشتهية الحب .

- العرس بزويعة والعروسة ضفدعة (عن المبالغة) .

- أم العروسة فاضية ومشغولة أو مشبوكة (عن المبالغة فى الانشغال) .

- جوزوا مشكاح لريمة .. الأثنين ما عليهم قيمة .

وهناك الكثير من الأمثال التى تتحدث عن أن «الزواج قسمة ونصيب» و «أن السكوت علامة الرضا» فى الزواج ، وأن من واجب الأب على بناته أن يتخير لهم ، ومن ذلك القول : .

- جوزها بايديك .. وناديها تجيك .

- قيدها بقيد حديد ، وجوزها فى بيت سعيد (تحبيذ للغنى وإجبار الفتاة على الزواج به كبعد نظر من الأب) .

- أخطب لبنتك ولا تخطبش لابنك .

- جوز ابنك لدمياطية ، ولا تجوز بنتك لدمياطى (لشهرتهم بالحرص) .

- جوز بنتك لصايغ ، ولا تجوز ابنك لبنته .

وهذه فلسفة خاصة بالمال وعلاقته بالزواج ، وضرورة مراعاة الابنة

بتزويجها من الغنى السعيد ، والاختيار لها .. بل وإجبارها أحياناً من أجل مصلحتها ، ولن تفتقد ، فحين تناديها ستأتيك ؛ لأن الابنة لا تفتقد بالزواج .

ورغم إعلاء الأمثال الشعبية لقيمة الزواج .. وقيمة الزوج ، نجدها تضع قيمة الأخ قبله ؛ لأنه كما سبق القول «ينباع وينشرى» . أو كما يقول المثل :

- الجوز موجود ، والابن مولود ، والأخ مفقود .

واستكمالا لقوانين العلاقات الأسرية نستعرض الأمثال الشعبية المتحدثة عن «الأبناء» ثم عن «الوراثة والشبه» .. وكنموذج لها ما قيل فى تحبيذ الإنجـاب ، بوصفه نعمة ، وسنداً ، وعزوة ، وذخيرة ضد الأيام ، فالأمثال ترى فى الأبناء امتداداً للحياة ، خاصة إذا كان المولود ولداً .. والمثل الشعبى يعكس حب المصرى والمصرية ، وتفضيلهما للأبناء الصبية على البنات ؛ ولذلك يقول :

- العيال عزوة .

- البطن متجيبش عدو .

- من خلف ما ماتش (أو . الأولاد ذكرى) .

- الصغار أحباب الله .

- هننونى ومننونى ، معرفش غير إللى ولدونى (فالولاء دائما للوالدين) .

- كلمة ولد تهز البلد .

- ياأم الولد حطى الولد فى الجيب ، الواد زخيرة للعجز والشيب .

- إللى مالوش ولد عديم الظهر والسند .

- إياك على ده الطلق يكون المولود غلام .. ولا تكنش بنية وتشمت الجيران .

- الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح .

- آخر العنقود سكر معقود .

- الضنا إن لف ودار .. ما يلقاش غير حضن أمه دار .

- سيب العجل يعرف أمه (أو عند الرضاع العجل يعرف أمه) .

- خذوا فالكم من عيالكم (أى تفاءلوا بما يقولون) .

- أعز الذرية ولدين وبنية (الصبية أكثر) .

- لما قالوا ، دى بنية ، إنهد ضهر البيت على ، ولما قالوا ، ده غلام، إنشد ضهرى واستقام .

ويتضح من ذلك تفضيل انجاب الصبى على الصبية .. وإن كان هناك استدراك يتضح فى بعض الأمثال .. لكنها كمياً أقل ، وتقول :

- من سعدها زمانها تجيب (جابت) بناتها قبل صبيانها (ليساعدوها فى تربيتهم) .

- إكسر للبنت ضلع يطلع لها اتنين (وتقال للعيل أيضاً) .

- أبو البنات مرزوق .

- الولد فرحة .. ولو كان طرحه (أى بنت) .

- من كترت بناته صارت الكلاب صهراته .

- بنت الكبه قاعدة على القبة ، وإبن اسم الله أخذه الله .

ويستدرك المثل الشعبى ، الذى يصور أن مجىء الابنة يهد ظهر البيت حزنا وكمداً ، فيقول :

- لما قالوا ، دى بنية ، قلت ، الحبيبة أهى جية ، تكنس لى ، وتمسح لى وتملى البيت علىّ (لكنه أقل شيوعاً ويظهر نظرة المجتمع للبنت ودورها) .

وحتى فى الأحفاد يؤكد المثل الشعبى أن ابن الابن هو السند ؛ لأنه من العصب .. رغم أن أمه «عدوه» أو غريبة .. فى حين أن ابن البنت لا ولاء له لأهل أمه ، ويصاغ هذا المعنى فى مثل يقول :

- ابن الحبيبة عدى وخلانى ، وابن العدوة عدى وعدانى .

كما ترى الأمثال أيضاً أن الحفيد عن البنت لا حكم لنا عليه ؛ لأنه ابن شخص غريب ، وفى ذلك يقول المثل :

- أحكم بطبعك وطبع غيرك لا ، وأحكم فى ملكك وملك غيرك لا ، وربى ابنك وابن بنتك لا .

هذا ونجد من الأمثال الشعبية ما يظهر رفض كثرة الإنجاب بل وإظهاراً لعيوب هذه الظاهرة السائدة فى المجتمع المصرى ، لكن هذه الأمثال من حيث العدد لا تماثل الداعية للإنجاب، والمفندة

لميزاته ، والمحبذة لإنجاب الصبية على البنات .. ومنها نذكر فيما يلي الأمثال التي تحض مباشرة على الإكثار من الأبناء كي تربط المرأة الرجل ، أو «لتكيد الأعادى» .. إلى آخر هذه المسببات الواهية ، التي ذكرتها الأمثال قائلة :

- يغلبك بالمال اغلبيه بالعيال .
- عمر الوحداني ما يكيد عدو .
- أشوفهم ورايا ولو عرايا .

كل ذلك لأن المصرى يرى في الأبناء ديمومة لحياته وامتداداً لها .. واستمرارا للحياة والاستقرار .

أما عن الأمثال التى تبين وتفند مساوئ الأبناء .. ومشاكلهم أو متاعبهم ، وما قد يلاقيه الآباء منهم من جحود ومشقة .. وأحياناً فقر .. فنورد منها :

- يا أبو العيال دايما شيال (حمول أو هموم) .
- من يوم ما جبتكم يا أولادى ، ما هنا لى زادى ، ولا بصيت من طاقة ، ولا مضغت لبانة ، ولا نمت فى حضن أبوكم عريانة .
- قلبى على ولدى إنفطر ، وقلب ولدى على حجر .
- إللى يسمع كلام العيال ، ما يسلمش من الخوازيق (★) (لما يجرونه من مشاكل) .

(★) ويقال لفظ بذىء بدلا من خوازيق فى نفس المعنى .

- يعملوها الصغار .. ويقعوا فيها الكبار .

- إللى مالوش خير فى أهله مالوش خير في حد .

- مش يا بخت من ولدت .. يا بخت من سعدت (فالسعادة ليست دائماً بالإنجاب) .

- قال : يا أبويا ما أنامش حداك ، قال ، يا بنى ريحتنى من فساك (كمواجهة لجحود الأبناء) .

- يمـوتوا فـى قمـايطهم ولا تكبر مصيبتهم (دعاء على العاقين من الأبناء) .

- يقولوا يارب قرش يجيلهم كرش (عن الفقراء) .

- حبلة ومرضعة وقدامها أربعة .. وطالعة الجبل تجيب دوا الحبل .. وتقول : يا عينى عليه يا قلـة الذرية (سخرية من كثرة الإنجاب والتكالب عليه) .

- مسير الابن يبقى جار .

- من كترت أولاده قل زاده (فهم مجلبة للفقر) .

- الولد السو يجيب لأهله النعيله (أو اللعنة) .

- إللى ما يغليها جلدها ما يغليها ولدها .

ومما سبق يتضح لنا مدى تفضيل المصرى للإنجاب ، فى مقابل تبيانه لمساوىء الأبناء ، وما يجرونه على آبائهم (٢٦ : ١٥) ، ونستطيع

أن نضيف إلى ما سبق جانباً آخر من الأمثال ؛ يوضح أن الأبناء موضع فخر من آبائهم .. حتى ولو تميزوا بالقبح .. فالأمثال تقول :

- القرد في عين أمه غزال .

- الخنفسة تشوف ولادها على الحيط تقول : ده لولى ملضم فى خيط .

- ولد مولدتوش ولاده (لا مثيل له) .

- ولد شارب من لبن أمه (أى شجاع) .

- بنت ولا كل البنات .

وكى تستقيم الحياة والعلاقة بين الآباء والأبناء ، تضع الأمثال المصرية قواعد للتربية ، تتراوح بين المطالبة بالشدة وبين المآخاة للأبناء و «المسايسة» ؛ وذلك يتضح من الأمثال التالية :

- إن كبر ابنك خاويه .

- إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسه .. إعرف مين جليسه .

- إللى ما يضربه أبوه وأمه على الكخ ، عمره ما يعرف سكة الدح .

- ابن الديب ما يترباش .

- إضرب ابنك وإحسن أدبه ، ما يموت إلا أن فرغ أجله .

- إكسر للعيل ضلع يطلع له اتنين .

- إللى ما يربيه أمه وأبوه ، تربية الأيام والليالى (إللى ما تربية الأهالى ...) .

- المعزة العياطة ما ياكلش ابنها الديب (لأنها تسهر عليه) .

- تربية العز وأكل الوز .

- الخرسة تعرف بلغى ابنها .

وكما وضعت الأمثال قواعد للتربية والسهر على الأبناء وإعزازهم ، والشدة معهم حيناً ، واللين حيناً آخر ، نجد قلة من الأمثال تقول بالإتكال ، وترك الأمور على أعنتها ، وكنموذج لذلك :

- قال : مالك مربى ؟؟ قال . من عند ربى (فالهدى من عند الله) .

- ابن الهبلة يعيش أكتر (بالتوكل) .

وينبه المثل المصرى الذى يحض على التربية ، ويضع قواعدها .. ينبهه إلى قصر ذلك على الأبناء ، دون التدخل فى تربية أبناء الآخرين ، وفى ذلك قالت الأمثال :

- يا مربى فى غير ولدك .. يا بانى فى غير ملكك .

- أدعى على ولدى .. واكره من يقول : آمين .

- هى القطة تاكل أولادها ؟! (أى لا تتدخل بين أم وأولادها) .

- إذا كانت الداية أحن من الوالدة .. كانت تبقى خيبة زايدة .

هذا ويرى المصرى أن الأبناء «بالوراثة والتشابه» امتداد لحياته واستقرار للحياة بوجه عام ، وفى ذلك تقول الأمثال :

- من شابه أباه فما ظلم (عربى متداول).
- إبن الوز عوام .
- ولد الفار يطلع حفار .
- بنت الحراتة تطلع دراسة .
- إن هذا الشبل من ذاك الأسد (عربى متداول) .
- طالع من عباية أبوه (أو كم أبوه) .
- اقلب القدرة على فمها تطلع البنت لأمها (أو إكفى القدرة ...) .
- العرق يمد لسابع جد .

وبقدر ما أكدت الأمثال عنصر الوراثة والتشابه بين الوالدين والأبناء ، واستقرار العناصر أو السمات الوراثية ، نجدها تنحى هذه السمات فى أمثال أخرى لكنها قليلة (٣ أمثال فقط) تقول :

- أم «بربور» تجيب الشاب الغندور .
- يخلق من ضهر العالم فاسد (أو جاهل والعكس صحيح) .
- النار بتخلف رماد .

وترجع الأمثال التشابه والوراثة أحياناً للجدود البعيدين ، أو للأخوال والعمات ، فتقول فى ذلك :

- العرق دساس .

- ولدا لخاله (أو الولد لخاله ، والبنت لعمتها) .

- كلهم سلالة ولاد عمه وخالة .

- الطينة من الطينة ، واللتة من العجينة .

وتنطلق الأمثال المتناولة لعلاقات الأبوة والبنوة ؛ لترسى قواعد مختلفة ، تعكس حب المصرى لأبنائه ، واعتزازه بهم ، ويمن يعزهم ويحبهم .. كذلك علاقة الجدود بالأبناء كعلاقة إعزاز ومحبة ، فتقول :

- أعز الولد ولد الولد .

- من أطعم صغيرى بلحة ، نزلت حلاوتها فى زورى (أو بطنى) .

وكما هى عادة المثل المصرى بعد أن يقر الأمور ، ويرسى قواعدها ، يسخر من فئات معينة ، ويتهكم عليها .. ومن سخرية المصرى من مسائل الوراثة والتشابه قال :

- أبوك البصل وأمك التوم .. منين لك الريحة الطيبة يا شوم .

- لو ما كناش نعرف أمك وأبوك .. كنا قلنا الغز ولدوك

- اللى فى الدست تطلعه المغرفة (أى كل إناء بما فيه ينضح) .

- أبوك خلف لك إيه ؟! جدى ومات (أى لا شىء) .

- ما يورثونا بالحيا !! .

- كل شيللوا يشبه اللو (أو كل شن له يشبهن له) .

- فولة واتقسمت نصين .

- من حفرة لطوبة يا قلبى لا تحزن (أى أن كلاهما أسوأ من الآخر) .

هذا ويرى المثل المصرى فى التشابه ديمومة .. وأن الأشخاص والأشياء تستمر بالتكرار والتشبه ؛ ولذلك فالشخص قد يكون «شبهه الخالق الناطق» ، أى فى تماثل تام .. وأن الله «يخلق من الشبه أربعين» .

وكما وضعت الأمثال قواعد الاستقرار الأسرى ، وعلاقات الأبوة والبنوة داخل الأسرة الصغيرة ، وضعتها على نطاق أوسع بين الأهل والاقارب ، واهتمت أكثر بأهل الزوج .. خاصة علاقة الكنة والحماه .. وزوج البنت والحماه .. وسنتدرج فى استطلاع رؤية المصرى لهذه العلاقات ؛ لنخلص فى النهاية إلى نتيجة .. قد تكون غير متوقعة - ولن نسبق الأحداث لنقفز إليها - فلنرى ماذا قالت الأمثال عن نظرة المصرى للأهل والأقارب ، بعد أن حذرت من التزاوج بينهم - كما سلف ذكره - قالت الأمثال :

- الأقارب كالعقارب فاجتنبوهم (عربى متداول) .

- ما تيجى المصايب إلا من القرايب .

- عداوة الأقارب ، زى لسع العقارب .

- دود المش منه فيه .

- سكينة الأهل تلمة (أى تؤلم أكثر) .

- العداوة فى الأهل (لك قريب لك عدو) .

وتستثني الأمثال من علاقات القربى : الأم والخالة فتقول :

- الخالة والدة .

- الخال والد .

- يا بخت من كان النقيب خاله (سيسانده ويعزه) .

- إللى عند أمه ما تحمل همه .

- مين يشهد للعروسة غير أمها .

- إللى بلا أم حالة يغم .

وفى مقابل ما ورد من أمثال تحذر من الأهل ، وترى فيهم العداوة ، ومن ورائهم المصائب ، نجد أمثالاً أخرى تقول : أنهم «منا وفينا» وإذا تركناهم نهلك ، وإذا آذيناهم سيصيبنا الأذى وكنموذج لهذه الأمثال :

- ما يحمل همك إلا إللى من دمك (أو ما ينعى همك ..) .

- الضفر ما يطلعش من اللحم ، والدم ما يبقاش مية .

- نار القريب ولا جنة الغريب .

- إن تفيت لفوق جت على وشى .. وأن تفيت لتحت جت على حجرى (أى فى بيتها) .

- جحا أولى بلحم طوره (أى بأهله وما لهم) .

- أهلك لا تهلك (توصية بالأهل) .

إذن الأمثال تحذر وتوصى بالأهل بقد متساو (٦:٦) وتستثنى من التحذير الأم والخالة والخال - أى الأم وأهل الأم - فى حين تستثنى من التوصية بالأهل والتمسك بهم الحماه ، أو أهل الزوج بوجه عام .. بل والأدهى أنها تحذر من الأخوة فتقول :

- إذا كنتم إخوات إتحاسبوا (فقد يجور الأخ على أخاه) .

- الأب جلاب والأخ سلاب .

- أخاك من واساك (عربى متداول) .

- رب أخ لم تلده أمك (أى صديق أفضل من الشقيق) .

- الأخ أخ مراته .. والخايبة تحلف بحياته .

- مين أعز من أمى وأختى ! إللى باخدها كل يوم تحتى (تفضيل للزوجة عن الأم والأخت) .

- إللى مالوش خير فى أخاه لا تستنخاه (لا تنتظر منه نخوه أو نجدة) .

- إن إنهدم بيت أخوك خد لك منه قالب .

وحتى الأب لم ينج من المثل المصرى القائل :

- الأم تعشش والأب يطفش .

- جيت بيت أبويا أرتاح قفلوا فى وشى وتوهوا المفتاح .

وعن علاقة الأب بالأبناء أوردنا سلفاً الكثير من الأمثال - فى معرض الحديث عن تحبيذ الزواج - كمظهر من مظاهر الاستقرار والاستمرار الذى ينشده المصرى للحياة وما فيها .

هذا ونستعرض فيما يلى ما قالته الأمثال عن كل فرد على حدة من الأهل والأنساب .. فعن الحماة سواء كانت : أم الزوج ، أو أم الزوجة بالغت الأمثال ، وأن كانت الصورة السيئة والغالبة لأم الزوج ، التى تقول عنها :

- الماية والنار ولا حماتى فى الدار (أو الكى بالنار ولا حماتى فى الدار) .

- الحما حمة والعمة غمة (أو الحما حمى ، وأخت الجوز عقربة صمة أو سامة) .

- الحمى عمى .

- عرق جنب ودنهم ما يحبش مرات ابنهم (لا ينتظر منهم حباً) .

- إن كانت الغلة قد التبن .. كانت الحما تحب مرات الابن .

- لو كلام الحما حلاوة طحينية ، برضه فى شئ من الغضوضية (أى الكراهة) .

- خدت ماربيتى ، وكلت ما خبيتى ، والبيت صار بيتى (تقوله الزوجة لحماتها) .

- ده لا غدا .. ولا عشا .. ده فقع الحما .

- مكسور ما تكلى ، وصحيح ما تكسرى ، وكلى يا مرات ابنى لما تشبعى (تخلق الحيرة) .

- مسيرك يا مرات الابن تبقى حماه (تقوله الحماه لكنتها) .

- إن كان لك فى البيت طرحة تخش بفرحة ، وإن كان لك طربوش تخرج مكروش (أو إن كان لك عمامة أخرج بالسلامة) .

- إن كان لك قريبة خشى ، وإن كان لك راجل أخرجى ..

ذلك عن علاقة الحماه بالكنة ، وهى علاقة كراهية متبادلة ، ويؤكد المثل أنها فطرية «عرق جنب ودنهم» وفى نسيج التكوين البشرى .. وتنعكس هـذه العـلاقة كما يمثلها المثـل الأخيـر فى عدم الترحيب بأهل الزوج وأقـاربه بوجه عام .. ولكن كيف قنـنت الأمثال علاقة الرجل (الزوج) بحماته ؟ وهل وصفتها بهذه الصورة من الكراهية والبغض ؟! .

- بوس إيد حماتكم ، ولا تبوس إيد مراتك .

- إللى ما يقدرش على حماته ، يقدر على مراته .

- حماتك مناقرة .. طلق بنتها .

- حماتك بتحبك ، قال ، وأنا باموت فى بنتها (أى لا يحبها لكنها لا تقال صراحة) .

- وفرى كلامك (أو نفسك) يا حماتى .. ما ليه إلا مراتى .

- خذ المجنونة بنت العاقلة .. ولا تاخذ العاقلة بنت المجنونة (أى تخير الحماه قبل الزوجة) .

يتضح مما سبق كما وكيفاً ، اختلاف وضع الحماه كأم للزوج وأم للزوجة .. ولعل مرد ذلك أيضا أن المرأة «حاملة الثقافة والتراث» هى من أطلقت الأمثال تعبيراً عن السائد من الأوضاع والعلاقات الاجتماعية ، وهى التى حفظتها من الزوال بترديدها .

وعن العلاقات الأسرية نجد شخصيات أخرى كريهة ، لم يذكرها المثل الشعبى بخير ، ومنها : زوجة الأب .. ويقابلها زوج الأم ، فكيف تناولت الأمثال هذه العلاقة ؟!

- قالوا لجحا : مرات أبوك بتحبك .. قال : هى كانت اتجننت (أى استحالة أن تحبه) .

- مرات الأب سخطه من الرب (أو : خدها يا رب .. كدعاء) .

- ما تعرف قيمة أمك إلا لما تعاشر مرات أبوك .

هذا وقد تناولنا سلفا ما قيل فيها كضرة مكروهة .. أما عن زوج الأم فالأمر يختلف قليلا إذ تقول عنه الأمثال :

- حاجة ما تهمك وصى عليها جوز أمك (الشئ إللى ما يهمك ..)

- إللى يتجوز أمي أقول له يا عمي (ويضرب أيضا فى الولاء والطاعة لأولى الأمر) .

ومنه يتضح أن زوج الأم لن يهتم بأمرنا ولن يفيدنا فى شئ .. لكن لم تتحدث الأمثال عن كرهه .. بل قالت بوجوب الطاعة له ، واعتباره فى منزلة العم ، ولعل الشئ بالشئ يذكر .. فماذا قالت الأمثال عن العم ؟؟

-أبوك ما خلف لك ، عمك ما يديك (لا ينتظر منه خير) .

فالعم أخ .. والأخ لم تنصفه الأمثال .. ولعل ذلك خلاصة تجربة اجتماعية ، أو موروث منذ قتل قابيل هابيل - وأياً ما كان الأمر - فالمثل لم يعتبره والداً أو بديلاً عن الوالد ، كما هو الحال بالنسبة للخال .

وقبل ترك موضوع العلاقات الأسرية ، لابد من الإشارة إلى نوع من العلاقات التى لا يرجى لها استقرار ، فهى تفوق ما وصف به المثل علاقة المرأتين المتصارعتين على زوج واحد .. إذ يقول المثل :

- مركب الضراير سارت ، ومركب السلايف غارت .

فالسلايف دائماً فى حالة صراع وغيرة ، فإذا ما اجتمعوا لابد أن تغرق مركبهم ، وصراعهم أشد وأنكى من صراع الضراير كما يؤكد المثل .

هذا ولابد أيضا قبل الانتقال إلى سمة أخرى من سمات المصرى .. لابد من استعراض وتحليل الأمثال التى تناولت بوجه عام وضع المرأة ، ونظرة المجتمع لها ، بوصفها العنصر الفاعل والأساسى فى الاستقرار المنشود للمجتمع المصرى .. فهل أنصفتها الأمثال ؟؟ أم عبرت ووصفت وضعها المتدنى فى المجتمع وحسب ؟!

سنجد أمثالا كثيرة تناولت المرأة .. البنت ، والزوجة ، والأم ، والأخت .. وسنجد أمثـالا كثيرة تناولت سمات المرأة ، وقدراتها وغيرتها ، وحنوها ، وسنجد أمثالا تحذر من النساء ، وأمثالا توصى بهن .. فكيف نقوم نظرة الأمثال للمرأة ؟ فلنبدأ بالوجه الطيب لها كما ذكرته الأمثال :

- إللى ييجى على الولايا ما يكسبش (أو عمره ما يكسب - تحذير وتوصية برعاية المرأة) .

- إيش يحرر النسا ؟ قال : بعد الرجال عنهم .

- النسا مفصل أعوج قال : لولاه أعوج ما كانشى يضم (عن حنو المرأة) .

– أخطرى لانظرك ، وإتكلمى لأسمعك (يقولها الزوج المحب) .

– اتغندرى وقولى مقدارى (أى إختالى وتدللى) .

– خليلة تجيب الكافية ، وخليلة تلاقى عندها العافية (اعتراف بدور المرأة فى الحالين) .

– إللى تخرج من دارها يتقل مقدارها (يجب أن تصان وتبقى فى دارها) .

– بنت الأكابر غالية ولو تكون جارية .

– هما قالوا : يا نسا وللا قالوا : يا رجال (إلقاء بالمسئولية على الرجل) .

– تطلعوا يا رجالة من المواقع ، وتسيبوها لأمهات خلاخيل براقع .

– خدوا جوز الخرسة إتكلمت (لا تستثيروا غيرتها) .

– زى الشمعة تحرق نفسها ، وتنور على غيرها (يقال عن الأم أو الأخت الكبرى التى تربى) .

– خير الشابة يبان على الضبة .

– هن رحمة لنا (عربى متداول) .

هذه رؤية متوازنة للمرأة ، تعترف لها بالحنو ، وترفع عنها المسئوليات ، ليتحملها الرجل ، وترفض أن نحملها ما لا طاقة لها به أو نستثير غيرتها ، أو نقلل من مقادرها ، وأن نخرجها من دارها ..

ويعطيها حق الفندرة والدلال ، والصيانة والحماية ، ويطالب بألا يجار عليهن (١٤ مثلاً) .. وفى مقابل ذلك سنجد أمثالاً غير قليلة (٢١ مثلاً) تؤكد جبروت المرأة وغلبتها ، أو قوة كيدها ، وأنها مرائية ، ولها سبعة وجوه وسبع أرواح ، وأنها إذا مالت فلا سبيل لإصلاح حالها .. وأنها إذا أنجبت وتمكنت تفترى ، وأنها تسحر ، وأنها ناقصة عقل ودين ، وأنها سبب كل شئ ، وأن موتها سترة ، وأن مشورتها دائماً لا تجلب خيراً .. وأنه حتى التربية - التى هى صميم مهمتها لإنسانية - مشكوك فيها ، فالمثل يراها دائماً «تربية مرة» ويوصفها بشكل مزر ، وعوضاً عن الاسترسال فى تفنيد ما ذهبت إليه الأمثال نذكرها نصاً :

- كيد النسا غلب كيد الرجال (كيدهن عظيم) .

- إن حبيت تغيظ راجل سلط عليه مرة ، وإن حبيت تغيظ مرة سلط عليها عيل .

- البنات مربطهم خالى .

- البنات بسبع وجوه (أو بسبع أرواح زى القطط) .

- لا تأمن للمرة إذا صلت ، ولا للخيل إذا طلت ، ولا للشمس إذا ولت .

- مالت لك مالت لغيرك .

- الوقحة عينها قارحة.

- موت البنات ستره .

- ناقصات عقل ودين (حديث متداول دون وعى دقيق لمعناه الأصلى) .

- فتش عن المرأة (مثل فرنسى متداول ، ومعناه أنها وراء كل بلية) .

- عمر النسا ما تربى عجل (أو تور) ويحرث (فلان تربية مرة) .

- عمر الدوارة ما تربى كتاكيت .

- يا كاتبة يا ساحرة لا نايبك من الدنيا ولا من الآخرة .

- كلام نسوان ؟! .. وللا كلام رجالة .. (أى أن كلام النسوان لا يلتزم به) .

- حطت عجلها ومدت رجلها .

- دقة الطبولة تبين العاقلة من المهبولة .

- ما زاد عليكى يا مرة إلا المجرجر من ورا (تقال كأسلوب استهانة) .

- الغواني يغرهن الثناء (عربى متداول) .

- مالك يا خايبة بتتعلقى فى الحبال الدايبة (أى يغرها القول وتتعلق بقائله) .

- الراجل ابن الراجل إللى ما يشاور مرة (لا يؤخذ برأيها) .

- شاورهم .. وإخلف شورهم (لا يؤخذ برأيها) .

هذا ويعدد المثل للمرأة الأدوار والألوان التى يحب أن تتشكل بها كسلوك ، حتى يرضى عنها المجتمع ، فيقول المثل :

- أهلك يحبوك غنية ، وجيرانك يحبوك سخية ، وجوزك يحبك عفية .

فالمرأة الفقيرة - «العاوزة جاية» يكرهها أهلها ، والجيران والمحيطون يحبون الكرم : كي يستغلونها ، والرجل لا يطيق المرأة المريضة أو المتمارضة ، وليس له صبر عليها .. ولذلك فعليها أن ترتدى كل هذه الأثواب وتلعب كل هذه الأدوار ؛ كى تنال رضا المجتمع ، الأهل ، الجيران ، والزوج .. ورغم النظرة المتدنية للمرأة.. فإن المثل الشعبى يرى فيها أحد عناصر السعادة فى الدنيا .. شريطة أن تكون «مطيعة» ، والمصرى يحب المرأة .. وإن كان لا يحترمها كثيراً ، فالمثل يقول :

- السعادة هي : الدار الوسيعة ، والمطية السريعة ، والزوجة المطيعة .

وبالإضافة لكل المعانى التى وردت فى الأمثال السابقة ، التى تحرض على عدم الأخذ برأى المرأة أو مشورتها ، وأن الرجل الحق هو

الذي يفعل ذلك .. ولا عجب في الأمر فالمصرى يرى فى المرأة متاعاً أو شيئاً .. وليس كياناً إنسانياً ؛ ولذلك يتحدث عن المرأة ويقول : «هى واللى قانيها» أو «يترد على إللى قانيها» فهى شئ للاقتناء وليست كياناً مستقلاً ، وهى «الجماعة» و «الأولاد» و «المدام» دون ذكر لاسمها ، مهما علا شأنها .. وإذا أردنا التأكد من ذلك فلنراجع الأمثال التى ضمها هذا المبحث كلها ؛ لترى بالتحليل الدقيق رؤية المجتمع المصرى للمرأة .. وإنكاره لقدراتها ، حتى فى مجالها الأصلى كأم ومربية ، ومصدر أساسى للاستقرار والاستمرار والأمان الذى ينشده ويعشقه المصرى .. ولن تقف بنا الأمثال فى الحديث عن المرأة عند هذا الحد .. بل سيأتى ذكرها مرة أخرى فى الحديث عن القيم التى يتمسك بها المجتمع المصرى ، وفى مقدمتها الجمال .. وكيف يرى جمال المرأة ؟ وفما يراه ؟؟ وذلك حينما نناقش السمة الأصيلة الخامسة التى أقرها معظم الباحثين للمصرى بوصفه «فنان» .

المصرى «فنان»

لم يختلف الباحثون فى القول بأن المصرى : «فنان» بطبعه وبفطرته .. وبحكم الاستقرار إلى جوار النهر والتأمل في الطبيعة .. وبحكم الوراثة ، وبفضل المخزون الأثرى الذى تركه له أجداده الفراعنة .. فالمصرى عاشق للجمال كقيمة .. يفرق بين الجميل والقبيح بدقة .. وقد كان طوال تاريخه يقدر للجمال قيمته ، ويشارك فى الأعمال الرائعة التى تثير - ومازالت تثير - انبهار العالم .. وكان نتاج يديه أبعد ما يمكن عن الركاكة بل كان يسعى للكمال - وإن آمن فيما بعد أن الكمال لله وحده - والمصرى طوال تاريخه كان عاملاً ماهراً فى صنعته ، وفناناً فى حرفته أو «أسطى» فى فنه .. وقد تعلم منه العالم أصول الفن (الرسم - النحت - التلوين) وقد علم الأجيال التى أتت من بعده بأستاذيه .. أو بما يمكن أن نسميه بالعامية «معلمة» ؛ ولذلك تميز الصانع والفنان المصرى بالمهارة أو «الشطارة» .. علم وتعلم ..بل وعشق العلم .. وكره الجهل وسخر منه ومن الجهال .. وطلب العلم وسعى له وقدر قيمته واحترم معلمه وأحبه ، وحفظ تراثه ونتاجه على مر العصور .. كما عشق العمل وقدسه واعتبره عبادة ، وسخر من الكسل والتقاعس عن السعى ، ومن الكسالة أو من أسماهم «التنابلة» .. وحاول المصرى فى مجال الخلق والإبداع فتفوق على معاصريه القدامى .. وترك

للمحدثين ثروة وذخيرة، تشهد بتفوقه ، وتميز فنونه بالسلاسة العذبة والسهولة الممتنعة .. ليس فى مجال الفن التشكيلى فحسب.. ولكن في مجال الطرب والتطريب والتشخيص .. أو التمثيل ، وفى الكتابة الأدبية ، والمصرى مازال فى هذا الصدد الأخير مبدعاً متميزاً .. حتى على أهل العربية أنفسهم.. ولعل مرد ذلك إلى عذوبة اللهجة المصرية ، ورقة الحديث بها، والذوق المصرى المتميز.. ولكن هل مازال المصرى المعاصر على سابق عهده من حيث الإتقان والفن فى صنعته ، والدقة والجمال فى رؤياه ؟ أم أن القبح الذى ساد العالم ، وساد المجتمع المصرى بالذات ، وأصاب القيم الجمالية والأخلاقية .. قد أفسد طبيعة المصرى الفنان ؟! .

ذلك ما ستؤكده أو تدحضه الأمثال الشعبية المصرية ، التى تناولت رؤى المصرى «للجمال والقبح» و «المهارة أو الشطارة» ، و«العلم والجهل» .. إلى آخر الموضوعات التى تعكس صورة المصرى «الفنان» وتوضح موقفه الآتى من هذه السمة : «فنان» .

عن «الجمال» كقيمة وكمصدر إلهام ، وكمفهوم خاص له سماته المتمثلة فى المرأة قالت الأمثال :

- بيع الجمال واشترى خفة .. الجمال كتير لكن الخفيف صدفة (يعكس روحه) .

- إن سرقت إسرق جمل وإن عشقت إعشق قمر .

- قال يا وحشة خليك نغشة .

- خفيفة يا رشتة !! (تضرب كسخرية من ثقل الظل) .

- لا فرح ولا زفة وإيه دى الخفة !! (إعجاب بخفة الظل وإن لم تصحبها دعاية) .

- إن دبلت الوردة ريحتها فيها (أي يبقى فيها عبير) .

- إن لبست خيشة برضها عيشة (أى تظل جميلة) .

- إن طار قد ما طار يفضل منه قنطار .

- الله جميل يحب الجمال (حديث متداول) .

- الجمال جمال الطبع .

- البير الحلو دايما نازح

- الحلو ما يكملش .

وكما يرى المثل المصرى أن الجمال فى الطبع الجميل ، وخفة الروح، وأنه مهما ضاع سيبقى عبيره ، وسيفيض .. نجده يستدرك ويقول : بوجود نقص في أى جمال ، وتعبر أمثال أخرى عن أن الجمال قد يكون ظاهريا .. وليس جمالا جوهرياً ، وتسخر الأمثال من هذا النوع من الجمال ، كما تسخر من الجمال إذا كان في غير موضعه قائلة :

- من بره طق طق ، ومن جوه فاش وبق .

- من بره هله هللا ، ومن جو يعلم الله .

- من بره رخام ، ومن جوه سخام .

- لولا علبة مكى كان حالنا يبكى .

- إيش تعمل الماشطة في الوش العكر ؟!

- إذا إتكحلتى باردب ، ولا إتعطرتى باردب ، برضك ديك الأورادة

إللى فى راس الكلب (لا فائدة من التجميل) .

– الحلوة حلوة ولو صحيت من النوم .. والوحشة وحشة ولو تغسل وشها كل يوم .

– قال مالك صفرة ؟ قالت : حبلت ، ومالك خضرة ؟ قالت : ولدت .. قال : طول عمرك يا رده كده من وأنت بنت (فلا داعى للإدعاء الآن) .

– خواتم ترصف فى إيدين تقرف !!

– تحت البراقع سم ناقع .

ويسخر المثل المصرى من المتعاجب بجماله .. ومن يدعى التفرد ، ومن المغرورات بوجه عام ، وتقول الأمثال فى ذلك :

– يعنى إللى خلقك ما خلقش غيرك ؟!!

– يعنى بضاعة والناس عليها جواعة ؟!

– خرطها الخراط وإتمدد مات (أو إتدقلج مات) .

– التخن على الجميز (لمن تتعاجب بسمنتها .. وقد كانت صفة جميلة فيما مضى) .

– عايقة ومتضايقة !!

وبقدر ما يحب المصرى الجمال ويعشقه ، ويراه فى أمور كثيرة غير الجمال المادى .. بقدر ما يكره القبح ويرفضه ، ويرفض أى شئ منه ولو كان خيراً أو شهداً .. بل ويرى فى القبح فألا سيئاً .. ويعبر عن ذلك بعدة أساليب تقول :

- الكوع مدبب والوش مهبب ، وإللى يشوفها لا يبيع ولا يتسبب !!

- وشها (أو وشه) يقطع الخميرة من البيت (أى يقطع الرزق من القبح والنحس) .

- يغور الشهد من وش القرد .

- عمشة وعرجة وكيعانها خارجة !

- لا كسم ولا رسم !!

- إحترت يا بخرة أبوسك منين .

- زى القنفذ لا تنباس ولا تنحضن .

ويستدرك المثل الشعبى .. ليقول بأن اللبس أحيانا يضفى جمالا .. بل ويبدِّل الحال فيقول .. وإن بدا القول أحياناً سخرية :

- لبِّس البوصة تبقى عروسة .

- لبِّس الخنفسة تبقى ست النسا !!

- لبِّس الخشبة تبقى عَجَبَة .

وتتفرع عن رؤية المصرى للجمال فى المرأة.. رؤيته «للسمار والبياض» كعنصر يحدِّد وضع المرأة بين الجميلات أو القبيحات .. ورغم أن السُمرة هى الأصل فى المصرى .. نجد أمثاله تحبذ البياض ، وتسخر من السمار ولا تعتبره جمالا فى حد ذاته - إلا من باب جبر الخاطر - أو الاستدراك .. ولعل ذلك بسبب طول وجود الاستعمار

الأوروبى فى مصر .. ونظرة المصرى الى الغُزاة ونسائهم نظرة من أسفل الى أعلى .. أشعرت المصرى بالدونية ، وهى آفة من اثار سنوات الذل والقهر .. فكيف بالله يكره الانسان جلدته ؟! لعل ذلك جزء من سمة «متناقض » التى يتسم بها المصرى - والتى سنتعرض لها فيما بعد -

وأيا ما كان الأمر فقد انقسمت الامثال ما بين وجود البياض على السمار أو العكس بالقول :

- يا ريتنى بيضة ولىَّ ضبب ، أصل البياض عند الرجال ينحب .
- ياريتنى بيضة ولى «بربور» اصل البياض عند الرجال مقبول .
- بدال خطوطك والحمرة امسحى عماصك يا سمرة .
- إن كان بدك تضحك على الأسمر لبِّسه أحمر .
- زى البرغوث فى اللبن .
- سمرة واوصف وبيضة واقصف (أى يكفى البياض كصفة للجمال) .
- السمار نصف الجمال ، والبياض الجمال كله (ويكتفى الآن بالنصف الأول) .
- سودة ياقهوة .. والقلب وما يهوى (أى رغم أن السمار ليس ميزة لكنه الحب) .
- حبيبك اللى تحسبه ولو كان عبد نوبى (أى أسمر كصفة متدنية أيضا) .

- سودة وبنت عبد ودخلتها السبت (أو الحد يوم أفراح اليهود والنصارى من الجميلات) .

أما عن الامثال التى تذم البياض وتنفر منه فتقول :

- السمرة بلحة حمرة .. والبيضة جير فى الحيطة ..

- البيضة زى الدهنة الجامدة فى الشوربة الباردة (فالبياض مقرون عند المصرى بثقل الظل) .

- ما تلتقيش البيضة إلا فى الخم المعفش (رغم اعتبار البيضة جميلة) .

- زى أبو قردان أبيض وعفش .

ورغم التهافت الواضح على البياض واعتباره جمالاً فى حد ذاته فى مقابل الاستدراك القليل (٥٠٪) لمدح السمار.. رغم ذلك يعترف المصرى فى أمثاله بأن الاصالة فى السمار فيقول :

- السمار منّنا ... والبياض يعرّنا (أى عنصر دخيل) .

هذا ويعترف المصرى بعدم وجود جمال كامل أو كمال مطلق .. فيقول عن «النقص والكمال » ..

- كل بير وقدامه نقاعه .

- ملقوش فى الورد عيب قالوا .. أحمر الخدين ..

- الكمال لله وحده (ما كامل إلا الله) .

- كل بلد وفيها كفوها ..

- إللى بيته قزاز ما يرميش الناس بالطوب (فلا أحد كاملاً).

- يدى الحلق للى بلا ودان ، ويدى الفول للى بلا سنان .

وينتقل المثل المعبّر عن طبيعة المصرى «الفنان» العاشق للجمال والكمال .. الى تناول أمر آخر متعلق بالفن ، وهو الاتقان أو ما نسميه «الشطارة والمهارة» ويقرر فى هذا الصدد قدرته على الابداع فى أى ظروف ووفقاً لأى ملابسات.. إذا ما توافر له ما يحفزه على الخلق والفن وإذا لم يتوافر.. فالمصرى ماهر بطبعه .. يجتهد فى عمله - أو هكذا كان - ويؤمن بأنه لا بد محقق ما يطمح له .. وكنموذج لهذا المعنى يقول:

- الشاطرة تغزل برجل حمار .

- يعمل من الفسيخ شربات (رغم استحالة ذلك) .

- يعمل من الجلة كراملة .

- لكل مجتهد نصيب (عربى متداول) .

- ما يجيبها إلا رجالها (أى من لهم قدرة ومهارة) .

- تبديل جحش بجحش صنعـــة (أى كل مهنة فن حتى المهن الدنيا) ..

وعن السخرية ممن لا يتقنون عملهم.. وهم غير المهرة أو غير الفنانين تقول الأمثال :

– قالوا «أبو فصادة بيعجن القشطة برجليه .. قال : كان يبان على عراقيبه (تقال لمن يدعى الاتقان والمهارة) .

– قالوا : للجمل زمر . قال يا ريت ، لا صوابعى مبرومة ولا شفايفى مضمومة (أى قلة مواهب واستعدادات طبيعية)

– قالوا للدبة طرزى ، قالت : دى خفة ايادى .

– عايبة بتعلم فى خايبة الاتنين نايبة .

– عامية تحفف مجنونة ، وتقول لها حواجبك سور ومقرونة .

– ما كل من نفخ طبخ .. ولا كل من طبخ نفخ .

– ما كل من صف الصوانى قال : أنا حلوانى

– ما كل من ركب الحصان خيال .

– جه يكحلها عماها (لقلة مهارته) .

– بيغرق فى شبر ماية (لعدم اتقانه صنعته) .

– خيبة الأمل راكبة جمل !!

– صاحب بالين كداب وصاحب تلاتة منافق (دعوة للتركيز فى العمل لاتقانه) .

– الشاطر اللى يضحك فى الاخر (تقال فى الصبر على الصنعة لمن يكسر مقاديف صاحبها) :

ورغم ايمان المصرى بأهمية الاتقان أو المهارة أو الشطارة فإنه يرى

أن «لكل حصان كبوة» وأحياناً ما يقع إلا الشاطر!.. ويقال له «كان غيرك اشطر»، ولذلك تقول الامثال المتحدثة عن الفشل والنجاح ..

- باب النجار مخلع .

- ما يموت على السد إلا قليل الفلاحة (أى الخايب) .

- إن فلح (العلق) كان فلح فى نفسه .

- خايب وخايب ظله ! .

وترجع الأمثال الفشل أحياناً لقلة المهارة أو « الخيابة » ، كما ترجعها أحياناً لسوء التقدير وتعليق الامور على الغيب، والتمنى مع القعود عن السعى، كما ترجع النجاح أحيانا إلى تساهيل ربنا .. وتيسيره للأمور لبعض الناس .. حتى وإن كانوا غير مهرة .. وللبخت والحظ - كما سبق أن نوهنا - وكنموذج لذلك الأمثال القائلة :

- إركب الديك .. وأنظر فين يوديك ! .

- من حبه ربه جاب له حبيبه عنده (أى يسر له الأمور) .

- الحظ لما يأتى يخلِّى الأعمى سعاتى .

- بتيجى مع العُمى طابات (ويقال بتيجى مع الهُبل دُوبل كقول مستحدث) .

- زرعت شجرة لو كان وسقيتها بماية ياريت ، طرحت مايجيش منه .

أما عن المصرى الفنان الماهر ، المتأمل فى الطبيعة ، والدارس لها ولتصاريفها ، والمخطط لأموره على ضوء ما درس وتعلم .. فتتضح صورته هذه من الأمثال التى تناولت «الجو والطبيعة» والشهور القبطية والأيام .. وعلاقة ذلك بفلاحته لارضه .. وإنتاجه لمحصول جيد وفير .. ولذلك نستعرض معاً حكمة المصرى من خلال أمثاله المتعلقة بالشهور ، والقائلة :

- كياك صباحك مساك ، تقوم من النوم تحضر عشاك (ليله طويل).
- فى توت رى ولا تفوت (أى رى الغيطان) .
- بابه يخضر اللبلابه (خضرة الزرع)
- هاتور أبو الدهب المنثور (أى بذر القمح)
- طوبة تخلى الصبية عجوزة والعجوزة كركوبة لشدة البرود .
- امشير ابو الزعابيب الكثير (للتحسب من الزوابع) .
- فى برمهات روح الغيط وهات (موسم جنى الثمار) .
- برمودة فيه الدق بالعامودة (دق القمح) .
- بشنس يكنس فى الغيط كنس (موسم جمع المحاصيل) .
- هوونا من حر بئونة لشدة الحرارة .
- ابيب يخلى العنب يطيب .
- فى مسرى الميه جارية ومش عسرة (لأنه كان موسم الفيضان) .

ومن تأمل المصرى للجو والطبيعة استخلص حكماً وأمثالاً تخدمه في عمله.. وتحقق له النجاح.. ومن تأمله أيضا استخرج اقوالا تفيده فى حياته وفي مواجهة تصاريف الجو.. وتعكس ايضا حبة للانطلاق . وكرهه للشتاء وبرده ولياليه الطويلة، التي يدخل فيها المصرى بيته ويقفل عليه داره.. وتقول هذه الأمثال الحكيمة ..

- بابه خشب واقفل البوابة .

- الدفا عفا ، والبرد لحاس القفا .

- زى يوم الشتا قصير ونكد ويضرب أيضا لوصف انسان سيء .

- أبرد من ميه طوبة .

- زى ليالى الشتا طويلة وباردة (يقال للانسان البارد ثقيل الظل) .

- الاسم لطوبة والفعل لأمشير .

- حصيرة الصيف واسعة مرحبا بسمر الليالى ومبيت الضيوف .

- هو الصيف اخد من السيف فقد يصيب بمرض .

- النهار له عينين تؤجل السعى الي النهار) .

- زى مطر بئونة (اى نادر الحدوث لأنه صيف حار) .

هذا ونجد المصرى الفنان عاشقا للحرية وفي نفس الوقت نجده مقدراً للمسئولية ، ولذلك تحث الامثال على ترك كل امرىء فى حاله..

وعدم التدخل فى شئونه – وهو ما أكدنا عليه سلفا فى تناولنا لأدب المصرى وكراهيته للتدخل فى أمور الغير ، أو فيما لا يعنيه – وبقدر ما يمنح المثل المصرى من حرية بقدر ما يحمله مسئولية اختياره .. وعن «الحرية والمسئولية » قالت الأمثال :

– قال أقرع بياكل حلاوة !! قال : بفلوسه (فهو حر) .

– واحد شايل دقنه والتاني تعبان ليه .

– نملة قرصت ... ! (★) ما قطعت إلا بنفسها يقال سخرية ممن تجعلهم الحرية يؤذون أنفسهم .

– كل واحد ينام على الجنب اللى يريحه .

– كل واحد معلق من عرقوبة أو كل شاه معلقة .. ويعنى أنه سيتحمل نتيجة عمله ..

– كل واحد ذنبه على جنبه .

– اللى يأكل على ضرسه ينفع نفسه .

– عقلك فى راسك تعرف خلاصك (اى اختار على مسئوليتك) .

– اللى يشيل قربة مخرومة تنز على ظهره .

– اللى يشيل قفه مخرومه تخر على دماغه .

– الحبل على الجرارة (أى على مسئولية المراكبية أو من يجرون المركب) .

(★) لفظ معادل لعضو التأنيث بالعامية المصرية

- الحبس ذل ولو فى جنينة(فالحرية أثمن من الترف) .

- هو أنا خلفتك ونسيتك (رفض للمسئولية وتحلل منها) .

- السلطان من بعد عن السلطان (كى تكسب حريتك وتكون سيد نفسك) .

من كل ما سبق (١٤ مثلاً) يتضح لنا عشق المصرى للحرية دون منازع ودون وجهة نظر أخرى .. وإن ورد مثل واحد يقيد الى حد ما الحرية بنظرة الناس والرغبة فى الحصول على رضاهم أو إعجابهم ويعطى حرية فى المأكل فقط ويقول :

- كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس .

وهو الآن قول مرفوض من المصريين .. فهم يعشقون الحرية فى كل شيء.. وإن ظلوا كوجه من أوجه «التناقض» المصرى ، ينتقدون بعضهم البعض في كثيـــر من الأمور ، خاصة فيما يتعلق بالذوق العام أو اللبس .. ولكن هربا من ذلك يقول المثل .

- البلد اللى محدش يعرفك فيها .. شلح واجرى فيها أى انت حر فيها) .

هذا ويحرص المصرى «الفنان» على التعلم ويضع له قواعده ويحترم المعلم .. ويضع ترتيباً لمن يعلم من ؟ .. ويتعجب ممن يتفوقون على معلميهم .. وإن رأى فى حكمة المجربين ماهو أفيد أحيانا اكثر من علم

الأطباء.. بينما يسخر ممن يفتون دون علم.. ويرى أن المرء يجب أن يظل يتعلم طوال حياته .. وإن انقسمت رؤيته حول ذلك .. وعوضاً عن الاسترسال نحلل هذه الامثال كلاً وفق مضربه .. فعن تقدير المثل للخبرة والتجربة تقول الأمثال :

– إسأل مجرب ولا تسأل طبيب .

– اللى ايده فى المية مش زى اللى ايده فى النار (اى المجرب).

– اللى يعيش يا ما يتعلم (الخبرة) .

– الصلا أخير من النوم .. قال : جربنا ده وجربنا ده (أى لنا خبرة وإن كان فى ذلك تحامق مصرى) .

– التعليم في الصغر كالنقش علي الحجر مهم لتكوين خبرة طويلة وهو مثل لا يقوله إلا فنان نحات .

وعن تكوين الخبرة بالتكرار كقاعدة تعليمية تربوية تقول الأمثال المصرية :

– كتر التكرار يعلم الحمار (أو الشطار) .

– كتر الحزن يعلم البكا (بالتكرار وكثرة النوح أيضا) .

– فى الإعادة إفادة (كل إعادة فيها إفادة) .

– كتر التنخيس يعلم الحمير التقميص (قاعدة تربوية حول كثرة التأنيب) .

- كِتر النخس يعلم الحمير الرفس .

ومع ذلك يدعو المثل لليأس من تعليم الجهلاء والأغبياء ، ويحذر من ذلك فيقول :

- مهما تعلم فى المتبلم يصبح ناسى (تبات تعلم فى المتبلم ..) .

- بتقرا مزاميرك على مين يا داود ؟! (أى أنهم جهلاء لا فائدة من تعليمهم) .

- ينقرا فى سورة عبس !!(أى لا فائدة) .

- بيدّن فى مالطا ! (فلا أحد يفهم) .

- ولا حياة فيمن تنادي فى نفس المعنى .

- من نصح جاهل عاداه .

- ايش عرف الحمير باكل الجنزبيل .

- ايش فهم الفلاح في اكل التفاح كعادة لا تعلم على كبر .

- بعد ما شاب ودّوه الكتاب !! (سخرية واستنكار من التعلم على كبر) .

وعن إعلاء قيمة العلم بشكل مطلق كمرشد للبشر تقول الأمثال:

- العلم نور والجهل ظلام .

- اللى يسأل ما يتوهش (ماخاب من استشار) .

- النصيحة جمل (أى قيمة كبيرة) .

- العلم بالشيء ولا الجهل به (فالعلم ضرورة وفائدة) .

- اللى تعرفه أحسن من اللى متعرفوش (تقال ايضا فى الاحجام عن خوض التجارب) .

- إتعلم السحر .. ولا تعملهوش (لابد من الإلمام والمعرفة وإن لم نستخدمها لضررها) .

وعن أساليب التعلم بالتقليد والمحاكاة ، وبالتأسى بالأساتذة والمعلمين أو المشايخ ، تقول الأمثال عمن نأخذ عنه العلم.. وضرورة ان يكون أكبر منا :

- كل شيخ وله طريقة .

- أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة (هنا ربط بين الخبرة والعلم) .

- هو جحا اكبر ولا ابنه (تقال ايضا للابناء إذا ارادوا استغفال آبائهم) .

- البدرية هاتعلم امها الرعية !!

- على بابا يا ماما ؟!! (تقال كشفا للملاعيب الساذجة) .

- اربط الحمار جنب رفيقه.. إن ما إتعلم من شهيقه يتعلم من نهيقه (كمحاكاة) .

- اللى فيه عين وراس ، يعمل زى ما بتعمل الناس . (عن التعلم بالمحاكاة) .

- علمناهم الشحاته سبقونا على الأبواب (فى تفوق طالب العلم على معلمه) .

وعن امتداد فترة طلب العلم على امتداد العمر تقول الأمثال :

- اطلبوا العلم من المهد الى اللحد (حديث متداول) .

- يموت المعلم وهو بيتعلم .

هذا ويسخر المثل المصرى من الجهلاء ، ويصورهم فى أبشع صور .. ويصورهم وكأنهم لا يفقهون شيئاً بالمرة.. فهم فى حيرة.. حتى من أمرهم ، فيقول عنهم .

- اللى ميعرفش يقول عدس !

- ما يعرف السما من العما .

- ما يعرف طظ من سبحان الله .

- ما يعرف راسه من رجليه .

- ما يعرف الألف من كوز الذرة .

- طور الله فى برسيمه .

- غشيم ومتعافى

- بيتعلم الحجامة فى روس اليتامى .

- هبلة ومسكوها طبلة

- كله عند العرب صابون (لجهلهم) .

– لا له فى الطور ولا فى الطحين (لأنه جاهل فلا يستطيع ان يكون له موقف) .

– إيش جاب طوخ فى مليج ؟! (أى ماهذا الخلط والجهل) .

– أول القصيدة كفر ! (أى جهل الى حد الكفر) .

– هذا ويعتز المصرى بعلمه وبقدره .. ويستاء من جهل الناس بقدراته، وهو يستكثر على الجهلاء الفتوى .. أو أن تأتى الفتوى من غير ذى علم ، ويرى أن من الأصوب عدم التطوع بالفتوى ، وتركها لأهلها ، وفى ذلك تقول الأمثال :

– من قال لا أعرف فقد أفتى (عربى متداول) .

– قولة معرفش تريح (رغم أن فى ذلك سلبية وتنصل من إبداء الرأى أو الشهادة) .

– إللى مايعرفك يجهلك .

– البلد دى حلة وأنا مغرفتها (أى أعلم بكل شىء فيها) .

– العلم فى الرأس مش فى الكراس .

– إدى العيش لخبازه ولو ياكل نصه (نظرية إقتصادية تحبذ قيمة العلم وربطه بالعمل) .

– العارف لايعرف (يقال أيضاً ، إنت عارف والعارف لايعرف) .

ويقول المثل المصرى إن المحك الحقيقى للعلم والمتعلمين هو الاختبار:

- عند الامتحان يكرم المرء .. أو يهان .

هذا ويتطوع المصرى للتعليم فيقول : «أعلمك وآكل من بيتنا» أى دون أجر ، ويرتبط العلم بالعقل .. وإن كنا سنصبدم من تجامق المثل المصرى فى هذا الصدد إذ ترى الأمثال أن :

- المجانين فى نعيم !

- أصحاب العقول فى راحة ! (أى أصحاب العقول الخربة)

- إستراح من لا عقل له (من أقوال عمرو بن العاص فاتح مصر)

ونجد مثلاً واحداً يقول إن :

- العقل زينة .

ومن خلاصة ماتقدم نستطيع رؤية المثل المصرى لقيمة الجمال والعلم والخبرة .. وطاعة العلماء واستشارة المجربين ، وقيمة العقل بوصفه زينة الإنسان التى ميزه الله بها .. وقيمة الدأب والمهارة أو الشطارة .. وكل هذه الأمور استخدمها المصرى فى إبداعه وخلقه .. فصنعت منه «الفنان» الذى لايختلف عليه اثنان ، وستتأكد قيمة كل ذلك حينما نستعرض قيمة العمل لدى المصرى ، وتقديسه له

هذا ولابد من الإشارة هنا إلى أن الفرد المصرى رغم إيمانه بالعلم كقيمة ، يميل إلى تفضيل التجربة الفردية التى تصله من خلال الاتصال الشخصى : باعتبارها خبرة حقيقية وواقعية ، يعرف صاحبها مباشرة

فيصدقه ، وقد أجرت د. فاطمة المصرى استبياناً حول المثل القائل : «إسأل مجرب ولا تسأل طبيب» فوافق عليه ٦٠٪ من العينة ، ورفضه ٤٠٪ فقط ، كما ترى د. فاطمة أن المصرى الذى «اشتهر بوجدانياته ومشاعره الفياضة ، شعب فنان منذ أقدم العصور» ورغم التدين وما يصاحبه من نواه وأوامر قد تخلق لوناً من القلق والتوتر والصراع .. فالمصرى يجد «متنفساً لتلك الاضطرابات الإنفعالية العتيقة» فإذا الفنون الشعبية هى أحد المتنفسات التى تساعد على تصريف الصراع ورفع رصيد الإحباط» (١) .

وبهذا المعنى كان الفن متنفساً للمصرى المقهور .. وضرورة للاستعلاء علي عوامل القهر .. تميز بها - ومازال - على البشر والشعوب المحيطة .. من لم يستطيعوا أن يبدعوا فناً يماثل ما أبدع فى كل مجالات الفنون والآداب .

(١) د. فاطمة المصرى ، الشخصية المصرية ، ص ١٣٩ - ١٤٠

المصرى «ذكى حكيم»

المصرى يقر له كثير من الباحثين بالذكاء والفطنة .. وإن اختلفوا فى تفسير معنى الذكاء المصرى ، فهل هو لون من «الفهلوة» والشطارة ؛ للتخلص من المأزق بذكاء ؟ أم هو الفهم اللماح السريع ؟ أم حكمة اللانية والمداهنة ، والمهادنة إلى حين الوثوب فى الوقت المناسب ؟ أم هو مكر وخبث ودهاء الفلاح المصرى الفطرى ، المعجز عن الفهم ، والمحير ؟ والذى يتناقض مع طيبته وسذاجته الشهيرة .

وأياً ما كان تفسير معنى الذكاء المصرى .. فهو من السمات التى تحسب له ، فهو يتأمل ويعمل الفكر .. ويغلب مصلحته - فى الأغلب الأعم - وقد تبدو سمة «ذكى» لأول وهلة غير واضحة للعيان .. فيتصور البعض أنه مستذل مستضعف ، أو أنه عفوى ساذج ، يفرط فى حقه .. لكن المراقب مايلبث أن يتبين مدى حكمة المصرى وذكائه ، فهو يصل لهدفه بالعمل وليس بالتمنى ، وهو يتحسب من العقاب ومن الجزاء ، وهو يستقرى التاريخ ودروسه وعبره ويستفيد منها ، ومن حكمة السنين ، ومن أحوال من سبقوه ؛ ولذلك يؤمن بالأمثال ويعمل بها ؛ بوصفها خلاصة الحكمة والخبرة .. والمصرى ذكى وحكيم لأنه يحسن تقدير

الأمور ، وحساب العواقب ، فيطاطىء – كما أسلفنا – حينما يكون لذلك ضرورة .. ويواجه فيحسم الأمور فى الوقت المناسب له ولمصلحته ، فهو يعرف متى يتأنى ومتى يتعجل .. وهو يحسن تقدير الاستحالة .. ويدرك أنه إذا استحالت الأمور يجب ألا «يخبط راسه فى الحيط» .. فهو بذكائه يفرق ويقدر الاستحالة والامكانية ، ومتى تكون كل واحدة منهما .. وهذا فى حد ذاته يعتبر لوناً من الذكاء .. ناهيك عن الذكاء الاجتماعى الذى يميز الشعب المصرى .. رغم فرديته وتحسبه لذاته ، واعتزازه بها .. بل وتفضيله لنفسه أحياناً .. وغروره بها .

وقد أطلق المصرى الكثير من الأمثال التى تعبر عن ذكائه بكل ألوانه .. بل إن المثل الشعبى نفسه بما تضمنه من صور بلاغية لماحة .. وصياغة محكمة وتفضيل لأمور على أخرى .. وما يحويه من حكمة مقطرة لهو دليل على ذكاء المصرى .. ولعل توصيفه للذكاء و«الفهلوة» أكبر دليل على ذكائه ، إذ يشبه الإنسان الذكى بمن :

– يطلع زى الشعرة من العجين .

– فص ملح وداب (بعد أن فعل ما فعل) .

– يوديه البحر ويرجعه عطشان .

– ينزل البحر ولايتبلش .

– يفهمها وهى طايرة .

- الكتكوت الفصيح من البيضة يصيح (أى ذكي منذ صغره) .

- زى المنشار طالع واكل نازل واكل (لايضيع فرصة دون إستفادة).

هذا ويرى المصرى أن الذكي هو من يمارس سياسة «شيلنى واشيلك» ، و«يابخت من نفع واستنفع» و«الشاطر إللي يطاطى للريح» والشاطر هنا بمعني الذكي .. ويرسم المثل الطريق لهؤلاء فيقول :

- بدل ما تحلها بأسنانك حلها بإيدك .

- فرق شمله يخف حمله .

- سفيهك داريه واعمل كحكك ناعم واديه .

- فتح عينك تاكل ملبن (هى أصلاً من أقوال الموالد) .

فالمصرى الذكى كما يقال : «لحمه مر» . فـ «مش كل الطير إللى يتاكل لحمه» .. والمصري الذي يعتقد البعض أنه من السذاجة بحيث يمكن أن يؤكل لحمه .. يلفت نظر الآخرين إلى أن السذاجة والطيبة ليست سمة للجميع ، ويستنكر هذه النظرة له .. والمصرى الذكى هو من يحسم الأمور .. ويواجه ، وهو من قال عنه المثل :

- يقطع الماية من فوق (أى من المنبع أو البداية) .

- يقطع العرق ويسيح دمه (يحسم) .

- قطعه ولا نحته .

- عليّ وعلى أعدائي يارب .

- حط رأسك مطرح ماتحط رجليك .

- فى وشه ولا تفشه (أو بدل ماتغشه قول له فى وشه) .

- على عينك ياتاجر (أى بصراحة) .

- خدوهم بالسوط لايغلبوكم .

- إتغدى به قبل مايتعشى بيك (أى بادر بالمواجهة) .

- إللى تعرف دينه اقتله .

- إللى يتف تفة مايلحسهاش (أى لاتراجع) .

- عيش يوم ديك ولا ١٠٠ يوم فرخة .

والمصرى الذكى الحكيم يقدر قيمة الوقت ، ويعرف متى يصبر وينتظر ، ومتى يثب ويواجه .. ولكن له فلسفته الخاصة فى التعجل والتأنى ، وهو بأسلوبه الساخر يتهكم على من يضيعون الوقت - وبالتالى يضيعون الفرص - وهو يسخر ممن يؤدون العمل بعد فوات أوانه .. أو يؤدون الواجب بعد انقضاء موعده ، وفى ذلك تقول الأمثال :

- قال : عملوك مسحر ، قال : فرغ رمضان .

- بعد العيد مايتفتلش كحك .

- بعد سنة وست اشهر جاية المعددة تشخر - إللى مايبكى على فى الحى وأنا سامعه .. بعد ما أموت يوفر مدامعه .

- يامعزى بعد سنة يا مجدد الأحزان .

- على مايبجى الترياق من العراق ، يكون العليل مات .

- موت ياحمار على مايجى لك العليق .

- على ماتتكحل العمشة يكون السوق خرب .

- كل وقت وله أدان (مناسب له) .

- كل شيء بأوان .

- زى شخاخ الجمال تملى ورا (تقال للشخص المتأخر دائماً) .

- لو كان ده الطهى على ده النهى ، لا رمضان خالص ، ولا العيد جى .

- يوم الحكومة بسنة (أو يومه بسنة .. أى بطيء) .

- فتلة العويلة ممطوطة وطويلة .

- طول الفتلة يضيع الإبرة .

- الفاضى يعمل قاضى .

- إللى مش لاقى شغلة تشغله يقطع بتاعه ، ويقعد يوصله (قمة السخرية من المتعطلين) .

- تعالوا فى دى الزحمة نطاهر القليط الأعمى (أى فى الوقت غير المناسب) .

- وادى قاعده .. راح النهار ياسعده (أى يضيع النهار الذى يبدأ بالركود) .

وإذا كانت الأمثال تسخر بهذا الكم (١٦مثلاً) ممن يتجزون الأمر بعد فوات أوانه .. وتتهكم على المتعطلين .. ومن يمطون فى تنفيذ أو إنجاز أعمالهم .. بما يؤدى فى النهاية للمرض والموت والضياع والخراب - على حد ما روى فى الأمثال من تعبيرات - ناهيك عن الصور المزرية التى يصور بها المثل من لايقدرون قيمة الوقت ، والانجاز فى الوقت المناسب ، ويتأخرون عنه ، فإن الأمثال تسخر أيضاً ممن يستعدون للأمر قبل حدوثه ، فتأتى مواقفهم ومشاعرهم وتصرفاتهم سابقة لأوانها .. وتبدو مدعاة للسخرية والتهكم أيضاً .. وفى ذلك قالت الأمثال :

- قبل ماتحبل حضرت الكمون ، وقبل ما تولد سمته مأمون .

- قبل مايبنى الجامع إترصت العميان .

- هانفرح قبل الهنا بسنة ؟!

- خلى البكا على رأس الميت (أى لاتسبق الأحداث) .

ويبدو من النسبة بين الأمثال الساخرة من كلا الطرفين (١٦:٤) أن الغالبية العظمى من الشعب المصرى لاتقدر قيمة الوقت ، فتأتى دائماً متأخرة ، وأن النسبة الأقل لمن يبالغون فى تقدير الوقت ، فيقبلون على الأمور قبل أوانها .. ولذلك يحث المثل الشعبى المصريين على التقدير

الدقيق للوقت ، والإنجاز فى الوقت المناسب ، ويوصف ذلك الاختلاف فى مثل يقول :

- العصفور بيتقلى ، والصياد بيتقلى (نظراً لاختلاف قيمة الوقت لدى كل منهما) .

أما عن الحث على الإنجاز وقيمة الوقت فتقول عنه الأمثال بشكل مباشر .

- إحيينى النهاردة وموّتنى بكره (أى إنجز لى ما أريد النهاردة قبل بكره) .

- إدينى اليوم صوف وخد بكره خروف .

- الوقت من ذهب (عربى متداول) .

- الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك (عربى متداول) .

- كل صدفة خير من ميعاد (رب صدفة خير من ألف ميعاد) .

- لاتؤجل عمل اليوم إلى الغد (عربى متداول) .

هذا ويرتبط بتقدير الوقت ودقته كشكل من أشكال الحكمة ، موضوع آخر لايقل عنه أهمية وهو «التعجل والتأنى» .. ونظرة المصرى لهما ، وتفضيله لأحدهما على الآخر ؛ كما يتضح من الأمثال الشعبية القائلة فى التعجل وضرورته :

- خير البر عاجله .

- أطرق الحديد وهو سخن .

- حلاوتها فى حموتها .

- إللى سبق أكل النبق .

- كون فى أول السوق ياجحا .. ولو بقص اللحى (دعوة للتسابق) .

هذه فقط الأمثال التى تحث على العجلة بشكل مباشر ، وتحض عليها فى مقابل كم من الأمثال ترى فيها الندامة ، وترى أنها من الشيطان ، وتسخر أيضاً من المتعجلين ، كما سلف ذكره ، وكما سيتضح من بعض الأمثال التى تناولت التأنى ، والقائلة :

- العجلة من الشيطان .

- فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

- بيخطف الكبيبة من رأس الحلة (أى دون تروٍ يقتحم) .

- هى الدنيا طارت ؟! (تعبير يقال للمتعجل) .

- الدنيا إتخلقت فى ست أيام (تقال للمتعجل كى يصبر) .

- قال يامستعجل عطلك الله (أى كله بأمر الله) .

- إمشى سنة ولا تخطى قنا .

- إبطى ولا تخطى .

- كل تأخيرة وفيها خيرة .

ومما سبق يتضح بجلاء حكمة المصرى ، الذى يرى الخير والسلامة، وعدم الوقوع فى الخطأ مرتبطاً بالتأنى وعدم العجلة .. وهو أمر يرتبط

ارتباطاً طردياً بما عرف عن المصرى من الصبر والأناة . .فالمصرى «صبور» : لأنه «متدين» – كسمة فرعية – وهو «صبور» لأنه «حكيم وذكى» يقدر الأمور – كسمة فرعية أخرى تحتم عليه التأنى فى أموره .

ومن فرط ذكاء المصري وحنكته ؛ يضع أولويات لبعض الأمور ، التى يبدى فيه نفسه ، ومصلحته على مصلحة الغير ، بشكل قد يوحي أحيانا بأنه قد تخلى تماما عن سمة أصيلة فيه وهي: التعاون والأثرة.. والبعد عن الأنانية والغرور.. بأسلوب قد يبدو للبعض وكأنه تذاكى، يصل إلى حد التحامق – المشهور به في فترات القهر – ومما قيل فى هذا الصدد من أمثال

- شيل بتاعك علشان أحط بتاعي ، لحسن بتاعى مستعجل!!
- أنا ثم الطوفان (عربي متداول).
- من بعد راسى ماطلعت شمس.
- إن جاك الطوفان حط ولدك تحت رجليك.
- ياروح مابعدك روح.
- كل واحد بيقول، ياالله نفسي (أو كل واحد بيدور على حاله).
- قالوا، إمتى تقوم القيامة ياجحا؟ قال لما أموت أنا (فردية).
- شعرة من خنزير خير منه (استغلال).
- ما عاش مالى بعد حالى (اذا مت ظمآن فلا تزل القطر).
- عض قلبى ولا تعض رغيفى.

- احبك ياسوارى.. زى زندى لا (أولويات تعكس الحكمة).

- فؤادى ولا ولادى.

ورغم مايبدو من «غرور وأنانية» واضحة فى الأمثال السابقة.. فإن المثل المصرى يستدرك فيقول:

- من حب نفسه كرهته الناس.

- شاكر نفسه ابليس.

- كلب ولقى عضمة (أو مسك عضمة).

- حبيب ما له.. حبيب ماله (أى من يحب ماله لا يحبه أحد).

ومن حكمة المصرى وفطنته حسن تقديره لـ«الاستحالة»، وعدم الامكانية، وسخريته ممن لايستطيعون ذلك.. وممن يقدرون ذاتهم بأكثر من قدرتها ومقدرتها.. وفى ذلك تقول الأمثال:

- نقول، تور، يقول،، احلبوه!!

- زى اللى بيدور على ابرة فى كوم قش!

- عشم ابليس فى الجنة!

- يعنى هو البحر ها يجرى مقبل؟! (ذلك لأن النيل يجرى شمالا).

- من رابع المستحيلات.

- يعنى اضرب الأرض تطلع بطيخ؟!

- فى المشمش (أى مستحيل أن يحدث).

- الرك على جمع الشمل (وأصله، ان طلتها اقطع ازارها، قال : ركك على لم الشمل).

- الرك على القبض.

- لما يشوف حمله ودنه.

- لما يجيب الحبق، والنبق، وشوشة أمه، وأبوه في الطبق.

- لما يشيب ويتحنى ، وعروق «صرمه» تنتنى.

- لما يحلف على المابة تجمد والنار تهمد (يقال عن استحالة أن يصدق الكذاب).

- اللى راح راح ياقلبى (أى مستحيل أن يعود).

- اللى انكسر عمره مايتصلح (أو مايتصلحش.. ويقال عكسه فى معرض الصلح).

- كلمة ياريب ماعمرت ولابيت (أو عمرها ماتعمر بيت).

- زرعت شجرة لو كان.. وريتها بماية ياريث طرحت ميجيش منه.

واستكمالا لتقدير المصرى للاستحالة.. وضرورة البعد عن التمنى و«قوله باريت، ولو كان» وعدم توقع عودة ما فات، والاكتفاء بالاستفادة منه كدرس او عبرة، والاكتفاء بالتحسب لما هو آت. عن كل ذلك قالت الأمثال:

- تتفكروا تتعكروا (أى لا فائدة من الفكر سوى الكدر).

- العايد فى الفايت نقصان من العمر.

- هو الانسان عقله دفتر (محاولة للتناسى).

- راحت السكرة، وجت الفكرة.

- ان كنتوا نسيتوا اللى جرى هاتوا الدفاتر تنقرى (لنتعظ ونتذاكر).

- العبد فى التفكير، والرب في التدبير (حكمة الايمان والاتكال).

ومن حكمة المصرى ايمانه الراسخ بأن لكل فعل رد فعل، وأن «الجزاء» - خيرا أو شرا - هو من صنع أيدينا، وأن كل المقدمات - بالعقل - تستتبعها توالى من جنسها.. ومن غير المعقول أن يأتى شيء من نقيضه.. فإن الله يجزى كل إمريء بما عمل شرا أو خيرا، وفى ذلك قالت الأمثال:

- الجزاء من جنس العمل (عربى متداوى).

- ميتعملش كيس حرير من ودن خنزير (بالمعقولية).

- ميطلعش العلو إلا اللى معاه سلم (بالامكانيات).

- مكتوب على ورق الخيار، من سهر الليل نام النهار (بالضرورة).

- من رش دش (أو ماحش الا من رش).

- من يزرع شيء يضمه.

- املأ ايدك ورش تملاها قش (اي من جد وجد).

- من دق الباب سمع الجواب.

- من قدم السبت يلقى الحد قدامه.

- الحاوى مايمتش الا بالتعبان.

- دجاجة حفرت على رأسها عفرت (مثل سورى متداول).

- ان ربك لبالمرصاد (عربى متداول).

- يمهل ولا يهمل (عربى متداول).

- وقع فى شر أعماله.

- جهنم مفيهاش مراوح (بالعقل، فلا تفعل مايدخلك فيها)!

- قالوا، ياما البطيخ كسر جمال، قال: وياما الجمال كسرت بطيخ.

والمصرى العاقل الحكيم الذكي.. يقدر انه سينال جزاءه من جنس عمله، ويؤمن بأن «الله لايضيع أجر من أحسن عملا».. ويقول: «ربنا ماشفناه بالعقل عرفناه»: وبناء عليه يتصرف بالعقل والحكمة والفطنة والذكاء.. بل ويبالغ كعادته حتي فى استخدام ذكائه.. فيما أسماه البعض «الفهلوة المصرية».. فهو الذكى البسيط في آن معا.. وهو المقدر للعواقب والمسرف المتلاف فى آن معا.. وهو الذى وضعت أمثاله الشعبية قواعد راسخة لتعاملاته المادية.. التي تعكس حكمة بالغة، وفطنة لاتباري.. كما سيتضح مما يلي:

فمن ذكاء المصرى أن وضع قواعد للتعاملات المادية حدد فيها مفهومه «للقيمة والثمن»، وتقويمه «للمال» وأثره على الآخرين وعليه، أو على وضعه الاجتماعى والاقتصادى، وحدد بأمثاله الشعبية قواعد «البيع والشراء» و«الشراكة» وشروط «التعاقد والاتفاق» وضرورة «السعى على

الرزق».. رغم ايمانه بأن الرزق من عند الله . وقدر المثل قيمة العمل.. واحتراف المهن المختلفة.. واستكمالا لتقويمه للحياة المادية تناولت الأمثال «التكالب والتطفل» و«الشح والطمع» وفى المقابل «الاستغناء».. فماذا قالت عن كل ذلك؟! وهل ستؤكد ان المصرى ذلك الطيب العاطفى؟! أم انه انسان مادى يغلب قيمة المال.. ويقوِّم كل شيء بسعره وثمنه؟! وليس بقيمته المعنوية!!

قدر المصرى للمال حق قدره، وأكد أثره على الناس وعلى مالكيه.. وكيف يمكنه رفع شأنهم وإعلاء قدرهم!! فقالت الأمثال:

- الفلوس بتعمى النفوس (وقيل أيضا، بتشترى وبتغير وبتذل النفوس).
- معاك قرش تساوى قرش.. ممعكش حاجة متساويش حاجة.
- معاك مال ابنك ينشال.. ممعكش ابنك يمشى.
- بالفلوس على كل شيء تدوس.
- جيبه مغطى عيبه.
- الراجل عيبه جيبه.
- الاعتبار للمال مش للرجال.
- اللى معهوش ميلزموش.
- الفلوس بتتكلم (ان الغنى طويل الذيل مياس).
- أصلك فلوسك.. وجنسك لبوسك.

- الغني غنوا له.

- شخشخ يتلموا عليك.

- صاحب القرش صياد.

- دراهمي درهموني، وخلو لى فى البلد مقدار.. من بعد ما كنت عمر بقيت الحاج عمار (مثل من شمال افريقية لكنه متداول).

- المال يجيب المال.. والقمل يجيب الصيبان.

- الدراهم مراهم.

- جيب السبع ميخلاش.

- البحر يحب الزيادة.

من الأمثال السابقة (١٨ مثلاً) يبدو المصرى وكأنه مؤمن بقيمة المال، وتقديمه على غيره من القيم المعنوية، التى يؤمن بها مثل الأصل.. ولكن من صياغة هذه الأمثال نستطيع القول: بأن المصرى الذى طالما عانى من الفقر ومن تسيد الأغنياء عليه.. يقرر واقعاً بهذه الأمثال، التي لاتخلو من رنة سخرية وتحسر في آن واحد.. فإقراره بهذا الواقع الأليم، وهو احترام الناس للمال ومالكه.. لايمنع أن المصرى - أيضا من خلال أمثاله - قد رأى أن القيمة الحقيقية لاتكمن فى امتلاك المال وحده.. ولكن فى العمل الطيب، والسمعة الطيبة، وفى الاستمتاع بالمال وليس مجرد اكتنازه، وأن ضياع المال ليس نهاية العالم، فالمال بيروح وبيجي، ولن نحمل منه شيئا معنا فى الآخرة.. وقد عبر عن كل هذه

المعانى المناقضة أو الناقدة لما سبق في أمثال أخرى تقول:

- الكفن مالوش جيوب.
- يغور المال اللى ماينزه صاحبه (أو يلعن المال...)
- هين قرشك ولا تهين نفسك.
- إشترى راحتك بالفلوس.
- مال الكنزى للنزهي.
- الصيت ولا الغنى.
- ماتبكيش على اللى ضاع ماله، ابكى على اللى اتوقف حاله.
- تيوس شايلة فلوس (سخرية من أصحاب المال).
- المال بييجى ويروح.
- المال والبنون زينة الحياة الدنيا (قرآن كريم صار مثلا).
- حبيب ماله.. حبيب ما له (فالمال لايجلب حب الناس بل عداءهم).

ويوضح هذا الكم من الأمثال (١١ مثلاً) موقف المصرى من المال، فهو إن كان ليس القيمة العليا.. وتعلوه قيم أخرى كالصيت والعمل الطيب.. إلا أنه يمكن للمرء أن يشترى به راحته ولايهين نفسه.. بل ينزهها.. وانه زينة للدنيا مع البنون، وهذه آية قرآنية يؤمن بها المصرى، ويجابه بها من يقول بأن: «المال مش كل حاجة» وإن «السعادة مش بالمال».

وتوضح هذه المعانى بنسبة (١٨ : ١١) أن المصرى يقدر المال.. ولكن كوسيلة وليس كغاية فى حد ذاته.. بل إنه يتحسر على فقره ويسخر من الأغنياء.. خاصة وأنه قد عانى لفترات طويلة من أن هؤلاء الأغنياء كانوا غالبا من اليهود أو الترك، ولذلك أطلق المثل القائل: «من ماله ولايهنى له».

هذا وللتعاملات المادية قواعد تتعلق بالاسراف والانفاق، تتناقض مع بعضها بشكل متوازن، فبعضها يدعو لهذا، وبعضها يدعو لذلك كما يتضح مما يلي:

- القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود.
- اللى معاه قرش محيره، يجيب حمام ويطيره (فهو حر فى ماله).
- من حكم فى ماله ما ظلم (يضرب عن الحرية أيضا).
- يامستكثر الزمن أكتر.
- عصفور في اليد خير من عشرة على الشجر (فالمصرى لا يأتمن الغد).
- خسارة قريبة ولا مكسب بعيد (لأن المصرى لايضمن تصاريف الأيام).

وعن تحبيذ الانفاق والاسراف، وحب الاستزادة من المال وكثرته، قال المثل المصرى:

- اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب.

- اللى معاه حتة يحنى فلس جحشه.

- قال، ايش غرض الأعمى؟ قال: قفة عيون (تمنى الكثرة).

- مابين الخيرين حساب (فى الانفاق).

- حلالك بلالك.

- ما عاش ما لى بعد حالى (فلأنفقه قبل موتى).

وترى الأمثال أن الإنسان غالبا ما يسرف في المال الذى لا يخصه.. أما المال الذى تعب في تحصيله فهو حريص عليه، ومما تواتر فى هذا الصدد:

- المال اللى ماهو لك عضمة حديد.

- اللى ما هو لك يهون عليك (أو اللى من مالك مايهون عليك).

- حمار ماهو لك عافيته حديد.

- المال اللى ماتتعب فيه اليد مايحزن عليه القلب.

- مال تجيبه الريح تأخذه الزوابع.

- اللى ييجى بالسهل يروح بالسهل (وفيه دعوة للسعى).

وعن نظرة المصرى للمال من حيث مصدره حلال أم حرام؟ تعرضنا سلفا لهذه النقطة، وفى الحديث عن أمانة المصرى، وايمانه بأن «بتاع الناس كناس»، أى ان المال الحرام يضيع ويضيع معه المال الحلال، ولذلك فالمصرى يهتم كثيرا بأن يكون مصدر ماله من كده وعرقه وعمله.. وليس سطوا أو حتى تسولا، وفى ذلك تقول الأمثال:

- الحرام بيتاكل بايه؟! (أو اللى يتشحت يتاكل بايه)؟!
- عمر المال الحلال مايضيع.

ولذلك يسعى المصرى للحصول على رزقه بالحلال، وبالكد والتعب والعمل.. فرغم إيمانه بأن «الرزق على الله»، فهو يؤمن أيضا بضرورة السعى وبخفة لاكتسابه، وبأن تعلم صنعة خيرا من القعود عن العمل.. ولو كان المرء يمتلك قلاعا.. ذلك أن اليد العاملة الصانعة المنتجة أفضل من اليد العاطلة.. ولأن البركة فى الحركة والعمل، ومما قيل فى هذا الصدد:

- أكل العيش يحب الخفية (أو الرزق يحب الخفية).
- اسعى ياعبد وأنا أسعى معاك (على لسان الخالق).
- اجرى ياعبد وأنا اعينك، وأقعد وأنا اهينك.
- محدش بياكلها بالساهل.
- قول ياعينى ياحيلى (أى اعتمد على جهدك).
- إن مال عليك الزمان ميل على دراعك (أى إعمل).
- الأيد البطالة نجسة.
- الحركة بركة.
- اعمل حاجتى بإيدى.. ولاأقول للكلب ياسيدى (عدم الحوجة).
- من جد وجد.. ومن زرع حصد.
- لاتؤجل عمل اليوم للغد (عربى متداول).

– إن كتر شغلك فرقه على الأيام (ولاتستكثره فسينجز).

– سيدى بندق ما صدق (أى شمر وبدأ العمل فورا).

– عساكر الكرى متضربش بارود.

صاحب صانعة خير من صاحب قلعة.

– لولاك ياكمى ما أكلت يافمى (تقال أيضا فى الدعوة والضيافة).

– اللى يأكل على ضرسه، ينفع نفسه (اى من لا يتكل على أحد ويسعى بنفسه).

– ان فاتك البدرى شمر واجرى (دعوة للسعى المبكر).

– اشتغل لحد ما تكل، ولاتستحمل الذل.

– زى عفاريت القيالة مبتهدش.

ويؤكد المثل المصرى على اتقان العمل وهو أمر يرتبط لديه بسمة «فنان» وسمة «متدين» فيقول:

– شغل المعلم لابنه (اى متقن).

– عمل من طب لمن حب.

ويصف المثل المصرى العمل غير المتقن بأنه «سلق بيض» أو «كل شىء إن كان»، وتقول عنه الأمثال أيضا:

– نغسل غسيل هلس.. ونتكل على الشمس.

– النجار «الخرى» يتكل على المعجون والسنفرة.

ومع ذلك بالمصرى الساخر يصف أحيانا من يكد ويعمل بهمة بأنه

«حمار شغل»، ولو أن هذا التعبير يعتبر حديثا نوعا وليس مثلا قديما..

كما يرى المصرى أن.

- أكل العيش مر (أو صعب).

- العمر بيخلص والشغل مبيخلصش.

- اجرى ومد.. قال ، ده شي يهد.

- التور اللى ماهو لك عضمه حديد (عن الضغوط فى العمل).

- اللى تطبل له يرقص (اى لاتلومه على تقصير اذا لم تهيىء له المجال).

- وراه ليبرك (عن مراقبة العمال حتى لايتكاسلوا).

- عليك ياصعيدى ولو بات (لأن معظم العمال من الصعايدة).

هذا ونجد المصرى «الذكى الفطن» الذى يقدر العمل.. يسخر من العاطلين والكسالى. كما يسخر من المتكالبين على المشاركة فى عمل لايستحق كل هذه الأيادى، وفى ذلك تقول الأمثال:

- زى حمير التراسة يتلكك على قول يس

- أكل ومرعى وقلة صنعة.

- قاعد يرعى الكلاب بالنص (عاطل ويوهم بعمل لا فائدة منه).

- ست وجاريتين على قلى بيضتين (تقال أيضا فى المبالغة)

- الست والجارية على صحن بسارية (تكرر فى موضع سابق).

- لا هو سنة ولا فرض (أو ، لا في السنة ولا في الفرض.. أى عمل غير ضروري ويمكن تركه).

- من غسل وشه بعد غداه يا فقره بعد غناه (أى من يستيقظ متأخرا نبشره بالفقر) .

ومن التحليل الرقمي (٢٢ مثلاً تحض علي العمل واتقانه و ٧ أمثال تسخر من المتعطلين والكسالى ، يتضح لنا أن المصرى محب للعمل.. يقدره بل ويقدسه - مع إيمان بأن الرزق من عند الله - وهو عند المصري إيمان ديني بالله، وإيمان غيبي بالحظ والبخت والاعتماد على الغيب وما يأتي به، وفي ذلك تقول الأمثال عن الرزق :

- أبو البنات مرزوق .
- كل عيل بييجي برزقه (إتكال) .
- اللي خلق الشبداق متكفل بالارزاق .
- ربك بيرزق الهاجع .. والناجع .. والنايم على صماخ ودنه.
- الرازق الله ، من كان رزقه على الله فلا يحزن .
- قبل ما يقطع من هنا بيوصل هنا عن الرزق .
- من حبه ربه واختاره جاب له رزقه على باب داره .
- رزق يوم بيوم . والأرزاق على الله .
- الرزق وهايب ما هو نهايب .
- تجري يا ابن ادم جرى الوحوش غير رزقك لم تحوش .

- ربنا بيرزق الدودة فى الحجر .

- أهى ارض سوده والطاعم الله (أى إزرعها) .

- الأرزاق بيد الله .

- الفقى لما يسعد تيجى له خاتمتين فى ليلة .

- كل لقمه تنادى اكالها (اى لقمة العيش أو الرزق . ويقال أيضا فى الضيافة والكرم) .

- زى الفراخ رزقه تحت رجليه (حظ) .

- إجر يا مشكاح للى قاعد مرتاح (فهذا حظه أن يكسب دون عمل، وهو رثاء لحال العامل) .

- رزق الهبل على المجانين (حكمة .. فمن أسباب الرزق أن يحتاج الناس لعمل بعضهم) .

وبقدر تقديس المصرى للعمل بقدر إيمانه بالاتكال على مقسم الارزاق ، وإيمانه بالحظ فى مسألة الرزق.. الذى يراه نعمة من عند الله.. ولذلك يقول على من يرفض العمل «رفس رزقه برجليه» أو «رافس النعمة» ويسميه «البطران»، وقد تناولت سلفا الحديث عن الحظ، والبطر وعدم رضا الناس عن أرزاقهم مهما كثرت وطلبهم للمزيد ، رغم أنهم لن يحصلوا إلا المقسوم لهم ، ولذلك يقول المثل :

- لما اتفرقت العقول كل واحد عجبه عقله ، ولما اتقسمت (أو إتفرقت) الارزاق محدش عجبه رزقه .

وبقدر التوازن بين الكفتين أو طرفي المعادلة، أى السعى والعمل في مقابل أن الرزق من عند الله ، بقدر ما تنبه المصرى لنوع العمل أو المهن التى تجلب الرزق وتضمنه، وتحتاج الى مهارة أو شطاره وضرورة اتقان العمل ، وذلك يرتبط بسمة «فنان» كما اسلفنا ، وبسمة «ذكى فطن» التى نتحدث عنها الآن ، وفي «مجال المهن والأعمال » قامت الأمثال عن العمل بوجه عام .

- العمل باب الأمل .

- تراب العمل ولا زعفران البطالة .

- من لا يعمل لا يأكل أيضا (من أقوال بولس الرسول) .

- بياكل من عرق جبينه (وهذا شرف لدى المصرى، فهو لا يستعيب العمل مهما كان) .

- الشغل مش عيب .. ما عيب إلا العيب ..

- لما أنا ست وإنت ست مين يكب الدست ؟! (يضرب فى عدم الأنفة من أى عمل) .

- أنا كبيـر وإنت كبيـر .. ومـين يسـوق الحمـير ؟! (فلا تكبّر فى العمل).

هذا عن العمل .. وبالمقابل هناك أمثال عن البطالة وكراهية المصرى لها سلف ذكرها فيما سبق .. ونذكر فيما يلى بعضا منها يقول :

- الندب بالطار ولا قعاد الراجل فى الدار (أى متعطل) .

- الفاضى يعمل قاضى .

- اللى مش لاقى شغله تشغله يقطع بتاعه ويقعد يوصله .

- زي الكلاب يحب الجوع والراحة .

أما عن تحبيذ الأمثال لمهن وأعمال معينة كالزراعة أو الفلاحة والتجارة أو البيع والشراء، والصناعة أو الصنعة اليدوية، وذلك ونذكر فى مقابل العمل الحكومى الذى يحترمه المصرى، ويراه أضمن سبل العمل والرزق فتقول عنها الأمثال :

- التجارة شطارة .

- بيع واشترى ولا تنكرى (أى لا تكون أجيراً) .

- صنعة فى اليد .

- صاحب صنعة خير من صاحب قلعة (ذكر سلفا) .

الميكانيكية باشوات متدارية .

الفلاحة فلاحة (أى شطارة)

- إزرع كل يوم تأكل كل يوم .

- إداين وازرع ، ولا تتداين وتبلع .

- إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه .

ومن خلاصة التحليل الكمى لهذه الأمثال تجد أن المصرى يحبذ

التجارة والصناعة والزراعة، على أن يكون الانسان أجيراً عند احد ، أو حتى صاحب «عتب» كما يقولون ، أو صاحب أملاك.. ويحبذ المثل بنسبة (٢ : ٢ : ٣) لهذه المهن في مقابل مثل واحد عن العمل الحكومي يطال المصرى بالتدله والتكالب الي حد «التمرغ فى تراب الميرى أو العمل الحكومي .. وقد استمرت وجهة النظر هذه سائدة لفترة غير قصيرة الى أن كنت مؤخرا حينما بدأ الاقتصاد المصري سياسة الانفتاح وبدأ عدد غير قليل من المصريين.. وبتشجيع من الحكومة - فى الاتجاه الى العمل الحر أو الخاص بكل اشكاله الصناعية أو التجارية أو الزراعية ، ولعل ما زعزع إيمان المصرى بالعمل الحكومي «الميرى » المضمون أن رزقه محدود، وقد اصبح أقل من رزق هذه المهن .. مع الأخذ في الاعتبار أن المصري لا يأمن للأيام ، ولا يميل للمجازفة، فهو حذر ، ولذلك نجده يعمل حراً ، ولكن عينه على العمل الحكومة ، أو يحتفظ بوظيفته الحكومية، فهو يعمل حراً في مشروع خاص فيما تبقى له من وقت أو يعين من يدير له عمله الحر.. ويتفرغ هو نصف الوقت فقط .. أو يحصل على إجازة من عمله الحكومي للتفرغ لعمله الحر.. فالمصرى لا يستقيل من العمل الحكومي بسهولة.. ويرتبط ذلك بكثير من سماته وهى الحذر ، والإيمان بتقلبات الحظ والبخت وعدم ضمانه، .. وأيضا لأن العمل الحكومي عند المصرى درب من دروب الوجاهة الاجتماعية

والسلطة ، ومركز مرموق ووظيفة ميرى لا يفرط فيها فى مقابل وهم فى علم الغيب الذى لا يأتمنه.. ذلك أنه يؤمن إيماناً قاطعاً بأنه :

– سبع صناع والبخت ضايع (أو سبع صنايع فى ايديه والهم جاير عليه) .

وعن البيع والشرء نجد كما كبيراً من الأمثال المصرية، التى تضع قواعد للتجارة وتحدد «الثمن والقيمة» ، وتحبذ الغالي والحسن وترفض الرخيص، وتتحدث عن شطارة التجار، وتغليبهم لمصالحهم ، فالامثال ترى أن :

– التجارة شطارة .

– التجارة مكسب وخسارة.

– زيارة وتجارة (وتقال عن الحج والعمرة) .

– الخسارة تعلم الشطارة .

– الخسارة اللى تعلم مكسب (ما نقص من مالك ما زاد فى عقلك).

– بيع الرخيص واشترى الغالى .

– الشرا يعلم البيع .

– خد المليح واستريح (أى اشترى الجيد كى تكسب) .

– غلا وسو كيل

– نسينا الخميرة من سنة الغلا (أى بطلنا الشراء) .

- الغالى ثمنه فيه .

- التاجر لما يفلس يدور فى دفاتره القديمة (ويقال اليهودى لما يفلس) .

- مال لحمتك مشفته ؟! قال : من جزار معرفة (فالتاجر لا يراعى إلا مكسبه) .

- إذا نطق الديك ، شكك اديك (عبارة يلتزم بها التجار) .

- لولا أختلاف النظر لبارت السلع .

- بيع بخمسة واشترى بخمسة .. يرزقك الله عن بين الخمستين .

- الصدقة المخفية فى البيع والشرا تقال للبائع والمشترى .

- ما يشكر السوق إلا اللى باع جديه .

- خلى العسل فى دنانه لحد ما يجلبه سعاره (وتقال أيضا فى التزويج) .

- العدد فى الليمون (تقال فى البيع والشراء كناية عن الكثرة) .

- كل شىء بثمنه (إن البيع مرتخص وغال) .

- بين البائع والشارى ، يفتح الله (فالأمر تراضى) .

وكما وضعت الأمثال قواعد التعامل بين البائع والشارى ، ووصفتها على أنها علاقة تراضٍ ، تحكمها عبارة واحدة ، أو دعوة : «يفتح الله» وعرفت المشترى بأن التاجر يراعى مصلحته ومكسبه، ويبديها على

المعرفة أو الصداقة وحددت له أن المليح والغالى أفضل ، فكل شيء له سعره أو ثمنه.. حددت أيضا للتجار علاقتهم ببعض ، التى تحكمها معاملات مثل «الضمانة» و «الشراكة» .. فماذا قالت الامثال فى هذه الصدد ؟! قالت رافضة للضمان :

- الضامن غارم .

- الضمانة أولها : شهامة ، وثانيها : غرامة، وثالثها : ندامة .

وعن الشراكة قالت الامثال غير محبذة لها ومحددة للشركاء وضرورة أن يكونوا من الاجاويد ومشيرة الى أن المحاسبة بين الشركاء قد تفسد العلاقة بينهما.. وأن الادارة اذا وزعت بين الشركاء قد تفسد العمل ، عن كل قالت الامثال :

- يفور الشرك ولو فى غدوة .

- قيراط ملك .. ولا فدان شرك .

- قط خلص .. ولا جمل شرك أو كلب خلص .

- إن كان لك قريب لا تشاركه ، ولا تناسبه .

- إلعب وحدك تيجى راضى (مثل شامى متداول) .

- زى الفريك ميحبش شريك (قيلت في تعدد الزوجات سلفا) .

- المركب اللى ليها ريسين تغرق (الشرك فى الرئاسة مهلك) .

- شريك سنة ما تحاسبه ، قال ولا شريك العمر كله .

- الشركة مع الاجاويد ولا عدمها (أو الشرك فى الاجاويد ولا عدمهم) .

وحتى إذا اقتضى الأمر أو الضرورة أن نتشارك فالامثال وضعت قواعد «للاتفاق والتعاقد» . تدور حول ضرورة وضع شروط من البداية ، حسما للنزاع فيما بعد .. وفى ذلك تقول الامثال :

- الشرط نور .

- اللى اوله شرط آخره نور .

- الشرط عند الحرث، ولا المنازعة فى الجرن (عن المشاركة فى الزرع) .

- المشروطة محطوطة .

- العقد شريعة المتعاقدين (قاعدة قانونية متداولة) .

واستدراكا نعود للحديث عن القيمة والثمن ، ليس فى التجارة وحسب.. ولكن فى الحياة اليومية والمعاملات ، بما يحقق مطالب الانسان واحتياجاته .. فالمصرى له نظرة أو وجهة نظر جديرة بالتقدير بالنسبة لتقويمه للأشياء ، فهو رغم فقره يقدر الغالى ويفضله على الرخيص ، ويقدر لكل شيء قيمته وتقول الأمثال فى ذلك :

- كل برغوت على قد دمه .

- على أد فوله - ادفوا له .

- كل فوله مسوسه ولها كيال اعور (مثل سورى ويقال فى مصر، كل فولة ولها كيال) .

- ما خف حمله وغلا ثمنه .

- الغالى ثمنه فيه .

- على قد لحافك مد رجليك (تقال أيضا فى الاقتصاد) .

- على قد فلوسك طوح رجليك (تقال فى استئجار الأرجوحة) .

- العدس بترابه وكل شيء بحسابه (يكتفى الآن بالجزء الثانى من المثل) .

- غالى السوق .. ولا رخيص البيت .

- ما يغرك رخصه ترمى نصه (تكرر سلفا) .

وإذا كان المصرى يفضل الغالى بمعنى انه يفضل القيمة أو الشيء القيم.. فلا بأس من أن يتشاكى احيانا - بل ودائما - من الغلاء ، ويصف الغلاء بالنار ، ويقول :

- بالغلا والكوا .

- ثمنه شقله (أو ثمنه الشيء الفلانى ، أى غالى) .

- بشيء وشويات .

ولذلك نجده فى أمثال أقل نسبيا (١٠ : ٢) يحبذ الرخيص فيقول:

- رخيص وكويس وابن ناس (ترغيب فى الرخيص) .

- ابو بلاش كتر منه واللى بفلوس حود عنه (تضرب أيضا فى الطمع فى الشىء المجانى) .

ومما سبق يتضح أن المصرى فطن ذكى يقدر لكل شىء قيمته ، وأنه قبل آلاف أو مئات السنين وصل بأمثاله الشعبية إلى القاعدة الاقتصادية التى تقدر للسلعة الغالية قيمتها .. وترى أن الفقير لابد أن يقتنى الغالي، ولا يفرح بالرخيص، لأن الغالى يعمر أكثر فلا يضطر للشراء مرة أخرى ، ولا يضطر للاستغناء عنه سريعا فهذا ترف لا يملكه .. وهو ترف الاستغناء المبكر عن الممتلكات.. فالمصرى يرى أن من يبيع رخيصاً فكأنه باع الشىء القيم «بتراب الفلوس »، كما يرى أن الجهد الذى بذل فى صنعه يستحق أكثر من ذلك، ويرفع من ثمنه ولذلك يقول :

- الأجر مش قد المشقة .

- شىء مش جايب حقه أو ثمنه (وتقال أيضا، مش جايب همه) .

ومن ذكاء المصرى أنه أعلى قيمة الاستغناء .. وحبذ بأمثاله اعتماد المرء او اكتفاءه بما يملك ، وعدم الاتكال على ما لدى الآخرين وفى ذلك هو يعلى من شأن نفسه، حتى وإن كان محتاجاً، ويتظاهر بذلك إعزازاً لذاته، وفى «الاستغناء » ، قالت الأمثال المصرية :

- حمارتك العارجة تغنيك عن سؤال اللئيم .

- حمارتك العارجة أحسن من فرس أخوك السليم .

– مادام معايا القمر .. ايش على بالى من النجوم .

– اللى خدته القرعة تاخده أم الشعور (ويضرب أيضا تهكما فى مجال تعدد الزوجات) .

– اللى فيه عيشة تاخده أم الخير .

– اللى ايدى مش فى مقطعه عفريت لما يخطه .

– اللى ايدى مش مرجونته لا على بالى منه ولا من جودته (تكرر سلفا فى الكرم) .

– نقّطنا بسكاتك (أى لا نريد منك إلا الصمت) .

– الشكوى لغير الله مذلة (الاستغناء عن الناس حتى فى مجرد الشكوى) .

– النافع الله يا حلبة .

– قول . يا عينى يا حيلى (أى اعتمد على نفسك) .

– اللى يتشحت يتاكل بابه ؟! (يقصد بالمذلة ، لذا يتعفف عنه) .

– أعمل حاجتى بإيدى ولا أقول للكلب يا سيدى (فى الاستغناء عن جهد الآخرين) .

– بدل ما أقول للعبد يا سيدى أقضى حاجتى بإيدى (فى نفس المعنى)

– شعيرنا ولا قمح غيرنا (فى الاكتفاء بما لدى المرء) .

- ألحس مسني وأبات مهني .. ولا كبابك اللي قتلني (★) (رفضا للمن) .

- قطع الطشت الدهب اللي أطرش فيه الدم (★★) .

- يا نحلة لا تقرصيني ولا عايز منك عسل .

- ما يهرش لك إلا ايدك (لا يحك جلدي مثل ظفري) .

- ما يمسح دمعتك إلا ايدك (بمعنى عدم الاتكال) .

- إذا حضر الماء بطل التيمم (عربي متداول) .

وكمرادف للاستغناء نجد كماً من الأمثال التي تستهين بما لدى الآخرين، وتقلل من قيمة الأشياء حتى لا نتكالب عليها .. بل نستغني عنها ، وكمنوذج لذلك .

- إيش ياخد الريح من البلاط .

- لا ينفع طبلة ولا طار .

- لو كان فيه الخير ما كان رماه الطير .

- قال : يابويا مانمش حداك ؟! قال : يا بني ريحتني من «فساك».

- خلصت حاجتي من عند جارتي .

- كفانا من الدست مغرفة (لنعرف ما به ونتركه) .

- العينة بينه (فيها الكفاية لنعرف الباقي ونستغني عنه) .

(★) ، (★★) راجع ص ١٢٤ ، في موضوع كراهية المصري للمن .

- اللى فى الايد تزهده النفس (اللى تملكه الايد ..)

وعن الاستغناء عن الناس خاصة من يبدأون بالاستغناء عنا تقول الأمثال :

- من باعك بيعه بأرخص ثمن .

- من باعك بيعه وارتاح من قهره ، وإن كنت عطشان ما تورد على بحره .

- ما ياخد الروح إلا اللى خالقها (فاستغن عمن لا يملكون من أمرك شيئا ، ويضرب أيضا فى الشجاعة) .

ويستدرك المثل المصرى الذكى استدراكا بسيطا ، يتضح فى مثل واحد فقط ، ليحجِّم المصرى المعتز بذاته ، المستغنى بما لديه ، ولو كان قليلا . والمكتفى بجهده عن التطلع إلى ما لدى الآخرين ، وحتى لا يغالى فى الاستغناء ، فيقول له فى تحسب ذكى :

- اللى ما تحتاج وشه النهارده .. بكره تحتاج قفاه (أو يحوجك الزمان لقفاه) .

واستكمالا لصورة المصرى المستغنى - رغم فقره - عن الآخرين .. كما وضح من الأمثال السابقة الداعية للاستغناء بشكل مباشر ... نجد الأمثال تدعو أيضا لذلك بأسلوب اخر ، وهو رفض التكالب والتطفل ، والطمع فيما لدى الآخرين ، والسخرية من الشح والبخل

والبخلاء .. فالمتطفلون والطامعون فى ما لدى الآخرين وصفتهم الأمثال قائلة .

- إن شاف «بتاع» الميتة يقول : هاتوا منه حتيته ، وإن شاف «بتاع» الضعيف يقول : حتة ورغيف .

- لا يفوته فايت ، ولا طبيخ بايت .

- عيشك يحلى لى يا خالى ، قال : ده من سَوْ بختى يا ابن اختى .

- أنا غنية وأحب الهدية .

- البحر يحب الزيادة (فى الاستزادة والطمع) .

- ما يملا عين ابن آدم إلا التراب (من طمعه) .

- جفن العين جراب ، ما يملاه إلا التراب .

- البقة ولد مية ، وتقول ، يا قلة الذرية .

- ساعة البطون تتوه العقول .

- اللى ييجى منه أحسن منه (اللى ييجى منه أحل من عينه) .

- شعرة من خنزير خير منه .

- اللى تعطيه الوش يطلب البطانة .

- يمضغه ويرميه .. ولا يخليه (طمعا واستخسارا) .

- وجع البطن ولا كب الطبيخ (أو الحامض ، بخلا ، واستخسارا).

- خسرّ الطبخة عشان بنكلة كمون (بخل) .
- قال : يا جارية اطبخى ، قالت : يا سيدى كلف (يقال · أطبخى يا جارية .. كلف يا سيد) .
- شحات وعبنه غليضة (أو قوية) .
- أبخل من كلبة يزيد (عربى متداول) .
- بيأكل زى عيال المسلمين (مثل يقوله الأقباط) .
- من كرهه ربه .. سلط عليه بطنه (وتقال أيضا ، لسانه) .
- بطنه متسلطة عليه .
- سيدنا موسى مات ، ناشف طرى هاتْ (من أمثال اليهود) .
- غولة عملت فرح ، قال : يكفيها وللا يكفى ولادها ؟!
- بياكل زى الغول !!
- القطة متهربش من بيت الفرح .
- الكداب خرب بيت الطماع .
- أنا ما بأريده ، وابنى يمد ايده .

وعدا عن التلميح والتوصيف ، تصرح الأمثال المصرية برفض التطفل والطمع ، وفى ذلك تقول بشكل مباشر :

- الطمع بقل ما جمع (عربى متداول) .
- القناعة مال وبضاعة .

- من كل بلاش راح بلاش .

- اللى ياكل بلاش ميشبعش .

- اللى ما يكفيش جماعة واحد أحق به .

- اللى ما هو فى ايدك يكيدك ، واللى مع الناس بعيد (فلا تطمح إليه أو تطمع فيه) .

- إن كان حبيبك عسل متلحسوش كله (رفض لزيادة العشم والطمع فيما لدى الآخرين) .

- اللقمة الكبيرة تقف فى الزور .

- العيش من العيش والدناوة ليش ؟!

- يا زايرين بيه وانتو تشتهوه .. اقعدوا جنب الحيط وكلوه .

وهناك من التعبيرات الشائعة الكثير الذى يسخر به المصرى من البخلاء ، كالقول : « قتلنا يهودى النهارده» ، والتى تقال للبخيل إذا أبدى كرما غير معتاد ، أو «جعان أفت لك ؟! » كسؤال لا يقوله إلا بخيل « بيعزم عزومة مراكبية» ، معروف مسبقاً أنها لن تلبى ، ولذلك يلح فيها ، وهو متأكد أنها لن تحدث ، ناهيك عما يتهكم به المصرى على أهل دمياط ؛ لشهرتهم بالحرص ، فيقول على لسانهم :

- تتعشى وللا تنام خفيف ؟ تنام هنا وللا اللوكاندة أريح .

والمصرى الذكى المنتبه لكل هذه الأمور ، والواعى لكل شئ ، والمدرك

لكل ما يدور حوله ، يُوَصِّفُه ويشرحه .. بل ويُشرِّحه بأسلوب جزل وعبارة حكيمة يدرك بوجه عام أن بلاده عامرة بخيرات كثيرة ... لكنه مع ذلك يتحسر قائلا .

– مصر خيرها لغيرها (أو لغريبها) .

وفى هذا المثل خلاصة القول .. أو خلاصة مشاعره تجاه ما يجابه فى وطنه .. فهو ليس دائما من يُحصِّل خيرها .. وينعم بما فيها .. وإدراكه لذلك ذكاء فى حد ذاته ، يعكس فهمه وتقديره للأمور .

الفصل الرابع

الأمثال العربية المتداولة بين العامة

هناك من الأمثال العربية الكثير الذى يتسق والأمثال الشعبية معنًى .. وإن اختلف منطوقه لفظاً .. أو اختلفت الصور التي يرسمها كل مثل أو يعبر عنها .. وهناك أمثال عربية ظل الوجدان المصرى .. بل واللسان المصرى يحفظها ويرددها بمنطوق كلماتها أو ألفاظها الفصحى .. وهى الأمثال العربية المتواترة بين الخاصة المثقفة ، بل ويرددها بعض العامة أيضا ، وتجرى على ألسنتهم مجرى العامية .. وكأنهم لا يدركون أنها غريبة على لهجتهم .. أو طوعوها لتكون أقرب ما يمكن من لكنتهم .. لكن ما يهمنا هو مدى تعبير هذه الأمثال العربية عن قيم أصيلة فى الشعب المصرى ، وسمات سائدة بين أفراده . وإلى أى مدى أضاف الفتح العربى المصاحب لدخول الإسلام مصر إلى الموروث القيمى للمصريين الفراعنة ، أو القبط قبل دخول الإسلام ؛ ولذلك سنفرد هذا الفصل للأمثال العربية المتداولة بين العامة .. كما سنخُص الفصل الخامس بالأقوال المأثورة التى استقاها الوجدان المصرى ، ورددها

اللسان المصرى من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف .. بما يعكس آثر العروبة والإسلام ، كرقيقة حضارية أضيفت إلى الرقائق الحضارية المشكّلة لهذا الإنسان ، والمؤكدة لسماته ، التى تبيناها من فلسفته الشعبية المتمثلة فى أمثاله العامية ، على مدى الفصل السابق - بكل مباحثه - والذى استخلصنا فيه للمصرى ست سمات أساسية ، تفرعت عنها عشرات السمات .. فهل أدخلت الأمثال العربية أو الحكمة العربية على المصرى سمات لم تكن فيه ؟! أم كرست ما لديه من سمات أصيلة؟! ولعل ذلك يردُّنا إلى حديث طالما قتل بحثا .. واختلفت حوله الآراء .. ألا وهو : هل المصرى الحديث خلاصة للحضارة الفرعونية القديمة ؟ أم الحضارة العربية الإسلامية ؟! أم أنه نتاج لهما معا ؟! هذا ما ستوضحه الصفحات القادمة .

قبل الولوج إلى استعراض نماذج الأمثال العربية ، التى مازالت حية ومتداولة ، لابد من الإشارة إلى أن الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة كان يعج بالقصص الشعبية والحِكم والتأملات والرسائل ... ويهمنا منها هنا الحكم على وجه الخصوص ، إذ تعتبر مرادفا للأمثال السائدة ، ويقول «سليم حسن» فى الجزء الأول من كتابه «الأدب المصرى القديم أو أدب الفراعنة » :

« تدل نتيجة البحوث التى قام بها علماء الآثار فى تاريخ العالم

القديم أن مصر كان لها قصب السبق في الإنتاج الأدبي في باب الحِكم والتأملات ، فإن (بابل) و (آشور) لم تتركا شيئا يستحق الذكر نسبيا في هذا المضمار ، أما فلسطين جارة مصر فقد أنتجت فيه انتاجا عظيما ، وبخاصة في باب الأمثال والتعاليم الدينية وحكم سليمان و(المزامير) وكتاب (أيوب) وغيرها مما نجده في التوراة من هذا النوع من الأدب » (١) .

وقد توصل هذا العالم الجليل إلى ثمان وثائق ، تمثل سلسلة متصلة الحلقات من هذا النوع الأدبي، تمثل كل عصور التاريخ المصري ، من الدولة القديمة إلى الدولة الحديثة ، مروراً بالعهد الاقطاعي والدولة الوسطى (٢) .. ترجمها من الهيروغليفية إلى العربية مباشرة ، وهي على التوالي والترتيب التاريخي :

١ - حكم وأمثال بتاح حتب .

٢ - تعاليم كا جمني .

٣ - التعاليم التي لقنت للملك مري كا رع .

٤ - وصايا أمنمحات الأول لابنه سنوسرت .

٥ - تعاليم سحتب أب - رع .

---

(١) سليم حسن ، المرجع المشار إليه ، ص ١٨١ ، مطبوعات كتاب اليوم - ١٥ ديسمبر ١٩٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

٦ - تعاليم خيتى بن دواوف لابنه «بيبى» .

٧ - تعاليم آنى .

٨ - تعاليم أمنموبى .

والمطالع لهذه الثروة الأدبية فى المتون المشار إليها ، يستطيع أن يلاحظ بَدْءاً من تعاليم أو نصائح آنى نموا وتطورا كبيرين فى الوعى الإنسانى ، كنتاج للمؤثرات الاجتماعية ، والتفكير العميق الذى ساد هذا العصر ، إذ بدأت تتناول أو تعترف بالوعى الإنسانى ، ويأتى ذكر المتعبدين - من غير تحفظ - إشارة إلى أنه أمر الله نفسه ، فبعد أن كان الورع الشخصى أو الضمير صار الايحاء الإلهى الحق (١) .

كل ذلك يؤكد للمصرى تميزه بأهم صفاته السائدة والتى لا خلاف عليها .. والتى انبثقت عنها أو تفرعت منها سمات أخرى كثيرة .. وهى سمة «متدين» وما تفرع عنها من سمات : صبور وقانع وراض ومحسن، ومتواضع ، ويقدس الموتى ومتواكل ويؤمن بالغيبيات .... إلخ .

والمراجع لهذا المرجع المهم يستطيع أن يتأكد من صدق ما أذهب إليه ، من أن المصرى الفرعونى لم تأت الحضارة العربية والإسلامية لتخلقه من عدم ، أو تعيد تشكيله أو ترتيب قيمه رأسا على عقب .. أو تهبه من الحكمة والقيم ما لم يكن يتمتع به ، لكنها فقط أضافت إلى

---

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٥ وما تلاها .

روحه الغنية الخصبة ملامح تؤكد طبيعته السمحة ، وروحه المتدينة ، وإيمانه العميق بالله ، وبالخير ، ففكره الخلود القديمة قدم المصرى كانت الدافع لتمسك المصرى القديم بالقيم الفاضلة ، وذلك ما أكده دكتور سيد عويس فى أكثر من موضع ، فى مؤلفاته عن المصريين ...فالمصرى القديم الأصيل المؤمن الصادق يمكن أن نقول ان تغيير اللغة جاء بالنسبة له عنصراً يقلل من شعوره بذاته (★) .. ذلك من حيث السمات الأصيلة والمعاني التى تناولتها الأمثال .. وإن جاء اختلاف اللغة التي صيغت بها الأمثال الفرعونية عن اللغة المتداولة الآن - العربية - كعائق دون بقاء واستمرار الأمثال الفرعونية على ألسنة الناس ، بمتنها الأصلى .. وإن كنا نستطيع التأكيد أن ما تناولته من معان وقيم وفلسفة مازالت باقية حتى الآن ، كما نستطيع أن نقول بأن هناك دلائل تؤكد على أن اللغة القديمة كانت «غنية بالاستعارات والتشبيهات ، أى أنها (لغة مثقفة) و (لغة إنشاء وتفكير) للشخص الذى يكتب بها» (١) .

وقد حفلت كتب الأمثال القديمة بالحكمة والنصيحة عند المصريين القدماء ؛ بما يوضح مدى الذوق الرفيع لديهم ، وأثره فى سلوكهم ومعـاملاتهم .. وأنها اشتملت على دراسة قيمة ، وخلاصة تجارب

(★) أحمد قدرى ، برنامج شاهد على العصر ، المذاع بتاريخ ١٩٩١/١٠/٩ ، البرنامج العام ، إذاعة القاهرة .

(١) عبد الحميد بسيونى ، أدب السلوك عند المصريين القدماء ، ص ٤٨.

الحياة ، حيث رسمت لهم طريق السعادة ، ووضعت بين أيديهم المثل العليا لكل من يريد النجاح فى الدنيا والآخرة ، ونظمت صلة الناس ببعضهم البعض (١) .

هذا وسنورد فيما يلى بعضا من الأمثال الفرعونية ، على سبيل المثال لا الحصر ؛ لتأكيد ما ذهبنا إليه ، ممثلة لكل العصور ، وفى شتى المضارب .. فمن تعاليم أمنموبى عن النفاق والكلام :

«الرب يمقت من يزور فى الكلام .. وكبر مقتاً عنده النفاق» (٢) .

ومن أقوال الكاهن عنخ شا شنقى فى عين شمس ، فى القرن الخامس قبل الميلاد ، عن التكافل ، والصراحة ، والعمل ، وعن تفضيل العزلة على رفاق السوء – وهو معنى ورد فى الأمثال العامية المصرية ، كما ورد فى الأمثال العربية أيضاً – ومن حديث هذا الكاهن أيضاً عن الزواج ، والاختيار فيه ، وعن العلم ، والعقل ، وعمل الخير أو الجميل الكثير مما سنجده متسقاً تماماً مع ما هو متداول الآن :

– من حزن مع أهل بلده فرح معهم (قيمة المشاركة والتكافل) .

– لا تجعل لنفسك صوتين .. وقل الأمر الواقع لكل إنسان (الصدق وعدم المراءاة .

– إسمح لمن عمل ما كُلف به بأن يرفع صوته .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٣ .

(٢) المرجع السابق ، ١٣ .

– أعط الشغال رغيفاً أخذ رغيفين من كتفيه .

– إعلم أن العـزلة خير من أخ شرير (الوحدة خير من رفيق السوء) .

– نعمة الممتلكات زوجة حكيمة .

– لا تهجر إمرأة فى دارك لأنها عقيم (قيمة لم يحتفظ بها المصرى العربى) .

– لا تقتل حية وتترك ذيلها .

– من نكح إمرأة جاره نُكحت زوجته على عتبة داره (الجزاء من جنس العمل) .

– من نكح زوجة على سرير نكحت زوجته على الطين (الجزاء مقرون بالفضيحة) .

– تخير زوجاً عاقلا لإبنتك ، ولا تتخير لها زوجا ثريا (تفضيل قيمة العقل على المال) .

– زوج إبنتك لصـائغ .. ولكـن لا تـزوج ابنك لإبنتـه (متداول حتى الآن) .

– قد يستر الصمت حمقاً .

– قد يَفُضل البكم زلق اللسان (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب) .

- آية الحكيم فمه .

- إنما يتأتى التعليم بعد رقى الخُلق (الأدب فضلوه عن العلم) .

- رفيق الغبى غبى .. ورفيق الحصيف حصيف .. ورفيق الأبله أبله (صاحبك من بختك .. البيض الفاسد يتدحرج على بعضه) .

- إفعل الخير وارمه وسط البحر (يتردد حتى الآن بنفس الألفاظ) .

- من هـز حجر وقـع على رجـله (إللى يشيل قربه مخرومة تنزل على ظهره) .

- من سرق متاع آخر لن يبارك له فيه (عن الحلال والحرام) .

- يسرق السارق بالليل ويقبض عليه بالنهار(★) .

ومن تعـاليم الشـيخ أمنموبى الأديب المتـدين ، فى الفترة من القرن العـاشر أو التاسـع قبل الميلاد عن الكـلام ، وعن المكتوب أو ما نقول عنه الآن . «العبد فى التفكـير والرب فى التـدبير» يقول أمنموبى :

- لا تتعود على أن تجدف بلسانك .

- لا تقضى الليل متخوفاً من الغد .. فما يعلم إنسان ما سيكون عليه الغد .. والإله دائما فى فلاح (تدبيره) .

والإنسان دائماً فى خيبة ظنونه (١) .

(★) راجع محمد عبد الحميد بسيونى ، آداب السلوك ، ص ١٥ - ١٦ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

ومن نصائح بتاح حتب التى تدور حول العلم ، والرزق ، والحق والطمع ، وتتشابه مع ما هو متداول الآن فى المعنى ، قوله :

- لا تتعال وتنتفخ أوداجك لأنك رجل عالم ، وإستشر الجاهل كما تستشر العالم (ما خاب من إستشار) .

- الإلتزام بالحق ولو على نفسك .

- الحق هو الطـــريق السوى أمام الضال (١) (الحق أحق أن يتبع) .

- الخبز يؤكل بأمر الله (٢) (عن الرزق) .

- الشره لا قبر له .

- أحذر الشراهة فإنها مرض وداء لا يشفى .

- لا تكونن شرها فى القسمة ولا تكونن ملحاً إلا فى حقك ولا تطعمن فى مال أقاربك (٣) .

وعدا عن الاسترسال فى ذكر نماذج من الحكم الفرعونية يمكن أن نؤكد أن هناك حوالى ٢٥٠ مثلا مازلنا نردده بنفس المفردات عن أصل فرعونى نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- إن حبتك حية إطوق بيها .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٨ - ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٧١ .

- ثلاثة ما تتخبى .. الحب والحمل وركوب الجمل .

- المحبة ستار العيوب (مراية الحب عامية) .

- أحبك ياسوارى .. زى زندى لا .

- حماتى مناقرة قال · طلق بنتها .

- الحـلوة حلـوة ولو صحيت من النوم والوحشة وحشة لو إستحمت كل يوم .

- الحية تخلف الحوية (إقلب القدرة على فمها ...) .

وبعد أن ثبتت لدينا - إلى حد ما - الأصول القديمة للمثل الشعبى العامى فى مصر ، وكيف أن جذوره لفظاً ومعنى تمتد إلى العصر الفرعونى ، وأن ما يحمله من قيم ، وما يعبر عنه من فلسفة تبناها المصرى القديم ، واحتفظ بها وجدان المصرى المعاصر .. فعكست سماته الأصيلة السائدة .

وبعد ما تقدم نستطيع أن ننتقل إلى مقارنة ومقاربة أخرى بين المثل العامى المصرى ، والمثل العربى الفصيح .. وما يفرز من قيم ، وما يؤكد من سمات يتسم بها الإنسان «المصرى العربى المسلم» - بل والمسيحى أيضاً - متأثراً بالحضارة العربية الإسلامية ، وباللغة العربية ، التى أصبحت لغة المصريين بعد موت لغتهم المصرية القديمة ، والاندثار الجزئى للغة القبطية التى اقتصرت معرفتها على المتون اللاهوتية ،

وعلى المتخصصين فى علوم اللاهوت .. وما تبقى فى الكنائس من ترانيم الشمامسة ، والطقوس الدينية .. لكنها لم تعد لغة حياة ، بمعنى أنها لم تعد لغة حديث وكتابة ، أو تأليف .

وقبل أن نورد نماذج من الأمثال العربية المتداولة ، لابد من التعرض لسمات الشخصية العربية المصرية ، والتى ترى د . فاطمة المصرى فى تعدادها للسمات التى يتفق فيها المصريون مع العرب ، أو انتقلت إلى المصريين بالفتح العربى ، والتأثر بكل ما هو عربى ، من لغة وآداب ، وثقافة ، وعلاقات إنسانية ، ترى أن هناك ٤٧ سمة تجمع بين المصريين والعرب ، أو هى كما أسمتها : «سمات الشخصية العربية المصرية» .. وهنا الخلاف ، إذ أرى أن الشخصية فى الأصل مصرية ذات سمات أصيلة ، ثم كان الفتح العربى والامتزاج بين الحضارة الفرعونية والمد العربى الإسلامى ، بما حمل من قيم ، وبما اتسم به العرب من سمات ، فامتزجوا بالمصريين ، وأثروا وتأثروا بهم ، وأدخلت الديانة الإسلامية الكثيـر من المفاهيم والقيم ، ولعب التزاوج ، وعنـاصر الوراثة دورهما ، فخرجت السمات التى أشـارت لها د . فاطمة المصـرى ، والتى يتفق بعض منها مع السمات المصرية التى استخرجتها من الأمثال الشعبية ، بأصيلها وفرعها .. ولذلك أورد مما ذكرت من سمات ما يلى :

- التفاخر والحساسية (وهى عند المصرى اعتزاز بالذات) .

- المبالغـة فى التعـبير عـن قدراته (المصـرى يغالى ويبالغ فى كل شىء) .

- الفردية والسلبية .

- كرم الضيافة (وجوهر الكرم منح الطعام ، ولذلك يهتمون به) .

- الكرم يرتبط عند العرب بالإعـلان عنه ، ولذلك يعتبر دينا فى عنق المكرم .

- حب الظهور (حتى أنه يستدين من أجل زفاف أو جنازة كمقدرة على البذل ، وفى المقاهى لإظهار الكرم ، لدرجة الإضطرار لقبول كرم الآخرين) .

- الكرم والسخاء أسلوباً ووسيلة لإظهار الصداقة وإخفاء العداء (دبلوماسية مصرية) .

- الزيارات وسيلة لإظهار الكرم .. وليس لتبادل وجهات النظر (وأيضا لتبادل الفكاهات ، وأخبار الناس ، وإشباع الفضول) .

- الخوف من الفقر ، وعدم الاطمئنان إلى ضمان الغذاء ، وهـو سبب الاهتمام بالطعام وتقديسه .

- المروءة أى الرجولة والفضيلة (الشجاعة والكرم) .

- يتمسك العربى برأيه بقوة وصلابة ، ويحاول أن يفرضه على

الناس ، وإذا اختلف معهم فإنه يعتبرهم أعداء له (وذلك يظهر على المستوى السياسى بالذات) .

- التشكك وسوء الظن جعل العربى يحاول إخفاء ممتلكاته خوفاً من الضرائب والخدمة العسكرية ، أو السلطة عموماً (ومن الحسد أيضاً) .

- المصريون أكثر تشككاً ، ولهم دليلهم على ذلك من حوادث أليمة سببت لهم عدم الثقة بالناس .

- يحبون إخفاء أشياء كثيرة عنهم ، قد تُخجل أو حتى لا تُخجل (السرية والتحفظ) وخوفاً من الحسد .

- الميل إلى التستر . والدعوة بالستر (واعتبار التستر فضيلة) .

- القدرية .

- الذلة والخضوع بسبب استبداد الأهل ، وأيضا الحكام .. حتى بعد الاستقلال .

- الخضوع كى يحقق الأهداف ، ولو أدى ذلك إلى التلون بلون جماعة ما .

- التدليس والتملق .

- التدخل فى شئون الآخرين ، ومعرفة حياتهم الخاصة . وانتقاد تصرفاتهم ، وتصحيح خطئهم (حزب أعداء النجاح أو من يطلق عليهم المصرى الآن المبوخاتية) .

- العربى يحتقر من هم دونه ، ومع ذلك يشفق عليهم ويكرمهم (وقد انطوت الأمثال الشعبية المصرية دائما على احتقار الغنى بعد الفقر أو «الحداثة» ، والرثاء للفقر بعد الغنى .

- عدم الشعور بالأمان من جانب المرأة ، نتيجة تعدد الزوجات ، وعلاقة العداء بين غير الأشقاء .

- الايمان الذى يجلب الشعور بالأمان ، والأمل فى حياة أفضل مستقبلاً .

- لا يحب التغيير ، خاصة ما يُجلَب من الغرب أو من الخارج ، ويتمسك بالتقاليد (ما ييجى من الغرب حاجة تسر القلب) .

- يفضل العلاقات التى تعتمد على التقاليد الثابتة ، لتظل الأمور فى حدود المعروف والمضمون ، كما قال بذلك برجر ، أى أنه يكره المغامرة (ولذلك يقول إللى تعرفه أحسن من إللى متعرفوش) .

- يميل إلى عدم قبول الجديد .. إلا إذا اتسق مع قديم ثابت متطوع بصحته (كذلك المصرى لكنه ليس جامدا كما ذهبت د . فاطمة المصرى فالتمسك بالقديم لا يعنى لديه الجمود) .

- يؤمن بالقضاء والقدر ، ويرضى بهما ، وذلك طريق العربى للتخلص من الخوف من المجهـول ، ولإعادة الاتـزان النفسى ، وتخفيف حـدة الإحبـاط والصـراع ، فى مجتمـع ملىء بالاضطهـاد والظلم .

تلك إلى حد كبير السمات التى اصطبغت بها الشخصية المصرية من أثر الاحتكاك بالعرب ، وبعضها كان أصيلاً فيها ، فى عصور ما قبل الإسلام والفتح العربى .. لكن ما أوردته د . فاطمة المصرى نقلاً عن - أو متأثرة بما ذكره - «برجر» عن الشخصية العربية ، لا أتفق معها كثيراً فى بعضه لهذه الأسباب :

أولاً : لأنه رؤية غربية للشخصية العربية ، أى صورة ذهنية غربية عن العرب والمصريين بوصفهم عربا .

ثانياً : لأن الفتح العربى فى رأيى لم يطمس تماماً الشخصية المصرية .. بل ظللها ببعض السمات الدخيلة عليها ، ولم ينسخها تماماً .. وإلا لما ستشعرنا ختلافاً وتبايناً واضحاً بين المصريين وغيرهم من العرب .

ثالثاً : لأنه بتحليل الأمثال الشعبية المصرية التي مازالت متداولة لم تثبت بعض هذه السمات التى تبنتها عن «برجر» .

رابعاً أنه بدراستى لصورة فرعية من الصورة العربية وهى صورة عرب الخليج ، ومقارنة سماتهم الشخصية وسمات صورتهم الذهنية لدى الاخرين(*) اتضح لى أن فارقا كبيرا بين المصريين وغيرهم من العرب.. وحتى السمات التى اشتركوا معهم فيها.. يختلفون معهم فى درجة

(*) صورة عرب دول مجلس التعاون الخليجى فى الصحافة البريطانية» رسالة دكتوراه غير منشورة.

اتسامهم لها، وشدة تمسكهم بها.. وكدليل على ذلك أورد بعض هذه السمات، التي أرى أنها سمات عربية، إتسم بها بعض المصريين المولودين أو الأخلاط، أو «البزرميت» كما يطلق عليهم العامة المصرية، فالمصرى فى الأصل معتز بذاته وبمصريته - ومازال - وقد يزهو بمقدرته بتواضع.. لكن أسلوب الفخر والتباهى على الأخرين نمط سلوك عربى، كما أن الحساسية المفرطة للنقد، والشعور بالكبرياء الجريح، أو التي يمكن جرحها بسهولة.. واعتبار أقل تشكك من الغير إهانة كبيرة، كلها مشاعر عربية فى الأصل، تأثر بها بعض المصريين من أهل الوجه البحرى والمدن الكبرى.. فى حين لم يتأثر بها كثيرا المصرى الأصيل (الصعيدى) الذى لا يفاخر بذاته.. ولكنه يعتز بها.. ولا يجرحه كثيرا تفكه الأخرين و«تنكيتهم» عليه، فهو يقدر لذاته قدرها.

أما عن الفردية والسلبية، التي تعتبرها دكتورة فاطمة المصرى ثورة ضد الجماعات التي ينتمي إليها.. فهي سمات مستحدثة ودخيلة على الشخصية المصرية الأصيلة.. فالمصرى كان محبا للعمل الجماعى الخلاق، ومبدعا فيه، وإلا ما ترك لنا أثارا عظيمة شارك فيها، وهى الآن تحمل إسم الملك، وليس إسم كل من حمل حجرا وأرساه فى بنائها.. وحتي فى الفنون المستحدثة.. تبدو الفردية أحيانا.. لكنها ليست السمة السائدة، فالمصرى البناء - وهو السواد الأعظم - مازال يشارك بروح

الجماعة فى أعمال عظيمة، بدءا من العمارة وانتهاء بالأعمال الفنية الجماعية، التي تتطلب روح الفريق، مثل فنون: المسرح والسينما والأوبريت، التى مازال المصرى يعتبر رائدا فيها، فى كل المنطقة العربية، ومازال الأكثر تفوقا على كل العرب - رغم تقدم بعضهم فيها أيضا - وإن كنت لا أنكر بروز الفردية والسلبية، وإطلالهما برأسهما الكريه ، فى العقود الثلاثة الماضية : سواء على المستوى الاجتماعى فى مجال الإبداع بالنسبة للفنون التى يمكن أن تمارس - أو يمارسها الفرد - بذاتية مطلقة.

أما عن روح الفوضى وعدم الطاعة للسلطات.. والافتقار إلى الوعى الاجتماعى والمسئولية الوطنية.. فأرى - وهذا ليس دفاعا عن الشعب المصرى - أنها سمة ظهرت - مؤخرا أيضا - على السطح .. لكن عكسها تماما مازال يعتبر سمة كامنة تحت السطح، تتجلى وتظهر فى الملمات، والحروب، والمناسبات الوطنية، لكنها لم تندثر نهائيا.. فالمطالع لفوضى الحياة المصرية، المتضحة فى كل المناحى، قد يعجب إلى حد الذهول، وقد يتساءل هل هؤلاء المصريون هم أحفاد بناة الأهرام العظام؟!! وقد يتصور أن هناك عقودا من التيه، قد فصلت بين الجدود والأحفاد!! حتى وكأن أناسا آخرين قد سكنوا الأراضى المصرية.. ليسا أحفاد الفراعنة العظام.. لكنه ما يلث أن يتبين المعدن الطيب الأصيل

لهذا الشعب، وحبه للنظام، وطاعته للسلطات، والتزامه بروح الجماعة، ووعيه الاجتماعي العالي، وإحساسه الراقي يالمسئولية الوطنية.. ولكن لماذا هذا التحول الظاهر في الشخصية المصرية؟!.. الحقيقة أن هذا موضوع آخر، قد يرجعه البعض إلى افتقاده للقيادة والقدرة! أو افتقاد المصرى لفكرة الامتداد الإلهي للحاكم (أو فكرة الفرعون الإله)!! أو لكم الفساد السائد في الأوساط السلطوية بكل أشكالها (الأبوية والقادية والحاكمة) أو لأن الناس كما يقول المصرى ذاته: «أصبحت تخاف ولا تختشيش»!! أو لإفتقادهم لمشروع قومي.. المهم أن شرح الأسباب المؤدية إلى هذه الظاهرة الحديثة تحتاج إلى تعمق أكثر، وهى ليست موضوعنا فى هذا الكتاب على أى حال.

أما عن عدم التعاون، عدم الثقة فى الآخرين، والشعور بالحاجة إلى الأمان الشخصى، وأيضا سوء الظن، والعداء المتطرف، الذى يصحبه تأدب مبالغ فيه، فهى في رأيى سمات عربية.. وليست مصرية، فالمصرى من واقع تحليل أمثاله، الفلسفة التى تتبناها.. «متعاون» ولديه شعور فطرى بالأمان الناتج عن تدينه العميق، أيا كان دينه - وقد أسهبت سلفا في شرح ذلك لكن العقود الأخيرة التى انفتح فيها المصرى على العالم العربي.. وهاجر إلى النفط وأمواله باعداد بلغت الملايين، مغيرا من طبيعته الرافضة للغربة والإغتراب.. المنتمية إلى حد العشق والوله

لأرضه ووطنه، قد تأثرت إلى حد ما بالطابع العربى، أو بهذه السمة العربية.. لكنها - فى رأيى - لم تتجذر فى نفسه، ولم تتأصل فى ذاته، إلى الحد الذى يلغى حبه للتعاون والتكافل، وإيمانه بروح الجماعة، وشعوره بالانتماء والأمان فى بلده.. فهى - كما أرى - مرحلة لابد إلى انقضاء.. وسمة غير راسخة، لابد إلى زوال.. ويمكن بتخطيط وتوعية أن يعود المصرى المعاصر إلى طبيعته السمحة الطيبة غير العدوانية، التى أكدت الأمثال الشعبية أنها سمة سائدة فيها.

أما ما قاله «جاك بيرك» عن ولع العربى بالكلام الفنى المنمق متمثلا فى الخطب والشعر والأغانى.. وتفضيله القول على الفعل، وللكلمات على الأشياء.. فلا مفر من الاعتراف بأن المصرى المعاصر قد تأثر بذلك كثيرا.. حتى بات الاكتفاء بالتعبير عن الوطنية بالكلام ، والغناء ، والخطب الرنانة، بديلا عن البذل والتضحية بالدم في سبيل الوطن .. وإن كان لابد من الاستدراك هنا، والقول بأن المصرى مازالت وطنيته تظهر فى الشدائد التى تلم بوطنه وأهله، فيظهر من الفعل - وليس القول- ما لم يكن يتوقعه الملاحظ أو المراقب لسلوكه اليومى والفردى السائد الآن.

أما عن الميول العدوانية ، وسمة العداء - التى تناولتها د. فاطمة المصرى - فهى سمة عربية، لم يثبت تحليلى لفلسفة المثل الشعبى

المصرى أنها سمة مصرية، فالمصرى ميال للتسامح والتصالح، والمهادنة والملاينة، كفلسفة شعبية سائدة.. كما أن إرجاعها للميول العدوانية واستخدام التأدب كأسلوب أو وسيلة لإخفاء العداء، الناتج - فى رأيها - عن الفقر والكبت الجنسى والاقتصادى والسياسى، كمولد لهذا العداء.. فأراه ظاهرى أيضا، وآنى فقط، وعربى وليس مصرى، فمصر الفقيرة دائما، والتى عانى ويعانى شعبها من كل أشكال القهر والكبت، لم نجده ينفس - عبر تايخها الطويل - عن هذا القهر بالعدوان أو الميل له.. بل عبر عنه بالفنون الشعبية المختلفة، والتنفيس عنه بالسخرية، والنكتة اللاذعة، والتحسر على انقلاب الأحوال، وعدم التقدير لذات المصرى الكريمة، وأيضا ظهر هذا التنفيس فى الشجن الخفى، الذى يسكن نفس المصرى.. حتى فى لحظات سعادته على قلتها، كما ظل يظهر عبر القرون، كلما اشتد القهر فى لونين لا ثالث لهما هما: «التصوف» أو التدين المبالغ فيه، وفى «المجون» أو التحامق، والاستعلاء على الأمور بهذين الأسلوبين، وليس بالعداء والعدوانية والعنف.. والملاحظ لما يجتاح مصر الآن، من عنف وإرهاب وتطرف، لابد لو تتبع مصادره، ومصادر إذكائه وتمويله، ومنحه الشرعية، سيجد أنها مصادر غيرمصرية، قد تكون عربية، أو اسلامية (ممن يدعون الإسلام دون فهم مستنير لجوهره).. لكنها ابدا لم تكن مصرية، ولن تكن.. إنما هى

استغلالا للروح الطيبة، وللسذاجة والأمية المصرية المتفشية، ورد فعل مفتعل للقهر الذى طالما عانى منه المصريون، دون أن يجابهوه بالعنف والإرهاب.. إذن هى ظاهرة دخيلة وليست سمة أصيلة.

هذا وأرى أن التعبير عن الصداقة أو العداء لدى المصرى قد يبدو فى الكلام والمناقشات الحادة.. لكنه ابدا لم يكن حرق وقتل وسفك دماء.. إلا مؤخرا، وهو ظاهرة جديرة بالدراسة، قد تكون الأمية الثقافية، والنمطية والجمود فى التفكير، والتمسك بالموروث سببا لها.. لكنها على أى حال لم تبدأ – كظاهرة عامة فى مصر – إلا بالتطرف الدينى، الذى بدأ مؤخرا ولم يلتفت إليه إلا بعد حادث المنصة، وما تلاه من اغتيالات للشخصيات العامة، وسلسلة من العنف اجتاحت الحياة الاجتماعية المصرية، بدأت بمسلسل قتل الأزواج، الذى لا يتفق وطبيعة المرأة – والمرأة المصرية بالذات – انتهى بسلسلة من الجرائم التى تقطع صلة الرحم.. وتمزق الروابط الأسرية القوية، التى يعتز بها المصرى، ويعبر عنها فى أمثاله الشعبية، بوصفها عنصرا من عناصر الاستقرار، الذى ينشده لحياته بل ويعشقه.

وإذا كان «برجر» يرى أن الشخصية العربية بما فيها من عداء، وعدم طمأنينة، وسوء ظن، وغيرة وتنافس، يعوض عنها العربى بالتدين وأساليب الاستعطاف والكرم والتعاون.. فأنا – على ضوء دراستى

لسمات المصرى - أنزهه - واقعا وليس دفاعا - عن هذه السمات .. بل أرى فيه من السلبيات ما يتناقض مغ هذه السمات، فهو مستكين يبالغ في التواضع إلى حد المسكنة، وهو كثير ما يحسن الظن بالآخرين، ويتسامح معهم، بل إن المصرى الآن يفتقد إلى روح الغيرة والمنافسة الفاعلة، التي تجعله يعود إلى سابق عهده من الخلق والإبداع، والعمل الجميل الخلاق، والبناء، الذي يرجع به لمصر وجهها الحضارى الحقيقي.. ويعيد لنفسه سماتها الأصيلة.

من كل ما سبق نخلص إلى أن المصرى تأثر بالفتح العربى والاحتكاك بالعرب.. ولكن ليس إلى الحد الذى يمسخ شخصيته الأصيلة.. وقد عددنا ما يتفق فيه مع الشخصية العربية، وما يختلف فيها عنها.. وقد وضح من استعراضنا السالف للأمثال العامية المصرية أن هناك كثيرا منها من أصل عربى متداول، وقد بينت ذلك أمام كثير من الأمثال، ولا أجد غضاضة في هذا الفصل من ذكر كم من الأمثال العربية، التى مازالت تتداول بين العامة والخاصة المثقفة المصرية، إما بنصها، أو بمعناها.. وسنورد فيما يلي نماذجا للأمثال العربية المتداولة لفظا فى مصر وفقا لما ورد في «مجمع الأمثال» للميدانى، ولما استطعت جمعة بنفسى، من ألسنة العامة، ومن الكتابات والأحاديث الصحفية والإذاعية والتليفزيونية، وهى على سبيل المثال لا الحصر نصا:

- من نكث فإنما ينكث على نفسه.

- ما كل ما يتمناه المرء يدركه.

- السلطان من بعد عن السلطان.

- من راقب الناس مات هما.

- يكاد المريب يقول خذوني.

- رب العباد إذا وهب لا تسألن عن السبب (الرزق).

- مصائب قوم عند قوم فوائد.

- الدين هم بالليل.. وذلة بالنهار (قول للقمان الحكيم).

- شر البلية ما يضحك.

- كل إناء بما فيه ينضح (عن الأصل).

- تجوع الحرة.. ولا تأكل بثدييها.

- أبصر من زرقاء اليمامة.

- تطلب أثرا بعد عين.

- جوع كلبك يتبعك.

- أجود من حاتم.

- كن جميلا ترى الوجود جميلا (شعر متداول).

- عدو عاقل خير من صديق جاهل.

- الصديق عند الضيق.

- الحرب خدعة (حديث شريف).

- الحديث ذو شجون.

- من جد وجد.

- الحق ابلج والباطل لجلج.

- الحر حر ولو مسه الضر.

- أحبب حبيبك هونا ما.

- أحمق من هبنقة.

- إما عليها وإما لها.

- إذا أخصب الزمان جاء الغاوى والهاوى (أى الجراد والذباب).

- إنما الشئ كشكله.

- الطيور على أشكالها تقع (البيض الفاسد يتدحرج على بعضه).

- قل لى من صديقك أقل لك من أنت (له مرادف فرعونى ومرادف عامي مصرى).

- رب رمية من غير رام.

- كل فتاة بأبيها معجبة.

- ما لجرح بميت إيلام.

- من تأنى نال ما تمنى.

- الوقت من ذهب.

- باع كرمة ، واشترى معصرة.

- مكره أخوك لا بطل.

- يبقى على شعرة معاوية.

- كالشعرة التى قصمت ظهر البعير (كالقشة التى....).

- الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

- لو .. تفتح عمل الشيطان.

- لا يصح إلا الصحيح.

- الخلاف فى الرأى لا يفسد للود قضية.

- ليس من سمع كمن رأى (أو ليس الخبر كالعيان).

- لا يشكر الله من لا يشكر الناس (كان متداولا قبل قرن كأنه عامية).

- ما ضاع حق وراءه مطالب.

- قليل دائم خير من كثير منقطع.

- كل ممنوع مرغوب.

- تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن (أو تأتى الرياح........).

- تحصيل حاصل.

- المال الحرام لايدوم.

- القناعة كنز لا يفنى.

- رحم الله إمرئ عرف قدر نفسه وكفى الله شره (يكتفى الآن بالجزء الأول منه).

- الغاية تبرر الوسيلة (مبدأ مكيافيللى، وقد صار مثلا).

- الحاجة أم الأختراع.

- الجزاء من جنس العمل.

- العقل السليم فى الجسم السليم.

- خير صديق فى الوحدة كتاب.

- من علمنى حرفا صرت له عبدا.

- إن كنت لا تدرى فتلك مصيبة، وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم (شعر قديم).

- المساواة فى الظلم عدل.

- على الباغى تدور الدوائر.

- الإعتراف بالحق فضيلة (أو الرجوع للحق فضيلة).

- لقد سبق السيف العزل.

- وداونى بالتى كانت هى الداء.

- بلدى وإن جارت علىّ عزيزة (شطر من بيت شعر متداول).

- قد أعذر من آنذر (قول لمعاوية بن أبى سفيان، متدوال).

- سوء الظن من حسن الفطن (سوء الظن ليس سمة مصرية).

- إذا أنت أكرمت الكريم ملكته، وإذا أكرمت اللئيم تمردا (شعر متداول).

- لكل زمان دولة ورجال.

- طريق الألف ميل يبدأ بخطوة (مستحدث نسبيا).

- كل لبيب بالاشارة يفهم.

- إن أردت أن تطاع فأمر بمستطاع.

- كل يغنى على ليلاه.

- خادم القوم سيدهم.

- الشيء بالشيء يذكر.

- أول الغيث قطرة.

- من عرف لغة قوم أمن شرهم.

- سرك أسيرك فإن نطقت به كنت أسيره.

- صنعة في اليد أمان من الفقر (يكتفى بالجزء الأول فقط).

- كن ذئبا حتى لاتأكلك الذئاب.

- ياطبيب طب نفسك.

- وهل يصلح العطار ما أفسده الدهر؟!

- الشكوى لغير الله مذلة .

- كذب المنجمون ولو صدقوا .

- المصائب لا تأتى فرادى.

- لايفل الحديد إلا الحديد .

- العفو عند المقدرة.

- ما لا يدرك كله لايترك كله .

- يقطع الشك باليقين.

- كالمستجير من الرمضاء بالنار.

- يذيقه الأمرين (الفقر والهرم).

- زرغبا تزداد حباً.

- لو دامت لغيرك ما آلت إليك.

- المعنى فى بطن الشاعر .

- أسد على وفى الحروب نعامة.

- رجع بخفى حنين .

- العقد شريعة المتعاقدين.

- إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب (له أصل فرعونى أيضا).

- عند جهينة الخبر اليقين.

- قطعت جهيزة قول كل خطيب.

- إذا قالت حزامى فصدقوها ، فخير القول ما قالته حزامى .

(مختصرة   القول ما قالته حزامى).

- صدرك أوسع لسرك.

- الحسود لايسود .

- إذا أتتك مذمتى من ناقص ، فهى الشهادة لى بأنى كامل.

(شعر متداول)

- هل يفتى ومالك فى المدينة.

- إذا حضرت الملائكة ذهبت الشياطين.

- لكل مقام مقال .

- لا فى العير ولا فى النفير .

- لاتمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنىء فيجترىء عليك.

- إتق شر غضبة الحليم

- لاتنهه عن خلق وتأتى مثله .

- مقتل الرجل بين فكيه.

- ما أشبه الليلة بالبارحة (هناك مثل فرعونى عكس هذا المعنى).

- اليوم خمر ، وغداً أمر (من أقوال إمرىء القيس).

- من حفر حفرة لأخيه وقع فيها .

- داين تدان.

- عز من قنع وذل من طمع.

- جنت على نفسها براقش.

- سلاح الضعفاء الشكاية.

- أملك الناس لنفسه من كتم سره.

- لا تؤجل عمل اليوم للغد.

- على قدر أهل العزم تأتى العزائم (شعر متداول).

- من سل سيف البغى قتل به.

- الغضب ريح تهب فتطفىء سراج العقل.

- لا صديق لسيىء الأدب .

- المرء يعرف بأقرانه.

- إذا حسن البدء حسن الختام.

- رب ضارة نافعة.

- راح يدلى بدلوه .

- إذا عرف السبب بطل العجب.

- إذا حضر الماء بطل التيمم.

- عامل الناس كما تحب أن يعاملوك.

- حب لأخيك ما تحب لنفسك.

- الصحة تاج على رؤوس الأصحاء .. لايراه إلا المرضى .

- من طلب العلا سهر الليالى .

- إنما على الأرض القوى مسيطر :
- دعوة حق يراد بها باطل.
- بزيء براءة الذئب من دم بن يعقوب.
- رب صدفة خير من ألف ميعاد.
- خير الكلام ما قل ودل.

وكما توجد أمثال عربية متداولة نصا ولفظا بين العامة - أو لنقل بين الخاصة المثقفة المتعلمة حتى لانكون مبالغين - فهناك أمثال عربية متداولة معنى فقط ، بمعنى أن المصرى أعاد صياغتها بلهجته العامية ، أو التقط ما تقدم من صور ، وقدمها بمفرادته العامية ، ومن هذه النوعية عدد غير قليل من الأمثال ، نورد منها - على سبيل المثال أيضا.. وليس الحصر - النماذج التالية :

- إذا لم تستح فافعل ما شئت (المتداول : إللى ما يستحى يفعل ما يشتهى) .
- إياك أعنى وأسمعى يا جارة (المتداول : الكلام لك يا جارة وإنت عاملة حمارة).
- خلا لك الجو فبيضى وأصفرى (يكتفى بالقول : خلى لك الجو).
- أمران أحلاهما مر (يقابله : إختار أحسن الوحشين، أو: إيه إللى رماك على المر ، قال : إللى أمر منه) .

- ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل (يقابله : من برة هلا هلا .. ومن جوه يعلم الله) .

- جزيته كيل الصاع بالصاع (يقابله : كال له الصاع صاعين).

- حسبك من الشر سماعه (يقابله : إبعد عن الشر وغنى له).

- أنجز حر ما وعد (أو : وعد الحر دين عليه).

- من نام لايشعر بشجو الأرق (يقابله : عمر الشبعان ما يفت ، للجعان ، أو : إللى أيده في الماية مش زى إللى إيده فى النار).

- خالف تذكر (يقابله : خالف تعرف).

- أخنى عليه الذى أخنى على لبد (يقابله : أخنى عليه الدهر ، أو جار عليه الزمان).

- لاتكن يابساً فتكسر ولا لينا فتعصر (يقابله : إمسك العصايا من النص ، أو : خير الأمور الوسط).

- إذا لم تكن لى والزمان شر مبرم ، فلا خير فيك والزمان تراءى لى (شعر له صياغة حلمنتيشية عامية).

- إن غداً لناظره قريب (يقابله : بكره نقعد على الحيطة ونسمع العيطة).

- ألا من يشترى سهراً بنوم (يقابله: إشترى وجع قلبه بايديه).

- بلغ السيل الزبى (يقابله : فاض الكيل).

- رب ساع لقاعد (يقابله : إجرى يا مشكاح للي قاعد مرتاح).
- قلب له ظهر المجن (وراه الوش التانى).
- ابكي من يتيم (يقابله : متعلمش اليتيم بكا).
- حسبه صيداً فكان قيداً (يقابله : تيجى تصيده يصيدك).
- بطن جائع ووجه مدهون (يقابله : إملا بطنك بالتبن وإدهن بقك بالسمن).
- إبنه علي كتفه وهو يطلبه (يقابله : يبقى إبنى على كتفى وأدور عليه).
- بقدر السرور يكون التنغيص (يقابله : آخرة الضحك نكد).
- بعد البلاء يكون الثناء (يقابله : ما محبة إلا بعد عداوة).
- بذات فمه يفتضح الكذوب (يقابله : إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً).
- بشر مال الشحيح بحادث أو وارث (يقابله : مال الكنزى للنزهى).
- الهوى الهوان (يقابله : الحب بهدلة).
- هيهات تضرب فى حديد بارد (يقابله : أطرق الحديد هو سخن).
- أنم من زجاجة على ما فيها (يقابله : إللى فى قلبه على لسانه).
- ما كل ما يعلم يقال (يقابله الآن : ما كل ما يعرف يقال).
- العلم فى الصدور لا فى السطور (يقابله : العلم فى الراس مش فى الكراس).

- الوحدة خيـر من قـرين السـوء (المتداول الآن : الوحدة ولا رفيق السوء) .

- إذا كان سقفك من زجاج فلا ترم الآخرين بالحجارة (ياللى بيوتكم إزاز ليه ترموا الناس بالطوب ، أو : إللى بيته من إزاز ما يحدفش الناس بالطوب).

- من الالفة عدم الكلفة (يقابله : كتر الالفة ترفع الكلفة).

- يسب ويأسو (يجرح ويداوى).

- من له فى الغيب شىء ، إلا يناله (يقابله المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين) .

- رب أخ لم تلده أمك . يقابله (صديق صح أخير من أخ).

- رب مملـول لايستطاع فراقه (يقابله: لا أحبه .. ولا أقدر على بعده).

- بيضة اليوم خير من دجاجة الغد (يقابله : بيضتها ولا ليلتها).

- كل شاه برجلها معلقة (يقابله : كل واحد معلق من عرقوبه).

- كل إناء يرشح ما فيه (متداول : كل إناء بما فيه ينضح).

- لن يهلك إمرىء عرف قدره (المتداول : رحم الله إمريء عرف قدر نفسه).

- لما إشتد ساعده رمانى (ويسبقه أحياناً : علمته الرمى .. ويقابله: علمناهم الشحاتة سبقونا ع الأبواب).

- لا ناقتى فى هذا ولا جملى (المتداول : لا ناقة له فيها ولا جمل).

- لا ينفع حذر من قدر (يقابله : الحذر ما يمنعش قدر).

- لايذهب العرف بين الله والناس (المتداول : لايذهب المعروف ، أو المعروف مبيضعش).

- مات حتف أنفه (المتداول : رغم أنفه).

- المزاحة تذهب المهابة (يقابله : الهزار يقل المقدار).

- من صدق الله نجا (يقابله : الصدق منجى).

- من أشبه أباه فما ظلم (المتداول : من شابه أباه فما ظلم).

- المرأة من المرء ، وكل أدماء من أدم (متداول : كلنا ولاد أدم).

- إذا ذهب الحياء حل البلاء (المتداول : إذا لم تستح فافعل ما شئت).

- ما يحك جلدى مثل ظفرى (يقابله : ما يهرش لك إلا إيدك).

- معظم النار من مستصغر الشرر (يقابله : تقاوى البلاوى كلمتين فارغين).

- علَّى أن أسعى وليس علىَّ إدراك النجاح (يقابله: هو أنا مغسل وضامن جنة؟!).

مما سبق من نماذج نستطيع القول بأن الشخصية المصرية - كما سلف ذكره في بداية هذا الفصل وفي الفصل الأول من هذا الكتاب -

تأثرت على حد قول د. ميلاد حنا بالفتح العربى كرقيقة من الرقائق الحضارية، التى تعاقبت على مصر - وأتفق معه فى ذلك - موضحة أنه مجرد تأثر بالاحتكاك واللغة والدين ، وليس إعادة خلق للشخصية المصرية الأصيلة ، والمتفردة والعبقرية .. بل لعله من نافلة القول أن أكرر ما ذهب إليه من قبلى كثيرون ، ممن قالوا بأن مصر لاتذوب فى الآخرين .. ولكن الآخرين هم من يذوبون وينصهرون في بوتقتها .. فهى تؤثر أكثر مما تتأثر ، وهذا سرها ولغزها !! الذى حاول ثبر غوره الكثيرون ، ممن حاولوا معرفة كنهه وأسبابه ، ولم يصلوا إلى سبب .. سوى أنها مصر العظيمة وشعبها العظيم .. لماذا ؟!! لايسعنا إلا الرد بالقول السائر الآن : «من غير ليه !!» .. أو لعل هناك مبررات ترد على هذا الإستفسار .. ليس مجالها هذا البحث ، ولذلك أشرت إلى الجوانب التي تأثر فيها المصرى بالعربى ، ومن يريد أن يدرك كم التأثير والتأثر بين الشخصية المصرية والشخصية العربية ، فعليه بالعديد من الكتابات الأخرى ، وفى مقدمتها كتاب السيد يسين «الشخصية العربية بين صورة الذات ومفهوم الآخر» وفيه مقارنات شتى بين سمات الشخصية العربية والصورة الذهنية المنطبعة عن العرب فى الغرب بدوله المختلفة .. ويرصد تكرارات مجدولة ومرتبة تنازليا لسمات الشخصية العربية ، يستعرض فيها معيشتهم البدوية ومستواها المنخفض، ومدى تفككهم

والتنافس فيما بينهم ومستوى تعليمهم المنخفض، وإتسامهم بعدم الأمانة وبأنه لايوثق بهم ، وكيف تسود بينهم إتجاهات غير ديمقراطية ، وأن حقوق النساء العربيات قليلة، كل ذلك فى مقابل إشارات طفيفة إلى بعض الصفات الطيبة للعرب (★) .

كما تجدر الإشارة هنا - قبل أن نختتم هذا الفصل إلى ضرورة الرجوع إلى عدد ممتاز أصدرته مجلة «الفكر المعاصر القاهرية» (★★) بعنوان «الشخصية المصرية» تناول فيه عدد من الباحثين فى دراسات متنوعة شخصيتنا القومية، ومحاولات نقد الذات ، والطابع القومى للشخصية ، ومصر النهرية ، والشخصية المصرية بين الإيجابية والسلبية ، وظاهرة الموت في حياة المصريين، وشخصيتنا بين القدرية والتواكلية ، ونحن وظاهرة الإغتراب ونزعة الإبتعاد عن الواقع ، وشخصيتنا من المأثورات الشعبية، وملامح من شخصية المرأة المصرية.. وبالمقارنة بين شتى الدراسات التى تناولت الشخصية المصرية والشخصية العربية ككل ، أو الصور الفرعية منها، يستطيع من يريد ، أن يكتشف المقارنة بين كلا الشخصيتين، وأيهما أقوى وأكثر تحديداً ، وأكثر تأثيراً فى الأخرى ، فالبعض يرى أن مصر بما كانت تمتلك - ومازالت - منذ بداية القرن الموشك على الإنتهاء - من وسائل إتصال :

(★) السيد ياسين المرجع المشار إليه ص ١١٨ مكتبة مدبولى الطبعة الرابعة ١٩٩١ .

(★★) ابريل ١٩٦٩ .

صحف وإذاعة وسينما وتليفزيون ، قد اثرت فى الشخصية العربية ، والمفاهيم السائدة فيها، وفي فنونها ولهجاتها بأكثر مما حدث لها من تأثر خلال ١٤ قرنا مضوا .. وعلى أى حال فمجال البحث مفتوح على مصراعيه ، لمن يريد إثبات ذلك أو دحضه، بالدراسة والتحليل لشتى المظاهر السلوكية ، والفنون والآداب الشعبى منها والفصيح.

هذا ولعل الدراسات التى أجريت بعد هزيمة ١٩٦٧ حول الشخصية القومية العربية، باعتبارها من بين عوامل الهزيمة، وحاولت نقد الذات العربية والمصرية ، من منطلق كونها ككل شخصية «فهلوية» وأعمق هذه الدراسات هى كتاب صادق جلال العظيم «النقد الذاتى بعد الهزيمة» ، الذى رأى فيه أن الشخصية العربية تميل إلى إزاحة المسئولية عن النفس وإسقاطها على الغير، منطلقة من المنطق التبريرى.

هذا وقد أفاض د. حامد عمار فى دراسته المسماة: «الشخصية الفهلوية» ، فى إطار دراسة متكاملة جعل لها عنواناً «التربية الإجتماعية للشخصية» ووضع لهذه الشخصية «الفهلوية» سمات أساسية نذكر منها «التكيف السريع لمختلف المواقف، وإدراك ما تتطلبه من إستجابات مرغوبة ، والتصرف وفقاً لمقتضياتها ، إلى الحد الذى يراه مناسباً» وتتميز هذه القدرة على التكيف السريع بالمرونة ، والفطنة ، والمسايرة السطحية ، والمجاملة العابرة، التى يقصد بها تغطية الموقف ، وتورية

المشاعر الحقيقية، بمعنى عدم وجود ارتباط حقيقى بين ما يقوله المرء وما يقوم به من مظاهر سلوكية – وهو ما ذهبت إليه فى هذا البحث ، حينما تناولت سمة «ذكى فطن» -- كما ذكر حامد عمار من السمات الفرعية للشخصية الفهلوية : النكتة المواتية كخاصية يتميز بها النمط المصرى – وهو ما ذكرته فى الحديث عن سمة «ساخر» – وهو أيضا ما أفرد له عادل حمودة كتاباخاص ، تعرضت لبعض أفكاره فى الفصل الأول .

كذلك ذكر حامد عمار : المبالغة في تأكيد الذات، والميل الملح إلى إظهار القدرة الفائقة ، والتحكم فى الأمور – وقد تعرضت لهذا أيضا، كسمة فرعية للسمة المصرية الأصلية السائدة «طيب عفوي»، التى تفرع عنها «تلقائى ومبالغ» فى كل الأمور ، فى الحزن والفرح، والعطاء، والكرم ، وتأكيد الذات ، أى مبالغ بوجه عام.

أما عن سمة «سيادة النظرة الرومانتيكية للمساواة ، حيث يشعر المصرى في قرارة نفسه بالنقمة والسخط على الأوضاع، والتفرقة أى كان نوعها ، أو دوافعها ومبرراتها ، وإتصال ذلك بعدم الاعتراف بالسلطة أو الرئاسة ، والتنكر لها فى أعماق الشعور».. فقد تناولتها أيضاً فى مناقشتى لسمة «ساخر» ، وسمة «سلطاوى» أى يحترم من هم أكبر منه ، ويخشى كل أشكال السلطة ، الأبوى منها والسلطاوى

الحاكم .. وإن كان يسخر من السلطة ، ومن حكامه فهو يهادنهم ، ويخشاهم .. ولكن لا يحبهم ولا يحترمهم فى قرارة نفسه .. حتى إذا أحب حاكمه – كما هو الحال فى فترات القيادة الكرزمية (مثل الحقبة الناصرية) – فقد كان عبد الناصر محبوباً ، وله هَيبته .. ولكن الأمر لم يخلوا من نكات ساخرة منه ، ومن عصره ، وقد أوضح ذلك وأسهب فيه عادل حمودة فى كتابه المشار إليه سلفاً «كيف يسخر المصريون من حكامهم؟».

أما عن الطمأنينة إلى العمل الفردى وإيثاره على العمل الجماعى كسمة مكملة للشخصية الفهلوية –.فقد أشرت سلفاً إلى أن نتائج هذا البحث لم تؤكدها ، لأن المصرى من واقع تحليل أمثاله الشعبية «متعاون».. وطالما شارك فى أعمال جماعية خالدة ، وقد أوضحت عدم إتفاقى مع من قالوا : بفردية المصرى ، إذ أراها سمة دخيلة تتعلق بالحياة المادية للمصرى ، الذى تؤكد أمثاله كراهيته للشراكة .. لكنه بصفة عامة محب للآخرين ومتعاون ، وإن بدأت تظهر هذه النزعة الفردية مؤخراً ، فهى سمة دخيلة ومستحدثة ، قد تسود إذا ما استمر المد المادى وطغى .. أما إذا حدث وعاد المصرى لأصالته ؛ بقليل من التوعية وتبدل الظروف .. فستتأكد عنه سماته الأصيلة ، البعيدة عن هذا الإتجاه .

كذلك الحال بالنسبة لسيادة الرغبة فى الوصول إلى الهدف بأقصر الطرق وأسرعها ، وعدم الإعتراف بالمسالك الطبيعية ، وهى ظاهرة لا سبيل إلى إنكارها .. لكنها مستحدثة .. إذ لم تثبت من خلال تحليل الأمثال الشعبية ، التى أكدت أن المصرى «متأنى» يكره التعجل ، وأنه «متقن لعمله يعلى قيمة العلم والعقل ، والأصل ، والعمل الطيب على قيمة المال .. ويفرق بدقة بين الحلال والحرام ، ويكره الحرام ، ويرى فيه انعدام البركة ، وزوال الخير كله ؛ ولذلك فهذه السمة الدخيلة أرجعها إلى العقود الأخيرة ، التى طغت فيها الماديات على المعنويات .. لكننى أتصور أنه لو أجرى آخر على التعبيرات الشعبية المستحدثة والسائدة الآن بين الشباب .. بل وبين كثير من فئات الشعب المصرى .. فربما تثبت مثل هذه الدراسة بروز هذه السمة الأخيرة .

ويؤكد ذلك أيضاً أن حامد عمار نفسه .

«بحسه المنهجى الدقيق ، حرص على أن يورد تحفظات متعددة بصدد هذا (النموذج المثالى) الذى صاغه ، وإعتبره مجرد (فرض) يحتاج إلى مزيد من المناقشة واستكمال الأدلة التى تثبته أو تدحضه، ومن ناحية أخرى آكد أن هذه السمات جميعاً هى وليدة الظروف السياسية والإجتماعية والإقتصادية ، وأنواع المؤسسات والنظم التى ترتب كيـان المجتمع وأنها ليسـت مقومات (طبيعية) فى المصرى

نشأت ونمت وستظل هى مقوماته أبداً ، وإنما هى قابلة للتغيير والتحوير» (١).

وفى هذا الإستشهاد دليلاً أخر على ما ذهبت إليه فى هذه الدراسة .. والتى أتعشم أن يتاح لى أن أعقبها بدراسة أخرى .. بدأت بالفعل فى تجميع مادتها لتحليل مضمون الأقوال والتعبيرات ، والتشبيهات ، والكنايات العامية المصرية ، وخاصة المستحدث منها .. بوصفه المعبر عن الفلسفة الحديثة للشعب المصرى، التى تؤكد بقاء بعض السمات السالفة الذكر ، وتنحى بعضها الآخر ، وتوضح الإنقلاب القيمى المصرى ، وإعادة ترتيب أولوياته أو إعادة ترتيب السلم القيمى المصرى.

---

(١) سيد يسين ، الشخصية العربية ، ص٢٢٦

الفصل الخامس

الأمثال القرآنية المتداولة بين العامة

إذا كانت أبرز سمات المصرى هى : «متدين» - وقد استعرضنا سلفاً كم الأمثال العامية المصرية المعبرة عن هذه السمة، بكل ملامحها الفرعية - فلا شك أن الأمثال العربية التى مازالت تتداول على ألسنة المصريين قد عكست أيضاً - فى جانب منها - سمة «متدين» - كما أن المدقق لما يتواتر على ألسنة العامة فى مصر من أمثال فصيحة سيجد أن غالبيتها مأخوذة عن نصوص قرآنية ، أو أحاديث نبوية .. وقد أشرت باقتضاب أمام بعض الأمثلة التى يتصور البعض من شدة ذيوعها أنها عامية - أشرت إلى أنها حديث نبوى متداول ، أو اية قرآنية متداول .. لكنى أفرد هذا الفصل لهذه النوعية بالذات من الأمثال نظراً لأهميتها ؛ ولأنها تعبر عن أهم سمات الشخصية المصرية ؛ ولأنها تعتبر من المداخل الإقناعية التى يستخدمها المصريون للوصول إلى أهدافهم مباشرة ، ملخصين الحكمة كلها فى عبارة قرآنية ، صارت مثلا من

كثرة التداول ، أو سنة نبوية لخصها الحديث الشريف فى عبارة وجيزة أقرب إلى الحكمة المصفاة .. مع ما فيها من صور تكاد تكون محسوسة لأمور معنوية مجردة .. أراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يلج بها إلى النفوس الحائرة حول أمور كثيرة .. فنجح من خلالها فى الوصول – ليس فقط – إلى القلوب والمشاعر والعواطف . ولكن حقق باستخدامه لها اقتناعاً عقلياً ، وإستقراراً عميقاً فى الوجدان .. دون أن يخاطب مباشراً بعبارات إرشادية مباشرة .. وإن لم يخل الأمر أحياناً من استخدام الخطاب المباشر ، الذى تحول إلى حكمة من كثرة تكراره على الألسنة بأسلوب تقريرى؛ كالقول : «النظافة من الإيمان»، أو «الطهارة شطر الإيمان» ، لكنه قد حقق بإتجاهيه التصويرى أو التقريرى – بعد أن صار مثلاً يضربه كل مؤمن – حقق بأقصر الطرق وأيسرها .. إقتناعاً عقلياً وعاطفياً ، رصده كثير من الباحثين فى الدراسات الإسلامية والإعلامية فى آن واحد (★).

هذا وسنلاحظ أن الأمثال المستقاة من آيات القرآن وأحاديث الرسول ﷺ ، قد نجحت بإعجاز فى أن تربط القضية أو الفكرة التى تتناولها بأشـــياء محسوسـة فى الواقع المعاش ، كما أنها – أى الأمثال

(★) للإستزادة في هذا الصدد راجع إحسان عسكر (دكتور – فنون التبليغ القرآني ونظرياته)، دار النهضة العربية ، ١٩٨٦، وراجع أيضاً: سيد قطب، التصوير القرآني، منشورات دار المعارف، الطبعة العاشرة.

- كأسلوب تعبير قد جاءت متفقة تماماً مع طبيعة الإنسان ، الميالة إلى سـماع الأمثال ، وحفظها ، وترديدها ، وحبه لهذا النسق من الصـياغة ، لمـا تتمتع به من جمال الأسلوب ، وسلامة العبارة، ودقة الألفاظ ، و«إصابتها للمعنـى ، وطرفاتها التـى تتجدد ولا تبلى» (١)؛ ولذلك يقبل عليها ، ويسلم بحكمها ، ويقوم بتعديل سلوكه وتصرفاته وفقا لمطلوبها؛ لأنها تلخص له المواقف الواقعية وتبسطها فى صور مكثفة.

هذا وقد أكد القرآن الكريم على أهمية الأمثال ؛بوصفها صيغة تساعد على إعمال الذهن والفكر ، وأيضاً ترشيد السلوك، وتربية الحس النقدى ، كما أنها - كعبارات تصويرية - تثير حب الاستطلاع والرغبة فى التأمل .. رغم أن الأمثال القرآنية تتميز بالاسلوب الواضح الذى يبسط الحقائق ، ويورد الأدلة والبراهين بما يقنع العقل .

وقبل أن نبدأ فى استعراض الأمثال المستقاة من القرآن، تجدر الإشارة إلى الآيات القرآنية التى تتحدث عن الأمثال كوسيلة شحذ للفكر مثل قوله تعالى :

«وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون» (٢).

وقوله تعالى :

---

(١) د. عبد الغني بركة ، أسلوب الدعوة القرآنية ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ص ٢٩٩.

(٢) سورة الحشر ، آية ٢١.

«وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم» (١).

- «وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»(٢).

- «ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب» (٣).

- «فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال» (سورة الرعد : الآية ١٧).

- «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء» «سورة إبراهيم : الآية ٢٤» (مثل تصويرى).

- «ويضـــرب الله الأمثـال للناس لعلهم يتذكرون » (سورة ابراهيم الآية ٢٥) وأيضا (وضـربنا لكم الأمثال) (سورة ابراهيم ، الآية ٤٥)

- «فلا تضربوا لله الأمـثال إن اللــه يعـلم وأنتم لا تعلمون» (سورة النحل : اية ٧٤)

- «ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً....» (سورة النحل : الآية ٧٥) .

- و«ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا ...» (سورة النحل : الآية ١١٢) .

---

(١) سورة يس ، الآيتان ٧٨، ٧٩ .

(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٣ .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٣ .

- «أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فَضَلُّوا فلا يستطيعون سبيلا» «سورة الإسراء : الآية ٤٨» .

وإذا أردنا تتبع سور القرآن الكريم وآياته لاستخراج ما ضرب فيها من أمثال ، لخرجنا بكتاب كامل فى هذا الموضوع.. لكنى هنا أعطى نماذج وأمثلة فقط .. كما أنى سأورد ما صار مثلا بالعبارة المتداولة بين العامة - وليس بما صوره القرآن - من صور تمثيلية أو تشبيهية ؛ ليقرب فكرة ما من الأذهان ؛ ولذلك كان لابد من الاستدراك هنا؛ لتحديد ما سنعتبره مثلاً ، وما سنعتبره تصويراً قرآنياً بليغاً وقديراً كصورة ؛ وليس كعبارة موجزة، مختصرة، دالة ، أقرب إلى التعريفات الخاصة بالأمثال الشعبية ، من حيث الإيجاز ، والحكمة، والتكثيف ، والشرطية والسببية ، والبلاغة ، ومما سبق أن أشرنا إليه فى الفصل الثانى من هذا الكتاب تعريفا للأمثال .

وعوضا عن الاسترسال في الشرح والإفاضة فى إيضاح ما نرمى إليه ، نلج مباشرة إلى صلب ما نقصده ، ونرجىء التعليق عليه إلى نهاية هذا الفصل ، الذى أعتبره مسك الختام لهذه الدراسة، التى أرجو أن تكون منطلقاً جيداً لغيرى من الباحثين المتخصصين، كل فى مجاله؛ كى يعمق هذه الفصول؛ لتصير كتباً وبحوثاً مستفيضة ومفيدة فى آن معاً.

فعن الأمثال المتداولة بين الناس ، والمأخوذة عن نص قرآني، نجد أن الإنسان المصرى - «المتدين» و«الذكى» فى آن واحد - قد استطاع باقتدار انتقاء ما يصلح مثلاً ، فحتى الآيات السابقة التى تتناول الأمثال التصويرية ، نجده اختزلها، واختار خلاصتها؛ لتصير مثلا على لسانه كالاكتفاء بالقول : «ضعف الطالب والمطلوب» أو «يحيى العظام وهى رميم»، محتفظاً باللفظ أو المنطوق القرآنى وبنفس صياغته ، ونجده أحياناً يقتبس المعنى فقط ، ويعيد صياغته بعاميته القريبة من وجدانه والأيسر على لسانه فيقول : «الله أعلم» عوضا عن قوله تعالى : «وهو بكل خلق عليم» .. فالمعنى واحد .. وإن كان المنطوق المتداول أشمل ، من حيث هو تلخيص وتعميم فى آن واحد ، لتكرار اسم الله العليم بكل شيء بخلقه ، وبالغيب ، وبالصيرورة .... وباللانهاية، فهو اختزال معجز وجامع مانع ، يحسب للمصرى المؤمن والذكى معاً ؛ ولذلك سوف أورد النص القرآنى المأخوذ عنه المثل ، وفى مقابله ما يتردد على الألسنة، إذا كان مختلفاً عنه ولو فى حرف واحد، أو تحريف له بالإضافة أو الحذف، أو تغيير تركيب الجملة وصياغتها ، كما سيتضح فيما يلى لما ورد فى بعض سور القرآن الكريم :

- «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» (سورة البقرة : آيه ٢١٦، وفى نفس المعنى سورة النساء : الآية ١٩).

- «.. ولكن الله يفعل ما يريد» (سورة البقرة ، الآية ٢٥٣) (ويقول العامة، أنت تريد وأنا أريد ، والله يفعل ما يريد).

- «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى» (سورة البقرة : الآية ٢٥٦) (ويكتفى بالجزء الأول من الالآية).

- «.. بلى ولكن ليطمئن قلبى» (سورة البقرة : الآية ٢٦٠) (متداولة كما هى تقريباً).

- «ولا هم يحزنون» (سورة البقرة : الآيات ، ٢٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧، وسورة آل عمران : الآية ١٧٠ ، وسورة المائدة : الآية ٦٩ ، سورة الأنعام : الآية ٤٨ ، سورة الأعراف : الآية ٣٥ ، سورة يونس : الآية ٦٢ .... إلخ).

- «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى حليم» (سورة البقرة : الآية ٢٦٣) (يتداول جزء منها وأحياناً يكتفى بالقول : «الله الغنى»).

- «يؤتى الحكمة من يشاء» (سورة البقرة الآية ٢٦٩).

- «وأمره إلى الله» (سورة البقرة : الآية ٢٧٥).

- «.. فنظرة إلى ميسرة» (سورة البقرة : الآية ٢٨٠).

- «ولا تكتموا الشهادة» (سورة البقرة : الآية ٢٨٣).

- «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» (سورة البقرة: الآية ٢٨٦) وأيضاً «لا نكلف نفساً إلا وسعها» (سورة الأنعام : الآية ١٥٢) (سورة الأعراف : الآية ٤٢).

- «.. وترزق من تشاء بغير حساب» (سورة آل عمران : الآية ٢٧) (ويقال، يرزق من ....).

- «إن الله يـرزق من يشـاء بغيـر حسـاب» (سورة آل عمران : الآية ٣٧).

- «إذا قضـى أمـراً فإنما يقول له كن فيكون» (سورة آل عمران : الآية ٤٧).

- «.. موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور» (سورة آل عمران: الآية ١١٩) (المتداول ، موتوا بغيظكم أيها الكافرون).

- «..وتلك الأيام نداولها بين الناس» (سورة آل عمران: الآية ١٤٠).

- «حسـبنا اللـه ونعـم الوكيل» (سورة آل عمران: الآية ١٧٣) (دعاء متداول).

- «كل نفس ذائقة الموت ... وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور (سورة آل عمران : الآية ١٨٥).

- «فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير» (سورة النساء : الآية ١٢٨) (ويكتفى الآن بالجزء الأخير فقط).

- «الرجال قوامون على النساء ...» (سورة النساء الآية ٣٤) .

- «أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن» (سورة المائدة ، الآية ٤٥) (ويكتفى بالقول : العين بالعين والسن بالسن ، وهو انتقاء ذكى) .

- «لايخافون لومة لائم» (سورة المائدة ، الآية ٥٤) .

- «عفا الله عما سلف» (سورة المائدة ، الآية ٩٥) .

- «ما على الرسول إلا البلاغ» (سورة المائدة ، الآية ٩٩) .

- «لاتسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم» (سورة المائدة ، الآية ١٠١).

- «فقطع دابر القوم الذين ظلموا ...» (سورة الأنعام ، الآية ٤٥) وأيضا «وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين» (سورة الأعراف ، الآية ٧٢) ، «ويقطع دابر الكافرين» (سورة الأنفال ، الآية ٧)، (التعبير ، يقطع دابر .. متداول بين العامة) .

- «قل هل يستوى الأعمى والبصير ...» (سورة الأنعام ، الآية ٥٠) وأيضاً : «قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور» (سورة الرعد ، الآية ١٦) .

- «ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين» (سورة الأنعام ، الآية ١٤١) (المتداول ، الله لا يحب المسرفين) .

- «ولا تزر وازرة وزر أخرى ...» (سورة الأنعام ، الآية ١٦٤ . سورة الإسراء ، الآية ١٥) .

- «أتقولون على الله ما لا تعلمون» (سورة الأعراف ، الآية ٢٨) .

- «.. وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ...» (سورة الأعراف ، الآية ٣١) .

– «ما نزل الله بها من سلطان ...» (سورة الأعراف ، الآية ٧١) ويتداول : «ما أنزل الله بها من سلطان» (سورة يوسف ، الآية ٤٠)

– «فلا تشمت بى الأعداء ...» (سورة الأعراف ، الآية ١٥٠) .

– «.. وأصلحوا ذات بينكم إن كنتم مؤمنين» (سورة الأنفال ، الآية ١).

– «فلا تولوهم الأدبار» (سورة الأنفال ، الآية ١٥) .

– «ليقضى الله أمرا كان مفعولا» (سورة الأنفال ، الآيتان : ٤٢ ، ٤٤) .

– «ولكن الله سلم ...» (سورة الأنفال ، الآية ٤٣) .

– «.. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين» (سورة الأنفال ، الآية ٤٦) وأيضا : «والله مع الصابرين» (سورة الأنفال ، الآية ٦٦) .

– «.. وأن الله ليس بظلاّم للعبيد» (سورة الأنفال ، الآية ٥١) .

– «.. ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الأنفال ، الآية ٥٣) ، والمتداول : «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (سورة الرعد ، الآية ١١) .

– «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله» (سورة الأنفال الآية ٦١) .

– «لا تحزن إن الله معنا» (سورة التوبة ، الآية ٤٠) . «قل لن

يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون» (سورة التوبة ، الآية ٥١) .

- «ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج» (سورة التوبة الالآية ٩١) (المتداول : ليس على المريض حرج) .

- «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً...» (سورة التوبة اية ٩٧) معنى : العرب جرب ، ويا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق) .

- «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ...» (سورة التوبة ، الآية ١٠٥) .

- «أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع» (سورة يونس الآية ٣٥) .

- «وأنا برىء مما تعملون» (سورة يونس ، الآية ٤١) .

- «إن وعد الله حق» (سورة يونس ، الآية ٥٥) .

- «ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون» (سورة يونس ، الآية ٨٢) .

- «وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ...» (سورة يونس ، الآية ١٠٧) .

- «فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها» (سورة يونس ، الآية ١٠٨، ونفس المعنى فى سورة الإسراء، الآية ١٥).

- «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا» (سورة هود ، الآية ١٨)
- «بسم الله مجراها ومرساها» (سورة هود ، الآية ٤١) .
- «وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» (سورة هود الآية ٨٨) .
- «إن الحسنات يذهبن السيئات» (سورة هود ، الآية ١١٤) .
- «فأدلى دلوه...» (سورة يوسف، الآية ١٩) (المتداول: أدلى دلوه) .
- «وشهد شاهد من أهلها» (سورة يوسف ، الآية ٢٦) .
- «إن كيدكن عظيم» (سورة يوسف ، الآية ٢٨) (المتداول تعميم على كل نساء الأرض ، إن كيدهن عظيم) .
- «حاش لله» (سورة يوسف ، الآيتان : ٣١ ، ٥١) .
- «أضغاث أحلام» (سورة يوسف ، الآية ٤٤) (تعبير دارج وليس مثل) .
- «إن النفس لأمّارة بالسوء» (سورة يوسف ، الآية ٥٣) .
- «إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها» (سورة يوسف ، الآية ٦٨) (متداولة بدون كلمة قضاها) .
- «أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين» (سورة يوسف ، الآية ٩٩) وأيضاً : «أدخلوها بسلام آمنين» (سورة الحجر ، الآية ٤٦) .
- «ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (سورة الرعد ، الآية ٢٨) .

- إن الله لا يخلف الميعاد» (سورة الرعد ، الآية ٣١) .

- «لكل أجل كتاب» (سورة الرعد ، الآية ٣٨) (متداولة كما هى تماماً) .

- «لئن شكرتم لأزيدنكم» (سورة إبراهيم ، الآية ٧) .

- «فيه شفاء للناس» (سورة النحل ، الآية ٦٩) .

- «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» (سورة الإسراء ، الآية ٧) .

- «وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا» (سورة الإسراء ، الآية ١٥) .

- «فأولئك كان سعيهم مشكوراً» (سورة الإسراء ، الآية ١٩) (والمتداول : سعيكم مشكور ، وتقال فى مناسبات العزاء) .

- «ولا تبذر تبذيرا» (سورة الإسراء ، الآية ٢٦) ، «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين...» (سورة الإسراء ، الآية ٢٧) .

- «ولاتجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا» (سورة الإسراء ، الآية ٢٩) .

- «إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً» (سورة الإسراء ، الآية ٣٠) .

- «إن العهد كان مسئولاً» (سورة الإسراء ، الآية ٣٤) .

- «وأضل سبيلا» (سورة الإسراء ، الآية ٧٢) (متداولة كما هى

وتضرب فيما هو أسوأ) .

- «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» (سورة الإسراء، الآية ٨١) .

- «قل كل يعمل على شاكلته ...» (سورة الإسراء ، الآية ٨٤) .

تلك كانت نماذج من آيات الله المحكمات ، التى استقى منها الوجدان المصرى أمثالاً ، يضربها فى مواقف مختلفة ، وتعبيرات سادت على ألسنة العامة من الناس ، والخاصة المتعلمة والمتدينة ، وأيضاً تشبيهات وكنايات ، وصورا بلاغية استخدمت وكأنها عامية دارجة .. بل إن البعض قد لا يدرك وهو يرددها مرجعها ، أو من أين استقاها؟!! وتلك مقدرة مصرية أثرت اللهجة ، ومنحتها بعداً لغوياً جميلاً ، إلى جانب البعد الإيمانى ، والثراء اللفظى ، والتصوير اللغوى المعبر ، وقد آثرت هنا إيرادها - على سبيل المثال لا الحصر - مرتبة وفقا لورودها فى المصحف ، وليس وفقاً لمضاربها أو استخداماتها ؛ لأن موضوع تصنيفها وفقاً للموضوعات أمره وشرحه يطول .. أتمنى أن يتحقق لى أو لغيرى من الباحثين فى كتاب آخر .. وما أردته فقط هو التأكيد على أن المصرى قد تأثر كثيراً بأمثال العرب وأخذ منها - كما وضح فى الفصل السابق - كما تأثر أكثر بآيات القرآن وأخذ عنها بعض التعبيرات ، والحكم والأمثال ، ورددها وأبرزها وأكد عليها لأنها اتفقت مع اقتناعاته وفلسفته الخاصة ، وأكدت كغيرها من الأمثال العربية

الفصحى والعامية أو الشعبية على الكثير من سماته ، والمتتبع لها – كما وردت سلفاً – سيجدها تتناول تباعاً موضوعات : إعلاء إرادة الله وتأكيد سمة مؤمن ومتدين وإتكالي ، وموضوع إيمانه بالحرية ، وبأنه «لا إكراه فى الدين» ، ورفضه للمن والأذى ، وإيمانه بأن الأمر لله من قبل ومن بعد ، وأن الهدى من عنده ، فهو يهدى من يشاء كما «يؤتى الحكمة من يشاء» ولا يكلف نفساً إلا وسعها ، ويأمرنا بشكل مباشر بعدم كتم الشهادة ، كما يأمر بقوامة الرجل على المرأة ، وإصلاح ذات البين ف «الصلح خير» ، ويؤمن بالجزاء لأن «العين بالعين والسن بالسن» ، و«أن الله يرزق من يشاء بغير حساب» وهذا يتسق وإيمان المصرى المطلق بأن الرزق من عنده ، وأن «كل نفس ذائقة الموت» و«لكل أجل كتاب» .

هذا وقد تمسك المصرى بآيات التى تتسق وتسامحه فردد «عفا الله عما سلف» و«إذا جنحوا للسلم فأجنح لها» ، كما ردد ما يتسق وإيمانه بالعدل والحق ، وضرورة أن لايخاف فى قول الحق «لومة لائم» وأن «الحق أحق أن يتبع» ، وأن «وعد الله حق» ، و«أن الله لايخلف الميعاد» ، وأن يقطع دابر القوم الذين ظلموا ، كما تمسك بالآيات الداعية لعدم الإسراف والتبذير ، والداعية للصبر ، والمطمئنة إلى «ان الله مع الصابرين» ، و«إن الله معنا» ، وردد الايات المؤكدة على أن كل مايصيب المرء من عند الله ويأمره ؛ ولذا يجب التوكل عليه ، وذلك فى قوله تعالى :

«قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا» ، وقوله : «إن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو» ، كما ردد المصرى وكتب وعلق لافتات فى عمله أو حانوته ، أو فوق سيارته – إذا كانت مصدراً لرزقة – مما يؤكد إيمانه بكل ذلك ، وإيمانه بالعمل ، وضرورة إتقانه ، وقناعته بأن الله : «يرى عملكم رسوله والمؤمنون» ، مع الإيمان بأنه «بسم الله مجراها ومرساها» وأنه «ماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» ... إلى آخر ما ورد فيما ذكرت من آيات ، وما حواه القرآن الكريم من حكم ، تمسك بها المصرى ووضعها نصب عينيه ، وصارت مثلاً على لسانه .

هذا وسيلاحظ المطالع لهذه الآيات ، أن المصرى قد اختار من عبارات القرآن أيضاً تعبيرات سائدة فى الكتابات الصحفية ، وفى الاستشهادات الشفوية ، مما لايريقى إلى أن يكون مثلاً .. لكنه تعبيرا بليغا كالقول (أدلى بدلوه) أو (أضغاث أحلام) أو (حاشا لله) أو : «شهد شاهد من أهلها»، أو «ولا هم يحزنون» أو «أضل سبيلاً» أو «نظرة إلى ميسرة» ، أو «زهق الباطل» إلى غير ذلك كثير مما ذكرنا ومما لم نذكر .. ناهيك عما وضح من تبني المصرى كما هى عادته – حتى فى أمثاله الشعبية – لوجهتى نظر .. فكما آمن بأن الهدى من عند الله ، لم ينكر على الإنسان قدرته على الاختيار بين الصالح والطالح، ودوره فيما يمسه من خير أو شر ؛ ولذلك ردد أيضاً الآيات القائلة بذلك ، ومنها

نذكر قوله تعالى : «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها» ، وقوله : «من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها» .

ذلك عن الاشتقاق اللغوى من القرآن فى مجال الأمثال .. فماذا عن نحت الأمثال من الحديث النبوى الشريف ؟! لعلنا ذكرنا فى معرض تناولنا للأمثال الشعبية أنها (عربية متداولة) أو (حديث متداول) ، أو (مأثور متداول) .. قد يكون ورد على لسان أحد الصحابة أو التابعين .. وصار مثلاً على ألسنة العامة .. لكنا نكثف القول هنا على مايتداول فى هذا الصدد ، إما كمثل أو كدعاء نبوى صار دعاءً شائعا على ألسنة العامة ، أو أمر أو إقرار بأمر ، جاء على لسان الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. وسنتتبع فى ذلك أيضاً نفس أسلوبنا السابق ، من إيراد لنماذج من هذا النمط ، ثم تحليلها أو التعليق عليها ؛ حتى يشاركنا القارىء مانذهب إليه ويطلع معنا عليها ، بل ويسبقنا إلى تقويمها وتحليلها ، قبل أن يقرأ رأينا فيها ؛ لذلك أورد فيما يلى على سبيل المثال أيضاً لا الحصر نماذج من هذا النوع من الأمثال المستقاة من أحاديث الرسول (ﷺ) .

- الصدقة تدفع البلاء .
- كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته .

- الحياء شعبة من شعب الإيمان .

- إذا لم تستح فأصنع ماشئت (المتداول فأفعل ماشئت) .

- الطهور شطر الإيمان (مطلع حديث من الأربعين النووية) .

- النظافة من الإيمان .

- ولله فى خلقه شئون .

- العمل عبادة .

- إماطة الأذى عن الطريق صدقة (مأخوذ عن حديث نووى) .

- الكلمة الطيبة صدقة (جزء وسط فى حديث نووى) .

- إستفت قلبك (جزء وسط فى حديث نووى) .

- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (المتداول ، قل خيراً أو فصمت) .

- أتبع السيئة الحسنة تمنحها (جزء فى وسط حديث نووى) .

- إن مع العسر يسراً (جزء من حديث نووى وآية من القرآن أيضاً).

- إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار (نووى) .

- لاضرر ولا ضرار (متداولاً بنصة كما هو) .

- البينه على المدعى واليمين على من أنكر .

- اللهم إجعل خير زيامنا خواتيمها (دعاء متداول).
- إن الحرب خدعة .
- سلام على من إتبع الهدى (من رسالة الرسول «ﷺ» إلى هرقل قيصر الروم) .
- تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم .
- من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له (من خطبة الوداع) .
- ألا هل بلغت ؟ اللهم فأشهد (من خطبة الوداع) .
- فأتقوا الله فى النساء وأستوصوا بهن خيراً (المتداول ، استوصوا بالنساء خيراً) .
- إنما المؤمنون إخوة (من خطبة الوداع) .
- كلكم لآدم وأدم من تراب (السائد : كلنا ولاد آدم) .
- ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى (من خطبة الوداع) .
- إن الذنوب تغير النعم (والسائد الذنوب تذهب النعم) .
- الجنات تحت أقدام الأمهات .
- إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرىء مانوى .
- المال مال الله وأنا عبده (المتداول ، والمال مال الله وكلنا عبيد الله).

- ما اجتمع رجل وامرأة إلا وكان الشيطان ثالثهما .

- إن بعض الظن إثم .

- إن الله جميل يحب الجمال .

- إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً وإعمل لآخرتك كأنك . تموت غدا..

- إعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.

- أول الغيث قطرة.

- من عرف لغة قوم أمن شرهم.

- النساء ناقصات عقل ودين (متداول بفهم خاطىء)

- من يتوكل على الله فهو حسبه.

- الكمال لله وحده.

- لا يلسع المؤمن من جحر مرتين (المتداول ، لا يلدغ المؤمن..).

- أنصر أخاك ظالما أو مظلوما.

- إعقلها وتوكل.

- من تواضع لله رفعه.

- من رأى منكم منكرا فليغيره .. (من الأحاديث النووية).

- إحفظ الله يحفظك (من الأحاديث النووية).

- ان تعبد الله كأنك تراه.. فإن لم تكن تراه فإنه يراك (متداول بصيغة الأمر).

- إن الحلال بين وإن الحرام بين (جزء من حديث طويل).

- إن الله طيب لايقبل إلا طيبا (جزء من حديث طويل من الاربعين النووية).

- دع مايريبك إلا ما لا يريبك (متداول كما هو نصا).

- طلب العلم عبادة.

- من حسن اسلام المرء تركه مالا يعنيه (هناك امثال شعبية فى هذا المعنى).

- الدين المعاملة.

- لا يؤمن احدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه (من الاربعين النووية، (متداول نصا).

- الدين النصيحة (من الاربعين النووية).

- من يرد الله به خيرا فيفقهه فى الدين.

- اطلبوا العلم ولو فى الصين.

- اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد.

تلك هى الاقوال المستقاة من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) والتى يمكن ان نعتبرها صارت مثلا على ألسنة العامة من المصريين. وقد ذكرنا ضعفها مما استقاه المصريون من القرآن الكريم، ولعل ذلك يكون مصداقا لسمة «متدين» التى اعتبرناها ثانى

سمة مصرية، بعد سمة «ساخر» ، والتى قلنا بمقتضاها أن المصرى «متدين» وهو يعبد عدة آلهة، و«متدين» وهو أول الموحدين فى عصر الفراعنة، و«متدين» وهو مسيحى - وقد أوردنا سلفا عدة أمثال مستقاة من الانجيل ومن أقوال بولس الرسول، وأخى «متدين» وهو مسلم كما أوضحت النماذج السالفة الذكر، والتى تناولت كثيراً من القيم التى يؤمن بها المصرى ويتمسك بها، وتعكس - فى نفس الوقت - سماته الاساسية والفرعية، كالتعاون والتكافل الاجتماعى ، الذى تحققه الصدقة والاحسان، والتى تناولتها الاحاديث النبوية الشريفة، مؤكدا انها تدفع البلاء، وشارحة لكل ما يمكن اعتباره صدقة.. حتى لو كان الانسان غير ثرى ولا يملك ما يتصدق به - وهو حال معظم المصريين الفقراء - فالكلمة الطيبة صدقة»، وإماطة الاذى عن الطريق صدقة»» وشارحة لكل ما - يعتبر ايمانا كالنظافة والطهور والحياء وكل ما يمكن اعتباره عبادة كطلب العلم وكالعمل.

هذا وقد وضعت الأحاديث الشريفة شروطا ومواصفات للعمل الفعلى، من إتقان وحسن أداء ، كما امرت بسرعة منح الاجير اجره، كما افاضت الاحاديث فى شرح معنى الدين، بوصفه حسن معاملة الغير، والنصح لهم، والتفقه فيه، وترك ما لا يعنينا.

كما فرقت الاحاديث بين الحلال والحرام، وضرورة استفتاء النفس

فى ذلك وترك مايريب الى ما لا يريب، وعمل الطيب حتى يقبلنا الله.
الى غير ذلك مما اوضحت العينة التى أوردتها من الاحاديث النبوية، والتى وضح من تمسك المصريين بها، وترديدهم لها، ما تعكسه من سمتهم الاصلية، «متدين» ، وما تفرع عنها من سمات: متعاون - متواضع - محب للخير له وللاخرين - خجول، حلو اللسان، امين صبور ، متوكل على الله، راض.

ولعل هذا الفصل - على ما اعتراه من اقتضاب - قد اوضح الى حد ما ماقصدته منه، ولعله قد يكون فاتحة خير لغيرى من الباحثين المتخصصين لتناوله كنواة لبحوث اكبر واعمق، واخيرا لعله مسك الختام لفصول هذا الكتاب، وان اضطررت فى النهاية ان اسطر خاتمة له لابد منها لاستخلاص النتائج ورصدها باختصار.

فصل الختام

تلك كانت ابرز السمات المصرية الست الاساسية: ساخر، متدين، طيب عفوى، عاشق للاستقرار ، فنان وذكى فطن، الى جانب ماتفرع عنها من سمات تابعة بلغ عددها ٤٣ سمة فرعية، تشعبت منها ايضا سمات ثانوية بلغ عددها ٧٠ سمة، اصيلة فيه من حيث الثبات، وان اسميناها ثانوية من حيث هى فرع من فروع السمات التابعة، وذلك ما سيوضحه الرسم المرفق ، الذى يصور «بورتريه» للانسان المصرى الأصيل، قبل ان تلحق به الكثير من التغيرات - التى سبق واشرت اليها - خلال العقود الثلاثة الماضية ، تلك الاشارات التى اوحت الى ان اضع مؤلفا آخر، يتناول سمات المصرى المعاصر، الذى يرى بعضنا انه مختلف تماماً عن والده أو جده، وانه قد بدأ ينبذ الفلسفة الشعبية لأجداده، وتراثهم القيمى، ويصيغ لنفسه فلسفة جديدة، عبرت عنها منحوتاته اللفظية الجديدة، او ما نسميه : «التعبيرات الشعبية المستحدثة»، التى تنسخ تماما ما كان سائداً من معان وقيم راسخة، عبرت عنها الامثال الشعبية القديمة، التى مازال بعض المصريين يرددونها بما يعكس ايمانهم بما تنادى به، وفى نفس

الوقت يرفضها الشباب ويقول عكسها، حتى بتنا نستشعر تناقضا بين فئات الشعب المصرى، تجعلنا نتصور ان الشخصية المصرية متناقضة مع نفسها ، ولعل ذلك ما عبر عنه عادل حمودة حينما تناول مقومات الانسان المصرى العادى، وان معرفة طبيعته ستتيح لنا على على حد قوله:

«تفسير التناقض الواضح الذى يعيش فيه طوال حياته، فهو يهاب الموت ويعشق الجنس - ويخشى الله ولا ينتج سوى نصف ساعة فى اليوم - يصف نفسه بالفهلوة ويضع تحويشة العمر فى شركة الريان - يفخر بأن حضارته قديمة قدم التاريخ، ويقضى حاجته بجانب آثارها.. ويقول عن بلاده ام الدنيا ويصر على ان الذى بناها فى الاصل حلوانى» (١).

هذا الى جانب ما ذهب اليه شيخ الاجتماعيين د. سيد عويس فى كتابه «الازدواجية فى التراث الدينى المصرى» متحدثا عن التناقض الملموس حاليا، فى كثير من الظواهر المجتمعية فى مصر، ليس فى التراث الدينى وحسب.. ولكن فى الواقع الثقافى الحى فى المجتمع المصرى المعاصر، الذى لم يتفق حتى الآن على كثير من المفاهيم التى تبدو احيانا - وعلى حد قوله - «متعارضه أو متنافرة» فدكتور عويس يرى أن:

---

(١) عادل حمودة ، النكتة السياسية ، ص ٨٩ .

«الواقع الحى المعاصر يؤكد الاختلاف والتباين والتنافر السائد في المناخ الثقافى الاجتماعى- ذلك لان التناقض بين مايقال وبين مايعمل أصبح من سمات هذا المناخ»(١).

وقد ذهب دكتور عويس الى القول بأن «مفهوم المواطن الصالح» لم يتفق عليه حتى الآن، ولذلك نستشعر هذا التناقض بين مايؤمن به المصرى وما يمارس من سلوك، وذلك يعتبر معوقا يقف في سبيل النهوض بالمجتمع المصرى المعاصر، ولذلك نشعر أن المصرى يعتنق قيما متناقضة ، فيختار أعضاء المجتمع في مجالات متماثلة حول كيف يسلكون او يمارسون السلوك المتوقع منهم، فيشعرون باغتراب او يعيشون في ظل مواقف اجتماعية تسود فيها حالة من حالات «اللامعيارية».. ويعلل د. عويس ذلك قائلا:

«لعل وجود هذه القيم المتناقضة يرجع الى ظاهرة التغيير الثقافى والأجتماعى التى يواجهها المجتمع المصرى فى الوقت الراهن .. وربما يرجع الى التغيرات العديدة التى واجهها المجتمع المصرى فى خلال عمره الطويل واهمها التغيرات فى الحكام من غير المصريين والتغيرات فى اللغة فضلا عن التغيرات فى الدين (٢).

ويستشهد د. عويس في هذا الصدد بعدد من الامثال الشعبية

(١) المرجع المشار إليه ، ص ٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٣٤ - ٣٥ .

التى تحمل معان متناقضة، وقيم متباينة.. لكنى وان اتفقت معه تماما فى ان تغير الحكام واللغة والدين كانوا عوامل مهمة فى الشعور بتبنى هذه القيم المتناقضة.. إلا أنى أرى ان هذه الحصيلة من الامثال التى بقيت على ألسنتنا كل هذه العقود والقرون.. لم تنشأ او تصاغ فى عصر واحد.. بل هى حصاد حقب متباينة تماما: لذا لا اتفق تماما مع من يرون فى الشخصية المصرية تناقضا غير مبرر، أو غير مفهوم ، فقد صاغ هذه الثروة الشعبية من الحكمة عبر عصور مختلفة، كان فيها سيد احيانا ومسودا احيانا اخرى، فابتكر بحكمته لكل مجال مقال، وجعل لكل موقف مخرج ينفس به عن مكنون نفسه فى المواقف المختلفة.. إلى جانب أن الامثال تعبر عن فئات وطبقات متباينة من الشعب المصرى:

المتعلم والجاهل والمثقف، والفلاح والموظف والتاجر والعامل، والمالك والحاكم والمحكوم، ولكل من هؤلاء مستلزماته اللغوية فى التعبير، كما ان مصر باتساعها الجغرافى واقتسام ارضها بين صحراء وجبال ووديان الذى انعكس على سكانها بتباين شديد فى العادات والقيم والطبائع بين اهل بادية واهل ريف، واهل حضر.. ولكل هؤلاء مفرداتهم، وأساليبهم التى تعبر عن خصوصيتهم ، كما وان الامثال بالذات تتبنى ـ كما سبق القول ـ كل وجهات النظر، دون

ان يمثل ذلك تعارضا او تناقضا، لان لكل مثل موضعه فى الاستشهاد او مضربه فى الحديث.. حتى وإن بدا ذلك للبعض تحبيذاً وضحضاً لامر واحد..

وحتى بالنسبة لبعض السمات التى يرى البعض فيها تناقضاً، كالشجن الدفين فى النفس المصرية ، وحب النكتة والفكاهة. أرى فيه وجهين لعملة واحدة، من حيث هو استعلاء على المواقف بالتحسر والشجن غير المعلن والمصحوب بالسخرية من الموقف برمته، والتهكم عليه، ويتفق معى فى ذلك د. عادل صادق إذ يقول بأن الشجن احساس راقٍ وسامٍ، وهو احساس بمعنى الحياة، التى تقضى بالضرورة الى الموت وفراق الأحباء، والمصرى بعراقته واستقراره على ضفتى الحياة، ومراقبته لدورتها ، ودورة الفصول، تولد لديه هذا الشجن الرقيق، أما النكات فهى قدرة لديه على رؤية الشيء على حقيقته.. فلا تناقض داخل المصرى (١).

وحتى إذا ماكان هناك تناقضا فهو بين الشخصيات المنفردة والفئات المصرية المتباينة الطباع، أو الطبقات المختلفة، وأيضا - ويظهر هذا بوضوح - بين الاجيال المتعاقبة، وإن بقى للمصرى المعاصر بعض من سمات اجداده الاصيلة ، وكنموذج لها سمة المجون أو التحامق التى

---

(١) د. عادل صادق ، حديث مذاع فى برنامج «آدم وحواء» التليفزيون المصرى القناة الثانية ، الجمعة ١٩٩٦/٤/٢٦

طالما اشرنا اليها فى غضون هذا البحث، فهى سمة اصيلة فى الشعب المصرى، ربما بقيت له من اجداده الفراعنة.. فقد كانوا يقدسون الجنس ولا يخجلون منه، وقد اشار الى ذلك هيرودوت إذ قال أن:

«المجون والالفاظ البذيئة الفاضحة عادة فى الشعب المصرى منذ العصر الفرعونى حينما كانوا يحتفلون بعيد الاخصاب فتحمل النساء تماثيل لرجال عضو التذكير فيها بطول باقى الجسم.. متغنين بإله الاخصاب أوزوريس.. والرجال يتبادلون الانخاب والنكات الجنسية (١).

ولعل هذه السمة بالذات سمة اصيلة ومازالت مستمرة فى هذا الشعب العظيم.. فهو رغم تدينّه وحسن ادبه.. ساخر فكه، إلى حد المجون والتحامق، ولذلك فقد اكدت ذلك من البداية بجعل ابرز وأول سماته، «ساخر» ثم «متدين» واستتبعتها بالضرورة باقى السمات، كما سيتضح من الرسم المرفق.

ولا أجد ختاما لمؤلفى هذا خيرا من الوعد بدراسة اخرى بدأت فى تجميع مادتها بالفعل، وهى رصد لسمات المصرى المعاصر، وكل ما اعترى المجتمع المصرى من تحولات ، مستخلصا لهذه لسمات من واقع ما يتداوله العامة الآن من تعبيرات مستحدثة.

عزة علي عزت

---

(١) هيرودت يتحدث عن مصر، ترجمة د. صقر خفاجة .. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ ، ص ١٤٧ .

المـــــــراجع

- د. إحسان عسكر ، فنون التبليغ القرآنى ونظرياته، دار النهضة العربية ، ١٩٨٦.

- أحمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية.. مكتبة النهضة المصرية.

- أحمد تيمور، الامثال العامة ، مركز الاهرام للترجمة والنشر - الطبعة الرابعة ١٩٨٦.

- أحمد صادق الجمال، الادب العامى فى مصر.

- السيد يسين، الشخصية العربية بين صورة الذات مفهوم الآخر، .

مكتبة مدبولى ، الطبعة الرابعة، ١٩٩١..

- الميدانى ، مجمع الامثال، تحقيق على قاسم، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت ، ١٩٨٦.

- جون لويس بوركهارات، العادات والتقاليد المصرية من الامثال الشعبية فى عهد محمد على (١٨٣٠م) ، تحقيق د. ابراهيم احمد شعلان.

- رأفت عبدالحميد، ملامح الشخصية المصرية فى العصر المسيحى، روز آليوسف، ديسمبر ١٩٧٣.

- سليم حسن، الادب المصرى القديم أو آداب الفراعنة، كتاب اليوم ١٥/١٢/١٩٩٠، منشورات أخبار اليوم (جزأين).

- د. سيد عويس، الازدواجية فى التراث الدينى المصرى، دار الموقف العربي ، ١٩٨٥.

- د. سيد عويس، قراءات في موسوعة المجتمع المصرى، مطابع روز اليوسف، الطبعة الاولى، ١٩٨٨.

- د. سيد عويس ، من وحى المجتمع المصرى المعاصر، كتاب الهلال العدد ٤٦٣، يوليو ١٩٨٩.

د. - سيد عويس أمثال وتعبيرات شعبية مصرية، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، العدد ٣١٦، ديسمبر ١٩٩٠.

- سيد قطب، التصوير القرآنى ، منشورات دار المعارف، الطبعة العاشرة.

- صقر خفاجة، هيرودوت يتحدث عن مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٧.

- عادل حمودة، النكتة السياسية - كيف يسخر المصريون من حكامهم.

- د. عبدالغنى بركة، اسلوب الدعوة القرآنية، مكتبة وهبة، القاهرة.

- عبدالهادى عفيفى ، البيئة ومشكلات المجتمع، الانجلو ، ١٩٧٣.

- د. عز الدين ابراهيم، متن الاربعين النووية في الاحاديث الصحيحة النبوية للامام يحيى بن شرف الدين النووى، دار القرآن الكريم- بيروت- الطبعة الحادية عشرة، ١٩٨٣.

- د. عزة علي عزت، صورة عرب دول مجلس التعاون الخليجى فى الصحافة البريطانية،رسالة دكتوراه غير منشورة.

- د. فاطمة المصرى، الشخصية المصرية من خلال دراسة بعض مظاهر الفلكلور المصرى.

- محمد ابراهيم ابو سنة، فلسفة المثل الشعبى المكتبة الثقافية ٣٨١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤.

- محمد صفوت، الامثال الشعبية، مكتبة مصر، الفجالة ، القاهرة، ١٩٧٨.

- محمد عبدالحميد بسيونى ، آداب السلوك عند المصريين القدماء،

المكتبة الثقافية ، العدد ٣٨٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

- د. ميلاد حنا، الاعمدة السبعة للشخصية المصرية، كتاب الهلال، العدد ٤٥٧، يناير ١٩٨٩.

- د. يوسف ادريس، عن عمد اسمع وتسمع، ، مكتبة مصر، الفجالة ١٩٨٥.

Moroe Berger, The Arab World Tobay a double Day, Anchor.

صحف ومجلات:

- عبلة الساعاتى، الاهرام - ملحق الجمعة ١٩٩٦/٦/٧، ص٦، موضوع بعنوان «التماحيك والتلاكيك.. سلوك أجتماعى جديد».

- عدد من الباحثين ، مجلة الفكر المعاصر،عدد ممتاز بعنوان الشخصية المصرية، ١٩٦٩، القاهرة.

أحاديث إذاعية وتليفزيونية:

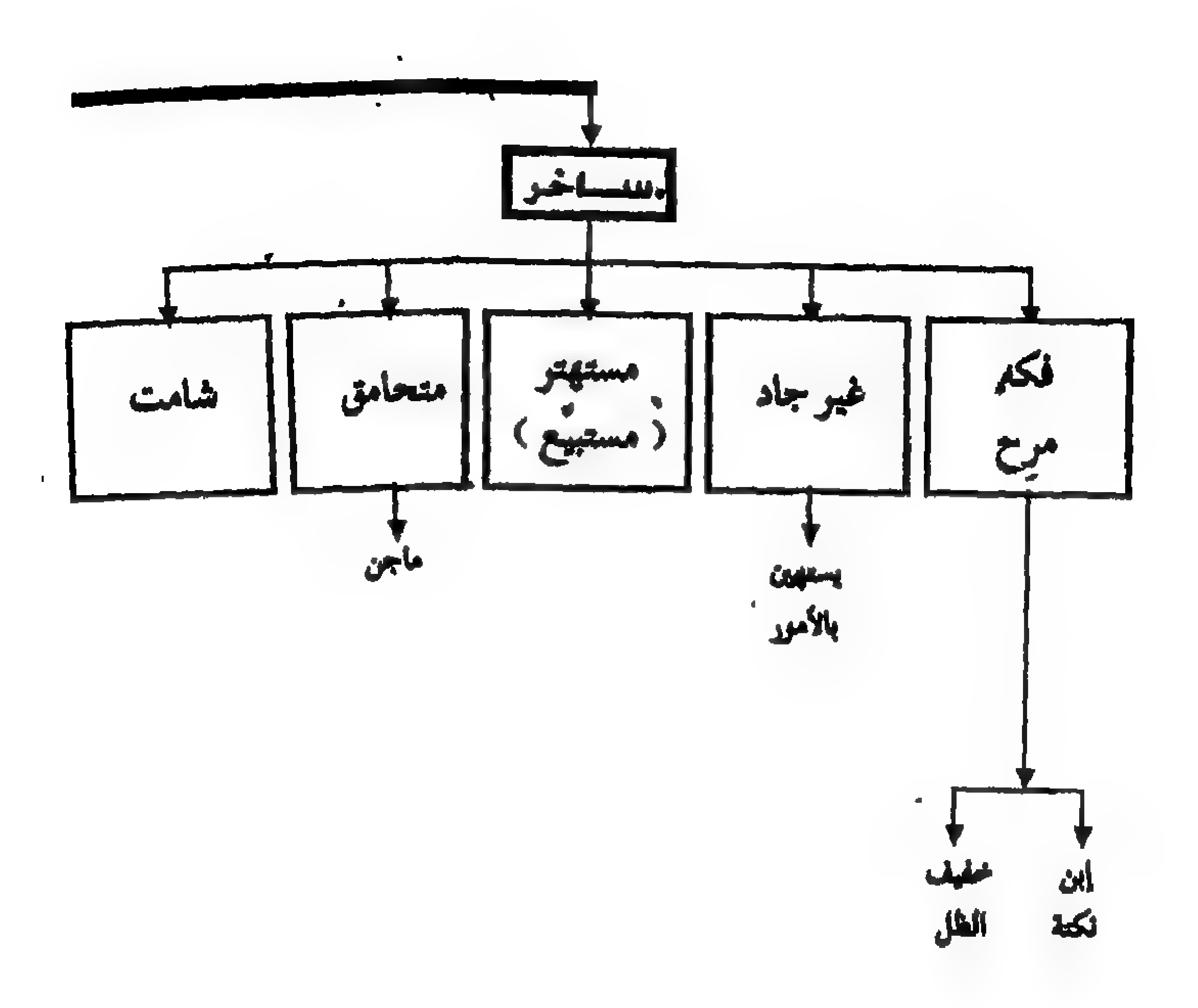
- أحمد قدرى، برنامج شاهد على العصر ، المذاع بتاريخ ١٩٩١/١٠/٩، البرنامج العام - إذاعة القاهرة.

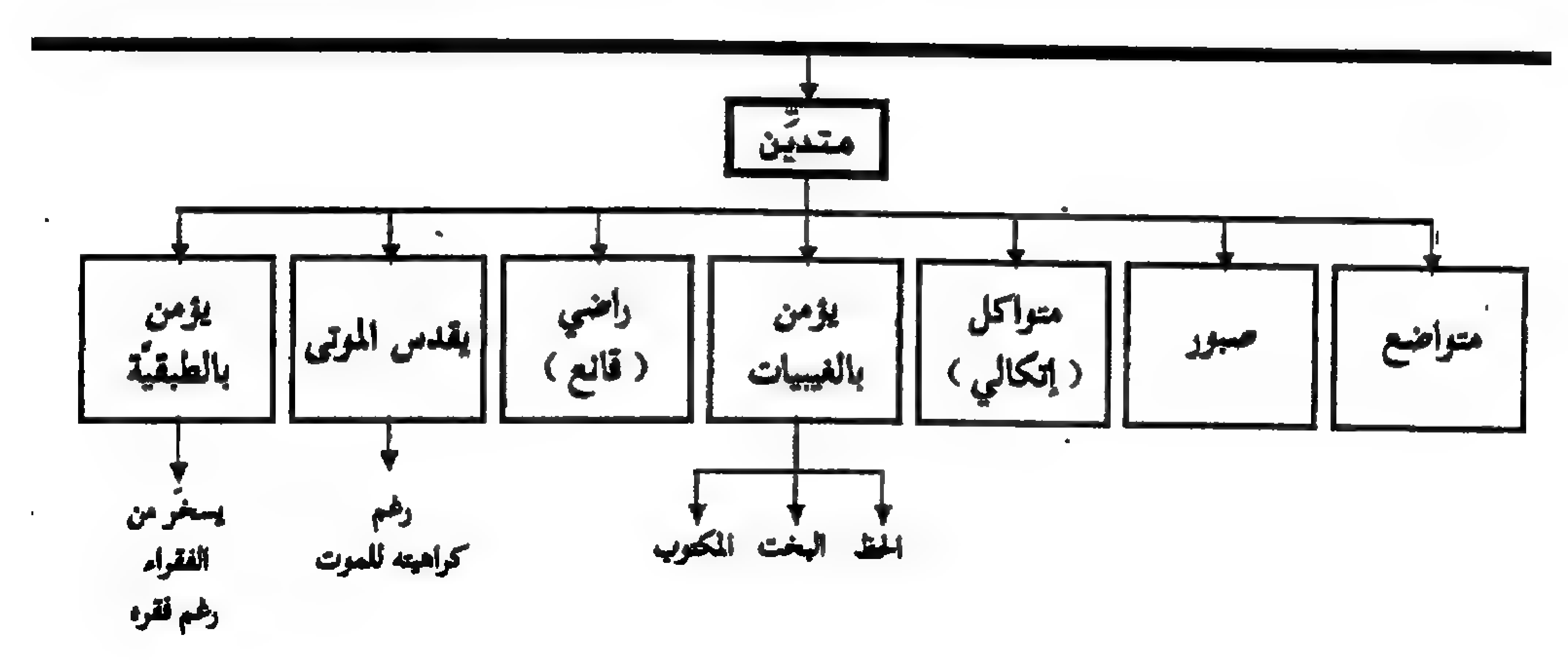
- برنامج المنتدى الثقافى، المذاع يوم الاربعاء ١٩٩٥/٩/٢٧، القناة السابعة.

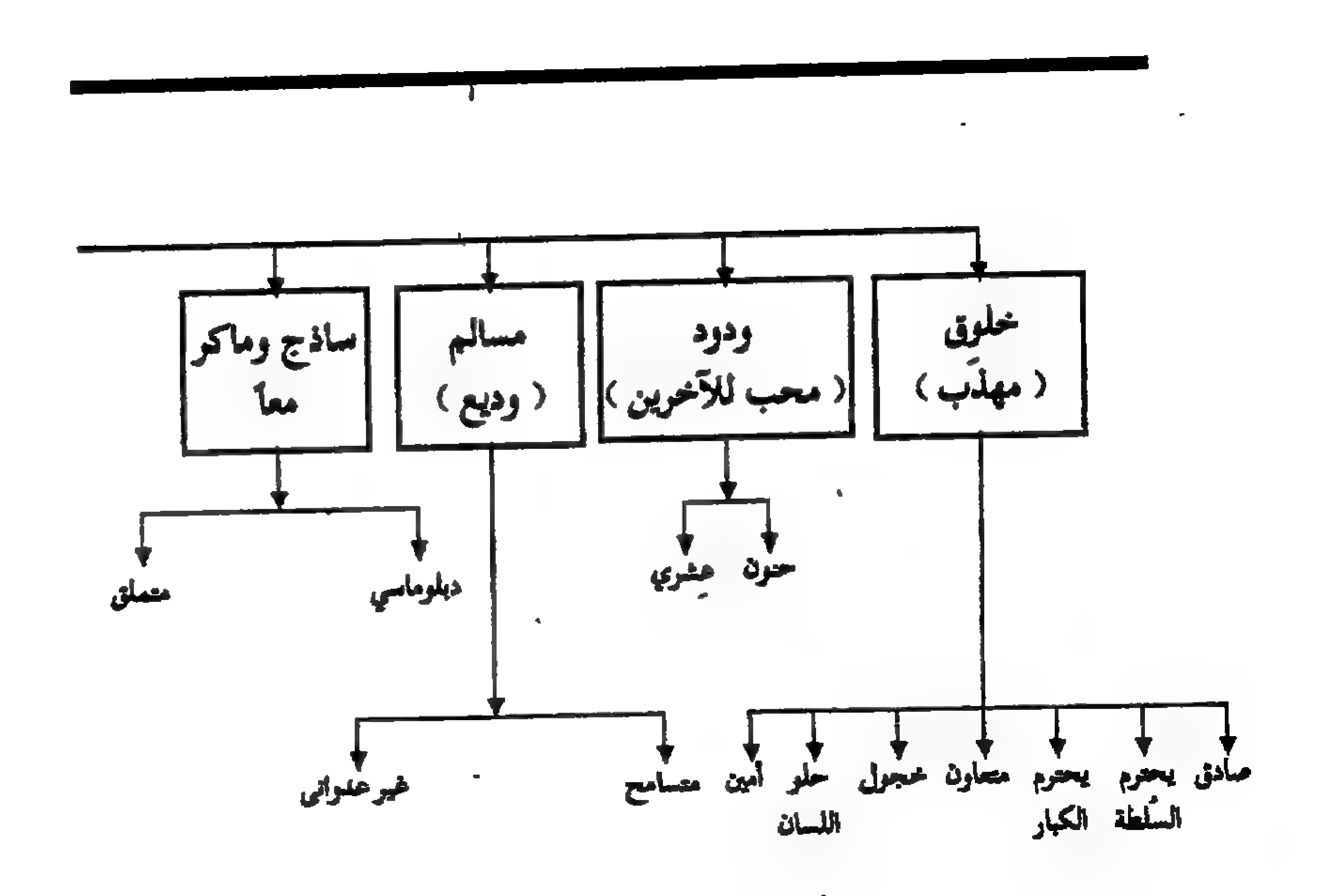
- برنامج حديث المدينة ، المذاع يوم الثلاثاء ١٩٩٥/١٠/١٠، القناة الاولى.

- د. عادل صادق، حديث تليفزيونى، برنامج آدم وحواء، مذاع يوم الجمعة ١٩٩٦/٤/٢٦.

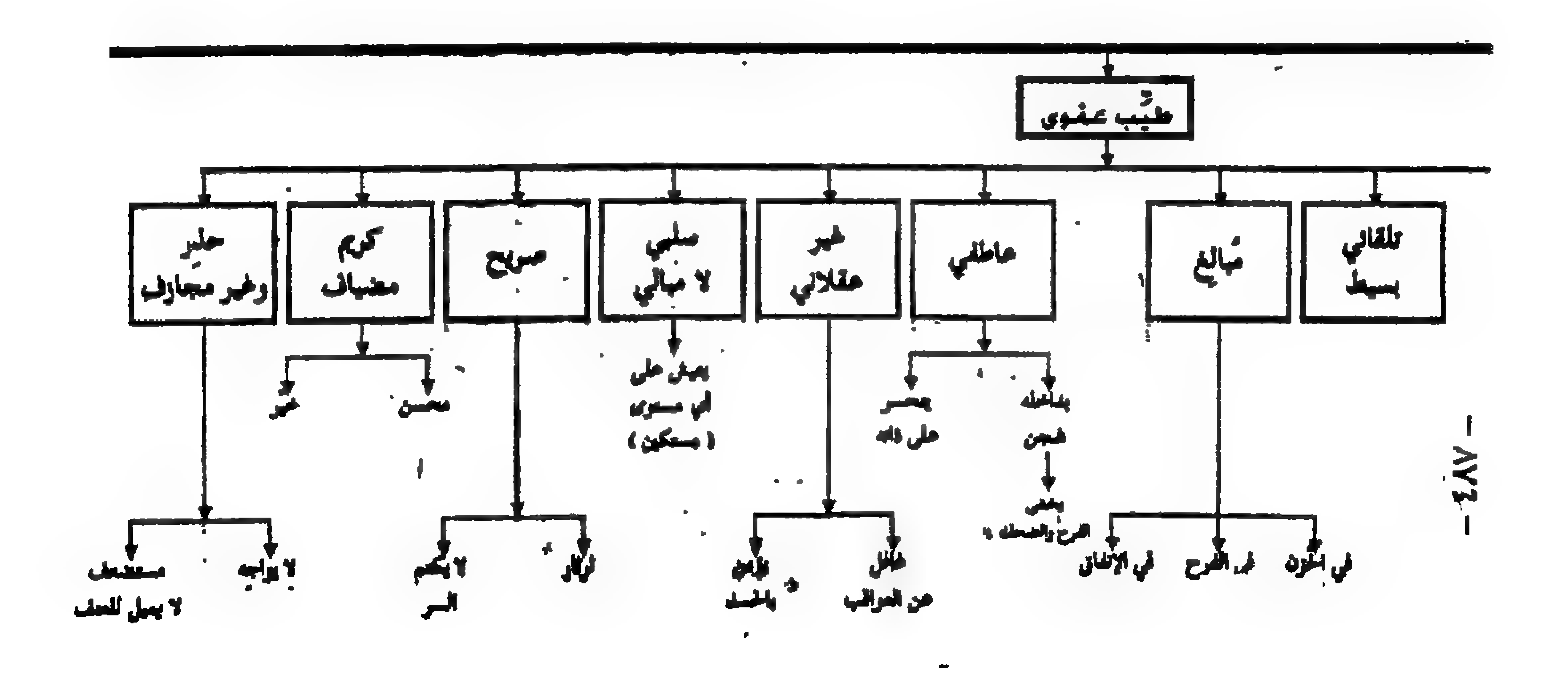
- د. يوسف إدريس ، حديث تليفزيونى، القناة الثانية.

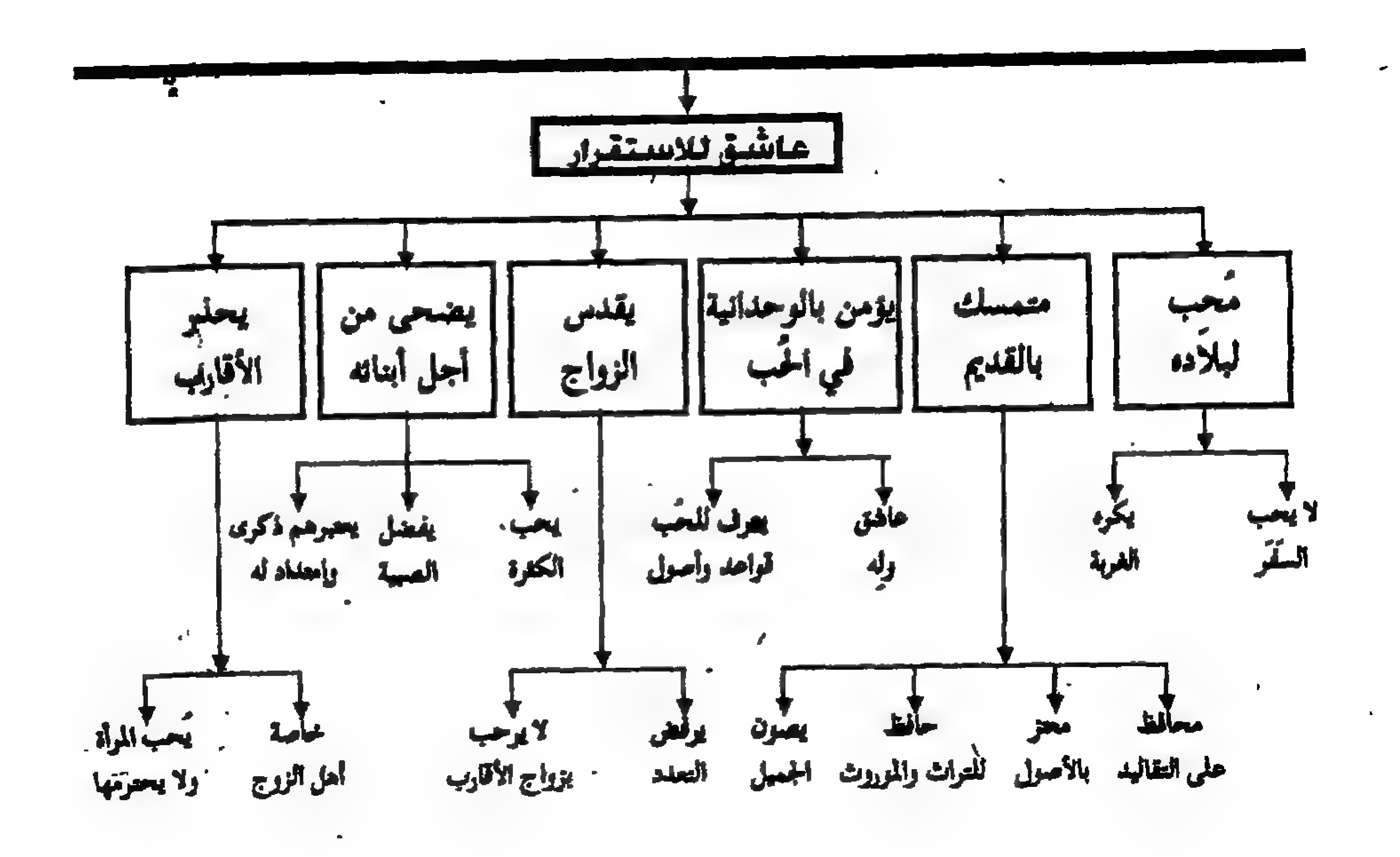

ساخر
فكه
مرح
غير جاد
مستهتر
(مستبيع)
متحامق
شامت
يستهين
بالأمور
ماجن
ابن
نكتة
خفيف
الظل

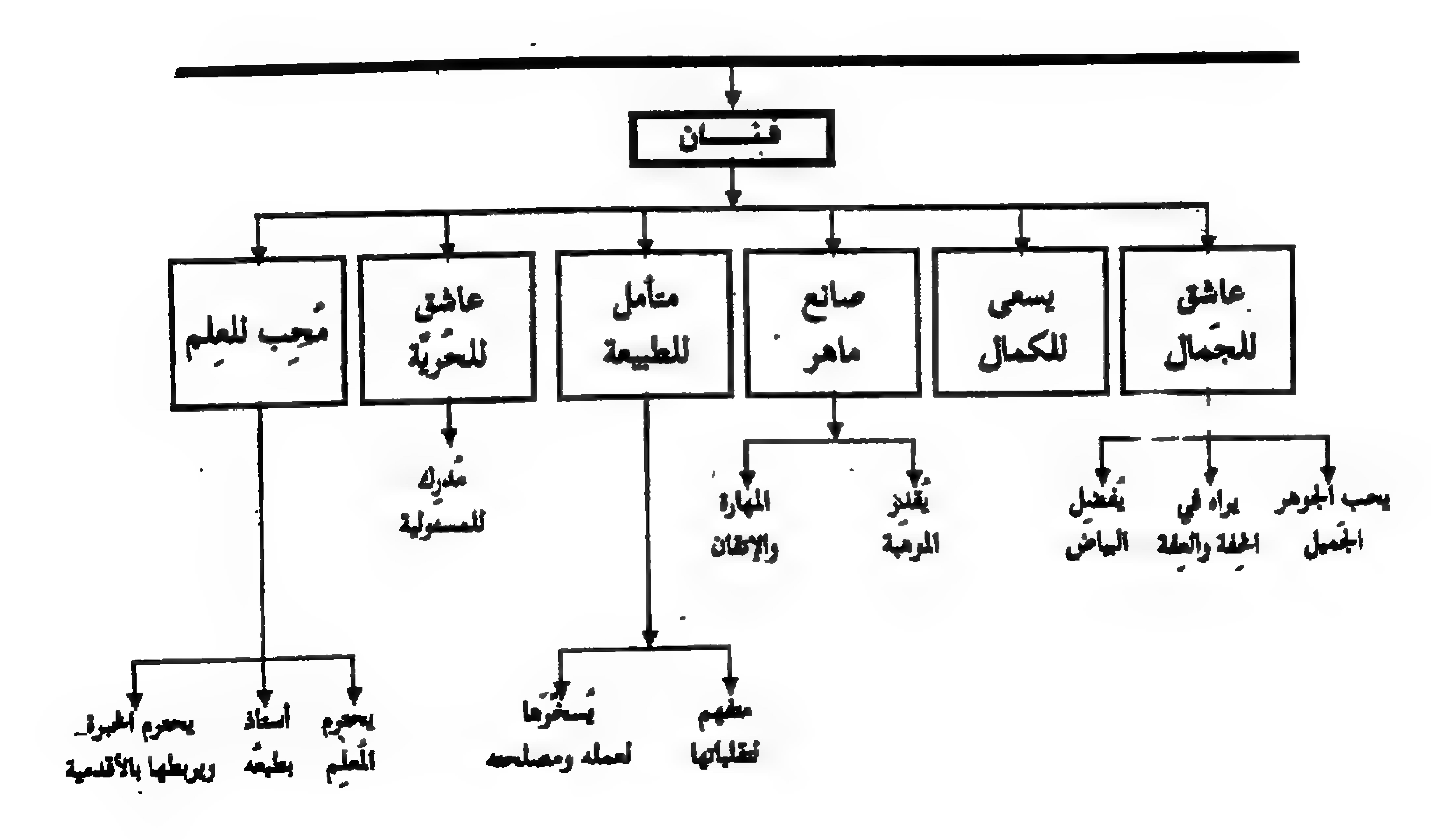

متديِّن
متواضع
صبور
متواكل (إتكالي)
يؤمن بالغيبيات
الحظ
البخت
المكتوب
راضي (قانع)
يقدس الموتى
رغم كراهيته للموت
يؤمن بالطبقيّة
يسخَر من الفقراء رغم فقره

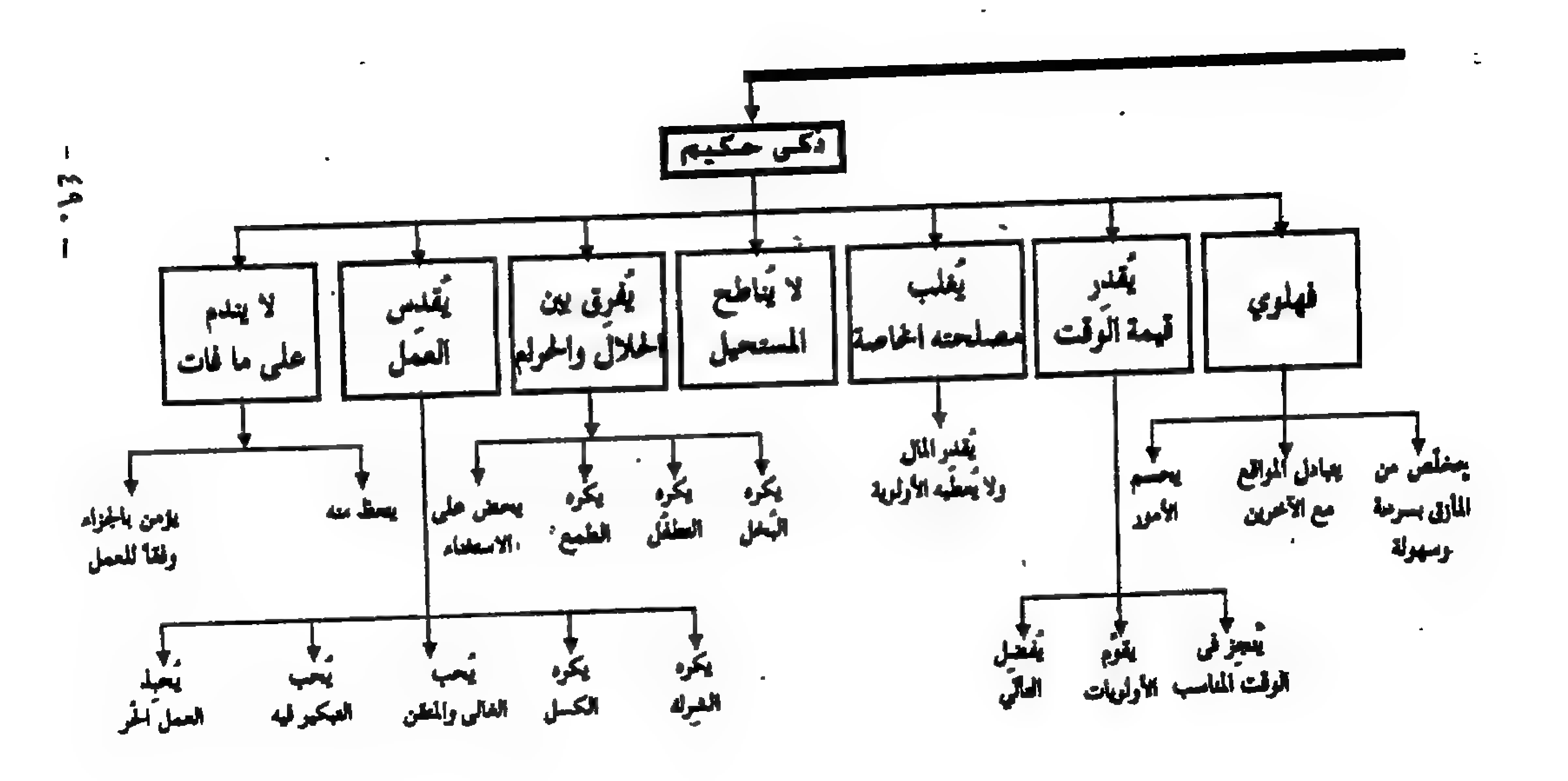


خلوق
(مهذَب)
ودود
(محب للآخرين)
مسالم
(وديع)
ساذج وماكر معاً
صادق
يحترم السُلطة
يحترم الكبار
متعاون
خجول
حلو اللسان
أمين
حنون
عشري
متسامح
غير عدواني
دبلوماسي
متملق


طيِّب عفوي
تلقائي بسيط
مُبالغ
عاطفي
غير عقلاني
سلبي لا مبالي
صريح
كريم مضياف
حليم وغير مجازف
في الحزن
في الفرح
في الإنفاق
يتحسر على ذاته
يخفي الفرح والضحك
غافل عن العواقب
يعيش على أي مستوى (مستكين)
ثرثار
لا يكتم السر
محسن
خير
لا يواجه
مستضعف لا يميل للعنف


عاشق للاستقرار
مُحِب لبلاده
متمسك بالقديم
يؤمن بالوحدانية في الحُب
يقدس الزواج
يضحى من أجل أبنائه
يحترم الأقارب
لا يحب السفر
يكره الغربة
عاشق وله
يعرف للحب قواعد وأصول
يحب الكثرة
يفضل الصحبة
يخبرهم ذكرى واعتداد له
محافظ على التقاليد
محترم بالأصول
حافظ للتراث والموروث
يصون الجميل
يرفض التعدد
لا يرحب بزواج الأقارب
خاصة أهل الزوج
يحب المرأة ولا يحترمها


فنان
عاشق للجمال
يسعى للكمال
صانع ماهر
متأمل للطبيعة
عاشق للحرية
محب للعلم
يحب الجوهر الجميل
يراه في الخِلقة والخُلق
يفضل الباطن
يقدر الموهبة
المهارة والإتقان
مدرك للمسئولية
متفهم لتقلباتها
يسخرها لعمله ومصلحته
يحترم المعلم
أستاذ بطبعه
يحترم الخبرة ويربطها بالأقدمية


ذكي حكيم
فهلوي
يُقدر قيمة الوقت
يُغلب مصلحته الخاصة
لا يناطح المستحيل
يُفرق بين الحلال والحرام
يُقدس العمل
لا يندم على ما فات
يتخلص من المآزق بسرعة وسهولة
يتبادل المواقع مع الآخرين
يحسم الأمور
ينجز في الوقت المناسب
يقوم الأولويات
يُفعل العالي
يُقدر المال ولا يُعطيه الأولوية
يكره البخل
يكره التطفل
يكره الطمع
يحرص على الاستعداء
يتعظ منه
يؤمن بالجزاء وفقاً للعمل
يكره الشراك
يكره الكسل
يحب الغالي والمتقن
يحب التبكير فيه
يُجيد العمل الحر

الفهرس

رقم الايداع ١٠٠٧٦ / ٩٧

I. S. B . N

977 - 07 -054 -9

روايات الهلال تقدم

سفر البنيان

تأليف

جمال الغيطانى

الثمن ٥ جنيهات

تصدر ١٥ سبتمبر ١٩٩٧


كتاب الهلال يقدم
٦ أكتوبر فى
الإستراتيجية العالمية
بقلم
د . جمال حمدان
يصدر ٥ أكتوبر ١٩٩٧

اصدارات دار الهلال

من الكتب الأدبية والثقافية والتاريخية والسياسية والطبية وكتب التراث وكتب الأطفال و مجلات ميكي وسمير تجدها في مكتبات دار الهلال :

القــــاهــرة : مكتبة عز العرب ـ السيدة زينب .
الاســكندرية : مكتبة النبي دنيال ـ مكتبة المعمورة .
طـــنطـــا : ميدان المحطة .
المنصـــورة : ميدان المحطة.

وفي المكتبات الكبرى بالقاهرة .
طلعت حرب والمهندسين :مكتبة مدبولي ـ مصر الجديدة : مكتبة بوك سنتر و مكتبة اكسفورد ـ الزيتون : مكتبة كمبريدج ـ مدينة نصر: مكتبة راغب و مكتبة الدار العربية ـ العباسية : مكتبة الطالب ـ الزمالك :مكتبة علي مسعود و مكتبة الزمالك ـ باب اللوق : مكتبة الكيلاني القصر العيني : مكتبة العربي ـ السيدة زينب : مكتبة المسلي ـ المعادي: مكتبة غزال ومكتبة برج الكرنك ومكتبة عامر ومكتبة ياسين.
دار السلام :مكتبة النجاح ـ حلوان : مكتبة الوفاء الجديدة ـ الفجالة : مكتبة راغب .

وفي المكتبات الكبرى بالجيزة :
ميدان سفنكس : مكتبة مدبولي الصغير ـ المهندسين : مكتبة اصدقاء الكتاب ـ جامعة الدول العربية :مكتبة الكوثر ـ الهرم :مكتبة منصور.

وفي المكتبات الكبرى بالمحافظات :

الســويس : مكتبة الصحافة .
دمــيــاط : مكتبة نانسي بدمياط وفرع العلاء .
المحـلـة : مكتبة الثقافة ومكتبة الشروق .
بورسـعيد : مكتبة اولاد نسيم – أمام حديقة فريال .
رأس البـر : مكتبة حسن حسن ابوحجازى .
جـمـصـة : مكتبة فتحي حسب الله .
طـنطـا : مكتبة الحسن والحسين .
الفيـومـلة : مكتبة نهى .
شـبـين : مكتبة قطب .
سـوهـاج : مكتبةابو شنب .
شبراخيت : مكتبة محمد الدماصي .
الكفر الشيخ : مكتبة غريب كشك .
طـوخ : مكتبة طوخ .
بنـهـا : مكتبة ابو شنب ومكتبة الامير.
المنيـا : مكتبة علي مصطفى عبيد .
سـوهـاج : مكتبات الأمير و الفتح و الصحافة .
قـنـا : مكتبة الهلال .

ومكتبات الصحافة ببني مزار و القوصية ونجع حمادى و ديروط.
و مكتبة حمدى الزواوى بالماستر هاوس .

هذا الكتاب

حرصاً علي لون حريف من التراث الشعبي المصري الأمثال العامية ، وصوناً له من التحريف أو الاندثار صدر العديد من الكتب والدراسات التي ترصد هذه الفلسفة الشعبية تناول كل منها الموضوع من أحد جوانبه الاجتماعية ، أ اللغوية ، أو التراثية .. لكن هذا الكتاب الذي بين أيدينا قد ربطه بأمر جد خطير : ألا وهو سمات الشخصية المصرية التي نشعر جميعاً ما إعتراها من التحول ، بتأثير من مقتضيات العصر وبفعل الظروف الحياتية المعاشة .

هذا وسيجد القاريء بين دفتي هذا الكتاب تحليلاً كمياً وكيفيا للأمثال العامية المصرية ، وما تفرزه من قيم إنسانية أصيلة وما تعكسه علي الشخصية المصرية وعلي السلوكيات اليومية للشعب المصري سلباً وإيجاباً ، وأخذا وعطاء. وسيجد القاريء بين يديه دراسة اجتماعية وأدبية تمكنه من التعرف علي ملامح الشخصية المصرية .

فالكتاب يضم تحليلاً واستشهاداً بكم هائل من الأمثال التي مازالت باقية ومتداولة علي ألسنة العامة ، مرتبة وفقا لإتساقها أو ارتباطها وتعبيرها عن سمات الشخصية المصرية ، وليست مرتبة أبجديا .. ويسبق ذلك فصول تمهيدية تعرف بدراسات الشخصية المضرية ، وتطور الأمثال الشعبية ، والارتباط بينهما ، الذي يؤكد علي أبرز سمات المصري : الساخر ، المتدين الطيب العفوي ، عاشق الاستقرار ، الفنان ، الذكي الحكيم .

ويتبع ذلك فصول أخيرة ترصد الأمثال العربية الفصيحة والأمثال القرآنية المتداولة بين العامة .. والدارجة علي اللسان المصري وكأنها عامية .. ليأتي فصل الختام مستعرضاً كل السمات المصرية الأصيلة والفرعية التي تؤكد عظمة هذا الشعب العريق ، وإستنباطه لتراث جميل من بين سنوات القهر والعنت التي مر بها عبر عصور .

د. جمال حمدان

٦ أكتوبر في الإستراتيجية العالمية



KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد — رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش — نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٢ - جماد آخر - أكتوبر ١٩٩٧ No: 562-OC-1997

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل — رئيس التحرير

عادل عبدالصمد — سكرتير التحرير

اسعار بيع العدد فئة ٨٠٠ قرش

سوريا ٣٠٠ ليرة - لبنان ١٦٠٠٠ ليرة - الأردن ٦٥٠٠ فلس - الكويت ٣٥٠٠ فلس - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي / أبوظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال

٦ أكتوبر
فى الاستراتيجية
العالمية

دكتور جمال حمدان

دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

مقدمة

مخطيء جدا من ينظر إلى معركة سيناء والجولان المظفرة ، التى عاشها ولازال يعيشها اليوم كل عربى بكل خلجة وخلية من أعصابه ووجدانه ، وبكل نبضة وومضة في قلبه وكيانه ، نقول مخطيء هو جدا حين ينظر إليها فى إطارها الضيق وفى أبعادها المحلية كمجرد النقيض الموضوعي المباشر لمعركة يونيو ١٩٦٧ .

مخطيء جدا من يظن عبورنا المقدس إلى قدس الاقداس سيناء أمرا ستقتصر دلالته في النهاية علي «إزالة آثار العدوان» ، أو أن العودة إلي سيناء والجولان تعني مجرد العودة إلى ما قبل ٥ يونيو ، أي إلي حدود وأوضاع وتوازنات ٤ يونيو .

كلا ، ليست حرب أكتوبر التحريرية العظمي والماجدة مجرد المكافيء الموضوعي أو الرد الاستراتيجي على نكسة يونيو ، وليس ٦ أكتوبر الخالد مجرد نسخ أو ناسخ ليوم ٥ يونيو الحزين . ففي يقين هذا الكاتب أن التاريخ سوف يسجل ٦ أكتوبر كأخطر وأفعل ، مثلما هو أعظم وأروع ، تحول مؤثر فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى

المفعم ، وبالتالى فى تاريخ العرب جميعا ، ومن ثم ودون إفراط فى المبالغة فى تاريخ العالم المرئى كله .

ان هذه اللحظة التاريخية وهذه الأيام الفاصلة المشحونة بالانفعالات المتوقدة والتوتر المضطرم والترقب المتلهف ، قد لا تترك مجالا للرؤية المستأنية ولا للفكر المتروى ، وقد تغلب فيها شحنة العاطفة الدافقة والحماس المتأجج على طاقة العقل والروية وعلى بعد النظر ووضوح الرؤية . ولكننا مع ذلك نزعم أن هذا ليس وقتا للحماس فقط بل هو وقت للفكر أيضا ، بل ليس وقتا للانفعال بقدر ما هو وقت للفعل . كما نرى أن صورة المستقبل ، على الأقل فى بروفيله العريض ، قد فرضت منذ العبور نفسها ، وأصبح علينا أن نمد بصرنا وبصيرتنا عبر سيناء والجولان إلى ما وراء الجولان وسيناء ، وعبر المعركة إلى ما بعد النصر .

فى مثل هذا الاطار التاريخى والاستراتيجى الشامل وحده ، نحن نجادل ، ينبغى أن ننظر إلى المعركة الوطنية العظمى التى دارت رحاها أخيرا على أرض سيناء والجولان ، بوابة مصر وعتبة سوريا اللتين تحولتا اليوم إلى قبلة مصر وسوريا ، واليهما تحول قلب البلدين ، واللتين ستتحولان يوما إلى كماشة العرب حول عنق العدو فى عقر داره - دارنا السليبة فلسطين .

ليس من السابق لأوانه اذن أن نحاول تقييما شاملا محيطا للمعركة بكل أبعادها وفي أوسع آطرها ، ابتداء من تطوراتها الموضعية الميدانية إلى موقعها من الاستراتيجية العالمية برمتها ، مرورا بكل أصدائها وإشعاعاتها وانعكاساتها العسكرية والسياسية وكذلك نتائجها ومحمولاتها واحتمالاتها الجيوستراتيجية والجيوبوليتيكية .

حقا قد يكون الوقت مبكرا نوعا للوصول إلى أحكام نهائية وانتهاءات قاطعة يقينية ، ولكن هذا لا يمنع من المحاولة الاجتهادية . ولقد نشرت الصحافة العالمية بالفعل فيضا غزيرا من الكتابات السريعة أو الدقيقة والمخففة أو المعمقة ، كما توفرت فورا مراكز الدراسات السياسية والاستراتيجية واكاديميات الأبحاث العسكرية فى كل أركان الدنيا على تحليل المعركة وتشريحها بطريقة علمية منهجية ، ولن يمضى وقت طويل حتى تتكون لدينا مكتبة كاملة وحافلة في هذا المجال .

وما نود أن نقدمه اليوم فى هذه الدراسة هو عرض منهجى علمىّ (لا إعلامى) بقدر الامكان ومسح عام ولكنه شامل فى حدود الممكن والمتاح ، لتلك المعركة المجيدة ، لا يضعها هى وحدها فقط فى البؤرة وتحت المجهر ، وانما كذلك يضع الصراع المصيرى كله فى اطارها .

نريد ، بعبارة أخرى ، أن نرصد القضية نفسها وبأسرها من خلال منظور المعركة ومنظارها ، كأنها المنشور الذى تمر منه كل أشعتها وخيوطها لتنصب فى حزمة ضوئية واحدة نهائية أو تتحلل إلى عواملها وطيوفها الأولية . المطلوب هو ألا نحلل خيوط هذه المعركة وكفى ، وانما كذلك أن ننسجها فى شبكة الصراع كله .

وليس أقل أهمية وضرورة بعد هذا أن نضع المعركة كلها فى المنظور العالمي الواسع ، بحيث نحدد مكانها من الاستراتيجية الكوكبية ، وقعا وموقعا ، ودورا ووظيفة . هدف طموح وشاق لا شك ، وربما شائك أيضا ، ولكنه وحده المنهج الصحيح في دراسة معارك المصير ، وهو بدوره الجدير بمثلها وحدها .

على هذا الأساس تتحدد خطة الكتاب . فنبدأ أولا بفصل مطول عن سيناء ، قدس أقداس مصر .

الفصل الثاني وما بعده يدور حول المعركة : مقدماتها وخططها ، ثم مراحلها العسكرية البارزة ابتداء من العبور التاريخى إلى اقتحام الخط العدو فتحرير القاعدة الأرضية العريضة في غرب سيناء وأخيرا عملية التسلل أو الثغرة . وتأكيدا لوحدة المعركة على الجبهتين المصرية والسورية ، نستكمل العرض مباشرة ودون انقطاع بتحليل مركز للمعركة السورية ، يصور المسرح الطبيعي ثم يحدد تطوراتها ومراحلها هى الأخرى .

وفى تحديد وتصنيف هذه المراحل ، تحاول الدراسة آن تعيد تركيب «سيناريو» المعركة ، ان صح التعبير ، فى تسلسله المنطقى وتداعى أحداثه الطبيعى ، بحيث تخرج الصورة النهائية واضحة فى الذهن كما هى خفيفة الحمل فى الذاكرة . فإذا ما فرغنا من هذا الاستعراض الشريطى ، جاز لنا أن ننظر إلى المعركة ، على جبهتيها وبشتى مراحلها ، ككل وكوحدة واحدة نظرة تحليلية وتركيبية معا ، جامعة وشاملة . فنحاول أولا التعرف على خصائصها الأساسية العامة ، ثم نضعها بعد ذلك فى الميزان : ما نتيجتها الصافية ، ولمن كان النصر فيها .

ثم يلى بعد ذلك الفصل السادس ، وهو عن السادس من أكتوبر فى الاستراتيجية العسكرية . فليست معركة أكتوبر من الناحية العسكرية بالمعركة البسيطة أو المحدودة ، ولا هى بالمعركة التقليدية الرتيبة أو الروتينية كذلك . ومن ثم يحاول الفصل أن يحدد أصالتها وأوجه تفردها وريادتها ثم يشخص مقوماتها وملامحها الأساسية : فى السلاح وأنواعه ونوعيته واستخدامه ، فى القوة البشرية ودورها ، فى طبيعتها ومدتها وتوقيتها ، وفى كل ما أحدثته من انقلابات فى الفكر الاستراتيجى وفى النظريات العسكرية .. الخ .

واستكمالا للموضوع ، ننتقل إلى دراسة مقارنة للسادس من أكتوبر في الاستراتيجية الاقليمية . فنعقد أولا مقارنة بين معركة اكتوبر وحرب الهند - الباكستان ، أخر حرب محلية سبقتها واقربها شبها بها في كثير من النواحي العسكرية والسياسية بل والصراعية العامة . ثم نمضي إلى مقارنة أكثر تفصيلا بين معركة أكتوبر ونقيضتها غير الأثيرة على الاطلاق والبغيضة جدا معركة يونيو ، لنجدهما على طرفي نقيض بالفعل كالشيء وصورته مقلوبة معكوسة في مرآة . وأخيرا نضع المعركة موضع المقارنة مع المعارك الكبرى في الحرب العالمية الثانية ، باعتبار أن الصراع العربي - الصهيوني هو إلى حد أو آخر تصغير أو تقريب للصراع الأوربي - النازي من حيث ان العنصرية والتوسعية والعسكرية قاسم مشترك بين الطرفين العدوانيين في كل منهما .

بعد هذا يبدأ باب جديد مداره اكتوبر في استراتيجية السياسة العالمية . لقد انتقلنا من الضيق إلى الواسع ، ومن الاطار المحلي والاقليمي إلى الاطار الدولي العريض . النظرة هنا كوكبية والأبعاد عالمية ، فأصداء ٦ اكتوبر وأضواؤه ، اشعاعاته وانعكاساته ، تملأ الدنيا وتلف حول الكرة الأرضية وتتردد في كل آرجائها لا أقل . إنها

ليست مجرد حدث عسكرى مدو أو فرقعة محلية مبهرة . وعلينا اذن أن «نركب» المعركة فى منحنيات الاستراتيجية العالمية وفى معادلة القوة الدولية .

فنبدأ أولا بفصل عن العرب والمعركة : أين كانوا قبلها وكيف ، تاثيرات يونيو السياسية وطنيا وقوميا ودوليا ، ثم الانقلاب الذى أحدثه ٦ اكتوبر فى دنيا العرب على المستويات الثلاثة نفسها ، مغزاه ومداه ، مستقبله ومستقبلهم .. الخ . ولما كانت معركة البترول هى الوجه الآخر لمعركة الميدان وصنوا لها ، وكانت معركة البترول معركة عالمية الأبعاد بالدرجة الأولى ، فقد أفردنا فى نهاية الفصل جزءا خاصا عن حرب البترول وتطوراتها ومدى فاعليتها ووقعها على العالم ، واضعين الضغط دائما على الجوانب السياسية الواسعة جنبا إلى جنب مع الجوانب الاقتصادية المباشرة .

وما دمنا قد عقدنا فصلا مستقلا عن العرب والمعركة ، فلا بد من فصل مناظر عن العدو والمعركة . انه طلبتها وضحيتها ، وهو أولى بدروسها وعبرها . وهكذا عرضنا أولا لموقف العدو المتغطرس والمفتون قبل اكتوبر ، خططه ومشاريعه ونواياه وتصريحاته ، عربدته واعتداءاته ... الخ . حتى إذا انقلبت الصورة وانعكست المرآة فى اكتوبر ، أصبح علينا أن نحدد نتائجها ونحلل آثارها الانقلابية عليه : الانهيار النفسى ، اختلال التوازن الاستراتيجى ، سقوط استراتيجيته الاقليمية ، وأخيرا وليس آخرا تصدع نظرية الأمن الاسرائيلى .

وعند كل واحدة من هـذه النقاط نتوقف قليلا أو كثيرا بالدراسة والتشريح .

العالم والمعركة هو موضوع الفصل التالى . فلقد كان العالم دائما الطرف الثالث فى الصراع العربى - الاسرائيلى ، ضابطا وضاغطا ، شريكا أو متطفلا ، عدوا أو صديقا ... الخ . وكان الصراع بدوره عالمى الأبعاد منذ البداية بقدر ما هو صـراع محلي فى النهاية . من هنا نتتبع دور العالم فى القضية وموقفه منها ، قبل وأثناء وبعد يونيو ، حالة اللاحرب واللاسلم ، دور الأمم المتحدة ، دور القوتين الأعظم والوفاق ، دور المتغيرات الدولية ... الخ . ثم أخيرا نرى كيف انقلب المفعول به فاعلا ، فاصبح اكتوبر آخر وأخطر المتغيرات الدولية ، فرض نفسه علي الجميع وترك بصمته على كل تلك الأطراف . وهنا نحلل تباعا وعلي الترتيب أثر المعركة على الوفاق ، على أوربا الغربية ، على افريقيا ، ثم أخيرا على الولايات ، المتحدة مع العدو الاسرائيلى .

وإذا كانت الدراسة قد انتهت إلى أن الرحلة أمام التحرير العربى والاسترداد المقدس ما تزال طويلة ومريرة وشاقة ، وإذا كان أكتوبر هو مجرد الخطوه الاولى فى رحلة الآلف ميل ، فإن روح السادس قد قضت مرة واحدة والى الابد بعودة الروح وفتحت إلى النهاية باب الامل وطريق العودة . ومن هنا نبدأ .

الباب الأول

الأرض والمعركة

الفصل الأول

قدس أقداس مصر

سيناء - ٦١ ألف كيلو متر مربع ، حوالى ٦٪ أو $\frac{١}{١٦}$ من مساحة مصر ، أو نحو ٣ أمثال مساحة الدلتا - تبدو على الخريطة كمثلث منتظم بدرجة أو بأخرى ، ارتفاعه من رأس برون (البردويل) حتى رأس محمد نحو ٣٨٠ - ٣٩٠ كم ، وأقصى عرضه بين السويس والعقبة نحو ٢١٠ كم . أى أن طوله نحو ضعف عرضه إلا قليلا ، قل بالأرقام المستديرة ٤٠٠ ، ٢٠٠ كم على الترتيب ، ولعل الأدق لهذا أن نقول مثلثا مائلا قليلا فى الجنوب ، يرتكز على قاعدة عريضة كالمستطيل تقريبا فى الشمال . المستطيل الشمالى ، أو «شمال سيناء» ، أضلاعه قناة السويس غربا ، والحدود السياسية مع فلسطين شرقا ، ثم ساحل البحر المتوسط شمالا ، وأخيرا الخط المائل بين رأسى خليجى السويس والعقبة جنوبا ، أو قل تجاوزا خط عرض ٣٠ درجة . ومتوسط طول هذا المستطيل نحو ٢٠٠ - ٢١٠ كم ، وعرضه ثلثا ذلك تقريبا أى نحو ١٥٠ كم . أما المثلث الجنوبى ، أو «جنوب سيناء» ، فرأسه عند رأس

محمد جنوب خط عرض ٢٨ درجة بقليل ، وارتفاعه نحو ٢٣٠ كم . أما ضلعاه فخليجا السويس والعقبة ، الأول طوله ٢٧٥ كم ، والثانى ١٨٠ كم .

هذا عن الشكل الخارجي . أما من الداخل فسيناء على الخريطة وفي الحقيقة ثلاثية في مثلث . فهى تنقسم إلى ثلاثة أقاليم طبيعية أو فيزيوغرافية تتوالى من الشمال إلى الجنوب : سهول واسعة تعرف اصطلاحا بسهول العريش وأحيانا بالصحراء ، هضبة وسطى يطلق عليها تعميما هضبة التيه ، ثم أخيرا كتلة جبلية تسمى عموما جبل الطور .

هذا وبكل المقاييس المناخية ، تعد سيناء منطقة صحراوية أو شبه صحراوية . فالأمطار الشتوية قليلة نادرة ، تتخلف أحيانا وأحيانا تتحول إلى سيول فجائية عنيفة جارفة . والأمطار بعامة تقل نحو الجنوب ، تصرف الأودية أكثرها إلى البحر ، ولكن الرمال خاصة فى الشمال تحتفظ بجزء منها في باطن التربة . ومن هنا تصبح الأودية أولا ، والآبار الجوفية ثانيا ، أهم موارد المياه . وهذه بدورها تكتسب قيمة حيوية كبرى فى هذه البيئة الفقيرة ، وتصبح هى أهم ضوابط الانتاج الاقتصادى وبالتالى توزيع العمران .

وبحكم مورفولوجية سيناء العامة ، فإن نمط التصريف الذى يسود سيناء برمتها هو النمط الدائري المشع radial ، فكل أوديتها تنبع من قلب المرتفعات أو من ضلوعها متجهة إلى سواحلها الثلاثة ، ولذلك ترسم شبكة الصرف الهيدرولوجى ، ومعها شبكة الطرق والمسالك الطبيعية ، وفى النهاية الامكانيات الاقتصادية ونمط العمران ، ترسم حلقة هامشية تحف بأطراف شبه الجزيرة .

السهول الشمالية

وفى الشرق نوعا متوسط اتساعها يتراوح حول ٥٠ كم ، ولكنها تزيد عن ذلك فى الغرب كثيرا . وهى تتدرج بطبيعة الحال فى الارتفاع ، فتعلو باطراد من الشمال إلى الجنوب . ولذا يختلف شمالها عن جنوبها فى المستوى وفى التضريس . ويمكن بالتقريب أن نحددها بين مستوى سطح البحر وخط كنتور ٢٠٠ متر ، فهى منخفضة وفسيحة بعامة ، تحف سواحلها المستنقعات والسبخات والأراضى الملحية وأهمها سبخة البردويل الطولية وامتدادها بحيرة الزرانيق وسبخة سهل الطينة فى مواجهة بحيرة المنزلة . ولكن أبرز ما يميز هذه السهول الشمالية هى الكثبان الرملية البليستوسينية الحديثة التى تغطى الجزء الأكبر منها ، والتى قد يصل ارتفاعها إلى ١٠٠ متر ، والتى أعطتها اسمها

العربى القديم ، اقليم الجفار ، كما تعطى اللاندسكيب أخص ملامحه وتلعب دورا خاصا فى الحياة الاقتصادية وتعين حدود الحركة والمواصلات .

والمطر على الشريط الساحلى أغزر ما فى سيناء ، ولكنه يقل بسرعة نحو الجنوب . وهو على الساحل يزداد كلما اتجهنا شرقا ، حيث امكانيات الحياة والزراعة وموارد المياه أغنى والعمران أكثف ، خاصة فى قطاع العريش - رفح . وإذ تسقط هذه الأمطار على نطاق الكثبان ، تتحول هذه الأخيرة إلى خزانات طبيعية ثمينة جدا للمياه ، فتصبح المياه الجوفية والآبار عماد الاستقرار والحركة ، أى الزراعة والعمران من ناحية وحركة المواصلات والجيوش من الناحية الأخرى على الترتيب .

وللفتحات التى تفصل بينها قيمة كبرى كطرق الحركة والمواصلات الطبيعية ، ومن هنا تستمد أهميتها الاستراتيجية الخاصة .

ورغم أن هذه الجبال تنتشر على صفحة السهول الجنوبية عموما بلا تحديد أو نظام صارم ، وأحيانا تتجاوزها إلى أطراف السهول الشمالية ، فانها تؤلف فى مجموعها خطا واضحا إلى حد بعيد أشبه بالقاطع الذى يختط المستطيل القاعدى الشمالى بعامة من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، أى من قرب منطقة السويس إلى قرب

منطقة أبو عجيلة (أبو عويقلة) والأدوية والفتحات والممرات التى تفصل بين حلقات هذا الخط تقدم مفاتيح الحركة الحرجة .

فإذا بدأنا من الجنوب الغربى وجدنا أولا كتلة جبلية طولية تنقسم بعدد من الأدوية والممرات العرضية إلي عدة جبال منفصلة : فهناك جبل الراحة الذى يحده جنوبا وادى سدر فاصلا إياه عن كتلة الهضبة الوسطى ، بينما يحده شمالا ممر متلا الذى يقع إلي الشمال منه جبل حيطان . ويمتد ممر متلا بضع عشرات من الكيلو مترات ، ولكنه يضيق حتى يصل أحيانا إلي عدة عشرات من الأمتار فقط . ثم يلى إلي الشمال جبل أم خشيب ، ويفصله عن جبل حيطان وادى وممر الجدى . وأخيرا فى أقصى الشمال نجد جبل الختمية الذى يفصله عن جبل أم خشيب ممر آخر هو ممر الختمية .

فإذا ما عدنا مع القاطع الأساسى وجدنا إلى الشمال الشرقى فى قلب الوسط جبل يلق (يلج) ، ثم بعيدا أكثر وفى الاتجاه نفسه جبل حلال الذى تتمه تلال أقل ارتفاعا تصل بنا فى النهاية إلى منطقة أبو عجيلة وثمة إلى الشمال كثيرا من جبل يلق وبعيدا عنه جبل صغير هو جبل المغارة ، يناظره إلى الشمال من جبل حلال جبل صغير آخر هو جبل لبنى . وكلا الجبلين الصغيرين يمثلان بعض مقدمات أو طلائع القاطع الجبلى .

بعد مقدم الهضبة هذا تبدأ كتلتها الحقيقية بنواتها الصلبة وصلبها المتماسك . ومعظم مناجم سيناء المعدنية ، خاصة مناجم المنجنيز والفوسفات ، تقع على الضلوع والمنحدرات الغربية لهذه الكتلة الهضبية ، أى التي تطل منها على خليج السويس . وإذا كانت التسمية الشائعة لها هى هضبة التيه ، فإنها فى الحقيقة تتألف من هضبتين تكاد أيضا تتنصف بينهما عمقا : هضبة التيه فى الشمال ، والعجمة في الجنوب . وكلتا الهضبتين مائدية السطح ، تتكون من الصخور الجيرية ، وتنحدر فى الشمال بحافة حادة تحددها بوضوح .

فهضبة التيه ، التى تغلب عليها الصخور الطباشيرية ، ترتفع عن السهول الشمالية بجرف كبير ، ويتراوح ارتفاعها بين ٥٠٠ ، ١٠٠٠ متر . وهي بطبيعة الحال الأكثر عرضا واتساعا وبالتالى مساحة (نحو الضعف) ، كما أنها مقطعة بروافد وادى العريش العليا ، الذى يصرفها وتقع هي فى حوضه .

أما هضبة العجمة فأقل عرضا ومساحتها نحو نصف مساحة هضبة التيه . غير أنها أشد ارتفاعا ، بين ١٠٠٠ ، ١٥٠٠ متر . يفصلها عن هضبة التيه فى الشمال جرف منحدر آخر ، وهذه الحافة تكاد تحدد خط تقسيم روافد وادى العريش ، بحيث لا تدخل هضبة

العجمة نفسها فيه ، بل يصرفها عدد محدود من الأودية الصغيرة التى تنصب فى خليجى العقبة والسويس .

هذه بصورة عامة مورفولوجية الهضبة الوسطى من سيناء بأقسامها المختلفة ، ولا تكتمل إلا باضافة ذلك الوادى الكبير الذى يمنحها وحدتها العامة - وادى العريش . فوادى العريش ليس فقط أكبر الأودية الصحراوية طولا وتشعبا ومساحة حوض فى سيناء وحدها ، ولكنه من أكبر ما فى مصر كلها ، فلعله يتفوق على كل أودية جنوب الصحراء الشرقية فى هذه الأبعاد ربما باستثناء العلاقى وحده . وهو على أية حال أكثر أودية مصر الصحراوية شمالية واعتدالا وأقلها مدارية . ولا غرابة بعد هذا أنه كان يسمى منذ أقدم العصور «بنهر مصر» .

طوله نحو ٢٥٠ كم ، وحوض صرفه يكاد يضم نصف مساحة سيناء ، ويجمع ثلثى مياهها جميعا . أما تركيبه المورفولوجى فشجرى مثالى dendritic ، يتألف من عدد كبير جدا من الروافد التى تنتظم كالمروحة أو العنقود أو الحزمة . تنبع روافد الوادى العليا من جنوب هضبة التيه على ارتفاع ١٠٠٠ متر ويكاد خط تقسيم مياهه أن يحدد جبهة التقسيم بين هذه الهضبة فى الشمال وهضبة العجمة إلى الجنوب منها . وبعد أن تقطع روافده العديدة هضبة التيه وتقطعها ، تتجمع فى

مجمعين أساسيين هما وادى العقبة من الجنوب الشرقى ووادى البروك من الجنوب الغربى .

والمهم هنا أن نلاحظ أن كثيراً جدا من مواقع وسط وشمال سيناء المعروفة ، على الحدود السياسية كما فى القلب الداخلى ، تقع على واحد أو أكثر من هذه الروافد . مثال ذلك : نخل ، بير جبل الحصن ، بير التمادة ، الثمد ، فى الداخل ، ثم الكونتيلا ، القصيمة ، العوجة على الحدود ، بينما تقع أبو عجيلة عليه قرب مصبه ، ثم بعدها بير لحفن قبل أن ينتهى أخيرا عند مدينة العريش .

الكتلة الجبلية

أو كتلة جبل الطور ، تحتل الثلث الجنوبى الأقصى والأضيق من مثلث شبه الجزيرة المحد بالخليجين . لذا فمساحتها رقعة محدودة نسبيا ، ولكنها متميزة إلى أقصى حد . يفصلها عن نهاية الهضبة الوسطى (قطاع العجمة) مجموعة من الأودية الجبلية المعقدة العميقة التى تنتهى إلى الخليجين شرقا وغربا ، والتى تحدد طريق المواصلات الأساسى عبر شبه الجزيرة فى هذا الجزء الوعر منها . ويمكن تحديد هذا الفاصل أساسا بواديى نصب شرقا وفيران غربا .

فيما عدا هذا . فالكتلة نفسها نواة معقدة إلى أقصى حد من الصخور النارية والمتحولة القديمة ، يسودها الجرانيت بألوانه المختلفة ، فإن الأمطار هنا وبفضل هذا الارتفاع أغزر مما هى عليه فى الهضبة الوسطى ، وموارد المياه في الأدوية أعذب ، لكن اللاندسكيب فقير عار والجبال جرداء كما هى وعرة وقاسية .

وعلى امتداد مثلث شبه الجزيرة في مجموعه ، هناك فارق هام بين السهول الساحلية ، كما بين الخليجين ، شرقا وغربا . فعلى الغرب تترك الهضبة والجبال سهلا ساحليا متسعا نسبيا يصل إلى أقصى مداه فى نصفه الجنوبى حيث يعرف بسهل القاع الذى تتوسطه مدينة الطور . كذلك تكثر الأودية الجبلية الطويلة مثل سدر وسدرى ، ولكن بالأخص وادى فيران أطولها وأغناها بالنبات والواحات . أما على خليج العقبة فلا تكاد المرتفعات تترك سهلا ساحليا بمعنى الكلمة ، وقد يختنق تماما ، مما ينعكس على المواصلات . كذلك فإن الأودية الجبلية قصيرة منحدرة قليلة العدد والأهمية وأهمها هو وادى نصب التى تقع على مصبه ميناء دهب .

كذلك يختلف الخليجان اختلافا جذريا . فخليج السويس أعرض كما هو أطول ، ولكنه أساساً رصيفى متوسط العمق ، أقل كثيرا من ١٠٠ متر . أما خليج العقبة فأضيق كثيرا كما هو أقصر . ولكن الفارق

الأكبر أنه أعمق بكثير جدا من خليج السويس ، أخدودى جدا ، نحو ١٠٠٠ متر عمقا ، أى أكثر من عشرة أمثال خليج السويس . أما سبب هذا الاختلاف فهو العمر الجيولوجى . فخليج السويس أقدم جدا ، ومن ثم رفعت قاعة الارسابات المتراكمة ، أما العقبة فخليج حديث النشأة للغاية . وأخيرا فإن السويس خليج مدخله أكثر انفتاحا واتساعا ، إلا من جزر الشعاب المرجانية التى من أهمها شدوان (شاكر) . أما خليج العقبة فبحر شبه مغلق يختنق مدخله بعنق ضيق هو مضيق تيران الذى تتوسطه جزيرتا تيران وصنافير .

فعلى الساحل الشمالى شريط من الأراضى الصالحة للزراعة التى لا تنقصها موارد المياه المعقولة . وتتركز الزراعة خاصة فى القطاع الشرقى منه ، حيث تقوم زراعات الفواكه والأشجار المثمرة والخضروات إلى جانب أجام النخيل الكثيفة . وفى القطاع الغربى ، خاصة سهل الطينة ، رقع من التربة من أصل أرسابات فروع دلتا النيل القديمة ، تمثل امكانيات جيدة للاستصلاح والاستزراع .

ولكن رغم أهمية الزراعة والاستقرار فى الساحل الشمالى ، فإن الرعى والبداوة تسود الرقعة الكبرى من سيناء وتمثل الحرفة الأساسية للجزء الأكبر من سكانها ، نحو الثلثين ربما . كذلك فرغم أهمية التعدين منذ القدم ، وخاصة فى العصر الحديث ، والأخص منذ البترول ، فإنه

يقتصر أساسا على نطاق ساحل خليج السويس وما وراءه من منحدرات ، فهنا كانت تتركز مناجم المعادن والأحجار الكريمة خاصة الذهب والفيروز ومحاجر الفراعنة القديمة ، وهنا تتركز مناجم الفوسفات والمنجنيز والحديد الحديثة ، وأهم منها حقول البترول التى كانت فى وقت ما تقدم نحو ثلثى انتاج مصر . وفيما عدا هذا ، فإن الصيد يتوزع على السواحل ، وخاصة فى بحيرات الشمال .

على هذه القاعدة الاقتصادية المخلخلة يقوم الهيكل العمرانى وبها يتحدد . فمجموع السكان محدود جدا بالنسبة إلى المساحة الشاسعة . وتتفاوت تقديرات السكان بشدة ، ما بين ١٠٠ ألف ، ٢٠٠ ألف قبل الاحتلال الاسرائيلى (الذى فرغ المنطقة من نحو نصف سكانها فيما يقدر بالتهجير الاجبارى والطرد والارهاب) . وهذا يعادل بالكاد سكان مدينة متوسطة الحجم فى وادى النيل . ولهذا فإن متوسط الكثافة العام منخفض جدا ، ١ -٢ نسمة فى الكيلو متر المربع .

ولكن التوزيع الفعلى للسكان مركز أساسا فى مواطن الانتاج والمياه التى ترتبط بأطراف المنطقة وهوامشها ، بينما تخلو رقع كثيرة وشاسعة فى الداخل الهضبى والجبلى من السكان تقريبا وتكاد تعد من اللامعمور . ولهذا يأخذ العمران بصورة تقريبية نمطا حلقيا

حول «القلب الميت» . وهذه صورة مألوفة فى الجغرافيا البشرية ، ولكنها هنا تبدو أشد غرابة لأن المنطقة جميعا ضعيفة السكان للغاية .

وتأخذ حلقة العمران شكل الشريط المتصل نوعا على الساحل الشمالي الشرقى من رفح حتي البرودويل ، تتوجه مدينة العريش ، كبرى مدن سيناء ، نحو ٥٠ ألفا ، تمثل وحدها نحو ربع إلى ثلث سكان شبه الجزيرة . ويتقطع هذا الشريط فى امتداده غربا ، ثم يتحول إلى عقد من النقط المأهولة على الضفة الشرقية لقناة السويس حيث مدن القناة الصغيرة ، وكبراها القنطرة شرق التى تعد ثانى أكبر مدينة فى سيناء ، وعلي ساحل خليج السويس ينتثر عقد مدن التعدين مثل أبو زنيمة ، ومستعمرات البترول الحديثة التى أبرزها أبو رديس . وعلى ساحل خليج العقبة تزداد نقط العمران تباعدا وتضاؤلا ، وأغلبها موانى الصيد أو الموانى الحربية . وتكمل الحلقة على طول الحدود الشرقية مجموعة من نقط المخافر والمراكز العسكرية ابتداء من رأس النقب وطابا والكونتيلا إلى القصيمة والعوجة وأبو عجيلة . وفيما عدا هذا ، فهناك شتيت منثور من الواحات ومراكز الاستقرار الصغيرة فى قلب الداخل أشبه بالجزر المنعزلة وأغلبها مرتبط بالأودية الرئيسية وخاصة على نقط تقاطعها .

الفصل الثانى

معركة التحرير الكبرى

معركة العودة

لقد عدنا يا دايان ! نعم ، عدنا إلى سيناء لا بشروط صهيون المهينة والحلول الاستسلامية ، كما ظل سنوات يتبجح بكل غرور الحقود وصلف المتحكم القمىء ، ولكن على اشلائه وفوق جثته عدنا . عدنا بقوة الحديد والنار بعد أن أنفق العدو ست سنوات يصور وجوده فى سيناء المحتلة قلعة صماء غير منفذة للغزو مستحيل اقتحامها . والواقع أن العدو - وهو خبيث اكثر مما هو ذكى ، وحاقد أكثر منه قادرا كما كان يظنه البعض - انما أنفق تلك السنوات فى محاولة عظمى لكى يكسب المعركة المنتظرة بغير رصاصة على الاطلاق أو قبل اطلاق الرصاصة الأولى .

والاشارة هى بالطبع إلى الحرب النفسية الضارية المخططة التى شنها . فكل ما كان العدو يقوله ويفعله طوال السنوات الأخيرة كان

موجها إلى المعركة الرابعة ، أو بالأحرى إلى ألا تكون معركة رابعة على الاطلاق . فبكل طريقة موجبة وسالبة كان يحاول أن يستغل انتصاره السابق وآن يستثمر هزيمتنا ليهزمنا ثانيا . بحملات التشكيك العاتية فى قدراتنا وامكانياتنا ومعنوياتنا ، بل حتى فى طبيعتنا وشخصيتنا ، ثم فى تسليحنا وأصدقائنا ، حاول أن يتسرب حتى يترسب فى أعماقنا ألا فائدة ولا جدوى . وبالأسطورة الخرافية التى بناها عن «جيش الدفاع الذى لا يقهر» وقادته «ألهة الحرب الجدد» (كذا) ، والتفوق التكنولوجي والجوى الطاقى ، والحرب الالكترونية ، وباستعراض عضلاته وأسلحته المتطورة والسرية ، بميراجه والفانتوم .. الخ ،، بكل هذا حاول بانتظام ارهابنا نفسيا لنرتعد فنرتدع فنتقاعس عن المواجهة .

والجدير بالذكر أن العدو تابع حملته النفسية بانتظام وعن عمد وتخطيط لتحطيم أعصابنا ومعنوياتنا حتى أخر لحظة قبل أن يتلقى صدمة عمره ، بل وحتى بعدها . فكلنا لا شك لازال يذكر صرخة اليعازر الارهابية «سندق لحمهم فى عظامهم» ، وصيحة المعلق العسكرى للاذاعة الاسرائيلية «سنجعلهم يرون النجوم فى وضح النهار» .. وقبل الحرب بيومين فقط ، قال اليعازر فى حديث للتليفزيون البريطاني ما مؤداه أن الجيش المصرى إذا حاول عبور القناة فسيجد أمامه أقوى خط دفاعى

في العالم ، مما سيسبب له خسارة أكبر مما يظن القادة المصريون . وعلى الرغم من هذه الخسارة ، فلن يتمكن مصرى واحد من العبور إلى سيناء ، كما لن تتمكن دبابة مصرية واحدة من الوصول إليها . ثم أضاف رئيس الأركان الاسرائيلي أن سلاح الطيران سيكون أداة البطش والردع الاسرائيلي ، فلسوف يسود جو المعركة على الفور ، وسوف يتم القضاء على سلاح الطيران المصرى وعلى سلاح الدفاع الجوى أيضا في الدقائق الأولى من بدء القتال . وختم اليعازر تهديداته بقمة الصلف والغرور : «أنها هذه المرة ستكون حرب الساعات الست ، لا حرب الأيام الستة» ! أما مايير فقد عبرت عن العجرفة بالدهشة بدل التهديد ، قالت ببساطة في حديثها إلى الاسرائيليين في أول أيام القتال «ان الهجوم العربى يرقى إلى الجنون» ! أما دايان فكان لا يزال يعيش في ١٩٦٧ ويحلم بتكراره ، قال يوم ٧ أكتوبر «يومان لصد الهجوم المصرى السورى ، ثم يومان يكتمل خلالهما استدعاء الاحتياطي الاسرائيلي ، ثم يومان لإنهاء القتال» !

لقد خلقت اسرائيل الأسطورة بالفعل ، ضخمتها ، نشرتها واشاعتها ، ثم عاشت فيها حتى صدقتها ، وصدقتها حتى ارتدت إلى صدرها في حركة عكسية «كالبوميرانج» فهزمتها ! - كلا ، بل نحن الذين هزمناها . فثمة الآن في الغرب نظرية - تبريرية محض - تقول

ان اسرائيل انما هزمت لأنها صدقت اسطورة تفوقها وعاشت فى أوهام استعلائها . وقد عبرت الأويزيرفر عن هذه النظرية أثناء المعركة حين قالت «ان القادة الاسرائيليين لم يعتدوا إلا أقل القليل بمدى شجاعة خصومهم وقدرتهم التكتيكية ، واربما وقعوا أيضا ، هؤلاء القادة ، ضحايا لأسطورة أنهم قوم لا يقهرون» .

على أننا نرى فى هذه النظرية من الانحراف أكثر مما فيها من الاعتراف . صحيح لقد كان الغرور الاسرائيلى الوقح وجنون العظمة مقتلا من مقاتلها ولكن الضربة الموجبة القاضية انما أتت من القدرة العربية الذاتية ، المفترى عليها طويلا ، ومن التخطيط والتصميم والارادة العربية . ونحن لم نسرق نصرا سهلا هشا من وراء ظهر العدو ، وانما انتزعناه من بين أسنانه بجدارة واقتدار .

لقد أراد العدو أن تكون المعركة الرابعة نسخة مكررة من معركة يونيو ، فجعلتها اليد العربية الجديدة ، العليا والطولى ، نسخة مقلوبة معكوسة منها . لقد استوعبنا نحن درس يونيو وتجربته المريرة ، وتركنا للعدو أن يمارس بهلوانياته الدعائية فى المباهاة والتفاخر وعبادة الذات وأن يجتر نرجسيته علنا . فكان حتما وحقا أن يدفع ثمن النصر الرخيص الذى سرقه فى غفلة من زمن .

وكما يلخص الهيثم الأيوبى بحذق المختص «يمكن القول هنا ان انتصار اسرائيل السهل فى عام ١٩٦٧ كان أكبر أعدائها ، وأخطر ما تعرضت له فى حياتها ، وأن هزيمة ١٩٦٧ علمت العرب دروسا كثيرة وكانت أفضل حلفائهم فى الحرب الرابعة . وهكذا انطبقت على الصراع العربى - الاسرائيلى قاعدة أثبتها التاريخ العسكرى أكثر من مرة ، وهى أنه يندر أن يتعلم المنتصر الكثير من انتصاره ، أما المهزوم فهو أكبر المتعلمين من الهزيمة» . وفى المعنى نفسه قالت الديلى تلجراف «ان العرب قد استفادوا من هزيمتهم ١٩٦٧ ، بأفضل مما تعلم الاسرائيليون من انتصارهم» .

أركان الخطة

فما هى الآن نقط القوة فى الخطة العربية التى حققت بها القفزة الكبرى على سيناء فحققت لها النصر الميدانى الاستراتيجى والتكتيكى من البداية حتى النهاية تقريبا ؟ فيما عدا العوامل النفسية وحوافز التحرير والوطنية ونوعية المقاتل المصرى الجديد والسلاح والتدريب ... الخ ، أى فيما عدا العوامل المعنوية والمادية ، هى أبعاد استراتيجية أربعة تؤلف أركان الخطة وأعمدة القوة : المبادأة ، المفاجأة ، الحرب الشاملة ، وأخيرا الحرب الطويلة .

المبادأة

فأولا ، بالمبادأة نعنى الهجوم ، وبالدقة والتحديد المبادأة بالهجوم . ولقد كانت استراتيجية العدو دائما هجومية من البداية إلى النهاية ، وكان أبدا حريصا على ألا يترك لنا زمام المبادأة أو المبادرة . ولقد كان دايان دائما يردد متفاخرا «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» . وتلك فى الواقع كانت سياسة «الحرب الوقائية» المكذوبة ملفقة المنطق ، سياسة شل الأعصاب وتدمير قوة الخصم غدرا على الأرض قبل أن يتحرك ، فيها كان العدو يرى صمام أمنه بل صميم وجوده ذاته ، وحولها خطط كل استراتيجية العظمى ، ونكاد نضيف : وبها كانت تتجسم كل أخلاقياته ..

ومن الضرورى أن ندرك أن هذه الاستراتيجية الهجومية - بل هذه الاستراتيجية العظمى الهجومية ، لأنها المركز المحورى والمنبعى فى كل فلسفة العسكرية الصهيونية - هى جزء لا يتجزأ من الطبيعة الاستفزازية والعدوانية المتأصلة فى الوجود الاسرائيلى من أساسه . انها امتداد طبيعى ومنطقى جدا للاغتصاب الأصلى . ولهذا لم تكن قط خطة مرحلية ، بل سياسة ثابتة ودائمة بدأت مع قيام الدولة ، بل الييشوف ، وسوف تستمر إلى نهايتها .

خذ مثلا ما قاله الجنرال ايجال يادين ، من أوائل رؤساء أركان العدو . « لا شيء - يقول هو في كتاب له - أخطر على وجود اسرائيل من وجود الروح الهجومية عند العرب . لذلك يجب علينا أن نواجه هذه الروح الهجومية بضربات هجومية أشد وأقوى . ولا يجوز رد الهجوم الا بسبق العرب إليه . أما إذا سبقتنا القوات العربية إلى الهجوم ، فإن الهجوم المضاد يصبح الرد الوحيد والفعال» .

ولقد كان من الواضح تماما منذ يونيو أن ليس هناك قط ما يدعو العدو إلى تغيير استراتيجيته . ومن المؤكد أن هذا ما كان يبيته ويخطط له . وبالفعل ، فلقد اعترفت اســـرائيل أخيرا وعلى لسان رئيسة وزارتها ولأول مرة منذ ٦ أكتوبر بأنها كانت تفكر في الهجوم على مصر هجوما جويا شاملا في «حرب وقائية» في ذلك التاريخ نفسه وبعينه ، لكنها كما زعمت عدلت في آخر لحظة ، خشية أن تفقد المزيد من الرأى العام العالمى .

غير أننا ، مهما يكن ، كنا أسبق وأسرع ، فكانت الضربة الجوابية الأولى لنا فور بداية عدوانه على خليج السويس ، بحيث اختل توازن العدو في اللحظة السيكولوجية ووضع على جانب الدفاع منذ اللحظة الأولى . وقد كان الاضطراب الشديد والفوضى الارتجالية البادية وردود الفعل العصبية الطائشة هي أبرز ملامح سلوك العدو في الأيام الأولى وبالأخص الساعات الأولى من المعركة . وكان هذا كله دليلا ساطعا على

آن «جيش الدفاع الاسرائيلى» ، كما يسمونه ، لم يكن جيشا للدفاع ولا صالحا للدفاع .

كانت كل عقيدته القتالية تدور حول محور الهجوم الخاطف والحرب القصيرة السريعة ، غير معد نفسيا ولا عسكريا للدفاع الجدى . ومن الثابت أن هذا وحده كان عاملا من عوامل اهتزازه واضطرابه حين تعرض لأول حرب هجومية حقيقية فى تاريخه . وما من شك ، فى النتيجة ، أن مبادرتنا بالهجوم كانت مفتاح النصر ، فى حين أن فرض موقف الدفاع على العدو كان بداية هزيمته إن لم يثبت فى النهاية أنه كان نصف الهزيمة بالنسبة له .

ومما يرجح هذا ، بل ويكاد يؤكده ، ردود فعل العدو لضياع المبادرة والمبادأة منه واختطاف العرب لها . فلقد ادعى لحين ما «الفضيلة» ، فلما وجد أنها «فضيلة العجز» كشف عن مكنون حقده بلا خباء . فمثلا قال ياريف «لقد جازفت حكومة اسرائيل عندما منحت العدو فرصة المبادرة دون أن تتخذ مبادرة وقائية ، لأنها أرادت أن تثبت للعالم أنها تريد السلام» .هذا بينما قال بارليف وهو يطفح بروح الانتقام «ان اسرائيل فوجئت مرة ، وأن هذا لن يتكرر ثانية ... ان الجيش الاسرائيلى لن يؤخذ على حين غرة كما حدث هذه المرة» . أما اليعازر فقد أعلن بمزيج من الندم والحذر أن «أمن اسرائيل لا يتوقف على

تحذير أو انذار مسبق فقط ، وانما على جيش نظامى دائم وسلاح جوى قادر على منع وقوع كارثة فى حالة حدوث هجوم دون سابق إنذار كاف» .

وإذا نحن نظرنا إلى الحروب الثلاثة الأولى بين العرب واسرائيل نجدها جميعا «حروبا اسرائيلية» تماما أو تقريبا ، بمعنى أن زمام المبادأة والمبادرة والحركة والهجوم استراتيجيا وتكتيكيا فى يد اسرائيل ، هى التى تحدد الزمان والمكان ، وهى التى تفرض أسلوب القتال بما يلائمها ، وهى التى - فى النتيجة - تجنى ثمار النصر . أما العرب فعلى الدفاع الثابت السلبى ، مجرد رد فعل يحدد العدو ايقاعه ويرقصون هم على أنغامه .

أما فى أكتوبر فإن الاستراتيجية العظمى والروح السائدة والعقيدة القتالية هجومية أساسا ، سواء ذلك على المستوى الاستراتيجى أو التكتيكى ، وابتداء من تحديد الزمان والمكان إلى أساليب القتال الملائمة من حرب خاطفة صاعقة أو مواجهة تصادمية طويلة إلى الاقتراب غير المباشر والاختراق والتطويق ... الخ . ولقد اعترف العدو فعلا بأنه فى وقت ما من المعركة كان «يرقص على أنغام المصريين» (شارون) . حتى الدفاع هو الآخر كان لأول مرة أيضا ، دفاعا هجوميا ، بمعنى الدفاع الدينامى المتحرك لا الثابت ، بما فى ذلك الهجوم المضاد ،

وبمعنى الحجم الهجومى والاستحكامات الحصينة وتكتيك الجذب والضرب ... الخ .

ولما كانت الحرب فى الحقيقة هى الهجوم ، فإن الدفاع مجرد جملة اعتراضية مهما طالت ووسيلة مرحلية لا غاية نهائية لكسب الوقت ريثما يتمكن الجانب الأضعف أو المفاجأ من تطوير قواه إلى الهجوم . وكل دفاع يقف عند حد الدفاع البحت ولا يتعداه إلى الهجوم فى النهاية ، فهو فى أحسن الأحوال دفاع عن الوضع الراهن فقط ولا يمكن أن يخلق وضعا جديدا . الدفاع سلبى بالضرورة ، كما أن الايجابية الفعالة هى الهجوم وحده . ولهذا يمكن القول بحق ، مع كاتب «الشرارة» الثاقب، ان معركة اكتوبر هى «حرب عربية صرفة ، بل وأول حرب عربية منذ بدء الصراع العربى - الاسرائيلى» .

ولا ينبغى أن يكون لدينا شك أن جزءا من انتصارنا يرجع إلى مبادرتنا بالهجوم . فالمهاجم والبادىء بالهجوم ، كقاعدة عامة وأساسية فى كتاب الحرب ، هو الأقدر والأقوى على فرض ارادته ، وهو الأقرب إلى احتمالات النصر ، والأكثر تدميرا للعدو حتى إن لم ينتصر . ولعل هذا فعلا هو المقصود بالشعار القديم «لا يكسب المعارك إلا من يخوضونها» . وعلى أية حال ، فلقد كان من دروس اكتوبر كما استخلصها جالليه وزير الدفاع الفرنسى أن حرب الشرق الأوسط أثبتت

آن فرص الانتصار أكبر للمهاجم ، وأن الدفاع أدعى فى الحرب الحديثة القصيرة إلى الهزيمة ، أو هو على الأصح يرفع فرصها ويقلل فرص النصر . وإذا كان هذا هو درس المعركة ، كما هو درس التاريخ كله من قبل ، فالأهم أنه يبقى درس المستقبل وأمل العرب : لا ينبغى للعرب أن يكونوا بعد اليوم على الدفاع ، الهجوم أولا ، الهجوم أولى ، الهجوم وإلا فلا .

إلى هذا المدى فعلا وبلا مغالاة تصل أهمية المبادأة من حيث المبدأ وعلى المستوى العام . ولكنها تصل إلى أبعد منه وبلا حدود تقريبا فى حالة الصراع العربى - الاسرائيلى بالتحديد . ويرجع ذلك إلى أسباب خاصة تتعلق بملابسات الصراع وظروفه وطبيعة العدو وتقاليده العسكرية ، بحيث تضاعف من خطر المبادأة بالهجوم ودوره الحاسم . ونستطيع أن نرصد فى هذا ثلاثة اعتبارات خاصة أو محلية ، ينبغى دائما أن تكون نصب أعين المخطط الاستراتيجى العربى كدروس من اكتوبر وكبوصلة للمستقبل ، وتلك هى : قصر المعارك مع أسرائيل ، نظام التعبئة الاسرائيلى ، تعدد جبهات القتال .

فعن الأولى ، تمتاز معاركنا مع اسرائيل بالقصر مهما طالت ، فالتمييز دائما باليوم أو على الأكثر بالأسبوع . ليس لأن الحرب الحديثة أميل بطبيعتها كما سنرى إلى القصر المطرد فحسب ، ولكن كذلك لأن العدو يضع الحرب الخاطفة القصيرة على رأس إستراتيجيته

العسكرية. والمهم أنه نتيجة لهذا القصر الشديد ، يصبح لعامل المبادأة بالهجوم دور حاسم وأخطر مما يتناسب مع طوله الزمنى ، بحيث يكاد اليوم الواحد فيه يعادل فى انجازاته وتقدماته بضعة أيام من الناحية العملية . وهو بهذا يختزل فجاة وباقتدار جزءا كبيرا من المعركة فى ضربة أولى وعاجلة ، فلا يكاد المدافع يفيق منها حتى تكون أيام المعركة الباقية أمامه قد أصبحت معدودة تقل فيها فرص قلب المائدة على المهاجم . وقد كان هذا واضحا بجلاء فى افتتاحية معركة اكتوبر ، حيث قطع الهجوم العربى فى الساعات الأولى شوطا يعادل ما قطعه بعد ذلك فى أيام .

أما مسألة نظام التعبئة الاسرائيلية فقد أوضحت تجربة اكتوبر بما لا يقبل الجدل أو النقض أنه ما وضع ولا جعل الا للهجوم ، ولكنه يمثل نقطة ضعف خطيرة حين يوضع على الدفاع . فنظام التعبئة الاسرائيلى لا يقضى بالاحتفاظ بالجيش كاملا تحت السلاح باستمرار ، فهذه النواة العاملة المحترفة انما هى الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد الطافى ، كما وضعها بن جوريون ، أما جسم الجبل فيعتمد على وضع كل القادرين على حمل السلاح فى الاحتياطي تحت التدريب الدورى المنتظم وتحت الطلب الفورى فى أية لحظة بحيث تتم تعبئة نصف الاحتياطى فى ٢٤ ساعة وكل الاحتياطى فى ٤٨ إلى ٧٢ ساعة .

وفيما عدا هذا فإن العدو يعتمد اساسا على جهاز مخابراته كإنذار مبكر وكخط دفاعه الأول .

وهذا النظام - الاقتصادى ماديا والفعال اجتماعيا - يلائم جدا أغراض الهجوم واستراتيجية العدو العدوانية . فحين يبيت المبادأة بالهجوم والمباغتة الفجائية يستدعى احتياطيه سرا حسب خطته الموضوعة ، فلا تطلق الرصاصة الأولى إلا وكل جيشه جاهز تماما فى قلب المعركة . على العكس إذا هوجم فجأة : يكاد يجد نفسه عاريا إلا من بعض قوات امامية موزعة ومنتشرة لا يمكن أن تصد هجوما شاملا ضخما . وهذا بالدقة ما حدث فى اكتوبر . فحين فوجىء العدو بهجومنا ، ضغط فترة استدعاء احتياطيه من ٢٤ ساعة ، وفترة ارساله إلى الجبهة من ٤٨ ساعة ، إلى ٦ ساعات فقط . من هنا كان الارتباك والاضطراب العظيم ابتداء من الجنرالات حتى أصغر الرتب . وكما كتب تشرشل الأصغر «لقد ثارت اتهامات قاسية ضد الجيش الاسرائيلى على أساس أن تقديرات المخابرات والسلطات العسكرية لم تكن خاطئة فحسب ، بل أن أجهزة الدفاع الاسرائيلى نفسها كانت مختلة . فلقد كان النظام يقضى بأن تتم التعبئة خلال ٢٤ ساعة ، وأن يرسل المقاتلون إلى جبهات القتال خلال ٤٨ ساعة . ولكن التعبئة تقرر تخفيض أمدها إلى ٦ ساعات فحسب ، نتيجة لنجاح العرب فى تحقيق

المفاجأة الكاملة . فلا عجب اذن أن عمت الفوضى قوات الدفاع الاسرائيلي» . وهذا أيضا ما يفسر لنا قول اليعازر بعد الصدمة ان أمن اسرائيل لا ينبغي أن يعتمد بعد الآن على الانذار المبكر فقط ، وأنما اساسا على وجود جيش كاف قائم ودائم . وهو الذي يفسر كذلك احتفاظ اسرائيل حتى الآن بنسبة عالية من التعبئة العامة حتى بعد أن توقف القتال . وأخيرا فإنه يفسر ما يتوقعه البعض من أن يعدل العدو نظام تعبئته تعديلا جوهريا ليتحاشى تلك الثغرة المهلكة .

أما عن تعدد جبهات القتال ، فإن على العدو الاسرائيلي دائما أن يحارب في جبهتين على الأقل ، وثلاث على الأغلب . وعلى هذا الاساس خطط استراتيجيته ، استراتيجية الهجوم المتتالي السريع : ينقض بكل قوته وبأسرع ما يستطيع على إحدى الجبهات حتى ينتهي منها ، ثم ينثني فورا إلى أخرى فثالثة ، هكذا على التوالي ، مرة مع عقارب الساعة أي بادئا بسوريا ثم مثنيا بالأردن فمنتهيا بمصر ، أو مرة عكس عقارب الساعة ، مصر أولا ثم الأردن فسوريا (كما في ١٩٦٧) . وفي هذا كان العدو يعتمد على ضآلة رقعته الجغرافية وقرب الجبهات الخارجية ثم على شبكة ممتازة من الطرق الداخلية . غير أن حساباته هذه فشلت تماما في اكتوبر ، ولسببين أساسيين .

أولا ، اتساع جبهات القتال بعد توسع العدو الكبير فى ١٩٦٧ ، ذلك التوسع الذى أطال خطوطه الداخلية جدا بدرجة أرهقت حركته المفردة إلى كل جبهة ذهابا ، فضلا عن حركته بين الجبهات المتعددة جيئة وذهابا ثم ذهابا وايابا . وفى هذا اعترف الاسرائيليون أخيرا فى إحدى ندواتهم العسكرية بأن أحدا من المسئولين فى اسرائيل لم يدر بخلده أن الاستيلاء على الأراضى كعنصر أمن اضافى يمكن أن يضيف عبئا ثقيلا على الدفاع ، كما أن استبعادهم لحدوث تحركات سريعة للقوات العربية على الجبهتين السورية والمصرية فى وقت واحد ساعدها على الهجوم بنجاح .

ثانيا ، التنسيق الدقيق والبارع بين الجبهتين السورية والمصرية ، توقيتا وهجوما وتفاعلا . أو كما علقت بعض الدوائر العسكرية الغربية «لقد نسقت مصر وسوريا جهدهما العسكرى بصورة رائعة لم يسبق لها مثيل من قبل ، كما أنهما استوعبتا كل دروس الجولات السابقة» .

ومحصلة هاتين الحقيقتين أنه كلما توسع العدو توسعت جبهته ، وكلما توسعت جبهته فقد إمكانية الهجوم المتتالى السريع ، وكلما انتزع العرب زمام المبادأة والهجوم فقدت استراتيجية الهجوم المتتالى بقية فاعليتها إلى درجة التلاشى . إن انتقال العرب الواعى

والدائم إلى الهجوم لا يربك فقط كل استراتيجية العدو ، بل هو ينسفها في الصميم ، لأنها قائمة أساسا على افتراض وقوف العرب على الدفاع أو فرضه عليهم أساسا وباستمرار .

عنصر المفاجأة

عنصر المفاجأة مكمل وامتداد جوهري لعنصر المبادأة ، إن لم يكونا جانبين لشيء واحد في الحقيقة . ولقد كانت فرص المفاجأة الاستراتيجية ، بحكم طبيعة المواجهة عبر القناة ، محدودة بدرجة أو بأخرى ، فأراضينا في سيناء محتلة ، وأهدافنا في تحريرها معلنة غير خافية ، والاتجاهات الجغرافية الرئيسية الممكنة للهجوم شبه محددة بالضرورة . فالمفاجأة بمعناها الاستراتيجي الجذري والجوهري غير سهلة إن لم تكن شبه مستحيلة . ومع ذلك فقد انتزعت القيادة المصرية المفاجأة النسبية أو التكتيكية بدرجة حققت كل أهدافها المباشرة وغير المباشرة وتركت العدو في حالة تامة من العمى ثم التخبط فالذهول فاللوعة . ولا زال الجميع يتساءلون في كل الدنيا عن ذلك السر الغامض والمحير الذي أعمى الاسرائيليين عن كل علامات المعركة ومؤشراتها ونذرها وهي التي كانت «تحملق في عيونهم بشدة» كما

وضعها أحدهم ، أو كما عبر آخر : أهو عمى الألوان أم عمى الصحراء ؟

فقبل انفجار الموقف بأيام كان يمكن مشاهدة القوات المصرية وهى منهمكة فى اعداد زوارق المطاط والجسور المجزأة على الضفة الغربية ، بينما على جبهة الجولان كان تقدير دايان أن هناك مئات من فوهات المدافع مرئية للعيان ، كما أشار بقدر من الانزعاج إلى أن السوريين قد نشروا الآن شبكة من الصواريخ المضادة للطائرات تقارب فى كثافتها تلك القائمة على قناة السويس (الصنداى تايمز) .

والحق أن المرء كلما ازداد امعانا فى التفكير فى قضية المفاجأة ، لم يملك إلا أن يزداد تعجبا واعجابا : تعجبا من غفلة العدو المتذاكى ، واعجابا ببراعة الخطة العربية الكتوم : جيش بأسره ، بل جيشان عارمان ، بكل المعدات الهائلة وبكل التجهيزات المعقدة الضخمة الكثيفة ، حتى تحت ستار المناورات كان لابد أن تتخذ فى وقت ما أوضاعا هجومية ، كل أولئك على مسرح صحراوى مكشوف تماما ، وتحت سمع العدو وبصره بل تحت أنفه (فاصل ٢٠٠ متر فقط) ، كيف يمكن اخفاء كل هذا ، وكيف يخفى كل هذا ؟

على أية حال ، ليكن سؤالنا نحن عن أركان هذه المفاجأة البارعة : ما العوامل الأولية التى تتحلل إليها ؟ من ناحية أولى كان عامل

السرية المطلقة مكفولا بدرجة فذة ، كما سارت عملية الخداع الاستراتيجي للعدو حسب تخطيط كفء طويل المدى . فمثلا استغرق تجميع قواتنا للهجوم فترة ٣ - ٤ شهور ، أي بالتدريج الوئيد والقطاعي ، بينما لم يدفع بالقوات الرئيسية منها من العمق إلى الجبهة إلا قبل ٣ أسابيع فقط من ساعة الصفر وتحت ستار المناورات . وبينما أعدت مكامن السلاح والعتاد ومعدات العبور - التي تم تصنيع جزء كبير منها محليا - مسبقا في خفاء تام ، لم تنقل الأسلحة والمعدات نفسها إليها بالفعل إلا ليلا في آخر لحظة ممكنة قبل ساعة الصفر . ومن قبل أيضا كان قد أقيم ساتر رملي على الضفة الغربية يحصن تلك الاستعدادات عن أنظار العدو وعن نيرانه . كذلك فلم تفتح ثغرات المرور لقواتنا عبره إلا في آخر لحظة ساعة العبور .

وفي تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكي عن الشرق الأوسط نشر بعد المعركة واعتمد على زيارة ميدانية واسعة أنه «بالإضافة إلى أن عملية العبور تعد في ذاتها مظهراً مؤكدا لتحسن القدرة القتالية ، فإن عملية التمويه والخداع التي صاحبت الاستعداد المصري للقتال والقدرة على كتمان هذه الاستعدادات لفترة طويلة واخفائها عن أعين

الاســـرائيليين أمـر آن يلقى اهتمـامـا كـبيرا» . وهذا تعليق غنى عن التعليق .

هذا عن السرية والتمويه . أما عن التوقيت فقد اختارت الخطة لساعة الصفر توقيتا مرنا ذكيا وبارعا شل الجهاز العصبى لقيادة العدو برغم كل مخـابراته وادعـاءاته . وهناك عدة أبعاد ومستويات لهذا التوقيت .

أولا : أنسب طقس سياسي دولي ، كان التأييد العالمى قد وصل فيه إلي الذروة واكتملت عزلة العدو ومعسكره دوليا بدرجة لم يسبق لها مثيل . وفي هذا الصدد بالذات جاء حدث عرضي بحت وهامشي نوعا ليشغل الرأى العام الاسرائيلى ويبتلع نشاط مخابراتهم ، ونعنى به أزمة معسكر شوناو واليهود العابرين بالنمسا . فهى بالإضافة إلى مشكلة غارات الفلسطينيين الدورية على طائرات العدو وأصدقائه فى الجو مع غارات العدو الانتقامية على الدول العربية وانشغاله بمطاردة قيادات المقاومة الفلسطينية داخلها وفي عقر دارها ، كل ذلك ساعد إلى حد معين على صرف انتباه مخابرات العدو بعيدا نوعا عن قضية الحرب الأساسية وتركيزه على قضايا جانبية أو ثانوية نسبيا . هذا عن الطقس السياسى .

ولكن لا ننسى كذلك أنسب طقس مناخى للنشاط البشرى والعمل العسكرى . فخريف اكتوبر المصرى ربيع تقريبا ، وهو أبعد ما يكون عن حرارة الصيف الواقد وبرودة الشتاء القارسة التى تجعل حرب الشتاء حربا قاسية وصعبة قد لا تطيقها بسهولة إلا الدول الغنية . هذا فضلا عن أن هيدروغرافية القناة تختل وتضطرب بالأمواج والأنواء شتاء . كذلك يعد الشتاء موسم ثلوج على الجبهة السورية حيث يبدأ تساقطها فى نوفمبر وديسمبر . وهكذا وجد أن أنسب توقيت هو سبتمبر أو اكتوبر ، مع جنوح الأفضلية للأخير .

ثانيا ، انسب يوم تعطل وبطالة فى دورة حياة العدو اليومية حيث كان منشغلا بنشاطاته ومعاركه الانتخابية ، وكذلك بمناسبات أعياده الطائفية التى تصاب فيها حياته بشلل تام تقريبا . وإذا كان عيد «يوم كيبور» (يوم الغفران أو التكفير) هو قمة هذه الأعياد ، فقد كان الموسم كله تنقطه مناسبات دينية متلاحقة . ومن جانبنا نحن أيضا ، فلقد كان الموعد آخر وقت يتوقع فيه العدو الهجوم ، ونعنى بذلك شهر الصوم الذى يتصوره العدو المتغالى شهر كسل وتواكل . هذا فضلا بالطبع عما فى حرب رمضان من وجهة نظرنا من معنى دينى كبير وحافز للجهاد والفداء ، يرفع الروح المعنوية إلى ذروتها ويقدم سلاحا مضافا للنصر .

ولقد آثار اختيار يوم عيد الغفران حقد العدو ، الذى أصبح يسمى حرب أكتوبر بذلك الاسم . ومع ذلك فقد اختلف العدو نفسه فى تحديد مدى خطورة ونتائج هذا التوقيت . فرغم أن هذا العيد يقضيه الاسرائيليون فى المعابد بعيدا عن العمل وعن بيوتهم وبذلك يشل حركتهم واتصالاتهم بما يكفى ليعرقل التعبئة العاجلة ، إلا أنه فى رأى بعضهم أخف وطأة من سائر الأعياد الدينية الأخرى التى يخرجون فيها إلى الريف والصحراء خارج المدن كلية للتنزه والرحلات طوال اليوم مما يجعل التعبئة العاجلة أكثر استحالة ، وعلى أية حال ، فليس من المحتمل أن اختيارنا السادس من أكتوبر تقرر لأنه يوم العيد بالذات ، فهناك ضوابط توقيت أخرى عديدة وربما أهم ، كما أن أعياد اليهود عديدة على مدار العام ، فضلا عن أن أى سبت يصلح ويكفى تماما .

ثالثا ، أنسب يوم للعبور تقل فيه سرعة تيارات قناة السويس ويصل فيها مدى المد والجزر إلى حده الأدنى فلا يعوق العمليات الهندسية واقامة المعابر أو الملاحة عبر الماء بقدر الإمكان . هذا إلى جانب أنسب ليلة قمرية تسمح بحرية العمل ليلا . وهنا نلاحظ أن ليلة العاشر من رمضان قريبة من منتصف الشهر القمرى ، ليلة ١٤ ، حين يكون القمر بدرا ، كما نلاحظ أن هناك ارتباطا طبيعيا بين دورة القمر

وبين المد والجزر . وهذا كله عدا أن ليل أكتوبر طويل ، ١٢ ساعة ، بما يكفى ليمنح العملية أطول وقت ممكن للحركة المستورة . وعلى ضوء هذا كله تم تحديد السادس من أكتوبر بعد دراسة عملية مفصلة جدا هيدرولوجيا وفلكيا .

رابعا ، آخر ساعة تتوقع للعبور طوال اليوم . فكل العمليات العسكرية تبدأ كقاعدة عامة إما من أول ضوء في الشروق أو مع آخر ضوء في الغروب ، ولكن الخطة اختارت قلب النهار وفى وضحه ، الثانية بعد الظهر . ورغم أن كل عمليات العبور المائى بالذات ، بما تتطلب من مهمات ومعدات هندسية ونقل قوات وسلاح ، تتم بالليل وتحت جنح الظلام ، فقد كان البدء فى الثانية بعد الظهر لا يخل تماما بهذه القاعدة ولكنه لا يخليها من المفاجأة .

فعدا ما فيه من مفاجأة خداعية كاملة ، فان اختيار هذا الوقت ، الذى يسبق آخر ضوء بنحو ٤ ساعات ، يكفل أيضا الاستفادة بضوء النهار طيلة هذه الساعات الأربع فى مرحلة طلائع العبور الخفيفة ، فيمنح قواتنا الجوية والمدفعية القدرة على دقة التصويب وعلى تصحيح نيرانها فى ضربتها التمهيدية الأولى ، كما يتيح اسقاط معدات العبور الهندسية فى آخر ضوء . وبالمثل على الجبهة السورية حيث يمكن أن يتم

للسوريين عبور الخندق الصناعى الذى حفره العدو على امتدادها ، ثم التعمق بعده فى ضوء كاف .

ومن ناحية أخرى ، لا يكون العدو قد أفاق واستعد بطيرانه ومدفعيته حتى يكون الظلام قد حل وحرمه من العمل الجدى أو المجدى حتى صباح الغد ، بينما نكون نحن قد وصلنا إلى مرحلة نقل المعدات الثقيلة والقوات الرئيسية التى يمكن حينئذ أن تتم فى سلام خلال الليل الطويل ، فلا يظهر أول ضوء فى الغد إلا ويكون جيشنا بكامله رجالا وعتادا قد أصبح بالفعل على الضفة الشرقية .

أخيرا وليس آخرا أنسب ساعة من النهار من حيث حركة الشمس اليومية ومواقعها بالنسبة إلى جبهة العدو وإلى جبهتنا نحن . فقد اختيرت ساعة الصفر بحيث تكون عين العدو فى عين الشمس ، وليس العكس ، فيكتمل له بذلك عمى المعركة . إذ لما كان فى الشرق موقعه ، فإن الشمس التى انتقلت نحو الغرب بعد الظهر تغمر عينيه بأشعتها المواجهة فتغشيها وتعاكس رؤيته ، على العكس من الموقف قبل الظهر . وفى هذا الصدد كان لابد من التنسيق الدقيق بين الجبهتين المصرية والسورية . فرغم أن محور المواجهة الأساسى على الجبهتين واحد تقريبا يتمثل فى مجابهة بين شرق

وغــرب ، فالفــارق أن الهـجوم المصـرى يأتى مــن الغرب والسـورى من الشرق .

وعدا هذا فيبـدو أيضــا أن سياسة التدريبات المصرية المتكررة ، بل والروتينيـة الرتيبــة عبر ســنوات طـوال ، خاصـة أثنـاء فتــرة الركود الحربى المطلق فى مرحـلة اللاحـرب واللاســلم ، وتحت أنظار العـدو، قـد «خــدرته» ونمــت فـيــه نوعـا من مـيكانيكيـة الانعكاس الشـرطى ، حـتى وصل فى النهــاية إلى حد اللامبـالاة والاستـخفاف المنتظـم بهـا . فكل تحـرك للقـوات المصــرية تدريــب ، وكل تدريب مناورة ، وكل مناورة مـع الريح . ومن ثم فـلا مــعنى ولا داع كل مـرة لاستدعاء الاحتياطى أو للتعـبئة العــامة بكل صعـوباتها وتكاليفها ... إلخ . وكمـا اعتــذر دايان بعــد المعـركة ، فلم يكـن معقــولا أن تنفـق اسـرائيل كل شــهر أو شــهرين بضــع عشرات مــن الملايين من الدولارات مقــابل تحـركات عــربية دوريــة تنتــهى إلــى لا شئ حربيا .

وفى هذا المعنى ، وهــو المعنى نفســه ، السلبى بالطبع ، الذى نتـحـدث به عن «فـضــل» قـرار القـبـول بوقــف إطلاق النـار فى أغســطس ١٩٧٠ على اقامة شبكة دفاعنا الصاروخى الفائقة الحيوية ، فى هذا المعنى ربما جاز لنا أن نذكر «فضل» مرحلة اللاحرب واللاسلم

بسنواتها الثلاث والنصف . فرغم سكون الجبهة إلى حد الجمود ، كانت المرحلة أبعد شئ عن الاسترخاء العسكرى أو الموات النضالى ، وانما كانت فترة «بيات شتوى» إن صح التشبيه ، كمون وكمين ، اعداد واستعداد ، صمت وصبر ، وعمل وتصميم ، ومجال رحب لتخدير العدو تماما والتمهيد للمفاجأة الكاملة المطلقة . ولو قد أتت الحرب الشاملة ، كتلك التى اندلعت فجأة فى أكتوبر بالفعل ، بعد حرب الاستنزاف مباشرة وتصاعدا منها بالتدريج الوئيد ، لما كان لعنصر المفاجأة مجال كبير على الأرجح ، ولما كانت للمبادأة بالتالى فرصة مذكورة أو بارزة على الأغلب .

ذلك بالطبع ، وعدا غرور العدو الأكبر والأبقى ، ذلك الذى وصل به إلى حد استبعاد تجاسرنا على العبور . وفى هذا فلقد كانت اسرائيل تعتقد اعتقادا شبه جازم أنه لا خطر من حرب جديدة مع العرب قبل نهاية السبعينات ، وأنهم «لن يحاربوا إلا إذا أصابهم الجنون» (كذا) ، وحتى عند ذلك فلإيقاظ الدول العظمى وليس بهدف تحرير الأرض حقا وفعلا . أما عبور القناة نفسها على نطاق واسع فهو فى نظر العدو ومخابراته والمخابرات الأمريكية «يمثل تحديا يجاوز قدرة الجيش المصرى» . ولاشك أن فى هذه الحسابات المغرورة كانت سقطة أخرى من سقطات العدو وكان جزء من مقتله .

بكل هذا وبغيره تم تحقيق المفاجأة الكاملة للعدو، تلك التى أطارت صوابه ووضعته لفترة ثمينة وحرجة فى حالة من انعدام الوزن عسكريا وسياسيا . ورغم كل ما قيل من أن العدو تنبه لاحتمالات الهجوم العربى أو علم به قبل وقوعه بساعات قليلة ، فقد كان سلوك العدو الميدانى فى الساعات الأولى من الهجوم ، كما أحست به القيادة العربية المسئولة نفسها ، دليلا عمليا على أنه أخذ بالمفاجأة تماما . كذلك فلقد تضاربت أقوال اعدو وأدلته وشهاداته بعد ذلك حول هذه النقطة تضاربا شديدا . ولدينا فى هذا سيل من تصريحات العدو ، نوردها هنا بنصوصها منقولة أغلبها عن كتاب «حرب رمضان . الجولة العربية الاسرائيلية الرابعة . أكتوبر ١٩٧٣» ، تأليف اللواء حسن البدرى واللواء طه المجدوب والعميد أ. ح ضياء الدين زهدى . ومن هذه التصريحات ما يعترف بالمفاجأة صراحة ، ومنها ما ينكرها تماما ، ومنها ما يجمع بين النقيضين !

فمن الأولى قال ياريف ان اسرائيل تعمدت أن تخاطر بترك المصريين والسوريين يتخذون المبادرة بالأعمال العسكرية مع ما يترتب على ذلك من مزايا . وقال دايان «إنه توجد مفاجآت فى هذه الحرب أيضا» ، وان أنكر حدوث أى خطأ فى قوة جيش الدفاع أو

في تشكيله أو تكوينه . أما اليعازر فقد قال «ان هذه أصعب حرب واجهتها اسرائيل – لقد زحفت علينا بدون سابق إنذار» . وبالمثل قال بارليف ان اسرائيل «فشلت وفوجئت مرة واحدة» مؤكدا أن ذلك لن يتكرر . وأخيرا هناك كلمة جونين في قواته «أنتم مكلفون بالقيام بمهام فرضت عليكم بصورة مفاجئة» .

ومن الذين ينكرون المفاجأة بطريقة أو بأخرى شارون الذي جزم حين رأى الصور الجوية لمعدات العبور والحشود المصرية بأن «الحرب ستقع في يوم أو اثنين» . وبالمثل فعل آلون بطريقة أخرى اذ قال «انني أؤكد شخصيا ، وكذلك رسميا ، أنني أقرر بشرفي الشخصي صحة البيان القائل بأننا لم نبدأ القتال . على العكس ، حتى بعد أن رأينا المجابهات الشاملة لقوات العدو في أوضاع هجومية ، تجنبنا متعمدين الضرب أولا ، متخلين عن تلك الميزة العسكرية ، ميزة الضرب أولا» .

ولكن الذين يجمعون بين النقيضين أكثر . فبارليف عاد فناقض نفسه حين قال «لم يكن هناك نقص فيما يتعلق بمعرفة نوايا العرب» . كذلك صرح ضابط مخابرات اسرائيلي كبير بأن «كل ما توصلنا إليه وتوقعناه هو أن العرب سوف يشنون الحرب ذات يوم قريب ، ولكننا أخذنا في الموعد على غرة» . والتناقض

ظاهر كذلك عند مايير نفسـها التى قررت أنها «كانت تعـلم يقينا بنية هجوم العـرب بل وبتوقيتـه ومراميه ، ولكنها تركت لهم المبـادأة طـوعا واختيارا لأسباب سـياسية واقتصـادية ملحـة» ، ثم عادت تقـول فيما بعـد «لو أن مسـئولا جاءنى واقترح اسـتدعاء الاحتياطي لوافقته علي الفور» . غير أن التناقض يصل إلى حد التلاعب أو التخبط الساخر عند هرتزوج : «ان الهجوم الذى شنه العرب أخذ اسرائيل علي غرة ، وأن تحريك العرب لقواتهم على طول خطوط المواجهة لم يفاجئ اسرائيل ، ولكن من الواضح أن الهجوم جاء مفاجاة» (!) .

هذه عينـة من تصـريحات العـدو ، التناقض الفاحش بينها غنى عن الذكر ، ولكن السؤال الملح هو : لماذا ؟ وما الذى يخفى وراءه ؟ أغلب الظن أنه تضارب مقصود ، أو لعله غموض متخبط . فالعدو ، بعد أن صعقتـه الضـربة العـربيـة ، وانقاذا لسـمعتـه العسكرية التى تحطمت ، راح يبرر النصر العربى بعـامل المفاجـأة وحده ، وأنه لولاه لما هزم ولانتصـر كما تعود ، إلى أخر هـذه النغمة الدعائية غير المجدية وغير الصحيحة . وفى الوقت نفسـه فقد اكتشـف العـدو أن منطقه التبريرى هذا هو اعتـراف ضمنى منه على الأقل بعجز وفشل مخابراته التى تمرغت سـمعتها فى التراب ، وخواء قدراته التجسسية التى

طالما تباهى بها . لقد وجد نفسه خاسرا على الحالين ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

غير أن الواضح فى الحالتين هو التناقض الحاد المدبب فى أقوال العدو ثم التضارب السافر بين أقواله وأفعاله ، سواء ذلك عن عمد أو تلقائيا . ولكن فى الحالة الأولى كذب الاسرائيليون ولو صدقوا ، وفى الحالة الثانية صدقوا ولكن بطريق الخطأ فقط . كيف ؟ لا تفسير لهذا إلا أن فى الأمر شيئا ، أو أشياء أخرى . ثمة حلقة مفقودة يحاول العدو اخفاءها ما بين اعترافاته المبتسرة وادعاءاته المكذوبة . فما هى ؟ اننا إذا أعدنا تركيب الموقف منطقيا لوجدنا فيه ، ليس مرحلة واحدة كما يوهم العدو ، ولكن أكثر من مرحلة من تحول الرأى وتغير القرار ، وان جاءت كلها مضغوطة فى دورة مختزلة وفى فترة زمنية وجيزة جدا . فالعدو يقول : «لقد رأوا ، ولكنهم لم يفهموا» . وقد يكون هذا صحيحا إلى حين أو إلى حد أو آخر ، اذ لاشك أن القيادة المصرية نجحت فى تضليل العدو واخفاء نواياها واستعدادها وتحركاتها ثم خططها إلى آخر لحظة وببراعة فائقة ، بحيث لم يفهم العدو حقيقة ما يدبر وما ينتوى . غير أن هذا نصف الحقيقة ، بل ثلثها فقط .

فالمرجح ، بل المؤكد الآن ، أنهم «رأوا وفهموا ، ولكنهم لم يصدقوا» . وهذه هى المرحلة الثانية فى تقدير الموقف . فالثابت

ان العدو من شواهد وأدلة عديدة توصل إلى احتمالات نشوب حرب حقيقية قبل قيامها بيوم أو يومين (تنبؤات شارون) . غير أنه لفرط غروره وامتلائه بالثقة ولشدة استخفافه بالعرب لم يصدق أن الأمر جد لا هزل ، حتى صفعته الحقائق المجسمة المتوالية بعد ذلك .

وأخيرا ، وهذه هى المرحلة الثالثة فى دورة القرار والحلقة المفقودة فى الموقف كله لاشك ، تأكد العدو من قدوم الحرب قبيل وقوعها بعدة ساعات صباح السادس من أكتوبر . وقد صرح هو بذلك كما نعلم ، مثلما صرح بأنه تدارس فكرة السبق بضربة اجهاض جوية ، إلا أنه عدل عنها فى آخر لحظة نظرا لأن الوقت (كما وجد) كان قد أصبح متأخرا جدا لمثلها وأن فرصتها قد ضاعت ، وكذلك حتى لا يتهم (كما ادعى) بأنه المعتدى والبادئ بالهجوم كل مرة فيفقد ما تبقى من الرأى العام العالمى . أى أنه بحكم الضرورة العسكرية ومن أجل الانتهازية السياسية ، قرر أن ينتظر هجوم العرب وأن يترك لهم طوعا زمام المبادأة كما صرح . على أى أساس ؟ - بالطبع على أساس أنه على أية حال قادر بقوته على امتصاص الهجوم ثم تدميره وتدمير الجيوش العربية .

غيـر أن الذى لم يعلـنه العـدو هنا ، والذى توصل إليه - بحق فيـمـا نرى - الاسـتـاذ أحـمـد بهـاء الدين فى كـتـابه «وتحطمت الاسطورة عند الظهر» (ص ١٣٣ - ١٣٤) ، الذى لم يعلنه العدو هو أنه بعـد أن رأى وفـهـم وصـدق رحب في قـرارة نفـسـه وفي آخـر لحظة بفـرصـة «حـرب أخـرى وأخـيـرة» كـان «يريدهـا» منذ رفض العـرب الاستـسـلام لانتـصـاره في يونيو حتى يسـحـقهم نهـائيا ويفـرض عليـهم الاعـتـراف بالهـزيمة والتـسـليم له ، حـرب تحـقق له النصـر السياسي بعد أن عقـم نصـر يونيو العسكرى ، حرب كان يريدها وها هي الآن تبدو أمام العـالم «مفـروضـة» عليه . ولقـد صـرح كثير من قـادة العـدو بلا مـواربة كم يتـمنـون لو أقـدم المصـريون على عبـور القنـاة حتي يسـحـقـوا قـواتهم مـرة واحـدة وإلى الأبد . دايان على سـبيل المثال ، كـمـا كتب ايف كو فى الفيـجـارو ، «لم يحـاول قط أن يخفي أمنيته أن يقدم الجيـش المصرى على اجتياز قناة السويس ؛ حتى يبدأ انقضـاضه عليه وسحقه سحقا ، كمـا صرح دايان أكثر من مـرة وفي أكـثـر من مناسبـة» . انهـا إذن الفـرصـة المثـاليـة ، حـتى وإن فـاجـأتهم نوعـا على غير مـا كـانوا يؤمـلون مـن تأهب فـاسـتـدراج فتـوقيت .. إلخ . ومـا دامت هذه هي الحـرب يفـرضـهـا العـرب ، فلتكن هى الحـرب التى نحتاجها ونريدها لسحـقهم نهائيا ، ولندعهم يسعون

الى حتفهم بظلفهم ! ولكن نتيجة الحرب هى التى جاءت عكسية وخيبت كل خططهم وتوقعاتهم . ان هزيمتهم هى «المفاجأة» الحقيقية الصاعقة التى تلقوها فى النهاية ، أكثر منها مفاجأة نجاح خفاء الحرب أو محض قيامها أو واقع توقيتها . «لقد رأوا وفهموا ، ثم صدقوا ، ولكنهم مكروا» – غير أن المكر السيىء حاق بأهله . وتلك على الأرجح هى حقيقة قصة المفاجأة ، التى اعترف العدو بجزء منها وأخفى الجزء الأكبر .

وهناك بالفعل رأيان متعارضان في معسكر العدو بصدد عوامل الهزيمة : رأى مخادع يلقى اللوم والمسئولية كاملة على المخابرات ، ورأى أكثر صراحة يعتبر مسئولية المخابرات جزئية فقط والخطأ أوسع منها وأشمل . ويمثل الاتجاه الأول بارليف الذى قال «ان المصريين والسوريين قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها . ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم» .

أما الرأى الثانى فقد عبر عنه عزرا وايزمان حيث قال «انه لا يريد القاء المسئولية كلها على التقديرات الخاطئة لأجهزة المخابرات الاسرائيلية . فقد كان هناك نقص فى الرؤية وفى

الواقعية على جميع المستويات ... ولولا وقوع هذة المجموعة من الأخطاء لما اضطررنا أثناء الحرب إلى الاعتماد بهذه الدرجة على المساعدات الأمريكية ولأصبحنا اليوم بالتالي أقل اعتمادا على الولايات المتحدة . لقد أسأنا تقدير كمية الأسلحة والعتاد التي زود بها أعداؤنا ، ولم نكن بالتالي مستعدين لحرب بمثل هذه الضراوة» .

ومهما يكن ، وعلى أية حال ، فليس صحيحا أن هزيمة العدو ترجع إلى عامل المفاجأة وحده ، كما يحاول هو أن ينظر ليثبت أن الأمر كله كان فلتة ، مجرد صدفة لا تتكرر . فهذه ليست إلا محاولة يائسة كما هي بائسة من جانب العدو لتغطية فشله وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من روحه العسكرية المنهارة شعبا وجيشا . والواقع أن هناك جانبين بالغي الأهمية للقضية . فأولا ، المفاجأة على أهميتها القصوى ليست إلا عنصرا واحدا فقط من مركب القوة والقدرة العربية الذاتية الجديدة والمتعددة الأطراف والأبعاد . وليس من المحتم أننا لم نكن لننتصر لو لم نحقق عنصر المفاجأة ، ربما صارت المجابهة أشق وأطول ولكن النتيجة ما كانت لتتغير أساسا وبالضرورة .

ثانيا ، وكما يلاحظ الأستاذ أحمد بهاء الدين بفكر صاف ونفاذ ، هناك نوعان من المفاجأة ، الفرق بينهما كالفرق بين القتل

دفاعا عن النفس والقتل من أجل السرقة . المفاجأة الغادرة ، ونمطها الكلاسيكي بيرل هاربر ، وآخر نماذجها ضربة صهيون صباح ٥ يونيو . وهذا النوع ليس انجازة عسكرية بارعة بقدر ما هو قطعة من الخسة العسكرية البشعة ، ضربة جبان فى الظهر والظلام يمكن أن يمارسها بنجاح كل نذل لا خلاق له من الأعداء .

ثم هناك المفاجأة الشرعية التى يقرها الشرف العسكرى ، المفاجأة الوظيفية أو العضوية التى تمثل جزءا من صميم العمل العسكرى المشروع ، تقع فى قلب حالة الحرب القائمة ووجها لوجه فى ميدان الصراع تحت سمع العدو وبصره (وأقماره الصناعية ومخابراته وجواسيسه وطائراته الاستطلاعية) وفى وجه استحكاماته وحصونه وفى مرمى مدافعه (وخط بارليفه) . «ولكن براعة التخطيط السياسى والعسكرى ، فى تضليل العدو ، وابقائه حتى الأيام الأخيرة حائرا فى تفسير معنى تحركات قواتنا» .. هذه قطعة «من صلب القتال وفنونه» بل وجزء حتمى منه . وهذا بحذافيره ما قمنا به فى ٦ أكتوبر .

ومعظم الآراء المحايدة والموضوعية تنص بالفعل دائما على تعدد أسباب الهزيمة الاسرائيلية ، فتجمع بين عناصر الخدعة والمفاجأة والأداء العسكرى نفسه . ويمكن أن نورد نموذجا

لهـذا الموقف رأي تشـرشل الحـفيـد . «لقـد فـوجئ الجنـرالات الاسـرائيليـون» ، يقـول هو فى دراسـة ضـافيـة ، «وهم غـافلون ، ويرجـع ذلك أسـاسـا إلى مـا كـانت تشـعـر به اسـرائيل من نشـوة لانتصـارهـا فـى ١٩٦٧ . كذلك فإن اسـرائيل لم تكن مسـتعدة لمواجهة هذا النوع من الحـرب الذى خـاضـه العـرب بالأسلحـة الجـديدة . فإسـرائيل ظلت تعتمـد فى استـراتيجيتهـا على انتصـاراتهـا بالطـائرات والمدرعـات كمـا فى ١٩٦٧ ، فى حين أغفلت المدفـعيـة والمشـاة وهمـا السـلاحان اللذان تحمـلا عنف الهجوم» .

الحرب الشاملة

وهى مـا مارسـنا بالفعـل ، ومـا كان حتمـا أن نفعل منـذ قـررنا أن نطلق الطلقـة الجـوابيـة الأولى فى المعـركة . فلقـد كـانت ضـمـانا شرطيا للنجـاح ومصـلا مـضـادا لأى انتكاس . والمقصـود بالحـرب الشـاملة أن تبـدأ كـاملة مطلقـة منـذ أول لحظـة ، دون مرحلة أو منطقـة انتـقـال بين حـالة اللاحرب والحـرب . وتفسـير ذلك أنه كـانت هناك نظرية شـائعة بعـد يونيـو تقـول بعملية تصـعيد «محسـوبة» المراحل فى مسـتوى المعركة ، كـأن نبدأ مثلا بحـرب استنزاف من نوع جـديد أو غير جـديد على غـرار مـا شـنته مصـر عبر القناة

حتى وقف إطلاق النار فى ١٩٧٠ ، أى بتراشق المدفعية أو غارات الطيران أو اغارات القوات الخاصة أو البرية أو البحرية .. إلخ .

ولكن كان من الصعب أن نجد أخطأ من هذه الوصفة الساذجة ، التى كفانا القائد العام للقوات المصرية بعد عمليات أكتوبر مئونة تفنيدها . «كان رأيي أن حرب الاستنزاف قد استنفدت أغراضها فى الفترة التى جربناها فيها . ثم ان اسرائيل لن تقبل بالعودة إليها ، وأى محاولة من جانبنا لذلك سوف تواجه من اسرائيل برد فعل أقوى» . ومعنى ذلك أننا كنا ازاء احتمال قيامنا بعمليات صغيرة يقابلها العدو برد فعل كبير يتجاوز أبعادها السياسية والعسكرية . ذلك أنه كان من الواضح أن العدو المتربص الحقود كان يتلمس أدنى ذريعة ميدانية من جانبنا لينتهزها فرصة ليبادر ويشن هجومه المفاجئ اجهاضا وردعا . وهو إن فاتته المباغتة الغادرة مرة لأى اعتبار عسكرى أو سياسى أو دعائى ، فسيجد فى أول رصاصة منا تلك الذريعة ، ليمارس الحرب الشاملة فورا وبصورة كاملة لتدمير قوانا فى أسرع وقت ونحن لم نزل نتوقع ردا محدودا .

ولقد كان ذلك بالدقة مقتلنا فى ١٩٦٧ ، وتلك كانت فى الحقيقة استراتيجية الحرب كأداة ضغط وتهديد سياسى واستعراض قوة أكثر منها استخدام القوة الجادة . ولكن اللعب السياسى بالحرب لعبة خطرة ، قد يمكن أن يمارسها الأقوى وحده . وقد كان واضحا أن أى بداية للقتال من جانبنا أقل من حرب شاملة منذ أول لحظة تعرضنا لخطر ممكن وكامن ، وأن علينا حين نبدأ الحرب أن نعنيها بكل معانيها : انه ليس ثمة نصف هجوم . وهكذا بالفعل كان . فقد تقرر أن تكون ضربتنا كبيرة شاملة ، بحيث يساوى جهدنا العسكرى على الأقل احتمال تعرضنا لرد فعل كبير من جانب العدو ، الذى ستكون ضربته المضادة كبيرة على أية حال .

ولقد تساءل البعض عما إذا كانت خطة المعركة اصلا هى لعملية عسكرية كبيرة ، أكبر من حرب استنزاف مجددة ولكنها أصغر من حرب شاملة . وبعبارة أخرى ، كان السؤال هو ما إذا كانت الخطة قد اقتصرت على تحرير جزئى لسيناء والجولان ، يحطم خطى بارليف وألون وينتزع رأس جسر عريض ، مع تدمير أكبر قدر ممكن من قوة العدو وكذلك من أسطورة تفوقه ، ولكن دون أن يمضى إلى نهاية الأراضى المحتلة بعد يونيو . ولكن ، كما

أوضحت القيادة العسكرية ، فلقد كانت الخطة شاملة وموضوعة لحرب شاملة ، غير أن تطور الموقف كان متروكا بالضرورة لرد فعل العدو من جهة وللموقف الدولى من جهة أخرى . والواقع أنه إذا كانت المعركة قد انتهت بتحرير جزئى ومحدود فقط ، فذلك وضع مرحلى فرضته ضغوط التوازن الدولى ، ولكن المعركة نفسها كانت - تخطيطا وتنفيذا - جزءا من منطق الحرب الشاملة .

وكما يوضح مؤلفو كتاب حرب رمضان ، حدد الهدف العسكرى للمعركة «بهزيمة تجميع قوات العدو الاسرائيلى فى سيناء والهضبة السورية والاستيلاء على مناطق ذات أهمية استراتيجية تهيئ الظروف المناسبة لاستكمال تحرير الأراضى المحتلة بالقوات المسلحة ، لفرض الحل السياسى العادل للمشكلة . وبناء على هذا الهدف الواضح كان على القيادة العامة المصرية أن تخطط للقيام بعملية هجومية استراتيجية مشتركة ، تنفذ بالتعاون مع القوات المسلحة السورية ، وتقوم فيها مصر بالاقتحام المدبر لقناة السويس وتدمير خط بارليف ، والاستيلاء على رؤوس كبارٍ بعمق ١٠ - ١٥ كيلو مترا على الضفة الشرقية للقناة ، وتكبيد العدو أكبر خسائر ممكنة ، وصد وتدمير هجمات وضربات العدو المضادة ،

والاستعداد لتنفيذ أى مهام قتالية أخرى تكلف بها فيما بعد . أما سوريا فتشن الهجوم وتخترق دفاعات العدو بالجولان وتجزئ تجميعه وتدمر قواته وتصل إلى الخط - نهر الأردن ، الشاطئ الشرقى لبحيرة طبرية» .

ولعل من المفيد بعد هذا أن نضيف أن الحرب الشاملة التى اتبعناها بنجاح فى أكتوبر تعنى ، من بين ما تعنى ، الاستعمال الشامل والأمثل لكل أسلحة القوات ، هجومية ودفاعية ، برية وبحرية وجوية ، مشاة ومدفعية ومدرعات ، صواريخ وقذائف وقنابل ، نظامية وخاصة وفدائية ... إلخ . وهذا النوع من القتال يعتبر بمعنى من المعانى فصلا جديدا فى كتاب الحرب الحديثة ، يعتمد أساسا على التنسيق الدقيق جدا والمحكم جدا بين كل هذه الأسلحة بحيث تتكامل وتتناغم فى سيمفونية نارية متعددة الحركات ولكنها موحدة الايقاع ، لا تترك ثغرة أو فرصة للعدو ، وتحقق الاستخدام الأمثل لكل امكانيات كل نوع منها بل وبحيث يضاعف كل منها قدرات الآخر . وهكذا ، أيضا ، بالفعل كان .

الحرب الطويلة

يبقى أخيرا من عوامل النصر عنصر الحرب الطويلة ، حرب النفس الطويل ، فهى مقتل حقيقى من مقاتل اسرائيل . ومن

المسلم به أن الحرب الخاطفة ، السريعة القصيرة ، ليست في صالحنا قطعا ، ولا هي في طاقتنا ربما . على العكس ، كلما طالت المعركة كانت في صالحنا ، والأطول الأفضل . أما العدو فكل قوته مركزة في نفسه الأول ، نفسه القصير ، وعليه يراهن ببقية حياته .

والحرب الخاطفة هي أساسا استراتيجية المقامرة ، أكثر حتى مما هي استراتيجية المغامرة : تقامر بكل شئ لتكسب كل شئ أو تخسر كل شئ . والحرب الخاطفة ، التي نقلتها الصهيونية عن أستاذتها النازية ، كانت دائما استراتيجية العدو ، إما لأنها تلائم أغراضه وأهدافه ، وإما لأن ظروفه وأوضاعه قد فرضتها عليه فرضا . وقبل أكتوبر كان العدو قد وصل في اعتماده على الحرب الخاطفة إلى حد أن دايان أعلن صراحة أنه «ينبغي انهاء المعركة خلال ساعات بحيث لا تكلفنا غاليا في الأرواح والمعدات» (!) .

وقد أوضحت حرب أكتوبر كم فشل العدو فشلا فاحشا في تحقيق آماله الخرافية وادعاءاته المبتذلة ، وإلى أي مدى نجحنا نحن ، على العكس ، في توريطه راغما في أطول حرب حقيقية خاضها منذ نشأته . فرغم أن شكل الحرب ومداها وأمدها لا تتحدد بإرادة طرف واحد ، بل بإرادة الطرفين المتحاربين تتحدد ، ورغم أن الحرب الحديثة أميل

بطبيعتها إلى القصر بحكم الامكانيات التدميرية الهائلة للأسلحة العصرية خاصة منها الجوية والالكترونية ، فقد كان علينا أن نفرض الحرب المطولة إلى أقصى حد ممكن . كان علينا أن نحارب حربا حقيقية من أجل اطالة أمد الحرب ، فكل يوم مضاف إليها هو احتمال مضاف بالنصر ، ذلك أن اقتصاد العدو لا يتحمل إطالة التعبئة العامة إلا أسابيع معدودة ، بعدها تصاب حياته الانتاجية بالشلل الخطير .

وقد كان تقدير الخبراء العالميين دائما أن العدو الاسرائيلي بكيانه المعطى لا يستطيع أن يواصل الحرب لأكثر من شهر أو شهر وبضع شهر كحد أقصى . ولولا التدخل الأمريكي المطلق في معركة أكتوبر لاصطدم العدو بهذا الحاجز التحديدي الرهيب ولوقف أمامه وجها لوجه، ولسوقف معه جهده الحربي عند طريق مسدود لا يعني إلا الهزيمة الحتمية والكاملة . ولعل هذا يكون طريق الجولة القادمة .

خطة العبور

اجمع الخبراء العالميون على أن معركة أكتوبر تعد واحدة من أكبر معارك التاريخ العسكري الحديث ، لا تقل عن كبريات معارك الحرب العالمية الثانية ومعارك الدول الكبرى عموما . كذلك أجمعوا ، حتى

الأعداء منهم ، على أن ملحمة المعركة المصرية فى سيناء جاءت بكل المقاييس قطعة مذهلة من الاستراتيجية الممتازة فى جميع مراحلها : العبور ، اجتياح الخط ، رأس الجسر ، القاعدة الأرضية . وحتى نعيد تركيب «سيناريو» المعركة متسلسلا فى تداعيه المنطقى وفى تتابع أحداثه ، لتكن هذه المراحل نفسها هى أساس تحليلنا للملحمة السينائية الكبرى .

فأما العبور فقد كان بحق بمثابة اقتحام العقبة ، ففى قفزة كبرى واحدة ، وفى مبارزة نارية التحامية بين البر والبحر وبين الأرض والسماء ، تم اكتساح أصعب مانع مائى فى العالم - هذا تقدير العسكريين أنفسهم - فى أقل وقت ممكن وبأقل خسائر بشرية متصورة على الإطلاق . وكان العدو يصور العبور إما مستحيلا سيغرقه هو فى القناة إغراقا وإما حمام دم لا يتم إلا بنسبة رهيبة من الخسائر .

غير أن القناة ، عنق الزجاجة التى ظنها العدو عنق مصر الذى يمسك به ومنه يمسك بخناقها ، تحولت إلى مقبرة عائمة له ، فى حين لم تلبث العملية الفائقة النجاح نفسها أن تحولت إلى درس مرجعى ونموذج نمطى ، بل غير نمطى على الإطلاق ، فى كل أكاديميات العالم العسكرية ! لقد كان العبور بالذات قمة أمل العدو فى تحطيم

آمل التحــرير ، فجــاء قمة هذا الأمل الكبير ، وجاء قمة فشل العدو القمئ .

ولدينا فى هذا شهادة النيويورك تايمز : «ان العبور المصرى لقناة السويس بعدظهر ٦ أكتوبر كان بارع التخطيط والإعداد والتنفيذ . ان القوات التى كانت فى المواقع المحصنة على الضفة الشرقية للممر المائى الضيق واجهت تفوقا عدديا كبيرا ، لكن ذلك لا يقلل من الشجاعة وعنف الهجوم اللذين أظهرهما الجيش المصرى فى اقتحامه أو تجاوزه لهذه المواقع» .

التحدى

ولكن لماذا عدت عملية العبور بالغة الصعوبة والخطر إلى هذا الحد ؟ الواقع أن القناة لم تكن مشكلة العبور الوحيدة وان كانت الكبرى . فالعائق فى الحقيقة كان مثلثا : القناة ، الساتر الترابى ، خط بارليف . وثلاثتها تلتصق مباشرة ببعضها البعض كأنها أضلاع مثلث قائم الزاوية ، القناة ضلعه الأفقى ، والســاتر الرأسى ، وخط بارليف هو مجازا وتره الحساس والمسيطر . وكل منها عائق رهيب بما فيه الكفاية وحده ، ولكل مشكلاته الاقتحامية الخاصة . ولكن أجتماعها مع بعضها البعض كان يضاعف صعوبة العملية كلها بمعدل الربح المركب ، لأن كلا

منها كان يدعم ويؤكد فاعلية الآخر ، وبالتالى يزيد من خطره ومناعته ومن ثم من صعوبات اقتحامه .

بل قد نستطيع أن نتكلم عن ثلاثية أخرى ثانوية من الموانع : خط أحواض النابالم ، خط الأسلاك الشائكة ، خط حقول الألغام . والخطوط الثلاثة تتمحور بطبيعة الحال حول خط بارليف ، الذى هو العمود الفقرى فيها كما هو فى الثلاثية الكبرى . وفى النتيجة فلقد كانت العملية كلها أشبه بسباق الحواجز المركب ، إلا أن الحواجز جميعا متراصة متلاصقة دفعة واحدة . ولنفصل .

فأما القناة ، فترجع صعوبة عبورها لعدة أسباب . أولا لأنها مجرى ضيق بالقياس إلى كثير من الأنهار والعوائق المائية المماثلة ، فاتساعها يتراوح بين ٢٢٠ ، ١٨٠ مترا فى بعض المواضع ، مما يسهل للعدو عملية تغطيتها بنيرانه فضلا عن مراصده . ثم هى ثانيا قناة عميقة نسبيا إذا قورنت بالأنهار العادية ، إذ تصل إلى ٢٠ مترا أحيانا والمتوسط ١٦ – ١٧ مترا ، كما ينخفض سطح الماء فيها عن الشاطئ نحو المترين ، مما يجعلها صعبة العبور للآليات والدبابات والسيارات المدرعة البرمائية ، بل وتستدعى طرزا خاصة منها وكذلك من الجسور والمعابر .

كذلك فإن القناة ، وهي مجرى صناعي بين بحرين وتجرى في صحراء مكشوفة للعواصف الرملية والرياح القوية ، تمتاز سواء على السطح أو في الأعماق بالتيارات المائية السريعة (١,٥ متر في الثانية) ، المتغيرة التي تختلف اتجاهاتها ما بين الشمال والجنوب عدة مرات يوميا (أربعا) ، والتي تتعامد على اتجاه موجات العبور ويمكن أن تعترضها . وهناك أيضا المد والجزر الذي يغير منسوب المياه خلال اليوم ، والذي يصل إلى أقصاه في الجنوب عند السويس حيث يبلغ مداه ١,٥ متر . ويجب أخيرا أن نضيف كذلك شدة انحدار جوانب القناة ، المبطنة فضلا عن ذلك بالحجارة والدبش والتكسيات والستائر الأسمنتية والحديدية ، مما يجعل نزول المركبات البرمائية وصعودها عليها صعبا يستلزم اعدادا هندسيا مسبقا وشاقا .

أما الساتر الترابي فقد نظنه لأول وهلة عائقا ثانويا بل حتى بدائيا ، ولكنه في الحقيقية عقبة من الدرجة الأولى ومثل مشكلة حقيقية جدا وتحديا أساسيا للتكنولوجيا والهندسة العسكرية في أرقى صورها . فهذا الحائط ، الذي يمتد بطول القناة بكاملها ، أقامه العدو من مخلفات حفر القناة قديما وعمليات التوسيع حديثا والتي كانت تؤلف ساترا ترابيا يتراوح بين ٦ - ١٠ أمتار في ارتفاعه ، ومنه فعلا استمد

فكرة حائطه . (لاحظ أن هذه العمليات والمخلفات تتم على ضفة واحدة فقط من القناة ، هى الضفة الشرقية غير المأهولة أو المزروعة) . وهو حائط شديد العرض والاتساع يصل فى المتوسط إلى عشرات الأمتار . ففى قطاعه الجنوبى مثلا وصل عمقه إلى نحو ٢٠٠ متر ، الأمر الذى يجعل نقبه بالوسائل التقليدية بالغ الصعوبة . أما ارتفاعه فيصل إلى نحو ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ مترا فى المتوسط ، بل وإلى أكثر من ذلك في بعض المواضع ، يهوي منها إلى خط الماء بجبهة ساقطة شبه عمودية يصعب جدا ارتقاؤها فضلا عن تسلقها . انه أشبه فى مجموعه بكثيب مهيب من نوع «السيف» ، إلا أنه من مقياس اقليمى غير مألوف .

وقد كان هذا الساتر بارتفاعه الكبير برج مراقبة شاسعا أيضا ، يعطي فرصة بلا حدود لرصد الضفة الغربية وكشف تحركاتنا وقواتنا عليها ، وفى الوقت نفسه يخفى وراءه الجزء الأكبر من خط بارليف وتحركات العدو عليه . وفوق هذا كله كان الساتر يعطى العدو ميزة العمل من أرض مرتفعة بالقياس إلى الضفة الغربية المنخفضة .

من هنا كان من الضرورى للعبور فتح ثغرات فى الساتر بعرض عدة أمتار على الأقل ولعمق يقترب من منسوب مياه القناة حتى يمكن

اقامة الجسور وعبور القوات والمعدات البرمائية . والمشكلة أن التجربة اثبتت استحالة فتح هذه الثغرات بالتدمير وقوة التفجير بالمدفعية لأن التراب كاتم يمتص وقع القذائف المنفجرة . كذلك لابد أن نذكر أن المشكلة لم تكن ساتر العدو وحده ، فلقد تضاعفت بساتر مماثل أقمناه نحن أيضا فى سنوات ما قبل المعركة على ضفتنا الغربية ، تحسبا لأى هجوم غادر قد يقدم عليه العدو ، واخفاء لتجهيزاتنا ومعداتنا وتحركات قواتنا عن استطلاع العدو ومخابراته ، وأخيرا رفعا لمستوى أرضنا على الضفة الغربية إلى مناسيب وهيئات عالية حاكمة وتوفير مصاطب دبابات مشرفة تفوق أرض العدو وتتفوق عليه .

غير أن الهندسة العسكرية المصرية وجدت حلا مبتكرا تماما استلهمته من تجربة مدرسة السد العالى الهندسية - علاقة أخرى حميمة دائمة ومتصلة بين معركتي السد والقناة ، تمويلا وتأميما وبناء وتصميما ! هذا الحل يتمثل فى التجريف الهيدروليكى بقوة المياه شديدة الاندفاع تحت ضغط مرتفع . فبمضخات توربينية مائية جبارة كموتورات الطائرات ، أو مدافع المياه كما سميت ، تسلط على قطاع الساتر مياه القناة نفسها ، تتهدل آلاف الأمتار المكعبة من التراب الرملى وتتداعى حتى تسوى بالأرض . (قوة اندفاع الماء من خراطيم هذه المضخات تكفى للاطاحة بأثقل الدبابات !)

وبذلك أيضا فإن القناة – كالأرض – تكــون قــد حاربت مع أبنائها !

ولا يبقى بعد ذلك إلا تهـذيب جوانب القـناة بالنسف والتسوية حتى يمكن تثبيت الكبارى والمعـديات وعبـور المركبات البرمائية (يلاحظ هنا أن العدو لم يقتنـع بأن فتحات السـاتر تمت بقـوة الميـاه وحدها ، وهو يعتـقد أننا استخدمنا معها مـادة كيمـاوية مـذابة أو مذيبة لم نعلن عنها) .

ولا يظن أحد أن هذه العملية كانت كشـفا أو تطبيقا سهلا . فقد كان لابد من التوصل إلى طلمبة ميـاه صغيرة الحجم تعمل بالوقود ، خفيفة الوزن فائقة الضخ ، يمكن حملها باليد وتحميلها على القوارب ويكفى أقل عدد منها لفتح ثغرة واحدة . وقد وجد أن هذا الحد الأدنى هو ٣ طلمبات ، واقتضى هذا عمل سنين . كذلك لا ينبغى أن نتصور فتح الثغرة بعد ذلك عملية روتينية هينة . فالطين اللزج الذى تطيح به خراطيم الماء الجبارة بكميات هائلة وسرعة مخيفة لا يحيل فقط وجوه الرجال إلى السواد ، ولا ينجرف إلى المجرى المائى فيلزم ازاحته على الفور كذلك فحسب ، ولكنه يبقى على أرضية الثغرة وقاعها وحلا لزجا زلقا بعمق قد يصل إلى المتر مستحيل عبور الدبابات والآليات عليه إلا بعد ازاحته بالجرافات ثم فرشه بمواد جافة صلبة كالخشب أو الحجارة

أو أكياس الرمل أو ألواح الصلب أو الشباك المعدنية أو غيرها بحسب طبيعة التربة .

أما عن ساترنا على الضفة الغربية فقد كان هو الآخر مشكلة لا تقل خطورة . فقد كان لابد من اعداد فتحات فيه كمنازل أو ساحات اسقاط للكباري تتلقى ارساعها وعبرها يتدفق العبور حين يبدأ . وأن يتم هذا تحت بصر العدو ، فمعناه أن نكشف له عن نوايانا واتجاهاتنا . ولهذا فقد حلت المشكلة بإعداد فتحات خداعية علي طول القناة برمتها ، فتحة كل ربع كيلو متر ، بحيث استحال على العدو أن يعرف أو يحدد أين ومتى سنعبر .

هذا عن الساتر الترابى على حدة . أما خط القوة المنيع ، خط بارليف ، الذى يشرف على المسرح كله أرضا وماء ويسيطر عليه من علٍ سيطرة كاملة ، فقصة أو قضية أخرى ، لأنه غير قابل للتدمير بإصابات القنابل المباشرة سواء بالمدفعية الثقيلة أو من الطائرات القاذفة ، ولهذا سنعود إليه بالتفصيل . ولكن علينا هنا أن نذكر على الأقل تلك السلسلة من أحواض النابالم والزيوت الحارقة والوقود التى رصع بها العدو ضلوع وأجناب الخط والساتر ، مخبأة تحت الأرض وممتدة أنابيبها تحت سطح مياه القناة ، تنساب فيها لتندفع فوقها بحسب نظرية الأوانى المستطرقة ، لتشتعل لحظة العبور فتحيل الماء

إلى نار والنار تخرج من الماء وتحـول القنـاة إلى شريط أو شريحة من الجحـيم تحرق كل ما حولها . وقد أثبتت التجربة عدم جدوى طـريقة الإطفـاء ، وتحتم قطع أو سد تلك الأنابيب الحديدية منـها والمطاطية قبيـل العبور مباشـرة . وهـذا مـا تم بالفـعل بنجاح تام ، بحيث أخرج هذا السلاح الحارق من المعركة و«أحرقه» تماما .

وقبـل أن نغـادر هذا المسـرح بعقبـاته الطبيعـية والصناعية ، لعل القارئ قد لاحظ مدى التغييرات التى أحـدثها اعـداده وتجهيزه فى اللاندسكيب الطبيـعى للمنطقـة برمتـهـا ، سـواء على الضـفة الشرقية أو الغـربية . هنـاك على الضـفة الشـرقية ، كما رأينا ، كان خط بارليف وسـاتره الرملى بكل جرمهما وضـخامتهما . وهناك خلفهما سلسلة متتـابعة من الخطوط الدفـاعية الثـانوية تتعـاقب بانتظـام ويتباعد محسوب ما بين القنـاة وخط المضـايق الجبلية ، لكل واحد منها تلاله وسواتره الصناعية ومناطـق تجمعـات القوات ومنشـآتها .. إلـخ . وهنـاك بين الكل شـبكة كـبيـرة من الطرق الرئيـسـيـة والفـرعية ، الطـولية والعرضية ، طـولها نحو ٧٥٠ كم وعمقها نحو ٣٠ كـم ، أنشـأها العدو على امـتداد تلك الشـقة لتخـدم تحركاته وقـواته بسـرعة على كل المحاور وخـاصة من محـور طولى إلى محور آخر .. إلخ . وبهـذا لم يكن الأمـر مجرد «خط» دفـاعى أحـادى يطل

على القناة ، ولا حتى «نطاق» دفاعى يوازيها ، بل كانت المنطقة بكل عمقها من القناة إلى المضايق «منطقة» دفاعية كاملة بالمعنى العسكرى المعروف .

بالمثل على ضفتنا الغربية . ثمة كان ساترنا الترابى المناظر بكل ما يضرسه ويشرشر سطحه من عوالى مصاطب وأبراج ومواطئ ثغرات وممرات وساحات اسقاط بالعشرات . ثمة كذلك شبكة الطرق والمدقات الكثيفة بطول وعرض وعمق الجبهة ما بين القناة والوادى ، تؤلف فى مجموعها نحو ٢٠٠٠ كم ، شقتها الهندسة العسكرية خصيصا لخدمة تحركات القوات المسلحة ، وبعضها أقيمت على جانبيه الستائر اخفاء لتحركاتنا عليها ، وبعضها أقيمت عبره الكبارى والجسور ... إلخ . وهناك عدا هذا شبكة ترع الرى والصرف الحيوية بشرايينها ومحاورها الرئيسية وفروعها الثانوية ، تلك الشبكة التى كانت تمثل عقبة فى سبيل التحرك شرقا وغربا بصفة خاصة والتى استلزمت من ثم عديدا من الكبارى فوقها ، وأكثر منها من المخاضات عبرها للربط بين شاطئيها (ترعة الاسماعيلية والسويس خاصة) ، كما استلزمت حبس المياه عنها قبيل المعركة مباشرة تسهيلا للعبور . وتلك الشبكة نفسها كانت هدفا خاصا جدا لطيران العدو . قبل المعركة حاول شلها وسدها بالقنابل أو فتح ثغرات كبرى

فيها بحيث تغرق الأراضى المنخفضة حولها بكل ما عليها من منشآت مدنية وعسكرية أو بحيث تتدفق مياه القناة الملحية إليها فتختلط المياه العذبة بالملحية حتى يحرم السكان والقوات من الماء ، كما حاول بالفعل فى منطقة رقبة الأوزة الضيقة النحيلة فى قطاع القنطرة - بورسعيد حيث تختنق أرض اللسان بما تحمله من شرايين طرق المواصلات وطرق الرى . أما أثناء المعركة فقد حاول العدو سد بعضها وحوله إلى كبارٍ ترابية أو حجرية يعبر عليها كما يقتل بها عطشا وغرقا ...

من هذا كله نصل بسهولة إلى أن الحرب ، قبل المعركة وأثناءها وبعدها ، قد خلقت وخلفت وراءها نوعا من اللاندسكيب يختلف عن «اللاندسكيب الطبيعى» بقدر ما يبتعد أيضا عن «اللاندسكيب الحضارى» بمعناه العادى المدنى أو السكنى أو البشرى التقليدى . ذلك هو «اللاندسكيب العسكرى» بالضرورة والامتياز ، military landscape, militaryscape, warscape كما يمكن أن نسميه . فصفحة الاقليم هنا بما أقيم عليها من خطوط دفاع وسواتر تراب هائلة وقلاع مشيدة ومنشآت ومصاطب وقواعد صواريخ ثابتة وأطباق الرادار العظيمة الأقطار والدشم والمطارات والمهاجع وأبراج المراقبة المشرفة وترسانات الأسلحة

الضخمة.، وبما بث فيها من حقول ألغام شاسعة ورشق عليها من غابات كثيفة من الأسلاك الشائكة ، ثم بما حفر فيها من آلاف الخنادق الملتوية والمخابئ والملاجئ ودشم وأوكار الدبابات وبطاريات المدفعية ، وكذلك بما أضيف إليها من شبكات طرق شريانية أو هامشية ، رئيسية وفرعية ، بل وبما فرض على شبكة مياهها سواء القنوات أو الترع أو المصارف من تعديلات أو تفريعات أو كبار وسدود أو حتى مخاضات ، نقول : بكل هذا أصبحت صفحة الاقليم مرصعة بآلاف الملامح والمعالم والهيئات العسكرية التى قد تتقارب أحيانا وتتكاثف فى تجمعات كالأسراب الحاشدة أو تتباعد هنا وهناك في كوكبات أو تنقطها في وحدات منعزلة ، ولكنها تؤلف فى مجموعها أرخبيلا هائلا أشبه بنهر مجرة عسكرى يترامى بين البحرين المتوسط والأحمر بطول القناة وعلى جانبيها بعمق عشرات الكيلو مترات .

لقد أصبح وجه الأرض هناك يحمل بصمة أصابع الإنسان المحارب وخاتم الحرب وطابعها أكثر من أى شئ آخر ، وتحول اللاندسكيب هنا إلى نوع من المعمار الحربي والهندسة العسكرية . لقد خلقت الحرب في هذه المنطقة الاستراتيجية نوعا من الإقليم الجغرافى الخاص ، المؤقت أيضا ربما ، هو «اقليم الحرب» ، وأصبح

اقليم الحرب لاندسكيب حرب أيضا ، آعاد تشكيل اللاندسكيب الطبيعى وأعاد خلق تضاريسه الصغرى بل وهيدرولوجيته ، أحيانا بصورة مقلوبة وأحيانا بصورة مدمرة .. إلخ ، بالاختصار ، لقد خلقت المعركة نوعا جديدا من الاقليم ، فبزغت جغرافية تشكيلية جديدة للمنطقة وتخلق شكل رابع من المادة ، شكل يتراوح ويتأرجح باستمرار ما بين البناء والهدم والتعمير والتدمير ، وهو فى النهاية إلى زوال أو تقلص حين يعود السلام .

الاستجابة

تلك كانت ثلاثية الموانع الطبيعية والهندسية ، الأرضية والمائية ، كما واجهت معركة التحرير . وقد كان هناك – نظريا – طريقان للتعامل مع هذه العقبة الكؤرد : أما تجاوزها أصلا وتخطيها كلية بهجوم شامل محمول جوا يحقق الاسقاط خلف خطوط العدو ، خلف خط بارليف يعنى . وهذا يحل مشكلة العبور المائى الصعبة ومشكلة السد الترابى الذى لا يستجيب للتفجير المدفعى ثم الخط نفسه الذى لا يتأثر بأى ضرب مباشر . ولكن هذا الطريق يتطلب أسطولا جويا من طائرات النقل والهليكوبتر من مقياس مستحيل توفيره فضلا عن تصوره لمعركة بالحجم المتوقع ، بل ربما تقصر دونه

امكـانيـات الدول الكـبـرى ، كـذلك لم يكن من الممكن ضـرب خط الاستحكامات كله بالطيـران نظـرا لأنه لا يبعد إلا ٢٠٠ متر فقط عن قواتنا نحن .

لذلك لم يكـن مفـر مـن الطريق الآخر : العبور الأرضى لا الجوى ، الأفقى لا الرأسى ، والاقـتحـام المباشـر لا الالتـفـاف الخلفى ، أو قل الإنزال بدل الإبرار . وكان هذا يعنى ويسـتدعى ، إلى جانب الإعداد والحشد والتسليح بالمستوى والحجم المناسب بطبيعة الحال ، خطة عظمى تقوم على دعامتين أساسيتين هما شجاعة التخطيط العلمى وقدرة الهندسة العسكرية .

بالأولى نقصد المخيلة الجـريئة المتحدية التى لا تتردد فى المخاطرة بالاقتحـام وابتكار الحلول دون تقليدية وبلا مـخاوف ، لا تقـامـز ولكن لا تخشى أن تغامر ، وفى الوقت نفسه تقدم تصورا كاملا متكاملا للخطة بجميع مراحلها وتفاصيلها . والواقع أن المعركة ، كما سنرى ، أثبتت أن الخطة لم يكن ينقصها لا المخيلة ولا الشجاعة ولا التجديد ، بل جاءت خطة ثورية ، طموحا ، ومخاطرة إلى حد غير عادى . وقد كان هذا سر نجاحها ، مثلما هو سر دهشة العسكريين فى العالم حيالها وتلهفهم على دراستها .

أما القدرة الهندسية فقـد كانت شرطا جوهريا وضمانا شرطيا لابد منه بحكم طبيعة العملية فى كل مراحلها وعقباتها . بل يمكن

القول بلا مبالغة ان العبور كله ، بجميع حلقاته وإلى أن يكتمل لقواتنا موطئ قدم وثيق على البر السينائى ، انما هو عملية هندسة عسكرية صرف . وبالفعل ، فلقد جاء عبور المعركة فى التطبيق قطعة من العلم والتكنولوچيا العسكرية الممتازة ، محورها ومهندسها الأساسى ولا نقول الوحيد هو سلاح المهندسين ، الذى يمكن أن يعد في تلك المرحلة بمثابة سلاح رابع للقوات المسلحة جنبا إلى جنب مع القوات البرية والبحرية والجوية (خلال ساعتين فقط من الانطلاق - سنرى - كان حجم قوة المهندسين على الضفة الشرقية وفوق القناة نحو ١٥ ألف رجل ، وفى الموجة الثانية عبرت ٨٠ وحدة هندسية بقواربها الخشبية محملة بكل تجهيزاتها) .

هذا إذن عن الشرطين العامين أو الخارجيين للخطة . غير أن هناك أيضا شرطين داخليين يأتيان بعدهما . فلما كان العبور هو بداية كل شئ ، بداية معركة التحرير جميعا ، ومن ثم كان النقطة الحرجة فى الهجوم ومفتاح النصر أو الهزيمة ، أى فاتحة النصر أو خاتمة الهزيمة ، كان لابد أن يتم فى أقصر وقت ممكن قبل أن يتنبه العدو ويفيق ، وبأقصى حد من النجاح قبل أن يدفع بقواته من العمق . كان المطلوب أساسا هو شغل العدو وشله إلى أقصى

حد ممكن طوال هذه الفترة الحرجة . ومعنى ذلك بعبارة أخرى اخراج كل أسلحته في كل أنساقه وخطوطه الدفاعية - اخراجه كله مثاليا ان أمكن - من المعركة مؤقتا بطريقة أو بأخرى ريثما تتم العملية . فالعملية إذن سباق مع الزمن أساسا ، حسابها يتم بالدقائق وتتم في جملتها في ساعات .

من ثم كان محور النجاح وأساس التخطيط هو ضبط توقيت الضربات والتحركات من جانب جميع أسلحتنا وقواتنا في ترتيب مسلسل بحيث يتزامن بعضها أو يتعاقب بعضها في جدول زمني محسوب ، يمهد لبعضها البعض لكي يتم في ظلها وبمساعدتها وتحت غطائها ، ثم يسلم هو بدوره المهمة لغيره ، وهكذا . ومن هنا سنلاحظ تزامن عدة عمليات معينة في ثنائيات كالتوائم «السيامية» الملتصقة أبرزها ثلاث : الطيران مع المدفعية : المشاه مع المهندسين : المدرعات مع المشاه الميكانيكية .

ففي لحظة واحدة ، سنرى ، بدأت معا عمليتان تتعلقان بعمق العدو هما الضربة الجوية الأولى وانطلاقة عملية المدافع الثقيلة . وفي اللحظة نفسها بدأت عملية عبور الزوارق المطاط والعربات البرمائية المدرعة تحمل المهندسين لإقامة الكباري والمعابر والمشاة لتأمين رؤوسها على الضفة الشرقية . وبعد أن

تمت هذه العملية عبرتْ عليها كل من المدرعات والاسلحة الثقيلة فى جانب ومعها المشاة الميكانيكية والمدفعية فى الجانب الآخر . وسنرى بالفعل كيف أن هذه العمليات الثنائية تؤلف حلقات مترابطة في سلسلة واحدة تمثل بدورها دائرة مغلقة أحكمت حول العدو .

كل هذا التخطيط الكفء وهذه التكنولوچيا المقتدرة وتلك الحسابات الدقيقة لم تكن ، مع ذلك ، لتكفى . كان لابد لها جميعا قبل التطبيق من تدريب وتجريب يختبرها عمليا ويكشف ثغراتها ويصحح مساراتها ... إلخ . وهنا ثبت أن سنوات ما قبل المعركة ، تلك السنوات القاسية والصبور ، لم تكن سدى . ففى هذه الفترة اتيح لقواتنا وقياداتها المجال لنوعين أساسيين من التدريب والتجريب : تدريب نموذجى معملى ، وتدريب ميدانى واقعى .

فبالتخطيط الثاقب الواعى والإرادة المصرة ، جرى التدريب الشاق المثابر العنيد - قيل ٢٠٠ تجربة ! - على «ماكيت» اقليمى من الحجم الطبيعى وفى لاندسكيب طبيعى اختير بعناية وعن عمد ليكون أقرب ما يمكن شبها ببيئة القناة ومسرح القتال سواء تضاريس أرض أو عمق مجرى أو سرعة تيارات . وقد كانت منطقة على قطاع من ترعة الاسماعيلية ، حيث أقيم سد ترابى مشابه

تماما لسد العدو ، في هذا المسرح التدريبي والتجريبي على العبور والاختراق . كذلك فلقد أجريت عملية التدريب أحيانا على قناة السويس نفسها في قطاع يزدوج فيه مجراها وينشعب شعبتين – قطاع البلاح ، حيث تتوسط المجرى جزيرة البلاح – الغربى منهما كانت تسيطر عليه قواتنا سيطرة كاملة وفي مأمن تام من أنظار العدو وأخطاره .

ولا يظن أحد أن هذه التجارب والتدريبات ، حتى كتجارب وتدريبات ، كانت بالمهمة السهلة . ففضلا عن صعوبات توفير المسرح الملائم بالمواصفات المحددة ، كانت هناك اعتبارات امكان استخدام الذخيرة الحية ، وبإحداث خسائر في الأرواح والممتلكات والمزروعات بل والأرض الزراعية نفسها ، كذلك ضرورة اقامة ثم هدم الساتر الترابي الصناعي عدة مرات في كل تجربة واحدة ، ثم تكريك وتطهير المجرى المائي من رديمها بعدد تلك المرات نفسها واعادته إلى مكانه على الأرض من جديد ، كل أولئك مع ما يعني من مضاعفة أحجام مكعبات الحفر والردم والتكوين والتكريك عدة أضعاف الحجم الكلي للعملية الحقيقية الواحدة نفسها في ميدان القتال الفعلي . وكما يذكر كتاب حرب رمضان فإن تدريب وحدة هندسية واحدة (من ٨٠ وحدة مطلوبة) كان يستدعي تحريك حجم من الأتربة والوحل

يعادل ١٢ مرة مثل ما ستقوم بإزاحته فعلا أثناء المعركة ، في حين ترتفع هذه النسبة إلى ١٥ ضعفا بالنسبة لمجمل العملية كلها تجريبا وتدريبا .

بهذا كله وبمثله وبغيره كانت العملية قد أصبحت بمثابة «الأمر اليومي» أو حتى «الخبز اليومي» بالنسبة للمهاجم المصرى المقتحم ، كل المعدات والأسلحة جاهزة «مشـونة» في أماكنها بالضبط لساعة الصفر ، وكل فرد يعرف دوره ومكانه ولحظته المحددة ، مما حقق ساعة التطبيق نتائج قياسية مذهلة من الكفاءة والاقتدار والنجاح فاقت أعرض أحلام التخطيط نفسه وأشد توقعاته تفاؤلا .

وعدا هذا التدريب النموذجى المعملي أو العملى ، كان هناك أيضا التدريب الميداني الواقعى ، ونعنى به مواجهة العدو ومناجزته بانتظام والالتحام به دوريا عبر القناة وعلى أرض سيناء منذ ما بعد يونيو وحتى وقف إطلاق النار فى أغسطس ١٩٧٠ . فالواقع أن فترة ما بين الحربين (يونيو ٦٧ - أكتوبر ٧٣) ، والتى استمرت نحو ست سنوات ونصف السنة ، كانت فترة كمون واعداد ثم اختمار فانطلاق نحو القفزة الكبرى . ونحن نستطيع أن نقدر هذه الفترة حق قدرها فى سياق الصراع العام إذا نحن حللناها

إلى مراحلها التطورية . فهناك أربع مراحل أساسية : الصمود فالردع فالاستنزاف فوقف النار .

فالصمود (يونيو ٦٧ – أغسطس ٦٨ ، أو سنة وشهران) هى أساسا مرحلة «الدفاع الحذر» ، تنقطها معارك رأس العش والمدمرة إيلات وبعض معارك جوية متحدية . والردع (سبتمبر ٦٨ – فبراير ٦٩ ، أو ستة شهور) هى أساسا مرحلة «الدفاع النشط» ، تلخصها معارك المدفعية التى اتصل فيها التراشق بالنيران عبر القناة ، وكان من نتائجها بناء العدو لخط بارليف الأول . أما مرحلة الاستنزاف (مارس ٦٩ – أغسطس ٧٠ ، أو سنة ونصف السنة) فتعد أساسا مرحلة «الهجوم الحذر» ، ففيها تم تدمير خط بارليف الأول بالمدفعية المكثفة المستمرة طوال شهرين ، مارس وابريل ١٩٦٩ ، ثم توالى عبور الكوماندوز ليلا ثم ليلا ونهارا بقوات متزايدة ثم بلا انقطاع ، كما تكررت غارات الضفادع البشرية على موانىء العدو تحرقها وتغرق سفنه فيها ، هذا فضلا عن الغارات والمعارك الجوية المتصاعدة ، وذلك كله فى وجه غارات العدو المضادة على الجزر المنعزلة والعمق المدنى إلى جانب جبهة القناة . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فهى مرحلة وقف إطلاق النار (أغسطس ٧٠ – أكتوبر ٧٣ ، أو ثلاث سنوات وشهران) ، وهى أساسا فترة اللاحرب واللاسلم .

من هذا التصنيف نرى أن فترة ما بين الحربين تكاد أولا تتنصف ما بين مراحل الدفاع بأشكاله ودرجاته المختلفة وما بين مرحلة اللاحرب واللاسلم (ثلاث سنوات وشهران لكل منهما) . والمراحل الدفاعية الأولى تكاد بدورها تتنصف بين الصمود والردع السلبي في جانب وبين الاستنزاف الايجابي في الجانب الآخر (حوالي سنة ونصف السنة لكل منهما) . وإذا كان العدو قد تفرغ في مرحلة وقف النار لبناء خط بارليف الثاني وتدعيم وجوده في سيناء ، فقد تفرغت القوات المصرية للتدريب الداخلي النهائي والحاسم ولإعادة بنائها وتطويرها للمعركة الكبرى . وهكذا ترسم المراحل مجتمعة عملية متنامية متصاعدة تتعاقب وتتكامل في زحف صاعد نظيم من البناء العسكري والاختبار الحربي وكانت كلها بخبراتها وتجاربها ونتائجها مدرسة عملية أخرى بالفعل وتدريبات جزئية مجزأة على معركة التحرير الكبرى في أكتوبر . بل قد يمكننا أن نقول عنها بالنسبة إلى المعركة نفسها انها إلى حد أو آخر «المعركة الظل» ، حيث التدريبات الخلفية على النموذج المجسم هي بدورها «شبه الظل» .

إلى هذا المدى يرتبط اعداد ما قبل المعركة بالمعركة نفسها ، قل ارتباط المقدمات بالحدث أو الطلائع بالوقائع . ونستطيع إذن

أن نقرر باطمئنان أن المعركة لم تكن طفرة فجائية ، أكثر مما كان نجاحها صدفة سعيدة أو اتفاقا . فالصحيح أنها وليدة تطور طويل وزحف بطيء وانبثاق له جذور عميقة ، كما أنها الابنة الشرعية لتخطيط وتدريب وتنفيذ كل منهم ناجح ومحكم إلى أقصى حد .

ويمكن أن نضيف كذلك ولذلك أن المعركة أفادت بلاشك من تجربة الهزيمة الأليمة التي سبقتها في يونيو ، من وقائعها ودروسها ومن أخطائها وخطواتها ، كما من تصريحات العدو نفسه عنها بعد انتهائها . ومن المحقق أن ما أعلنه قادة العدو وكتابه - على سبيل الغرور والتباهي - من تفاصيل وجزئيات وملابسات خطة يونيو كان مادة مفيدة وكاشفة للمخطط المصرى لأكتوبر . ولا أدل على هذا من أن العدو نفسه راح بعد المعركة يندم ويلوم نفسه على ذلك ، من بين أشياء أخرى يأسف ويأسى عليها الآن كثيرا ..

الفصل الثالث

استراتيچية المعركة

الانطلاقة

في ساعة الصفر بدأت الضربة الجوية الكبرى : ٢٤٠ طائرة من القاذفات المقاتلة انطلقت إلى أعماق سيناء لتدك مطارات العدو وقواعده الجوية وطائراته الجاثمة على الأرض بها . وكانت ابرز اهداف هذه الغارة الضاربة هي مطارات المليز وتمادة والسر والجفجافة شرق الحائط الجبلي ، ثم القاعدة الجوية في العريش في أقصى شمال شبه الجزيرة ومطار رأس نصراني في أقصى جنوبها . هذا فضلا عن مراكز الرادار والتشويش في أم خشيب وأم مرجم والطاسة وغيرها على المحور الأوسط ، مما شل الجهاز العصبي للعدو الجوي واضطره إلى نقل قيادته الجوية إلى العريش .

ولقد تمت هذه الضربة كلها - كشرط أساسي ومبدئي - في لحظة واحدة تماما . بمعنى أن كل طائراتنا كانت فوق مواقعها

المستهدفة فى تلك اللحظة الواحدة الموحدة ، وذلك حرمانا للعدو من فرصة الانذار وتحقيقا لعنصر المفاجأة الكاملة . وبهذا أخرج طيران العدو من المعركة مؤقتا لساعات ثمينة . وبهذا أيضاً كانت تلك الضربة الساحقة قطعة من الحرب الخاطفة لاشك Blitzkrieg ، ردا عادلا ومشروعا على ضربة العدو الغادرة التى قام بها صباح ٥ يونيو ، مثلما هى مكافئ كفء وند لها .

وفى اللحظة نفسها التى انقضت فيها طائراتنا على أهدافها فى أعماق العدو ، انطلقت المدفعية الثقيلة البعيدة المدى - ٢٠٠٠ مدفع كاملة ، مضافا إليها قوة صواريخ أرض - أرض كاملة - تقصف فى قصفات متصلة لا تنقطع نيرانها لساعة كاملة مواقع العدو المختلفة فى الشريط الغربى من سيناء : نقط خط بارليف الحصينة ، بطاريات المدفعية ، تجمعات الاحتياطي الأمامية والخلفية ، التكتيكية والتعبوية . وهكذا كان للمدفعية بعشرات آلاف الطلقات دور أساسى فى التمهيد النيراني الجبار للعبور ، وفى تغطيته وتأمين اقامة رؤوس الجسور على الضفة .

فمن ناحية قامت بتدمير واسكات مدافع ورشاشات العدو التى تطل من فتحات ومزاغل خط بارليف ، وألزمت قواته بذلك البقاء داخل نقط الخط تاركة السرد على مدفعيتنا لمدفعيته فى

العمق ، مما أدى إلى ترك ساحة الشاطئ الشرقى مفتوحة للقوات المصرية العابرة . (يلاحظ أن المدفعية الاسرائيلية ضعيفة نسبيا بصورة تقليدية نظرا لتركيز العدو بشدة على سلاح طيرانه .) ومن ناحية أخرى فإنها كانت السلاح الأساسى فى التصدى لدبابات ومدرعات العدو فى المرحلة التى لم يكن لنا فيها على الضفة الشرقية إلا قوات المشاة قبل أن تنتقل إليها المدرعات والأسلحة الثقيلة . ومن ناحية ثالثة فإنها شغلت مدفعية العدو فى عملية سبق مثيلها دون عبور غزو حقيقى ، وبذلك أبعدت أنظاره عن حقيقة الغزو وشتت انتباهه عن عملية العبور إلى حين . وأخيرا فإنها هى المدفعية التي تكفلت بتدمير احتياطياته التكتيكية والتعبوية التى كانت معدة للتعامل مع قواتنا فى حالة أي عبور كامل ، وبذلك حدت من فرص وامكانيات المقاومة فى لحظات النزول الأولى على الضفة الشرقية . وبهذا كله نجحت المدفعية فى «اقتطاع» مقدمة الجبهة مؤقتا من دائرة دفاعات العدو لتنفرد قواتنا بالمسرح حرا خلال ساعات الحسم الثمينة ، تماما مثلما نجحت الضربة الجوية في تعطيل دفاعاته فى العمق فأصيب بالشلل المؤقت .

تحت هذا القوس النارى المحدب الهائل ، وفي حمايته الوثيقة ، وفي اللحظة نفسها التى انطلق فيها ، بدأت أولى مراحل التحرك الأرضي، وهذه المرحلة الأولى كان قوامها المهندسين والمشاة . ففي صمت تام ، ومن مواقعها المحددة والمنتخبة بدقة ، انزلق إلى الماء فى هدوء أسطول من زوارق المطاط ، ١٠٠٠ قارب ، صغيرة كما هي خفيفة ، وكذلك من المركبات البرمائية جنوب البحيرات المرة وشمال بحيرة التمساح ، تحمل عدة آلاف بعضهم من المهندسين لمد الكبارى والمعابر ولفتح ثغرات المرور فى السد الترابى ولإبطال مفعول أنابيب النابالم ، والبعض من المشاة والصاعقة الكوماندوز لتأمين رؤوس تلك الجسور والتعامل المباشر مع طلائع العدو وصد وتصيد دباباته وبث الألغام في مصاطبها لمنعها من الحركة والتدخل .

ولقد كانت عملية مد الجسور والمعابر عملية حيوية بالغة الدقة والحرج والتعقيد ، اذ لابد لها أن تتم بسرعة وكفاءة حتى تحت نيران المعركة الكثيفة . فبينما كانت الزوارق تعبر بأقصى سرعتها إلى المواضع المحددة لاقامة رؤوس الكبارى على الضفة الشرقية ، كانت مدفعيتنا تركز نيرانها على خطين طولين فى تلك المواضع ، تنقطهما نقطة نقطة تقريبا بقذائفها الثقيلة خلخلة

لأجناب السد الترابى وتمزيقا لشبكة أسلاكه الشائكة وتفجيرا لحقول ألغامها .

وتلك الخطوة البارعة كانت بدورها تمهيدا لعمل مضخات المياه الجبارة أو مدافع الماء التي سلطت عليها فبدأت تنهار رمالها وأتربتها تحت قوة تعريتها حتى تحولت إلى أخاديد وفجوات مفتوحة في عرض حائط الساتر . وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه بينما ركزت المدفعية الثقيلة نيرانها وقصفاتها على قطاعات المحاور الاستراتيجية الثلاثة بصفة خاصة ، ركزت مدافع الماء عملها على القطاعات الخالية الفاصلة بين النقط القوية من خط بارليف . هذا ولم تكن عملية فتح الثغرات في الساتر بالسهلة ، خاصة في القطاع الجنوبي من القناة حيث الأرض مضرسة مرتفعة وطبيعة تكوينات الساتر الترابى طفلية وصلصالية لا تساعد كثيرا على عمليات التجريف وإنما تتحول تحت الماء إلى كتلة طينية لزجة متماسكة صماء ، زلقة للمشاة وللآليات والمركبات . كذلك كان تراب الساتر يتساقط إلى القناة فيطميها ، فيعوق ارساء الجسور ، فكان لابد من ازالة الاطماء فورا وبسرعة ، وكان لابد كذلك من تسليط المضخات على أعالى الساتر ثم على أسافله منعا للإرساب . ولقد كان هذا هو السبب في تأخر عملية مد الجسور والمعابر في هذا القطاع بعض

الوقت . بيد أن العملية فى جملـتها تمت بنجاح عظيم . وقد تم فيها شق ٨٥ ثغرة فى السـاتر الترابى أزيل فـيها من مكعبات الحفر فى ساعة إلى بعض ساعات ما كان يحتـاج إلى عمل نصـف مليون رجل/ ساعة بالطريقة التقليـدية ، كذلك تمت اقامة ١٠ أو ١١ من الكبارى العائمة الثقـيلة Pontoon bridges ، ١٠ أخرى للمشاة ، ونحو ٥٠ معدية ، وذلك كله فى بضع أو عدة سـاعات . وهذه هى الشبكة العابرة التى ستنقل الجسم الأسـاسى للقوة الضاربة والتى ستصبح الشريان الحامل لتدفق الهجوم .

هذا عن دور الوحدات الهنـدسية . أما عـن دور المشـاة ، فقد كان ضروريا لتأمـين رؤوس الكبـارى عـلى الضفة . وكانت هذه المهمة بالغـة الأهمـية والحرج لأن معنـاها أن على المشـاة أن يتصدوا ، وحدهم وإلى أن يتم انشـاء الجسـور ، لقوات العـدو المدرعة ومدفعيتـه الثقيلة . ولهذا فإن الساعات القـليلة التى اسـتغرقها مد الجسور ثم تدفق أسـلحتنا الثقيـلة من المدرعات والمدفعـية ، والتى تقدر فى مجموعها بما يتراوح بين ١٢، ٢٤ ساعة ، كانت فترة فائقة الخطر وبمثابة عنق الزجـاجة فى العملية كلها . ولكنها بنجاح فائق ، بل ومثير ، تمت . فمثلا حتى فى القطـاع الجنوبى الذى تعطلت فيه اقامة الجسور بعض الوقت كما رأينا لم

تصـــل الآســلحــة الثقيـلة إلا بعـد يومين أو ثلاثة ، ظلت فـيـها المشاة وحدها فى الميدان ولكنها تـسيدته بالدرجــة نفسـها التى حققتها فى بقية قطاعات الجبهة .

والسؤال الذى يفرض نفسه هنا على التو هو : كيف ، كيف حدث هذا ، ولماذا ؟ والرد مباشر كما هو بسيط : فلقد سلح الرجال ، الذين تخففوا إلى أقصى حد ممكن من كل ما ليس للقتال بصفة مباشرة سواء من المعدات أو التموين ، سلحوا بصواريخ الكتف الخفيفة المضادة للدبابات وللطائرات ، ومدوا بعربات جر يدوية صغيرة مبتكرة يحملونها الأسلحة الأثقل ويعتلون بها الساتر الترابى ، كما زودوا بسلالم خشبية وسلالم من الحبال يتسلقون بها الساتر . وهكذا ، بالسلالم المتحركة والحبال ، والأظافر أيضا ، اقتحم المشاة والصاعقة وقناصة الدبابات الساتر وانطلقوا للتعامل مع العدو .

وإذا عدنا للنظر قليلا إلى عملية العبور فى مجملها ، فسنجد عدة حقائق لافتة لها مغزاها . فهى أولا قد تمت على طول امتداد القناة من البحر إلى الخليج ، ١٧٠ -١٨٠كم، أو نحو ١٠٠ ميل . وبهذا فإن جبهة الهجوم المصرية شملت القناة برمتها، رغم أن جبهة المواجهة المباشرة تدور حول ١٠٠ كم منها فقط، وذلك لوجود قطاعات ذات طبيعة جغرافية خاصة تخرجها من المواجهة. وأهم هذه القطاعات هى سهل الطينة

الهش على الضفة الشرقية ازاء بحيرة المنزلة ، ثم قطاع بحيرة التمساح والبحيرات المرة شديدة الاتساع بحيث لا تصلح لعبور قوات كبيرة. ولكن من الواضح أن الخطة المصرية اختارت عمدا وعن وعى أن يغطى الهجوم جبهة القناة بكامل أبعادها بين البحرين. والسبب أن هذا الانتشار يوزع دفاع العدو ويشتت هجومه المضاد وخاصة منه الجوى ، كما يربك العدو فى تحديد اتجاه مجهودنا الرئيسى ويعطل بالتالى رد فعله ازاءه.

كذلك يلاحظ أن العدد الذى أقيم من الجسور والمعابر كان أقل من المطلوب فعلا للعبور. ولكنه كان كافيا لإرباك العدو وتشتيته وخداعه، ولأن يكفل احتياطيا وبدائل تحسبا لأية اصابة قد تحدث، ولأن يفيد من قطاعات القناة الضحلة أو الضيقة، وأخيرا لأن يبتعد بصورة مأمونة عن مواضع نقط العدو القوية على طول خط بارليف.

وبالفعل، فلقد تم فيما بعد، حين مرت الفترة الحرجة، اختزال هذا العدد إلى ٣ فقط ضمت فيها الجسور إلى بعضها البعض فى المواقع الاستراتيجية الأساسية. ففى بداية العملية كان هناك ٣ كبار على القطاع الجنوبى بين خليج السويس والبحيرات المرة، ٣ أخرى بين البحيرات المرة وبحيرة التمساح، ثم ٤ فى القطاع الشمالى ما بين بحيرة التمساح والقنطرة، اثنان منها جنوب جزيرة البلاح واثنان

شمالها. وحين ضمت هذه الجسور والمعابر تركزت أمام محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة ، أي في قطاعات السويس ، الإسماعيلية ، القنطرة.

المبارزة

وبديهي جدا أن هذه الجسور والمعابر، الحبل السرى وخط الحياة بين جانبي القوات الزاحفة، كانت الهدف الرئيسي الذي ركز عليه العدو نيرانه، وخاصة من الجو، بصورة محمومة. وفي وجه هذا الخطر لجأت الخطة إلى تكتيكات ديناميكية أفشلت كل محاولاته. فمن ناحية دأبت القوات المصرية على تحريك مواقع الكباري بمرونة فائقة وسرعة من مكان إلى آخر. ومن ناحية أخرى أطلقت ستارة كثيفة من الدخان تحجب الرؤية وتمنع إصابة الأهداف ، ومن ناحية ثالثة أقامت بعض الجسور الخداعية ودفعت عليها بقوات هيكلية ركز عيها العدو فبددت جهوده وشغلته عن الجسور الحقيقية. وهكذا، وهكذا. وفي النتيجة فلقد فشل العدو في تدمير شيء من الكباري أو المعابر ولم ينل منها بالكاد، على العكس تماما من دعايته الداوية – والكاذبة – في هذا الصدد. وفي الحالات القليلة التي حدثت بها اصابات كان اصلاحها يتم في دقائق ويستمر العبور بلا توقف. ولو أن من الجدير بالذكر، كما يقول كتاب حرب رمضان ، «أن معظم الكباري أصيبت وأعيد اصلاحها أكثر من

خمس مرات..» (في ٧ أكتوبر أعلنت إسرائيل أنها دمرت «ربما كل» الجسور التي أقامها المصريون، وأن المعارك تدور «على حافة المياه»، وأنها ستستعيد السيطرة على الضفة الشرقية خلال ٢٤ أو ٤٨ ساعة. وفي ٩ أكتوبر أعلنت أنها «تخلت» عن خط بارليف ، وأن الحرب ستكون طويلة وصعبة جدا، وأن الخسائر الاسرائيلية كبيرة!)

فبعد ساعات من بدء العبور، رد العدو بالهجوم الجوى الشامل. وخلال الليل تحولت السماء إلى نهار بفعل المشاعل الجوية، وبلغ عدد الطائرات المغيرة أكثر من ٢٥٠ طائرة، أى أكثر من نصف سلاح العدو. حتى إذا كان الصباح ، حاول العدو أن يعود إلى أسلوبه فى يونيو ١٩٦٧ بضربة جوية خاطفة ومكثفة على ارتفاع منخفض جدا. ولكن طائراته فوجئت بصواريخنا القصيرة المدى من طراز سام ٧ إلى جانب المدفعية والرشاشات تتصيدها عن قرب أو ترغمها على الارتفاع فورا، فتتيسلمها صواريخنا البعيدة المدى من طراز سام ٢ ، ٣ ولكن بالأخص ٦ فتتبساط قنابلها بعيدا عن أهدافها أو تتساقط هى نفسها محطمة أو محترقة.

هكذا نري أن ملحمة العبور، رغم أنها بدأت مبارزة أمفيبية بين الضفتين تحت ستار هائل من نيران المدفعية المتبادلة بين الطرفين، إلا أنها تحولت فورا إلى مباراة بين الأرض والسماء كذلك . أى أن معركة

العبور عملية أمفيبية ابتداء ولكنها معركة جوية أساساً ، ونجاحها كان رهنا بغطائنا الجوى ضد انقضاض الطيران العدو ، وهكذا بالفعل كان .

فمن ناحية كان السلاح الجوى هو وسيلة العدو الأساسية لمحاولة اجهاض العملية: مئات الطائرات وآلاف الطلعات. ومن الناحية الأخرى تصدى له الطيران المصرى بقوة مكافئة، ولكن أولا وقبل كل شيء بدفاعه الجوى المتفوق ممثلا في شبكة قواعد الصواريخ الثابتة والمتحركة الموزعة على طول الضفة الغربية. وتعد الشبكة الأولى ، التى وصفت بأنها غابة هائلة كثيفة من الصلب، أقوى شبكة دفاع جوى في العالم بالنسبة إلى مساحتها، وقد كانت مقتلا حقيقيا للطيران الإسرائيلى المهاجم. أما الثانية فقد أثبتت نفسها مفاجأة المعركة الجديدة ، وكانت مصيدة أخرى قاتلة للعدو الجوى. وكما قال أحد طيارى الفانتوم الاسرائيليين «ان قوة النيران العربية المضادة للطائرات عبر القناة أعظم كثيرا مما كانت عليه خلال حرب الاستنزاف عامى ١٩٦٩، ١٩٧٠ . وأن المصريين قد صنعوا بقذائفهم المضادة للطائرات وبصواريخهم فوق مواقعهم الجديدة غلالات من نار كثيفة يصعب اختراقها».

وها هنا نلاحظ حقيقة غير عادية وعلى قدر غير عادى من الأهمية والمغزى. لقد تمت عملية العبور بلا غطاء جوى بالمعنى التقليدى، بمعنى مظلة من السلاح الجوى تحمى القوات المتقدمة ضد طيران العدو. وبدلا من ذلك الغطاء الهجومى، كان الغطاء هو الدفاع الجوى، أى شبكة الصواريخ المضادة للطائرات، الثابت منها والمتحرك، المحمول ميكانيكيا والمحمول بشريا. وكانت هذه طفرة أبعد ما تكون عن الكلاسيكية، وتعد أول تجربة عسكرية فى تاريخ الحرب الحديثة تتم فيها المواجهة بين سلاح طيران معاد وبين نظام دفاع جوى بحت على أرض مكشوفة. وفى ظل هذا الدفاع كان المهندسون والمشاة والمدفعية المصرية جميعا تعمل وتتحرك فى وقاية نادرة . ومن المحقق كما قرر القادة المصريون أن عملية العبور ما كانت لتنجح لولا هذه المظلة الواقية. وفضلا عن هذا فإنها حررت سلاحنا الجوى من أعباء تغطية العملية لينطلق إلى ضرب أهداف العدو فى العمق والتفرغ للمعارك الجوية معه .

هكذا اذن جرى حوار هائل بين ستارتين لا ترتفعان من النيران، احداهما نازلة من السماء والاخرى صاعدة من الأرض، بهما تحول حيز الفضاء فوق مسرح العمليات إلى شىء أشبه بكهف ماموث من كهوف ألسنة الارسابات الجيرية المعروفة : ألسنة المعلقات النازلة

الاستالاكتيت stalactite ، وألسنة المرسلات الصاعدة الاستالاجميت stalagmite – إلا أنها من نار حية ومميتة بدل الجير الميت ..

ولقد انتصرت الستارة الصاعدة على الستارة النازلة، وألسنة الأرض على ألسنة السماء. وبدلا من أن يغرق طيران العدو عملية العبور فى القناة كما كان يأمل وكما ظل طويلا يتوعد، تساقطت طائراته حولها «كالفراشات المحترقة» كما عبر بعض المراقبين ، وبدرجة رهيبة ومفزعة لم يسبق لها مثيل قدرها البعض بثلاث طائرات من كل خمس. أما ما لم يسقط من طائرات العدو فكان يلقي بقنابله بعيداً عن أهدافها لينجو بنفسه إلى أن أضطر العدو في النهاية إلى الكف تماما عن محاولته ، كما اعترف دايان ، وأصدرت قيادتهم قرارا بعدم اقتراب طائراتهم من القناة لمسافة ١٥ كم شرقها على الأقل .

ومن الناحية الأخرى فلقد فشلت المدرعات كذلك فيما بعد فيما فشلت فيه الطائرات من قبل، اذ عجزت تماما عن ايقاف العبور وبناء الجسور. ومرة أخرى يعترف دايان بذلك، فيقول «لقد كانت لى نظرية هى أن اقامة الجسور سوف تستغرق منهم طول الليل، وأننا سوف نستطيع منع ذلك بمدرعاتنا. ولكن تبين أن هذه ليست مسألة سهلة، وقد

كلفنا جهدنا لارسال الدبابات إلى القناة غاليا جدا. فقد أحدثت الأسلحة المضادة للدبابات التي استخدمها المصريون خسائر فادحة في المدرعات الإسرائيلية. وكانت هذه نقطة خطأ أساسية من هيئة الاركان، فنحن لم نتوقع ذلك».

ومهما يكن، فرغم أنه كان من المحتم ألا نعبر نحن القناة الا على جسر من الدماء حرفيا، فقد جاءت خسائرنا طفيفة نسبيا بدرجة غير متوقعة بل غير معقولة. فالقواعد العسكرية السائدة والمقررة تقدر لعبور الموانع المائية الخطيرة نسبة باهظة بل ومخيفة من الخسائر تصل فى أدناها الى ٢٠ ٪ وترتفع فى بعض التقديرات إلى ٦٠ – ٧٠٪ أحيانا من قوة الهجوم. وقد قدرت حسابات الدوائر العسكرية الأمريكية ثلاثة إلى أربعة أسابيع لعبور القناة وحدها. وحتى التقديرات العالمية المحايدة لم تكن أكثر تشجيعا، فقد كانت تتراوح بين ٢٥، ٣٠ الف قتيل! بل لقد اتضح أن من القادة العسكريين المصريين المسئولين فى وقت ما من اعتبر العبور «عملية انتحارية» ، فى حين ذكر الزعيم اللبنانى كمال جنبلاط مؤخرا أن الخبراء السوفييت قدروا كأصدقاء أن العملية تقتضى التضحية بنحو ١٠٠ ألف جندى.

غير أن مفاجأة عبورنا الكبرى انما جاءت فى هذا الجانب بالتحديد، اذ وصلت إلى حدها الأدنى المتصور أو غير المتصور. فلقد قدرت

خسائرنا فيما أعلن بما لا يزيد على بضع مئات من الأفراد، ١٨٠ فردا كما قيل، وهذا فى تقدير البعض ، اجتهادا ٪ لا يعدو ٢٪ أو نحو ذلك من قوة الهجوم. وهذا ، إلى جانب الساعات المعدودات التى استغرقتها العملية ، رقم قياسى دعا كثيرا من كبار المراقبين العسكريين العالميين إلى أن يعتبر العملية «معجزة» عسكرية كما وضعوها بتعبيرهم.

لقد نجحت عملية العبور التاريخى، وتدفق المد المصرى كالطوفان الكاسح نحو الضفة الشرقية. وإذا كان العبور، الخطوة الأولى فى المعركة، هو بمثابة «عبور للهزيمة»، فقد كان نجاحه «هزيمة للهزيمة»، بل بالدقة بداية هزيمة العدو وبداية النصر العربى. فالواقع أن العبور كان مفتاح المعركة ومفتاح النصر، وقد لا يكون من المبالغة أن نقول ان نتيجة المعركة كانت تتوقف عليه، هو الذى يقرر مصيرها إما بالنصر أو عكس ذلك. ولم يكن العدو من جانبه يجهل هذه الحقيقة، ولم يخف قادته فى أوهام غرورهم القديم كم يتمنون لو أقدم الجيش المصرى على عبور القناة حتى يسحقوه ويدمروه مرة واحدة والى الأبد كما صور لهم الوهم.

فكما كتب ايف كو فى الفيجارو «لقد أصيب قادة إسرائيل بعقدة التفوق! فمنذ حرب الإستنزاف وأكبر أحلام قواد اسرائيل أن يروا اليوم

الذي تحاول فيه القوات المصرية عبور قناة السويس! وقد وضع هؤلاء القادة خططهم على أساس تدمير الجيش المصرى تدميرا كاملا وساحقا حالما تبدأ محاولة العبور. والجنرال موشيه دايان نفسه، بعد أن اعتمد هذه الخطط ، لم يحاول قط أن يخفى أمنيته أن يقدم الجيش المصرى على اجتياز قناة السويس، حتى يبدأ انقضاضه عليه وسحقه سحقا، كما صرح دايان أكثر من مرة وفى أكثر من مناسبة!» . وبعد ، فلقد انعكست الصورة منذ اللحظة الأولى وإلى الأبد !

اجتياح الخط

في «حرب الاستنزاف» ، التى استمرت نحو ثلاث سنوات عقب يونيو، صبت المدفعية المصرية آلاف الأطنان من القنابل لفترة طويلة بلا انقطاع – نحو المائة يوم – على مواقع العدو فى الضفة الشرقية. وكان العدو قد أقام على طول القناة سلسلة من الاستحكامات والتحصينات عرفت فى مجموعها باسم «خط بارليف». وقد انتهت حرب الاستنزاف بتدمير نحو ٨٠٪ من هذا الخط..

وقد كانت استراتيجية تلك الحرب أشبه شيء «بحرب الخنادق» القديمة التى عرفتها الحرب العالمية الأولى فى أوربا، الا أنها هنا خندق مائى هو القناة، أو قل هى «الحرب الجالسة Sitzkrieg » التى يتم

فيها التراشق من مواقع ثابتة الا من عنصر الطيران المتحرك. وقد كبدت هذه الاستراتيجية العدو خسائر فادحة وشكلت نزيفا مستمرا وخطيرا على قواته، كان وحده عاملا مؤثرا فى قبوله وقف اطلاق النار فيما بعد.

ومنذ انتهت حرب الاستنزاف، بدأ العدو فى انشاء خط محصن جديد تماما يشرف على القناة، يحمي عمقه وراءها ، ويكون رادعا مروعا لأى محاولة مصرية للعبور، ولا يقارن البتة بالخط البسيط السابق الذى تحطم. ولهذا فإن خط بارليف المعروف والذى اقتحمته قواتنا فى آكتوبر انما هو في الواقع خط بارليف الثاني. واستفادة من تجربة خط بارليف الأول . كانت الفكرة الأساسية فى الخط الثانى ألا يكون سطحيا بل غائرا تحت الأرض حتى لا تنال منه المدفعية المصرية الثقيلة كما فعلت بالخط الأول ودمرته؛

ورغم أنه جاء أحدث وأعقد خط من نوعه فى التاريخ، فإنه ينتمى أساسا إلى سلالة وفكرة الخطوط الثابتة التى تبدأ من أمثال سور الصين العظيم وخطوط التخوم الرومانية الشهيرة Roman Lines وتنتهى بأمثال خط ماجينو الفرنسى وزيجفريد الألمانى. كما شبهه أحد العسكريين الأمريكيين بخط مينيسوتا الدفاعى الذى أقامته أمريكا فى كوريا أثناء الحرب الكورية. كذلك فإنه ينم عن عقلية تخشى أن ، أو

تفضل ألا ، تحارب الا من وراء حصون مشيدة ابتداء من حصون خيبر قديما إلى الدشم وبروج الدبابات والمدرعات حديثا.

والخط كله يأتى بعد هذا مناقضا إلى حد أو آخر لفلسفة العدو الأثيرة فى الحرب الوقائية والمبادرة الهجومية، مؤكدا أن الصمود المصرى بعد يونيو قد وضعه على جانب الدفاع رغما عنه. وصحيح أن الخط وإن كان ثابتا لا يعد نوعا من أنواع الدفاع الثابت، بل يعتمد على الدفاع المتحرك، الا أنه يبقى فى النهاية دفاع لا هجوما. قارن هذا بما كان يردده دايان من قبل : «لم يحدث قط أن كان جيش اسرائيل فى وضع دفاعى» (لماذا اذن يصرون على تسميته جيش «الدفاع» الاسرائيلى؟).

خريطة الخط

مهما يكن، فلا شك أن الخط كان كقطعة من الهندسة العسكرية المتقدمة «معجزة» حقيقية كما وصفه المحايدون . فقد وضع فيه العدو كل قدراته الذاتية جنبا إلى جنب مع كل خبرات العسكرية العالمية عبر التاريخ. فالخط، الذى يمتد بحذاء القناة وبطولها من رأس خليج السويس حتى مشارف البحر المتوسط، يتألف من حوالى ٣٠ نقطة قوية ، strong points (بالدقة ٢٢ موقعا حصينا، تضم ٣١ نقطة قوية) تبدأ من الشط وتنتهى برأس العش. كل نقطة منها اختير موقعها بعناية

فائقة، تتحكم فى كل الاتجاهات وتستطيع أن تغمر بالنيران الجانبية أي قوات تعبر القناة فى أى قطاع منها كما قال بعض كبار القيادة المصريين. وبعد هذا تربط بين الكل الطرق الخاصة التي تجوبها الدوريات المسلحة بانتظام. ثم يحيط بالجميع نطاق كثيف من خطوط الأسلاك الشائكة والخوازيق الحديدية ثم حقول الألغام الغزيرة، بما فى ذلك الألغام المبثوثة فى مياه الضفة الشرقية من القناة، فضلا عن سلسلة أحواض النابالم والوقود الحارق على ضلوع الخط.

أما النقط القوية نفسها فتتوزع فى أبعادها ومسافاتها بحيث تتفق مع المواضع التلّية العالية والتبات المشرفة والمواقع الاستراتيجية المسيطرة. ولكنها فى كل الحالات مرتبطة بالقطاعات الصالحة للعبور، وبصفة خاصة بقطاعات محاور سيناء الثلاثة. والمعنى واضح ، وهو أنها ما أقيمت ولا وقعت الا لتردع وتمنع عبور مصر يوما ما . وهذا أيضا هو السبب الذى يفسر لماذا يختلف تكاثف أو تباعد تلك النقط فضلا عن مساحاتها، وهو كذلك الذى سيفسر لنا لماذا تأخر الاستيلاء على بعضها بعض الوقت.

فمن حيث المساحة تتراوح النقط بين نحو الفدان وربعه . أما متوسط التباعد فيتراوح بين ٤ ، ١٠ كم ، فهى تتقارب ويقل تباعدها فى

القطاعات ذات القيمة الخاصة. ويمكن القول بصفة عامة انها كانت أكثر تكاثفا في الجنوب وتزداد تباعدا وتخلخلا كلما اتجهنا شمالا. فكان هناك ٩ نقط بين رأس خليج السويس وبداية البحيرات المرة كان من أهمها وأقواها تلك المتحكمة في رأس الخليج كنقط الشط ولسان بور توفيق. وعى طول شواطيء البحيرات المرة كان هناك ٤ نقط ، ثم ٣ نقط بينها وبين بحيرة التمساح، ٤ بين الأخيرة وبين جزيرة البلاح، ثم في النهاية ٧ نقط بحذاء الأخيرة وبطول القطاع الكبير الممتد حتى رأس العش شمالا.

وواضح أن التركيز كان على أشده في أقصى الجنوب في قطاع السويس الذي يفضي إلى ممر متلا الحاكم ، هذا بينما تتخلخل النقط بشدة بحذاء البحيرات المرة لأن اتساعها كجسم مائي فسيح يقلل احتمالات العبور والخطر. وبينما يعود التركز شديدا تجاه الإسماعيلية، رأس محور سيناء الأوسط، تعود النقط فتتباعد بشدة في الشمال حيث تحد ظروف البيئة الطبيعية من فرص الخطر والحركة نسبيا، لا يستثنى من ذلك الا قطاع القنطرة حيث احتشدت كوكبة متقاربة من أربع نقط قربها باعتبارها رأس المحور الشمالي لسيناء . أما آخر نقط الخط شمالا في رأس العش فكان مبرر وجودها الاستراتيجي هو التصدي لمحاولات أو احتمالات التقدم المصري نحو الجنوب من جيب بور فؤاد

والملاحة ، الوحيد الذى احتفظت به قواتنا بعد يونيو شرق القناة والذى كان يمثل رأس حربة تهدد العدو باستمرار.

تلك بصورة عامة خريطة الخط وخطته. أما كل نقطة من نقطه القوية فهى فى ذاتها قلعة حقيقية قائمة بذاتها، أشبه بمدينة حربية محصنة من الحديد والأسمنت ، تتألف من مجموعة من الدشم المدرعة مبنية من الحجر الصلب أو الأسمنت المسلح، مصفحة بأبواب من الصلب ومدعمة بقضبان السكك الحديدية بل وبعرباتها (التى انتزعها العدو من خط حديد سيناء، مثلما سبق له أن أقام السد الترابى من رديم ومخلفات حفر القناة). والقلعة بعد هذا متعددة الطوابق تضم مأوى الأفراد كما تتسع لملاجىء الأسلحة وأوكار المدفعية والمدرعات، وبها مزالق مركبة صاعدة وهابطة للدبابات بحيث تضرب وتختفى ولا ترى .

ولكن القلعة جميعا غائرة تحت السطح كأنها «مغروسة» فى الأرض أو مدفونة تحت الرمل أو محفورة فى الساتر كبيوت النمل . فلنحو ٢٠ مترا كانت القلعة تقع تحت مستوى سطح الساتر الترابى، فى حين لا يظهر منها أعلاه سوى مترين أو ثلاثة أمتار. والأنابيب التى تزودها بالمياه هى تحت الأرض أيضا. حتى الرؤية هى الأخرى تحت الأرض، من خلال أجهزة كبريسكوب الغواصة، هذا عدا مزاغل المدافع

والرشاشات. انها قلعة دفينة كالمغارة الغائرة، سكانها كأهل الكهف troglodytes، أو هم جنود الكهوف، ولا نقول كالحيوانات الحافرة burrowing animals .

والوحدة كلها مخططة بعد هذا على مبدأ الدفاع الدائرى، بحيث تنال العدو من مزاغلها فى كل اتجاه دون أن يمكن لنيران العدو أن تنالها حتى لو أصابتها مباشرة بأطنان القذائف. انها، باختصار، أشبه بمزيج عصرى جدا وحديث إلى أقصى حد من كهوف العصور القديمة الحفرية، وقلاع العصور الوسطى الصماء الملتوية بالدهاليز والأنفاق وخنادق الماء، وأخيرا من عمارات الأسمنت المسلح البرجية الحديثة. انها قلاع وسيطة ولكن طراز القرن العشرين، ومدن حربية عصرية جدا ولكنها من عصور سكان الكهوف ..

هذا الخط القوى، الذى أنفق العدو فى تحصينه وتسليحه سنين عدداً (أكثر من ثلاث سنوات) وملايين بلا عدد (أكثر من ربع مليار دولار، أو نصف تكاليف السد العالى) ، ثم أنفق أكثر من ذلك فى الحديث المخيف عنه كجزء من الحرب النفسية الرادعة، هذا الخط سقط فى أيام بل ساعات - بالتحديد ست ساعات، فى حين كان المقدر لها الضعف! لقد هدمت القوة المصرية العارمة فى ست ساعات ما بناه العدو المفتون فى ست سنوات، كل سنة بساعة.

ولا بأس أن نتذكر أو نتذاكر هنا بعض ما أرسله العدو من صيحات الترويع عن خطه السيىء الذكر. قال دايان فى أخريات ١٩٦٩ «لن تنال عمليات العبور المصرية، ان هى حدثت، من قبضة إسرائيل المحكمة على خط بارليف، لأن الاستحكامات الاسرائيلية على الخط أشد منعة وأكثر تنظيما. ويمكن القول بأنه خط منيع يستحيل اختراقه، وأننا لأقوياء إلى حد نستطيع معه الاحتفاظ به إلى الأبد». وفى مناسبة أخرى عاد يقول ان خطوطهم المحصنة «أصبحت الصخرة التى سوف تتحطم عليها عظام المصريين»، وأنه إذا حاولت مصر عبور القناة فسوف تتم ابادة ما بقى من قواتها . كما صرح مرة أنه «مادامت قناة السويس هى حدودنا العسكرية ، والعرب هم أعداءنا، فلسوف نكون نحن على خير ما يرام».

بالمثل أعلن بارليف أنه «لعلى يقين أن مصر لو عادت إلى القتال فلن تستطيع أن تحقق أى عبور، لأن من المستحيل اختراق خط الدفاعات الاسرائيلية بارليف.. كما أن قواتها لن يمكنها قط عبور قناة السويس نظرا لما يمثله هذا الخط المحصن من خطر على القوات العابرة». وفى مرة أخرى قال ان المصريين لا يعرفون أى جحيم سوف ينصب عليهم ما ان يضعوا أقدامهم خارج الضفة الغربية للقناة. أما اليعازر فكان أقل اطنابا ولكن لم يكن أقل قطعا، قال عن الخط «انه سيكون مقبرة

الجيش المصري» . أما مايير فكانت فلسفية أكثر، قالت ببساطة «ان أى تصور يسمح ، ازاء ما نملكه من تحصينات، بعبور القوات المصرية إلى الضفة الشرقية يعتبر إهانة للذكاء» .

ومن الغريب بعد هذا كله أن قادة العدو الذين وصفوا خطهم كذلك مرة بأنه «غير منفذ للبشر أو للسلاح كما أن الصلب غير منفذ للماء أو للهواء» ، ومرة أخرى بأنه «غير قابل للتدمير حتى بالقنبلة الذرية»، عادوا بلا خجل عند أول هزيمة ليقولوا انه مجرد «شريحة من الجبن الجريير، به من الثقوب أكثر مما به من الجبن» (دايان)، بينما تنصل منه كلية من نسب إليه قائلا انها تسمية دارجة لا وجود لها رسميا فى «جيش الدفاع» (بارليف) !

فأما بارليف فقد قال بالنص «ان جيش الدفاع الإسرائيلى لم يستعمل اصطلاح «خط بارليف» اطلاقا، والصحافة فقط هى التى تداولت هذا الاصطلاح. ولقد أقيمت هذه التحصينات أثناء حرب الاستنزاف كقواعد متماسكة بعضها ببعض لكل عملياتنا على طول امتداد القناة. وأن أى شخص عادى ليدرك أن عشرين تحصينا لم تكن لتوقف وحدها هجوما شاملا تشنه خمس أو أكثر من الفرق المصرية. ان الزعم بأن التحصينات لم تتمكن من صد المصريين هو قول أحمق، لانها لم تكن معدة لهذه الغاية أصلا. ولقد سقطت التحصينات لأنها

كانت مجرد مواقع أمامية فقط». وبالمثل ركز دايان على «عدم أهمية الخط عسكريا» (!) قال : «هذه منطقة شاسعة، وليست هناك فرصة أيا كانت لحماية كل متر . والآن وبينما التعبئة تجرى، فإن قوة الدفاع الاسرائيلية ستنمى قريبا قواها الكاملة لتجمد وتبدد أثر المكاسب الثانوية التى تمكن العرب من إحرازها» (!). وقالت أصوات أخرى من قادة العدو ان خط بارليف كان مجرد خط اعاقة، وقد كانت خطط إسرائيل أن تهجر الخط بعد العمليات الأولى.. ولكن هذا كله لم يكن ليخدع احدا، وكما قالت اليونايتيد بريس فإن «سمعة دايان هى التى أصبح بها من الثقوب أكثر مما بها من الثقة» ..أين الحقيقة فى هذا كله ؟ أين هى بين هذا الركام المتناقض من التهويل السابق والتهوين اللاحق؟ الحقيقة أن العدو فى الحالين كان مخادعا: فى الأولى كان يخدعنا (أو يحاول) ، وفى الثانية كان يخدع نفسه (وهذا شأنه) . فرغم أن كثيرا من العسكريين الأصدقاء الناصحين أوصوا بالفعل بأن تدمير الخط غير ممكن حقيقة الا بالأسلحة النووية، فقد كان العدو فى تصريحاته عن مناعته يستهدف أساسا معنوياتنا ويمارس صيغة منتهى الحرب النفسية حتى نشعر باليأس والتخاذل. وحين سقط الخط فى ضربة قاضية واحدة، كان كل همه أن ينقذ ماء وجهه بعد هيبته وسمعته ومعنوياته التى انهارت .

أما الحقيقة الموضوعية الكاملة فلا تعدو كلمتين : خط فائق المنعة والقوة والبراعة بلا جدال وخطة اقتحام - مع ذلك - أشد تفوقا وأبرع اعجازا بلا لجاج. ولم تكن التحصينات «مصنوعة من الكرتون» كما قال أخد الجنود الاسرائيليين، ولا كان الخط شريحة من الجبن المثقوب الا بعد أن شرحناه نحن وثقبناه . وليس لنا نحن أن نأخذ أو نؤخذ هنا بدعايات العدو المغرضة، سواء تهليلا في البداية أو تقليلا في النهاية. فنحن انما نقلل من عظمة انجازتنا إذا نحن قللنا من قوة الخط العدو.

ملحمة الاقتحام

فإذا ما انتقلنا إلى ملحمة اقتحام الخط، فإن الأغرب من ذلك كله أن الخط انما سقط أساسا على أيدى المشاة فى الدرجة الأولى، ولم تكن سائر الأسلحة الأخرى إلا عوامل مساعدة، وذلك بحكم طبيعة تلك الحصون ، حصونه التي تستعصى على المدفعية الثقيلة، وكذلك بحكم الوقت ريثما تصل المدرعات بعد تمام مد الجسور والمعابر. كذلك فقد كانت تلك المشاة من المشاة الراجلة ، لا الميكانيكية، مزودة فقط بالقنابل اليدوية والمدافع الرشاشة والصواريخ المضادة للدبابات.

من هنا لعبت القوة البشرية أو العددية دورا هاما جدا، فكانت هى التى اقتلعت الخط وخلعته خلعا كأنها الاعصار القلاب أو التيفون

الطوفان. ففور وصول طلائعنا الأولى إلى الضفة الشرقية، اندفعت الوحدات الهندسية تطهر حقول الألغام وتفتح ثغرات في الاسلاك الشائكة، بينما ارتقى افراد المشاة الساتر الترابى بخفة وسرعة، بالحبال والسلالم والأقدام، لمواجهة العدو ولفتح المزيد من الثغرات بفدائية مذهلة سجلت بطولات تاريخية.

ويلاحظ هنا أن اختراق الخط لم يبدأ أمام النقطة المحصنة ولا بدأ بمداهمتها ومهاجمتها هى نفسها، وانما بدأ بالتسلل خلال الفواصل الواسعة بينها. وبقدر ما زاد هذا من عنصر المفاجأة للعدو، قلل من أخطار المقاومة التى كان يمكن أن نتعرض نحن لها فى تلك المرحلة المبكرة.

ولكن حالما تم مد الكبارى ووصلت المشاة الميكانيكية والأسلحة الثقيلة وتدفقت القوات بأعداد ضخمة، أخذت قواتنا تغرق الخط بموجات متتابعة كثيفة كانت لا تلبث أن تعزل نقطه المحصنة عن بعضها البعض لتصبح كالجزر مقتطعة فى بحر الكثافة البشرية، فتطبق عليها «وتركبها». فكان الجنود يقتحمون الحصن بأجسامهم ويطبقون على العدو فى مكامنه ومخابئه ويلتحمون به وجها لوجه وأحيانا بالسلاح الأبيض، حتى يتم تفريغ القلعة منهم بالقتل أو الأسر أو الفرار. «وفر الجنود الاسرائيليون من الخط بعد أن كانوا يجلسون فى خنادقه وهم

يلتقطون أنفاسهم وقد علت القذارة أبدانهم وشحبت وجوههم. لقد فرت فلولهم من الجحيم الذى أطلقه عليهم الهجوم المصرى المفاجىء» كما كتبت مجلة إيطالية . «وتحطم خط بارليف، الذى شيدته إسرائيل على غرار خط ماجينو، تحت ضربات القوات المصرية، تماما كما سقط خط ماجينو منذ ٣٤ عاما» كما أضافت المجلة نفسها.

هكذا أثبتت المعركة ، على حد قول الجنرال بوفر ، أن «الدفاع مهما كان حصينا - كقلاع خط بارليف - فلسوف يظل عرضة للاختراق والتدمير مادامت القوات المهاجمة من القوة والكثافة والتنظيم بالقدر الذي يضمن لها الغلبة». أو كذلك على حد قول وولتر لاكير، أثبتت المعركة أن الخطط العسكرية الاسرائيلية التى اعتمدت على بناء خطوط محصنة ثابتة على طول قناة السويس انما اعتمدت على فكرة بالية من الناحية العسكرية لم يعد يأخذ بها المخططون العسكريون منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

ولابد لنا هنا أن نسجل ملاحظتين هامتين. الأولى أن اقتحام الخط على هذا النحو انما تم بالمواجهة المباشرة، أى وجها لوجه على طول امتداد الجبهة وليس بالالتفاف حوله، الذى على أية حال لم يكن ليتفادى مشكلة الفاصل المائى. وتلك وحدها كانت مفاجأة لم يكن العدو يتوقعها بل كان يستبعدها تماما ويعدها خارج قدرة الجيش المصرى. أما

تقديره فكان الهجوم على الاجناب على الأكثر، أى من نهايتى الخط شمالا وجنوبا. لكن المقاتل المصرى أثبت قدراته التامة، ودفع العدو ثمن غروره السفيه.

الملاحظة الثانية أن سلوك العدو داخل نقطه الحصينة أثناء اقتحامها جاء تكذيبا لكل نظرياته العسكرية التى تنضح بالزهو والاستعلاء . فما أن أطبقت القوات المصرية على دشمها، حتى غاصت قوات العدو أو غاضت داخلها، إلى أن نفذت إليها قواتنا. الآن قارن هذا بما قاله دايان قديما: «إن جيشنا ليس كالقنفذ الذى ما يكاد يرى الخطر حتى ينكمش على نفسه تحت أسلاك شعره وينتظر الضربة. وانما هو كالثور الذى ما ان يشعر بالخطر حتى يشرع قرنيه استعدادا للهجوم». فى أكتوبر ، مع ذلك، استحال الثور قنفذا !

هكذا تحولت تلك الحصون الرهيبة التى أعدت لتكون فخا ومجزرة لنا إلى سجن ومصيدة قاتلة لأصحابها . وبعض هذه القلاع سقط أو سلم فى ساعات، ولكن البعض قاوم لفترات أطول، وبعضها الآخر ضرب عليه الحصار أياما حتى استسلم. فمثلا كانت أول نقطة تسقط فى يد الجيش الثانى هى نقطة الكيلو ١٩ جنوب بورسعيد (ساعة وثلث ساعة)، وفى يد الجيش الثالث نقطة الشط (بعد ساعة ونصف الساعة).

ونقطة الفردان سقطت فى ٤٨ ساعة ، بينما سقطت نقطة شمال البلاح ثم استردها العدو ثم استعدناها خلال ليل ٦ أكتوبر. وقد كانت نقط القنطرة شرق الأربع مما وقع فى أيدى القوات المهاجمة مبكرا . فإحدى هذه النقط الأربع سقطت بعد ١٢ دقيقة فقط من العبور، وأخرى بعد ربع ساعة، وثالثة بعد ساعة، وفى اليوم الثالث كانت منطقة القنطرة شرق كلها قد حررت تماما . وعلى العكس كانت نقطة رأس خليج السويس أى لسان بورتوفيق آخر ما سلم - بعد أكثر من أسبوع من الحصار. لكن الخط فى مجموعه كان قد سقط معظمه عمليا وبالفعل خلال الساعات الست الأولى من بدء المعركة، ١٥ نقطة فى الليلة الأولى، وتمت معظم تصفيته وتطهيره فى الأيام القليلة الأولى.

وفيما بعد ، حين اكتملت السيطرة على موطىء قدم على الضفة الشرقية تم نسف هذه القلاع جميعا بالتفجير، وكان هذا ضروريا كما هو طبيعى. وبذلك زال إلى الأبد من على وجه الأرض الخط الذى ظن العدو أنه سيغير به وجه التاريخ، فدخل هو التاريخ من باب الحفريات وأثريات المتاحف الحربية. ومن الطريف أن مخلفات حطامه تحولت فيما بعد إلى مادة خام فى أيدى قواتنا استغلتها فى اقامة قواعدها ومواقعها الجديدة .

وإذا نحن الآن توقفنا قليلا نتأمل ملحمة اقتحام هذا الخط الدارس، فلن نملك إلا أن تجبهنا بل تروعنا حقيقة غريبة مثلما هى باهرة. لقد كان فى فلسفة الخط نفسه شيء من الماضى ومن القديم، فلسفة القلاع ذات التحصينات المترسة والأسوار والحوائط المخندقة، المبانى الحجرية الضخمة، المزاغل، الانشاءات تحت الأرضية.. إلخ، لا يغير من ذلك كل مظاهر وأساليب التكنولوجيا العصرية الحديثة داخله وحوله.

بل ان فكرة الخط كلها كنظام دفاعى، تلك التى تبدو على طرف نقيض مع عملية الحرب الخاطفة التى سبقتها، لتمثل فكرة قديمة بل عتيقة إلى أقصى حد. فالخط فى الحقيقة انما يكرر خطا بل خطوطا سابقة من التحصينات والاستحكامات والقلاع أقامها الفراعنة كما رأينا مرارا عبر برزخ السويس فى نفس موقع القناة الحالية. وإلى هذا فإن الخط ومعه الساتر الترابى لا يشير فى جوهره الا إلى عقلية «سور المدينة» أو «حائط المدينة» القديمة، وانما على نطاق اقليمى بدلا من نطاق المدينة.

لم يكن غريبا لذلك كله أن يتلون الهجوم كذلك بلون قديم نسبيا أو جزئيا يذكر بصورة أو بأخرى بحروب الماضى. خذ تسلق قواتنا بالسلالم والحبال لذلك الساتر الترابى الذى ينحدر عموديا تقريبا كأنه

أقدام قلعة من قلاع العصور الوسطى ولكن ينقصها حتى منحدر ..gla cis تلك القلاع . واعتبر كذلك حالات الحصار المحكم التى ضربت واستمرت عدة أيام حول البعض منها. فإذا أضفنا كيف كانت المشاة المصرية تتقافز على دشم هذه القلاع ، تركبها ، تقتحمها جسديا، وتلتحم بالمتحصنين داخلها وجها لوجه وبالسلاح الأبيض أحيانا، لاجتمعت ولا نقول اكتملت لنا فى هجومنا كثير من ملامح فروسية حروب عصر القلاع وبطولات عصر حصار واقتحام المدن المسورة ذات الحوائط والأبراج... إلخ ، وإنما فى صورة جديدة عصرية أو بالأحرى معصرة. ولا يؤكد هذا الانتهاء كما يؤكده ما أعلنه أحد كبار قادة المعركة المصريين من أننا «استخدمنا المشاة بالأسلوب نفسه الذى كانت تستخدم به المشاة منذ العصور القديمة، وإن إختلفت الأسلحة التى فى أيدينا عن تلك التى كانت فى أيديهم».

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد كانت ملحمة اكتساح خط بارليف فى جوهرها صراعا بين الشجاعة والمناعة، شجاعة المقاتل البحتة ومناعة الأبراج المشيدة، مثلما كانت مواجهة بين فلسفة الخطوط الزاحفة المتحركة ونظرية الخطوط المحصنة الثابتة. وفى الحالين تغلبت الأولى على الثانية: تغلبت الارداة على الأرض، والإنسان على السلاح،

وأصحاب الأرض على الغاصبين . لقد «جاءوا، رأوا، وانتصروا» ... عبروا ، اكتسحوا، وانطلقوا.

معركة القاعدة الأرضية

منذ تم تدمير واختراق الخط بدأت مرحلة جديدة في المعركة، مرحلة اعداد قاعدة أرضية وثيقة للاحتشاد وانطلاق الزحف. فمن رأس جسر إلى رأس حربة، ومن موطىء قدم إلى قاعدة انطلاق، وفي النهاية من موقع ثابت إلى موقعة متحركة - إلى هذا جاء تطور العمليات على الضفة الشرقية .

وبغير تحديد قاطع بصرامة، وفي قدر من التداخل والتواصل المفهوم، قد يمكن أن نقسم هذه المعركة التى امتدت نحو ١٧ يوما منذ تم العبور حتى اعلان وقبول وقف اطلاق النار إلى ثلاث مراحل ميدانية أو تكتيكية بحسب المهمة أو الملمح السائد عليها. فالمرحلة الأولى امتدت نحو اسبوع وهى مرحلة معركة القاعدة الأرضية، والمرحلة الثانية هى وقفة التعبئة نحو ٣ -٤ أيام، وأخيرا مرحلة معركة الدبابات الكبرى واستمرت نحو الأسبوع . أى أن المعركة كلها دامت نحو أسبوعين ونصف الأسبوع، واستغرقت مراحلها أسبوعا فنصف أسبوع فأسبوعاً آخر على الترتيب وعلى وجه التقريب.

وقد بدأت معركة الضفة الشرقية بتدفق القوات المصرية الذى لم ينقطع منذ تم مد الجسور والمعابر. وفى طليعة التدفق جاءت المشاة الميكانيكية ثم المدرعات والمدفعية وسائر الأسلحة الثقيلة. وقد تحقق هذا فى أول ليلة من المعركة تحت ستار الظلام، ولكن فى تنظيم دقيق محسوب وبنجاح تام. وقد حقق تدفق القوات أرقاما قياسية غير مسبوقة. فمثلا فى الأربع والعشرين ساعة الأولى من بدء القتال كان قد انتقل إلى البر السيناني نحو من ٨٠ ألف جندى بكامل سلاحهم فى ١٢ موجة متتابعة. «وهذا فى حد ذاته يعد نصرا عسكريا بأى مقياس» كما كتبت مجلة تايم. ومعهم بدأت ملحمة التحام ومعركة تصادم شرسة ورهيبة من أجل تحرير الأرض. ولم يطلع فجر ٧ أكتوبر حتى كانت هذه القوات قد توغلت لمسافة ٨ كم.

وفى الوقت نفسه خرجت وحدات الأسطول البحرى تقصف مواقع العدو على كل سواحل سيناء الثلاثة وتتصيد وحداته البحرية فى مياه البحر المتوسط وخليج السويس، كما تحمى أجناب قوات الغزو المتقدمة من اليمين والشمال . كذلك انطلقت فرق الفدائيين الخاصة (الصاعقة، الكوماندوز) تعمل خلف خطوط العدو فى أعماق سيناء وسواحلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقد كانت ممرات ومضايق سيناء من المسارح الأساسية لنشاط هذه القوات لمنع العدو من التقدم

لشن الهجمـات المضادة ولتدميره «وتجويفه» من الداخل، وقد استطاعت قوة منهم السيطرة الكاملة على ممر سدر معظم أيام المعركة بكاملها.

وعدا الخسائر الضخمة التى أنزلتها هذه الضربات بأجناب وأعماق العدو، وما أحدثته من قطع لخطوط مواصلاته وامداداته واعتراض لتقدمها، وكذلك ما عادت به من أسرى، فإن دورها كان حيويا وحاسما فى تشتيت جهود العدو وتوزيع قواته فى كل أطراف شبه الجزيرة الشاسعة، وبالتالى منعه من تركيز قوته على الجبهة الأساسية على القناة. ويكفى لتوضيح مدى وخطر هذا التشتيت أن العدو أضطر على سبيل المثال إلى توجيه أكثر من ١٠٠ دبابة نحو محور الساحل الشرقى لخليج السويس، بعيدا تماما عن جبهة القناة الاساسية.

وفيما بعد وطوال المعركة لم ينقطع نشاط البحرية والكوماندوز، بل تزايدت عملياتها ونجاحاتها على أوسع نطاق. وقد اعترف العدو بذلك، وأعلن أن قوات الكوماندوز المصرية تستخدم تكتيكات جديدة لأول مرة، وأنها تدخل سيناء من كل مكان ومن كل اتجاه وبكل الوسائل، الهليكوبتر، القوارب، الأقدام، تقاتل بشراسة وبأحدث الأسلحة.

هذا على إطار شبه الجزيرة، أما على جبهة المواجهة الأساسية فى الضفة الشرقية للقناة، فيجب أن نذكر أولا أن القوات المصرية المهاجمة

التي اخترقت خط بارليف لم تتوقف أمام حصونها بعد أن طوقتها وركبتها، بل تقدمت مباشرة نحو الشرق تاركة تلك الحصون تتساقط بالجملة أو واحدة بعد أخرى كجيوب محتواة تماما. ومن الناحية الأخرى كان كل هم العدو هو أن يدفع بقواته بأسرع ما يمكن لمواجهة القوات المهاجمة المتقدمة ولتدفع بها إلى الخلف نحو القناة. دون جدوى مع ذلك بالطبع. والواقع أنه في الليلة الأولى من القتال كانت القوات المصرية قد دمرت معظم قوات احتياطي العدو الاعتراضية، مما اضطره إلى أن يدفع بأنساقه الخلفية إلى المعركة واحدا اثر الآخر.

وهنا لابد أن نلاحظ أن خط بارليف لم يكن هو خط الدفاع الوحيد على جبهة القتال، ولا كان معناه الدفاع الثابت كما قد نتصور. فلقد كان هناك خطان دفاعيان آخران خلف خط بارليف، يفصل بين كل منها ٣ - ٤ كم، بحيث تتوالى ثلاثتها عبر نحو ٨ كم عمقا. فأما الخط الأول فكان خط الاحتياطي التكتيكي، يتألف من قوات من المشاة الميكانيكية والأسلحة الخفيفة تعاونها بعض الأسلحة الثقيلة، ومهمتها التصدي لأي قوات قد تخترق خط بارليف، فعندئذ تتعامل معها وتساعد حصون الخط إذا حوصرت. أما الخط الثاني فكان خط الاحتياطي التعبوي، وهو أقوى عددا وأثقل تسليحا، ويتوزع في قواعد

ومراكز مختارة بعناية. أما مهمته فالتقدم لتدعيم الخط الأول إذا لم يكف للمواجهة.

وإذا كان خط بارليف نفسه قد سقط في الساعات الأولى، وكان الاحتياطي التكتيكي قد تمزق في الليلة الأولى من العبور، فقد جاءت نهاية الاحتياطي التعبوي بدوره في غضون اليومين أو الثلاثة الأولى. وقد بلغت خسائر العدو في هذه الفترة معدلات خطيرة، وكان واضحا للغاية مدى الاضطراب والارتجال في قتال العدو. ولم تلبث المعركة أن تطورت إلى حرب ضارية بالأسلحة الثقيلة والمدرعات تعاونها الطائرات ، واضطر العدو أن يدفع بأسرع مما كان يتوقع باحتياطيه الاستراتيجي الذي نقله على عجل من أعماق سيناء ومن داخل إسرائيل نفسها.

فمن الجانب المصرى المهاجم تقدمت القوات الثقيلة من المدرعات والآليات والمدفعية جنبا إلى جنب مع قوات المشاة الميكانيكية والراجلة تحمل من بين ما تحمل الصواريخ المضادة للدبابات وتلك المضادة للطائرات، وفوق الكل غطاء جوى عارم من المقاتلات والقاذفات المقاتلة ، وخلف الجميع على الضفة الغربية أقوى وأكثف وأحدث شبكة من نوعها في العالم من صواريخ مضادة للطائرات، عالية ومنخفضة، تغطى نطاقا عمقه نحو ٢٠ - ٣٠ كم من سماء الضفة الشرقية.

وعدا هذا فلقد كانت جبهة الزحف المصرى تمتد بطول القناة من البحر المتوسط إلى خليج السويس، موزعة على الجيش الثانى فى الشمال والجيش الثالث فى الجنوب، تفصل بينهما منطقة البحيرات المرة. أما التقدم عبر القناة فقد تم - والتقدم فى حروب الصحراء يتم أصوليا على محاور وليس جبهويا - على محاور سيناء الاستراتيجية الثلاثة : المحور الشمالى ازاء القنطرة أى عند نهاية بحيرة المنزلة وباتجاه الساحل الشمالى، المحور الأوسط أمام الإسماعيلية أى منطقة بحيرة التمساح وباتجاه مضيق الجفجافة، وأخيرا المحور الجنوبى مقابل السويس حول رأس الخليج وباتجاه ممر متلا. ومنذ احتلت القوات المصرية رؤوس الجسور ، أخذت توسعها وتعمقها إلى جيوب كبيرة ، ثم أخذت الجيوب تتوسع وتستعرض لتتصل وتتلاحم في قاعدة أرضية جبهوية عريضة واحدة ليس بها الا الحد الأدنى من الثغرات.

ومن الناحية الأخرى سارع العدو بدفع كل قواته المتاحة أو المتبقية، بما فى ذلك الاحتياطى الاستراتيجى من العمق، فى هجوم مضاد مستيئس كما هو مضطرب ليصد الزحف المصرى . وقد تكررت عمليات الهجوم المضاد هذه عدة مرات (فى القطاع الأوسط مثلا شن العدو ١٦ هجوما مضادا خلال ٧ أيام على رأس جسر واحد فقط)، ولكن كل

هجوم مضاد منها كان لا يلبث أن يتكسر ، لبيدأ غيره فيتكسر من جديد. وكانت المدرعات والمدفعية هي قوام قوات العدو (طوال الأيام الثلاثة الأولى لم يشاهد جندى مشاة إسرائيلى واحد، دبابات فقط!) تحت غطاء جوى كثيف جدا من الطائرات بأنواعها بما فى ذلك طائرات الهليكوبتر المصفحة.

ورغم أن الأسلحة التى دفع بها كل من الطرفين إلى المعركة كانت متنوعة إلى أقصى حد وتشمل كل أنواع الترسانة المتاحة، فقد كان بينهما اختلاف فى درجة التركيز على هذا السلاح أو ذاك. فكان العدو الاسرائيلى من جانبه يضغط أساسا على الطائرات والدبابات بأنواعها، بينما ركزت القوات المصرية بصفة خاصة على صواريخ الدفاع الجوى فى وجه الأولى وعلى مشاة الصواريخ فى وجه الثانية.

فبالأولى أقامت من أسفل وخاصة من قاعدتها غرب القناة سدا ناريا بالغ الكثافة والضراوة ضد الستار النارى الذى أسقطه طيران العدو من أعلى سواء من شرق أو غرب القناة. وبالثانية تصيدت مشاتنا دباباتهم ومدرعاتهم على الأرض أولا بأول. وبهذا كانت شبكة صواريخنا المضادة للطائرات تجرد العدو بانتظام من غطائه الجوى، فتتسلم صواريخ مشاتنا قواته المدرعة على الأرض وتبيدها على الفور وبلا ابطاء .

ومن الثابت أن التفوق العددى والنوعي فى السلاح والرجال فى تلك المرحلة كان لنا، فى حين كان العدو ممزقا بين عملية حشد احتياطيه التي تأخرت وبين خوفه من أن يؤدى القذف به فى المعركة إلى تعرية ظهره. قال دايان «فى اليوم الرابع من الحرب كان لدى مصر من الدبابات في سيناء أكثر مما عند إسرائيل» . ولو كانت إسرائيل قد استمرت فى محاولة دفع المصريين إلى الخلف عبر القناة «لفقدنا قوتنا وتركنا إسرائيل بغير قوة».

ولقد وصف الأسبوع الأول من القتال بأنه «أسبوع تأديب للجيش الاسرائيلي»، بينما وصفه دايان بأنه «أخطر أسبوع فى حياة إسرائيل كدولة». وإنه لكذلك بالفعل . فلقد كانت المعركة تتلخص ببساطة وبلا أدنى مبالغة فى عجز على جانب العدو ، وإعجاز على الجانب المصرى. فقد اكتسح الهجوم المصرى خطوط العدو ومزق صفوفه وحقق انتصارات مذهلة ، وسيطر تماما على ميدان المعركة، أو كما كان يصرخ شارون فى جونين «اننا نرقص على أنغامهم!».

ومنذ الساعات الأولى بدأت القوات الإسرائيلية تتحطم وتتهاوى: وحدات مدرعة برمتها تدمر وأطقمها تقتل، وأخرى يقع معظمها فى الأسر أو تلجأ إلى الفرار تاركة أسلحتها وذخيرتها إما حطاما كالأطلال أو سليمة دون قتال أو استعمال، وعشرات الطائرات الأمريكية الصنع

تتساقط محترقة بطياريها أو بغير طياريها الذين لايلبثون أن يضافوا إلى قائمة الأسرى المكتظة، سواء كان ذلك على الضفة الشرقية أو الغربية.

ويكفى مصداقا، بل تلخيصا ، لهذا كله أن نقتبس قائدا من قادة العدو نفسه، ايرييل شارون، الذى قال فى غضب هستيرى انه رأى وحدات المشاة المصرية تتقدم فى تلك المرحلة «كما لو كانت فى عرض خلف راياتها» بل لقد فكر العدو فى بداية المرحلة فى التراجع الاستراتيجى، فقد قال دايان فى يوم ٨ أكتوبر «ان الموقف يبدو حرجا، وكى ندافع عن إسرائيل لم يبق أمامنا إلا أن ننسحب بقواتنا إلى خلف ممرات سيناء وعلى قمة هضبة الجولان». أما دايان نفسه فقد تحول إلى «رجل محطم» كما وصفته هاعولام هازيه التى كتبت تقول «ان الجنرال موشيه دايان قد انهار فى اليوم الثانى من حرب اكتوبر عندما حطمت القوات المصرية كل الهجمات الاسرائيلية فى سيناء ووصلت القوات السورية إلى مسافة لا تتجاوز خمس دقائق من وادى الأردن، وأوقعت خسائر فادحة فى الدبابات والطائرات الاسرائيلية حولت دايان إلى رجل محطم». أو كما وضعها وولتر لاكير ، «فقد فاعليته وكاد يصاب بالهلع».

وإذا كانت مفاجأة هذه المرحلة هى النصر المصرى الساحق الذى حطم عصب الجيش الإسرائيلي وكسر عموده الفقرى على أقل تقدير، فإن مفاجأتها الأخرى ولا نقول الصغرى هى دور المشاة فى الميدان. فرغم أن حشود الدبابات والطائرات إلى جانب المدافع والصواريخ كانت هى المسيطرة على ميدان القتال وهى التى ملأت المسرح، فقد كان نجم المعركة وبطلها الحقيقى هو رجل المشاة والمشاة الميكانيكية المسلح بالأسلحة المحمولة الخفيفة ولكن بوجه خاص جدا بالصواريخ المضادة للدبابات وللطائرات. وقد قدر العدو ، إن خطأ أو صوابا ، أن من بين كل ثلاثة مشاة مصريين كان واحد مسلحا بتلك الصواريخ.

وأيا ما كان ؛ فلقد كانت المواجهة على الأرض تدور غالبا بين دبابة مدرعة وفرد بصاروخ، أو فى الجو بين طائرة مصفحة وفرد بصاروخ، وكانت النتيجة فى الأغلب سقوط الدبابة أو الطائرة، بل ان كثيرا من جنود المشاة أسقط الواحد منهم عشرات من هذه الأهداف بمفرده على امتداد المعركة. وتلك جميعا كانت ظاهرة ثورية وسابقة غير مسبوقة فى التاريخ العسكرى تحتاج إلى وقفة خاصة حين نحلل نتائج الحرب فيما بعد.

أما هنا فيكفى أن نقول ان حصيلة الأسبوع من خسائر العدو على الجملة كانت بضع مئات من الطائرات المحطمة وعدة مئات من الدبابات

المحترقة، ثم بضعة آلاف من القتلى وعدة آلاف من الجرحى، أما إقليميا، فقد وصلت المنطقة المحررة أثناء تلك المرحلة إلى نطاق مهم بطول الضفة الشرقية من البحر إلى الخليج وبعمق بضع عشرات من الكيلو مترات ما بين القناة والمشارف الأمامية أو الخارجية لمضايق سيناء، وكانت تتراوح محليا بين ١٠ ، ١٨ كم.

وقفة التعبئة

عقب الأسبوع الأول من بدء المعركة أو قبل نهايته بقليل، حدث إلى حد ما هدوء نسبي في حدة القتال أو انخفاض ما في سرعة ايقاع التقدم . وهو تطور كان ملحوظا أحس به الجميع لبضعة أيام وعكسته بوضوح البلاغات العسكرية المصرية كما جسمته قلة خسائر العدو نسبيا عما ألفناه في المرحلة السابقة، كما استرعى الانتباه واستثار التساؤل بل واستدعى النقد من البعض . فرغم أن الموقف كان أبعد شيء عن الجمود أو السكون وحتى عن الركود أو الاسترخاء العسكري، فلقد شعر الكثيرون منا ومن غيرنا بعد نصر الأسبوع السابق الساحق أن ثمة فرصة كبرى يجب ألا نضيعها وأن علينا بأسرع ما يمكن أن نستثمر انتصارنا وهزيمة العدو وانهياره البادي لنجهز عليه بضربة أقوى داحرة ونهائية.

فلقد كان أمام القوات المصرية المتقدمة أحد اختيارين: إما الاندفاع نحو الممرات للسيطرة عليها، وإما التركيز على تأمين قاعدتها الأرضية وتدعيمها . وعلى الجانب الآخر كان أمام العدو الإسرائيلى أحد اختيارين: إما الانسحاب إلى المضايق والتحصن بها، وإما الصمود والمصادمة بأمل التمكن من التقدم وربما التوغل فيما بعد. وقد كان الانسحاب كفيلا بأن يستدرج القوات المصرية خارج نطاق شبكة صواريخها الحامية ويفرض عليها الانتشار الواسع المتعجل ويطيل خطوط مواصلاتها ، وبذلك كله يعرضها لخطر الاستنزاف. غير أن خطر مثل هذا الانسحاب من وجهة نطر العدو يتمثل فى الأثر النفسى والمعنوي أولا، ثم فى احتمال تفوق المصريين واستيلائهم على المضايق أو التشبث خلفها فى حرب طويلة تستنزف العدو ولا تلائمه.

ولقد كان هناك بالفعل اغراء شديد للقيادة المصرية بأن تندفع بأقصى سرعة فى زحفها نحو الشرق وبوجه خاص نحو المضايق ، مفاتيح سيناء الاستراتيجية الحاكمة بلا جدال. فالمضايق، التى أصبحت طلائع قواتنا المتقدمة على بعد عنها يتراوح بين ٥٠ ، ١٥ كم فقط فى بعض القطاعات، هى كما نعرف قطب الجاذبية فى أى صراع مسلح يدور على أرض شبه الجزيرة، هى الرهان الحقيقى، وهى الجائزة

الكبرى. ليس فقط لأن السيطرة عليها تعنى بالنسبة لنا تحرير نحو ثلث المستطيل القاعدى الشمالى من سيناء، ولا لأن هذا الثلث كساحة حرب أضيق من أن يعرضنا الانتشار فيه لخطر اطالة خطوط مواصلاتنا بصورة مقلقة، (ولا كذلك لأنه أضيق من أن يسمح للعدو بفرص الحركة الكاملة والمناورة المطلقة بالمدرعات التى يعتمد عليها) ، ولكن أيضا وقبل كل شيء لأن السيطرة على المضايق تحدد مصير بقية المعركة. ولقد كان التسابق على المضايق هو بالفعل ما توقعه كثير من المراقبين العسكريين فى الخارج كالخطوة التالية للقوات المصرية والتطوير الطبيعى لهجومها بعد أسبوع النصر الاكبر.

غير أن من الواضح أن القيادة المصرية قاومت بشدة كل اغراءات الزحف السريع الكاسح وفضلت عن عمد وبوعى خطة تعميق وجودها فى القاعدة الأرضية المحررة على خطوة تنمية الهجوم وتطويره شرقا، أى فضلت التوسع الرأسى على التوسع الأفقى كما قد نقول. أو بعبارة أخرى آثرت البطء المحسوب على المغامرة بانتهاز فرصة قد تنطوى على فخ كامن، وفضلت انزال أكبر قدر ممكن من الخسائر بالعدو من خالة الثبات - وهى أفضل وضع ممكن حينذاك - على دفع القوات وزجها فى العراء بلا غطاء أو ساتر أو تجهيز هندسى يحميها من العدو الجوى. والسبب الأساسى فى ذلك أن التوسع بعيدا إلى الشرق كان سيتقدم

بقواتنا خارج نطاق تأثير وفاعلية شبكة صواريخنا المضادة للطائرات ويحرمها من حماية مظلتها، وبذلك يعرضها لأخطار الطيران العدو وقد يمنحه فرصة للتفوق غير المأمون.

وقد حدث بالفعل ، كما أعلن فيما بعد، أن القوات المصرية خرجت عن خطة الوقفة مؤقتا حين اتضح أن خطة العدو هي «تثبيتها» ومنعها من التقدم ليتفرغ لسوريا، حتى إذا ما فرغ منها عاد بكل ثقله الينا. ولهذا، وتخفيفا لضغط العدو على سوريا في الجبهة الشمالية، اضطرت قواتنا في يوم ١٤ أكتوبر إلى تطوير هجومها وإلى شن هجوم واسع النطاق في مرحلة سابقة لأوانها امتدت بمدرعاتنا خارج نطاق صواريخنا المضادة للطائرات . وما إن حققت هذه الخطوة أغراضها في إرغام العدو على سحب كثير من قواته وطائراته من الجبهة السورية، حتى عادت قواتنا إلى قاعدتها الأرضية ورءوس جسورها حرمانا للعدو من أي فرصة لتصيدها بطيرانه، واستدراجا لهجماته المضادة إلى مقتل محقق في نطاق شبكة صواريخنا.

وعلى هذا الأساس روعي في عملية الضغط هذه ألا تؤثر على التمسك التام برؤوس كبارينا أو تماسكها المطلق. فتم الهجوم بجزء فقط من القوات المدرعة والميكانيكية، يتألف من مفارز صغيرة الحجم نسبيا ولكنها مؤثرة كثيفة في قوتها النارية. وقد مهدت قواتنا الجوية للعملية

بضربة جوية كبيرة بالطائرات والصواريخ على أهم أهداف العدو فى سيناء ؛ صحبتها فى اللحظة نفسها قصفة مدفعية كبرى مركزة (٥٠٠ مدفع/ربع ساعة)، كما نقلت قوات دفاعنا الجوى بعض وحدات صواريخها مدا لغطائنا الجوى إلى أبعد مسافة ممكنة شرقا. وعلى أثر هذا التمهيد وفى ظل هذه الحماية تقدمت مفارزنا على المحاور الرئيسية الثلاثة تجاه المشارف الغربية للمضايق والممرات، وتوغلت داخل نطاقات العدو نحو ١٥ كم أو إلى مسافة ٢٠ كم من القناة، ونجحت فى تدمير الكثير من قواته هناك وفى منع تدفق قوات امداداته نحو الغرب. وعندما اتمت هذه المفارز مهمتها عادت إلى رؤوس كبارينا مرة أخرى. وبذلك كانت العملية فى آن واحد مناورة توازن مع الجبهة السورية من جهة ، ونوعا من التمهيد المسبق للتطوير الأساسى القادم لهجومنا شرقا من جهة ثانية، ثم حلقة وصل بين الوقفة التعبوية ومعركة الدبابات الكبرى الوشيكة من جهة ثالثة.

وفيما عدا هذا كان قرار القيادة أن تحرم العدو أى فرصة انتقامية، وآثرت أن تتوقف مؤقتا وقفة تعبوية تشدد فيها قبضتها على قاعدتها الأرضية المحررة وتوطد مواقعها فيها وتعيد تنظيم وتجميع القوات، وكذلك ريثما يكتمل وصول الامدادات الادارية ووحدات دفاعنا الجوى ومدرعاتنا فتحشدها لمواجهة فاصلة. وبذلك يتم التقاط الأنفاس ويتحقق

الاتزان الاستراتيجي للمسرح كله. وفي أثناء ذلك تمتص كل هجمات العدو المضادة وتحطمها موجة وراء موجة حتى تتكسر جميعا. وهكذا بالفعل كان، وكان هذا هو المدخل إلى معركة الدبابات الكبرى. وحسب هذه المرحلة أن تم فيها تدمير ٥٠٠ دبابة للعدو، بجانب آلاف من الأفراد.

ولقد كان في هذا السياق ما قاله جونين قائد الجبهة الجنوبية في أمر يومي من أن إسرائيل تخوض «أكثر حروبها صعوبة منذ انشائها من ٢٥ سنة»، وأن «هذه الحرب ليست حربا خاطفة ولا حربا تعتمد على الهجمات الأمامية السريعة، وانما هي حرب قاسية ومستمرة، وأن من الضروري أن نصارح شعبنا بأن هذه الحرب ليست مماثلة لأي حرب خضناها من قبل».

وعلى هذا يمكن تشخيص هذه المرحلة التي تميزت أساسا بالتقدم البطيء الحذر بأنها كانت مرحلة من «الهجوم الدفاعي» على الجانب المصري ومن «الدفاع الهجومي» على الجانب الإسرائيلي. وكان التكتيك المصري أساسا هو «اجذب واضرب» : الالتصاق بقاعدتنا الأرضية في حماية شبكة صواريخنا وعدم الابتعاد عنها وعن مجال فاعليتها، مع استدراج القوات الاسرائيلية اليها لاستنزافها على التوالي حتى تتآكل تماما. أما التكتيك الاسرائيلي فكان الهجوم المضاد، في محاولة لمنع

تقدمنا أو لتقليص جيوبنا وقاعدتنا الأرضية. فقام بعشرات من الهجمات المضادة وجهها إلى رؤوس كبارينا وركزها ضد أجنابها بوجه خاص بهدف تثبيتها ثم تطويقها ثم المروق إلى المعابر لتدميرها ايقافا لتدفق قواتنا إلى الشرق ثم عزلها عن قواعدها فى الغرب.

وفى هذا الصراع ، المحلى نسبيا، دفع كل من الطرفين بأعداد عظيمة من الدبابات، ٧٠٠ - ٨٠٠ دبابة لكل جانب، وكانت الخسائر المتبادلة كبيرة أيضا. وبينما لعبت صواريخ المشاة الكثيفة المضادة للدبابات دورا بارزا على الجانب المصرى فى هذه المعركة، لعبت الهليكوبتر المصفحة المسلحة بالصواريخ المضادة للدبابات دورا كبيرا على الجانب الاسرائيلى . وقد بلغ عمق القاعدة الأرضية المحررة فى نهاية المرحلة نحو ١٨ - ٢٠ - ٢٥ كم .

معركة الدبابات الكبرى

تعتبر هذه المعركة ذروة أخرى من ذرى حرب أكتوبر بعد نقطة القمة التى تمثلت فى العبور واكتساح خط بارليف. وهي فى الوقت نفسه ، وبإجماع كل المحللين العسكريين العالميين، واحدة من أكبر وأعظم معارك الدبابات فى التاريخ الحديث جميعا، لا تقارن الا بمعركة العلمين ومعركة ستالينجراد فى الحرب العظمى الثانية وربما فاقتهما كلتيهما

من حيث الحجم والكثافة والضراوة . فقد حشد فيها كل من الجانبين، عدا سائر أنواع الأسلحة والقوات الأخرى، نحو ١٠٠٠ - ١٢٠٠ دبابة، وربما أكثر ، أى بمجموع يربو كثيرا على ٢٠٠٠ ، وقد يصل إلى ٣٠٠٠ دبابة. وذلك في شقة أرضية ضيقة ومحدودة، قد لا تزيد على عدد مماثل من الأميال المربعة، يعنى نحو دبابة لكل ميل مربع، وهذه كثافة ميكانيكية ومن ثم كثافة نيران نادرة للغاية وربما غير مسبوقة وربما كذلك غير ملحوقة.

وليس من السهل تحديد بداية هذه المعركة بالدقة أو بالضبط، وان كانت نهايتها محددة بوضوح. فمنذ اليوم السادس للقتال بدأ المراسلون والمراقبون يتحدثون عن «أكبر المعارك البرية فى سيناء» و«أكبر معارك الدبابات فى التاريخ». وكان كل يوم يتلو يعد من جديد «أكبر معارك المدرعات فى التاريخ»، وهكذا بانتظام. لقد كان الخط البيانى للمعركة فى تصاعد رهيب، وكانت المعركة كل يوم طاحنة أكثر منها فى أى يوم مضى بلا استثناء. غير أن الذروة القمية السامقة التى تحدد بداية «معركة الدبابات الكبرى» هى يوم ١٥ أكتوبر، ومنه استمرت بلا انقطاع فى التصاعد حتى نهاية القتال فى ٢٥ أكتوبر، أى أنها اتصلت ١٠ أيام كاملة.

وقد كان الاجماع العالمى تاما علي أنها قد تحدد مصير الحرب جميعا، وبات العالم يترقب نتيجتها بأنفاس معلقة. ليس هذا فحسب، بل إن الاجماع كان مطلقا أيضا على أنها تجاوزت كل حروب المدرعات في تاريخ الحرب الحديثة بحيث لم يشهد العالم مثلها فى التاريخ ولم يسبق لها مثيل فى الحجم والشراسة والتدمير. بل لقد وصلت فى مراحل معينة إلى حد المعركة الانتحارية من الجانبين، اذ قذف كل منهما فيها بكل أسلحته الثقيلة والصغيرة، البرية والجوية، وكلما زادت الخسائر دفعا بالمزيد من القوات. وتحول مسرح المعركة إلى جحيم من النيران الكثيفة لا ينقطع، وبكثافة مماثلة امتلأت أرضها بالحطام المحترق والمهشم والجثث المتفحمة.

ولنفصل . على القطاع الأوسط من الجبهة دارت المعركة، تصادمية هائلة بالمدرعات، استنزافية رهيبة بالمدفعية، وانقضاضية مريرة بالطائرات. وفيها لعبت صواريخ المشاة المضادة للدبابات وللطائرات دورا حاسما مرة أخرى. وقد بدأ العدو أولا بهجمات مضادة محدودة، ما لبث أن صعدها إلى هجمات أساسية متواترة ليلا ونهارا على جميع رؤوس كبارينا. ولكنه ركز أساسا على الجانب الأيمن للجيش الثانى، هادفا إلى تصفية رأس الجسر فى هذا القطاع والاستيلاء على رقعة من الضفة الشرقية للقناة وشطر قواتنا على تلك الضفة . ولكنه في وجه

مقاومة ضارية وباسلة فشل، ولم ينجح فى أكثر من أن يدفع بتلك الأجناب إلى الخلف مسافة ٢ – ٣ كم فقط، لم تلبث قواتنا أن استردتها وأغلقت الثغرة مكبدة العدو خسائر فادحة . ومع ذلك فقد أصر العدو على مواصلة الهجوم بأى ثمن، فدفع بالمزيد من قواته وتوالت هجماته ولكن أيضا تصاعدت خسائره. غير أنه بعد بضعة أيام من الخسائر الفادحة وبعد أن ألقى بنحو ٥٠٠ دبابة فى المعركة استطاع دفع أجناب الجيش الثاني إلى الخلف نحو ٨ – ١٠ كم. وكان هذا هو التمهيد والمدخل إلى عملية التسلل إلى الضفة الغربية كما سنرى، كما كان حلقة الوصل بين معركة الدبابات الكبرى فى سيناء وعملية جيب الضفة الغربية.

ومنذ البداية بدا واضحاً أن معركة الدبابات ، التى استطالت ذروتها إلى أكثر من الأسبوع ، ستكون فاصلة وربما تحسم الحرب الرابعة عمليا كما توقع كثير من الخبراء . وبالفعل أخذت المعركة في أيامها الأولى مساراً محدداً لصالحنا بصورة قاطعة وضد العدو الذى بدا انهاكه واستنزافه جليا لا يخفى على أحد . والواقع أن العدو الذى كان قد قذف فيها بمعظم احتياطيه الاستراتيجى بدأ يشعر بنقص قوته البشرية مثلما بدأت قواتنا تشعر باختلاف وتدهور نوعية رجاله . وأخطر من ذلك أن العدو ، كما اتضح فيما بعد ، كان قد بدأ يعانى

بشدة من نقص سلاحه عامة وذخيرته خاصة بصورة خطيرة لم تكن لتسمح له بمواصلة القتال لأكثر من ثلاثة أيام أخرى باعتراف دايان نفسه.

ولا غرابة بعد هذا أن يضطر هذا الأخير أن يقول للاسرائيليين أثناء المعركة «هذه حرب صعبة، معارك الدبابات فيها قاسية، ومعارك الجو فيها مريرة، انها حرب ثقيلة بأيامها ، ثقيلة بدمائها. وليس أمامنا الا أن نقاتل بقلوب كسيرة، ولكن علينا جميعا أن نطوي أعماق قلوبنا على الأحزان». وحين أحس العدو أنه لا محالة خاسر المعركة وأن الدائرة ستدور عليه، بدأ يمهد للتقليل من خطورتها انقاذا لروحه المعنوية، فأعلن قادته أن المعركة الحاسمة لن تكون هذه التي تدور على الجبهة الوسطى ولكن تلك التي ستدور على القطاع الجنوبي. كذلك راح يعلن استعداده لقبول وقف اطلاق النار بشروط بادية الافتعال لا يقصد بها الا حفظ ماء وجهه واخفاء هزيمته الحقيقية.

وفجأة، وعند هذا الحد ، أخذ الموقف منعطفا جديدا وخطيرا. فقد بدأت الإمدادات الأمريكية تتدفق على العدو بمعدل صارخ وبغير حساب، فوق جسر جوى وآخر بحرى حشدت له أمريكا أحدث ما فى ترسانتها من أسلحة متطورة لم يسبق قط استخدامها حتى فى فيتنام

بما فى ذلك القنبلة التلفزيونية وصاروخ T.O.W المضاد للدبابات وصواريخ وول آى ومافريك وستاندارد وشرايك وغيرها كثير، وكلها يمتاز بإحكام التصويب الفائق. هذا عدا مئات الطائرات والدبابات.

وهذه الإمدادات ، التى بلغ وزنها عشرات الآلاف من الأطنان وقيمتها عدة مئات من ملايين الدولارات، جمعت من القواعد الأمريكية فى أوربا ولكن أساسا من الولايات المتحدة إلى حد أن هددت مخزونها الاستراتيجى هى نفسها (أعلنت أمريكا بعد الحرب أنها أساءت تقدير كمية الذخائر الضرورية فى حالة نشوب أزمة مثل الحرب العربية الاسرائيلية بشكل خاص). وكان جزء كبير من هذه الإمدادات يصل إلى ميدان القتال فى سيناء نفسها رأسا، العريش فى البداية وربما فيما بعد الدفرسوار، أحيانا دون حتى تغيير علاماتها أو ألوانها، وأحيانا بطواقم أمريكية كاملة. والمفهوم أن هذه الأسلحة حدت من فاعلية صواريخنا التى كانت متفوقة ضد الدبابات والطائرات.

لقد دخلت أمريكا المعركة مباشرة. حقا لقد كانت دائما فى الصراع كله، وفى المعركة نفسها، ولكن ليس بمثل هذا السفور والمباشرة والتحدى ولا بكل ثقلها هذا . من هنا ظهرت على مسرح المعركة حشود

جديدة، طازجة وغير منهكة، من السلاح والقوات. والمقدر أن عدد الدبابات الجديدة وحدها وصل إلى ٥٠٠ دبابة. ولهذا يمكن اعتبار هذه المعركة أساسا معركة مصرية - أمريكية أكثر منها مصرية - إسرائيلية.

وقد ردت القوات المصرية على هذا التحدى الجديد بهجوم ضار مروع غير مسبوق على الاطلاق ، وكبد العدو خسائر رهيبة حتى اعترف القائد الاسرائيلى لسيناء أن «المصريين يقاتلون بشراسة انتحارية فى أعنف رد على تحركاتنا. انهم يقومون بهجمات كثيفة ويردون بنيران كثيفة وأسلحة كثيفة وأسلحة مضادة للدبابات كثيفة وأعداد كثيفة من الدبابات. انهم يفعلون كما فعل الصينيون فى كوريا، يهاجمون بموجات وراء موجات ويحاربون بعناد شديد».

هذا بينما شكا الجنود الاسرائيليون أنفسهم من أن «انتشار الدبابات المصرية فى سيناء قد صنع جدارا سميكا من الصلب، بينما ينتشر المشاة الميكانيكية فى مواقعهم يصيبون دباباتنا بصواريخهم التى تطلق من الكتف، كما أن كثافة النيران المصرية قد وضعت الطيران الاسرائيلى فى موقف بالغ الصعوبة، وذلك عدا العناد الفائق الذى يقاتلون به».

جندى اسـرائيلى آخر ممن شاركوا فى القتال و(الهزيمة) على جبهة القنـاة قال للصحفى الفرنـسى اريك رولو ما ترجمته «كانت تجربة مروعة بالنسبة لى. كان لدينا الاحساس بأننا نواجه هجوما من أمواج لا تنتهى من النمل المتماسك الملتصق ببعضه البعض، والمصمم على أكلنا. كان هذا هو حالنا أمام الجيش المصرى عند قناة السويس. أمواج متلاحقة من المدرعات والدبابات والعربات، تقذف علينا القنابل والقذائف والصواريخ، وكلما حاولنا ان نسكت تشكيلا من تشكيلات الجيش المصرى المهاجم، فوجئنا بإحلال قوة جديدة مكان القوة التى نجحنا فى اسكاتها، وتبدأ القوة الجديدة فى قصفنا وضربنا بقسوة وبإصرار».

هكذا أطال التدخل الأمريكى العدوانى القتال، وزاد من خسائر الجانبين بصورة مزعجة، وربما أفقد القوات المصرية هامشا ضيقا من نطاق الأرض المحررة حيث ان عمق هذا النطاق فى نهاية القتال يقصر بضعة كيلومترات عن الحد الأقصى الذى كان قد سجله فى أوج النصر. ومع ذلك فإن هذا التدخل غير مصير المعركة بالكاد، أو هو بالتقريب حيّد نتيجتها إلى نوع من التعادل فيما يبدو للبعض. ومهما يكن، فلولاه لنالت إسرائيل بالتأكيد هزيمة محققة كانت جديرة بحسم بقية الصراع الى حد كبير على أرجح الآراء.

وفى نهايات القتال، التى صبت القوات المصرية على العدو فى الأيام القليلة الأخيرة منها كمية من النيران تفوق كل ما صبته عليه طوال أيام المعركة السابقة، كان الموقف النهائى كالآتى. المنطقة المحررة فى سيناء ساعة وقف اطلاق النار، كما أعلنت القيادة المصرية فى يوم ٢٢ أكتوبر، تشمل الشاطىء الشرقى لقناة السويس برمته من رأس مسلة على خليج السويس حتى بورفؤاد بطول ٢٠٠ كم، وبعمق يتراوح بين ١٢ ، ١٧ كم شرقا، بما فيها مدينة القنطرة شرق، وفيما عدا ثغرة ضيقة من الدفرسوار شمالا بطول ٧ كم ملاصقة للبحيرات المرة. وتبلغ مساحة هذه المنطقة التى نسيطر عليها تماما ونؤمنها بقوة ٣٠٠٠ كيلو متر مربع. كذلك فإن خطوط اتصالنا وتموين قواتنا بالمنطقة منتظمة ومضمونة تماما.

وينبغى أخيرا أن نضيف أنه منذ انتهى القتال رسميا لم يتوقف تبادل النيران إلا بالكاد، بل بكثافة متصاعدة، وكان لقواتنا دائما فيه اليد العليا. فلم تكف عن إلحاق الخسائر الفادحة بالعدو وعن منعه من تحسين مواقعه وحرمانه من الاستقرار او الاسترخاء. وفرضت عليه حرب استنزاف من نوع جديد كما وصفها العدو نفسه. ومن جهة أخرى لم تكف قواتنا عن تحسين مواقعها وتوطيدها بعمق وعن توسيع رقعة سيطرتها شرقا، كما فى عيون موسى مثلا.

كذلك أخذت تدعم جسور الاتصال عبر القناة، فأصبح لنا ٥ جسور، بعضها تحول إلى طرق ثابتة لا مجرد كبارٍ عائمة. وفضلا عن هذا فلم يكن هناك نقص فى تموين القوات لا فى السلاح ولا فى الذخيرة ولا المياه، بما فى ذلك الجيش الثالث فى القطاع الجنوبى الذى حفر كثيرا من الآبار ليوفر لنفسه كل موارده المائية المطلوبة.

وفوق كل هذا فلقد بدأت القوات المصرية شرق القناة تقيم، كما أعلن العدو محذرا الاسرائيليين، قواعد جديدة للصواريخ المضادة للطائرات، تمتد بطول القناة ويتجاوز مداها الى ما بعد ممرى متلا والجدى بمسافة كبيرة، وبالمثل أقامت صواريخها أرض - أرض البعيدة المدى بعد أن حركتها من الداخل الى الضفة الشرقية للقناة لتصبح أكثر قربا من عمق إسرائيل. باختصار، كانت القوات المصرية شرق القناة فى وضع استعداد كامل لاستئناف القتال بكفاءة تامة، فورا ولشهور عديدة حتى بما تختزن وحده فقط من أسلحة وذخيرة وتموين.

عملية التسلل

بدأت هذه العملية، «عملية شارون» كما يسمونها، وإن ثبت الآن أنه لم يكن مخططها الأصلى او الوحيد، بدأت فى ليل ١٥ - ١٦

آكتوبر، أى في اليوم العاشر من المعركة، وامتدت على مدى أسبوع، الأسبوع الأخير، حتى وقف اطـلاق النار فى ٢٢ أكتـوبر، ولكنها ظلت مستمرة بعده بضعة آيـام أخرى فى تـلاعب فاضح بالقانون الـدولي وبصفة غير مشـروعة. وهـي بهـذا قد استغرقت فى جملتها نحو ١٠ أيام. ومعنى هذا أيضا انهـا تعاصرت تقريبا مع معركة الدبابات الكبـرى، بدأت معها او عقبها بقليـل، ثم سارت موازية لها حتى تجـاوزتها فى النـهاية. والواقـع أنها ما قـامت الا كنتيجة تعـويضية مباشرة لتلك المعـركة ولا تسللت بنجاح نسبى الا فى ظلها وانتهـازا لها، كما أنهـا لم تلبث أن تـداخلت معها وتشـابكت حتى اندغمتا كلتاهما فى ملحمة عظـمي واحدة على جانبى القنـاة. فالعلاقة بينهمـا إذن وثيقة عضويا ووظيفيا وسببيا وتوازنيا.

تفصيل ذلك أن اسرائيل تحت ضغط المعركة وتدهور موقفها فيها حاولت أن تفتح جبهة جديدة لا تخفف ذلك الضغط فقط وانما كذلك تنقله الى مؤخرة القوات المصرية، وربما كذلك بأمل أن تقلب معادلة القوة فى الميدان ومـوازين المعركة برمتها فى النهـاية. ففضلا عن أن هذا ينقلها من موقف الدفـاع إلى موقف الهجوم، وقد يمنح قواتها فرصة الوصول الى شبكة صواريخنا المضـادة للطـائرات وتدميرها

برا بعد أن فشل طيرانها فى ذلك جوا، فإنه قد يرغم مصر على أن تسحب جزءا من قواتها فى سيناء الى غرب القناة، والا فإنها تستطيع على الأقل أن تخلق لها متاعب خطيرة وحقيقية فى مؤخرتها وتشيع بذلك جوا مقلقا من التشويش والاضطراب فى جبهتها. أو كما عبر - واهما! - شارون نفسه، حتى تكون الثغرة بمثابة «مسدس مصوب نحو القاهرة، وجبل جول رقبة الجيش الثالث».

وفي كل الأحوال فإن ذلك يكفل لاسرائيل نصرا دعائيا ونفسيا وسياسيا داويا، مهما يكن كاذبا او وهميا، يرفع روحها المعنوية المنهارة في الداخل، ويغطى على سمعتها العالمية التى تحطمت، ومن الناحية الأخرى يطغى على الانتصار المصرى الحقيقى ويشوهه فى نظر العالم، الى جانب تأثيره العكسى وانعكاساته الضارة على معنويات مصر والعرب.

هكذا كبديل عن عجزها فى المواجهة التصادمية المباشرة، لجأت اسرائيل الى سلاحها الأثير وهو استراتيجية الاقتراب غير المباشر in-direct approach التى تقوم على الاختراق ثم التطويق فالتصفية، والتى مارستها بنجاح فى حرب السويس وحرب يونيو من قبل والتي تكفل مجالا واسعا لعنصر المفاجأة وتكتيك المناورة الواسعة المدى التى تلائم بذورها سلاح الدبابات والمدرعات. من هنا

بدأ العدو، في غمرة انشغالنا بمعركة الدبابات الكبرى، يبحث عن ثغرة او نقطة ضعيفة يتسلل منها. وقد اتضح فيما بعد أن العدو كان قد خطط لهذا الاحتمال واستعد له بل ومهد فتحات في الساتر الترابى حددها بعلامات معينة من الحجارة تحسبا للعبور.

ومن المؤكد والمسلم به الآن أن هذا البحث تم بتواطؤ ومساعدة طائرات التجسس الأمريكية التى قامت فى تلك الفترة بعدة طلعات متلاصقة على الأجواء المصرية العليا حيث رصدت ثغرة مخلخلة الكثافة الدفاعية نسبيا فى منطقة الانتقال او جبهة الانفصال بين الجيشين المصريين الثانى والثالث شرق القناة فى قطاعى الجبهة الشمالي والجنوبى على الترتيب. ومن المقرر والمسلم به عسكريا أن وجود ثغرات فى جبهة الحرب الصحراوية التى يتم التقدم فيها كقاعدة على محاور رئيسية، ليس خطأ من حيث المبدأ، ولكن الخطأ أن تترك للعدو فرصة استغلاله، خاصة فى مناطق الانتقال بين الجيوش المتجاورة.

ومن المعروف والمسلم به أيضا ان اسرائيل منذ فوجئت بالعبور المصرى وتدمير خط بارليف وهى تهاجم فى القطاع الأوسط بضراوة بالطيران والمدرعات من أجل العبور المضاد. وفى هذا السبيل حاولت فيها يبدو أن تتسلل مرة عند كبريت على العنق المختنق بين البحيرات

المرة الكبرى والصغرى ولكنها لاقت مقاومة عنيفة لعلها كانت بداية ذلك الحصار الطويل الذى صمد له الموقع صموده التاريخى والباسل. كذلك حاولت أن تتسلل عبر منطقة الفردان، أى فى ذلك القطاع من القناة الواقع بين بحيرة التمساح جنوبا ومضيق القنطرة شمالا. والمرجح ان هدفها من ثغرة في الفردان كان أن تنفذ منها الى احتلال الاسماعيلية والقنطرة غرب ثم حصار بورسعيد بعد ذلك. غير أنها فشلت وردت على أعقابها، ومن ثم عاودت التسلل من نقطة أخرى إلى الجنوب أكثر هى منطقة الدفرسوار، التى تقع على الزاوية الشمالية الغربية للبحيرات المرة الكبرى. فما هو الفارق بين النقطتين، وما مغزى تحول العدو عن الأولى الى الثانية؟

من الثابت المقرر فى جغرافية مصر العسكرية كما رأينا أن الهدف الاستراتيجي الأول لمن يهاجم القناة من الشرق هو الاسماعيلية. أما طرفا القناة فأقل أهمية كمداخل. السويس لأنها تؤدى الى وراء صحراوى غير معمور، وليس خلفها الا الطريق البرى الى القاهرة رأسا. وبذلك لا تصلح الا طريقا لمقامرة كاملة، وفي ظروف المعركة الحالية مقامرة مجنونة، لهجوم خاطف على العاصمة نفسها. وهذا لا يعنى مع وجود قواتنا الاساسية فى شرق الدلتا سوى قطع الطريق عليها وحصارها وابادتها تماما.

أما بورسعيد فأكثر بعدا وتطوحا وأقل أهمية. وقد حاول العدو في المعركة أن يركز عليها من الجو على أية حال. فانقلب عليها بالغارات المكثفة التى لم تكد تنقطع طوال ساعات النهار والضوء. وذلك بصورة هيستيرية ووحشية وبلا تمييز بين الأهداف العسكرية والمدنية، ربما ليحطم الروح المعنوية، وربما تمهيدا لمحاولة انزال أو ابرار. ولكن محاولاته جميعا فشلت على صخرة المقاومة الهائلة والصمود الرائع ورغم الدمار الكبير الذى أصاب المدينة الباسلة وبلغ نسبة ٣٠ – ٤٠ ٪ من مبانيها.

الاسماعيلية اذن هى المدخل الطبيعي للهجوم على القناة من الشرق. وثانى أفضل بديل لها هو منطقة الفردان لأنها تتوسط قطاع جزيرة البلاح، تقريبا ما بين الاسماعيلية نفسها جنوبا والقنطرة شمالا. وحين عجزت القوات الاسرائيلية المتسللة عن المروق عبر منطقة الفردان، وجدت الثغرة البديلة في الدفرسوار جنوبا على رأس البحيرات المرة الكبرى. وهنا نلاحظ ان العدو قد عبر القناة الى الغرب من أوسع قطاعاتها، على عكس ما فعلنا نحن حين عبرناها الى الشرق فى أضيق قطاعاتها.

ورغم أنها بديل ضعيف، لا يتحكم فى مصادر المياه الحيوية لتموين المنطقة والقوات، وتميل كثيرا الى الموقع الجنوبى بعيدا عن وسط

الجبهة ، فللدفرسوار بضع مزايا مع ذلك، فهي مفترق طرق برية شمالا الى بورسعيد وجنوبا الى السويس وغربا الى الوادي. ثم ان موقعها على رأس البحيرة يعطى عدة ميزات للمهاجم. فالبحيرة عكس القناة تمثل منطقة ضعف في الاستحكامات الدفاعية، ان لم تكن أضعف نقطة فيها، لأن الدفاعات خلف البحيرات عموما وكقاعدة تكون عادة اضعف منها خلف الأنهار او القنوات اعتمادا على اتساعها واستبعاد احتمالات اختيارها للعبور. ولقد كان على هذا الأساس بالفعل ان ارتكز خط تقسيم الجبهة بين جيشينا الثاني والثالث شرق القناة على منطقة البحيرات المرة بالذات. كذلك كانت التحصينات الدفاعية على جوانبها المقابلة غربا أقل كثافة وقوة منها على بقية جبهة القناة. وهذا وذاك باعتبارها خط دفاع طبيعي لا يصلح لعبور قوات كبيرة ولا يرجح الاقدام على الهجوم عبره.

هكذا اختار العدو عن عمد أن يعبر عند البحيرات المرة كنقطة لا يتوقع العبور عندها في الظروف العادية. ورغم مخاطرها وصعوباتها، فإن هذا كان كفيلا بأن يحقق عنصر المفاجأة، كما يعطى فرصة للقوات المتسللة من الشرق أن تعبر مسطحها الواسع بعيدا بقدر الامكان عن أنظار ونيران قواتنا المرتكزة على الضفة

الغربية وكذلك طائراتنا من أعلى. وأخيرا فإن المنطقة لكثرة ما بها من حدائق وبساتين كثة بأشجار الفواكه وحقول القصب، ثم مخازن ومباني حظائر مطارات مهجورة او قديمة، فضلا عن الحشائش البرية العالية شبه السافانية، يمكن أن تقدم أرضا صالحة للاختفاء والتمويه، لاسيما بالنسبة للدبابات، أضف كذلك انتشار القرى والعزب وأشجار مصدات الرياح.. الخ (كان هناك اقتراح مصرى قبل الحرب بإزالة هذا الغطاء النباتي الخطر وتهجير فلاحيه، ولكنه لم يتحقق).

ولقد كادت العملية، عملية التسلل، تفشل فى البداية، والمعتقد أن العدو أوشك أن يتراجع عنها. ولكن التسلل نجح ليلا بطائرات الهليكوبتر وعلى نوع من الأطواف العائمة، وليس بالدبابات البرمائية وحدها كما ساد الاعتقاد أولا. فقد استخدم العدو فى بداية العبور عددا صغيرا من الدبابات تلتصق بها من أسفل قطع متكاملة من كوبرى عائم بحيث تنفصل عنها عندما تصل إلى الشاطىء فتعبر عليها الدبابة اليه فى حين تتلاحم تلك القطع فى كوبرى تام، يصبح بعد ذلك معبرا جاهزا للدبابات العادية.

وتذكر «الشرارة» انه قد تبين فيما بعد أن العدو استعمل فى البداية عددا من الدبابات المصرية التى كان قد غنمها سليمة فى

حرب يونيو، فعبرت بالخداع دون مقاومة، حيث ظنها السكان المحليون من قواتنا في حين كانت قواتنا المحلية محدودة اعتمادا على دفاعات البحيرة الطبيعية. وقد نجحت هذه الدبابات في الاختفاء بين الأشجار والجناين. ولم تكتشف الخدعة كلها الا بعد أن كان عدد كبير نوعا منها يقدر ببضع عشرات قد تسلل بالفعل. وحين بدأت المقاومة الجدية، كانت أعداد أكبر قد تدفقت من قبل عبر ٣ جسور أقامها العدو بعد ذلك ليلا. وكان العدو بهذا قد نجح من آسف في اقامة رأس جسر محدود. وفيما بعد قام العدو بإنشاء كوبرى ثابت له عبر القناة عند الدفرسوار من كتل الحجارة الضخمة أسقطها في القناة حتى صار بعرض ٢٠ مترا عند السطح، ١٠٠ متر عند القاع (أصبح من المقرر الآن إزالة هذا الكوبرى الذى سد القناة).

وقد كان أول عمل وهدف للقوات المتسللة هو شبكة قواعد الصواريخ ارض - جو المضادة للطائرات، تلك التى عجز ازاءها طيرانهم كلية وأصابت قواته الجوية بأفدح الخسائر. فقام على الفور بضربها وتدمير كل ما يمكنه منها على الأرض، وان وجد معظمها قواعد هيكلية خداعية.

وبهذا ضمن العدو لنفسه ثغرة فى أجوائنا فتحت الطريق أمام طيرانه وأعطته حرية العمل التى حرم منها طوال الحرب. لاسيما ان

قيادتنا قررت عندئذ سحب باقى صواريخنا فى القطاع الجنوبى من الضفة الغربية صونا لها من التدمير وحفاظا على سلامة نظام دفاعنا الجوى. وكان هذا كله مما ساعد بعد ذلك على تدعيم عملية الاختراق وتأمين تعزيزها بالامدادات المتزايدة. كذلك كانت بطاريات مدفعيتنا وطرق مواصلاتنا وامداداتنا من أهداف العدو. كذلك سارع العدو الى الاستفادة من المطارات الأمامية الثلاثة الموجودة بالمنطقة، بما فيها مطار الدفرسوار المهجور.

ورغم المقاومة المستميتة لقواتنا والهجمات المضادة التى قامت بها بالمدفعية والطائرات لتقليص حجم رأس الجسر وتدمير معابره واحتواء الجيب كله لضربه فى النهاية، الا أن الواضح انها جاءت متأخرة بعد أن ندعم رأس الجسر وتحول إلى جيب متوسع باطراد وبعد أن نجح العدو فى تحقيق اغراضه فى شق ثغرة في صفوفنا وفتح جبهة خلفية وراءها. والمقدر أن العملية التى بدأت بتسلل نحو ٤٠ دبابة ليلة ١٦/١٥ اكتوبر، كانت قد تدفقت وراءها نحو ١٩٠ من دبابات الكوماندوز فى خلال اليوم أو اليومين التاليين، وفى ٢٠ أكتوبر، حسب التقديرات الأمريكية، كان حجم القوة الاسرائيلية العاملة غرب القناة نحو ٢٠٠ - ٣٠٠ دبابة مع ١٢ ألف جندى. وحوالى وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر كانت القوة قد

وصلت الى نحو ٥٠٠ دبابة. لقد تحول التسلل إلى ثغرة، والثغرة الى اختراق.

وعند هذه النقطة ينبغي علينا أن نعود الى العلاقة بين عملية الاختراق هذه غرب القناة ومعركة الدبابات الكبرى شرقها. لقد كانت بداية الاختراقة كامنة في الثغرة الفاصلة بين الجيشين الثاني والثالث شرق القناة، وبها ارتبطت تغذيتها وتوسيعها، وعليها كان يتوقف استمرارها ثم مصيرها. ومنذ بدأ العدو عملية الاختراق أخذ يمهد لها بتأمين تلك الثغرة. فنشر قواته من مدرعات وصواريخ مضادة للدبابات على جانبي ممر تلك الثغرة شمالا وجنوبا لضمان استمرار فتحها ومنعا لقوات الجيشين الثانى والثالث قرب المحور الأوسط من الإطباق عليها وغلقها من الشمال والجنوب على الترتيب.

ولهذا أخذ العدو يركز ضغوطه على جناحي الجيشين وأجنابهما، متخذا موقفا دفاعيا فى الشمال فى محاولة لتثبيت الجيش الثانى، وموقفا هجوميا فى الجنوب فى محاولة لزحزحة الجيش الثالث جنوبا. ومن الجانب المصرى احتدمت معركة الدبابات في شرق القناة الى الذروة فى محاولة لاغلاق تلك الثغرة وقطعها حتى تتوقف تغذيتها بالقوات والتعزيزات وبذلك يتم تطويقها غرب

القناة وتدميرها في النهاية. وفي التقديرات الأمريكية أن هذه المعركة انتظمت نحو ٨٠٠ دبابة على الجانب المصرى ونحو ٦٠٠ دبابة من جانب العدو. وفي تقديرات آخرى آن قوة العدو العاملة في سيناء حينذاك كانت نحو ١٠٠٠ دبابة.

وقد اشتدت بالفعل ضراوة معركة الدبابات شرق القناة وخاصة حول ممر الثغرة وعلى طول المحور الأوسط، وأنزلت القوات المصرية بالقوات الاسرائيلية خسائر فادحة، لكن دون أن تحسم المعركة مع ذلك. ونجح العدو في دق إسفين عميق نسبيا، ٧ - ٨ كم، بين قوات الجيشين المصريين. والسبب الأساسي في هذا يرجع إلى الأسلحة الأمريكية الحديثة التي تدفقت على العدو بشدة. ولهذا ظلت التعزيزات المعادية نتدفق عبر عنق الثغرة الي غرب القناة، كما ظل الجو مفتوحا بحرية امام طيران العدو، مما حد من فاعلية الهجوم المصرى المضاد غرب القناة ومكن العدو من توسيع جيبه باطراد. غير أن خسائر العدو في عنق الثغرة وجيبها بلغ حدا مروعا، وتحولت المنطقة بما فيها مياه القناة إلى مقبرة حقيقية لدباباته وأفراده. أو كما أذاعت رويتر بعد انتهاء القتال «مازال حطام الدبابات الاسرائيلية طراز سنتوريون، وعليها أثار الحريق والرماد، مبعثرة على امتداد المسطح الصحراوى، ذكرى للمعارك التي تمثل أروع الانتصارات المصرية».

ومن الوجهة الاستراتيجية، فإن من المحقق رغم النجاحات التكتيكية والميدانية التى حققها الاختراق، ان حجم العملية لم يكن بالذى يمكن أن يغير مجرى الحرب أو يقرر مصيرها. ومن الثابت عجز اسرائيل عن توفير قوات أكبر للعملية. ولم يكن أمامها الا أن تسحب من قواتها فى سيناء المشتركة فى معركة الدبابات الكبرى، ولكنها لم تستطع الاقدام على هذه الخطوة خشية أن تعجز عن حماية ممر ثغرتها فتقع فى حصار كامل. واذا كان ثمة تأثير استراتيجى مهم للعملية فهو أنها قد منعت القوات المصرية من أن تطور هجومها الكبير فى اتجاه الممرات وفرضت حدودا معينة على الزحف شرقا فى سيناء. وهذا دور وان كان خطيرا فهو سلبى آساسا.

من هنا نظر العسكريون فى العالم الى العملية نظرة متحفظة محدودة. فالعسكريون الامريكيون مثلا كانوا لا يرون ان اختراقة غرب القناة قادرة على أن تؤثر تأثيرا جوهريا فى سير المعارك. وفى رأى بعض المراقبين المحايدين ان هذه الثغرة فى ظروفها وبأوضاعها لو كانت أمام أى جيش آخر لغيرت مجرى الحرب، لكن الاسرائيليين عجزوا عن آن يخلقوا منها أكثر من جيب محاصر بسبب تماسك

القيادة والقوات المصرية التي اعتبرت العملية فى النهاية مغامرة دعائية سياسية نفسية ولكنها عسكريا محكوم عليها بالاحتواء والفناء، واذا كان وقوع هذه الاختراقة مما يحسب على القيادة المصرية، فمما يحسب لها بلا شك كذلك هدوء أعصابها ورباطة جأشها وموقفها الصامد ازاءها. ففي وجه دعوات الانسحاب من الضفة الشرقية (تذكر عقدة الانسحاب المذعورة!) او تقليص حجم المعركة فيها للالتفات الى الثغرة، قررت الصمود والمواجهة في الضفتين، وبنجاح طيب ولا بأس به فى النهاية.

فاذا عدنا الآن الى رأس الجسر النامى على الضفة الغربية حول الدفرسوار، فقد كان أمامه فرص الانتشار المروحى، أى استراتيجية المروحة، إما شمالا الى الاسماعيلية، وإما جنوبا الى السويس، وإما الى الاثنتين معا. وقد كان شارون يريد الخطة الأخيرة، ولكن قيادة العدو رفضت، كما لم تكن الامدادات او الاحتياطيات كافية للاتجاهين. ولهذا اتجه التقدم أولا نحو الشمال على طريق الاسماعيلية، ولكن الجيش الثانى استرد الساتر الترابى على ضفة القناة الغربية المواجه لمنطقة الثغرة شمال الدفرسوار، ودمر قوات العدو وضربه عند نفيشة، فظل جيب العدو محدودا للغاية. وهنا عاد العدو فاتجه جنوبا ونجح فى احتلال سرابيوم شمال البحيرات المرة

الكبرى، ومنها بدأ الزحف تجاه السويس، ولكن هذا انما تم أساسا استغلالا لقرار وقف اطلاق النار.

ولما كان هذا التقدم الأخير قد تم فى نطاق الجيش الثالث وقرب مؤخرته، فإن هذا يفسر تواتر الحديث، ان خطأ أو صوابا، عن متاعب هذا الجيش بالتحديد. وقد كان هدف هذا الزحف أن يحاصر بسرعة مواقع الجيش الثالث من الخلف، وبذلك يعزله بقطاعيه على الضفتين الغربية والشرقية عن قاعدة الامداد والتموين فى الدلتا والعاصمة، كما يقطع مواصلاتهما ومعابرهما عبر القناة. وبذلك كله كان العدو يأمل أن يتحول الاختراق الى منتهاه الطبيعى وهو التطويق، والواقع ان العدو بعد أن حقق بعض النجاح الأولي، قرر أن ينتهز الفرصة ليحرز نصرا عسكريا اساسيا بأى ثمن ليعوض به هزائمه السابقة.

غير أن الشيء الغريب هنا أن العدو، الذى قام بعمليات ارهاب وخطف أى حملة تخريب ونهب اجرامية واسعة النطاق فى المناطق المأهولة من القطاع، اتخذ فى توسعه شكلا انتشاريا مثيرا للغاية. فانتهازا لفرصة احتمالات وقف اطلاق النار التى كانت تلوح فى الأفق، ثم أكثر منها اعلان الوقف فعلا، لجأ العدو المخادع الى الانتشار على أوسع مدى ممكن فيزيقيا بأقل كثافة ممكنة عسكريا.

وقد ساعده على هذا طبيعة الأرض والطبوغرافيا في هذا القطاع الجنوبي المرتفع من الضفة الغربية الذى تكثر فيه، على العكس من القطاع الشمالي السهلي المكشوف، التلال والتبات والأودية والخيران التى تصلح كثيرا للتسرب والتسلل والانتشار في خفاء. كما استغل العدو أن يد القوات المصرية المدرعة لم تكن، على النقيض منه، مطلقة الحرية في ضرب نيرانها حفاظا على أبناء المنطقة من السكان الوطنيين.

هكذا كان كل هم العدو أن يتوزع على أكبر مساحة متاحة تمهيدا وترتيبا لأى ادعاءات اقليمية قد يساوم عليها فيما بعد. ولهذا أخذ يرسل بوحدات مفتتة وقزمية، مفارز كالشظايا او الشراذم من دباباته ومدرعاته في كل اتجاه لتتداخل الى اقصى حد بين صفوف قواتنا ومواقعنا فيما وصف بحق باستراتيجية حرب عصابات دبابات (الأستاذ محمد حسنين هيكل). وهذا وحده ما سوف يفسر صعوبة الفصل بين قوات المتحاربين فيما بعد، ثم من قبل اتساع نطاق وجود العدو نسبيا.

فهو يوجد – أو كان – في شريحة أو شريط ضيق طوله نحو ٥٠ كم، أو بالأحرى كلسان مسحوب على ضفة القناة الغربية حتى مدينة السويس جنوبا بضواحيها وموانيها الأدبية والزيتية ومشارف جبل

عتاقة، ثم في بضعة آلسنة دقيقة نحو الداخل تتجه نحو ابوصوير غربا وتقطع عبر طريق السويس - القاهرة الصحراوى في بعض النقاط (الكيلو ١٠١) جنوبا بغرب.

ولقد كان من هذا الامتداد الأخير بالذات ما ردده العدو ودعايته المغالطة عن اقترابه يوما فيوما من القاهرة، كل يوم على الكليو كذا(!)، ثم محاولاته قطع طرق المواصلات والتموين بين السويس والقاهرة، وآخيرا ادعاءاته السيطرة على ما سماه «محور القاهرة - السويس» و«حصار» الجيش الثالث. وبالمثل كان من امتداده الأول محاولته الفاشلة ٤ مرات لحصار أو اقتحام السويس المدينة نفسها. ولكن المدينة الباسلة هبت إلى جانب قواتها المسلحة في حرب شعبية وطلائع حرب مدن حقيقية حتى أرغمت العدو الغادر على التراجع بعد أن كبدته خسائر جسيمة وفادحة.

ولقد كان صمود السويس نقطة تحول حاسمة في مصير مغامرة الثغرة كلها. فقد ركز العدو عليها كل أحلامه، وكذلك كل أحقاده. فقد صب عليها أكثف نيرانه جوا وبرا حتى أصيبت بدمار رهيب، بحيث ارتفعت نسبة الخسائر في المنازل من ٦٥٪ قبل اكتوبر الى ٨٥٪ بعده (قارن وارسو، المثل الكلاسيكي للمدن المدمرة، بالنسبة نفسها). ثم عمد العدو الى تطويق المدينة وحصارها من الشمال والغرب

والجنوب، حيث وصل فى الاتجاه الآخير الى جبل عتاقة وكان هدفه فيما بيدو السخنة والزعفرانة ايضا. وبهذا أصبحت المدينة محاصرة تماما، إلا من اتصالها عبر القناة بجناح الجيش الثالث شرقا. والواقع انها كانت الموقع الوحيد فى الجبهة الذى كان محاصرا بالفعل، على عكس بقية مزاعم العدو، وفيما عداه فلقد كان العدو كله محاصرة مواقعه ووجوده.

ثم لجأ العدو الغادر الى قطع المياه عن المدينة، حيث قام بردم ترعة السويس العذبة في قطاع منها يبلغ طوله عدة كيلومترات، حولها الى طريق للتقدم، فضلا عن عدة جسور أقامها عليها للعبور، وبالمثل ردم قطاعا من ترعة الاسماعيلية، وبهذا انقطع امداد المدينة بالمياه، فضلا عن انقطاع امدادات التموين والغذاء. ومن هذا الحصار والضرب كان العدو يأمل أن تسقط المدينة او تسلم فى النهاية جوعا وعطشا. ولكن السويس الباسلة ضربت مثلا رائعا فى المقاومة، فمنعت العدو من دخولها تماما، وحولت دباباته على مشارفها الى ركام وحطام، وأجهضت كل خططه للتقدم، فكانت خير ظهير للجيش الثالث شرقا وغربا وأروع مثل للدفاع الشعبى. ولو لم تصمد السويس فلربما تغير مصير معركة غرب القناة، ولكنها بصمودها وضعت حدا لها وختمت على مصير مغامرة

العدو الغـادر، الذى غـادرها كـمـا جـاءها لصـا نذلا ومـخـربا من الوندال، قام بفك وسرقة مصانعها ومصافيها ثم بتدمير وحرق ما تبقى منها.

تلك قصة المغامرة، وتلك نهايتها، وكما هو، فإن هذا كله لم يكن الا وجودا انتهازيا، مخلخلا فطيرا «وهشا» كما قيل، مسطح بلا عمق، ومساحة أكثر منه كثافة. واكثر من هذا فإنه كان وجودا غير شرعي، انتهاكيا تم معظمه عن عمد وتخطيط بعد وقف اطلاق النار، فمن نحو ۷۰۰ كيلو متر مربع، او نحو ٤٧٥ ميلا مربعا ادعى العدو كاذبا سيطرته عليها، اى مساحة بطـول ٢٤ ميلا فى ٢٠ ميلا عرضا، لم يزد مدى وجوده قبل وقف اطلاق النار على ٧٠ كيلو مترا مربعا كما أعلنت السلطات المصرية. وفى تقدير آخر ان المساحة التى احتلها العدو قبل قرار وقف اطلاق النار، لا تزيد على ثلث المساحة التى احتلها فى النهاية.

وعلى أية حال فلم يكن للعدو وجود اطلاقا غرب القناة بالقطاع الشمالى ابتداء من طريق الاسماعيلية شمالا، ولا فى أى من مدن القناة الرئيسية، السويس، الاسماعيلية، وبورسعيد. والأهم من هذا وذاك جميعا ان وجود العدو على الضفة الغربية هو برمته وجود محصور مطوق داخل جسم الجيش الثالث بامتداده فى عمق الدلتا

غربا وجناحه على أرض سيناء شرقا. فقواتنا غرب القناة تحتل النطاق الدفاعي الثاني، تؤمن المنطقة جنوب الاسماعيلية، وتحاصر قوات العدو غرب القناة وشمال البحيرات المرة. أما قوات العدو المتسللة فقد أصبحت محصورة، كما يحدد كتاب جرب رمضان، بين ترعة الاسماعيلية شمالا. والنطاق الدفاعي الثاني غربا، ومنطقة جبال شبراويت والشهابى وجبل جنيفة وجبل القط جنوبا.

فعلى العكس إذن من مزاعم العدو، لم يكن الجيش الثالث هو المحاصر، المحاصر فقط كان جيبين داخل وجود العدو. مدينة السويس على الضفة الغربية ، وقوة كبريت على الضفة الشرقية، وكلتاهما صمدتا لحصار العدو، دوخته وأعطته درسا مذهلا في ضراوة المقاومة. وفيما عدا هذا فقد كان العدو هو المعزول والمطوق.

فنظرة واحدة الى خريطة توزيع قوات الجانبين على ضفتى القناة، كتلك التي نشرتها وكالات الأنباء مع اتفاق الفصل بين القوات، توضح على الفور أن الوجود العسكرى للعدو غرب القناة هو، أولا، جيب منفصل exclave عن جسمه الأساسي في سيناء الا من حبل سرى ضعيف لا يربطه به الا بمقدار ما يسهل قطعه عنه. ثم هو، ثانيا ، جيب محصور enclave داخل قبضة القوات المصرية التي تطوقه بعمق تام تطويقا دائريا من كل الجهات فيما عدا ثغرة

محدودة في الشرق. وفيما بين هاتين الحقيقتين فإن الوجود الاسرائيلي غرب القناة لم يكن يعدو ، على أحسن تقدير ، إسفينا محاصرا مطوقا تماما ومختنق العنق، يمكن خنقه بالإطباق عليه من الشمال والجنوب بواسطة الجيشين الثاني والثالث.

ومن الناحية الاستراتيجية يتضح على الفور أن هذا ليس الا مأزقا عسكريا، وضع غير سليم وغير متوازن استراتيجيا، يضع قوات العدو جميعا «رهينة» في يد القوات المصرية المحدقة كما عبر الجنرال بوفر، بل وكما اعترف بارليف العدو نفسه فيما بعد. او كما وضعها أحد القادة المصريين، لقد وضع العدو «رأسه في فم الأسد»، وأصبح معرضا لخطر استراتيجية «الأسنان في اللحم» اذا تجدد القتال كما وضعها مصدر آخر. ولكن خير ما يصور حقيقة موقف الجيب العدو هو، لاشك، ما صرح به الرئيس السادات نفسه لمجلة نيوزويك في حديث له في مارس ١٩٧٤ الى مندوبها دى بورجريف. «كان باستطاعتنا»، قال سيادته، «استئصال هذا الجيب في وقت قصير. فقد كانت صواريخنا مصوبة في وضع الاطلاق على كل واحدة من دباباتهم الأربعمائة التي كانت تتخفى بالليل في حفر بمواقع ثابتة.. وكان من الممكن في لحظات قلائل أن يفقدوا نحواً من نصف قواتهم المدرعة في الضفة الغربية حتى مع حساب الخطأ.

وكان لدينا أيضا ٨٠٠ من دباباتنا حول جيبهم هذا، مستعدة لسحق ما يتبقى من القوات الاسرائيلية». والواقـــع أنه كان قـــد بات معروفا لبعض الوقت ان قواتنا المصرية كانت تعد وتحتشد لهجوم ساحق وحاسم يصفي وجود العدو غرب القناة ويقلصه شرقها حتى أتى قرار وقف اطلاق النار فانقذ العدو منه. غير أن الرئيس عاد أخيرا فكشف عن قرار بتصفية الجـيب عسكريا بعد شـهرين من وقف النار، رضوخ العدو للانسحاب في الفصل بين القوات هو وحده الذى أنقذه منه هذه المرة.

وبالفعل، فمنذ توقف القتال شكليا أخذت القوات المصرية تشدد الضغط على جيب العدو وتحصره فيه بالنيران التى لا تنقطع بل تتصاعد كل يوم وبكل الأسلحة الخفيفة والثقيلة. ومن الواضح أن العدو كان يتعرض على الضفة الغربية لحرب استنزاف أشد وأقوى على الأرجح من تلك التى نعرض لها على الضفة الشرقية، لا تدعه في هدوء قط، ولا تسمح له بتثبيت مواقعه او انشاء دفاعات او تحصينات هندسية.. الخ.. وكما اعلنت هيئة الطوارىء الدولية مرارا، فإن القوات المصرية ظلت توسع مناطق وجودها وتضيق نطاق وجود العدو بانتظام وبإحكام وبعمق قدر أحيانا بالكيلومتر، وتدفع به دفعا نحو شاطىء القناة.

وعدا هذا فلم يكن للعدو الا طريق واحد عبر القناة، هو وخطوط امداداته وتموينه الطويلة الشاقة من خلفه كانوا تحت رحمة نيراننا وقواتنا. كذلك فإذا كان وجود العدو فى هذا النطاق قد مكنه من تدمير شبكة دفاعنا الجوى السابقة به، والتى كان يحاول أن يستفيد من قواعد منصاتها في استحكاماته الدفاعيـــة، فقد أقــمنا نحن شبكة جديدة الى الغرب أقوى وآكثف وأفتــك. هذا فضلا عن تكثيف قــواتنا في شرق الدلتا وتعزيزها بفرق جديدة متطورة السلاح، بحيث أصبحت نسبة القوات المصرية الى الاسرائيلية غرب القناة هى ٢ : ١، وبحيث أصبح العدو حقيقة ويقيـنا بين فكي كمــاشة ساحقة. وسنرى بعد قليل كيف آثر العدو الانسحاب طــائعا أو كارها لينجو بنفسه من هذا المأزق المـــيت، وليتحقق بالتـــالى ما قاله الجنــرال بوفر بصدق من أن «عمليـة شـــارون» كلها لم تكن عملية عسكرية بقـــدر ما كـانت «مظاهرة تليفزيونية».

الفصل الرابع

المعركة السورية الكبرى

لسوريا، في الاستراتيجية كما في السياسة، وضع خـاص وبارز بين العرب. فكما كانت دائما قمة من قمم العروبة الشامخة طوال العصور الاسلامية ورائدة القومية العربية الأولى بلا منازع في العصر الحديث، كانت الجبهة السورية في الصراع العربي - الاسرائيلي قلعة شاهقة، مجازيا كما هي حرفيا، عسكريا كما هي جغرافيا، وقوة ضاربة أساسية بالغة الصلابة والعنف، حفظت التوازن مع العدو على سائر الجبهات وفرضت عليه ضغوطا مضادة مزقته من الوجهة الاستراتيجية وشتته تشتيتا.

واذا كانت الجبهة السورية واحدة فقط من عدة جبهات محاربة في معركة ١٩٦٧، فانها في أكتوبر كانت الجبهة الوحيدة على الجانب الآسيوي، وذلك بعد أن وقفت الجبهة الأردنية المترامية من أسف خارج المعركة. فكانت هي مع مصر قطبي الصراع المسلح الذي اتخذ بذلك محورا أحاديا في هذه الجولة. وكما هو معروف، فقد كان من

الأوليات الأولـــيات فى اسـتراتيـجيـة العدو الإسرائيلى، الذى يقع جغرافيـا فى حـالة حـصـار أرضى كامل داخل الـوطن العربى، ألا يحارب قط فى جبهتين او اكثر فى وقت واحد. وعلى شبكة كثيفة كفء من طرق المواصلات الجيـدة، وعلى أسـاس من ضـآلة مـسـاحـتـه الجغرافية، كان العـدو يعتمد على، ويتعمد أن، ينفـرد بكل دولة عربية على حدة فى حرب سـريعة خاطفة ينثنى بعدها فورا الى دولة أخرى بضـربة عاجـلة ممـاثلة، وهكذا. ولقـد كان هــذا بالضـبط ما نجح العدو فى تحقيقه فى ١٩٦٧، وكان عاملا أساسيا من عوامل الهزيمة العربية.

العكس تماما ما حدث فى ١٩٧٣، ففى ظل سياسة قومية تحريرية موحدة، وتحت اسـتراتيجية عظمى مشتـركة، وبقيادة عسكرية واحدة، كان التنسيق كاملا ومطلقا بين الجبهتين السورية والمصرية، توقيتا وتكتيكا، استراتيجية وتخطيطا، تصعـيدا او تخفيفا.. الخ، بحيث كانت الجبهـتان فى واقـع الأمر كفكى كماشة وضعت العدو لأول مرة وبصورة جدية «كالبندقة فى الكسـارة» - هذا تعـبير بن جـوريون القـديم - ووضـعت المعركـة كلهـا «بين قـوسين» من الارادة العربية.

وبين هذين القوسين نمزق العدو وانشطرت قواته وتبددت فواه، وراح يلهث من الشمال الى الجنوب حينا وحينا آخر من الجنوب الى الشمال - دون جدوى مع ذلك. ولعلها لم تكن محض صدفة ان العدو اكتشف وعاني لأول مرة نقصا حادا فى أسطول سيارات النقل وشعر بعدم كفايته وحاجته الملحة الى شراء بضعة آلاف من الشاحنات بسرعة لسد هذا العجز الذى خلقته لاشك ثنائية الجبهة بالنسبة له.

ولقد كانت وحدة المعركة العربية على الجبهتين عاملا أساسيا بلا ريب فى انتصار العرب، وجاءت مصداقا مجددا وعمليا للقانون الخالد فى صراع الامة العربية مع أعدائها، ألا وهو أن مصير العرب معلق دائما ورهن أبدا بوحدة القوة السورية والمصرية. سوريا - مصر كانت باستمرار وحدة جيوستراتيجية واحدة، من وضع قدمه فى احداهما قادته تلقائياً الى الأخرى، وهما معا قلب الوطن العربى جغرافيا وطليعته تاريخيا، والذبذبات السياسية فى مصير العرب ارتفاعا او اتضاعا، تحريرا او استعمارا، مرتبطة بالعلاقات بينهما إن وحدة أو تفككا وإن تضامنا أو تباعدا. ولقد أثبتت معركة أكتوبر الجانب الموجب فى معامل الارتباط الكامن فى هذه العلاقة واستبعدت الجانب السالب. لقد أثبتت المعركة أن فى وحدة سوريا ومصر دائما نصر العرب العسكرى والسياسى.

هكذا كان دور الجبهة السورية التاريخى، وهكذا كان فى أكتوبر.
ولئن كانت هذه الجبهة أقصر بكثير جدا من الجبهة الاردنية المجاورة فى طول حدودها المشتبكة مع العدو، فإنها قد عوضت عن الطول بالكثافة، وعن الاتساع بالعمق، وعن القرب بالصلابة. فكما أثبتت سوريا نفسها فى الميدان قوة بالغة الضراوة قتالا وحربا، حشدت أمام العدو قوة عسكرية تعتبر بكل المقاييس بالغة الضخامة عددا وعُددا (أكثر من ربع مليون جندى، او نحو ٢٦٠ ألفا) وتعد بلا شك أعظم مما يمكن أن يتناسب مع حجم سوريا البشرى ومواردها الاقتصادية. ولكن سوريا، التى كانت قد نذرت نفسها وعاشت للمعركة فقط، كانت تخصص للقوات المسلحة نسبة من دخلها القومى ومن ميزانية الدولة تعد من أكبر ما خصصته الدول العربية جميعا، ولم تكن لتقل فى ذلك كثيرا عن العدو الذى يكرس كما هو معروف أعلى نسبة من الدخل القومى فى العالم كله للتسليح والجيش.

وعلى سبيل المثال، فقد قذفت سوريا فى المعركة بأعداد من الدبابات جاوزت فى بعض مراحلها الألف بكثير، قيل فى وقت ما ١٤٠٠، وأكثر منها من المدافع الثقيلة، عدا مئات الطائرات المتفوقة، فضلا عن قوة بشرية هائلة كثيفة. ويكفى للدلالة على ضخامة وكثافة

هذه القوة السـورية انها ناهزت فى خطوط معينة مثل ما قذفت به مصر تقريبا على جبهة سيناء فى الجنوب. كما أن ضراوة وحدة المعركة على الجبهة الشمالية لم تكن تقل أبدا عنها فى الجبهة الجنوبية. وفى وقت ما وصل عدد الدبابات المتصارعة من الجانبين الى نحو ٢٣٠٠ دبابة.

إلى جانب هذه القوة الأساسية، تدفقت على الجبهة السورية أيضا قوات مساعدة وتكميلية من الدول العربية الشقيقة. القوات العراقية خاصة ثم قوات سعودية وأردنية وآخرى مغربية. وقد ساهمت هذه القوات فى تدعيم طاقة سوريا القتالية مساهمة طيبة.

كذلك لابد أن نضيف هنا القوات الفلسطينية الفدائية التى لعبت دورا مهما على الجبهة السورية، مع وأمام وخلف القوات النظامية، فى قلب صفوف العدو وفى قلب أرضه المحتلة، وأصابته بضربات مؤثرة وكبدته خسائر جسيمة فى الأرواح والسلاح والمنشآت. وقد عبرت إحدى وكالات الأنباء الغربية عن دور الفدائيين الفلسطينيين هذا بقولها «فى الوقت الذى تدور فيه معارك كبيرة بين الاسرائيليين والعرب فى سيناء والجولان، تدور هنا - فى شمال اسرائيل - حرب أقل اثارة ولكنها مدمرة تماما».

وليس من شك فى أن الـدور الفلسطينى الباسل كان، على روعته وحجمه، يمكن أن يكـون أعظـم وأكبر، شـيئا كجبهة ثالثة بكل معنى الكلمة، لولا ما كان قد أصيب به من ضـربات غير شريفة ولا مشرفة فى مجـازر سبتمبر (أيلول) وما بعـدها، ولـولا أنه لم يتح له أن يمارس نشـاطه من جبهـته الطبيعـية والفعالة وهى الجبهة الأردنية.

وعلى الجملة فلقد قـدمت الجبهة السورية مسـرحا قتاليا لا يقل ثقلا وقـوة وعنفا وكذلك اقتدارا عما قدمت الجبهة المصرية. وقد أدارت سـوريا معركتها هناك بكفـاءة لا تـدانيها الا بسالتها وصمودها واصرارها على النصر وتدمير أكبر قدر من قوة العدو البشرية والسلاحية.. وفى ذلك كله نجحت إلى أبعد الحدود بحيث أصبحت الجولان مقبرة أخـرى للعـدو الاسرائيلى، مقبرة - على سبيل التغيير والتوسـعة على العدو! - ندية خضراء مشجرة معلقة، حيث كانت سـيناء مقبرة رملية فقط ، غبراء جرداء مسطحة.. لقد أعادت ملحمة المعركة السـورية أمجـاد الأمـوية فى أعظم صورها، وضعت المقاتل العربى فى موقعه الصحيح على القمة مسجلا بطولات اسطورية، وصححت كل أخطاء يونيو مثلما صححت مسار المستقبل.

المسرح الطبيعى

وهناك بطبيعة الحال اختلافات اساسية بين الجبهتين السورية والمصرية من حيث هما مسارح قتال. فالفارق جذرى فى الموقع الجغرافى من ناحية وفى بنيه المسرح الطبيعى من ناحية أخرى.

الموقع

فأما الموقع، فإن سوريا إذ تقع الى الشمال من أرض العدو دون فاصل يذكر من اللامعمور، كفاصل صحراء سيناء، لا تعرف فراغا بشريا او عمرانيا على جبهتها ولا منطقة عازلة تبعد خطوطها الأمامية عن خطوط العدو. الجبهة هناك متصلة وواحدة ومستمرة، وكلها باستثناءات محلية نسبيا من المعمور، وحتى مرتفعات الجولان وحوران وما حولهما هى من المعمور الخفيف على أقل تقدير. وغير بعيد الى الخلف من الجولان، بل وشيكا جدا، يبدأ المعمور السورى بكتلته الرئيسية وبكامل كثافته السكانية وازدحامه البشرى – دمشق نفسها لا تبعد الا ٧٠ كم عن أقرب نقطة فى حدود فلسطين المحتلة (لسان اسرائيل الحالى المتطاول فى أعالى ومنابع الأردن).

وعلى جانب العدو، ربما بدرجة أكبر، تتكدس الكثافة السكانية على الحدود وخلفها مباشرة تكدسا غير عادى. انها مرتفعات

الجليل، آغزر جهـات شمـال فلسطين مطرا ومن أكثفها انتاجا وزراعـة، ومن آشد قطاعـات إسـرائيل ازدحـامـا بمدن الحدود والمستعمرات من كيبوتز وموشاف، حشدت هنا أو حشرت اما بحكم الطبيعة الجغـرافية وغنـاها واما لأغراض التوسع والتهديد الاستعماري المخطط.

معني هذا علي الفور ان جبهة الصـدام وميدان القتال ليس فراغا بشريا خلوا من المدنيين علي آي من الجانبين، ولا هم بمنأى او بمنجى من الخطر او الضرب. ويكفي ان نتذكر هنا ان عشرات وعشرات من الالاف من السكان المدنيين قد تعرضوا للطرد من الجولان مرتين علي آيدي العدو، الضاري حقده، في كل حرب نشبت، أثناء وبعد حرب يـونيو ثم في أكتـوبر على السواء. وقد بلغ مجموع هؤلاء اللاجئين الآن ١٧٠ ألفـا. وهذا الخطر لا ينفصل بطبيعة الحال عن خريطة جغرافية السكان التي تتكدسْ فيها التجمعات البشـرية بدرجة او بأخرى علي جانبي الحدود السياسية.

ولا شك ان هذا الخطـر يصدق على العدو الاسـرائيلي بدرجة أكبر، اذ أنه يعاني بصفة خاصة جـدا من نقص حاد في القوة البشرية. ومن هنا قلقه بل رعبه التقليدي والمزمن من الجبهة السورية

بالذات. حيث ان نيرانها تستطيع أن تصل، حتى من وراء الخطوط العسكرية، الى دائرة واسعة من شمال إسرائيل. ومن هنا أيضا خوفه الدفين من أى تقدم مفاجىء او سريع للقوات السورية، الأمر الذى قد ينقل المعركة الى أعماق العدو المأهولة بكل ما يعنيه ذلك من خسائر مدمرة بشريا واقتصاديا.

. ان الخطر السورى الكامن هو، من وجهة نظر العدو، خطر مزدوج، عسكرى وبشرى، حيث الخطر المصرى فى الجنوب خطر عسكرى فقط بحكم بعد المعمور الاسرائيلى الشديد عن ميدان المعركة، وأطماع اسرائيل الاستعمارية فى الجولان هى استعمار استيطانى واستراتيجى. حيث هى فى سيناء استعمار استراتيجى اساسا فحسب؛ وقد عبر دايان عن هذه الحقيقة بلا مواربة أثناء المعركة، فى تصريحاته السرية التى لم تعلن إلا بعد شهور، حيث قال «رغم ان الجبهة المصرية كانت تسيطر على الأنباء، فإن الاستراتيجيين الاسرائيليين كانوا فى شغل أكثر بمعركة الجولان، على أساس ان نجاح سوريا هناك يهدد قلب الأراضى الاسرائيلية اكثر مما يهدده التقدم المصرى فى صحراء سيناء». كما اعترف بأن إسرائيل قصفت دمشق بالقنابل بعد أن أصابت الصواريخ السورية أرض - أرض المستعمرات الاسرائيلية.

ومن هنا وهناك جميعا فى النهاية نستطيع أن نفهم ذلك الحقد الضارى والروح الانتقامية الوحشية التى كان يضمرها العدو دائما لسوريا ولموقفها الصلب غير المتهاون، ثم توعده وارهابه لها علنا قبل المعركة واثناءها، وسنرى ترجمة أمينة، بقدر ما هى خسيسة، لهذه الروح العدوانية والشراسة الحيوانية فى كل مراحل المعركة تتمثل فى تركيزه عمدا على الأهداف المدنية والسكان المدنيين العزل من السلاح.

المسرح الجغرافى

هذا عن الموقع الجغرافى. أما عن المسرح الطبيعى او البيئة الجغرافية للجبهة السورية فتختلف كثيرا بطبيعة الحال عنها على الجبهة المصرية.

فأولا: ليس هناك ذلك الفاصل المائى المانع، القناة، يضع خطا أو خندقا صارما بين المعسكرين، ان أرض المعركة متصلة بلا انقطاع والمواجهة برية تصادمية مباشرة، وثانيا، فبدلا من البيئة الصحراوية الرملية والجافة فى سيناء، فإن ها هنا بيئة جبلية صخرية وعرة قاسية بقدر ما هى مرتفعة معلقة. وحتى المناخ يختلف: أمطار وبرودة وثلوج فى الشتاء تغطى قمم الجبال وتحد كثيرا جدا من امكانيات القتال فى ذلك الفصل.

وإذا أردنا أن نوجز الطبيعة الطبوغرافية للجبهة السورية فى ملامحها الاساسية فيمكن أن نقول ان التربة جرداء موحشة،. والأرض صخرية صلبة وحاده شديدة التضرس، اصولها بركانية أحيانا أو غالبا، بها طفوح بازلتية قاسية مدببة زجاجية حادة الزاويا، منها ما لا يصلح حتى للآليات الميكانيكية او ما يصلح للمدرعات بالكاد. والأودية الجبلية المنحوتة الأخاديد الغائرة ليست أفضل كثيرا نظرا لضيقها وشدة انحدار سفوحها.

باختصار، الجولان كمسرح طبيعي ميدان قاس معقد لا يسمح الا بمعركة شاقة مريرة بالغة القسوة. فمن ناحية، خطوط المواجهة متداخلة ومتشابكة في تعقيد شديد. ومن ناحية أخرى، لا مجال هنا للمناورة أو تكتيك الاكتساح والالتفاف الذى تصلح له بيئة سيناء المكشوفة الواسعة المفتوحة، الأنسب هنا هو تكتيك الكمون والتربص خلف المرتفعات ثم الانقضاض المباغت. فى جملة واحدة، فرص المناورة هنا أقل، وفرص المفاجأة أكثر.

وعلى الجملة فإن المسرح الطبيعي، وبالتالى أساليب القتال معه، أقرب نوعا فى الجبهة السورية الى ظروف الحرب فى أوروبا الغربية الباردة المطيرة، الغابية الجبلية، منها الى طبيعة حرب الصحراء المطلقة التى تمثلها جبهة سيناء خير تمثيل. والمعركة نفسها هنا

«رأسية» معلقة كما قد نقول، حيث هى «أفقية» مسطحة على جبهة القناة.

ونحن نستطيع ان نفهم هذه الحقائق أكثر، ومعناها الاستراتيجى أيضا، اذا تمثلنا فى أذهاننا خريطة المنطقة الجغرافية، فالقطاع الذى احتلته اسرائيل فى يونيو هو الركن الجنوبى الغربى الأقصى من رقعة سوريا السياسية. شكله العام مستطيل طولي تقريبا، مساحته ١١٥٠ كم مربعا، أبعاده القصوى نحو ٧٠ كم بالطول، ٢٥ كم بالعرض، وهذا الرقم الأخير يحدد بالتقريب امتداد جبهة المواجهة المباشرة مع العدو. بالطول، تمتد الرقعة المحتلة من الأجزاء الجنوبية من جبل الشيخ فى الشمال حتى مصب نهر اليرموك في نهر الأردن حيث تشترك الحدود السورية مع الأردن وفلسطين فى الجنوب. أما بالعرض فتمتد الرقعة من خط الحدود السياسية الذى يتبع قمم جبل الشيخ فى الشمال ثم وادى الأردن والحولة حتى طبرية فى الجنوب. هذا من ناحية الغرب. أما من الشرق فإن حدود الرقعة تتعرج فى تقوس عام، أقصى نقطة فيه شرقا هى الرفيد.

وعلى هذا الأساس فإن الجزء الأكبر من الرقعة تغلب عليه المرتفعات والارتفاع. ولكن الارتفاع يتغير ويتدرج على محورين. بالطول يزداد السطح ارتفاعا باطراد كلما اتجهنا شمالا، من سهول

وادي اليرموك فى اقصى الجنــوب الى آعلى مرتفعات وذرى جبل الشيخ فى آقصى السمال. آما بالعرض فإن المرتفعات تنحدر بشدة وبسرعة غربا نحو وادى الأردن الرئيسى، وشرقا بالتدريج الوئيد نحو مرتفعات حــوران وبادية الشـــام. وبهذا يتقوس سطح المرتفعات بصورة عامة ولكنها غير منتظمة او متناظرة ما بين الشرق والغرب. وفى المحصلة العامة ينقسم سطح المنطقة المحتــلة الى ثلاثة قطاعات هي من الشــمال الى الجنوب: جـبل الشــيخ، هضبــة الجـولان، ســهل اليرموك.

فأما قطاع جبل الشيخ فيشمل نحو ثلث سلسلة الجبل التى تعرف ايضـا بجبل حرمون والتي تسودها الصخور الجيرية. متوسط ارتفاع القطاع يتراوح بين ١٠٠٠، ١٥٠٠ متر، فى حين تصل القمم الى أكثر من ٢٨٠٠ متر أحيانا بحيث تغطى بالثلوج الدائمة طول العام فتبدو القمم بيضاء معممة كالشيخ - من ثم الاسم. والمسرح الطبيعى بهذا كله وعر للغاية يصعب اختراقه بالعرض من الغرب الى الشرق حيث يعد مانعا طبيعيا خطيرا.

ويتحكم الجبل بإرتفاعه فى كل الدائرة التــى حــوله بما فـيـها القطاع الأوسط.

هذا الأخير هو المرتفعات السورية بالمعنى المحدد والتى تسميها الصهيونية الجولان. هى تمثل الجزء الأكبر من الأرض السورية المحتلة، وتتوسطها مدينة القنيطرة، كبرى مدنها وعقدة مواصلاتها ومفرق طرقها الجبلية الاستراتيجبة، ترتكز الهضبة فى الشمال والشمال الغربى الى كتلة جبل الشيخ، ولكنها اقل ارتفاعا، بين ١٠٠٠، ٥٠٠ متر فى المتوسط، غير انها تندفع على سطحها سلاسل جبال وتلال ومرتفعات أعلى (كتل الفرس مثلا)\كما تختطها الأودية بالطول والعرض. أرض الهضبة حمراء رمادية، تربتها بركانية غطت قاعدتها الجيرية القديمة الطفوح البازلتية الداكسنة وخطوط المخاريط البركانية الحديثة التى تنتشر على سطح الهضبة من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى عامة.

وعموما ترتفع الهضبة نحو ٣٠٠ متر فوق مستوى منخفضات وادى الأردن الأعلى فى فلسطين المحتلة، ومن ثم تتحكم فى كل مستعمرات العدو ومواقعه في وادي الحولة والأردن وطبرية. ومن ناحية الحركة فإن الأرض صالحة على العموم للعمليات الميكانيكية، ولكنها تظل قاسية للغاية. والسفوح والمنحدرات الغربية للهضبة والتى تطل على وادى الأردن هى بالتحديد اصلح طريق للحركة بين الشمال والجنوب. وعليها بالفعل يمتد المحور الشريانى دمشق – القنيطرة – جسر بنات يعقوب.

أحيرا لا يبقى الا قطاع من السهول المتموجة فى الجنوب والجنوب الشرقى من الأرض اسورية المحتلة، تليه فى الشمال، تتدرج باعتدال نحو وادى اليرموك فى الجنوب ووادى الأردن فى الغرب. والمنطقة مفتوحة بسهولة للحركة والعمليات الحربية ولا تمثل مشكلة طبيعية او عسكرية خاصة.

واذا كانت تلك هى القطاعات الطبيعية لأرض الجولان، فإنها تنعكس مباشرة على قطاعاتها العسكرية، فرغم ان الجولان رقعة مستطيلة تمتد من الشمال الى الجنوب، ورغم أن الجانبين المتحاربين تقع أحدهما الى الشمال والآخر الى الجنوب. فلا يفهم المنطقة تماما كمسرح للعمليات الحربية من ينظر الى معركتها كمجابهة بين شمال وجنوب بالضبط. فلبست المعركة اندفاعا مستقيما كالسهم المرسل ينطلق من اقصى الشمال او العكس، ولكن المجابهة أدنى فى الواقع ان تكون بين شرق وغرب. وهى إلى ذلك تنقسم الى ثلاثة قطاعات بالعرض لكل منها محور عرضى، وهى فى ذلك كله تشبه فى معنى ما مسرح سيناء الغربية.

ذلك أن جبهة الهجوم السورية تتمثل هنا فى الحدود الشرقية لهضبة الجولان والأجزاء الغربية من هضبة حوران، فهذا هو المنطلق الطبيعى وقاعدة الانطلاق والوثوب المنطقية لاسترداد الجولان.

والهجوم السورى يبدأ أساسا من الشرق على طول هذه الجبهة الطولية. وقد كان على طول هذه الجبهة بالفعل، وبامتداد تتمتها الثانوية العرضية. أن أقام العدو خطا من الاستحكامات الطبيعية والهندسية الكثيفة التى تعتمد إلى أقصى حد على الظاهرات الطبوغرافية من مرتفعات ومنخفضات وتلال وأودية ، وعرف فى مجموعة «بخط ألون». وقد كان من أبرز عناصر هذا الخط خندق صناعى من الأسمنت المسلح بعمق ٤ أمتار وعرض ٦ أمتار وبطول ٣٠ كم على طول جبهة المواجهة ، وقد حفر هذا الأخدود الغائر، الذى رصع بالألغام الكثيفة، لكى يمنع المدرعات والآليات السورية من الاقتحام. ولكن القوات السورية عبرته، كما سنرى، على جسور حديدية رغم أنف العدو ورغم نيرانه.

وإذا كان الشرق هو المصدر الطبيعى للهجوم السورى، فإن هدفه بعد ذلك هو التقدم بعرض الجولان على ثلاثة محاور عرضية رئيسية تحاول فيما بينها ان تمزق قوات العدو الى عدة جيوب محاصرة لتعزلها عن بعضها البعض وتضربها على حدة. ويمكن أن ينشعب كل محور منها بعد ذلك فى داخل الهضبة الى شعبتين شمالا وجنوبا ليتصل بعضها ببعض امعانا فى تفتيت العدو وتطويقه. فإذا ما قاوم او تقهقر فانه يدفع غربا إلى السفوح الغربية المنحدرة حيث الظروف

الجغرافية غير ملائمة للعمل. وهذا أيضا هو الذى يفسر ان المعركة كانت تدور فى جميع مراحلها علي القطاعات الثلاثة فى وقت واحد مهما تغيرت مصايرها.

هكذا تنقسم ارض المعركة الى ثلاثة قطاعات عرضية يتوسط كلا منها تقريبا محوره العرضى الأساسى. غير أننا لابد أن نذكر أولا أن القطاعين والمحورين الشمالى والجنوبى يعتبران ثانويين نسبيا، أما القطاع الأوسط ومحوره فهما الأهم على الاطلاق، فالقطاع الشمالى أقلها مساحة، ويتركز على محور مجدل شمس - بانياس. والقطاع الأوسط أوسع مساحة، ومحوره يعد العمود الفقرى للتقدم والحركة في المعركة كلها. ويمتد هذا المحور من الصمدية الى القنيطرة الى حوالى منطقة سهل الحولة عموما (بحيرة الحولة سابقا) اما القطاع الجنوبى فهو أكبرها مساحة، ومحوره يمتد من منطقة الرفيد والجواخدار في الشرق الى منطقة بحيرة طبرية في الغرب بعامة، والى فيق والحمة بخاصة.

سلبيات يونيو

تلك إذن صورة لفظية لمنطقة المرتفعات السورية، نستطيع أن نرى منها انه كان لسوريا تقليديا ميزة استراتيجية وعسكرية مهمة جدا على العدو الاسرائيلى، الا انها من أسف ضاعت فى يونيو. تلك

نقصد ميزة الارتفاع المسيطر والطبوغرافيا الحاكمة. فالمرتفعات السورية كتلة عالية تشرف من علٍ على منابع الأردن وسهول الحولة وطبرية وامتداداتها وكذلك على منحدرات هوامش الجليل الأعلى فى شمال اسرائيل. وبهذا تبدو المرتفعات السورية كهضبة شبه مائدية مشرفة، كالقلعة الشماء، سفوحها الوعرة في الجنوب والغرب تميل كالمنحدر التقليدى للقلاع glacis ، ومن سطحها تستطيع ان تكشف كل السهل اسفلها فى داخل اسرائيل وتسيطر على مواقعه ومستعمراته بحيث تقع هذه مباشرة تحت نيرانها ومدفعيتها البعيدة المدى.

ولقد كانت اسرائيل تشكو دائما بمرارة من وضعها الطبوغرافى غير الملائم بالنسبة للمرتفعات السورية، وكانت لا تخفى قط أطماعها ونواياها فى اغتصابها والسيطرة عليها عند أول فرصة، وقد واتتها هذه الفرصة من أسف فى يونيو، حين احتلت قطاع الجولان بأكمله حتى سفوح جبال لبنان الداخلية وجبل الشيخ. وبذلك تحسن موقفها الاستراتيجي كثيرا جدا. من ناحية، لأن مرتفعات الجولان توفر للعدو الأمن التام فى الجليل الأعلى والأسفل وغور الأردن، ومن ناحية، لأنها خط دفاع طبيعي عميق وعريض ضد أى هجوم سورى يأتى من الشمال. ومن ناحية ثالثة، لأنها فى الوقت

نفسه تقدم قاعدة انقضاض مثالية للهجوم او للهجوم المضاد على سوريا. هذا فضلا عن أنها باتصالها المباشر بحدود الأردن الشمالية تعطي العدو فرصة فتح جبهة ثانية مع الأردن فى حالة دخوله الحرب.

على أن سوريا لحسن الحظ لم تفقد كل ميزتها الطبوغرافية القديمة، فقد ظلت محتفظة بمناطق جبلية وهضبية مرتفعة خارج الجولان، سواء في كتلة حوران شرقا أو فى بقية جبل الشيخ شمالا أو في سلسلة لبنان الداخلية شمالا وغربا. وبهذا فقد كان الطرفان المتواجهان يقفان على قدم المساواة طبوغرافيا من حيث الارتفاع والوضع الاستراتيجي المشرف.

ولقد كان فى وجه هذا الوضع المتكافيء بالدقة أن لجأت اسرائيل بخبث الى اقامة مرصد محصن كنقطة مراقبة شاملة على قمة من أعلى قمم جبل الشيخ لتكشف منها بقية المرتفعات السورية وكل مواقع القوات السورية في جبهة المواجهة. وقد كان هذا المرصد - الحصن مبنيا على غرار دشم خط بارليف، إلا أنه معلق فى خط السماء على أعلى الجبل، فقد كان قلعة حجرية مسلحة متعددة الطوابق، ولكنها بكاملها مدفونة تحت الأرض فى باطن الصخر، ومدعمة بأسقف وأبواب من الصلب يستحيل تحطميها حتى بالقذائف

المباشرة الثقيلة. وسنرى القيمة الاستراتيجية والدور العسكرى الذى لعبه هذا المرصد فى المعركة.

ومن الناحية الأخرى، فإن إسرائيل اذا كانت قد امتلكت منذ يونيو ميزة الموقع المرتفع كسوريا او شاركتها هذه الميزة، فإن هذه المشاركة لم تكن مطلقة او كاملة، فلقد أصبح على خطوط مواصلاتها وامداداتها ، إلتى طالت كثيرا وضارت معرضة اكثر، ان تصعد من السهل في الجنوب الى هضبة الجولان وهى أتية وان تهبط من الهضبة الى السهل وهى ذاهبة. وهذه الحركة الصاعدة الهابطة عبء شاق جسميا وميكانيكيا بطبيعة الحال. ولم يكن هكذا وضع خطوط المواصلات السورية، التى تنساب باطراد ورفق نسبيا ما بين مرتفعات الجنوب ومنطقة التلال والمرتفعات المحيطة بغوطة دمشق والمؤدية اليها، وهى المنطقة التى تتعاقب عليها ثلاثة خطوط دفاعية قوية تمثل الدرع الصلبة للعاصمة وتناظر فى صورة مضغوطة الخطوط الدفاعية الثلاثة ما بين القناة والقاهرة.

مراحل المعركة

تلك هى الفروق الاساسية بين مسرح المعركة فى كل من الجولان وسيناء . وقد انعكست هذه الفروق بطبيعة الحال على الخطط والعمليات الحربية فى المعركة. ففيما عدا الاستحكامات الطبيعية

والهندسية الكثيفة على الجانبين، لم تكن هنا على الجولان مشكلة عبور مانى وكان التقدم الأرضى ممكنا منذ ساعة الصفر فور اجتياز الخندق. ومن الناحية الآخرى فقد كانت جبهة الجولان تشبه جبهة سيناء من حيث ان عليها هى الأخرى شبكة من صواريخ الدفاع الجوى تعد أيضا من أكثف وأكفأ ما على الأرض من نوعها، تعززها كذلك غابة من المدفعية الثقيلة شبيهة بشقيقتها على الجبهة المصرية نوعا وكثافة وقوة. ولعلنا نضيف كذلك ذلك القدر من التشابه بين الجبهتين من حيث الامتداد المستطيل والانقسام إلى ثلاثة قطاعات ومحاور عرضية.

وفيما بين هذه الاختلافات الطبوغرافية والمشابهات العسكرية، جاءت المعركة السورية شبيهة بالمعركة المصرية الى حد أو أخر. بل إلى حد بعيد، فى كثير من خططها وخطوطها وخطواتها، وأخذت مراحل وتطورات مناظرة الى حد معين سواء فى حركة المد والجزر الميدانية او فى الانجازات التدميرية أو فى النتائج الاقليمية. وفيها أيضا تعددت أسلحة المعركة ما بين البر والبحر والجو، كما كانت مجالا لبعض من أضخم وأعتى معارك الدبابات والمدرعات فى العصر الحديث، لا تقل هى الأخرى عن أكبر ما عرفت الحرب العالمية الثانية، قذف فيها بأعداد تعادل ان لم ترجح أحيانا ما قذف

به فى سيناء من دبابات فى بعض المراحل. فالمقدر أن سوريا هاجمت فى وقت ما أثناء المعركة بنحو ١٤٠٠ دبابة، عدا مئات الدبابات العراقية التى شاركت فى القتال. أما المعركة الجوية فلم تكن أقل ضراوة بالتأكيد، وفيها أيضا لعبت الصواريخ المضادة للطائرات دورا حاسما ومهلكا لطيران العدو. وأخيرا قامت البحرية كما فى المياه المصرية بدور أكثر من جانبى، نشط وفعال، على طول امتداد السواحل والموانىء السورية.

وعموما يمكن أن نقسم المعركة بحسب تطوراتها وملامحها ونتائجها الى أربع مراحل، تكاد تتعاصر ذبذباتها وارتفاعاتها وانخفاضاتها مع ما كان يحدث على الجبهة المصرية. وسنرى أن التدخل الأمريكى هو القاسم المشترك بين هذه التطورات المتوازية والضابط الكامن خلفها دورا وتوقيتا ومصيرا. وهذه المراحل هى: الأولى، مرحلة الاكتساح السورى (٦ - ١٠ أكتوبر)، الثانية، مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد (١١ - ١٤)، الثالثة، مرحلة المد السورى الثانى (١٤ - ١٦ أكتوبر)، الرابعة، مرحلة التوازن النسبى (١٧ - ٢٢ أكتوبر).

مرحلة الاكتساح السورى

بدأت مقدمات المعركة، كما على الجبهة المصرية، بعدوان

اسرائيلي جوى وبرى مدبر على بعض المواقع السورية. وفى ساعة الصفر نفسها، الثانية بعد ظهر السادس من أكتوبر، بدأ الهجوم السورى الجوابى، ويلاحظ أن هذا التوقيت اختير لتوحيد بدء المعركة فى الجبهتين السورية والمصرية لتحقيق المفاجأة الكاملة للعدو من كل جانب. فأنسب توقيت للجبهة السورية حيث لا مانع مائيا هو أول ضوء فى الفجر. وهذا على العكس من الجبهة المصرية حيث يستدعى عبور القناة العمل فى ظلام الليل وبالتالى البدء مع آخر ضوء فى المساء.

فى تلك اللحظة التاريخية انطلقت ١٠٠ طائرة قاذفة مقاتلة لتعطى العدو ضربة جوية خاطفة وقاصمة مكافئة لنظيرتها على الجبهة المصرية. ومعها كذلك بالضبط انطلقت المدفعية السورية الثقيلة فى ضربة هائلة مكثفة - ١٠٠٠ مدفع، كما على القناة - تدك مواقع العدو فى أعماقه وأنساقه المختلفة. وكما حدث فى الجنوب، فقد العدو كل توازنه: لقد حققت سوريا المفاجأة وانتزعت المبادأة ووضعت العدو على الدفاع وألقت به فى دوامة من الاضطراب والارتباك البادى.

وفى حماية مظلة النيران الرهيبة تلك، وفى ظل اهتزاز العدو، زحفت جيوش المدرعات والدبابات السورية بقوة عارمة وبأعداد لم

تعرفها الجبهة من قبل، وراحت تكتسح مواقــع العدو واستحكاماته، كما قصفت كل مستعمراته في الهضبة. وكما كتب تشرشل الحفيد «هجم السوريون بقوة أمامية قدرها ١٢٠٠ دبابة، وهو أكثر من ضعف قوة المدرعات عند روميل في العلمين وأكبر من ذلك قوة». وقد بدأ الزحف من الشرق على طول الجبهة بكاملها وفي مواجهة الجانب الشــرقى من الجــولان برمتــهــا، في حين أرسلت بعض القوات المحمولة جوا لإسقاطها على المواقع الخلفية على الجانب الغربى من الجولان.

ولقد كان مرصد جبل الشـيخ بالذات من أول أهداف الهجوم السورى المنقض. فبواسطة القوات المحمولة جوا، قام فرسان الجو «والمغاوير» (الكوماندوز) السوريون باقتحام الحصن رأسيا وأفقيا، جسديا وتلاحميا، بحيث تحولت القلعة المدرعة الى مصيدة موت لحامية العدو، تماما على نحو ما حدث لدشم خط بارليف فى الجنوب. وهكذا سقط المرصد فى الساعات الأولى من اليوم الأول، وحرم العدو من نقطة مراقبة خطرة.

أما على الأرض، فقد تقدم الزحف البرى من الشرق على المحاور الثلاثة، ونجحت كلها فى اختراق قــوات العــدو وتحصيناته منذ البداية. وتقدمت القوات الســورية المدرعة على كل محور لينشعب كل

منها الى شعبتين نحو الشمال والجنوب، وتم الاتصال بين كل هذه الشعب بحيث تمزق العدو الى جيوب وتم تطويق منطقة القنيطرة بصفة خاصة بفكي كماشة من الشمال والجنوب. وفى الجنوب كانت الاندفاعة السورية قوية بنوع خاص، وكان خطرها شديدا لشدة كثافتها ولقربها من حدود العدو. وقد قال الاسرائيليون ان السوريين كانوا يفوقونهم عددا فى هذه النقطة بنسبة عشرة الى واحد. وقطع السوريون طريق الامدادات الاسرائيلي الرئيسى بالقرب من جسر بنات يعقوب وهددوا أعالي وادى الأردن. وقد فشل العدو بطيرانه ومدرعاته فى ايقاف الزحف، وتكسرت كل هجماته المضادة. وفى اليوم الرابع وحوالى نهاية هذه المرحلة كان قد تم تحرير الجزء الأكبر من الجولان بالفعل.

والواقع أنه منذ بدأ الزحف السورى العظيم وضحت على الفور، وبشكل وحشي، الطبيعة المكشوفة العارية للمواقع الاسرائيلية، كما كتبت الصنداى تايمز. وكما تضيف الصحيفة نفسها، لم تتوقف موجة الزحف السورية الأولى للاستيلاء على المراكز الاسرائيلية القوية فى هذه المواقع، وانما تجاوزتها كالدوامة الكاسحة. وتلك كانت استراتيجية الاقتراب غير المباشر، اختراقا وتطويقا. وفى هذا علق قائد مدرعات اسرائيلى «انهم لم يبقوا على الطرق. لقد ظلوا

يتدفقون الى الداخل كالماء، يشقون طريقهم فى أى مكان يستطيعون. أما التصدى للمراكز الاسرائيلية القوية فكان مهمة الموجة الثانية» .
وبهذا أصبحت الهضبة كلها مسرحا مختلطا اشبه بعالم الكوابيس تدور فيه معارك برية منفردة يائسة وقتال وحشى يدا بيد، فى حين كانت القوات الاسرائيلية تتراجع شبرا شبرا.

وبصفة عامة كانت صورة الموقف الأساسى خلال أيام هذه المرحلة الأربعة او الخمسة هى كالآتى: القوات السورية المدرعة على الهجوم، معها المبادأة والمبادرة، وفى زحف مستمر عنيد على طول القطاع الشمالى من مرتفعات الجولان، العدو، الذى يحتاج الى ٢٤ ساعة فى تسلق الطريق الجبلى الملتوى من روش بيناه فى الجليل عبر وادى الأردن إلى هضبة الجولان، يتقهقر بغير انتظام رغم مقاومة مستميتة تكسر له خلالها هجومان مضادان رئيسيان قام بهما بكل حشد وعنف. وفى نهاية المرحلة كان جبل الشيخ ومعظم القطاع الشمالي وجزء كبير من القطاع الأوسط قد تم تحريرها ووصلت القوات السورية إلى مشارف القنيطرة عاصمة الجولان الاقليمية والاستراتيجية.

بل لقد اعترفت اسرائيل ان طلائع المدرعات السورية توغلت فى وقت ما فى نهاية هذه المرحلة فى عمق شمال اسرائيل ووصلت الى

رأس منحدر وادى نهر الأردن، وأوشكت أن تصل الى حافة التلال المطلة على الجليل، الى مسافة تتيح شطر القوات الاسرائيلية فى الشمال الى نصفين، ولو قد كان هناك اسفين متقدم آخر ليهبط الى الضفة الأخرى من النهر وليكونا معا فكى كماشة لاستطاعا اقتطاع شريحة من أطراف اسرائيل' لسانها الشمالى الناتىء. «كقضمة التفاحة»، كما وضعها أحد المعلقين الغربيين (چيرار ليچران).

وفى وجه هذا التفوق السورى المطرد على الأرض، وأمام الخسائر المخيفة التى منى بها العدو فى المدرعات والقوات الميكانيكية، وضع هذا ثقله فى سلاحه الجوى. والحقيقة ان ضراوة وكثافة الهجوم الجوى العدو كانت تتناسب تناسبا طرديا مع هزائمه وخسائره على المسرح الارضى. فباستثناء الليل، لم تنقطع غاراته الجوية المكثفة، على المواقع والقوات السورية، أحيانا بمئات الطائرات، وبصـــورة قيل «ڤيتنامية». غير انه كان كلما تصاعد بهجماته الجوية، تصاعدت خسائره من الطائرات بصورة مخيفة تماما.

فلقد تصدى له الطيران السورى بكفاءة نادرة من ناحية، وشبكة صواريخ الدفاع الجوى من ناحية أخرى، تلك التى تحولت الى مصيدة قاتلة لطيران العدو. وأصبح مشهدا يوميا روتينيا مألوفا فى سماء المدن والجبهة السورية لقاء الصاروخ بالطائرة فيما وصفه البعض سخرية

«بقبلة الموت». اذ كانت طائرات العدو تتساقط كالفراشات، وطياروها يصادون بالعشرات. «يبدو أن عملية القبض على الطيارين الاسرائيليين- هكذا كتبت إحدى وكالات الانباء - أصبحت هواية عند الدمشقيين الذين امسكوا بعشرات منهم حتى الان»!، او كما عبر مراسل أخر ساخرا «لأول مرة فى التاريخ يجد الطيار المعادي الذى يهبط بالمظلة جميع أهل البلد فى استقباله!» وهكذا تحولت الحرب الجوية الى عملية استنزاف رهيبة لسلاح طيران العدو، الذى فشل بذلك فى شل الزحف السورى المتقدم على الجبهة.

هنا لجأ العدو الى فتح جبهة جانبية اخرى تستهدف اساسا تحويل ثقل القوات السورية بعيدا عن الجبهة فى الجولان، دون جدوى مع ذلك، فتكررت غاراته البحرية على موانىء وسواحل سوريا، خاصة اللاذقية وطرطوس ثم بانياس.. غير أن القوات البحرية والدفاع الساحلى السورى تصدوا بنجاح تام لهذه الهجمات وأغرقوا كثيرا من وحدات العدو، وحين واجه العدو الفشل على هذا النحو برا ثم جوا ثم بحرا، عاد فتحول بسلاحه الجوى إلى ضرب الاهداف المدنية والاقتصادية ، الأحياء السكنية والمدنيين فى دمشق وحمص وغيرها ، مصافى البترول والمنشآت الصناعية فى حمص وطرطوس وبانياس .. إلخ .. وفى هذه الهجمات الوحشية غير القانونية ، التى كانت وحدها دليلا ساطعا

على عجز العدو فى ميدان القتال الحقيقى، حدثت خسائر جسيمة فى الارواح والمنشآت.

ولكن الطيران السورى رد عليها بقصف منشآت بترول العدو فى حيفا وغير ذلك من الاهداف الاستراتيجية والحساسة فى قلب العدو وعمقه بشمال اسرائيل، كذلك انصب القصف المدفعى الثقيل الكثيف والقصف الصاروخى البعيد المدى (صواريخ فروج أرض - أرض) على المستعمرات الاسرائيلية فى سهل الحولة والجليل ومرج ابن عامر. وقد اضطر العدو الى إخلاء الكثير من هذه المستعمرات وتهجير سكانها - وبعض هذه المستعمرات يقع على بعد ٢٢ ميلا من اقرب نقطة سورية من خط وقف اطلاق النار السابق ، كما اعلنت اسرائيل فى شكاواها العديدة ، والمخادعة ، للأمم المتحدة، بل والى «مسافة ٥٠ ميلا فى عمق اسرائيل» كما كتب تشرشل الحفيد.

مرحلة الهجوم الاسرائيلى المضاد

منذ اليوم الخامس او السادس تبدأ مرحلة جديدة فى المعركة. فقد حشد العدو كل احتياطيه الاستراتيجى من المدرعات تعززها قواته الجوية، وقذف بها فى هجوم مضاد محموم ألقى فيه بكل ثقله وحقده معا، بأمل ان يفرغ من الجبهة السورية ليتفرغ للجبهة المصرية التى زاد حرجه فيها إلى اقصى حد، وقد حقق العدو بعض النجاح بالفعل ،

والمهم احيانا على المحاور الثلاثة ، واضطرت القوات العربية للاسف الى التراجع الى الشرق.

والثابت ان التقدم السورى فى المرحلة السابقة كان أسرع وأعمق من المرسوم بحيث ابتعد كثيرا عن نطاق حماية شبكة صواريخه الجوية من ناحية وبحيث لم يتسع له الوقت ليحصن مواقعه الجديدة من ناحية اخرى.

وقد ركز العدو الاسرائيلى على المحورين الشمالي والاوسط بصفة خاصة لأنهما اقرب الى تهديد دمشق نفسها كما يرتكز الاول منهما على جبل الشيخ ، أما المحور الجنوبى فطويل وبعيد عن طريق دمشق كما يعرض العدو لهجوم مضاد شامل من مرتفعات حوران .. وحين وجد العدو انه قد حقق نجاحا كبيرا فى القطاع الشمالى، قرر أن يستثمر نصره الى اقصى حد.

فحشد كل قواته المتاحة على محور القنيطرة ـ سعسع، الذى يقع على الطريق إلى دمشق ، لكى يقوم بهجوم شامل وساحق.

ورغم أنه واصل تقدمه وتجاوز خطوط وقف اطلاق النار في قطاعها الشمالي ووصل قرب سعسع، إلا ان العدو كان قد لجأ إلى الحرب النفسية يؤمن بها هجومه، فأطلق على العالم سيلا من الدعاية الكاذبة عن تقدم وهمى إلى دمشق، وصدرت تصريحات قادته بأنهم فى

الطريق اليها، على بعد اميال منها حدودها أولا بأول ، وأنهم سيدخلونها في ٢٤ ساعة.. الخ... وبطبيعة الحال لم يتحقق شيء من هذا ولا الفيحاء سقطت.

وانكشفت اكذوبة الدعاية الاسرائيلية للعالم الذى عدها دعابة سخيفة وكانت موضعا لتندره.

ذلك أن القوات السورية، التي وصلت القوات العراقية ثم الاردنية لمساندتها ، قد صمدت بكل عناد وبسالة للهجوم المعادى وتصدت له بإصرار مخيف، وقد لعبت مشاة الصواريخ في هذا الصمود دورا كبيرا، إذ كانت تتقدم ليلا وتقترب من دبابات العدو ومدرعاته وتدمرها بالجملة، كذلك أدت القوات المدرعة السورية مع العراقية دورا خطيرا في تكسير الزحف وايقافه ثم ارغامه على التراجع، بحيث توقفت قوة العدو عن الحركة تماما في يوم ١٤ أكتوبر. وكان هذا هو الموقف الذى وصفه كيسينجر بأنه «عائم».

مرحلة المد السورى الثانى

ومن هذه النقطة بدأت مرحلة جديدة في المعركة، فمنذ اليوم الثامن واصلت القوات السورية التقدم جنوبا فى القطاع الشمالى فى وجه هجوم مضاد جديد للعدو، واستمر الصدام سجالا ثلاثة أيام ، حين أعلن الرئيس السورى فى اليوم العاشر ان القوات السورية تمكنت من

تحرير مساحات كبيرة من الأرض المحتلة فى القطاعين الأوسط والجنوبى، فى حين ان مدفعيتها «تقصف الآن مواقع العدو فى سهل الحولة وشمال طبرية» ، ولعل هذه النقطة تحدد ذروة النصر والتقدم السورى.

وفى هذه الجولة دارت معركة من أكبر معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، اشترك فيها من الجانبين نحو ٢٠٠٠ دبابة، تغطيها سحابة كثيفة من الطيران وعلى مدى بضعة ايام اتصلت المعركة التى تكبد العدو فيها خسائر فادحة على الأرض وفى الجو.. وعاد الزحف السورى من جديد نحو الجنوب وبدأ التقدم فوق اجزاء من الأرض المحررة للمرة الثانية بعد أن تم طرد العدو منها للمرة الثانية ايضا. فعلى محور القنيطرة ـ سعسع تم دفع العدو الى منتصف المسافة بين سعسع وخطوط ١٩٦٧. وفى اقصى الشرق تم طرد العدو من تل الفرس ومنطقة القنيطرة ثم من هامش كبير من القطاع الجنوبى. وبذلك تمت دورة شبه كاملة نوعا من المد والجزر ثم المد على جزء كبير من الهضبة انتهت الى حد ما لصالح سوريا.

المرحلة الاخيرة

ومنذ اليوم الحادى عشر من القتال، وتماما كما على الجبهة المصرية، تبدأ مرحلة جديدة واخيرة، افتتحها العدو بهجوم مضاد

شرس وعنيف ، شنت سوريا فى وجهه هجوما عريضا وعنيدا حشدت له. كما أعلنت اسرائيل نفسها، «دبابات اكثر من الدبابات التى استخدمتها ألمانيا ضد الروسيا فى الحرب الثانية»، وقد استمرت هذه المعركة بلا هوادة لعدة أيام متصلة، حقق فيها العدو بعض التقدم شمالا، لكنه تكبد خسائر فاحشة فى قواته وعتاده . وقد استطاع العدو، على محورين للتقدم شرق الجولان وغربها، أن يحقق «ثغرة» فى خطوط القوات السورية كتلك التى أحدثها غرب القناة على الجبهة المصرية ـ ومنذ اليوم الخامس عشر والسادس عشر كان القتال مستميتا حول جبل الشيخ مرة اخرى فى الشمال، وبهذا كانت هضبة الجولان، كلها او بعضها ، قد تم اكتساحها وتبادلها أو استردادها مرتين من كلا الجانبين خلال المعركة، أى خضعت لعملية مد وجزر مزدوجة.

غير ان الموقف العام بعد هذا تجمد نوعا واتخذ القتال صفة محلية وتكتيكية غالبا، بهدف تحسين المواقع المحلية أو القيام بهجمات محدودة أو الرد عليها ردا محدودا. ورغم استمرار المساجلات بالمدفعية والصواريخ فقد تحول القتال الى حرب استنزاف برية وجوية يتبادل فيها الجانبان الضربات المحدودة على التعاقب، وكان من الواضح ان الجانبين قد بلغا حد الارهاق والاعياء، وايضا حد التوازن ، فدخلا

فى دور من «تناطح الكباش» كما وصفته «الشرارة» (دار الصياد، بيروت).

وخلف هذا المسرح، كانت القوات العربية تعد لهجوم كبير حاسم، ولكن قرار وقف اطلاق النار كان اسبق، وهنا، كما على الجبهة المصرية، كان اثر الامداد الامريكى الخاطف قد بدأ يظهر على تطورات المعركة، وتحول المد لصالح العدو بصفة عامة وان كانت خسائره في تصاعد جنوني.

وكما على الجبهة المصرية ايضا، استغل العدو بخسة فرصة وقف اطلاق النار ليوسع رقعة الأرض التى يحتلها. فدفع بكل قواته ليختلس أكبر نصر ممكن فى آخر لحظة متاحة، والمفهوم انه فى نهاية القتال تماما كان قد استعاد منطقة الجولان ووصل الى خطوط وقف اطلاق النار كما كانت قبل ٦ أكتوبر ثم تجاوزها بنحو ١٠ كم على امتداد القطاع الشمالى، مثلما فعل على الجبهة المصرية غرب قناة السويس، وكما على الجبهة المصرية، فقد كانت سوريا تخطط لهجوم ساحق وشامل تكسح به العدو نهائيا حين أتى قرار وقف اطلاق النار ليترك الموقف على هذه الصورة، وإذا كانت عملية الفصل بين القوات فى الجولان لم تتحقق حتى الآن وتبدو صعبة شاقة بسبب أطماع العدو، فقد فرضت سوريا عليه حرب استنزاف ضارية بكل الاسلحة الثقيلة سوف يكون لها ما بعدها بلا ريب.

على أننا ينبغى ان نلاحظ ان العدو اذا كان قد نجح فى تجاوز خطوط ١٩٦٧ وتوسع فى جيب محدود جديد عبرها، فإن السوريين ايضا وفى الجانب المقابل جغرافيا قد نجحوا فى التوسع جنوبا غربا ووصلوا الى خطوط ما قبل ١٩٦٧ مع العدو ثم تجاوزوها وتعمقوا فى اطراف أرض فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨ (حيث سبح الجنود السوريون بالفعل فى مياه طبرية).

والفارق ان التوسع السورى للاسف لم يتح له ان يستمر ويبقى، على العكس من التوسع العدو، الذى على أية حال لم يلبث ان انحسر ...سنا وهو حسير مع إتمام الفصل بين القوات .

خصائص معركة الجبهتين

عند هذا الحد من الدراسة يتعين علينا ان نتوقف لنلخص التقييم العام الشامل للمعركة بجبهتيها في خريطة بيانية او صورة لفظية محددة كما هى مركزة، فماذا نجد؟ هناك خطوط وملامح او انتهاءات اساسية ستة يمكن التعرف عليها والتوصل اليها بدقة، كما تكاد تتكرر بحذافيرها على الجبهتين السورية والمصرية، الامر الذى يشير إلى وحدة المعركة بينهما ايقاعا ونبضا، توقيتا وتعاصرا، ضوابط وضواغط ، أقدارا ومصيرا.

أولا، من أوضح ، ولعلها ابرز، ملامح المعركة ان اول بدايتها بالدقة هى قمتها المطلقة، بينما على العكس كانت نهايتها هى قاعها، وما بين البداية والنهاية كان الخط البيانى اميل الى النزول الخفيف منه الى الاستواء الافقى او افق الاستواء.

فلقد بدأنا بانتصار انفجارى داو حقا هو ملحمة العبور وخلع الخط ، أو ملحمة الساعات الست الخالدة .وبعدها كانت معركة رأس الجسر والقاعدة الارضية قمة اخرى، ولكن ـ لعلنا لن نختلف ـ اقل قامة وارتفاعا.

ثم جاءت معركة الدبابات الكبرى قمة اخرى ولكنها فى اتجاه المنحنى نفسه عموما او تقريبا، الى ان سجلت عملية الاختراق انحدارا ملحوظا، فكانت قاع المنحنى كما كانت نهايته.

هذا على الجبهة المصرية ، ولكن ايضا بالمثل على الجبهة السورية : زحف كاسح رائع اولا، ثم ارتدادة محدودة ، فمد مشجع وبارع من جديد، ثم اخيرا تراجع بطىء ولكنه صامد فى النهاية.

ثانيا: على هذا الاساس ينقسم منحنى المعركة ككل، وفى الجبهتين على السواء، الى قسمين وربما بالتحديد الى نصفين، متمايزين، فمن بين ايام القتال العشرين ، كانت الايام العشرة الأولى انتصارا مصريا وسوريا مطلقا وأحيانا ساحقا، ولا مبالغة فى هذا، كما لا شك . أما

الأيام العشرة الاخيرة فإنها النصف المحايد، فهى اقرب على الجملة الى التعادل ، من هنا فإذا كانت المعركة برمتها هى «العصر البطولى he-roic age » فى تاريخ العرب الحديث ، فإن نصفها الاول هو بدوره العصر البطولى فى ملحمة المعركة نفسها عموما.

ثالثا: ذلك التصنيف او التنصيف انما يرجع الى حقيقة واحدة ووحيدة تعد وحدها من أخص، كما هي من أخس، خصائص حرب أكتوبر: لقد حارب العدو معركتين اثنتين لا معركة واحدة في هذه الحرب، «معركتين توأمتين» الا انهما مختلفتان جذريا فى النتائج والمصائر، قل فى النوع او الجنس. ولا يعبر عن ثنائية معركة العدو هذه تعبيرا مباشرا وسافرا كما تعبر ثنائية المد والجزر التى شهدتها الجبهة السورية بصورة محددة جدا وداله الى أبعد حد. كما يرمز اليها ويلخصها تبادل العبور إلى ضفتى القناة بين القوات المصرية والاسرائيلية على جبهة سيناء.

والواقع أن المد والجزر الميدانى الذى حدث اثناء المعركة، إذا نظرنا اليها من بدايتها إلى نهايتها، يمكن ان نصفه فى حالة الجبهة المصرية بأنه مد وجزر «أفقى» توسع ثم انكمش فيه كلا الطرفين المتحاربين يمينا ويسارا مرة واحدة على مستوى واحد. أما فى سوريا فقد كان المد والجزر مزدوجا، ومن ثم كان «رأسيا» تمدد فيه ثم

تقلص كل من الطرفين مرتين «طباقيا» فوق الآخر وتحته.

أما كيف حارب العدو معركتين لا معركة واحدة، فأمر بالغ الوضوح، فى الأيام العشرة الاولى حاربت اسرائيل معركة مهزومة بصفة مؤكدة، كانت القوة الاسرائيلية فيها على وشك ان تتحطم وتنهار نهائيا وكانت ذخيرتها تنفد إلا من رصيد أيام معدودات، حين بدأت المعركة الثانية من نقطة الصفر تقريبا فأنقذتها من هزيمة كاملة محققة.

أما هذه المعركة الثانية التى استمرت ايضا عشرة أيام فهى معركة امريكية اكثر منها اسرائيلية، معركة التدخل الامريكي شبه المباشر الذى نقل اليها وفى الميدان شلالا من الاسلحة الحديثة البالغة التطور فاق ما كان لدى اسرائيل قبل الحرب كما وكيفا، فكان الموقف اشبه بعملية «نقل دم» كاملة إلى جريح طريح الميدان على وشك ان يلفظ انفاسه الاخيرة فمنحته «سلفة» جديدة من الحياة a new Lease of Life وكان الوضع كما لو ان اسرائيل قد بدأت معركة جديدة لأول مرة كأنها لم تحارب على التو معركة سابقة وهزمت فيها هزيمة ساحقة.

وقد عبر الاستاذ محمد حسنين هيكل عن هذه الثنائية نفسها تعبيرا ثاقبا وسديدا ولكن بطريقة اخرى تضغط على العلاقة بين

الابعاد الدولية والمحلية للمعركة، فهو أيضا يقسم أيام الحرب العشرين الى قسمين متساويين بالضبط، المرحلة الأولى «كانت الحرب فيها بين العرب وإسرائيل مباشرة وبقوة كل منهما بمفرده». والحركة فيها هى حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية .. وفى هذه المرحلة بالتحديد تركزت معظم خسائر اسرائيل فى الحرب كلها، حيث فقدت نصف قوتها المدرعة وثلث قوتها الجوية ، لقد «هزمناها.. ليس بالضربة القاضية ولكن بالنقط».

المرحلة الثانية «تداخلت فيها تأثيرات التوازن الدولى مع حركة الميزان بين القوة العربية وبين القوة الاسرائيلية.. ولم تكن الحرب فيها بين العرب واسرائيل وجها لوجه، ولا مباشرة.. ولا بقوة كل منهما بمفرده، ان ساحة الصراع تغيرت، لم يعد هناك طرفان فيه ولكن اربعة.. لم يعد هناك العرب واسرائيل وحدهما وانما نزل الى الساحة الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الامريكية.. وأصبح الصراع دائراً على مستويين صدام اقليمى بالسلاح في الشرق الاوسط، واحتمال صدام عالمى عند القمة بين القوتين الاعظم». ونتيجة لهذا التغير فإن القيادة الاسرائيلية «تمكنت من استعادة توازنها ، وعادت الى السيطرة على ادوات قوتها، خصوصا بإتمام حالة التعبئة العامة

الى حدودها القصوى.. وراح ذلك يظهر في ميدان القتال» ، كما لابد ان نعترف حتى لا نخدع انفسنا.

رابعا: ثنائية المعركة هذه هي التى تفسر ادعاء اسرائيل بتعادلها او انتصارها المزعوم فى الحرب، فهى تريد ان تصور نتيجة معركتها الاولى المهزومة مكافئا موضوعيا ومعادلا استراتيجيا للمعركة الثانية الاقرب الى التعادل.. وهذه مغالطة فجة تناقض ابسط بديهيات المنطق والواقع.

وواقع الامر ببساطة هو ان اسرائيل حاولت ان تجعل من الحرب الرابعة فى اكتوبر نسخة مكررة من الحرب الثالثة فى يونيو، فلما فشلت حاولت ان تجعل من المعركة الثانية من حرب اكتوبر نفسها نسخة مقلوبة من المعركة الاولى منها، فلما فشلت فى ذلك عسكريا حاولت دعائيا، فلما فشلت حاولت وتحاول الآن سياسيا.

خامسا : إذا كانت اسرائيل قد حاربت او مكن لها من ان تحارب معركتين وتخرج بالتالى بنصف هزيمة، فإن سوريا ومصر على العكس قد حاربتا نصف حرب في معركة واحدة كاملة خرجتا منها بنصف انتصار.. ولا يغير من هذا او يتعارض معه بطبيعة الحال ان مدة القتال هى واحدة بالنسبة لكل الاطراف المتحاربة، وانما المقصود التطورات الاساسية التى طرأت داخل المعركة.

وإذا كانت اسرائيل تدعي لإخفاء هزيمتها أنها حرمت عالميا من ان تحقق انتصارا ممكنا، فإن العكس تماما هو الصحيح ، فإنما مصر وسوريا، بسبب التوازنات والحسابات الدولية ويسبب تدخل امريكا شبه المباشر والقوات الاسرائيلية تكاد تحتضر، مصر وسوريا هما الطرف الذى حرم من استكمال نصره الواقع بالفعل الى منتهاه وقمته، فاختزلت الحرب بالنسبة اليهما من حرب كاملة الى نصف حرب والنصر الكامل الى بنصف نصر.

سادسا : واخيرا.. وفى التحليل النهائى، وبأى حسابات وعلى اى منقاييس، ورغم كل ادعاءات العدو، خرجت مصر وسوريا وهى المنتصرة واسرائيل المنهزمة فى الحرب الرابعة، صحيح لقد كان من الممكن لهذا النصر وتلك الهزيمة ان يكونا اكبر واكمل لولا ان المعركة اوقفت قبل الأوان ولم تستمر الى مداها ومنتهاها الطبيعى فجاءت الحرب، «منقوصة» - أو «مقصورة» ان شئت - وذلك بفعل العوامل الخارجية والتدخل الاجنبى.

ولئن كان العدو بزعم انه لم ينهزم وانما انتصر، بل وحقق انتصارا اكبر من انتصاره الساحق فى ١٩٦٧، فهذا لم يخدع أحدا، حتى هو نفسه.

ولكن هذا يحتاج الى مناقشة أكثر تفصيلا، ولهذا فليكن سؤالنا الختامى هو: لمن النصر؟

الفصل الخامس

النصـــر لمـــن ؟

قد يبدو هذا السؤال غريبا، مثلما هو مؤسف عربيا، وقد يبدو متطفلا وطفيليا غير مشروع اكثر مما فيه من فضول مشروع، ولكن لا حيلة لنا فيه، ولا مفر لكاتب من التعرض له بعد ان حاولت الدعاية الاسرائيلية المحترفة ان تطمس معالم الحقيقة وان تقلب حقيقة الموقف، ولنا على أية حال ان نتذكر ان العدو، هو الآخر، يسأل نفسه مثل هذا السؤال.

ولا يقل اهمية عن هذا أن البعض منا يتساءل ايضا، يتشكك او يشكك فى حقيقة انتصارنا، بل يذهب آلي ان من «الغفلة» ان نعتبر معركة اكتوبر انتصارا لنا، وان حرب اكتوبر ليست «حرب تحرير» بقدر ما هى «حرب تحريك» كما وضعوها فى صيغة من السجع السياسى الأثير والمأثور.

ولن نذكر هنا بطبيعة الحال ذلك الرأى الذى يقول بخطأ الحرب كلها، قرار البدء بها، ثم توقفها او ايقافها واخيرا قبول المحادثات السياسية.

وعندنا ان الاجابة عن هذا السؤال، مهما كانت اكاذيب العدو او «غفلة» البعض منا، ينبغي ان تكون موضوعية بحت، نقول ما لنا وما علينا ونضع الحقيقة فى حجمها الطبيعي، واثقين من قبل ومن بعد بأن الحق والحقيقة معنا دائما واكثر من اى وقت مضى، ان الموقف الميدانى لم يكن قط غامضا او ضبابيا أو متميعا بحيث يسمح في تقييمه بوجهات النظر المختلفة فضلا عن التأويلات الشخصية او التحيزات الخاصة والتفسيرات الملتوية، ودعك تماما من قلب الحقيقة رأسا على عقب كما يفعل العدو الحقود ومن ضللتهم دعاينه من بيننا.

موقف العدو

ولنبدأ بالعدو، واقع الامر ان العدو بعد ان خسر المعركة العسكرية وقبل ان تبدأ المعركة السياسية، فقد أدار معركة دعائية داوية على مستوى العالم في هستيريا محمومة مكابرة ومريبة ليشوه بل ليسرق بها انتصارنا وليزيف لنفسه انتصارا موهوما منتحلا، وخلاصة هذه الحملة الدعائية هي أن العدو لم يهزم والعرب لم تنتصر، بل واكثر من هذا ان العرب هى التى هزمت (كذا!). بل والاكثر منه ان اسرائيل قد سجلت نصرا عسكريا اكبر وأعظم من انتصارها

الساحق في ١٩٦٧، وأن العرب ـ بالمقابل ـ تلقوا هزيمة عسكرية اكبر وافدح من هزيمتهم في ١٩٦٧ (كذا!).

واخيرا وليس آخرا ذهبت اسرائيل الى حد القول بأنها لولا التدخل الدولي لوقف اطلاق النار لدمرت الجيوش العربية ولحققت انتصارا اكبر مما حققته بالفعل، وقد عبر حاييم هيرتزوج عن هذا في مؤتمر صحفي يوم ٢٧ اكتوبر بزعمه ان «العالم لم يكن يريد لاسرائيل ان تنتصر. وقد اظهر نحوها في اللحظات الحرجة عداء غريبا لا نستطيع تفسيره الا بانه نزعة من نزعات معاداة السامية» (!) . أما دايان فبعد ان اعترف بأن الجيش الاسرائيلي قد «عجز عن تدمير الجيوش العربية كما وعد». اضاف مستدركا «نتيجة لاسباب سياسية».

ذلك باختصار موقف العدو الدعائي في تقييم الحرب، اما اساس هذه النتائج او الاستنتاجات المثيرة، المثيرة للدهشة بعد السخرية، فهو انه إذا كانت مصر قد عبرت القناة الى سيناء فقد عبر هو القناة الى الضفة الغربية. حيث اصبحت قواته تحارب ـ كما اعلن وقتئذ ـ «في افريقيا» (!). وإذا كانت مصر قد استردت قطاعا على الضفة الشرقية فقد توسع هو ايضا في قطاع مناظر على الضفة الغربية، واخيرا فإن سوريا ومصر وان احرزتا انتصارات ميدانية لا سبيل الى انكارها، فإن

اعدو بالمقابل سجل مكاسب اقليمية وسعت منطقة احتلاله السابق بنحو ١٠ كم سواء على الجبهة السورية او المصرية، لتمتد بذلك «من سعسع الى الادبية» بعد ان كانت تمتد « من القنطرة إلى القنيطرة» فقط (!).

وإذا كان هذا هو موقف العدو الاسرائيلى المتطرف نفسه، وبخاصة مؤسسته العسكرية المتحكمة، فإن حلفاءه الامريكيين - اكثر تواضعا - ينتهون إلى انتهاء اقل تطرفا واعوجاجا ولكنه اكثر خبثا ربما، فالدوائر العسكرية فى واشنطن انتهت فى تقييمها للمعركة - هكذا حملت وكالات الانباء - الى انه ليس هناك منتصر ولا مهزوم، وأن الجولة انتهت بالتعادل بين الطرفين، هذا بينما تميل اغلب الدوائر المحايدة في الخارج الى القول بأن العرب على الجملة قد حققوا «نصرا محدودا» ، قدره احدهم - بصيغة اسهم الشركات ؟ - بنسبة ٥١٪ للعرب ، ٤٩٪ لاسرائيل (!). . ولكن هذه النسبة - سنرى - ينبغى ان تعدل. وقد يكون من المبالغة ان نقول ٧٥٪ ضد ٢٥٪، ولعل المقبول شيء وسط بين الطرفين ، اذا كان ولابد من مثل هذه الصياغة.

وقبل ان نعود الى حقائق الميدان والى ملف المعركة نفسها، فإن لنا يقينا ان نتساءل او بالأصح ان نسأل العدو: فماذا اذن هذا الذى

يجرى داخل البيت ـ الجيتو اسرائيل ؟ كيف ولماذا تحول الى مأتم قومى حار، ومبكى وطنى على مقياس دولة ثم الى مستشفى امراض عصبية (أعلنت اسرائيل ان نسبة الامراض النفسية قد زادت ١٠٪ بعد الحرب!).

ان الخبر اليومى، ام لم نقل الخبز اليومى، الذى يخرج من اسرائيل منذ المعركة انما يصنع مادته الاساسية الحزن العميق والقلق والاكتئاب والخوف من الغد والاحساس العام بالضياع والاحباط وان المستقبل غير مضمون او مؤكد او موثوق به . ثم ما هذا الصراع وهذه الاتهامات الكاسحة المتبادلة بن قادة اسرائيل العسكريين ـ «حرب الجنرالات» ـ تلك الآلهة التى هوت والاصنام التى تحطمت ؟ وهذا التحقيق الرسمى الذى تديره الحكومة فى اسباب وملابسات «الكارثة» الوطنية التى اصابت «جيش الدفاع» و «الدولة اليهودية» ؟ ثم سقوط تلك الحكومة نفسها ؟ وو.. الخ؟

لقد اعترف كل قادة وزعماء اسرائيل انها اصيبت «بكارثة» مروعة ـ هذا تعبيرهم ـ فى ٦ اكتوبر، وتحدثوا علنا عن «اخطاء حرب اكتوبر القاتلة»، بينما اعترف ابا أيبان صراحة «بفشل اسرائيل فى سيناء» . فكيف يتفق هذا مع ادعائهم الانتصار؟ لقد قال رئيس المنظمة اليهودية فى ستراسبورج بعد المعركة بلا مواربة «ان الجولة الرابعة قد اسفرت

عن كارثة كاملة بالنسبة لاسرائيل.. فنتائج المعارك والانعكاسات التى بدأت تظهر عنها فى اسرائيل تؤكد اهمية الانتصارات التى حققتها القوات العربية فى المعركة، تلك الانتصارات التى أنهت الشعور بالتفوق الاسرائيلى وجيشها الذى لا يقهر، وأكدت كفاءة المقاتل العربى وتصميمه وفاعلية السلاح الذى فى يده». ولئن كان القادة الاسرائيليون، كما يقول كاتب يهودى آخر هو فيكتور سيجلمان، «يدعون ان اسرائيل قد انتصرت فى الحرب، فان الاسرائيليين انفسهم لا يشعرون بأنهم انتصروا على الاطلاق». وفى المعنى نفسه كتبت مجلة تايم بعد ٥ شهور من انتهاء الحرب، كتبت تقول «ان معظم الاسرائيليين يشعرون الآن أنهم خسروا الحرب العسكرية فى اكتوبر الماضى، وأنهم يخسرون الحرب السياسية».

لماذا اذن ـ دعنا نحن نسأل انفسنا هذه المرة ـ نذهب اسرائيل إلى هذا المدى المخل والمخجل من التناقض الفاضح بين دموعهم فى الداخل ودعايتهم فى الخارج؟ كيف يحدث ان يتباكى متحدثو العدو وقادته على ان العالم لأمر ما «حرم» اسرائيل من تحقيق نصر، وفى الوقت نفسه يزعمون انهم قد سجلوا نصرا؟ هذه النكسة المقبضة والخسائر الفادحة، كيف تتفق عقلا ومنطقا مع تلك الدعوى الفاحشة.. دعوى النصر أو حتى اللاهزيمة؟

ثمة اسباب ثلاثة اساسية وراء هذه الاكذوبة الشاحبة، تستميت اسرائيل من اجلها، وثلاثتها - سيلاحظ - تؤلف حربا نفسية بعيدة المدى متعددة الابعاد.

أولها: ولعله اقلها اهمية رغم خطره البالغ، تمهيد اسرائيل للمعركة السياسية المصيرية التى ستترجم المعركة العسكرية الى مكاسب او خسائر اقليمية والى تسوية ارضية . فما دام لا غالب ولا مغلوب ، فلا مجال ولا محل لتنازلات سياسية او انسحاب من أراض محتلة. مادام لم يحدث تغيير فى التوازن العسكرى، فلا مبرر لتغيير فى «الحالة الراهنة status quo اقليميا. تلك هى اللعبة، ولقد بدأتها اسرائيل من قبل بالفعل. ففى وجه المقترحات المصرية فى محادثات الكيلو ١٠١ ثم فى مؤتمر جنيف بانسحاب العدو من طرف واحد، رد بأن هذا «لايعكس حقيقة الموقف فى المعركة» (كذا)، واقترح بالمقابل ان ينسحب من الضفة الغربية للقناة، مقابل ان تنسحب مصر من ضفتها الشرقية فى غرب سيناء.

صفقة صفيقة كما هى سفيهة، وعليها كانت تراهن حتى قريب لكى لا تنسحب الى خطوط وقف اطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر.

أما السبب الثانى العاجل والملح لادعاء العدو بالنصر فهو اعلان الحرب النفسية المباشرة على الروح المعنوية العربية والمصرية، على

الوحدة الوطنية داخل كل بلد عربى، وخاصة سوريا، وبالأخص مصر، ثم على الوحدة القومية بين العرب جميعا، وواضح تماما منطق وهدف وأسلوب العدو فى هذه الزاوية . فما دام العرب قد هزموا مرة ثانية، بل رابعة، بعد كل ما حدث، فما هو الامل، وما جدوى قياداتهم وانظمتهم التي توفر لهم الهزيمة بانتظام؟ محاولة دق الاسفين بين الجماهير والقيادات وبين الشعوب والنظم واضحة، والهدف هو احداث بلبلة وتساؤلات ثم انفجار عربى من الداخل يمزق الوحدة الوطنية والقومية ويقدم العرب فريسة سائغة للعدو وأطماعه التوسعية والاستعمارية التقليدية.

السبب الثالث والاخير هو من وجهة نظر العدو أشد خطرا على المدى البعيد لأنه يلقي بظلاله وانعكاساته على صميم الوجود والكيان الاسرائيلى ذاته، ذلك نقصد انقاذ فكرة الامن الاسرائيلى وهيبة القوة الاسرائيلية وصورة اسرائيل في العالم، فاسرائيل التي بنت وجودها كله على مبدأ القوة الرادعة الساحقة، واسطورة التفوق العسكرى المطلق لا يمكن ان تسمح لنفسها او ان يسمح لها بأن تهزم، ومن ثم لا يمكن ان تعترف بهزيمة، ان مثل هذا الاعتراف لمرة واحدة كفيل بأن يهدد وجودها الى الابد، وعليها الآن من هذا المنطق وبعد ان هزمت بالفعل ان ترفض الإقرار بالهزيمة وان تقاومه بكل ضراوة حفاظا على

روحها المعنوية المتداغية من الانهيار الكلي، وذلك بأمل ان تصحح الموقف بنصر غادر تختلسه في اقرب فرصة متاحة مستقبلا.

وسنجد بالفعل انه شرط اساسي ومنطقي جدا لموقف اسرائيل الراهن، من انكار الهزيمة وادعاء النصر المزور، ان تباغت يوما ما بالهجوم ، انها لا يمكن ان تخدع نفسها حقيقة، وانما هي تخادعنا نحن ، على نية مبيتة ومحتومة بتحويل هزيمتها الى نصر قريب يجبها ويمحوها من سجل حياتها.

وهذا انتهاء بديهي كما هو جوهري بالنسبة للعرب، وعلينا ان نعيه جيدا لانه مؤشر مؤكد نحو سلوك العدو المستقبلي. غير ان هذا موضوع آخر سنعود اليه بتفصيل في موضعه.

حساب الخسائر والارباح

أما الآن، فلنستعرض كشف حساب المعركة وصولا الى تقييم موضوعي متزن لنتيجتها، بعيدا عن دعاية العدو وادعاءاته وعن التحيز الشوفيني او المزايدة والمناقصة، وهناك اساسان ممكنان للحساب : خسائر الجانبين في السلاح والرجال، وخسائر او مكاسب الجانبين في الأرض.

الرجال والسلاح

فإذا بدأنا بالاولى، فإن تقديرات الخسائر تختلف بحسب مصادرها، ولكن المتوسطات المقبولة فى اغلب الدوائر المحايدة والمعتدلة تدور على النحو الآتى :

خسائر العدو فى القوة البشرية عشرة آلاف قتيل- هذا تقدير فرنسى وامريكى يشمل الجبهتين السورية والمصرية. وهناك تقدير رويتر، ٨٠٠٠ قتيل.

وهذا على اقل تقدير يفوق كثيرا مجموع خسائر العدو، كما اعلنها هو نفسه، منذ ١٩٤٨ وحتى ما قبل اكتوبر، والتى تبلغ ٦٠٠٠ قتيل، وإذا كان دايان قد «اعترف» بأن خسائرهم فى اكتوبر ثلاثة امثال ما خسروه فى ١٩٦٧ (وهى فى تقديرهم المعلن ٧٥٩ فردا) فهذا تضليل سافر وكاذب، لأن الارقام التى اعلنتها اسرائيل بنفسها تفوق هذه الحسبة بكثير، ولقد صرح احد كبار الاساقفة الامريكيين بعد زيارة للقدس بأنه علم ان عدد القتلى الاسرائيليين فى اكتوبر يبلغ فى الحقيقة ٣ أو ٤ أمثال الارقام الرسمية المعلنة، وعلى اية حال، فإذا نحن اضفنا الى قائمة القتلى هذه عدد الجرحى الاسرائيليين الذى يقدر بنحو ٢٠ ألفا، لأدركنا بسهولة صحة القول الدارج من ان فى كل بيت بإسرائيل اليوم تقريبا قتيلا او جريحا او اسيرا أو مفقودا على

الأقل، أو كما كتب ليفي هيروشليمي في معاريف ، «لا يوجد حي او شارع او كيبوتز دون عائلات مصابة».

أما بحساب القتلى وحدهم، فلقد قدر انه يعادل بالنسبة لعدد السكان فقدان الولايات المتحدة مثلا لثلثي الى ثلاثة ارباع المليون، او مرتين ونصف المرة الى ثلاثة اضعاف خسائر الولايات المتحدة في فيتنام على مدى ١٠ سنوات ، كما ان هذا يعني ايضا ان نسبة القتلى الى عدد السكان هي ١ : ٣٠٠ ، اي ٣٠.٠٪ ١٠.٠٠٠/٣.٠٠٠.٠٠٠ ..

أما إذا قارنا بخسائر مصر في ١٩٦٧ ، التي تعد حالة شاذة جدا، والتي تقدر بصفة غير رسمية بنحو ٢٠ الفا ، فإن خسائر اسرائيل في اكتوبر تعادل النصف، غير اننا اذا عدنا فنسبنا الى عدد السكان (٣ ملايين ضد ٣٦ مليونا) ، فإن خسائر اسرائيل في اكتوبر تعادل كما لو ان مصر فقدت ١٣٠ ألفا، اي ستة امثال خسارة مصر في يونيو.

هذا في القوة البشرية. اما في السلاح فان تقدير خسائر العدو يدور بالتقريب حول ١٠٠٠ دبابة، وبضع مئات من الطائرات، البعض يقول ٢٠٠، والبعض يصل بها نحو ٣٠٠ طائرة، وآخرون إلى اكثر والمقول ان هذا يعني ان العدو فقد نصف سلاحه عامة ، وفي تقدير أخر نصف قوته المدرعة وثلث قوته الجوية ، وفي تقدير ثالث ثلاثة ارباع سلاحه الجوى بالذات. وفي هذه الخسائر الرهيبة قال الصحفي

الامريكى أرنو دى بورجريف «ان ما شهدته على جبهة السويس لم اشهدد فى ١٢ حربا».

اما خسائرنا نحن فى السلاح فهى على ضخامتها اقل بكثير وباجماع الكل من خسائر العدو، على الاقل باعتبار كل من الدولتين العربيتين على حده وهى فى الرجال اقل مما فقدناه في حرب يونيو .

فاما فى السلاح، فكما وضعها المتحدث العسكرى المصرى فى منتصف ايام القتال تقريبا فإن خسائره. ولما كانت خسائر إسرائيل كما اعلنها المتحدث المصرى فى المناسبة نفسها هي نحو ٣٠٠ طائرة، ٥٠٠ دبابة، فـ كن ان نستنتج من هذا وذاك ان خسائرنا كانت ٦٠ طائرة، ١٧٠ دبابة. غير ان هذه الأرقام ، حتى مع حفظ النسب المعطاة، لابد ان تعدل كثيرا ـ بالزيادة ـ بعد ان تضاعفت خسائر العدو تقريبا بنهاية القتال.

أما خسائرنا فى الرجال فلم تعلن رسميا، ولكن مجلة «تايم الامريكية» تضعها فى حدود ٣٠٠٠ فرد، وتقول : إن هذا يعنى بحسب نسبة السكان ان خسائر اسرائيل ١٠ أمثال خسائر مصر. وهناك بعض مصادر اجنبية تعطىّ أرقاما اكبر بكثير ، ولكن هذه لا عبرة بها ولا اعتبار لها، فحتى ها آرتس قد اعترفت بأنه «حتى بالنسبة للاصابات فى الجنود المصريين ، فان التقديرات تشير إلى

انها نسبة لا تكاد تذكر مقارنة باجمالى عدد الجيش . فهى اقل وبكثير من ١٪». ذلك كله رغم ان المفروض نظريا وعمليا ان خسائر المهاجم ترجح دائما وبالضرورة خسائر المدافع، وهى فى حالتنا طفيفة بدرجة نادرة بالنسبة لما حققناه من انتصار وانجاز.

أما على الجانب السورى، فليس لدينا تقديرات متاحة، لكن خسائر العدو على تلك الجبهة لا تقل عن عدة مئات من الدبابات وبضع مئات من الطائرات، إلى جانب رقم كبير من القتلى قد يزيد ايضا عن خسائر السوريين زيادة كبيرة للغاية، أما على الجانب العربى على الجملة فقد ورد فى حديث للمناضل ياسر عرفات ان مجموع شهدائنا على الجبهتين ٩٠٠٠، منهم اقل قليلا من الألف من الفدائيين الفلسطينيين ، بالاضافة الى ٢٠٠٠ دبابة.

وإذا كان لهذا كله من معنى فهو ان الجيش المصرى وكذا السورى خرج كلاهما من المعركة وهيكله الاساسى سليم تماما وقادر على العودة الى القتال بكامل قوته، بينما ان الجيش الاسرائيلى قد خرج بالفعل مدخورا محطما، لولا المساعدات الامريكية الخرافية والجزافية لكان غير صالح للقتال من جديد قبل سنين.

الأرض

يبقى الآن كشف حساب الأرض، الورقة التى ظنها العدو رابحة وبها كان يلعب لعبته الدعائية المكنوبة ومناورته السياسية المكشوفة، والنقطة التى لا نظنها جدلية بقدر ما تحتاج الى التصحيح إن فشل التوضيح.

بحسب ما اعلنه المتحدث العسكرى المصرى عشية اعلان وقف اطلاق النار في ٢٢ اكتوبر، كانت القوات المصرية تسيطر على منطقة من سيناء مساحتها ٣٠٠٠ كيلو متر مربع، تمتد بطول القناة من البحر الى الخليج وبعمق يتراوح بين ١٧ ، ١٢ كم. أما قوات العدو فكانت تضع يدها غرب القناة على رقعة مساحتها ٣٠٠ كيلو متر مربع، ٧٠ كيلو مترا منها هى التى كانت قد احتلتها قبل وقف النار.

على هذا الاساس، واضح تماما، حتى من حيث المساحة البحتة، انه لا وجه للمقارنة على الاطلاق. فالنطاق المصرى قاعدة ارضية عريضة صلبة وثيقة تبلغ عشرة اضعاف مساحة الوجود العدو والعدوانى غرب القناة، والذى لا يعدو جيبا ضئيلا مختوى محصورا تماما فى تضاعيف وقبضة قواتنا، فضلا عن ان معظمه تحقق بالغش والخداع ومفروض أن ينسحب العدو منه بفرض الامم المتحدة

والا فبالقهر العسكرى، انه اسفين محكوم عليه سياسيا والا فعسكريا.

وعلى خريطة اتفاق فصل القوات التى نشرتها وكالات الأنباء العالمية، تبدو مساحة الجيب الاسرائيلى غرب القناة مساحة كبيرة طولا وعرضا تبدأ في الشمال جنوب مدينة الاسماعيلية مباشرة وتنتهى فى الجنوب بعد السويس عند الأدبية وجبل عتاقة، واما نحو الداخل فتتعمق فى كتلة متصلة بلا انقطاع حتى خط يمتد من ابو صوير شمالا حتى الكيلو ١٠١ على طريق السويس - القاهرة جنوبا. وبهذا يبدو الجيب الاسرائيلى فى نحو مجموع مساحة المنطقة المحررة شرق القناة، التى تنقسم الى نطاقين يفصل بينهما نحو ٢٠ كم، ولا يفسر هذا الاتساع غير العادى الا ما رأيناه من تسطح وتخلخل فى كثافته.. هذا أولا.

ثانيا: ليس بالمكاسب الأرضية وحدها تتحدد نتيجة الحرب الحديثة، وخاصة حروب التحرير، وبالأخص حروب الصحراء، لمدى تدمير القوة البشرية وقوة السلاح اعتبار اكبر واخطر، وفى هذا فلقد تلقت اسرائيل ضربة صادمة ونزيفا رهيبا لاشك فيهما، لم تعرفهما من قبل طوال حياتها، يتعديان اعرض احلام اعدى الأعداء، ويتجاوزان كل حدود مكابرة أو انكار أشد الأصدقاء عنادا وتعصبا..

هذا بينما خرج العرب بالحد المناسب من المكاسب العسكرية وبالحد الادنى من الخسائر البشرية وخسائر السلاح.

ثالثا: لا سبيل إلى المقارنة اى مقارنة بين الانجازة العسكرية المصرية المتمثلة فى العبور واقتسلاع الخط وانتزاع القاعدة شرقا وبين عملية الاختراق العدو غربا. ولدينا فى هذا شهادة ناطق العدو، هيرتزوج، ان «من الضرورى وضع عملية التسلل الى غرب القناة فى إطارها الصحيح، ويجب ألا ننسى فى أية لحظة ان المعركة الحقيقية إنما تدور فى سيناء، هذا بينما كتب صحفى امريكى هو هنرى تانر يقول «واضح ان الاسرائيليين قد شنوا هذه العملية لأهداف سياسية ونفسية ، وخاصة لمحاولة دعم موقفهم فى المساومات إزاء ضغط خارجى متزايد لوقف اطلاق النار». وهناك ايضا حكم ريتشارد كروسمان، الزعيم العمالى البريطانى العريق فى صهيونيته:

«نشاط الاسرائيليين غرب القناة، «طنطنة» فارغة، لن يكسبوا منها شيئا سوى مزيد من الخسائر».

فإذا جئنا الى التقييم الموضوعى المقارن بين الانجازتين العسكريتين المضادتين شرق وغرب القناة ، فإن الحقائق الوحيدة التى تبقى وتقوم هى كالآتى .. أولا ، لقد قلبت الاولى توازنا قائما كاملا

برمته وغيرت مصير الصراع لاول مرة، ولكن الثانية لم تغير حتى مجرى المعركة او تقلب توازنها المحلى.. ثانيا، ثمة كذلك فارق جوهرى بين طبيعة الانجازتين بعد نقطة مهمة جدا فى المقارنة: وجودنا شرق القناة غير قابل استراتيجيا للاقتلاع، ولكن وجود العدو غربها قابل .. ثالثاً واخيرا.. وفى المحصلة العامة، يمكن ان نلخص حقيقة الموقف كله فى ان النصر العربى «نصر استراتيجى» بينما الاسرائيلى «نصر تكتيكى» وهذا بالضبط مفتاح القضية برمتها والقول الفصل فيها.

أما ان يدعى العدو بعد هذا فى دعايته ان نصره مكافىء عسكرى لنصرنا، وان النتيجة الصافية بالتالى هى التعادل «بالنقط»، فهذه مغالطة اما بالغة السذاجة او فائقة الخبث - والاخيرة الأرجح .. بل لقد فضح العدو بنفسه اخطاء وقصور عملية الاختراق بصورة تقلص حتى من قيمتها المحدودة كنصر تكتيكى. ففى الاتهامات الحادة المتبادلة بين جنرالات العدو بسبب الهزيمة، كان الاتهام الاساسى الموجه الى شارون، بطل العملية والذى صور - اسرائيليا - على انه بطل الحرب الرابعة كلها واله الحرب الجديد وملك اسرائيل الأخير، هو انه افسد تنفيذ عملية الدفرسوار بحيث حققت من المكاسب اقل مما حققت من الخسائر، حيث تمت بأكبر قدر متصور

من الخسائر البشرية وتبديد السلاح ، وهذا اعتراف صريح بما فيه الكفاية يكذب الادعاء البائس بتعادل النصرين العربى والاسرائيلى.

حقيقة الموقف

وإذا كان هذا هو الموقف المكابر والكاذب للعدو الرسمى، فإن قطاعا كبيرا من الرأى العام الاسرائيلى قد تولى مهمة الرد عليه وتفنيده ، فأكد بصورة قاطعة ان المعركة كانت خاسرة بالنسبة لإسرائيل ووضح حقيقة الهزيمة التى تحاول السلطات الاسرائيلية اخفاءها عن شعبها، مثلا كتبت ها آرتس غداة انتهاء القتال تقول : إنه إذا كان الهدف الأساسى امام الجيش الاسرائيلى من القتال هو تحطيم الثقة الذاتية للجيش المصرى عن طريق تدمير سلاحه او رجاله، فقد اكد وقف إطلاق النار انه لم يستطع تدمير جيشى سوريا ومصر، ومن الواضح ان ثقة الجيش العربى بنفسه ومعداته لم تتقوض . «والحقيقة انه حتى بدون وقف النار الآن، فان من المشكوك فيه ان جيش اسرائيل كان سينجح في تدمير الجيش المصرى، فمن اجل تحقيق ذلك فى وقت قصير، كان جيش اسرائيل يحتاج إلى قوات اكثر مما عنده، بينما من اجل تحقيق الهدف بالمعطيات القائمة كان يحتاج الى حرب طويلة ومضنية».

وفي الصحيفة نفسها كتب زيف شيف في مقاله «من انتصر»؟»
يقول : «إن الحد الأدنى الذى كان مطلوبا لنا هو دحر المصريين فى سيناء، وهذا ما لم ننجزه». واضاف «ومن ناحية الارض - وهو الاهم ليست هناك اهمية خارقة لحقيقة اننا نحتل الآن كذا كيلومترا غرب القناة، لانه إذا لم يتم التوصل الى تسوية سيكون من الصعب جدا على اسرائيل التمسك بالخطوط الجديدة إلا بجيش اكبر».

كذلك كتب إورى دان فى معاريف غداة وقف النار ايضا ان «الامر يبدو خطيرا جدا، لان هذه المرحلة من الحرب انتهت عشية وقف القتال دون هزيمة مصر، رغم الضربات التى وجهت لها، وبعد الخسائر التى تكبدناها فى الارواح والمعدات، وواضح انه من غير الممكن قياس النجاح بعدد الكيلومترات المربعة التى يحتفظ بها الجيش الإسرائيلى». كذلك اصبح من أولويات الحياة فى اسرائيل ان تحول دايان الى موضع انسخط المستمر والتهجم الثائر المثير بسبب «النكسات الفادحة التى منيت بها إسرائيل فى حرب ١٩٧٣» أصبح «وزير العار» كما سبته المظاهرات الغاضبة والحاشدة اليومية.. «ورمزا لكل ما هو خطأ فى اسرائيل كما عبر بعض الضباط الشبان .. الخ.

واخيرا.. وفي ندوة عقدت في القدس في مارس ١٩٧٤ شارك فيها الجنرال بيليد، اتفق المجتمعون على ان «اسرائيل لم تحقق اى انتصارات فى حرب اكتوبر، » وان كل ما حققته هو مكاسب تكتيكية فحسب، لا تكفى لان تحرز بها اى تغيير اساسى لصالحها، وارجع المنتدون ذلك الى ان اسرانيل فشلت في ان تتوصل إلى نصر عسكرى حاسم، إذ انها وجهت فى البداية هجوما مضادا إلى سوريا لتدمير جيشها فلم تنجح فى ذلك، وعندما حولت قواتها نحو الجبهة المصرية فانها فشلت كذلك في تحقيق هدفها هناك.

وقد وضح احد المتحدثين ان استراتيجية الدفاع الاسرائيلية مازالت كما هى منذ ما قبل حرب ١٩٦٧، ثم اكد انه اصبح من الضرورى ادخال تغيير اساسى على أساليب اسرائيل التكنيكية فى العمليات كما فى الاستراتيجية نفسها.

ذلك اذن موقف العدو، لا نقول منقسم على نفسه بين الشك واليقين، بل بين الخداع والاعتراف. ومن الملاحظ ان العدو قد استخدم كل الالفاظ الممكنة والمتاحه للتعبير عما اصابه في المعركة، الزلزال، الصدمه، الضربة، وتحدث عن الخسائر الفادحة، والأخطار المحدقة، عن التقصير، عن الكارثة والفشل.. الخ، لكنه كان حريصا جدا على الا

يتكلم عن «هزيمته» قط. ولكن لا يجب ان يخالجنا اى شك فى ان العدو فى هذا كما فى غيره يكذب باستمرار وانتظام، لا نقول كما يتنفس ولكن كما يرسم ويخطط، بل قد اعترف بعض قادته اخيرا بذلك صراحه. قال اليعازر، تقريبا عشيه سقوطه معزولا، «من المؤكد انه كانت هناك أخطاء ، ومن الطبيعى ان يحدث تركيز على هذه الاخطاء». ثم اردف بلا مواربة «ان مبدأنا الا نقول كل الحقيقة ، حتى نشجع رجالنا ونثبط همة العدو»

واذا كان من المسلم به ان جميع الدول المحاربة فى العالم لا تعلن الحقائق السالبة او حتى الموجبة كاملة تماما لا عتبارات الامن والمعنويات وضرورات الصراع المعقدة... الخ، فقد فسر البعض مزاعم العدو الاسرائيلى على اساس ان معادلة الاعلام العسكرى الاسرائيلى تقوم على ضرب مكاسبه هو وخسائر العدو فى اثنين، وقسمة خسائره هو ومكاسب العدو على اثنين ! ولهذا فإن المحصلة الصافية لا يمكن ان تعدو او تبلغ ربع الحقيقة! ومهما يكن فليس لنا او لأحد ان يأخذ بأقوال العدو او ادعاءاته ببساطة أو بسذاجة، لا سيما عن « نصره » المزعوم..

اما نحن من جانبا، فليس لنا ان نشك لحظة فى ان النصر الصافى، على الجملة وفى التحليل الاخير، كان لنا. وإذا كان العدو

يزعم أنه لولا التدخل الدولي لحقق الانتصار في نهاية الحرب، وأن قرار وقف اطلاق النار وحده الذي انقذ العرب من الهزيمة ، فعليه ان يذكر أنه لولا هذا التدخل الاجنبي نفسه لما حقق العرب النصر الكامل في وسط الحرب فقط بل ولسحقوا اسرائيل نهائيا. فكما يقول بوفر «لقد اصاب الشلل اسرائيل في الفترة الاولى من الحرب حتى حصلوا على معدات أمريكية فائقة التطور. ومع ذلك فلم يستطيعوا ان يحرزوا ذلك التفوق الكامل الذي احرزوه في ١٩٦٧» . أو كما اعلن مسئول كبير في الوزارة المصرية «الحكومة الامريكية منعت العرب من الحاق هزيمة كاملة باسرائيل». ولدينا ايضا اعتراف دايان من ان «امريكا لا تريد لاسرائيل ان تخسر الحرب». وهناك كذلك استغاثة اسرائيل بأمريكا في وسط المعركة، تلك التي شبهها البعض بأنها استغاثة غريق على وشك الموت

S.O.S message ، والتي ارسلتها جولدا مايير شخصيا الي نيكسون يوم ١٢ اكتوبر قائلة فيها «اذا لم تقدم الولايات المتحده شحنات ضخمة وعاجلة من السلاح، فسوف يؤدي ذلك الي انسحاب اسرائيل من الحرب».

ثم لدينا الآن في هذا ، وهو الاهم، شهادة مباشرة بل اعتراف صريح من أمريكا نفسها. فقد نقلت الاخبار عن المصادر الامريكية

تصريحها بأن اسرائيل كانت «تواجه مأزقا استراتيجيا حرجا وطريقا مسدودا في اثناء حرب اكتوبر . فقد كشفت الحرب لاسرائيل قابليتها للهزيمة، وان شحنات الاسلحة الامريكية اليومية هي وحدها التي انقذتها»واضافت تلك المصادر في تلميح كاشف انه «عندما تجد إحدى الدول نفسها عاجزة عن توجيه ضربات لإعدائها، فلا بد ان تعترف انها تواجه مأزقا استراتيجيا». واذا كان ذلك كذلك، فان علينا، مهما يكن، ان نعترف ايضا بأن عملية الاختراق، رغم انها نصر ثانوي بالنسبة لنصرنا الاساسي ولا تغير من النتيجة الشاملة للمعركة، قد اساءت بالتأكيد الى انتصارنا الكبير واخذت بالضرورة شيئا من وقدته وسناه وقدره واطفأت قدرا من بريقه ولمعانه. هذا عدا ما اعطت من مادة دسمه لدعاية العدو ليقلل زورا وبهتانا من حجم انتصارنا الحقيقي ومن حجم هزيمته الحقيقية ، بل وإلى حد قلب معه هزيمته الحقيقية الى نصر ملفق ونصرنا الحقيقي الى هزيمة مكذوبة . ولولا هذه العملية لظل انتصارنا الاول والاولى بكامل حجمه وثقله وبكل سموقه وشموخه . ومن الملاحظ بالفعل بين جماهير الشعب ان موجة الامال الشاهقة العليا التي اثارتها انتصاراتنا الاولى قد أصابتها بشئ من الفتور والهبوط الملحوظ تلك العملية الاختراقية. ان المد العربي، وإن لم يتحول قط إلى جزر، فقد فقد لا شك بعضا من اندفاعه وارتفاعه.

وها هنا لا بد لنا ان نعترف بأنه كان خطأ لا يبرر كما لا يغتفر ان سمحنا لتلك الثغرة وتلك الاختراقة ان تحدثا. لقد كان من الواضح منذ الايام الاولى للمعركة ان العدو مستميت الى حد الانتصار من أجل تحقيق هذا الهدف. وهو من قبل لم يخف تهديده بأن أى محاولة من جانبنا لعبور القناة شرقا لن تستبعد عبوره غربا. وصحيح ان من الثابت الان ان التخطيط المصرى لم يغفل الاحتمال، بل واعد واستعد له وتدرب عليه مرارا. لكن هذا لا يغير من الحقيقة والواقع.

كذلك فلقد كان مفهوما من جانبنا انه مهما تطورت احداث المعركة في سيناء، فكحد ادنى لن يسمح ولا ينبغى قط ان يسمح للعدو بأن ينقل المعركة الى ارض الوادي. وليس ردا ان يقال ببساطة ان الحرب سجال وكر وفر، تحتمل كل الاحتمالات، او انها يوم لك ويوم عليك. وليس ردا - إلا في سياق واحد فقط، وهو الحرب المتصلة . اعنى انه لا تبرير لعملية الاختراق تلك الا فى سياق استمرارالقتال بعدها كما كان قبلها.

أما وقد توقف القتال، فقد اصبح المعنى الوحيد المقبول والبديل الوحيد للاستمرارهو كما سنرى الاستئناف، أى العودة الى القتال، الا اذا انسحب العدو سلما.

مهما يكن، فأما وقد حدث ما حدث، فقد أصبح السؤال هو كيف ننقذ انتصارنا الغالي الثمين [والحقيقي جدا] ونستنقذه من حملة تشوية العدو وتمييعه ان لم نقل تبديده وتخريبه . لقد رد انتصارنا الاول اعتبارنا في العالم، وقد وجب الان ان نرد له اعتباره هو الآخر. وهذا يعني ان واجبنا هو ان نصحح موقفا، لا نقول سيئا، ولكن كان يمكن ان يكون اروع وأعظم وأكمل . كان الواجب ان نحول التطور الانتهازي المختلس من «خصوم» علينا وعلى حساب المعركة إلى «اصول» لنا ولنصرنا. فكيف؟

لقد كان المفروض بحسب نصوص اتفاقية وقف اطلاق النار وشروطها الستة التي اعتمدتها الامم المتحدة وضمنتها الدولتان الاعظم ، ان ينسحب العدو «فورا» الى ما وراء خطوط ٢٢ اكتوبر، أي الى بقعة لا تزيد على ٧٠ كيلو مترا مربعا حول الدفرسوار. ولكن كان من الواضح لمدة طويلة ان العدو يماطل ويسوف ويساوم ليتهرب من قضية الانسحاب الاكبر والكلي التي ستكون وحدها صراعا آخر بلا حدود على ما يبدو. ويبدو كذلك ان العدو لم يكن يريد أن يربط بين الانسحاب الى خطوط ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣وبين الانسحاب الى خطوط ٤ يونيو ١٩٦٧، بل كان يحاول ويتحايل على عدم الربط بينهما ليساوم بالأولى على الثانية وليضع هذه عقبة مانعة في سبيل تلك . ولذا كان لا

بد من انذاره والزامه بحد زمني أدنى للإنسحاب . فاذا لم يفعل فلا مفر من القوة، لا مفر من العودة إلى القتال.

إن وضع العدو الاستراتيجى غرب القنال لم يكن «هشا» فحسب كما قيل، ولكنه «هامشى» ايضا. اعنى انه وضع «حدى» يمكن ان يتطور (سيان هنا ان تقول يتدهور) الى احد النقيضين بدفعة كبرى اما من هذا الجانب او ذلك. فقد كان من المتصور أن يحاول العدو فى نوبة من اليأس ان يتم اختراقه بمباغتة غادرة، بينما كان يمكن ان يسحق ويباد إبادة كاملة بضربة منا قادرة. ان النصر التكتيكى الذى أحرزه العدو هنا كان يمكن تماما ان يتحول إلى هزيمة استراتيجية كبرى وأخرى له .

وقد لخص نائب رئيس وزراء مصرى هذا الموقف كله بدقة فقال : إنه حين «تحركت اسرائيل بعد ٢٢ أكتوبر فى غرب القناة للحصول على مركز سياسى، وهى تعلم ان مواقعها العسكرية فى المنطقة محاطة بقواتنا المسلحة بل هى فى مصيدة تحرمها من ايه قيمة عسكرية، فإن الأمر بالنسبة لرفع هذا الجيب الاسرائيلى كان يتمثل فى إجراء عملية عسكرية كاملة شرق القناة وغربها مثل عملية ٦ اكتوبر. وكانت هناك موازنة بين آمرين وهما: اما دخول المعركة بقواتنا فى الشرق والغرب على ضفتى القناة، او نبحث اقتراح كيسينجر الخاص بفصل القوات

ليخرج العدو من الضفة الغربية نهائيا وليس فقط العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، وذلك بعد ان وضح للعدو انه تم تعزيزنا في غرب القناة بقوة كبيرة فى الفترة الاخيرة».

معنى الانسحاب

وهذا بالدقة ما أثبتته وقائع التطورات اللاحقة، وان يكن بغير طريق القتال، فقد أدرك العدو، كما أعلن آلون ودايان وغيرهما صراحة ، ان حرب الاستنزاف التي تعرضت لها قواته على جبهة القناة كانت ستتصاعد حتما الى حرب جديدة «ستعرض أمن اسرائيل للخطر». او كما اعلنت مايير «لم يكن امامنا من بديل لفصل القوات سوى مواجهة حرب جديدة مع مصر » ولهذا وبعد أقل من ثلاثة أشهر من المعركة، وبعد كل مواقف التصلب والعناد والمزايدة، وبدون أدنى تنازلات من جنب مصر، اضطر العدو مرغما فى اتفاق الفصل بين القوات الى القبول بالانسحاب التام لا من الضفة الغربية برمتها وحدها، ولكن ايضا من نطاق كبير من الضفة الشرقية كذلك.

ففى هذا الاتفاق الذى وصفته صحفية اسرائيلية بأنه «مخاطرة محسوبة تعطى مزايا سياسية واستراتيجية مهمة لمصر»، سلمت اسرائيل بالانسحاب المباشر من جميع الاراضى المحتلة الواقعة غرب

خط يوازي قناة السويس بطول امتدادها ويبعد عنها ٣٠ كم، اى قرب مشارف ممرى متلا والجدى، وبالفعل اخذ العدو صاغرا، بعد شهور معدودة من المعركة وخلال اسابيع محدودة منذ الاتفاق، ينسحب كما جاء، ولكن في خط محدد عكس ما جاء: من الضفة الغربية أولا، من الجنوب الى الشمال على التوالى، ثم من الضفة الشرقية، من الغرب الى الشرق على الترتيب. وبذلك اصبحت مصر مسيطرة على جانبى القناة تماما، واتسع نطاقها المحرر في سيناء، وتحول الميزان الاستراتيجى لصالحها، واصبحت فى الوضع الاستراتيجى الافضل، ومنه يمكنها التقدم فورا الى معركة فاصلة اذا لزم الامر مستقبلا.

واذا كان لهذا الانسحاب من معنى، فهو انه اساسا اعتراف، اعتراف مزدوج: أولا، بخطورة وضع الجيب الاسرائيلي غرب القناة، وفي هذا فان اعتراف دايان صريح تماما: «ان وجهة النظر القائلة بأن على إسرائيل تحتفظ بمواقعها على الضفة الغربية من القناة هى وجهة نظر خاطئة. انها ربما تؤدى الى انتصار براق، ولكنه لا يؤدى بدوره إلا إلى حالة حرب دائمة». اما الاعتراف الثانى فهو بأن النصر العسكرى الحقيقى في أكتوبر إنما كان للعرب. وخير ما عبر عن هذا ما قاله مصدر عسكرى فرنسي بعد اعلان اتفاق فصل القوات من «اننا

نستطيع الآن ان نقول بعد ثلاثة شهور من النجاح العسكرى المصرى ان ما حدث فى أكتوبر اصبح امرا واقعا مسلما به». وقد فسر ذلك بان اجتياز الجيش المصرى لقناة السويس فى ٦ أكتوبر يمثل نجاحا فعليا واستراتيجيا بحيث لا يمكن تصور المطالبة بإجلاء القوات المصرية من مواقعها، بينما ان اجتياز الجيش الاسرائيلى إلى غرب القناة لم يكن مأمونا سواء استراتيجيا أو عسكريا.

وليس من شك فى أن هذا الانسحاب نصر سياسى ، لأنه يعنى أن إسرائيل لم تعد فى وضع الذى يفرض إرادته ، بل هى على العكس التى ترضخ للإرادة العربية . ولاشك كذلك أن هذا النصر السياسى يمثل أولى ثمرات النصر العسكرى فى أكتوبر ، ولولاه لما كان . واعتراف مايير هنا صريح وقاطع . فقد قالت عن إتفاق الفصل بين القوات أمام الكنيست انه «ثمرة ما انتهت إليه الحرب ، وانعكاس لانتصارات مصر فى الأيام الأولى من القتال» كذلك فليس أدل على هذا من موقف المعارضة وكثير من الإسرائيليين الذين اعتبروا إتفاق الفصل «استسلاما تاما» و «ليس تخفيضا للقوات وإنما تخفيض لأمن إسرائيل» كما قال بيجين : «وتنازلا من جانب واحد بلا مقابل» عن «الورقة السياسية والعسكرية الرابحة الأساسية والوحيدة» فى يد إسرائيل كما قال شارون بطل الثغرة الذى استقال احتجاجا على

الاتفاق ، والذى أعلن أيضا أن صيغة خط الممرات ليست إلا خدعة لأن ممرى متلا والجدى «لا يحميان الا منطقة محدودة من سيناء» .

أما كتلة ليكود فقد هاجمت الاتفاق قائلة «لقد تصرفنا كمنهزمين فى الحرب الأخيرة» ، وأضافت «أننا لم نحصل على شىء فى المقابل ، لا الاعتراف بإسرائيل ، ولا وضع حد لحالة الحرب ، ولا حتى مبدأ نزع سلاح الأراضى التى يتم الانسحاب منها» . كذلك وصف بعض أصدقاء إسرائيل الاتفاق بأنه «ليس فى صالحها» . هذا بينما ذهب إسرائيليون كثيرون إلى أن الانسحاب قد يكون الخطوة الأولى «نحو تصفية إسرائيل على مراحل» ، على حين ذهب آخرون الى أن كيسنجر ، مهندس الاتفاق، أراد السلام «فأتانا بكارثة» .

ثم نعود ، بعد أن استكملنا رحلتنا طويلة وموضوعية حتى نهايتها، إلى سؤالنا الأصلى : لمن النصر ؟ خلاصة الرحلة كلها وجوهر الحقيقة الواقعة برمتها هى أن النصر الميدانى التدميرى كان لنا بالقطع ، ولكن شابه وضع القوات الاقليمى ، غير أن هذا الوضع تكفلت بتصفيته التطورات التى حتمها النصر الأول . بذلك استرد نصرنا على الجملة وزنه الحقيقى واتضحت أبعاده الطبيعية ، ولم يعد هناك من مبرر أو حتى مجال للتساؤل عما اذا كنا انتصرنا أم لم ننتصر .

بل إن هناك ملاحظة لعلها اخذت تفرض نفسها بالتدريج على الجميع الآن ، وهى أنه كلما مضى الوقت وتقادم العهد بالمعركة ، زدنا اقتناعا بنصرنا وزاد نصرنا حجما فى أنظارنا العالم . بعد المعركة مباشرة كان ثمة حيزة فى حقيقة النصر عند البعض ، ثم عدم وضوح كاف ، ثم اقتناع محدود ، ولكن مع الوقت تحول الاقتناع المتحفظ الى اقتناع مطلق والشك إلى يقين قاطع . كأن حقيقة نتيجة المعركة كانت كلوحة مرسومة كلما اقتربت منها ضاعت ملامحها في تفاصيلها ، ولكى تراها على حقيقتها لابد أن تبتعد عنها بقدر كاف .

لقد كان النصر العسكرى فى حرب أكتوبر عموما لنا بلا ريب ، ويمكن الآن بتحديد اكثر أن نضيف : ربما بنسبة ٢ : ١ بمعنى أن نصرنا يعادل ضعف نصر العدو وأن هزيمته تعادل ضعف هزيمتنا ، وفى المحصلة فأن النتيجة العامة ليست ٥٠ ـ ٥٠٪ أو ٥١ ـ ٤٩٪ كما يود أن يحددها البعض . واذا كان من المبالغة أن نضعها عند ٧٥ ـ ٢٥٪ فلنقل مثلا ٦٦ ـ ٣٣٪ بالتقريب ، فإذا بدا لأحد أن هذه مبالغة مسرفة ، فالرد هو أن الأمر أساسا نسبى . بل إننا لنذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إننا اذا فكرنا مليا أو حتى وهليا ، ولكن بموضوعية ، فسنجد على النقيض تماما من أوهام العدو أن النصر العربى فى

١٩٧٣ أكبر من النصر الإسرائيلي في ١٩٦٧ نسبيا ، نكرر نسبيا ، وإن لم يكن على الاطلاق بالطبع .

فلأسباب متعددة ومعقدة ولكنها مفهومة ومعروفة ، كان الحجم المطلق لنصر العدو في يونيو أكبر جدا من نظيره العربي في أكتوبر ، ولكن بالقياس إلى الظروف الموضوعية والملابسات المحيطة ، لابد أن يعد الأخير أكبر نسبيا إلى حد أو آخر . فنصر العدو في ١٩٦٧ إنما تم بغارة من طراز بيرل هاربر لم تحدث بعدها مواجهة أو حرب حقيقية ، كما أن سيناء كانت غير محصنة للمدافعين ، أما في ١٩٧٣ فقد حقق العرب انتصارهم من موضع الهزيمة أولا ، والهزيمة البشعة ، وهذا فارق نفسي رهيب ؛ ثم كانت هناك ثانيا استحكامات وتحصينات لا مثيل لها من قبل في سيناء والجولان ، لقد كان نصر العدو في ١٩٦٧ كبيرا لكنه مزيف مختلس ، بل كان كبيرا ، لأنه مزيف مختلس ، وكان نصرنا في ١٩٧٣ محدودا نسبيا ولكنه حقيقي ومستحق الى أقصى حد .

وإذا كان العدو الإسرائيلي هو أكثر من قلل أو حاول أن يقلل من حجم انتصارنا وقيمته بالدعاية وحملات التشويه ، فذلك أمر طبيعي جدا وجد مفهوم . لكن الحقيقة ، على غرابتها ، هي أن هذا العدو نفسه هو أكثر من يدرك القيمة الحقيقية لذلك النصر ، ليس في الدنيا من

يدركها أكثر منه . هو وحده الأقدر على معرفة معنى تحطيم خط بارليف، الذى يعرف حقيقته أكثر من أى أحد آخر ، والعبور والاجتياح ، ثم المعارك الجبارة ثم الصمود بعد التدخل الأمريكى .. الخ .. إن العدو ، أكثر من يقلل من قيمة انتصارنا دعائيا ، هو وحده أكثر من يدرك فى قرارة نفسه وبلا أوهام ولا خداع للنفس القيمة الحقيقية لهذا الانتصار.

أما للذين يتصورون منا أن من «الغفلة» وجدها أن نعتبر معركة اكتوبر نصرا لنا ، فنحن نقول إنما الغفلة الحقيقية أن نهدى العدو ، متبرعين أو متسرعين أو متذرعين ، نصرا وهميا لم يحققه ، وأن ننظر بعينه الوحيدة إلى الموقف . من الغفلة حقاً أن نضع انتصارنا فى أكثر من حجمه الطبيعى ، بل إننا لنقرر أن أكبر خطر يمكن أن يهدد انتصارنا اليوم هو أن نضعه فى أكبر من حجمه الحقيقى . أو كما قال الرئيس الجزائرى «لست أحب أن نغالى فى تقدير انتصاراتنا حتى لايقع المواطن العربى فى الخطأ الذى وقعت فيه اسرائيل بعد ١٩٦٧» ، «وإن كان يضيف بعد ذلك «أننا لم نهزم اسرائيل ، ولكننا هزمنا الخوف ، وهذا من أهم مكاسب المعركة» ولكنها يقينا أكثر من مجرد غفلة أن نضع انتصارنا فى أقل من ذلك الحجم ، ولا خلاف على أن نصرنا جاء منقوصا ، وإنجازاتنا كانت طموحة ولكنها دون المطلوب ،

وأن نصرنا لن يأخذ معناه ولا أبعاده الحقيقية إلا إذا استكمل مستقبلا بطريقة أو بأخرى .

لا خلاف ، ولكن الأمر بعد ذلك يتوقف على زاوية الرؤية ، وكيف ننظر إلى تقدير الموقف : أهو كوب نصف ملآن أم نصف فارغ ؟ وهل ننظرْ إلىْ أحد وجهى العملة دون الآخر أم اليهما معا ؟ العدو لا يريد إلا أن يرى جانبا واحدا من المعركة هو الجزء الأخير منها ، ولا يريد أن يرى الجانب الآخر والأكبر والأخطر منها ، كأنما هو الوجه الذى لا يرى قط من القمر . إنه لاينظر الا إلى ١٦ أكتوبر ، ويعمى عينه عن ٦ أكتوبر .

ونحن انتصرنا لأننا بدأنا من نقطة الصفر بل من تحت الصفر فارتفعنا الى أكثر من النصف ، وإسرائيل انهزمت لأنها بدأت من القمة المطلقة فهوت إلى ما دون النصف . وانجازة أكتوبر الحقيقية هي أنها كسرت الاتجاه النزولى السابق ، فلقد كنا كحجر ضخم يهوى من قمة جبل شاهق وفى اتجاهه بفعل الجاذبية الأرضية الحتمية الى أن يرتطم بالسفح ويتهشم . ثم فجأة وبقوة الدفع الأقوى تغلبنا على قوة الجاذبية فبدأنا عملية التصاعد . أو اذا شئنا صورة أخرى تقابل صورة راكب الدراجة يصعد الطريق الجبلى متعلقا بعربة لورى ضخمة، تلك التى رسمها دايان لدور إسرائيل فى معركة العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ،

فلقد كنا إلى ما قبل أكتوبر كعربة تعطلت «فراملها» تنزلق على سفح منحدر مخيف ، فجاء أكتوبر كحجر ضخم اعترض طريق عجلاتها فأوقفها فعادت تصعد المنحدر لأول مرة بقوة وبأقصى سرعة ونحو أعلى قمة .

وإذا كان لنا أن نختتم مناقشتنا بحكم نهائى ومسئول ، فكما لخص الرئيس السودانى الموقف كله «إننا فى السودان معكم نرقب بالأسى محاولات التشكيك فى انتصاركم العظيم» تلك المحاولات التى «لن تنال من انجازكم العظيم .. ونصركم الباهر والذى كان وسوف يبقى مفخرة للأمة العربية .. إن انتصاراتكم فى أكتوبر المجيدة ، لم تكن اقتحاما لمواقع ظنها العدو منيعة ، كما لم تكن اجتيازا لمواقع ظنها العدو حصينة، كما أنها لم تكن تحديا لغرور القوة الإسرائيلية فحسب ، وإنما كانت بداية عصر جديد تخلف كل ما كان قبله من فنون القتال وعلومه» ثم أخيرا كما وضح الرئيس السادات بصورة حاسمة فى تقديمه لورقة أكتوبر «خرج البعض وشكك .. شككوا ولا زالوا يشككون حتى هذه اللحظة .. قالوا إن مصر انهزمت ، وأننى لم أكن لدى الشجاعة لأقول أنى انهزمت. كلا ، مصر لم تنهزم. مصر انتصرت أروع انتصار» .

الفصل السادس

٦ أكتوبر والاستراتيچية العسكرية والإقليمية

فى الاستراتيچية العسكرية

منذ الحرب العالمية الثانية ، أكبر ملحمة عسكرية كوكبية فى التاريخ البشرى ، وفى ظل العصر النووى نفسه ، لم تحدث حرب ما انقلابا فى الفكر الاستراتيچى والنظريات العسكرية مثلما فعلت حرب أكتوبر . فبإجماع كل الخبراء العسكريين ، قادة ونقادا ، محترفين ومؤرخين ، جاءت حرب أكتوبر «ثورة» استراتيجية جذرية كاملة قلبت معظم مفاهيم الحرب التقليدية وغير التقليدية وثورت كثيرا من قواعد الجغرافيا العسكرية بحيث جعلت من الضرورى إعادة كتابة «كتاب الحرب» من أساسه . ولقد كانت هذه النتيجة هى كبرى مفاجآت هذه المعركة ، لا تقل عن مفاجأتها هى نفسها .

الحرب الكورية مثلا ، وحرب الهند - الباكستان ، وحتى حرب فيتنام المطوطة المطولة التى استمرت سنين عددا ، كانت كلها حروبا تقليدية

رغم حداثتها وعصرية الأسلحة التى استخدمت فيها ، حتى حرب يونيو، التى اعتمدت على نظرية الحرب الخاطفة ، لم تقدم جديدا ثوريا بالقياس إلى نموذجها الأصلى الذى ابتكرته ألمانيا الهتلرية فى الحرب الثانية ، ومن هنا أصبحت حرب أكتوبر تجربة جديدة ، مدرسة جديدة ، انكبت عليها دوائر الجيوش والاكاديميات العسكرية والمعاهد الاستراتيجية ، تعكف على نتائجها ومغازيها ومدلولاتها ومحمولاتها . وسيمضى وقت طويل بالتأكيد قبل أن تأخذ هذه النتائج كل أبعادها وأعماقها الكاملة .

على أن الشىء الذى يمكن القطع به من الآن بكل اطمئنان وثقة هو أن المعركة أثبتت أصالة وجدة كلتاهما حقيقية ومحققة من الناحية الاستراتيجية تخطيطا وتنفيذا وتطويعها واستخداما للسلاح . إنها فى كل هذه المجالات تختلف اختلافا بينا عن كل الحروب المحدودة وغير المحدودة التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية . وهذا هو بالفعل مدار تفردها ومحور الاهتمام العالمى الملتهب بها .

فمما لم يعد يتطرق اليه شك أن المعركة قد أضافت اضافات رائدة أصيلة محددة وغير تقليدية ولا مسبوقة ، وأثبتت بذلك أن المدرسة العسكرية العربية ، وخاصة المصرية ، قد ساهمت مساهمة مبتكرة وفذة فى الفن العسكرى ، ضربت بها أرضا جديدة بكرا فى العلم

الاستراتيجي والحربى . المعركة ، باختصار ، أثبتت أن العسكرية العربية قد انتقلت ، ربما لأول مرة ، من مرحلة التلمذة الحربية والنقل الى مرحلة الخلق والابتكار .

وأبسط دليل على هذا أن جيوش العالم بدأت تأخذ عن المعركة كثيرا من خبراتها ودروسها ، ومن انجازات العسكرية العربية بعض خطوطها التكنولوچية والهندسية وخططها الاستراتيچية والتكتيكية . على سبيل المثال ، دشم مخابىء الطائرات المصرية المبتكرة منذ ما بعد يونيو اقتبس منها حلف الاطلنطى الكثير كما يقال . وفى هذا قال وزير الدفاع الأمريكي بأسلوب مباشر «ليس ثمة على الاطلاق غير الدشم وسيلة لحماية الطائرات من إغارة الطيران المنخفض » وبالمثل اقتبس حلف وارسو وبعض الاشقاء العرب اضافات الهندسة العسكرية المصرية في مجال بناء وتصميم قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، والتى توصلت اليها بالتجربة الواقعية أثناء ملحمة إنشاء شبكتها العظيمة غرب القناة في أخريات حرب الاستنزاف . هناك أيضا تطوير تعدد ممرات المطارات وتصميمها وحمايتها ، الاستخدام الثورى للمشاة الصاروخية والميكانيكية فى جبهة القناة أصبح الآن نموذجا يحتذيه الجميع .. الخ .

وإذا نحن نظرنا بعد هذا نظرة كلية علوية الى معركة أكتوبر فلا شك أن أبرز ما يجبهنا هو أنها بحق «حرب المفاجآت» فهذه الحرب العجيبة ـ وعجيبة هى كما سترى بالتأكيد ـ مليئة بالمفاجآت النادرة بل التناقضات المذهلة ، كما هى حافلة بالأوليات والأخريات ، بالقمم والكبريات ، والبدايات والنهايات . انها غنية جدا بالطفرات الاستراتيجية الجديدة وخصبة الى أقصى حد في نتائجها ودروسها العسكرية بحيث قد تكون استراتيجيا نهاية عصر وبداية عصر ، أى نقطة تحول تاريخية بكل مقياس .

من سجل «الأوليات» بها ، على سبيل المثال ، أنها أول حرب محدودة في ظل الوفاق ، إنها أول حرب تكنولوجية فى التاريخ . ومن سجل «الكبريات» بها إنها قد تكون أكبر حرب صحراء في التاريخ الحديث ، وكذلك أكبر معركة مدرعات فيه . ولكن ممن سجل «أخرياتها» أنها ـ للمفارقة الغريبة ـ قد تكون أيضا آخر معركة دبابات كبرى في تاريخ الحروب !

والواقع أن هذه المفارقة الأخيرة تكفي وحدها لتضع أيدينا على المفتاح الحقيقي لجوهر طبيعة هذه الحرب الثورية المثيرة ، والذى هو وحده المدخل الطبيعى لدراستها وتحليلها . إنها أساسا «حرب المتناقضات» ـ نعم المتناقضات ، وإلا لما ثورت القواعد المقررة والأصول السائدة .. ونستطيع هنا أن نرصد خمسا من هذه المتناقضات على

الأقل، سندير حولها مناقشتنا وتحليلنا بالتفصيل : حرب محدودة ولكنها بالغة الكثافة ، حرب طويلة ولكن مصيرها تقرر في ساعات ، حرب الطيران ضد الصواريخ ، حرب دبابات ظاهريا ولكنها حرب مشاة في الدرجة الأولى ، وأخيراً حرب تكنولوجيا ولكن حرب القوة البشرية أكثر .

حرب محدودة لكنها كثيفة

فأولا ، حربنا بحسب التصنيف الاستراتيجي الحديث والمتداول حرب «محلية أو اقليمية» ، «صغيرة أو محدودة» تدور بين دول اطراف متوسطة أو صغيرة الحجم والقدرات ، فعلى المستوى الاستراتيجي ، كما يقول بوفر ، «فإن الموقف العالمي الحالي ، ووجود القوتين الأعظم وتهديدات الحرب النووية ، قد جعل الحرب بين الدول الصغيرة محدودة من حيث الاهداف ، ومن حيث الزمن ومن حيث الساحة . ولقد كانت حرب رمضان حربا محدودة» . وهي من هذه الزاوية تأتي - بالتعريف - في الفئة أو الطبقة نفسها التى تضم حرب فيتنام وحرب الهند - الباكستان ، عدا حرب يونيو بالطبع . ومع ذلك فإنها تختلف عنها جميعا اختلافاً كميا يكاد يصل إلى حد الاختلاف الكيفي .

فأما مع حرب فيتنام ، فإن الاختلاف واضح . حرب فيتنام تتفوق خارج كل مقارنة في المدة والطول بطبيعة الحال ، وكذلك في كميات

الأسلحة الرهيبة والخسائر المادية والبشرية الهائلة بحكم أن الدور الأمريكي هناك كان مباشرا وإباديا من البداية إلي النهاية ، ولكن الفارق الأساسي هو أن المواجهة كانت بين قوات نظامية من جانب «أمريكا» وحرب عصابات وحرب شعبية من الجانب الآخر «الثوار الفيتناميون» أما اذا قارنا حرب أكتوبر بسابقتها ونقيضتها حرب يونيو، فإنها حتى بصرف النظر عن اختلاف النتائج ، أكبر حجما الى أقصى حد في كميات الأسلحة وأعداد القوات ، فضلا عن أنواع الأولى ونوعيات الثانية .

والشيء نفسه صحيح حين نقارن بحرب الهند ـ الباكستان ، على الرغم من الفارق الفادح فى حجم السكان والموارد ومساحة الدول الاطراف فى الحالتين «عدد سكان الدول المتحاربة في حرب الهند ـ الباكستان نحو ٦٨٠ مليونا . مقابل ٤٦ مليونا فقط لأطراف حرب اكتوبر!» كذلك فرغم تشابه أنواع ومصادر السلاح الذى استخدمه كلا الجانبين في كلتا الحربين ، اللتين كانتا أيضا مواجهات تصادمية بين جيوش نظامية أساسا ، فقد كانت حرب الهند ـ الباكستان تقليدية بصفة عامة فى استراتيجيتها وأساليب استخدام السلاح فيها ، بينما أبدت حرب أكتوبر أصالة وتفردا غير مسبوقين فى استراتيجية الاصطدام والاقتحام بعامة وفى استخدام المشاة والصواريخ بخاصة .

على هذا يمكننا أن ننتهى بسهولة واطمئنان الى أن حرب أكتوبر هى أكبر وأخطر ، كما هى آخر حرب محلية محدودة في الفترة المعاصرة ، ومع ذلك فإن الأمر أبعد من هذا . فحرب أكتوبر ـ للغرابة والدهشة ـ تكاد ترقى أيضا بأبعادها ومقاييسها العسكرية والميدانية الى مستوى حرب كبيرة ، إنها معركة تليق تماما بالدول الكبرى ولا تتناسب في الحقيقة الا مع أحجامها وطاقاتها وقدراتها . بل ان هذه الدول الكبرى التقليدية ، باستثناء القوتين الأعظم ، لتنظر الآن بدهشة وحيرة لما كشفت عنه الحرب من معدل استهلاك فاحش في السلاح لا تستطيع ترساناتها أن تصمد لمثله إلا بالكاد ، بل إن من المحللين من يعتبر حرب أكتوبر اعنف حرب عرفتها البشرية وأشدها ضراوة وكثافة ، وأنها تمثل «مسودة Blue Print » أو تصغيرا «ماكيت» للحرب العالمية التقليدية في المستقبل ، كتلك التى يمكن أن تنشب مثلا بين حلفى الاطلنطى ووارسو، إنها باختصار ترسم صورة المستقبل ، حرب القرن الحادى والعشرين، تفعل ذلك أولا بحجم القوات التى قذف بها فى المعركة ، وتفعله بحجم ونوع السلاح الذى استخدم فيها ، وتفعله أخيرا بكثافة الاثنين بالنسبة إلى مساحة الميدان .

فالمقدر أولا أن ما لا يقل عن مليون جندى قد شاركوا فى المعركة من كل الاطراف ، تعاملوا بنحو ١٠٠٠ طائرة وقرابة ٣٠٠٠ وربما ٤٠٠٠ دبابة ، والواقع أن أرقام الدبابات بالذات تتضارب ، ولكنها تتضارب دائما نحو المزايدة ، فأما اسرائيل فهناك مصادر تقدر عدد دباباتها التي اعتمدت عليها في المعركة بنحو ١٧٠٠ دبابة ، وهذا الرقم - تضيف هذه المصادر - يزيد على ما تملكه دولة كبرى كبريطانيا ! بل تذكر مصادر أخرى أن إسرائيل التي كنا نظن أن لديها ١٠٠٠ دبابة ، ٢٧٥ طائرة ، تكشف أن لديها ٢٠٠٠ دبابة ، ٥٠٠ طائرة . أما عن الجانب العربي ففي تقرير للجنة الكونجرس الأمريكي عن الشرق الأوسط أن الهجوم المصرى اعتمد على ٢٦٤٠ دبابة ، والسورى على ٢١٠٠ دبابة ، أى بمجموع قدره ٤٧٤٠ دبابة «أى أكثر من ضعف وأقل من ثلاثة أمثال الرقم الإسرائيلى» .

بهذا يكون مجموع دبابات كل الاطراف المتحاربة هو ٦٤٠٠ دبابة إلى ٦٧٤٠! وهذا الرقم الرهيب لا ندرى مدى نصيبه من الصحة بالضبط، ولكنه على أية حال يشير إلى مدى فداحة حجم هذه الحرب «المحدودة» . ومهما يكن فقد لايكون بالرقم المسرف فى المبالغة اذا نحن ذكرنا حقيقة أخرى مذهلة ومؤكدة ، وهي أن مجموع ما دمر من دبابات لكل الاطراف المتحاربة فى ٢٠ يوم قتال هو ٢٥٠٠ دبابة ، أى أكثر مما

تم تدميره في الحرب العالمية الثانية كلها كما تؤكد بعض المصادر. بل لقد ورد في حديث للرئيس السادات الى النيوزويك أن هذا لعدد هو ٢٠٠٠ دبابة : «ان نحوا من ٢٠٠٠ دبابة فقد على الجانبين خلال حرب أكتوبر ، وهو أكبر بكثير من أى شيء حدث في الحرب العالمية الثانية» .

هذا عن الدبابات ومعها الطائرات ، أما عن سائر الأسلحة الأخرى بجميع أنواعها ، فلا سبيل الى حصرها ، ولكنها بطبيعة الحال تتناسب مع تلك الأسلحة القاعدية ، ويكفي هنا ، على سبيل المثال ، أن نذكر حقيقة واحدة ولكنها عميقة الدلالة ، فلقد قدر أن ما صبته مدفعيتنا وحدها ـ وللمدفعية المصرية تاريخ عريق مشهور ومشهود له ، كان آخر فصوله معركة المدافع عبر القناة في حرب الاستنزاف ـ مجموعة ما صبته طوال حرب أكتوبر من البداية الى النهاية يعادل في مجموع قوته التفجيرية قوة قنبلة نووية صغيرة !

فإذا نحن نسبنا هذا كله الى رقعة ميدان المعركة المحدودة نوعا ، لكانت كثافة الحرب من أعلى ما عرف في الحروب الحديثة ، وفي هذا المعنى قال بعض المعلقين العسكريين أثناء المعركة ، مثل ك. تانر مراسل اليونايتدبرس ، ان خبراء الدفاع في العالم في حيرة تامة ازاء هذه الأعداد الهائلة من جانب القوات العربية التي تخوض الان قتالا ضاريا

لم تعرفه حتى الحرب العالمية الثانية نفسها ، حتى فى أخطر مراحلها ، حتى في العلمين أو ستالينجراد . ثم يردف الكاتب نفسه قائلا إن خبراء الدفاع يرون أن اشتراك مثل هذه المعدات العسكرية الثقيلة على مساحات أرض صغيرة ومن جانب دول صغيرة نسبيا هو ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، بما فى ذلك معارك أوربا بين الدول الكبرى خلال الحرب العالمية الثانية ، وهى التى شاركت فيها الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وبريطانيا و ألمانيا ما بين سنتى ١٩٣٩ ، ١٩٤٥ .

ولا ننسى بعد هذا أن معظم الأسلحة التى دخلت المعركة هى أسلحة بالغة العصرية والحداثة ، فائقة التطور ، أغلبها بحكم العصر لم تعرفه حرب أخرى من قبل . ومع ذلك فكما أكد الخبراء العسكريون فى الغرب فقد كانت هناك قدرة قتالية عالية جدا وخبرة ومهارة فائقة فى ادارة معارك الدبابات خاصة والحرب الحديثة عامة أثناء حرب أكتوبر ، فاذا تذكرنا أخيرا أن الدول المتحاربة كلها دول صغيرة نامية أو شبه نامية ، وأنها لا تنتج السلاح ولا تملك امكانات الصناعات الحربية الثقيلة بل وحتى الخفيفة الصغيرة الى حد أو آخر ، لتأكد لنا تناقض الموقف كله .

ويزداد التناقض الى حد مثير حين ننظر الى المستقبل ، المستقبل القريب جدا ، فلقد أعلنت اسرائيل عن ضرورة مضاعفة اسلحتها للحرب القادمة ، فقررت رفع قوتها من الطائرات إلى ١٠٠٠ طائرة ، ومن الدبابات إلى ٤٠٠٠ دبابة ! هذا بينما أعلن دايان مؤخراً أن العرب قد أعادوا التسلح من جديد بعد أكتوبر ، وزعم إن خطأ أو صوابا أن «إسرائيل تواجه اليوم قوة جوية مشتركة مجموعها ٩٢٠ طائرة ، ٤٠٠٠ دبابة على الجبهتين» ثم جاء بيجين بعد ذلك فادعى أن لدى مصر وسوريا الآن ٥٠٠٠ دبابة ، ستيرتفع فى بضع سنين إلى ٩٠٠٠ ! فإذا صح هذا تقريبا أو نسبيا ، لكان معناه أن الحرب الخامسة اذا قامت فسيشترك فيها من الطرفين نحو ٢٠٠٠ طائرة ، ٨٠٠٠ دبابة بحسب تكهنات دايان ، أو ٩٠٠٠ إلى ١٣٠٠٠ فيما بعد بحسب تكهنات بيجين وهذه أرقام تذكر لا بترسانات الدول الكبيرة ، بل بالأحرى بترسانات الأحلاف الكبرى كالاطلنطى ووارسو !

التفسير يكمن ، مع ذلك ، فى عدة حقائق كاشفة ودالة ، أولاها الطبيعة الخاصة للصراع ، فهو ليس خلافا أو نزاعا «عائليا» أو بين «جيران» على حدود أو رقع أرض أو حقوق ، بل هو صراع وجود ومصير وتحرير بين دولة دخيلة استعمارية استيطانية احلالية توسعية

وبين دول وطنية عريقة متحضرة على جانب لا بأس به من التقدم والتنمية وتسعى أساسا الى التحرير والاستقلال .

ولا يقل البعد الدولى فى الصراع أهمية بعد ذلك عن البعد المحلى . فالمعركة جزء من صراع القوى التحررية والتقدمية فى العالم ضد المعسكر الاستعمارى ، وعلى رأسهما القوتان الأعظم ، وهاتان القوتان هما اللتان تتكفلان بإمداد الاطراف المحلية بالأسلحة المتطورة وبكميات هائلة ومتصاعدة أبدا . بل ان البعض ليعتبر الصراع «منطقة تجارب» للسلاح الجديد الذى تنتجه هاتان القوتان . ومن هنا يشبهون المعركة بالحرب الأهلية الإسبانية فى الثلاثينات ، تلك التى سبقت الحرب العالمية الثانية «وبشرت» بها ، مثلما كانت حقل تجارب وانبوبة اختبار وصوبة زجاجية لترسانة اسلحتها المعدة وأساليب استراتيجيتها المخططة .

ولأن نتائج حقل التجارب تعكس أثارها على النموذج الأصلى ، وقد تلقي بظلال شاحبة أو غير مطمئنة أو مستحبة على ترسانة الأسلحة الام ، فإن القوة العظمى الموردة للسلاح يهمها إلى أقصى حد أن ينتصر الطرف المحلى الذى يستخدم سلاحها لأنه انتصار الى حد معلوم لسلاحها ، ان ذلك يصبح جزءا من صميم صراع القوى العظمى المباشر نفسه وجزءا لا يتجزأ من توازن القوة بينها . ولهذا يتصاعد

الصراع المحلى بمنافسة مزدوجة فى الواقع : من اطرافه المتحاربة فى الميدان ، وتلك الموردة للسلاح . وهذا أيضا هو الذى يفسر تصميم أمريكا بعناد وضراوة ، نكاد نقول بحقد وحشى وغل أسود ، على امداد إسرائيل فى قلب المعركة بكل ماتملك فى ترسانتها من أسلحة جديدة ومتفوقة وبكل وسيلة نقل وتوصيل ممكنة وغير ممكنة ، حتى تضمن انتصار سلاحها أو على الأقل تنقذ سمعته وهيبته العالمية ، وهذا نفسه هو الذى جعل كيسنجر وزير خارجية أمريكا يقرر صراحة أنهم ليسوا على استعداد لأن يتركوا السلاح الأمريكى يضرب ويهزم بالسلاح السوفييتى .

حرب طويلة لكن بدايتها خاطفة

بالقياس إلى حرب الأيام الستة الخاطفة في ١٩٦٧ ، فإن حرب الأيام السبعة العشر شكلا والتى امتدت إلى ٢٠ يوما بالفعل فى ١٩٧٣ ، تعد بلا شك حربا «طويلة» . هى وحدها تعادل طول فترة القتال فى حربى ١٩٦٧ «٦ أيام» ، ١٩٥٦ «١٠ آيام» كما تزيد على ثلاثة أمثال الأولى ، وقد لا تقل كثيرا عن مجموع أيام القتال فى معارك العرب الثلاث ضد إسرائيل منذ ١٩٤٨ ، انها باختصار أطول حرب خاضتها العرب ضد العدو ونجحت في فرضها عليه رغم كل خططه ومبادئه العسكرية . أما خارج دائرة الصراع ، فإنها تكاد تعادل

ضعف طول حرب الهند ـ الباكستان «١١ يوما» آخر وأقرب حرب محلية قبل اكتوبر .

مع ذلك ، وهنا المفارقة ، فقد اكتسبت حربنا فى بدايتها على الأقل شكل الحرب الخاطفة بطريقة أو بأخرى ، فلا سبيل إلى الشك فى أن افتتاحية العبور وملحمة الخط كانتا قطعة من الحرب الخاطفة ، صاعقة سريعة وقصيرة وأخاذة كالعاصفة وضربة المانة والمانتى طائرة الكاسحة فى ساعة الصفر لا تفعل سوى أن تستكمل كل مقومات الحرب الخاطفة .

والواقع أن السرعة المطلقة كانت شرط نجاح تلك المراحل الأولى ، بعدها فقط كان يمكن للحرب الطويلة الممطوطة أن تبدأ ، تلك الحرب التصادمية والاستنزافية التى كان لابد منها لتحسم الصراع على الأرض . فبينما استغرقت عملية العبور واقتحام خط بارليف ، وانتزاع رأس جسر وموطىء قدم على الضفة الشرقية عدة ساعات فقط استوعبت معركة البر السيناتى بقية أيام الحرب التى تناهز العشرين يوما .

والمعتقد أنه بين هذين القوسين الخاطفين ، الضربة الجوية والعبور ، كان قد تحدد مسار ومصير المعركة كلها ، حتى ليسمى البعض حرب أكتوبر «بحرب الساعات الست» على غرار ما سميت حرب يونيو «حرب

الايام الستة» أو ربما على سبيل النقيض ، أو لعله الانتقاد . المهم أن حرب أكتوبر وإن تكن أطول حرب في تاريخ الصراع الا أنها أيضا تنطوى فى ثناياها على حرب خاطفة جدا . وتلك كانت المفارقة الثانية فى هذه الحرب العجيبة .

كانت المعركة اذن مزاوجة تكاملية بارعة ومتوازنة بين نوعى الحرب القصيرة والطويلة الأمد ، تأخذ محاسن ومزايا كل منهما دون أضداد وعيوب أى منهما . ولكن هذا إنما يذهب ليؤكد لنا ثلاث حقائق لا ينبغى أن تغيب عن أنظارنا قط . تلك على الترتيب هى : اعادة تقدير طول الحرب الحديثة . أهمية دور موردى السلاح فى الحرب الحديثة ، اعادة تقدير قدرات العدو وقدراتنا على أشكال الحرب الحديثة .

فعن الأولى ، لم يعد شك أن الحرب الحديثة هى بطبيعتها أميل إلى القصر ، ومن ثم الى نوع الحرب الخاطفة بالضرورة ، فالأسلحة الحديثة خاصة الجوية والالكترونية ، شديدة الفاعلية وسريعة المفعول ، شراهتها التدميرية بلا حدود . واذا كانت إسرائيل مجرد مقلد لأستاذتها النازية فى تبنى الحرب الخاطفة ، فمن المحتمل أن هتلر لم يكن المؤلف الحقيقى للبليتزكريج ، وإنما هو اكتشف فقط الامكانيات الكامنة والطبيعية للسلاح الحديث . واذا كانت حرب فيتنام حرب سنوات، فذلك لطبيعتها الخاصة جدا سياسيا وعسكريا ، بينما ضاعت

باكستان الشرقية فى ١١ يوما ولم يكن مجموع الأسلحة والقوات المحشودة فى حربها ليقل كثيرا عما ألقى به فى معركتنا الأخيرة .

وحسبنا فى هذا الصدد آن نذكر أن مجموع خسائر كل اطراف المعركة قد قدر بنحو ٢٥٠٠ دبابة «ذكر وزير الدفاع الفرنسى أن مجموع ما دمر ٤٠٠٠ دبابة ، ٦٠٠ طائرة» ، فإذا علمنا أن طاقة انتاج دولة كبيرة كفرنسا من الدبابات لاتزيد على ٣٠٠ دبابة سنويا ، لكان معنى هذا أن المعركة التهمت منها فى ٢٠ يوما ما يعدل انتاج ٨ أو ٩ سنوات «فى تقرير للكونجرس الأمريكى أن معدل الانتاج الأمريكى من الدبابات هو دبابة كل يوم أو ٣٦٥ تقريبا فى السنة» وهو يعنى أيضا أن طول مدة المعركة يتوقف على كمية ورصيد السلاح المتاح للطرفين ، أحدهما أو كليهما ، ويتناسب معه تناسبا طرديا فى التحليل الأخير .

وهذا كله يعنى أن الفارق الزمنى بين ما نسميه الآن الحرب الطويلة والقصيرة قد انكمش وتضاءل كثيرا بحيث اقتربت النهايتان العظمى والصغرى وتقارب النقيضان فأصبح الفرق بينهما محدودا نسبيا كما وكيفا ، لم يعد التمييز بين الحرب الطويلة والقصيرة بالسنين أو بالشهور وإنما بالأسابيع وربما بالأيام ، وعموما فلقد اثبتت معركتنا

أن الحرب الحديثة أصبحت قصيرة للغاية ، بضعة أو عدة أسابيع على الأكثر أو في الأعم الأغلب .

ويترتب على قصر الحرب الحديثة نتيجة أخرى بالغة الأهمية ، وهي دور عنصر المفاجأة ، لقد تحدث المعلقون كثيرا ، وبكثير من القلق ، عن دور المفاجأة في انهيار الاستحكامات والخطط الاسرائيلية وانكسار اسرائيل . وكان في اذهانهم الأخطار المشابهة التي يمكن أن تتعرض لها الدول الكبرى اذا هوجمت فجأة . والسبب لاشك ، أو جزء منه بالأصح ، أن الحرب الحديثة ، وهي على هذا القصر والسرعة ، لا تكاد تستوعب مفاجأة الهجوم حتى تكون أيامها الباقية قد أصبحت معدودة ، فهي لا تتحمل المفاجأة ثم الاستمرار طويلا .

لقد كان من الممكن في الماضي أن يتلقى طرف ضربة خطيرة في مفاجأة مباغتة ، ولكن تستطيع الحرب أن تمضي بعدها لشهور أو لسنين ، أما الحرب الحديثة التي لا تتجاوز عدة أسابيع في الظروف العادية ، فان مفاجأة تتم في يوم أو اثنين قد تحسمها ، ربما نهائيا ، فلا تستمر بعدها الا أياما معدودة ، باختصار ، ان الحرب الحديثة ، مثلما هي قصيرة بالطبع ، تعطي الهجوم المفاجىء دورا حاسما أو ميزة لم يسبق لهما مثيل في تاريخ الحروب تقريبا .

وهذا ما يؤدى بنا الى الحقيقة الثانية التي جسمتها المعركة . فلأن صراعنا يعتمد في كلا طرفيه على السلاح المستورد أساسا ، فإن كمية هذا السلاح ، وبالتالى مدى طول المعركة ، تتوقف في المحل الأول والتحليل الأخير على ضوابط خارجية ، هى السياسات أو القدرات التسليحية للقوى العظمى الموردة . وجزء مهم جدا من هذه السياسات «حسابات التوازن» وهذه القدرات «تكنولوجيا اللوجستية أو النقل» هو عملية الإمداد بالأسلحة «أثناء» المعركة ، فقد أصبح لها دور خطير في اطالتها أو تحديد طولها .

ولما كانت القوى العظمى هى وحدها اليوم القادرة على انتاج السلاح العصرى المتطور ونقله بالحجم والسرعة اللازمة لحرب حديثة ، فقد بات من المقرر أن الدول الصغيرة والنامية ومن فى حجمها لا تستطيع الآن أن تخوض حربا حديثة بغير الاعتماد اعتمادا كليا تقريبا على مورد مضمون من بين تلك القوى العظمى . أبعد من هذا ، يصل البعض الى حد التنبؤ بأن الحروب المحدودة بين الدول غير العظمى غير المنتجة للسلاح العصرى الحديث قد تنقرض بالتدريج وبانتظام «؟» .

مهما يكن ، فلما كانت الولايات المتحدة ، مورد العدو ، مستعدة للتصاعد إلى النهاية وبلا نهاية فى تسليحه كما وكيفا ، فإن هذا يعطى

للعدو الاسرائيلى قدرة لم تكن متوقعة أو غير محسوبة على الاستمرار في القتال تكاد تصل إلى حد الحرب الطويلة ، ولقد رأينا كيف أن العدو بدأ بالفعل معركة ثانية جديدة تماما بعد أن كاد رصيده من السلاح والذخيرة ينفد فى معركة أولى خاسرة ، وذلك دون انقطاع فعلي ظاهر بين المعركتين .

كذلك فلما كانت اسرائيل تعتمد اقتصاديا وماليا على مساعدات أمريكا وقروضها وجباياتها المتواصلة بلا حدود ، فإن هذا يساعدها على الصمود التعبوى فترة أطول مما كان يمكن لها وحدها ، ويساعدها على الاستمرار فى القتال رغم الحدود الصارمة والسلبيات التى تفرضها التعبئة العامة وغياب الأيدى العاملة عن الانتاج وتوجيه الموارد المالية الى الحرب .. الخ .. ورغم الضربة الحقيقية التى أصابت الاقتصاد الاسرائيلى من الحرب ، فقد ظل القطاع الصناعى مثلا يعمل بنحو ٧٢٪ من قواه العاملة فى الظروف العادية ، وبالنسبة نفسها تقريبا من طاقة الانتاج ، ٧٥٪ كما أعلن وزير التجارة بارليف ، ولو أن خطوطا معينة هبطت هبوطاً ذريعا كالبناء الذى تدهور بنسبة ٤٠٪ من حجمه العادى والنشاط التجارى الذى بلغ ٣٠٪ من حجمه العادى . كذلك استطاع اقتصاد العدو أن يتحمل الحرب ٢٠ يوما والتعبئة العامة أو شبه العامة لفترة أطول مازالت ممتدة حتى الآن .

والخلاصة النهائية هى أن إسرائيل وان كانت بتكوينها الذاتى الخاص قصيرة النفس ولا تتحمل الحرب الطويلة المطوطة جدا ، فإننا ينبغى أن نتحفظ نوعا فلا نبالغ فى حدود هذه الحقيقة . لقد ألفنا أن نقول إن اسرائيل لا تتحمل الحرب والتعبئة العامة لأكثر من بضعة أسابيع أو لنحو شهر على الأكثر دون أن تنهار اقتصاديا ، غير أن التجربة إنما تشير الى صعوبات هائلة حقا ، لكن دون أن تصل الى حد الشلل المقعد ، وبالفعل ، أعلن القائد العام المصرى مؤخراً أن إسرائيل لا تتحمل التعبئة العامة لأكثر ولكن ليس أقل ، من ثلاثة شهور . والسبب فى هذا ، أولا وأساسا ، أن وراء اسرائيل المنظورة إسرائيل غير المنظورة التى تدخل المعركة دائما وعند الضرورة بطريقتها الخاصة ثم ثانيا ما رأينا من أن «طويلة وقصيرة» و«خاطفة وتقليدية» أصبحت مفردات متقاربة نسبيا فى قاموس الحرب .

الحقيقة الثالثة والأخيرة التى تؤكدها المعركة هى أننا اذا كان علينا ألا نبالغ فى تقدير عجز اسرئيل دون الحرب الطويلة المدى أو ضعفها ازاءها ، فليس لنا كذلك أن نفترض أنها وحدها التى تملك القدرة على الحرب الخاطفة ، لقد ظلت اسرائيل طويلا تتباهى فى العالم بقدرتها على الضربة الخاطفة المكثفة التى تعبر عن قدرات خارقة فى الاعداد

والتخطيط والتنظيم والتنفيذ تمثل في الواقع جماع القدرة الحضارية والتكنولوجية لأى دولة . وكل ما كتبته إسرائيل وأذاعته فى العالم ، بحيث جعل من الضربة الجوية فى صباح ٥ يونيو بل ومن معركة يونيو كلها أسطورة سحرية ، إنما كان يعنى شيئا وحدا آرادت أن تثبته فى عقل العالم ووجدانه وهو احتكار الكفاءة ، رمزا وترجمة عملية للتفوق الحضارى والتكنولوچي والعسكرى .

ولقد جاءت حرب أكتوبر تكذيبا عمليا لهذا الادعاء العريض ، فقد أتت مقدمتها الخاطفة ضربة لأوهام العدو النظرية كما كانت لقواته المسلحة فى الميدان ، من ناحية لأنها اثبتت القدرة العربية على التخطيط الثاقب والواثق والانضباط المطلق والتنفيذ الدقيق السليم لعملية هى بالطبع فائقة التكثيف والتعقيد ـ والمخاطرة أيضا . ومن ناحية أخرى لأنها أثبتت عجز العدو عن توقى الضربة المفاجئة وكشفت مدى الفوضى والانهيار فضلا عن الجزع والرعب الذى أصاب قياداته وقواته التى أمسكت بها القوات العربية وهى «عارية» كما وضعها صحفى عربى . وفي هذا كله فلقد استفاد العرب من أخطائهم في يونيو وطبقوها على العدو . ان الحرب الخاطفة لم تعد حكرا على العدو ، لأنها أيضا ملك للقدرة العربية ، فضلا عن أنها الى حد معلوم شيء كامن فى طبيعة الحرب الحديثة عامة وفى عملية العبور والاجتياح فى حالتنا خاصة .

حرب طيران حسمتها الصواريخ

من أكبر مفاجآت أكتوبر التى ألهبت خيال العسكريين فى كل الدنيا وأثارت دهشتهم «وكذلك مخاوفهم» بروز دور الدفاع الجوى بعامة والصواريخ المضادة للطائرات بخاصة ، وبالأخص صواريخ «سام» بأنواعها وعائلاتها وبنسلها وأجيالها المتعاقبة «٢ . ٣ ثم ٦ . ٧ . وهذه الصواريخ تتعامل مع الطيران العالى والمنخفض .كما تنقسم الى ثابتة ومتحركة ذات قواعد أرضية أو ميكانيكية أو محمولة على أكتاف المشاة . ولم تكن سام ٢ ، ٣ جديدة على المعركة ، فقد أثبتت وجودها فى نهاية حرب الاستنزاف بعد أن أقيمت شبكة الصواريخ المصرية الشهيرة على القناة قبل وقف اطلاق النار فى ١٩٧٠ ، تلك التى وصفتها مايير فى حينها بأنها «كعش الغراب المشئوم ، كلما دمرنا إحداها نبتت أخرى بدلا منها».

فى تلك المرحلة أسقطت الصواريخ عددا ضخما من طائرات العدو صورة روعته ودفعت به في النهاية الى قبول وقف اطلاق النار ، (فى نوفمبر ١٩٧٠ قدرت مجلة افييبشن ويك الأمريكية خسائر اسرائيل بنحو ٥٠ طائرة ، ثلثها دمر ، والثلثان اصابات) ولعلنا نذكر كيف تورط أبا ايبان حينذاك فى تصريحه المشهور عن «تآكل» سلاح طيرانهم ، ثم صرخته «إنهم يسقطون طائرة بملايين الدولارات بصاروخ بآلاف الدولارات!» ..

واستفادة من هذه التجربة المريرة ، كان العدو قد استعد بالأجهزة الالكترونية الأمريكية المضادة للحد من خطر هذه الصواريخ ، غير أن سام ٦ و ٧ كان المفاجأة الكبرى التى وقف طيران العدو المدجج أمامها عاريا عاجزا شبه مجرد من السلاح ، فتهاوت طائراته أثناء المعركة بالعشرات حتى بلغت المئات ، فانتوم وسكاى هوك وميراج وكذلك هليكوبتر مصفحة ..الخ .. والصورة نفسها تكررت على الجبهة السورية ، وبالنتائج الباهرة نفسها ، واذا صحت التقديرات الأمريكية فإن ٨٠٪ من مجموع الطائرات الإسرائيلية التى اسقطت فى أكتوبر سقطت بفعل الصواريخ أرض - جو مقابل ٢٠٪ فقط سقطت فى المعارك الجوية المباشرة .

والطريف أن العدو حتي بعد أسبوع تساقط الفانتوم فى نهاية حرب الاستنزاف عاود الحرب النفسية ضدنا حفاظاً على اسطورة تفوقه الجوى .. فظل يشيع في الدنيا آننا غير قادرين حتى علي حسن صيانة آسلحة دفاعنا الجوى فضلا عن حسن استخدامها ، وعلي هذ الأساس كتب أصدقاؤه - النيوزويك في ١٩٧٣ - أنه «يمكن لإسرائيل أن تكتسح طول مصر وعرضها بدون أى مقاومة أو مواجهة من قوات الدفاع الجوى . كما يمكنها تدمير عناصر الدفاع الجوى بالسرعة نفسها التى تم بها ذلك عام ١٩٦٧ ».

ولكن في أكتوبر فشل طيران العدو في التشويش على دفاعنا الجوى كما كان يأمل ، «وتغلب الذكاء المصرى على الخداع الإسرائيلى» كما وضعها قائد قوات الدفاع الجوى المصرى ، وبهذا فشل في ضرب معابرنا وجسورنا أولا ثم زحف مدرعاتنا بعد ذلك . وكانت المعركة مبارزة مصيرية بين التفوق الجوى الذي بنى عليه العدو كل استراتيجيته وبين دفاعنا الجوى الذي كان بلا شك أساس كل استراتيجيتنا القتالية والذي غير شكل المعركة والذي لولاه لتغير الموقف كثيرا وربما النتيجة أيضا . لقد حيد دفاعنا الجوى طيران العدو . ونحن وإن لم ننتزع السيادة الجوية من العدو فقد حرمناه منها ، وبذلك كان الموقف أقرب إلى التعادل أو التكافؤ الجوى ، الأمر الذي ترك للمعركة البرية أن تمضي حرة مباشرة فكان نصرنا المحقق فيها امرا مقضيا .

ولنتوقف قليلا هنا عند تعليقات بعض المراقبين المحايدين ، قال توماس تشيتام مراسل اليونايتيد بريس «ان الطيران الاسرائيلى لم يتمكن من تحقيق النجاح الذى كانت عامة الشعب الاسرائيلي تتوقعه له قبل الحرب . لقد اتضح من خلال سير العمليات أن التأكيدات الرسمية التي كانت تتحدث عن قدرة القوات الجوية الاسرائيلية على القيام بعمل سريع ضد العرب في حالة تجدد القتال كانت مزاعم غير دقيقة» أما

جان فرانسوا لى موف فقد كتب يقول «لقد شد انتباه الخبراء الغربيين الذين درسوا سير الصراع العربى الاسرائيلى وفنون الحرب التى استخدمها المتحاربون أنه بينما انتصر الاسرائيليون عام ١٩٦٧ بفضل تفوقهم الجوى الكامل ، اذ بنشاطهم الجوى يتضاءل هذه المرة فى القتال والقصف بفضل تسلح "العرب بالصواريخ طراز سام» حتى العدو نفسه قالها ، فقد نقلت الجيروزاليم بوست عن قائد من القوات الجوية الإسرائيلية تصريحه بأن «الدفاع الجوى المصرى يتمتع بكفاءة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب ، تفوق تلك التى واجهها الأمريكيون فى فيتنام» «مقتبسة فى كتاب حرب رمضان» .

ولم تكن تلك الطفرة نقطة التحول الحاسمة فى المعركة وحدها فقط ، ولكن فى كل تاريخ الحرب الجوية الحديثة . فعلى حد تعبير الجنرال بوفر «لقد أدى توفر الصواريخ المضادة للطائرات لتقديم الوقاية الفعالة للقوات البرية ـ حتى فى غياب الحماه بواسطة الطائرات ـ أدى الى خلق موقف جديد تماما لم يسبق ممارسته فى الحروب السابقة ، وأعنى به ذلك التوازن بين القوات الجوية لدى الطرفين الذى خلق موقفا يختلف تماما عما لمسناه فى الحرب العالمية الثانية أو فى الجولات العربية الإسرائيلية السابقة ، عندما كان أحد الخصمين ينجح فى احراز التفوق أو السيطرة الجوية على سماء المسرح خلال المرحلة الافتتاحية أو

الاولى للحرب» . فرغم أن الطيران المصرى والسورى تصدى باقتدار وكفاءة وندية كبيرة لهجوم العدو الجوى ، فقد كان تركيزنا الأساسى فى المواجهة على الدفاع الجوى ، احتفاظا بقوة الطيران الرئيسية لمراحل الصراع القادمة . وبهذا انحصرت المعادلة أساسا فى الدفاع الجوى العربى ضد الهجوم الجوى العدو ، فكانت حرب صواريخ في الدرجة الاولى ، واذا كان السلاح الجوى هو العمود الفقرى فى جهاز الردع العسكرى الإسرائيلى ، فقد كان الدفاع الجوى هو العمود الفقرى لقواتنا فى ردع الردع الإسرائيلى .

وهنا كانت المفارقة : فلقد كنا - جويا - «نهاجم» بالدفاع ، بينما كان العدو «يدافع» بالهجوم ، وفى هذا السياق كتبت مجلة تايم الأمريكية «ان التقدم المصرى عبر قناة السويس قد برهن على أن الصواريخ المضادة للطائرات وللدبابات على السواء يمكنها أن تلعب دورا هجوميا ايضا - رغم أنها أسلحة دفاعية - حيث انها مكنت القوة المهاجمة من اقامة وحماية رءوس الجسور وتدعيمها بقوات المشاة الميكانيكية والمدرعات بعد أن قامت بشل فاعلية طيران العدو ومدرعاته - التى تمثل أسلحة الردع الإسرائيلية - وكبدته الكثير من الخسائر» .

لقد انتصر الدفاع المهاجم على الهجوم المدافع ! انتصر الدفاع ، وعلى صخرته العتيدة تحطم سلاح الطيران الإسرائيلى ، العمود

الفقرى «لجيش الدفاع» ، أو بالأحرى «سلاح القرصان الجوى فى «جيش العدوان الإسرائيلى» ومعه تحطمت الى الابد اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى التى ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا ودعاية ، وحاول أن يملأ بها قلوبنا خوفا أو قلقاً . كذلك تحطمت تلك الفروق الصارمة يضعها البعض بين أسلحة «دفاعية» وأخرى «هجومية» ، وأثبتت المعركة أن كل سلاح يصلح ويمكن أن يستخدم للغرضين ، وإنما يتوقف الأمر على الاطار أو السياق الاستراتيجى .

ولعل من الملائم والمفيد هنا أن نقتبس خلاصة تحليل مركزة وواعية لمعركة أكتوبر الجوية قدمها الجنرال السوفييتى ميخائيل تومينكو فى النجم الأحمر ، فهى تلقى من الضوء بقدر ما تبدد من وهم . فحرب الشرق الأوسط كما يقول الجنرال دمرت اسطورة جيش الدفاع الإسرائيلى «الذى لا يهزم» والدفاعات العربية المضادة للطائرات «قد لقنت درسا قاسيا لقراصنة الجو ، واظهرت مقدرتها على الدفاع عن مواقع قواتها وعن المنشآت العسكرية والمدنية وعلى الحاق خسائر جسيمة بالعدو» ويضيف تومينكو أن «إسرائيل التى كانت تأمل أن تحتفظ بالتفوق الجوى قد أخفق سلاحها الجوى فى الالتجاء الى أسلوبه المفضل الذى كان يعتمد على الأعمال الفجائية» . ثم يحلل الجنرال أسباب الخسائر الفادحة فى الطيران الإسرائيلى ، فيردها الى

الروح القتالية العالية للعاملين على الصواريخ المضادة للطائرات وللطيارين على المقاتلات ، وما وصلوا اليه جميعا من مستوى فى التدريب ، والى هذا يضيف ثقتهم بقواتهم وإيمانهم بعدالة القضية العربية ، ثم آخيرا وليس آخرا تنظيم آجهزة الدفاع الجوى والتعاون الوثيق بين كل هذه الأجهزة والعناصر .

تلك إذن قصة الصراع على سماء المعركة وتلك نتائجها ، وإذا كان هناك من مغزى تطورى شامل لها ، فهو بلاشك تناقص دور الطيران نسبيا فى المستقبل ، لقد كان الطيران ـ اعظم سلاح هجومى فى الحرب الحديثة ـ يتسيد أسلحة الجيوش عموما وباطراد ، ويوشك فى وقت ما أن يحتكر كل الأهمية والسيطرة بينها . كانت الحرب بمعنى اخر ، «تنتقل» حثيثا وبقوة من الأرض الى السماء ، وتنذر اذا ما استمر الاتجاه دون تغيير بأن تغادرها تقريبا تاركة لها دورا طفيفا متضائلا باطراد . حرب أكتوبر انزلت الحرب من السماء واعادتها إلى الارض أكثر ، وبالتالى أعادت الى القوات البرية كثيرا من قيمتها القديمة ، إن الطائرة وان لم تفقد قيمتها فقد فقدت سيادتها .

اما على المستوى العام والعالمى ، فقد أحدث ذلك كله انقلابا كاملا وثورة جذرية في استراتيجية الحرب الحديثة كما اتفق كل المختصين ،

فكان حكمهم بالاجماع أن عصرا جديدا قد بدأ فى تاريخ الحرب الحديثة ، وأن سام ، وسام ٦ بخاصة ، هو الذى دشن هذا العصر وهو سيده ، انه أساسا عصر الصواريخ والدفاع الجوى ، بينما تراجع عصر التفوق الجوى تقريبا أو هو فى سبيله إلى الانكماش ، لا ، ولم يعد السلاح الجوى سيد حرب الصحراء كما أوحت التجارب السابقة ، ولا هو بالضرورة سيد الحرب الحديثة عموما ، أو كما ذكر لى موف «يرى بعض الخبراء العسكريين أن مبدأ التفوق الجوى الذى اعترف به خبراء الاستراتيجية منذ الحرب العالمية الثانية قد يعاد النظر فيه على ضوء أحداث الجولة الرابعة ، بينما لا يتردد البعض الآخر فى تأكيد أن هذا المبدأ قد انهار تماما» .

انقلاب راديكالى وخطير فرض على كل الدول والجيوش والصناعات الحربية أن تعيد حساباتها وخططها الاستراتيجية كلية فى مواجهة عصر الصواريخ الجوية . ومن ناحية أخرى انتهى البعض إلى أن امتلاك عنصر المفاجأة العسكرية لا يكفى لتحقيق النصر ، ما لم يصاحبه ضرب القوة الجوية للعدو منذ اللحظة الأولى ، هذا بينما راح البعض الأخر يتنبأ بأن طيران المستقبل سيكون كله بلا طيارين ، وأخرون ذهبوا إلى أن تكاليف انتاج الطائرات سترتفع الى مستويات فلكية ومانعة ...الخ .. الخ ..

وقد عبر عن هذه الطفرة كلها بالدهشة «والقلق أيضا!» وزير الجيش الأمريكي نفسه حيث قال «إن عبور القوات المصرية لقناة السويس في مواجهة التفوق الإسرائيلي فى القوة الجوية يعتبر علامة بارزة في الحروب الحديثة سوف تؤدى الى تغييرات فى الاستراتيجية العسكرية العالمية .. ان حرب الشرق الأوسط قد فجرت وبددت الكثير من المفاهيم ، فلأول مرة في التاريخ الحديث تتمكن قوة عسكرية من انجاز عملية عبور ضخمة لقناة تماثل النهر دون أن تفقد أى طائرة من طائراتها ، وذلك في وجه عدو يملك سلاحا جويا متفوقا ، ولقد تمت عملية العبور بصواريخ متطورة ، مما يجعل من الضرورى ادخال تغييرات جديدة على الاستراتيجية العسكرية» . وعلى هذا الأساس أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية عن بدء برنامج لتطوير اسلحة الدفاع الجوى ، يركز على انتاج طراز معدل من الصواريخ المضادة للطائرات ويعطى الأولوية للصواريخ أرض - جو .

وبالمثل أعلن جالليه وزير دفاع فرنسا أن حكومته ستطبق الدروس المستفادة من معارك الميدان في الشرق الأوسط فى تطوير خططها العسكرية والدفاعية ، خاصة فى مجالات الصواريخ الدفاعية المتوسطة المدى والمشاة الميكانيكية والصواريخ المضادة للدبابات .. إلخ .

وآخيرا ، وعلى سبيل المثال آيضا ، فقلد بدأ حلف الاطلنطى ينظر بقلق حاد إلى التوازن العسكرى بينه وبين حلف وارسو ، فسلاح الحلف الأخير هو نفسه السلاح الذى استعمله السوريون والمصريون فى أكتوبر بكفاءة وخطورة ، وبالتالي يلقى بظلال كئيبة على مصير وفاعلية أى مواجهة مسلحة في أوربا ، لاسيما أن سلاح حلف الاطلنطى هو نفسه سلاح إسرائيل فى المعركة بل قد يكون أقل تطورا من هذا الأخير في خطوط معينة اختصته بها أمريكا دون حلفائها الأوربيين . أما من جانب الصناعات الحربية ، فقد أوقفت بعض مصانع السلاح فى العالم بالفعل انتاج بعض خطوطها التقليدية والمفضلة سابقا ، وبدأت تخطيطا جديدا تماما للانتاج .

حرب دبابات ضد مشاة

وهذا الذى قلناه عن الحرب الجوية يصدق تماما ، وربما بصورة أكثر درامية ، على الحرب البرية ، وبخاصة حرب المدرعات أو الدبابات، فقد سجلت معركة أكتوبر انقلابا آخر لا يقل خطرا ونتائج واثارة فى الحرب الميكانيكية ومعارك المدرعات ، كما سجلت مفارقة أخرى فذة فى تاريخها .

فمن الغريب ان الحرب شهدت ما قد يعد أكبر معركة دبابات فى التاريخ الحديث . أكبر على وجه اليقين من العلمين وعلى وجه الاطلاق

من ستالينجراد ، ولقد رأينا كيف شاركت من الجانبين نحو ٤٠٠٠ دبابة في الصراع الرهيب ، وكيف بلغت الخسائر المشتركة نحو ٢٥٠٠ أو ٣٠٠٠ دبابة . ومع ذلك فلقد أثبتت المعركة نتيجة ثورية ومتناقضة جدا : أثبتت في تقدير البعض نهاية عصر الدبابة ، لقد كانت المعركة اكبر ، وربما في الوقت نفسه ، آخر معركة دبابات في التاريخ المعاصر على ما يبدو ! لقد ولدت الدبابة في الحرب العالمية الأولى ، وماتت في حرب أكتوبر ، عمدت في بريطانيا ودفنت في سيناء والجولان على مايرى البعض ، خلقها الانجليز وخنقها العرب .

الأغرب بعد ذلك كله أنها ليست كما ظن الكثيرون معركة دبابات ، بل معركة مشاة أولا وقبل كل شيء .. ذلك أن المفاجأة الصادمة هنا كان ظهور الصواريخ المضادة للدبابات والموجهة الكترونيا ، سواء المحمولة على منصات وقواعد متحركة أو المحمولة على أكتاف المشاة «صواريخ ساجر وسنابير ومولوتكا والاربيجي السوفييتية الصنع ، يقابلها صواريخ س . س - ١١ وتاو الأمريكية الصنع» ، هذا بالطبع عدا المدفعية المضادة للدبابات وغيرها . فكانت أرتال دبابات العدو ومدرعاته ، التي يعتمد عليها بعد السلاح الجوى مباشرة ومعه أساسا ، كانت تذوب وتتلاشى أمام صواريخنا المضادة بأنواعها المختلفة «أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية أن المصريين دمروا نحو ٢٠٠ دبابة إسرائيلية

في الأيام القليلة الأولى من المعركة باستخدام القذائف الموجهة الكترونيا » .

ولقد كانت الصدمة الصاعقة للعدو بوجه خاص هي صواريخ المشاة ، هؤلاء الذين لم يكن يعتد بهم تقليديا فى الحرب المدرعة الحديثة، والذين كانوا - كالفرسان من قبل - يمثلون آخر مخلفات وزوائد وبقايا الحرب القديمة ، ولعل مما له مغزاه الدال في هذا السياق ذلك التشبيه التاريخي الذى ذكرته النيوزويك نقلا بعض الخبراء العسكريين ، فلقد قارنوا بين نجاح الأسلحة السورية والمصرية الجديدة وبين الدمار الذي أحدثه اكتساح المشاة الانجليز للفرسان الفرنسيين في موقعة كريسي الشهيرة في منتصف القرن الرابع عشر ، فقد فتك المشاة المزودون بالأقواس البعيدة المدى بالفرسان الراكبة فتكا ذريعا .

ففي أكتوبر كان رجل المشاة الراجل يواجه الدبابة المدرعة بشخصه وبصاروخه على كتفه ، فيحيلها بقذيفة واحدة أحيانا الى حطام يحترق ، ومن هنا فكما كانت المعركة تصادمية بين مدرعات ومدرعات وبين دبابات وصواريخ مضادة للدبابات ، كانت أيضا مواجهة بين المدرعات بمدافعها وبين المشاة بصواريخها . وليس هناك أدنى شك فى تفوق الجانب العربى فى الحالين : فكما اعترف آلون فى حديث الى ايديعوت

أحرونوت فإن المشاة المصريين برهنوا على بسالة عظيمة ، كما أن القوات العربية تعلمت جيدا كيف تقاتل ليلا وكما صرح وزير الدفاع الأمريكى فى مارس ١٩٧٤ فإن الدراسات التى أجراها خبراء الأسلحة فى الجيش الأمريكى على الدبابات التى استخدمتها إسرائيل فى أكتوبر لم تثبت وجود عيوب خطيرة فيها ، ولكن اللوم فى الخسائر الجسيمة التى منى بها الإسرائيليون فى دباباتهم إنما يقع على «الأساليب الإسرائيلية الطائشة والاستخدام العربى المركز للصواريخ المضادة للدبابات» .

وبقدر ما أعاد هذا كله المشاة الى قلب الصورة بقدر ما حدد مصير المدرعات ، إنها عودة المشاه وربما نهاية الدبابات أو بداية نهايتها ، فلم تعد المدرعات سيدة الحرب البرية ، ولا الدبابة بالضرورة سيدة حرب الصحراء تصول فيها وتجول فى مناورات الحركة السريعة والالتفاف الواسع المدى كما كان دورها فى العلمين مثلا . وإنما انتقلت السيادة الأرضية عموما إلى الصواريخ المضادة للمدرعات ، وعلى رأسها المشاة الصاروخية بالذات .

وقد أدى هذا كله بأحد المعلقين العسكريين الى انتهاء خطير مؤداه أن مستقبل الدبابة فى خطر «وأن أيام الدبابة قد أصبحت معدودة فى الحرب الحديثة» كما كتبت مجلة تايم فى نوفمبر قائلة «ان التكنولوجيا

المصرية قد جعلت العصر الذى كانت الدبابات والطائرات تسود فيه ميدان القتال يذهب فى ذمة التاريخ» ولكن البعض يرى أن من الحكمة أن نتحفظ قليلا ، فربما كان مثل هذا الجزم القاطع سابقا لأوانه ، ولابد من التريث بعض الوقت قبل أن تتحول الدبابات والمدرعات نهائيا إلى قطع متاحف .

وعلى أية حال فلقد فرضت معركة أكتوبر على العسكريين قضية الصراع على السيادة فى الحروب بين الدبابة والصاروخ المضاد لها . وإذا كان البعض يرى أن تجربة أكتوبر قد أفقدت الدبابة سيادتها ، فان هناك من يعتقد أن من الممكن لها من تحتفظ بأهميتها وبدور مهم اذا ما ركبت عليها حوامل صواريخ مضادة .. فإذا صح هذا أو حدث ، فلن يكون له فى الحقيقة من معنى سوى أن الدبابة قد بعثت وعاشت مرة أخرى من خلال مصل أو لقاح مضاد اتخذته بالدقة من سمها القاتل نفسه .

هذا عن الدبابات ، أما عن المدفعية ، من الناحية الأخرى ، فلقد أثبتت المعركة خطورتها وأكدت دورها وبقاءها ، وذلك أمر منطقى فى الواقع ، فما الصواريخ نفسها ، سواء المضادة للدبابات أو للطائرات ، الا امتداد وتطوير بشكل ما للمدفعية ، وعلى أية حال ، فمن السهل بعد هذا أن نتصور الانقلاب الهائل والعميق الذى سوف تحدثه هذه

التطورات على هياكل الجيوش وصناعات التسليح واستراتيجية الحرب في المستقبل على المستوى العالمي جميعا ، ولقد قررت أمريكا أخيرا بالفعل مضاعفة انتاجها من الدبابات ومن الصواريخ المضادة لها في الوقت نفسه ، الأولى تعويضا لاستنزافها على يد إسرائيل ، والأخيرة كدرس أكتوبر بلاشك .

حرب التكنولوچيا ضد القوة البشرية

ونصل أخيرا من مجموع هذه الانقلابات والطفرات الثري الى خاتمة ، وربما كبرى ، الحقائق - النقائض التي دفعت بها حرب أكتوبر الى المقدمة . انها أول حرب الكترونية في التاريخ كما وصفت ، ولكنها بمنطق ديالكتيكي مثير أعادت الى عامل القوة البشرية وزنه وقيمته الحاكمة ، أي أنها بداية حرب التكنولوچيا العظمى ، ولكن أيضا نقطة عودة القوة البشرية .

والأصل - نظريا - أن التكنولوجيا في الحرب بديل القوة البشرية تختزلها وترثها وقد تجبها تماما ، مثلما تحل الآلة محل الإنسان في الحياة العادية وحضارة السلم . ولكن معركة أكتوبر ، على شدة اعتمادها على أحدث وأرقى ما توصلت اليه تكنولوجيا الحرب وصناعة السلاح ، هي التي لأول مرة أعادت التوازن الى طرفي معادلة

التكنولوجيا ـ الإنسان ، وأعادت القوة البشرية بالتالى الى مكان الصدارة فى الحرب الحديثة .

وللقوة البشرية Manpower ـ والتعبير أصلا من وضع الجغرافى البريطانى الكبير هالفورد ماكيندر ، صكه وأشاعه منذ الحرب العالمية الأولى ـ للقوة البشرية جانبان متكافئان فى الأهمية : الكم والكيف ، وللكيف بدوره جانبان مماثلان: المادى والمعنوى . فليست القوة البشرية إذن مجرد حجم أو كثافة ، أى عدد القوات ، وإنما هى أيضا نوعية الرجال ، تدريبهم وكفاءتهم وقيادتهم وخططهم ، ولكن أيضا وأولا وقبل كل شيء ـ روحهم المعنوية ودرجة الإقدام والشجاعة والفدائية والإيمان والاقتناع بالهدف الخ .. وبغير هذا مجتمعا لا نفهم معنى القوة البشرية .

فاذا عدنا إلى المعركة ، فسنجد الصاروخ القاسم المشترك الأعظم فى الدفاع ، سواء على الأرض ضد المدرعات أو فى الجو ضد الطائرات، سواء ثابتا أو متحركا، محمولا على قاعدة ومنصة أو على أكتاف المشاة. إنها اذن ليست معركة دبابات وطائرات ضد دبابات وطائرات فقط، ولكنها بالدرجة نفسها أيضا معركة مشاة وصواريخ ضد دبابات وطائرات. وفى هذا قال الجنرال بوفر «لقد ابرزت حرب اكتوبر دروسا عديدة فى المجالات التكتيكية والتعبوية والاستراتيجية.

فالصواريخ الموجهة المضادة للطائرات والمضادة للدبابات قد اثبت كفاءتها وبطشها الشديد. وبفضل هذه الصواريخ فشلت الدبابات والطائرات الاسرائيلية فى إحراز التفوق ومالت الموازين الى جانب العرب» . ومن هذه الزاوية فاذا كان من الصحيح تماما ما اضافه بوفر بعد ذلك من آن الحرب اثبتت «آن المعركة في مجالها الفني سوف تزداد تعقيدا، نظرا لأن كل خطوة للتطور سوف تعقبها خطوة أخرى مضادة لهذا التطور، وسوف يصبح التفوق التكنولوجي تبعا لذلك شديد الوقع عظيم التأثير على احداث القتال». فلا شك ايضا أن هذا كما رأينا قد أعاد المشاة الى قلب الصورة ومقدمة المعركة، وحد أو خفف من حاكمية الاسلحة الحديثة وخاصة الطيران والمدرعات. وعلى هذا فان المغزى الأعم والأعلى هو إعادة القوة الى عنصر القوة البشرية، جنبا الى جنب مع عامل التفوق التكنولوجي. نعم ، العدد والحجم، الكثافة البشرية ونوعية الرجال ومعنويات المقاتل، كلها عادت الى الصدارة. وهذا قلب آخر مثير لقوانين الحرب الحديثة .

وثمة انقلاب ثالث آو رابع أو عاشر تنبىء أو تشى به هذه التطورات لا يقل آثاروإثارة ، لقد رأينا ان الحرب الحديثة بطبيعتها وبتكنولوجيتها نميل باطراد الى أن تكون حربا قصيرة سريعة مختزلة ومضغوطة، لكن هناك تحفظا استدراكيا مهما تمليه عودة الأهمية الى عامل القوة

البشرية. ففي رأى البعض من الاخصائيين أن تزايد دور القوة البشرية المطرد سيفرض على حرب المستقبل اتجاها مضادا نحو الطول الى حد أو آخر. ستعود الحرب طويلة نسبيا، ليس بطولها في الماضي البعيد بالطبع، ولكن ليس كذلك بقصرها الشديد الذى يسود حاليا. لن تعود حروب السنوات العديدة، ولكن ستنتهى حروب الايام المعدودة ، لتسود حروب الشهور المعقولة .

وإذا بدا الآن ان معظم هذه الانقلابات والاحتمالات الاستراتيجية التي كشفت عنها المعركة أقرب أن تكون عودا بدرجة ما وبصورة أو باخرى الى الماضي - العدد والحجم ، الشجاعة والاقدام، معركة كريسي ، البشر أكثر من السلاح استطالة الحرب نوعا - فليس هذا رجعة او ردة الى الخلف ولا هو يعيد عقارب الساعة الى الوراء كما قد يبدو على السطح، وانما هو بالاحرى عودا الى الطبيعة، الى طبائع الأشياء، بعد أن كانت التكنولوجيا قد فصلتها عنها كثيرا أو قليلا. الحرب ستعود بالتدريج الى البيئة، تتلاءم وتنسجم معها أكثر، تعكسها ولا تعاكسها، تماما مثلما تتجه الحضارة المعاصرة العادية إلى العودة الى الطبيعة والى البيئة والى الجغرافيا .

والجدير بالملاحظة بعد هذا أن الانقلاب في جملته يأتى لصالح كثافة السكان ولصالح الدول والجيوش الكبيرة الحجم والشعوب الفقيرة

والاقل تنمية وبالتالى فى صف العرب عامة ومصر خاصة فى مواجهة اسرائيل، وبصفة أعم فى صف دول العالم الثالث. لقد فتحت المعركة باب الأمل العسكرى أمام الدول المتخلفة نسبيا. فلقد كشفت حرب اكتوبر عن بديل متاح وميسور للتفوق التكنولوجي الساحق يوازيه ويوازنه ويحيده أو يحد منه، ذلك هو الخزان البشرى العميق وأعماق الشخصية المحاربة.

ولقد كان مما راع العدو الاسرائيلى بالفعل وروعه فى المعركة قوة الكثافة البشرية (أو كثافة القوة البشرية، سيان) المصرية التى اطلقت عليه أثناء العبور واقتحام الخط وبعدهما وكما رأينا فلقد حشدت مصر للمعركة ١ ١ مليون جندي وسوريا ٢٦٠ ألفاً ، أى بمجموع ٢٦٠ ١ جندى أى مليونا وثلث المليون .

ولعلنا كذلك نذكر كيف أعلن العدو شاكيا صارخا أن نسبة المشاة الصاروخية المصرية الى المدرعات أثناء المعركة بلغت ٣:١ ومن ناحيتنا نحن، فلقد عبر الرئيس السادات فى حديث له الى مجلة الحوادث اللبنانية عن ذلك بصورة حاسمة بقوله : إن اسرائيل اعتمدت على التفوق الجوى لأن القوى البشرية اللازمة لم تكن متوافرة لديها، ولكن حرب اكتوبر اثبتت أن التفوق فى القوى البشرية كان اساس التميز الاستراتيجى، وهذه القوى هى التى أخرجت العدو من

المعركة». كذلك عبر أحد القادة المصريين عن الموقف بصورة ثاقبة امسكت بجوهر التطور كله حين قال أن قواتنا استخدمت في العبور اعقد الاسلحة المتطورة جنبا الى جنب مع ابسط الوسائل «واكثرها بدائية» .

من الاولى اسلحة الدفاع الجوى والاعاقة اللاسلكية والرادارية، ومن الثانية سلالم الحبال وعربات الجر وتجريف الرمال !

وإذا كان لهذا كله من معنى استراتيجي ، فهو أن العرب قد استثمروا عامل الكثافة البشرية الى أقصى حد ووظفوه فى المعركة بنجاح تام. فالتفوق العددى ، وهو مكفول لنا تماما هو من أكبر اصولنا فى الصراع ومن أكبر «خصوم» العدو وكان حتما أن نوظفه بكفاءة ، على الاقل تعويضا بالكم عن الكيف ، تماما كما توظف الصين مثلا كثافتها السكانية الهائلة فى مشاريع السلم والحرب على السواء . ولعلها أكثر من صدفة تشبيه جونين للمد المصرى الذى اجتاح قواته فى سيناء بموجات الهجمات «الصينية». ولقد كان من اخطاء يونيو وادعاها إثارة للدهشة أن العدو حشد فى المعركة قوة بشرية تفوق مجموع القوى العربية مجتمعة ! أما معركة اكتوبر، رغم انها اساسا حرب العلم والتكنولوجيا وأول حرب الكترونية فى التاريخ ، فقد أثبتت أن للقوة البشرية – ما يزال – دورها وقيمتها الحيوية ، وخطأ كبير أن يظن أحد

ان العدد الحديثة حتى اليوم، تغنى كلية عن العدد فالتفوق البشرى العدد هو بمثابة مضاعفة لعدد الجيوش ورصيد لا ينفد فى وجه أى انتكاسة عارضة. فمع التفوق العددى ، حتى مع تفوق العدو نوعيا يمكنك ان تستهلكه الى حد الاستنزاف بجيش تلقى به وراء جيش إلى أن تنهكه وتنتصر عليه .

كل هذا عن العدد والحجم الخام. ولكن جانب الكيف والنوع والمعنويات لا يقل خطرا أو اثارة فبصفة خاصة يعيد هذا التطور الخلاق الاعتبار الى عامل كان هاما جدا فى القديم وحروب الماضى وخاصة العصور الوسطى ثم أصبح متنحيا فى عصر الحروب العلمية الحديثة، ونعنى به عامل الشجاعة والاقدام أو الفروسية . فقد كان يقال أن الحرب الحديثة حرب ذكاء وعلم وآلات متطورة وتخطيط معقد. لم يعد فيها مكان كبير للحماسة أو الشجاعة .. إلخ .

حرب اكتوبر اعادت للبسالة والشجاعة وروح التضحية والاقدام كل قيمتها فلأول مرة يلتحم المشاة بالدبابات والمدرعات وجها لوجه، ويتحول المشاة الى دبابات حية فى مواجهة وصفت ببلاغة ولكن بجدارة بأنها مواجهة بين اللحم والصلب وبين الأعصاب والنيران . ولأول مرة يصمد رجال الصواريخ على الارض لسيال نارى متصل من السماء ويقفون فى وجه الطيران القامر، لقد كانت المعركة معركة الاقدام الراجلة

والاقدام الجسور ضد القلاع الزاحفة والفرسان المدرعة ، معركة المشاة الحاملة ضد المدرعات المحمولة، أى اساسا حربا بين الشجاعة والمناعة وبين البسالة والحصانة .

وعند هذه النقطة تثور مفارقة أخرى تضاف الى قائمة متناقضات هذه الحرب الفريدة. وهى مفارقة دالة وكاشفة بقدر ما هي طريفة ولاذعة ايضا، لأنها تسخر من العدو فى صميم وهم أثير لديه. فلقد ألف منظرو العدو أن يصوروا الصراع بين العرب وإسرائيل على أنه صراع بين جثة ضخمة ثقيلة غليظة ولكنها متبلدة وعاجزة عن الحركة ، وبين كائن صغير دقيق الحجم ولكنه حركى قادر مفعم بالنشاط والمهارة .. إلخ ، بالتشبيه العبرى التوراتى الأثير : بين جوليات وداوود . وقد صنع العدو من هذا المثال الساخر رأسمال عدائيا كاسحا فى العالم وصورة باهرة للدولة الصغيرة المتحضرة المتقدمة التى تقهر دولا عديدة ضخمة وشاسعة .. الخ .

حرب أكتوبر جاءت لتسخر بدورها من هذه السخرية ! فمما لاشك فيه أن من الظاهرات اللافتة للنظر جدا فى المعركة أن العرب إنما تصدت لسلاح طيران ومدرعات العدو بالصواريخ أكثر منها بالطيران والمدرعات . وهذا بحذافيره - أليس كذلك ؟ - هو صميم الصراع بين الوحدات الضخمة الحجم والثقيلة الوزن فى جانب ، وبين الوحدات

الصغيرة الخفيفة الوزن والحمل فى الجانب الآخر : تماما كالأرمادا الإسبانية قديما ، تلك القلاع الضخمة الثقيلة العائمة ، ضد سفن القرصنة البريطانية المرنة الخفيفة السريعة الحركة ، فى ذلك الصراع البحرى المصيرى الذى أنهى خرافة «الأرمادا التى لا تقهر "The In-vincible Armada ولعلها أكثر من صدفة أن العدو لم يكن يتحدث ، هو الآخر إلا عن جيش الدفاع وسلاح الطيران «الذى لا يقهر».. لقد قهرت المرونة والوحدات السلاحية العربية الصغيرة «غول» الوحدات الضخمة الثقيلة للعدو، ولكن داوود هذه المرة عربى وجوليات هو غول العدو!

وهذا بالضبط هو الرد الصحيح الوحيد على كل ما ادعاه العدو أو روج له اصدقاؤه تبريرا للنكسة التاريخية التى منى بها فى المعركة، فلقد ركز كثيرون على الاسلحة المتطورة الممتازة، وخاصة صاروخ سام ٦، فى ايدى السوريين والمصريين ، كبطل المعركة ونجمها الوحيد، وذلك عمدا ليبعدوا المقاتل العربى خلف تلك الاسلحة عن دائرة الضوء والتركيز، غير أن الواضح تماما أن فاعلية وكفاءة تلك الاسلحة بالذات، والممتازة بلا أدنى شك، إنما تتوقف أساسا على اليد التى تمسك بها وتشغلها وتسيطر عليها، وكان الانسان العربى المحارب هو البطل الحقيقى فى المعركة .

وهذه الحقيقة نفسها هي التي تفسر تخبط العدو في تبرير هزيمته. فهو مرة يقول أنه فوجيء بموعد الهجوم ثم عاد يقول بل بكمية ونوعية الاسلحة والتدريب ، بل لقد وصل الى حد البحث عن «السلاح السرى» أو «العقار السرى» (حبوب الشجاعة) الذى حمله المقاتل العربى (كذا!) ولم يكن ذلك كله في الحقيقة سوى تبرير خاطيء لعدو فاشل على أنه في النهاية اضطر الى أن يعود فيعترف بأن مفاجأة المعركة كانت هي نوعية المحارب العربى .

رئيس اركان العدو بنفسه أعلنها : «أن كل حرب تحمل معها مفاجاتها»، قال ديفيد اليعازر، «وهناك أشياء لا بد لنا أن نتعلمها وأن نصحح معلوماتنا بشأنها . وكبرى هذه المفاجآت أن الجنود المصريين، وكذلك السوريين، قد أظهروا قدرا من الكفاءة والتضحية بالنفس وتوفر الدافع يفوق بكثير ما أبدوه في الحروب السابقة. إن الجيش الاسرائيلى قد فوجيء تماما بتدريب وكفاءة الجندى العربى». لقد اكتشف العدو، متأخرا جدا ، أن «السلاح السرى» أو «العقار السحرى» الذى توهمه مع المقاتل العرى انما هو المقاتل العربى نفسه !

والشيء نفسه اعترف به بارليف حين قال ان المصريين حاربوا هذه المرة بدوافع وطنية أكثر قوة من أى وقت مضى، وأنه لا يستطيع أن

يقلل من القوة القتالية للمصريين فى المرات السابقة فقد كانت صفوفهم صعبة التفتيت عندما كانوا يقاتلون من مواقع دفاعية جيدة، ولكنهم فى هذه المرة كانوا أكثر جسارة وتصميما وكانت روح الفداء لديهم لا نزاع فيها ، بل وصلت الى حد المخاطرة. ثم اضاف بارليف أن المصريين والسوريين فضلا عن ذلك قد دخلوا هذه الحرب بأسلحة جديدة وبكميات هائلة لم تحسن المخابرات الاسرائيلية تقديرها. ولهذا وقعت المفاجأة ، ونجح المصريون والسوريون فى تحقيق انتصاراتهم .

عن الاستراتيجية الإقليمية
دراسة مقارنة

من الضرورى، كما هو من المفيد أن ننظر الى السادس من اكتوبر فى اطار الاستراتيجية الاقليمية لنقارنه بما سبقه من معارك ومواجهات عسكرية داخل المنطقة أو خارجها. فمن اوجه الشبه والاختلاف المرصودة نستطيع أن نحدد الخصائص الأساسية والخصوصية المنفردة لحرب أكتوبر، ولا شك أن حرب يونيو هى أول ما يفرض نفسه على الدراسة المقارنة ، على أن من المستحسن واللازم أيضا أن نجمع الاثنين معا، يونيو واكتوبر فى اطار واحد هو اطار الصراع العربى -

الاسرائيلي عموما. غير أننا سنجد أن هذا يوحى على الفور بالمقارنة بالصراع الأوربى - النازى فى الحرب الثانية. وهناك أيضا تشابه جزئى وثانوى، لكنه جدير بأن يذكر، بين حرب اكتوبر وبين حرب الهند - الباكستان الأخيرة. وسنبدأ بإشارة سريعة إلى المقارنة الأخيرة، نتفرغ بعدها بتفصيل للمقارنة بين قصة النازية وخطتها فى أوربا ونظيرتها الصهيونية فى الشرق الأوسط .

الصراع العربى - الاسرائيلى والصراع الهندى - الباكستانى

فعن حرب الهند - الباكستان ، هناك عدة ملامح تذكر بالصراع العربى - الاسرائيلى ، مع فارق اساسى وشرطى للغاية يتعلق بالحقوق الشرعية والمواقف القانونية الأساسية فى الصراع والتى لن نتعرض لها هنا: ففيما عدا هذا التحفظ الجوهرى، وبعيدا تماما عن مقارنة الشرعية الاقليمية بين اطراف الصراع فى الحالتين. وكذلك مع التسليم بوجود اختلافات اخرى عديدة قد ترجح اوجه التشابه ، يمكن أن نعدد مظاهر التقارب الآتية :

فأولا : هناك فارق حجم وموارد ضخم الى أبعد الحدود بين الهند والباكستان (٥٥٠ مليونا ضد ١٣٥ مليونا) كذلك الذى بين العرب

واسرائيل (١٢٥ مليونا ضد ٣ - ٣.٥ مليون) ولكن لأسباب خارجية متعددة ومختلفة كان هناك تقارب ما في مستوى التسليح وقوة السلاح بين جانبي كلا الصراعين .

وثانيا : قامت بين الهند والباكستان ٣ حروب منذ التقسيم ، مقابل ٤ حروب بين العرب واسرائيل منذ الاغتصاب. ولعلها صدفة أو اكثر من صدفة ان الصـراع في الحالين ديني في الاساس وينتظم دولة دينية من جانب واحد على الأقل غير أن الفارق الأساسي هو الوضع الاستعماري الاغتصابي الدخيل لاسرائيل في الشرق الاوسط، وهو بطبيعة الحال فارق جذري وحاسم يطغي على كل ما عداه من فروق فضلا عن التشابهات، ولهذا لا يحتمل مزيدا من الضغط والتأكيد ولا تأويلا أي تأويل .

وثالثا : كانت الولايات المتحدة تقف بانتظام مع الطرف الاصغر (الباكستان هنا، واسرائيل هناك) كحليف بدرجة أو بأخرى يورد له السلاح الاساسي ويسانده سياسيا واقتصاديا وفي جانب الطرف الأكبر (الهند هنا، ومصر وسوريا وغيرهما هناك) وقف الاتحاد السوفيتي مؤيدا بالسياسة والاقتصاد وموردا للسلاح. الفارق الوحيد أن المساعدات السوفيتية للآخرين متكافئة متزنة ومتناسبة مع احجامها، أما مساعدات أمريكا للباكستان فلا تقارن قط بسيل مساعداتها المتدفق على إسرائيل.

رابعا : فى الحرب قبل الاخيرة (الحرب الثانية بين الهند والباكستان ١٩٦٥) والثالثة بين العرب واسرائيل (١٩٦٧) سجل الطرف الاصغر على الاكبر انتصارا ساحقا بدرجة أو بأخرى وفى كل منهما لعبت الحرب الجوية الخاطفة دورا فى آخر. وفى الحالتين بدا أن هذا الانتصار الضخم قد جاء مضادا للتوازن الطبيعى للقوى بين الطرفين وربما غير معبر عن حقائق القوة بينهما، ولكنه بالدرجة نفسها قلب الموازين الاستراتيجية فى الصراع .

خامسا : فى الحرب الأخيرة (١٩٧١ فى شبه القارة، ١٩٧٣ فى الشرق الاوسط) التى كانت حربا محدودة فى الحالتين دامت ١١ يوما فى الأولى ونحو ٢٠ يوما فى الأخيرة، لم تلعب الحرب الجوية الخاطفة دورا حاسما وكانت المواجهة برية تصادمية أساسا، وفيها كان النصر حليف الطرف الاكبر الأول مرة فى الحالين تقريبا. وكان التنسيق بين هذا الطرف وبين الاصدقاء الكبار السوفييت وكذلك السلاح السوفيتى عاملا هاما فى تحقيق هذه النتيجة .

سادسا : تشترك الحرب الأخيرة فى كل من الحالتين فى انها اول حرب محدودة فى ظل الوفاق الدولى بين القطبين الاعظم، واكدت بذلك أن الوفاق ليس قيدا على الحروب المحلية ولا مانعا لها، وأن كان عليها أن تعمل فى ظله وبالتنسيق معه ومراعاة توازناته العالمية الحرجة. غير

أن هناك فارقا مهما أيضا بين الحربين بعد ذلك، فحرب الهند، الباكستانى دارت والوفاق لم يزل بعد فى مرحلته التكوينية نسبيا، ولا نقول الجنينية . أما معركة اكتوبر فقد وقعت والوفاق قد اكتمل نضجا وتبلورا ، أو هو على الاقل فى سبيله الى ذلك . حرب شبه القارة هى الأولى شكلا فى ظل الوفاق، ولكن حرب شبه الجزيرة هى الأولى موضوعا ، من هنا تعد حرب اكتوبر بجدارة أول حرب محلية حقيقية تتم فى ظل الوفاق .

سابعا : وفى الحالتين ، بينما جاء انتصار الطرف الاصغر فى الحرب قبل الأخيرة مدويا من الناحية العسكرية، جاء عقيما من الناحية السياسية، فقد جمد الاوضاع الراهنة دون أن يفرض الحل النهائى. أما فى الحرب الاخيرة، فرغم ان انتصار الطرف الاكبر كان أقل بريقا وحجما وربما دويا من الناحية العسكرية، فقد كانت آثاره حاسمة من الناحية السياسية .

فمعركة الهند - الباكستان قلبت التوازنات الاقليمية فى شبه القارة تماما، اذ انشطرت دولة الباكستان وتقلصت الى وحدة سياسية مقلمة متوسطة الحجم كايران المجاورة تقريبا، بينما خلقت دولة جديدة تماما هى بانجلاديش ، على حين طفرت الهند الى الصدارة كقوة شبه عظمى فى جنوب آسيا .

بالمثل في حرب اكتوبر، لأول مرة تعاد اسرائيل الى حجمها الطبيعي كدولة صغرى في مثل حجم الأردن المجاور تقريبا، ويسترد العرب مكانتهم العالمية مرشحين ، ربما لدور قوة كبرى أو شبه عظمى، مع احتمال ان تتمخض التسوية أيضا عن قيام دولة فلسطينية جديدة ؟ مثلما قامت بانجلاديش .

معركة يونيو ومعركة اكتوبر

تلك مقارنه عاجلة وعابرة على مستوى الاستراتيجية العسكرية والاقليمية بين معارك الصراع العربي - الاسرائيلي ، والصراع الهندى - الباكستاني . والتشابه جزئي بطبيعة الحال ، ولكن لعله أن يكون مقنعا مثلما هو دال وأن يلقى من الضوء اكثر مما يلقي من الظلال. وعلى أية حال، فان المقارنة بين الصراع العربي الاسرائيلي والصراع الاوربي النازى هي ما تعنينا أساسا. ولنبدأ أولا بالمقارنة بين معركتي يونيو ١٩٦٧ واكتوبر ١٩٧٣ . ثمة نقاط أساسية خمس، وكلها أوجه اختلاف جذرى - بالطبع .

أولا : معركة يونيو هي النموذج الكامل للحرب الخاطفة، ولكن أيضا وأساسا لضربة «بيرل هاربر» الغادرة فقد بدأت بهجوم شامل، مبيت وغادر، على السلاح الجوى المصرى وهو على الارض اخرجه على الفور من المعركة فكان الوضع اشبه مبارزة اطاع احد طرفيها بسيف الطرف

الآخر على غرة قبل اشارة البدء القانونية ، فتحولت المبارزة على الفور إلى إلتحام بين حامل سيف واعزل من السلاح . وكانت البقية محتومة ! طعنة نافذة في جسم الأخير. هكذا تحولت المعركة فى سيناء الى مواجهة بين جيشين في جانب، جوى وبرى وبين جيش واحد برى فى الجانب الآخر. أو بالأجرى لم تحدث مواجهة حقيقية. فبعد أن فقد غطاءه الجوى، أصبح سلاح المدرعات المصرى هدفا مباشرا وسهلا لسلاح طيران العدو.

أما في اكتوبر فقد انعكس الوضع بصورة أو بأخرى فقد تحول الجانب العربى من الدفاع الى الهجوم وأحرز قصب المبادأة ونجح في مفاجأة العدو بضربة جوية شاملة وخاطفة قد تقل حجما وابعادا عن حرب العدو الخاطفة في يونيو ولكنها لم تكن أقل فاعلية وكفاءة ، وإن كانت أبعد شيء عنها من حيث اخلاقيات الشرف والنزاهة. وبعدها اصبحت المواجهة حقيقية بين جيشين فى كلا الجانبين ، جيش برى وآخر جوى. من هنا كانت معركة اكتوبر اختبار قوة حقيقى للطرفين، حيث كانت معركة يونيو تجربة غدر من طرف واحد .

ثانيا : فى يونيو توسع العدو ترسعا دائريا أى على الجبهات العربية يمينا ويسارا: شمالا فى الجولان وشرقا فى الضفة الغربية

للاردن، وجنوبا فى سيناء، وبهذا وصل الى حدود طبيعية مانعة وموانع مائية من الدرجة الأولى : المرتفعات السورية ونهر الاردن وقناة السويس وبهذا أيضا تحقق له احتلال مساحة شاسعة من الارض العربية وبلغت أربعة أمثال مساحة الارض السليبة فى فلسطين المحتلة نفسها . «من القنطرة الى القنيطرة ومن شرم الشيخ الى جبل الشيخ» كما وضعها االسوفسطائيون من فلاسفة العدو .

فى اكتوبر على العكس، نجح العرب فى رد العدو على اعقابه عن قطاعين هامين في غرب سيناء بطول القناة وفى بعض أطراف القطا ع الشمالى من الجولان بعرض المرتفعات . وإذا كانت هذه المناطق المحررة لا تمثل إلا كسرا صغيرا من الارض المحتلة فى يونيو، فان الحرب لم تنته والمعركة مستمرة نظريا وعمليا. ويمكن أن تكون تلك القطاعات المحررة عتبة عريضة أو خشبة قفز وثيقة لخلع العدو عن بقية الارض العربية .

وإذا كان العدو قد فاته الغدر على طريقة بيرل هاربر أو غيرها فى بداية المعركة مثلما فعل فى يونيو فقد لجأ الى التعويض بالخداع فى آخرها. فسواء على الجبهة المصرية أو السورية استمات فى نهاية القتال ، ولكن اساسا بعد وقف اطلاق النار رسميا ليفتح ثغرة ليتسلل منها إلى مكاسب إقليمية أو عسكرية أو سياسية وقد نجح بالفعل على الضفة

الغربية للقناة وفى تخوم القطاع الشمالى من الجولان . غير أن وجوده غير الشرعى - لا يعدو فى الحالين جيبا محاصرا كان يمكن تصفيته وسحقه اذا عاد القتال ولهذا سارع بالانسحاب منه فى الفصل بين القوات .

ثالثاً : كانت حرب يونيو حربا جوية فى الدرجة الأولى بداية ونهاية وحسما بالتالى اعطت سندا للنظرية القائلة بأن الطيران هو سيد حرب الصحراء مثلما اعطت مادة لدعاية العدو الراعدة عن تفوقه التكنولوجى والجوى.. إلخ . حرب اكتوبر ، على النقيض ، تأتى حربا جوية وميكانيكية ، حرب طيران ومدرعات ، قاذفات مقاتلة ودفاع جوى، وصواريخ ومشاة، وعلى النقيض اكثر جاءت لتكتسح نظرية الطيران سيد حرب الصحراء ومعها اسطورة التفوق الجوى الاسرائيلى بل وكذلك جاءت لتنسخ نظرية منافسة هى نظرية الدبابات سيدة الارض فى حرب الصحراء.

وعلى العموم فعلى حين لم تغير حرب يونيو شيئا من قواعد الحرب التقليدية بما فيها حتى نظرية الحرب الخاطفة التى كانت تقليدا لا تجديدا، قلبت حرب اكتوبر معظم نظريات الحرب المقررة وهزت اركان الاستراتيجية ومعطياتها الثابتة هزا عنيفا وعميقا على نحو ما رأينا تفصيلا فى الصفحات السابقة .

رابعاً : حرب يونيو هي أقصر حرب خاضها العرب ضد اسرائيل وحرب اكتوبر هي أطولها ، استطالت كما رأينا الى ثلاثة - اربعة أمثال الاولى ، وبينما كانت الاولى جولة واحدة ناجزة ، انتظمت الثانية بصورة ما جولتين فقدت اسرائيل أولاهما بصورة قاطعة ، وكادت تفقد بها الحرب نهائيا لولا التدخل الامريكي غير المباشر - ولكن غير المستتر - الذى منحها فرصة جديدة من الحياة والمقاومة لتبدأ الجولة الثانية التى انتهت الى شكل من التعادل . وبهذا كانت نتيجة الحرب الصافية نصراً محدودا ولكنه اكيد للعرب .

ولئن بدأ هذا النصر أقل ضخامة وبريقا من نصر العدو فى يونيو من الناحية العسكرية ، فان العكس صحيح تماما من النواحى الأخرى. فنصر العدو العسكرى فى يونيو أتى عقيما من الناحية السياسية ، اذ عجز عن فرض ارادة اسرائيل على العرب وبقى الوضع الجديد معلقا . اما نصر العرب المحدود عسكريا فى اكتوبر فقد جاء مع ذلك خصبا الى أقصى حد من الناحية السياسية وغنيا جدا بالتداعيات الجيوبولتيكية . فلقد قلب الميزان الاستراتيجى فى المنطقة تماما وفتح الباب لفرض الاوضاع السياسية الجديدة وكانت له انعكاسات عالمية على موازين السياسة الدولية المعاصرة تزداد

كل يوم وضوحا وستفرض نفسها لا شك فى الواقع الدولى إن عاجلا أو أجلا.

خامساً: حرب اكتوبر فى المحصلة النهائية وترتيبا على كل ما سبق، هى انعكاس تام وقلب كامل لحرب يونيو. انهما طرفا نقيض عسكريا وسياسيا، اقليميا وعالميا ، كالقطب الموجب والسالب على الترتيب ، أو كالقرار والجواب، أو كالنفى والاثبات . السادس من اكتوبر هو نفى النفى، هو النقيض الموضوعى للخامس من يونيو ، وهو النسخ التاريخى لمسخ يونيو. لقد قلب يونيو الصراع وتركه «واقفا على رأسه». فأعاد أكتوبر اقامته على قدميه .

فى البداية انتزع العرب المبادأة والمفاجأة والهجوم لأول مرة، ووضعوا العدو على الدفاع لأول مرة. فى الميدان : كان يونيو آخر نصر عسكرى يحققه العدو، وكان اكتوبر اول نصرى عسكرى يسجله العرب. وفى الرأى العام العالمى : فى يونيو كان الانحياز الاستفزازى بل والعدائى كاملا ضد العرب ولصالح العدو ، ولكن فى اكتوبر كان العدو فى عزلة شبه تامة عن العالم. فى السياسة : انتهى يونيو الى طريق مسدود والى حالة من الجمود هى حالة اللاحرب واللاسلم، أكتوبر أنهى هذه الحالة وفرض على العالم ضرورة الحل الحقيقى لأزمة .

الصراع العربى الاسرائيلى
والصراع الأوربى - النازى

يبقى الآن أن نضع ٦ أكتوبر مع ٥ يونيو داخل اطار الصراع العربى الاسرائيلى موضع المقارنة مع استراتيجية قيام وسقوط النازية اثناء الحرب الثانية، وبين النازية والصهيونية عدد من أوجه التشابه والتقارب، بل أكثر منها علاقة نسب مباشرة، فما خرجت الصهيونية إلا من رحم النازية فكانت هذه جلادتها وولادتها فى الوقت نفسه ورغم مافى ذلك من تناقض ظاهرى. ولنا بكل تأكيد ان نتحدث عن «الصهيونازية Zionazism كمرادف لنازية العنصرية الاسرائيلية، إلا انها أكثر تحديدا ووضوحا وادخل الى العقلية الاوربية التى تعرف جيدا معنى النازية بكل محمولاتها وابعادها. على أن ما يعنينا الآن من علاقة النسب والتشابه بين النازية والصهيونية هو الجانب الجيوستراتيجى وحده، وهو الذى سنركز عليه . .

فالعنصرية العدوانية في كل من ألمانيا النازية واسرائيل الصهيونية توسعت من حولها توسعا دائريا فى كل الجنهات والجبهات ، وبسرعة كاسحة فى حرب خاطفة فى الحالين. الأولى على امتداد اوربا من الاطلسى حتى البحر الاسود وكذلك حتى شمال افريقيا، والثانية من

قناة السويس حتى نهر الاردن والجولان. وكما كان لألمانيا جبهتان اساسيتان محيطتان في وقت واحد، شرقا فى الاتحاد السوفيتي وغربا فى أوربا الغربية، كان لاسرائيل ايضا جبهتان، شمالا وشرقا مع سوريا والاردن وجنوبا مع مصر .

وهناك تناظر مركب بشكلٍ ما فى الجغرافيا الاستراتيجية للحرب والمعارك الكبرى داخل الاطارين تأخذ مصر فيه من سمات الجبهة الشرقة مرة والغربية مرة. فعلى أقصى ضلوع منطقة النفوذ والتوسع الالمانى حدثت معركتان تاريخيتان فاصلتان ، وتكادان أن تكونا متعاصرتين (١٩٤٢)، هما اللتان حددتا مصير الصراع: العلمين على اطراف شمال افريقيا وعتبة مصر فى اقصى الجنوب الغربي، وستالينجراد فى قلب الروسيا الاوربية فى اقصى الشمال الشرقي. وكلتاهما كانتا من معارك الدبابات العظمى فى التاريخ الى جانب دور الطيران الحاسم .

وبالمثل فى اطار صراع الشرق الاوسط، شهدت سيناء فى أقصى الجنوب الغربى والجولان فى أقصى الشمال الشرقى الصدامات الرئيسية فى حرب يونيو، ولكن اساسا فى حرب اكتوبر حيث دارت معُركتان فاصلتان من كبرى معارك الدباباتَ فى التاريخ حتى لتكادا تعادلان ان لم تفوقا نظيرتيهما حجماً مثلما توازيهما موقعا

ودورا . وفى كل الحالات كانت هذه المعارك هى نقط التحول لأول ولآخر مرة فى اتجاه الصراع ورسمت بذلك مؤشرات النصر أو الهزيمة .

وإذا شئنا مزيدا من التفصيل فى هذه المقارنة فثمة هذه الأرقام الدالة فى العلمين مثلا، قدرت قوة بريطانيا بنحو ١٤٠٠ دبابة، حيث لم تملك المانيا وايطاليا إلا ٥٥٠ دبابة فقط؛ أى بمجموع كلى نحو الالفى دبابة . أما فى ستالينجراد فكانت المواجهة بين ٩٠٠ دبابة للسوفييت، ٧٠٠ فقط للألمان ، بمجموع كلي قدره ١٦٠٠ دبابة. وللمقارنة ، فان هذا الرقم الأخير قد لا يزيد كثيرا جدا عما ألقى به أى طرف من اطراف حرب اكتوبر طوال المعركة ويقل بالتأكيد عما قذف به أكبر اطرافها ، بل أن مجموع ما قذف به فى المعركتين العالميتين القديمتين، وهو ٢٥٥٠ دبابة ، ليقل كثيرا بالتأكيد عن نظيره فى معركة اكتوبر والذى يتراوح حول ٤٠٠٠ دبابة وربما رجحها . بل لعل من المثير ان نلاحظ ان ذلك المجموع ، ٢٥٥٠ دبابة، هو نفسه مجموع عدد خسائر الطرفين المتحاربين فى معركة اكتوبر وحدها !

هذا كله من ناحية التشابه العام بين خريطتي الصراعين العربى - الاسرائيلي والاوربى - النازى جيوستراتيجيا. ومن ناحية اخرى نجد موقف مصر فى يونيو يشبه موقف الاتحاد السوفيتي فى الحرب الثانية

من منظور معين. فكما توغلت المانيا فى الاتحاد السوفيتى الي خط مدن لننجراد - موسكو - ستالينجراد ، توغلت اسرائيل فى سيناء اثناء حرب يونيو الى او قرب خط مدن القناة بورسعيد - الاسماعيلية - السويس . وكما هجر الاتحاد السوفييتى سكانه وصناعاته الى ما وراء الاورال ، هجرت مصر سكان ومصانع الاسماعيلية والسويس وجزءا كبيرا من سكان بورسعيد الى ما وراء القناة .

كذلك فكما صمد الاتحاد السوفيتى فى عمقه الاستراتيجى وبجرمه الهائل أمام الزحف الالماني ، صمدت مصر فى وجه النصر الاسرائيلى بفضل ثقلها ووزنها وعمقها الكبير . وكما جمد الاتحاد السوفيتى بصموده القوة الالمانية فى صحراء جليدية قارسة فعقم الحرب الخاطفة الى أن تمكن من التحول مع الغرب الى الهجوم ثم سحق النازية نهائيا، فكذلك أدى صمود مصر وسوريا الى تجميد القوة الاسرائيلية فى صحارى رملية حارقة فعقم حربها الخاطفة الى أن كانت ساعة الصفر والنصر فى ٦ اكتوبر .

وإذا كانت تلك هى الصورة العريضة للتشابه الجيوستراتيجى بين المسرحين والملحمتين فلعلنا سنلاحظ كيف تأتى مصر بخاصة قاسماً مشتركا حلقة وصل بينهما . فكما تمت العلمين الفاصلة على ارضها اثناء الملحمة الاوربية، كانت سيناء هى ارض الصراع الحاسم فى دراما

الشرق الاوسط. واللافت المثير حقا ان الصراع فى الحالين كان ضد النازية عموما: القديمة هناك والجديدة هنا ، نازية اوربا سابقا ونازية الشرق الأوسط حاليا .

وهنا ايضا نلاحظ كيف تبرز مصر وعلى جانبيها يميناً ويسارا ، بالتحديد على كتفيهما قد دارت اثنتان من كبرى معارك الدبابات فى التاريخ الحديث، ان لم تكونها كبراها على الاطلاق كما يذهب معظم العسكريين ، العلمين وسيناء. وإذا كان لاجتماع معركتين تاريخيتين عظميين على أرض دولة واحدة من معنى ، فهذا المعنى بلا شك هو اولا خطورة واهمية موقع مصر الجغرافى: لقد تحول الموقع الى موقعة ، ثم هو ثانيا دور مصر الاستراتيجى الحاسم فى الصراعات العالمية والاقليمية : انها الصخرة التى تحطم عليها المد النازى غربا والصهيونى شرقا .

وفيما عدا هذا فان هناك تناظرا غريبا بين المعركتين حتى من داخل المنظور المصرى نفسه ، رغم ان الأولى كانت لحساب الاجانب والثانية لحساب الوطن. فـفضلا عن التناظر فى الموقع على بوابتى مصر ومدخليها الشرقى والغربى، فان كلا منهما يمثل عنق زجاجة عنق مصر كذلك فالمسرحان كلاهما بيئة طبيعية واحدة اساسا هي البيئة الصحراوية، وبالتالى فراغ عمرانى وبشرى وعازل استراتيجى هام.

ومن الطبيعي بعد ذلك أن المعركتين كانتا على السواء حرب صحراء بكل ما تعنى استراتيجيا وتكتيكيا من التركيز على الحرب الميكانيكية والجوية أو المدرعات والطيران وكمجال مثالي للمناورات الشاسعة المدى والكر والفر بلا حدود .

بل أكثر من ذلك أخذ هذا الكر والفر نمطا متشابها في الحالتين، نمط المد والجزر تقدما وتقهقرا عدة مرات ما بين الشرق والغرب أو استراتيجية «شد الحبل tug of war » كما تسمى أحيانا ففي العلمين زحفت قوات المحور من شمال افريقيا وليبيا على بوابة مصر الغربية ثم ارتدت أمام زحف الحلفاء المضاد ثلاث مرات على الاقل حتي كانت الجولة النهائية في العلمين. وفي سيناء تقدم الزحف الاسرائيلي بصورة أو بأخرى ، وحده أو في حماية الحلفاء، غدرا أو غصبا ، ثم انحسر كليا أو جزئيا ، ثلاث مرات أيضا في ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ ، ١٩٧٣.

وهنا نلاحظ أن معركة العلمين اشبه عسكريا بمعركة اكتوبر من أي منهما بمعركة يونيو ، وذلك من حيث الاستراتيجية والسلاح والمدى الزمني . فبينما اعتمدت يونيو على الحرب الجوية الخاطفة السريعة، كانت العلمين كاكتوبر حرب مدرعات وطيران علي السواء، تصادمية طويلة ورهيبة. واخيرا فانهما تتناظران حجما وحشدا وخسائر بل

ونتائج مصيرية رغم أن الواحدة كانت عالمية والثانية محلية : دبابات بالآلاف وطائرات بالمئات فى الحالين، وخسائر جسيمة فى السلاح، ثم فى النهاية اول انكسار للطرف النازى فى الصراع بعد سلسلة انتصارات متصلة ، وأول انتصار للجانب التحريرى بعد هزائم متكررة ، ومن نقطة التحول فى الصراع هنا وهناك على حد سواء .

تلك خطوط عريضة فى المقارنة بين قصة صعود وسقوط النازية الألمانية فى اوربا وقصة نشأة وانكسار الصهيونية الاسرائيلية فى الشرق الاوسط ، قد لا تزيد عن بروفيل عام ، ولكنها كافية لأن تجعل من المناظرة بينهما تناظرا ايضا. وإذا كان لنا بعد هذا ان نتتبع هذا التناظر الى منتهاه . فان هذا المنتهى هو النهاية المحتومة للصهيونية تماما كما حدث للنازية. انها مثلها كيان محكوم عليه جغرافيا وتاريخيا، استراتيجيا وحضاريا، فلسفيا . وانسانيا ، وهو محكوم عليه لأنه أسباسا كيان ضد الطبيعة وضد الحياة . لقد خرجت الصهيونية من رحم النازية ، ثم كررت دورة تاريخها الطبيعي، وستتم الدورة وتدور الدائرة كاملة تدفن مثلها فى مقبرة التاريخ ..

الباب الثانى

٦ أكتوبر

فى استراتيجية السياسة العالمية

منذ الحرب العظمى الثانية، لا نكاد نعرف حربا محلية خصبة بآثارها الإقليمية وحبلى بنتائجها العالمية مثل حرب أكتوبر. قد تكون حربا محدودة بالمقياس العسكري، إلا أنها بلا حدود في انعكاساتها وإشعاعاتها السياسية: وربما كانت مجرد حرب محلية جيوستراتيجيا، ولكنها بلا مبالغة كوكبية جيوبولتيكيا. وهذه واحدة أخرى من مفارقات هذه الحرب الفذة، إنها ليست فقط حربا عصرية باللغة العصرية، وإنما هي كذلك حرب العصر بالضرورة والامتياز.

أو كما قال الجنرال بوفر «الحرب بدلت الموقف تماما في الشرق الأوسط، فلقد رأينا حربا محدودة في المكان والزمان، لكنها حققت هدفا سياسيا مهما»، هذا بينما قال ريمن آرون أن حرب أكتوبر «من أكبر مفاجآت العصر»، كما عدها جالليه وزير دفاع فرنسا «نقطة تحول في التاريخ المعاصر». وبالمثل اعتبر وزير خارجية السودان أن «٦ أكتوبر تحول سيكون له أثره على تاريخ البشرية». وبالمثل تكلم الرئيس تيتو مخاطبا صديقه وضيفه الرئيس السادات في بريوني عن أحداث تجرى أخيرا في الشرق الأوسط «يمكنها أن تؤثر بشكل مصيرى على التطور اللاحق ليس فقط في تلك المنطقة بل على نطاق أوسع في العالم أيضا». هذا في حين قال السادات نفسه أن ٦ أكتوبر «غير التاريخ ليس فقط في بلدنا أو أمتنا، وإنما غير تاريخ العالم كله». يحدث هذا ويصدق إلى

أقصى حد رغم أن انتصارنا لم يكن كاملا تماما حيث أن المعركة لم تتم إلى آخر المدى، وهذه وحدها مفارقة أخرى لا تقل إثارة.

الحرب الفيتنامية مثلا، تلك الملحمة الرائعة والمروعة معا، كانت أطول بكثير جدا بالطبع، وربما أشد ضراوة وترويعا، كما لم تكن مشحونة بأخطار أقل كثيرا، ومع ذلك لم يكن لها الوقع والإيقاع والإشعاعات والانعكاسات العالمية الحاسمة والفاصلة التى لمعركة أكتوبر. خذ حرب الهند ـ الباكستان الأخيرة أيضا، غيرت خريطة شبه القارة تماما، فلقت دولة قائمة وخلقت دولة قادمة، وقلبت ميزان القوة في جنوب آسيا: لكن كل تلك آثار إقليمية فى الصف الأول أكثر منها عالمية الصدى أو المدى.

كذلك كانت كوبا مواجهة نووية مباشرة وسافرة، حيث لم تزد معركة أكتوبر عن تهديد بالمواجهة، أو بالأحرى عن «تشنج نووى» أمريكى، ومع ذلك فلا مجال للمقارنة بين الأزمتين من حيث شلال النتائج السياسية العالمية.

أما حرب أكتوبر، فإننا نستطيع أن نضعها ببساطة كالآتى: حرب كان لها دور وفعل الزناد trigger action ، أطلق رصاصة تتابعت بعدها الطلقات الأكبر والأبعد مدى فى سلسلة من الأفعال وردود الأفعال chain reaction ، بدأت من أدق دقائق الموقف العسكرى

المحلى نفسه فى الميدان إلى أكبر وأخطر القضايا النظرية الكوكبية كفلسفة الحضارة المعاصرة نفسها والنظام العالمى الراهن.. الخ. أو كما عبر الأستاذ أحمد بهاء الدين فى صورة دقيقة وشيقة، كانت الحرب «بمثابة ألقنبلة التى تنفجر فى مخزن للقنابل فتنفجر سائر القنابل وتتطاير شظاياها على مساحة واسعة.. كل قنبلة موقوتة تنفجر، ثم لا يلبث انفجارها أن يفجر قنبلة أخرى مجاورة». «وتكاد لاتكون هناك قضية ـ كما يضيف فى مكان آخر ـ إلا وطرحتها حرب أكتوبر للنقاش وعرضتها لامتحان عسير».

كذلك لايكاد يمضى يوم منذ ٦ أكتوبر إلا ويكشف للخبراء والمراقبين فى العالم كله أثرا جديدا أو وقعا بكرا أو نتيجة إنقلابية، ليس فقط فى الجوانب العسكرية والنظريات الاستراتيجية، وإنما كذلك فى توازنات القوى العالمية ومناخ السياسة الدولية بعامة. ومن المحقق أنه مهما قيل فى هذا الصدد فإن أحدا لن يستطيع لوقت طويل جدا أن يقدر تلك المعركة حق قدرها أو أن يحدد وزنها كاملا على أى مستوى. المستقبل وحده هو الذى سوف يضعها فى مكانها الجدير فى تاريخ عالمنا المعاصر.

لقد أحدثت المعركة كثيرا من التغيرات المهمة فى موازين القوة العالمية والإقليمية وحسابات الصراعات الدولية والمحلية، كما صفت

وستصفى كثيرا من الحسابات السياسية المعلقة والقديمة. وفيما عدا هذا فإن المعركة قد زلزلت كثيرا من المعتقدات السائدة والأفكار المستقرة والثوابت المقررة في كل مجالات الحياة السياسية ومستوياتها، وبدأت ترسى مكانها بدائل جديدة ووريثة، وليس يقل اهمية ونتائج أنها قد بددت كثيرا من الأوهام وحطمت غيرها من الأساطير التي عاشت أو عششت طويلا، ليس فقط في عقل العدو ومعسكره بل وفي عقولنا وأصدقائنا كذلك. باختصار، لقد نسخت حقائق قائمة وأقامت غيرها، ثم فجرت أوهاما دفينة وخلقت معتقدات جديدة.

وهناك بعد هذا حقيقة أولية تفرض نفسها على الملاحظة بشأن موقع أكتوبر العالمي ووقعه الدولي، تلك هي أن تأثيرات ٦ أكتوبر في كل المجالات السياسية وعلى كل مستوياتها أكبر جدا من المعركة نفسها ومن حدود ميدانها المباشر. والواقع أننا نستطيع بسهولة أن نضعها قاعدة عامة أن المعركة أكبر في حجمها العسكري نفسه من إنجازاتها الإقليمية أي الأرضية البحتة حتى الآن، وأكبر في نتائجها الاستراتيجية العامة والفكر العسكري من حجمها العسكري بدوره، ثم هي أخيرا أكبر وأكبر في نتائجها السياسية العالمية من نتائجها في مجال الفكر الاستراتيجي العسكري العام.

وإلى هذه المتتالية الدالة يمكن أيضا أن نضيف حقيقة لا تقل خطورة ومغزى، تلك هي أن أغرب مافي المعركة أن نتائجها المستقبلية أكبر من نتائجها الحاضرة، وغير المباشرة أكبر من تلك المباشرة، كما أن نتائجها البعيدة المدى أكبر من نتائجها القصيرة المدى. ويمكن أن نعبر عن هذا كله بطريقة أخرى وفي عبارة مركزة فنقول أن نتائج ٦ أكتوبر هي «بالقوة» أكبر منها «بالفعل». إنها معلقة ومتعلقة بالمستقبل أكثر مما هي محققة في الواقع، وأكبر وأخطر نتائج أكتوبر بلا جدال هي تلك التي لم تتحقق بعد.

والسؤال الذي يقترح نفسه، بل يطرح نفسه طرحا، عند هذه النقطة هو: لماذا كل هذه الأهمية غير العادية لمعركة أكتوبر؟ ما الذي يمنحها هذا الخطر والخطورة الفائقة وهذه الأبعاد العالمية؟ إنها معركة محدودة، بل نصف معركة هي، ونصف نصر بعد ذلك، ولكنها قلبت العالم كله قلبا، فلماذا؟ ليست الصدفة بالقطع «ولا التحيز بالطبع!»، وإنما هناك ثلاثة أسباب محسوسة جدا وأكثر من مقنعة: خطورة المنطقة نفسها، طبيعة الصراع الداخلي، امتداد الصراع الخارجي.

فأولا : خطورة المنطقة نفسها لا خلاف عليها، فهي «عاصمة العالم استراتيجيا» مرتين، مرة بموقعها الاستراتيجي الحاكم في قلب العالم، ومرة لأنها «عاصمة العالم بتروليا» ــ والبترول نفسه وبدوره أهم سلعة

استراتيجية فى العالم. المنطقة إذن مركز مؤثر وحساس وقطب جاذبية شديد الإغراء لكل المصالح العالمية، من ثم فإن كل مايحدث فيها تنتشر آثاره بعيدا كموجات الزلزال ويتردد صداه مضاعفا داويا كما لو خلال مكبر صوت.

ثانيا: طبيعة الصراع الداخلى «أو الداخلية، سيان» ليست مما يسمح بأنصاف الحلول أو بأنصاف الأفعال وردود الأفعال. فهو صراع مصيرى وباقٍ، صراع وجود لانزاع حدود، فإما أن يكون أحد الطرفين أو لايكون، وهذا وحده يكفى لتفسير ضخامة الترسانات المسلحة المحشودة فيها وتطور الأسلحة المستعملة بها بدرجة قد لا تملكها أو تعرفها حتى بعض الدول الكبرى، أو على الأقل بدرجة لاتتناسب مع الحجم البشرى ومستوى التنمية الراهنة للمنطقة، ولنا أن نلاحظ هنا كم يصبح من الخطورة أن تكون المنطقة، التى هى «بئر بترول» العالم، «برميل بارود» أيضا.

ثالثا: امتداد الصراع الخارجى يأتى نتيجة منطقية وحتمية للعاملين السابقين، ولكنه يضاعف آثارهما بمعدل الربح المركب، فبحكم طبيعة العصر، ينطوى كل صراع محلى اليوم على عنصر دولى. إلا أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى هو الوحيد الذى يتقاطع فيه المستوى العالمى والمستوى المحلى بأكبر درجة من التشابك والتفاعل. وفى النتيجة

فإن منطقتنا تنفرد بأنها منطقة التقاطع الحرج والتداخل الأقصى بين البعدين المحلي والدولي.

من ثم فإن الصراع المحلى «يتلبس» إلى أقصى حد مع الصراع العالمي، وبالتالى يصبح هو نفسه بمثابة صراع «اختزالى catalyst» يختزل كثيرا من صراعات العالم ومصالح القوى المختفية وراءها. بل نستطيع أن نقرر أن الصراع العربى ـ الإسرائيلى أصبح اختزالا موضعيا مكثفا للصراع العالمي جميعا، فكان بصفة خاصة استقطابا محليًا للإستقطاب الثنائى فى الماضى وهو الآن استقطاب للوفاق الثنائي. ويؤدى هذا كله إلى أن المنطقة، وقد رأيناها عاصمة العالم استراتيجيا، تتحول هى نفسها إلى كشاف جيوبولتيكى re-agent، أى محك أو حجر مغناطيس عالمى touchstone, loadstone، وتصبح بمثابة بارومتر الجيوبوليتيكا الكوكبية، ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يتحول الإقليم الكشاف إلى منطقة اختبار واستكشاف لأسلحة الأقطاب العظمى مثلما هى منطقة ارتطام بينها.

لكل هذه الأسباب مجتمعة تبدو معركة الشرق الأوسط أكبر من حجمها الطبيعي، وتكاد تخرج عن أبعادها الذاتية، وبالتالى تأتى بنتائجها وآثارها عالمية إلي أبعد الحدود متجاوزة الدائرة الإقليمية أو المحلية بالتأكيد. وليس لنا أن ندهش، ولا لأحد أن يتهمنا بالمبالغة، حين

نجد هذه النتائج والآثار تتخلل النسيج السياسى للعالم كله وتفرض نفسها على توازن القوى المعاصر برمته، وليس من قبيل الحماس أو الانفعال أن نعدها، كما سنرى، أخطر نقطة تحول فى عالمنا المعاصر وفى استراتيجية السياسة العالمية منذ الحرب الثانية.

ومن الناحية الأخرى، وقبل أن نذهب إلى أبعد من هذا المدى من السباق، قد يكون من الخير لنا والمفيد أن نسجل رنة تحفظ ولا نقول نبرة تحذير، فحتى لا نقع فى خطأ «صيغة منتهى المبالغة» أو نتورط فى مزالق «أفعل التفضيل»، ينبغى أن ندرك ونقرر بوضوح مرة أخرى أن كل نتائج أكتوبر التى ألمحنا إليها إجمالا والتى سنفصل القول فيها تفصيلا إن هى بعد إلا بدايات وإرهاصات فقط، لم تكتمل ولم تتحول إلى حقائق نهائية بالضرورة حتى الآن، ليس فقط لأن هذا يحتاج إلى فسحة كافية من الوقت، ولا كذلك لأن هناك مقاومة من الأطراف المعادية أو المعنية لفاعلية وآثار أكتوبر، بل ومحاولة حاقدة لحصرها وتضييعها ولإهدارها واستنزافها، وإنما كذلك لأن أكتوبر نفسه ليس إلا بداية مهما كانت موفقة، ومجرد افتتاحية أيا كانت براعة الاستهلال فيها، إنه الخطوة الأولى الحاسمة فى رحلة الألف ميل، ولكنه بالقطع ليس نهاية المطاف، إننا لم نملك المستقبل بعد، وهو عريض جدا، ولكننا ملكنا مفتاحه بالتأكيد وفتحنا باب الأمل على مصراعيه.

وإذا كان لهذا من درس أو مغزى، فهو أن علينا نحن أن نكافح من أجل أعمال آثار المعركة وتحقيق نتائجها كاملة، واجبنا أن نحارب من أجل أن يتحول الممكن والكامن إلى كائن وواقع. إن نتائج المعركة الكامنة معلقة ومشروطة ورهن بأن نستكمل نحن شوط الصراع إلى نهايته. وإذا كانت هناك معركة سياسية لتمييع نتائجها أو إجهاضها، فإن علينا أن نشن معركة مضادة وأن نضرب والحديد ساخن لكى نجنى ثمار النصر كاملة. ويجب أن يكون مفهوما لنا جميعا أن نتائج أكتوبر لن تحقق نفسها بنفسها أوتوماتيكيا ولن تقدم نفسها لنا تلقائيا وذاتيا. وليس دورنا بعد النصر دور المتفرجين أو المنتظرين سقوط الثمرة ناضجة، وليس لنا كذلك أن نبيع جلد الدب قبل أن نصيده، والمعركة السياسية بعد كل معركة حربية لا تقل خطورة أو خطرا ولا أهمية أو مشقة.

إن عظمة وجبروت النصر الذى أحرزناه، أيا كان عنصر النسبية فيه، شيء يجب أن نحرص عليه تماما وعلى ترجمته إلى مكاسب سياسية وأرضية حقيقية مكافئة، ذلك لسبب بسيط، وهو أن هذا النصر بهذا البريق والوهج والبعث وعودة الروح والثورة القومية لن يتكرر بسهولة كل يوم، كما لن يستمر طويلا إذا ترك ليتآكل مع الزمن ويفقد بريقه، فالزمن عامل خطير من عوامل التعرية، فى السياسة كما فى

الطبيعة، إنها حقا لتكون خطيئة مأساوية، إن علينا أن نمسك به، نصرنا، لا ندعه يفلت أو يتبدد، بل نعمقه، ونعمقه بأن نستكمله، وإذا كان لنا أن نستقريء كل المؤشرات والدلائل، خيرا من أن نستبق الحوادث، فإنها تكاد تصرخ أن هذه المعركة لن يصلح آخرها إلا بما صلح بها أولها: نصر محقق جديد.

ولعلنا الآن بحيث نستطيع أن نتقدم إلي دراسة آثار أكتوبر ونتائجه دراسة تحليلية منهجية أصولية مفصلة. من الممكن أن نقسم هذه الآثار والنتائج على أساس مزدوج من التصنيف النوعي والإقليمي، فنبدأ بنتائج المعركة على العرب أولا، وفي القلب تأتي مصر ٦ أكتوبر وسوريا، ثم ننتقل إلى العدو المباشر لنرصد صورة إسرائيل بعد المعركة، ثم نتوسع إلى محيط السياسة العالمية كبعد أخير، وهكذا تنقسم فصول هذا الباب إلى ثلاثة: العرب والسادس من أكتوبر، ٦ أكتوبر والعدو الإسرائيلي، العالم والمعركة.

الفصل السابع

العرب والسادس من أكتوبر

حين وصف بعضهم ٦ أكتوبر بأنه بعث أو ميلاد جديد للعرب، وحين ذهب آخرون إلى أنه أعظم وأمجد أيام العرب منذ قرن ونصف قرن على الأقل، أى نقطة الأوج والذروة فى تاريخهم الحديث جميعا، لم يكن ذلك من قبيل الحماسة أو المزايدة العاطفية ولا كان فيه من الرومانتيكية الجامحة أو المجنحة أكثر مما فيه من الموضوعية العلمية الصارمة، وإذا كان هناك من يرى فى ذلك «كثيرا من المبالغة، وقليلا من الدقة العلمية»، وأن ٦ أكتوبر مرحلة مهمة من مراحل الصراع فقط، وتغيير كمى لا كيفى بعد»، فإن الاختلاف فى النهاية نسبى، وخطر التقليل قد يكون أسهل ولكنه أسوأ من خطر التهويل، ويبقى ٦ أكتوبر تغييرا ضخما وجذريا بكل مقياس وعلى أى أساس.

ذلك لأنه بقدر ما يكون عمق السقطة السابقة يكون ارتفاع القفزة اللاحقة، ولا يستطيع أن يقدر معني ومدى وحجم النصر العربى فى أكتوبر إلا من يستطيع أن يتخيل مدى الانهيار والسقوط ونوع المصير

الذى كان يمكن أن ينتهى إليه العرب لو أنهم هزموا فيه فوق هزيمتهم فى يونيو وبعدها، ولو أننا فكرنا بهدوء وواقعية فيما كان يراد بنا ويخطط لنا على أيدى العدو وأطماعه وطموحاته، لتأكد لنا بلا أدنى شبهة أننا على الأقل وعلى الأسوأ قد نجونا من خطر ماحق كان يدبر لنا وكان يمكن فعلا لو تحقق أن يودى بنا، وعلى الأغلب والأرجح قد ضمنا مستقبلنا وأمنا مصيرنا إلى الأبد، وعلى الأكثر والأحسن سوف نحقق كل أهدافنا وآمالنا القومية العظمى كاملة يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد، أو كما يقول بهاء الدين مرة أخرى «هزيمة يونيو لم تجعلنا نركع» ولكن ظل «سيفها مصلتا فوق رءوسنا ، قريبا جدا من أعناقنا.. حرب أكتوبر كسرت هذا السيف المسلط، وحطمت القيد الذى كان يكبلنا»..

فليس سرا أن نكسة يونيو كانت قد أصابت الوجود العربى فى مقتل أكثر مما كانت جرحا داميا أو كسرا أليما.. وقدر البعض مابين جيل إلى جيلين حتى تخرج العرب من كارثتها العسكرية وتعيد بناء قواتها المسلحة. بينما ذهب ريمون أرون إلى أن العرب لن يفيقوا من هول ماحدث إلا بعد قرن كامل، ففى يونيو خسرنا فى ستة أيام سوداء ليس فقط ما كلفنا ستة أعوام حالكة. كالحة من الإنهيار والعار والتمزق ومهانة الهزيمة، كل يوم بسنة، ولا كذلك ما قيمته ستة آلاف مليون جنيه

من السلاح وحده خسائر مباشرة ، أى كل يوم بألف مليون جنيه، هذا عدا ستة آلاف مليون أخرى خسائر مادية واقتصادية غير مباشرة، ولكنها أكثر منه جميعا شوهت ستة آلاف سنة عريقة من التاريخ المجيد، كل يوم بألف سنة.

ولم تكن بشاعة الهزيمة لتكمن في ذاتها فحسب، فالعرب قد عرفت وامتصت هزائم كثيرة في تاريخها المفعم، ولا كانت كذلك في حجمها، وقد كان مخيفا مهينا بصورة غير متصورة وإن لم تكن بالضرورة غير مسبوقة، وإنما كان هول الهزيمة في مصدرها ومعناها، فمن مثل عدونا الإسرائيلي المعقد القميء، بكل أحقاده وصغاره وسعاره، وأكثر منها وأخطر خططه وأوهامه المجنونة ونواياه المعلنة والمكتومة كاستعمار استيطاني إحلالي أبادي وأبدي، من مثل هذا العدو كانت الهزيمة إذلالا دمويا مشينا للماضي والحاضر برمته يسفحهما سفحا ونذير شؤم سوداوي للمستقبل يتده إلى الأبد.

معنى نكسة يونيو

من هناك جميعا لم يكن من المبالغة في شيء أن تعد سنوات ما بعد يونيو السوداء بمثابة ردة في تاريخ العرب الحديث إلى «العصور المظلمة». وفي الوقت الذي كان العالم يطفر طفرا نحو آفاق عصر جديد ونحو حضارة لم يسبق لها مثيل في درجة التطور والتعقيد والإمكانيات،

وحتى المتخلفون كانوا يلهثون للحاق بالعصر، بدا للبعض كما لو أن العرب وقد انزلقوا وحدهم فى حمأة هذه الرجعة التاريخية قد أمسوا وكأنهم أمة منقرضة لن تقوم لها قائمة، ميئوس منها، شاخت واستنفدت أغراضها ومبرر وجودها، وتلك فقط إنما علامات الزوال وآلام الاحتضار. أما من ترفق منهم فقد قال : إن العرب قد توقف بهم التطور عند صلاح الدين أو على الأكثر عند محمد على..

ولم يكن ذلك صحيحا بالطبع، بل بالقطع، ولكن كان لابد من تحد عملى قاطع، ومن ثم جاء ٦ أكتوبر بمثابة بداية «عصر النهضة» العربى المحدث بعد تلك «العصور المظلمة» التى انتهت إليها النكسة، لقد رد هذا اليوم اعتبار العرب فى العالم، ونسخ كل النظريات والنظرات الاستخفافية والاستهزائية التى نسجت حولهم، وأعاد تأكيد وجودهم إنسانيا، كما أعاد إقامة تاريخهم على قدميه بعد أن كان قد انكفأ على وجهه ثم انقلب على رأسه.

غير أنه أكثر من ذلك أيضا ساعد على وضعهم فى مكانهم الحق والمستحق فى العالم كقوة كبرى كامنة أو قادمة، لقد فتح باب الأمل كاملا أمامهم، لا ليلحقوا بالعصر فقط، بل ليسبقوه إن أرادوا، بحيث يمكن لنا، ربما بقليل من مبالغة ولكن بأكثر منه من الصحة، أن نعتبر

السـادس من اكتوبر بمثابة البداية المسبقة والطافرة للقرن الحادى والعشرين فى تاريخهم الحضارى.

بل أكثر من قرن جديد، كوكب جديد، فلو أننا فقط نجحنا - وهذا شرط لازب - فى أن نستكمل المعركة والنصر بحيث نستخرج منهما كل نتائجهما المنطقية ونعتصر ثمراتهما الطبيعية كاملة ، لكنا بمثابة من انتقل إلى كوكب جديد اليس هذا - فى النهاية - معنى حديثنا الشائع عن البحث عن مكان جديد تحت الشمس؟ أو لم نكن بعد يونيو- كما رددنا كثيرا - فى مفترق طرق مصيرى وعنق زجاجة تاريخى، اما أن نفشل فننزلق إلى الخلف عشرات السنين حبيسى الزجاجة المغلقة،واما أن نقتحم عنقها فنطفر منطلقين إلى أوسع أفاق المستقبل واعرض امكانيات التطور، نخترق حاجز التخلف، نحقق الوحدة وندخل دائرة القوة والسيادة العالميـة، إلى آخره؟ حسنا، لقد قررت المعركة الاختيار الأخير.

الآثار العالمية

ونستطيع الآن ان نحصر الآثار السلبية لهزيمة يونيو فى ثلاثة مجالات نحللها تباعا: عالميا، قوميا، ووطنيا. فأولا، على المستوى العالمى لم يكن هناك أدنى شك ان العرب فقدوا كثيرا جدا من وزنهم السياسى

ومن هيبتهم ومكانتهم الدولية، وانتقلوا في معادلة القوة العالمية قرب تخوم خط الخمود. وتحولوا على خريطة استراتيجية السياسة الدولية إلى منطقة ضغط منخفض، أي إلى «انخفاض جيوبوليتيكى» أغرى تيارات ضغوط القوة من حوله ومن بعيد بالتدفق لملء التخلخل الناشئ، ولا نقول الفراغ.

تضاءلت، علينا من أسف أن نعترف - قامة العرب في المجتمع الدولي وخفت موازينهم في حساب الصراعات العالمية، وبدا كما لو قد أتى على الانسان العربى حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. حتى لقد طمع فينا احيانا الصغار قبل الكبار. القوى المحلية المجاورة قبل القوى العظمى النائية. بل لقد تكامل الاثنان في مشروعات ومخططات مشتركة بزعامة القوة الأعظم المعادية وهي الولايات المتحدة. وكانت الاستراتيجية العظمى في هذا هي الحصار والعزل في الخارج، والضرب والتفتيت في الداخل.

فمن ناحية بدأت الولايات تعد لسقوط المنطقة كاملة في قبضة نفوذها وفرض الوصاية عليها، بطرد القوة المكافئة والمضادة منها، وتصفية النظم الوطنية بها، ثم تقنين السيادة الاسرائيلية المباشرة عليها. ومن الناحية الأخرى أخذت تمهد بالسلاح والاقتصاد وبالاستراتيجية الاقليمية والاستراتيجية البحرية لخلق مناطق «أقطاب

مضـادة» للمنطقة العربية تقوم على ضلوعها مباشرة سواء فى آسيا أو فى افريقيا، «ترث» دورها القيادى فى الشرق الأوسط الكبير وتنتزع منها زعامتها فيه إلى الأبد، وذلك بزعم أنها أصبحت مجرد جسم مترهل متخلف مضروب وإن كان غنياً ، وعاجز ثقيل الحركة بقدر ما هو ضخم ومترام.

على المستوى القومى

هذا عالميا، أما قوميا فلم يكن شك أن اللطمة التى أصابت العرب عامة قد أساءت إساءة بالغة إلى مصر خاصة، باعتبارها عاصمة العرب استراتيجيا والقوة الوطنية الكبرى التى يقع عليها تاريخيا وجغرافيا وديموغرافيا وتكنولوجيا مسئولية الدفاع القومى فى الصف الأول والتحليل الأخير. ولما كان هذا العجز العارض قد جاء فى مرحلة، غرضية هى الأخرى، أخل فيها البترول بدرجة أو بأخرى بتوازنات القوة فيما بين الدول العربية نفسها، فقد استغل الاستعمار هذه الفرصة للطعن فى زعامة مصر والتشكيك فيها- محاولة انتزاعها أمر غير وارد أصلا لأنها، بترول أو لابترول، مستحيلة، ضد الطبيعة والجغرافيا والتاريخ والمستقبل.

وقد يمكن بصورة تقريبية نسبيا ولكنها مقربة للغاية ان نشبه موقف العرب فى العالم ومصر بين العرب بعد النكسة بموقف العالم السلافى

وعلى رأسه الروسيا بعد حرب اليابان والحرب العالمية الأولى وقبل ثورة اكتوبر، حيث كانت اوربا تنظر إلى كل منهما كمارد ضخم الجثة راقد على أطرافها وتخومها ولكنه عاجز لا يأخذه أحد بجدية. وهناك فروق عديدة وعميقة جدا بالطبع، ولكن المقصود فقط هو الموقف العسكرى وموازين القوة والهيبة بالنسبة للعالم الخارجى. فالعالم السلافي عائلة كبرى واحدة رغم الاختلافات والخلافات ورغم التعدد السياسى، تجمعها الأصول الاثنولوجية إلى حد معين والقرابة اللغوية إلى حد أخر، ثم كان هناك الدين والكنيسة، وأخيرا نمط الحياة العامة وقالب الحضارة.. الخ.. وفى وسط هذه المجموعة المترامية الممتدة كانت الروسيا بضخامتها وجرمها العملاق ومواردها تقف تقليديا وتاريخيا كحارسة السلافية وحاميتها العتيدة .ولكن مع تضعضع الروسيا القيصرية ثم هزيمتها على يد المانيا فى الحرب الأولى، بدت كحارسة عاجزة مضروبة ومحتلة مقتطعة آجزاء من اراضيها، لا تملك أن تحمى نفسها فضلا عن الأخوات الصغيريات. إلى أن قامت الثورة، ثم إلى أن كانت الحرب العالمية الثانية حيث حققت إلى القمة دورها التاريخى فى تحريرهن وحمايتهن. بالمثل كان وضع العرب ومصر فى العالم بعد يونيو، بل ربما منذ ١٩٤٨ .وسنرى بعد قليل كم يصل التشابه إلى منتهاه وكيف تعادل حرب أكتوبر فى آثرها عندنا ثورة أكتوبر عندهم.

وعدا هذا فلقد حمل أعداء القومية العربية على فكرة الوحدة - العربية، التى لاشك اهتزت بعض الشئ فى قرارة النفس العربية، وان لم يصل الأمر قط إلى حد الشك فيها أو فقد الايمان بصحتها أو بحتميتها.ولكن الاستعمار اهتبلها سانحة للهجوم بالجملة على كل أعمدة العروبة والقومية والوحدة وذلك للاجهاز عليها مرة واحدة وإلى الأبد. فزعم، على سبيل المثال، أن العرب مجرد مجموعة غير متجانسة: لا جنسا ولا لغة ولا لونا ولا دينا، إلى آخر تلك النظريات السقيمة الخاطئة التي دفع بها الأعداء بثا للبلبلة والتخريب..

ولا مفر لنا من أن نعترف أن هذه الحرب النفسية نجحت نسبيا فى خلخلة التماسك العربى إلى حد ما، وبدا لوقت ما كما لو ان العرب قد خضعوا لحركة مركزية طاردة centrifugal وقعوا فى عين دوامتها الكاسحة، وأنهم يتصرفون كما لو كانوا أمة غير واحدة. بل بدا أحيانا ولكن فقط على السطح وللمراقب السطحى -كما لو أن العرب ليسوا أصلا وأساسا «أمة واحدة» وأن القومية العربية لم تكن مجرد مثالية اسطورية فهى ليست أكثر من حقيقية تاريخية ولكنها بالتأكيد ليست حقيقة واقعة فعلا.. إلخ.

ووطنيا

أخيرا، على المستوى الوطني، غنى عن القول أن صدمة النكسة قد

هزت الوجدان الوطنى حتى النخاع، وأحدثت مرارة الجرح كثيرا من التقلصات الحادة بل والتشنجات العنيفة فى الجسم السياسى، وحدثت فجوة تصديق وثقة ساحقة بين القاعدة والقيادة فى كل بلد من البلاد العربية تقريباً. وعلى الجملة فقد انعكست كل تفاعلات الهزيمة على الوحدة الوطنية، وأصبحت مشكلة الوحدة الوطنية هى قضية الجبهة الداخلية الأولية والآنية.

ولحسن الحظ فان الوطنيات العربية، بفضل رصيدها التاريخى الزاخر والهائل من التماسك والتجانس والوعى، تجاوزت الأزمة وسرعان ما التأمت جراحها والتحمت صفوفها فى وجه الخطر الخارجى، بل لقد اتخذت تلك الوطنيات من الوحدة الوطنية خط دفاعها الأخير الذى تخندقت فيه تعيد ترتيب بيتها من الداخل وتستعد للتحدى، ومنه بالفعل قفزت قفزتها التحريرية الرائعة فى اللحظة المقدورة.

وفضلا عن هذا فلقد سجلت الوحدة الوطنية مكاسب ثورية وتقدمية محققة صنعتها فى ظل النكسة وبرغمها بل وكرد فعل متحد ومصل مضاد لها. فكانت الثورة فى السودان ثم فى ليبيا، وكذلك فى اليمن الجنوبية ثم فى العراق... إلخ وكان هذا كله اعلانا بنبذ الهزيمة وبرفض نتائجها وعلامات على طريق الصمود حتى فجر النصر.

بعث أكتوبر

الآن يأتى ٦ أكتوبر لينسج هذه الصورة كلها، بل وليقلب التوازنات والاوضاع جميعا رأسا على عقب. وكما قال الجنرال بوفر «ان النجاح العظيم الذى حققه العرب فى هجومهم يوم ٦ أكتوبر يكمن فى أنهم حققوا تأثيرا سيكولوجيا هائلا فى معسكر الخصم وفى المجال العالمى الفسيح ويبقى عليهم بعد ذلك أن يفكروا فى نتائج هذا التأثير على العالم ليحصلوا على مناصرته وتأييده» انه أول انتصار عسكرى حقيقى يحرزه العرب فى العصر الحديث. أو كما قالت المجاهد الجزائرية «ان الأمة العربية كلها تحس اليوم بفخر عظيم وشكر عميق لجيوش مصر وسوريا التى حققت للعرب أول انتصار لا رجوع فيه. ومهما تكن النتائج النهائية للمعركة، فلسوف تبقى حقيقة أنها أنهت مهانة ١٩٦٧، وجددت الكرامة العربية».

انه - لابد لنا أن ندرك جيدا وأن نقرر منذ البداية - نهاية عصر كامل وبداية عصر جديد تماما، وطنيا وقوميا وعالميا. اننا نعتبر السادس من أكتوبر خط التقسيم التاريخى بين مرحلتين اساسيتين ومتناقضتين كل التناقض فى تاريخ الصراع العربى - الاسرائيلى ما كان منه وما سيكون: مرحلة الجزر العربى حيث كان المنحنى فى نزول

مستمر للأسف بالنسبة لنا ولصالح العدو باطراد، ومرحلة المد العربى حيث غير التطور مساره بزاوية حادة صاعدا إلى أعلى لصالحنا وعلى حساب العدو ووجوده الطفيلى البغيض.

ليس انفعالا غير منضبط اذن أو تهويلا غير مسئول، ولا هو من السابق لأوانه كذلك، أن نقول ان ٦ أكتوبر يتجاوز فى معناه التحريرى والتاريخى ومغزاه النضالى كل ابعاده الراهنة المباشرة، الميدانية منها والدبلوماسية، العسكرية أو السياسية، أو غير ذلك.انما السادس من أكتوبر هو - بلغة الرسم البيانى - نقطة الانعكاس العنيفة والحاسمة point of inflection فى ذلك الخط الخطأ والاتجاه النازل أبدا الذى اتخذه منحنى الصراع منذ بدأ فى ١٩٤٨ وحتى الأمس القريب والى أن ينتهى بالتحرير الشامل والاسترداد النهائى للاراضى المحتلة والسليبة والمقدسة على السواء.ومن هنا يشبهه البعض بحق بمعركة حطين بالنسبة للصليبيات ، لم تكن النهاية ولكن بداية النهاية، لم تكن التصفية نفسها ولكنها كانت نقطة الانكسار ومنعطف التحول اليها. ومن ثم فمعركة أكتوبر هى حطين الصهيونيات. وآخرون يقولون معركة ذى قار فى التاريخ العربى.

إن السادس من اكتوبر - نحن نجادل - انما هو فى واقع الأمر الخط الأول فى خريطة سياسية جديدة تماما للشرق الأوسط وللوطن

العربى الكبير، والخطوة الافتتاحية من خطة مستقبلية كاملة عنوانها التصفية والاسترداد والعودة، وتصفية الاغتصاب، استرداد فردوس العرب المفقود ، وعودة فلسطين، والشعب إلى الوطن والوطن إلى الشعب. ان تاريخا جديدا تماما، تاريخا بكرا واعدا مبشرا وواثقا إلى أقصى حد، قد كتب ويكتب حتى الآن بالدماء على الرمال، وان مستقبلا جديدا ليصنع الآن صنعا بقوة السلاح وبسلاح القوة على أرض سيناء والجولان ليفرض نفسه فرضا على «ارض اسرائيل» المزعومة..

فاذا بدا للبعض في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو التفاؤل، فلنسمع معا ما يقوله الآخرون.يقول الكاتب الأمريكى ادوارد شيهان عن أكتوبر «ان هذه الحرب لم تقيم من حيث ما حققته من نتائج عسكرية، بل من حيث انها نقطة تحول تبشر بنهاية عصر التدهور العربى الذى دام أكثر من خمسة قرون». ثم يضيف أن «هذه الحرب سوف تحتل مكانة فى التاريخ العربى المعاصر، بل ربما التاريخ العربى بأكمله. فلقد تكون لها من الوجهة السياسية والمعنوية أهمية تضارع الفتوح العربية الأموية فى العصور الوسطى وهزيمة الصليبيين ومولد القومية العربية والوطنية المصرية واسترداد قناة السويس». أو فلنقرأ ما كتبته النيوزويك فى دراسة علمية وضعها أخصائيون لا يمكن ان يتهموا

بالانحياز إلى العرب: «لدى العرب الآن مشروعات تعميرية طموحة، اذا تحولت إلى واقع فقد يكون العرب بالفعل على مشارف عصر نهضة حقيقية». أو ما كتبته الديلى تلجراف: «لقد غيرت الساعات الست الأولى من يوم ٦ اكتوبر مجرى التاريخ بالنسبة لمصر وبالنسبة للشرق الأوسط كله». أو اخيرا كما قال كريستوفر ميهيو فى شهادة مقتضبة ولكنها جامعة «لقد غيرت حرب أكتوبر مجرى التاريخ العربى الحديث».

فاذا ما عدنا لنقترب من دقائق الموقف المعاصر وتفاصيله الحية، فماذا بالضبط فعلت المعركة؟ أولا وقبل كل شئ لقد مزقت حرب أكتوبر ونصر العرب شبكة العلاقات والتوازنات القديمة والقائمة فى العالم من حولنا، بكل معطياتها وفرضياتها وقيودها ونذرها، وبدأ نسيج جديد تماما يتخلق بدلا منها. وفى كلمة اختزالية واحدة، يمكن أن نلخص التغيير الجذرى كله فى أننا (ومعنا أصدقاؤنا وأنصارنا) قد تبادلنا المواقع والمواقف مع العدو الاسرائيلى (وخلفه معسكره والمتواطئون معه) وطنيا كان أو قوميا أو عالميا.

وطنيا

فوطنيا، اذا كان لنا أن نبدأ بالدائرة الأصغر ومن البسيط إلى

المركب، فجرت شرارة المعركة تيار الوطنية العارمة، صحيا قويا وغلابا .فكان نداء المعركة هو نداء الدم، وكان نداء الدم نداء الوحدة. وفى لحظة تاريخية فذة تحول الجسم السياسى فى كل قطر عربى إلى كتلة واحدة صلبة متماسكة كالبنيان المرصوص، ليس بها من الثقوب أو الثغرات الا ما اصابها من رصاص الميدان، وغير منفذة لرصاص الدعاية العدوة أكثر مما يعد الرصاص منفذا للماء.

نعم، لقد تلاحمت خيوط الوحدة الوطنية، القاعدة والقيادة، الشعب والجيش، الجبهة الداخلية والميدانية، كما لم يحدث قط من قبل فى تاريخ الصراع. فلا شئ فى الدنيا - هكذا اثبتت المعركة - كالحرب يستثير الوحدة الوطنية، ولا شئ بعدها كالنصر العسكرى يدعم ويقوى هذه الوحدة. نعم، ان الحرب هى النار التى تصهر الوحدة الوطنية، والنصر هو «الأسمنت» الذى يلحمها بعد ذلك، أما السبيكة التى صبت وصقلت فخرجت من المطهر صافية نقية من كل الشوائب فهى الشعب بكل أصالته ، والكل هو فى النهاية البوتقة العظمى المقدسة التى نسميها الوطن.

قوميا

بالمثل قوميا. لم تكد الطلقة الأولى فى المعركة تدوى حتى انطلقت

الأمة العربية بأسرها فى مد قومى طاغ، أذهل حتى العرب أنفسهم، حتى أشدهم تفاؤلا، فضلا عن الأصدقاء، ودعك تماما من الأعداء، هؤلاء الذين لم يشكوا قط ولا اخطئوا الحسابات فى أن قوة العرب فى وحدتهم وضعفهم فى تفككهم ، وأن قوتهم هم أنفسهم فى ضعف العرب وتفككهم فقط ولا قوة ولا مكان لهم ان اتحد العرب. راجع مثلا قول دايان «ان تناقضات الدول العربية سياج أمن يحمى اسرائيل».

وحتى بشهادة الآخرين، فان «انتصار مصر الحاسم فى حرب أكتوبر»، كما تقول صحيفة لاسويس، «عزل اسرائيل دوليا، فى حين حقق للعرب تضامنا واتحادا بالفعل والعمل، وليس بالأقوال كما كان يتصور البعض خطأ». ومن قبل كتبت النيوزويك أن «حرب اكتوبر جاءت بفجائية لا يعادلها سوى الأداء العسكرى العربى الممتاز، ووجد ١٠٠ مليون عربى أنفسهم وجها لوجه أمام حقيقة عزيزة عليهم هى الوحدة. وأيا كان، فلقد كان السبب الرئيسى لهذه الوحدة العربية هو يقينا وقبل كل شئ ذلك النجاح العربى الذى تحقق لهم فى ميدان القتال ثم فى فرض الحظر على امدادات البترول».

لقد جاءت المعركة أعظم بوتقة وأدق كشاف لحقيقة العروبة وجوهرها الأصيل، فبرزت القومية العربية حقيقة واقعة ملء السمع

والبصر والوجدان - والميدان أيضا. فلقد ألهبت المعركة خيال العروبة وفجرت كل طاقتها الكامنة وجسمتها قوة محاربة فدائية واحدة. فتنادت كل الدول العربية إلى ساحة المعركة منذ اللحظة الأولى، وألقت كل منها بكل مواردها وامكانياتها وثقلها فى الميدان، رجالا وسلاحا، مالا وبترولا. تلاشت كل الحساسيات والحسابات القديمة، وانفكت العقد الوهمية والتحفظات، تقاربت كل الأنظمة والمذاهب، ذابت دول المساندة في دول المجابهة، وانصب المغرب فى المشرق. (راجع فى هذا، على سبيل المثال فقط، ما قالته النيوزويك من انهم الآن فى لبنان يقولون انهم عرب، بينما كانوا قبل ٦ أكتوبر يتحدثون عن الفينيقية..).

وبهذا أيضا توسعت حركة التحرير الوطنى مع معركة التحرير الوطنى جغرافيا ونضاليا وفكريا لتتحول من مجرد أزمة الشرق الأوسط «اللفانتية» إلى قضية العروبة بأسرها من المحيط إلى الخليج. وفى هذا الاطار برزت ليبيا وهى عمق استراتيجى فعال ومثمر جدا لمصر، بالسلاح والمال والبترول كوقود، وكطريق وكميناء بديل أمين.. الخ، مثلما برز العراق عمقا استراتيجيا ضخما ومساندا مقتدرا لسوريا، ليس فقط بتأمين ظهرها وظهيرها وفتح طريقها ولكن أولا وقبل كل شئ بسلاحه ورجاله. وكما قدمت السعودية مشاركة بترولية ومادية ومعنوية عظيمة

باذلة وباذخة، سياسيا وماليا بل وسلاحا وجنودا، قامت الجزائر الثائرة بدور قيل أكثر من رائع عسكريا وسياسيا واقتصاديا .كذلك فعلت بقية دول المغرب،ومن قبلها الكويت ودولة الامارات العربية وسائر دول الخليج. بالمثل قدمت اليمن الشعبية والشمالية معاونة استراتيجية قيمة في حصار باب المندب بحريا ومن الناحية المادية البحتة، على سبيل المثال فقط، اذا كانت دولتا المواجهة قد صبتا في المعركة ما لا يقل بحال عن العشرة آلاف مليون جنيه وذلك عبر سنوات الاعداد لها، فقد شاركت دول المساندة بنصيب كبير في دعمها قدرته بعض المصادر الخارجية بنحو الثلاثة بلايين دولار، فضلا عن بليون رابعة بعد ذلك.

لقد اندغم الجميع في جبهة حرب واحدة طولها القومية وعرضها الوحدة، وتحققت جماعية القيادة، وبدا قادة العرب كما لو كانوا «فرسان المائدة المستديرة». وبعد ان كنا نعيش (أو نعانى) معركة القومية، عايشنا قومية المعركة. في الجبهة السورية كانت القوات العراقية والمغربية والسعودية ثم الأردنية تحارب مع الجيوش السورية المستبسلة والقوات الفلسطينية الفدائية وعلى الجبهة المصرية شارك السلاح الجزائرى والليبى فضلا عن قوات رمزية من السودان والكويت والمغرب.. الخ حتى بعض الدول العربية وزعت قواتها الرمزية على كلتا الجبهتين. انها وحدة الدم تختلط بوحدة التراب على خط النار.

وخارج جبهة القتال وإلى جـانبها، فتحت جبهة البتـرول، فبدأت دول البترول العربية حربا حقيقية. حرب البترول. بإرادة ذاتية ودون ضغـوط من الآشـقاء بدأتهـا، فكانت عـونا لنا وعوانا على الاعداء وانصاف الأعداء وآرباع الأصدقاء من أدعياء الحيـاد واللامبالين أو المتعاطفين مع العدو سرا، الـسنتهم مع العرب واسلحتهم مع العدو. ولازالت المعركة مستمرة.وهى اذا كانت تحتاج وحدها إلى وقفه خاصة مفصـلة، فان ما يعنينا منها هنـا هو مغزاها القومى الكبير العام: ما معناها؟ ومعنى وحدة العمـل العربى؟ علام يـدل هذا كـله، وإلـى أين يؤدى؟.

بغير مقدمات مطولة، هناك ثلاثة معان. أولا أن القومية العربية حقيقة واقعة، ارتفعت إلى مستوى المعركة مثلما ردت هذه لها اعتبارها لقد أعادت المعركة خلق العالم العربى، وخلقت منه «عالما جديدا شجاعا». الحرب اثبتت وحدة العرب، وحققت العرب وحدة الحرب. وهى وحدة عسكرية وسياسية، وأيضا اقتصادية واعلامية، أى وحدة واقعية تتجاوز كل مشاكل الوحدة الدستورية ولكنها تكاد تتجاوزها عمليا فى التنسيق والتضامن والتنظيم.وعلى هذا الاساس تقدم التفاعل العربى فى ظل المعركة، كما لوحظ، من وفاق عربى إلى تضامن عربى إلى وحدة عربية ومن بين الكل خرجت «القوة الذاتية» العربية وهى القاعدة الأساسية والأصولية فى المعركة والصراع جميعا.

ولقد تجلى هذا - بالمناسبة- ابلغ ما تجلى فى مؤتمر القمة بالجزائر أول مؤتمر عربى منتصر منذ بدأت مؤتمرات القمة، وأول مؤتمر ناجح لا فاشل، وهجومى لا دفاعى.كذلك بدا الوطن الكبير أثناء المعركة وبعدها، ولكن اساسا من خلالها، بدا أشبه «بكومونولث عربى» تلقائى، وربما قال البعض «إتحادا كونفيديراليا» دون الاسم والشكل. ولا ينفي هذا بطبيعة الحال وجود بعض صعوبات واختلافات، الا أنها ثانوية وعارضة وضعتها المعركة على الرف مؤجلة أو مجمدة.ولا شك كذلك أنها ظاهرة ذات دلالة هامة أن جامعة الدول العربية قد بدأت مؤخرا فى مراجعة نظامها الأساسى والتفكير جديا فى تعديل وتطوير كيانها إلى مستوى أعلى يتلاءم مع التطورات الضخمة التى احدثتها المعركة فى الصف العربى .

المعنى الثانى للموقف العربى أن البترول أثبت نفسه سلاحا سياسيا من الدرجة الأولى وسلاحا قوميا فى الدرجة الأولى: لقد نجحت المعركة نهائيا فى «تسييس» البترول بعد ان كان ذلك املا بعيدا بل مستبعدا جدا فى نظر البعض . وقد تحقق هذا بفضل جهود دائبة وصامتة فى مجال العلاقات الثنائية. وبطبيعة الحال فلقد كانت هنا أيضا صعوبات ومشاق فى التخطيط والتنسيق والتنفيذ، ولكنها كلها توارت خلف الدفع القومى الباهر. ومن الواضح أن سلاح البترول لم يكن ليسبق منطقيا

وعمليا السلاح العسكرى، بل كان لابد للأخير أن ينطق ويعمل قبل ان يشرع الأول ليعمل على الفور. لقد كان توزيع الأدوار رهنا أيضا بحسن ترتيبها. وهكذا بالفعل كان.

ويبقى أخيرا معنى ثالث لا يقل دلالة وخطرا. لقد مارست مصر دورها الطبيعى والطليعى فى قيادة الصراع وادارته بالعمل الهادئ الفاعل وبانكار الذات دون ادعاء فظ غليظ منفر. فمصر، التى قدمت نحو ١٠٠ الف شهيد وانفقت نحو ١٥ الف مليون جنيه على مدى ٢٥ سنة منذ بدأ الصراع العربى - الاسرائيلى، حشدت لمعركة أكتوبر وحدها ١.١ مليون جندى تحت السلاح لمواجهة كل الاحتمالات.وهذا بالتأكيد أضخم حشد عسكرى محلى عرفته منطقة الشرق الأوسط فى تاريخها الحديث وربما القديم.وبهذا العطاء الذى لا حد له، ارتفعت إلى مسئوليتها التاريخية كقلعة العروبة، واضعة قدرها على كتفها وقلبها على يدها، فالتف العرب حولها مبايعين مزكين، واستعادت هى حجمها الطبيعى بينهم - ثلث العرب- واستردت مكانتها التى اهتزت حينا بالهزيمة، وفى الوقت نفسه وفرت لكل منهم دورا مشرفا وبناء. لقد كانت معركة آكتوبر بالنسبة لمصر بين العرب كثورة أكتوبر بالنسبة للاتحاد السوفيتى بين السلاف، وخرجت منها وهى «كروسيا العرب» لا «كبروسيا العرب» كما كان الاستعمار يزعم ويردد تمزيقا وتأليبا ومن

الناحية الأخرى اثبتت مصر ٦ اكتوبر ان الزعامة السياسية الحصيفة الرشيدة انما هي فن توزيع الأدوار، لا احتكار الأدوار، هي اولوية بين أكفاء primus inter pares، وليست منافسة فجة على الصدارة الشكلية الجوفاء.

عالميا

اذا انتقلنا أخيرا إلى المستوى العالمي ، فماذا فعل ٦ أكتوبر بالغرب وللعرب؟ أول شئ ان الحرب كشفت عن مفاجأة مذهلة: نحن أقوى مما كنا نظن، ومما كان اعداؤنا يتصورون،بل وكذلك أصدقاؤنا! في ساعات انهارت كل الأفكار المسبقة المهينة والنظريات المشبوهة الموضوعة (وغير الموضوعية) لتشويه وتحطيم العالم العربي سياسيا ومعنويا ونفسيا ودعائيا. ثم في ايام فقط كانت الصورة كلها قد انقلبت بطنا لظهر. ونستطيع هنا أن نقسم دراستنا إلى عنصرين: الانسان العربي والسياسة العربية، أو المقاتل العربي والدولة العربية.

الانسان العربى المقاتل

فقد كان أول ما أثبتته المعركة أن الانسان العربي مقاتل، مقاتل ممتاز، شعب محارب قادر على قبول التحدي وعلى تحدي العصر، وفي الوقت نفسه نسفت كل دعايات العدو المغرضة عن «الشعب غير

المحارب» و «الجندى الذى لا يجيد إلا الفرار عند اول مواجهة» و«الانسان غير القابل للتعليم وغير القادر على استيعاب فنون الحرب الحديثة».. الخ لقد اعادت المعركة ثقة الانسان العربى فى نفسه كمحارب، واعادت تقدير العالم واحترامه له عسكريا، كما اعادت بعث العسكرية العربية فى أشرف صورها وأكثرها اشراقا. وفى هذا قالت التايمز «ان العرب حققوا الانتصار، وبرهنوا على قواتهم تستطيع أن تقاتل وأن تستخدم الأسلحة المعقدة بنجاح كبير، كما أن القادة العرب اثبتوا انهم يقودون ببراعة».

بل وكما اعترف عالم نفس اسرائيلى «لم تعبر العرب السويس فقط، بل انهم حاربوا جيدا أيضا ولم يفروا وقد بددوا الادعاء الاسرائيلى بأنه لا يمكن لأى قدر من العلم أن يحسن قتال العرب. لقد تذكر العالم فجأة، كما قالت صحيفة غربية، أن العرب فتحوا أوربا من قبل وغزوا العالم وأسسوا امبراطوريات وهزموا الأتراك وهددوا الاستانة..!

ومن زاوية القدرة التكنولوجية، لدينا أكثر من شهادة من محايدين وغير محايدين. فقد كتب دور ميدلتون «لقد اكدت عملية العبور المصرية للقناة أن تلك القوات قد تطورت تكنولوجيا منذ ١٩٧٦. واثبتت تلك العملية أن المصريين قادرون على الابقاء على السر، وأن فى وسعهم بعد

ما حققوا من مفاجأة وبنجاح أن يتصرفوا فى انضباط». كما أضاف أن «جميع التقارير التى وصلت إلى مصادر غربية تشير إلى أن الجيوش العربية تقاتل بعناد وحماسة. وكانت القيادة على مستوى الكتائب والأسراب من مستوى مرتفع، كما كانت القيادة العامة تتسم بالفطنة والحكمة».

هذا بينما قالت الأوبزيرفر «منذ عام أو عامين كانت اسرائيل تبدو متقدمة في سباق التكنولوجيا العسكرية. وقد تنبه المصريون فيما يبدو - خلال حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ - إلى أهمية الدور الذى تلعبه التكنولوجيا فى القتال.. ويبدو الآن، وبعد معارك أكتوبر ١٩٧٣، أن مصر قد لحقت باسرائيل وسبقتها تكنولوجيا فى ميدان الصواريخ والالكترونيات».

وبصيغة حاسمة أيضا قالت الجارديان «لقد برهن الجيشان المصرى والسورى على انهما أفضل تدريبا وأحسن تشكيلا واستعدادا وأشد جلدا وافضل عتادا».

أما النيوزويك فقد كتبت فى نهاية الحرب قائلة ان الروح القتالية العالية والأسلحة الحديثة التى لدى الجيش المصرى كانت وراء الخسائر العالية فى الأرواح التى يصعب على اسرائيل تحملها، فضلا عن أنها «افقدتها توازنها». ثم اضافت ان الشراسة العربية فى القتال لم تقدر

حق قدرها منذ بداية الحرب، كما ان وجود عدد كبير من الكفاءات العربية وراء خطوط القتال جعل من المستحيل أن يتعرض العرب لنقص فى الرجال. «وحتى ثقة الاسرائيليين فى أن لديهم تفوقا تكنولوجيا واضحا على العرب فى مجال السلاح قد سقطت «مثل الطائرات» بفعل النجاح العربى الملحوظ فى استخدام الأسلحة المضادة للطائرات والدبابات».

حتى العدو نفسه اعترف. مثلا آرى يعرى، عضو المابام الاسرائيلى، قال ان حرب اكتوبر بمدتها ومعاركها وعدد ضحاياها قد اثبتت مدى التقدم الكبير الذى احرزته القوات العربية وقدرة مقاتليها على استخدام الأسلحة الحديثة المتطورة والمعقدة.

وهذا بينما كتبت معاريف فى حقد ولوعة «لقد سبقت السلحفاة العربية الأرنب الصهيونى». حتى قادة العدو لم يملكوا الا ان يعترفوا.

«كان الجندى المصرى يتقدم فى موجات بعد موجات، وكنا نطلق عليه النار وهو يتقدم، نحيل ما حوله إلى جحيم ويظل يتقدم، وكان لون القناة مخضبا بلون الدم ومع ذلك ظل يتقدم» - هكذا تكلم جونين عبندس الهزيمة المباشر. اما من خلف الخطوط فقد جاء صوت الجنرال آوزى ناركيس المشهور بتعليقاته العسكرية ليسلم بأن «لا مفر من ان

تشهد لجهاز التخطيط المصرى بالبراعة. لقد كانت خططهم دقيقة، وتنفيذها أكثر دقة.ولقد حاولنا جهدنا إعاقة عملية العبور وردها بالقوة على أعقابها، غير اننا ما كدنا نتمثل ما حدث الا وكانت نتائجه قد تحققت لهم، كأننا أغمضنا أعيننا وفتحناها فاذا هم قد انتقلوا تحت النار من غرب القناة إلى شرقها، وفاجأونا صباح ٧ أكتوبر بخمس فرق كاملة أمامنا على الضفة الشرقية من القناة». وأخيرا هناك اعتراف آلون : «ليس هناك وجه للمقارنة بين المعارك التى خاضها المصريون فى أكتوبر والمعارك التى خاضوها من قبل، حيث كان واضحا حرصهم على عدم تكرار الأخطاء السابقة إلى حد أن كلمة «الإنسحاب» اختفت تماما عن القاموس المصرى».

أما من المحايدين فإن الجنرال بوفر يلخص لنا الموقف كله فى جملة مركزة ولكنها جامعة: «لقد دخل العرب مدرسة الحرب الحديثة، وبنجاح». وفي مناسبة أخرى نراه يقول، فى شهادة واقعية بعد زيارة لميدان المعركة وما رآه حوله، أن العرب قد حاربوا «بأكفأ مستوى يعرفه العصر». والواقع أن تجربة المعركة أثبتت أن التفوق الكمى العربى أخذ فى التحول تدريجيا إلى تفوق كيفى أيضا، وأن التفوقين، هذا وذاك، هما بسبيلهما إلى الانتقال نهائيا إلى العرب. أو كما قال ديفيد اليعازر «لقد فوجىء الجيش الإسرائيلى بأن الكم المصرى قد تحول إلى كيف».

وفى هذا أيضا كتب آرى بعرى يقول أن التقدم العربى فى الكيف يضاف إلى المزايا الهائلة التى يتمتع بها العرب من حيث الكم، ثم ينتهى إلى أن هذا يدعو إلى تغيير النظرية القائلة بأن إسرائيل يمكنها بتفوقها فى الكيف أن تضرب العرب فى كل جولة جديدة.

وأخيرا يصل بنا أحد المعلقين العسكريين البارزين فى الغرب إلى قمة الشهادة، وكذلك منتهى النبوءة، فيقول «إن الطريقة التى حارب بها الجندى العربى فى ١٩٧٣ ضربت التفوق الإسرائيلى المطلق، وتلك كانت واحدة من كبرى حقائق الجولة الرابعة بين العرب وإسرائيل. وهى على هذا الأساس نذير شؤم لإسرائيل فى الجولة الخامسة، ونذير كارثة فى السادسة، وقد تكون نهاية كل شىء فى السابعة».

والخلاصة التى يمكن أن نخرج بها من كل هذه الشهادات والمؤشرات هى أن المعركة قد أثبتت، أول وآخر وأخطر ما أثبتت، الروح القتالية العالية المندفعة والكامنة فى الجندى العربى، وأكدت فدائية المقاتل العربى واستبساله وإقدامه بلا تردد، لاينكص ولا يتراجع عن تحقيق هدفه مهما كان السلاح الذى يواجهه. ليس هذا فحسب، إذ أثبتت المعركة أيضا قدرة المقاتل العربى على استيعاب أعقد الأسلحة الحديثة والمتطورة والسيطرة عليها بكل كفاءة واقتدار وتطويع التكنولوجيا وتكييفها والتكيف معها والتعامل بها على كل المستويات،

كذلك الأمر مع فنون القتال، التخطيط، التنفيذ، المناورة والحركة... إلخ. فعلى سبيل المثال، أثبتت المعركة خطأ الإتهام الذى روجه العدو عنا من أن العرب لايجيدون القتال إلا من المواقع الثابتة، فأكدت للعالم تقدمهم بنجاح تام من القتال الثابت إلى القتال المتحرك. كذلك أثبتت قدرة الدبابات المصرية والسورية المتفوقة على القتال الليلى، على عكس الجولات السابقة، وبالمثل سلاح المشاة المصرى، بينما لم يشترك مشاة إسرائيل في أى قتال ليلى تقريبا رغم تدريبهم عليه.

وفى هذا كله وغيره نسخت الحرب ونسفت إلى الأبد كل الأساطير والدعايات الشوهاء، الظالمة والكاذبة، التى ركز العدو عليها كل جهوده وأبواقه لإلصاقها بالمقاتل العربي ونوعيته، أولا لتثبيتها فى نفسيته هو ثم ثانيا لترسيخها فى عقلية العالم. (أو كما عبر كاتب أوروبى كبير بقلق أكبر «إن ماهو خطير فى تدمير خط بارليف وحصون الجولان ليس تحرير جزء من التراب العربى المحتل، وإنما هو فى تدمير صورة ثابتة عن الإنسان العربى كانت رائجة عندنا»!) فتلك الأساطير والأكاذيب، التى خرجها العدو من تجارب الماضى ودلل عليها بها، لم تكن تقوم على أى أساس من الحقيقة أو الواقع كما يدرك هو فى قرارة نفسه. فكل تجارب الماضى لم تكن اختبارا لقدرة وطبيعة المقاتل العربى كفرد أو كمجموعة بقدر ما كانت سجلا لأخطاء القيادات المهزوزة غير الناضجة أو غير المؤهلة.

فمن الثابت المقرر، كما عبر أحد كبار العسكريين المصريين أثناء أكتوبر، أن «حرب ١٩٤٨ كان فيها فقط بعض المواجهة، وحرب ١٩٥٦ قليل من المواجهة، وحرب ١٩٦٧ لا مواجهة تقريبا». الحرب الرابعة ، وحدها، كانت أول اختبار حقيقي ميداني حاسم لنوعية المقاتل المصرى والسورى كجندى محارب، وفي هذا الاختبار الأول، بقدر ماتحطمت خرافة العسكرية الإسرائيلية وانكشفت حقيقة المقاتل الصهيوني، بقدر ما أثبت هو نفسه ووجوده وتفوقه بلا حدود، أو كما قال معلق عسكرى غربي، استرد اعتباره وشرفه العسكرى، وهذا تطور بالغ الخطورة والدلالة، له مابعده فى المستقبل، مستقبل الشرق الأوسط كله.

حتى العدو نفسه تغيرت نظرته إلى الإنسان العربى والمقاتل العربى، واعترف. أو كما ذكر تيرنس سميث «أصبح الإسرائيليون من الجندى الذى يقف على خط النار إلى الوزير فى الحكومة ينظرون إلى العرب نظرة مختلفة بعد حرب أكتوبر». أو كما كتب أزيك رولو، إن الإسرائيليين ما عادوا يستخدمون التعبير العبرى الشائع «أرافيت زى أرافيت» «أى العربى لايعدو أن يكون عربيا!» والذى يمثل قمة التهوين من شأن العرب بل والتحقير لهم، وأصبحوا الآن يقولون «لقد أجبرنا العرب بالقوة على احترامهم!» إننا نعرف الآن أن فى استطاعتهم أن

يكونوا على القدر نفسه من الشجاعة، وأن في إمكانهم استيعاب الفنون العسكرية الحديثة».

بل الواقع أن من أطرف نتائج أكتوبر وأكثرها مدعاة للتفكير أن العدو نفسه لم يعترف فقط بكفاءة وندية المحارب العربي في تلك الحرب، ولكن ايضا «بأثر رجعي» عام على حروب الماضي! لقد «أعاد اكتشاف» حقيقة معدن المقاتل والإنسان العربي ـ فقط متأخرا ربع قرن! انظر مثلا ما كتبه الجنرال متتياهو بيليد في معاريف: «من الواضح حتى الآن أن الجندي المصري يظهر روحا قتالية قوية، ولم يفقد إرادته على مواصلة القتال، إننا نعرف هذه الظاهرة جيدا، منذ حرب ١٩٤٨، وخلال حرب سيناء كذلك في ١٩٥٦، لم تكن قليلة الحالات التي حارب فيها الجندي المصري حربا عنيدة، في المعارك الدفاعية وفي جميع الحالات كان المصري موجودا في تجهيزات محمية يعرفها، ولم يفاجأ بالهجوم عليه، وإذا لم يحدث انهيار في الجيش، ولم تتولد ظروف جديدة لا يلم بها إلماما تاما، فإنه سيستمر في تنفيذ مهمته بإخلاص، وهذا مايحدث الآن في جبهة القناة».

أو انظر إلى ماكتبه المدعو تيدي برديس في دافار: إن الثغرة بين التوقعات والواقع الذي نشأ هذه المرة تكمن في الحقيقة التي نسيناها، وهي أن العربي لم يكن خلال الأعوام الخمسة والعشرين الماضية مقاتلا

رديئا، بل قاتل بشجاعة وتصميم. إلا أن أصحاب شعار «هذه ليست لعبتهم» طمسوا هذه الحقيقة وشوهوها، كذلك فإنهم تناسوا نتائج البحوث السيكولوجية على الأسرى المصريين ١٩٦٧، تلك التى كانت بعيدة تماما عن الإستهتار بالجندى المصرى، الذى وجد أنه يتمتع بقوة تحمل كبيرة وكفاية جسمية جيدة وروح هجومية، ثم عدد الكاتب حالات من الصمود المصرى النادر نسيت بسبب «أقوال العجرفة والتعالى التى كانت تصدر عن القادة والسياسيين»: جيب الفالوجا ١٩٤٨، نموذجا لقوة صمود المصرى المحاصر، صمود أبوعجيلة ١٩٥٦، حيث اضطر الجيش الإسرائيلى إلى العمل ٣ آيام لاختراقهم «١٠٠ ساعة فى الوحل»، شجاعة ومهارة المصريين فى الإغلاق المتتالى للثغرات التى كانت قوة إسرائيلية مختارة تحاول شقها على مفترق طرق رفح فى ١٩٦٧ .... إلخ.

الدولة والسياسات العربية

ذلك كله عن الإنسان العربى كرجل محارب بين إنسان العالم، أما من الناحية السياسية العالمية فإن الإنقلاب لايقل خطرا ولا مغزى، وهو فى الواقع مترتب مباشرة على الإنقلاب الحربى. فلأول مرة خرج عرب ٦ أكتوبر وهم صنعة التاريخ بعد أن ظلوا طويلا لعبة التاريخ، وتحولت المنطقة من منخفض سياسى إلى منطقة ضغط سياسى مرتفع مؤثر

وفعال، ومن إقليم جيوبوليتيكى سالب إلى إقليم موجب يساهم اليوم جديا فى تشكيل التوازن العالمى وتضاريس السياسة الدولية، باختصار، أصبح العالم العربى فاعلا بعد أن كان مفعولا به بانتظام أو مجرد رد فعل على أفضل تقدير. ولأول مرة فى تاريخها الحديث تقريبا، أصبح العالم العربى عاملا مهما فى تحقيق التوازن السياسى فى المنطقة، إن لم يكن الأساسى، ولا نقول الوحيد، ولأول مرة يصبح مصير المنطقة معلقا بقواها الداخلية وإرادتها الذاتية أكثر مما هو متعلق أو مرتبط بعوامل وقوى من خارجها. ولأول مرة كف العالم العربى عن أن يكون لعبة السياسة الدولية المفضلة، بما فى ذلك الاستقطاب أو الوفاق، وعدا ذلك تم تصحيح ميزان القوة الذى كان قد اختل بوضوح فى غرب أسيا وتم وضع حد للإستراتيجيات الإقليمية المضادة بها، بل لقد غيرت المعركة ميزان القوة فى قارة آسيا عموما.

ليست إسرائيل وحدها إذن التى ردت إلى حجمها الطبيعى، العرب أيضا، بل العرب أكثر، والأكثر فى المستقبل، لقد انقلبت كفتا الميزان بينهما، أو بالأصح عادتا ماعتدلتا وصححتا، وكما قالت جريدة انجليزية أخيرا: «شيء واحد مؤكد الآن، أن العرب أصبحوا فى الوقت الحاضر فى مركز تفاوضى أقوى بكثير مما كانوا عليه.. وأن إسرائيل قد أصبحت فى مركز أسوأ بكثير مما كان العرب أو أى أحد يعتقده ممكنا

قبل بداية الحرب». وحتى أولئك الذين يشككون في النصر العسكرى العربي أو يقللون منه، لايملكون أن يشككوا في نتائجه العالمية السياسية والنفسية أو أن يقللوا منها، مثلا كتبت مجلة تايم في حديث لها مع الرئيس المصرى «إن المؤرخين سوف يتجادلون طويلا حول ما إذا كانت الجيوش المصرية قد أحرزت بالفعل انتصارا عسكريا في حرب أكتوبر. ولكنهم ـ على الأرجح ـ لن يختلفوا حول الرأى القائل بأن نتائج الحرب قد أعادت للعالم العربى قدرا من الثقة بالنفس كانوا في أشد الحاجة إليه وكان غائبا عنهم منذ الهزيمة المهينة في عام ١٩٦٧».

وليس أدل على الهيبة الدولية الجديدة والمكانة المرموقة التى حققها عرب أكتوبر من نظرة العالم الجديدة إليهم. فبدل الإشفاق والرثاء الممزوج بالاستخفاف إن لم يكن ماهو أسوأ، حل الاحترام والتقدير الذى لايخلو أيضا من إعجاب، أو كما ذكرت ورقة أكتوبر «لقد رفعت حرب أكتوبر من شأن العرب جميعا، وأصبح العالم كله يعترف بالوجود العربي وبدور العرب ويعمل على كسب ودهم». أو كما كتبت النيوزويك «الزمن تغير فجأة. تبدلت نظرة العالم إلى العرب، وأصبح ينظر إليهم بكل الجدية، بعد طول معاملة لهم على أنهم شعوب همجية ودول متخلفة، وبالمثل بدأ العرب ينظرون إلى أنفسهم على ضوء جديد». بل إن قطاعا

كبيرا من العالم، وخاصة من العالم الثالث، أصبح يتطلع إلى العرب ويرنو ساعيا إلى التقارب معهم. «إعتبر مثلا التقارب الإفريقى الكبير، أو فكر فى معنى ما قاله رئيس النيجر من أن فى الإفريقيين دماء عربية كما أن فى العرب مؤثرات افريقية، وأنه هو شخصيا تجرى فى عروقه دماء عربية الأصل والنسب بنسبة معينة».

وعدا هذا فلا يكاد يمضى يوم منذ أكتوبر دون أن يزور سياسى قيادى أو وفد كبير من دولة ما من دول العالم دولة عربية أو أخرى، بينما تتجول الوفود العربية بدورها بكثافة على اتساع العالم لتقابل بالترحيب والاحترام. أما عروض القروض والمعونات ومشروعات التنمية والمشاركة فى التعمير فلا تكف عن التدفق تباعا من كل الجهات، وهذا كله صورة مرآوية مقلوبة أخرى لما حدث فى أعقاب يونيو، حين كان الكل فى «زيارة للمنتصرين» وكانت الأموال تنهال على إسرائيل بغير حساب.. لقد أصبح العالم العربى بوضوح بؤرة اهتمام العالم ومحط أنظاره كقوة ضاغطة مؤثرة فيه لها وزنها وتقديرها، وورث العرب مكان إسرائيل السابق فى قلب العالم وعقله.

وحسبنا فى هذا الصدد أن نشير مثلا إلى مؤتمر القمة الإسلامى الثانى الذى عقد فى لاهور أخيرا تقديرا ومساندة من العالم الإسلامى لقلبه العربى، فعلى العكس من المؤتمر الأول الذى عقد فى الرباط منذ ٤

سنوات فى ظل الهزيمة، جاء المؤتمر فى ظل النصر فكان نجاحا كاملا، كما جاء المؤتمر دفعة معنوية كبيرة للعرب، كان تأكيدا لانتصارهم ولنفوذهم المتعاظم فى العالم بعد النصر، وبالمثل كان دور العرب وخاصة مصر فى تحقيق التصالح والتقارب بين الباكستان وبانجلاديش داخل المؤتمر دليلا على مكانتهم المرموقة فى العالم الإسلامى.

وعلى الجانب الآخر، جانب العدو، جاء المؤتمر ضربة سياسية أخرى ومزيدا من الحصار، إقرأ مثلا ما كتبته هاتسوفيه صحيفة الحزب القومى الدينى فى إسرائيل: «إن نداء تحرير القدس الذى وجهه مؤتمر لاهور يأتى فى وقت أصبح العالم الإسلامى فيه أقوى من الناحيتين السياسية والاقتصادية بصورة لم تحدث منذ أربع سنوات» (حين عقد مؤتمر الرباط). أو إقرأ ما كتبته معاريف: «لقد أوضح مؤتمر لاهور تماما التناقض بين الواقع الذى يحيط بنا والواقع الذى نعيش فيه وبين الوحدة المتزايدة للعالم العربى والفرقة التى تنهكنا».

ليس هذا فحسب، بل إن العالم العربى نفسه «يتوسع» الآن بصورة لافتة ولايمكن أن تكون بلا مغزى، فليس من الصدفة وحدها على الأرجح أن يتم انضمام دولتين من افريقيا، موريتانيا والصومال، إلى الجامعة العربية فى وقت واحد تقريبا قبيل وبعد انتصار أكتوبر مباشرة، كأنها جميعا على ميعاد، لقد اتسعت جغرافية العروبة كما ارتفعت قامتها.

ويسترعى الانتباه هنا، كما يستدعى التفسير بإلحاح، أن تنبثق كل هذه الإنطلاقة والطفرة الإيجابية من أمة قيل عنها بالأمس فقط أنها قد أصيبت بتصلب الشرايين، إن لم يكن بالشيخوخة المبكرة أو القديمة. فكيف نعلل هذه المتناقضة إذا كانت صحيحة، وإن صحت فإلى أى حد؟ وماهو التشخيص أو التكييف العلمى الدقيق لهذا التطور؟ الإجابة تكمن فى دورة حياة الدول الجيوبوليتيكية كما وضعها العالم الجغرافى فإن فالكنبرج، تلك التى تحدد مراحل تطور الدولة كجسم سياسى وككائن عضوى بمعنى ما فى أربع: مرحلة النشأة أو الطفولة التى تنطوى فيها الدولة على نفسها ترتب بيتها من الداخل وتحمى حدودها فى الخارج، ثم مرحلة الشباب أو التوسع وفيها تنطلق إلى دور خارجى إيجابى أما من التوسع أو فرض النفوذ، ثم مرحلة النضج أو الاستقرار حين تكون قد وصلت إلى أوج القوة ولا تريد إلا المحافظة على الوضع الراهن والتوازنات القائمة، ثم أخيرا مرحلة الشيخوخة أو الانهيار التى تعجز فيها عن المحافظة على نفوذها أو حدودها فتبدأ تفقد منها تدريجيا حتى تنكمش وتتقلص وربما سقطت لتقوم دولة جديدة تبدأ دورة جديدة، وهكذا.

والدول العربية كنظم سياسية معاصرة تعتبر، ابتداء، دولا حديثة فى مرحلة النشأة، لأنها رغم عراقتها التاريخية الألفية إنما بدأت دوره

جيوبوليتيكية جديدة بالأمس القريب فقط حين تحررت من الاستعمار الاوروبى واستكملت استقلالها النهائي منذ ٢٠ سنة أو ١٠ سنوات على الأكثر أو فى المتوسط، وبعض هذه الدول كمصر وسوريا والعراق كانت تزحف حثيثا نحو مرحلة الشباب وقد انطلقت بالثورة والتنمية، والبعض الآخر كان على الطريق بفضل ثورة البترول وثروته الدافقة كالسعودية وربما الجزائر وليبيا... إلخ. ولكن هزيمة يونيو ردت أكثر هذه الدول إلى الخلف كثيرا، رغم أنه كان وضعا مؤقتا معلقا بالضرورة، وهنا يأتى دور أكتوبر: إنه بالدقة والتحديد قد «جدد شباب» العرب جميعا، وبدأ مرحلة جديدة من «تجديد شباب» الدول العربية political rejuve-nation، وخاصة منها دول المواجهة والطليعة، وهذا هو المعنى الأول والمباشر لأكتوبر فى الكيان الدولى العربى، إنه بداية مرحلة جديدة فى المورفولوجيا السياسية للدول العربية.

ومن هذا المنطلق والمنطلق بالتحديد فرض العرب على العالم واحدة بل سلسلة من أكبر وأخطر «المتغيرات» فى السياسة الدولية بعد أن كانت مصايرهم رهنا بالمتغيرات الدولية تتقاذفها وتعصف بها دون أن تملك هى من أمرها شيئا، لقد كان الجميع يتحدثون طويلا وكثيرا عن المتغيرات الدولية قبل أكتوبر، فأصبح أكتوبر هو أبرز المتغيرات الدولية وأقواها أثرا. وكان أوضح تعبير عن هذا هو بروز «شخصية دولية عربية» على المسرح العالمى.

عرب أكتوبر كقوة عظمى

وإذا كـان من العـسـيـر القـول بأن العـرب يشكلون بعـد «نظاما سياسيا» مستقلا فى المجتمع الدولى، فإن المؤكد إنهم أصبحوا يزحفون حثيثا نحو مركز بارز من مراكز القوة العالمية متعددة الأقطاب، وقد تحدثت الصحافة العالمية بالفعل عن العرب المنتصرين كقوة كبرى أو شبه كبرى، مرشحة بغير منازع واضح لمركز «القوة السادسة» فى عالم ما بعد الوفاق. ولم يكن ذلك قطعة من الإثارة الصحفية ولا انطباعا عابرا تحت وهج المعركة. فبعد نصف عام من توقف القتال، عاد التقرير السنوى لمعهد الدراسات الإستراتيجية بلندن فأكد الحكم بصيغة موضوعية وقاطعة فقال «إن حرب أكتوبر، بسلاحيها العسكرى والبترول، قد جعلت من العرب قوة سادسة فى العالم بعد أمريكا وروسيا والصين واليابان وكتلة أوروبا الغربية». (لا داعي هنا، ولا هو من المفيد، أن نخدع أنفسنا فننساق وراء ما يزينه لنا بعض «غلاة الأصدقاء» من أننا إنما مرشحون لمركز «القوة الثالثة»!، حيث أن الصين لازالت إمكانية لم تتحقق وكلا من أوروبا الغربية واليابان عملاق اقتصادى ولكنها قزم سياسى لم تزل». هذا، وليس غريبا أن نتكلم عن العرب، وهم الذين ينقسمون سياسيا إلى ٢٠ دولة، كقوة عظمى واحدة

فـإن أوروبا الغـربيـة ـ لنتـذكـر ـ تقـع بدولها التـسع فى الوضـع نفسـ
تقريبا.

وعند نهاية الحرب العالمية الثانية مباشرة كان علماء السيا
والجغرافيا السياسية لا يرون من القوى الكبرى الجديدة المحتملة
الممكنة بعد الخمسة الكبار، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيي
وأوروبا الغربية واليابان والصين، كانوا لايرون سوى الهند والبراز
غير أن هذه النبوءة لم تتحقق إلا جزئيا بزحف الهند إلى موقع الق
شبه الكبرى بعد حرب الهند ـ الباكستان الأخيرة؛ أما الآن فإن صع
القوة العربية البازغة بعد أكتوبر يشى بخريطة جديدة تماما لتوز
القوة فى العالم.

والواقع أن العرب يملكون كل خامات القوة الكبرى، مساحة أر
وتعداد سكان وموقعا جغرافيا وموارد طبيعية ومستوى حضاريا ؛ بل
الكثيرين ينظرون اليوم إلى العالم العربى باعتباره ـ كما يعبر بـ
حازم الببلاوى ـ «احتياطى نمو العالم ورصيد المستقبل» من وجهة نـ
التنمية الاقتصادية والتطور المادى والصناعى، فبمساحته الشاسـ
وتعداد سكانه الكبير، ولكن أكثر بكثافة سكانه المحدودة بحكم سيا
الصحراء على الجزء الأكبر منه، فإن الإقليم بدخوله البترولية المليار
إلى جانب انتاجه الزراعى، والصناعى يعد الآن من أغنى أقاليم العـ

ـغرافية والسياسية في مستوى الدخل القومي ووفرة رأس المال
ـكانيات التصنيع والإستثمار... إلخ. كذلك فلقد كانت المنطقة
ـما حبلى باحتمالات الوحدة، كما كان الكل يشعر بطريقة ما بأنها
ؤهلة بالطبيعة لدور غير عادى وللبروز كقوة من قوى العالم
ساسية.

غير أن هذه العناصر الأولية كانت دائما وحتى قريب مجرد
كانيات كامنة بالقوة لا كائنة بالفعل، وكانت المنطقة دائما خطيرة جدا
السياسة الدولية وفي نظر العالم، ولكن كغنيمة ثمينة يتصارعون
يها، لا كمركز قوة ذاتي مرموق، فقد كان محور السياسة الاستعمارية
ـالمية فى هذا الجزء من العالم تقليديا هو منع قيام قوة قومية كبرى
ه بأى ثمن. وكانت لعبة تمزيق المنطقة أولا، ثم عملية خلق إسرائيل
بها ثانيا، هى أدوات تنفيذ تلك السياسة، وكان وجود إسرائيل وحده،
ـلا عن وصمة هزائمها المتتالية للعرب، ضمانا أبديا بتعقيم القوة
ربية كفيلا باستحالة ترجمة الممكن إلى واقع فى هذا المجال. أو كما
ول ورقة أكتوبر «لقد كانت عناصر القوة العربية الكامنة، بالنسبة
ـالم، مجرد احتمال نظرى، بينما كانوا يرون فى إسرائيل القوة
ـعالة المؤثرة فى رسم مجرى التاريخ فى المنطقة، وتكفيله بتشكيل
ـتقبله».

انتصار أكتوبر قرر العكس، فتح الباب أمام انطلاقة عربية عظم
يمكن أن تستقر بها في النهاية في نادى الكبار. أو إذا اقتبسنا ور
أكتوبر مرة أخرى «حرب أكتوبر طرحت الإمكانيات العربية كحقي
واقعة، لا كمجرد احتمال بعيد.. وصارت أي سلطة وطنية في أي
عربى تشعر بعزة جديدة، ويعاملها العالم معاملة الند للند.. لم ي
العالم العربي غنيمة يختلف الأقوياء على أنصبتهم فيها، أو تر
مصائرها في عواصم بعيدة، بل صارت طرفا قويا يتحدث عن نف
بنفسه».

لقد تغيرت ليس فقط خريطة الشرق الأوسط السياسية، وإنما كذ
خريطة العالم السياسية جميعا. وإذا كان هذا التغيير جنينيا فقط ح
الآن بطبيعة الحال، فالمسألة أولا مسألة وقت، وهي ثانيا مسئولية العر
أنفسهم الآن، فعليهم وحدهم ألا يكفوا لحظة عن استكمال نصر
واستثمار نتائجه الطبيعية، وقد لخصت الصنداى تايمز الموقف
كالآتي: «إن العلاقات مع الدول العربية طرأ عليها منذ أكتوبر الماض
تغير جذري، ولم يكتف العرب باكتشاف وحدتهم الحقيقية لأول مرة
طريق استخدام سلاح البترول، بل إنهم استطاعوا أن يستخدموا قو
الاقتصادية بما حقق لهم نجاحا سياسيا كبيرا، وسعوا عن طر
الضغط على أوروبا إلى تغيير السياسة الأمريكية نفسها إزاء إسرائ

ذلك نجحوا فى إحداث صدع فى حلف الأطلنطى بفرض حظر بترولى
ى الدول غير الصديقة، وحملوا وزير خارجية أمريكا على بدء إجراء
ار معهم اتسم بتأييد وجهة النظر العربية، وأخيرا نجحوا عن طريق
ساعفة أسعار البترول ثلاث مرات فى تعزيز سيطرتهم على النظام
قدى فى العالم».

عن مصر مثلا، إذا أخذنا نموذجا منفردا، كتبت الإيكونوميست
يرا أنها تبشر بنهضة اقتصادية كبرى، ثم قالت أن هذا الإنطلاق
عسرى سببه «النجاح الهائل الذى حققته مصر فى عملياتها العسكرية
د إسرائيل في اكتوبر الماضى الذى رفع ثقتها بنفسها وبقدراتها
اتية وقدرات الأمة العربية كلها». كذلك كتبت مجلة بيزينيس ويك
مريكية أن «مصر على وشك الإنطلاق إلى ازدهار اقتصادى»، وأن
ال للإستثمار يتدفق إليها، من الدول العربية البترولية، بدافع القومية
رببية، ومن الدول الصناعية بدافع الحرص على كسب الثقة وضمان
دادات البترول العربى، كما من الإتحاد السوفييتى الذى «أصبح
جرد مجموعة أجنبية أخرى تحاول الاستثمار فى مصر». هذا بينما
أ البعض أنه لم يمض عقد أو أكثر إلا وتكون مصر قد انتقلت إلى
ثمة «الدول الغنية» فى العالم، حتى كيسنجر اعترف أخيرا بأن أمريكا
تبر مصر «قطب الرحى» فى استراتيجية الشرق الأوسط.

أما على مستوى استراتيجية السياسة الكوكبية فيمكن القول ا
الواقع أن مرحلة تعدد مراكز القوى العالمية ثم مرحلة الوفاق بعدها،
باختصار مرحلة توازن القوى الجديد على الطريقة المترنيخية المحد
وأسلوب القرن التاسع عشر المجدد، هى فى التحليل الأخير مره
إعادة تحديد علاقات القوى العظمى بالعالم الثالث بالتحديد، ذ
الوليد الجديد الذى لم يكد يفوز باستقلاله عن قوى الاستعمار القديم
عن كل الصراع الاستقطابى حتى وجد نفسه مشوشا مضطربا مايز
بين مراكز القوة المتعددة الجديدة التى تتسابق عليه وتتجاذبه
تتنازعه.

ويمكن القول فى هذا المجال أن العالم العربى هو أول قطاع من ا
العالم الثالث يدخل ويحسم هذه المرحلة بثقة واقتدار، فهو الذى دشد
والآن يهندسها، حيث أصبح أول منطقة من العالم الثالث تصل
احتمالات القوة العظمى العالمية، وهو بذلك أيضا يفتح الباب أمام ال
الثالث لكى يتقدم إلى مكان ومكانة أكثر تكافؤا فى العالم، ويعد
الفرصة لكى يضيق هوة القوة المخيفة بينه وبين العالمين ا
والثانى، وكما حدد الرئيس السادات، فإن حرب أكتوبر هى «بالتأ
انتصار لدول عدم الانحياز، وأثبتت أننا نستطيع أن تكون لنا إر
فعالة فى عالم مابعد ٦ أكتوبر. والمشكلة الآن هى ماذا سنعمل ا

ول عدم الانحياز في هذا العالم. فالموازين الدولية قد تغيرت،
علاقات السياسية لابد أن تعاد صياغتها، وأننا نواجه عالما جديدا، لن
ن عالم ماقبل ٦ أكتوبر ولكن عالم مابعد ٦ أكتوبر».

وكأول قوة عالمية تنبثق من صميم العالم الثالث، يمكن أن يكون
الم العربي رسالة خاصة، وظيفة إقليمية، تكاد تنفرد بها بين القوى
ظمى مثلما ينفرد بين أقاليم العالم كإقليم جغرافي وتاريخي وكموقع
وستراتيجي وجيوبوليتيكي وكمنطقة حضارية وثقافية. فالمنطقة، التي
ت القوة الأعظم المطلقة في العالم يوما ما، بل لأكثر من مرة، وربما
نت لأطول فترة عرفتها منطقة مماثلة في التاريخ، يمكن بكل
سائصها ومعطياتها ومؤهلاتها الطبيعية تلك أن تكون عقدة قوة في
، العالم خالية من عقد القوة بمعناها السيىء.

إنها ـ توضيحا ـ مؤهلة لأن تكون بمثابة جيروسكوب سياسي
ة إنفتاح ماصة صدمات ومصب تيارات، أي عامل ثقل وتوازن بين
وى العظمى الأخرى يمنعها من التصادم أو الإخلال بتوازن
الم، يخفف من حدة التناقض بينها، يقرب بين بعضها البعض
ها بين القوى الصغرى، ويقارب الشرق من الغرب ويقدم الجنوب إلى
مال ويسد الفجوة بين الأقوياء والضعفاء ويضيق الهوة بين الأغنياء
قراء ويحل المعادلة الصعبة بين الأصالة والمعاصرة وبين القوة

والسلام. إنها رسالة تاريخية تحددها الجغرافيا، وانسانية رغم أصل الإقليمي.

وإذا كان هذا هو الجانب الإيجابي والمشرق من نتائج صعود بداية صعود عرب أكتوبر إلى مركز القوة العالمية، فيجب ألا نند جوانبها الشاقة والشائكة أيضا، فللقوة ثمنها الباهظ وضريبة المستمرة التي يتعين دفعها واجبات ومسئوليات ومخاطر وأخطارا، وا قبل كل شيء صراعات وصدامات ليس فقط مع الأنداد أو الصغ وإنما حتى مع الكبار بل ربما أساسا معهم، وليست لعبة الكبار لعبا نزهة سياسية أو استراتيجية رخية هنية أو هينة، وإنما هي أسا صراع قوة، فالقوى الكبرى لاترحب ابتداء بمنافسين أو مشاركين ج ومن المسلم به أنه ما من أحد في العالم كان يريد لقوة كبيرة أن تنب في هذه المنطقة الخطيرة من العالم بالذات. فإذا ما فرضت نفس وقامت، كما قد بدأ يحدث بالفعل، فإن عليها أن تتوقع وتتحمل مخا ومتاعب ومقاومة القوى الكبرى الأخرى، ولقد بدأت بوادر هذه المتا بالفعل، حتى مع بعض قدامى الأصدقاء الكبار، وهذا مايفرض القادمين الجدد إلى دائرة القوة ليس فقط الحد الأقصى من الد والتنبه، ولكن كذلك أن يرتفعوا بوعي واقتدار وبذل إلى مستوى المسئ ومتطلباتها.

وإذا كان لنا عود مفصل إلى هذه القضية فى دراستنا للعالم
مركة، فإن علينا هنا أن نسجل ثلاث ظاهرات بل حقائق أعقبت حرب
ـوبر وترتبت لاشك عليها، فأولا، لا سبيل إلى الشك فى أن العرب،
ـوا أو لم يريدوا ، أدركوا أو لم يدركوا ، فقد بدأوا يدخلون لعبة القوة
ـالمية، أى لعبة الكبار، وبالتحديد مع القوى الكبرى، وبالذات مع
ـملاقين ثم إلى حد ما مع أوربا الغربية، وبعد أن كان العرب لعبة
ـاء الكبار، أصبحوا هم بأنفسهم طرفا متناميا فى لعبة الكبار، وقد
ـب على هذا بدء ظهور تعديلات مهمة فى علاقات العرب بالقوى
ـبرى الخارجية، وكما كانت حرب أكتوبر هى السبب المباشر فى هذه
ـديلات ، فقد جاءت أيضا المناسبة التاريخية لها، ولهذا نرى فترة ما
أكتوبر فترة تغير جوهرى فى تلك العلاقات وإعادة توجيه لها
ـياغة جديدة لمعادلتها.

ثانيا، تأخذ هذه اللعبة أساسا شكل لعبة التوازن، توازن القوى،
ـ لتحقيق أكبر قدر من الاستقلال والأمان إزاء كل وأى من أطراف
ـبة. والمعنى الجوهرى لهذا أن العرب قد بدأوا يخرجون من دائرة
ـستقطاب الثنائى القديم ومناطق النفوذ النسبية التى كانت تحكمهم
ـلهم قبل أكتوبر إلى سياسة توازن القوى الجديدة، وبعد أن كانوا
ـضعون لقواعد «لعبة الشطرنج» بين العملاقين checkmate،

أصبحوا هم الذين يمارسون «سياسة المضاربة» بينهما عن طريق ضاربة كل منهما بالآخر stalemate. ومحور هذه السياسة هو الانتقال المتوازن من الإعتماد الكامل على أحد العملاقين، وهو الاتحاد السوفييتى، إلى التعامل المتوازن والمتكافىء مع العملاقين كليهما، كسبا للواحد دون فقد للآخر، وتحييدا للعدو وتحديدا للصديق.

ثالثا، مانراه الآن من صعوبات جديدة أو متجددة بين العرب والاتحاد السوفييتى والأخذ والرد والشد والجذب بينهما، خاصة بل أساسا على سياسة التسليح، هو إلى حد معين مظهر من مظاهر دخول العرب دائرة القوة العالمية ولعبة الكبار. فهناك خطة أو محاولة واضحة لتحديد قدرات العرب وقوتهم بتحديد إمدادات السلاح إليهم، وبالمقابل أتت خطة العرب فى تنويع مصادر سلاحهم، وتقارب العرب مع أوروبا الغربية والاتجاه إليها كمورد سلاح متطور، ثم محاولة تحسين العلاقات مع أمريكا، هى مظاهر أخرى للحقيقة نفسها ، وهى دخول العرب حلبة القوى الكبرى بصراعاتها وتوازناتها.

معركة البترول

لا سبيل إلى الفصل بطبيعة الحال بين حلقات هذه الثلاثية المترابطة: أكتوبر ـ العرب ـ البترول. ولهذا لابد من دراسة خاصة مركزة، لا لاقتصاديات البترول بالمعنى الواسع، وإنما لجيوبوليتيكا

البتـرول بالأحرى والأخص. نريد، يعني، تحليل الجوانب السياسية للبترول كبعد أساسي وعنصر أصيل في معركة أكتوبر دون أن نفقد أنفسنا أو نضيع في خضم الأرقام والإحصائيات التقليدية التي تزخر بها الدراسات الاقتصادية عادة.

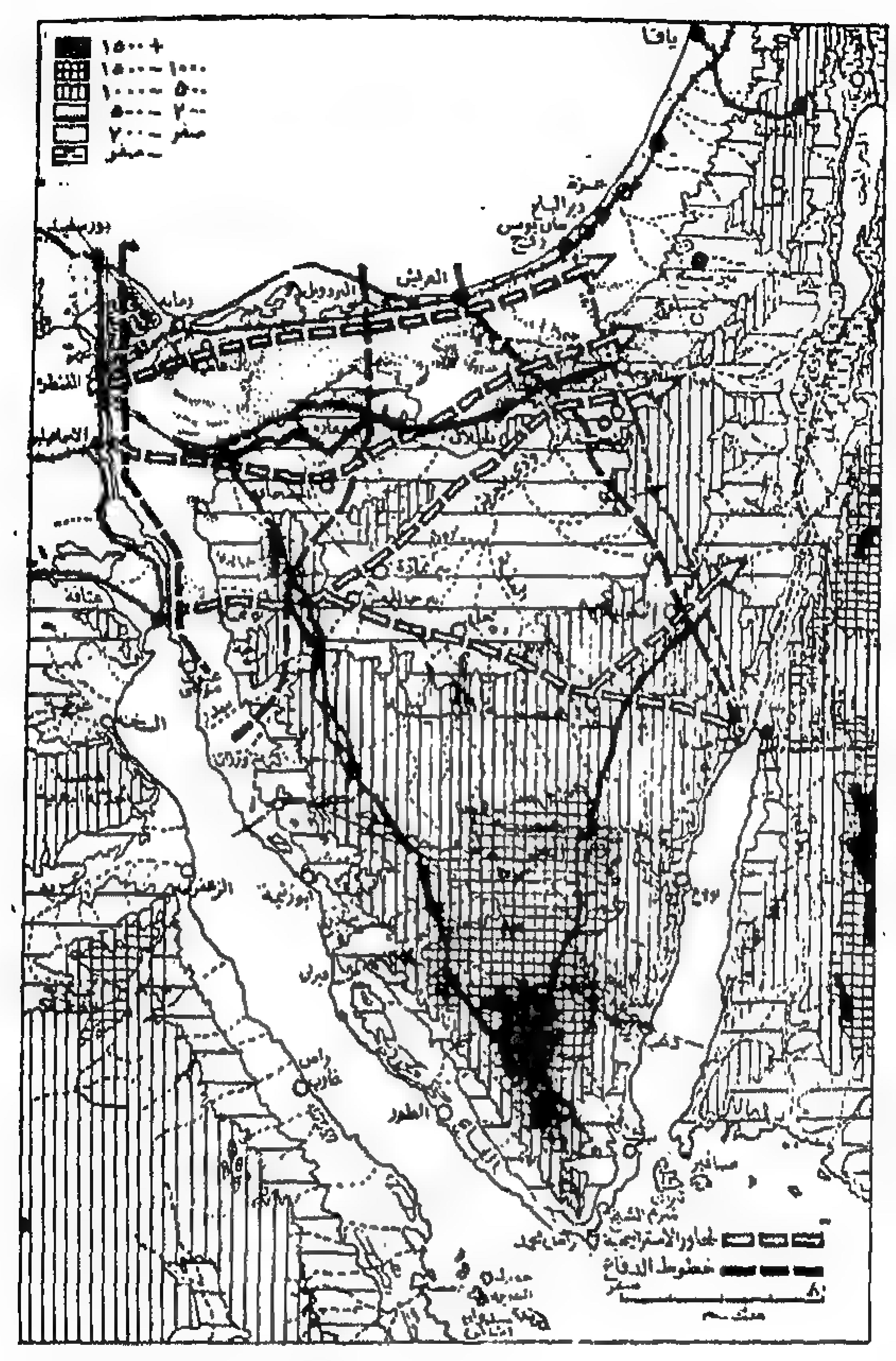
دور البترول ودورته السياسية

ولقد مرت تجربة البترول كسلاح سياسي في عدة مراحل. فلقد طالما تكلم العرب عنه ولوحوا به، دون أن يجمعوا هم أنفسهم على رأي موحد أو موقف عملي، ودون أن يأخذهم الآخرون بجدية أو اهتمام. كذلك حاول الكثيرون عزل البترول عن السياسة وعن المعركة، بزعم أنه سلاح اقتصادي فقط لا دخل له بالسياسة، ولم يكن ذلك صحيحا على الإطلاق، فلقد كان البترول دائما في قلب السياسة العربية ومحور السياسة الدولية في المنطقة، بل لقد كانت كل الأخطار التي تعرض لها الوطن العربي في العقود الأخيرة تدور حول البترول مباشرة وغير مباشرة. وكان السباق الاستعماري رهيبا من أجل بترول العرب، وبالمثل كان صراع القوى حول هذا السباق.

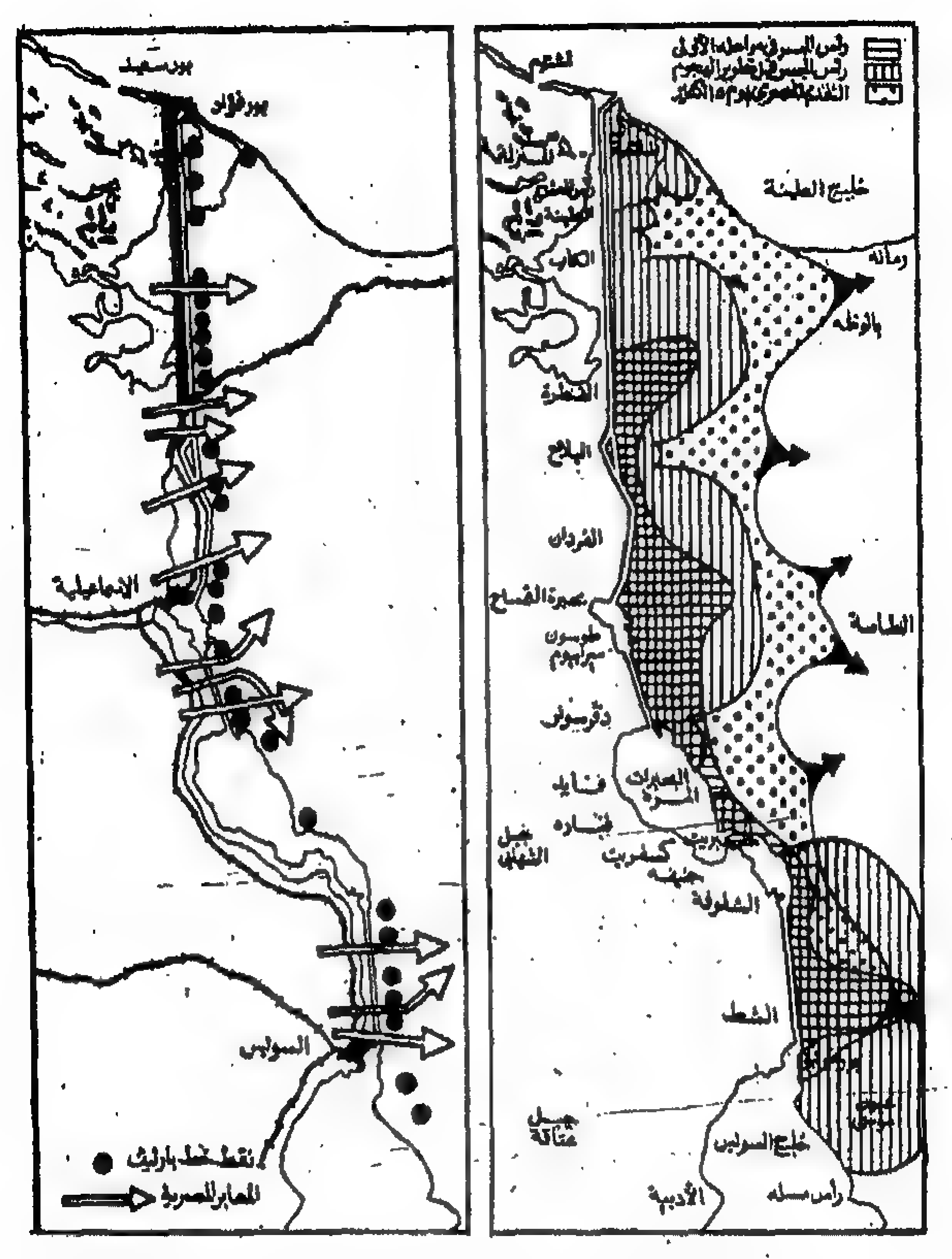
بل إن من الثابت المؤكد أن خلق إسرائيل نفسها كان على علاقة عضوية بالبترول، ومنذ البداية إلى النهاية كان الاستعمار يستخدم إسرائيل «كلب حراسة» لمصالحه في المنطقة «ماذا سوى البترول؟

وإرهابيا مخصصا لتأديب أصحاب البترول حتى لايتمردوا على حظيرة الإستعمار البترولى يوما ما. فإلى جانب تهديد مصر والقناة، كانت وظيفة إسرائيل الأخرى باستمرار هي تهديد العرب والبترول، العرب حاملة البترول وإسرائيل حاملة الطائرات.. وآخر حالة في هذه النقطة هى إيماءات وتلميحات ثم تصريحات إسرائيل قبل أكتوبر عن التهديد بضرب مناطق البترول العربية أما لحسابها مباشرة أو لحساب أمريكا رأسا. فى المرة الأولى حدث هذا ضد ليبيا الثورة حين تصاعدت مواقفها القومية، وفى المرة الثانية حين تفاقمت أزمة الطاقة فى أمريكا والعالم حيث قال أحد قادة إسرائيل ببساطة أنه ليس بين جيش إسرائيل والكويت سوى الصحراء.

أبعد من هذا، لقد كان البترول العربى هو شريان حياة إسرائيل المادية والاقتصادية. وتلك كانت قمة المتناقضة التاريخية والمأساة السياسية، فلو أننا حصرنا أرباح ومكاسب الاحتكارات والاستثمارات الإستعمارية فى بترول المنطقة منذ بدأت، ثم حصرنا الهبات والمنح والمساعدات والقروض المالية التى صبها الاستعمار فى جسم إسرائيل منذ كانت، والتى بدونها ما كانت لتعيش فضلا عن أن تحقق مستوى معيشة وتنمية تتفاخر به كذبا وإدعاء على العرب «المتخلفين» حولها، لو

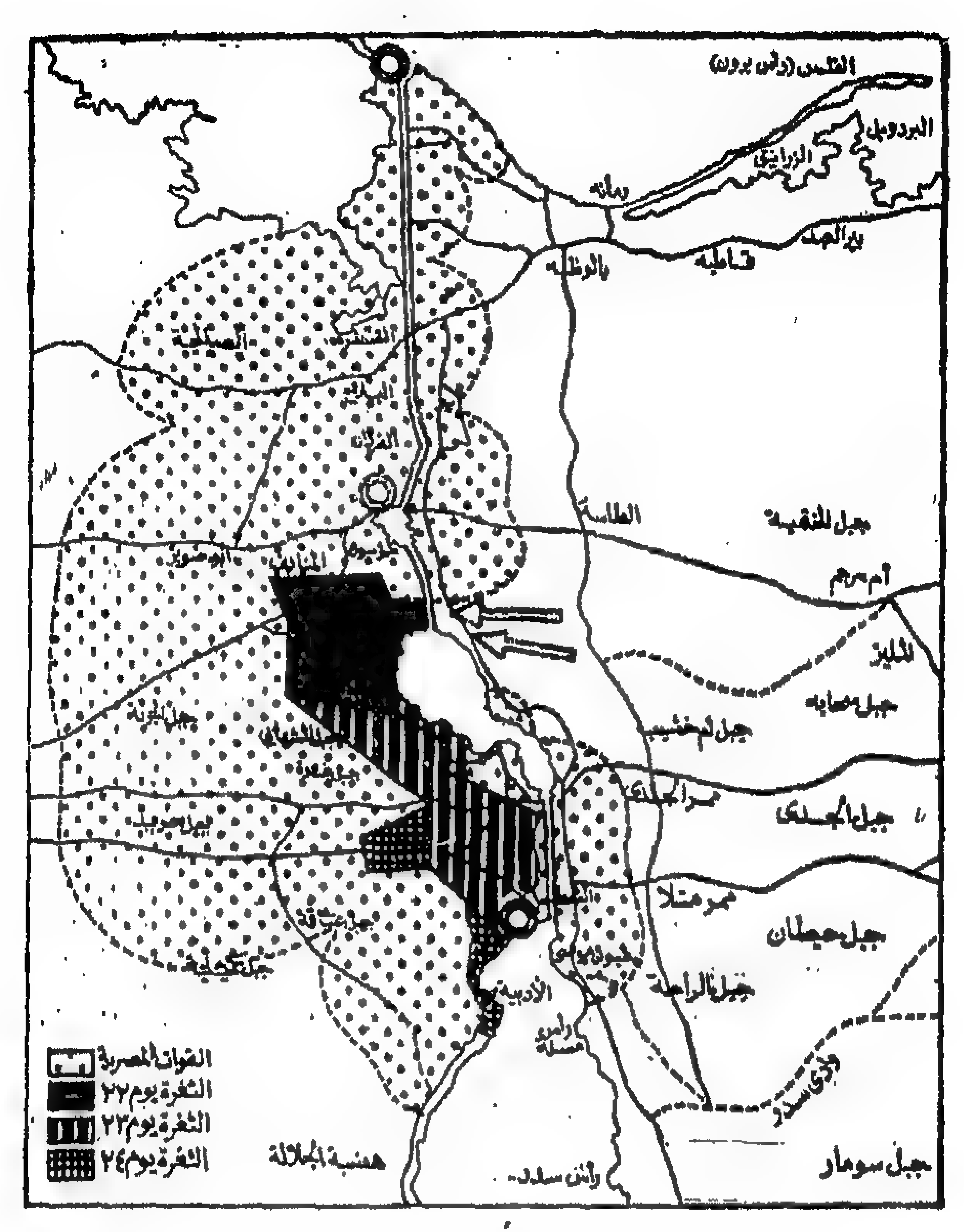


شكل ١ ـــ سيناء ، بوابة مصر ومدخلها الشرقى ، ثلاثية فى مثلث ، او بدقة اكثر ، مثلث فى الجنوب يستقر على قاعدته مستطيل فى الشمال . المستطيل هو ميدان الحرب وارض المعركة الحقيقى . المعركة تحددها شبكة استراتيجية متعددة حاسمة تنسجم تماما مع خطوط الهجوم الطبيعية ، او المحاور الاستراتيجية العرضية وتأتيه متعامدة من خطوط الدفاع الطبيعية الطولية . والمحور الاوسط فى كلا الثلاثيين هو اهمها . ونقط تقاطع الكل اكثر واكثر اهمية .

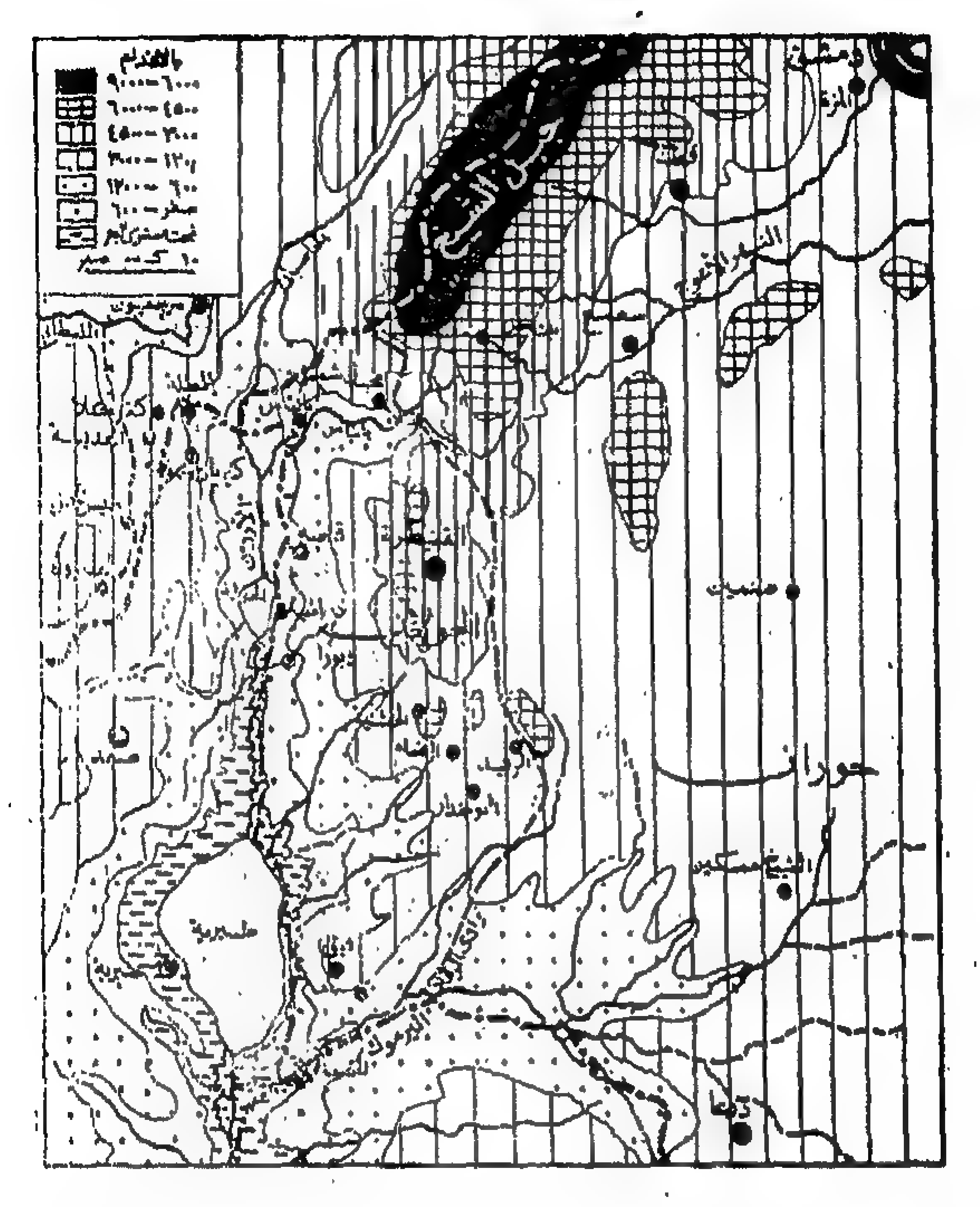


شكل ٢ ـ الى اليسار : مواقع نقط العدو القوية فى خط بارليف . لاحظ كيف تتقارب وتتكاثف فى القطاعات الهامة خاصة ازاء المحاور الاستراتيجية الثلاثة ، بينما تتباعد وتتخلخل نسبيا بعيدا عنها لا سيما أمام البحيرات المرة . ثم لاحظ كيف تتوزع الكبارى والمعابر المصرية على طول جبهة القتال تشتيتا للعدو وتفتيتا لجهده .

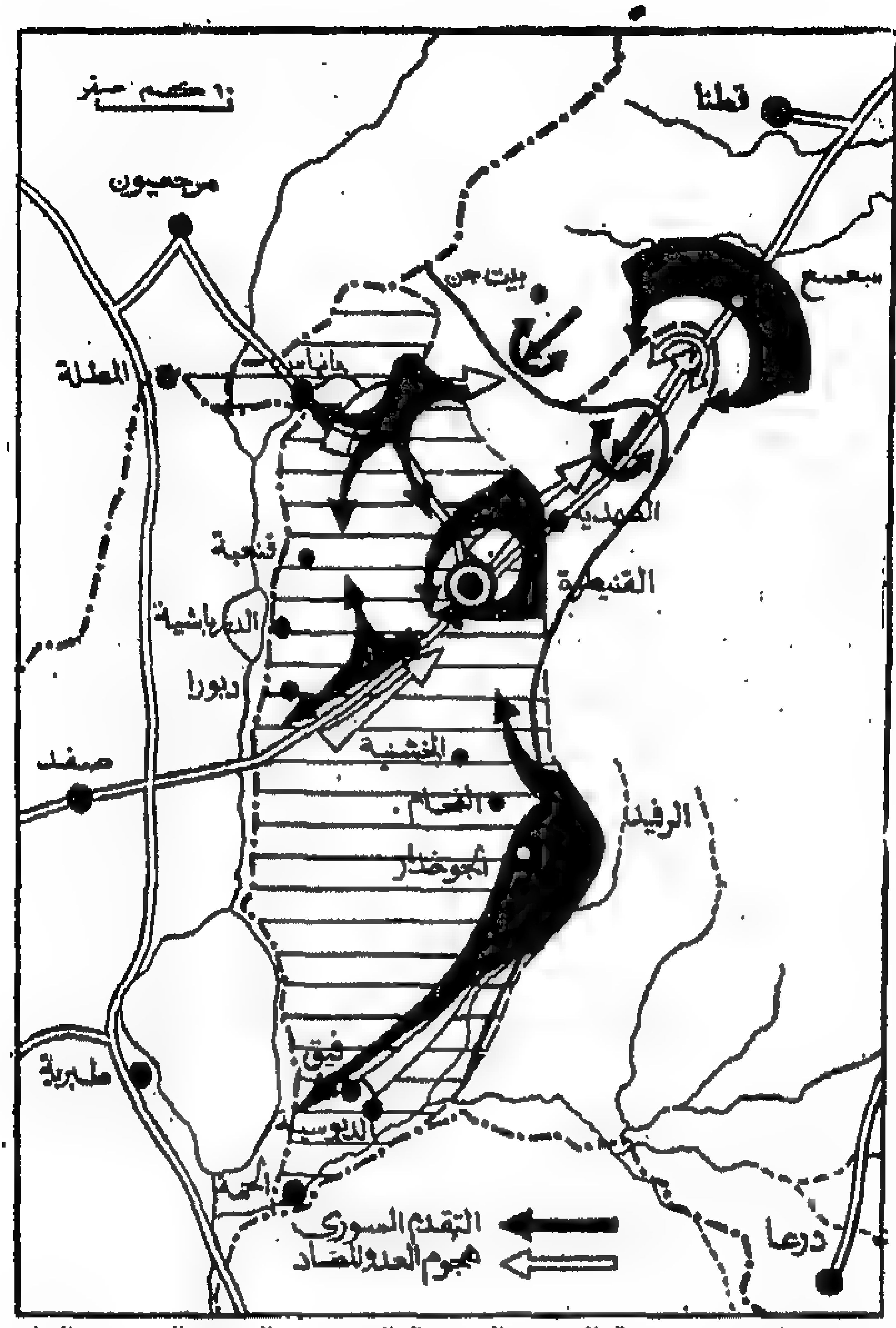
الى اليمين : راس الجسر النامى على البر السينائى يتوسع باطراد نحو الشرق حتى بلغ بضع عشرات من الكيلومترات فى اقصاه . لاحظ ارتباط زحف رؤوس الجسر بالمحاور الثلاثة الشمالى والأوسط والجنوبى .



شكل ٣ ـــ قصة الثغرة فى خريطة ، أو محاولة الحصار التى تحولت الى مصيدة . الأسهم توضح مدخل أو عنق الثغرة عند الدفرسوار . التسلل بدأ فى الشمال فى ظل احتمال وقف النار ، ثم توسع بالتدريج نحو الجنوب بعد اعلان وقف النار . بدل ان يكون الجيش الثالث محاصرا ، أصبح جيب العدو هو المحاصر بين شقى الجيش الثالث فى الجنوب والثانى فى الشمال . جيب كبريت المحلى الضئيل هو وحده الموقع المصرى المحاصر ، ولكن العدو كله محاصر حوله بدوره داخل نطاق القوة المصرية الشاسع . أما حصار السويس بالتسلل الغادر فقد عجز أمام دفاع المدينة الباسلة حتى ارتد خاسئا وهو حسير بعد أن تكبد أفدح الخسائر .

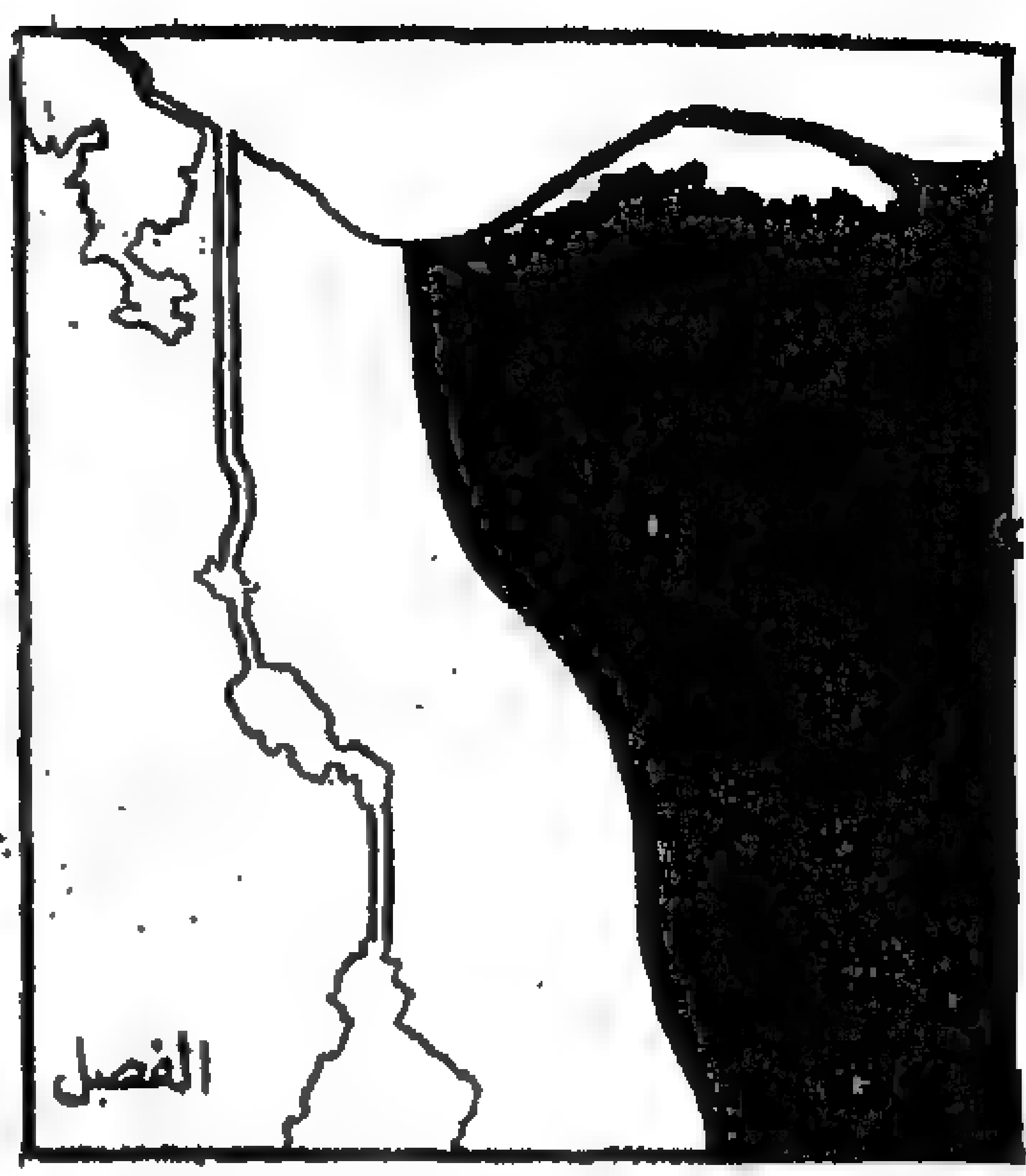


شكل ٤ — ارض المعركة السورية الكبرى ، او المرتفعات الســورية ، او هضبة الجولان التى تؤلف قلعة جبلية شماء تهدد الشمال الاسرائيلى المنخفض . كأنها منحدر القلعة او منصة المدفعية . الأرض تنحدر باستمرار من الشمال الى الجنوب ؛ من ذرى جبل الشيخ الاستراتيجية الحاكمة حتى منخفضات الأردن وسهول اليرموك فى الجنوب . لاحظ أخدود البقــاع ثم الأغوار . ولاحظ كذلك أن بحيرة الحولة (التى جففها العدو الآن) تقع فوق سطح البحر ؛ ثم ما بعدها جنوبا يقع تحت سطح البحر . القطاعات العسكرية الثلاثة فى الجبهة واضحة : المنطقة الشمالية جبلية ، الوسطى هضبية ، الجنوبية سهلية . على الخريطة تظهر ايضا التلال الاستراتيجية الثلاثة حول القنيطرة : شمالا بغرب ، وغربا ، وجنوبا بغرب . حرب الجولان أقرب فى طبيعتها وجغرافيتها ومناخها الى حرب الجبال والغابات ، أو عموما حروب البيئة الأوربية ، حيث حرب سيناء هى حرب الصحراء المكشوفة المثالية .

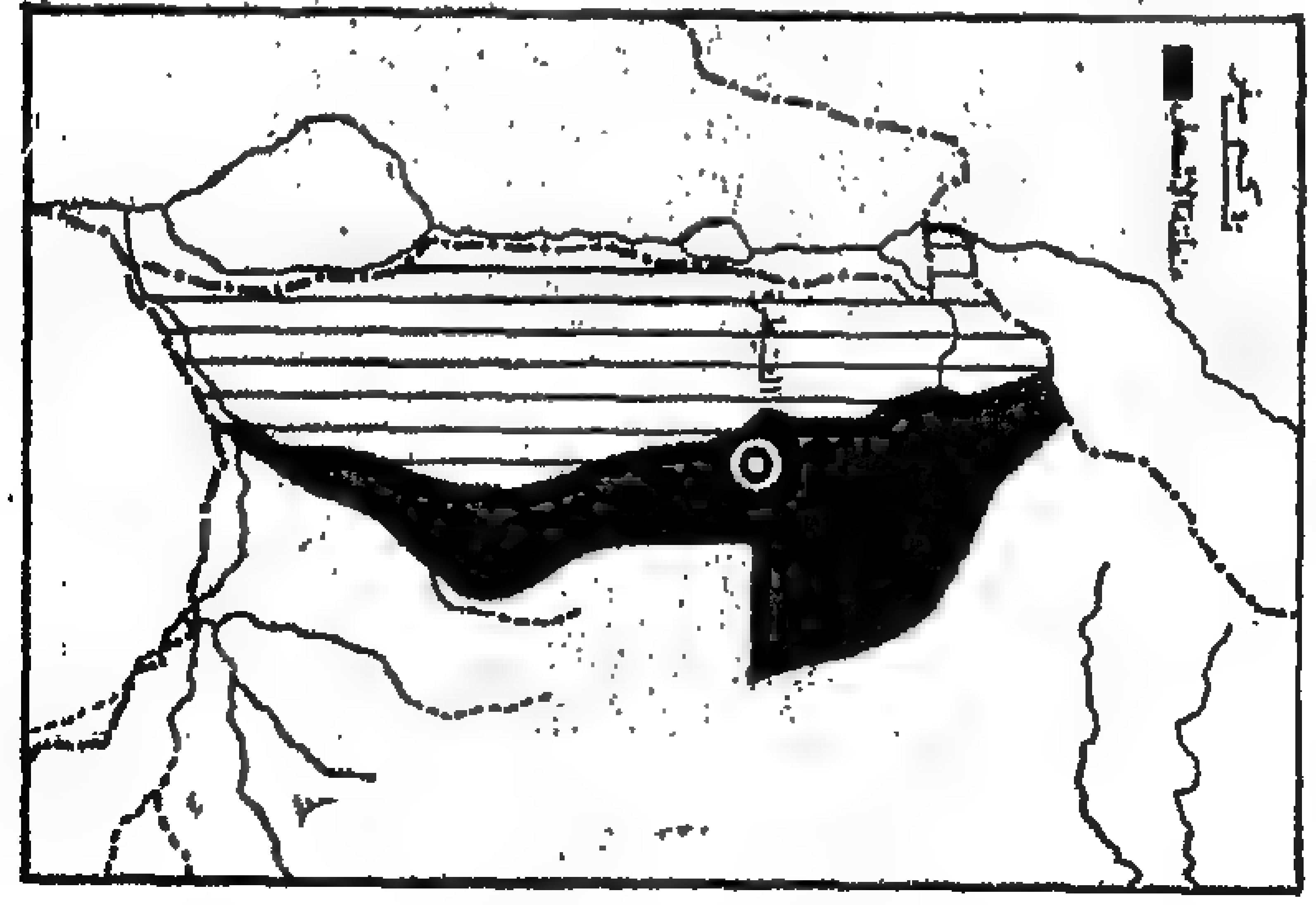


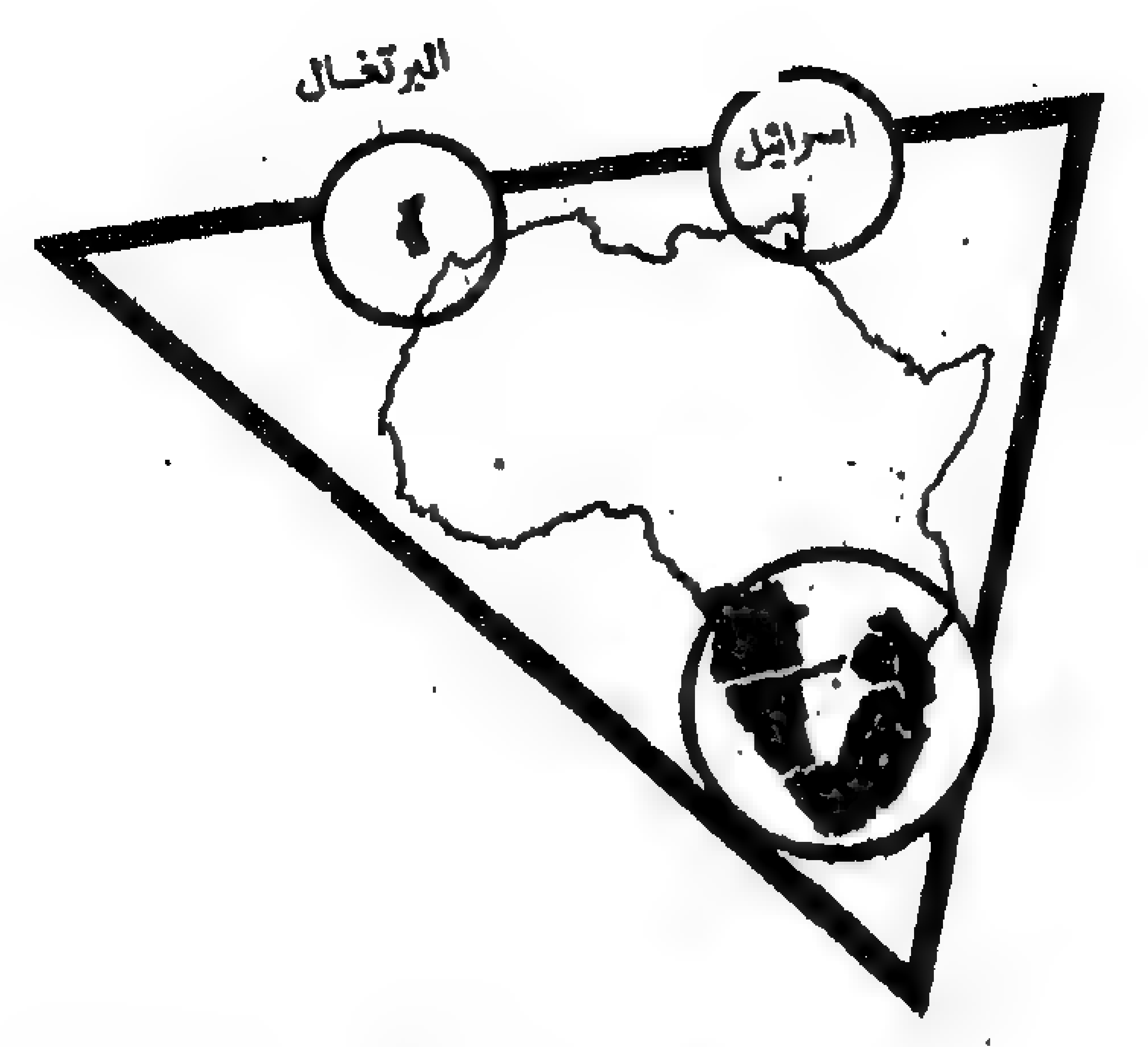
شكل ٥ — معركة التحرير السورية الكبرى . الزحف السورى العارم بدأ من الشرق بطول الجبهة ، وعلى المحاور الثلاثة الطبيعية الرئيسية ، وباتجاه الجنوب الغربى ونحو وادى الاردن وطبرية . الهجوم الاسرائيلى المضاد يأخذ اتجاهات ومحاور عكسية . تبادل الطرفان اكتساح الهضبة كليا أو جزئيا مرتين كل منهما ، بحيث كانت حركة المد والجزر مزدوجة أفقيا ورأسيا . المد السورى وصل فى أوج انتصاره الى مياه طبرية واليرموك ، وهدد بقطع لسان اسرائيل الطويل الضيق الكثيف بالمستعمرات والممتد بطول نهر الاردن الاعلى والمحصور بين كتلة الجولان شرقا والجليل الأعلى غربا . عند سعسع وضع الصمود العربى حدا للثغرة الاسرائيلية وارتد العدو جزئيا .



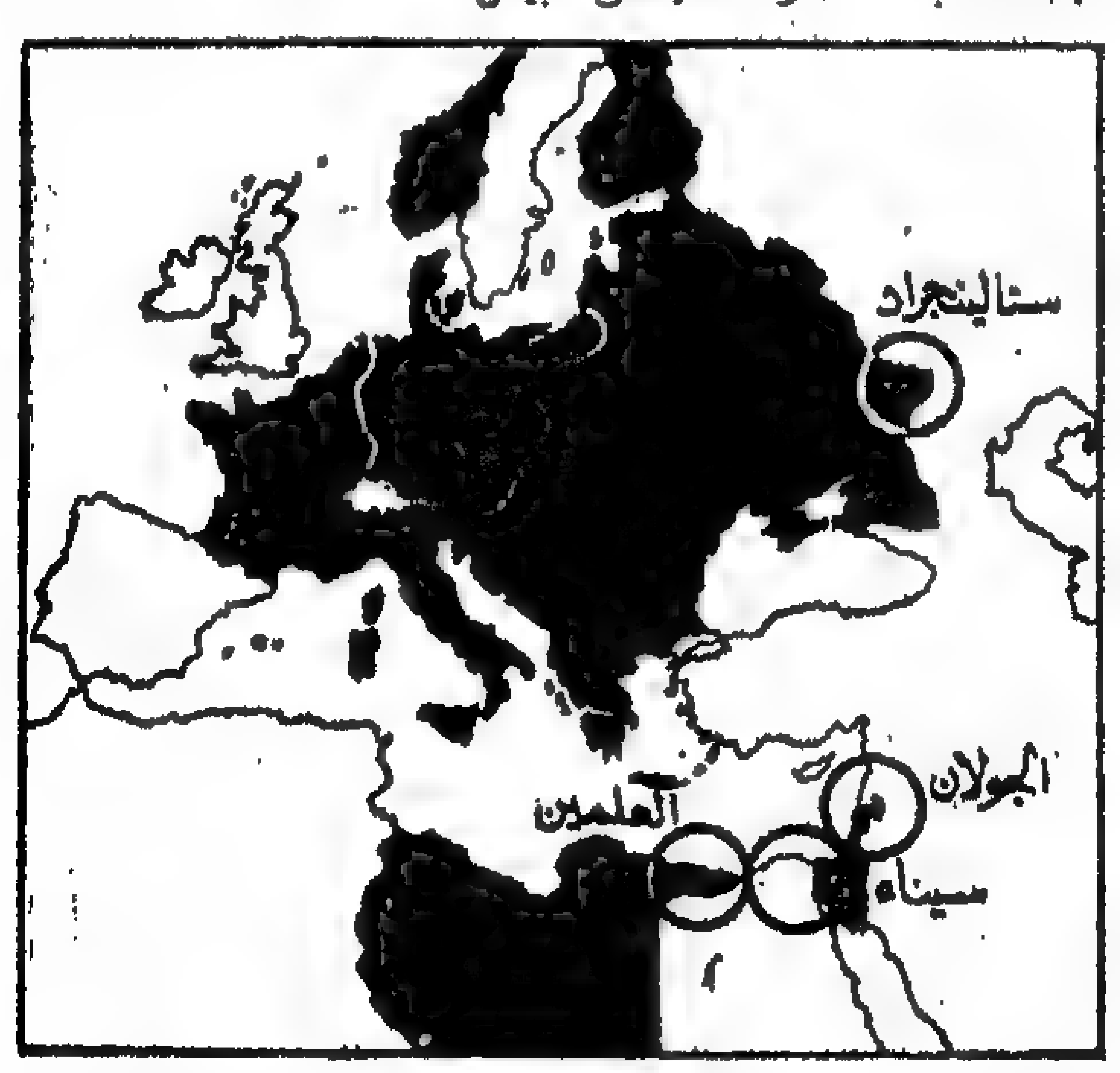


شكل ٦ ـ الفصل بين القوات . الفصل اتفاق عسكرى محض ، ولكنه (١) دليل قاطع على النصر العسكرى العربى ، (٢) نصر سياسى عربى ناصع وخطوة أولى نحو الانسحاب الاسرائيلى الشامل . أعلى : خريطة الثغرة والفصل على الجبهة المصرية كما لطلتها وكالات الانباء . القوات المصرية تسيطر على الضفة الشرقية بصلابة تامة من رمانة فى الشمال الى راس مسلة فى الجنوب ، اى من البحر الى الخليج ، باستثناء ممر الثغرة . بالفصل : انسحب العدو الى الشرق من خط يوازى القناة ويقع على بعد ٣٠ كم منها . اسفل : الفصل على الجبهة السورية . مساحة المرتفعات السورية المحتلة بعد يونيو (الجولان) تبلغ ٧٥٠ كم٢ ، ومساحة الجيب المحتل فى اكتوبر ٥٠٠ كم (المجموع ١٢٥٠ كم٢) ، بالفصل انسحب العدو من ٦٣٣ كم٢ ، أى من نصف الارض المحتلة جميعا .

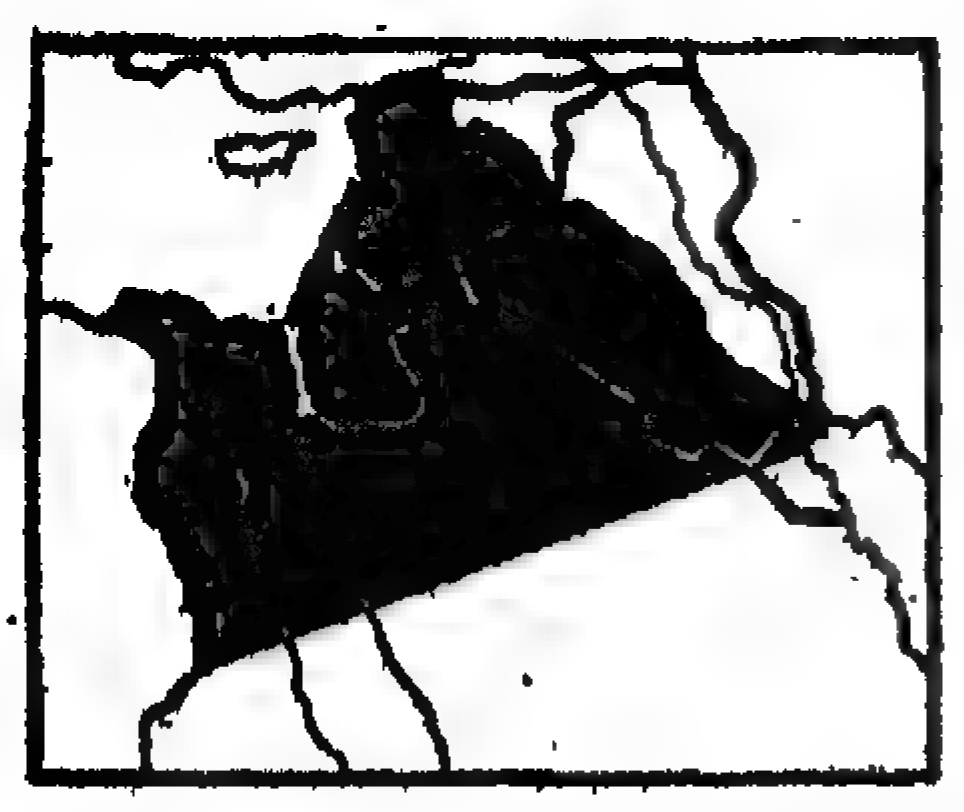


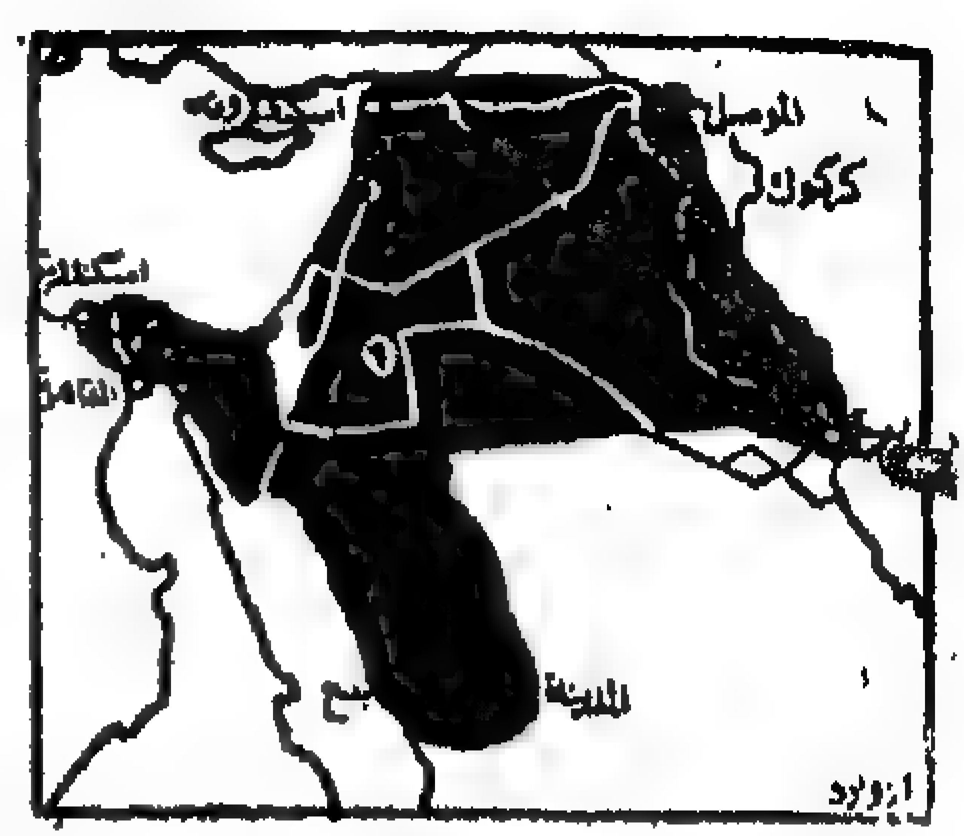


شكل ٧ — طرد اسرائيل من افريقيا اثناء اكتوبر . افريقيا تحاصر على اركانها الثلاثة بالاستعمار الاستيطانى الابيض .



شكل ٨ — خريطة مقارنة بين توسع الاستعمار النازى فى اوربا اثناء الحرب العالمية الثانية وتوسع الاستعمار الصهيونى فى الشرق الاوسط .

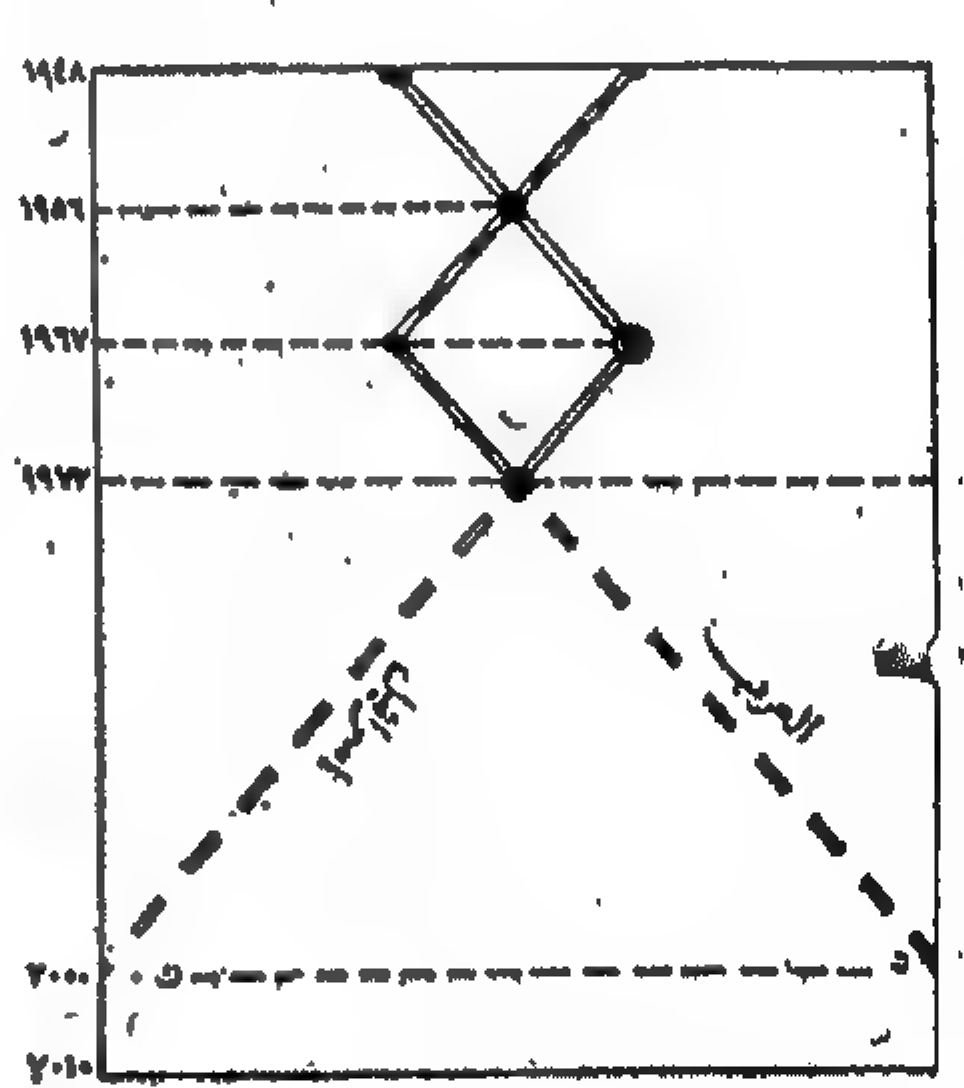




شكل ٩ ـــ اسرائيل الكبرى : الحلم المجنون الذى تحطم على واقع اكتوبر . تفسيران مختلفان للأطماع الصـــهيونية السفيهة : الى اليمين : الأطماع تبتلع كل العراق ونصف مصر ، والى اليسار : نصف العراق وكل مصر . فى الحالين يدخل بقية المشرق العربى ، بما فى ذلك الأراضى الاسلامية المقدسة وبعض مناطق البترول !



شكل ١٠ ـــ خريطـــة طبـــاقية مقارنة بين الصهيونيات والصليبيات . النواة الصلبة مشتركة ، ولكن الأولى توسعت شمالا اكثر ، والثانية جنوبا اكثر . غير ان النهاية ستكون واحدة .



شكل ١١ ـــ رسم بيـــانى تخطيطى لمنحنى الصراع العربى ـــ الاسرائيلى ، ما كان منه وما قد يكون . اذا اســـتمرت الاتجاهات بجديدة ، فقـــد لا تعمر اسرائيل أكثر مما عمرت حتى الآن .

أننا حصرنا هذه وتلك لوجدنا الأولى أضعاف الأخيرة، أي الاستعمار البترولى، كان يمول اسرائيل إلى حد التخمة بجزء فقط مكاسبه من البترول العربي.

فلو أضفنا بعد ذلك سيل السلاح المتطور المتدفق على إسر لتقتل به العرب (تذكر: «ادفع دولارا، تقتل عربيا»!) وتستبقيهم ر الاستعمار الصهيوني والإمبريالى وتنتزع أوطانهم بالقط لأدركنا أن البترول كان سلاحا يأخذه الاستعمار من العـ باليمين ليضعه في يد إسرائيل بالشمال لتقتلهم هي به بـ اليمين والشمال معا. البترول، في الخلاصة الصافية، فريدة تخرج من أرض العرب لتعود، بعد دورة غير مباشرة ولا غير خافية، سلاحا في يد عدو العرب يقتلهم به في أرضهم أو يطر منها كلية

ولما كانت أمريكا بوجه خاص هي المسيطر على الجزء الأكبر امتيازات واحتكارات البترول العربي (أكثر من ٦٠٪)، وكانت أيـ المورد الاساسى للسلاح والأموال لإسرائيل، فإنها بذلك كانت «الوسـ الأول بين العرب كضحية وبين إسرائيل كقاتل، تماما مثلما كـ «الوسيط» الاكبر بتروليا بين العرب كمنتجين وأوربا كمستهلكين

رر والدورة أوضح ما يكــونان ، وإسرائيل تعيــش وتسمن وتفره
دماء العــرب مــرتين، بيدها وبيد أمــريكا، مباشــرة وغير
شــرة ، بيولوجيا واقتصاديا، حرفيا ومجازيا، لاجــئين وبتــرولا،
ك تماما من الاعتبار الأصغر، على خطــورته الجسيمة، وهو
تمال إعــادة تصدير البتــرول العربى نفسه أو مشــتقاته من
رب إلى إســرائيل، تدير بـه آلة اقتصــادهـا وآلة حربها ضد
لعرب.

وكان لابد إذن للعرب من «تسييس» بترولهم، وتحويله من سلاح
تصادى بحت إلى سلاح سياسى مسلط، حاسم وبتار. وفى ظل
فاق العربى الحكيم، برز البترول لأول مرة «ملكا King Oil». ومنذ
حظة الأولى فى المعركة العسكرية، ازدوجت بمعركة سياسية موازية
تقل خطرا وفاعلية.

حرب البترول النفسية

ومنذ تلك اللحظة أيضا لجأ الإستعمار إلى لعبة الحرب النفسية
أخرى. فزعم حينا أن «سلاح البترول الذى يهدد به العرب هو سـ
وهمى». كما قالت ماينير، «فلقد عرفت القيادات العربية طعم الر
الاقتصادى، وهى ليست على استعداد للتضحية بهذا الرخاء فى سـ
قضية عربية مشتركة» كما فسرت. ثم إن البترول ليس ذلك السـ
السياسى المطلق الذى يتصوره العرب، فليس أمام العرب إلا أن يبيـ
أو يشربوه كما قال أبا إيبان (!). وأضافت أمريكا بالذات أنه سـ
مفلول غير مؤثر بالنسبة لها، بزعم أنها لاتعتمد عليه إلا غرارا ولما
كما أفاضت فى الحديث عن «البدائل» ما ظهر منها وما بـ
ومشروعات كبرى لتحقيق «استقلالها القومى» فى الطاقة سنة ١٩٨٠
إلخ. ثم زعم الاستعمار حينا آخر أنه لايتصور حقا أن تتحد كلمة الع
وأنهم لم يتفقوا قط إلا على أن يختلفوا، وأن الأمر كله لايعدو أن
تهديدا أجوف غير جاد، أى «تهويشا» سياسيا bluff ليس إلا. فا
لمسوا ان الخطر حقيقى ووشيك، راحوا يروجون أن العرب لن ينجـ
فى استخدام سلاح البترول بقوة وكفاءة، وأنه سوف يرتد لذلك
صدورهم، كذلك هددوا بعقوبات مضادة كتجميد إن لم يكن مصا
الأرصدة العربية فى البنوك الغربية، وكحظر توريد السلع الغذا

صناعات فضلا عن الأسلحة إلى الدول العربية، ومحاصرتها حصارا
ري أو قاريا... إلخ.

وفى النهاية، حين شعروا بعقم هذه الإجراءات التهديدية وبأنها هي
قد ترتد إلى صدورهم حيث أن أمام العرب بنوكا وأسواقا وأسلحة
فى العالم الواسع، لجأوا إلى التهديد العسكرى السافر، سنحتل
لمق البترول، تلك «السلعة الحضارية» ، لصالح «العالم المتحضر».
هذا المعنى تواترت الأنباء عن اتصالات بريطانية ـ أمريكية
لطيط العملية، وعن مناورات حربية أمريكية على مسارح صحراوية
رب صحارى البترول، وعن تحذيرات علنية بأن على العرب ألا
تبعدوا إمكانية العمل العسكرى المباشر للإستيلاء على مناطق
ترول ومنابعه.... إلخ. وقد رد العرب على الفور بأنهم على استعداد
ستغناء عن دخل البترول لسنين طويلة بل ولتدمير الآبار والعودة إلى
ياة الصحراء إذا لزم الأمر، وبالفعل، أعلن أن كلا من الكويت
سعودية قد قامت بإحاطة حقول بترولها بحزام من المتفجرات لنسف
ار عند أول بادرة غزو غربى معاد. ولا يفوتنا هنا فى التهديد الغربى
سكرى مغزى كلمتى السلعة «الحضارية» والعالم «المتحضر»، فهو
سح بروح ورائحة العنصرية الكامنة والدفينة، فالصورة المتضمنة
وجهة العقل الغربى هى ببساطة أن البترول كصدفة جيولوجية
سوء الحظ فى أيدى أمة من البرابرة تنذر بأن تتجول به إلى أمة

من الوندال تخـرب حـضـارة العـالم الزاهيـة التى بناها بعلمـه وعم
وتقدمه..

وإذا كانت أمريكا السياسية والرسمية، أكثر من أى أحد آخر، خل
كل هذه الدعايات والإدعاءات والتهديدات، فقد كان يكمن خلفها بدور
جمعات الضغط الصهيونية الأمريكية وأصدقاؤها من محترفى السيا
الحزبية هناك، ومن خلف الجميع كانت تكمن «آو تبرز؟» إسرائيل ا
حاولت عبثا مغالطة أن تصور أزمة الطاقة فى العالم وفى أمريكا خا
بأنها أزمة وهمية غير حقيقية أو مهمة، وأنه على آية حال فإن أمريكا
تسمح لنفسها أن «تبيع الدم الإسرائيلى من أجل البترول العربى» (كذ
كما ردد مرارا وزيرها المغرور أبا إيبان، ولكن إسرائيل فى هذا إ
كانت تخدع نفسها فقط، والدعاية لاتغنى عن الحقيقة أو تغيرها، أو ك
قال الصهيونى لاكير لم يكن فى استطاعة هذه الدعاية الساذجة
«تجعل آبار البترول فى السعودية وليبيا والعراق تختفى أو أن تنتق
إلى صحراء النقب».

أو إقرا ما قاله ايتسهاك رابين فى أغسطس ١٩٧٣ حين كان سفي
لدولته فى الولايات المتحدة ولاحظ ماقيه من دس واستعداء يطف
بالحقد: «إن هناك وعيا متزايدا هنا فى الولايات المتحدة بأن م
المسموح به للعالم المتمدين فى حالة الاضطرار آن يستولى بالقوة ع
منابع البترول العربية. إن فى أمريكا من يقول: إذا كان بعض النظ
التى تنتمى إلى القرون الوسطى ينوى حقا تهديد الاحتياجات البترو

لعدة مئات من الملايين في العالم المتحضر، فإن من الطبيعي حينئذ أن يلجأ الغرب إلى استخدام الوسائل الفعالة لمنع حدوث ذلك».

غير أن المعركة، وهذا من نافلة القول وتحصيل الحاصل، بددت كل الأوهام. فقد أثبتت المعركة أن البترول كسلاح سياسي قد يكون أقوى من القنبلة الذرية كسلاح حربي، ولعل مما له مغزاه أن جريدة كالصنداي تايمز اعترفت، بعد أكثر من نصف عام على انتهاء معركة أكتوبر، بأن المعركة أثبتت أن «البترول سلاح لا يعادله سوى القنابل الهيدروجينية». ثم أضافت «إنه إذا كان ماوتسي تونج قد قال أن القوة السياسية تنبع من فوهة البندقية، فقد أظهر أكتوبر أنها تنبع من برميل البترول». البترول، باختصار، أخطر وأرهف مادة استراتيجية في عالمنا المعاصر وحضارة العصر. إنه، نكاد نقول حرفيا، دم الحضارة الصناعية، وخط الحياة بالنسبة لجميع خطوط الإنتاج الحديثة، من أضخم جهاز تكنولوجي إلى أصغر منشأة هندسية، بغيره تشل الحضارة الحديثة ويتدهور مجتمع الوفرة والاستهلاك ويرتد العالم المتطور إلى حضارة ما قبل العصر الصناعي ولا نقول حضارة العصور الوسطى.

والعالم العربي من ناحيته هو «عاصمة العالم بتروليا» كما قلنا: أكثر نوعا من ثلثي احتياطي العالم بأسره، أكثر كثيرا من نصف

تجارته الدولية، وأكثر جدا من ثلث الإنتاج العالمي، وعلى هذا فإن العرب، أكبر مصدر في العالم، في موقف احتكاري لاجدال فيه، وفي مركز قوة تفاوضية لاسبيل إلى تجاهله، ابتداء من تحديد الإنتاج إلى ضبط الأسعار حتى سياسة الحرمان المطلق denial measure. وكل عام يمضي، بل كل يوم، تزداد فيه هذه الاتجاهات نموا وتبلورا وهذا الموقف قوة وتسيدا.

وإذا كانت هناك مناطق أو دول لا تعتمد مباشرة وبصورة حاكمة على بترول العرب في تسيير عجلة انتاجها ودورة آلتها الصناعية، كالولايات المتحدة أساسا، فإن هناك عوالم بأسرها تعيش عليه: أوربا الغربية واليابان أساسا، الأولى بنسبة نحو ٧٠٪ في المتوسط (تتراوح من دولة إلى أخرى بين ٥٠٪ كحد أدنى، ٩٥٪ كحد أقصى)، والثانية بنسبة ٨٥ ـ ٩٠٪ (باعتبار الشرق الأوسط كله) وبين هذين الطرفين النقيضين لاتكاد دولة في العالم تستغني عن البترول العربي بنسبة أو أخرى، بما في ذلك لأسباب فنية حتى بعض الدول المنتجة للبترول.

وفضلا عن هذا فإن سوق البترول العالمية، هذا السائل الإكسيري، هو نظام مغلق closed system من الناحية العملية، أشبه في دينامياته بالأواني المستطرقة، كل نقص هنا يستتبعه تغيير هناك،

والعكس، وكل برميل يحبس عن السوق تنعكس آثاره على مستهلكيه هنا وعلى غير مستهلكيه هناك، ويصدق هذا إلى أقصى حد فى السنوات الأخيرة بوجه خاص حيث زاد الطلب على العرض بشدة وبانتظام، بحيث تنبأ البعض «بمجاعة بترولية» إذا استمرت هذه الاتجاهات، بينما أصبحت «أزمة الطاقة» من قبل من مفردات السياسة الدولية الدارجة والسارية والأكثر شيوعا ـ وإقلاقا أيضا..

البترول «ملكا»

فى إطار هذه المعطيات الجبرية، ألقى العرب بسلاحهم المشروع والمشروع فألقوا بالعالم الاقتصادى المعادى أو اللامبالى فى دوامة من الفوضى وفى اضطراب صادم بدد كل غفلة ووهم. فكما جاءت معركة أكتوبر صدمة صاعقة للعدو الإسرائيلى، جاءت معركة البترول صدمة كهربائية للغرب أفاق عليها من التنويم المغناطيسى الصهيونى (أو بالأصح الاستنامة له).

وبطبيعة الحال فإن خفض انتاج البترول العربى أو حظر تصديره لم يكن هو الذى خلق ماسمى بأزمة الطاقة فى العالم أو فى أمريكا، فالحديث عن هذه المشكلة سبق معركة أكتوبر بسنة وبعض سنة على الأقل. ولكن كان للمعركة، كما فى كثير من جوانبها الأخرى، دور المفجر والمعجل والمضاعف multiplier .. فقد جاءت اللحظة الحرجة تاريخيا

وسيكولوجيا فضاعفت أبعادها بمعدل هندسى لا حسابى.

ومن حسن الحظ أن المواجهة جاءت بعد أن كان موقف العربى المالى العالمى قد تغير تماما عما كان مألوفا من سنين. فلقد كان تراكم لهم فائض مالى هائل فى السنوات الأخيرة أصبح يغنيهم عن لهفة انتظار الدخل السنوى وحررهم من ضغوطه الآنية. ومن حسن الحظ أيضا أن توقيت الطبيعة جاء هو الآخر متوافقا مع توقيت المعركة، فقد دشنت معركة البترول والشتاء الأوربى القارس على الأبواب، أو كما قال بعضهم فى الغرب، لقد جند «الجنرال شتاء» نفسه فى خدمة «الملك بترول»!

أما النتائج الاقتصادية المباشرة فكانت بالغة الأثر بل باترة: هزة خطيرة فى الإنتاج وضغوط انكماشية وأخرى تضخمية بعيدة المدى، بطالة متزايدة وأحيانا مخيفة، غلاء جارف وارتفاع فى الأسعار مع انخفاض فى مستوى المعيشة وفى معدلات التنمية الاقتصادية، شلل جزئى أو زاحف فى النقل والمواصلات والحركة، اختلال تام فى نمط الحياة اليومية والمنزلية.. إلخ.

أما بالنسبة للمستقبل، فقد ولت إلى الأبد ـ هكذا أدرك الغرب الصناعى ـ أيام الطاقة الرخيصة بغير حدود، «أيام العز» الذهبية the real bonanza daus، والإنطلاق الصناعى الفائق على حساب.

والعــالم المتــخلف، وإفــراط الصناعــة فـيــه over-industrialization كمكافىء موضوعى (أو غير موضوعى!) لتفريط الصناعة فى العالم الثالث under-industrialization ، ويمكن القول بكل ثقة أن أحوال العالم الاقتصادية على النحو التقليدى السائد حتى قريب لن تعود قط ثانية. بل أكثرها من هذا، وكما قرر بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بكل جلاء، بدأ العالم يدخل الآن مرحلة اقتصادية جديدة تماما بسبب حرب أكتوبر. لقد ثورت الحرب العربية الناجحة، عن طريق البترول العربى الحاكم، هيكل الاقتصاد العالمى، مثلما ثورت بفعلها المباشر الاستراتيجية العالمية.

أما على المستوى الحضارى، فقد أثبتت معركة البترول وأكدت فضل العرب على المجتمع الصناعى الحديث، فالتجربة الواقعة أثبتت أن البترول عامة والبترول العربى خاصة هو الذى صنع الثورة الصناعية الثانية، ثورة العلم والتكنولوجيا، فى الغرب بعد أن استنفدت الثورة الصناعية الأولى، ثورة الفحم، أغراضها وعصرها، هو البترول، وخاصة العربى، الذى جعل ممكنا المجتمع الاستهلاكى ومجتمع الوفرة والرفاهية والرخاء ومجتمع مابعد الصناعة. إن البترول العربى وقناة السويس هما أخطر أعمدة حضارة أوربا الصناعية المعاصرة، إغلاق القناة خنق أوربا، وخفض البترول أصابها بالأنيميا والشلل، بل هما أيضا أعادها

إلى الماضى الغابر: الأول أعاد شبكة النقل العالمى إلى نمط العصور الوسطى حول الرأس، والثانى أعاد عصر الخيول وعربات الخيل ومواقد الخشب والفحم!

بل لقد أثارت الأزمة الأسئلة الفلسفية الأساسية عن حضارة هذا العصر وحضارة المستقبل ومستقبل الحضارة، إلى أين، وإلى متى هذا الاقتصاد الهدمى والاستنزاف النهم المسعور لموارد الطبيعة المحدودة غير المتجددة، ما جدواها حضارة الاستهلاك المحمومة هذه... إلخ؟ لقد فرضت الأزمة على الإنسان وعلى البشرية، باختصار، وقفة حضارية مع النفس قد تتمخض فى أسلوب جديد للحياة على هذا الكوكب الصغير وعن فلسفة جديدة لروح العصر.

ومن الغريب، أو لعله ليس غريبا، أن الصهيونية العالمية حاولت بالحقد كله أن تنفث سموم دعايتها فى أنحاء العالم لكى تدق أسفينا بين العرب والغرب خاصة ولكى «تقلب المائدة» على العرب الذين شبهتهم «بقطاع طرق القرون الوسطى» (لاكير)!. ففى البداية، حين برزت وحدة العرب وصلابة الموقف العربى، أثارت الصهيونية نغمتها المكذوبة عن «هذه الحرب الصليبية» التى يجددها «التعصب العربى» على العالم الغربى ويشنها على الغرب المسيحى» (كذا!). ولم يكن هناك قلب للحقائق أبشع ولا أخطأ من هذا، فإنما الصهيونية وحدها هى صليبيات العصر، والعرب وحدهم هم ضحيتها.

أما فى النهاية، حين تبددت هذه الدعاية المبتذلة فى مناخ الإهمال والإزدراء، بدأ الحديث عن «الإبتزاز البترولى» العربي، وهى النغمة التى لاتزال أمريكا ترددها للآن. وتلك أيضا دعوى رخيصة مضللة، فإنما سلاح البترول العربى سلاح مشروع للدفاع عن النفس، والدعوة إلى عدم استعماله دعوة إلى الانتحار. أما الإبتزاز فهو فن قننه بل وشرعه الآخرون، وضد العرب بالتحديد، حرب التجويع وسلاح القمح ، سياسة القروض وسحب عروض التمويل، خفض أسعار الخامات... إلخ. ذلك ودون أن نذكر أن الوجود الإسرائيلى برمته ومن أساسه فى المنطقة هو ابتزاز أمريكي نووى وغير نووى، كما أن النفوذ الصهيونى فى أمريكا هو بدوره ابتزاز إسرائيلى، سافر ومستمر، بل إن آخر مظاهر الابتزاز الأمريكى هو تهديدها المتكرر بحظر صادراتها الغذائية وخاصة القمح والحبوب إلي الدول العربية والنامية كرد مضاد على حظر البترول.

استراتيجية المعركة

إن الكلاب تنبح، ولكن القافلة تسير، قافلة العرب، باقتدار وذكاء، وفى مرونة واعية وانضباط فى التوقيت والتصعيد والتهبيط، شهد بها الجميع، راح العرب يطبقون خططهم فى خفض الإنتاج وفى تصنيف الأعداء وفى تحديد الأسعار (كان أول رد فعل حانق خرج من إسرائيل

عن سرعة تحرك ومرونة العرب هي أنهم قد تعلموا فيما يبدو الكثير من الدبلوماسية مثلما تعلموا من فنون القتال منذ حرب يونيو). فأما عن الخفض، فقد بدأ أولا بقرار بتحديد الإنتاج بنسبة ٥ ـ ١٠٪ مما كانت عليه معدلات شهر سبتمبر السابق للمعركة، على أن يترك لمن يشاء من الدول العربية أن يرفع الخفض إلى ٢٥٪، تزداد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر.

غير أنه بتلقائية فذة، قفز معدل الخفض فورا وعند الجميع إلى نسبة «السقف» المحدد، ٢٥٪. لهذا، وحين أتى الخفض آثاره وأحس الجميع بوطأته، ومنعا لحدوث أى شرخ أو مضاعفات فى العلاقة الجديدة الناشئة مع أوربا الغربية، عاد العرب فقرروا تهبيط نسبة الخفض إلى ١٥٪ ابتداء من يناير ١٩٧٤، وذلك باعتبار هذه النسبة الحد الكافى للتأثير دون الإضرار.

أما عن التصنيف، فلم يكن سلاح الحرمان عشوائيا بلا تمييز، ولو قد كان، ووضع الكل فى سلة واحدة لجمع الكل أنفسهم فى جبهة ومواجهة واحدة ضد العرب، وهذا بالدقة ما حاولته أمريكا حين راحت تضغط على أوروبا الغربية واليابان بخاصة لتكوين جبهة من المستهلكين تقاوم ضغوط المنتجين العرب، «اتحاد المستهلكين» المقول الذى يكاد يذكرنا سياسيا واقتصاديا «بجمعية المنتفعين» سيئة السمعة والمصير

التى حاولوا فرضها إبان أزمة السويس ١٩٥٦ .. ولم تخف أمريكا أغراضها الحقيقية، من هذه الدعوة، إذ وضحت أن هدفها هو «إرغام» الدول العربية على تخفيض أسعار البترول أولا وضمان تدفقه ثانيا، لقد تزعمت أمريكا حملة العداء ضد العرب وحرب البترول المضادة، فهل نجحت؟ .

تحت ضغط المصالح البترولية الحقيقية، ورغم كل الضغط الأمريكى السافر والمباشر، تباعدت اليابان بحذر شديد عن هذه اللعبة الخطرة، وأعلنت للعرب، وهي التى يعتمد اقتصادها اعتمادا شبه كلى على بترولهم والخليج، أنها حريصة كل الحرص على عدم التورط فيها، كما تباعدت بوضوح عن إسرائيل سياسيا واقتصاديا، فأعلنت تأييدها السياسى لحقوق العرب العادلة وقرار ٢٤٢، وطبقت قواعد المقاطعة التجارية للمصالح الإسرائيلية وذلك رغم تهديدات الصهيونية الأمريكية بمقاطعتها عالميا، كذلك تقدمت إلى العالم العربى بعروض القروض والمساعدات الاقتصادية ومشروعات التنمية والمشاركة فى الإنتاج الصناعى وإعادة التعمير وتصنيع البترول.... إلخ.

وهنا يمكن القول بإطمئنان أن أزمة الطاقة التى تعرضت لها اليابان قد فرضت عليها موضوعيا أن تخرج من عزلتها السياسية لتلعب دورا عالميا لأول مرة منذ الحرب الثانية، وكان الشرق الأوسط هو مسرحه

الأول والأساسى، وعلى هذا يمكن القول أيضا بثقة وتأكيد أن العرب وأكتوبر بالتحديد هى المناسبة التاريخية كما هى العوامل الضابطة أو الضاغطة التى ساعدت هذا العملاق الاقتصادى الذى كان قزما سياسيا تقليديا أن يرتفع سياسيا إلى مستواه الاقتصادى، يتخلص أكثر من وقر الوصاية الأمريكية الكاتمة، ويقترب أكثر وأكثر من مكانه المحجوز له فى نظام تعدد المراكز فى العالم، وهذا أثر آخر من آثار أكتوبر المحققة على هيكل السياسة العالمية.

هذا عن اليابان . أما عن أوروبا الغربية، التى لاجدال فى دور أكتوبر فى تعميق، استقلالها وتباعدها عن أمريكا، والتى تقود فرنسا معركتها للإستقلال القارى والوحدة الأوربية، فقد عارضت اقتراح اتحاد المستهلكين الأمريكى وأوضحت بإصرار أن هذا إجراء سيعده العرب عملا عدائيا وسيعطيهم الإنطباع بالتحدى والمواجهة ولن يفعل فى النهاية سوى أن يوسع الهوة ويضاعف الأزمة بدل أن يحلها، وكاقتراح مضاد، طلبت فرنسا تشكيل اتحاد من المنتجين العرب والمستهلكين فى الغرب للتنسيق والتفاهم. وفى الوقت نفسه قاومت فرنسا كل الاتجاهات الانتهازية داخل السوق الأوربية التى حاولت أن تتلاعب بالموقف العربى أو أن تدور من حوله.

ومن الضرورى هنا أن نلاحظ بموضوعية أن الموقف الأوربى يمتاز مع ذلك بثلاث ظاهرات حتى الآن، أولا أنه غير متجانس تماما، فلا زالت هناك دول مترددة أو غير متجاوبة مع الحق العربى، وعلى الأقل فإن دولة واحدة معادية للعرب علنا (هولندا). ثانيا، أنه لايخلو جزئيا من انتهازية بادية، وربما من تلاعب غير مخلص، وهو فى كل الأحوال موقف اضطرارى أكثر منه عن قناعة وعدل، ثالثا، وأخيرا، أنه لم يزل يقدم الكلمات والبيانات أكثر من الأفعال والضغوط، بزعم أنه لايملك وسيلة لذلك على أى من أمريكا أو إسرائيل.

ومن الناحية الأخرى فقد بدأت بعض الدول الأوربية تعقد عقودا مباشرة وطويلة الأجل مع بعض الدول العربية لضمان حصولها على البترول بكميات ضخمة ولعشرات السنين المقبلة، وأول وأبرز مثال لذلك فرنسا مع السعودية، بينما يبدو أن بريطانيا واليابان تحاولان تكراره، ومن هنا فقد تتمخض الأزمة فى النهاية عن نتيجة تاريخية حاسمة وهى إعادة إقامة العلاقات البترولية بين العرب وأوربا الغربية على أساس مباشر يستبعد دور الشركات الأمريكية، وسيط استغلالى طفيلى.

ولعل هذا بالدقة ما تخشاه الحكومة الأمريكية وما تصارع ضده صراعا محموما، فالخوف عندها هو أن تتمخض المواجهة عن «أبعادها» من العالم العربى بتروليا بأوضاعها الاستغلالية المفروضة القديمة،

وحلول أوربا الغربية محلها برغبة العرب وبشروطهم وبأوضاع جديدة من وضع العرب أنفسهم، فلو حدث هذا لانقلب الموقف الذى كان قائما بين المتنافسين فى حرب ١٩٥٦، حين انتهزت أمريكا الفرصة لتطرد «الإستعمار القديم» من المنطقة وترثه فيها كاستعمار جديد، والفارق الأساسى في الحالة الجديدة إذا تحققت هو أن التقدم هذه المرة سيكون من صيغة «الاستعمار الجديد» إلى صيغة «الوفاق الجديد».

ومهما يكن من شيء، فالواضح حتى الآن أن السياسة الأمريكية البترولية المضادة للعرب قد فشلت، وكان التخطيط العربى أبرع، وبدلا من أن تشق أمريكا الصف العربى شق العرب الصف الغربى. ذلك أنهم صنفوا المستهلكين حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل إلى ثلاث فئات: الأصدقاء، ولهم أن توفر كل حاجاتهم المشروعة من البترول دون ما فرص للتسرب أو التسريب، من هؤلاء فرنسا وبريطانيا ثم بعض دول أخرى من أوربا الغربية، فضلا عن الدول الإسلامية والافريقية ودول عدم الانحياز التى وقفت بجانب العرب. ثم هناك المحايدون الذين كفوا عن الانحياز إلى العدو أو السير فى ركاب الولايات المتحدة. وعلى هؤلاء يسرى التخفيض، ولكن دون حرمان. هنا وضعت بقية دول أوربا الغربية، كما كانت تأتى اليابان التى حسنت موقفها كثيرا فنقلت إلى قائمة الأصدقاء، وأخيرا فإن هناك الأعداء،

على رأسهم أمريكا، الهدف الأساسى لحرب البترول فى الصراع العربى ـ الإسرائيلى جميعا. أما فى الذيل فدول توابع أمثال هولندا والبرتغال وغيرهما. والحرمان الشامل هو هنا الحد الأدنى الممكن من العقاب الواجب.

وربما حاولت هذه الفئة الأخيرة، وغيرها، أن تخترق حاجز الحرمان أو أن تتسلل حول حائط المقاطعة بطريقة أو بأخرى، وهناك فعلا إشارات غامضة وشواهد متواترة على وجود بعض ثغرات فى تنفيذ الحظر كانت تؤدى إلى وصول بعض التسرب إلى معسكر الأعداء. بل لقد أعلنت أمريكا رسميا عن «تزايد» امدادات البترول العربى الواصل إليها دون أن تفصح عن مصادرها وكيفيتها، ولاشك فى أن الشركات الأمريكية العاملة في المنطقة العربية هي التى كانت تقف وراء هذا التلاعب، ومن الضرورى التنبه لهذه الثغرات وسدها مهما كانت ثانوية ـ ويبدو أنها ليست كذلك تماما.

كذلك كان لابد من ضبط معدلات التخفيض فى الإنتاج والتصعيد فى الأسعار بحيث لايتأثر الأصدقاء فى الغرب الصناعى أو فى العالم الثالث الفقير أكثر مما يتأثر الأعداء، وحتى لا يضار الاقتصاد والعملات والنقد الأوربى والياباني أكثر من الاقتصاد والدولار الأمريكى، كما حدث بالفعل على مايبدو حيث حققت أمريكا مكاسب

ملتوية من أزمة الطاقة محليا وعالميا وتحسن وضع دولارها على هذا الأساس.

والواقع أن هناك من يرون أن التكتيك الذى نفذت به استراتيجية تحديد ضخ وتصدير البترول لم يلحق ضررا كبيرا أو مؤثرا بأمريكا بقدر ما أضر بأصدقاء العرب الأوربيين، فالشركات الأمريكية المنتجة في العالم العربى هى تلقائيا شركاء فى لعبة الأسعار، بل الشركاء الأكبر، وهي مستفيدة منه بالضرورة، بل إن لها مصلحة فى رفع الأسعار، وأكثر من ذلك ثبت أنها كانت تناور منذ مدة وتتلاعب بالأسعار وأنها حققت بالفعل أرباحا في العام الأخير أكثر مما حققت فى أى عام مضى.

وهناك أيضا مؤشرات على أن أمريكا رحبت فى قراراتها بالأزمة من حيث أنها شلت الاقتصاد الأوربى واليابانى المنافس لاقتصادها، ووجدت فيه كذلك بالتالي أداة لإعادة سيطرتها السياسية على أوربا الغربية وإخضاعها لضغوطها من جديد، وبهذا كله فقد يكون من المحتمل أن أمريكا أفادت من معركة البترول بدرجات متفاوتة اقتصاديا وسياسيا، إلى جانب معاناتها وخسائرها بالطبع . أو فلنقل أفادت بقدر ما أضيرت سواء على هذا المستوى أو ذاك .

معركة الأسعار

تبقى أخيراً معركة الأسعار . لقد أضير المنتج العربى للبترول فى السنوات الأخيرة بسبب سلسلة تخفيضات قيمة الدولار الأمريكى وغيره من العملات الغربية ، ونزلت برءوس الأموال العربية ودخول البترول العربية خسائر فادحة فى يوم وليلة تقدر بمئات الملايين من الدولارات ، فضلا عن الزيادات المحمومة والمفتعلة فى أسعار السلع الصناعية والمنتجات الغذائية التى فرضتها الدول الصناعية على صادراتها إلى الدول العربية وغير العربية فى العالم الثالث . وقد وصلت هذه الزيادات فى بعض السلع إلى نحو ثلاثة وأربعة الأمثال فى بضع سنين فقط . ومعنى هذا باختصار أن العرب كانوا يصدرون دم حياتهم إلى أمريكا والغرب ، فتصدر أمريكا إليهم التضخم وهبوط العملة وانخفاض مستوى المعيشة .

من هنا كان طبيعيا أن يقترن خفض انتاج البترول العربى منذ المعركة برفع أسعاره ، أولا اعادة للتوازن بين أسعار الخامات والمصنوعات فى دورة التجارة الدولية ، وثانيا تعويضا عن نقص الدخول البترولية الناشىء . بل أن المقدر أن القيمة الحقيقية لدخول الدول البترولية قد تقصر ، حتى بعد كل زيادة أسعار البترول الأخيرة ، دون مثيلتها منذ سنوات بل وحتى أيام الناصفة ، وذلك لانخفاض قيمة

العملات من جهة وارتفاع أسعار الواردات الصناعية والغذائية من جهة أخرى .

على أية حال ، فلسوف يسجل التاريخ لمعركة اكتوبر فضلا كبيرا على العرب ، مثلما سجل للعرب فضلا كبيرا عليها . ليس فقط أنها قد ضاعفت من دخولهم البترولية بصورة صاروخية ، ولكن - وهو الأهم - أنها فتحت أمامهم عصر «التحرير الاقتصادى» على أوسع أبوابه . فلقد كانت المعركة مناسبة ملائمة جدا لأن يحقق العرب استقلالهم الفعلى عن شركات البترول الاحتكارية التى كانت تتولى تحديد أسعار البترول المعلنة وتتلاعب بها تلاعبا فاضحا ، وهذا عدا ما كانت تفرضه عليها من معـــدلات ومستويات لا ترتبط بالقيمة الحقيقية للسلعة فى السوق العالمية . فلأول مرة فى تاريخ البترول العربى انتزعت الدول المنتجة حق تحديد الأسعار من جانب واحد .

هكذا ، من دولارين أو اكثر قليلا بالكاد قبيل المعركة ، قفز السعر للبرميل إلى ١٤ ، ١٥ دولارا بل وإلى ١٨ دولاراً فى سقفه الأعلى ، وإلى ١١ دولارا فى المتوسط ، وذلك فى غضون شهرين تقريبا . وعموما قدرت الزيادة بنحو ٤٠٠٪ فى الشهور الثلاثة الأخيرة . لقد أنفق العرب منذ نهاية الحرب الثانية أكثر من ٢٥ سنة وهم يكافحون ويصرخون ليزحف ثمن البرميل من بضعة شلنات إلى دولارين كحد أعلى ، فإذا به

بفضل أكتوبر يتضاعف من هذا الحد إلى تسعة أو عشرة الامثال في أقل من ٥٠ يوما ! وفي أعقاب الحرب توا ، ابتداء من أندونيسيا إلى ايران ومن فنزويلا إلى بيرو ، جاء بقية المنتجين .

بهذا أجد ، من الناحية الحسابية البحتة ، أن الدول العربية البترولية قد تضاعفت دخولها من البترول عدة أضعاف بفضل المعركة ورغم خفض الانتاج ، هذا الخفض الذى حافظ أيضا على رصيدها للمستقبل البعيد بعد النزح المقنن والمنتظم الذى مارسته الشركات عقودا . ويكفي في هذا الصدد رقم واحد : قبل حرب اكتوبر بلغ مجموع دخل الدول العربية من البترول يوميا نحو ٣٠ مليون دولار ، وبعد الحرب ورغم خفض الانتاج والصادر بنسبة ١٥ - ٢٠٪ تقريبا قفز مجموع الدخل اليومي إلى ١٠٠ مليون دولار ، أو بنسبة ٣٣٣ ٪ أى أكثر من ثلاثة الأمثال . وهكذا أيضا حققت دول العرب البترولية لحسن الحظ وبفضل المعركة أرباحا مباشرة تعادل أضعاف ما دفعوه في تمويلها من دعم ومساندة (يقدر البعض نسبة هذا التمويل إلى هذه الأرباح بنحو ١٪) . وبهذا جاءت المعركة نصرا اقتصاديا لدول المساندة ، كما جاءت نصرا عسكريا لدول المواجهة ، وكما جاءت نصرا سياسيا للجميع .

وفيما عدا هذا فلقد يرى البعض ، موضوعيا ، أن هناك من كان يحاول أن يستغل الفرصة لصالحه اكثر منها لصالح القضية المصرية ، أو أن بعض الدول البترولية غالت نوعا في رفع الأسعار ، أو أن هناك خطرا من الفصل أو محاولة الفصل بين حرب البترول وحرب اكتوبر بالتدريج جريا وراء المكاسب المادية . والمهم على أية حال أن يظل المبدأ المسود هو أن البترول في خدمة المعركة وليست المعركة في خدمة البترول .

ومن هذه الزاوية ، لم يعد هناك شك أن مشكلة العالم الآن لم تعد تدفق البترول بقدر ما أصبحت ارتفاع أسعاره . وهناك حسابات مفصلة يقدمها الغرب عن الخسائر والأضرار المادية التى ستلحق باقتصادياته وانتاجه نتيجة لأسعار البترول الجديدة ، وتقدر هذه الحسابات بمئات المليارات من الدولارات سنويا . كذلك رأى البعض أن خطر التهديد العسكرى - الأمريكى أساسا - لمناطق البترول قد زاد وأصبح واردا بعد موجة رفع الأسعار بالذات ، وأن على العرب أن يأخذوا ذلك التهديد بجد واهتمام . وفى المقابل ، أعربت بعض الدول العربية عن اقتناعها بأن تلك الزيادة فى أسعار البترول كان مبالغا فيها بعض الشىء ، وأبدت رغبتها فى تخفيضها نوعا ، ولو أن البعض الآخر يعارض ويربط بين أى تخفيض فيها وبين تخفيض الدول الغربية لأسعار

منتجاتها الصناعية والغذائية . وعلى الجملة يبدو أن المرونة والحذق اللذين اتسمت بهما سياسة الضخ والانتاج قد تمتدان أيضا إلى سياسة رفع الأسعار .

انقلاب تاريخى وكوكبى

وعلى أية حال ، ومهما تكن التطورات المقبلة ، فيبقى أن المجابهة الحادة قد تركت بصماتها عميقة إلى الأبد على عالم البترول وغيرت هيكل العلاقات الاستغلالية التقليدية التى سادت طويلا وصفتها إلى غير رجعة . كيف ؟ من ناحية لقد تحرر العرب من ابتزاز الشركات فحرروا معهم سائر المنتجين ، وبذلك حطم عالم البترول كل محاولات الغرب لفرض الوصاية الاقتصادية عليه . لقد أعطى العرب ، كأمر واقع ، قيادة ناجحة وشجاعة للعالم الثالث، ستمتد آثارها ومضاعفاتها لا شك إلى بقية دوله ، وأعطى البترول نموذجا طموحا وقادرا لكل المواد الأولية الخام فى العالم .

ومن تحصيل الحاصل بلا ريب أن نقول أن البترول كسلعة استراتيجية مطلقة الحاكمية هو المادة الخام الوحيدة بين خامات العالم التى كانت قادرة على أن تعطى ، وأعطت بالفعل ، تحديا وتهديدا وندية حقيقية لأقوى صناعات العالم التكنولوجية الغلابة والعالم الصناعى المسيطر . ومن السخرية لا شك أن يصور الغرب الموقف كله بالمقلوب ،

فيحاول أن يتباكى على مصالح الدول النامية وامكانيات تنميتها نتيجة رفع أسعار البترول العربى . ولكن الحقيقة أنه انما يحاول أن يدق اسفينا بينها وبين الدول العربية يشق به جبهة العالم الثالث الموحدة ويقلب بذلك المائدة على العرب .

هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى أثبت العرب بمعركة البترول حقيقة انقلابية مذهلة بقدر ما تبدو شاذة . فلقد الفنا أن نتحدث عن الاقتصاديات العربية كاقتصاديات تابعة economies dominées تابعة يعنى لاقتصاديات الغرب السائدة dominant economies . الآن فإنه العكس تماما أو تقريبا : تبدو الدول الصناعية الفائقة التقدم وكأنها «التابعة» لدول البترول العربية على شدة تخلفها ! بل أن البعض ليتنبأ بأن المصالح العربية فى دول الغرب الكبرى هى التى قد تتعرض من الآن فصاعدا لاحتمالات «التأميم» ، بعد أن كان التأميم هو الخطر المعلق فوق رءوس مصالح تلك الدول المتقدمة والموجودة فى العالم العربى المتخلف ! لكنما هو البترول ، عصب الحضارة الحديثة ومانح الحياة للصناعة .

وحقيقة الأمر كله إذا نظرنا إليه ، كما ينبغى ، فى إطاره الواسع ، هى أن معركة البترول التى فجرتها معركة اكتوبر هى الطلقة الأولى فى معركة اقتصادية كوكبية أوسع مدى بكثير هى معركة الصراع بين

الخامات ودول الخامات من ناحية وبين الصناعات ودول الصناعات من الناحية الأخرى ، وبالتالي بين العالم الثالث والعالم المتقدم . وهذه المعركة هي بدورها تعبير عن تغير هيكل العلاقات الجذرية بين هذين العالمين في عصر ما بعد التحرير وتصفية الاستعمار ثم عصر الاستقطاب فالوفاق وما بعدهما .

لقد كنا نقول دائما أن عصر الثورة الصناعية كان عصر الصراع على الخامات والأسواق . أما الآن فإن عصر الثورة التكنولوجية المعاصرة ، بما حققته من وفرة الانتاج المثيرة ورفع مستوى المعيشة الباذخ مع استهلاك فاحش وضغط رهيب على الموارد الطبيعية المتناقصة لعالم متزايد العدد ، هو عصر يعلو فيه الصراع من أجل الخامات على الصراع من أجل الأسواق . إن الغرب المعاصر ، بطفرته الانتاجية المذهلة وبمجتمع الوفرة والاستهلاك والرخاء المفرط ، لم يعد ينظر إلى العالم الثالث كسوق إلا نظرة ثانوية بالنسبة لسوقه هو المشتركة ذات الامكانيات والأبعاد الهائلة . غير أنه ، على النقيض تمام ولكن للسبب نفسه ، عاد ينظر إليه بكل اهتمام وتكالب كمستودع للخامات . إنها عودة الصراع على الخامات إلى بؤرة السياسة العالمية ، وذلك أيضا في ظل توازنات قوة جديدة . والبترول

هو رأس الحربة فى هذا الصراع الكوكبى الجديد ، كما أن العالم العربى هو رأس حربة العالم الثالث فى معادلة القوة العالمية الجديدة .

والخلاصة ؟ الخلاصة لقد أتت معركة اكتوبر ثورة بالبترول وفى البترول وعلى البترول ، سياسيا واقتصاديا وماليا ، عربيا وعالميا . فجرت أولا مشكلة الطاقة العالمية بعد أن كانت كامنة أو شبه ذلك ، وضعت حضارة العالم المعاصر وحضارة الاستهلاك وجها لوجه أمام مشكلة المستقبل والبقاء وجدوى فلسفتها الأساسية ذاتها ، وأخيرا قلبت سوق النقد الدولية وكشفت عجز النظام النقدى العالمى الراهن وضرورة تغييره . وفى النتيجة فلقد غيرت المعركة أيضا موازين القوى فى عالم البترول بين المنتجين والمستهلكين ، بين دول الخامات المتخلفة ودول الصناعة المتطورة ، أو بين «الذين يملكون والذين لا يملكون HAves & HAve No's ، وذلك نحو قدر أكبر من العدالة والتوازن . أو كما عبر الرئيس السادات فى حديث له إلى مجلة نيوزويك «لقد غيرت أحداث ٦ أكتوبر كثيرا من الأمور فى العالم . بل أنها فرضت «اعادة النظر» بطريقة جذرية على العلاقات بين الدول الغنية التى «تملك» والدول الفقيرة التى «لا تملك شيئا» فى جميع انحاء العالم» .

بهذا كله بدأت الهوة السحيقة بين المتقدمين والمتخلفين وبين الشمال والجنوب ، تضيق نسبيا ، وأخذ الانحدار الجيوبوليتيكى الرهيب بين الطرفين يقل تدريجيا . أنه نمط جديد وثورى من أنماط القوة فى عالم ما بعد اكتوبر ، ربما يشى بانبثاق «نظام عالمى جديد» ، المعركة وحدها والعرب اساسا هم مهندسه الأول والأخير . أو كما تقول ورقة اكتوبر «أن الدول النامية أخذت بعد حرب اكتوبر تحدس بأنها تملك عناصر قوة تتمثل فى مواردها من المواد الأولية ، وأن صوتها فى المجتمع الدولى يجب أن يسمع ، وأن مصيرها يجب أن يتحدد بمعرفتها وليس بقرارات تؤخذ فى غيبتها» .

حرب عادلة

أخيراً ، لنا أن نتساءل : هل حقق سلاح البترول أغراضه ؟ البترول بطبيعتـه كأداة سياسية سلاح طويل المدى بطىء المفعول ، يحتاج لاعماله بفاعلية مؤثرة إلى جرعات متتابعة متصاعدة وغير متباعدة من أعمال القوة وسائر الضغوط السياسية . ولكن المثير أن أثر البترول قد ظهر بأسرع مما كان مقدرا . إن البترول هو أداة الحل السياسى ، حيث القتال هو أداة الحل العسكرى . وقد كانت الاستراتيجية العظمى فى بترول العرب هى أن يضغطوا به على أصدقاء اسرائيل وامريكا لعزلهما أولا ، ثم ليضغطوا هم ثانيا على امريكا حتى

تضغط هى على اسرائيل لكى تنسحب من الأراضى المحتلة . ولقد قلبت معركة البترول الموازين السياسية والدبلوماسية ضد اسرائيل كما قلبت الموازين العسكرية والاستراتيجية معركة الميدان من قبل .

وإذا كان قطاع كبير ، الأكبر فى الواقع ، من العالم قد تعرض لمتاعب وصعوبات شديدة أو محدودة فى العملية ، فلم يكن القصد من ذلك عقاب أحد ولا الاضرار بمصالح واقتصاديات أى أحد . ومع ذلك فإن العالم كله مسئول عن خلق اسرائيل ثم السكوت عليها وعلى ارهابها «وفتوحاتها» ، دع عنك أولئك الذين يؤازرونها ويشجعونها على العدوان بكل وسيلة منظورة وغير منظورة . على هذا العالم - ولنقلها ولا نخف - يقع دم الفلسطينيين والعرب من الضحايا واللاجئين والمشردين ، وعليه وزر اضطهادهم وتشتتهم . أنه لمن أبسط مبادىء العدالة الانسانية - أليس كذلك ؟ .. أن يتذوق هؤلاء جرعة مما يجرعه الفلسطينيون والعرب كخبز يومى بانتظام واستمرار على مدى ربع قرن من الزمان .

إن تجربة معركة البترول تنبيه عادل للعالم أن العدالة لا تتجزأ ، كما أن السلام لا يتجزأ ، أو كما قال السادات «رسالة حاولنا أن ننقلها إلى العالم كله ، وهى أن العرب بعد السادس من اكتوبر يستحقون مكانهم تحت الشمس» . أو كذلك كما قال بومدين «أننا كنا ننتظر ولا نزال

ننتظر أن تعيد أوربا تقييمها لعلاقاتها مع الأمة العربية ، لا على أساس أنها مصدر الطاقة ولكن على أساس أنها مجموعة بشرية لها قيمتها ولها حقها في الحياة» . المعركة حث للجميع على الضغط على أمريكا ، والمطلوب من أصدقاء البترول العربي الآن المزيد من الفعل لا القول ، والضغط لا البيانات . عليهم أن يحاصروا أمريكا دبلوماسيا إلى حد الارهاق والاتهام والادانة .

أما هذه ، فقد كانت هناك أسلحة أخرى أن احتاج البترول إلى أسلحة معاونة ، هناك الأرصدة العربية الضخمة في بنوك الغرب . هناك التجارة الواسعة النطاق . مع أمريكا .. إلخ . وإن آجلا أو عاجلا كان على أمريكا أن تختار بين بترول العرب أو فتوح اسرائيل ، بين الاستثمار البترولي أو الاستثمار الاسرائيلي . ومنطق المصالح الحقيقية يقول أنه لا خيار أمامها في الحقيقة ، ويوما ما ستتصادم حتما مع محميتها - أو معنا . وهذا فعلا هو ما بدأ يتحقق إلى حد أو آخر . فلقد سلمت أمريكا أخيرا في اتصالاتها مع العرب بحقوقهم وتعهدت بتغيير موقفها المتحيز للعدو وبأن تعمل على فرض الحل السلمي العادل في وقت معقول . وعلى هذا قرر العرب في مارس ١٩٧٤ رفع الحظر البترولي عن الولايات المتحدة ، بالإضافة إلى وقف الخفض والغائه عن الدول الأوربية الصديقة ، واستمرار حرمان هولندا ، على أن يعاد النظر في الموقف البترولي كله في يونيو .

غير أن هناك نقطة هامة فى موضوع البترول ، وإن كانت أدخل فى باب المستقبل . لقد تحول البترول العربى من مجرد سلاح اقتصادى إلى سلاح سياسى ، وأغلب الظن أنه لابد يتحول فى المستقبل إلى سلاح عسكرى . لقد رأينا كيف أن الصراع العربى – الاسرائيلى صراع لن يحسمه فى النهاية وعلى المدى البعيد الا المجابهة العسكرية ، وأن مناط المواجهة العسكرية الناجحة هو أساسا السلاح المتقدم الوفير ، وأن هذا السلاح محكوم بسياسات عليا للدول الأعظم ، وأن اختراق هذا الاطار يكمن فى غزو أسواق جديدة حرة مفتوحة للسلاح المتطور ، وأخيرا أن هذا لا يعنى الا غرب أوربا فى الدرجة الأولى والتحليل الأخير .

الآن لا سبيل إلى فتح هذه الأسواق ، المغلقة أمامنا حاليا بدعوى الحياد ، الذى هو حياد بين المعتدى والمعتدى عليه ، إلا بالضغط ، والضغط البترولى أساسا . ولهذا لابد أن يأتى اليوم الذى يطلب فيه العرب أن يتم تبادل سلعتهم الاستراتيجية بسلع استراتيجية مكافئة ، البترول بالسلاح . إن هذا هو التحدى المستقبلى الذى على العرب أن يستعدوا له يوما ما فى القريب العاجل أو غير العاجل . وهو تحد لا نشك أن النصر فيه مكفول لمن يملك زيت الحياة الصناعية وزبدها . والمفهوم أن هذا قد بدأ يتحقق بالفعل ، وأن كان فى مراحله الأولى .

الفصل الثامن

٦ أكتوبر والعدو الاسرائيلى

من يونيو إلى أكتوبر

حين اختلس العدو نصره السهل الرخيص فى يونيو ١٩٦٧ ، كان تقديره أن تلك هى «آخر الحروب» وأنهم قد أصبحوا سادة المنطقة نهائيا وإلى الأبد ، وأن حالة اللاحرب واللاسلم باقية لعشر سنوات قادمة على الأقل ، وأن العرب على الطريق إلى التسليم وتوقيع صك الاستسلام . وعليه ، جلس إلى جانب التليفون فى انتظار مكالمة من المهزومين يضعون بما أنفسهم تحت تصرفه . أو كما وضعها دايان ، صاحب تلك الكلمات الشهيرة ، «إنها الحرب التى انهت كل الحروب ، ولم يبق أمام العرب إلا طلب المقابلة لتقديم فروض الطاعة ، لا سيما أنهم يعرفون رقم التليفون والعنوان ، ٣١ شارع كابلان ، القدس» .. وهكذا لم يعد السؤال الذى يؤرق العدو هو ما إذا كانت اسرائيل قد «وجدت لتبقى» ، بل أصبح ما إذا كانت الامبراطورية الصهيونية هى التى بقيت لتوجد . لقد فتحت سيناء والضفة الغربية والجولان - هكذا

وقرفي قرارة العدو – الطريق «من النيل إلى الفرات» وإلى «أرض اسرائيل» أو «اسرائيل الكبرى» .

غير أن الصمود العربى ورفض الهزيمة – على سلبيته الآنية – حرم العدو من جنى ثمار العدوان ، فوجد أن أصابعه إنما تتقبض على نصر عسكرى ساحق ولكنه عقيم بلا نصر سياسى يتوجه . وعلى الفور أصبحت سياسة العدو الفعلية – المعلنة أو المبيتة لا يهم – هى سياسة «الأمر الواقع» ، سياسة «الضم الزاحف» أو «الضم البطىء» كما وصفها بعض قادته . وكان من الواضح تماما للجميع أن العدو قد قرر البقاء إلى ما لا نهاية فى الأراضى المحتلة الجديدة ، وأن الأمر ليس الا دورة أخرى من دورات التوسع الاقليمى «العقدى» المرسوم ، لا رجعة فيها ولا عودة إلى حدود ما قبل يونيو .

والواقع أن العدو بدأ يشعر باطمئنان لا حدّ له ، وأن الأمر استتب له إلى الأبد . يقول الكاتب الصهيونى وولتر لاكير فى كتابه «المواجهة» : «لقد كان المراقبون الأجانب والاسرائيليون على حد سواء متفقين تماما على أنه لم يسبق لدولة فى التاريخ أن شعرت بهذا القدر من الأمان ، ولم تكن فرص الحرب في يوم من الأيام أقل مما كانت عليه ، وكانت اسرائيل تعتقد أنها القوة العسكرية الوحيدة فيما بين فرنسا والهند» .

وعلى هذا الأساس أخذ العدو فى صمت وسرعة يخلق «الحقائق الجديدة» على الأرض والطبيعة : تفريغ السكان بالطرد والابادة والتهجير الجبرى ، ابتلاع الأرض بوضع اليد والمصادرة ، التوطين والتهويد ، تغيير التركيب الجغرافى والديموغرافى وتهويد اسماء الأماكن ، محو القرى العربية وزرع المستعمرات الاسرائيلية (نحو ٥٠ مستعمرة) ، فرض «السلم الواقعى» كبديل عن «السلم القانونى» .. الخ . وهذه ، للذكرى ، بعض تصريحات العدو : دايان : «يجب علينا أن نثبت الأمر الواقع بالنسبة للأراضى التى احتللناها ، دون أن نجهر علانية بضمها الينا .. إن أفضل وسيلة لتحقيق ذلك هو أن نوطن اليهود بالسرعة القصوى فى المناطق المحاذية لنهر الأردن وفى مرتفعات الجولان وأن نقيم مراكز زراعية فى سيناء» ، «وفى جميع الحالات التى نقرر فيها انشاء قرى اسرائيلية ، فإن علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن هذه المناطق ستظل تحت سيطرتنا ، كما ينبغى أن تنضم إلى الحدود الجديد للبلاد بعد إبرام معاهدة الصلح» . مايير : «على اسرائيل أن تحتفظ بجميع الأراضى التى احتلتها فى حرب يونيو ، عدا تلك المناطق التى تضم كثافة سكانية عربية» . دايان : «الضفة الشرقية للقناة وشبه جزيرة سيناء هى حدود اسرائيل الآمنة مع مصر» . آلون : «اسرائيل

ليست بحاجة إلى طلب الاذن من أحد قبل أن تقدم على اقامة مستوطنات لها فى الأراضى المحتلة» ... الخ .

هذا فى الأراضى المحتلة . أما على مستوى العالم العربى فقد كانت فترة ما بين الحربين بحق فترة العربدة و «البلطجة» الاسرائيلية المثالية بلا رادع وبلا حدود ، أو كما كانوا يسمونه «دور رجل البوليس» فى المنطقة . فقد وصل الغرور والصلف ، وكذلك الارهاب . الاسرائيلى إلى الذروة . غاراته الجوية وقرصنته المدنية وحملاته «التأديبية» وعملياته التخريبية لم تنقطع على الدول والأهداف العربية المحيطة . أضف تهديداته العلنية من حين إلى حين بغزو واحتلال العواصم العربية وبضرب مناطق البترول ، ثم حديثه المستمر عن «ذراع اسرائيل الطويلة» «ويدها القوية العليا» وقدراتها العقابية التى لا حد لها ... الخ ، تلك وحدها تملأ مجلدات . بالمثل تصريحات قادة العدو وساسته عن خططهم ومشاريعهم فى اقتطاع الأرض العربية ورسم خريطتها النهائية .

حسبنا هنا فقط أن نقول أن العدو ، الذى أحرز سمعة سياسية لا شك فيها فى العالم ، والذى رفعه النصر من مرتبة التابع الذيلى للولايات المتحدة إلى مرتبة الشريك الأصغر ، هذا العدو وصل به غرور القوة وصلف التسلط إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسى والتأله

الدولى ، أحيانا بصورة تدعو إلى السخرية . فمن ناحية بدأ العدو يمارس ترف الوصاية التى لم تطلب منه على العالم الخارجى ودور الناصح المتبرع له . أو كما قالت مجلة «نيو ستيتسمان» ، كنا نرى الاسرائيليين دائما مغرورين يعطون دروسا للجميع ، يقولون للانجليزى ماذا يتعين عليه أن يفعل لحل المشكلة الأيرلندية ، وللامريكى ماذا يفعل لحل مشكلة الزنوج .. الخ .

ومن ناحية أخرى ، أخذ العدو يتصرف باعتبار اسرائيل «الدولة الأولى primate state » ، الحاكمة والمتحكمة المعترف بها عالميا واقليميا فى الشرق الأوسط ، هى التى تقرر مصيره وتفرض عليه وصايتها ، وتل أبيب هى عاصمته السياسية العليا أو عاصمة العواصم super-capital التى تتعامل باسمه مع العالم . ومن ناحية أخرى فإن العدو لم يلبث أن ذهب إلى حد اعتبار نفسه على المستوى الاقليمى «قوة عظمى super-power ، أى القوة الأعظم فى الشرق الأوسط بل وفى البحر المتوسط . ومن الغريب أن العدو لم يتورع ايضا عن أن يعلن أنه أقوى من أى دولة فى أوربا باستثناء فرنسا ، التى عاد فأغفلها من الاستثناء ! الأغرب أن أحدا فى أوربا لم يعلق بكلمة على هذه الوقاحات الزرية . ويكفى هنا أن نقتبس الجنرال شارون . قال أولا «اسرائيل قوة عظمى عسكريا ، قادرة على غزو المنطقة من الجزائر حتى بغداد فى

مدى اسبوع واحد» : ثم عاد فى مناسبة أخرى فردد ما قاله ديان «يمكن لاسرائيل أن تهزم جيوش الدول الاوربية مجتمعة» ! وأخيرا قال أن اسرائيل تعتبر أقوى دولة فى العالم ما بين أمريكا وروسيا ! ثم جاء رابين فأضاف بدوره أن لدى اسرائيل مخططا لكل الاحتمالات ، «حتى لاحتلال القطب الشمالى» !

الاغرب من الكل أن جنون العظمة وغرور القوة بلغا باسرائيل حد تهديد القوتين الأعظم ، نعم الأعظم . فلعل منا من يذكر تصريح دايان بعد ٥ يونيو مباشرة بأنه على استعداد لمحاربة «الروس» (كذا !) ، وكلنا لا شك نذكر ما نزال تصريحه أيضا بعد اكتوبر باستعداده «لمقاومة» الولايات المتحدة إذا ما أرادت أن تفرض ارادتها على اسرائيل . وفيما بين التصريحين أضاف عزرا وايزمان «أننا نستطيع أن ننتصر فى مواجهة القوات السوفيتية نفسها» ! وهو تصريح ، على أية حال ، أشد تواضعا من تصريح وزير البوليس شلومو هيليل بعده عن استعداد اسرائيل «لمحاربة العالم كله إذا اقتضى الأمر» ! .. ولكن أليس سلاح الطيران الاسرائيلى هو «أكفأ سلاح طيران فى العالم» (كذا) ، أو ليس جيش الدفاع الاسرائيلى هو «الجيش الذى لا يقهر» ، ثم أليست اسرائيل هى داوود الصغير الأسطورة والعالم هو جوليات الجديد ، الشعب المختار والجوييم على الترتيب ؟

ليس مبالغة إذن تشخيصنا لاسرائيل بجنون العظمة . ولا تجنيا كذلك . فلسنا وحدنا الذين نقول بذلك . إنه لا أقل من رجل الدولة الأمريكى - اليهودى - كيسنجر الذى يقولها بل ويمارسها . فلقد أعلن أخيرا مؤرخ اسرائيلى - يقال له ياكوف تالمون - أن كيسنجر يعتبر اسرائيل دولة مصابة بمرض جنون العظمة ويعاملها كما يعامل طبيب نفسانى مرضاه من المجانين ، وخاصة عندما يعالجهم بالصدمات الكهربائية .. وقد أضاف تالمون هذا أن الدول المجاورة لاسرائيل تلفظها وترفض الاعتراف بشرعية وجودها ، وهى مضطرة لذلك إلى القيام بتصرفات ترفضها المنطقة المحيطة بها . وقديما اتهم الرايخ الثالث كدولة بجنون العظمة سياسيا ، بينما اتهم به هتلر عقليا ..

غير أننا نخطىء كثيرا إذا رددنا كل هذا الغرور إلى مجرد النرجسية الحادة أو جنون العظمة . العدو أخبث ، ونحن أذكى ، من ذلك . فالحقيقة أن تلك كانت قطعة مزدوجة من الحرب النفسية المخططة بإحكام وعناية . فمن ناحية كان العدو بتهديداته الراعدة تلك واستعراض عضلاته الرادعة على هذا النحو الفج إنما يحاول أن يزرع فينا ويخلق «مركب نقص وطنى» ، نشعر معه بالضعف والعجز ازاءه ، فنسقط له بسهولة . ومن الناحية الأخرى فقد كان «مركب العظمة» الذى

يعاني منه العدو انما هو فى واقع الأمر ، وكما هو واقع كل مركب عظمة، «مركب نقص مقلوب inverted inferiority complex » . فلقد كان العدو يدرك فى قرارة نفسه أنه هو ، وليس الجندى العربى ، المتهم فى نوعيتـه كمحارب والمطعون والمشكوك فى حقيقة قدراته القتالية . وبهذه الدعاية المزدوجة كان يحقن نفسه أيضا بأقصى جرعات ممكنة من التحصين النفسى ضد هذا الشعور الداخلى . ولدينا فى هذا شهادة قاطعة لبن جوريون نفسه : «لقد كان علينا بعد اقامة اسرائيل» ، قال هو فى الخمسينات الباكرة ، «أن نبرز حقيقة تاريخية ونقضى على خرافة ، هى أن اليهودى جندى ردىء ، غير قادر على حمل السلاح» .

كذلك لابد أن نضيف من آسف أن نتائج جولات الصراع المسلح منذ بدأ وحتى يونيو كانت كلها تشجع العدو على المضى إلى آخر المدى فى خداع نفسه وخداعنا . فإذا نحن نظرنا إلى الخط البيانى للصراع المسلح بيننا وبين العدو منذ ١٩٤٨ لوجدناه دائما فى اتجاه واحد صاعد باطراد لمصلحة العدو . فاسرائيل ، كسيدتها أمريكا، لم تهزم قط عسكريا . وهى لم تضرب قط على أرضها منذ ١٩٤٨ ، مثلما لم تطأ أمريكا قدم غاز منذ ١٨١٢ . وهى دائما كأمريكا على جانب الهجوم سياسيا وعسكريا ، بينما نحن على الدفاع أبدا . وهى كأمريكا لم

تخسر سلاحا أو رجلا أو بيتا على أرضها طوال حروبها ، كما لم تزد كل خسائرها في الأرواح منذ ١٩٤٨ وحتى يونيو ١٩٦٧ عن ٦٠٠٠ فقط .

أكثر من هذا ، كان حجم نصر العدو فى تصاعد مطرد من جولة إلى أخرى . ففى ١٩٤٨ هزمتنا اسرائيل بصعوبة أكثر مما وجدت من صعوبة في هزيمتنا سنة ١٩٥٦ ، ١٩٥٦ بصعوبة أكثر مما وجدت فى ١٩٦٧ . وفى كل جولة لاحقة كانت اسرائيل تجد أن عدد الدول العربية المحاربة أكبر ، وعدد أيام القتال أقل ، وحجم نصرها أكبر . ولم يكن فى ذلك كله ما يقنع العدو بالتعقل أو بمراجعة النفس أو كبح جماح غروره المستشرى . ولهذا كان منطقيا مع نفسه ، هكذا اعتقد من وجهة نظره ، حين قدر للحرب القادمة ساعات لا أكثر !

معنى ٦ أكتوبر

فى الثامنة والدقيقة الخامسة من مساء السادس من اكتوبر ، كان هذا الصرح الشاهق من البارانويا السياسية قد انهار وتقوضت أسسه وجذوره . انهارت الأسطورة وبناتها مرة واحدة والى الأبد فى ساعات ست تاريخية غيرت وجه التاريخ بل والجغرافيا ، نسخت الماضى بكل سواليه وسوءاته ، ونسجت المستقبل بكل آماله المشرقة . لهذا كان لابد أن يعد ٦ أكتوبر نقطة التحول العظمى فى

تـاريخ الصـراع العربى - الاسرائيلي جميعا ، ما كان منه وما سيكون .

لماذا أيضا ؟ باختصار شديد وبتحديد قاطع ، لأن «مبرر وجود» اسرائيل يتعرض لأول مرة منذ قيامها غير الشرعى «لاختبار أحماض» حاسم وباتر ويوضع لأول مرة موضع الشك والتساؤل والتهديد . نعم، مبرر الوجود raison d'etre . فاسرائيل لم تقم ولم تستمر ولن تبقى إلا على أساس واحد ووحيد ، منه استمدت وجودها وبغيره تفقده . هذا الأساس هو القوة ، القوة المسلحة ، القوة العسكرية بالتحديد . وفيما عدا منطق القوة وعامل القهر العسكرى ، فإن اسرائيل لا تعدو أن تكون خرافة جيوبوليتيكية ، مجرد حزمة مفككة واهية وملفقة من الأكاذيب الدينية المتهافتة والأوهام العنصرية البارانوية والانحرافات التاريخية المريضة . إن القوة ، بالنسبة للوجود الاسرائيلى ، هى شرط البقاء ، بل هى البقاء ذاته ، وبغير القوة تفقد اسرائيل مبرر وجودها الحقيقي ومعه صميم وجودها نفسه . وتلك حقيقة يعلمها علم اليقين كل قادة اسـرائيل ، بل كل قطيعها البشرى ، صقورا وحمائم ، ذئابا وأبناء آوى ، مجرمى حروب أو تجار حروب .. الخ .

الآن ، ولأول مرة منذ قيام دولة اليهود المزيفة ، فإن عامل القوة هذا يجابه برد فعل مقتدر ومتحد من القوة المضادة لها فى الاتجاه والمماثلة

لها فى الطاقة . الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ تذوق اسرائيل طعم الهزيمة العسكرية الحقيقية ، وتتحطم اسطورة التفوق العسكرى المطلق التى اختلقتها اختلاقا بالحرب النفسية الرهيبة والدعاية المرسومة الكاسحة والتى ساعدنا من آسف على تجسيمها وتضخيمها بقصورنا نحن وتقصيرنا وأخطائنا آمدا طويلا .

الآن ولأول مرة منذ ١٩٤٨ يتحقق توازن قوى جديد ، عسكريا وسياسيا ونفسيا وتكنولوجيا . فالهزيمة العسكرية الأولى سوف تكون حدثا تاريخيا أعظم ، سيفرض تداعيات بالغة الخطر والنتائج . ونحن الآن ولأول مرة إزاء صراع انقلبت أوضاع أطرافه رأسا على عقب ، وازاء معادلة قوة تعدلت أوزان حديها جذريا . منذ الآن سنحارب اسرائيل جديدة ، اسرائيل ردت إلى حجمها الطبيعى وقامتها القميئة بعد أن جردت من عقدة النصر المركبة ومركب التفوق العسكرى ووهم التأله الحربى المغرور أو المرسوم . باختصار ، سنحارب اسرائيل انكسر «عمودها الفقرى النفسى» ، فلم تعد ذلك العدو «الذى لا يقهر» ، وانما القابل للهزيمة بل والذى بالفعل هزم . منذ الآن ستكف اسرائيل ، «طفل أمريكا المدلل enfant gaté » ، عن أن تكون «طفل العرب المرعب enfant terrible » أو عصا الاستعمار الغليظة فى المنطقة .

وحتى إذا عادت الأوضاع الاقليمية إلى ما كانت عليه يوم ٤ يونيو

١٩٦٧ ، فستكون اسرائيل غير ما كانت : قبله كانت دولة لم تهزم قط ؛ وبعده ستكون دولة مهزومة . وذلك - في ظروفها - كيان منهار ستنخر في عظامه ونخاعه جرثومة الهزيمة ، ولن يفلت من ضغوط التآكل والتمزق الداخلي التي ستعريه وتكشف زيفه الكامن وجوهره المصطنع أكثر من أي شيء آخر وأكثر من أي وقت مضى . لقد أثبتت حرب اكتوبر أن اسرائيل هي الدولة - المشكلة في الشرق الأوسط . وليس الشرق الأوسط هو المنطقة - المشكلة في العالم ، أو على الأقل فإنه ليس كذلك إلا بها وبوجودها . اسرائيل ، لا العرب ، هي الآن مشكلة العالم ، كما كانت بالأمس جذر المشكلة ، وتصفية الأخيرة إنما تكمن في معالجة الأولى على نفس الأساس . لقد تحول ، ولا نقول نهائيا تحدد ، مصير اسرائيل .

فإذا بدا هذا كله ادعاء عريضا أو نبرة عالية بالغة الحدة مسرفة في الحماس والتفاؤل ، فيكفي أن نورد شهادة فرانسوا ميتران ، الزعيم الاشتراكي الفرنسي والصديق القديم لاسرائيل . «أن حرب اكتوبر» - قال ميتران أخيرا - «مرحلة هامة ، إذ أوضحت لاسرائيل أنه لا ينبغي لها أن تعتقد أن بإمكانها تحقيق كل شئ . إذ أوضحت لإسرائيل شجاعة الجندية المصرية لاسرائيل أن هناك حقائق وقوى لا يمكن أن تتجاهلها» . ثم يضيف «لقد وضعت اكتوبر حدا للنزعة الحربية في

اسرائيل منذ ١٩٦٧. وهي العلامة التاريخية لانهاء هذه الطريقة من التصرف . والتوازن الجديد في المنطقة لا يمكن أن يتم على أساس استمرار واستقرار وضع الغزو والاحتلال» . بالمثل يقول الجنرال بوفر أن «الجيش الاسرائيلي لم يعد يتمتع بالتفوق الساحق الذي كان يتمتع به سابقا . وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، واعتقد أنهم قد فهموها تماما» . ثم يضيف «وإذا لم ترضخ اسرائيل للحل الوسط فإن عليها أن تواجه حروبا أخرى» .

فإن عدّ هذا غير كاف ، فإننا نقول أن الأحداث الكبرى تتطلب فكرا كبيرا وحسا تاريخيا ملهما ، بمثل ما أن التحديات الكبيرة هي التي تصنع الأمم الكبيرة ، وفضلا عن هذا فإن تجربة التاريخ تعلمنا أن كل حرب منتصرة أو منهزمة ترسم وحدها مستقبل أي أمة لعشرات وربما مئات من السنين . إن الحرب هي أعظم محدد للتاريخ ، بمثل ما أن النصر هو أروع ملحمة في تاريخ الشعوب . ولا يصدق هذا على صراع في التاريخ مثلما يصدق على الصراع العربي الاسرائيلي نظرا لطبيعته الخاصة جدا والرهان الفادح الذي ينتظمه . نعم ، أعطني نصرا عسكريا واحدا ، لا أقول ساحقا بالضرورة أو صاعقا ، يكفي فقط أن يكون محققا ، ليكون نقطة انكسار بل وانعكاس لكل أوضاع المنطقة ، اعطني فقط نصرا عسكريا واحدا ، أغير لك مصير الصراع ، مصير مصر ، والعرب .

وإذا كـان لنا من تحـفظ اسـتـدراكى بعـد هذا كله ، ورغم خـطر التكرار ، فإننا نعـود فنقـول أن مـعنى ٦ أكتوبر كمـا يتـحـدد من هذا المنظور معلق بشرط ضمنى ولكنه جوهرى جدا وهو أن ينتهى كما بدأ بالنصر القـاطع المحـدد . ولقـد حـقـقنا حـتى الآن انجـازات عسكرية وسياسية رائعة ونصرا محققا ومعقولا ، ولكن مازالت أمامنا مـعارك أقسى وأشق وأطول بالتأكيد . إن كل شيء الآن معلق بأن نتم ما بدأناه ونستكمل نصرنا إلى مداه .

ونستطيع الآن ، بمزيد من التـحديد والتحليل ، أن نحـصر النتائج الموضـوعية الايجـابية والممكنة لأكتوبر سـواء بالنسبة للعدو أو بالنسبة للعلاقات المتغيرة بينه وبين العرب . وبصـيغة جامـعة مانعة ، يمكن أن نقول أن اسرائيل والعرب ، أو أن يونيو وأكتوبر ، قد تبادلوا المواقع ، بكل ما تعنى هذه من أوضـاع وتوازنات وتداعيات ، عسكريا وسياسيا ونفسيا ومصيريا ، آنيا ومستقبليا ، ابتداء من السلاح المحطم والأرض المفقودة والجنود الفارة وطوابير الأسـرى إلى المعنويات المنهارة وسخرية «الأحذية» العسكرية المتروكة (!) إلى البلاغات الحربيّة والدعائية الكاذبة وفجوة الثقة والتصـديق العالمية وحتى الأغانى الشعبية ... إلخ .

ففى كل هذه الجـوانب وغيـرها يمكننا بسـهولة تامـة أن نقـول عن اسرائيل أكتوبر ما قيل عن عرب يونيو ، بحذافيره وطبق الأصل احيانا .

أنها كما قد نقول صورة مرآوية معكوسة enantiomorph ، أو كما وضعها أحد الكتاب الصحفيين في الغرب بصورة شيقة كما هى دقيقة أن حرب اكتوبر هى «حرب المرآة» . «فهناك بالفعل ما يغرى بهذه التسمية ، ذلك أنك إذا أمسكت بمرآة لحرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ ، فإن الصورة المعكوسة ستكون من نواح عديدة هى الصورة نفسها التى يراها المرء بعينيه فى مسرح الحرب القائمة» ، حرب اكتوبر . باختصار ، لقد انعكست الأدوار فى الحربين وتبادل جدا معادلة القوة طرفيها المتناقضين كل مكان الآخر . وفى إطار هذه الصيغة العامة الشاملة ، هناك موضوعان اساسيان للدراسة : انقلاب التوازن الاستراتيجى ، انهيار نظرية الأمن الاسرائيلى .

انقلاب التوازن الاستراتيجى

هذا أبرز نتائج المعركة وأكثرها مباشرة . فلقد قلبت المعركة ميزان القوة الاستراتيجي لصالح العرب لأول مرة وضد اسرائيل إلى الأبد . ولأول مرة تصبح اسرائيل مفعولا به والعرب فاعلا ، بعد أن ظل العكس هو القاعدة التى لا استثناء لها أبدا . فالحرب قد أثبتت بما لا يدع مجالا للشك ، كما قال زعيم الشعب الفلسطيني المناضل ياسر عرفات ، إن «التوسع الاسرائيلى ليس قرارا اسرائيليا ، وانما الوجود الاسرائيلى نفسه رهن الارادة العربية» .

لقد تغيرت خريطة المنطقة ، بل وصورة العالم ، ودفن الماضى تماما يوم ٦ اكتوبر ، ولن يعود الماضى قط ، ولن تعود منطقة الشرق الأوسط إلى ما كانت عليه أبدا . ومهما حدث أو يحدث فلن تعود الأوضاع والتوازنات القديمة فى المنطقة . أو كما قالت التايمز «ان خسائر اسرائيل الأساسية هى فى سمعتها كدولة لا تقهر ، والكسب الأساسى للعرب هو الثقة بالنفس وثقة الآخرين بهم عسكريا . ولن يغير أى عمل اسرائيلى من أحد الأمرين» . أو كذلك كما قالت الديلى تلجراف مهما كانت النتيجة النهائية لمعارك الشرق الأوسط ، فإن الأمور لن تصبح كما هى مرة أخرى . وهذا يسرى على الجانبين . ثمة تغير نفسي لابد من وقوعه » .

لقد انتهت الأسطورة الباهرة المتفوقة ، تحولت إلى مجرد خرافة ضخمة ، وعادت دولة عادية جدا ، ارتدت إلى حجمها الطبيعى المجرد بغير تورم أو انتفاخ مصطنع ، وكفت نهائيا عن أن تكون مركز الثقل فى المنطقة أو مقررة مصيرها . أو كما اعترف الجنرال أوزى بن أرى «لقد كان شعورا مصيريا فظيعا . كان شعورا بأننا نتضاءل ، وبأنهم ، المصريين ، يتضخمون» . بل لقد نقل الصحفى تيرنس سميث عن بعض كبار المسئولين الاسرائيليين قولهم إن اسرائيل لا تشعر بأنها حرة التصرف كما كانت ، وانهم عرفوا حدود المساحة التى تستطيع اسرائيل

أن تناور فيها ، وذلك في عالم تحكمه ديبلوماسية القوى الكبرى .

«ونحن واعون تماما – هكذا اضافوا – بأن اسرائيل لم تعد سيدة مصيرها كما كانت – أو على الأقل كما كان يبدو – بعد حرب ١٩٦٧» .

ولقد كان الكل دائما في اسرائيل على وعي تام بحقيقة ومدى وعمق اعتمادهم على الولايات المتحدة ، ولكنهم الآن – ربما لأول مرة – يعترفون بذلك علنا . والفضل في ذلك يرجع إلى اكتوبر . ففي قلب المعركة وقف دايان في الكنيست ليقول لمعارضي وقف اطلاق النار «كيف يمكن معارضة دولة ترسل اليكم الذخيرة في الصباح لاطلاقها بعد الظهر ؟» أما بعدها فقد قال : «الذين يطالبوننا بشن حرب جديدة من أجل الأسرى عليهم أن يعرفوا أن اسرائيل لا تستطيع أن تحارب مرة أخرى ما لم تكن مستندة إلى تأييد أمريكا السياسي والمادي» . كذلك صرح مسئولون اسرائيليون أثناء محادثات الفصل بين القوات على الجبهة المصرية بكلام صريح واضح : «لقد تأكد لنا أننا لا نستطيع إلا أن نجادل حول التفاصيل الصغيرة ، ولكننا مرغمون – في التحليل الأخير – على السير في الطريق الذي تريده الولايات المتحدة» . هذا بينما كتبت هاآرتس تقول «إن اهتمامنا بأمن بلادنا لا ينبغي أن يذهب بنا إلى حد قيام مواجهة بيننا وبين الولايات المتحدة تضاف إلى مواجهتنا مع الدول العربية .

ومن ناحية أخرى كتبت الفينانشيال تايمز تقول أن الاسرائيليين قد ادركوا مدى سيطرة الولايات المتحدة على اسرائيل ، لأنه لولا المساعدات العسكرية الأمريكية لاسرائيل أثناء الحرب لتعرضت اسرائيل لكارثة . ثم أضافت الصحيفة أن هذا الادراك يعد من أكثر العوامل اثارة للكآبة لدى الاسرائيليين . ونقلت عن صحفي اسرائيلى قوله «إن الساسة قد يخفون ذلك ، ولكن كل انسان في اسرائيل يعرف أننا خاضعون للولايات المتحدة» . وقد صرح يشاياهو ليبوفيتش ، عالم اسرائيلى ، بأنه «أصبح من المؤكد أمامنا جميعا أن اسرائيل ليست سوى وكالة لأمريكا فى الشرق الأوسط . إننا مثل الكلاب التي وضعت لحراسة المصالح الأمريكية في المنطقة . وأن وجودنا هنا يعتمد اساسا على مدى نجاحنا فى تنفيذ ما يطلب منا » . وترجمة هذا كله هو أن حرب اكتوبر قد عرت تبعية اسرائيل لأمريكا مثلها عرضتها لعوامل التعرية .

وحقيقة ما حدث ، وهو أسوأ ما يؤرق اسرائيل بل ويفزعها ، هو أزمة انكماش وضمور عضوى ووظيفى وعملية تقلص تاريخي . فالذى حدث في اكتوبر هو وضع حد نهائي ونهاية غير محدودة «للدور الخاص» الذى حاولت اسرائيل أن تقوم به في المنطقة ، ومعه ذلك «الوضع الخاص» الذى حاولت فرضه عليه وانتزاع الاعتراف به منها .

ولقد كان هذا الدور «التاريخي» المأمول دورا غير طبيعي بلا ريب ، بل وشاذا على التحقيق فقد كان فضفاضا وأكبر جدا من أن يتناسب مع حجم اسرائيل أو طاقتها الحقيقية . غير أن هدفه ودافعه كان المجد وبريقه وحب العظمة والفخار وهالة الشهرة السياسية . ولقد كانت اسرائيل تبدو في هذا الدور كقزم يتبختر في ثوب فضفاض ، ولكنه في أكتوبر تعثر في هذا الثوب وسقط ، ولم يعد ينتظره الآن إلا مستقبل شاحب باهت في الظل وعلى الهامش ، ووضع عادي كنكرة خامل الذكر بلا ضجيج ولا بريق . وما التشنجات الداخلية في اسرائيل الآن ، والتي تكاد تصل إلى حد الصرع ، إلا آلام هذا التقلص القابض والمقبض وهذا الانكماش الحاد العنيف . لقد تمت - أو كادت - دورة كاملة من قيام وسقوط أو صعود وأفول القوة الاسرائيلية ، وعبرت دولة اسرائيل خط الزوال ، ولعلها مهما طال الأمد في الطريق إلى مرحلة الشفق ولا نقول الغسق .

أما حلم الامبراطورية الصهيونية من النيل إلى الفرات فقد انتهى إلى الأبد ككل حلم «فاوستي» مجنون ، إذ أن اسرائيل قد انتقلت بصورة قاطعة من مرحلة التوسع إلى مرحلة التوقف ثم الانكماش ، منذ السادس من أكتوبر ، لنا أن نقول ، انتهى «سفر التكوين» وبدأ «سفر الخروج» ، وتحولت سيناء إلى «تيه جديد» لاسرائيل . أو كما قال فيكتور

سيجلمان ، فى مقال يقرأ من عنوانه «نهاية دولة اسرائيل الكبرى» ، أن الفكرة الثابتة والعقيدة الراسخة التى سيطرت على اذهان الاسرائيليين تماما وعاشوا فيها وعاشت فيهم حتى شهور مضت قد «اختفت تماما دون أن تخلف آية آثار .. ومن الواضح الآن أن المواطن الاسرائيلى قد تخلص من عقدة «القوة العظمى» فى وجه الدول العربية ، وهى العقدة التى تقمصت شخصيته فى أعقاب حرب يونيو ، ثم جاءت حرب اكتوبر لتبددها نهائيا . وعاد المواطن الاسرائيلى إلى طبيعته ، الصغير ، الوحيد ، الخائف» .

وإذا كان من المسلم به إن اسرائيل ستظل باقية إلى أمد لا يمكن التنبؤ به ، فإنه لن تصبح بعد الآن ذلك السرطان الأخطبوطى المدمر الذى كانته ، بل ستتقلص إلى مجرد بؤرة صديدية مزمنة ، أو قرحة حادة على الأكثر . وعموما يمكن القول بأن المعركة ، التى هى نقطة التحول فى الصراع كله بلا جدال ، هى نقطة انعكاس لا مجرد انكسار فى منحناه العام . وإذا كان عمر الضلع الصاعد من المنحنى هو ٢٥ سنة تقريبا ، فقد لا يزيد عمر الضلع الساقط عن هذا المدى نفسه ، وإن كان الجزم صعبا ، أو كما تقول الفيجارو «مصر وخلفها ٧٠٠٠ سنة من الحضارة تشتبك فى حرب طويلة الأمد مع اسرائيل التى تكافح اليوم لكى تعيش غدا ، ثم لا تفكر قط فيما قد تئول اليه بعد ٢٥ سنة مثلا» .

وإذا كان البعض منا لا يرى أن المعركة تثير مسألة بقاء اسرائيل ويتساءل عما إذا كان مثل هذا السؤال صحيحا أو مبررا علميا وموضوعيا على ضوء أبعاد المعركة ونتائجها ، فمما لا شك فيه أن السؤال غير وارد على المدى القريب أو المتوسط ، ولكن الأمر ربما اختلف على المدى البعيد ، كما أن العدو نفسه يثيره . أو كما قالت الصنداى تايمز «أن هذه الحرب (تعني حرب اكتوبر) قد جعلت بقاء اسرائيل حتى نهاية القرن موضع تساؤل» . وعلى الأقل فليس هناك شك أن الحرب قد اثبتت أن اسرائيل تفتقر إلى مقومات البقاء الذاتى أو الاستمرار الذاتى . والواقع أن حرب اكتوبر كان لها من الآثار أعمق مما توقع لها الجميع . والخطر على الكيان الاسرائيلى نفسه مثار ، ليس لأن العرب يتحدثون عن تدميرها ، ولكنهم هم أنفسهم الذين يتساءلون ويتوجسون . الصحفى الصهيونى جوزيف كرافت ، مثلا ، تحدث عن «الزلزال الذى زعزع إسباب بقائها كله» . كذلك جاء أخيرا في تقرير لروبرت سليتر مراسل اليونايتيد بريس من اسرائيل أن المفكرين الاسرائيليين أصبحوا الآن يفكرون في مستقبل اسرائيل : بشعور من القلق لم يكن يخطر لهم ببال من قبل ، بل أن الزعماء الاسرائيليين مرغمون الآن على أن يلقوا نظرة جديدة على استراتيجية بقاء اسرائيل ، كما يعكف صانعو السياسة الآن على تحديد موقفها

على خريطتها الجديدة ، وهو ليس بالأمر الهين . وفى ذلك قال هازكابى أن الخطأ الأساسى التى وقعت فيه اسرائيل قبل اكتوبر هو أنها لم تدرك مأزقها في العيش فى بيئة معادية ، وأنها كانت تقلل دائما من أهمية مشكلاتها مع العرب .

فإن هذا حدث ، والاتجاهات الجديدة استمرت ، فقد لا يأتى على اسرائيل سنة يقال لها سنة ٢٠٠٠ ، أو يفتتح القرن الحادى والعشرون ولا مكان على خريطة الشرق الأوسط لشىء يقال له اسرائيل . وأيا ما كان ، فلقد فقدت اسرائيل ماضيها بقدر ما فقدت الأمل فى المستقبل ، عادت دلة بلا مستقبل مثلما بدأت دولة بلا تاريخ . وبالمقابل ، فإن مستقبل الصراع عربى بقدر ما كان ماضيه اسرائيليا .

انقلاب التوازن العسكرى

ذلك في بروفيله العام هو انقلاب التوازن الاستراتيجى ، نستطيع الآن أن نحلله إلى عوامل أولية خمسة : انقلاب التوازن العسكرى ، انقلاب الاستراتيجية الاقليمية ، الانقلاب السياسى ، الانقلاب النفسى ، الانقلاب الاقتصادى . فأما انقلاب التوازن العسكرى ، أولا ، فإن الحرب الرابعة – أو الرائعة إن شئت – قد جاءت لتنهى أسطورة العسكرية الصهيونية والقوة الاسرائيلية «التى لا تقهر» . فبعيدا جدا عن

أن تأتي الحرب الثالثة «آخر الحروب» في الصراع ، كما تاهت وتباهت اسرائيل طويلا ، جاءت آخر نصر عسكرى تختطفه ، بينما خرجت من الحرب الرابعة وهى مهزومة فعلا بصورة أو بأخرى . بل خرجت منها وقد اتضح للاسرائيليين ، كما يقول اريك رولو ، «أن العرب كادوا أن يدمروا اسرائيل كلها لولا طائرات النقل الأمريكية التي نقلت اليهم الذخيرة والطائرات والأسلحة الحديثة . فلولا هذه المساعدات العاجلة لما أمكن لاسرائيل أن تواصل الحرب» . بل لولاها ، كما يضيف تقرير معهد الدراسات الاستراتيجية في السويد ، لكان الطريق إلى تل أبيب نفسها ورأسا مفتوحا أمام القوات المصرية تماما مثلما كان الطريق إلى القاهرة مفتوحا أمام القوات الاسرائيلية في ١٩٦٧ . لقد أثبتت المعركة أن اسرائيل ليست «فوق الهزيمة» ، وانما قابلة للهزيمة ، بل ومهزومة فعلا . أو كما وضعها البعض في سخرية بليغة كما هى لاذعة «أخيرا ، أثبتت حرب اكتوبر أن «الله ليس يهوديا» ، على الأقل إله الحرب! » ... أو كما تساءل حتى لاكير «ترى هل حدث للجيش الاسرائيلى ما حدث للجيش البروسى في عهد فردريك الثانى ، حيث كان أفضل جيش في أوربا لمدة عشرين سنة ، ثم انهارت بروسيا بعد موت ملكها في يينا وأورشتات؟» ..

والواقع أن من أخطر ما أثبتته حرب اكتوبر حقيقة نكاد لفرط ما بها من مفاجأة وبداهة معا أن ننساها ، وهى أن اسرائيل أضعف مما كان الجميع يعتقدون ، بما فيهم وعلى رأسهم اسرائيل نفسها . وإذا كان الاعتراف سيد الأدلة ، فإن اعتراف دايان سرا اثناء الحرب هو - بحكم منصبه - سيد الاعترافات . «ان الحرب قد أظهرت للعالم - صرح هو للصحفيين - أننا لسنا أقوى من المصريين ، وأن هالة التفوق والمبدأ السياسى والعسكرى القائل بأن اسرائيل أقوى من العرب ، وأن الهزيمة ستلحق بهم إذا اجترأوا على بدء الحرب ، هذا المبدأ لم يثبت .. أننا سوف نضطر إلى أن نتعايش مع حقائق حياتنا ، مع شعبنا ، ومع العالم ، ومع العرب» .

هذا ولما كانت الحرب قد أثبتت أيضا بدء تحول التفوق العربى الكمى إلى كيفى ، فلا أمل أذن أمام اسرائيل فى «الحل العسكرى» قط بعد الآن . وإذا كانت القوة ، والقوة العسكرية بالتحديد ، هى أساس الوجود الاسرائيلى ، فالواضح المؤكد أن الطريق قد أصبحت مسدودة أمام العدو على المدى الطويل . لقد فقدت اسرائيل دورها الوحيد ، دور رجل البوليس المحلى ودور الرجل القوى («البلطجى») فى المنطقة ، أو دور كلب الحراسة . البلطجى شاخ وهرم ، والكلب فقد أسنانه . وعلى أحسن الفروض ، لقد تحولت اسرائيل عسكريا من نمر ، لا

نقـول من ورق ، إلى ذئب ، إن يكن ضـاريا فـإنه قـابل للتـرويض وإلا فالتدمير .

وفى خـتـام هذا الموضـوع ، قد يكون من المفـيـد أن نسـرد بعض اقتباسات من بعض المصادر العالمية ، بغض النظر عن مدى حيادها ، وكذلك دون تعليق منا ، فـمـا أغناها عنه . قـالت النيوزويك «أن كل يوم يمر يحطم الأسـاطير التى بنيت منذ انتصـار اسـرائيل السـاحق عـام ١٩٦٧ . ولقد كانت هناك اسطورة تقول أن العرب ليسـوا محـاربين وأن الاسرائيلي سوبرمان ، لكن العرب اكتشفوا أن الاسرائيلى رجل عادى» . وقالت الفيجارو «كل شىء حدث كان غير متوقع ، ولن تبقى الأمور بعد الآن كما كانت فى الماضى إن الاسرائيليين لم يعودوا سادة الموقف فى الشرق الأوسط . والعرب لـم يعودوا المهزومين التقليدين» . والمعنى نفسه تقريبا تؤكده لاستامبا الايطالية : «ظلت اسرائيل تبدو كالقوة المسيطرة فى الشرق الأوسط حتى حرب يوم الغفران ، فى أكتوبر التى أكدت أن هذا الوضـع قد انتهى» .

كذلك كتب الجنرال جـاللو يقول «لقد حقق العرب انتصارا سياسيا ومعنويا مـهما تكن النتيجة النهائية للحرب . فإذا مـا انتصرت اسرائيل عسكريا (وهو ما لم يحدث) فإن ذلك سيكون الحرب الأخيرة التى تنتهى بانتصـارهـا» (وهو مـا لم يعد فيه شك) . وبالمثل كتبت الديلى تلجراف

«لقد أصبح من المستحيل أن تلحق اسرائيل بالعرب هزيمة حاسمة . ولقد جاءت الحرب الأخيرة نذير شؤم لما سوف تجلبه مواصلة اتباع السياسة الاسرائيلية الحالية . كما أن الخصم العربى كفء وقوى على نحو متزايد . كل هذا بالإضافة إلى معاناة اسرائيل من جرح سوف يستنزف كل قواها» . ولعل خير ما نختتم به هذه الاقتباسات ما قاله الرئيس بومدين بتحليل صائب كما هو ثاقب : «لقد ثبت أن انتصار اسرائيل فى الحرب مستحيل ، ولن تكون الكلمة لها فى معركة قادمة لأن عوامل نصرها تتناقص يوما بعد يوم» .

انقلاب الاستراتيجية الاقليمية

هذا الانقلاب أصبح حقيقة واقعة بفضل المعركة وحدها أيضا . فمنذ حرب ١٩٥٦ حين نفذت اسرائيل من مضيق تيران إلى البحر الأحمر والبحار الجنوبية وتسللت إلى افريقيا ، ولكن بالأخص منذ حرب ١٩٦٧ حين انفتح امامها طريق الجنوب على مصراعيه بلا رادع ، والعدو يحاول أن ينسج استراتيجية اقليمية واسعة طموحا ، لا يتخطى بها نطاق الحصار العربى فقط ولكن ايضا يضرب بها حصارا مضادا قاريا وبحريا حول العالم العربى ذاته جميعا . فمن خلال وجوده المتوسع والمستشرى فى افريقيا المدارية ، كانت اسرائيل تسعى لفتح جبهة عريضة فى ظهر العرب وظهيرهم القارى قل على

غرار ما حاولت البرتغال بصورة ما فى عصر الكشوف الجغرافية فى مناورة التفاف تضع بها العرب المسلمين بين فكى كماشة من شمال وجنوب .

وفى فترة ما بين الحربين ، ٦٧ - ١٩٧٣ ، ركزت اسرائيل على القطاع الشمالى من الجبهة فى الشرق الأوسط والبحرين المتوسط والأحمر . وكانت خطتها العظمى أن تطوق العرب بمثلث تتوسطه هى وترتكز رءوسه على الأسطول السادس الامريكى فى البحر المتوسط من ناحية وبعض الدول الصديقة فى القرن الافريقى والخليج العربى من الناحية الأخرى . وداخل هذا المثلث ، كانت تحلم بتحويل البحر الأحمر إلى «بحيرة اسرائيلية» أو خاضعة للسيطرة الاسرائيلية بالاشتراك مع الولايات المتحدة . وعلى هذا الاساس رسمت استراتيجيتها البحرية فى الأحمر ، وسعت إلى السيطرة على مدخله الجنوبى . ومنذ أوائل السبعينات كثر الحديث عن قواعد لها مؤجرة أو محتلة ، بحرية وجوية ، فى بعض جزر ذلك المدخل .

هذه الاستراتيجية الاقليمية كلها تحطمت على صخرة المعركة فى يوم وليلة . فمن قبلها ، ولكن أساسا أثناءها ، بدا «شلال» جارف من قطع العلاقات الديبلوماسية بين الدول الافريقية مع اسرائيل ، بحيث تم «طردها» من القارة تقريبا . ومن الناحية الأخرى مدت البحرية المصرية

المتفوقة ظلها وسيطرتها على البحر الأحمر ، وفرضت بالتعاون مع اليمن الجنوبية الشقيقة حصارا بحريا محكما على مضيق باب المندب . وقد أفقد هذا شرم الشيخ قيمتها الاستراتيجية على الفور ، وأثبت أن ليس لها كل تلك الأهمية الكبرى التى كانت اسرائيل تدعيها وتبنى عليها أطماعها التوسعية فى سيناء . أو كما قال القائد العام للقوات المصرية «إن شرم الشيخ لم تعد مفتاح ايلات ، وانما «نزل» المفتاح إلى أقصى الجنوب» عند باب المندب . ولقد اعترف بعض الاستراتيجيين الاسرائيليين بالفعل بأن المعركة «أثبتت أن شرم الشيخ لم تعد تعتبر حيوية لأمن اسرائيل» . ويمكن أن نضيف كذلك أنها أفقدت اسرائيل حرية الحركة البحرية تماما نحو الجنوب وتركتها «حبيسة» حقيقية للبحر الأحمر .

هذا الحصار المحكم ما معناه ؟ المعنى الأول أنه عقم ميناء العدو ايلات ، «نافذة الجنوب» ، وعطل حركة تجارة المزور على الطريق البرى بين البحرين . كذلك فإنه أوقف حركة التصدير والاستيراد جنوبيا ، وأخطر منه أوقف امداد العدو بالبترول الايراني . وما فتئت اسرائيل تصرخ من هذا الحصار ، دون جدوى . ودون جدوى كذلك جاءت تحركات الأسطول الأمريكي فى المحيط الهندى وحوض بحر العرب ، البوابة الجنوبية للشرق الأوسط ، تلك التحركات — التحرشات التى

تحمل طابع التهديد الاستفزازى والتلويح بالتحدى للحصار المصرى لباب المندب .

والخلاصة الصافية هي أن مشاريع الحصار الاسرائيلى القارى والبحرى القديمة قد انقلبت رأسا على عقب لتقع هى فى حصار عربى مطبق برا وبحرا ، شمالا وجنوبا ، افريقيا وأسيويا . إنها صورة مرآوية معكوسة حتى التفاصيل ، ونمط جيوستراتيجى مقلوب ظهراً لبطن .

الانقلاب السياسى

أبرز ما انعكس اكتوبر داخل اسرائيل ، انعكس على الحياة السياسية . فمنذ اكتوبر تعيش اسرائيل فى أزمة سياسية خانقة ومزمنة ، تتعاظم كل يوم وتتفاقم ككرة الثلج . فالصراعات والتصدعات الداخلية ممثلة فى الصدامات الحزبية وتضارب جماعات المصالح والضغط وتحولات الرأى العام ثم أنهيار مكانة المؤسسة العسكرية أصبحت كلها نظام الحياة السياسية اليوم ، ووصلت فى وقت ما إلى حد احتمالات انقلاب على الطريقة الاسرائيلية ، أى انقلاب عسكرى صامت بلا رصاص ، انقلاب ائتلافى أو غير ائتلافى فى الحكم . ولئن كانت الانتخابات الأخيرة لم تحقق هذا الاحتمال ، فإن كل الدلائل الراهنة تشير إلى أنه لم يستبعد بعد تماما .

وفي ظل هذه الفوضى النيابية المربكة ردد البعض ، مثل عضو الكنيست شموئيل تامير ، أن أخطاء الحكومة القاتلة التى أدت إلى كارثة يوم الغفران مازالت قائمة ، بينما دعا البعض الآخر علنا . مثل رئيس تحرير ايديعوت آحرونوت، إلى «اقامة حكومة عسكرية وإلى الغاء جميع الحريات الديموقراطية» . بل لقد أشارت وكالات الأنباء الامريكية مرة إلى مؤامرة انقلاب يعدها دايان بتأييد امريكا للاطاحة بمايير (؟) .

ومن جهة آخرى وصلت أزمة الحكم وصراع السلطة إلى حد البحث في قيام أول حكومة أقلية في اسرائيل منذ نشأتها ، وذلك بعد أن هوت المعركة بالأغلبية البرلمانية لحزب العمل الحاكم إلى الحد الأدنى وبعد تفسخ الائتلاف الوزارى المتراخى تحت وقر المشاكل المصيرية التى أثارتها الهزيمة . وقد كانت تلك هى الأزمة الطاحنة التى شقت حزب العمل وهددت بتمزقه وباعتزال دايان، الذى طالب الكثيرون برأسه، ثم مايير التى صرحت (أو صرخت!) وقتئذ أن الحزب «ينتحر على طريقة الهاراكيرى» . ولم تسو الأزمة مرحليا بعودة الحكم الائتلافى إلا كحكومة انقاذ وتحت ضغط الموقف العسكرى المتفجر على جبهات القتال وبخاصة الجبهة السورية.

غير أن الأزمة لم تلبث أن عادت متجاوزة كل الحدود والأبعاد والأغماق المتوقعة وغير المتوقعة بل وغير المتصورة . وكان نشر تقرير لجنة تحقيق اجرانات هو زناد التفجير ، وان كانت هزيمة أكتوبر هي بالطبع القنبلة الموقوتة الكامنة أسفل هذا كله . فقد أدانت اللجنة رئيس المخابرات زئيرا ورئيس الأركان اليعازر وحملتهما مباشرة مسئولية النكسة ، فاستقالا ، ولكن بعد أن نقل اليعازر الاتهام إلى دايان ، الذى نقله بدوره ولكن بطريقة ملفوفة إلى مايير ، بينما عممت المعارضة الاتهام على الحكومة بأكملها باعتبارها مشتركة دستوريا في المسئولية الوزارية ، وأخيرا ألقىً شعب إسرائيل بدوره بالاتهام على الحكومة والمعارضة جميعا باعتبارهما معا طبقة الساسة والحكام المحترفين.

وهنا عاد الصراع يتركز داخل الحكومة ، واستقطب بالتحديد داخل العسكريين ، أى داخل المؤسسة العسكرية . بين القيادة العليا والدائرة المحيطة مباشرة ، أو بين دايان فى جانب والوزراء العسكريين الثلاثة بارليف ورابين وياريف فى الجانب الآخر، وكان صراع العسكريين هذا ، كما صرحت مايير ، هو الذى فجر الحكومة من الداخل . وهنا لم تملك مايير إلا أن تعلن أنها قد وصلت إلى نهاية الطريق وأنها لم تعد قادرة على الاستمرار فى حكم هذا البلد «الذى أصبح من الصعب جدا على

رئيس حكومة أن يتولى آموره» ، وقـدمت اسـتقالتها لتعتـزل إلى الأبد . غير أنها عادت فاضطرت إلى الاستمرار كحـكومة انتقالية مؤقتة ريثما ينجح خليفتها المرشـح رابين، الذى ظفر بالترشيح على منافسه بيريز، فى تشكيل حكومة جديدة ، الأمـر الذى ظل معلقا لفترة طويلة.

فبغض النظر عن الأطماع والمنافسات الشخصية لآخرين فى الرياسة، فان هناك الخلافات الحزبية الأساسية الحادة . كتلة ليكود المعارضة عرضت نفسها بالفعل على رئيس الدولة لتولى الحكم كبديل عن حزب العمل المنقسم والمعراخ المهدد . والحزب القومى الدينى يشترط اشراك ليكود فى الخكومة الجديدة لتكون ائتلاف وحدة وطنية شاملة . كذلك يفعل الأحرار المستقلون الذين يرفضون رياسة رابين ولو بالائتلاف القديم . هذا على حين لم تقبل مايير مطلقا برابين مرشحا لخلافتها .

وعدا هذا فلقد حذرت مايير مرارا، من بعد كما من قبل فى الانتخابات، من اشراك ليكود بأى صورة ، إذ أنها «واثقة تماما أنه إذا وقعت زعامة الدولة فى أيدى ليكود فان هذه ستكون كارثة حقيقية بالنسبة لإسرائيل»، لماذا ؟ - لأن «تشكيل حكومة وحدة وطنية تشترك فيها كتلة ليكود اليمينية المعارضة من شأنه أن يخلق أزمات جديدة بين

الولايات المتحـــدة وإسرائيل» . لماذا مرة أخرى ؟ - «لأن الولايات المتحدة ، المورد الأساسي للأسلحة لإسرائيل ، لن ترتاح إليه». وعلى النقيض تماما من هذا ، كان هناك رأى يقول «يجب ألا تتركوا مايير تقود الحزب ، لأنها لو بقيت أكثر من ذلك فسوف تسلم البلاد إلى كتلة ليكود» !

وهكذا ، سلسلة من المتناقضات والتضارب لا تنتهي . وإذا كان حزب العمل قد قرر نهائيا تشكيل حكومة أقلية ، لأول مرة فى تاريخ إسرائيل ، وبدون الحزب القومي الديني لأول مرة أيضا ، فان هذا الوضع الجديد لا يبدو مستقرا أو قابلا للاستمرار طويلا. ولازالت إسرائيل تبحث عن حكومة ، والحكومة عن رئيس . فإذا لم تنجح ، فقد ترغم على العودة إلى الانتخابات من جديد فى غضون شهور فقط من انتخاباتها العامة الأخيرة . ولازالت الأزمة المستمرة . . ان إسرائيل معلقة سياسيا فى الداخل ، تماما كما هى فى الخارج .

والسؤال الآن : ما معنى أزمة الحكم والسياسة المستعصية هذه، وما هو مغزاها الصراعى بالنسبة لنا ؟ من أطناب التزيد وحده بالتأكيد أن نقول أن هذه الأزمة هى النتيجة الحتمية والنهائية لمعركة أكتوبر ونكسة إسرائيل فيها . ولئن كانت إسرائيل قد انفقت شهورا ترفض

الاعتراف بالهزيمة أو تقاوم الاعتراف الكلى بهـا، فان هـذا الشرخ السياسى العميق انما هو الآثار المتخلفة belated effects للزلزال الاستراتيجى الذى صدع الكيان الإسرائيلى بعد عملية «البركنة» العسكرية العربيـة المدمرة . لقد تحولت الصدمة التى هزت إسرائيل إلى صدع ، والصدع إلى صراع ، ثم الصراع إلى صرع !

إن سقوط حكومة مايير هو سقوط وزارة الحرب وحكومة المعركة، وهو أول ظهور كامل وعلنى لنتائج أكتوبر . وهو كذلك دليل على مدى فداحة الشرخ الذى فلق البناء السياسى الإسرائيلى ، الصرح والأساس ، أى الكيان برمته . وهو ليس شرخا بسيطا أو خللا سطحيا ، بل هو انكسار متعدد الأعماق والمستويات والشقوق ، رأسى وأفقى ، بالعرض والطول ، سطحى وجذرى ، غائر وزاحف ، موضعى وجسدى .. إلخ . والحقيقة أنه لا يقل عن إنقلاب سياسى كامل، يأخذ شكل إنقلاب عسكرى بالتحديد ، وانما على الطريقة الإسرائيلية ، وربما بصيغة جديدة . ولهذا فالأزمة ليست أزمة فرد (دايان) ، ولا حكومة (مايير) ، ولا نظام (المؤسسة العسكرية) حتى كيان (إسرائيل)، وانما هى أزمة هذا كله .

فعلى المستوى الفردى ، لقد سقط دايان أخيرا نهائيا وإلى الأبد ، ليس منذ رشح رابين للخلافة دونه، ولكن منذ طالب ياكوف شابيرو لأول مرة باستقالته ، بل بالأحرى منذ وطئت قدم أول جندى مصرى أرض سيناء. ولقد تعرض دايان منذ ذلك الوقت لهجمات قاسية ولحملات تحقير لا تتصور، في حرب الجنرالات ، في معركة الحزب ، في كواليس مجلس الوزراء ، في أروقة الكنيسيت ، فى الشارع ، من رؤسائه ومرءوسيه ، من المعارضة ومن أتباعه وحوارييه ، من المجندين والمدنيين ، ومن الشباب والشيوخ. وأصبح حامى إسرائيل وملكها السابق يوسم ويوصم علنا «بوزير العار» «ورمزا لكل ما هو خطأ فى إسرائيل» ، موضع سخط الجميع والمشجب التى تعلق عليه كل الأخطاء .

وقد حاول دايان أن يقدم اليعازر كبش فداء لينجو برأسه أو بجلده ، ولكنه لم يلبث أن أصبح الضحية ، وإن جر معه مايير وحكومتها إلى المذبح . وإذا كان دايان قد ظل هكذا يقاوم الموت ويتشبث بحلاوة الروح حتى آخر رمق وإلى آخر لحظة ، فالحقيقة أنه انما كان يحتضر أثناء المعركة ، وبعدها مباشرة مات ميتة طبيعية ، وإن لم يدفن إلا بالأمس القريب فقط حين صدر تصريح الدفن باستقالة مايير . و كما ولد فى سيناء – هو من مواليد ١٩٥٦ ، ١٩٦٧ – دفن أيضا فى سيناء ، سيناء

أكتوبر . على أنه يستطيع الآن أن يستريح فى قبره ، بعد أن أطاح برأس الحكومة مثلما فقد رأسه ، محطما المعبد على رأسه وعلى رءوس اعدائه .

أما عن الحكومة ، الائتلافية ، فقد كانت حلبة للصراعات الفردية والحزبية الضارية من كل نوع وعلى كل مستوى . ولقد اعترف ايبان أن «هناك أزمة ثقة ، ليس فقط فى المعراخ وحده ، بل داخل كل الأحزاب». وهذا صحيح ، ولكنه دون الحقيقة . فحزب العمل يتفتت ويتآكل من الداخل بالصراع بين السياسيين والعسكريين ثم بين العسكريين والعسكريين ، وكان هذا الأخير هو الذى أسقط الحكومة مباشرة . وبسقوطها سقط «الحرس القديم» . ذلك الذى حكم الدولة منذ أقامها ، والذى تكون من شيوخ المهاجرين القدامى وأبناء الأجيال المخضرمة أمثال مايير وسابير وجاليلى (ومن قبل بن جوريون وشاريت وأشكول).

ولقد كان ذلك أيضا رمزا ونتيجة لصراع الأجيال المزمن والحاد فى إسرائيل . فلقد كان الشباب ينظر إلى القيادات الحاكمة على أنهم أولئك المهاجرون من الروسيا وبولندا منذ ٤٠ سنة ، الذين تحجرت عقولهم وعقائدهم على قوالب عتيقة عاجزة عن التطور ولم تعد قابلة للحياة ولا بقادرة على أن تتناغم مع متغيرات العصر ومن المشكوك فيه الآن أن

تتغير أو تتعلم . والانتقال الآن من زعامة مايير إلى زعامة رابين، إذا تحققت ، هو انتقال من قيادة جيل الرواد المهاجرين إلى جيل الصابرا من شباب مواليد فلسطين المحتلة.

وبينما يحدث هذا داخل الحزب الحاكم ، فانه يحاصر باطراد من الخارج ويكاد يختنق بمنافسة الأحزاب الأخرى التى تحمله مسئولية الكارثة التى حلت بإسرائيل ، وتتربص به وتنتظر سقوطه . ولكن تلك الأحزاب نفسها تعانى هى الأخرى من الداخل وتتقلب صفوفها وتختل ولاءاتها التقليدية. والكل يعمل – يبدو – بمبدأ «علىّ وعلى أعدائى» . لقد انكشف زيف اسطورة الديموقراطية الشكلية الإسرائيلية ، عرتها حرب أكتوبر وأزالت القشرة الهشة عن مجتمع الحكم العسكرى الكامن فى كيان الدولة.

لكن هذا كشف بدوره عن أزمة النظام . أزمة المؤسسة العسكرية الحاكمة . فهذه المؤسسة، التى تمثل قمة السلطة الحقيقية فى إسرائيل وحاكمة الحكومة ودولة فوق الدولة، قد تلقت ضربة قاصمة بالهزيمة العسكرية، وأصبحت مكانتها موضع تساؤل بل وشجب صريح من كل الأحزاب والسياسيين والطوائف والأجيال والمدنيين بل والمجندين . هوت إلى الحضيض سمعتها ، بينما هوت آلهتها وأصنامها إلى الأبد، ابتداء من دايان إلى شارون ، فلم يعد، ولن يكون بعد ، فى إسرائيل ملك ولا

بطل ولا منقذ ولا «موسى» جديد . ولكن المؤسسة العسكرية تحارب بشراسة من أجل الحفاظ على مصالحها ووجودها وسيطرتها . ومن أجل هذا دار الصراع داخلها ، وبسببه سقطت الحكومة الائتلافية.

ولكن الغريب أن الحكم سقط كالثمرة الناضجة فى أيدى المؤسسة . فلعل أبرز مغزى لانتقال الحكم - إذا الأمر تم - من مايير إلى رابين هو انتقال قمة القيادة من أيدى السياسيين المدنيين إلى أيدى الساسة العسكريين. فإذا نجح رابين فى تشكيل حكومة ، فسيكون أول رئيس وزارة عسكرى يحكم إسرائيل منذ انشائها . ولهذا فان الأزمة السياسية الخطيرة التى تعيشها إسرائيل الآن أدنى أن تكون بالفعل انقلابا عسكريا على الطريقة الإسرائيلية وانما بصيغة جديدة مختلفة عمل حدث عشية حرب يونيو مثلا .

لقد تلقت المؤسسة العسكرية فى إسرائيل أول لطمة مهينة ومزلزلة فى تاريخها ، ولكنها للغرابة والدهشة برزت منها وهى على قمة السلطة . وان دل هذا على شىء فانما يدل يقينا على أن الكيان الإسرائيلى فى جوهره كيان عسكرى لا غنى له عن مؤسسته العسكرية منتصرة كانت أو منهزمة. غير أنه أيضا مؤشر بليغ إلى اتجاهات المزاج الإسرائيلى الكامنة واحتمالات حركته فى المستقبل ردا على الهزيمة.

كذلك فلعل «عودة» المؤسسة إلى الصدارة على هذا النحو المتناقض هو نوع من الاعتراف والتعويض الصامت بأن الخطأ لم يكن خطأها وحدها، بل خطأ جهاز الحكم ونـواة الدولة كلها، عسكريا وسياسيا وغير ذلك . ولكن الذى لا يبدو أن الإسرائيليين قد فطنوا إليه بعد واستوعبوه جيدا هو أن مثل هذا الاعتراف انما يعنى أن الخطأ الجوهرى كامن فى الكيان ذاته ، فى الوجود الصهيوني ومبدأ الدولة اليهودية على أرض فلسطين المغتصبة واستراتيجية إسرائيل نحو العالم العربي . غير أن هذا موضـوع آخر، وهو بالدقة ما سيقرر مصير الدولـة فى المدى البعيد ، فضلا عن احتمالات المستقبل فى المدى القريب.

ولكن هذا الانقلاب السياسي الضارب فى أطناب العدو ، ماذا يعنى فى النهاية من المنظور العربى ؟ كما قال المناضل ياسر عرفات في حديث له إلى مصطفى نبيل بالمصور أنه لا يعنى إلا «عمق الأزمة التى ولدتها حرب رمضان ، والتفسخ والضعف اللذين تمر بهما إسرائيل» . وهنا يجدر بنا أن نسجل ملاحظة هامة . لقد عشنا طويلا وسياسة القوة والردع «والحملات التأديبية» الإسرائيلية تتحكم أحيانا بل كثيرا فى السياسات العربية الداخلية البحتة ، تحدد حريتها فى الحركة والعمل داخل ذات حدودها، وتفرض عليها بطريق غير مباشر أن تفعل هذا ولا

تفعل ذاك، بل وفى النهاية تسقط الوزارات وتقيمها .. إلخ . حدث هذا مثلا فى محاولة تحويل مجرى نهر الأردن قبل يونيو حين أجهضت إسرائيل المشاريع العربية بتهديد القوة، وحدث بعد يونيو فى صورة اسقاط أو تشويه زعامات عربية كانت عتيدة ، وحدث في لبنان حيث تعدد سقوط الحكومات بصورة مؤسفة تحت ضربات إسرائيل وعربدتها العسكرية بحرية كاملة داخل الحدود .. إلخ.

لكننا الآن ولأول مرة نشهد المشهد معكوسا : المسرح السياسى فى إسرائيل أصبحت القوة العربية المنتصرة هى التى، على البعد ، تؤثر فيه وتحكم اللعبة السياسية وتلعب بالسياسات الحزبية إلى حد ما وتعكس ظلها على أزمات الحكومة فى إسرائيل بدرجة أو بأخرى. انقلاب هام كما هو دال ! ولعل آخر وأبرز مثال له هو أزمة الحكم الأخيرة فى إسرائيل وتشكيل الوزارة الجديدة بعد الانتخابات . فلقد كان تفاقمها أثرا مباشرا من آثار معركة أكتوبر ، كما كان الاسراع المهرول إلى احتوائها بأى ثمن نتيجة مباشرة لضغوط الجبهة السورية التى لم يتم الفصل بين القوات عليها بعد . وأخيرا كان سقوط وزارة مايير ، وتعثر تأليف وزارة بعدها على يد رابين ، لوقت طويل ، ثم ضعف هذه الوزارة البادى، تعبيرا عن عمق الطعنة التى وجهها العرب إلى قلب إسرائيل السياسى . لقد أسقط العرب الحكومة الإسرائيلية لأول مرة منذ ربع قرن.

الإنقلاب النفسى

من المظاهرات الدالة ، والتى لا تخلو من مؤشرات طريفة ومسلية أيضا ، أن الميزان النفسى وتوازن المعنويات قد انقلب هو الآخر ما بين العرب وإسرائيل نتيجة للمعركة ، فقد انعكست كل الأوضاع والأحوال والملابسات والأدوار بين الطرفين فيما قبل أكتوبر وبعد أكتوبر أو بالأصح فيما بعد يونيو وبعد آكتوبر . فكما يقول لاكير : «ربما كانت أهم نتيجة درامية لحرب الأيام الستة هى المحصلة النفسية. فقد كانت إسرائيل تعانى من مرض الاختناق فى الأماكن المغلقة . وعندما تحولت إلى دولة أكبر اختفى الشعور بأنهم محاطون بسور من كل جانب . وكان هذا أول تغيير كيفى ، وكانت هناك رغبة جارفة فى عدم العودة إلى الاختناق القديم». ولكن حرب أكتوبر عادت فقلبت الميزان النفسى وأعادت الشعور القديم بالاختناق والحصار مضافا اليهما الانكسار.

فهم الآن الذين يعيشون فى بكائية وطنية كبيرة بحيث تحولت إسرائيل كلها إلى «حائط مبكى واحد» . «ان الشعور بالأسى» ، أذاعت وكالة أنباء من تل أبيب «يسود شوارع إسرائيل حيث الوجوه مقطبة وجامدة . ولم يحدث من قبل أن تركت حرب مثل هذا الشعور بالحسرة والمرارة فى إسرائيل ، وما عاد يتردد فى إسرائيل اليوم سوى حديث

الموت هنا وهناك». يحدث ذلك بعد أن كانت الأراضى المحتلة هى «مبكى العرب الكبير» ، كما وصفوها هم أنفسهم بعد يونيو سخرية وشماتة . وهم الآن الذين يقولون أنها حرب حياة أو موت والذين يتساءلون – حرفيا – «أن نكون أو لا نكون» ، السؤال الهاملتى الشكسبيرى الذى كنا نردده بعد يونيو . وأخيرا وليس آخرا فإنهم هم الذين يعانون بصورة فادحة وصارخة من تمزق وانهيار الوحدة الوطنية، فى الوقت الذى تلاشت فيه هذه المشكلة من المجتمع العربى نهائيا وأصبح التلاحم الوطنى فيه أقوى منه فى أى وقت مضى.

وفيما عدا هذا ، فيبدو أن المراحل النفسية الدرامية والمأساوية التى مررنا نحن بها بعد يونيو ، تعيشها إسرائيل الآن تباعا مرحلة بعد أخرى! فبعد صدمة الذهول التى أحدثتها الضربة العربية التاريخية ، تلك التى وصفها الرئيس بأنها «ضربة لن تنساها إسرائيل إلى الأبد» ، اجتاحت العدو ، فضلا عن الحقد المكبوت والمكتوم ، موجة كثيفة من الحزن والقهر والكمد الكظيم أو المتفجر . وأغلب الظن أن إسرائيل الآن لا تزال فى مثل المرحلة التى مررنا نحن بها عقب يونيو مباشرة حين كنا بين تصديق وتكذيب لم نزل وحين لم نكن قد وعينا بعد المعنى الرهيب للهزيمة بكل ثقلها ووقرها وضغوطها المخيفة وبكل محمولاتها وتداعياتها وأخطارها البعيدة المدى. وحين تفيق إسرائيل من آخر بقايا أوهام

الماضي ، فستدرك تمـــامـا ذلك المعنى ، لتدخل به مرحلة جديدة قد تكون أشد خطرا هي مرحلة اعادة التفكير فى الذات والغوص فى الأعماق . وحين تفعل ، فستكون أعمق هذه الأعماق هى فكرة «الأمن» ، العمود الفقرى فى الوجود الإسرائيلى، والكلمة التى أدمنت إسرائيل ترديدها فى العالم منذ نشأتها أكثر بالتأكيد من أى كلمة أخرى فى قاموس السياسة العالمية جميعا ، وربما إلى درجة الملل والغثيان بالفعل .

أما الآن فانها مرحلة الانهيار النفسى الداخلى وتعذيب الذات بعد مرحلة الانبهار الذاتى والنرجسية المفرطة والبارانويا السادرة التى أزمنت طويلاً. وأصبحت إسرائيل نموذجا مجســما للباثولوجيا النفسية والاجتماعية إلى جانب كونهــا أصلا دراسة فى الباثولوجيا السياسية والاستراتيجية . وهكذا بدأت سلسلة الاعتراف بالخطيئة وعملية الاستبطان الداخلى بل والنـدم وان يكن الشانىء لا التائب . ولدينا فى هذا الصدد مجمــوعة من الاعترافات «والبكائيات» بأقلام العدو ، كتبها صحفيون وساسة وعلماء نفس . وكلها فى غنى عن التعليق ، ويكفينا منها مجرد السرد والاقتباس . ولعل من المناسب، ما دمنا نتكلم عن الانقلاب النفسى ، أن نبدأ بعلمــاء النفس والسيكولوجيين.

تعددت شهادات هؤلاء الاخصائيين ، ولكنهم أجمعوا على أن إسرائيل خرجت من حطام الحرب وهى تشعر بالتوتر والقلق والاضطراب أمام مستقبل غير مؤكد ولا مضمون ، وان هذه الحالة العصبية انعكست فى شكل زيادة ملموسة فى عدد المترددين على مراكز الصحة النفسية والعصبية أثناء الحرب وبعدها . وقال طبيب نفسى بارز فى جامعة تل أبيب إنها حرب مريرة حتى أن الناس لا يشعرون بسعادة إذا بلغتهم أنباء طيبة، ثم تنبأ بأن الأثر النفسى للحرب على الإسرائيليين سيكون أشد وأقوى على المدى البعيد لأن «جميع زعمائنا الأحياء الذين كنا نؤلههم قد خذلونا . بل وخذلتنا الأفكار كذلك» . وأضاف المصدر نفسه أن العرب نتيجة للحرب قد «زاد احترامهم لأنفسهم ، بينما كف الإسرائيليون عن أن يعتبروا أنفسهم من طبقة الإنسان السوبرمان والعرب أقل منهم مستوى على الدوام».

وقال عالم نفسى آخر أن الحرب قد أعادت إلى أذهان الإسرائيليين شيئا يعرفونه دائما ولكنهم كانوا يؤثرون تجاهله فى الماضى، وهو أنهم يعيشون فى دولة صغيرة يحيطها «أعداء» . وأرجع العالم خطورة الاستجابة العربية فى أكتوبر إلى الاستفزاز الإسرائيلى الفج. فقال «لقد بنينا جيشا كبيرا ولكننا فى الوقت نفسه خلقنا جو الحرب والتحدى لجيراننا . وكنا نسألهم : ألا تستطيعون أن تكونوا مثلنا ؟ أليس فى

قدرتكم أن تقاتلوا مثلما نقاتل ؟ قالوا بلى ، نستطيع . وهذا ما فعلوه . وأعتقد أن الحرب الأخيرة كانت دورهم ليصبحوا الابطال، وليغيروا الصورة التى كانت فى أذهاننا».

فإذا انتقلنا من علم النفس إلى عالم الصحافة ، وجدنا العينات بلا حصر. مثلا كتب كاتب منهم أن معركة أكتوبر «نسخت كل المفاهيم السياسية والعسكرية التي اكتسبناها من يونيو» . وقال آخر انها «أعادت شعورنا بالخوف على حقيقة كياننا كما كنا سنة ١٩٤٨»، وأضاف ثالث «إننا نحس كما لو كنا نعيش بعد زلزال أصاب بلادنا» . وفى المعنى نفسه قال معلق إسرائيلى معروف «اتضح لنا فى النهاية أن مجتمعنا الصغير الأنيق كان يعيش داخل قشرة بيض سهلة الكسر». أما صحيفة معاريف فقد كتبت ما مؤداه أن إسرائيل كانت تعيش فى «جنة البلهاء fools' paradise »، فأتت حرب يوم الغفران كضربة مارد جبار أو كصاعقة البرق فايقظتها منها. وقالت هاأرتس «السؤال المطروح، إذن ، هو : إذا كنا قد عجزنا عن تدمير المعدات «السوفيتية» (كذا) وابادة الجيش المصرى، فما الذى أحرزناه إذن ؟» ثم أجابت قائلة «أن المكسب المهم ، والوحيد ، لنا هو العبرة من حرب يوم الغفران. لن يكون هناك مجال لعدم المبالاة والتبجح ولا للحديث عن الاستعداد لامتصاص الضربة الأولى». وباللهجة نفسها كتب شبتاى نيفيت ، وهو

معلق عسكرى ، يقول «لقد لقن الجنود العرب إسرائيل درسا بأنها بالغت إلى حد السفه فى الثقة بالنفس». وبالمثل قال ميكونس عضو الكنيست انه بعد مرور ٢٥ سنة من غسيل المخ المنظم والعامد أصبح يسود إسرائيل الآن شعور بعدم الثقة .

كذلك نشر أخيرا فى إسرائيل كتاب عن محنة أكتوبر وضعه مجموعة من الصحفيين ، اعترفوا فيه أولا بأنهم كبقية الكتاب الإسرائيليين قد «شاركوا فى نشر الاستخفاف والاستهتار العام بالعدو ، والثقة المبالغ فيها بالنفس، فكان ذلك مساهمة فى الخلل العام الذى أدى إلى الحرب ونتائجها» . أما عن هذه فقد قالوا «لقد رأينا الحرب ووجهها الخفى عن الكثير من الأعين. وعدنا من الحرب جزءا من شعب مهموم قلق بلاحقه علامات الاستفهام. ووقفنا مشدوهين أمام أولئك الذين يحاولون الاستمرار وكأن شيئا لم يحدث وكأن الحرب التى وقعت لم تغيرنا جميعا. وقفنا مذهولين أمام محاولات التغطية والتضليل واخفاء الحقائق التى أدت إلى هذه الحرب، وأوهام القادة الذين يحاولون التنصل من المسئولية الرهيبة . ونحن لا نريد المساهمة فى مؤامرة الصمت التى أدت إلى هذا الزلزال».

أما على المستوى السياسى فقد اعترفت مايير بأن صدمة حرب اكتوبر قد غيرت الحياة فى إسرائيل وتركت آثارها «على أفكارنا

وأعمالنا وطريقة حياتنا في جميع المجالات». وقبيل سقوط حكومتها نهائيا عادت إلي النغمة نفسها قائلة ان إسرائيل قد تلقت صدمة عنيفة وقوية، «ولن تعود إسرائيل قط كما كانت». ويكاد دايان أن يكرر المعنى نفسه . «كانت حرب آكتوبر» قال هو فى ديسمبر ١٩٧٣، «بمثابة زلزال تعرضت له إسرائيل . وما حدث فى هذه الحرب قد أزال الغبار عن العيون وأظهر لنا ما لم نكن نراه قبلها . وكل هذا أدى إلي تغيير عقلية قادة إسرائيل . غير أن أيام إسرائيل العصيبة القصوى لم تحدث بعد . وعلينا أن نبقى صامدين خلال فترة المحنة التى ماتزال أمامنا».

أما ايبان فقد قال «لقد كنا نعيش فى وهم الدولة القوية منذ ١٩٧ ». وإيبان بالتحديد واحد من أكثر من تحدثوا بلا تحفظ عن اسراف الإسرائيليين فى الاعتقاد فى تفوقهم والتفاخر الفج الأجوف بقوتهم . ودعا الإسرائيليين إلى التواضع وعدم المبالغة فى أسلوب «البلاغة الوطنية» . ففى أكثر من حديث له قال ان كل شىء قد تغير بالنسبة لإسرائيل بعد حرب أكتوبر . فقد تمكن العرب من أن يقنعوا العالم كله بقدرتهم على حمل السلاح . وتمكنوا من استعادة كرامتهم. ثم أضاف أن نتائج حرب يونيو كانت قد خلقت «اقتناعا فكريا خطيرا» بأن إسرائيل لا تقهر. ولقد «جعلنا ذلك مغالين أكثر مما ينبغى فى الثقة

بانفسنا وأكثر عنفا مما ينبغى ، كما اننا أدلينا فى أحيان كثيرة بخطب رنانة تفتقر إلى التروى».

غير أننا لا شك نصل إلى ذروة الاعتراف مع كاتزير، رئيس إسرائيل. «ان إسرائيل» ، قال هو فى حديث موجه لمواطنيه ، «كانت تعيش فيما بين سنتى ١٩٦٧، ١٩٧٣ فى نشوة لم تكن الظروف تبررها. بل كانت تعيش فى عالم خيالى لا صلة له بالواقع . إن هذه الحالة النفسية مسئولة عن الأخطاء التى حدثت قبل حرب أكتوبر وفى الأيام الأولى للحرب ، لأنها كانت قد تفشت فى كل المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية وأحدثت بها مواطن ضعف خطيرة يجب أن يشترك الإسرائيليون جميعاً فى تحمل مسئوليتها .. يجب علينا أن نتعلم بعد هذه الحرب الفظعية أن نكون أكثر تواضعا وأقل نزوعا إلى المادية .

ولعل هذه الاقتباسات - الاعترافات فيها الكفاية أو أكثر من الكفاية لتصور حقيقة السيكولوجية الإسرائيلية بعد الهزيمة ، سيكولوجية الهزيمة. وواقع الامر أن إسرائيل، التى أسكرتها خمرة النصر مرارا وطويلا، كانت كأى مدمن مزمن تعيش فى أحلام يقظة وفى حالة من الغيبوبة السياسية - الوطنية أفاقت منها فقط على وقع الحقائق الصادمة والصدمة السيكولوجية القاسية.

ولسوف يكون لهذا الوعي المسترد ما بعده . فإذا كانت الضربة العسكرية التى تلقتها إسرائيل بمثابة العوامل التكتونية، أى انفجارات الأرض الباطنية من زلازل وبراكين بلغة الجيولوجيا ، فان آثار الهزيمة النفسية وفعلها هى بالضبط بمثابة عوامل التعرية في التشبيه ، بطيئة سارية وخبيثة، ولكنها مؤثرة ومدمرة إلى أبعد الحدود ، تتسلل وتتسرب إلى الأعماق فلا تنتهى إلا بالتقويض الجذرى والانهيار من الداخل. إنها حرب المدى البعيد والنفس الطويل.

الانقلاب الاقتصادى

قبل حرب يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل تمر بأزمة اقتصادية حادة ومستحكمة ، كان من أبرز أعراضها تضخم شديد أدى إلى سلسلة من خفض العملة وبطالة قدرت بنسبة ١٠٪ من مجموع القوة العاملة وتدهور في مستوى المعيشة وتزايد فى عجز الميزان التجارى وميزان المدفوعات ثم تواتر فى الاضرابات المتلاحقة، وحتى الهجرة الخارجة فاقت تقريبا الهجرة الداخلة . وكما كانت الأزمة دافعا جوهريا من دوافع الحرب ، وكانت الحرب مخرجا مقصورا من الأزمة ، جاءت الحرب فعلا بموجة من الرخاء الشديد . فلقد تدفقت القروض والمساعدات على إسرائيل المنتصرة، وتكاثرت بها «مؤتمرات المليونيرات» من يهود العالم ، وانهالت عليها الهبات ومشاريع

التنمية المشتركة ، كما عاد ميزان الهجرة اليهودية فانقلب لصالح اسرائيل.

ونتيجة لهذا كله ارتفع معدل التنمية ونمو الإنتاج والدخل القومى فى إسرائيل حتى وصل فى بعض السنوات إلى ١٠٪، ١١٪، كما تحققت العمالة الكاملة، بل واستوعبت أكثر ما استطاعت أن تستقطبه من الايدى العاملة العربية فى داخل الأراضى المحتلة، وارتفع مستوى المعيشة بصورة ملحوظة ، وبدت إسرائيل كلها وكأنها مشروع استثمارى ناجح للغاية لا ينقصه حتى مغانم الحرب الدسمة وموارد الأراضى المحتلة الجديدة ابتداء من بترول ومنجنيز سيناء إلى برتقال وحمضيات غزة وفواكه وخضراوات الضفة الغربية إلى أسماك البردويل والعقبة.. إلخ . لقد اثبتت التجربة مرة أخرى أن إسرائيل «تعانى» من «حالة» السلام اقتصاديا مثلما تعانى سياسيا واجتماعيا ، بينما تفره على العكس وتزدهر على حالة الحرب وذلك فى تلك المجالات كلها على السواء . وبدأت السنوات السبع السمان.

هذه القاعدة القديمة جاء أكتوبر ليكسرها ويقلبها رأسا على عقب. فكأول هزيمة عسكرية حقيقية تلحق بإسرائيل، انكشف الاقتصاد الإسرائيلى على حقيقته، وتعرضت إسرائيل لأسوأ أزمة اقتصادية وحالة انكماش عرفتها منذ نشأتها . فالخسائر الجسيمة فى السلاح

والمعدات ثم نفقات استعاضتها بجديد ونفقات القتال والتعبئة وانخفاض الإنتاج مع تناقص الصادرات وتزايد الواردات، كل هذا أدى إلى تفاقم الحالة الداخلية وأصبحت الحياة اليومية تختنق بالضرائب الباهظة والغلاء الفاحش وبالتالي بالاضرابات المتلاحقة .. إلخ . وعلى الجملة فلقد ولت بلا تحفظ أيام الرخاء . وبعد السنوات السبع السمان بدأت السنوات العجاف، كم لا ندري بعد ، ولكنها ستطول بلا شك .

ويبدو كذلك أن الهجرة قد بدأت تتأثر هي الأخرى بعد أن أصبحت إسرائيل بيئة حياتية طاردة أو على الأقل غير جاذبة. فقد أعلن المكتب المركزي للاحصاء في إسرائيل أن عدد النازحين في ١٩٧٣ بلغ نحو ١٢ ألفا، وأن معدل الهجرة النازحة بلغ قمته في أواخر العام، بينما انخفضت أرقام المهاجرين إلى إسرائيل خلال يناير ١٩٧٤ عن مثيلاتها في يناير ١٩٧٣ . كذلك سجلت أرقام هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل في الشهور الثلاثة الأولى من ١٩٧٤ انخفاضا بنسبة ٢٥٪ عن مثيلاتها في ١٩٧٣ . وفي إبريل ١٩٧٤ وصل الانخفاض إلى نسبة ٥٠٪. وخلال الشهور الأربعة مجتمعة هبط عدد المهاجرين الروس إلى ٦٧٠٠ مقابل ١١ ألف في الفترة المماثلة في ١٩٧٣ .

وفي مارس ١٩٧٤ نشرت هاآرتس نتائج استطلاع للرأي كشفت الكثير عن احتمالات الهجرة من إسرائيل فقد ظهر أن شخصا من كل

عشرة يفكر فى الهجرة من اسرائيل نتيجة لارتفاع الأسعار والاستياء من نتائج حرب أكتوبر. والتفكير فى الهجرة أقوى بين الجيل الجديد . فمن بين البالغين الذين اشتركوا فى الاستطلاع، قرر ٦ر٥٪ الهجرة بالفعل ، بينما يفكر فيها بجدية ١ر٥٪ . أما بين مجموعة العمر ١٨ - ٢٩ سنة ، فان ٢ر٢٠٪ ذكروا أنهم يفكرون فى الهجرة . وكشفت استطلاعات أخرى تالية أن ١٥٪ على الأقل من جيل الصابرا - مواليد إسرائيل - يريدون الهجرة منها فورا أن أمكن . على أن نقطة الهجرة هذه ينبغى أن ننتظر مزيدا من المؤشرات ومزيدا من الوقت.

ليس هذا فحسب ، بل لقد انقلبت الصورة كذلك بالنسبة للعرب . فإذا كانت سوريا ومصر قد وضعتا الكثير من مواردهما وميزانيتهما فى المعركة، وتعرضتا لخسائر عديدة فى الممتلكات والمنشآت ، وكلفتهما الحرب مع سائر الدول العربية عدة بلايين من الدولارات، فقد استطاع الاقتصاد العربى بعامة أن يمتص صدمة الحرب وأن يتكيف معها بل وأن يخرج منها باقل قدر من الخسائر وأكبر قدر من المكاسب، وبعد اقتصاد الحرب القاسي والتقشف الصارم فيما بين الحربين ٦٧ - ١٩٧٣ ، انفتح باب التوسع أمام الاقتصاد العربى الذى انفتح هو الآخر على العالم بلا قيود أو معوقات. ولن نكرر هنا مكاسب أسعار البترول

الجديدة، ولا عروض القروض ومشاريع التعمير والاستثمارات العالمية التى تدفقت على الدولتين المحاربتين وغيرهما . ولكن يكفى أن نقارن هذا بما فى إسرائيل اليوم وبما كنا عليه بعد يونيو لكى ندرك أن انقلابا اقتصاديا حقيقيا قد وقع فى منطقة الشرق الأوسط عموما نتيجة لحرب أكتوبر.

فى هذا الإطار الأساسى، نستطيع الآن أن نفصل خسائر العدو الاقتصادية بشىء من التحديد ومن واقع تصريحاته هو وأصدقائه، خلال الأيام الخمسة الأولى فقط من المعركة أنفقت إسرائيل، هكذا أعلن وزير المالية سابير، نحو ٢ بليون دولار، أى بمعدل ١٠ ملايين دولار فى كل ساعة قتال فعلى (٥ - ٦ ساعات يوميا) . وبعد انتهاء الحرب ذكرت معاريف أن قيمة خسائر المعدات والأسلحة بلغت بليون دولار ، كما بلغت بليونا آخر قيمة تكاليف التحصينات التى دمرت ونقص الربح الناتج عن انخفاض الإنتاج. ولكن وكالة اليونايتد بريس عادت فذكرت أن الرقم الأخير وصل إلى ٢ بلون دولار ، وأن مجموع خسائر إسرائيل العسكرية والاقتصادية خلال الأسبوعين الأولين من الحرب تصل بذلك إلى ٣ بلايين دولار. وعلى هذه الأسس كان المقدر أن الحرب قد كلفت إسرائيل فى شهر ما يعادل ميزانية عام بأكمله.

لكن مرة أخرى عاد سابير فأعلن أن تكاليف الحرب قد زادت عن المقدر سابقا وهو ٢ مليارات دولار، وأن العجز التجارى المقدر لسنة ١٩٧٤ قبلا وهو ٥ر١ مليار سوف يرتفع إلى ٥ر٢ مليار. وجاء التوضيح فى النيوزويك التى ذكرت أن التقدير الاجمالى النهائى لتكاليف الحرب من ذخيرة ووقود وصل إلى ٥ر٥ مليار دولار . وهو ما يوازى عدة اضعاف قيمة الميزانية الكلية للدولة . ولكن مسئولين إسرائيليين آخرين صرحوا بانه ليس من مصلحة إسرائيل الافصاح عن الأرقام الحقيقية لخسائرها فى الحرب لأن هذا يخدم العرب، بينما قدر مسئولون آخرون مجمل النفقات بنحو ٧١٠٠ مليون دولار . وقد عاد سابير بعد ذلك فأعلن بالفعل أن حرب أكتوبر كلفت إسرائيل واقتصادها (خسائر الإنتاج والاستثمار) ٧١٤٠ مليون دولار، وأن ثلث الميزانية سيوجه للدفاع، ومن جهة أخرى قدر سابير أن تكاليف الحرب كانت تكفى لشراء ١٢٠ مليون طن من القمح، أى حاجات إسرائيل منه لمدة ١٢٠ سنة مقبلة ، أو ما يعادل ٥٠٠ مليون طن من الوقود بأسعار سنتين مضتا . كما أعلن سابير بعد ذلك أن إسرائيل اشترت ما قيمته ٧ بلايين دولار من الأسلحة منذ ١٩٧٠.

وقد لخص تقرير لإحدى لجان الكونجرس الأمريكي اقتصاديات الحرب الإسرائيلية بعد انتهاء المعركة، فذكر أن الحرب قد كلفت

اسرائيل ٢٥٠ مليون دولار يوميا، وهو ما يزيد عن ١٠ أضعاف ما تحملته في عام ١٩٦٧. وأشار التقرير إلى أن ما استوردته إسرائيل للاغراض الحربية والدفاعية في ١٩٧٢ يعادل ما استوردته في ١٩٦٧ نحو ١١ مرة، وأن هذا يمثل ثلث جميع الواردات الإسرائيلية ونحو ٤٠٪ من الدخل القومي . أما المديونية الخارجية لإسرائيل فقد قدرها التقرير بنحو ٥ بلايين دولار، أي بمعدل ١٥٠٠ دولار للفرد الواحد، وهو أعلى معدل مديونية في العالم. وانتهى التقرير إلى أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا وباهظا، وانهم أدركوا نهائيا أنهم لا يمكنهم خوض حرب جديدة كل عدة سنوات كما كان الحال في السابق.

ورغم التغطيات الكثيفة التي ترد من الخارج - أكثر من ٢ر٢ مليار دولار قيمة سلاح بديل شبه مجاني من أمريكا، ومئات الملايين من الدولارات من اليهود الأمريكيين .. إلخ - فقد قدر أن إسرائيل تحتاج إلى ما قيمته ٣٠٠٠ مليون دولار من العتاد الحربي لتعويض خسائرها، ولذلك ينتظر أن ترتفع الميزانية العسكرية لإسرائيل إلى حوالي ٣٠٠٠ مليون دولار سنويا، يغطي نصفها المشتريات العسكرية من الخارج والنصف الآخر الامدادات والخدمات العسكرية، وترتيبا على هذا فسيكون على أمريكا أن ترفع معونتها العسكرية لإسرائيل من معدلات

ما قبل الحرب التى تقدر بحوالى ٤٠٠ مليون دولار سنويا إلى ١٥٠٠ مليون دولار سنويا .

وقد عبر عن هذا الوضع كله بطريقة أخرى وزير المالية سابير، الذى قال ان الخطط التى كانت موضوعة قبل حرب أكتوبر كانت تخصص ١٧٪ فقط من اجمالى الناتج القومى لنفقات الأمن. ولكن هذه الخطط «قد سقطت من النافذة نفسها التى سقطت منها الافتراضات القائلة بأن العرب لن يتجاسروا على مهاجمة إسرائيل». ثم أضاف أن الضغوط المالية للحرب قد قفزت بنفقات الدفاع إلى ٣٠٪ ثم إلى ٤٨٪، أى نصف اجمالى الناتج القومى. وفى ظل هذه الظروف - تعلق اليونايتد بريس - تجد إسرائيل نفسها تعتمد الآن ، أكثر من أى وقت مضى، على أمريكا لمساعدتها على البقاء «وانقاذها من الغرق فى البحر الأحمر». ولا تأتى هذه المساعدات فقط من جانب اليهود الأمريكيين الذين يطلب منهم أن يحفروا فى جيوبهم بعمق أكثر من ذى قبل، وإنما كذلك من جانب الكونجرس الأمريكى. وهكذا أثبتت المعركة مرة أخرى وأكثر من أى وقت مضى صحة كلمة الرئيس السادات من أن إسرائيل تعتمد على الولايات المتحدة فى كل شىء «ابتداء من رغيف الخبز حتى طائرة الفانتوم».

واضح إذن تماما أن الحرب إن لم تكن قد دمرت أو خربت اقتصاد اسرائيل ، فقد أصابته بضربة فى الصميم. وبتعبير سابير «وان الأيام السعيدة قد انقضت». اننا الآن فى حالة حرب من الناحية الاقتصادية، أو بتعليق اليونايتد بريس «أن الحرب التى اندلعت فى أكتوبر لم تنته، وانما انتقل ميدان المعارك من الجبهة المصرية والجبهة السورية إلى أرفف المحلات التجارية باسرائيل». فلقد ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات، ووصل الارتفاع أحيانا إلى ١٠٠٪، وأصبحت الأحزمة مشدودة إلى أخرها على البطون. فقد تأثرت جميع خطوط الإنتاج «من المقابر إلى الصناعة، ومن المزارع إلى الفنادق السياحية». وانتشر الكساد وقل السياح وأفلست بعض المؤسسات كما توقفت شركات أخرى مثل شركة زيم للملاحة . وفى الوقت الذى ارتفعت الضرائب إلى حدها الأقصى، ارتفعت أسعار كل السلع والخدمات بشكل حاد، وبذلك تحولت الأزمة، أو امتدت بالأحرى، من المجندين إلى ربات البيوت ومن المنتجين إلى المستهلكين. وأخيرا أعلن المكتب الحكومى للاحصاءات فى إسرائيل أن العجز فى ميزان المدفوعات خلال الربع الأول من ١٩٧٤ قد بلغ ٤٣٦ مليون دولار ، أى بزيادة ٩٠٪ عن الرقم المماثل فى العام الماضى.

أما عن المستقبل فان الصورة ليست أكثر اشراقا. فإلى أمد طويل ستظل التعبئة الجزئية قائمة تحرم الإنتاج نسبة معلومة من الأيدى العاملة، كما ستبقى كثير من خطوط الإنتاج موجهة نحو الاقتصاد الحربى. فمثلا بينما كان نصف إنتاج الصلب والالكترونيات ووسائل النقل يصب فى مجال الدفاع، يقدر أن هذه النسبة سوف ترتفع فى العام القادم إلى نحو ٧٥٪. وقد قدر اقتصادى إسرائيلى معروف يدعى بوفال اليتسور أنه لا مفر من تخفيض مستوى المعيشة الإسرائيلى بعامة خلال السنة القادمة أو السنتين بنحو ١٠٪ على الأقل، كما قرر بصفة جازمة عن الاقتصاد الإسرائيلى أن «الظروف التى سادته قبل ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لن تعود ثانية».

ولقد لخصت النيوزويك الموقف برمته بدقة حين عقبت قائلة أن الحرب قد كلفت إسرائيل غاليا . ولولا وقف إطلاق النار لوجدت تلك الدويلة حياتها وقد اقتصرت على الكفاف. لقد خسرت إسرائيل - نحن نلخص - الجبهة الاقتصادية كما خسرت الجبهة العسكرية، وإسرائيل اليوم دولة مأزومة كما هى دولة مهزومة. ان طفل الشرق الأوسط المدلل قد أصبح طفل المنطقة العليل، ولا نقول رجلها المريض ، وتحول ما كان بعد بلغة الاستعمار العصا الغليظة إلى ما يمكن أن نسميه بالتعبير لتوراتى «بالقشة المكسورة broken reed .

انهيار نظرية الأمن الإسرائيلى

نصل الآن إلى حجر الزاوية وركن الأساس في حود الإسرائيلى جميعا، قضية الأمن التى أغرق العالم بها حديث وتفسيرا. ما هى بالضبط فى النظرية والتطبيق؟ وماذا فعل بها ٦ أكتوبر، وإلي أى حد بالدقة عصف بها؟

إذا بدأنا من البداية، فسنجد باختصار أن قضية الأمن مشكلة تاريخية قديمة تطارد «اليهودى التائه» نفسيا وماديا فى الشتات عبر القرون والقارات. وأيا كانت الدوافع أو الأصول المعقدة، الحقيقية أو الوهمية، فقد أصبح الأمن عقدة مزمنة، ملازمة لعقدة الاضطهاد. وقد كان «الجيتو» هو الرد، ولا نقول الحل، التقليدى، ذلك الحى الغامض المعزول المسور والمحصن المتقوقع داخل المدينة، فيها وليس منها، يحقق الرغبة المرضية فى التباعد وعدم الاندماج أو الذوبان فى مجتمع الجوييم العريض دون أن ينفصل مع ذلك عن مصالحه ومعاملاته بل والتطفل على خدماته وموارده.

ومنذ ظهرت الصهيونية السياسية فى القرن الماضى، لم يكن «الحل الصهيونى» «المشكلة اليهودية» إلا تكبيرا أو تعظيما maximization لعقلية الجيتو تلك. ولم يكن يستهدف إلا تجميعا مجسدا فى بقعة واحدة للآلاف من خلاياه المبعثرة والمبثوثة فى تضاعيف الشتات. وإذا كانت

فلسطين، بمنطق أسطورة غيبية محرفة بقدر ما هى منحرفة ، قد أصبحت الضحية، فقد كان معنى هذا أن تتحول بعد تفرغ من أصحابها الأصليين والشرعيين إلى جيتو واحد أعظم يختزل ويختزن كل جيتوهات العالم المفتتة.

بذلك اجتمعت الأسطورة الدينية مع العنصرية العرقية مع الاغتصاب الاستعمارى لتكون الدولة - الجيتو أو الجيتو - الدولة ، إسرائيل. وبذلك أيضا تحول الوجود اليهودى فى فلسطين . بالتسلل فالهجرة ثم بالاغتصاب فالغزو ، من لاجئين «وييشوف» (جسم المجتمع اليهودى فى فلسطين الانتداب)، إلى مستوطنين ومستعمرة ، ثم أخيرا إلى دولة ومشروع امبراطورية! ولم يكن شعار الصهيونية لأرض بلا شعب شعب بلا أرض» إلا تزييفا فاجرا وقلبا وحشيا للحقيقة وغطاء للاغتصاب، أما صحته هذا الشعار المزعوم فهى «أرض شعب لشعب الأرض» (أى فلسطين العرب ليهود العالم على الترتيب).

ومنذ اللحظة الأولى ، أصبحت مشكلة إسرائيل الأولى والأخيرة هى مشكلة «الأمن» المزعوم، وتحول الأمن إلى دعوى عريضة جدا، فأصبح محور كل شىء فى الوجود الإسرائيلى، بل فى كل الدنيا، وأصبح أصغر حدث جار وأبسط حقائق الحياة اليومية فى إسرائيل أو خارجها يترجم إلى صيغة أمن ويقيم باعتبارات الأمن ومقاييسه . باختصار ،

اصبح أمن إسرائيل هو «بقرتها المقدسة» وهو «عبء الرجل الإسرائيلي»، بل يكادون يقولون عبء العالم أجمع!

غير أن دعوى الأمن الإسرائيلي هذه فيها من الادعاء والدعاية بل ومن المغالطة بقدر ما في الكيان الإسرائيلي نفسه من خطأ أساسي أو خطيئة أصلية . وحقيقة الأمر أن الأمن قد أصبح تبريرا للقتل، بمثل ما أن الصهيونية نفسها تبرير للسرقة. والأمر كله تحول إلى حلقة مفرغة مفزعة، حلقة لولبية صاعدة أبدا، بدايتها الأمن ونهايتها الأرض.

كيف ، ولماذا ؟ تفسير ذلك أن إسرائيل ، ككيان عدواني غاصب وكاستعمار استيطاني احلالي مطلق في الأصل والأساس، تجد نفسها جزيرة مقتطعة محاصرة ببحر شاسع خضم من العرب أصحاب الأرض الشرعيين، متفوق في المساحة والعدد والثروة خارج كل مقارنة. وهي من ثم تجد الأمن شرط البقاء، والقوة صمام الأمن ، والأرض عصب القوة، ومن هنا أصبح الأمن مرادفا للأرض ، أي للتوسع ، أي للغزو والامبراطورية في نهاية المطاف

وبعبارة أخرى فان إسرائيل، بصميم كيانها وتكوينها المجلوب، لا يمكن أن تعيش داخل حدود الأرض المغتصبة في الأراضي المقدسة بغير توسع وإلا اختنقت. وهي بالاحرى لا يمكن أن تكون - بالتعريف

الصهيوني - «دولة اليهود» في العالم «والوطن الطبيعي لليهودية العالمية» إلا إذا كانت دولة توسعية بالضرورة . فالتوسع شرط البقاء كما هو شرط الأمن ، ومن ثم فان «إسرائيل الصغرى» ليست سوى النواة «لإسرائيل الكبرى» من النيل إلى الفرات. والمشرق العربي بذلك هو «المجال الحيوى Lebrnstaum» الحتمى الذى لا سواه لإسرائيل كما كان وسط أوربا بالنسبة للنازية ، وعليها أن تقيم فيه «نظاما جديدا New Order» تابعا وخاضعا مثلما أقامت النازية في أوربا أثناء الحرب الثانية.

الأمن = التوسع

ومنذ نشأت الصهيونية ، لم يخف صهيوني واحد ابتداء من هرتزل عبر وايزمان وجابوتنسكى وبوبر إلى بن جوريون واشكول وجولدمان وحتى مايير ودايان وبيجين وسائر المعاصرين ،لم يخف واحد منهم أن التوسع هو لب الصهيونية وأسها وأساسها كما هو شرطها ومقياس نجاحها . ومن المستحيل تماما أن نحصر كل تصريحاتهم السافرة في هذا الصدد ، ولكن لمجرد الذكرى والتاريخ لابد أن ننتخب عينات ممثلة

هرتزل ، الذى قال ابتداء لمن سألوه عن جدوى وعد بلفور «بوطن قومي لليهود» لاينص على «دولة» لليهود أن «كل صهيوني سيفهمه على

أنه يقصد دولة» ؛ قال بعد ذلك وقبله «كلما حصلنا على مزيد من الأرض نكون على استعداد للقيام بتضحيات أكبر» ، كما قال «كلما ازداد عدد المهاجرين زادت حاجتنا إلى الأرض» . «والرجال المستينسون الذين هم أفضل الغزاة» سيكونون عماد الجيش الصهيوني ، بينما سيكون العرب «قطيعا من الوحوش علاجه الوحيد هو الأبادة الجماعية» -هكذا أيضا كتب هرتزل . ولا يكاد يختلف عن هذا ما قاله وايزمان أو زانجويل . وعند مناحم شاينكين كذلك .. أن «المرء لا يشترى أرضا بل يستولى عليها ويأخذها بنفسه ولنفسه» . أما نبى الإرهاب الصهيونى جابوتنسكى فهو القائل «عليكم إن تحتفظوا بالسيف ، لأن القتال بالسيف ليس أختراعا ألمانيا ، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل . إن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء» . وبعد هذا قال بوضوح تام «المنطقة المفتوحة للاستعمار اليهودى والمزمع إقامة الوطن القومى اليهودى على أرضها فيما بعد لاتنحصر من حيث المبدأ فى منطقة الإنتداب البريطانى» ..

أما تلميذ جابوتنسكى وخليفته فى الإرهاب مناحم بيجين فقد أعلن بلا مواربة أنه «لن يكون سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ، حتى ولا للعرب ، مادمنا لم نحرر وطننا بأكمله ، حتى ولو وقعنا معاهدة صلح» . وأخطر من ذلك قال : «كن أخى أو أقتلك» وأشهر منه قال :

«أنا أحارب ، إذن أنا موجود» ، ومعناها الحقيقى «أنا أتوسع ، إذن أنا موجود» . كما يمكنك دائما أن تقرأها بالمقلوب : «أنا موجود ، إذن أنا أحارب» ، «أنا موجود ، إذن أنا أتوسع» ، وبالمعكوس أيضا : «أنا لا احارب»، إذن أنا غير موجود» ، «أنا لا أتوسع ،إذن أنا غير موجود» .. إنها مرة أخرى تلك الحلقة اللولبية الجهنمية .

حتى جولدمان ، السلامى وداعية التعقل كما يوصف (!) ، يقول «لاتوجد أي دولة أخرى فى العالم يعيش ٩٠٪ تقريبا من شعبها خارج حدودها» . وقد وضعت النقط على هذه الحروف الخطة الأستراتيجية للجيش الإسرائيلي المنشورة في عام العدوان ١٩٥٦ حيث قالت بلا لبس «ان المهمة القومية التي تضطلع بها دولة إسرائيل - وهى جمع شتات الجاليات اليهودية المبعثرة فى العالم وتهجيرها إلى إسرائيل - تستدعى هجرة متصلة تستمر على الأقل لمدة جيل واحد (٣٠ عاما) ؛ وعلى الدولة الإسرائيلية أن تؤمن الاحوال الطبيعية لحياة هؤلاء السكان .. ولهذا فإن مهمتنا هى احتلال الأراضى العربية وتوطيد سيطرتنا عليها» .

ولقد كان من أجل جلب وحشد هذه «الأغلبية المغتربة» ، وما تحتاجه من أراض جديدة بالتأكيد مضافة بالتوسع والفتح والغزو ، حرص إسرائيل نفسها منذ البداية وعن عمد وتخطيط على أن تكون دولة بلا حدود ، وذلك على عكس كل الدول السوية التى نعرف . وليس محض

صدفة أن بن جريون الذى وضع هذه السياسة هو نفسه القائل «أن الجيش الإسرائيلي هو خير مفسر للتوراة» ، وهو كذلك الذى شبه الصهيونيين في فلسطين بالغزاة الفاتحين الأسبان في العالم الجديد Conquistadores .

الآن ، وعلى هذه الأسس ومن أجل هذه الأهداف بالضبط ، تحددت إستراتيجية الأمن الأسرائيلي المقول .فالأمن هو أساسا «سياسة القوة» ، صيغة منتهى القوة ، وخطة «صعق الفئران» كما سموها . أما طريق ذلك فهو تحقيق التفوق العسكرى المطلق والدائم على العرب مجتمعين . وهذا هو المعنى الوحيد المقبول لتوازن القوى مع العرب ، فبمثل هذا الميزان المختل المعوج يمكنها دائما أن تطالب «بالحدود الآمنة» ، ثم تمارس «الحرب الوقائية بحرية كاملة وبطريقة خاطفة ، بحيث تحقق سياسة «الأمر الواقع» في المنطقة ، وتضمن أن تقع الأرادة العربية أسيرة خطة الترويع والتهديد ثم الردع والتأديب . وبذلك كله تفرض في النهاية «السلام الإسرائيلي» بعامل القوة وبقوة السلاح .

السلام الإسرائيلى = سياسة القوة

ولكن ، قبل أن نمضى فى مناقشتنا إلى أبعد ، ماهو بالدقة معنى هذا السلام الإسرائيلى المزعوم والمفروض ؟ إنه الاستسلام ولا سواه ،

من جانب العرب ولا سواهم . السلام الإسرائيلى هو الإستسلام العربى : وذلك جوهر المعادلة المطلوبة بلا زيادة ولا نقصان . «كن أخى أو أقتلك» إنما ترادف «كن عبدى أو أقتلك» . إنه السلام القائم على الظلم والقهر ، سلام القوة والأقوى ، وسلام السادة والأرقاء .من هنا كان صميم نقيض السلام الحقيقى وتورية وقحة عن الحرب . إنه قلب كامل وغطاء مقلوب لسياسة الدم والحديد والتوسع والعدوان .

ولقد أرغمت هزيمة أكتوبر بعض مثقفى الإسرائيليين على الإعتراف بهذه الحقيقة بكل سفور . فمنذ أسابيع كتب أستاذ بالجامعة العبرية ، يقال له ليبوفيتش ويقال أن له مكانته في إسرائيل ، كتب فى ها أرتس يقول : «لقد كان الخط القائد لسياستنا ، ولايزال ، هو الرأى القائل بأن وضعا دائما من اللاسلم واللاحرب مع حرب كامنة هو أفضل وضع بالنسبة لنا وينبغى المحافظة عليه بكل وسيلة .. وبذلك وضعت مشكلة الأمن في مركز كل تفكير وكل نشاط سياسي واقتصادي واجتماعى وثقافى .. لقد سادت هذه السياسة الأجرامية والشريرة طوال ٢٥ سنة .. حتى وصلت بنا إلى الأزمة التى نعيشها الآن .. إننا لم نسع إلى

السلام طوال ٢٥ سنة ، وكل التصريحات بهذا الصدد ليست إلا تصريحات متلونة وكذبا عامدا».

ذلك هو السلام الإسرائيلى وموقعة فى نظرية الأمن . ومن أجل هذه الإستراتيجية العظمى كانت «عسكرة» إسرائيل ، كما تسمى ، تلك السياسة التى حولتها إلى ثكنة وترسانة مسلحة حتى الأسنان ،وجعلت منها مجتمعا عسكريا أساسا ، صلبه وقلبه هو المؤسسة العسكرية الحاكمة والمهيمنة . وجسمه هو مجموع سكان البلد من الناحية العملية . ولقد كان فى هذا المعنى بالتحديد ماقيل من أن إسرائيل لم تعد دولة لها جيش وإنما جيش له دولة .. والواقع أن إسرائيل منذ وقت مبكر أصبحت دولة جيشها هو تقريبا شعبها وشعبها هو عمليا جيشها . بمثل ما أصبح جيشها بدوره هو حدودها وحدودها هى عمليا مدى ما يصل إليه جيشها على الأرض وعلى الطبيعة ، أو كما وضعها دايان بكل سفور وقحة «حدودنا ماتصل إليه مدرعاتنا» .

والحقيقة أن أحدا لن فهم الكيان الإسرائيلى إذا فهم دور الجيش فيه كما يفهم دور الجيش فى كل دول الأرض العادية التى نعرف . وأحد كذلك لن يفهم الجيش الإسرائيلى إذا فهم الكيان الإسرائيلى كما يفهم كيان أى دولة عادية سوية معروفة على وجه الأرض . فالوجود

الإسرائيلي ، كاغتصاب قائم على القهر والسلب ، لايجعل من الدولة دولة العنف والقوة من حيث المبدأ والبداية فقط ، ولكنه يجعل العنف والقوة بحد ذاتها آيديولوجية قومية ضرورية لضمان وتكوين الشخصية القومية والذاتية الوطنية نفسها .

وعلي هذا فإن وظيفة الجيش في الوجود الإسرائيلي ، كالوجود الإسرائيلي نفسه ، وظيفة غير عادية ، بل ويمكن بلا حرج أن تقول شاذة . إنه سبب ونتيجة في آن واحد ، مبرر وجود ومقرره معا ، غاية ووسيلة علي حد سواء . وإسرائيل دولة عسكرية تماما كما هي دولة دينية . وكلتا الصفتين مترتبتان على بعضهما البعض مثلما هما مرتبطتان بعضهما البعض ، وإسرائيل لاتتصور بدون أي منهما .أن «جيش الدفاع» هو كالصهيونية نفسها ، بل اليهودية ، عقيدة وديانة ، إلا إنها علمانية ، والحرب هي صناعة الأمة الحقيقية بمثل ما أنها هي من صناعة الحرب.

ليس ذلك لأن الجيش هو الذى خلق الدولة وهو الذى يحافظ على بقائها ويوسعها فقط ، ولكنه أيضا هو وحده الذى يخلق الذاتية اليهودية والشخصية القومية من عدم الشتات وعجز الماضى ، فالجيش بوتقة إسرائيل ، تلك «الأمة» من المهاجرين ، فيها تنصهر أشتات الشتات بكل

أخلاطها وتنافراتها ، وبفضلها ومن أجلها «تؤمم» الخلافات والتناقضات والصراعات الاجتماعية والطبقية والطائفية ، ومنها تتخلق في النهاية الوحدة الوطنية الجديدة المنشودة .

وهكذا فإن وظيفة الجيش في الكيان الإسرائيلي ودوره مزدوج : داخلي وخارجي ، رأسي وأفقي ، أو كما نقول إسرائيلي « وعربى» . الجيش هو عمود إسرائيل الفقرى وذراعها الطويلة كما هو قلبها وكبدها الحيوى ، هو صلب الجسم السياسى ومعظم الجسم البشرى ؛ فى الداخل أداة الوحدة الوطنية ، وفى الخارج أداة التوسع .

عن الجانب الأول ، أنظر مثلا ما يقوله مناحم بيجين «أن الأرهاب والحرب وحدهما هما اللذان استطاعا أن يحولا هذه الغرائب الشاذة ، التى لم تكن فى ظاهرها تبشر بأى أمل بشعب قادر ، وأن يرفعا عن اليهود إنحطاطهم التاريخى الذى وصل بهم إلى قيمة التراب . ذلك أن الكراهية هى الدافع للأرتقاء فى تاريخ عالمنا ، وأننا عندما نحارب فقط فإننا سوف نستشعر للوهلة الأولى وجودنا» .

أما عن الجانب الثانى فيقول ألون «سوف يبقى الجيش الإسرائيلى ونظرية الأمن العنصرين الأساسيين لتحقيق الشخصية الوطنية الجماعية .. إن المحارب الإسرائيلى هو وحده الذى يقف متحديا للقيد الديمقراطي على إسرائيل الذى يفرضه تعدادها

المحدود .وهو وحده الذى يقف متحديا مشكلة العمق الجغرافى المحدود لإسرائيل» . (الاقتباسان من مقال للأستاذ مكرم محمد أحمد بجريدة الأهرام) .

والواقع التاريخى والسياسى من جانبه لايدع مجالا لأى شك فى حقيقة هذه الفلسفة العدوانية التوسعية وتلك الأستراتيجية العظمى المخططة والمبيتة . فلقد فرضت إسرائيل على المنطقة أربع حروب فى عضون ربع قرن ، حتى جعلت منها «بورة حرب» مزمنة . ومنذ ١٩٤٨ . اثبتت التجربة الإسرائيلية الدموية أن «مع الأكل تأتى الشهية» ، ومع الوقت تتحول الشهية إلى شهوة ، ومع الأثنين تتحول الشهوة إلى شره . او ان شئت فقل اثبتت أن نظرية الأمن هى كمن يشرب ماء البحر ليرتوى . فلا يزداد إلا ظمأ ، فيشرب أكثر فيظمأ أكثر ، وهكذا إلى حد الإنفجار .

وتعبيرا عن فلسفة الردع العسكرية وروح التوسعية الإقليمية هذه ، جنبا إلى جنب مع غرور القوة المتغطرسة ، يمكن أن نقتبس هنا بعض تصريحات العدو وتهديداته بعد يونيو ، ففى تلك الفترة بالذات تبلورت كل مفاهيم نظرية الامن الإسرائيلى وبرزت فرضياتها ومعالمها تماما . «إن الأمل الوحيد فى ردع العدو حتى لايفرض حربا على إسرائيل» ، قال آلون ، «يرتبط بقوة جيش الدفاع وبطريقة استخدامها» . أما هذه

نفسه وبهذه الطريقة فقد حددهما بارليف بوضوح فى أن «القوات التى تحتل المراكز الأولى فى سلم الأولويات هى السلاح الجوى ، والقوات المدرعة ، والقوات المحمولة جوا . أما عناصر قواتنا المسلحة الأخرى فهى إلى حد كبير عناصر مساعدة». وفى مناسبة أخرى عاد ألون يقول «أن هدف هذه القوات الصريح والمعلن هو ردع العدو عن بدء حرب جديدة ، فإذا قامت الحرب رغم ذلك ، فإن علينا أن نضمن النصر الإسرائيلى بأكبر قدر من السرعة والكفاءة مع أقل قدر من الخسائر».

أما المعلق العسكرى زيف شيف فكتب يقول بعد يونيو «لقد تخلصت إسرائيل بفضل الوضع الجغرافى -الاستراتيجى الراهن من مخاوفها القديمة وهى أنها إن لم تكن البادئة إطلاق النار فقد تهزم أو تضطر إلى دفع ثمن فادح من الضحايا» . وفى الخط نفسه أعلن ديان أن «هدف إسرائيل هو تحويل خطوط وقف إطلاق النار إلى سلام دائم مع العالم العربى . وللوصول إلى ذلك علينا حماية حدودنا الجديدة بطريقة تبدد أدنى أمل قد تطوف بأذهان أعدائنا بالقدرة على طردنا بقوة السلاح» .

واستطرادا للمنطق نفسه قالت مايير «إن أعداءنا يحافظون على وقف إطلاق النار لا عن رغبتهم فى السلام وإنما من خوفهم من

الدبابات والجنود والطيــارين الإسـرائيليين» . وردد المعنى نفسـه موردخاى هود قائد الطيران الأسبق حين قال «لقد تمت المحافظة على الهدوء النسبى المستمر منذ سنتين بفضل قوة الردع التى يمتلكها جيش الدفاع . إن قوة الردع التى يملكها جيش الدفاع تنبع من لياقة هذا الجيش واستعداده وقوة سلاح الطيران» .

إلى هذا المدى بالفعل وصلت فلسفة «عبادة القوة» عند إسرائيل ، وجها آخر منطقيا وحتميا «لعبادات الذات» - فسياسة القوة إنما هى المكافىء الموضوعي لسياسة العنصرية . وفيما بين الأثنتين ، عبادة القوة وعبادة الذات ، أصبح التوسع «حقا طبيعيا» ، إن لم يكن حقا «الهيا مقدسا» (!) لإسرائيل ، ورسالة الأجيال المباركة . ولم يكن هذا خافيا على الكثيرين فديجول مثلا واجه الإسرائيليين فى ١٩٦٨ بقوله «يعتقد الإسرائيليون أن كل شيء مباح لهم . أنهم يتسوعون خارج حدودهم سعيا وراء أعداء حقيقيين أو وهميين» . ثم اعتبر فى هذا مثلا قول دايان المشهور بعد يونيو : «الجيل السابق أقام الدولة ، وجيلنا أمتد بحدودها إلى خطوط أمنة ، وعلى جيلكم أن يحمل هذه الحدود إلى حيث أمال الأجداد فى أرض إسرائيل الكبرى» ..

وعند هذا الحد أيضا يكتمل لنا بروفيل دقيق للكيان الصهيونى فى إسرائيل . فهو بتركيبه النفسى والعنصرى والعسكرى والجغرافى يكرر

ويجمع فى آن واحد وفى جسم واحد ملامح مدينة قمة التل أو اكروبوليس» العصور القديمة التي تتحكم من عل فى السهل تحت أقدامها ، ووضع قلعة العصور الوسطى المحصنة التى تنقض على الريف المحيط بغاراتها من وقت لآخر ، ثم دور بروسيا – «بروسيا الشرق الأوسط» – بسياسة الدم والحديد والضم ، ثم أخيرا حالة ألمانيا النازية بعنصريتها الأستعلانية وعسكريتها التوسعية ومجالها الحيوى وأستراتيجيتها الأثيرة فى الحرب الخاطفة . والحقيقة أن إسرائيل الفاشية المتحجرة بدأت ببربرية العصور القديمة ولانقول الحجرية ، وانتهت تلميذة مخلصة لجلادها النازى فلسفة ووجودا ووسائل .

وعدا هذا ، تدل كل وقائع ومؤشرات السنوات الأخيرة على أن غرور القوة وصلف التسلط وصلا بإسرائيل إلى حد يتاخم جنون العظمة السياسي كما رأينا .. فهى وقد بدأت بفكرة «الشعب المختار» وعقدة العرق والتفوق العنصرى ، فقد انتهت إلى أن تعتبر نفسها «الجنس السيد» أو السوبرمان (كذا) بالقياس إلى الإنسان العربي . وبدعوى التقدم الحضارى والتفوق التكنولوجى على العرب انتهت إلى الأعتقاد بأنها تمثل «المدينة» والعالم المتقدم فى الشرق الأوسط ، حيث العرب هم الريف» أو عالمه الثالث على الترتيب . وعلى هذا الأساس وذاك عدت

ـسـبها الدولة السيدة أو النبائدة والقائدة في المنطقة ، ومنها قفزت كنا
رأينا الى دعوى القوة العظمى في المنطقة Super Stete أيضاً .
وهكذا : ثلاثية مـريضة . من مركبات الاستعلاء تدور حول محور
معنوى واحد هو التسيد وتشترك في مقطع لغوى واحد هو أعلى :
سوبرمان، دولة سوبر، سوبر باور!

٦ أكتوبر وأمن اسرائيل

لقد سبق أن تعددت المواجهات العسكرية بين العرب واسرائيل دون أن تكون أى منها نقطة تحول جذرى أو تحول أكثر من محلى، لأن نتائجها الميدانية كانت من اسف تسير فى اتجاه واحد، رتيب كما هو كئيب، يتفق تماما مع موازين القوى العالمية السائدة ومضارباتها.لكن حرب اكتوبر وحدها تأتى لتقلب التوازنات المحلية ونتائج الصراع الميدانى، ليس فقط لأول مرة فى تاريخ الصراع، ولكن أيضا لأول مرة فى ظل الوفاق الدولى الجديد ومناخه. من هنا جاءت المعركة أول «اختبار قوة» حقيقى للعدو المباشر ومعسكره.

ففى هذه المعركة الفاصلة نالت اسرائيل صدمة كهربائية، ان لم تكن صاعقة مدمرة بصورة مباشرة ، فانها باثارها غير المباشر والبعيدة المدى قد ألقت ظلالا كثيفة وكئيبة على بنائها التحتى والقومى على السواء وسلطت ذبذبات عميقة ومخلخلة على صميم كيانها وعلى جذور هيكلها المادى والايديولوجى جميعا.

وبصفة محددة فان هذه الاهتزازات استقطبت فى نظرية أمنها المقولة بكل معطياتها وفرضياتها وادعاءاتها المزعومة، وكانت محصلة نتيجتها الصافية هى فشل وافلاس بل وانهيار هذه النظرية ومعها فلسفة الردع.

فلقد اثبتت المعركة أن الأمن ليس بالأرض، وأن الأرض ليست بالقوة، وأن القوة ليست بالسلاح، وأن السلاح لا يفرض السلام، كما أن السلام لا يفرض. ولما كان دور الجيش في الوجود الاسرائيلى هو ما رأينا، وكانت نظرية الأمن عنده تعنى ما تعني، فيمكننا أن ندرك أى ضربة قاصمة تلقتها اسرائيل فى صميم عمودها الفقرى وجهازها العصبى المركزى بل وجسمها وكيانها كله.

ولدينا في هذا مجموعة شهادات واعترافات قاطعة من العدو نفسه. يقول يونيل ماركوس: «لقد أصيبت ثقة الجمهور بضربة قوية، حين بدأ يتضح لنا أن نظرية سياسية كاملة متعلقة بالأمن قد انهارت». ويقول بنيامين كادر، أستاذ بالجامعة العبرية، فى رسالة إلى مايير «.. كانت أياما صعبة لأن نظريات أساسية قد انهارت خلالها، ولأن بديهيات قد تحطمت عشيتها ولأن اساطير كثيرة قد إنتهت بعدها». ويقول شبتاى تيفت: «كانت قوة الردع هي القيمة العليا فى مفهوم آمن اسرائيل وكانت جوهره . ولكن ثبت أنه كلما قويت ضربات جيشنا، كلما قوى فى قلوب

العرب الاصرار على تنمية قوتهم ومجابهتنا من جديد». هذا بينما حذر أمنون روبنشتاين قائلا «لقد أثبتت حرب أكتوبر أن علينا أن نفهم أن لقوتنا حدودا، وأن نحسب قوة الآخرين ومشاعرهم. ومن يقترح علينا غير ذلك فهو يقترح على اسرائيل مصيرا أسود». وأخيرا يأتي اعتراف وزير العدل الأسرائيلي السابق، الذى استقال احتجاجا على بقاء دايان بطل النكسة فى الحكم، ليلخص الموقف كله: «إن الحرب ليست الوسيلة التى يمكن بها فرض اسرائيل على العرب» . والمعنى نفسه أكدته الجارديان حين قالت «ان اعتماد اسرائيل فى علاقاتها مع العرب على قوتها العسكرية كان باهظ الثمن فى الماضى، وقد يؤدى إلى الكارثة فى المستقبل».

انهارت، اذن، نظرية الأمن الاسرائيلى، ولا سبيل إلى الشك فى هذا ذلك مجمل الحقيقة. أو كما وضعها جميس شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى نفسه «لقد فشلت نظرية الأمن الاسرائيلى.. والاسرائيليون يدركون الآن أن أمنهم لا يمكن أن يتحقق بمجرد الاحتفاظ بالتفوق العسكرى، ولقد أصبحت الآن هالة الدولة التى لا تقهر موضع تساؤل». أو كذلك بعبارة ناداف سافران فى مجلة فورين أفيرز، فان الحرب لقنت اسرائيل درسا جديدا فى الأمن، وربما تعلم الاسرائيليون شيئا جديدا عن أساس أمنهم.تلك هى خلاصة الخلاصة. أما تفصيلا فنحن نستطيع

أن نرصد ونسجل لأكتوبر المؤشرات الثلاثة الآتية: خطر القوة غير الذاتية ، وقصور الأمن الجغرافى، وهم التفوق التكنولوجى.

خطر القوة غير الذاتية

أثبتت المعركة خواء وعجز منطق القوة كمحور لنظرية الأمن الاسرائيلى. فأسطورة الجيش الذى لا يقهر، والقلعة التى لا تقتحم، وسلاح الطيران سيد سماء الشرق الأوسط، وآلة وآلهة الحرب الاسرائيلية، ونوعية المقاتل الاسرائيلى والسلاح الاسرائيلى، إلى آخر كل هذه المقولات الدعائية كلها قد ضربت فى الصميم مرة واحدة وإلى الأبد على يد القوة العربية المضادة - ويمكن أن نضيف بالاستدلال: والمتفوقة أيضا.

والسؤال الذى يقفز على الفور هو: لماذا، وما الذى حدث هنا والآن بالدقة خلافا لما أوحت به تجربة الماضى فيما قبل أكتوبر؟ والرد الوحيد هو أن التحدى العربى الجاد كشف لأول مرة عن حقيقة فائقة الأهمية والمغزى وان لم تكن جديدة فى حد ذاتها.

هذه الحقيقة هى أن القوى الاسرائيلية هى أساسا قوة مستعارة منحولة وليست أصيلة، قوة غير نابعة من الذات ولا من عند نفسها، وإنما مستوردة من خزان القوة الأمريكية وبحرها المحيط . فحين

جوبهت القوة المستعارة بقوة مكافئة لها وأصيلة على الجانب المضاد كان أمرا مقضيا آن تتصدى الأولى وأن تتهاوى.

إن اسرائيل ككيان جيوبوليتيكي وجيوستراتيجى هى بوضوح كيان «محكوم عليه» بالجغرافيا والتاريخ، بكثافة السكان، بكثافة الانتاج، بالكثافة الحضارية.. الخ. ولم يكن وجه الغرابة أن تنكشف وتتعرى خرافة القوة الاسرائيلية التي بنتها وضخمتها إلى حد التورم والانتفاخ آلة الدعاية الصهيونية. الغرابة الحقيقية انها لم تنكشف من قبل، وأن القوة العربية الحقيقية لم تكشف جوهرها الكامن منذ البداية. ان الهزيمة الاسرائيلية فى ٦ أكتوبر ليست استثناء لقاعدة، ولكنها عودة إلى القاعدة الأصولية والطبيعية، عودة إلى الطبيعة، إلى الجغرافيا، «قدر الدول السياسى كما وضعها ديجول ذات مرة».

قصور الأمن الجغرافى

وعلى ذكر الجغرافيا، فلعل وأبلغ ما اثبتته حرب أكتوبر أن فكرة الأمن ليست، ولا يمكن أن تكون، فكرة جغرافية محضة فى عصر العلم والتكنولوجيا. الأمن ليس جغرافيا صرفا، أو هو لم يعد بالجغرافيا وحدها.

فحين اجتاحت القوة المصرية الطافرة والظافرة عائق القناة واقتحمت من بعده خط بارليف القوى الذى أسرف العدو فى تحصينه

وأسرف على نفسه في الدعاية له، وحين اعتلت القوات السورية العازمة والمقدامة مرتفعات الجولان الوعرة واقتحمت معاقل خط ألون ودشمة ومخابئه وأوكاره ودكت خطوط دفاعه فيها، فانها في تلك اللحظة نفسها فجرت ونسفت إلى الأبد دعوى «الحدود الآمنة» (اقرأ: الحدود الآثمة!) التي ملأ العدو بها الدنيا ضجيجا وتضليلا. ولعل مما له مغزاه العميق هذا التساؤل الذي شاع أخيرا في اسرائيل: أليس من المفارقات الغريبة أن تنتصر اسرائيل في ١٩٦٧ من «حدود غير آمنة»، بينما تنكسر في ١٩٧٣ من «حدود آمنة»؟

خذ مثلا، كمجرد نموذج، تعريف ايجال ألون في كتابه «الأمن الاسرائيلي»، ١٩٥٨، للحدود الآمنة. «إن الحدود الآمنة – يقول بالنص – هي تلك الحدود السياسية الدفاعية التي ترتكز إلى عمق اقليمي وإلى موانع طبيعية تحول دون تقدم جيوش برية مسلحة بالمدرعات وتوفر وسائل الانذار الفعالة ضد اقتراب الطائرات المعادية. ومن ناحية أخرى فإنها الحدود التي يمكن أن تستخدم كقواعد للهجوم المضاد»، والتفسير الحقيقي الوحيد لهذا التعريف هو إن الحدود الآمنة هي تلك التي يمكن منها القيام بهجوم جديد: ان الحدود الآمنة عند اسرائيل هي «الحدود الهجومية».

لعل من الواضح الآن جيدا أن دعوى الحدود الآمنة هذه هى دعوى ملفقة ونظرية حتمية بالية بعثها العدو من جبانة الفكر العسكرى المنقرض لتكون مبررا للاغتصاب وابتلاع الأرض المحتلة ووضع اليد عليها نهائيا. فالحقيقة أن ادعاءات العدو الاقليمية ومطالبته بحدود آمنة يمكن الدفاع عنها أن هى إلا فكرة عتيقة تمت إلى تاريخ العسكرية الغابر وإلى عصر ما قبل المدفعية على الأقل وهذا بالضبط ما أثبتته حرب أكتوبر، وما فرض نفسه على بعض الكُتّاب الاسرائيليين.

مثلا كتبت صحيفة هاموديع تحت عنوان «الأمان المفقود» «لقد خلق العمق الاستراتيجى الذى حصلت عليه اسرائيل منذ حرب الأيام الستة فاصلا طبيعيا بين الجبهة والمؤخرة. وحتى فى ذلك الوقت كانت البلاد كلها جبهة، وليست القدس وحدها التى تقع على خط الحدود وكانت تتعرض لعمليات القصف التى وجهت ضد السكان المدنيين، بل وحتى مدن السهل الساحلى المنخفض كانت قريبة من الجبهة. وهكذا لم يكن هناك فصل بين المؤخرة. غير أن هذا الفاصل لم يكن الا للرؤية فقط. وحقيقة أنه لم تسمع فى مدن اسرائيل ومستعمراتها أصوات المدافع، ولكن ذلك لم يقلل من احساس الشعب بأنه فى حصار».

حتى نظرية مستعمرات الحدود ومستوطناتها في الجولان كدرع دفاعية واقية لاسرائيل، وكذلك نظرية الفراغ العمراني والبشرى في سيناء كعامل مساعد على صد الهجوم المصرى، كلتاهما قد سقطتا كما قال ديفيد شليف في دافار. فعن الأولى، اذا كان ديفيد اليعازر قد قال أن هناك أهمية قصوى من ناحية الأمن لسلسلة المستعمرات المقامة فى الجولان تكاد تقارب أهمية الجيش الاسرائيلى نفسه، فقد اتضح فى الجبهة السورية - يقول شليف معارضا - أن مستوطنات مدنية قليلة السكان، كما فى هضبة الجولان، ليست بقادرة على صد وايقاف هجوم واسع النطاق للمدرعات السورية تشترك فيه مئات الدبابات ويشارك فيه القصف المدفعي والصاروخي البعيد المدى.

أما عن النظرية الثانية فقد أثبتت المعركة أن الفراغ العمرانى لم يجد اسرائيل شيئا، حيث أن غياب السكان المدنيين فى سيناء وقطاع القناة لم يمنع الغزو المصرى وعبور القناة. «لقد تبددت فى حرب يوم الغفران كما يبدو، هاتان النظريتان».

وعند العالم الخارجي أيضا أن نظرية الحدود الآمنة بالمفهوم الإسرائيلى قد ماتت وشبعت موتا. «أن الأحداث الخطيرة التى تجرى الآن فى الشرق الأوسط - كتبت الايمانيتيه فى ذورة المعركة - توجه ضربة قاتلة إلى نظرية الحدود الآمنة كما يفهمها حكام تل أبيب». وبالمثل

وفي نفس الوقت كتبت الديلي تلجراف أن «أسطورة الأمن الاسرائيلي قد تحطمت تماما. وعلى اسرائيل منذ الآن أن تتخلى عن فكرة أن أمنها يمكن أن يتحقق بمجرد احتلال قطعة من الأرض دون أي برنامج سياسي». أما السناتور الأمريكي المعتدل فولبرايت فلم يكن يقل وضوحا ولكنه كان أكثر عمقا، اذ قال «من المحتم على اسرائيل أن تتخلى عن خرافة الأمن العسكرى المطلق عن طريق احتلال الأرض، مع الاعتراف بأن الأمن العسكرى المطلق لدولة ما يعنى عدم الأمن المطلق للدولة المجاورة لها». وفي مقال له في الموند يصل موريس ديفيرجية إلى القمة في كشف وتفنيد مفهوم الحدود الآمنة الاسرائيلى. «ولكن ما هى الحدود الآمنة؟.. إن مفهوم الحدود الآمنة عند هؤلاء الاسرائيليين يرتبط بمفهوم «المجال الحيوى»، ومعناه المجال اللازم لاسرائيل لكي تتمكن من تعبئة جنودها المستوطنين لمواجهة هجوم ما.. وبهذا المعنى فان الحدود الآمنة لن تكون آمنة إلا لفترة وجيزة محدودة بتقدم الوسائل الحربية التى يتبناها الخصم».

وأى طالب للجغرافيا العسكرية، فضلا عن الجغرافى الأكاديمى، يدرك تماما أن كل العوامل الجغرافية والحواجز الطبيعية والعوائق التضاريسية هى سلاح ذو حدين، وأنه ليس ثمة شئ «كحدود طبيعية» و «كحدود آمنة» فى عصر الطيران والذرة والمدفعية عابرة الدول

والصواريخ عبارة القارأت. أو كما قالت التايمز «اذا أريد لاسرائيل أن تتخلى غن الأسطورة القائلة بأنها لا تقهر، فان عليها أن تصل إلى القناعة بأنه لا توجد حدود عسكرية آمنة». إن الأمن في عصر التكنولوجيا الحديثة- لتعلم اسرائيل الآن ان لم تكن تعلم - وليس بالطبوغرافيا؛ ولا المنعة والحماية هى الجغرافيا كذلك، بل ليست حتى بالتكنولوجيا ذاتها بعد ذلك جمعيا.

وهم التفوق التكنولوجى

نعم، ليس الأمن بالتكنولوجيا هى الأخرى، وهذا ما ينقلنا إلى الضلع الثالث والساقط من مثلث نظرية الأمن الاسرائيلى. لقد روجت اسرائيل وحماتها طويلا لفكرة تفوقها التكنولوجي «الخرافى» بالقياس إلى تخلف العرب «المخيف». بل لقد وصل الأمر باسرائيل إلى حد أن قدرت أن العرب لن يعبروا تلك الهوة التكنولوجية ويلحقوا بها قبل منتصف القرن الحادي والعشرين على الأقل! وكان التفوق الجوى بالذات هو نقطة ارتكاز هذه الفكرة الغشوم. لماذا، وعلى أى أساس؟- لأن العرب - هكذا نظر العدو - عقلية يدوية غير آلية، ويدوية لأنها بدوية، وبدوية لأنها بدائية وصدق الكثيرون هذه السذاجات أو السماجات، بحيث وقع حتى وقر فى روع البعض، حتى منا، أنه لا ندية ولا تكافؤ وأن الهوة سحيقة والصراع عقيم.

وكان هذا بالضبط هو هدف العدو من تلك النظرية التى لم تكن قطعة من العلم الموضوعى بقدر ما كانت قطعة من الاعلام الدعائى والجرب النفسية.

فبعيدا عن التهوين أو الاستخفاف، فلقد كان فى تلك الدعاية، كما فى كل دعايات العدو الجهول، من الخديعة أضعاف مما بها من الحقيقة. وكان ذلك جزءا لا يتجزء من طبيعة الحرب النفسية كما هو كامن فى سياستها. ومهما يكن، فلقد جاءت المعركة لتحيل تلك النظرية أو النظرية ركاما وأطلالا مع حطام الطائرات الفانتوم والميراج المتساقطة بالمئات، فضلا عن قلاع الدبابات المحطمة بالألاف، والتى استحالت بها صحراء سيناء ومرتفعات الجولان جبانة كبرى «للحديد الخردة، وارد أمريكا» كما سخر البعض، أو رمزا حيا (أو ميتا!) للمقولة الشهيرة «مصر مقبرة الغزاة» كما قد نضيف نحن. أو كما قالت النيوزريك «لقد سقطت ثقة اسرائيل فى تفوقها التكنولوجى على العرب، تماما مثلما تهاوت طائرات بفعل شبكة الصواريخ المصرية العملاقة».

وتفسير ذلك ببساطة أن الحرب أثبتت، أولا، أن الانسان لا السلاح هو الأساس والفيصل، فالسلاح بالرجل وليس الرجل بالسلاح، وثانيا، أننا أيضا نملك السيطرة على التكنولوجيا وعلى حضارة العصر وروحه، وأن التفوق التكنولوجى ليس حكرا على العدو أكثر مما يعد التخلف

فرضا أبديا على العرب. وحين تحقق هذا، أصبح فى حكم المحتوم أن يتحول التفوق العربى العددى الهائل إلى تفوق كيفى أيضا أشد هولا وخطرا. وهذا بالفعل ما حدث فى أكتوبر، وبأكثر منه سيحدث فى المستقبل.

وعلى هامش القضية، بل فى صميمها اذا كنا نعنى حقيقة أن الصراع معركةحضارية إلى جانب كونه معركة عسكرية وسياسية، ولابد أن نلفت النظر إلى مغالطة مزدوجة، ساذجة بقدر ما هى جذرية، فى منطق العدو ودعايته. فحتى تفوقه التكنولوجى المزعوم، والذى أن صح لم يكن الا منحولا منقولا من الغرب عامة وأمريكا خاصة، لم يكن ليحتم انتصاره فى الصدام بالضرورة. فما أكثر فى التاريخ قصص الغارات المتبربرة المنتصرة على مراكز الحضارة العريقة الكثيفة. بل لقد كان موت معظم الحضارات التاريخية الكبرى على يد أمثال تلك الجماعات المتخلفة البربرية التى لا تملك سوى القوة الحربية الصرف. فالتفوق التكنولوجى الحربى لا يرادف بالضبط أو بالضرورة التفوق الحضارى.

وأغلب الظن أن العدو كان يدرك هذه الحقائق فى قرارة نفسه، بل انه ليدرك يقينا أنه هو نفسه بقدر ما يبدو متفوقا تكنولوجيا وماديا يعد متخلفا حضاريا وثقافيا وانسانيا وايديولوجيا. غير انه كان يخدع نفسه

كما يخدعنا كجزء من حربه النفسية ضدنا. وعلى أية حال فقد اضطر العدو إلى أن يعترف في النهاية. ففي كتابه «المواجهة» يقول لاكير عن العلاقة بين الجيش والمجتمع أو بين التفوق التكنولوجي والتقدم الحضارى «كان ثمة تحليل لحرب الأيام الستة يقول ان مرجع النصر فيها هو التفوق التكنولوجي والنظام لطرف حارب ضد أناس متخلفين تعليميا واجتماعيا. وقد اثبتت هذه الحرب (أكتوبر) أنه يمكن بناء جيش متقدم جداً عن القاعدة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والتكنولوجية التي ينتمي اليها. وربما كان ذلك هو أخطر دروس الحرب على الاطلاق!».

مهما يكن، وعلى أية حال، فلقد كان من المغالطة السافرة الحديث عن التفوق الاسرائيلي الحضاري على العرب بصفة مطلقة ودون عنصر النسبية والنسب الصحيحة. فعلى الأقل، فان الدول العربية مجتمعة تملك بحكم الحجم المطلق عددا حقيقيا من العناصر والأفراد العلميين والفنيين والتكنولوجيين أضعاف ما تملك اسرائيل بلا شك،بل ربما أضعاف مجموع سكانها بلا تحديد. بل لعل مصر وحدها، بحسبانها كبرى الدول العربية، تملك من هذه العناصر عددا يعادل ان لم يفق ما تملك اسرائيل. إن التفوق الكيفي، حتى إن صح، عارض مرحلي جدير بأن يذوب في بحر التفوق الكمي بحكم العصر وقوانين الاحتكاك الحضارى والتنوير.

الفصل التاسع

العـــالم والمعـــركة

أن يقول أحد أن معركة أكتوبر هى نقطة التحول الحاسم فى تاريخ العرب الحديث، أو أنها خط التقسيم التاريخى الفاصل فى الصراع العربى - الاسرائيلى، فتلك على الأقل فرضية معقولة تتناسب مع أبعاد المنطقة المحلية والاقليمية، إن لم تكن حقيقة واقعة تثبتها عشرات الأحداث والشواهد والمؤشرات اليومية الجارية. أما أن نقول أيضا أنها أخطر نقطة تحول فى تاريخ العالم المعاصر والسياسة العالمية فى عطر الوفاق أو منذ الحرب الباردة، فمقولة قد تبدو للبعض فضفاضة أو ادعاء عريضا.

الحقيقة، مع ذلك، هى هذا بالضبط. إنها نهاية عصر وبداية عصر، على المستوى العالمى كما هى على المستوى الاقليمى والمحلى. وبالتحديد نهاية عصر ما بعد الحرب الثانية أو الحرب الباردة وبداية عصر ما بعد الوفاق. فآثار ٦ أكتوبر ونتائجه السياسية تتجاوز تماما النطاق الاقليمى لتترامى إشعاعاتها وانعكاساتها على النطاق العالمى بأسره تقريبا بحيث تلقى بظلالها وأصدائها على الأفق الكوكبى بغير مبالغة. سوف

يثبت المستقبل - نحن نرجح، ولا نقــول نقطع - أن حرب أكتوبر هي أخطر حدث كوكبــي في تــوازنات الـقوى الجديدة في الــعــالم منذ أزمة كوبا، وربما منذ حرب فيــتنام، وربما كذلك منذ الحرب الكورية، وقد نضيف الحرب العــالمية الثــانية نفسها. يكفي أنها أكثر من أي عامل آخر قد عمقت من اتجــاه العــالم إلى تعدد المراكز وظهور مراكز قوة عالمية بازغــة أو نامية على حساب الولايات المتحدة بصفة خاصة.

فاذا بدا في هذا قليل أو كثير من التجاوز أو الترخص والتضخيم أو التفخيم بالقياس إلى حجم المعركة ومقياسها المباشر، فالرد هو أن العبرة إنما هي باللحظة التاريخية للحدث وكثافة الملابسات والعلاقات المتشابكة فيه ومغزى الضوابط والضواغط المتفاعلة معه ثم أخيرا بمدى الاستــقطاب والاختــزال الذي يفرضــه هو على كل هذه المعطيات والمتغيرات.

ومن هذه الزاوية يمكن أن نقرر بلا مخاطرة أن حرب أكتوبر قد أثبتت نفسها أكبر محول ومفاعل، أكبر مكثف ومختزل، سياسي في الاستراتيجية العالمية. فما نعرف تقريبا حربا محلية محدودة منذ الحرب العالمية الثانية ثرية في آثارها وثورية وثرى بنتائجها الدولية كأكتوبر. إنها على أقل تقدير أكبر المتغيرات العالمية منذ وبعد الوفاق، وهي

بدورها قد فرضت متغيرات عديدة على كل المستويات العالمية والاقليمية والمحلية. إنها - هذه الحرب العجيبة سياسيا كما هى عسكريا - نقطة الاختزال وبؤرة التكاثف لتطورات وتغيرات عصر بأكمله وعالم بأسره. وعلى هذا الأساس وحده - نحن نجادل - ينبغى أن تفهم وأن تحلل.

وليس أقطع ولا أوضح فى هذا التقدير العالمى من شهادات القيادة العربية العليا المسئولة التى يتوافر لدينا نخبة جامعة منها. فلنستمع أولا إلى تقييم الرئيس السادات. «انها ببساطة - قال سيادته مخاطبا الصحافة العالمية فى مؤتمر لاهور - معركة ٢٠٠٠ دبابة خلال ١٧ يوما فقط من القتال...

معركة يعترف العالم كله اليوم بأنها نقطة تحول فى تاريخ العالم. ولن يعود العالم إلى ما قبل العاشر من رمضان، ولا عسكريا ولا اقتصاديا. كل شئ لابد أن يتغير. وقد بدأ فعلا هذا التغير فى موازين القوى».

وبالمثل يقول الرئيس الأسد «حرب أكتوبر سطرت صفحة مشرفة فى التاريخ العربى.. حرب أكتوبر خلقت أوضاعا جديدة، ليس فى اقتصاد الوطن العربى فقط، بل وفى الاقتصاد العالمى أيضا». كذلك صرح وزير الخارجية المصرى للصحافة العالمية قائلا «لا أبالغ فى القول أن هذا التاريخ يعتبر نقطة تحول جديد، لا فى تاريخ المنطقة العربية فحسب، وإنما فى أوضاع وموازين القوى المعاصرة».

ويبقى فقط أن نجيب أولا على السؤال المنطقي والحتمي: كيف، ولماذا لننظر اذن إلى خريطة السياسة العالمية من منظور الصراع العربي – الاسرائيلي قبل المعركة، نحدد معالمها وتضاريسها ومؤشراتها، ثم نرصد ما طرأ عليها من تغيرات وانقلابات بعدها. ومن حجم الفارق بين الخريطتين يتحدد لنا الحجم الحقيقي لدور المعركة.

خريطة اللاسلم واللاحرب

إن للقضية أبعادا دولية تتعدى حدود المنطقة وأطراف الصراع المباشر، فذلك أمر طبيعي فى عالمنا المعاصر الذى أصبحت فيه كل المشكلات المحلية بحكم طبيعة العصر نفسه مشكلات دولية بدرجة أو بأخرى. وليست قضيتنا باستثناء ولا هي بشذوذ. الفارق فقط هو في الدرجة لا النوع. فهنا يجتمع البعدان المحلى والدولى ويتشابكان فى تداخل مربك ومعقد كما لم يحدث فى أى مشكلة محلية أخرى. وهذا التداخل العميق هو أعقد ما فى القضية، بل هو عقدتها الصماء.وهو يعنى أن القضية ليست ثنائية مطلقة، بل هناك رباعية تتألف من القطبين المحليين العرب واسرائيل، والقطبين الأعظم الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، فضلا عن إطار كامل من الأطراف والمؤثرات الثانوية والجانبية.

ولئن كان هذا يرجع فى جزء منه إلى الطبيعة والأصول العالمية للعدو الصهيونى ثم سياسته المخططة فى مرحلة ما فى تدويل الصراع، فان جزءا آخر يرجع إلى، كما يدل على، عجز أى من الطرفين المحليين حتى الآن عن حسم الصراع لصالحه مرة واحدة وإلى الأبد. ويتضح هذا الوضع الأخير فى «متناقضة» حرب يونيو، حيث حقق العدو نصرا عسكريا حاسما وفشل فى انتزاع النصر السياسى، فى حين انهزمنا نحن عسكريا ثم صمدنا سياسيا.

والشئ المهم هنا، كأنه القانون، هو أن الجانبين الدولى والمحلى فى القضية يتناسبان تناسبا عكسيا. فكلما ضعفنا، ضعف الجانب المحلى وزاد عنصر الدولية فى القضية، وكلما زاد هذا الأخير فقدنا حرية الحركة وخرج زمام الأمر والمصير من أيدينا حتى ليمكن فى حده الأقصى أن يفرض علينا الحل من الخارج. وعلى هذا فان مستقبل الصراع كله يتوقف فى النهاية على تغليب هذا الجانب أو ذاك على الآخر.

وبالتالى فان كل شئ يتوقف فى نهاية النهاية على مدى قوتنا أو ضعفنا، فهذا هو العامل المحدد. فالملاحظ مثلا أننا فى مراحل قوتنا نسبيا نريد القضية محلية ولا نريد تدخل العالم، بينما فى مراحل ضعفنا، كما كان الحال بعد هزيمة يونيو، نريدها قضية دولية حماية لنا

من مخططات العدو الاسرائيلي الذى يحاول تثبيتا لأمره الواقع واستغلال لنصره أن ينفرد بنا وبمصير الصراع وأن يقنع العالم أن القضية مجرد صراع محلي وليست قضية دولية تهدد السلام والأمن العالمي وأنه قد فرض الحل المحلي بنجاح ولا مبرر لحل أو تدخل دولي .

والعدو الاسرائيلي، وهو عدو حياة وجد فرصة عمر في غفلة من زمن كانت أطماعه بعد يونيو قد اتخذت خطا تصاعديا بانتظام لاشك فيه.لقد ظفر بنصر، أيا كانت اسبابه أو ملابساته، يتعدى أعرض أحلامه هو نفسه وأكثرها وحشية، حتى لقد كان على استعداد فيما يبدو بعد ذهول المعركة مباشرة لأن يقبل الحد الأدنى أو الأوسط من المكاسب، كالأمن مثلا مقابل الأرض، أى الاعتراف مقابل الانسحاب.

ولكن مع ترسخ الاحتلال، تورمت نفسيته ومعها أطماعه وغروره وأصبح يطلب الأمن والأرض معا، كل شئ - يعني - مقابل لاشئ وبتعبير مباشر: أصبح يطلب الاستسلام الكامل علنا، وبغير قيد أو شرط تقريبا - «المفاوضات المباشرة» التى كان يطالب بها لم تكن الا غطاء مقنعا أو مقنعا لتوقيع صك الاستسلام. ولن نقتبس هنا أيا من تصريحات زعماء العدو، اذ لاحصر لها كما لاحاجة لنا بها. المهم أنه

بدأ يضع موضع التنفيذ كل مشاريعه وخططه الاستيطانية لتحويل الأمر الواقع الجديد إلى حقيقة جغرافية وسياسية أبدية.

وفى الاتجاه التصاعدى (أم هو التنازلى؟) نفسه، جاء الخط البيانى لتحرك الولايات المتحدة السياسى. فبعد أن «مررت» قرار الأمم المتحدة بشأن التسوية السلمية لأزمة الشرق الأوسط، ركزت استراتيجيتها الدولية على تمزيقه وتعويقه حتى أصبحت فى النهاية تتجاهله تماما وتحاول ارغام العرب على التنازل الواقعى عنه والبدء من لا شئ، أى من حقيقة الأمر الواقع وثقل الهزيمة فقط. وبالمثل فعلت بمهمة يارنج حتى أصيبت بالشلل الزاحف فالنصفى فالكلى. وبالمثل أيضا جرت المناقصة السياسية على مبادرة روجرز: من «صفقة» حل شامل package deal، إلى حلول منفصلة منفردة، إلى حل جزئى، إلى حل ميكروسكوبى تقلص بل تقزم إلى عملية فتح القناة وبقاء كل شئ كما هو تقريبا!

من هنا تعثر الحل السلمى، الحل السياسى كما يوصف، بالسكتة القلبية مات، والأصح أن تقول ولد ميتا ولم يكن اعلاننا فى مرحلة ما أن «القتال هو قرارنا» الا تصريحا بالدفن. أما لقاء القمة فى موسكو بين نيكسون والزعماء السوفيت فلم يزد بالنسبة لأزمة الشرق الأوسط عن «جلاسبره روسيه»، اتفق فيها الطرفان على انهما اختلفا أو على ألا

يختلفا. وكل قيمته الحقيقية أنه قطع على أعلى مستوى كل شك باليقين فى صحة تصريح الدفن. والشئ نفسه يقال عن لقاء القمة الثانى فى واشنطون.

وعند هذا الحد، وبعد أن طاردت الولايات المتحدة دور الأمم المتحدة فى حل الأزمة حتى طردته، ثم دور الأربعة الكبار من بعده، ثم لم تنجح مع ذلك كله فى «أمركة» القضية نهائيا، فان الخطر الذى بات يتهددها كان هو الوقوع فى مأزق الاستقطاب الثنائى لتصبح جزءا صغيرا وجزءا لا يتجزأ من لعبة الصراع الثنائى stalemate الذى اتجه عالميا إلى التعايش السلمى والتعاون السلمى على أساس من «الحالة الراهنة» والحلول السلمية والوسطى، التى قد لا تعنى فى حالة الشرق الأوسط إلا «الأمر الواقع».

واذا كان خطر أمركة القضية هو ضياعها فى النهاية، فقد كان الخطر فى حالة الاستقطاب الثنائى هو تجميدها، وضعها فى «التجميد أو التبريد العميق»، «على الرف» أو «تحت البساط» كما تعددت الإوصاف والتوصيفات وقتئذ. ولعل هذا هو بالتقريب ما كانت تمثله مرحلة اللاحرب واللاسلم التى سادت إلى ما قبل أكتوبر. وكما أن احدا فى العالم باستثناء العرب أنفسهم لا يريد ذهاب اسرائيل كدولة، فلم يكن فى العالم قبل أكتوبر باستثنائهم أيضا من يريد أو يجد مصلحة فى وضع نهاية لذلك الوضع المريح والملائم للجميع..

واذا كـان لنا أن نلخص الموقف كله فى تلك المرحلة، فيـمكن أن نضعه كالآتى. قضية الصراع العربى - الاسرائيلى، أو أزمة الشرق الأوسط كما تسمى تجاوزا أو تبسيطا، متعددة الأطراف والمستويات والأبعاد بطبيعتها، لكن يتجاذبها أساسا فى علاقة عكسية، رهيفة ولكنها رهيبة، محوران أو قطبان متنافران: الطرف المحلى والطرف الدولى. وبين قوتى الشد والجذب هاتين، فانها ظلت أزمة عالقة ومشكلة معلقة. وتتذبذب متأرجحة بين حالة من التميع وأخرى من الرهو الممض، لم تكن تمثلها كما مثلتها مرحلة اللاحرب واللاسلم. وتلك المرحلة بدورها لم تكن تعنى مثلما كانت تعنى تحويلها من قضية حية ملتهبة ومتفجرة فى قلب حلبة الصراع العالمى وفى عين اعصار السياسة الدولية، إلى مجرد مشكلة هامشية روتينية، راكدة راقدة، موضوعة «فى النفتالين» ومودعة فى ارشيف الدبلوماسية الدولية الرتيب.

ولأسباب معقدة جدا، أكبر بكثير وأقوى بكثير جدا من أبعاد القضية المحلية لأنها تتعلق بهيكل النظام العالمى برمته، الفوقى والتحتى، فقد كاد الحل الدولى يكون إما فاقد وإما مفقود، إما لا حساب له واما على حسابنا وفى النتيجة، وفى الظروف. فلم يكن ليفض ذلك الوضع المعلق الا الحل المحلى. من هنا فقط، من أرض المعركة، من المعركة المحلية، كان يمكن للامل أن ينبثق. لقد كان مصيرنا «معلقا»، ولكنه - للغرابة والدهشة! - كان «معلقا» بارادتنا..

العرب ، اسرائيل، والوفاق

اسرائيل هى آخر دولة خلقها الاستعمار القديم، وبعده عاشت فى حماية الاستعمار الجديد، لكنها أيضا أول دولة خلقت فى العصر النووى. هى اذن بنت ونبت الحرب الباردة منذ نهاية الحرب الثانية، بل لقد ولدت فى أوج القوة الأمريكية وذروتها حين كانت هذه تنفرد بالقنبلة النووية ومن ثم بالسيطرة العالمية شبه المطلقة. ومنذ ولدت اسرائيل على يد الاستعمار القديم إلى أن انتقلت مسئولية بقائها إلى الاستعمار الجديد وهى تعيش تحت ظل الحماية والرعاية الأمريكية، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تفره وتسمن على التناقضات والصراع بين المعسكرين وبين العملاقين. فقد أفادت اسرائيل افادة كبرى من مناخ الحرب الباردة وفى ظل الاستقطاب الثنائى وبفضل الشلل النووى، وذلك فى ضمان أمنها وفى تأمين بل وتعاظم قوتها. وتلك بالدقة كانت المشكلة الأسنية والأساسية أمام العرب.

ولقد كان أمل اسرائيل أن تكسب أيضا، بل أن تكسب أكثر، فى ظل الوفاق الأخير بين الدولتين الأعظم. ولاشك أن الوفاق هو أهم وأخطر المتغيرات الدولية التى شهدها العالم منذ الحرب الثانية، وضع نهاية للحرب الباردة، وبدأ حالة من الاسترخاء العسكرى والسلام السياسى بين الكتل، فغير المناخ السياسى الدولى، وفوق ذلك أحدث

سلسلة كاملة من المتغيرات المترتبة تمثلت فى مجموعة من الوفاقات والتقاربات الأصغر بين أجزاء كثيرة من العالم.

ولقد تعرض الوفاق لكثير من التشكيك والحملات، سواء عن حق أو غير ذلك، وتساءل البعض، سواء عن حسن نية أو عن نية مغرضة، عما اذا لم يكن يتعارض مع أهداف ومصالح حركة التحرير الوطنية فى صراعها مع الامبريالية والاستعمار فى العالم عامة والعالم الثالث خاصة والعالم العربى بالأخص. وبعيدا تماما عن الاتهام غير الصحيح قطعا بأن الوفاق كان يعنى (التخلى) الجزئى من جانب الإتحاد السوفيتى عن حركات التحرير الوطنية فضلا عن الاتهام ، الظالم والخاطئ كلية «بالتواطؤ» مع الامبريالية الأمريكية، فالأرجح عند البعض أنه ألقى ظلالا معينة على امكانيات الصراع ضد الامبريالية والاستعمار، وربما وضع كذلك حدودا لها.

من المحقق أن الوفاق لا يعنى توقف الصراع بين القطبين أو الكتلتين، وانما هو قد قدم شكلا جديدا محكوما ومضبوطا من الصراع السلمى يتحاشى أساسا أن يصل إلى حد الصدام أو المواجهة النووية التى تهدد سلام العالم أجمع. غير أن هذا بالدقة فتح الباب للولايات المتحدة لكى تمارس سياسة الابتزاز النووى ضد القوى الوطنية والتحررية فى العالم:

وبالنسبة للعالم العربى، فقد كان معنى هذا أن تنطلق اسرائيل بلا رادع لتطبق سياستها فى ابتلاع الأراضى العربية المحتلة منذ يونيو وتفرض سلام الأمر الواقع وسلام القوة.

وقد كانت قضية التسليح هى مدار الخلاف بين سياسة الوفاق وسياسة التحرير فى المنطقة. فبينما صعدت أمريكا سياسة تسليح اسرائيل حتى الأسنان بكميات لا حد لها وبنوعيات متطورة إلى أقصى حد، التزم الاتحاد السوفيتي فى تسليح الدول العربية بحدود معينة. ورغم أن مصر توجهت إلى الاتحاد السوفيتى بحديث خاص على لسان رئيسها «أننى انبه الأصدقاء السوفيت إلى أن محاولات الحل السلمى بغير القوة وهم وخداع، وأن استمرار وقف اطلاق النار لا يخدم فى النهاية الا اسرائيل وحليفتها امريكا»، فقد تحفظ الاتحاد أكثر من مرة على طلبات السلاح المصرية كما وكيفا وتوقيتا.

وبهذا استغلت أمريكا الوفاق لفرض الابقاء على الوضع الراهن فى المنطقة من خلال ما تسميه سياسة المحافظة على التوازن العسكرى فى المنطقة وبدا، على الأقل على السطح، أن الوفاق بقدر ما أفاد اسرائيل عسكريا وسياسيا وزاد من تلاحمها وتقاربها مع أمريكا، قد ضاعف من صعوبات العرب التحريرية وألقى عليهم مزيدا من الأعباء النضالية، مثلما باعد بينهم وبين أصدقائهم الكبار إلى حد أو آخر. وبقدر ما

خرجت اسرائيل وهى أكبر المنتفعين بالوفاق فى العالم، بدا العرب لحين وهم نسبيا الأخسرون منه فى العالم.

ولما كانت أزمة الشرق الإوسط هى كبرى ازمات العالم المستعصية والمتبقية وأشدها خطرا وتفجرا، فقد بدا للبعض أن حالة اللاحرب واللاسلم المفروضة عليها كانت تتفق تماما مع الوفاق، كما بدا هذا الأخير للبعض وفاقا على بقاء وأمن اسرائيل بالتحديد أساسا وفى الدرجة الأولى. والواقع كما أوضح الرئيس السادات فيما بعد «أن أمريكا تضمن أمن اسرائيل، وأن روسيا أيضا تضمن أمن أسرائيل». وأن المجتمع الدولى كله حين لا يذهب إلى أبعد من قرار مجلس الأمن يضمن أيضا أمن اسرائيل».

كذلك فقد أشاع الوفاق الدولى، شأن كل مرحلة انتقال، حالة من الفوضى المربكة والاضطراب المقلق فى العلاقات الدولية المستقرة. فلبعض الوقت كانت التشكيلات السياسية والتوازنات والمحاور والاستقطابات الدولية قد اهتزت واضطربت وتداخلت كرد فعل للوفاق الأعظم. وبالتالى تغيرت كثير من المفاهيم التى كانت مستقرة وتعرض بعضها، عدم الانحياز مثلا، للتساؤل واعادة التقدير والتقييم أو التقويم. وبالنسبة للقضية العربية، فلقد كانت النتيجة الصافية هى قدر أو أخر من التميع والغموض فى مواقف الدول المختلفة من الصراع.

وفيما غدا هذا، فلقد خلق الوفاق روحا عامة من الاتجاه إلى التسويات وحل المشاكل بالتنازلات. وفي هذا المناخ وجدت حالة اللاحرب واللاسلم المخيمة على الشرق الأوسط بيئة ملائمة للتجمد وحده وغير ملائمة للتسخين على الأطلاق. ورغم تحول قطاع كبير هام من الرأى العام العالمي إلى جانب الحق العربي بفضل الجهود الديبلوماسية والاعلامية التي بذلتها التحركات السياسية العربية المتتابعة بلا كلل، فقد بات واضحا أن أحدا لايريد الحرب عامة، حتى للتحرير الوطني أو كانت حربا عادلة مشروعة. لا أحد يريد للعرب أن يحاربوا ليستردوا أرضهم، باختصار لا أحد يريدنا أن نحارب، الأصدقاء كالأعداء. الكل ينصح بالحل السياسي، والحل السياسي – الكل يعلم – ليس بمستطاع. والحقيقة أنه كما كان هناك استهتار اسرائيلي باد بنا وبقوتنا عسكريا، كان هناك إلى حد ما استهتار عالمي بحقنا سياسيا.

وفي وجه هذه المتغرات الجديدة، كان الحل المنطقي هو اعادة تأكيد البعد المحلي للقضية بالنسبة للبعد الدولي، وذلك «باستراتيجية الاقتطاع» التي تقتطع القضية بقدر الامكان من دائرة الاستقطاب الثنائي. وهذا لايكون إلا «بالحل المحلي» الذي يعيد الحياة والحرارة إلى جبهة القتال. ولايعني الاقتطاع هنا المقاطعة أو الانسلاخ أو الانعزالية عن العالم وقواه وضوابطه، فهذا مستحيل كما هو ضار، ولكنه يعني

التنسيق الدقيق الوثيق مع أصدقائنا الكبار على نحو ما فعلت الهند مثلا في صراعها الناجح الأخير.

وعلى هذا الأساس لم يكن سوى «القوة الذاتية» العربية متغيرا مضادا تشرعه الدول العربية في وجه المتغيرات الدولية، بمعنى الانتقال من الاعتماد على توازن القوى إلى الاعتماد على القوة الذاتية أساسا. إنها «الثابت» الحقيقي الوحيد في التحليل الأخير وعلى المدى الطويل وفي وسط كل المتغيرات الكامنة أو الكائنة أو الممكنة. هي «الجيروسكوب» الوحيد المضمون لسفينة العرب في بحر المتغيرات المتلاطم والبوصلة التي لا تضل ولاتضلل في عصر الوفاق الضبابي الباهت.

وخامات القوة الذاتية العربية المباشرة في المعركة أكبر وأوفر مما نظن وأشهر من أن تكرر: القوة البشرية (خاصة المصرية) كسلاح ووقود عسكري معوض عن أي نقص تكنولوجي، البترول (خاصة في المشرق) كسلاح سياسي قاطع في عصر أزمة الطاقة، الأرصدة العربية (خاصة البترولية) في عصر أزمة النقد الدولية. غير أن الارادة والوحدة، الارادة العزبية الموحدة باختصار، هي وحدها الروح التى ممكن أن تمنح الحياة والحركة لهذه المادة الخام.

واذا كان الحل العسكري وحده لايكفي نظرا للحقد الأمريكي الضاري الذي يتحول إلى حقن لاسرائيل لا حد له بالسلاح المتفوق، وكان الجهد المصري وحده لايكفي لجسامة الموقف وتعقده، فان «الحل الذاتي» المثالي هو ذلك الذي يجمع في اقتدار وتناغم بين الحلين العسكري والسياسي: الأول ضد اسرائيل أساسا، والثاني ضد أمريكا أساسا، الأول بيد وسلاح مصر أساسا، والثاني بيد وبترول العرب أساسا. ان التحرير ان يكون «عبء الرجل المصري» في الدرجة الأولى وبالمعنى الميداني المباشر، فانه أيضا «عبء الرجل العربي» بدرجة لاتقل خطرا وفاعلية وان كانت بمعنى أقل مباشرة. وهذا ما ينقل البؤرة فورا إلى وحدة العمل العربي.

ومن هنا كان «الوفاق العربي» هو الرد المنطقي والحتمي على «الوفاق الدولي». فلقد أثبتت سنوات ما بعد يونيو أن الخطر الاسرائيلي مسلط على العرب جميعا بلا استثناء، وأن العداء الأمريكي موجه للعرب جملة وتفصيلا. أنهم جميعا مهددون في حاضرهم أو مستقبلهم. انهم جميعا شاءوا أو أبوا في «مركب» واحدة ، والعالم بالفعل ينظر اليهم كشئ واحد ويضعهم في «سلة» واحدة. والحقيقة أنهم بغير الوحدة يمكن أن يكونوا في عصر الوفاق أضيع منهم في أي وقت مضى، ولا نقول أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام. والوحدة وحدها هي العاصم والضمان وصمام الأمن والأمان.

والوحدة التي نقصد هنا ليست بالضرورة الوحدة الدستورية، فهذه عمل وقت السلم أكثر منها عمل وقت الحرب، المقصود الآن هو وحدة العمل التحريري، وحدة الحرب، وحدة الجبهة والمجابهة ووحدة الموقف السياسي والعسكري.

وهناك عوامل وقضايا عديدة وشائكة باعدت بين العرب وقسمتهم في وقت ما إلى جبهات صراع مرير ومحاور استقطاب حاد. ومن المسلم به أن من أبرز تلك القضايا الجدل الايديويوجي والصراع المذهبي. وتلك كانت «الحرب الباردة» بين العرب. وكما قسمت الحرب الباردة الشرق والغرب إلى المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي، فقد انقسم العالم العربي أيضا إلى معسكرين مماثلين.

وسواء كانت الحرب الباردة العربية انعكاسا محليا بدرجة أو بأخرى للحرب الباردة الكبرى أو لم تكن، وسواء صح ما يقال أحيانا من أن هذه الأخيرة انتهت كنتيجة لتغلب التكنولوجيا على الايديولوچية ، أو المصالح على المبادىء ، أو الاستهلاك على التسلح ، وسواء صح كذلك أو لم يصح ما ردده الغرب عن «نهاية الايديولوچية» وانتهاء عصرها أو عن التطورات الداخلية في بنيات المذاهب الايديولوچية جميعا ، فالمحقق أن الوفاق الأعظم وضع

نهاية مؤقتة للجدل المذهبى أو هو على الأقل قد خفف من حدته ووضعه فى الظل .

لهذا فلم يكن من المستكثر - أليس كذلك ؟ - أن يؤجل العرب بصفة مؤقتة هذه القضية إلى أن يتم التحرير على الأقل . ذلك لا يعنى التراجع عن المثل التقدمية والمبدأ الاشتراكى قط ، بل وذلك دون المساومة على مبدأ المزيد من الاشتراكية فى المستقبل ، ولكن أيضا دون أن تضيع قضية التحرير فى غمار الجدل المذهبى ، والأرض والمصير بسبب قضية الفكر والعقائديات .

وإذا كان الوفاق الأعظم يمثل تقارب الأضداد ، الولايات والاتحاد يتقاربان ، وكذلك الولايات والصين ، وكانت الكتل الدولية تذوب بالتدريج فأوربا الغربية والشرقية تتقاربان ببطء بينما يتحرر أعضاؤهما بحذر من قبضة القطبين الأعظم ، اذ كان ذلك كذلك ، فلماذا لايتقارب العرب فى وجه العالم ومتغيراته دون تفريط بالضرورة فى المواقع والمواقف المبدئية الأساسية ؟

لاسيما أن القطبين الأعظم قد أخذا ، أيضا ، يتباعدان عن أصدقائهما من العرب بقدر ماتقاربا من بضعهما البعض ، ففى فترة

المساجلات والمساومات البترولية التى «سبقت حرب أكتوبر ، كان من الواضح مثلا أن آمريكا ابتعدت عن السعودية بمقدار ما ابتعد الاتحاد السوفييتى عن مصر منذ سحب الخبراء العسكريين ومشاكل التسليح .. الخ . وكان من حسن الحظ أنه بالقدر نفسه تقاربت مصر والسعودية من الجهة الأخرى . وذلك هو النمط الذى أخذ يسود العلاقات العربية عامة بعد الوفاق الدولى بالتدرج . فاذا كان الاستقطاب الثنائى القديم بين الكتلتين قد شجع على تعرض العرب لحركة طاردة مركزية ، فقد وجب الآن - هكذا شعر العرب - آن يخضعهم الوفاق الثنائى لحركة جاذبة مركزية . كان المطلوب - يعنى - وفاق عربى ، ليس بأى شكل مضادا للوفاق الدولى فى ذاته ، ولكن كمصل مضاد لأعراضه وأمراضه . المطلوب ببساطة تجميد الخلافات العربية حتى يتم التحرير .

ولقد كان هذا بالفعل يتفق مع أولويات شعارنا القائد: حرية ، وحدة ، اشتراكية . فرغم أن هذه الثلاثية تؤلف مثلثا متساوى الاضلاع، بمعنى أن لكل بعد من أبعاده قيمة متكافئة ، فان المتغيرات الدولية الزلقة كانت تفرض علينا أن نضغط على الحرية - وهى هنا لاتعنى إلا حرية الأرض ، أى التحرير ، أى الأرض المحتلة وفلسطين - كهدفنا الأول والأعظم . ورغم أن قوميا عربيا واحدا ليس على استعداد لأن

بعقد موازنة أو يجرى اختيارا بين الحرية والوحدة ، فكلتهما أمل شاهق وعزيز ، فلا شك مع ذلك أن التحرير يأتي أولا ، قبل التوحيد وقبل المذهب . وتلك كانت الصيغة العملية التي قام عليها الوفاق العربي الجديد ، ومنها تقدم إلى المعركة في أكتوبر .

أكتوبر آخر وأخطر المتغيرات

عند أول طلقة يوم السادس من أكتوبر اهتزت الأرضية السياسية العالمية ، تلك الأرضية الصعبة الوعرة غير المواتية للقضية العربية ، اهتزازا عنيفا ، وتغيرت تضاريسها ومعالمها كما لو أصابها زلزال . كذلك لم يلبث المناخ الدولي «الانقلابي» الملبد أن انقلب الى طقس «اعتدالي» موات . وكان «أروع مافي حرب رمضان هو قرار الحرب نفسه . كان قرارا عربيا ، لا شرقيا ولا غربيا » كما قال ياسر عرفات بحق وبلاغة معا . أو كما وضح الرئيس السادات نفسه بعد ذلك «كان قرار القتال مصريا ١٠٠٪ وبإرادة حرة ١٠٠٪ .. كان قرارنا بأن نواجه قدرنا بأنفسنا قرار مصريا ـ سوريا خالصا» مثلما كان نصرنا فيما بعد «نصرا عربيا بكل الوضوح اللازم» . ويمكن على هذا الأساس أن نحدد ثلاث نتائج مباشرة للمعركة العسكرية في مجال المعركة السياسية . أنها فرضت القضية على العالم فرضا ، حددت اتجاه الرأى العام

العالمي ، وفرضت على دول العالم تحديد مواقفها من الصراع بوضوح ، ولنحلل هذه النتائج تباعا بشيء من التفصيل .

المعركة تفرض القضية

كانت أسرع نتيجة للمعركة أنها فرضت نفسها على العالم كله فرضا ، رفعت درجة حرارة القضية من نقطة الصفر وخط التجمد وبرودة الصقيع الى سخونة النار الملتهبة ، ونقلتها من زاويا النسيان وهوامش اللا مبالاة فوضعتها فى قلب العالم وعلى رأسه . وبعد أن كان العالم قد اقتنع بان أزمة الشرق الأوسط قد «استنقعت» ولم يعد للعرب إلا الاستسلام ، «وضعت حرب اكتوبر كل العواصم فى العالم فى حالة تعبئة عامة . شعر كل فرد فجأة ، سواء كان فى باريس أو فى ألاسكا، فى طوكيو أو نيروبى ، بأنه مستهدف ، وهذا يعنى أن دور المتفرجين قد انتهى» ، كما كتبت ـ ولو من موقف العداء ـ فرانسوازجيرو .

وبعد أن كانت الدول العربية تسعى عبثا وراء الرأى العام العالمى وتخطب ود الدول الكبرى وتستثير نفوذها ومساعيها الحميدة فى الأمم المتحدة وخارجها . اصبح الكل هم الذين يسعون وراء الدول العربية ويخطبون صداقتها . وبعد أن كنا نكافح بلا جدوى فى سبيل تطبيق قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ وفى سبيل تفسير نصوصه وصيغه الملتوية،

فرضت المعركة على الجميع وعلى رأسهم أمريكا الاعتراف بالقرار بتأكيده وتصحيح تفسير نصوصه .

لقد أثبتت المعركة للعالم أنه لايستطيع أن يتجاهل القضية ، وفرضت عليه الالتزام بمسئوليته الدولية عن المساهمة في حلها ، بل وفرضت عليه الاعتراف بالشعب الفلسطيني ووجوده وحقوقه ووضعته وجها لوجه أمام هذه المسئولية بصورة جادة كما هي قاطعة ، وإذا كانت المعركة قد أثبتت بذلك صحة المبدأ الجوهري الذى لم يغب لحظة عن العقيدة العربية وهو أن «ما أخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة» فقد كان من النتائج الهامشية بل الأساسية للمعركة أنها أعادت للشرعية الدولية معناها واحترامها بعد أن ضيعتها مرحلة اللاحرب واللاسلم ، وللأمم المتحدة وجودها الذى عبثت به اسرائيل وكادت تقضى عليه عمليا رغم أنها هى الدولة الوحيدة التى تدين لها بوجودها .

ومن المثير أن نلاحظ هنا مفارقة غريبة حقا ولكنها مفهومة جدا مع ذلك . لقد رأينا أن القضية صراع وعملية شد وجذب بين البعدين المحلى والعالمى . فور ابتداء المعركة وأثناءها أصبح البعد المحلى هو السائد والمسيطر ، اذ بات الحسم يتم على أرض الصراع مباشرة ، بينما تراجع البعد العالمى الى حده الأدنى .. ومع ذلك لم تكن القضية عالمية ، بمعنى الاهتمام العالمى بها ، أكثر منها منذ تلك اللحظة . لكنما هى

طبيعة الاشياء وحقيقة السياسة الدولية . فالعالم لا يحترم الا الأقوياء ولايعرف الا القوة ولا يعترف إلا بالأمر الواقع .

والواقع ان استرانيجية الحل السلمى التى تبنيناها بعد هزيمة يونيو كانت استمرار بطريقة أخرى لاستراتيچيتنا ازاء استشراء وتوسع الخطر الصهيونى فى العالم وخاصة فى العالم الثالث كالقارة الأفريقية واللاتينية. فلقد كانت تلك الاستراتيجية تقوم علي محاصرة أطراف الاخطبوط لا ضرب الرأس .. وقطع الاطراف ، على ضرورته ، لا يقتل الرأس ، بل لقد كانت الاطراف دائما تنمو ، كما فى أفريقيا ، من جديد ، حيث كان العدو يواجهنا بحصار مضاد . أما الاستراتيجية الفعالة فهي . اضرب الرأس ، تمت الاطراف ، اضرب النار ، تمت المحاولات العاجزة والشوهاء ، ابدأ المعركة العسكرية بنجاح ، تصحح المعركة السياسية نفسها بنفسها . وهذا بالدقة وماحققته اكتوبر من أول طلقة .

المعركة تحدد الرأى العالمى

انعكس تأثير المعركة مباشرة وبلا فاصل زمنى أو ساتر اصطناعى علي الرأى العام العالمي ، وخلاصة التفاعل بين المعركة والرأى العام العالمى هى أنها باختصار كسبته بقدر ماكشفته ؛ وبلورته بقدر ماشكلته، كشفته ، لانه كان الى حد معين علامة استفهام معلقة ، فتحيز

الرأى العالمى الى جانب اسرائيل ، ذلك الذى وصل الى درجة هستيرية محمومة بل مجنونة حقا خلال حرب يونيو ، لم يكن مستبعدا تماما عند تفجر المعركة رغم التحولات المهمة والخطيرة التى حدثت مابين الحربين. فبعيدا تماما عن أن تكرر التجـربة الظـالمة نفسها ، كان هناك كثير من النار تحت الرماد لم يزل . ولاشك أن اسرائيل كانت قد فقدت جزءا كبيرا من تعاطف العالم القديم معها ، وفقدت معه قطاعا أكبر من الرأى العالمى ، وتغيرت النظرة العامة كثيرا الى الحق العربى ومال الميزان العاطفى الى كفتهم بدرجة كبيرة ، ولكن ظل السؤال الأساسى هو : آجذرى landslide هو أم جزئي هذا التحول؟ أهى عزلة دائمة أم موقتة ؟

كذلك فلا جدال أن الدول العربية أجادت بعد مرارة التجربة القديمة فن مخاطبة الجماهير العالمية وأحسنت إدارة تحركاتها السياسية مع الدول الأجنبية بحيث غيرت الكثير من المواقف والمفاهيم ، ومن المحتمل هنا أن الدول العربية أفادت قبل المعركة من تجربة الهند الناجحة فى حربها الأخيرة مع الباكستان حيث لجأت الى سياسة حملة السلام الدبلوماسية والاتصالات الهادئة مع دول العالم دون الحديث عن الحرب او التلويح بها ، وفى الوقت نفسه وضعت الخصم فى موقف يحتم عليه هو التهديد وحديث الحرب غير الأثير لدى الرأى العالمى . وهكذا بالفعل

صنعت الدول العربية ، حتى أحكمت عزلة اسرائيل فى العالم وعن الرأى العام الى حد غير مألوف .

ومع ذلك كله فقد كشفت المعركة عن عدة حقائق دالة . أولا ، حدوث نوع من «الردة» بقدر معلوم في الرأى العام العالمى فور أنباء المعركة ، لاسيما أيام الانتصارات العربية الباهرة والكاسحة في البداية . ولقد عكست الصحافة العالمية بلا مواربة كثيرا من الترقب واكثر منه من القلق على اسرائيل فى تلك المرحلة ، كما عكسته الإستفتاءات العامة التى أظهرت انحيازا غالبا لإسرائيل وإن لم يكن على مثل درجته المحمومة أيام يونيو . بل لقد عسكته أيضا مواقف وتصرحيات بعض الحكومات الغربية التى ظلت محايدة نسبيا ، اذ سرعان ماكشرت فجاة عن أنيابها ولم تخفها إلا بعد أن اطمأنت في النهاية على «بقاء ووجود» اسرائيل . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على وجود نواة صلبة دفينة من المتعصبين للعدو ، تمثل فى الواقع أحقادا دفينة - تاريخية ربما ؟ - لا سبيل الى اقتلاعها في يوم وليلة فضلا عن تجاهلها أو التقليل من شأنها . والحقيقة أن العالم لازال بعضه يفكر ويتصرف عنصريا بوعى أو دون وعى، تحت الجلد أو فوق السطح .

ثانيا ، كشفت المعركة عن نوع من الازدواجية والانفصام فى الرأى العام فى دول العالم المختلفة مابين الحكــومات ومابين الشعوب ، ففى اوربا بينما اتخذت بعض الحكومات الغربية مـواقف محايدة أو شبه محايدة بدرجات متفــاوتة من التحفظ أو الحذر ازاء الصراع المسلح فى الشرق الأوسط ، اخذت شعوبها كما أوضحت استفتاءات الرأى الجماهيرية درجات أكبر وأعنف من الميل الى العــدو الاسرائيلى ، ويرجع هذا فى جزء منه الى أن الحكومات كأجهزة مسئولة ، أكثر ارتباطا بالمصــالح وحساسية لها ، بينما أن الشــعوب أكثــر ارتباطا بالعواطف وتعكس المشاعر والكــوامن التلقائية بحرية أكثر غير أنه يرجع أيضـا الى حرص الحكومات على أن تمسك العصا من الوسط .

وإذا كان هذا هو الوضع العام في دول أوربا الغربيـة ، فقد يكون العكس صحيحا بدرجة أو بأخرى بالنسبة للدول الأفريقية . فرغم التقاربات المهمة والخطوات المتقدمة التى حققتها العلاقات العربية ـ الأفريقية بشأن صراع الشرق الأوسط عبر سنوات ماقبل المعركة ، فلقد كان لبعض الحكومات الأفريقية قدر من التحفظ والحذر والتردد فى حين كانت شعوبها نسبيا أكثر تعاطفا وتدفقا مع الحق العربى . لقد كانت

الشعوب بعامة أقرب ميلا من حكوماتها الى القضية فى حالة أفريقيا ، بينما كانت الحكومات بعامة أقرب من شعوبها فى حالة أوربا .

المعركة تحدد مواقف الدول

أيا كانت اختلافات الميول الداخلية أو حدود المواقف الخارجية فى مجال الرأى العام العالمى ، فقد جاءت المعركة لتفرض على الجميع أن يقترب من الموقع العربى قدر ما أرغمته على الابتعاد عن موقع العدو الإسرائيلى . ثم جاء أعمال سلاح البترول ليؤكد هذا الاتجاه ويدعمه . وبذلك ازدادت التحولات الكمية فى موقف الرأى العام العالمى ، ثم تطورت التحولات الكمية الى تحولات كيفية لصالح العرب . ويمكن أن يقال إن المحصلة الصافية لمعركة الرأى العام هى كسب العرب لها على الجملة وبالقدر نفسه اكتمال واحكام عزلة اسرائيل . ذلك يصدق على أوربا الغربية كما يصدق على أفريقيا ، وعلى دول عدم الانحياز كما على العالم الثالث .

واذا كان لهذا التحول من معنى ، فهو أن معركة الرأى العام العالمى هى جزء من المعركة السياسية التى سبقت المعركة العسكرية ولحقتها . وكجزء من المعركة السياسية ، فانها تخرج فى التحليل الأخير وهى مثلها صراع قوة ، تحكمها مثلها حقائق القوة وحدها وأساسا . أنها معركة ضغوط متبادلة ومصالح مشرعة . واذا كان لهذا الموقف بدوره

عن درس عام يعلمه . فهذا الدرس هو أن الرأى العام بطبيعته هلامى حول قلب ، لا ضمان له . ونكاد نضيف : ولاضمير أيضا . فهو ـ كرأس المال ـ جبان الى حد ما ، يتبع الأقوى غالبا ، ويخضع للأمر الواقع ربما أكثر مما يقاومه ، وهو لايقود السياسية بقدر ما يتبع السياسة ، الرأى العام العالمى لايعترف فى نهاية الأمر الا بمن يفرض نفسه عليه ، بالأمر الواقع ، بالقوة ، بالنصر ، يضعه ازاءها فجأة ووجها لوجه . أنك لاتكسب المعركة العسكرية فى الميدان بالرأى العام العالمى ، ولكنك تكسبه اذا كسبتها ، وهذا بالدقة مافعلنا فى اكتوبر .

ثالثا ، كانت النتيجة النهائية للمعركة «أو الفورية ، أو الاثنتان معا اذا شئت ، سيان» هى أنها بعد أن صهرت التجمد جمدت التميع ، اذ فرضت على الجميع أن يحدد موقفه بغير هلامية أو مواربة أو التواء ، وبالأفعال والوقائع يثبتها لا الأقوال والكلمات المتعاطفة أوا لمتقاطعة أو المعسولة أو المخادعة ، فليس خافيا أن كثيرا من المواقف المتعاطفة قبل المعركة كان ادعاء «نصف قلبى» والبعض تحركات شفاه وألفاظ ألسنة ، فاتر وفطير ، بينما كان البعض الآخر مشبوها بادى الانتهازية على وجه اليقين . أولئك هم من سماهم بهاء الدين ببلاغة «أصدقاء العطف» قلوبهم فى أعماقهم .. ليست مع حقوقنا ، وعقلهم الباطن يخشى

انتصارنا ! وقد خانت البغض مشاعرهم بالفعل ، فوجدناهم يتوجسون النصر العربى» .

والحقيقة أن فترة اللاحرب واللاسلم كانت قد وضعتنا لبعض الوقت - أو هكذا توهم البعض - تحت تكرم ، ولانقول رحمة ، كل ذى شأن وكل غير ذى شأن فى العالم ، يتبرع مهما كان وزنه أو عجزه بالتدخل والحكمة واقتراح انصاف الحلول وأشباه الحلول ، يبدي الصداقة وهو ألد الخصام ، والاهتمام وهو يبحث فقط عن دور عالمى يلعبه أو هيبة دولية يكتسبها على حساب القضية وتحت ظل استراتيجية الحل السلمى.

المعركة ، بضربة واحدة ، نسخت هذا كله ، ألزمت كل واحد أن يكشف أوراقه ، وفرضت على الكل أن يحدد موقفه بصراحة . وكان المعنى المباشر لهذا هو عملية «فرز» تحدد بها العدو من الصديق وأعادت تشكيل المعادلات العالمية وتوازن القوى الدولية . ومن المسلم به، حتى من الأعداء ، أن العرب قد أداروا هذه العملية بذكاء واقتدار ، تعلموا من أخطاء الماضى واستفادوا من تجارب الآخرين ، واستلهموا حقائق العالم الجديدة ومتغيراته. قال دايان بعد المعركة : «لقد وضعوا - يقصد العرب - فى حسابهم أيضا المناخ الدولى والدور الذى يمكن أن يقوم به الاتحاد السوفييتى ، وأهمية الوفاق بين الأمريكيين والسوفييت .

لقد أدرك العرب متغيرات العالم فى عام ۱۹۷۳ . ويمكننا نحن أيضا أن ندركها» .

عملية الفرز الناجحة تلك ، يمكن القول بصيغة شاملة أن نتيجتها ، بعد عزل الاعداء الأصلاء ، هى حركة تصعيد أو ترقية عامة Up - grading فى مواقع ومراتب الآخرين : الأعداء الثانويون حيدوا ، والمحايدون صادقوا والأصدقاء صدقوا ، المواقف البازغة نميت ، والنامية طورت ، والمتطورة تبلورت . فممن حيدوا بعض دول أوربا الغربية المذبذبة لاسيما منها الدول الصغيرة والتى كانت شديدة الولاء لاسرائيل ، وممن صادقوا الدول الافريقية التى اكتمل عدم انحيازها وانتقلت بصورة نهائية وجماعية من معكسر العدو أو من الأرض المشتركة الى معسكر العرب . وممن صادقوا أيضا بدرجات متفاوتة بعض دول أوربا الغربية الكبيرة ، خاصة فرنسا وبريطانيا التى أظهرت فى أعين اسرائيل «جانب حياد يتاخم العداء» أما الذين صدقوا فدول المعسكر الاشتراكى وعلى رأسهم الاتحاد السوفييتى الذى اثبتت صداقته منذ أول طلقة فى المعركة بعد اختبار صداقة شاقة استمر قبلها لسنوات . ولقد كانت لنا «وقفة مع الصديق» فحولتها المعركة على الفور الى وقفة للصديق معنا . هذا كله بطبيعة الحال عدا الدول الصديقة تقليديا كدول عدم الانحياز والعالم الإسلامى ، فضلا عن قوى التقدم

ى العالم الثالث والعالم أجمع . وحتى أمريكا اللاتينية اتجهت أثناء الحرب صوب موقف محايد .

وعلي الجانب الآخر من التل ، انعزل تماما معسكر الأعداء الأصلاء والضالعين معهم من توابع المعسكر ، اسرائيل وأمريكا وحولهما بعض الدول الرجعية والعنصرية فى أوربا وآفريقيا مثل هولندا والبرتغال وجنوب آفريقيا وروديسيا . لقد تحققت نبوءة ديجول فى ١٩٦٨ من أن الاسرائيليين «اذا استمروا فى تعنتهم هذا ، ولم يكتسبوا فضيلتى التواضع والقناعة . فسينفض الجميع من حولهم» لقد اكتملت عزلة اسرائيل ، تلك التي عبرت عنها جولدا مائير بقولها «من المؤلم والمحزن حقا أن تكون صغيرا ووحيدا فى الوقت نفسه» ولو انها أيضا لم تنس ان تضيف فى صرخة هيستيرية «ويل للعالم اذا توقف عن دعم اسرائيل» وردد ايبان المعنى نفسه «إن مايؤلمنا فى الأوضاع الدولية الراهنة هو هذا التخلى الكامل عنا » مضيفا على الفور «أننا أمام ميونيخ جديدة» ولكن اسرائيل لم يجدها شيئا توابع المعسكر ، بل عبرت عن ذلك بنفسها حين كتب كاتب فيها يقول «منظر الأصدقاء أحيانا أكثر مدعاة للاسف من منظر الأعداء» .»

أما ديان فقد صور هذا الوضع بقوله «سياسات الدول المختلفة فى العالم تجاه المسائل المتعلقة بمنطقتنا قد تغيرت .. لقد خسرنا كثيرا في

الحرب ، فضلا عن أن أفريقيا وأوربا باعتا اسرائيل بثمن بخس» «كذا» ثم فسر هذا بأن «العالم في ١٩٧٣ أصبح ساحة شديدة التعقيد ، فيها دول عربية أقوى وأكثر طموحا ، وفيها أزمة للطاقة ، وفيها سياسة بترولية عربية أكثر نسبيا عن ذي قبل ، وتدخل مباشر من جانب القوى الكبرى ، كما فيها مستقبل الوفاق السوفييتي الأمريكي» وفي مناسبة أخرى كرر نفسه قائلا : «يوجد عرب كثيرون ، ولديهم وفرة من البترول، وهناك أصدقاء كثيرون للعرب ، وأصدقاء للبترول» «حقا ، أن العالم بعد اكتوبر» كما تقول ورقة أكتوبر ، «غير العالم قبله» !

وغني عن الذكر كم هاجمت اسرائيل والصهيونية أصدقاء العرب ونعتتهم بأفحش ألوان القذف والسباب . فأوربا ، التي وقفت «كما لو كانت اسرائيل على كوكب آخر .. قد أظهرتها الأزمة عن حقيقتها .. انتهازية .. ضد سامية ، ولامستقبل لها ، وأشبه بالمعادلة التي تقول أن ٩ في صفر تساوي صفرا . وأي قيمة لأوربا اذا كانت ترتجف أمام شيوخ الخليج» .. الخ .. الخ ..! أما افريقيا «فمرتشية ، ومواقفها عاهرة»! «التعبيرات كلها لوولتر لاكير» وبطبيعة الحال فان ذلك لم يغير من الواقع ، ولكن بذلك كله اكتملت معالم الخريطة السياسية للعالم أثناء المعركة ، غير أن هذه الخريطة الخطيرة تستحق وحدها وقفة خاصة ، ولهذا فلتكن هي موضوع بحثنا التالي . وهناك أربعة مواقف أساسية

يهمنا أن نحللها ونحدد علاقتها بالمعركة : الوفاق الدولى ، أوربا الغربية، أفريقيا المدارية ، وأخيرا وفى الجانب المضاد الولايات المتحدة .

الوفاق والمعركة

فأما الوفاق بين الدولتين الأعظم ، فرغم أنه سياسة عالمية تغطى العلاقات المتعارضة والمتعايشة بينهما على امتداد الكرة الأرضية جميعا، فان مشكلة الشرق الأوسط تحتل منها موقعا مركزيا ، بؤريا ، محوريا، نظرا لخطورتها القصوى بما تمثل من مصالح حيوية للقطبين وبما تحمل من اخطار الصدام المباشر بينهما ، والحقيقة أننا اذا استعرضنا المشاكل المأزومة فى العالم بين القطبين لوجدنا الشرق الأوسط فى الصدارة المطلقة ، فهو الآن الوحيد الذى يمكن أن يؤدى - كما صرح نيكسون مرارا - الى صدام نووى . فحتى غرب أوربا توصلت الى مرحلة التسوية والتهدئة والوفاق . إن هنا فقط أخر بقايا الاستقطاب الثنائى وأخر مخلفات الحرب الباردة .

وحتى بعد انتهاء الحرب بشهور ، وفى مناسبة الحديث عن السلام ، كرر الرئيس الأمريكى أن «الشرق الأوسط أهم من فيتنام بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى كما أنه ينطوى على احتمالات حدوث مواجهة بين الدولتين الأعظم أكثر مما كان عليه الموقف فى

فيتنام ، وليس يمكننا أن نخاطر بمواجهة بين الدولتين الأعظم فى تلك المنطقة ، إن الشرق الأوسط من المناطق الساخنة فى العالم ، ومن مصلحة أمريكا وروسيا أن تعملا من أجل تحقيق السلام هناك ، وان كانت مصالحهما لاتتوافق دائما» الشرق الأوسط هو الاقليم الذى بآخر تعبير لنيكسون «يمكن أن يصبح بلقان السبعينات بغير الدور الذى قامت به الولايات المتحدة » .

ومشكلة الوفاق أن أحد الطرفين ظل يمارس سياسة عدوانية استفزازية وهجومية داخله ، هى سياسة «الابتزاز النووى» لصالح حليفه فى المنطقة . فالسياسة الأمريكية العلنية والعنيدة كانت وتظل هى اغراق اسرائيل بالسلاح المتفوق والمتطور ، لا لتضمن به التوازن في المنطقة كما كانت تزعم بخبث ساخر ، ولكن لتؤمن به التفوق الإسرائيل الدائم على العرب وتفرض الأمر الواقع فى المنطقة الى الأبد ، وهو احتلال الأراضى العربية . فاذا ما تقدم الاتحاد السوفييتى لامداد العرب بسلاح مكافىء كما وكيفا ، أو حتى مقارب ، هددته أمريكا ولوحت فى وجهه بالصدام النووى ، فأحجم أو تردد قليلا أو كثيرا .

وفى النتيجة فلقد فرضت أمريكا كأمر واقع تصعيدا مستمرا كاللولب الصاعد فى حجم الصراع وأخطاره ، لا المحلية فقط بل

والعالمية أكثر . وبهذا أيضا أصبح الصراع المحلي في الوقت نفسه محكوما ومضبوطا بسياسة الوفاق . غير أن درجة الضبط والتحكم هذه تختلف بالنسبة للعرب عنها بالنسبة لاسرائيل .. فبينما تعربد هذه تسليحيا فى المنطقة بلا حدود ولا رادع مثلما تعربد أمريكا وفاقيا ، يجد العرب يدهم مغلولة أكثر أو قل أقل حرية وقدرة . ومن هنا بدا للبعض فى حين ماسواء خطأ أو صوابا أن الوفاق قد قيد حرية العرب وقدرتهم على الحركة ، وأنهم لذلك «محاصرون» بالوفاق ، دون أن نذكر الرأى المتطرف الذى كان يضيف أنهم هم «ضحيته» الوحيدة.

ولم يكن ذلك كله صحيحا تماما بطبيعة الحال ، كما لم يكن بعيدا كل البعد عن الصحة كذلك . فقد كان الوفاق كأكبر المتغيرات الدولية منذ الحرب الثانية هو مجرد صيغة جديدة ومنضبطة للصراع العالمى ، قد يستحيل اختراق حاجزه اختراقا تاما مطلقا ، ان لم يكن الشيء فلمجرد أنه مصدر التسليح الاساسي والوحيد تقريبا فى كل صراع محلي وبالأخص الصراع العربي - الإسرائيلي - ولكنه بالتاكيد لايمنع فضلا عن أن يلغي الارادات المحلية تماما ولا الحروب المحلية أيضا . هناك داخل حدود الدائرة الواسعة للوفاق الأعظم ، مجال كبير للحركة وللعمل المحلى يمكن «اقتطاعه» منه دائما . الاختراق ، بعبارة أخرى ، مستحيل ، ولكن الاقتطاع ممكن . والسياسة الناجحة هى تلك الأقدر

على الاستفادة من الوفاق ، والفاشلة هي وحدها التى تبرر عجزها بقيوده البعيدة ، وهذا ما عبر عنه بايجاز وزير خارجية مصر حين قال . إن الوفاق الدولى كان يمكن أن يضر بنا لو قبلنا الأمر الواقع ، ولكننا تحركنا فى جميع المجالات» .

ولكن خير من شخص الموقف وعبر عنه هو بلا شك الرئيس السادات نفسه الذى وضح فى سلسلة من الأحاديث الصحفية والخطب السياسية كيف كان قرار المعركة معركة فى حد ذاته ، فاشارة لقاء القمة الأول بين دولتى الوفاق الى «الاسترخاء العسكرى» فى المنطقة أمر «كان يعنى حينئذ ان حالة اللا حرب واللا سلم التى سادت المنطقة والتى سببت لنا الكثير من المتاعب والمازق .. والتى كانت كفيلة بأن تحقق لاسرائيل على المدى الطويل كل ما تريد دون أن تطلق طلقة واحدة .. يراد لها أن تستمر» وفى اللقاء الثانى سارت القوتان الأعظم خطوة أخرى فى الاتجاه نفسه ، وتأكد أن المشكلة يراد لها أن تتجمد من جديد «لأن الدولتين الأعظم كلتيهما كانت تريدان تجميد الوضع برمته» فالبيان الذى صدر «يؤكد بما لايدع مجالا لأى شك أو لبس على تجميد القضية ، انتظارا لحل سلمى» .

وهكذا كان مغزى اللقاءين «فن الاتفاق على عدم الصدام فى أى جزء من العالم لايعنى الا الاتفاق على عدم الصدام فى الشرق الأوسط،

لأن كل ماعداه قد تم تصفيته وانتهى» هذا فضلا عن أن «العملاقين الكبيرين ، روسيا وأمريكا ، يحرصان على وجود اسرائيل ويتصرفان كل بطريقته للحفاظ علي ذلك. فأمريكا تعطى التفوق الكامل لاسرائيل علي العرب مجتمعين تحت اسم نظرية توازن القوى ، والسوفييت من جانبهم يضعون قيودا علي مايقدمون للعرب من السلاح والتكنولوجيا التي هي مباحة من جانب أمريكا لإسرائيل بالكامل» .

وعلى هذا الأساس يمضى الرئيس ملخصا موقف العملاقين .. «كان الموقف الأمريكي يعتبر العرب ، مصر والعرب ، جثة هامدة .. وكان الاتحاد السوفييتى على اصراره أن نستبعد المعركة العسكرية تماما وأن ننتظر القضية حلا سلميا .. كان العملاقان يعتقدان أن دخول مصر الحرب انتحار» . من هنا «كان قرار القتال مصريا ١٠٠٪ وضد ارادة العملاقين، وبارادة حرة ١٠٠٪» وجاءت الحرب مفاجأة كاملة للاصدقاء كما كانت للاعداء .

بل أكثر من هذا كشف الرئيس أن أمريكا كما حاولت أن تفرض على العرب وقف القتال منذ ساعاته الأولى والعودة الى الخطوط السابقة رغم انتصارهم ، ثم كررت المحاولة عدة مرات خلال الأيام الأولى مع الوقوف علي الخطوط الجديدة ، فكذلك أبلغ الاتحاد السوفييتى مصر بعد ست ساعات من بدء القتال والنصر أن سوريا طلبت وقف اطلاق

النار ، ولكن سوريا نفت ذلك بشدة ، وتكرر هذا أيضا عدة مرات .
«وهنا لا نجد اسخف ولا أكذب من ادعاء الصهيونية - وولتر لاكير مثلا -
عن «أن الروسيا كانت متورطة فى الحرب وأعدت لها وعلمت بها» وأنها
كانت قبيل المعركة تناقش مع العرب تفاصيل الاستعدادات الأخيرة
للهجوم وو...الخ!» وبالمثل تسقط الى الأبد «نظرية التمثيلية» تلك التى
شاعت حينا وأشاعت أن المعركة لم تتم الا بترتيب وكاتفاق بين القوتين
الأعظم بل وبينهما وبين طرفى الصراع المحليين «!» .

هكذا لم يكن الوفاق يريد الحرب ، وحين قامت حاول أن يوقفها
وحين حاول تغلبت الارادة المحلية الحرة . أو كما خلص الرئيس «كان
قرار ٦ أكتوبر قرارا حرا ، وكان ضد ارادة الدولتين الكبيرتين اللتين
قررتا فى مؤتمرين متتاليين تجميد مشكلة الشرق الأوسط ، ثم عادت
الدولتان واحترمتا قرارنا وإرادتنا» وهكذا «بالتأكيدات أثرت حرب ٦
أكتوبر فى سياسة الوفاق الدولي ، ولكن فى أى اتجاه ، هذا مانريده أن
نراه» .

من هذا الموضع ، موضع الإرادة المحلية الحرة والقدرة الوثيقة ،
تفاعل العرب مع مركب الوفاق ، فبعد أن كانوا محاصرين «بالوفاق
الأعظم» الى حد أو آخر . فرضوا عليه «بالوفاق العربى» استراتيجية
الاقتطاع . لقد فرضت الحرب نفسها على الوفاق ، ففرضت عليه أن

يحدد أبعاده وأعماقه الحقيقية . وبذلك جاءت معركة أكتوبر أول «اختبار احماض» قاس لصيغة الوفاق الجديد الفضفاضة ، فكانت هى التى نقلت المعادلة الدولية الجديدة مما بدا للبعض حالة مقلقة من التميع الهلامى والغموض السديمى الى حالة من التبلور المعقول وتحديد الحجم الطبيعى والنسب الصحيحة . .

أو كما قال الجنرال بوفر ، كان فى الحرب شىء «كشف عن الانطباعات الخادعة التى كانت تحجب المتناقضات السوفييتية ـ الأمريكية وعدم الاستقرار الذى يكتنف التقارب بينهما» وبالمثل قال اليك دجلاس هيوم وزير خارجية بريطانيا «إن الاحداث التى تلت وقف اطلاق النار وبينها اعلان حالة التأهب بين القوات الأمريكية والسوفييتية قد اظهرت أن الطريق مازال طويلا أمام الوفاق قبل أن يمكن القول بأنه قد أمكن تحقيقه ، وأن سياسة الوفاق ماتزال بحاجة الى مزيد من التدعيم قبل اعتبارها سياسة لارجوع فيها» وكذلك كتبت فرانس سوار أن «ماحدث يوضح الى أى مدى يعتبر الوفاق هشا» .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول إن المعركة قد حددت بدقة «زاوية الانفراج» فى الوفاق بعد أن بدت وكأنها قد تجاوزت الحد بدرجة أو باخرى لقد «قننت» المعركة حدود الوفاق بأن انقذته من احتمالات ، ولانقول مزالق ، التطرف والاندفاع أو فقدان التوازن والاتجاه . إنها

هى التى صححت مساره ومنحت سفينته «جيروسكوب» ثقيلا يحفظ توازنها وبوصلة هادية ترشد وترشد توجيهه في بحر الصراع القطبى المتلاحم الخوان ، لقد أصبحت المعركة من المتغيرات الدوليــة المؤثرة ، اخر المتغيرات ، فرضت نفسها على أكبر المتغيرات منذ ربع قرن وهو الوفاق، فعدلته وغيرت من معطياته وأثرت فيه بقدر ماتأثرت هي به .

وبطبيعة الحال فان هذا لم يكن بالعملية السهلة ، بل تم من خلال صراعات قوى رهيبة وعاتية وصدامات ارادات غير تقليدية وفوق عادية ، أعنى بالتحديد نووية . وفي البداية لم يكن هناك من رمز للصراع سوى ذينك الجسرين المتعامدين بحرا وجوا من التسليح الكثيف كأنهما سيفان متقاطعان فى مبارزة سلاح تاريخية عبر البحر المتوسط ، وأحد عرضى من أمريكا الى إسرائيل ، والثانى طولى من الاتحاد السوفييتى الى العرب ، الأول يدور مع عقارب الساعة، كما قيل، والثانى عكسها .

لكن الأزمة بين القطبين إنما وصلت الى الذروة حين شرعت أمريكا سياسة الابتزاز النووى لمابدت هزيمة اسرائيل ماثلة على أفق سيناء ، فقد أغرقتها على الفور بمدد جديد وخطير من السلاح المتطور ، كما هددت بالتدخل العسكرى بطريقة سافرة . فقد أعلن نيكسون أن «موقف

الولايات المتحدة من أزمة الشرق الأوسط الآن تمليه الاعتبارات نفسها التى أملت الموقف الأمريكى تجاه أزمة لبنان سنة ١٩٥٨ وأزمة الأردن سنة ١٩٧٠» . هذا بينما صرح كيسنجر فى ١٢ أكتوبر بأن «الشرق الاوسط قد يتحول الى منطقة تدفع بالقوى النووية العظمى الى المواجهة، إن الصعوبة التى يواجهها كل منا هو أن كلا من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ينظر الى أزمة الشرق الأوسط من خلال منظاره الخاص .. فالأمريكيون بنوا صداقة تقليدية مع اسرائيل ، بينما بنى الروس صداقة مع بعض الدول العربية» .

وقد دعا هذا كله الاتحاد السوفييتى الى الانذار بالتدخل المباشر لم لم تتوقف اسرائيل عن القتال بعد أن تقرر وقف طلاق النار .. وهدد هذه الأخيرة بأنها ستتعرض «للتدمير» . ورغم أن حدود هذا التدخل غير معروفة بالضبط ، فليس هناك شك فى جدية الاتحاد السوفييتى واهتمامه . وفى هذا قال دايان بوضوح «كانت موسكو جادة تماما فى تهديدها بالتدخل ضدنا اذا لم ننسحب» . وقال أيضا «لست أشك الآن فى استعداد السوفييت واصرارهم على التدخل العسكرى المباشر ضدنا اذا دعا الموقف الى ذلك» هذا بينما أعلنت مايير أن «التهديد السوفيتى هذه المرة لم يكن أقل فعالية من تهديد ١٩٥٦ ، وربما أشد» كما صرحت بعد تسوية الأزمة بأن «بلادها قد نجت من خطر كبير» .

كذلك اعترفت دافار بأن «الضغط الأمريكى علينا كان نتيجة للضغط السوفييتى على أمريكا» .

أمام على الجانب الآخر ، فسواء كان «التشنج النووى» الأمريكى حقيقيا أو «تهويشا» ـ والأخير الأرجح ، وسواء كان خالصا لوجه الصراع أو تحويلا للأنظار عن مشاكل الحكم الداخلى «فضيحة ووترجيت» ـ والأخير الأرجح أيضا ـ سواء هذا أو ذاك فقد كان خطر التصعيد قائما وخطأ العزة بالاثم ماثلا كالشبح المخيم والمخيف .

فقد فاجأت أمريكا العالم باعلان حالة التأهب النووى القصوى فى كل قواعدها حول الكرة الأرضية بدعوى أن «الأمر بالتأهب صدر لنظهر للاتحاد السوفييتى أننا لانستطيع أن نقبل اجراء من جانب واحد ، من جانبهم ، لتحريك قوات عسكرية الى مسرح الصراع بين اسرائيل والدول العربية» . وكانت الاشارة فى هذا هى الى أن الاتحاد السوفييتى ـ كما أدعت أمريكا ـ قد وضع ٧ فرق محمولة جوا على أهبة الاستعداد لارسالها فورا الى الشرق الأوسط . وفي وجه هذ الاستفزاز الحرج اتخذ الاتحاد السوفييتى موقفا يتسم بالحزم دون التهور . فأعلن «أن هذه الخطوة لاتساعد على الانفراج الدولى ، وأنها اتخذت بوضوح فى محاولة لارهاب الاتحاد السوفييتى ، وأن الذين اتخذوها عليهم ان يدركوا أنهم قد اخطأوا العنوان» .

فى تلك الساعات المصيرية توترت العلاقات بين القطبين الى حد مذر ، وبات العالم يخشى على الوفاق من حرب أكتوبر آما تصادما عسكريا نوويا والا فعودة الى الحرب الباردة . ولكن «أمريكا وروسيا» كما قال إليك دجلاس هيوم : «تمكنتا فى الوقت المناسب من الحيلولة دون تدخل عسكرى فى الشرق الأوسط وذلك لتجنب مواجهة نووية بينهما» ثم اضاف «عنصر الحظ كان له دور فى تمكين البذور الأولى لسياسة الوفاق بين آمريكا وروسيا من تحقيق وقف إطلاق نار فعال ولكنه متوتر فى الشرق الأوسط» .

أو كما قال نيكسون نفسه «أعتقد أنه بدون الانفراج ربما واجهنا نزاعا ضخما فى الشرق الأوسط ، غير أننا تجنبناه بمساعدة الانفراج» أو كذلك كما أعلن برچينف فيما بعد على منبر البرلمان الهندى «أن الامور كانت ستختلف اذا لم يكن هناك عامل الانفراج فى العالم والذى ظهر خلال العامين أو الثلاثة الأخيرة . ولو كان النزاع الحالى قد اندلع فى وضع التوتر الدولى الشامل وتفاقم العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى فلربما صار الصدام فى الشرق الأوسط أكثر خطورة ولما كانت هناك امكانية لمبادرة مشتركة بين الاتحاد والولايات كتلك التي أدت الى قرارات مجلس الأمن المعروفة والتى جعلت ممكنا وقف اطلاق النار» .

هذا من ناحية ولكن من الناحية الأخرى تعرض الوفاق لكثير من الشك فى صلابته وحتى امكانية بقائه ، بل وصل البعض الى حد القول بأن الوفاق «ذهب مع الريح» وانتهى ، أو كما قال الصحفى الأمريكى برنارد جيرتزمان «لقد أدى نشوب القتال فى ٦ أكتوبر الى تزايد النقد لسياسة الوفاق والى انتشار رأى فى واشنطن مؤداه أن الوفاق قد مات» ولاشك أن من أبرز أصحاب هذا الرأى أو المروجين له الصهيونيين الأمريكين الذين كانوا يعادون الوفاق منذ البداية لحساب اسرائيل ، فعلى سبيل المثال كان السناتور هنرى جاكسون ، من أصدق أصدقاء اسرائيل ، هو الذى اتهم نيكسون وكسينجر بأنهما «يبيعان اسرائيل من أجل الوفاق والمحافظة عليه» «كذا!» . وعلى العكس من هؤلاء ، أكد شلزينجر أن النتجية النهائية كانت اعترافا بقوة الوفاق .

على أن الحرب ، فى الواقع الملموس لم تؤد الى انهيار الوفاق ، فقط أصابته بارتجاج واهتزاز عنيف أثبتا أنه ظاهرة تحت التكوين لم تزل ، لم تتحدد قسماتها وملامحها وأبعادها بعد بصفة نهائية .. ومن هذه الزاوية بالدقة لعبت هى دورها ذاك فى تشكيله وتحديده . وأهم من ذلك أنها أثبتت من خلال المواجهة بين العملاقين أن أحدا منهما ليس على استعداد للتراجع أمام الآخر بعامة أو التخلى عن أى من مواقعه

في العالم بخاصة او عن صديقه في الصراع المحلي بالشرق الأوسط بالأخص .

ففيما يختص بالجانب الامريكي - الإسرائيلي فان أمريكا عمليا تكاد تعتبر اسرائيل جزءا منها . أما فيما يختص بالجانب العربي - السوفييتي فان البعض يرى أن صوابا أو خطأ أن أي تخل من السوفييت عن العرب يؤدي الى القضاء على مكانتهم وهيبتهم ومراكزهم المكتسبة في الشرق الأوسط كله ، لصالح الصين خاصة ، وربما لصالح أمريكا نفسها أيضا ، بل أكثر ، ولكن تجربة المعركة والمواجهة أثبتت ، فعلا وعلى العكس ، أن الاتحاد السوفييتي ، وان كان يمكن أن يبذل أكثر ويؤيد أكثر ، لم يتخل ، بل تدخل ، ولم يتراجع ، بل تماسك وتمسك ، بل لقد أعلن الاتحاد في تلك الفترة أن محور الاستراتيجية السوفييتية الخارجية هو العالم الثالث ، ومحور العالم الثالث هو العالم العربي ، ومحور العالم العربي هو مصر ، أبعد من هذا ، أثبتت الأزمة أن الوفاق ليس «تواطؤا» بأي معنى ، ولا هو قيد على حرية الشعوب النامية والتحرير ، وأنه لا تعارض بين حركة التحرير الوطنية وبين الوفاق ، على العكس قد يكون الوفاق قيدا مفيدا وصحيا على سياسة التهديد والابتزاز الأمريكية وضابطا لاحتمالات تدخلها مباشرة ضد العرب ولصالح اسرائيل ، وأن مناخ التعايش

السلمى هو الذى يخلق ظروفا أكثر ملاءمة لحل عادل للمشاكل الدولية المهمة .

تلك كانت ملحمة المواجهة الرهيبة والرهيفة ، واذا كان السلام العالمي قد خرج من أزمة الوفاق سليما بالكاد ، وخرج الوفاق من أزمته أكثر واقعية وتحديدا وبلا أوهام ، وخرجت أزمة الشرق الأوسط من الوفاق بضمان لحلها حلا حاسما ، فقد كان على العرب أن يستخرجوا النتائج الضرورية من التجربة برمتها، فما هو الدرس الأساسى الذى يعلو فوق كل التفاصيل والدقائق ؟ لقد تمخضت المعركة عن تغيرات مهمة في العلاقات بين كل من طرفى الصراع المحلى وبين كل من طرفي الوفاق ، نتيجة لما بدا من تحويلات أو تحفظات أو توترات فى مواقف أساسية ، وكذلك كرد فعل توازنى أو تعويضى للمتغيرات الدولية التى سبقت المعركة وتلتها .

فقبل المعركة كان الشرق الأوسط «مستقطبا بين اسرائيل والولايات المتحدة من ناحية ، ومصر والاتحاد السوفييتى من ناحية أخرى» «السادات» وكانت أمريكا واسرائيل قد نجحتا كذلك فى أن تصورا للعالم أن «كل من يقف مع اسرائيل فهو يقف مع الغرب ضد الخطر السوفييتى ، وكل من يقف مع العرب فهو يفتح الباب أمام هذا الخطر» «بهاء الدين» ولكن حرب اكتوبر انهت هذا الوضع وهذا

التصور وفرضت تغيرات ومتغيرات جديدة أثـارت كثيرا من التأزم والحسـاسية فى علاقـات بعـض تلك الأطـراف من القـوى المحلية والقـوى الأعظم ، كما أثارت أكثر منها من التساؤل واللغـط فى بعض الأوسـاط العربية بحيث تحتـاج الى وقفة خاصة وتوضيح شامل .

فمن ناحية غيرت امريكا موقفها من العداء المطلق للعرب والانحياز التام لاسرائيل الى قدر معقول من الحياد النسبى أو العملى ، على نحو ماسنرى فى دراستنا للموقف الأمريكى ، وبينما حدث هذا التقارب أو التفاهم النسبى مع أمريكا ، حدث على العكس بعض التوتر والتأزم والتباعد النسبى وسوء الفهم أو التفاهم مع الاتحاد السوفييتى . ولم يكن هذا لاحقا للمعركة فحسب بل سبقها بعدة سنوات ، ولكن فى كل الاحوال لم يكن غير مسألة السلاح محورا له وأساسا .

فقبل المعركة حجب الاتحاد عنا كما رأينا بعض أنواع الأسلحة خاصة الهجومية كما حدد من حجم الباقى ، واذا كان قد عاد أثناء المعركة فأرسل السلاح بلا توان ، فلم يكن ذلك بغير حدود وشروط ، كما تقاضى ثمن بعضه مقدما «دفعت الجزائر للاتحاد ١٠٠ مليون دولار للبدء فى شحن الأسلحة» . كذلك عادت القيود والتحديدات على السلاح بعد المعركة .

وقد دعا هذا البعض الى التساؤل عما اذا كان الاتحاد صديق العرب التقليدى قد «خاض الحرب معنا كمجرد تاجر أسلحة ، ولولا المال العربى لتوقف هذا السلاح» وعما اذا كان «قد آراد لنا نوعا من النصر يكون دعاية للسلاح الروسى ، ولكنه خذلنا قبل النصر النهائى» كذلك جرى التساؤل عما قيل من أن الماريشال جريتشكو صرح لأحد القادة العرب أنه «لو دخلتم تل أبيب لما عدتم بحاجة الينا ولأخرجتمونا من المنطقة» «من حديث الصحفية اللبنانية علياء الصلح الى الرئيس السادات ».

كذلك فلقد اعتبرت مصر أن مسألة الأسلحة أصبحت من أسف «أداة لممارسة سياسة النفوذ» للتأثير على تصرفات مصر والضغط عليها . وقد دعا هذا مصر الى اتخاذ قرار بالكف عن ، والتحلل من ، الاعتماد الكلى على الاتحاد للحصول على جميع حاجاتها من الأسلحة وتنويع مصادر تسليحها .

وفى هذا السبيل اتجهت مصر إلى أسواق السلاح فى أوربا الغربية، كما أعلن رئيسها للنيويورك تايمز أنه «سيكون سعيدا للغاية اذا كانت الولايات المتحدة على استعداد لأن تبيع لنا السلاح» مضيفا فى الوقت نفسه أنه «سيكون سعيدا آيضا اذا رغب الاتحاد السوفييتى فى التفاوض من أجل مبيعات جديدة» .

وإذا كان من الثابت المعلن آن العرب بدآت بالفعل تحصل على سلاح آوربى . فان الاخبار التى وردت عن الحصول آو محاولة الحصول على سلاح أمريكى لم تزل فى مرحلة التكهنات ، غير أن شلزينجر وزير الدفاع الأمريكى الح الى أن احتمال بيع الأسلحة الى مصر «سيبحث بعناية» وأن أمريكا ستنظر «بتعاطف» الى آى طلب من مصر لشراء أسلحة ، ولو أنه لم يجزم بأن أمريكا قد تلقت مثل هذا الطلب ، ومن جانبها ، فان الايماءات المصرية وان لم تكن قاطعة ، لم تستبعد الاحتمال كلية .

ومن ناحية آخرى وكخطوة آبعد ، تبحث مصر منح الأساطيل الغربية ومنها الاسطول الأمريكى تسهيلات مماثلة للتسهيلات التى يحصل عليها الاسطول السوفييتى فى موانيها ، على غرار ماتفعل يوجوسلافيا ، وذلك تحقيقا للتوازن الاستراتيجى فى البحر المتوسط .

وإذا كان السلاح هو محور الخلاف بين مصر والاتحاد ، والسلاح أهم عنصر منفرد فى مركب القوة والصراعات العسكرية، فان هناك عناصر خلاف أخرى على مايبدو ، وأن آتت كعوامل من الدرجة الثانية آو كنتائج مترتبة . فليس سرا أن توتر العلاقات قد تكرر حتى كان يزمن لعدة سنوات قبل المعركة ، كما كان واضحا آن سياسة تهجير

اليهود السوفييت الى اسرائيل والسماح بها كانت قد أصبحت ورقة ضغط خافت ولكنه غير خاف . وبعد المعركة اثار الاتحاد موضوع ماسماه ابتعاد أو انحراف مصر عن الاشتراكية ، «وأيضا الانفتاح الاقتصادى قيل عن ماقيل» غير أن هذا كله موضوع داخلي ، فضلا عن أنه غير صحيح .

ولعل الأهم منه وعن الكل خشية الاتحاد من تزايد النفوذ والوجود الأمريكى فى المنطقة بعد أن تزايد التقارب أو الانفراج بينهما ، ومن ثم خشيته علي وضعه فى المنطقة ومصالحه الاستراتيجية فيها ودورهم بها . وقد زاد هذا القلق بصفة خاصة بعد النشاط الدبلوماسى غير العادي لكسينجر ، الذى سرق كل الأضواء فى الشرق الأوسط ، والأمر بهذا جزء لايتجزأ مباشرة من صراع القوى العظمى والقوتين الأعظم داخل الوفاق .. ولم ينكر حقيقته ولاحاول اخفاء خطورته أى من الاطراف المعنية .

فاما الاتحاد السوفييتى نفسه فلم يخف من جانبه استياء الكرملين ازاء التقارب المتزايد بين مصر وأمريكا ونظرته القاتمة تجاه الخطوات الجزئية الأمريكية ونشاط كيسينجر ، كما لم يخف خشيته من تضاؤل نفوذه فى المنطقة .. وقد نقلت وكالات الأنباء على لسان «دبلوماسى شيوعى كبير فى لندن» أن الاتحاد سيطلب من أمريكا «الحد من

السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط» لأن غضب السوفييت من انحسار نفوذهم فى المنطقة قد تحول الى خوف على ماتبقى من مواقع أقدامهم ، وأن الكرملين مصمم على الاحتفاظ بمواقعه فى المنطقة ولو بثمن غال اذا اقتضى الأمر . وحذر المصدر من أن السوفييت جادون فى ذلك ، لأن المصالح الاستراتيجية الأساسية للاتحاد فى خطر ، وكذلك مراكز الشخصيات الرئيسية فى القيادة السوفييتية ، ثم أضاف المصدر نفسه أن اتفاق الفصل بين القوات فى سيناء وماترتب عليه من صداقة بين مصر وامريكا قد أثار مخاوف السوفييت لما له من أثار مدمرة على مركزهم فى الشرق الأوسط .

وقد خلص المعلقون الغربيون من هذا الى أن المتشددين فى موسكو قد وجهوا انتقادات حادة لما يجرى فى الشرق الأوسط ودور أمريكا فيه ، ولكن الرغبة فى استمرار الوفاق حالت دون خروج السوفييت علنا ضد هذا القرار . غير انهم أصبحوا الأن مصممين على العمل من أجل استعادة مراكزهم المفقودة . والمفهوم أن الاتحاد ، الذى كان يتوقع هذه الصعوبات مع مصر ، تحرك بسرعة لتقوية مركزة فى العالم العربى ، وذلك أساسا بالعمل الوثيق مع سوريا عن طريق تقديم شحنات أسلحة متطورة وسخية إليها وحثها على اتخاذ موقف أكثر تشددا فى حل مشكلة الشرق الأوسط واتمام الفصل بين القوات على الجبهة السورية

على غير نمط الفصل على الجبهة المصرية ثم الاصرار على اشراك موسكو فى كل خطوات الحل .

وأما الاعلام الأمريكي فقد تساءل ، كما فعل فى حديث له مع الرئيس المصرى ، عما اذا كان نشـــاط الدبلوماسية الأمريكية في المنطقة قد أثار شعور السوفييت بالقلق .. فصرح الرئيس من جانبه بأنه في الواقع يعانى من ذلك منذ أول زيارة لكيسينجر حيث «أصيب علاقاتى بالسوفييت بالتوتر الشديد بعد ذلك التاريخ» أو أصبحت «مشدودة بعض الشيء» . فقد «تسبب نجاح كيسينجر فى حساسيات كبيرة بالنسبة للسوفييت ، وأصبح كيسينجر يسبب لهم نوعا من الحساسية» .

أما الصحافة العالمية ، ربما إثارة ومبالغة ، أو ربما محاولة لتوسيع الفجوة أو لدق اسفين نهائي أو للصـــيد فى المـاء العكر ، فقد اعتبرت الموقف المصرى «ضربة للاتحاد الـــسوفييتى» التايمز «وإنهاء للعلاقة الخاصة بين مصر والاتحاد السوفييتى» «الهيرالدتريبيون» بينما اعتبرته الايمانيتية «نقطة تحــول ومرحلة جديدة من التدهور البطيء فى العلاقات الذى بدا ملموسا غداة حرب أكتوبر ، وآخر سلسلة الأزمات التى كانت دائما تصل الى ماقبل حافة الانهيار الكامل مباشرة» .

هكذا نرى أنه اذا كانت قد نشأت للاسف فجوة أو جفوة بين الاتحاد ومصر . فالواضح أيضا أن هناك من له مصلحة في نشوئها ومن يسعى الى تحويل الفجوة الى هوة والجفوة الى قطيعة وأكثر من هذا وأخطر ، حاول البعض أن يصور الموقف على أنه تغير إستراتيجي وانقلاب أساسي في التوجيه الخارجي لمصر ، بل وصلوا الى حد الزعم بأنه تبادل كامل في المواقف والمواقع فيما بين مصر والقطبين ، بمعنى أن مصر انتقلت من صداقتها السابقة للاتحاد السوفييتي الى صداقة الولايات المتحدة ، فاصبح الصديق القديم عدوا والعدو القديم صديقا «كذا!»

وفي تأويل آخر انه على الاقل تبادل جزئي في المواقف والمواقع فيما بين مصر واسرائيل من ناحية والاتحاد والولايات من الناحية الأخرى ، بمعنى أنه اذا كانت علاقات مصر بالاتحاد قد شابها التوتر والتحفظ بدرجة أو بأخرى وتقاربت مع الولايات بدرجة أو بأخرى ، فقد شاب العلاقات الإسرائيلية ـ الأمريكية هي الأخرى قدر من الحذر والتحفظ بينما قد تأخذ العلاقات السوفييتية ـ الإسرائيلية في الانفراج بقدر ما بالمقابل .

غير أن هذا برمته ليس صحيحا على الاطلاق .. وكانت مصر حريصة جدا على أن توضح ذلك وأن تحاصر الخلاف مع الاتحاد

بتحصره وألا تخرج به أو تسمح لأحد أن يخرج به عن حجمه الحقيقي أو يسيء تصويره وتفسيره . ولهذا بادرت في سلسلة من التصريحات والخطب على لسان رئيسها الى تصحيح الصورة وتحديد الموقف بدقة وحزم . وبالاستعانة بالاقتباسات الدالة من هذه الخطب يمكننا أن نلخص حقيقة الموقف في النقاط الآتية .

فأولا ، ليست الخلافات مع الاتحاد بجديدة ، فهي تسبق ٦ أكتوبر ، بل وتسبق ٥ يونيو . فقد حدثت علنا في ١٩٥٩ . وهي اذا كانت قد تجددت أثناء وبعد اكتوبر ، فلقد كانت مصر حريصة كل الحرص على ضبط النفس وعدم الاستجابة لأي استفزازات . أنها لاتريد أن توسع الفجوة، وتعمل جادة على رأب الصدع .

وثانيا ، فان مصر التي أعلنت مرارا صداقتها مع الاتحاد السوفييتي ليست صداقة مرحلية بل هي استراتجية وأساسية ، ماتزال حريصة علي هذه الصداقة «إننا لا نريد أبدا أن نفرط في صداقة الاتحاد السوفييتي ولا أن ننقص من رصيده لدينا . ونحن قد نختلف عن وجهة نظرنا لا لحساب أحد» .

ثالثا : إن بوصلة السياسة المصرية هي مصلحة مصر أولا وأخيرا ، فهي الثابت الأساسي بين كل المتغيرات «ومن مصلحة مصر ألا يكون لها أي صراع مع قوة كبرى أو أي قوى أخرى ، إلا اذا بادرتنا هذه

القوى بالعداء أو بالصراع .. ولا مصلحة لنا فى أن نعادى أحدا .. علاقاتنا لابد أن تكون طيبة مع الكل لصالح مصر».

رابعا : وعلى هذا الأساس ، وفى ضوء المتغيرات الدولية المعاصرة ، فان «الموقف هو أننا نمر الآن بنقطة تحول في هذه المنطقة» فنحن «فعلا في مرحلة اعادة تشكيل علاقاتنا على أساس مبادئنا وهى الحياد الايجابى الواضح الكامل بين المعسكرين فى هذا العالم .. ونحن نريد اتباع سياسة عدم انحياز متوازنة» واذا كان هذا هو المفهوم الصحيح لعدم الانحياز منذ كان ، فإنه الآن أصح مايكون فى عصر الوفاق الدولي .

خامسا : «نحن لانريد صداقة أحدا على حساب أحد . بصراحة نحن لانصادق أمريكا على حساب الاتحاد السوفييتى ، ولن نصادق الاتحاد السوفييتى على حساب أمريكا .. وتحسن العلاقات مع واشنطن لايستوجب أن يسفر عن توتر مع موسكو» .

وقد فصل الرئيس هذا التعميم فى حديث له الى محطة التليفزيون الأمريكى قائلا «إننى اعتمد على القوتين الأعظم وأنا أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتى معهما .. وقبل ذلك كانت لنا علاقات غير متوازنة ، فكانت علاقاتنا معهم أكثر ودا ، وكان هناك نوع من المواجهة بيننا وبينكم ، أما الآن حينما أحاول تحقيق التوازن فى علاقاتنا يصاب

السوفييت بالتوتر والحساسية ، هذا هو التفسير الحقيقى للموضوع برمته ، وأنا لا أغير موقفي ، فأنا لا أعتمد مثلا على السوفييت يوما ثم انتقل الى الاعتماد على الأمريكيين فى اليوم التالى . ليس الأمر كذلك اطلاقا .. ولكننى أحاول أن أحقق التوازن فى علاقاتى» .

نحو علاقات أفضل

تلك إذن هي قصة متغيرات الوفاق الذى أبرزتها معركة أكتوبر، ومعها قصة العلاقات المتغيرة بين مصر وطرفى الوفاق ، ولنا الآن أن نتساءل : مامغزاها ، مامداها ، والى أين ؟ لنقرر أولا ، اذا لم نكن ندرك جيدا ، أن علاقات الصداقة بين الدول هى فى جوهرها علاقات مصالح ، وبالتالي علاقات قوة تحت السطح ، ومن ثم وفى التحليل الأخير صراع قوة ، الا أنه صراع حميد . صداقة الدول ، باختصار ، ضغوط حميدة متبادلة ، وبغير هذا المفهوم فان الصداقة بين الدول ، لاسيما اذا كانت بين طرفين غير متكافئتين كما بين الدول العظمى والصغيرة ، يمكن أن تحمل أو تتردى فى شبهة التبعية ومناطق النفوذ ، ومصر قد كافحت بمرارة وبطولة ضد الاستعمار والامبريالية لتخرج من مناطق النفوذ ، وهى منطقيا ليست على استعداد لأن تستبدل نفوذا بآخر .

وإذا كانت علاقاتها بأصدقائها الكبار ، الاتحاد السوفييتي ، قد تعرضت لبعض التأزم والتوتر من أجل تصفية العدوان الإسرائيلي قبل وبعد اكتوبر ، وفي ظل الوفاق وبسببه ، فإنها بعد النصر أقدر على «تقنين» علاقاتها معهم . وليس هناك شك في أن موقفنا الصلب في ازمتنا الأخيرة مع الاتحاد ، تلك التي لم نكن نريدها أو نسعى اليها ، هي تعبير عن بروز القوة العربية وعلى رأسها القوة المصرية بعد اكتوبر، ودليل على أنها قد دخلت دائرة القوة ولعبة الكبار وأصبحت طرفا موجبا فيها بعد أن كانت طرفا سالبا ، وبعد أن كانت مهددة بحصار الوفاق اذا بها تحتويه وتحيده وتوازنه. والأزمة التي نشأت مع الاتحاد السوفييتي هي رمز للضغوط الايجابية التي استطاعت مصر القوية أن تفرضها عليه .

ورغم كل الصعوبات والمتاعب التي ترتبت على هذ الأزمة ، ففي يقيننا أنها تطور صحي ومفيد ، كان لابد منه لمصلحة الطرفين ، وستخرج منها صداقتهما وهي أوضح أساسا وأكثر صحة كما هي أكثر واقعية وكرامة فمن الأكرم للاتحاد أن تكون علاقاته وصداقته مع مصر قوية عزيزة محررة لاضعيفة محتلة ومع مصر منفتحة على العالم الواسع المتغير لا منغلقة في دائرة ضيقة مغلولة يدها .. وإذا كان على مصر أن تحرص كل الحرص على صداقة الاتحاد ، ليس فقط تقديرا

للماضى ولكن كذلك تاهبا للمستقبل ، فان على الاتحاد أيضا أن يدرك انه لم يعد في الامكان ان تظل علاقات الصداقة بين الكبار والصغار تابعة لعلاقات الكباز والكبار وخاضعة للعبة توازن القوى بينهم . والصداقة الخالصة المخلصة لاتحتمل تحفظات ولاشبهات أو شكوكا ، كما أنها لايمكن أن تكون فى اتجاه واحد أو من طرف واحد ، وإنما هى فى الاتجاهين ومن الطرفين تجىء .

وأخيرا فان هناك مؤشرات على أن هذه السياسة المصرية الصلبة سوف تنجح وأنها على وشك آن تعطى ثمارها ، فخشية أن يفقد الاتحاد هذه الصداقة المؤثرة ، ابدى مؤخرا دلائل على التفهم والرغبة فى التقارب وهناك حديث عن اتصالات لعقد مؤتمر قمة يبدأ صفحة جديدة مشرقة .

وبالنسبة للمستقبل ، يجدر بالعرب ، من ناحية ، أن يعيدوا توطيد علاقتهم مع أصدقائنا الكبار السوفييت على أسس جديدة وثيقة ، وألا يسمحوا لاحد مطلقا أن يدق بيننا وبينهم اسفينا لابعادنا عنهم . ليس ذلك فقط لأن الاتحاد هو المصدر الأساسى لتسليحنا المتطور ، ولكن أيضا للمساعدة في اقامة صناعة سلاح متطورة متقدمة على الأرض العربية . وكذلك لأغراض التنمية والتطوير الحضارى الضرورية .

ومن ناحية أخرى ، علينا أن ننفتح على أوسع جبهة ممكنة من الاصدقاء فى العالم ، لضمان مورد تكميلى واضافى للسلاح المتطور وللتكنولوجيا الحضارية والصناعية الحديثة ، وكذلك لكسب أكبر قطاع من التأييد السياسى .

وهذا يعنى فى المقام الأول دول غرب أوربا ، وهو ماينقلنا أيضا الى موضوع أوربا الغربية والمعركة .

أوربا الغربية والمعركة

لم تنفصل أوربا الغربية قط عن صراع الشرق الأوسط منذ بدا ، ولكن طبيعة تلك العلاقة تغيرت مرتين على الأقل ، مرة تغيرا جذريا بعد نهاية العصر الأمبريالى وتصفية الامبراطورية الأوربية فى العالم العربى، ومرة تغيرا تدريجيا ولكنه مطرد منذ حرب يونيو .. فى المرحلة الأولى كان انحياز أوربا الغربية لإسرائيل بديهية ديبلوماسية ، فهى التى خلقتها أصلا تاريخيا وسياسيا بل ومنها استمدت هذه جسمها البشرى نفسه .. وفي المرحلة الثانية كانت قد زالت أسباب العداء الأوربى العربى التقليدى المتحكم بتصفية الاستعمار وخروجه من المنطقة، ولكن كانت أوربا بعيدة عن الحياد لم تزل فى الصراع العربى - الإسرائيلي - وقد انعكس هذا بصورة صارخة وأليمة فى موقف أوربا الحكومات والشعوب من حرب يونيو .

بين أوربا والعرب

ولكن بعد يونيو نتيجة للجهود العربية السياسية الصبورة والدؤوب ، ونتيجة أيضا للمتغيرات الدولية الشاملة ، بدأ البندول يتذبذب تدريجيا نحو قدر أو نوع من الحياد ، المتحفظ أحيانا أو الجزئى أحيانا .. وأصبحت أوربا الغربية ميدانا لمعركة سياسية حادة بين قوى الشد والجذب المضادة العربية والإسرائيلية . وقبيل أكتوبر كان العرب قد نجحوا في جذب فرنسا خاصة ثم بريطانيا الى حد أقل نحو موقف أكثر ملاءمة وتوازنا من قضية مطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة وتنفيذ قرار ٢٤٢ كما اتسع نطاق هذا الموقف تدريجيا ليشمل دول السوق الأوربية المشتركة ، ولو بدرجات متفاوتة .

وعموما فلقد تمت عزلة إسرائيل عن أوربا الغربية بدرجة دعتها كثيرا الى مهاجمة دولها وأحيانا الي اعتبارها «معادية» ورمتها أحيانا أخرى «بعداء السامية» وأحيانا كذلك «بالجبن والخيانة .. الخ» وكانت فرنسا ، التى رادت الاتجاه الجديد وقادته منذ ديجول ، هى مصب غضب وتهجم اسرائيل الأكبر ، وبعبارة موجزة ، يمكن أن نلخص الموقف المتغير فى أنه بينما كانت أمريكا فى علاقاتها العربية قد تحولت بوضوح من نمط الاستعمار الجديد الى جوهر الاستعمار

القديم ، كانت أوربا الغربية قد انتقلت من الاستعمار القديم الى الاستعمار الجديد .

وتتخلص استراتيجية المواقف الازائية بين أوربا الغربية وكل من العرب واسرائيل فى مجموعة من قوى الشد والجذب المتبادلة والمتعارضة وفى سلسلة من الضغوط والاختبارات المتضادة التى من محصلة التفاعل والتوازن بينها خرجت النتيجة النهائية كما برزت فى معركة اكتوبر . واقطاب هذه القوى التى تقع موزعة بينها أوربا الغربية أربعة هى : أمريكا ، الوفاق ، العرب ، اسرائيل .

فمن ناحية كانت أوربا الغربية مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» مع أمريكا فى حلف الاطلنطى ووحدة الغرب فى وجه «الخطر الشيوعى» . ومن ناحية أخرى كانت مرتبطة تقليديا «بعلاقة خاصة» أخرى مع اسرائيل نتيجة لتاريخ قديم معقد «وعقدة ذنب» حقيقة أو متوهمة . وعلى النقيض من هذه الارتباطات برز اتجاهان اوربيان حاسمان ، الاتجاه الأول سياسة أوربا الغربية المستقلة وسعيها نحو الوحدة الأوربية لتكون قوة عظمى فى وجه اخطار الحرب البادرة فى ظل الاستقطاب الثنائى سابقا ثم أخطار الوفاق الثنائى فى ظل تعدد المراكز أخيرا . لقد فرضت المتغيرات الدولية الجديدة على أوربا الغربية أن تبحث عن نفسها وعن شخصيتها المستقلة ، وأن تبحث لنفسها عن مكان جديد فى

العالم تتخلص به من التبعية والوصاية الأمريكية الضاغطة التى تشل ارادتها ، كما تتخلص به من احتمالات الصدام أو التقارب بين القطبين النوويين العملاقين .

الاتجاه الثانى هو رغبة أوربا الغربية فى تأمين وتعميق مصالحها الحيوية المتعاظمة مع العالم العربى : اقتصادياً وبتروليا واستراتيجيا . ففوائض رءوس الأموال العربية والتجارة العربية الواسعة الامكانيات والنفوذ فى سوق المال الغربية وحضارتها أكثر من أى سلعة أخرى وأكثر من أى منطقة أخرى فى العالم تقريبا ، فضلا عن ارتباط الأمن الأوربى ارتباطا حتميا بالسلام فى الشرق الأوسط ، حيث لا سلام لأوربا بغير سلام البحر المتوسط ، ولا سلام فى البحر المتوسط بغير سلام الشرق الأوسط ، كل هذا وغيره جعل أوربا الغربية تتفتح على مصالحها الحقيقية وأين تكمن . فلم تعد تجد لها مصلحة فى معاداة العالم العربى لحساب اسرائيل ، ولا أن تتورط فى صراع يهددها بأخطار نووية .

عند هذا الحد حدث بالتدريج لقاء مصالح منطقى وحتمى بين أوربا الغربية والعالم العربى . وهو لقاء مزدوج فى الواقع من جانب كلا الطرفين : خروج كل منهما من مأزق الاستقطاب الثنائى ثم الوفاق الأعظم من بعده ، وبناء كل منهما لقوته المادية والاقتصادية الذاتية .

والواقع أن هذا اللقاء هو منطق الطبيعة وطبيعة الأشياء . فليس أقرب الى أوربا من العالم العربى جغرافيا وتاريخيا ، بل وحضاريا وبشريا ، فضلا عن التكامل الاقتصادى .

وقد انعكست آثار هذا النمط الجديد من التوازن على معركة أكتوبر بصورة مباشرة وبالغة الدلالة . فقد كان موقف دول أوربا الغربية موقفا «بتروليا» أساسا فاتخذت موقف الحياد من المعركة فى الشرق الأوسط فى وجه الضغوط الأمريكية والهيستيريا الصهيونية المألوفة . أو كما عبر كاتب فرنسى «ان الشخص العادى فى العواصم الأوربية ، بعد أن تبنى النسخة الاسرائيلية عن حقيقة مايجرى فى الشرق الأوسط طوال ست سنوات ، بدآ يتململ ويطالب بالاطلاع على نسخة مختلفة . وواضح أنه لاتوجد فى الميدان الا نسخة بديلة واحدة ، هى تلك التى كشفت عنها حرب أكتوبر بصورة حاسمة» . وكانت الايمانيتيه أقطع حين كتبت تقول « المشكلة هى أن اسرائيل تحتل وتتوسع ، وعلى أوربا أن تغطى نفقات هذا الاحتلال والتوسع . بعبارة أخرى ، إنه لكى تزدهر اسرائيل ينبغى على أوربا أن تعود الى عصر الشموع والدراجات» . لقد تغيرت بوصلة أوربا .

فرنسا ،مثلا أعلنت على لسان وزير خارجيتها أن «هناك حاجة الى أن تقرر أولا ما اذا كان العائد الى بيته الذى طرد منه معتديا . اننا لا

يمكننا أن نلوم أناسا يريدون استرجاع أراضيهم ، أو نحاول اتهامهم بالعدوان» . هذا بينما قال زعيم أحد أحزابها «يجب ألا ينسى أحد للحظة أن المصريين يحاربون فوق تراب مصرى ، وأن السوريين يحاربون فوق تراب سورى» .

أما بريطانيا فقد أعادت تأكيد اعلان هاروجيت الذى صرح به وزير خارجيتها فى ١٩٧٠ وجاء فيه بالنص : «يجب أن تنسحب اسرائيل من الاراضى المصرية والأردنية الى الخطوط التى كانت عليها قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وأن تتخلى عن احتلال هضبة الجولان في سوريا » . وبذلك صححت تفسير قرار ٢٤٢ ، كما أعلنت حظر تصدير السلاح الى الشرق الأوسط . كذلك أعلن وزير خارجيتها أكثر من مرة أن «المناطق العازلة لا يمكنها أن تعطى اسرائيل أمانا دائما» ، و«أننا فى مباحثات السلام يجب ألا نهمل أمن العرب أيضا»» وأخيرا أنه «لايقوم سلام فى الشرق الأوسط على أساس استمرار احتلال القوات الاسرائيلية للأراضى العربية» .

ورغم تناقضات والتفافات معينة بل وانحرافات ناشزة في مواقف بعض دول غرب أوربا تجعل حيادها غير مخلص وربما مشكوكا فيه ، ورغم أن الحياد السليم نفسه ليس عدلا حين يكون بين المعتدى والمعتدى عليه ، فقد كانت أوربا الغربية الرسمية على العموم بعيدة عن روح

العداء للعرب أو الانحياز لاسرائيل . ولأول مرة منذ ربع قرن أصبحت أوربا تتحدث عن «أمن العرب» جنبا الى جنب مع «أمن اسرائيل» . أو كما يلخص كل من ميشيل جالليه وكريستوفر مييهيو على حدة ولكن في اتفاق واضح . لقد غيرت حرب أكتوبر موقف الدول الغربية وأوربا الغربية من القضية العربية وأصبح هناك ميل أكثر الى تفهمها .

ومما يستحق التسجيل هنا أن حكومة العمال الجديدة في بريطانيا - ولحزب العمال علاقات وميول صهيونية جامحة وتعهدات وثيقة ، وكثيرا ما أعلن زعماؤه بتحد سافر انحيازهم المطلق لاسرائيل برغم انها «زميلة في الاشتراكية» - هذه الحكومة سارعت فور وصولها الى الحكم فأكدت للدول العربية استمرار السياسة البريطانية السابقة والحياد تجاه الأزمة وعدم الانحياز الى اسرائيل . وذلك لاشك تحت ضغوط سلاح البترول المسلط حظره على عنقها .. بل لقد أعلنت حكومة العمال أن العلاقات مع العرب تعد أحد محاور رئيسية ثلاثة في سياستها الخارجية - المحوران الآخران هما الصداقة مع الولايات المتحدة والتفاهم مع أوربا . كذلك صرح جيمس كالاهان وزير خارجيتها أن بريطانيا ترى أنه لن تكون هناك تسوية نهائية لأزمة الشرق الأوسط «إلا اذا نصت هذه التسوية على ايجاد شخصية للشعب الفلسطيني» ،

كما أعلن أنها ترحب بالحوار بين دول السوق الأوربية والعرب حول مستقبل العلاقات الاقتصادية والتجارية بينهما .

غير أنه ليكون من تبسيط الأمور المخل أن نصور أو نتصور الموقف الأوربي ،حتى في أحسن حالاته واحتمالاته ، مواتيا أو ملائما تماما وبلا تحفظات للقضية العربية . فعدا «الأغلبية الصامتة» التي لعلها اقرب الى اللامبالاة ، كانت هناك النواة الصلبة أو «الأقلية الصاخبة» من أصدقاء العدو في كل الدول الأوربية وعلى جميع مستوياتها . وقليل من الاقتباسات الموجزة من الصحافة الأوربية اثناء المعركة يكفي لالقاء بعض الضوء عليها «في تاريخ أوربا» كتبت الأوبزيرفاتير : «سيكون أكتوبر ١٩٧٣ بداية تاريخ الانهيار الكبير في حضارة العرب» . أما الاكسبريس فقالت «تحقق الأوربيون الآن أنهم سيعلقون لسنوات عديدة الى الولايات المتحدة من الناحية العسكرية ، والي العرب من ناحية الطاقة» . هذا بينما أغلقت الفيجارو المثلث بقولها «أصبحنا (الأوربيون) مستعمرين لثلاثة أطراف : العرب ، السوفييت ، أمريكا» !

وفيما بين موقف الأغلبية والأقلية ، أثبتت دوائر الحكومات أنها عرضة ، بعد التحفظ والحذر ، للتذبذب والتلاعب الى حد أو آخر ، وهي على أية حال مرهونة بتغير الأحزاب الحاكمة . ومن هذه الزاوية نلاحظ

أنه قد حدثت عدة تغييرات شبه متعاصرة فى الحكومات والأحزاب الحاكمة في عدد من الدول الأوربية بعد أكتوبر كأنها على ميعاد : مجىء حزب العمال فى بريطانيا ، استقالة برانت فى ألمانيا الغربية ، مجىء ديستان فى فرنسا ..إلخ . ورغم أن من المحقق أن المواقف الأساسية لأوربا الغربية لم ولن تتغير فى المدى القريب عما كانت عليه أثناء أكتوبر ، فلا ينبغى أن نغفل أن هناك احتمالات ببعض التحفظ ومحاولات للإمساك بالعصا من الوسط .. إلخ ، وعلى أية حال ، فعلى العرب ألا تكف عن الحوار والاقناع والضغط على أوربا الغربية ، حفاظا على موقفها ان لم يكن تطويرا له .

بين أوربا وأمريكا

هذا من ناحية أوربا ، والعرب . أما مع أمريكا فقد اتسعت الفجوة الناشئة بين أوربا الغربية والولايات المتحدة ووصلت الى حد الشرخ العميق حين رفضت الأولى أن تكون معبرا للسلاح الأمريكى الى اسرائيل أثناء المعركة مما عرض حيادها للخطر . ثم وصل الشرخ الى حد الصدع حين أعلنت أمريكا حالة التأهب النووى فى قواعدها الأوربية دون موافقة أو حتى علم الدول الأوربية ، مما عرضها هى نفسها لخطر الصدام النووى . وفى هذه الأزمة تبادلت أوربا وأمريكا الاتهامات المباشرة والقاسية . أوربا تحدثت عن «التأهب

الزائف» و«الاجراءات المسرحية الخطرة» وعن تجاهل أمريكا لها تماما في التأهب النووي «الى حد مهين» .

فرانس سوار ، مثلا كتبت عن قرار التأهب النووي الذي «بدا متطرفا ، أشبه بعملية تهويش يقوم بها لاعب قمار» . والصحف البريطانية كذلك هاجمت أمريكا قائلة أنها عاملت بريطانيا «معاملة مهينة وكأن بريطانيا جمهورية للموز» (أي جمهورية تابعة لأمريكا) ، وردت سبب الخلاف الى عاملين : اهمال أمريكا التشاور مع لندن حول التأهب ، ثم الانتقادات العلنية من نيكسون وادارته للحلفاء .

وعموما فقد اتهمت الصحافة الأوربية بالاجماع الحكومة الأمريكية بأنها «أهملت اهمالا مشينا التشاور مع حلفائها قبل اعلان حالة التأهب بين قواتها داخل البلاد وفي قواعدها بالخارج» . وانتقد البعض قرار نيكسون بانه «اجراء لم يكن له مايبرره ، وتجاوز فيه حدود ما كانت تقضي به الظروف أثناء الحرب بين العرب واسرائيل» . وقد لخص معلق أوربي الموقف كله في أن «الولايات المتحدة ، فيما يبدو ، لاتستشير أوربا في أوجه تعاونها مع الاتحاد السوفييتي ، وهي لاتستشيرها الآن في تحركات مجابهتها أيضا . إن هناك شعورا متزايدا بأن الأمريكيين لن يتشاوروا - معنا حول أي شيء يفعلونه » .

ولم يكن الساسة الأوربيون أقل انتقادا أو صراحة وعنفا من الصحافة . ان الحرب - قال ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا - أكدت شكوك فرنسا عن سياسات الوفاق الأمريكية السوفييتية ، ولقد «أهانت» الدولتان الأعظم أوربا بتجاهلهما لها في محاولاتهما لأنها القتال .. وهما «تتجاوزان حدودهما» في سياسة توازن القوة والوفاق . أما هارولد ويلسون - في المعارضة وقتئذ - فقد اعتبر التأهب بلا تشاور « اهانة تدعو الى اقصى درجات الغضب» .

أما الأمريكيون ، من جانبهم ، فقد ردوا بحدة كبيرة ومرارة أكبر ، فعلقوا على العلاقات «الهشة» التي كشفت عنها الحرب بين الأمريكيين والأوربيين «أصدقاء الرخاء» . وقالوا كذلك ان المسئولين الأوربيين يسعون الى أن يتنصلوا من السياسة الأمريكية المؤيدة لاسرائيل وأن «يطلقوا أنفسهم» عنها حفاظا على مصالحهم في استمرار تدفق البترول . وفيما بعد وصفت الحكومة الأمريكية بيان السوق الأوربية المشتركة ازاء الازمة والذى حدد موقفها بالحياد بأنه «ينم عن الجبن والتهيب» . هذا بينما شاع عن كيسينجر قوله المقتضب للمحيطين به أنه «مشمئز» من موقف الحلفاء الأوربيين ..

ومما لاشك فيه أن الخلاف تحول الى أزمة حقيقية حادة بين الأمريكيين والأوربيين . وفيما بين الاثنين ، كتب البعض أن العلاقات

بين أمـريكا وأوربا الغربيـة «لم تكن قط أسـوأ مما عليه الآن منذ حـرب السويس قبل ١٧ عاما مضت . وقد بدا .. أن أدوار عام ١٩٥٦ قد قلبت رأسا على عقب . فالولايات المتحدة تبدى نفس الازدراء الغاضب تجاه حلفائها فى حلف الأطلنطى بسبب افتقارهم المزعوم الى التأييد فيما يتـعلق بالشرق الأوسط على نحـو مـا أبداه كل من أنتـوني ايدن وجي موليه تجاه الرئيس ايزنهاور أثناء حرب السويس» (روبرت ستيفنز) . مصدر أخر قال انها «أعمق خلافات خلال ٢٤ عاما من تاريخ حلف الاطلنطى» ، بينما صك بعضهم التعبير الساخر «المحيط المتجمد الأطلنطى» كناية عن صقيع البرودة الشديدة التى رانت على شاطىء المحيط ، فى حين قال دبيلوماسى غربى «الآن بدأت الحرب الباردة بين أوربا الغربية وأمريكا»!

وقد حاول الجانبان فيما بعد تهدئة حدة الموقف بالتدريج وان يدفعنا الشجار بطريقة دبيلوماسية . فاعتبره البعض نوعا من «النزاع العائلى» داخل الأسرة الواحدة . وقيل ان امريكا عبرت عن شعورها بالندم فى النهاية على عنف وخشونة لهجتها أثناء المساجلة . وقد أمكن بالفعل تجاوز الأزمة ، غير ان جذورها ظلت بلا شك هناك وبقى فى النفوس كثير من المرارة وتحت الرماد بعض النار فى انتظار أول مناسبة جديدة لتندلع من جديد . وقد كانت أزمة الطاقة ومعركة البترول

هى تلك المناسبة . فما أن هـدأت أزمة التأهب النـووى بالكاد ، حتى تفجرت أزمة البترول ، وفيها بدا التـناقض بين أوربا الغربية وأمريكا أعمق وأخطر لأنه تناقض مصالح حيوية ومصيرية مباشرة . وبهذا أصبح التناقض فى الواقع مزدوجا : الوفاق والبترول . وبهذا أيضا كشف الخلاف بين القارتين عن طبيعته الحقيقية ، وهى أنه صراع قوة من أجل النفوذ وتصادم مصالح رأسمالية من أجل البقاء .

وقد عبر نيكولاس كارول عن هذا بأن الوفاق بين الولايات والاتحاد أنهى دور أوربا «كوسيط» بين الطرفين ، وقضى بذلك على مطامع فرنسا القديمة بالذات فى أن تكون جسرا للتفاهم بين الشرق والغرب . بينما أضاف وليم سافير أن خوف أوربا من الاتحاد السوفييتى دفعها فى الأصل الى الولايات المتحدة ، ولكن خوفها الآن من فقد البترول أخذ يدفعها بعيدا عنها . وبهذا وذاك لم يعد حلف الاطلنطى بعد أكتوبر كما كان قبله ، وتحول «عام أوربا» الاحتفالى الذى كان يخطط له نيكسون الى «عام الشرق الأوسط» المتأزم ، ومشروع «ميثاق الأطلنطى الجديد» المتلاحم الذى كان يرسمه كيسينجر الى مشروع «شخصية أوربية جديدة» أكثر استقلالا وتباعدا .

وواقع الأمر أن أوربا الغربية اذا كانت قد اخذت تخشى من ان تفقد دور الوساطة السياسية في الوفاق بين العملاقين الذى يختزل بذلك وظيفتها ، فقد بدأت أمريكا كذلك تتوجس من أن تفقد من جانبها دور الوساطة الاقتصادية في البترول بين أوربا والعرب وأن تحتل أوربا مكانها في بترول العرب ، وباتت تعارض بكل قوة نمو العلاقات البترولية المباشرة بين حلفائها الأوربيين والعرب وتعمل بل وسيلة للحيلولة دون أوربا الغربية والعرب . لقد بدأت الحرب الاقتصادية بعد السياسية . وهكذا رفضت أوربا الغربية الانصياع لدعوة أمريكا الى مواجهة بترولية مع العرب ، ورسمت على العكس سياسة للتقارب المباشر معهم.

وحين قرر مجلس السوق الأوربية المشتركة عقد مؤتمر عربى - أوربى للتعاون فى شئون الطاقة والتكنولوجيا ، كشف رد فعل أمريكا عن عمق الصدع وخطورة الصراع .فقيام تعاون مباشر بين السوق الأوربية والعرب - هكذا أعلنت المصادر الحكومية الأمريكية - «قد يؤدى الى مواجهة في الشرق الأوسط بين أمريكا وحلفائها الأوربيين» . وبعد أن أعربت هذه المصادر عن أسفها لأن الأوربيين لم يستشيروا أمريكا قبل القرار ، الذى رأوا فيه رغبة من جانب فرنسا فى تنظيم الوحدة الأوربية ان لم يكن ضد أمريكا فعلى الأقل بعيدا عن السياسة

الأمريكية ، قالت انها «تحتفظ بحق العمل كما يفعل الأوربيون» ، ثم اضافوا «اننا لا نريد مواجهة مع أوربا . لكن اذا لزم الأمر فلن يتمكن الأوربيون من منافستنا في الشرق الأوسط ، واذا حاربناهم فستكون الغلبة لنا» .

وعلى الفور رد بيير ميسمير رئيس وزراء فرنسا بأنه «لا يمكن حل مشكلات الطاقة الا بالتعاون مع كل دول الشرق الأوسط وليس بالمواجهة بين الكتل المتصارعة واهتمام فرنسا بالعالم العربى لا يرجع تاريخه الى حرب أكتوبر أو أزمة البترول ، ولكنه اهتمام اتخذ طابع الاستمرار قبل ذلك بكثير . وفرنسا على استعداد لمعاونة الدول العربية المنتجة للبترول على استغلال امكانياتها المالية لتحقيق أهداف التنمية بها» .

ذلك كان آخر ما انتهى اليه التراشق عبر الأطلنطى ، ومن الواضح تماما أن الصراع قد وصل الى نقطة أخطر بكثير مما كان يتوقع الكثيرون . وقد عبر كيسينجر أخيرا عن هذه الحقيقة بصراحة تامة فقال ان «أصدقاء أمريكا الأوربيين يشكلون لها مشكلة فى السياسة الخارجية أكثر من أعدائها . كذلك عاد فأكد أن «الخلافات القائمة بين أمريكا وأوربا حقيقية وخطيرة» ، وسوف تحتاج الى وقت وصبر لحلها . كذلك أعلن نيكسون نفسه أن أوربا لايمكن أن تجمع بين عداوتها

البادية لأمريكا وبين الاعتماد عليها فى مسائل الأمن والاستراتيجية ، او كما وصفها «ان أوربا لا تستطيع أن تتبع سياسة تعاون مع أمريكا فى الأمن ، وسياسة مواجهة ضدها فى الاقتصاد .. ولايمكن استمرار العلاقات الأوربية الأمريكية على أساس التعاون العسكري والمواجهة الاقتصادية» .

وعلى الفور بادر ميسمير فرد قائلا «على أوربا أن تتطور مستقلة عن شركائها» ، بينما كان جوبير أشد حسماً «على أوربا أن تستعد للاستغناء عن مظلة أمريكا الذرية اذا كانت هذه تتعارض مع كرامتها». وعن تلويح أمريكا بسحب قواتها ومظلتها الذرية من أوربا ، كتبت الموند بلا مواربة «هذا ابتزاز» . والواقع أن صراع القوة كامن فى كل هذه المواقف ، أمريكا تريد ان توطد زعامتها وسيطرتها على أوربا «الآبقة» ، وأوربا تريد أن تسترد سيادتها واستقلالها عن «التبعية» الامريكية . قال بومبيدو «ان أوربا يسيطر عليها الامريكيون ليست أوربا على الاطلاق» ، بينما رفض رئيس وزرائه ميسمير صراحة محاولات أمريكا زعامة العالم الغربي مطالبا بأن تكون أوربا الغربية على قدم المساواة مع أمريكا .

وهنا عاد نيكسون فقال ان الأوربيين اتخذوا موقفا معاديا للولايات المتحدة في بعض المسائل . ولكن سحب القوات الأمريكية من أوربا

كاجراء انتقامي امر ينطوى على تهديد للسلام ، ويبدو الآن أن تكتيك الولايات المتحدة هو دق اسفين بين فرنسا وزميلاتها الأوربيات لعزلها وتصفية زعامتها المتحدية ، وقيل في هذا ان من المؤكد ان الدول الاوربية اذا ما خيرت بين أمريكا وفرنسا فستختار الأولى بلا تردد ، وهو ما أشار اليه جوبير بكلمة «الخيانة» .. ومن الناحية الأخرى فالمعتقد ان هذه الخلافات ستسوى بطريقة أو بأخرى تحت صيغة ما مقبولة للجميع في وقت قريب أو بعيد ، وان كانت المناقشة لاتزال سجالا عبر المحيط وفوق رأس الحلف .

نتائج المعركة

والسؤال الآن هو : الى أين ؟ ما النتائج والاحتمالات والانعكاسات وما علاقتها بالعرب والصراع العربي ضد اسرائيل ؟ ولعل أول رد هو ان هذه المواجهة الباردة (أم الساخنة؟) بين الحليفين كان من أبرز وأخطر نتائجها تعجيل اتجاهات الوحدة الأوربية واندفاع أوربا اليها بصورة حاسمة . كما قال الجنرال بوفر مثلا «.. يبقى على أوربا المنقسمة ، هذه التى استنامت الى وهم الوفاق ، أن تدرك موقفها الخطير بين الدولتين الأعظم ..والنتيجة التى يجب عليها ان تستخلصها هي أن تسرع خطاها نحو الاتحاد» .

وهذا مايؤدى بنا الى حقيقة فائقة الأهمية ، هى ان الشرق الأوسط حتى منذ الخمسينات كان عاملا دقيقا لا فى السياسة الخارجية الأوربية فقط وانما في سياسة الوحدة الأوربية نفسها ، فمنذ وقت مبكر ، أدركت أوربا (هالشتاين بصفة خاصة) أن السوق الأوربية المشتركة ماكانت لتتحقق لولا أزمة السويس ١٩٥٦ التى تعارضت فيها مصالح ومواقف الأوربيين والأمريكيين . ثم ازداد ادراك الأوربيين لضرورة الوحدة مع كل حرب لاحقة بين العرب واسرائيل ، حتى ليقال ان حرب ١٩٥٦ هى التي خلقت الوحدة الأوربية وحرب ١٩٧٣ هى التى عمقتها ودعمتها الى الأبد (أنتونى سامسون) .

ومن هذه الزاوية فالواقع أيضا أن حرب أكتوبر هى التى حررت أوربا أو ساعدت على تحريرها بصورة نهائية وحاسمة من الوصاية والتبعية الأمريكية ، لأن هذا هو المعنى الحقيقى للوحدة الأوربية . كذلك يمكن أن نضيف ان حرب أكتوبر قد حررت أوربا من نازية جديدة على ضلوعها الجنوبية (اسرائيل الصهيونية) ، مثلما حررتها الحرب العالمية الثانية من قبل من نازية قديمة فى قلبها (المانيا الهتلرية) . وفى المحصلة العامة ، نرى أن دفعة الحرب العربية المنتصرة هى التى وضعت حدا أو آخر «للعلاقة الخاصة» بين أوربا وكل من أمريكا فى جانب واسرائيل فى الجانب الآخر ، وأنها هى بذلك التى

ساعدت أوربا الغربية على بلورة استقلالها الجديد ووحدتها الناشئة .
لقد جاءت حرب أكتوبر بمثابة معجل أو مفاعل وحدوى لأوربا . واذا كان البعض ، مثل بيتر شور الزعيم العمالى البريطانى ، يرى على العكس أن «السياسة العربية البترولية قد قضت على أسطورة الوحدة الأوربية» فهذا لا يعبر الا عن اتجاه ثانوى ويكاد يمثل الاستثناء لا القاعدة .

وبقدر ما تباعد الموقف الأوربى عن الأمريكى فى ١٩٧٣ ، تقارب مع الموقف العربى . وبتعبير آخر ، بينما تباعد شاطئا الأطلنطى ، تقارب شاطئا المتوسط . وحتى منذ ما بعد يونيو ازداد التدخل المطرد فى العلاقات بين أوربا الغربية والعالم العربى الى حد زالت فيه كثير من الحساسيات والعقد القديمة وبدأت معه صفحة جديدة تنبىء بمستقبل كبير .

الرئيس بومبيدو ، مثلا تحدث عن العلاقات الجغرافية والتاريخية والمصالح الاقتصادية والثقافية بين أوربا والعرب . بينما اقترح ميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا على السوق الأوربية عقد مؤتمر يضم دول السوق والدول العربية لدراسة امكانيات التعاون بين الدول «المتقاربة جغرافيا» . وعن وحدة البحر المتوسط وشعوب شاطئيه كذلك أسهب الكثير من الكتاب الأوربيين .

وبعض المفكرين الأوربيين دعوا بصورة مجددة الى فكرة ارتباط وتعاون اوربى - عربى كوحدة متكاملة - أوربيا Eurabia كما صكوها - على غرار أورا افريقيا ، وتشمل كل مجالات الحياة ..إلخ . أما السوق المشتركة فقد سبق أن طرحت إبان الأزمة فكرة الدعوة الى مؤتمر اقتصادى مع العرب يحقق ضمان تدفق البترول العربى إلى أوربا ، ويوفر الحاجات التكنولوجية والمالية الأوربية للعرب . ثم قرر مجلس السوق أخيرا عقد «مؤتمر أوربى - عربى على مستوى وزارى لتنظيم وسائل التعاون فى شئون الطاقة والاقتصاد والتكنولوجيا والعلوم» .

وكتعبير استراتيجى جامع عن هذه العلاقات المطلوبة ، ذهب حتى فرانسوا ميتران ، زعيم الاشتراكيين الفرنسيين ذوى العلاقات التقليدية الوثيقة مع العدو الاسرائيلى ، الى أنه «اذا كان عليهم كاشتراكيين فرنسيين ان يحددوا محورين حول أوربا السياسية ، فانهما يتمثلان فى محاولة حل مسألة الأمن الجماعى مع الروسيا السوفيتية ، وتكوين حلف للبحر المتوسط مع البلاد الواقعة على شواطئه . ذلك لمحاولة ايجاد توازن مع قوى الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة ، لا عن طريق انشاء حلف عسكرى ، وانما عن طريق خلق قوة جديدة تنبع من وحدة العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية والانسانية ،

بحيث لاتصبح القرارات التى تتخذ فى المناطق الممتدة من السويد حتى السعودية ، أى من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، تصدر مركزيا بمكالمة تليفونية بين نيكسون وبرجنيف ، وانما تصدر عن الشعوب والدول صاحبة حق السيادة فى تقرير مصير هذه المنطقة» .

تلك كلها وجهات نظر مختلفة ، تبدأ وتنتهى بزوايا ومستويات متباينة ، وقد لاتكون جميعا خالصة لوجه العرب أو مخلصة لقضيتهم ، لكنها تتجه دائما الى تصور عالم جديد من العلاقات بين أوربا والعرب . ولقد يكون السابق لأوانه ان يتحدث أحد عن «وفاق صغير Litte En-tente » يربط بصورة ما نسبية ومخففة بين العرب وأوربا الغربية ، متعامدا على «الوفاق الأعظم» ومتوسطا بينه وموازيا له ، ولكن ليس من المستبعد أو المستكثر ان ينبثق مثل هذا المحور البازغ أو البرعم يوما ما فى المستقبل القريب أو البعيد.

افريقيا والمعركة

وقد يكون الوقت مبكرا كذلك لأن نتكلم عن وفاق آخر ، «الوفاق الأصغر» مثلا ، بين العرب وافريقيا كنتيجة للمعركة ، ولكن المعركة قد ألقت البذرة بالفعل . فلقد دشنت المعركة انقلابا كاملا فى العلاقات الافريقية – العربية والافريقية – الاسرائيلية فى آن واحد ،

ـعم الأولى بقدر ما هدم الثانيـة . وبذلك تحـقـقت وحـدة الـقـارة الافريقية كما لم تتحقق من قبل ، وتلاحمت الوحدة العربية - الافريقية - مثلما لم تفعل قط . '

هكذا ، وكما تقارب شاطئنا البحر المتوسط في الشمال ، تقارب أيضا ساحلا الصحراء الكبرى حتى التصقا وحتى اختفت الصحراء كفاصل أو عازل سياسي ، وبعبارة أخرى ، فكما «عبرت» العرب البحر نحو الشمال فتداخلت علاقاتها وصداقاتها مع أوربا ، عبرت أفريقيا بدورها الصحراء نحو الشمال لتتداخل هي الأخرى وتتلاحم مصيريا مع العرب . وبهذا وذاك يبرز نمط جيوبوليتيكي جديد مشترك يجمع بين الجميع له مغزاه الكبير وقد تكون له أهمية كبرى في المستقبل . ولكن فلنفصل أولا قبل ان نصل الى هذا النمط .

منذ وضعت اسرائيل قدمها في «حذاء» الاستعمار القديم الذى غادر افريقيا بعد الاستقلال ، ومنذ مدت أمريكا ذراعها لترث الدور الامبريالي في القارة ، أصبحت الساحة الافريقية مسرحا ضخما للصراع السياسي والدبلوماسي بين العرب واسرائيل . ومنذ نفذت اسرائيل الى البحر الأحمر واكتمل التسلل الصهيوني الى افريقيا ، استطاعت اسرائيل ان توطد لنفسها موطىء أقدام راسخة في بعض دولها ، اتخذت منها قواعد للمزيد من التوغل والتغلغل .

وعن طريق المساعدات المتنوعة وعدد من مشروعات التنمية والتطوير والتدريب سواء زراعيا وصناعيا أو تجاريا وعسكريا ، نجحت اسرائيل لبعض الوقت والى حد معين فى ان تنمى عــلاقاتها ومصالحها في القارة . وأكثر من هذا استطاعت ان تخدع الافريقيين الى حين عن حقيقة دورها كمخلب قط للامبريالية وحصان طــرواده للاستعمار وكعميل وسمسار له من البــاطن ، فضلا عن كيانها الاستعمارى ذاته الذى يكرر بكل أمانة وبكل تفصيل صورة الاستعمار الاستيطانى الأبيض الذى يعد ســرطان القارة وجذامها العنصرى ويطوقها من الجنــوب بجبهة مثلثة فى جنوب افريقيا وناميبيا وروديسيا ثم موزمبيق وأنجولا .

وقد بذلت الدول العربية جهودا دبلوماسية وسياسية مستمرة بلا كلل من أجل كشف حقيقة اسرائيل وتعريتها أمام الافريقيين . وعبر سلسلة من الاتصالات المكثفة ، توجتها من حين الى آخر مؤتمرات الوحدة والقمة الافريقية ، نجحت الدول العربية فى تحويل المد بالتدريج وفى ان تحول دون استشراء الخطر الصهيونى فى القاهرة . وقد ظهرت آثار هذه الجهود بعد يونيو ، حين اخذت افريقيا تلعب دورا متناميا فى البحث عن حل للازمة . فكانت بعثة «حكماء افريقيا» وكان مؤتمر أديس أبابا الذى سجل أكبر تأييد أدبى ودبلوماسى للقضية العربية فى تاريخ

العلاقات العربية - الأفريقية حيث أدان العدوان الاسرائيلي بحسم وطالب بحزم بالانسحاب .

غير أن معركة اكتوبر جاءت نقطة التحول الحاسمة بل العارمة . فقبيل المعركة كانت مجموعة من الدول الافريقية قد فطنت نهائيا الى الخطر الاسرائيلي على القارة وعلى السلام العالمي فقطعت العلاقات الديبلوماسية معها . ولكن تلك لم تكن سوى البداية التي تنتظر المعركة لتأخذ منها إشارة الانطلاق . فاذا بسلسلة متتابعة ، لن تلبث بعدوى صحية أن تحولت الى شلال منهمر ، من قطع العلاقات تترى وتتواتر من كل أركان القارة . واذا نحو ٢٩ دولة افريقية تقطع علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل في غضون شهر واحد تقريبا ، قل بمعدل دولة كل يوم ! بل لقد تصادف بالفعل أن أعلنت أكثر من دولة واحدة قطع العلاقات في يوم واحد ! لقد كان ذلك بحق «شهر أفريقيا» ، مثلما كانت سنة ١٩٦٠ هي تحريرياً «سنة افريقيا» . كأنما القارة قد تخصصت في المفاجآت السياسية بالجملة ، مركزة مكثفة في فورة عنيفة بعد طول كمون !

ولقد فقدت اسرائيل في هذه الموجة المدية الكاسحة مواقع لها كانت تحسبها لأسباب خاصة جدا منيعة وآمنة جدا ، سواء ذلك في منطقة القرن الافريقي أو في قلب القارة أو غربها . واذا كانت قد تبقت بضع

دول لم تزل على علاقاتها الديبلوماسية مع اسرائيل فتلك وحدات صغرى أساسا تعانى من أوضاع جغرافية سياسية شاذة تضعها فى تضاعيف وتحت رحمة كتلة الاستعمار المتخلف فى أقصى جنوب القارة ، لقد تم ، عمليا ، «طرد» إسرائيل من القارة السوداء .

مامعنى هذا ، وماذا بعده ؟ لقد أدركت افريقيا نهائيا ان اسرائيل هى جنوب افريقيا العرب وروديسياهم ، أو موزمبيق الشرق الأوسط وانجولاه . أدركت انها عنصرية افريقيا السمراء ، حيث تلك الدول هى عنصرية افريقيا السوداء ، وهى مثلها عدوة افريقيا القاتلة . لقد رأت افريقيا أخيرا كيف أنها محاصرة بين مثلث ضخم من العنصرية البيضاء ترتكز رءوسه على أطراف القارة الثلاثة : جنوب افريقيا وروديسيا وموزمبيق وأنجولا في جنوب القارة ، ثم البرتغال المتروبول الاستعمارية على ضلوعها فى الشمال الغربى ، ثم أخيراً اسرائيل الصهيونية الدخيلة على ضلوعها فى الشمال الشرقى . فكان حقا على افريقيا أن تلفظ اسرائيل من بيتها الى أن تلفظ من بوابتها .

مرة أخرى ، مامعنى هذا ، وما محمولاته ؟ لقد غيرت حرب أكتوبر المنتصرة موقف افريقيا ، الذى لم يكن يخلو من شيء من تحفظ هنا وبعض من تردد هناك . غيرته مرة واحدة والى الأبد ، فاكتمل عدم انحيازها تماما ، وإكملت وحدة القارة الحتمية . واذا كان رئيس زائير

ند قال مرة «اذا كان للمرء أن يختار بين صديق وشقيق ، فإنه يختار الشقيق» . فقد عاد بعد المعركة ليقول ان هذا كان قبل أكتوبر ، أما الآن فاسرائيل ليست صديقا بل هى عدو .

لقد وجدت افريقيا فى النصر العربى نصرا لها ولكل العالم الثالث . انه أول نصر عسكرى حقيقى عصرى ضخم ومباشر تسجله افريقيا بل المتخلفون على الاستعمار «الأبيض» فى التاريخ الحديث . ولهذا بلا شك مغزاه الواضح فى الصراع ضد العنصرية العالمية . ولقد عبر رئيس زانير عن هذا بجلاء فى خطابه أمام مجلس الشعب المصرى حين قال «حين وضعتم النهاية لأسطورة التفوق العنصرى للصهيونيين ، فانكم تكونون قد عاونتم فى التقدم بقضية الشعوب الافريقية التى تناضل والسلاح فى أيديها ضد الاستعماريين والعنصريين» . كما أضاف فى مناسبة أخرى «لقد استطاعت مصر أن تفرض السلام على من يتحدث عن الحرب» .

بهذه الصفة ، وبغيرها كثير ، بدت مصر فى نظر القارة وكأنها «يابان افريقيا» ، أول دولة افريقية تهزم دولة «أوربية بيضاء» هزيمة عسكرية ايجابية داوية ، مثلما فعلت اليابان سنة ١٩٠٥ ، وبقدر ماشعرت افريقيا بالشرف والفخار لهذا النصر ، جاءت مبايعة للعرب ومصر بالقيادة فى القارة والزعامة فى العالم الثالث . فطرد اسرائيل

على ذلك النحو ، الذى يكاد يرقى بشكل ما الى سحب اعتراف ، هو ايضا ترشيح بل تنصيب من جانب القارة لمصر والعرب كقلعة النضال المشترك ضد الأمبريالية وكدرع الحرية فيها .

ويعنى هذا أيضاً أن كل محاولات الاستعمار للدس والوقيعة ولدق اسفين بين العرب والافريقيين قد فشلت وتحطمت على صخرة الوحدة الطبيعية بينهم ، تلك التى تستمد مقوماتها من الوحدة الجغرافية المباشرة ثم من وحدة التحرير الوطنى والكفاح ضد الاستعمار والامبريالية والعنصرية («حلف المقهورين» كما دعاه البعض) . تبخرت اسطورة الصحراء كعازل بين شمال وجنوب ، بين عرب وزنوج ، بين افريقيا عربية واخرى سوداء .. الخ . تحطمت كذلك أكذوبة تجارة الرقيق (لوحظ عودة الدعاية الأمريكية الى هذه النغمة القديمة بعد المعركة – لكن دون جدوى) .

ومن الناحية الأخرى ، فان لهذا الموقف الافريقى تبعاته الكبيرة على العرب . لقد ضحت افريقيا بمصالح ومكاسب مادية لاتخلو من قيمة فى سبيل الحق العربى . ولابد لنا أن نسدد هذه الخسائر بمعدل الربح المركب ، بل أضعافا مضاعفة ، ليس فقط تعويضا ولكن ليدرك الجميع أن صداقة العرب دائما أجدى وأنفع . اننا لابد ان نتحرك بسرعة وبلا أدنى تردد لتملأ «الفراغ» الجديد فى افريقيا ، حتى يكون

الخروج» الاسرائيلي منها نهائيا بلا عودة . والعرب يملكون بلا ريب كل مقومات المساعدة ماليا وتكنولوجيا وحضاريا . ومن حسن الحظ أن موتمر القمة العربي الأخير في الجزائر قد قنن هذه السياسة بالفعل وخطط لبنك تنمية عربي - أفريقي برأسمال كاف ، كما بدأ التنفيذ على الفور .

تلك اذن صورة افريقيا الجديدة من خلال عدسة المعركة . غير أن من المستحسن في نهاية هذا المسح أن نضعه في اطار مشترك مع الموقف الأوربي ليكون المنظور أوسع والرؤية أشمل . لقد تقاربت أفريقيا كثيرا من الحق العربي من الجنوب ، كما تقاربت أوربا الغربية من الشمال . وبذلك أصبحت هناك سلسلة متتابعة من ثلاث حلقات تتراص في محور رأسي واحد من المواقف السياسية المتشابكة ولا نقول المتشابهة يحتل وسط العالم الهام ، بادئا من أوربا في الشمال ومنتهيا بأفريقيا في الجنوب وعقدته وحلقة الوصل فيه كما هو مبرر وجوده هو العالم العربي في وسطه . وهذا المحور النسبي يتعامد - سنرى - على محور معسكر العدو الأفقي الذي يمتد بالعرض مابين اسرائيل وأمريكا والذي أن لنا أن ننتقل اليه .

الموقف الأمريكى

فاجأت العرب الولايات المتحدة مفاجأة صادمة بالحرب وبنتيجتها المفزعة ، ولكنها لم تفاجأ بموقف الولايات المتحدة وعدائها الرهيب .. فالولايات هى الى قريب العدو الأكبر والأصلى للقضية العربية ، أما اسرائيل فمجرد يدها الضاربة فى المنطقة . وقد كان أكتوبر هزيمة وصفعة كبرى لأمريكا بالدرجة نفسها التى جاءت لاسرائيل . فلقد إثبتت فشلها فى كل خططها وادعاءاتها تقريبا : فشل مخابراتها وأجهزة تجسسها فى حساباتها وتنبؤاتها عن مدى اقدام العرب وقدرتهم على السرية وعلى المبادأة ، فشل أسلحتها فى ضمان النصر لحليفتها وصنيعتها ، فشل سياستها فى تمزيق الصف العربى وتفتيت وحدته .. إلخ .

وبوجه عام ، كان خطة حسابات أمريكا مزدوجا مضاعفا ، فكما استبعدت - خطأ - امكان إقدام العرب على الحرب وقدرتهم على الهجوم ، استبعدت - خطأ أيضا - احتمال استخدامهم سلاح البترول أو اجترائهم على رفعه فى وجهها . (عن الأولى أعلن كيسنجر شخصيا قبيل المعركة «أن القتال أمر غير محتمل الى درجة أنه ليس هناك فرصة تسمح به» ! وعن الثانية كان سيسكو قد أكد أمام الكونجرس فى الصيف الماضى «إن البلاد العربية المنتجة للبترول ، وخاصة المملكة

السعودية ودول الخليج ، لن تستخدم سلاح البترول ، وأن مصالحها الوطنية تأتي قبل تاييدها للنزاع العربي الاسرائيلي»!)

لقد سقطت كل نظريات الحل الأمريكي مع كل أسلحتها حطاما على ارض الشرق الأوسط . تماما مثلما سقطت نظرية الأمن الاسرائيلي . ان المد الرجعي العالمي الذي تقوده امريكا والذي وصل الي قمته في يونيو ١٩٦٧ ومن بعدها زحف على العالم في موجة عاتية سواء في الشرق الأوسط أو في افريقيا أو بين دول عدم الانحياز والعالم الثالث ، هذا المد انقلب حسيرا وانحسر أخيرا الى جزر عميق على صخرة اكتوبر .

الاستراتيجية القديمة

فمنذ يونيو كانت الاستراتيجية الأمريكية في المنطقة هي تصفية الأنظمة التقدمية والمقاومة الوطنية والقومية العربية بعد ان تم ضربها وحصارها بالنكسة . وكانت سياستها في ذلك أن تفرض الاستسلام على العرب باسم السلام ، والعمل على «تركيعهم» بدعوى الحل السلمي . فلم يكن هذا الحل السلمي الا وسيلة لتسليم العرب كالثمرة الساقطة الى اسرائيل . وباختصار . كان «السلام الأمريكي» هو نفسه «السلام الاسرائيلي» وكان «الحل الأمريكي» هو بعينه «الحل الاسرائيلي» .

وفى هذا السبيل حاربت أمريكا كل الجهود الدولية لاقرار السلام القائم على العدل وتطبيق قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ ، ولأول مرة في تاريخها تستعمل حق الفيتو عدة مرات ضد العرب . وطوال الوقت عملت على أن تحتكر وحدها حل الأزمة ، أو بالأصح حق الحل . اجهضت جهود مبعوث الأمم المتحدة يارنج ، وعوقت حتى عقمت تحركات حليفاتها الكبرى في غرب أوربا ومحاولاتها للاسهام في حل الأزمة ، وفوق الكل عارضت دور الاتحاد السوفييتي وسعت الى طرده من القضية «فهو اذا كان يملك ان يقدم السلاح للعرب فانها هي وحدها التي تملك أن تقدم السلام» ، بل وسعت الى «طرده» هو نفسه من الشرق الأوسط أصلا – هذا تعبير كيسنجر الذى تورط فيه قبيل الوفاق . وبهذا كله أوصلت أمريكا الحل السلمى الى طريق مسدود ، وعلقت الأزمة في حالة مجمدة من السلام المتفجر والانفجار الكامن هى تلك التي اصطلح على تسميتها بحالة اللا حرب واللا سلم .

وخلال سنوات ست متصلة كان تكتيك الولايات المتحدة هو ان تدفع بالعرب الى «المفاوضات المباشرة» مع اسرائيل «بغير شروط مسبقة» أى بعد القبول باسقاط حتى قرار ٢٤٢ ، ثم من المفاوضات المباشرة الى الصلح النهائي ، أى الاعتراف والتنازل عن الاراضى المحتلة والوطن

السليب ... الخ . وفي الوقت نفسه أمعنت في سياستها الداعية من المحافظة على التوازن العسكرى في المنطقة ، أى ضمان التفوق العسكرى المطلق لاسرائيلها على العرب مجتمعين . وقد وصلت أمريكا في هذا المجال الى حد من التصعيد لم يسبق له مثيل في تاريخها أو تاريخ ربيبتها من قبل . فكما أعلن نيكسون بنفسه ، بلغ حجم السلاح الأمريكي الذى تدفق على اسرائيل في ادارته وحده أكثر من كل مجموعه منذ نشأة اسرائيل وحتى بداية عهده .

وقد كان المعنى الوحيد لهذه الاستراتيجية ولهذا التكتيك هو أن آمريكا انما تخير العرب في الحقيقة بين اختيارين : إما العبودية وإما الانتحار ، اما أن ينتحروا طواعية على مذبح اسرائيل بصما على صك التسليم ، واما أن تتولى اسرائيل بنفسها قتلهم بالسلام الأمريكى المسلط والرهيب . وكان اعتقاد امريكا الجازم والكامن وراء هذا المنطق أنه ما من اختيار ثالث أمام العرب . انها هي وحدها التي تملك أن تمنع أو تمنح - حتى حق البقاء والحياة .

بالمعركة ، وبالعبور ، بتدمير الخط ، اثبت العرب ان هناك - على العكس - ذلك الاختيار الثالث ، الاختيار العربى البحت النابع من الارادة الحرة والقوة القادرة ، أكثر من ذلك ، اثبتوا - بالبترول - انهم هم الذين يملكون أن يمنحوا أو أن يمنعوا . أبعد منه أيضا ، نجحت

المعركة فى ان تعرى بصورة نهائية وحاسمة حقيقة العلاقة غير الشرعية المشروعة المشبوهة والشوهاء بين النجمة الخماسية والنجمة السداسية ، ونجحت فى تأزيمها ووضعها فى مأزق حقيقى لأول مرة ، بل ونجحت كذلك فى تأزيم موقف الولايات المتحدة فى العالم كله ، بما فى ذلك أقرب أصدقائها وحليفاتها .

فبعد مفاجأة المعركة الصادقة ثم الانتصارات العربية الباهرة ، أسفرت أمريكا عن وجهها القبيح بغير نقاب . فهددت على لسان رئيسها بامكانية التدخل العسكرى على غرار تدخلها فى لبنان والأردن من قبل . ثم على جسر من الحقد الضارى ، مدت جسرها الدموى الجوى والبحرى لتعوض وتدعم اسرائيل بالسلاح المتطور بلا حساب ، دون أن يمنع هذا تدمير هذا السلاح المتطور على أرض سيناء والجولان بلا حساب أيضا . فصعدت علمية الامداد من جديد بكميات ونوعيات من مستوى جديد ،. سلمته فى حقل القتال نفسه ، ومن تلك الأسلحة ما لم يسبق استعماله قط في ميدان وما لم تحظ به حتى كبرى حليفاتها فى أوربا الغربية وما هدد الترسانة الأمريكية نفسها بالنضوب .

ولقد رأينا كيف أن أمريكا حاربت فى الحقيقة معركتين لاسرائيل خلال الحرب : الأولى بالسلاح المكدس المختزن من قبل ، وهى التى

كادت تفقدها اسرائيل ، والثانية بامداد السلاح المباشر العاجل والمحمول جوا وبحرا ، وهى وحدها التى انقذت اسرائيل من هزيمة كاملة محققة . والفارق الوحيد بين الاثنتين ان احداهما أكثر أو أقل مباشرة من الأخرى . ولقد كان موقف أمريكا فى كل هذا شديد الوضوح كما كان بالغ الضراوة : ليس فقط ألا تسمح بهزيمة السلاح الأمريكى على ما اعتبرته السلاح «الروسى» ، الامر الذى يدمر هيبتها الاستراتيجية فى العالم كله ، ولكن أيضا ألا تسمح بهزيمة حقيقية لعميلتها اسرائيل والا فقدت كل لعبة القوة العالمية والشرق الأوسط معها .

عزلة أكتوبر

من أجل هذه المحظورات ، كانت أمريكا على استعداد لأن تقع فى أقصى المحاذير مع اصدقائها كما مع أعدائها على حد سواء . فمع اقرب وأقوى حليفاتها فى غرب أوربا ، كشرت عن أنيابها الاطلنطية لأنها أخفقت فى القبول بأن تحول وتحرف الحلف من هدفه الأصلى المشروع وهو الدفاع عن أوربا ضد الخطر الشيوعى الى قاعدة لعملياتها العدوانية ضد العرب ولحساب اسرائيل، وهى العمليات التى لا مصلحة لأوربا فيها . وفى هذه المواجهة تجاهلت امريكا تماما مصالح أوربا ، وكذلك اليابان، البترولية التى تعتمد على العرب تماما ، حيث لاتتأثر هى

كثيرا بهذا العامل. وتضاعف الصدع بعد آن كشرت أمريكا عن أنيابها الذرية للاتحاد السوفيتي، الأمر الذى عرض آمن أوربا للخطر النووى المباشر من فوق رآسها ومن وراء ظهرها.

وقد كان مغزى هذا كله بارزا مثلما هو مروع بالنسبة للأوربيين: ان الولايات تضع آمن اسرائيل فوق أمن أوربا الغربية، وهى على استعداد لأن تعرض الأخيرة للخطر النووى لمصلحة وحساب الأولى. اسرائيل، فى كلمة آخرى، أهم عند أمريكا من أوربا. ولم يكن ذلك كشفا جديدا تماما لدى الاوربيين، فمن قبل مثلا شحنت أمريكا اسرائيل بأسلحة متطورة حجبتها عن أوربا نفسها وجحدتها اياها. ومن بعد كذلك أغدقت على اسرائيل بقرار واحد ٢٢٠٠ مليون دولار، ومن بعدها مباشرة ٣٠٠٠ مليون أخرى، تسليحا ومنحا أو كقروض، وذلك فى الوقت الذى تهدد أوربا فيه بسحب قواتها المرابطة بها لكى توفر بضع مئات من ملايين الدولارات لا أكثر. لهذا ولغيره لم تفاجأ أوربا تماما بالتحول الأمريكى، ولكن الجديد أن الصدمة الأوربية كانت مؤثرة، وبالمثل جاءت الافاقة.

هنالك تحول الشرخ السياسى بين امريكا وحلفائها الى أخدود عميق. وكما تباعد شاطئا الأطلنطي بين أمريكا وأوربا الغربية، تباعد على الجانب الآخر شاطئا الهادى بينها وبين اليابان. فاذا أضفنا

الموقف الافريقى الذى تباعد عن معسكر العدو، وكذلك دول عدم الانحياز، آمكننا آن نتصور العملية كلها كحركة تباعد وانفصال شبه عالمية عن النواة الامريكية، قل مجازا عملية «زحزحة قارات Conti-nental Drift » بالمعنى الجيوبوليتيكى بدل الجيولوجى. وهى عملية تترك أمريكا بالتدريج جزيرة سياسية مطردة العزلة حتى عن الأصدقاء فضلا عن الأعداء.

فاذا نحن تذكرنا أن المعسكر الغربى أو «العالم الحر» ـ كما سمى ـ كان بعد الحرب الثانية مباشرة كالكتلة الصلبة الصماء الواحدة المندمجة بشدة وتماسك حول نواتها الأم أمريكا كأنها معا قارة اليابس كله أو آغلبه سياسيا، قل قارة بانجيا Pangea السياسية على غرار ـ مايسمى الجيولوجيون يابس الكرة الأرضية حين كان كتلة قارية واحدة ثم انفصلت بالزحزحة القارية الى القارات الحالية، نقول اذا تذكرنا هذا ثم قارنا ذاك لأدركنا كيف تعرضت الولايات المتحدة لزحزحة قارية حقيقية وكوكبية على المستوى السياسى جردتها بالتدريج من قاراتها الأطراف الى آن اكتملت العملية على يد حرب آكتوبر. لقد تمت عزلة الولايات.

واذا كان هناك من استثناء لهذه العزلة الباردة، فانما هو الاستثناء الذى يؤكد القاعدة ولا ينفيها . فمن بين الحليفات الأوربيات ، لم يكن

هناك من تعاطف مع اسرائيل سوى هولندا ، ولم يكن هناك من قدم قاعدة للجسر الأمريكى سوى البرتغال . والواقع أن محور الولايات - البرتغال - اسرائيل كان هو كل ماتبقى لها أثناء المعركة . وبهذا كان محورا أحاديا مثلما هو معزول ، يترامى (أو يترنح) فى وحشة العراء بين كتلة أوربا المحيدة الى الشمال وكتلة العالم الثالث الى الجنوب .. والطريف ان الحلقة الوسطى فى المحور لم تلبث أن انهارت حين قام الانقلاب فى البرتغال ، ذلك الذى قد يكون ثمرة من ثمار النصر العربى فى أكتوبر بطريقة غير مباشرة ، والذى يعد نذير شؤم لمصير الاستعمار الاستيطانى العنصرى الصهيونى المماثل فى فلسطين .

هذا عن موقف أمريكا مع أصدقائها . أما مع الاتحاد السوفييتى فقد وصلت المواجهة الى حد التهديد بحرب نووية ، وقد كان هذا هو قمة الابتزاز النووى ، وهو أيضا ما أكد النظرية القائلة بأن بقاء اسرائيل والوجود الاسرائيلى نفسه أصبحا الآن وظيفة لهذا الابتزاز الأمريكى النووى ، وبهذا الابتزاز غير المسئول ، وبعد أن تحطمت أسطورة اسرائيل التى لاتهزم ، كانت أمريكا تحاول فيما يبدو أن تفرض على الوفاق سياسة «لا غالب ولا مغلوب» فى الشرق الأوسط ، سياسة «اللا نصر واللا هزيمة» بدلا من ، وبعد ، سياسة «اللا حرب واللا سلم» التى انهارت الى غير رجعة قط . .

أما التهديد النووى فأدنى على الأرجح الى سياسة «التهويش» ، يعيد ذكرى سياسة «حافة الهاوية» التي هندسها دللز ، ويستغل الى إقصى حد وبلا خلق استراتيجية الرعب والترويع . انه ليس من المسموح به للعرب على الاطلاق - هكذا كانت تتوعد وترعد أمريكا - أن يحققوا نصرا كاملا أو حاسما على اسرائيل ، وإلا فانها الحرب النووية . أما ضد من ، فهذا أوضح من أن يذكر . وفى ظل هذا التهديد المخادع ، تعتمد أمريكا مع اسرائيل فى الواقع العملي سياسة «الفتنمة» ، صيغة منتهى الفتنمة ، بمعنى أن تغرقها بالسلاح المتفوق والكاسح كما وكيفا ، تاركة لها هى ادارة المعركة وضامنة فى تصورها ان تحقق النصر به . وهذا يفرض التصعيد المطرد والخطير على حجم الصراع وحجم القتال ... بهدف تعجيز العرب أو أصدقائهم عن اللحاق بسياسة التسلح المسعور هذا . وقد أعلنت أمريكا أخيرا جدا أنها قد تمت بالفعل تعويض اسرائيل عن جميع خسائر أكتوبر فى السلاح ، وكان ذلك فى حدود صفقة الـ ٢٢٠٠ مليون دولار التي تقررت اثناء المعركة . ثم عادت أمريكا فأعلنت عن صفقة جديدة قيمتها ٢٠٠٠ مليون دولار ، تتضمن أحدث ما فى الترسانة الأمريكية بما فى ذلك حاملات الطائرات والهليكوبتر التي تدخل صراع الشرق الأوسط لأول مرة ، بما فى ذلك أيضا مالم يزل تحت التصميم وماسيزيد عما تطلبه اسرائيل نفسها - «الى ان تقول كفى»! ..

وتلك جميعا كانت هى اللعبة الامريكية المزدوجة التي ينبغي أن يتنبه ويتصدى لها كل أعداء الامبريالية والاستعمار. إننا منذ بدء الصراع وإلى ما قبل أكتوبر كنا من الخوف من أمريكا فى هزيمة لإسرائيل بانتظام. والآن تريد أمريكا أن تجعلنا من خوف الحرب النووية العالمية بلا نصر على إسرائيل. وبهذا تضمن أمريكا تمييع الصراع وامتداده إلى ما لا نهاية دون حسم قاطع، ومعه تضمن بقاء إسرائيل إلى الأبد.

العلاقة الامريكية - الاسرائيلية فى عالم متغير

غير أن أمريكا كانت تخطىء حسابات الزمن وقراءة «وردة» الرياح العالمية، رياح التغير ومتغيرات العصر، وتسير ضد التيار، تيار التاريخ والمستقبل، سواء على المدى القريب أو البعيد. انها كالقوة الأعظم الأولى في العالم قد بدأت تعبر خط الزوال، أو على الاقل نقطة الأوج، بدرجة أو بأخرى. فهى من قبل قد فقدت الكثير من قوتها وسيطرتها النسبية فى العالم بالقياس إلى ما كانت عليه منذ ربع قرن بعد الحرب الثانية. فمنذ تلك القمة المطلقة على عرش القوة، أخذت الولايات تتلقى الضربات والهزائم فى أركان العالم. ومنذ هزيمة فيتنام بوجه خاص. ثم مع تغير

موازين القوى فى العالم وتعدد المراكز ، ثم أخيرا بالوفاق ، وهى فى مرحلة انحدار قوة واضحة لاشك فيها.

إن ظل أمريكا - القاتم - على العالم قد أخذ ينحسر تدريجيا، وقبضتها عليه تتراخى باطراد. ثم جاءت معركة أكتوبر أخيرا ضربة قاصمة لكل من إسرائيل وأمريكا على السواء. ولعل مما له مغزاه أن كلا منهما فقد دور رجل البوليس فى وقت واحد تقريبا: أمريكا، دور رجل البوليس العالمى، وإسرائيل ، دور رجل البوليس المحلى فى الشرق الاوسط . وليس صدفة كذلك أن عزلة الاثنتين معا فى العالم تتزايد بسرعة نادرة فى السنوات الأخيرة، حتى أصبحت أمريكا هى الحليف والصديق الوحيد تقريبا لإسرائيل. إن الحبل السرى بين إسرائيل وأمريكا أصبح الشريان الوحيد الذى يربطها بمصادر القوة المادية والمعنوية، العسكرية والسياسية والاقتصادية. وإذا كان هذا هو الذى أنقذ إسرائيل من هزيمة كاملة فى سيناء والجولان، فقد زاد من تبعيتها لأمريكا إلى حد يفقدها باطراد حرية الحركة والارادة المستقلة، ويجعلها أكثر من أى وقت مضى مستعمرة ورهينة أمريكية اسما وفعلا وشكلا وموضوعا، وأخطر من ذلك يربط مصيرها ووجودها بمصير أمريكا فى عالم القوة والمصالح المتغير أبدا .

إن العلاقة الخاصة، الحميمة والمحمومة، بين الاثنتين تتعرض الآن لضغوط متغيرات دولية طاغية، وتعيش فى عالم متغير وتحت مناخ غير موات لها. فالى جانب شحوب صورتهما فى العالم، فان موازين القوة، عالميا واقليميا، تحولت وتتحول باطراد لغير صالحهما بل وضد مصالحهما المشتركة أو المنفردة، لقد بدأ مع أكتوبر وبفضله المد التقدمي والتحررى فى العالم، وارثا المد الرجعى الذى بدأ مع حرب يونيو. وقد جاء أكتوبر انتصارا لكل جبهة التحرر الوطنى والتقدمية والمعسكر الاشتراكى وأعداء الامبريالية فى العالم. ومن أبرز مؤشرات هذا التحول أن إسرائيل إنما ضربت أول ضربة حقيقية فى وقت أصبحت فيها حاميتها أمريكا أقل قدرة من أى وقت مضى على فرض إرادتها على العالم.

وعند هذه النقطة بالذات أيضا يأتى سلاح البترول العربى بكل ثقله ليضع العلاقة الإسرائيلية - الأمريكية لأول مرة أيضا فى مأزق حقيقى جدا، وليضع أمريكا أمام اختيار رهيب: أما فطامها إسرائيل من المساندة الظالمة، وأما فطنامها هى نفسها من البترول العربى. وفى هذا كتب اريك رولو يقول «إن الاسرائيليين قد أفاقوا أخيرا من أحلامهم بعد معارك ٦ أكتوبر، فقد اتضح لهم مدى انعزالهم دوليا، فحتى الحليفة الأولى - أمريكا - لم تتأخر فى الوقوف ضد أطماعهم

عندما هدد العرب المصالح الأمريكية تهديدا مباشرا بعد قطع البترول عنها».

هكذا أثبتت حرب أكتوبر أن إسرائيل هي أسوأ استثمار للغرب في المنطقة، بعد أن كانت تبدو أحسن استثمار، فبعيدا جدا - وهي التي فشلت في حماية نفسها - عن أن تكون حامية للمصالح الأمريكية أو حارسة عليها في المنطقة، أصبحت هي نفسها خطرا حقيقيا على المصالح الأمريكية البترولية وغير البترولية فيها. انها لم تعد تخدم مصالح أمريكا، بل هي الآن تهدمها . وبعد أن كانت أمريكا تعد العرب حاملة البترول وإسرائيل حاميته، فرض أكتوبر معادلة جديدة مؤداها أن العربي هي حارسة البترول الحقيقية وإسرائيل هي حارقته. لقد أحدثت الحرب، نحن نخلص، انقلابا صامتا ولكنه مرئي في علاقة المصالح بين أمريكا وإسرائيل، وهذا هو مأزقهم التاريخي الذي سيكون له بالقطع ما بعده.

أمريكا وسلاح البترول

ونحتاج هنا إلى نظرة فاحصة إلى حقيقة موقف أمريكا البترولي ثم انعكاس الموقف العربي عليه. أمريكا تنفرد بوضع بترولي خاص، نحسبه نقطة قوة لها في وجه الضغط العربي، ولكنه في الحقيقة نقطة ضعف. فهي وحدها من بين الدول الصناعية الغربية الكبرى التي لا

نعتمد على بترول العرب الا بنسبة محدودة نوعا. ومن هذه الحقيقة حاولت دعائيا كما رأينا أن تثبط من همة العرب وتشيع أن سلاح البترول سلاح غير فعال أو مجد.

فعند بدء المقاطعة العربية المطلقة، أعلنت أمريكا أن نسبة اعتمادها على البترول العربى لا تزيد على ٣٪، عادت فرفعتها إلى ٧٪ ، من مجموع استهلاكها القومي ، وأن من الممكن تعويضه بوسائل ومن مصادر أخرى عديدة. ثم اتضح أن هذه النسبة تصل فى الحقيقة إلى نحو ٢٠٪ كما أعلن فردريك دينت وزير التجارة الأمريكي، بينما اعترف هنرى جاكسون رئيس لجنة الشئون الداخلية بمجلس الشيوخ الأمريكى أنه «قد اتضح أن أزمة الوقود فى الولايات المتحدة أسوأ مما كنا نتوقع جميعا» وستؤدى إلى أضرار «لم نكن نتصور مداها في البداية». وبالفعل ، لم يلبث اقتصادها وصناعاتها، فضلا عن نظام حياتها اليومي وحضارتها التقليدية، أن اختلت وتخلخلت بشكل حاد وعنيف.

وإلى هذا فقد وقفت أمريكا في ساحة المحكمة وقفص الاتهام أمام العالم كله، فهي المتهم الاول في أزمة الطاقة وخفض البترول فى العالم اجمع. وعنادها ومعاداتها للحق العربى كان يطيل الأزمة ولا يعاقب إلا بقية المجتمع الدولي ولا يعنى فى النهاية إلا أنها تبيع مصالح العالم

بأسره من أجل الفتوح والغزوات الاسرائيلية والاغتصاب العدواني الصهيوني.

من هنا أصبحت أزمة الطاقة في الولايات هي أزمة المجتمع الأمريكي من الداخل، بينما أصبحت أزمتها في الخارج هي أزمة السياسة الأمريكية العالمية برمتها. وبذلك باتت الحكومة الأمريكية محاصرة ومتهمة ومدانة داخليا وخارجيا. لقد غزت أزمة الطاقة، ومعها لأول مرة ازمة الشرق الأوسط ، كل أركان وطبقات وبيوت المجتمع الأمريكي من الداخل. أصبحت أزمة الشرق الأوسط لأول مرة مشكلة أمريكية خاصة تعني كل أمريكي بعد اللامبالاة والاستخفاف إن لم يكن الانحياز والتواطؤ ، تماما كما كانت أزمة حرب فيتنام.

وتماما كأزمة فيتنام، فإنها بدأت تشطر المجتمع الأمريكي وتقسمه من الداخل وتخلق تناقضا بين سياسة الحكومة الفعلية ومصالح الدولة الحقيقية. لقد عرت أزمة الوقود الحكومة أمام الشعب، وكشفت كيف تبيعه لصالح شعب أجنبي غريب، وأن المصالح الاستراتيجية الحقة لأمريكا لا تكمن كما تزعم الحكومة مع إسرائيل والدفاع الظالم الأعمى عن اغتصابها ، وإنما هي مع المصالح والحقوق العربية تكمن.

ومن هنا فان رأيا عاما بازغا، أو حتى جنينيا لايزال، بدأ يتكون ويتكتل ضد سياسة الحكومة: بعض كبرى شركات البترول ذات المصالح المحققة فى العالم العربى، بعض الاقليات كالزنوج، وقلة من العناصر الليبرالية والمثقفين.. إلخ. على سبيل المثال منشور مدير إحدى كبرى شركات البترول الأمريكية قبل المعركة، الذى حذر من ضياع المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط، وأثار ثائرة الصهيونية. مثل آخر: أحد الشيوخ الأمريكيين يعلن بعد المعركة أن أمريكا قد أصبحت «رهينة إسرائيلية» .. إلخ. حتى بارى جولدووتر، داعية الحرب النووية فى فيتنام، صرح بأن «الشعب الأمريكى سئم حروب إسرائيل» ! وذلك كله ما باتت الحكومة تخشى أن ينتشر ويستشرى فيتحول إلى جماعة ضغط فرأى عام ساند يكرر فى النهاية قصة انشقاق المجتمع الأمريكى من الداخل أيام فيتنام. وهذا أيضا بعض السبب فى أن إدارة نيكسون حاولت باستماتة أن تتحاشى توزيع البترول بالبطاقات حتى آخر لحظة كى ما تعطي المواطن الضحية شعورا كاذبا بالرخاء وعدم خطورة الأزمة.

وهو كذلك بعض السبب فى تلويح أمريكا للعرب بالتدخل العسكرى المباشر لاحتلال مناطق البترول لصالح «العالم المتحضر» . مثلا أعلن وزير الدفاع شلزينجر أن التدخل العسكرى «احتمال، وإن كان بعيدا

جدا» ، وحذر من أن «حقوق الدول في الاستقلال والسيادة لا يجوز استخدامها بحيث نصيب العالم الصناعي في قلبه.. فهذا خطر عليهم كما هو علينا». وحتى فولبرايت الليبرالي لم يتورع عن التهديد، حيث قال إن على العرب أن يعاملوا ثروتهم البترولية على أنها مسئولية دولية، وأن الدول الصناعية القوية قد ترد بشكل ما على سبيل الانتقام. غير أن هذه اللهجة العتيقة البالية، ديبلوماسية الزوارق المسلحة أو بالأحرى ديبلوماسية القراصنة، لم تفعل سوى أن أكدت الروح العنصرية أولا والعدوانية ثانيا الكامنة وراء كل السياسة الأمريكية الخارجية.

أما العرب كما رأينا فلم يرتعدوا أو يرتدعوا، أعلنوا ببساطة قبولهم للتحدي وحزموا بالفعل آبارهم بالديناميت. ومن الملاحظ بعد هذا الاصرار والصمود العربي أن أمريكا عادت فخففت من لهجتها. فقد أعلن شلزينجر بعد ذلك ما نفى به ما سبق التصريح به من تهديدات واحتمالات التدخل العسكري. كما عادت أمريكا فقبلت مرغمة حذف كلمة «الابتزاز» من حديثها عن البترول العربي!

ولما كانت أزمة الطاقة في أمريكا قد ظلت في مراحلها الأولية، فإنها لم تعكس قط ثقل العقاب والحرمان العربي بكامله. غير أن الوضع كان حريا بأن يختلف كثيرا وربما وصل إلى حد «الكارثة القومية» لو أن

الأزمة طالت شهورا اخرى أو أكثر - وقد كان العرب أعلنوا استمرار الحظر حتى يبدأ الانسحاب الإسرائيلي أو على الأقل اعلان تعهد إسرائيل بالانسحاب الكامل مع ضمان أمريكي بالتنفيذ. وقد دأبت أمريكا على أن تروج من حين إلى حين أن العرب على وشك رفع الحظر. ولكن هذا لم يتحقق الا فى مارس ١٩٧٤ بشروط العرب، وهى إعادة النظر فى القرار فى يونيو، الأمر الذى يعنى فى الحقيقة إعادة فرض الحظر إذا لم تنفذ أمريكا تعهداتها.

وفى هذا الصدد حذر فولبرايت فى دراسة أعدها وفد من لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس من أن العرب قد يعودون إلى استخدام بترولهم كسلاح حتى تجاب مطالبهم ضد إسرائيل. فقد وجد الوفد فى كل دولة عربية زارها إيمانا تاما فى صحة وقيمة استخدام البترول كسلاح لارغام أمريكا للضغط على إسرائيل. ذلك أن التوصل إلى الفصل بين القوات فى السويس أثبت للعرب أن البترول سلاح فعال. ومن ثم يبدو من المعقول - يمضى التقرير - توقع استخدامه مرة أخرى كوسيلة للضغط على أمريكا فى معالجة المشاكل السياسية الأكثر حيوية والمتعلقة بالفصل على الجبهة السورية ومستقبل القدس والشعب الفلسطينى.

ومن جانبهم ، فلقد آكد العرب حين اصدروا قرارهم شبه الاجماعى برفع الحظر أن «الذى يرفع يستطيع أن يحظر من جديد» وأن «استخدام البترول كسلاح سياسى سيكون دائما تحت تصرف العرب إذا لم يتم انسحاب إسرائيل من الأراضى العربية المحتلة». وهذا يفسر النص على إعادة النظر فى الموقف فى يونيو. وإذا كان العرب قد اعتمدوا صيغة تعميمية دون تحديد أو تسمية دولة بعينها، وكانت أمريكا على لسان رئيسها قد لجأت إلى التهديد بأنها لن تخضع لأى ضغط من جانب الدول العربية ولن تقبل رفع حظر مشروط ، وحذرت من أن الرفع المؤقت أو المشروط «ستكون له آثار عكسية للاهداف التى تسعى اليها الدول العربية» فلم يكن هذا وذاك فى الحقيقة إلا لحفظ ماء وجه امريكا. ومن هذا الموقف وحده نستطيع أن نتفهم ما أعلنه نيكسون من أنه «لايعتبر رفع الحظر العربى البترولى قرارا مشروطا»، كما أكد فى الوقت نفسه «أننا نسعى إلى تحقيق سلام دائم مهما حدث للحظر».

ذلك كان الموقف حتى قريب . فاذا ما استمر الشوط إلى نهايته المفترضة فقد ترغم أمريكا على أن تضغط جديا على إسرائيل للانسحاب . لكن هذا لن يكون الا بعد صراعات قوة طاحنة داخل المجتمع الأمريكى عامة وداخل الادارة الأمريكية نفسها ثم مع الحليف

لإسرائيلي المعاكس. كما أن هذا الضغط ليس من المحتم أن يكون كاملا او مؤثرا بالضرورة. غير أنه في كل الأحوال سيؤدى إلى تخلخل في التطابق التام السابق بين وجهتى نظر أمريكا وإسرائيل، وقد يتسع مع الوقت إلى شرخ آساسى فى العلاقات بينهما (؟). وكما أن إسرائيل قد تعلمت آن الآمن ليس بالقوة، فكذلك قد تتعلم أمريكا مستقبلا أن البترول ليس باسرائيل. بل الواقع آن هذا ما حدث بالفعل، وهناك مؤشرات حقيقية على تغير في الموقف الأمريكى، الذى ينبغى أن يكون موضوعنا التالى.

وأثناء حرب أكتوبر، بالطبع، وإلى ما بعدها لبعض الوقت، لم يكن هناك آى دليل على آن أمريكا قد غيرت أو ستغير موقفها العدائى من العرب - الا أن يكون التغيير في اتجاه التصاعد. غير أن المفاجأة الكبيرة هي أن تغيراً محسوسا وهاماً قد حدث بعد ذلك بالفعل، لا شك بسبب الحرب نفسها ونتائجها غير المتوقعة. ولهذا يتعين علينا أن نميز في دراستنا هذه للموقف الأمريكي بين مرحلتين، وهو تمييز كان مستحيلا وغير متصور على الاطلاق منذ عام فقط بل أقل من العام. وربما كانت دورة العام من ١٩٧٣ إلى ١٩٧٤ هى الخط الفاصل بين هاتين المرحلتين بالتقريب. فأما المرحلة الأولى فهى مرحلة التطابق التام أو شبه التام بين آمريكا واسرائيل ، وأما الثانية فهى مرحلة اهتزاز

التطابق أو مرحلة الاختلاف البازغ التى ظهرت بالتدريج خلال الشهور القليلة الأخيرة.

مرحلة التطابق

فعندما قامت الحرب كان انحياز أمريكا لاسرائيل كاملا ومطلقا. فهى وإن لم تثر مسألة من الذى بدأ بالهجوم أى بالعدوان (ببساطة لانها كانت أسخف من أن تثار)، فقد حاولت أن ترغم العرب على عدم مواصلة القتال منذ أول يوم، مرة بدعوى الخوف عليهم من هزيمة ساحقة قاضية تنتظرهم على يد اسرائيل كالمعهود (كذا)، ومرة بدعوى ضبط النفس والحرص على السلام العالمى.. إلخ . ولكن الأخطر من هذا أنها، رغم بعض التردد المؤقت، اتخذت القرار المعادى باغراق اسرائيل بالسلاح المتطور والمتفوق حتى تقول هذه «كفى».

وكان الأمر المؤكد أنها تريد أن تعيد التفوق العسكرى للعدو وأن تطمس انتصار العرب بأى ثمن واجهاضه إن أمكن لصالح اسرائيل. ومن الثابت أنها دخلت المعركة بالفعل وإن يكن بصورة غير مباشرة، إلى الحد الذى دعا الرئيس السادات أن يكتب بنفسه إلى الرئيس الأسد أثناء المعركة قائلا «.. فى الأيام العشرة الأخيرة فانني على الجبهة المصرية أحارب أمريكا بأحدث ما لديها من أسلحة».

كذلك فلقد كانت هناك عدة علامات كما حدثت بعض تطورات ومواقف فى أعقاب الحرب مباشرة لم تكن تشجع كثيرا على التفاؤل بصدد الموقف الأمريكى. فثمة مجموعة من الشيوخ الأمريكيين حرضت إسرائيل علنا على عدم الانسحاب من شبر واحد من الأراضى المحتلة(!)، بينما ذهب السناتور هنرى جاكسون الصهيونى المتعصب إلى أن «يجب عدم مكافأة العرب والروس بتنازلات لأنهم الذين بدأوا الحرب» (كذا!) . ولن نذكر هنا تلك النظرية المفرطة فى التشاؤم والتى كانت تقول أن أمريكا قد تشجع وتدفع إسرائيل إلى الحرب من جديد لتفرض وضعا عسكريا جديدا أفضل يساعد أمريكا على فرض تسوية سياسية ملائمة من وجهة نظرهما معا. ولكن يكفى أن نذكر تصريحات الرئيس نيكسون المتعددة، خاصة فى اتصالاته مع مايير، عن التزام الولايات بضمان قوة وأمن اسرائيل ورخائها ورفاهيتها.

وحتى البعض ممن يعدون أصدقاء العرب أو غير المنحازين من السياسة الأمريكيين نصح العرب بألا يتوقعوا أن يستردوا كل أرضهم المفقودة فى يونيو. فمثلا صرح فولبرايت بأن العرب لا يمكنهم أن يتوقعوا استعادة كل بوصة من الأرض التى خسروها عام ١٩٦٧ فى التسوية النهائية. وبعد أن وضح للاسرائيليين أن عليهم أن يروضوا

انفسهم على حل وسط وأن الوقت لم يعد فى جانبهم، أضاف أن التعديلات في الاراضي التى تطالب بها إسرائيل يجب ألا تكون جوهرية.

وعدا هذا فلقد كان البعض يرى فى الموقف الأمريكى من أوربا أثناء الحرب مؤشرا كافيا جدا لتحديد اتجاه آمريكا ونواياها فى الضغط على إسرائيل من آجل سلام عادل ودائم فى المنطقة. فلقد أشار هؤلاء المعقبون إلى أن أمريكا التى اصطدمت اصطداما خطيرا مع كبريات حليفاتها في أوربا الغربية لسبب ثانوى نسبيا وهو مجرد عدم المساهمة فى نقل السلاح الأمريكى إلى إسرائيل أثناء الحرب ، لا يتوقع منها منطقيا أن تصطدم مع إسرائيل نفسها لمصلحة العرب.

لكل هذا ولغيره كثير كان الرأى الغالب بين المراقبين حتى أواخر العام الماضى تقريبا هو أن تأثير الحرب على السياسة الأمريكية فى المنطقة كان لايزال ثانويا وطفيفا، وأن أهدافها الأساسية ظلت قائمة كما هي، وهي باختصار أن إسرائيل قبل وفوق الجميع. بل لقد كان البعض لا يستبعد أن تتفق أمريكا مع إسرائيل فيما بعد على «جولة حرب جديدة، تريان أنها أصبحت قادرة عليها، لاعادة «عقارب القوة» إلى الوراء».

التغير الأمريكى واهتزاز التطابق

غير أن هناك ، فيما بدا على وجه اليقين ، تغيرا طرأ على موقف امريكا. وآن بقى أن نعرف حجمه ومداه وإلى أى حد. وإذا لم يكن هناك شك في وقوع التغيير، فكذلك لا شك البتة في سببه. «ما الذى غير موقف امريكا؟.. نحن الذين غيرنا موقف أمريكا» - كما تساءل ثم اجاب الرئيس السادات. فلا جدال آن حرب أكتوبر هى المسئولة عن هذا التغيير، ولا مجال للشك أو التشكيك فى هذا. بل لقد اعترف الرئيس الأمريكى نيكسون شخصيا بذلك حين قال «لقد كان على الولايات المتحدة - بعد حرب آكتوبر - أن تقوم بدور ايجابى بهدف التوصل إلى تسوية دائمة فى الشرق الأوسط». فلقد كان هناك دائما خطران مسلطان ومعلقان على رأس أمريكا (ومعها اسرائيل) ما لم يتم التحرك بسرعة نحو تسوية سياسية مقبولة عربيا .

الخطر الأول عودة العرب إلى الميدان ، وهذا أمر مفهوم ولا يحتاج إلى تعليق، لأن توقف القتال نفسه كان ملعقاً بشرط تحقيق تلك التسوية. وفى هذا كانت أمريكا تخشى دائما تصاعد الصدام المحلى إلى مواجهة نووية مع الإتحاد السوفيتي. أما الخطر الثانى فسلاح البترول الذى ظل يعمل بلا توقف عدة شهور بعد المعركة وكان له أثره الخطير فى الحياة الأمريكية والاقتصاد الأمريكى، فضلا عن الحرج

السياسى البالغ والعزلة اللذين استشعرتهما الولايات من جراء الضغوط السياسية والمادية والمعنوية التى كانت تتعرض لها (وتبذل مثلها أيضا) كل دول العالم التى أضيرت من خفض انتاج البترول العربى.

وقد تبدى تحرك أمريكا والتحول الجنينى فى موقفها فى الاتصالات الدبلوماسية المكثفة التى قام بها كيسنجر بوجه خاص مع العرب وبالأخص مع مصر . ثم تأكد الاتجاه فى الفصل بين القوات على الجبهتين المصرية ثم السورية ودور كيسينجر فيه. ثم استمر هذا الاتجاه البازغ أو النامى الذي كشف عنه أساسا الرئيس السادات شخصيا وبنفسه فى سلسلة من الأحاديث الصحفية العالمية والخطب الجماهيرية ، نقتبس منها هنا بحسب تسلسلها الزمنى.

فأولا أوضح الرئيس أن «تغييرا جوهريا قد طرأ على السياسة الامريكية.. فعلى الرغم من أن الولايات المتحدة أمدت إسرائيل على نطاق واسع بأكثر الاسلحة والمعدات العسكرية تعقيدا وتقدما، الا أنها أدركت بسرعة خطورة العواقب الناجمة عن حرب ٦ أكتوبر ، وكانت هذه هى نقطة التحول التى أفضت بالولايات المتحدة إلى نظرة جديدة تجاه الشرق الأوسط، وإلى أن تشرع تبعا لذلك فى انتهاج سياسة تعمل من أجل السلام القائم على العدل فى المنطقة».. ثم وضح سيادته،

موجها حديثه إلى آرنو دى بورجريف مندوب النيوزويك الأمريكية، كيف ان «محادثاتي مع الدكتور كيسينجر قد أقنعتني بأنه يرفض الفكرة الساذجة التي يذهب إليها بعض الاستراتيجيين عندكم ممن ينظرون - أو كانوا ينظرون - إلى إسرائيل باعتبارها رجل البوليس الأمريكي فى هذا الجزء من العالم».

وفى مناسبة أخرى صرح الرئيس بأننا «لا نريد من الولايات المتحدة أن تكون إلى جانبنا، وانما أن تكون إلى جانب العدل. وأعتقد انهم يتغيرون، وأن كل شيء سوف يسير على ما يرام». وفى مؤتمر لاهور كان فى استطاعة الرئيس أن يعلن «الآن يمكن القول أن الأمل كبير فى أن تؤدى المحادثات التي تجرى حاليا حول الشرق الأوسط إلى سلام دائم». وفى مناسبة تالية انتهى الرئيس على هذا الأساس وغيره مما «لا أستطيع اليوم أن اكشف عنه» إلى أن «أمريكا اتخذت موقف المؤيد للسلام القائم على العدل والتزمت به بواسطة الدكتور كيسنجر فى كل تصرفاتها حتى هذا اللحظة». ولهذا «لا يجب أن تؤخذ الأمور بنفس أسلوب ما قبل ٦ أكتوبر». ثم تساءل «هل من مصلحتنا أن نأخذ عداوة الشعب الأمريكي بعد هذا الموقف؟» «وحيث أنه لم تكن هناك مشاكل بيننا (وبين أمريكا) سوى هذا الانحياز الأمريكي لإسرائيل، وإذا استطعنا أن نصل إلى تفاهم .. فلن يكون هناك ما يعكر صفو العلاقات».

وفى حديث إلى مجلة شتيرن الألمانية أكد الرئيس مرة آخرى «أن الموقف فى أن أمريكا نعبر تغيرا حاسما.. ولابد أن أقول أن تغيرا كاملا عد حدث. ويقنضينى واجبى نحو أمتى أن استغل هذا الموقف الجديد. ما الذى كان عليه الحال قبلها؟ مواجهة مع أمريكا، ولم يفدنا هذا اطلاقا. وكنت دائما أقول : لابد لنا قبل إزالة التوتر مع إسرائيل، من إزالة التوتر مع الولابات المتحدة». وأخيرا وفى خطابه إلى الأمة بمناسبة ورقة أكتوبر، أعلن الرئيس أن «أمريكا ليست معنا، ولكنها لم تعد ضدنا الآن .. أمريكا واقفة فى الوسط بيننا وبين اسرائيل .. لقد استطعنا تحييد أمريكا التى كانت منحازة لاسرائيل وتتبنى وجهة نظرها بالكامل».

أما من ناحية امريكا نفسها ، فقد تتابعت، أو بالدقة تصاعدت، من جانبها التصريحات والمواقف التى تشير إلى التغير عقب أكتوبر، نعم، كما عبرت التايمز بحق، «لقد جاءت لحظة الصدق بالنسبة لأمريكا فى الشرق الاوسط». ولقد كان كيسنجر يردد دائما ان «آمريكا ملتزمة بالدفاع عن أمن إسرائيل وبقائها، لكنها غير ملتزمة بالدفاع عن فتوحاتها». وبعد الحرب فلقد أضاف أن أمريكا ستحجب تأييدها عن اى طرف يبدأ القتال مرة أخرى فى المنطقة. وفى خطوة تالية أوضحت الولايات المتحدة انها تشعر انه يجب التوصل إلى بعض الحلول

الوسطى لتجنب اندلاع حرب جديدة فى الشرق الأوسط، وكذلك خطر مواجهة بين آمريكا وروسيا فى المنطقة.

وأخيرا ، وليس اخرا ، صرح الرئيس نيكسون بنفسه بعد رفع حظر البترول العربى عن امريكا آن الولايات المتحدة سوف تواصل مساعيها لاقامة علاقات أفضل مع مصر والدول العربية. وكان مما قاله أن من مصلحة إسرائيل فى المدى البعيد أن تكون أمريكا صديقة للدول العربية، ولو آن اقامة الصداقة بين آمريكا واحدى جارات اسرائيل لن تجعل من أمريكا عدوا لاسرائيل، التى آكد ان وشنطن مستمرة فى تاييد استقلالها وسلامة أراضيها. ثم أضاف الرئيس الأمريكى أنه لن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الأوسط ما لم يساند الاتحاد السوفيتي جهود الولايات المتحدة. أو كما قال بالتفصيل «لا يمكن أن يكون هناك سلام دائم فى الشرق الاوسط الا إذا كانت الولايات المتحدة تعمل من أجله ، ولا يمكن أن يكون هناك دور تقوم به الولايات المتحدة الا إذا كان الاتحاد السوفيتي معها». ثم أكد فى النهاية أن النزاع العربى - الاسرائيلى سيكون كما كان دائما أحد أهم الموضوعات فى محادثات القمة المرتقبة فى موسكو خلال يونيو ١٩٧٤.

هكذا نرى بالفعل أن هناك علامات ومؤشرات على تغير الموقف الأمريكى، وإن كان من السابق لأوانه كثيرا، كما هو من المستحيل

بالطبع، أن بجزم احد بمدى وحجم ذلك التغير، وإلى أى حد يتناسب هذا مع ، أو يقصر دون ، المطلوب لفرض التسوية على الطرف الرافض. وإذا كان البعض أو الكثير منا ومن غيرنا قد تساءلوا بحق عن السبب فى هذا التغير الذى يبدو غريبا نوعا مثلما هو فجائى جدا، حيث أن «أمريكا، عدوتنا التقليدية وصديقة اسرائيل، أصبحت فجأة ولية أمر سلامنا» كما سألت الرئيس السادات الصحفية اللبنانية علياء الصلح ، فان هناك على ما يبدو مجموعة معقدة ومتشابكة من الأسباب والدوافع الاستراتيجية والتكتيكية.

بالأولى نقصد خشية أمريكا من عواقب التصاعد والتصادم النووى، وربما كذلك ضغوط الوفاق، ثم خطر البترول المسلط، وأخيرا خوفها من أن تفقد المنطقة العربية أو أصدقاءها أو مصالحها فيها نهائيا ، ورغبتها كذلك فى استعادتها بل وإن أمكن «طرد» منافسيها بها سواء من الشرق أو الغرب.

أما الأسباب التكتيكية، التى قد تبدو دخيلة وعارضة ولكنها فاعلة ومؤثرة مع ذلك، فتتمثل فى مشكلة الادارة الأمريكية الداخلية، أى أزمة ووترجيت. فالمقول أن تلهف الرئيس الأمريكى على تحقيق نصر سياسى عالمى داو فى الشرق الأوسط، على غرار ما فعل مع السوفيت ثم الصين، يمكن أن يبعد به أنظار وانتباه الأمة عن الأزمة ويغرقها به

ويعوض عنها، قد يكون من دوافع آمريكا إلى البحث الجاد عن حل لأزمة الشرق الأوسط..

فإن صح هذا، ولعله لا يخلو من صحة، لكان معناه أن العوامل التي حدت بالقيادة الأمريكية إلى موقفها «النووي» المتطرف غير المعقول أثناء المعركة، هي نفسها التي تدفعها الآن إلى الاصرار على دور رجل المطافيء. ولئن بدا في هذا قدر أو آخر من التناقض، ولا نقول الانتهازية، مما يجعل الدور الآمريكي في المرحلة الأخيرة سلاحا ذا حدين بدرجة أو بأخرى، فذلك أمر مفهوم في السياسة، حيث تسيطر المصالح لا الاخلاقيات وتسود.

على أن المهم ان هذا بالدقة ما يجعل البعض يتخوف من الاعتماد أكثر مما ينبغي على الدور الأمريكي، حيث قد يعجز أو يسقط فجأة داخليا لذلك السبب نفسه. ولكن كما وضح الرئيس المصرى لمجلة شتيرن ، فانه لا يعتمد على «الاله الجالس في واشنطن»، وانما على الشعب والجيش والامة العربية يعتمد. ومن جهة أخرى فان الدوافع المحلية التكتيكية الامريكية تعد نقطة ضعف أخرى لها ازاء الضغوط الاسرائيلية المضادة المتمثلة في ضغوط الصهيونية الامريكية القوية النفوذ واستغلالها أزمة ووترجيت الداخلية لابتزاز الرياسة وفرض حدود

معينة على مرونتها فى السياسة الخارجية المتعلقة بمشكلة الشرق الأوسط. والملاحظ فعلا تزايد الحصار المضروب حول الرئيس الأمريكى فى قضية ووترجيت، كما يلاحظ سقوط فولبرايت فى انتخابات الكونجرس، وقد تكشف الأيام عن أصابع الصهيونية وراء هذه التطورات. غير أن هذه وأمثالها مشكلة أمريكا مع اسرائيل أو اسرائيل مع أمريكا أكثر مما هى مشكلتنا مع أمريكا.

فهرس

الباب الأول
الأرض والمعركة

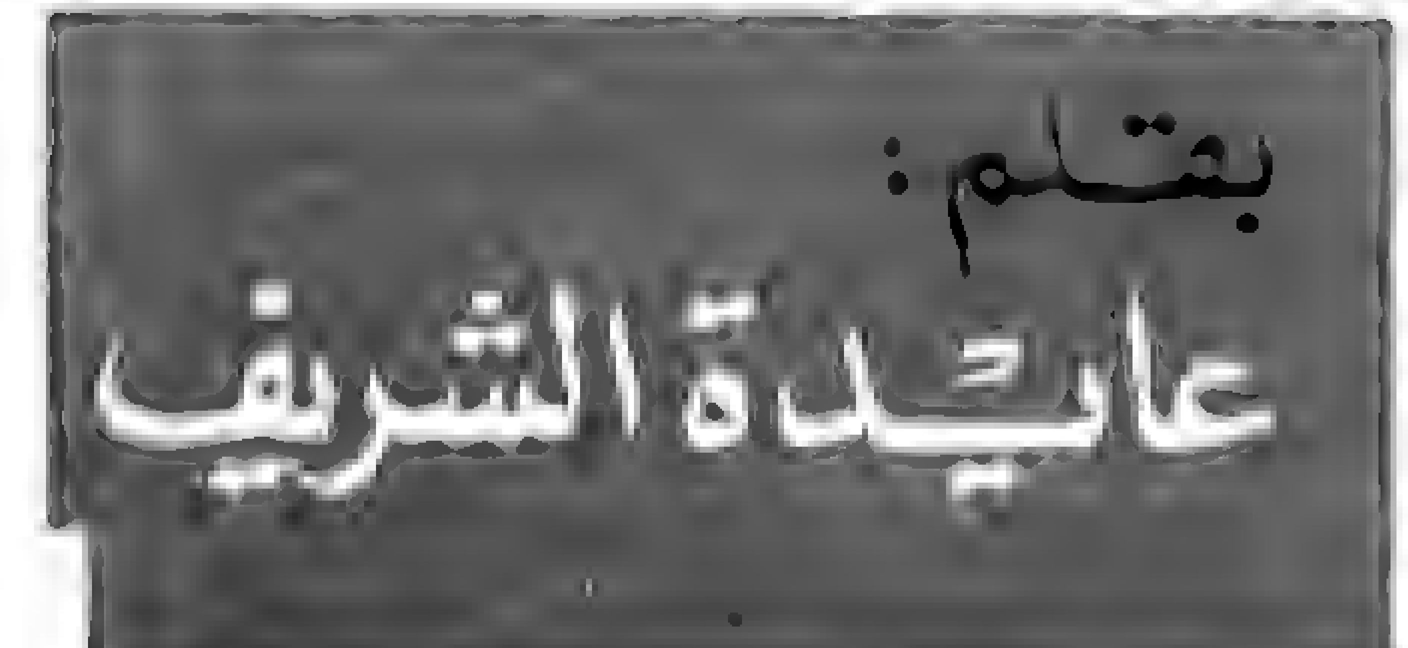
الباب الثانى
٦ أكتوبر فى أستراتيجية السياسة العالمية

رقم الايداع ١١٤١٦ / ٩٧

I.S.B.N

977-07-0555-1


محمود محمد شاكر
«قصة قلم»


بقلم:
عايدة الشريف





KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٣ - رجب - نوفمبر ١٩٩٧ No. 563-NO-1997

فاكس FAX-3625469

محمود شاكر

قصة قلم

بقلم

عايدة الشريف



دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

تقديم وتعريف

عايدة الشريف وأيام من البهجة

بقلم: د .محمود محمد الطناحى

أىّ رجل كان محمود محمد شاكر[1] ؟ وأى مجلس كان مجلسه؟ وأى أنسٍ كان يشيع فى هذا المجلس، وأى علم كان يتفجّر فى رحابه؟ .

وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر ما شاء الله لهم أن يتكلموا، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغى الوقوف عنده وتأمله. لقد قلت في بعض ماكتبت إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظى به محمود شاكر من حبّه والالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به:

لقد كنت فى قوم عليك أشِحَّة
بنفسك إلا أنَّ ما طاح طائح

يودّون لو خاطوا عليك جلودهم
ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

---

(١) فاضت روحه الطاهرة إلي بارئها، في تمام الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ، الموافق ٧ من أغسطس ١٩٩٧م، فترك في القلوب حسرة لا تنقضي، وأودع العيون دمعة لا تجف، رحمه الله ورضي عنه .

طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات ضمهم ذلك البيت[1] المفتوح دائما، والذى خلا من الرسميات والدعوات المضروبة من قبل. يقول الأستاذ فتحى رضوان، فى وصف ذلك البيت الشاكرى:

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقى، إذا حضر من أوربا، وعبدالرحمن بدوى، وحسين ذو الفقار صبرى، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن حظى أن أكون عضوا دائما فيها، فقد كنت ألم بهم أحيانا، فأراهم وأرى من العالم العربى كله، ومن العالم الإسلامي على ترامیه، شخصیات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، فى الزىّ والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبا من هذه الندوة، أحسست بسعادة غامرة أن يبقى ركن فى بلدى كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث فى أمور لا تجد من يسمع بها، أو يعرف عنها شيئا، فى مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام الفكر والأدب الذى كانوا يختلفون إلى بيت محمود شاكر، فإنى ذاكر أيضا من عرفتهم فى هذا المجلس الحاشد، على امتداد الستينات والسبعينات:

---

(١) يسميه الدكتور إحسان عباس: كعبة العلم. انظر جريدة الدستور الأردنية بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٢ .

عبدالرحمن صدقى وعلى أدهم، ومحمود حسن اسماعيل، وعلى أحمد باكثير. ومن أعلام العرب: أحمد المانع وناصر الدين الأسد وأحمد راتب النفاخ وإحسان عباس وشاكر الفحام وإحسان النص ومحمد يوسف نجم وإبراهيم شبوح، واسماعيل الأكوع، ومحمد بن شريفة وعبدالسلام الهراس والحبيب اللمسى وعبدالله الغنيم. ومع هؤلاء الأعلام يتسع المجلس أيضا لصغار الطلبة والمعيدين.

ولقد يجتمع الناس فى ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذهب كل فى طريق. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أنس وود وبهجة، وماتنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس، أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل أمرىء منها حظ مقسوم، لاينفرد بها صاحب الدار، ولايستبد بها الكبار، فالكل فى هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يرتاح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى أثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل قائلا:

انتو بتقولوا إيه؟» يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر فى هذا من وحى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر - حتى تختلطوا بالناس - من أجل أن يحزنه».

بل إن مائدة الجمعة، والموائد الأخرى الحافلة، كيوم عاشوراءٍ الذى

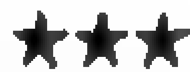
كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجرى: هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحِرف والصناعات الذين لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، مثل المجلِّد والنجار والحلاق . ومن طريف مايسجل هنا ما ذكره لى أبو فهر - رحمه الله - قال: فى يوم جمعة من الأيام الأولى لثورة يوليو كان يجلس على مائدة الغداء: محمود رشاد مهنا وحسين ذو الفقار صبرى والشيخ أحمد حسن الباقورى ومحمد فؤاد جلال - وكل هؤلاء من الوزراء وكبار المسئولين فى ذلك الوقت - وكان يجلس أيضا على المائدة الأوسطى أنور الحلاق. وفى اليوم التالى اتصل بى الشيخ الباقورى وقال لى: إن محمد فؤاد جلال - وكان وزيرا للشئون الاجتماعية - غاضب من وجود الأوسطى أنور الحلاق معنا على المائدة. وفى الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يافؤاد أنت وزير فى مجلس الوزراء، ولكنك فى بيتى واحد من الناس، تستوى أنت والأوسطى أنور وسواكما من عباد الله!

★★★

دلفت عايدة الشريف إلى هذا المجلس الشاكرى فى عام ١٩٧١، وسرعان ما توثقت صلتها بالأسرة، فأدّت معهم وبصحبتهم فريضة الحج عام ١٩٧٢.

وقد دخلت عايدة الشريف مجلس محمود شاكر ومعها هذا القدر الهائل من الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة فى شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعا حين دخلنا بيته لأول مرة،

وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التى أشاعها بعض خلق الله ليصدوا الناس عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقى، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، ولكنه قريب الرضا ميسور الصفاء، وقد وصفته فى بعض ما كتبت بأنك تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا، كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأمطارها، عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم، ومن الظواهر التى كنا نشاهدها كثيرا أنه يختلف مع أحدهم اختلافا شديدا، يرتفع معه صوته، وتتقاذف كلماته كالسهام الملتهبة؛، وحين يودّعه على باب المصعد يقول له: ابقى تعال الجمعة الجاية».



أصبحت عايدة الشريف عضوا دائما فى لقاء الجمعة منذ عادت من الحج مع الأسرة الشاكرية عام ١٩٧٢، وكانت عايدة فى ذلك الزمان «وفورة النشاط متوثبة الحركة، مثيرة للجدل والحوار، وكانت لديها قدرة عجيبة على استخراج ما عند الأدباء واستثارة دفين ذكرياتهم، كهذا الذى كانت تستخرجه من عبدالرحمن صدقى ويحيى حقى، من حديث عن تاريخ الأوبرا، وحديث الرواية والقصة، وعطر الأحياء الشعبية الذى كان يفوح من قارورة يحيى حقى. وكان مثل هذا الحديث مما يستجم به الحضور شيئا ما من حديث اللغة والشعر الذى كان يصول فيه شيخنا ويجول، وكنا نحن التراثيين سعداء جدا بما كانت تمدنا به عايدة من

أخبار المسرح والسينما وشجون أهل الفن، ثم ذكرياتها الصادقة والدقيقة مع نجيب محفوظ، وقد عملت معه زمانا فى مؤسسة السينما، وعرفت من خاصة أمره ودقائق حياته ما لايعرفه كثير من المقربين اليه، وكانت حُجة فى هذا الجانب، كما كانت حجة فى أخبار الدكتور محمد مندور، وقد تتلمذت عليه فى معهد الفنون المسرحية، ولازمته كثيرا، وقد ضمنت ذلك كله فى كتابها الممتع: شاهدة ربع قرن.

لكن الغريب فى أمر عايدة أنها كانت مأخوذة جدا بما تسمعه من قضايا اللغة والشعر وسائر فنون التراث التى كان يموج بها مجلس محمود شاكر، وكانت تستشرف إلى معرفة ذلك العالم العجيب الرحب، عالم التراث، بل إنها - وقد شدتها سخونة الحوار فى هذه القضايا - صرحت لى بأنها كانت تود أن تسلك ذلك الطريق التراثى من أول أمرها، وأنها لو أتيح لها مثل هذا المجلس فى مبتدأ حياتها لما رضيت به بديلا، وكنت أقول لها: إنك قد اخترت طريق الشهرة والأضواء، مع الفن وأهله، أما نحن التراثيين ففى ركن قصى من الخريطة الثقافية فى هذا الزمان، وأننا نغدو ونروح يحدّث بعضنا بعضا، لايشعر بنا أحد، وعلى من يسلك طريقنا أن يصبر على العزلة والوحشة، كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه «من أحبنا أهل البيت فَلْيُعِدَّ للفقر جلبابا»، فكانت تقول: لا والله، إن طريقكم يا أهل التراث هو الطريق الصحيح، إنكم تتحدثون فى أشياء كبيرة لا يطيقها إلا أصحاب الجباه العالية، ولا يغرنك مانحن فيه من شهرة وذيوع وأضواء، فهو سراب

خادع وبرق خُلَّب (وكانت تقول: على فكرة، خلب دى سمعتها فى مجلسكم فقط).

أخذت عايدة تتردد على البيت الشاكرى، والتحمت به التحاما شديدا، وبخاصة بعد عودتها من الكويت واستقرارها بالقاهرة، وحين داهمها المرض فى أعوامها الأخيرة لم تجد أرحب من هذا البيت وأكرم، تلوذ به وتلجأ إليه فتجد فى رحابه من مظاهر الكرم ومباهج العلم ما يؤنس وحدتها، ويخفف من آلامها.

وقد بدا لعايدة أن تكتب شيئا عن حياة محمود شاكر ومجلسه، وقد سبق لها شىء من ذلك فيما كتبته فى بعض صحف الخليج، ولكنها أرادت أن توسّع الخطى، وتجمع أطراف الكلام، ولقد استعظمت الطريق واستطالته فى أول الأمر، وكادت تنصرف عنه، ولكنها عادت فاقتحمت الميدان بجسارة وشجاعة، وأخذت تجمع من هنا وتلملم من هناك، تضم الشبيه إلى الشبيه، وتقرن النظير بالنظير، تنشط حينا وتفتر أحيانا، وقد عملت وحدها، لم يُعنها أحد، حتى صاحب الدار لم يكن يكشف لها عما كانت تريده من سيرة حياته وتقلبه فى العالمين، وكان هذا دأبه وعادته، لم يكن يحبُ أن يتحدث عن نفسه.

★★★

كتبت عايدة عن محمود شاكر ما شاء الله لها أن تكتب: حياته وعلمه وخاصة أمره، لكن غالب ما كتبته إنما هو ذكريات متناثرة وخواطر متفرقة، كانت تريد أن تعود إليها بالتحرير والتنقيح، حتى عاجلتها المنية ؛ وليس لما أراد الله راد ولا دافع.

وهذا الذى كتبته [1] عايدة الشريف عن محمود شاكر - مهما يكن رأيك فى مفرداته وصياغته - كان يجب أن يكتبه قرناؤه الذين عرفوه فى فتوته وشبابه، وتلاميذه الذين أفادوا منه فى قوته وعنفوانه، لكن لا هؤلاء كتبوا، ولا أولئك أشاروا، إلا ما كان من صديق عمره ورفيق حياته يحيى حقى، الذى مافتىء يذكر فضل محمود شاكر عليه، وانه هو الذى أذاقه حلاوة العربية، ووقفه على أسرارها ودقائقها [2]

وكان من أعجب العجب ألا تجد لهذا الرجل الضخم ذكرا إلا فى مقدمات بعض الكتب أو الرسائل الجامعية، شكرا مصنوعا متكلفا، يريد به صاحبه أن يرفع خسيسة، لا أن يذكر علما، لكن محمود شاكر سيظل أثرا ضخما باقيا فى ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية، وذوداً عنها، وبصَرا بها، وإضاءة لها.

---

(١) إكتشف شقيقها الكاتب الصحفي يوسف الشريف بعد رحيلها يوم ٣ أبريل ١٩٩٧ أنها خلفت وراءها كتاباً جاهزاً للنشر عن الأستاذ محمود شاكر كانت قد إستكملت سطورة قبل رحيلها بثلاثة شهور .

(٢) للحق والتاريخ أقول: إن كاتب هذا المقال، الفقير محمود محمد الطناحي، من أكثر الناس كتابة عن ذلك الإمام محمود محمد شاكر، ومن ذلك: كتابي مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي، من ص ١٠٣ إلي ١٢١، و: المتنبي. موسوعة عصر التنوير التي أصدرتها دار الهلال بعنوان: أهم مائة كتاب في مائة عام - سنة ١٩٩٢، و: محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث - مجلة الهلال - فبراير ١٩٩٧، ثم مانثرته فيما دق وجل من كتاباتي وتحقيقاتي.

ثم أشير هنا الي رسالتي ماجستير عن الشيخ: الأول بكلية دار العلوم للباحث محمود إبراهيم الرضواني، بعنوان: أبوفهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق. وطبعت بمطبعة الخانجي عام ١٩٩٥، والثانية للباحث عمر حسن القيام بكلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن، بعنوان: محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج، وطبعت بمطبعة دار البشير ومؤسسة الرسالة بالأدرن عام ١٩٩٧.

إن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفى كل مكان هو ما قاله عن أستاذه مصطفى صادق الرافعي، بأن الرافعى «قد صار ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى اليه» (١)

وكذلك ينبغي أن يكون محمود شاكر «ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى إليه».

رحم الله محمود محمد شاكر، ورحم الله عايدة الشريف. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) هذا أثر من آثار ثقافة الشيخ العربية الإسلامية، فقد جاء هذا اللفظ في خبر ورقة بن نوفل، وقد مر ببلال بن رباح وهو يعذب فقال: والله لئن قتلتموه لأتخذته حنانا، قال ابن الاثير: الحنان: الرحمة والعطف، والحنان: الرزق والبركة، أراد: لأجعلنّ قبره موضع حنان، أي مظنة من رحمة الله، فأتمسح به متبركا، كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٨.

الباب الأول

قبل التعارف

محمود شاكر كما قرأته

فَلَقدْ عُرِفْتَ وما عرفَت حَقيقةً

ولقد جُهِلتَ وما جُهلْتَ خُمُولا

«المتنبى»

الفصل الأول

شخصية متفردة فذة

شخصية فذة فريدة تلك التى عثرت عليها وأنا أجمع مفرداتى الثقافية فانهار بمعرفتى له بنيان الصورة التى كانت قد رسخت فى ادراكي المعرفى عنه على نحو خاطىء ومشوش ، واذا به يتجلى أمامى صرحا إنسانيا وثقافيا شامخا عبر ماقرأته له وعنه ، ومن جديد وجدتنى فى حاجة لأن ابدأ مشوارى المتأنى لمعرفته بشكل سليم وشامل .. فمن أين بدأت ؟.

لقد أحالتنى ضرورات ماكنت بسبيله الى كتاب «المعارك الأدبية» للأستاذ أنور الجندى .. حيث كتب عن المعارك التى لم أعاصرها .. لأنها قامت فى النصف الأول من هذا القرن .. فى هذا الكتاب وقع نظرى على اسم «محمود محمد شاكر» فى أربع معارك اثنتين منهما فى مواجهة الدكتور طه حسين .. الأولى عن كتابه «مع المتنبي» والثانية عن تعارض المقالات ، والثالثة كانت بعنوان «مذهبان فى الأدب» ، وكانت بين أنصار الرافعى وأنصار العقاد . أما الرابعة فقد تصدى فيها لعضو بارز فى المجمع اللغوى ، وكان أحد الثلاثة الذين شكلوا الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول للتفاوض مع الانجليز وهو عبد العزيز فهمي، حين انتقد بدعتـه كتابة العربية بحروف لاتينية تشبها بكمال أتاتورك فى تركيا .

تعجبت من ورود هذا الاسم فى معارك هذا الكتاب .. إذ لا هو ممن أسماهم النقاد بأعمدة الأدب والدكتور طه حسين، ومصطفى صادق الرافعى ، ولا هو من مشاهير الأدباء كالعقاد والصحفيين كزكى مبارك أو هيكل أو الزيات .. لقد دلتنى آخر معارك الكتاب أى المعركة بين شباب الأدب وشيوخه ، أن صاحب هذا الاسم لم يزل شابا صغيرا ولكن كيف يتأتى لشاب صغير - فى ذلك الوقت - أن يسخر من عميد الأدب العربى حقا إن رجال أسرتى - نصفهم أزهرى والنصف الآخر درعمى كانوا يشجبون طه حسين فى حواراتهم .. ولكنى كنت أرجع ذلك لانحصار توجهاتهم فى الشئون الدينية والتدريس أكثر من انشغالهم بالسياسة واهتمامهم بالأدب . ولكن كيف يفسح كتاب يؤرخ للمعارك الأدبية صفحاته لشاب لايشجب طه حسين فقط بل يسخر منه أيضا .. متهماً إياه بإنه سطا فى كتابه «مع المتنبى» على أفكاره هو شخصيا فى كتاب له عن المتنبى لاسيما عند الكلام عن مولد المتنبى الذى رآه الدكتور طه شاذا .. والظاهر أن هذا الشاب قد التقط فى كتابه غير المعروف شيئا آخر عن مولد المتنبى وبرره وأصله بمجهود كبير .. لأنه هنا لا يمسك بخناق الدكتور طه فحسب .. بل يسفهه ويشهد القراء علي هذا بقوله : «أى امرىء من القراء فهم شرح الدكتور عن مولد المتنبى الذى نقلناه ، فله عندنا ثلاث نسخ من كتابنا عن المتنبى» . فالتمست العذر لهذا اليافع .. وقلت فورة شباب واعتداد بما سبق به الدكتور طه ، فلماذا إذن يترصده فى غير ذلك من موضوعات ؟ أى حين تعارض طه حسين الرغبات بينه وبين الأستاذ أحمد أمين فى أن ينشىء مدرسة

للزوجات .. وأن ينشىء هو مدرسة للأزواج .. ولماذا اتهمه بأنه أطال فى تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها .. هل هو أكثر وطنية من الدكتور طه .. أم أنه يترصد أعمدة الأدب من باب الهواية أو الثقة الزائدة بالنفس أم لعناد مبيت فى طبعه؟

لكن المعركة بين أنصار الرافعى وأنصار العقاد .. تقول غير ذلك، فها هو محمود شاكر .. يرد هجوم الأستاذ سيد قطب على مصطفى صادق الرافعى .. وهو من أعمدة الأدب .. وان كان تجاسر وراجع قطبا سياسيا كبيرا من أقطاب ثورة ١٩١٩ هو عبد العزيز باشا فهمى عندما نادى بكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، إذن فهذا الشاب الجسور لم يتكلم من فراغ .. ولابد أن وراء غرابته أشياء وأشياء ربما كانت فى أسرته .. أو محيطه .. أو ملامح دفينة فى ذاته .

رويدا رويدا وبعد أن لفتتنى شخصيته وقراءة أعماله، عندئذ تكشف لى أنه نسيج أصيل قائم بذاته .. فهو مثلا لم ينتصر لفكرة العربية الصحيحة بعد عودته من زيارة للبلاد العربية ، كما حدث لمنصور فهمى وهيكل ومحمود عزمى والمازنى ، ولا هو تغرب إلى اللاتينية أو الساكسونية ثم عاد للعروبة مسايرة للجماهير كما حدث للعقاد وطه حسين ـ فى العبقريات والسيرة وظهور الإسلام ـ ولم يكن من الأدباء الذين حجب جيل العماليق عنهم الضوء ـ كما ظننت فى البداية ـ من أمثال على أدهم وعبد الرحمن صدقى وأحمد أمين .

ذلك أننى بعد اندهاشى لمعرفتى المفاجئة بمحمود شاكر تذكرت

أننى قرأت له مقدمتين لكتابى «حياة الرافعى» لمحمد سعيد العريان ، و«الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين و ... من جديد أعدت قراءة المقدمتين ، ثم استرجعت ذاكرتى ماقرأته ذات مرة لمقابلة أجريت مع الأستاذ يحيى حقى قال فيها ضمن أشياء كثيرة. إنه قبل لقائه بمحمود شاكر ، كانت الكتابة بالنسبة له خاطرا غير تام الأدوات ، ولكنه من خلال لقاءات كثيرة معه فضلا عن قراءته المستمرة لذخيرة ضخمة من كتب الإرث العربى استطاع محمود شاكر أن يكشف له عن روعة البيان وأسراره .

بعد ذلك عرفت أنه شاعر محقق ، كما عرفته مؤرخا من خلال مقالاته التى كتبها بمجلة «الرسالة» عن وحدة مصر والسودان ، أما المفاجأة التى لم أكن أتوقعها فهى الجانب السياسى الذى اكتشفته من خلال الوثائق التى نشرتها مجلة «الطليعة المصرية» والخاصة ببرنامج الحزب الوطنى الجديد بزعامة فتحى رضوان وكانت بتوقيع محمود شاكر..

وقبل ذلك وبعده تأكد لى أننى أمام شخصية متفردة فذة ، وإن كانت الكلمات التى تتردد عنه على شفاه شعراء وأدباء ، وعلى ألسنة علماء كثيرين هنا وفى العالم العربى والإسلامى تلقى فى النفس شيئا من الرهبة المبهمة عن عالم غريب مغترب حاد التوهج لاذع النبرة ، قوى الحجة خاصة حين يقف عملاقا مدافعا عن العرب والإسلام .

كل هذا جعلنى أشفق على نفسى من لقائه ، فقد قال لى المفكر

الإسلامي الجزائري مالك بن نبي: إنه لو وجد الجاحظ الآن لترك مكانه عن طيب خاطر لمحمود محمد شاكر ، واختصر لي الدكتور عبد الله الطيب المفكر السوداني رأيه في أربع كلمات «إنه ضمير عروبة مصر» وأكد لي العالم السعودي عبد الله عسيلان ، «انه إرث العدالة الإسلامية المعاصر وأنه القلعة» .

كنت أيام شغفي بمعرفة هذه الشخصية عضو لجنة القراءة بمؤسسة السينما سنة ٦٥ التي كان يرأسها نجيب محفوظ ، وفي هذه الفترة كان الأستاذ شاكر ينشر أسبوعيا ، رده على مقالات «لويس عوض» على هامش الغفران. شيء من التاريخ التي كانت تنشر في جريدة الأهرام ، وكان الأستاذ نجيب يتابع هذه الردود بشغف واهتمام بالغ .. يقرأ الحلقة ثم يحيلها تباعا على أعضاء اللجنة ليعرف إن كان رأينا موافقاً لرأيه ، وسألته ذات يوم : هل التقيت بمحمود محمد شاكر حتى تعجب به كل هذا الاعجاب ؟ فقال : «إنه أي شاكر ، كان في زيارة زميلي الأستاذ يحيي حقي أيام كنا نعمل بمصلحة الفنون، وعندما رحت أصافحه ، استقبلني متهللا بقوله : واد يانجيب ، بقيت لك خطوتان وتكتب العربية الفصحى ، كانت اطراف أصابعه تتحرك مع كلماته في شكل دائري - ثم دعاني لزيارته ولكني خفت على ما أكتب منه ، ذلك أني لاحظت أن لغة يحيي حقي قد أغرقت في البلاغة بعد أن توثقت علاقته بمحمود شاكر حتى أنه اذا كتب للعمال في جريدتهم «التعاون» لم يفهموه .

وقادتنى مصادفات الحياة ، التى لم تكن مصادفات على أى حال ، أننى جلست كعادتى إلىّ أستاذى الدكتور محمد مندور - رحمه الله - ليملى علىّ مقالا كما هي عادته ، ولكن غير العادى فى هذه الجلسة أن ما كان يمليه علىّ موجها إلىّ من شغفت بمعرفته ألا وهو محمود شاكر، يناشده أن يخفف من حدته في ردوده على الدكتور لويس عوض ، وأن ينأى عن التجريح الشخصى خشية أن يؤدى الأمر إلي فتنة قومية ودينية ، كما يذكره بزمالتهما ، وهنا استأذنت أستاذى فى وقفة لا أعرف كنه هذه الزمالة فأخبرنى... « أنه ومحمود شاكر كانا زميلين فى كلية الآداب ، ولكن شاكر تركها بعد احتدام الخلاف بينه وبين الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الأدب العربي والشعر الجاهلى ، وكان رأى الدكتور طه هو تعميم الشك فى الشعر الجاهلى ، وكل ماقيل عن الحياة العربية قبل الإسلام .. وكان رأى الطالب أى زميلى محمود شاكر - فى ذلك الوقت - هو البدء بدراسة النصوص ذاتها ومحاولة إدراك صحتها أو بطلانها وزيفها من خلال فحص النصوص من الداخل ، وذلك قبل طرح قضية الشك فيها ، ثم غلبه شيطانه فلم يترك الجامعة فقط بل غادر مصر كلها وسافر إلى السعودية تحت وهم توثيق ماذهب إليه من رأى فى أصالة الشعر الجاهلى فى بيئته وضابعه» .

ولأنى شعرت من هذا الرد كما لو أن أستاذى مندور يشجب محمود شاكر كفكر وكسلوك .. فقد دفعتنى رغبة التأكد مما شعرت به .. أن أسأله كيف يتصدى الطالب لأستاذه بهذا المنطق العلمى وبهذه الغيرة المحمودة علي العرب ، وأمام انبهارى الذى استشعره د. مندور،

وربما لاختلاف الرجلين إبان رحلة الدراسة الجامعية ، أتاني رده وبصوته شيء من التورية والابهام والغموض ، وبيده إشاحة تدل على ضنه بوقته ولهفته لاكمال المقال .. فلم يقل إلا «أنه اصغر أولاد الشيخ محمد شاكر وأنه جن في النهاية وترك الجامعة ـ ثم أكمل إملاء المقالة».

عرفت من هذا الحوار العابر ، أنه كانت هناك مداخلات بين حياة محمود شاكر والدكتور طه حسين .. ولكن هل كانت هذه المداخلات هى سبب تربصه به فى كل مايكتب .. لا استطيع الجزم بذلك .. لأن كتاب «معارك أدبية» وإن حوى ستين معركة، فعشرون منها كان طه حسين طرفا فيها .. أى أن شاكر لم يكن شاذا حين تربص بـه في اثنتين منها .

انطلاق يجلو الصورة

عدت إلى منزلي بعد أن أكملت تدوين المقال .. ووجدتني مدفوعة للبحث عن والد الأستاذ محمود شاكر .. ذلك أنني شعرت من نطق أستاذي مندور لاسمه أنه شخصية معروفة ، ومن ثم تناولت أقرب منهل وجدته تحت يدي وكان «الموسوعة العربية الميسرة» فقرأت «محمد شاكر ١٨٦٦: ١٩٣٩ عالم ديني وقاض مصرى ولد بجرجا وتعلم بالأزهر ، شغل منصب قاضي قضاة السودان أربعة أعوام ، ومن أعضاء الجمعية التشريعية ١٩١٣ ، ناصر الحركة الوطنية فى أيام سعد ، له مؤلفات وبحوث منها «الإيضاح على متن ايساغوجى» و «من الحماية إلى السيادة» و«القول الفصل» .

وانطلقت من هذه الفقرة ، إلى مزيد من الاقتراب الذى يجلو الصورة ويضيف اليها كثيرا من التفصيلات المهمة والضرورية عن البيئة التى نشأ فى أحضانها من أود التعرف إليه ، وذلك أن المرء عادة عندما يعجب بشخص أو ينكره أو يريد أن يعرفه فإنه يذكر ذلك فى أغلب حواراته مع الأصدقاء إذا كانت هناك مناسبة ، أو يعطف الحوار إليه اذا كان الحوار بعيدا عنه ..، وفى كل مرة أسلك ذلك حيال أسرة الأستاذ محمود شاكر أعرف الكثير والكثير سواء أكان عن والده أم عن اخوته وأسرته كلها .

فقد قيل لى إن بيت الشيخ محمد شاكر كان منارة لقصاد المعرفة من كل البلاد العربية والإسلامية ، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء ورجال السياسة ، من مختلف الاتجاهات السياسية، وألمح لى الشاعر صلاح عبد الصبور الي خلاف الشيخ محمد شاكر مع الشيخ محمد عبده كان حول تطوير الأزهر وتعديل مناهجه ووجوب انفصال[1] ميزانيته عن وزارة الأوقاف .. وأشار لى مصدر آخر عن موقفين متناقضين للشيخ محمد شاكر فى الجزء الثاني من كتاب «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين من صفحة

---

(١) دخل الأزهر ورقة لعب في النزاع الثلاثي بين القصر ودار الحماية والقوي الوطنية، وكان من سياسة القصر أن يظل الأزهر تابعا له ـ أي تبعية ميزانيته لوزارة الأوقاف ، يحركه متي شاء ضد الانجليز تارة وضد القوي الوطنية تارة أخري ، وكان الأزهر مثارا للنزاع بين الخديو عباس والإمام الشيخ محمد عبده «عشق الكلمة» ص ٤٢ الأستاذ يحيي حقي .

٣٧ .٢٠ ففتحت الكتاب لاطالع بمقالين طويلين بقلم الشيخ محمد شاكر، أولهما نشر بصحيفة الأهرام فى عدد ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ تحت عنوان «ما شأن الخلافة بعد التغيير» حول وضع الخلافة الإسلامية قبل الحرب وحزن المصريين لاحتلال الأستانة .. وفرحهم بظهور مصطفى كمال - أتاتورك - وتتبعهم أخبار كفاحه وانتصاراته على اليونان ومهاجمة الخليفة المخلوع وحيد الدين لاستسلامه للأسطول الانجليزى .. وثانيهما نشره بجريدة «المقطم» بعد ذلك بأشهر عندما فطن لحقيقة الكماليين ، يصور فيها ماشعر به من خيبة الأمل فيهم فيقول: «خليفة يخلع وخلافة تلغى .. وأموال تصـــادر ، وأوقاف تضم الى أملاك الدولة وفما معنى هذه العاصفة الهوجاء ، عاصفة الجنون التى تهب على العالم فى مشارق ومغارب من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية فى أنقرة»؟ .

وعندما انهيت قراءتى لهاتين المقالتين «١» قلت للصديق الذى ألمح اليهما إن تناقض الشيخ محمد شاكر لم ينف الصدق عنه بقدر ما أثبته، والدليل أنه عاد الى الحق فور تعرفه على حقيقة الكماليين والإتحاديين على السواء ، وليس فى مقدور إنسان مهما بلغت شفافيته أن يتكهن بالأحداث الخفية التى تحدث على أرض بعيدة عنه كل البعد .. بل أنه ظهرت فى هذه الآونة أربعة كتب حول هذا الموضوع اثنان يؤيدان المقال الأول حول كمال أتاتورك وهما «الخلافة وسلطة الأمة» الذى نقله عن التركية عبد الغنى سنى ، و«الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد

الرازق، وآخران يعارضانه وهما «الخلافة والإمامة العظمى» لمحمد رشيد رضا، و«النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبرى .

وقد تأكدت من عدم مبالغتى فيما يخص استمساك الشيخ محمد شاكر بالحقيقة دائما عندما دلنى الدكتور محمود الربيعى على كتاب و«اصدع بما تؤمر» «كلمة حق» حيث وجدته بقلم ابنه العلامة أحمد شاكر وهو من أئمة الحديث والسنة .. وقدم له المحقق المعروف وعضو مجمع الخالدين عبد السلام هارون الذي يمت للاثنين بصلة قرابة «فوالده» الشيخ محمد هارون شقيق والدة الشيخ أحمد شاكر .

فى هذا الكتاب وجدت الشيخ أحمد يراجع مقالا للأستاذ زكى عبد القادر جاء فيه مايمس الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلب منه الرجوع عنه .. ويستشهد بموقف حدث مع والده «فحين تقرر إرسال الشيخ طه حسين إلى فرنسا فى بعثة للحصول علي رسالة الدكتوراه ، أراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين كامل رحمه الله أن يكرمه فاستقبله فى قصره ، وحباه هدية، ولما كان من المفروض ـ بعدها ـ أن يؤدى السلطان الصلاة فى مسجد المدبولي القريب من قصر عابدين .. فقد ندبت وزارة الأوقاف خطيبا متكلما مقتدرا ، فأراد هذا الخطيب أن يمدح السلطان بما كرم به الشيخ طه حسين ، فخانته فصاحته فزل زلة لم تقم له قائمة من بعدها ، إذ قال أثناء الخطبة «جاءه الأعمى فما عبس فى وجهه وماتولى» وكان من شهود هذه الصلاة والدى الشيخ محمد

شاكر وكيل الأزهر .. فقام بعد الصلاة يعلن للناس فى المسجد أن صلاتهم باطلة ، وأمرهم أن يعيدوا الصلاة فأعادوها .

ذلك بأن الخطيب كفر بشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضا لا تصريحا ثم ذهب الوالد رحمه الله فورا إلى قصر عابدين وقابل محمود شكرى باشا رحمه الله ، وهو له صديق حميم ، وكان رئيس الديوان اذ ذاك ، وطلب منه أن يرفع الأمر إلى عظمة السلطان وأن يبلغه حكم الشرع فى هذا بوجوب إعادة الصلاة التى بطلت بكفر الخطيب» .

وكاد الأمر أن يقف عند هذا الحد، لولا أن دخل فيه دخلاء السوء .. ممن يحرصون كل الحرص فيما زعموا عن حقوق الأفراد ، ويغلون أشد الغلو فى هضم العلماء حتى يشغلوا بأنفسهم عن نصرة دينهم، وكان خطيب المسجد متصلا ببعض المستشارين الكبار إتصال التابع بالمتبوع يؤدى لهم كثيرا من الخدمات «فأشاروا عليه بأن يرفع دعوى جنحة مباشرة على أبى لأنه سبّه سباً علنياً فى المسجد وفى ديوان السلطان .

عندئذ كان تصميم الوالد وعزمه ، على أنه اذا وصلت القضية إلى المحكمة ، ألا يشهد رجال الأزهر بل أن يطلب - حتى - ندب مستشرقين ليحددوا بخبرتهم فى لغة العرب دلالة كلام الخطيب من الوجهة العربية أهو تعريض أم لا ؟ ثم يكون الفصل القضائى طبقا لما يقرر الخبراء .

ثم تدخلت الحكومة فى الأمر ، خشية ما قد تفجره هذه القضية من أحداث وأخطار ، وطوى بساطها قبل أن ينظرها القضاء ، ولكن الله لم

يدع لهذا المجرم جرمه فى الدنيا ، قبل أن يجزيه جزاءه فى الآخرة ، فأقسم بالله ـ الكلام للشيخ أحمد ـ لقد رأيته بعينى رأسى ، بعد بضع سنين وبعد أن كان متعاليا منتفخا ، مستعزا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء ، رأيته مهينا ذليلا ، خادما على باب مسجد من مساجد القاهرة يتلقى نعال المصلين يحفظها ، فى ذلة وصغار ، حتى لقد خجلت أن يرانى وأنا أعرفه وهو يعرفنى ، لا شفقة عليه ، فما كان موضوعا للشفقة ، ولا شماتة فيه فالرجل النبيل يسمو علي الشماتة ، ولكن لما رأيت من عبرة وموعظة .

عفوا لهذا الاستطراد ، الذى ما أتى تحت سن قلمى إلا للتوقف على عجائب القدر ، أن يخوض الشيخ محمد شاكر ، معركة سببها تكريم الشيخ طه لحصوله علي منحة الدكتوراه من فرنسا حول ابن خلدون، وأن يخوض الابن معركة أخرى سببها الدكتور طه حسين و عاد من فرنسا بعد أن درس اللاتينية مع التاريخ ليدرس العربية، ولما كانت هذه السفرة الطويلة قد باعدت بينه وبين العربية ، فقد أراد أن يغطى هذا بالتشكيك فى جذورها على حد قوله «[1]» أنه سيسلك فى بحثه عن العربية مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة ، فيصطنع فى العربية منهجا كالمنهج الذى اصطنعه ديكارت فى مجال الفلسفة» .

ومن خلال ماقاله راح يشك فى الشعر الجاهلى .. فأهاج محمود

(١) الأتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر تأليف الدكتور محمد محمد حسن .

شاكر شابا .. فثار وراجعه ثم ترك له لا الجامعة، فقط بل مصر كلها .. وهذه جسارة لم نسمع بمثلها من قبل وقد تساءل الأستاذ كمال النجمي عن هذه الغضبة العجيبة فكتب «هل حدث قط فى تاريخ الأدب العربى .. أو في تاريخ الأمة العربية من المحيط إلى الخليج .. أن هاجر أديب من وطنه احتجاجا على نفر من مواطنيه زعموا أن الشعر الجاهلى أكثره زائف .. وأنه من وضع الرواة فى العصرين الأموى والعباسى لا من نظم أمرىء القيس وطرفة والنابغة وزهير وسائر ذلك العقد النظيم ، من آباء الشعر العربى فى الجاهلية»؟

ثم يجيب : «نعم .. حدثت هذه الهجرة العجيبة المثيرة .. حدثت مرة واحدة فى تاريخ الأدب العربى وتاريخ الأمة العربية . وكان بطلها هو الكاتب الشاعر اللغوى المحقق الفقيه العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر أمتع الله به وأطال بقاءه» .

ويعلق الأستاذ النجمى على غضبة شاب كان يومئذ في التاسعة عشرة من عمره لكرامة الأدب العربى كله شعرا ونثرا ـ ولكن فى جعبته من العلم مايتطلع الى مثله شيخ كبير فى اللغة وعلومها .وملأ عقله من الذكاء مايكاد يحرق أعصابه بقوله : «هذه الحادثة الفذة تفسر كل ماكتبه أو قاله أو عمله الأستاذ محمود شاكر طوال حياته الأدبية الوارفة الظلال .. فهو رجل صعب المراس تفور بالحمية والحفاظ فى منهجه الفكرى وأسلوبه الأدبى .. وموقفه من الحياة والمجتمع .. وله فى جميع أحواله حكم عقله وحده .. ومنهجه الخاص فى النظر إلى بنات أفكار الناس ، أو بنات أعمالهم» .

وقد كشف شاكر عن وجه هذه العلاقة فى مقدمته لكتاب الأستاذ «مالك بن بنى» «فصل فى إعجاز القرآن» حيث أوضح أن سبيل إدراك الإعجاز إنما هو من طريق النظر فى كلام من نزل عليهم القرآن .

بل أنه فسّر فزع النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى فى أول مرة يوحى إليه فى الغار بأنه لم يكن من منظر الملك كما يذهب إلي ذلك معظم أصحاب السير ، بل يرى أن الفزع كان من سماعه هذا البيان المفارق لبيان البشر فهو يقول «وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به، وسمع مقالا لا عهد له بمثله ، وكان رجلا من العرب ، يعرف من كلامها ماتعرف ، وينكر منه ماتنكر وكان هذا الروع الذى أخذه ، أول إحساس فى تاريخ البشر ، بمباينـــة هذا الذى سمع ، للذى كان يسمع من كلام قومه» .

ياجلال الله !! أللشعر الجاهلى كل هذه المكانة السامية حتى ليكاد يأخذ مكانا مرتكز الثوابت فى ثقافتنا العربية «القرآن الكريم والسنة المشرفة» «ألهذا قال رسولنا الكريم يوما لحسان بن ثابت مامعناه - أنشدنا قصيدة جاهلية فقد رفع الله عنا آثامها» .

وكيف تأتى لمحمود شاكر وهو فى التاسعة عشرة أن يتوصل إلى هذا الربط السليم .. حقا ماقاله الأستاذ كمال النجمى عندما ألمح أنه كان فى هذه السن مشروعا للنعوت الستة التى وصف بها وهى الكاتب، الشاكر ، اللغوى ، المحقق ، الفقيه ، العلامة محمود شاكر .

ذلك أن معظم كتابنا الكبار وكما نقرأ لهم الآن ، لا يأبهون للثوابت

الأساسية قط .. بل إنهم يسخرون من الشعر القديم عامة فى قولهم عنتريات فارغة .. أو الشعر الجاهلى خاصة عندما يقهقون ساخرين :

مكـــر مفـــر مقبل مدبـــر معـــا

كجلمود صخر حَطّه السيل من علِ

★★★

لذلك فقد عشت فترة انتظارى للقائه أرسم له بخيالى آلاف الصور .. بل إنى ماقرأت فى هذا الوقت عن كاتب أو شاعر أو فقيه أو لغوى من أعلام العرب إلا تخيلت محمودا شاكرا فيه .. كنت ألجأ إلى الخيالات ليس لاشفاقى على نفسى من لقائه فقط .. وإنما لأنه كان مغيبا فى المعتقل بعد مقالاته الثمانية الشهيرة التى ضمنها الجزء الأول من كتابه «أباطيل وأسمار» ثمانية عشر شهرا من ٣١ اغسطس ١٩٦٥ حتى ديسمبر ١٩٦٧، ودلنى هذا الكتاب أيضا على أنه ظل معتزلا الكتابة من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٤ وكان قبل ذلك معتزلا للمجتمع كله .

ورغم أسلوبه البليغ الذى صاغ به هذه المقالات الثمانية فقد وجدته يدين نفسه بشدة لاعتزاله الكتابة للصحافة فظهر لى منه أنه صاحب نفس لوامة .. وهو خلق يستحسنه ديننا الحنيف ، حيث قال : «ليس حسنا أن يعزل كاتب قلمه ! ولكن هكذا قدر الله علىّ أن أفعل، فنحيته عن أناملى ، لكى أفرغ للقراءة والتفكير ، حتى تصرّم على ذلك أكثر من ثلاث عشرة سنة فلما عدت اليه أحمله ، ثقل محمله ، وقد صدُىء سنه، ورسف فى قيود الإهمال خطوه ، وإذا هوّة سحيقة القرار قد انخسفت

بيني وبينه، كهوة بين حبيبين تمادى بينهما جفاء مستحدث من ملال، ولكنى على ذلك كله اليوم: مرغم على حمله ، ومرغم على استحياء ما كان بيني وبينه من حب متضرم ، ومزغم علي أن يكون اعتذارى إليه صادقا ، مهما تكبدت فى سبيل ذلك من مشقة وعنت ، ويشاء الله الذى قدر وقضى أن يكون الرجل الذى جعلت كلامه حجتى على من لامنى ، يوم عزمت علي تعطيل هذا القلم ، هو نفسه الذى أحمل القلم من أجله ، وخبر ذلك أنى كنت أقول يومئذ لمن يلومنى :

إذا كان علمُ النـــــاس ليس بنافعٍ

ولا دافـــعٍ ، فالخُسْـــر للعلماء

قضى الله فينا بالذى هو كـــــائنُ

فتـــم ، وضاعت حكمة الحكماء!

والأستاذ شاكر يقصد أن صاحب هذه الأبيات التى كانت حجته للاعتكاف وهو أبو العلاء المعرى ، كانت أيضا السبب فى شق شرنقة إعتكافه ، ليرد على مقالات الدكتور لويس عوض «على هامش الغفران .. شيء من التاريخ» التى نشرهاَ فى الأهرام سنة ١٩٦٤ فهى تدور حول شيخ المعرة ، أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى رحمه الله عليه .

تخيل قراء «الرسالة» التى رد فيها محمود شاكر علي مقالات الدكتور لويس عوض ، أنهم سيفوزون بأضواء جديدة على أدب أبى العلاء ذلك الرجل الذى نصب نفسه للدفاع عن أمته العربية الإسلامية ..

ضد شبح الغرب وغوله الذى يصبو إلي نهش أمته وفرقتها عن آخرها .. وذلك الرجل الذى له نظر خاص فى نوايا وأفكار الكتاب .. وكتابة لويس عوض بالذات .. من مناداته بالعامية إلى تلمذته على المستشرقين والمبشرين و... فعندما قرأ كتابات لويس عوض عن أبى العلاء .. وجدها جماعا لقضايا الأمة العربية الإسلامية فى صراعها مع الغرب .. فراح يفك جديلة اللثام الذى يلجم خطره ميادين هذا الصراع حيث تناوله فى الفصول المنشورة فى السفر الأول من كتابه «أباطيل وأسمار» بقوله :

«ولهذه الفصول غرض واحد ، وإن تشعبت اليه الطرق . وهذا الغرض هو الدفاع عن أمة برمتها ، هى أمتى العربية الإسلامية ، وجعلت طريقى أن أهتك الأستار المُسدلة التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان ورجال آخرون قد ورثوهم فى زماننا وهمهم جميعا كان أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة علي عقولنا ، وعلي مجتمعنا ، وعلي حياتنا ، وعلي ثقافتنا وبهذه الغلبة يتم إنهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية ، والأخلاقية والعملية ، والعلمية، والفكرية وردوها الي طريق مستقيم علم ذلك من علمه وجهلــــه من جهله ».

ومن الغريب أنه طوال نشر محمود شاكر لهذه المقالات الثمانية ، وجدنا ويا للعجب أن أقلاما كثيرة راجعت ماكتبه دفاعا عن لويس

عوض، دون حتى قراءتها ، بينما لم نجد كاتبا واحدا يؤازر محمود شاكر مع أنه كان صادقا تماما ، كما حدث عندما راجع محمود شاكر الدكتور طه حسين بالجامعة ، مما يرجح القول أن تكتلا فى دهاليز الوسط الأدبى على مايبدو قد حدث ضد كتابات شاكر ، الأمر الذى أدى في النهاية الى إغلاق الرسالة والزج بمحمود شاكر إلى السجن .

هذا ما عرفناه عند طبع محمود شاكر هذه المقالات مع بقية ماكتبه مما لم تنشره الرسالة ، حيث قال : «حين شرعت فى كتابة هذه الفصول «سنة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤» كنت قد قدرت لها مقادير ، ونهجت لها نهجا مستتبا ، ظننت أنى بعون الله ، قادر علي أن أمشى فيه وفى دروبه أتهادى لايذعرنى شيء حتى أبلغ نهايته ، ولكن شاء الله غير ماشئت ، وقدر غير ماقدرت وخابت ظنونى واختطفت عن السير فى أوائله فدع عنك بلوغ نهايته ثم كان ما كان ».

والظاهر أن حصارا قد ضرب حول كتابات شاكر طوال حياة د. طه حسين خوفا من سطوته، أضيفت إليها سطوة الدكتور لويس عوض المستشار الثقافى للأهرام أكبر جريدة وأشهرها فى الشرق الأوسط فيا للظلم الذى وقع علي هذا الرجل لمجرد اختلافه فى الرأى !

في انتظار الفرج

على أنه فى انتظارى لخروج محمود شاكر من السجن ..رحت أبحث فى الجزء الذى ظهر من «أباطيل وأسمار» وفى غيره من كتبه

ومقدماته لكتب غيره عن شخصية محمود شاكر نفسه ومافعلت به أقدار اختياره لهذه الحياة التى وهبها للدفاع عن حياض العربية وتراثها ، فوجدته قد قال عن مذهبه ومسلكه: «عندما التحقت بأول دور التعليم كان جيل «دنلوب» مستشار وزير معارف مصر أيام الاحتلال قد انتشر واستوي على سوقه ، وتولى هذا الجيل تعليمهم ، وصار له رأى ظاهر ، في سياسة بلاده فلما انفجر الأمر انفجارا ووقع النزاع بين الفطرة السليمة التى تسكن في قلوب الشعوب وبين ثقافة المحتلين التى تضرب على الأعين غشاوة، وعلى القلوب سدا صفيقا من الجهل والغطرسة ، قامت ثورة نة ١٩١٩ . بيد أن هذا الصراع فهم على غير وجهه الصحيح، لأن مهارة المستعمر ودسائسه الخفية ومكره البعيد الغور جعل ظاهر الأمر صراعا بين أحزاب تريد أن تتولى الحكم تحت سلطان هذا المستعمر ، مع أن هذا الصراع فى الحقيقة ، كان صراعا بين حضارتين طال بينهما دهورا طوالا .. وكان صراعا بين العرب ودينهم وآدابهم وثقافتهم وبين أعاجم أوربا ودينهم وثقافتهم .

هكذا نشأ الفتى الذى تربى فى بيئة علمية وطنية وعربية وإسلامية أصيلة وفى نفسه صراع يشده إلى هذه البيئة ويقربه منها استعدادا شخصى ، يتبلور في شغفه ونهمه بكل مايتعلق بالقراءة وتحصيل تاريخ أمته وأدابها، واختياره موقف الدفاع عنها وعن ثقافتها وبين ثقافة المحتلين وصنائع دنلوب التى كانت تحاول أن تلقى على القلوب غشاوة من الجهل، لكن محمود شاكر كان قد اختار ، وكان عليه أن يتسلح للحرب الضارية الطويلة .. وساعده على خوض غمارها قدرة فائقة على

الاستيعاب وأصالة وعمق فطريان وذاكرة حديدية ، وجدية لاتقبل الوسطية أو الدبلوماسية . مع رغبة شديدة فى التحصيل حتى أنه كان يتوجه بعض دروس الأزهر بعد الفراغ ، من دروس المدرسة الأميرية التى التحق بها وكان بالقسم العلمى ، وقد أحدث له ذلك مشكلة عندما رغب فى دخول كلية الآداب بعد حصوله على البكالوريا ، ومن عجيب الأقدار أن يتحمس له عميد كلية الآداب وكان آنذاك الدكتور طه حسين الذى أقنع الدكتور لطفى السيد مدير الجامعة بإلحاقه بكلية الآداب ، فهو صديق لوالده ويعرف عن الطالب إدراكه لعبقرية اللغة بعد قراءته لسان العرب ، وإعادة قراءة كتاب الأغانى مرات ومرات .. بجانب اطلاعه الواسع فى علوم الفقه والتفسير والحديث والتاريخ مما أهله لأن يعرف طريقة للنشر ويصبح اسما معروفا قبل التحاقه بالجامعة من خلال بحوثه وتحقيقاته وقصائده .

التحاقه بالجامعة
واصدامه بالأستاذ

وعندما التحق الفتى بالجامعة ، دخلها ومعه كذلك ثورة الشباب وأحلامه وتهاويله .. دخلها ومعه أيضا كل ما كتبه المستشرقون من مرجليوث إلى نيلينو إلى جويدى عن الشعر الجاهلى . ويقول عالمنا : إنه عندما جلس فى قاعة الدرس يسمع مصغيا إلى أستاذه الدكتور طه حسين . إلا أنه رغم أستاذيته وأفضاله عليه التى تملأ قلبه ، لم تأسره كلماته التى كان يرددها طعنا وتشكيكا فى الشعر الجاهلى .. بل

انقبض قلبه حيث طفا متن مقال مرجليوث فى الشك فى الشعر الجاهلى الذى كان قد قرأه من زمن مع كتابه عن سيدنا محمد واستسخفهما معا .. طفا كتابا مفتوحا يقرأ المتن بعينه ويسمع الحاشية على المتن بأذنه .. ولكنها حاشية من نوع مبتكر مبتدع جديد مباين للحواشى التى كانت مألوفة يومئذ عند طلبة الأزهر .. وتعجب الطالب لعدم ذكر اسم مرجليوث ولو مرة واحدة على لسان الدكتور طه فأخذته الحيرة حتى لم تدع له ولا لقلبه سكينة فسار على الجمر حافيا .. فهو طالب فى السابعة عشرة من عمره .. وأستاذه الدكتور طه حسين فى السابعة والثلاثين من عمره وله هيبته وهيمنته وله أفضاله عليه أيضا .. فماذا يفعل !! ؟

دارت الأيام والفتى يغدو ويروح وهو يسمع يوما بعد يوم بينما حقيقة معنى الجامعة فى نفسه يتقوض ، وينهار أمام عينيه .. فى خلال ذلك وجد نفسه يقف مجادلا الدكتور طه فى حقيقة منهج الشك ، وأنه لابد من فحص النصوص الجاهلية قبل الحكم عليها بالانتحال أو الوضع ، وما إذا كانت هذه النصوص مجرد شعر إسلامى افتعله الرواة ونسبوه إلى شعراء العصر الجاهلى ، فما أن أفصح عن رأيه حتى انتهره أستاذه وهو ينهى المحاضرة .

وتلفت فتانا فلم يجد أحدا من زملائه يؤيده كما تصور .. بل انفضوا من حوله خوفا من سطوة الدكتور طه أو جهلا بفحوى كلام

الفتى ، ولم يجد من يشد أزره يومئذ إلا الطالب محمود الخضيرى ولم يكن من زملائه فى القسم العربي بل من قسم الفلسفة ، فلا سطوة للدكتور طه عليه .

وهنا أدركت لم كانت تنويهات الدكتور مندور السابقة يوم سألته عن شاكر وذكر لى أنهما كانا زميلين بالقسم العربى أيام احتدام خلافه مع د . طه حسين .. ؟ وربما كان مندور من الطلبة الذين انفضوا من حول محمود شاكر ، رهبة من الدكتور طه وربما كان الأمر على خلاف ما نظن ، ذلك أن مندوراً كان يجمع فى هذه الأيام بين الدراسة فى كلية الآداب وكلية الحقوق .

بعد هذه المواجهة استدعى الدكتور طه حسين فتانا وعاتبه ، إلا أن الخلاف بينهما استحكم وتهاوت هيبة الجامعة فى نفس محمود شاكر بعد طرقات المعاول التى هدمت كل شيء بغتته ، ونفدت قدرته على الصبر .. فانقطع عن الدراسة ، فقد كانت فترة استفحال الخلاف بين محمود شاكر ود . طه حسين .. بكل ما صاحبها من صراع فرض نفسه فى هذه الحقبة على الفكر العربى وأيضا على نفسية الشاب الغيور الذى لم يكن قد تجاوز عامه التاسع عشر .. وهى فترة عارمة من الفوران ، حتى أفضى به احتدامها إلى استحصاد عزيمته على أن يهجر مصر كلها لا الجامعة وحدها .. غير مبال بإتمام دراسته الجامعية .. وعزم أن يسافر إلى مكة والمدينة طلباً للعزلة وتلمساً للحقيقة .

وعندما ذهب أحد أساتذته فى الجامعة وهو المستشرق الايطالى

«نيلينو» إلى مجلس والده فى محاولة لإقناع ابنه بالتعقل والعودة إلى الجامعة وأن يقفز فوق خطأ الدكتور طه حتى ينهى دراسته وكان من شهود هذه الجلسة عشرون ضيفا كلهم يعرفون جموحه ، فرد محمود شاكر على نيلينو : نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ، ومخاطرتى بمستقبلى ، ولكنى لم أكن كما وصفت إلا لشىء واحد وهو أن معنى الجامعة فى نفسى قد أصبح ركاما فإن استطعت أن تعيد لى البناء كما كان - أى يتراجع الدكتور طه عما ذهب إليه - فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه ، فتعجب نيلينو من هذا الاندفاع وقال : ما هذا ؟ ماذا تعنى ؟ ووجم أستاذه نيلينو ، وأحس الفتى بنظرات الحاضرين فى مجلس والده وكأنها السهام تنفذ فى جميع أعضائه .. وبغتة قال أحد الجالسين وهو الشيخ [1] عبد الوهاب النجار : «إن هذا الفتى كان فى رأسه أربعة وعشرون برجا ، فطاروا ولم يبق إلا برج واحد ، عسى الله أن ينتفع به .. أو يسترد الأبراج التى طارت ».

تأملت مليا موقف مفكرنا شابا . فها هو ذا لم يستسلم لصغر سنه أو يركن إلى كونه لا يزال طالبا قليل الخبرة عديم الحيلة . بل أفضت حماسته وغيرته على أمته العربية إلى أن يتخطى الأخطار فى عنفوان شبابه ، فقذف أحد هذه الأعمدة السامقة التى تبوأت مكانتها على ساحة الثقافة العربية والاسلامية وهو طه حسين بحجر أصاب مرماه ..

---

(١) مؤلف «قصص الأنبياء» الذى طبع عدة مرات واستفاد منه كثير من الباحثين والكتاب توفى سنة ١٩١٤ .

وكأن لسان حاله يقول : إذا كان قدر للعمالقة أن يسيطروا بطول هاماتهم ، فإن الارتفاع فوق هذه الهامات يجعل الرؤية أثقب والتحديق أشد وأنفذ .. وإذا كانوا قد قالوا إنه قد شارك في صنع سعد زغلول زعيما ، تجارب إنسانية وثورة شعبية كثورة سنة ١٩١٩ ، فقد رأى أنه شارك في صنع أحد أعمدة الفكر في زمنها - وهو طه حسين - ملامح شخصية سلطت عليها أضواء وأصباغ وديكورات ومؤثرات صوتية .. فانحصر همه في خلق انطباعات فارغة لا قناعات حقيقية .. وكان لزاما كشفهم وإلقامهم حجرا نافذا .. فكانت مراجعة الطالب محمود شاكر لأستاذه طه حسين وهو من هو .. فقد كان اسم طه حسين هو الجامعة نفسها .

نبهني هذا المشهد إلى شيء أدق وأعمق .. ذلك أن هذا المشهد صور فتانا واقفا وحيدا بين المتحلقين حوله في مجلس أبيه ، أحدهم يستصغر كلامه ويحاول إعادته إلى الجامعة ، وذاك يصفه بأن أبراج عقله قد طارت .. أي أنه مجنون ، وثالث ورابع ، وشبه يقين بأنه لن يجد سميعا أو نصيرا .. كيف تحمل هذا كله .. إنها كانت ولا شك محنة لهذا الشاب .. محنة تطحن النفس ، وتضعف الثقة بها حيث قيل «إنه من العسير على المرء أن يؤمن بشيء ، عندما يكون هو الوحيد الذي يعتقد به ، دون أن يستطيع أن يتحدث عنه مع مخلوق» لاسيما ورجلنا كان في التاسعة عشرة من عمره لا يزيد .. ثم إن محنته هذه ناتجة عن مواجهته لأستاذ يكاد يكون في سن أبيه .. ليس هذا فقط بل له هيلمان

وسطوة هو الدكتور طه حسين صاحب الجبروت المنصبى .. وألمع أساتذة الجامعة قاطبة .

إن وقع هذا الموقف على نفس هذا الشاب ، كان ولا شك أشد من وقع الحسام المهند ، كما يقولون ويهيأ لى أنه مهما بلغت قدرات هذا الشاب المعرفية لا يمكن أن تشد من أزره .. ولابد أن شاكرا فى هذه اللحظات بالذات قد اكتشف إلى أى مدى يمكن للمرء أن ينفصل عن غيره ، أقرانه وأهله وأصدقائه حتى بلده .

ولاشك أن شاكر أدرك فى هذه الجلسة أن الإنسان إذا أصابه الألم فإن ألمه هذا لن يمس أحدا غيره .. ولن يحس بعمقه سواه .. لأنه يسبب له وحده نزيفا داخليا لا سيما أنه ما من أحد حوله يمكنه أن يخفف من تدفقه ولو قليلا .. حتى وإن كان ممن يحبهم حبا عظيما كوالده وأصدقائه وأساتذته ، وكان عليه هو وحده مواجهة هذه المحنة والتصدى لها إذا استطاع أو أراد .. ولكن من أين له العزم والمقدرة وهو كان فى شبه غيبوبة – كما أتصور – دفعت به إلى حافة الهاوية .. وعلى شفا مفارقة الحياة ؟ .

هيأ لى أن هذا الحادث ، لابد أنه كان بعيد الغور فى تصاريف هذه الشخصية ، فهو بمثابة النار التى تعمل شدتها على تخليص الذهب من الشوائب العالقة به .. وأنه لابد أن يلقى بظلاله الكثيفة على حياة هذا الرجل ، كتابته على الأخص .. فكيف لى أن أكتشف أصداء هذا الحادث واستجلى دلالاته ؟ .

لم يكن أمامى إلا استقراء نبذ حياته المتفرقة فى كتبه ومقالاته التى كنت قد ألمحت إليها .. فلم يتبق لى إلا أن أعيد قراءة المقدمات التى قدم بها لكتب الآخرين مثل «حياة الرافعى» والظاهرة القرآنية» .. فعدت إليها أقرأ العناوين ، التقط المعانى ، أخطف السطور ، أطلع على الهوامش .. وأخيرا عدت إلى فهرس الأعلام فى الكتاب الأول . حيث اكتشفت ورود اسم محمود شاكر فى صفحات ١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ مع أنى عندما قرأت الكتاب أول مرة لم ألتفت إلا إلى ما جاء فى صفحات ١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، وهى خاصة بمقالات للرافعى كان قد كتبها بوحى أو بتحريض من رسائل محمود محمد شاكر . فمن المعروف أن الرافعى كان يسكن طنطا بعيدا عن الوسط الأدبى فى القاهرة وما يمور به من أحداث بينما شاكر فى وسطه .. وكان لزاما على شاكر أن يلفت نظر صديقه الرافعى بين الحين والآخر إلى ما قد يغيب عليه .. كواجب على المريد نحو شيخه كما عرفنا من المقدمة الرائعة البليغة التى كتبها محمود شاكر لهذا الكتاب نفسه التى استغرقت سبع صفحات ذكر فيها : «عرفت الرافعى معرفة الرأى أول ما عرفته ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد ، وعرضت هذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد خيراً مما كنت أرى ، وتبدّت لى إنسانية هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها فى ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبنى وأحبه .. لأن القلب هو الذى كان يعمل بينى وبينه ، وكان فى أدبه مس هذا القلب ، فمن هنا كنت أتلقى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثل منى بالأدب وأقوم على العلم وأبصر بمواضع الرأى» .

الفصل الثانى

حجر الزاوية فى شخصية شاكر

(قصة الإنتحار)

كنت أود أن أثبت هنا نص رسائل محمود شاكر التي حرض عبرها أستاذه الرافعي لإبداء رأيه في قضايا شتى لما تحمله من علمه بالفقه والنحو ومن الغيرة على دينه .. لولا أنها تبعدنا عن موضوعنا الأصلي .. تؤكد هذا المعنى ، وأن هذه الرسائل كانت وراء مبادرة الرافعي لكتابة مقالات من عيون الأدب حيث ينهى شاكر أحد رسائله للرافعي - حول تفضيل أحد الكتاب لعبارة جاهلية هى (القتل أنفى للقتل) على قول الله تعالى فى كتابه الحكيم «ولكم فى القصاص حياة» .. استنجد شاكر بالرافعي مستفزا إياه للرد عليه بقوله : «وأعلم أنه لا عذر لك أقولها مخلصا ، يمليها عليّ الحق الذى أعلم إيمانك به .. ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تتناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التى جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني .. ولست أزيدك فإن موقفى موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، وأذكر حديث رسول

الله صلى الله عليه وسلم : «من سئل علما علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار» أو كما قال والسلام عليكم ورحمة الله ثم وقع م . م . ش ..

ويصور العريان حالة الرافعي بعد أن قرأ هذه الرسالة بقوله : «أخذ يردد الحديث الذى ذكره محمود شاكر مرات ومرات وملأ نفسه بمعانيه .. وبعد الاحتشاد رد على الكاتب كما طلب منه شاكر «وقد التفت إلى هذه الرسائل عندما قرأت كتاب الأستاذ محمد سعيد العريان عن الرافعي أول مرة .. أما الذى جد لى عند قراءتى له بحثا عن ظلال محنة شاكر عند مفارقته للجامعة ، فهو ورود اسمه فى فهرس الاعلام فى الصفحات ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ لا سيما أنه استوقفنى يوم قرأت الكتاب لأول مرة لما بهما من رموز ، حيث كتب العريان ما يلي : «وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازا عنيفا ونقلته من حال إلى حال ، جلست يوما إليه نتحدث فى أحاديثنا فقال إن صديقنا «م» لم يكتب إلينا من زمن .. ليت شعرى ما منعه عنا ؟ إن بى قلقا عليه وفي نفسى أن أراه أو أعرف من خبره» .

وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض .. «أن شابا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده » .

«وقرأ الرافعي الخبر فأربد وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : اقرأ ، إنه هو ..»

قلت : «من تعنى» ؟

قال : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره .. غفر الله له .

«فجزعت وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغص بريقى «م» إنك لتتوهم وإنك مما تفكر فى شأنه ليخيل إليك . إن لصديقنا ديناً ، وإن فيه تحرجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يقدم على مثل هذه الجريمة» .

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان ، ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى «م» يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ، ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه ، وما حمله عليه وما آل إليه من أمره ، ولم ينس مع كل أولئك وما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التى لا يحسن أن يصفها إلا من أحس بها » .

ثم طفق الأستاذ سعيد العريان يتحدث عن «م» فيقول : وصديقنا الأستاذ «م» أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ، وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذود عن حرماته ، وهو شاب عزب بعيد الخيال دقيق الحس مرهف الأعصاب ، وعلى أنه يعيش فى ظل وارف ونعمة سابغة من سعة خياله ودقة حسه ، وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت فى وجهه

وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معانى الألم ، وما يرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريبا فى هذا العالم وبين هؤلاء الناس ، فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالما غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكانت بينه وبين الرافعى ود وله فى نفسه مكان ، فكان له سره ونجواه منذ كان فتى يافعا لم يبلغ العشرين ، وكان الرافعى يعتد بصداقته ويقر له ويعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

ويردف الأستاذ العريان فيكتب : «فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير ، وضاقت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينل لحادث مما لقى فى دنياه .. فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالاته الستة عن الأنتحار . المنشورة فى «وحى القلم» ولما لم يكن عندئذ يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ، فقد أخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ، فما جاء جواب الأستاذ «م» إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان «أبى محمد البصرى» وهو يعنى به الأستاذ «م» فهو هو وكلامه كلامه فى جملته ومعناه لم يغير منه الرافعى إلا قليلا من قليل - وقد بدأها كما بدأ سابقاتها بـ «قال المسيب بن رافع .. هذا هو ضيفنا «أبو محمد البصرى» يتخوض الناس ليجىء .. فيحدثنا حديثه فى قتل نفسه والإثم بربه ، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى

الأرض واصطبغ من ألوانـه أو حـالا وأقـذارا ، لكان هـذا كـهـذا فى تعاظمه وإنكاره . والعجب منه فـأبو مـحمد من الرجال الحُمُس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «إنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها ، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملا يخرجُ به من الكون .. ونعوذ بالله من خذلانه ، فلقد يكون الرجل المؤمن فى تشـــدده ، وإيغاله فى الدين ، كالذى يصنـع حبلا يفتله فتلا شديدا فيمره على طاق بعد طاق ، ليكون أشد له وأقوى ثم يجاذبه الشيطان حبله ، فإذا هـو كان فى الوهن مـثل العنكبوت اتخـذت بيتا فى سـقف حداد»...

هذا بعض ما رواها الأستاذ سعيد العريان عن قصة الاستاذ «م» التى رواهـا فى كـتـابه عن الرافـعى.. فى الجـزء الخـاص واسـتـشـهـاده بالمقالات التى كتبها الرافعى بوحى من رسائل محـمود شاكر له . فـهل يريد الأسـتـاذ سـعيد العريان أن يقـول لنا أن السـيد «م» هو الأسـتـاذ مـحمود شـاكر ؟ إن هذا غريب بالطبع .. ولكن التـعـجب هنا يجب ألا يمنعنا من تأمل اتفاق وجوه الشبه بين ما وصف به الأستـاذ سـعيد العريان «م» فى كتابه عن الرافعى ومـا وصف به نفسه الاستاذ محـمود شاكر نفسه فى كتبه وسـائر مقالاته .. وذلك فيما بين الاثنين من صفات شخصية وفنية ونفسية وخصائص الاسلوب .. ونهج البيان.. بل اتفاق فى النشأة فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه .

ولأن «م» العزب العف ركز فى رسـالته على الصراع الناشىء بين

العزوبة والعفة.. فقد تكهن الرافعى أن نفض إليد من الحياة كما يأتى أحيانا من عمل العقل إذ هو تحكم فى الدين يأتى البعض من عمل هذا العقل إذ هو تحكم فى القلب، وأن «م» ربما زاد من حيرته الثقافية أنه قد وقع أسير تجربة حب فاشلة.. لذلك أردف الرافعى العارف بكل أحوال تلميذه وصاحبه «م» الذى تمثل رسالته المقالة الرابعة عن الانتحار بمقالين عن الحب .

هذا وهذا وذاك كله يتضاءل أمام نقطة مهمة ، جاءت على لسان الرافعى «المسيب بن رافع» وعلى لسان الأستاذ «م» أيضا ووجدنا صداها بيانا عيانا عند محمود شاكر - فيما كتبه بعد ذلك بسنين - ألا وهى الزلزلة الدينية - حقا إن عملية وضع الإنسان نهاية لحياته كفر فى حد ذاتها - حتى أن الرافعى وصفها للعريان - كما أسلفنا - بقوله : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر غفر الله له، ، والمسيب قدم الاستاذ «م» بقوله : هذا هو ضيفنا أبو محمد البصرى يتخوض الناس يجيء فيحدثنا حديثه عن قتل نفسه والإثم بريه، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالا وأقذارا لكان هذا كهذا فى تعاظمه وإنكاره والعجب منه، فأبو الحسن من الرجال الحمس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «أنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعها .. كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تأبى أن يعمل عملا يخرج به من الكون ..

لذلك ركز الأستاذ «م» أو أبو الحسن البصرى فى كلامه الموجه إلى المسيب أو الرافعى على أنه «ينبغى للمؤمن أن يكون فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة فهو أبدا محترس . «فلو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإسلام المقتدين به، لأدركنا سر الكمال الانسانى وهو أن يقر الإنسان فى عالم نفسه ، ويجعل باطنه كباطن كل شىء إلهى .

هذا كله ما أثاره كتاب العريان عن الرافعى الذى كتب محمود شاكر مقدمته. ترى ماذا جاء فى هذا الشأن فى كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبى الذى كتب مقدمته أيضا ؟.

فى «فصل فى إعجاز القرآن» وجدناه يقول عن الطريق الذى سلكه المؤلف فى وضع كتابه : وقد صهرتنى المحن دهرا طويلا .. فاصطليت بالأسباب التى دعته إلى اتخاذ منهجه - اى مالك بن نبى - فى تأليف هذا الكتاب ، ثم أفضيت إلى الغاية التى أرادها، بعد أن سلكت إليها طرقا مخوفة، وقد قرأت الكتاب وصاحبته، فكنت كلما قرأت منه فصلا أجدنى كالسائر فى دروب قد طال عهدى بها ، وخيل إلى أن مالكا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط فى مثل الفتن التى سقطت فيها من قبل ثم أقال الله عثرته بالهداية .

وعن منهج الكتاب، قال : «وهذا المنهج الذى سلكه مالك ، منهج مستمد أصوله من تأمل طويل فى طبيعة النفس الإنسانية، وفى غريزة التدين فى فطرة البشر ، وفى تاريخ المذاهب والعقائد التى توسم

بالتناقض أحيانا ولكنها تكشف عن مستور التدين فى كل إنسان، وفى خلال هذا المنهج تستعلن لك المحنة التى عاناها مالك كما عانيتها أنا».،

أما عندما ذكر الاستاذ مالك قضية الشعر الجاهلى (١) بأدواتها ومناهجها - فقد أكد محمود شاكر أنها تركت فى العقل الحديث وفى العالم الإسلامى اثرا لا يمحى إلا بعد جهد جهيد ولذلك أشار على المؤلف : ولا تحاكم مرجليوث وأشياعه إلى رأيك ونظرك بل دع محاكمته لمستشرق مثله هو «آربرى» الذى فنده فى خاتمة كتابه «المعلقات السبع» بقوله : إن السفسطة وأخشى أن أقول الغش فى بعض الأدلة التى ساقها الاستاذ مرجليوث أمر بين جدا، ولا تليق البتة برجل كان ولا ريب ، من أعظم أئمة العلم فى عصره . وهذا حكم شنيع . لا عن مرجليوث وحده ، بل على اشياعه وكهنته وعلى ما جاءوا به من حطام الفكر» .

★★★

ولهذا وذاك ظلت محاولة محمود شاكر تمور فى نفسى وفى خاطرى إلى أن تعرفت على شخصيته الآسرة بابتسامتها إقبالا على الحياة وحفاوة بكل من يدخل بيته ، حيث لم يبد كل هذا فكرتى عنه التى كنت

---

(١) فس سنة ١٩٩٦ أب يعد ٧٠ عاما من مصادرة كتاب الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين الذى هو صدى لأقوال مارجليوث . أحتفل المجلس الأعلى للثقافة بصدوره وتبارى ٤٠ باحثا فى تجلية ما آثاره هذا الكتاب فى السياسة والثقافة وما جازه المثقف العربى من استثارة .

قد أيدتها بكثير من البراهين فقط بل أحالتها إلى محض تفلسف وجموح فكر .

ولكن ما أن صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى إلا ووجدته يجابه القراء وكل من يهمه [١] الأمر ببيان هام حيث قال : «أعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى فى حيرة زائفة وضلالة مضنية وشكوك ممزقة حتى خفت على نفسى الهلاك وأن أخسر دنياى وآخرتى . محتقباً إثماً يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت فكان كل همى يومئذ أن التمس بصيصا أهتدى به إلى مخرج ينجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىّ من كل جانب، فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى ١٩٢٦ إلى أن بلغت السابعة والعشرين ١٩٣٦ ، كنت منغمسا فى غمار حياة أدبية ، بدأت أحس إحساسا مبهما أنها حياة فاسدة من كل وجه ، يومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذاء ماضية، أن أبدأ وحيدا منفردا رحلة طويلة جدا وبعيدة جدا وشاقة جدا ومثيرة جدا».

ولا شك أن هذا الاعتراف الجلى الواضح الذى أذاعه محمود شاكر هنا.. يعكس فى الأساس آثار الأزمة الثقافية التى ترسبت فى نفسه من انغماره فى الحياة الادبية الفاسدة من كل الوجوه والتى نكأ جرحها أطروحات استاذه طه حسين حول الشك فى الشعر الجاهلى ،.حيث مال الميزان واهتزت مثله العليا متمثلة فى هيبة الجامعة أيضا ومكانة استاذه التى احتلت فى قلبه مكانا خاصا كذلك .

---

(١) وكأنه احس بأن كثيرين قبلى قد استشفوا حدوثها أو استنكروها ففضل أن يقولها بلسان نفسه .

وعندما تسقط المثل العليا يبدأ الانسان فى فقد الثقة بنفسه وفيمن حوله وخصوصا إذا كانت هذه الصور والاشكال من المثل العليا، تتعارض جذريا مع مثل عليا أخرى أكثر رسوخا فى نفسه وهى المثل العليا التى يمثلها دينه وعروبته .

وعلى ما يبدو فقد تطلبت منه الأزمة صراعا قاسيا يتنقل بين الحب والكراهية وبين الحيرة المدمرة التى كانت تستوجب عليه أن يضحى بواحد منهما فكان عليه أن يختار أى الجانبين ، فاختار العروبة والإسلام مضحيا وملقيا - بعد صراع طويل وقلق ناشب فى النفس - بكل أشكال الفساد من حوله وبصورة الجامعة وشخص استاذه الذى يكن له التقدير .

ولا شك أن هذا القلق قد ولد لدى الاستاذ محمود شاكر شعورا غامرا من الإحباط الذى يولد فى كثير من الاحيان شعورا قويا بالعدوان حتى ليمكننا القول إن محاولته الانتحار هى فى جوهرها عدوان موجه إلى الآخر عبر الذات.. فهو حينما كان يحاول قتل نفسه.. كان كمن يحاول قتل من يريد أن يوجه إليه عدوانه عبر فساد المجتمع وصورة الجامعة وشخص أستاذه باعتبارهما الآخر الذى يحتل جزءا من ذاته - حتى ليمكننا ان نعتبر قتل الآخر فى صورة الذات هى قطيعة نفسية سيكولوجية ، أو نفى تلك الذات الأخرى وميلاد آخر جديد مغاير ومختلف وأيضا لذات جديدة مغايرة ومختلفة .

أو قل هى محنة تشبه الموت الذى يعقبه الميلاد ، أو الموت الذى يعقبه البعث.. لا سيما أنه فى هذه الفترة القلقة من حياة الشباب ،

تستبد بهم الرغبة فى الاستقلال عمن يؤثرون عليهم. ويتأثرون بهم سعيا منهم ورغبة فى تأكيد ذواتهم.. حتى إننا يمكن أن نؤكد دون عناء أن عثور محمود شاكر واهتداءه لمنهجه الفكرى التذوقى الخاص به بعد ذلك ، هو النقيض لمنهج استاذه سواء فى الشك أو فى دراسة الأدب العربى كتاريخ .

إذن فالتذوق بلا شك هو ثمرة هذه المحنة وعطاء هذه المشقة القاسية التى عصفت به حتى كادت أن تؤدى به إلى الهلاك .

نهضة عقب كبوة

نعم .. فتتابع وقائع حياة محمود شاكر تقول إنه بعد عودته من بلاد الحجاز ولم يتجاوز العشرين إلا قليلا. وهو السن الذى يكون فيها الإنسان قادرا على إجراء اكتشاف ما، ولأنه كان يلتمس بصيصا يهديه، أو إلى مخرج ينجيه من قبر الظلمات من كل جانب.. وسرعان ما تماست حيرته هذه فى نفسه إلا والتحمت مع موهبته وذكائه وغزارة اطلاعه .. فنجمت فكرة البحث عن منهج خاص به يجد فيه خلاصه .. وهو ما عبر عنها بقوله(١) : «يومئذ طويت نفسى على عزيمة حذاء ماضية أن أبدأ ، وحيدا منفردا ، رحلة طويلة جدا ، وبعيدة جدا ، وشاقة جدا ، ومثيرة جدا ..

«بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله ، أو ما وقع تحت يدى منه

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا .

يومئذ على الأصح ، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأنى أقلبها بعقلى واروزها «أى أزنها مختبرا» بقلبى وأحسها جسا ببصرى وببصيرتى وكأنى أريد ان أتحسسها بيدى وأستنشىء «أى أشم» ما يفوح منها بأنفى وأسمع دبيب الحياة الخفى فيها بأذنى ، ثم أتذوقها تذوقا بعقلى وقلبى وبصيرتى وأناملى وأنفى وسمعى ولسانى، كأنى أطلب فيهما خبيئا قد اخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته واتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوا أو سهوا تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمد أو إرادة» .

ورغم هذه المشقة والضنى فإن محض محصلتها كانت على حد قوله :

«واكتسبت يومئذ بعض الخبرة بلغة الشعر وبفن الشعراء وبراعتهم ، ثم انفتح لى خلال ذلك، باب آخر من النظر ، قلت لنفسى «الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه.. فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل الذى وصفته آنفا فأخذ أهبته لتطبيق هذا التذوق على كل كلام ما كان هذا الكلام».

ولأنه ربما استهول طول الرحلة التى سيجتازها .. وعمق وزخم ما سيقرأه استعداداً لها .. أى قراءة كل ما يقع تحت يده من إرث أجداده العظام، هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه، وأصول دين وملل ونحل إلى بحر زاخر من الأدب والنقد

والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأ الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافيا.. وكل هذا يمثل طريقا وعرا متشعب المسالك محيراً. هل يواتيه الوقت للسير فيه إلى نهايته ؟ أم لا فيتخلى عنه . ولاسيما أنه كان يشعر وهو يكرس حياته لهذا العمل بمعاناة إنسان يضع لنفسه مبادىء سامية ليبشر بها بعد ذلك فى سهولة ويسر .

ذلك أن خطر الانتحار يزداد كثيرا عندما يبدأ صاحبه في التحسن من حالة ما – وهي هنا البحث عن خلاصه بأن يرفض متخوفا حذرا شيئا فشيئا ، أكثر المناهج الادبية والسياسية والإجتماعية التى كانت تقوض كل قائم في نفسه وفطرته. كما قاله هو فى مقدمته للمتنبى . «إذ يكون الصراع بين الرغبة فى الحياة ومواصلة الرحلة التى بدأت والعزم على التخلى عن مشروعه.. إذ ذاك فى أحد أدواره» .

والشاهد أن إنقاذه من الموت هنا كان مدخله للإقبال لإقباله على تأصيل منهجه وهو أكثر صلابة وقوة ، باعتبار أن التجربة التي لا تميتني تقويني .. بدليل أن الاستاذ «م» هون من سخط المسيب إقدامه عن الانتحار بقوله : «لا يفزعنك أيها الشيخ فان الله تعإلى قد يجعل ما يحبه فيما نكره نحن ، وقد نسمى النازلة تنزل بنا خسارة وهى ربح، أونقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسرت لتجديد الفكر» .

زد على ذلك قول «م» أو محمود شاكر بعد أن أفاق من غيبوبة الانتحار ثم جدد إيمانه: «ولم أكد أفعل حتى احسست كأن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحى، وخُيل إلىّ أنى أنا وحدى القوى على هذه

الارض قوة جبالها وصخورها على حين كان جسمى ممددا كالميت لا يتماسك من الضعف. فأيقنت حينئذ ما لم أعرفه قط فى الدنيا ، ولم أشعر به قط فى الحياة، ولم يأتنى به علم قط من الدنيا.. أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد ، المتصل بالله لتوه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة أو يعترض خاطره أو تكدره ذرة واحدة من فكر أرضى دنس .

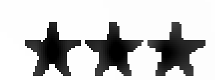
★★★

قد نكون قد أسهبنا فى التغلغل داخل تفاصيل هذا الحادث ، ومابدر منا ذلك إلا لأننا اعتبرناه حجر الزاوية فى شخصية محمود شاكر ، لأن ما يصنع الكاتب هو جملة تحيزاته حتى لنسأل على منوال ما قاله الاستاذ كمال النجمى سابقا : هل حدث قط فى تاريخ الادب العربى، أو فى تاريخ الأمة العربية من المحيط إلى الخليج أن وضع أديب رأسه على كفه مقابل تغيير الفساد من حوله .

وهكذا اتسعت خطواته ولوجا إلى كل قول كما نفهم من قوله : «فاقدمت إقدام الشاب الجرىء على قراءة كل ما يقع تحت يدى من كتب أسلافنا التى سجلناها آنفا ، عندما تكلمنا عن أثر تكأكؤ هذه الكتب فى كل هذه العلوم حوله . فشك فى قدرته أو موافاته بالوقت الذى ينجزها فيه – وشيئا فشيئا ومع تجدد إيمانه بعد حادثة الإنتحار واحساسه أن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحه انفتح له الباب يومئذ على مصراعيه فيقول: «فرأيت عجبا من العجب» ..

وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خافتة كالهمس ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت ، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول . أمدتنى هذه التجربة الجديدة بخبرات جمة متباينة متشعبة ، أتاحت لى أن أجعل منهجي فى تذوق الكلام منهجاً جامعا شاملا متشعب الانحاء والاطراف يزداد على تطاول الايام رحابة وسعة ، وحدة ومضاء، ونفاذا وشمولا واستقصاء، أى أن هذه المحاولة قد أدت إلى التطهير والبعث الروحى كما تعبر الدراما إليونانية ولم تكن محاولة إقدامه على الموت من القلب.. لأن المنتحر يضع خطة الانتحار وضعا محكما كما ينتقى خطة التنفيذ بصرف النظر عما تسببه من ألم وعذاب وطريقة محمود شاكر التى جاءت نتيجة لحيرة واتته ربما وهو يحلق ذقنه بالموس ويرى وجهه وقد تكلح فى مرآة الحمام التى وجدته اخته فيه على نحو ما سمعت! .

هى حيلة اذن لجأ اليها لاستنجاد نصير ، بعد أن اعترف لنفسه أن كل الاحداث من حوله تتسرب ، وتبتعد عن الحياة العربية والإسلامية التى ينشدها لأمته وإلى أن يُعترف بهذا العبث، فقد أصبح هذا الاعتراف أشد النزعات إيلاما على نفسه، وهو منفرد بهذه الرؤية وحده ، وقد نجحت هذه الحيلة فى تحقيق مقاصدها الى حد ما، فقد كتب له الرافعى كما لابد أن انتبه له غيره.. واستطاع بعدها كما قرأنا فى اعترافه أن يقف ويتماسك على هذه القنطرة المدوخة .. فعرف أنه بقدر ما يرفض هذا العبث يغنى نفسه .



ولسائل أن يسأل كما تساءلنا متى وقعت هذه المحاولة؟ من الواضح أنها لم تكن رد فعل مباشر لمقاطعته الجامعة - ففيما كتبه في «المتنبي ليتَّني ما عرفته»: أما مسألتي مع الدكتور طه في الجامعة في ذاتها فغير قادرة أن تنشيء بيني وبين الدكتور طه خصومة، وأيضا لم يكن لها أثر يمكن أن يحرك خصومة، ولا هي بعد جلسة والده التي تلقىٰ فيها ما تلقي ، ذلك أن عمره كان وقتها سبعة عشرة عاماً . فقد قال الاستاذ العريان : كانت مقالة كفر الذبابة التي هي ضمن المقالات التي كتبها الرافعي بوحي من محمود شاكر هي آخر ما أملى على من المقالات ، وذلك في صيف ١٩٣٥ ثم تجافينا بشأن ما .وكان آخر مجلس لنا في قهوة «بول نور» مع الاصدقاء محمود شاكر وزكي مبارك وكامل حبيب والسيد زيادة .. ثم افترقنا بعد منتصف الليل .

ويهيأ لي أن هذا الحادث وقع وهو يضع اللمسات الأخيرة في منهجه أي في أواخر ١٩٣٤ أو بداية ١٩٣٥ .. وهناك سؤال ملح لماذا كان في هذا الوقت بالذات دون غيره ؟

لأنه إذا كان عام ١٩٣٦ كان آخر عام قضاه محمود شاكر - كما قال في اعترافه حيرة زائغة وضلالة مضنية ، فإن عام ١٩٣٦ كان أيضا هو عام صدور العدد الممتاز من المقتطف عن المتنبي : وهو أول عمل طبق فيه شاكر هذا المنهج فنجح نجاحا ساحقا . وقرظه الرافعي وقرظ المقتطف بكلام باذخ نأتي عليه في حينه و.. دعنا نعمل العقل في هذه الحادثة .

وحتى لا نتهم بأننا نأخذ جانب الاستاذ محمود شاكر نسأل عن كنة الحيـــاة الادبية الفاسدة من كل الوجوه التى وضع رأسه فوق كفـــه مقابل تغـييرها ؟ لاسيما وأن عمره بالنسبة لعمرنا الآن كان عصر الأنـــوار المتألقة بأمير الشعراء وأمير البيان، ومارد الفكر وكاسح النقد و ..

هل كان الاستعمار هو همه ؟ أم فساد المستشرقين ومن لف لفهم لإرثنا هو فزعه ؟ أم المناهج الدراسية التى وضعها دنلوب هى أزمته؟ هل كانت ألاعيب السياسة والقصر ؟ ثم ما هو النظام الصالح الذى كان ينشد محمود شاكر تحقيقه ؟ هل كان يحلم بتكوين قرية نموذجية عربية إسلامية فى القرن العشرين كما تخيل سيد قطب فى أحد كتبه ؟ أم تحقيق نظام شمولى إسلامى أو تحتمى - كما فعلت إليمن فى فترة إنغلاقها - بالعزلة الكاملة عن الحضارة الوافدة بحلوها ومرها ؟ أم هل كان يتصور أن يعيد - بمفرده الأمة العربية إلى سابق أمجادها فى عصـــر الخلفاء الراشدين أو الدولة العباسية فى قمة إزدهارها .. أو..؟ أو ... وغاب عنه أن نكبة الأمة العربية جاءت من التوارث - كما يرى البعض - يوم أخذ معاوية الخلافة غصبا ليزيد .)

إن سنة الحياة هى التطور ، والإسلام بناء وتقدم أى حضارة، وقد جاء فى الأثر «ربوا أولادكم لزمان غير زمانكم.. «والاستعمار والمستشرقين والاعيب السياسة والقصر كل أولئك لم يحل دون ارتفاع الآذان والجهر به للصلوات خمس مرات فى إليوم الواحد. ولامنع

المسلمين من إمعان الفكر في معاني القرآن الكريم الذى يسمعونه صباح مساء.. فلم يفقدوا مع كل ذلك روح الاسلام التى تحول دون الهدم حتى لثقافة الغرب وفقا لما جاء في الأثر أطلبوا العلم ولو فى الصين» .

إن استقراء كتابات محمود شاكر تنبينا على أن رغبته لم تكن فى التغيير الفجائي.. لأنه رأى بنفسه أن فكرة التغيير سرعان ما ترتد على صاحبها كما ارتدت آراء الدكتور طه حسين في تعميم الشك فى الشعر الجاهلى حتى كادت تعصف به.. وإنما كان كل أمله فى أن تتمسك الأمة العربية بشكل أفضل بتقاليدها وقيمها العريقة فى مواجهة التحديات الحضارية الوافدة !

فقد وصف فى كتابه «أباطيل وأسمار» ، ما أفزعه وجعله يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه لأنه رأى الأمة العربية تنشق عن كل تاريخها الماضى وتساق إلى مجزرة نصبها لها الإستعمار وهو فرح بها نشوان ...



الفصل الثالث

اسلوب شاكر ومعاركه

يهيىء لى أن حصول شاكر على البكالوريا شعبة الرياضيات كانت من عوامل إثراء أسلوبه مع تفوقه فى دراسة العربية .. ذلك أن التماس الذى حدث بين العلمين المختلفين كونا فى نفس شاكر مزيجا فكرياً مبدعاً لا يدانيه فكر فى قوته المخصبة .. ولما ابتل ريق شاكر وامتص حلاوة تفوقه فى رياضة المرحلة الثانوية بروية وتمهل ثم تبعتها حلاوة تفوقه فى دراسة السنة الثانية قسم عربى كانت حصيلتهما إثراء وجدانه عن كل ما حوله ، فقد كتب فى صفحة ١٤ فى منهجه التذوقى حول أسلوب توصله للفرق بين الشعر الجاهلى وغيره يقول : كلما فرغت من ديوان شاعر منهم بدأت صحبة شاعر آخر ... وكلما وجدت الشاعر جاهلى علاقة ما بشاعر جاهلى آخر ، صحبت ديوانه بعده أو معه ملتزما بهذا النظام الذى هدانى إليه ولوعى بالرياضيات فيما أظن .. مما يدل على أن الفن والفكر لا يثرى على أساس الفروض الشكلية .. وإنما على استصفاء منابع الإبداع وهى واحدة فى كل فن

وعلم – أو على حد تعبير محمود شاكر نفسه فى كتابه أباطيل وأسمار : «علمنى كتاب سيبويه يومئذ أن اللغة هى الوجه الآخر للرياضيات العليا» .

وقد وصف الكثيرون أسلوب محمود شاكر ، نختار ، ما قاله تلميذه الدكتور محمود الطناحى حيث كتب : «إن أسلوبه يبهرك جماله فيعجزك عن وصفه ، وغاية ما أستطيع أن أقوله عن هذا الأسلوب الذى لا يشبهه أسلوب لا فى القديم ولا فى الحديث إنه أسلوب إنحدر من سلالة كريمة وأن قدرته على التذوق التى واتته بعد دربة طويلة متوارثة ، انطلقت من الشعر الجاهلى الذى هو أنبل كلام للعرب وأشرفه بعد القرآن الكريم ثم استقرت عند القرآن الكريم الذى كان نزوله على النبى العربى حادثة فى تاريخ البشر ، وقد نمت هذه الدربة عند شيخنا بطول مدارسته للقرآن الكريم الذى هو البيان الإلهى الملفوظ وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربى فى ترجيعه ونغمته فى الدلالة والألفاظ والتركيب والصور» .

وأساس البيان عنده هو دقة التذوق إذ يقول : «ونحن أبناء هذا اللسان العربى المبين قد قام أصل حضارتنا على التذوق فى الجاهلية الغابرة وفى الرسلام الباقى بحمد الله وحده وبلغ التذوق بنا مبلغا سنيا فريداً .

وحين بدأ تشققه وتبعثره بدأ معهما التدهور والإدبار فواجبنا اليوم أن نعيد بناء أنفسنا على ما بنيت عليه حضارتنا من دقة التذوق ، وأن

يكون التذوق أساس عملنا الأدبى فى آثار أسلافنا وإن كلمات أخبارهم التى أثرت عنهم بالفحص «الناقد وأن ننفض غيب كلماتهم بالتذوق ونتوسم بالتفرس فى معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرها عن هذه السرائر المغيبة المحجوبة فى طواياها» .

ويواصل الدكتور الطناحي تهاونه : وأسلوب الشيخ أديب يمتع قارئه ولا يتعالى ، ثم هو أيضا أسلوب أديب يحترم عقل قارئه ، فلا يبهظه باللغو من الكلام ، ثم هو يريحه بكثرة الإحالات إلى ما مضى من الكلام ليجعله على ذكر من القضية التي يعالجها ولا يتركه حتى يعينه بتلك الشروح اللغوية التى تلتحم بالكلام إلتحاماً .

ولعل ما عثرنا عليه فى كتاب شاكر «طبقات فحول الشعراء» ما يثبت ذلك – أى إقباله على التحصيل – حيث يحكى علامتنا عن أيامه قبل دخوله الجامعة فيقول : ففى سنة ١٣٤٣ هجرياً – سنة ١٩٢٥ ميلاديا ، تقريبا – ولاحظ كيف يقدم علامتنا فى كتاباته التاريخ الهجرى تاريخ آبائه وآبائنا .. ثم يضع التاريخ الميلادى بين قوسين لأنه تاريخ الأمة المسيحية والوثنية كما يربط بينهما دائما لا سيما المسيحية الغربية يقول : عاد السيد أمين الخانجى من رحلته إلى العراق وغيره من بلاد العرب ، وقد جمع من نوادر المخطوطات شيئا لا يقدر بثمن ، وكان بينها صناديق فيها أوراق شتى «دشت» وذات يوم أقبلت عليه فى دكانه ، فإذا به يخرج لى ورقة حائلة اللون ، وسألنى : أتعرف هذا ؟ فما كدت أقرأ أسطرا حتى عرفت أنها من كتاب طبقات الشعراء .. لأبى

عبد الله محمد بن سلام الجمجى ، وكنت حديث عهد بقراءة الكتاب فاستطرت فرحا بما عرفت ، وقمنا معا إلى هذه الصناديق المبعثرة والأوراق ، نفرزها ورقة ورقة يوما بعد يوم ، حتى جمعنا من أوراق كتاب الطبقات قدراً عظيما ، فلما فرغنا ، أمرنى رحمه الله أن آخذها فأرتبها وانقلها ، مخافة عليها من مثل ما كانت فيه ، ومن عوادى البلى عليها ، إذ كانت عتيقة الورق ، وفعلت مقصراً متراخياً ، فلم أتم نقلها ، وبقيت بقية من أوراق المخطوطة لم أنقلها وطال الزمن ، فسألنى السيد أمين رحمه الله ، أن أرد إليه الأم العتيقة قبل تمام نقلها ، فرددتها إليه ، ولم أخبره بما كان منى من التقصير والتراخى .

– ودارت بى الأيام وفارقت مصر فى سنة ١٣٤٧ (سنة ١٩٢٨) من ثم عدت إليها ، وقد فتر ما بينى وبين الكتب زمنا طال وامتد – أحسب أن هذا الفتور عن النظر فى كتابة الكتب لا قراءتها – ثم لقيت أمينا رحمه الله ، فأخذ يستحثنى أن أعيد النظر فى كتاب الطبقات ، حتى أستطيع أن أعده للنشر ، فتراخيت ما تراخيت وهو يظن أنى كنت قد فرغت من نقلها ، وأظن أنا أن النسخة لم تزل فى حوزته ، ثم قضى أمين نحبه فى يوم الجمعة ١٩ جمادى الأول ١٣٥٨ (٧ يولية ١٩٣٩) وقد جاوز السبعين من عمره ، غفر الله له ورحمة ولم يخبرنى أين استقرت الأم العتيقة ، ولما سألت بعض ولده عنها ، لم أجد عند أحد منهم خبرا عنها ، ثم بدأت أبحث عنها فى مكانها من دور الكتب العامة والخاصة فلم أعثر عليها حيث ظننت ، وبقيت نسختى التى نقلتها حبيسة فى خزانة كتبى هذا الدهر الطويل ، حتى دعانى أخى الأكبر أحمد محمد شاكر ،

رحمه الله . إلى نشر هذه النسخة الناقصة ، فأستجبت له ، واستخرت الله وتوكلت عليه ، ثم بدأت فشرحت كتاب الطبقات ، وفرغت منه ، وتولت «دار المعارف» طبعه ، وكان الفراغ في عصر يوم الأربعاء ٣٠ من ذي الحجة سنة ١٣٧١ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٢م) .

وبعد ظهور الكتاب في الأسواق ، وبعد إهدائي نسخة منه إلى شيخنا وأستاذنا عبد العزيز الميمني الراجكوتي .. أطال الله بقاءه ، مضى زمن طويل ثم جاءتني منه رسالة يذكر فيها أنه قرأ في إحدى مجلات المستشرقين مقالة للأستاذ آربري المستشرق . فيها قراءة جديدة لكتاب الطبقات ، توشك أن تكون شبيهة بنسختي التي نشرتها من كتاب ابن سلام ، فلما اطلعت على المجلة أيقنت أن هذه النسخة التي أشار إليها آربري هي نسختي التي فقدت خبرها بموت أمين الخانجي ، فبادرت وراسلت صديقنا الدكتور محمد رشاد سالم وكان يومئذ تلميذا لآربري في انجلترا ، وسألته أن يوافيني منها بصورة وعلمت أنها في مكتبة «تشستربتي» ، فجاءتني المصورة ، فإذا هي نسختي وعليها خطي وتوقيعي ، كما أشرت في التعليق .

ومنذ وصلتني هذه النسخة المصورة ، جعلت همي أن أعيد طبع الكتاب تاما ، وكان من فضل الله عليّ أن ظفرت أيضا بمصورة أخرى لنسخة المدينة ، شرفها الله وصلى على ساكنها صلاة مباركة .. وظل العزم كامنا حتى أذن الله فمهد لطبع كتاب

الطبقات مرة أخرى على وجه يرضينى بعض الرضى ، والحمد لله أولا وأخيراً » .

وبعد أن قص علينا محمود شاكر قصة مخطوطة كتاب الطبقات ، جاء ببابة يقارن فيها بين المخطوطتين العائدة من لندن ونسخة المدينة من حيث عدد الأوراق وعدد ما فيها من الخروم ، وصفة الخط فيهما مغربيا كان أم مشرقيا ليدل على أن نسخة المدينة مختصرة عن نسخته وهى أشياء دقيقة فى تفاصيلها ، عسيرة التتبع لمن لا يعرف مشقة التحقيق - ولما كان المستشرقون من أوائل الذين قاموا بالتحقيق فقد وضعوا للتحقيق قواعد تسهل لغير العرب عملية تقريب الناقص من حروف المخطوط .. مثل معرفة لغة عصره .. من حيث مفهوم ودلالة الكلمة فى هذا العصر .. وجهة النظر العامة لصاحب المخطوط التى يجب معرفتها من الكتب والمجامع التى تكلمت عن فكره . إلا أن العلماء أصحاب اللسان الضالعين فى معرفة كل هذا بغير طريقة المستشرقين لهم الحق عن جدارة .. فى أن يخرج كل منهم بأسلوبه الخاص .. فى تكملة هذه النواقص .. إلا أن الذين لا يملكون هذه الموهبة .. خضعوا بالكامل لهذه الدروس التى كان قد أنشأها جماعة من أغتام الأعاجم فى زماننا .. فتلقنوها عنهم حفظاً عن ظهر قلب ، فإذا جاء أحدهم كتاب أو وقع فى يده - من عمل أحد الأفذاذ الذين كانت محصلة علمهم تفوق قواعد المستشرقين - نظر ، فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبقة فى هامش الكتاب فذاك «محقق» . فإذا لم ير أثرا ظاهرا فى هوامش

الكتاب يطابق المحفوظ من القواعد ، فهو كتاب «غير محقق» كتاب رديء جداً يقولها قائلهم كما وصفه علامتنا محمود شاكر : رافعا قامته مصعرا خده ، زاما شفتيه وأنفه - كهيئة المتقزز المتقذر . بهؤلاء وأشباههم ، تفشى وباء تحقيق الكتب «على هذه القواعد المحفوظة ، وشوه وجه الكتاب العربي هذا السيل الجارف بما تحمل من غثاء وجفاء وقذر هذا عجب !

★★★

ولأنه يصعب على غير المتخصصين إدراك مشقة التحقيق عند الأفذاذ فإليك لمحة منه وليكن فقط مجرد تسمية الكتاب .. فلأن علامتنا قد سمى كتاب ابن سلام الجمحى في الطبعة الأولى «طبقات فحول الشعراء» فقد عاب ذلك عليه كثير من أفاضل أهل العلم ، بحجة أن اسم الكتاب كان هو «طبقات الشعراء» ..

فما كان منه إلا أن رد على اثنين منهم فقط هما الاستاذ السيد أحمد صقر والدكتور مصطفى مندور فقال : «ومعذرة إلى الأستاذين الجليلين ، إذا خالفت ما آثرا من الرأى ، مرة أخرى لا لأنى غير مقتنع بما ذكرا من الحجة على فساد رأيي وقبح جرأتي بل لأن مصورة المخطوطة ، قد فصلت ما بيني وبينهما وكنت قد قلت في مقدمة الطبعة السالفة ، حين ذكرت أسباب عدولى عن تسمية الكتاب : «طبقات الشعراء» ما نصه و«آخرها» أنى رأيت على نسختى التى نقلتها بيدى هذا العنوان «طبقات فحول الشعراء» ، فلست أدرى بعد

هذا الزمان الطويل – أى قبل سفرته إلى السعودية سنة ١٩٢٨ م وعودته منها وكر الأيام والسنين ، بعد ذلك إلى سنة ٧٣ .. أكانت هذه الكلمة فى الأم العتيقة ، ثم نقلتها كما هى ، أم ترانى كتبتها من عندى ؟

ولا تظن هنا أن علامتنا يشك فى ذاكرته القوية .. لأنه عاد فقال : وأنا أرجح الأولى ، أى أن العنوان الأول كان «طبقات فحول الشعراء» ويدلل على ذلك بقوله : «لأنى كنت يومئذ صغيرا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى ولأنى كنت يومئذ فى أول الطلب ، وأجهل من أن أنظر نظراً صحيحا فى مثل هذا الأمر الدقيق ، المحتاج إلى التميز والبصر» .

«فالآن . وقد ظفرت بمصورة من المخطوطة ، ونشرت صورتها فى أول الأوراق المصورة ، بعد هذه المقدمة ، أجد أن الفصل فى القضية لا يحتاج إلى برهان أدعيه على رأى أراه استنباطاً ، بل ما فى المخطوطة هو الفيصل .. وكنت أتمنى أن تكون المخطوطة ، تحت يدى ، لأن معانيها تكون أدق وأوضح ، والتصوير يخفى بعض ملامح الحروف ، ومع ذلك فإن عنوان الكتاب فى المصورة التى عندى ، فيه وضوح كاف ، سأصفه بقدر ما استطيع من الدقة ، وقد رأيت على عنوان الكتاب تلطيخا أسود أخفى الباء والألف والتاء فى لفظ «كتاب» وبقى واضحا بعده الطاء والباء والقاف والألف من لفظة طبقات ، ثم جاء محو فأخفى جزءا من تاء «طبقات» وبقيت نقطتا التاء ظاهرتين ، وفوق ألف «طبقا»

رأس فاء جليلة واضحة ، وما بعدها محو ، ثم يظهر بعد المحو حوض اللام الممدود هكذا « – » ، وفوق هذا الحوض ظهرت الشين والعين والراء والألف ، من لفظ «الشعراء» فيكون بينا بعد هذا الوصف أن تقرأ ما فى المصورة . «طبقات فحول الشعراء» ، وأكاد أقطع اليوم أنى قرأتها كذلك لما كانت المخطوطة نفسها فى حوزتى سنة ١٩٢٥م وأنى لم أكتب على نسختى التى نقلتها بيدى لفظ «طبقات فحول الشعراء» إلا استنادا إلى وضوحها فى المخطوطة لأنى بيقين كنت يومئذ صغيرا لا أحسن الإجتهاد فى الرأى ، وأجهل من أن أنظر نظراً صحيحاً فى أمر تغيير تسمية «الكتاب» ..

وها نحن وقد جرنا التداعى .. فبينما كنا ندلل أن محمود شاكر عرف طريقه للنشر، بكلمة من مقدمته لكتابه «طبقات فحول الشعراء» نصل إلى ردود أفعال كتاباته ولذا نعود إلى محمود شاكر وهو على أهبة السفر إلى السعودية – وما أن استقر فيها حوالى عامين .. إلا وبدأ يتلقى من أهله وأصدقائه لا أساتذته رسائل تطلب منه الصفح عما أغضبه ويعود إلى البلاد – بعد أن كاد أن يتزوج هناك فلم يلبث.. أن حزم حقائبه وعاد إلى الوطن بعد سنتين قضاهما فى الحجاز.

لم يكتب الأستاذ شاكر عن هاتين السنتين فى أى من كتبه التى تناول فيها أجزاء من سيرته الذاتية، مع أن هاتين السنتين كانتا فى حياته بمثابة، رأب الصدع الذى أحدثه تركه للجامعة، ولم الشعث الذى

تتأثر عقب جلسة أبيه وهى مرحلة ضرورية. فنستنبط فحواها على هدى ما نعرف عن هذه المرحلة .

أولا : قبل أن يغادر مصر إلى السعودية كان قد انزاح عن كاهله الكثير، ذلك أنه بلا ريب كان قد قرأ فى الصحافة المصرية ، أن كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين قد ظهر أواخر سنة ٢٦، وهو الكتاب الذى حوى المحاضرات التى أثارت الحمية والغيرة فيه على العرب.. وعندما نشرت فصول منه فى الصحف، صدرت مؤلفات فى الرد على الكتاب بأقلام محمد فريد وجدى ومحمد لطفى جمعة (١) وشكيب أرسلان ومحمد أحمد الغمراوى ويوسف الدجوى وعبد المتعال الصعيدى ومحمد عبد المطلب وعبد ربه مفتاح ومصطفى صادق الرافعى وأغلبهم عند علامتنا أساتذة وأصدقاء.

لقد رفع، بنشر كل هذا، عبئا كبيراً عن كاهل علامتنا الشاب الواعد ، بل جعله يتأكد أنه صاحب نظرة ثاقبة وحس دينى لا يخيب ، فها هو ذا الجميع يؤيد آراءه التى طالما واجه بها طه حسين ولكن لم يعرف خبر هذه المواجهة إلا زملاؤه وأساتذته فى الجامعة ثم فى مجلس أبيه.

وامتدت المعركة فى الصحف حتى شهر سبتمبر ، وقامت المظاهرات متوجهة إلى مجلس الوزراء وخرج سعد زغلول ليخطب فيها ويقول : «إن

---

(١) حملت جريدة كوكب الشرق لواء الحملة التى بدأها شكيب أرسلان .. عندما أرسل مقالا من روما ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ تحت عنوان «التاريخ لا يكون بالإفتراض ولا بالتحكم» .

مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك، إن هذا الدين متين، وليس الذى شك فيه زعيما ولا إماما حتى نخشى على شكه من العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر (١) .»

ولكن الشعب لم يسكت إلا حين تحولت هذه القضية برمتها إلى استجواب فى البرلمان وتحقيقات النيابة، فقدم النائب عبد الحميد البنان نائب الجمالية اقتراحا فى ثلاثة أقسام إبادة كتاب الشعر الجاهلى إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة إلغاء وظيفته.

وقد سلم معالي وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلي باشا رئيس الوزراء عن القسم الثانى وجرت بينه وبين دولة سعد زغلول مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية .. انتهت بأن ذكر عدلي أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرف الحكومة وذكر مسألة الثقة بالوزارة.

وكان جو المجلس مشتعلا فاقترح النائب أحمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق ذهب سعد إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه عدلي ورشدى باشا، وبقيا معه عشر دقائق.. ولكنه كان متعبا فاستقل سيارته إلى داره وأشيع أن كثيرين من النواب سيعرضون مسألة مساس الدكتور طه بالدين كاستجواب لرئيس الوزراء أو ينتظرون إلى أن ينظر المجلس الميزانية.

---

(١) خطبة سعد في الجماهير نشرتها الأهرام في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦.

ونشرت الأهرام أن النائب عبد الحميد البنان قدم بلاغا إلى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين عما كتبه طعنا على الدين الإسلامى وقد تولى محمد نور بك رئيس نيابة مصر الجديدة حصره فى أربعة أمور.

كل هذا حدث قبل أن يغادر الفتى إلى الحجاز.. أما السنتان اللتان قضاهما هناك وفق استنباطى فتستغرقان مدة تخرج أقرانه وهو معهم حيث توقف عن الاستمرار فى مراجعة الدكتور طه حسين أولا - وثانيا أنه وجد فى عمله كناظر مدرسة تحقيقا لذاته.. ونجح من خلاله فى أن ينسى الماضى ويعيش فى الحاضر.. حتى عادة الحنين والشوق إلى ما هجره من الكتب التى تبحث فى الشعر الجاهلى الذى قد انشق بسببه عن الجامعة وانكب على دراسته فى بيئته، وكان لهذا وذاك مع الغربة أثره فى صقل شخصيته وتحويله من شاب ثائر حاد المزاج إلى شخص صلب العود مطمئن الفؤاد بالنسبة لماضيه، محصن ضد التحسر عليه وقد قر قراره على أن يجعل من نفسه يسعى للكمال والنجاح ما وسعه الجهد !

عودة إلى الوطن

عاد الفتى إلى أرض الوطن واندمج فى الوسط الأدبى ، وخالط أدباء وشعراء ذلك الجيل ابتداءً من أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كان يلازمه أياما ولیالی طويلة، إلى أبناء جيله يحيى حقى ومحمود حسن إسماعيل وصديقه العقاد وزكى نجيب محمود وغيرهم كثير

سيأتى ذكرهم فيما ارتبط معهم من أعمال، وتفرغ للكتابة فى الصحافة والمجلات الأدبية مثل الرسالة والثقافة والمقتطف والبلاغ والزمان، ولم تصرفه المقالات المتتابعة عن مواصلة العمل فى جانب من أهم جوانب حياته ، وهو نشر روائع التراث بتحقيق علمى وفق منهج مستقل عرف عنه وتلقاه العلماء بتقدير كبير.

لكن هل أبحرت به سفينة الحياة آمنة هادئة وسط الأنواء والعواصف ؟

الشاهد انه كلما أوغلنا فى عالم «شاكر» نكتشف أن حياة هذا المفكر ما هى إلا سلسلة متصلة من المعارك الضارية ، فعندما أفردت له المقتطف عددا خاصا بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المتنبى - كما ألمحنا سابقا - كتب أول دراسة لشخصية المتنبى من خلال آثاره الشعرية واعتبرته فيما بعد مرجعا أساسيا لدراسة شعر المتنبى.. لذلك .. وعندما أصدر الدكتوران عبدالوهاب عزام وطه حسين كتابهما عن المتنبى بعد عام واحد.. ارتفع الجدل والنقاش بين شاكر وغيره مرة أخرى حول الشاعر العباسى العظيم، وقضية الشعر العربى بوجه عام وكان شاكر انذاك فى الثامنة والعشرين من عمره.

وربما كان من القفز فوق الأحداث أن نقول : إن قضية المتنبى بين الرجلين أحدثت معركة حديثة. ذلك أنه عندما أعاد طبع هذه الدراسة مرة أخرى عام ١٩٧٧ مع إضافة أوجه اختلافه ومناقشاته مع الدكتور طه حسين وغيره.. كانت سببا فى فتح ملف هذا الجدل مرة ثالثة، وكتب الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة، فى

سبتمبر عام ١٩٧٨، يوازن بين كتاب المتنبي للدكتور طه حسين، وكتاب المتنبي للأستاذ محمود شاكر.. فقال معلقا «إنه لشيء محزن أن يصل اللدد في الخصومة، بين شاكر وطه حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه رجل جاهل وليس له بصر يتذوق به الشعر» مما أحزن شاكر.. فرد عليه بعدة مقالات نشرت في الرسالة تحت عنوان «المتنبي ليتني ما عرفته».

مما دعا شاكر إلى توضيح موقفه للدكتور دسوقي فقال : «أما عن مسألتي مع طه حسين في الجامعة في ذاتها فهي غير قادرة على أن تنشيء بيني وبين الدكتور طه «خصومة»، وأيضا، لم يكن لها، لا بالفعل ولا بالقوة، في نفسي أو في قلبي أو في عقلي ، أو في شيء مما أكتب، أثرا يمكن أن يحرك «خصومة» وإذا كنت ممن يخاصم الناس على آرائهم أو ممن يخاصم الآراء نفسها ، فأولى النا س كان بخصومتي هو مرجليوث صاحب المسألة وصاحب المتن.. أما الدكتور طه فلم يكن سوى ناقل لهذه المسألة.. وصاحب حاشية على هذا المتن لا أكثر ولا أقل، ولكن القضية التي نشأت عندي أنا وكانت محاضرة الدكتور سببا في نشأتها يوم كنت طالبا عنده في الجامعة، فهي «قضية السطو» على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم.. ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والإستطالة به على الناس.. وأبشع من ذلك انه ينكشف أمر هذا الغصب والسطو .. ويتسامع به الناس ويدل الكُتّاب والعلماء على الأصل المغصوب كتابة موثّقة منشورة، فلا يبالي الساطي بشيء من ذلك كله بل يزداد جرأة وتيها عما لم يقل، وكأن

ظهور سطوة فضيلة ترفع من قدره وتنوه به فى المجالس، أما أنا، مع أسفى واعتذارى.. فلم أعد هذا المسلك إلا احتقارا للناس أى احتقار وازدراء بهم وبعقولهم أى ازدراء ، وإنزالهم منزلة من لا يبصر ولا يسمع ولا يعقل ولا يحس».

ثم أنهى المقال بالرد على الاتهام الثانى فقال : «نعم أنا قلت مرارا لا أحصيها فى كتابى وفى مقالاتى عن كتاب الدكتور طه «مع المتنبى» أن الدكتور طه لا بصر له بالشعر «ولكنى لم أقل قط أنه لا بصر له بتذوق الشعر».

والجملتان غير متكافئتين فى المعنى حتى تغنى إحداهما عن الأخرى أو تقوم مقامها.. وأنا أعلم أن أهل زماننا يتساهلون فى كل شىء، ويتساهلون خاصة فى التعبير ، بلا تحديد ولا تحليل لألفاظ اللغة ، وكنت أحب لك أن لا تتابعهم على هذا التساهل. ولكنى أعلم أيضا أن هذه هى أيضا إحدى السنن التى سنها «الأساتذة الكبار» ، فغلبت على الناس وعلى ألسنتهم فأصابت منهم موقعا أغفلهم عن حقيقة الفساد الذى يجره التساهل».

المعروف أن الأستاذ زكى مبارك كان له نفس الرأى بأن طه حسين «لا بصر له بالشعر» وذلك فى أضخم معركة فى تاريخ الأدب العربى بين زكى مبارك وطه حسين ولكن الناس أيضا تنسى.. أو قل لا تقرأ تراثها الحديث.

أما عندما ظهرت فى سنة ١٩٤٢ الدعوات الهدامة، للدين ، والأخلاق واللغة التى صدرت عن دعوة هدم الدين.. ككتاب «فى الشعر

الجاهلى» لطه حسين فقد ظهرت بعض الكتب .. فى الرد عليه وكان الأستاذ شاكر هو أول من رد عليه وهو لايزال طالبا.. أما دعوة هدم الأخلاق فقد شملت الشرق كله لا مصر وحدها.. فتزلزلت نظمنا القديمة كالحفاظ على الأسرة.. كما يلاحظ أن الآباء فقدوا سلطانهم على الأسرة.. زد على ذلك موجة الإسراف والتبذير وانتشار المخدرات.. ثم انتشرت الصور العارية فى المجلات، من مجلة الهلال فنازلا - أو فصاعدا إن شئت لا أدرى - كما قال الدكتور كامل حسين مؤلف «كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» .. وانحرف على أثر كل ذلك التقاليد.. الشعر أيضا، كما طغت الرواية على سائر فنون الأدب حتى أهملت الشعر أو كادت.. وقد نبه إلى خطر هذا الانحراف بعض الكتاب، فأخذوا يلفتون إليه الأنظار فمن ذلك مقال لتوفيق دياب عنوانه «الأدب الماجن مفسد للناشئين»، كما أشار الأستاذ الغمراوى فى نقده التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى للقصص الفاضحة التى يترجمها طه حسين من آن لآخر يلهى بها كثيرا من النشء ويضل بها كثيرا.

الفصل الرابع

تفنيد شاكر الدعوة إلى العامية

وكانت إحدى الشعب من الدعوات الهدامة فى ذلك الوقت تتجه إلى اللغة العربية تريد أن تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب، تحت ستار من الرغبة فى الاصلاح وفى مسايرة الزمان الذى دخلت فيه الأجهزة الحديثة» فقد بدأت هذه الدعوة فى أواخر سنة ١٨٨١ حين اقترح أحدهم كتابة العلوم بلغة الحديثه.مما دعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه .. وفى ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها متحديا بلسان اللغة العربية :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية
وما ضقت عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

بعدها عادت المسألة من جديد سنة ١٩٢٦ .. حين دعا مهندس الرى الانجليزى فى مصر.. وهو السير وليم ولكوكس إلى هجر اللغة العربية، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم أجزاء من الانجيل إلى ما أسماه «اللغة المصرية» ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده، فثارت لذلك ثائرة الخاصة والعامة .

ثم بدا أن الدعوة آخذة فى الانتشار، حين سارت اللهجة السوقية فى المسرح الهزلى ، ثم انتقلت إلى المسرح الجدى حين تجرأت عليه فرقة رمسيس الفرعونية الاسم.

ولكن أعجب ما ظهر من ذلك فى هذه الفترة وأغربه، مما لا يخطر على البال، هو أن الدعوة قد استطاعت أن تتسلل متلصصة إلى الحصن الذى قام لحماية اللغة العربية الفصيحة .. والمسمى «بمجمع اللغة العربية» فظهرت فى مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن «اللهجة العربية العامية» كتبها عضو من أعضاء هذا المجمع اسمه عيسى إسكندر المعلوف، ولعل ما يدعو إلى العجب حقا أن يختار المجمع لعضويته رجلا معروفا بعدائه الصريح للعربية وهو عداء عريق ورثه عن أبيه الذى أعلنه وجهر به حين سجله فى مقال له نشرته «الهلال سنة ١٩٠٢ .

وليس هذا هو كل ما يدعو للعجب من أمر هذا المجمع . فقد تقدم عضو من أبرز أعضائه هو عبد العزيز فهمى - ثالث الثلاثة الذين

شكلوا الوفد المصرى إلى المجمع فى سنة ١٩٤٣ - باقتراح كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت ثلاث سنوات ونشر فى الصحف ، وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة العربية .

ألا يدعونا ذلك لأن نتساءل : هل أنشىء هذا المجمع لينظم جهود حماة العربية ، أو أنشىء ليكسب الهدم والهدامين صفة شرعية ؟.

وشبيه بموقف مجمع اللغة العربية موقف الجامعة العربية التى أصدرت لجنتها الثقافية فى ١٩٥٥ كتابا فى «اللهجات وأسلوب دراستها» لأنيس فريحه ، وموضع العجب أن الجامعة العربية هى جامعة اللغة العربية ، وأن اللغة العربية المقصودة هى اللغة الفصيحة التى تشترك فيها سائر الدول العربية . وهذه اللغة العربية الفصيحة هى وحدها الجامعة التى لا يستطيع أن ينكرها دعاة الشقاق ولا يستطيع أن يمارى فيها أصحاب الأهواء والأغراض غيهم ، فإذا تفرق الناس فيها وذهب كل بلد بلهجته . لم يستطع بعضهم أن يفهم عن بعض فينفرط عقدهم . وهل وجد الكومنولث إلا نتيجة للغة الانجليزى المشتركة بين دوله ؟ أليس عجيباً أن يستغل منبر الجامعة العربية لهدم الجامعة العربية ؟

أو ليس فى ذلك من التناقض ما يدعو إلى الرثاء ؟» .

وقد أفضت المعركة إزاء الدعوة إلى اللغة العامية .. أو كتابة العربية بالحروف اللاتينية إلى قناعة وطنية وقومية بأنها أخطر معاول الهدم ، لأن الدعوات التى تستهدف هدم الدين والأخلاق قد تضل جيلا من الشباب ، ولكن الأمل فى إنقاذ الجيل القادم سيظل كبيرا مادام القرآن حيا مقروءا وما دام الناس يتذوقون حلاوة أسلوبه وجمال عباراته .. أما هذه الدعوة الخطيرة - أو كتابة العربية بالحروف - اللاتينية فهى ترمى إلى قتل القرآن نفسه - وهيهات .. والحكم عليه بأن يصبح أثرا ميتا كأساطير الأولين التى أصبحت حشو لفائف البردى ، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقا بالياً بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه وتنشئتهم على تذوق ألوان أخرى من الأساليب المستجلبة من الغرب وبينما نجح اليهود فى إحياء لغتهم العبرية الميتة ، واتخاذها لغة للأدب والحياة ، كان بعض المفتونين من العرب ينادون - ولا يزالون - بأن اللغة العربية الفصيحة لغة ميتة ، وينشرون فى ذلك المقالات الطوال المكتوبة «بالعربية الفصحى» التى يزعمون موتها ، والتى يقرؤها أقل الناس حظا من الثقافة فى الصحف فلا يغيب عنه منا شيء ، بل إناً نرى الأميين فى الصباح وفى المساء مجتمعين حول رجل منهم لا تتجاوز ثقافته الإلمام بالقراءة ، يطالع لهم الصحف وهى غير مضبوطة بعلامات الشكل وهم من حوله يستمعون ويفهمون .

وتستطيع أن تحصر هذه الدعوات الهدامة التى تستهدف قتل العربية الفصيحة فى شعب ثلاث كذلك تتناول أولاها اللغة ، فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها ، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى

العامية . وتتناول ثانيتها الكتـــابة فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها ، ويدعو بعضها الآخر للتحول إلى الحروف اللاتينـية - كما فعل كـمال أتاتورك بالأتراك - وتتناول الشـعبة الثـالثة الأدب فيدعو بعضـها إلى حق يراد به الباطل عبر العناية بما يسمونه الأدب الشعبى ، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير العربية الفصحى مما يختلف فى البلد الواحد باختلاف القرى وتعدد البيئات .

أما ما يتناول اللغة .. أو محاربة الفصحى والتخلص منها ، أو كتابتها بالحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى وهو من شيوخ مجمع اللغة العربية - فهو ما اعتبره شاكر وهو على حق فى ذلك - قضية تتعلق بمستقبل الثقافة العربية كلها . الأمر الذى فرض عليه خوض معركة من أعنف معاركه وأشدها ضراوة ضد أنصار هذه الدعوة دفاعا عن اللغة العربية ، فبينما كان قبل هذه الدعوة يكتب بخيوط من الحرير عن الشعر فى مجلة الرسالة عن شاعر الحب والفلوات (ذى الرمة) ومنكرات عمر بن أبى ربيعة الذى أسماه فى هذه المقالات . «صديق إبليس» ، عاد إثر اندلاع هذه المعركة ليكتب بشظايا النار مقالاته عن الحرف اللاتينى والعربية ، من العدد ١٢ : ٣٠٨ : ٣١٠ فى الرسالة .. كانت كالجمر ألقاها فى حلوق المنادين بكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .. حتى وئدت هذه الدعوة وسكت أصحابها والمتحمسون لها .

فى مجلة الرسالة فى ١٠ أبريل ١٩٤٤ كتب يقول : «عبد العزيز فهمى رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع فى

القانون ، وكنا نظنه رجلا محكم العقل فى جميــع نواحيه لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ولا يرمى بنفسه فى غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى ، فلما قال ما قال عن الحروف العربية فى المجمع : ونشرت الصحف قوله ورأيه قلنا : عسى أن يسـتفيق الرجل ويعود إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنـطق : وأن يكـون ما قال خالصاً لخدمة العربية ..

إن أول التضليل فى رسم العربية باللاتينية أن يضيع على القارىء تبين اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه . فإذا عسر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لا نسب له ، وصار فرضا عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صورها التى تكون فى السـياق العربى، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها .. يومئذ تصبح العربية أجهد لطالبها من اللغة الصينية ، نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف فقد ضل عن العربية كلها لأنها لم تبن إلا عليهما ، وهى فى هذه الوجهة مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتق أو مصرف ثم يزيد على ذلك ما يدخل الكلمة فى جميع ظروف ، الحروف العاملة وغير العاملة ثم علل الإعراب والبناء والحذف ، إلى آخر كل ما يعرفه كل مبتدئ فى اللغة العربية .

وقوله حل الطلاسم ، فأى طلاسم ؟ ، أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المادة الواحدة ؟ ، ألوانا من الحركات تكتب بين كل حرف وحرف وفى أواخر كل كلمة وتقف فواصل متباينات بين حروف مادة واحدة من لغة بنيت على الإشتقاق وعلى الاختصار وجاءت فيها الجموع المختلفة والصفات والأبنية ذوات المعانى .

أهذه هى الطلاسم أم تلك وأيهما أفسد لوقت المسلمين وغيرهم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أخزى وأشنع فتكا وشراسة ؟ ، بل أيهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده ؟

ولكنها فتنة ! فتنة ! اغتر بها شيخ صالح فاستغلها من لا يرى حقا ولا حرمة» .

عندما قرأ عبد العزيز فهمى هذا المقال الذى كتبه محمود شاكر أرغى وأزبد وشتم علامتنا بابن « ...» وعندما راجعه الحاضرون بأنه أصغر أبناء الشيخ محمد شاكر أردف «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح» .

ذلك ما عرفناه من كتاب شقيق محمود شاكر ، العلامة أحمد محمد شاكر فى كتابه «الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين فى مصر ومعه الشرع واللغة» الذى صدره بعبارة «وكلمة الله هى العليا» حيث كتب فى صفحتى ٥٢ ، ٥٣ وما بعدهما ولكنى أردت أن يكشف – عبد العزيز فهمى – عن مقصده الحقيقى باقتراحه ، من كلامه وألفاظه . وأن أنقد بعض ما عرض له من مسائل

فى العلم ، ظهر أنه لا يعرف فيها شيئا ، عرض لها عرضا عجيبا ، لو تركه ستر نفسه» .

«أما اقتراحه الميت السخيف - يعذرنى صاحب المعالى فى استعمال هذه اللفظة النابية ، فقد حاولت جهدى أن أجد خيرا منها فى موضعها ، ما عجزتنى المحاولة» .

«ثم إنى لم أر فى استعمالها بأسا ، بعد أن وصف هو بها الرسم العربى عشرات المرات فى كتابه - فما أبالى أن لا أرد عليه ، اكتفاء بما قيل من قبل ، وثقة منى أن لا تقوم له قائمة من بعد » .

وأنا أعلم أن معاليه سينطلق فى أثرى كما انطلق فى أثر الذين من قبلى ، ثائرا عنيفا ، مستعليا مستكبرا ، كأن لم يسمع كلمة الحق ، وأنه سيرمينى كما رمى أخى السيد محمود محمد شاكر «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح ولكن لا أبالى » .

معركته مع سيد قطب والأخوان

ومرت سنوات ثمانية على معركة شاكر مع عبد العزيز باشا فهمى ليدخل معركة أخرى فى مواجهة الأستاذ سيد قطب ، الذى كتب يزعم أنه ليس من الصواب بدء الحديث (الكلام) بعبارة : السلام عليكم .. وإنما الأصح عربياً أن يقال : سلام عليكم ويكون الرد هو وعليكم السلام .. بألف ولام التعريف . فنشر الأستاذ رده فى جريدة الأخوان المسلمين نفسها .. بأربع مقالات . اثنتين منهما بعنوان «حكم بلا بينة» العدد ٢٣ ، ٤٨ والآخريين بعنوان «تاريخ بلا إيمان» العدد ١٣٨ ، ١٤٥

وفحواها أن هذا القول زعم باطل وأن المسلمين يقولون خمس مرات فى اليوم على الأقل فى تشهدهم فى الصلاة «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .. كما استشهد ببيت من شعر جرير هو :

يا أم ناجية السلام عليكم قبل الرحيل وقبل عزل العزل

وبعد هذه المعركة مع سيد قطب .. نشبت معركة أخرى - بعد سنة - مع جماعة الأخوان المسلمين قاطبة وليس سيد قطب وحده : ذلك أن الإخوان كانوا في دعواهم يقولون أن الإسلام لم يحكم به إلا فى عهد أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب . فكتب بعضهم فى هذا المعنى الذى يهاجمون به ضمنيا الدولة الأموية .

وقد سخط الأستاذ محمود شاكر على هذا المفهوم الضيق لنظرة الأخوان إلى دول الخلافة .. «وكان يتحدث بذلك مع بعض أصدقائه مستنكرا هذه الدعوة فقال له الأصدقاء ولماذا لا ترد على من كتب هذا ، فقال وأين أرد ، وقد أغلقت الرسالة ١٩٥٢» قالوا فى مجلة المسلمون ذاتها .. فقال ولكن لهذا وضع خاص فإنى كنت أستنكف أخذ أجر مقالاتى فى الصحف والمجلات إلا أنى لن أكتب في هذه المجلة إلا بأجر فوافقوا على ذلك فكتب الأستاذ شاكر أربع مقالات :

اثنتين منها بعنوان : «لا تسبوا أصحابى» العدد ٢٤٦ ، ٢٥٥ سنة ١٩٥٢

والاثنتين الأخريين «السنة والمفترون المسلمون» العدد ٣٥١ ، ٣٥٩ سنة ١٩٥٢» أيضا رد فيها على من هاجموا حكم بنى أميه ، بدعوى أنه

غير إسلامى ، ومما قاله : إن محمد بن الحنفيه أخا الحسين بن علي بن أبي طالب ، كان يتناول الطعام حينما بلغه موت معاويه ، فسقطت اللقمة من يده فسأل : فمن بويع بعده بالخلافه ؟ قالوا : يزيد ابنه ... فقال : فتى قريش وفارسها ، وعاد لتناول طعامه قرير العين مع أن يزيد هو نفسه الذى قُتل الحسين في عهده .

وقد استدل علامتنا بهذه الحادثة ، على أن الخلافات السياسية بين على بن أبى طالب وأبنائه من جهة وبين معاوية وأبنائه من جهة أخرى لم تمنع أحدهم من أن يكون حسن الرأى فى الآخر ، ولم يذهب أحدهم إلى تكفير الآخر على نحو ما يفعل الأخوان المسلمون الآن .

ثم تساءل : ألم يكن عمر بن عبد العزيز بن مروان - الملقب بالخليفة الخامس للخلفاء الراشدين ، أمويا ؟ وعبد الملك بن مروان نفسه ألم يكن فقيها سديد الرأى ألم يكن أمويا أيضا ؟ وهل أول من ضرب الدنانير العربية وأبطل استعمال الدنانير الهيرقليه إلا أموى ؟ ثم قال : أما عما قالوه من أن الإسلام لم يحكم إلا فى عهدين فقط هما : عهد الصديق أبى بكر ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .. بأن من يقول ذلك يدخلنا فى صراع سياسى لا نحتاجه .. ونحن لا نملك إخراج أحد من الإسلام .. وعلى ذلك فإن هذه المقولة إساءة للاسلام وليست دفاعا عنه.

★★★

هذه اللمحات مع استطراداتها المطولة فى محاولتنا رسم صورة

هذا الرجل، تؤكد أنه حقا يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه كلما رأى الأمة العربية تنشق على كل تاريخها الماضي وتساق إلى مجزرة نصبها الغرب لها وهي نشوى بها فرحة. ولقد ملأت هذه الحقيقة عالم هذا الرجل فوهب حياته وكتبه ومعاركه التي خاضها والتي تشعبت طرقها إلى هتك الأستار المسدلة على الأشباح الغربية الخبيثة التي تريد أن تنقض على مجتمعنا العربي المسلم.. وتدك البناء العظيم الذي بناه آباؤنا في قرون متعاقبة وصححوا به فساد الحياة البشرية في نواحيها الانسانية والأدبية والأخلاقية والعلمية والعملية والفكرية.

ورغم قوة حجة هذا العملاق الذي يقف مدافعا عن العرب والإسلام بنبرة لاذعة: فإنني أبصرت بعض الضوء وسط هذا العالم أنار لي الطريق إلى محرابه ، خلاصته أنه إذا كان جيل العمالقة قد حال دون وصول الضوء إلى من بعدهم فغيم عليهم: عبدالرحمن صدقي – على أدهم، مع أقرانهما – فإن هذا الغيم كان واحة هادئة للذين أتوا معهم أو بعدهم على اختلاف مشاربهم ، وقد اهتديت إلى هذه الملاحظة من خلال ما كتبه هؤلاء المثقفون أنفسهم ، فحينما تقرأ السيرة الذاتية ليحيى حقي والتي تصدرت أعماله الكاملة تجده يقول:

«وأثناء عملي بديوان وزارة الخارجية. كانت الكتابة بالنسبة لي خاطرا غير تام الأدوات.. ولكن عندما توثقت صلتي بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر، وقرأت عليه عددا من أمهات كتب الأدب العربي القديم ودواوين الشعر.. انفتح الطريق أمامي ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها».

وقال لى الشاعر العظيم الراحل محمود حسن اسماعيل.. الذى قامت علاقة وطيدة وصداقة بينه وبينه علامتنا محمود شاكر منذ ١٩٣٦.. انه يعد الأستاذ شاكر إماما عليما بأسرار البيان العربى فى شعره ونثره ومرجعا حيا للثقافة العربية فى مجموعها.. وأنه كان يأنس له.. بل إنه كان الإنسان الوحيد الذى يسمح له أن يصوب له أى بيت من أشعاره.. وعندما قلت له كأنه لك كإزرا باردند بالنسبة لأليوت - قال: أنصحك عندما تعرفينه ألا تتفوهى بمثل هذه التشبيهات الأجنبية فهو يمجها ويعنف قائلها».

وعندما سألته عن تأثير شاكر عليه.. قال: «لا استطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتى لمحمود.. لقد زج بى إلى الشعر الجاهلى، وأمالنى مع الشعر الأموى، وطوح بى مع الشعر العباسى، فأحاطنى بلحمة الشعر العربى وسداه جميعا.. وأستطيع القول أن شعرى قبل معرفتى بمحمود كان نبعا هادئا فجعله بحرا متلاطما». فعرفت من هذا وذلك كيف كانت تلك الرابطة القوية بين الرجلين وكذلك من قصيدة الأستاذ محمود حسن اسماعيل. فى تقديمه لقصيدة شاكر «القوس العذراء» بخطه الموسيقى الجميل.

وهاتان الحقيقتان المضيئتان - حقى، وإسماعيل، تتناقضان مع الحقائق المظلمة مع الدكاترة طه حسين، ولويس عوض، وعلى جواد الطاهر ، وإن دلت نتائجهما على شىء فإنما تدل على أن محمود شاكر كان نورا دافئا لكل صالح وأصيل، وأنه النار الكاوية لكل زائف أو جاهل ببواطن الأمور.

وهذا كله يدل على أن هذا العالم لم يشغله فى حياته، إلا البحث والاستكشاف فإذا حدق فى صورة ما، ووقعت عيناه على شائبة ما، اندفع كالاعصار لاستلالها من الصورة حتى تظل الصورة نقية، كما أنه رجل رد الفعل أيضا. وحقا إن كل الأعمال والأفعال الانسانية هى ردود أفعال بشكل أو بآخر، ولكننا نجد أن رد الفعل عند محمود شاكر يكاد يكون محركه الأول ومستفزه على الكتابة ولو كان في حالة عزلة.. فمن المعروف أن اعتزاله الكتابة سنة ١٩٥٣ كان بدستور موثق فى أربع مقالات متتالية لمجلة الرسالة. اشهد فيها قراءه ومثقفى عصره على هذا الاحتجاج والاحتجاب من الواقع الفكرى والثقافى.

ففى مقالته الأولى فى ٥ يناير ١٩٥٣ وكانت بعنوان «فيم أكتب» لايرى أى اتجاه أو إصلاح للعالم العربى أو الاسلام» الذى اهملته أو استبعدته الأمم المختلفة بأساليبها الظاهرة والخفية، ذلك أن عصرنا كما يراه محمود شاكر وكما نحياه «مهد له جبابرة الدعاة لا أقول منذ عام أو عامين بل منذ أكثر من مائة عام حطم كل شيء قليلا قليلا حتى خر البناء كله». فهو يعزف عن الكتابة لهذه الأسباب ولأنه يجد نفسه فجأة فى موج متلاطم من الضلالات تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب، وضلال الرأى المدلس، وضلالات السياسة الخادعة، فبأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع الذى طمسها الكذب المسموع؟ وبأى قلم استطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها الكذب المكتوب.

المقالة الثانية أيصر طريقك «......» ١٩ يناير ١٩٥٣ يرصد فيها

مقاصد أعداء العرب والاسلام.. فيرى ان خطتهم كانت هي «دك الحياة الإسلامية كلها، بناء هذه الحياة علمها، أدابها، أخلاقها، تاريخها، لغتها، ماضيها، وفي خلال ذلك ينشأ بناء جديد لهذه الحياة بعلم غير العلم وأدب غير الأدب.

أما الرسالة الثالثة: باطل مشرق «.......» ٢٦ يناير ١٩٥٢، يشخص فيها جوهر الحياة المعاصرة، ويصفها بأنها مثل «الباطل المشرق المضيء له فتنة تنادى كفتنة وجه الحسناء الخبيث المنبت تأخذ بعين الناظر فيقبل عليها ملقيا بنفسه في مهالك هذا الجمال الآسر، واذا المنبت الخبيث ذرة مستهلكة في هذا التيار المترقرق من فتنة الحسن والهوى.

الرابعة والأخيرة بعنوان غرارة ملقاة « ٢٣ فبراير١٩٥٢ ينتهي إلى أن «........» الحياة إحساس محض والحس حر مطلق فأيما مذهب أو جماعة أو دولة حاولت ان تدمج بالختل حسا في حس أو تطابق بالخديعة إحساسا في إحساس فلا غاية لها الا استعباد أحرار الحياة وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة، بالكذب والتغرير والختل والخديعة والعبث، انهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجامعة طاغوتا يعبده المضللون داعين متضرعين ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون».

وتكشف هذه الرسائل عن الخط الفكرى العام للأستاذ محمود شاكر للواقع الثقافي العربي المعاصر الذي يرى في تشخيصه له، أنه يفقد هويته تدريجيا وتتغير بنيته شيئا فشيئا بفعل أساليب مقصودة وموجهة، حتى تصبح الهوية غير ذات الهوية، والبنية غير ذات البنية..

وهذه الرسائل تظهر فيها إلى حد ما إرهاصات منهجه الفكرى أو تحليله لتاريخ الأمة الاسلامية كما تجلى فى «الطريق الى ثقافتنا» وهو التحليل الذى ظهر بشكل منهجي أكثر في رصده للتغيرات السياسية والثقافية بفعل صراع الأمة الإسلامية مع الغرب الإستعمارى.

وهكذا عندما نشرت البحوث التسعة «على هامش الغفران» للدكتور لويس عوض فى ملحق الأهرام.. ثار وفار ومزق المواثيق والدساتير التى كرست عزلته ، وأمسك بالقلم من جديد فكان كتابه «أباطيل وأسمار» فإذا أضفنا إلى ثورته هذه الثورتين اللتين احتج بهما على المفاهيم الخاطئة، والمآخذ الباطلة التى كتبها كل من الدكاترة طه حسين والدكتور على جواد الطاهر، ولما كانت الطبعتان الثانية والثالثة لكتابه عن «المتنبى فى المقتطف.. والذى صدرت مقدمة طبعته الثانية بكتاب منفصل عن دار الهلال تحت عنوان «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا». ولولاها أيضا ما خرج «برنامج طبقات فحول الشعراء».

عندئذ نوافق الدكتور عبدالعزيز كامل «لو لم يستفز الأستاذ شاكر لما أغنى المكتبة العربية بهذه الكتب النادرة».

ولعله من الاستطراد المفيد أن نذكر، أن رد فعل شاكر اختلف بالنسبة إلى الرجال الثلاثة ، فبينما هاجم شاكر الدكتور طه حسين.. وكان بينهما فروق فى العمر تبلغ العشرين سنة.. إلا أن الدكتور طه بعث لشاكر ولمجلس أبيه بنيليو ليقنعه بالعدول عن موقفه. وهذا إحساس أب نحو ابنه، بل إن نيلينو ربما نقل للدكتور شروط الطالب شاكر للعودة إلى الجامعة.. وهى أن يعترف الدكتور طه بعملية السطو. مع ذلك فإن شاكر ينبئنا أنه عندما تسلم أول رسالة من والده وهو فى السعودية

وجد والده يقول له: زارنى عصر سفرك للسويس الدكتور طه حسين، وأنهى الرسالة، وهذا يعنى أن الدكتور طه كان لديه شعور بالذنب تجاه شاكر، ربما لأنه يعرف بينه وبين نفسه كم هو على حق.. ذلك أن الدكتور طه عاد سنة ١٩٣٥ أى بعد تسع سنوات من صدور كتابه فى الشعر الجاهلي سنة ٢٦. فنشر فى جريدة الجهاد مقالات، تشى بأنه رجع عن أقواله السابقة في الشعر الجاهلى، وببعض ما صارح به شاكر بعد ذلك وصارح به آخرين، من رجوعه عن أقواله السابقة بأن الشعر الجاهلى منحول ولكنه لم يكتب شيئا صريحا يتبرأ به مما قال أو كتب، وهذه كما يقول محمود شاكر كانت عادة «الأساتذة الكبار» يخطئون فى العلن، ويتبرأون من خطئهم فى السر.

كما أن الدكتور طه حسين كان أول من رشح الأستاذ شاكر للمجمع اللغوى.. لذلك فإن شاكر يحمل قدرا من الإجلال لطه حسين.. بل إنه لم يدخن يوما فى حضرته ولم يضع ساقا فوق ساق استخفافا إذا جلس اليه.

هذا ما كان من طه حسين تجاه شاكر، أما لويس عوض، فعندما جمع بحوثه التسعة فى كتاب، ظهر عن دار الهلال بعنوان على هامش الغفران سنة ١٩٦٦.

بين شاكر ولويس عوض

قال فى مقدمته: عندما نشرت هذه البحوث .. تصدى لنقدها ولنقدى المحقق المعروف الاستاذ محمود شاكر على صفحات مجلة «الرسالة» وشاركه في هذا العبء اساتذة آخرون فى مجلتى الرسالة، والثقافة.. وغيرهما .. ولست أحسب أن كل ماكتبه نقادى عنى كان يدور حول

موضوع الغفران، فقد استطردوا الى وجوه أخرى من انتاجى الأدبى والفكرى خلال ربع قرن كانوا قد صمتوا عنها ذلك الزمان المديد وفى مقدمة هذه الوجوه موقفى القديم من عمود الشعر العربى التقليدى ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى إبان الحملة الفرنسية على مصر، وموقفى من تاريخنا القومى والروحى إبان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة، ثم بعض اجتهاداتى.

ومن أراد فكرة مجملة عن صورتى فى ذهن نقادى، فهى أنى، باختصار ، فى يقين بعض أدباء اليسار قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى، كما كتب عنى الشاعر المبدع عبدالوهاب البياتى وذلك الناقد اللبنانى الشريف القلم العف البيان حسين مردة، وأنى باختصار فى يقين بعض أدباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى الملحد فى العالم العربى، كما كتب عنى نقاد مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» وغيرهما . وفى يقين فئة ثالثة أنى آخر قنصل للعالم المسيحى فى مصر منذ الحملة الصليبية، كما كتب عنى الأستاذ محمود شاكر فى كتابه «أباطيل وأسمار» وهو الجزء الأول من مقالاته عنى فى مجلة الرسالة، وفى يقين فئة رابعة»..

«كل هذه المتناقضات كتبت عنى فى فترة «الغفران» أو حولها، ولاشك أنى انتفعت بشىء قليل من نقد نقادى، ولاسيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جموحه وجنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا».

«ولكنى فى الحق لم أكن إلى حين قريب.. أتصور أنى أمثل هذه

الخطورة فى الثقافة العربية أو على الثقافة العربية بحيث يصدر عنى فى عام واحد ثلاثة كتب هى «الغزو الفكرى» لجلال كشك و«أباطيل وأسمار» «لمحمود شاكر». و«دراسات نقدية فى ضوء المنهج العلمى الواقعى «لحسين مروه» عدا مئات من عرائض الإتهام».

«ولكنى ــ والله أحمد ـ لازلت فى يقين الكثرة الغالبة من المثقفين العرب، ولاسيما المعتدلين منهم، خادما مخلصا من بين خدام الثقافة العربية.. وأنى قد أصيب وقد أخطىء فيما أكتب وفيما أرى، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير..».

ولكن الدكتور لويس عوض عاد بعد هذا الكلام بسنة أى فى عام ١٩٦٧ فوجد أن هذه الكلمات لم تشف نفسه من محمود شاكر ورؤيته فى الحياة المعاصرة ومن غيظه من هؤلاء الذين يصوبونه كلما كتب مقالا مثل الأستاذ عبدالجليل حسن الذى رد عليه عندما علق على كتاب الجبرتى عن الحملة الفرنسية على مصر فقال إن العاهرات المصريات السمراء منهم. والبيضاء كن يتسورن ثكنات الجنود الفرنسيين، لأنهن عرفن أن الفرنسيين قاطبة يريدون مطلق المرأة تعليق كان لويس لأنهم جاءوا بمبادىء الثورة الفرنسية التى لاتفرق فى البشرية بين أسود وأبيض.. وأنهم نادوا بحرية المرأة، وقد كتب له الأستاذ عبدالجليل أن كلمة «مطلق» فى قاموس الجبرتى تعنى «أى امرأة» ولكل عصر قاموسه الخاص.. أى أن مطلقه ليست مبادىء الحملة الفرنسية فى تحرير المرأة.

ورغم غيظه أيضا من الأستاذ الدكتور مندور الذى قال هو عنه فى كتابه «مذكرات طالب بعثة»: إنه من غير مندور كنت دخلت باريس حمارا وخرجت حمارا» لذلك فإن الدكتور مندور بعد صدور هذا الكتاب لم يناده إلا بهذا الاسم.. بل إنه صوبه أيضا يوم نقد ديوان صلاح عبدالصبور أحلام الفارس القديم عندما جاء على سهو مطبعى للهمزة فى أحد أبياته.. فكتب لويس عوض.. إن صلاح أجرى عملية السنكوب على الهمزة فلما فتح الدكتور مندور دائرة المعارف أمامى وأمام لويس وجد أن مصطلح سنكوب شعريا هو بحر «الأيامب» المتحرك فى الشعر الإنجليزى، حركتان وسكون وحركتان وسكون ويقابلها موسيقيا قياس ترديد النغم بين وتر وآخر.

وعاد لويس عوض سنة ٦٧ ليصدر كتابه «المحاورات الجديدة» ودليل الرجل الذكى إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية من كل صوب ، الذى ارتأى فيه الحوار مع كل المشتغلين بالأدب والفن، وعلى مختلف درجاتهم ومناصبهم، الإعلام منهم وأنصاف الأعلام والنكرات ليصور لنا حقيقة الصراع الفكرى الدائر فى مجتمعنا ـ كما يراه هو ـ ولكى يتحاشى أن ينظر فى أعين هؤلاء جهارا راح يصنع لكل منهم قناعا، أما وصف القناع واسمه فهو رأى لويس عوض الرمزى فى هؤلاء الأدباء.. وأوضح شخصيات الكتاب هم على الزيبق الجوكى الشهير بالزمبرك. الأيديولوجى الفهلوى، ابن ملكوف بن سيركوف، بقال العروبة وصور الأستاذ محمود شاكر تحت قناع «مجاهد بن الشماخ، والمعلم التاسع الذى تخلف عن الحضور بحكم السن هو طه حسين

واحتجز لنفسه قناع المعلم العاشر».. وكان كلما إحتاج الى مشورة بعض الخبراء الأجانب الذين يؤيدون رأيه جاء بهم من قبورهم ثم أعادهم إليها بعد أن يدلوا برأيهم.

وعندما خال أن الأقنعة ستؤدى دورها بدقة احتاج للموضوع الذى ستدور المحاورات حوله، فاختاره قناع «قضية المرأة» ومكانتها خلال العصور وفى مجتمعات مختلفة، ليثبت: أن المرأة الحديثة أقل وقارا من المرأة فى العصور القديمة باعتبار أن هذا الموضوع مواز لموضوع الفكر والفن، ومن الممكن أن تنعكس عليه مواقف شخصياته التى تمثل حركة الأدب والفن فى مصر وهى حركة يراها الدكتور لويس عوض عقيمة بوجه عام، تدور بين قطبين كلاهما زائف اليقين: قطب يمثل انتهازية اليمين والآخر يمثل انتهازية اليسار وبينهما حلف مدنس...» وبين هؤلاء وهؤلاء حكيم صادق الإيمان راسخ العلم هو المعلم العاشر. الذى يواجه مجاهد بن الشماخ أو الأستاذ محمود شاكر بثبات ويقين ـ ومجاهد بن الشماخ اسم استلهمه الدكتور لويس من قصيدة شاكر الملحمية «القوس العذراء» المبنية على شعر للشماخ وهو شاعر مخضرم ـ وجعله العربى التقليدى الذى يهش فى وجه كل جديد متهما إياه بالسذاجة.. ويصيح فى كل وارد.. بأنه من أفعال المبشرين أو أنه مؤامرة صليبية. تذكروا بيزنطة هؤلاء هم أعداؤنا التقليديون، قولوا معى فلتسقط صولون وأهل صولون: إننى سيلفى وأفخر بأنى سلفى.

وبذلك يكون لويس قد فشل، لأنه خلط فى تصويره لشاكر بين

الأصالة التي يدعو إليها عالمنا.. وبين التقليد الذى يتصوره لويس تجديدا.

وقد انقسمت آراء النقاد حيال هذا الكتاب، إلى مؤيدين ومعارضين وربما كان مرجع التأييد أو المعارضين إلى إستشفاف المتصدين لنقد الكتاب لشخصياتهم من وراء الأقنعة.. فانبرى كل يدافع عن نفسه ويدفع التهمة الموجهة إذا كان قد تكلم، ويطالب بالكلمة إذا كان قد أتى به ولم يتكلم إلا أننى لم أقرأ بين كل هذه الردود، رد محمود شاكر، وأكثر الظن أن الأستاذ شاكر اعتبر كتاب لويس عوض برمته.. نكتة يضحك منها.. كما ضحك قبل ذلك من «بلوتولند» وقصائد أخرى «الذى أصدره لويس عوض سنة ١٩٤٧ حين كتب شاكر فى صفحة ٩٠ من كتابه «أباطيل وأسمار» فرغت من المقدمة، وأنا أعدها تحفة، لاستخراجها الضحك من قبضة التقطيب والعبوس فلما أفضيت إلى ما سماه «من شعر الخاصة» وجدتنى قد ظفرت بما فوق المنى، بترياق للهم عجيب فمن يومئذ خف «أجاكس عوض» على قلبى جدا، ورأيته ذخيرة تصان وطرفه عزيزة لاتمتهن..».

واسم أجاكس عوض أسئلة الأستاذ شاكر بدوره من مقال للويس عوض فى وداع الدكتور مندور، حين شبه مندورا بأخيل، محاصر طروادة، وشبه نفسه بأجاكس، وهو كما صوره هوميروس فى شعره مخلوق جرىء شديد البطش ولكن بلا عقل وبلا حكمة، ثم زعم أنه ومندور.. أى أخيل وأجاكس خرجا فى صباح الحياة إلى قصر الربة

أثينا، صانعة الدروع، لتصنع لنا دروع الفكر وتملأ جعابنا بسهام الحرية.. وفى صباح الحياة عدنا معا لنحاصر طروادة، مدينة الموت، ذات الأبراج السوداء والأبراج العالية.. وهو يرمز بطروادة هنا إلى مصر ورجعية الفكر فيها، ويزعم الدكتور لويس أو أجاكس أنه خاض ألف معركة ومعركة، وأنه نازل الأبطال، وصارع الأهوال، فلم يلن له عزم ولم تتكسر له إرادة حتى إن مندورا ناداه وهو فى فراش الموت وقال له: «يا أخي إلبس دروعك، وتأهب لنخرج معا فى غزوة جديدة عظيمة، ولنطلب في هذه المرة الملك ميداس نفسه، ذا الجعارين الذهبية الكثيرة» وهو بلاشك لايعنى الأستاذ شاكر وإنما يعنى رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ في سنة ١٩٦٥.. الذى يصبر على لويس عوض وأمثاله، وإن كان شاكر يرى أنهم أساءوا لهذا الصبر، لأن ضررهم يتعداهم إلى جماهير الناس. وقد عرفت أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥ قد اعتقل أجاكس، ومجاهد بن الشماخ .. أى لويس عوض، وشاكر الذى اعتقل مرتين الأولى لمدة تسعة أشهر فى الفترة معها بين ٩ فبراير ١٩٥٩ إلي أكتوبر منها والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرا من ٣١ أغسطس ١٩٦٥ وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ (٣٠ رمضان ١٣٧٨ هـ).

وحول هذا التشابه بين لويس عوض، والأستاذ محمود محمد شاكر كتب الدكتور شكرى عياد.. صديق الطرفين.. شهادة بمجلة أدب ونقد مايو ١٩٩٠ استهلها بقوله: «للويس عوض فى عقلي وقلبى مكانة لاتضارعها إلا مكانة خصمه اللدود محمود محمد شاكر».

أذكر حين توثقت معرفتي به قلت لأستاذنا محمود شاكر: أتعرف أنك ـ على شدة عداوتك للويس عوض ـ تشبهه أو يشبهك من نواح كثيرة؟

اجابنى بحركة عنيفة، أى بالفعل المنعكس قائلا: أعوذ بالله!.

وأعدت القول نفسه للويس عوض، فأشاح بوجهه ولم يتكلم، لم أكن أفكر ـ بالطبع ـ فى أن أجمع بين الرجلين، ولكنه مجرد خاطر مجنون.

يقولون إن الماء والنار لايجتمعان فهل يجتمع النقيضان ؟

لقد طاف بخاطرى الشبه العميق بين الرجلين لأن كلاهما اعتقل نحوا من ثلاث سنوات.. مع أن محمود شاكر كان وقتئذ على خلاف مع الإخوان، ولويس عوض بعيد عن التنظيمات الشيوعية.

كلا الرجلين عالم فنان فى معظم ما كتب. ولابد للعالم من قدر من الخيال يسيطر على عمل الفنان... فلويس تدفعه نزعته العالمية إلى فروض موغلة فى الخيال، أما محمود شاكر فيتحاشى الوقوع فى ذلك بوقوفه الطويل أمام النصوص الأدبية متذوقا ومفسرا و.... و....

لقد كان إخلاص لويس لنزعته العالمية الليبرالية توقعه غالبا فى المأزق، بألوان من الأذى، بينما لايعد هجوم محمود شاكر، بالقياس إلينا سوى دعابة من تلك الدعابات اللاذعة التى يمارسها الأدباء.

★★★

هذا عن رد فعل لويس عوض، أما رد الدكتور جواد على الطاهر، على كتاب «طبقات فحول الشعراء» فقد كان هادئا.. وكأنه يشكر

الأستاذ محمود شاكر على حسن صنيعه.. إذ كتب في باب ثابت له في مجلة «الفيصل السعودية العدد ٩٦ مقال بعنوان «وأنت تقرأ» عن محمود شاكر، استهلها بقوله: «لي رأى أوردته في أكثر من مناسبة، وبحضور أكثر من صديق، وهو رأى ثابت كان - ولايزال - قائما حيث هو، ولم يحل حائل عن تثبيته أي توجيه نقد محمود شاكر له في كتابه برنامج طبقات فحول الشعراء - لأنه ليس رأيا خاصا لمنفعة خاصة، وإنما هو في مصلحة العلم وخدمة اللغة.. وإذا كان المثل الذي يوضح الرأى ويوجبه هو الشيخ محمود شاكر - فقد تكون له أمثلة أخرى يعرفها السامعون أو القارئون».

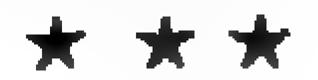
ثم يروح ويجيىء وكأنه يلقى محاضرة أكاديمية على طلبة مبهورين ببلاغته ليقول: «الشيخ محمود شاكر نادر المثال، ومنقطع النظير في الباقي من السلف في فهم النص العربي وتفهم وفك مغاليقه، وبلوغ أسراره و.... و...... ولقد اقترحت ذات يوم في أوائل سنة ١٩٧٠م، دعوة الشيخ محمود شاكر أستاذا زائرا في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة بغداد، وفي ذهني أن ننتفع به نحن الأساتذة قبل الطلبة.. أجل ولكن ما كاد الاقتراح يخرج عن أسلة اللسان حتى جوبه بسؤال لا معنى له: ما شهادة الشيخ محمود شاكر؟، ..

حتى جاء اختيار الشيخ محمود شاكر عضوا عاملا في مجمع اللغة بالقاهرة شهادة لمن يطلب الشهادة.

والمقال مليىء بالغمز واللمز وكان بودى تحليله.. والخروج منه

بصورة تضاهيها فى كتبه لولا أن هذا يخرجنا عن موضوعنا الأصلى.

ونحن بالطبع لا نعرف إجابة محمود شاكر على من يبحث له عن وظيفة ولكنى أعرف أن العلماء هم الذين يشد إليهم الرحال، وليس العالم هو الذى يدور بعلمه على الجامعات يحمل علمه ويعرضه لعله أو عساه أنه يجد وظيفة.. ثم إنى قرأت للأستاذ جواد فى المقال نفسه حول حزازات الجامعيين تجاهه عندما قال: «لنعاقب الجيل القائم على المسئولية فى الجامعة.. ولاشك فى أنهم يعرفون قدر الرجل ـ شاكر ـ حق المعرفة، ولا يكاد يوجد بينهم من لم يزره فى بيته وينتفع بعلمه أو رأيه ويجد جوابا حاضرا لمسألته.. ويعرفون أكثر من ذلك السيل الذى يجرى نحو بيته من طلبة الماجستير أو الدكتوراه ليجدوا عنده ما لا يجدونه عند أساتذتهم الدكاترة المشرفين، ثم إن الأستاذ شاكر نفسه قد أجاب على من يبحث له عن عمل وهو الدكتور جواد على فى «البرنامج» نفسه الذى رد به عليه.. فعندما قال له الدكتور جواد: ليس لمحقق ـ كائنا من كان ـ أن يحكم منطقه فى اسم الكتاب الذى يوكل إليه. فرد الأستاذ شاكر: ليس صحيحا أن أحدا «وكل إلىّ» تحقيق كتاب «طبقات فحول الشعراء» وأنا لا أرضى هذا لنفسى، ولا أرضاه لأحد من أهل العلم.. فلا حضرته.. وكل إلىّ «تحقيق الكتاب» ولا دار المعارف ولا أى هيئة علمية أو دولة أيضا «تكل إلىّ» تحقيق هذا الكتاب أو غيره، بل العكس هو الصحيح، بأن أهل العلم هم الذين يكلون إلى دار المعارف وإلى غير دار المعارف، طبع ما كتبوه أو حققوه.



عبقرى فى التفكير
فذ فى تحقيق التراث

كل هذه الأحداث والمواقف التى صادفتنى فى طريق البحث عن ماهية هذا الرجل أكدت أن الأستاذ محمود محمد شاكر رجل موسوعى فى المعرفة وعبقرى فى التفكير وحبر فذ فى تحقيق التراث، جعلته من الرموز التى تفخر بها الأمة فى حاضرها وأن يتسم فكره بالعمق والأصالة وطول النفس، وله نظرات يختلف فيها مع بعض الكتاب والمفكرين الإسلاميين أرى - مع الكثرة - أنه أقرب إلي الحق فيها من مخالفيه.

كل هذا جعلنى أتهيبه يوما بعد يوم.. ولم تتعارض هذه الهيبة وتقديرى له تقديرا لا حد له.. ولن يثبطنى عائق عن سعيى لمعرفة المزيد عن شخصيته، ليقينى أن هذا الإصرار، هو السبيل الصحيح الذى يصل بى إلى اللقاء الذى أحلم به.

ورغم أنى عشت تحديه ومراجعته للدكتور عبدالغفار مكاوى على صفحات مجلة المجلة، سنة ١٩٦٩ حول مفهوم جوته للأدب العربى بوجل شديد، فإنى لم انقطع عن الإلحاح على الأصدقاء الذين يعرفونه أن يصطحبونى إليه.. وعندما طال هذا التسويف منهم.. بحثت فى «دليل التليفون» فلم أعثر على رقم تليفونه.. ولما كان أحد تلامذته الشاعر الحسانى حسن عبدالله زميلا سابقا لى بلجنة القراءة بمؤسسة السينما فقد رجوته أن يصطحبنى معه إلى الأستاذ شاكر ولكنه رفض فى تصميم.. وعندما سألته لماذا هذا التعنت الأخير وقد ألححت أنت نفسك

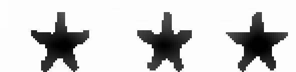
بأن أصحبك لأستاذك العقاد واعتذرت لك برفض والدى؟ قال هناك اختلاف بين الرجلين وسكت.

ولا أعرف لماذا أشعل هذا الرفض جذوة الرغبة فى التعرف على الأستاذ شاكر، ذلك أنى اعتبرت أعماله وآثاره، ليست بديلة عن معرفته، هو، هو الذى نفخ فيها من روحه. كما أنه لا أحد يعرف مفتاح شخصية ما إلا بعد أن يعايشها ويحيط بعاداتها، وأساليبها، وميولها، حقا إن كل ما قرأته مما أودعه كتاباته من حياته، وتجاربه التى أوصلته إلى ماهو عليه من قدرات وحتى معرفتى بالمؤثرات التى أثرت فيه والمحن والشدائد التى مرت به ومر بها حين كان يؤمن وحده برأى يخالف فيه من حوله، بل وأزماته النفسية التى اعترضت طريقه حتى آمن إيمان المقتدين.

لكن هذا كله لم يقدم لى وصفا كاملا.. لبيئته ووسطه وظروفه حتى يمكننى الاعتماد عليها فى نتيجة كنت توصلت إليها من قبل وأردت أن أجد ما يؤيدها وهى أن حياته انعكست على أعماله، حتى يمكننا أن نعد شاكرا من الكتاب والشعراء الذين تتخذ حياتهم ميزانا لأعمالهم وآثارهم، لأنه لم يضف إلى هذا النبذ الشخصية فى كتبه.. أى تجربة من الخارج ولا أى حادثة من شأنها أن تضع لثاما بين القارىء وبين حقائق حياته... كما نجده فى الترجمات الذاتية التى تظهر فى شكل رواية.

وما أن بدأت أعلن للمحيط الثقافى من حولى عن عزمى مقابلة

الأستاذ محمود محمد شاكر.. حتى أشفقوا عليّ من هذا اللقاء.. وبدأوا يصكون أذنى بدندنات صاخبة.. إنه منغلق على الإسلام.. يكره الثقافة الغربية والمثقفين بها، ويربط فى أحكامه دوما بين المسيحية والوثنية فى مقابل الثقافة العربية والإسلامية.. ثم إنه سلفى رجعى مغرور يعانى من مرض العظمة، ليس لديه كف عن التعبير السريع عما يرى.. هل تابعت مواقفه من الدكتور طه حسين و.... و....... كل هذا أحبطنى بعض الوقت، لكنى كلما أمعنت فى هذه الكلمات ضاهيتها بما قرأت له وعنه ذابت إحباطاتى التى شعرت بها لأول وهلة.



التهمة الأولى التى التصقت بشاكر، إزاء عدم حبه للمسيحيين بدليل نقده القاسى للدكتور لويس عوض، عندما كتب عن أبي العلاء المعرى «وسامى داود» الذى كتب عن المظاهرات التى انفجرت بها الجامعة احتجاجا على الكتب التى يدرسها قسم اللغة الانجليزية، والمليئة بالعيب والشتم فى الإسلام وسيدنا محمد.. وأسعد حليم عندما قدم على صفحات جريدة الأخبار... خبرا مهما جدا، عن موافقة مجلس اللوردات البريطانى على تعديل قوانين الشذوذ الجنسى، وإباحته لبالغى الرشد، ثم يذكر كثيرا من الشخصيات التى مارست هذا الشذوذ، فكان ممن ذكرهم «كتشنر الرجل الذى كان له دوره المشبوه فى السودان، وفى مصر، والذى أقيم مستشفى لتخليده فى شبرا، والأستاذ زاهر رياض، عندما كتب عن الدين الإسلامى والحبشة، وقبلهم وقبلهم جورجى زيدان.. بما كتبه من روايات تزيف التاريخ الإسلامى، كذلك مجلته

الهلال التى كانت تستقطب كل موضوع يخالف الإسلام ككتاب اللغة العربية بالحروف اللاتينية ورفع الحجاب».

والحق أن المتأمل في حياة الأستاذ شاكر يستطيع ببساطة أن ينفض هذه التهمة عن الرجل.. لأنه... لم يأت بقدر من المنقبية والشمائلية قدر كلامه عن الأستاذ فؤاد صروف... صاحب المقتطف.. كما أنه لم يهد كتبه لأحد.. لا لوالده أو والدته أو لأحد من إخوته أو أساتذته وأصدقائه.. وأما قصيدة القوس العذراء والعهدة على الأستاذ الغضبان والذى كتب أن القصيدة، كانت عندما التقى شاكر بصاحب دار المعارف شفيق مترى... وهنا نجد أن الفن ـ مجازا ـ يصل بين الأرواح المؤتلفة.

بل إنه من شدة حبه للدكتور مجدى وهبه العلمانى الفكر ـ فإنه دوما يداعبه: كنت أتمنى أن تصحبنى فى الجنة، والله يا مجدى لولا علمانيتك اللعينة، ثم أننى لم أر الأستاذ وديع فلسطين يهل على مجلس محمود شاكر إلا ووجدته يحتضنه ويقبله، وقد ذكر الأستاذ نسيم مجلى المدافع الأول عن لويس عوض ـ فى كتابه عن مفهوم شاكر للأصالة القومية ـ عن النبل والعظمة وفيض حنان محمود شاكر وهو يستقبله فى بيته ويشعره بأنه من أفراد هذه الأسرة العريقة الكريمة.

وبعد تبرئته من التهمة الأولى: نأتى إلى التهمة الثانية، وهى كراهيته لثقافة الغرب وأنه، لا يأنس لأصحاب هذه الثقافة، فنجدها باطلة بدليل أنه استشهد كثيرا بكلمات «ت س اليوت» ونجد مصداقا لذلك، محاضرته فى السعودية، فعندما أراد أن يحدد كلمة ثقافة قال: وقد

أراد بعض الغربيين أن يجمعها فى سياق واحد فقال: إن ثقافة الشعب ودين الشعب، مظهران مختلفان لشيء واحد لأن الثقافة فى جوهرها، تجسيد لدين الشعب، وقال أيضا: «إن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ظاهرة طبيعية مقبولة»... ثم أردف شاكر بما استهل به حديثه... فقال: وهو تعبير صحيح فى جوهره يجمع هذه المميزات المبعثرة فى إطار واحد، ويجعل تمييز ثقافة عن ثقافة واضحا من خلال النظر فى أصول التدين الذى هو فطره فى طبيعة الإنسان حامل الثقافة ومؤديها إلى من بعده، زد على ذلك أنه كثيرا ما يرجع إلى تعريفات توينبى التاريخية.

أما الأستاذ يحيى حقى وهو رجل يتذوق الأدب الغربى عامة، والفرنسى خاصة، فلا يفوته حديث تليفزيونى ولا إذاعى إلا وذكر الأستاذ شاكر.. وشمولية وتعددية ثقافته وأنه ـ شاكر ـ هو الذى هيأه للكتابة أصلا.. حتى إن الأستاذ الصحفى مفيد فوزى.. والمذيعة ليلى رستم ذهبا.. يتفاوضان معه على حديث يتمم حديث الأستاذ يحيى حقى.. لكن شاكر اعتذر رائيا أن كل ما يرسل على شاشات التليفزيون للفرجة فقط وليس للتثقيف».

زد على ذلك .. أننى تأكدت من الكلمات التى طالما رددها من أنه لا يخاصم الناس لأفكارهم.. حتى لو كانوا ذوى ثقافة غربية.. فقد وجدته وفى رده على الدكتور عبدالعزيز الدسوقى «المتنبى ليتنى ماعرفته»، أن يصف كتابه التفكير العلمى للدكتور فؤاد زكريا بأنه جيد، وبعد ان يورد مقاطعا يستحسنها منه يستدرك قائلا: التفكير العملى مع أن صاحبه

رجل يفخر بأنه علمانى، أننى عندما عرفت أنه أخذ امتياز «مجلة العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية.. تعجبت.. كيف يأخذ امتياز مجلة متحررة كالعصور ومن رجل متحرر الفكر كالأستاذ إسماعيل مظهر الذى يصدر فى جل كتاباته عن الداروينية «التى تخالف ديننا الحنيف الذى قال فى سورة الرحمن «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» وداروين يقول أن أصل الإنسان هو القرد، والقرد فى فكر علماء المسلمين إنسان متقهقر.. وليس الإنسان قرد متطور.. فقيل لى إنهما صديقان حميمان وستقرأين عندما تلتقين به إهداءات الأستاذ إسماعيل مظهر على كتبه المهداة للأستاذ شاكر، ثم إنه قد ذكر اسم صديقه يعقوب صروف.. من بين رجال الماسونية فى مصر... وهى جمعية سرية يكرهها محمود شاكر بلا ريب.. فهل نطلق على شاكر المثل القائل «وعين الرضا عن كل عيب كليلة»... أم أنه حقا لا يخاصم الناس على أفكارهم ولا يفسد الخلاف عنده ودا.... ربما، وربما، أن المثل يقول قل لى من أصدقاؤك أقل لك من أنت.

الثقافة العربية الإسلامية
مقابل الثقافة الغربية الوثنية

أما الذى حيرنى فى كتاباته للوهلة الأولى، فهو مقابلته دوما بين الثقافة الغربية الوثنية وبين الثقافة العربية الإسلامية، مع أن العرب قلة فى الإسلام.. ذلك أن المسيحية حاربت الوثنية، بل إنه بعد ما تم إيمان الرومان واليونان بالمسيحية.. وضعوا كتب الوثنية تحت «قبة»... وهى

الكتب التى طلبها هارون الرشيد من شارلمان.. كرد لهديته «المزولة» أو الساعة.. ثم ترجمها العباسيون وظهرت آثارها فى عصر المأمون.. الذى كان محنة للأئمة أجمعين حيث ثار السؤال.... هل القرآن قديم أم جديد؟

فلماذا يربط الأستاذ دوما بين المسيحية والوثنية؟... لدرجة أنه إذا اضطر أن يستحضر تحت سن قلمه كلمة ذات دلالة وثنية لتعبير «الربة أثينا» التى أمرت أجاكس «عوض» أى لويس عوض.. أن يحرر طروادة.. فإنه يردف كلمة «الربة» بعبارة و«أنا أستغفر الله من ذكر هذه اللفظة الأخيرة، وخطها بالقلم فإن الله قد عافانا من عبادة الأوثان، وخلعنا من أعناقنا ربقة العبودية لغير الله الأحد.. الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد..»

لقد وجدت عند شاكر نفسه.. أسباب ابتعاده عن هذا الأدب الغربى بشكل مبدئى، فقد كتب فى رده على الأستاذ سامى داود.. الذى كتب فى رثاء الدكتور مندور عن دوره الرائد فى الجامعة ـ فقد كان مندور يدرس للأستاذ سامى داود، رغم أنه كان مسيحيا دخل القسم العربى بكلية الآداب، لأنه كان محبا للدكتور طه حسين عندما قال: خلت الجامعة من الحماسة، وكتب شاكر معلقا على هذا الخطأ اللغوى» وهذا المصدر اكتسبه من دراسته فى قسم اللغة العربية!! «الحماسة». لم نعرف من المعارك، إلا معركة تدور حول كتاب لبرناردشو يقرؤه طلبة قسم اللغة الانجليزية، فتأتى بمحافل الرجعية «خذ بالك جدا!!» تعتدى على كلية الآداب، وتقتحم مكتب عميدها، وقبيح بالمرء أن يكون كذابا، وقديما كان يقال: وإذا كنت كذوبا فكن ذكورا». فالمعركة التى يذكرها

سامى داود وهو إنسان مترفق جدا، ناعم الملمس جدا، لم تكن حول كتاب نكرة لبرناردشو، ولم ينفرد بها هذا الكتاب وحده فيحسن إذن أن نقص القصة، ليقف القارئ على الروابط التى تربط هؤلاء الناس بعضهم ببعض.

كانا كتابين يدرسان معا، فى سنة واحدة، أحدهما هو «جان دارك» لبرناردشو وفى سياق أحاديث هذه القصة، مقالة لرجل يقال له «كوشون» ذكر أن جان دارك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الانجليز، لكى يخضع لأمر الله الذى أوحى إليها، فيعود إلى جزيرته، وإلا باء بغضب من الله، وأنها هى ستنزل عليهم غضبه، ثم يقول ما نصه: «ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب عادة جرى عليها قديما محمد عدو المسيح».. ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال: وبمثل هذا قام عربى جمال، فطارد المسيح وكنيسة المسيح حتى طردهما جميعا من أورشليم، ثم مضى يضرب فى الأرض، فيبث فيها الفزع والخراب.. حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب وهى جبال البرانس دونه وقامت رحمة الله، وحيل بين فرنسا وبينه، فنجت من لعنة الله، فما صنع هذا الجمال العربى فى بداية أمره أكثر مما صنعت هذه الفتاة؟ جاءه الوحى من جبريل، وجاءها من القديسة كاترينة، والقديسة مرجريت، والمبارك ميخائيل وأذن فى الناس بأنه رسول الله، وكتب الكتب إلى الملوك باسم الله، ثم يقول بعد قليل «إنا والحمد لله الآن بخير، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه وإلا الفتاة جان ومخدوعوها، ولكن كيف يكون الحال، إذا خالت كل فتاة أنها جان، وخال كل رجل أنه محمد؟

ثم تأتى بعد ذلك أسطر قالها رجل من رجال القصة يقال له «ورك» فزعم أنه حج إلى بيت المقدس، ورأى بعض أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، قال: «فلم أجدهم من سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونيها قبل، بل وجدت لهم أدبا لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا».

★★★

ويردف الأستاذ شاكر... «وبالطبع هذا شيء لايثير سامى داود أو أجاكس عوض إذا سمعه أو قرأه، ولكنه آثار «الرجعية» أى المسلمين، ولكن استغفر الله مما خط القلم، وصلي الله على محمد صلاة طيبة نامية مباركة، ولعن الله من يقول فى رسوله أو في أحد من رسله مثل هذا القول.. ثم نسأل هذا الآدمى المتحدث سامى داود «أترضى هذا؟ وإذا قلت: إنى لم أكن أعرف! فيقال لك: فما الذى أدخلك فيما لاتعلم، حتى صيرت نفسك مؤرخا لفترة من الفترات التى عشتها فى الجامعة.. ومع ذلك فأنا أسألك، إذا كنت قد جعلت نفسك في كلمتك مؤرخا، وجعلت نفسك ممن كان يقود شباب الجامعة، لتجمع الزعماء بالدماء ليقودوا معارك الحرية» أفلم تكن حقيقا بأن تعرف حقيقة ما أثار كلية الآداب وكلية الحقوق وغيرهما، حتى جاءوا يطالبون بإلغاء تدريس هذين الكتابين.. وأنت أيها الزعيم الشاب قد سميتهم «غزاة» جاءوا ليشتبكوا مع طلاب كلية الآداب فى معركة سخيفة تافهة!!».

«ولكنى محدثك، إذا لم تكن تذكر، بمن فرض هذين الكتابين على طلبة قسم اللغة الإنجليزية، أتعرف أم تنكر أنك تعرف أيضا؟، رجلا كان يقال له «كريستوفر سكيف» كان مبشرا جاسوسا بريطانيا محترفا،

وكان شرلتانا كصاحبك ـ يقصد لويس عوض ـ وقحا سيء الأدب، وكان قد ألف جماعة يقال لها «جماعة إخوان الحرية» أمرها مشهور في محاكمات الثورة، وكان يختار من الطلبة وغير الطلبة لهذه الجماعة شيعة وأعوانا، ويجعل للجماعة ظاهرا وباطنا: فالظاهر أن أكثره ممن يحمل أسماء مسلمة، والباطن «لا داعي لذكره» فأنت أعلم به ولا بأس، إذا كنت قد نسيت، أن أذكرك بأن صاحبك «أجاكس عوض» أهدى إليه كتابه بلوتولند وقصائد أخرى».».

ومن المعروف أن الأستاذ شاكر كان قد أشار إلى هذا الديوان، كبداية للكتابة بالعامية.. باعتباره أول الطريق لهدم اللغة العربية، وقد فصل ذلك في كتابه «أباطيل وأسمار».

ولكن حساسية محمود شاكر الفائقة هذه تدل على كره مبدئي.. ولكنها إلى الآن لم تجب على جمعه بين المسيحية والوثنية.. فأخذت أشحذ فكري على نسق منهجه التذوقي.. وعدت إلى قراءاتي السابقة في الأدب الغربي وبالفعل وجدت أن كثيرا من مسرحياته ورواياته بالذات، تحمل إشعاعا من فكر الوثنية أو الأسطورية،. بل لقد نبهتني هذه الروايات بظلال حل لغز جمع التوراة إلى الإنجيل في الكتاب المقدس، ولماذا والتوراة ملأى بالأساطير التي إن كان البعض يرى فيها رموزا لنشأة الوحي منها إصحاحات كثيرة، لا أرى فيها مايدعو إليه دين سماوي، وإنما هي أقرب إلى الأساطير والوثنية التي ظهرت في المسرح اليوناني القديم مثل أوديب الذي تزوج أمه، وفيدرا التي عشقت ابن زوجها وغيرها وقد انعكس هذا النهج متداخلا مع ذاك في كثير

على القصص الغربية التى سبق لى قراءتها، عند مورافيا، ثم الصور الجميلة لسيمون دى بوفوار، ولن أنسى القصص التى قرأتها للدكتور طه حسين فى استهلال مجلة الكاتب المصرى التى كان يشرف عليها ويحاول أن يغرى القراء بقراءة مثل هذه القصص التى تدعو إلى زواج المحارم، ويمكن الرجوع مثلا إلى عدد أبريل ١٩٤٦ من مجلة الكاتب المصرى والذى نشر بها ملخص لقصة بعنوان : «الساحرة المسحورة» ليرى الدليل على ما نقول ، الذى يدعونا إلى تأمله التعاطف معه بدعوى إنها صروف الحياة، وأقول لهم: وأين موقف ديننا الحنيف منها وقد نهى عنها، إن كل شريف يمر بمثل هذه القصص وهو مشمئز.. وإذا تعاطف معها فليعرف إذن تأثير الأعلام السيىء على نفوسنا، حيث يجعل المرء يتعاطف مع مجرم بل يكاد يحذره من البوليس الذى يتتبعه، ويسخر من رجل متدين يشيح بوجهه عن راقصة متجردة.

ولم يفت ذلك الذى كان ينشره الدكتور طه حسين على بعض كتاب ذلك العهد، فظهرت المقالات التى تهاجم ما نسميه اليوم «الأدب الماجن» فرأينا مثلا الأستاذ توفيق دياب يكتب عن ذلك، كما أن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى قد أشار إلى هذه القصص، وذلك فى رده الذى كتبه «النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى»، فقال: «وخذ إليك مثلا تلك القصص الفرنسية التى يترجمها صاحب الكتاب من آن لآن يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيرا . هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة؟ أو بينها وبين روح هذه اللغة صله؟ وإذا لم يكن فيها شئ يجدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية فى هذه الأمة يعينها على سبيل

العزة التى تريد؟ إنّا لا نظن أحدا دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها . وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلا لضربنا «الزنبقة الحمراء» فإن فيها من المعانى ما كنا نظن أن أستاذا يستحى أن ينقله للناس، أو أن مجلة مثل الهلال تتنزه عن نشره عليهم. . ولكنا نأبى أن نشير بأكثر من هذا إلى تلك القصص عامة وإلى هذه القصة خاصة، وإلا لكنا شركاء فى إثم النشر أو إثم التلخيص.

وما صنعه الدكتور طه فى القصص الماجنة يشبه صنيعه فى «حديث الأربعاء» حيث اختار النماذج الشاذة من أدباء العصر العباسى.. وترك أبا تمام والبحترى والشريف الرضى، ومهيار الديلمى والمتنبى والمعرى.

نستطيع بعد هذا أن نؤكد أن شاكر لا يكره الحضارة الغربية.. بقدر ما يكره أن نكتفى باصطباغ ما أبدعوه وأن نغمض عيوننا عن وسيلتهم للوصول إليه فالغرب لم يكتسب نهضته هذه، إلا بعد أن أولوا آثارهم اليونانية مزيدا من العناية والدراسة، حتى أزكت هذه الآثار، وكشفت جوهرها ، أى أن هذا العصر لم يتجاوز هذه الآثار إلا بعد أن اتكأ عليها، وأدخلها فى صميم بنيته.

وإذا أردنا أن ننتفع بتجارب الغرب، فلابد أن نسلك ما سلكوه من الرجوع إلى إرثنا ورجالنا، وفكرنا وآدابنا مهما أوغل فى القدم ثم نستخرج من تراثنا – هذا – ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذى عند الغرب أم لم يوافق – وإذا لم يوافق ذلك الذى عند الغرب.. فإن هذا

الخلاف سيكون فى صالحنا لأنه سيشق لنا الطريق المستقيم إلى حضارتنا نحن.. فإن الضد يميز الشيء والبذرة فى تربة ما يختلف ثماره عنه فى غيرها - المهم أن يوافق صريح عقولنا ولابد أننا سنرضاه ونستحسنه نحن بعيوننا، وعقولنا وسنجد فيه إن شاء الله كفاية لحاجتنا الفكرية والأدبية، وهذا مطلب عزيز وصعب. لن نناله إلا بالصبر والمجاهدة.. التى تعتبر كتابات محمود شاكر نموذجا منها.. وبها يشق الطريق لمن بعده.. إن هو قطع لامبالاته وانتبه ..

تهمتا السلفية والرجعية

بقيت لدى أخيرا من الأوصاف التى التصقت بمحمود شاكر تهمتا السلفية، والرجعية لذلك سأحتكم لشاكر نفسه فى تفصيلها يقول : «فمن معسكر الصراع بين الحضارة الغازية وبين الحضارة الإسلامية أو بقاياها يومئذ.. ظهرت كلمة «السلفيين» مقرونة بتبغيضها إلى العامة، وتصويرها فى صورة منكرة تكرهها النفوس لأنها تشق عليها ، ثم بدأت الكلمة تدخل فى محيط الصراع الإجتماعي فمن أول ما أذكر من ذلك أن التخلف الكريه المسمى «سلامة موسى» صنيعة المبشر «ويلككس» ، كان أكثر الناس استعمالا للفظ «السلفيين» للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف، فى مقابل الدعوة التى أرسلها يغوى بها من اصطنعوه.. أى بعد دخول ثورة سنة ١٩١٩ ، فى انهيارها وانفصالها عن حقيقة الشعب الذى أشعل نارها ..

ولكن هذه اللفظة «السلفية» كانت شديدة على الألسنة، لا تلين بها كل اللين ، فبعد قليل - ولا أدرى كيف كان ذلك، لأن الأمر يعتمد على

التتبع التاريخى للعبارات يوما يوما، وشهرا شهرا، كما أرى - بعد قليل رأينا لفظ «الرجعيين» يحل محل السلفيين فجأة ، وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة، وإذا بنا نراه مستعملا على ألسنة ضرب من الكتاب أمثال التالف الغبى «سلامة موسى» ، من صبيان «التبشير» وسفهائه الذين يسافهون عنه وعلى ألسنة أصحاب الصحف من نصارى لبنان المقيمين فى مصر، والمسئولين على صحافتها يومئذ، ثم لم نلبث إلا قليلا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها، واشتق له مصدر هو «الرجعية» يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن «الإسلام» تهربا من أن تنالهم تهمة الطعن فى دين الدولة، واستشرى الأمر زمانا طويلا ، فصار كل من أنكر شيئا على هذه الحضارة الأوربية المسيحية الوثنية، المقترنة بالغزو العسكرى والغزو السياسى لبلادنا من أخلاق أو فكر، أو عادة ، أو طريقة للحياة «كما يقول توينبى» صار ينبذ بأنه «رجعى» وظل هذا هو معنى «رجعى» إلى نحو من سنة ١٩٤٣ ، حين بدأت الحركة الشيوعية فى الظهور، فاستخدمت اللفظ على الأنظمة التى كانت تقاومها، لما فيها من الفساد والتعفن ، وإن كان اللفظ عندهم أيضا دالا على مثل ما كان يدل عليه أعوان الاستعمار والتبشير بالحضارة المسيحية الوثنية الغربية».

هذا بعض ما فصله رجلنا عن التهمتين اللتين ألصقتا به .. وبكل من يتمسك بدينه. أما حكاية .. كرهه للمستشرقين .. مع أن هؤلاء المستشرقين ، كانوا من الرواد فى الكشف عن تراثنا - كما كنا نحن بالنسبة للفلسفة اليونانية ، فإننى أرى محمود شاكر لا يسحب حكمه

على مطلق المستشرقين ذلك أننى أراه فى مقدمته لكتاب مالك يقول: «ولكن الشعر الجاهلى» قد صب عليه بلاءات كثيرة آخرها وأبلغها فسادا وإفسادا ذلك المنهج الذى ابتدعه مرجليوث لينسف الثقافة، فيزعم أنه شعر مشكوك فى روايته، وأنه مصنوع بعد الإسلام، وهذا المكر الخفى الذى مكره مرجليوث وشيعته، وكهنته، والذى ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا .. كما شهد بذلك رجل من جنسه، هو آربرى، كان يطوى تحت أدلته ومناهجه وحججه، إدراكا لمنزلة الشعر الجاهلى فى شأن اعجاز القرآن، لا إدراكا صحيحا مستبينا ، بل إدراكا خافيا مبهما تخالطه ضغينة مستكينة للعرب والاسلام».

وقد يقول قائل : أن الأستاذ شاكر لم ينصف آربرى لكنى أقول: معه كل الحق .. إذ كيف يفهم من عرف العربية وهو فى الثلاثين من عمره .. معرفة مستدرك مستبين ولد عليها ، ثم لماذا يدرس العربية أصلا ..؟ هل لأنه يريد أن يتباهى على أهل جلدته الذين فاقوه فى معرفة لغتهم؟ .. أم أنه أراد أن ينفع بلاده؟.. فيكون لها جاسوسا وهذه بعض التساؤلات المثارة !.

★★★

أما القول الذى أطلق جزافا على محمود شاكر بأنه يحس شعورا زائدا بنفسه فكتاباته قد دللت على أنها لم تكن عظمة فارغة .. فأنا عندما قرأت كتبه وجدته قد دافع عن هذه الخصيصة التى سترد على خواطر القراء بلا ريب مثل قوله ، الذى يلزم قراءته كاملا واستبيان معانيه بدقة وموضوعية فى مقدمته «فصل فى إعجاز القرآن» «ولسائل

أن يسأل فحدثنى إذن، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها؟ وكيف هذا الذى زعمت عن أئمة العلم من قبلك؟ وكيف أخطأه علماء البلاغه، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك؟ وما الذى صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج، وما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن، فى القديم والحديث؟» .

«وحق علىّ أن أجيب ، ولكن يقتضى جواب هذه المسألة أن أقص قصة أخرى، لا أستوعب القول فى حكايتها تفصيلا، بل أوجز المقال فيها إيجازا مدفوعا عنه الخلل ما أطقت، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق !

فأهل الجاهلية ، هم من وصفت لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة فى قلوبهم ونفوسهم، وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم فى إدراك الحاجز الفاصل بين ما هو من نحو البشر، وما ليس فى نحو بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم هو فى آيات الله بمنزله عصا موسى، وابراء الأكمه والأبرص فى آيات أنبيائه لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزله من السماء على قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبى مرسل، عليهم أن يتبعوه فلما كذبوه وأنكروا نبوته، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا الذى يسمعون فى نظمه وبيانه.. ولكنهم ألجموا ألسنتهم إلجاما عن معارضته فى بيانه، لأنهم وجدوا فى أنفسهم مفارقته لبيان البشر، وجدانا ألجأهم إلى ترك المعارضة إنصافا

للبيان أن يُجار على حقه، وتنزيها له أن يزرى به جورهم على هذا الحق».

«وعلى الذى تلقوه به من اللدد فى الخصومة والعناد.. لم يلبث أن أستجاب له النفر بعد النفر.. فأقبل كل بليغ منهم مبين، يحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به».

«ثم صار للقرآن فى جزيرة العرب دوى كدوى النحل..».

ثم طار بهم هذا القرآن فى كل وجه، يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلى شهادة ألا إله إلا الله.. وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور. فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام فى كتاب «طبقات فحول الشعراء» حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب فى أهل الجاهلية: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» فقال ابن سلام تعليقا على ذلك: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير».

«ولا يغرك ما قال ابن سلام، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هداهم الله للأسلام، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صما «بكما» وخلعوه من عقولهم وألسنتهم كما خلعوا جاهليتهم، فهذا باطل تكذبه أخبارهم..»..

«وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا ، نزل معهم الذكر الحكيم،

ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه، وتناشدوه ، وقوموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب».

«واستفاضت بالمسلمين الفتوح، واستفاض معهم شعر جاهليتهم ».

ثم فارت الأرض بالإسلام من حد الصين شرقا إلى حد الأندلس غربا، ومن حد بلاد الروم شمالا إلى حد الهند جنوبا وقامت المساجد فى كل قرية ومدينة وازدحمت فى ساحاتها صفوف عباد الرحمن وتحلقت الحلق فى كل مسجد، وتداعى إليها طلاب العلم فطائفة تتلقى القرآن.. وطائفة تتلقى تفسير الحديث وأخرى تتلقف شعر الجاهلية».

«وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان فى أهل كل دين، وجاءوا بالمراء والجدل وأفضت الجرأة يوما برجل فى أواخر دولة بنى أمية، يقال له ، الجعد بن درهم.. كان شيطانا خبيث المذهب، تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له : «طالوت ، فكذب القرآن فى اتخاذ إبراهيم خليلا، وفى تكليم موسى إلى هذا وشبهه وكان من قوله: إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها!! فضحى به خالد بن عبدالله القسرى فى عيد الأضحى فى نحو سنة ١٢٤ من الهجرة».

«وكلام الجعد، كما ترى ، استطالة رجل جرىء اللسان، خبيث المنبت بلا حجة من تاريخ أو عقل». ثم يتابع شاكر رؤاه وحجته فيقول :

«ولم تكد دولة بنى العباس ترسى قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحص «إعجاز القرآن» من باب غير باب السفه والاستطالة، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام، فأتاه

من قبل الرأى والنظر، حتى زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليهم، فكانت هذه الصرفة هى المعجزة ، أما معجزة القرآن فهى فى إخباره، بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتى وهذه مقالة لا أصل لها إلا الحيرة والابتهار بهذا الذى أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم..».

«ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين ، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان، وغلبة حجة، ومناهضة دليل بدليل، حتى صارت مسألة إعجاز القرآن مسألة تستوجب أن ينبرى لها رجل صادق «١».

«ورضى الله عن أبى بكر الباقلانى، فقد جمع فى كتابه خيرا كثيرا واستفتح بسليم فطرته أبوابا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا، ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التى انتهت إليها».

فالباقلانى عندما هاج على من وازنوا القرآن ببعض الأشعار، من المتكلمين وأصحاب الجدل والملحدين. وهب إلى تسفيه هذه الموازنة .. لاسيما عندما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار.. فلم ينتبه فى حماسته فى الرد على هؤلاء إلى منهاجهم قد استغرقهم.. فدعا

---

(١) إن تفضيل المتكلمين لبعض أشعار الجاهلية فى اختصارها عن القرآن يذكرك بالرسالة التى بعث بها محمود شاكر للأستاذ مصطفى صادق الرافعى والتى كتب عنها مقالته «كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة» .

هؤلاء و.. هؤلاء.. أن يعمدوا إلى أجود قصيدة يعرفونها من شعر أمرؤ القيس.. وجعل يفصلها وينقدها ويمحو محاسنها ويثبت، ويقف بهم على مواضع خللها.. ثم يأتي حكمه أخيرا: «وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها «الشعر الجاهلى» تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة».

«وقد طبق منهجه هذا على القرآن فانتهى إلى أن القرآن خالٍ من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم».

«أما زلة الباقلانى.. فهى أن موازنته هذه اقتصرت نتائجها إلى هتك الستر عن معلقة أمرىء القيس، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانها، كيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن .. ولكن هذه الزلة، زل بها من بعده وأخطأوا.. وأخذوا الشعر الجاهلى كله هذا المأخذ، حتى أفضينا به فى العصر الحديث إلى أقبح الشناعة .. يوم فرض الاستعمار .. وأصبح الشباب يتعلم لغته على أنها درس محدد - فى آخر اليوم الدراسى أما الأنجليزى فكان أول حصة - فثقلت اللغة العربية بهذا التحديد المجرم على كل نفس، ثم لما أنشئت الجامعة، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم، ومن الإستهانة بأمرها، طلع قرن الشيطان بفتنة الشعر الجاهلى والتشكيك فى صحته، وطار الشر إلى الصحافة «١» فاتخذت اللغة القديمة كلها، لا الشعر الجاهلى وحده، مادة للهزؤ».

(١) أنت ترى أن ليست الصحافة فقط هى التى تهزأ باللغة العربية بل الأعمال الدرامية .. حتى يأتى المثقفين فيها على سبيل السخرية منها .

وينهى الأستاذ شاكر كلامه بقوله : هذا تاريخ مختصر للأسباب التى وقفت بالشعر الجاهلى حيث وقف قديما، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذى كشفته وبينته، وكان لزاما عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة «إعجاز القرآن» دراسة صحيحة سليمة من الآفات.. أى اختلاف خصائص بيان القرآن، عن خصائص بيان البشر، على اختلاف ألسنتهم .. وأما بعد فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها وتخرج بهديه الناس عن ضلالتهم.. ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها .. وأنا أعلم أنى قد قصرت فى ذلك كله واختصرت وإن كنت قد أطلت، وأخشى أن أكون أمللت، ولكن عذرى.. أن الرأى فيهما قد شابه ما كدره.. فبذلت جهدى أن أفحص القول .

هذا كله ، بطوله أو قصره.. هو ما بذله شيخنا شاكر فى الشعر الجاهلى وحده.. فما بالك .. بما بذله فى قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب أسلافنا .. من تفسير لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح «١» والتعديل إلى كتب الفقهاء فى الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين «أى علم الكلام، وكتب الملل والنحل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة، وكتب النحو وكتب اللغة، وكتب التاريخ ، وماشئت بعد ذلك من أبواب العلم ، ويقول

---

(١) هو علم نقد رجال الحديث الشريف .

هو إنــه عـمـد فى رحلتـه هذه إلى الأقـدم فـالأقـدم ، كل إرث آبائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خبايا أنفسـهم بلغتهم، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومنهاجهم ، وشيئا فشيئا انفتح لى الباب يومئذ على مصراعيه ، فرأيت عجبا من العجب، وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خفية كالهم، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول».

وهنا اتساءل .. اليس من حق شيخنا شاكر وقد وسع علمه كل تلك العلوم ، وثابر وكابد المشقات فى التحصيل والتأصيل، والدفاع الجسور عن دين امته ولغتها وحضارتها بالحجة والبرهان.. اليس من حق ان يثق بنفسه ، لاغرورا كاذبا، وإنما حدبا على الحقيقة التى ضلت بين أهلها.

★★★

على أننى بعد أن كدت انتهى من غربلة وتصفية كل الأوصاف التى قيلت عنه، وجدت خاطرا غريبا يرفع رأسه ويطن فى وجدانى قائلا: لو كان والدك رحمه الله مايزال على قيد الحياة هل كان يأذن لك بزيارة الأستاذ شاكر؟ .. دارت هذه الفرضية العابرة فى ذهنى.. كما دارت كل أحداث حياتى فى ميزان رضا أو سخط أبى فى لحظات قصار. وكأنها فيلم طويل تستغرق أحداثه سنين متطاولة .. ولكن هذه النافورة التى يشكل رذاذها الأحداث التى مرت بى سرعان ما هدأت حتى تمكنت من فرزها واحدة واحدة.. وكان سندى هو أن أول ما عرف عن الأستاذ شاكر فى الحياة العربية هو نقده الشديد لأقوال وأفعال الدكتور

طه حسين وأحسب أن هذه الميزة وحدها ترضى عائلتى الأزهرى نصفها والدرعمى نصفها الآخر.. واللذان قد يختلفان حول كثير من القضايا وفقا لخاصية الدراسة فى كلا الأزهر ودار العلوم لكنهما .. قد ألتقيا فى إدانة دعوة طه حسين لانتشار المدارس ومجانيتها رغم ان التعليم كالماء والهواء، ويرياها دعوة هدامة تلبس ثوب الإنسانية، فالنصف الأزهرى كان يرى أن هذه الدعوة لا تخرج عن كونها انتقاما من الأزهر الذى فشل فى الحصول على عالميته.. حتى لا يذهب إليه أحد مادامت كل المدارس ستكون بالمجان وليس الأزهر، وحده، والنصف الدرعمى رآها مسايرا لدعوته «لابد من هدم قرطاجة وإن طال الزمن» أى إلغاء كلية دار العلوم والاكتفاء بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - التى تمثل فيها بكلمة الزعيم الرومانى أيام عدوان الرومان على أهل قرطاجة «تونس» الآن. وهكذا التقيا بالوجدان الناصع قبل العقل الساطع، فالكتب التى ألفت فى الرد على أفكار طه حسين حول هذا الموضوع فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» اشارت إلى أن دعوته لنشر المدارس على النظام الأوربى. كان حيلة المؤلف لإلغاء الأزهر الذى لا يستطيع المجاهرة بإلغائه، لأن وقت ذلك لم يحن بعد، فيطالب أولا بأن تشرف الدولة على التعليم الأولى والثانوى فيه مادام مصرا على أن يستقل بهما لنفسه، لأننا لو تركنا الفتيه والأحداث للتعليم الأزهرى الخالص، ولم تشملهم عناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة، عرضناهم لأن يصاغوا صياغه قديمة، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التى لابد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها أنظر على على نحو ما تعرض له

«الفصل الثالث من كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر «قديم وحديث» .

ولأن أفكار شاكر قائمة بذاتها، فلا أحسب أن والدى رحمه الله كان سيعارض هذه الزيارة .. فكتاباته كما عرضتها أمامكم وأمام نفسى تدل على شعور بالواجب الثقافي تجاه وطننا العربى، ومسئوليته أمام ضميره، وأمام التاريخ ولم تكن هجرته إلى الحجاز ولا محاولته مفارقة الحياة عن شعور سلبى، أما عزلته فهى إيجابية فى نظرى - ومن خلال ما كتب عنها من مقالات - ذلك أنها كانت تنكر المنكر.. ويلتمس فيها هذا العزاء الذى لا يلتمسه إلا عظماء الرجال وذلك أن الخديعة لا تحب العزلة .

وأنا أرى أن كتابات شاكر تمهد هذا الطريق إلى الفلاح وعلى من يقول: إن أداة محمود محمد شاكر هى محض لغة. أدعوه أن يتذكر قوله تعالى «خلق الإنسان علمه البيان» ومن الغريب أن أستمع - عرضا- إلى برنامج «العلم والحياة» وكانت الحلقة عن القواميس ، أن أحد الصحفيين سأل مكتشف الألكترون عن أهم اختراع يفيىء العالم كله إلى ظله - وقد توقع الصحفى أن يقول العالم ، إنه الذرة أو الالكترون أو الليزر ولكنه وجد العالم يقول اللغة وتحديدها .. بمساعدة القواميس .

وهذا العالم محق فيما قاله .. ذلك أننا نسمع كل يوم أن الاختراعات الحديثة كالكمبيوتر مهددة بجرثومه تمحو أثرها فى أقل من الثانية .

أما اللغة فليست مرآة الفكر كما يقول المتحذلقون.. إنما اللغة إبداع العقل والوجدان جميعا، واللغة طريق المعرفة الكاملة، والذين قالوا إنها توفيق من الله تعالى لم يبعدوا عن حقيقة أنها مساوية لأثمن ما فى الإنسان ، للروح التى نفخها الله فيه. بل لا تفسر لضعف شوكة العرب وانحلال همهم إلا لإنحلال لغتهم، والمعانى التائهة البلهاء ضرب من الانحلال ، والشقشقة اللفظية التى تسمى خطأ بلاغة ضرب آخر .

فالكلمة هى البيان و«البيان هو نعمة الله الكبرى التى أنعم بها على عباده من كل جنس ولون . فمن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده ، وبالنعم الكبرى التى أخرجته من حد البهيمة العجماء ،إلى حد الإنسان الناطق بل إن الثقافة بعلومها وآدابها وفلسفتها، عالة على الكلمة فالكلمة إذن هى كل شىء .

الباب الثانى

اللقاء

الفصل الخامس

بداية اللقاء

أما وقد وقفت بكم على باب ساحته الرحبة ، وأنا أصبو - بما يجوب داخلى من رهبة - إلى الولوج إليه ، والتوغل فى أغـواره ، ومـجـابهـتـه وجـهـا لوجـه ، سندى فى ذلك معايشتى لأفكاره وكتاباتـه وكتابات غيره عنه ، ومددى من فيض مجالسه وتجاربه عبر شهادات أصدقائه وتلاميذ ومريديه ، وزادى مـا أدركـتـه عنه من جـوهر المبـدع الصـدوق، فليفـتح شيـخنا بابه ، ولندلف إلى مـفـازاته ودوحاته الرحيبة المديدة.

وأبدأ قصة اللقاء من أولها ففى يوم من أواخر شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ ، كنت أتناول الغداء مع والدتى رحمها الله ، وكان لدى إحساس بأن شيئا ما سوف يحدث ، وفعلا بعد فترة قصيرة ، اتصل بى هاتفيا الناقد المعروف الدكتور صبرى حافظ ، الذى كان يعلم مدى شغفى لمعرفة الأستاذ محمود شاكر ، وبعد أن أعطانى رقم هاتفه الخاص ، أخبرنى بأن صديقنا الحسانى حسن عبدالله كان عنده أمس فانتظرت إلى يوم الثلاثاء التالى وفى صباح اليوم الموعود ، استجمعت قوتى بل جسارتى وأدرت قرص الهاتف ، طبقا للأرقام التى عرفنى إياها الدكتور صبرى .. واتخذت من السؤال عن الأستاذ الحسانى وسيلتى للحديث مع الأستاذ محمود شاكر . وما أن أجاب حتى أحسست بصوته يرجنى ، وكأنه يجابهنى شخصيا ، سألته عن الاستاذ الحسانى وهل هو موجود ؟ فرد علىّ وقال . لا : إنه يأتى يوم الجمعة .. فقلت : ولكنه كان عند سيادتك الثلاثاء الماضى وكأنه ارتاب فى شخصى قال : كانت صدفة ومن أنت ؟ قلت زميلة للحسانى بمؤسسة السينما فقال : ولماذا لم نرك ؟ قلت حسانى رفض ذلك مع أنى أريد أن أكتب عنك .. فقال : دعك من الكتابة هل لك أقدام ؟ قلت نعم ، ولكنى لا أعرف العنوان .. فأملاه علىّ بتفصيل دقيق .. وكان ثمن تذكرة المواصلات العامة إليه يومئذ ثلاثين قرشا .. أى غرامة كبيرة .

وفى عصر يوم الجمعة السادس من ديسمبر عام ١٩٧٠ .. أذكر أننى ركبت الاتوبيس رقم «٩٨» من الروضة إلى التحرير ثم آخر رقم «٣٠٠» إلى قبلتى «فى مصر الجديدة شارع الشيخ حسين المرصفى رقم «٣» ولا أستطيع وصف حالة الوجل الذى صاحبنى طول الطريق إليه أو حين مثل أمامى فاتحا لى الباب بنفسه، فإذا بهيئته تطيح بما رسمته له من صور من خلال الروايات التى سمعتها عنه ووصفهم إياه بالشيخ ، فلم يكن معمما ولا ذا لحية طويلة كثيفة ، إذ لقيتها خفيفة، وينطبق عليه بالإجمال ما وصفه به الأستاذ محمود البدوى : « والأستاذ شاكر» طويل فى نحافة ، حاد الصوت والنظرة ، فيه عنف العربى إذا أثير ، ولكن مع صلابته يلقاك بالبشاشة والود ، وما لقيته إلا مبتسما ».

لم ألحظ فى الوهلة الأولى لرؤيته ، إلا بساطته وتواضعه الأصيل بالفعل مع ابتسامته الودودة ، وقدرت أن عمره ، تجاوز الستين بقليل .

ولأن زيارتى له كانت فى الصيف ، فقد وجدت الضيوف الذين سبقونى يجلسون فى شرفة شقته الفسيحة فى الهواء الطلق .. وكانت جلستى فى أول مقعد صادفته .. وكان مكانه الأثير كما عرفت فيما بعد - ولما لم أكن أعرف من الجلساء أحدا .. فقد كنت أخفى خجلى بالنظر إلى الكتب التى لاحظت أنها تملأ جدران الردهة المواجهة لى . مجلدات بأجزاء كثيرة ، وعناوين لم أسمع عنها فى متابعاتى لتاريخ العربية ورجالاتها «الصلة لابن بشكوال » ، «تكملة الصلة لابن الآبار» ، «نفح الطيب للمقرى» ، «المحلى لابن حزم» ، «البداية والنهاية لابن كثير»

«المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجـوزى» ، «الكامل في التــاريخ لابن الأثير» «كتاب النبات لابن حنيفة الدينورى » «طبقات الحفاظ للسيوطى» و .. و . وفجأة .. كأنه ببشاشته . يزيح عنى الخجل بالنظر إلى الكتب ، سـألنى عن لقب «الشـريف» فى اسـمى - فـأعدت على مـسـامـعـه وأنا أتلعثم، مـا كان يقصه والدى علىّ من أخبار عن شجرة عائلتنا العربية ، وهنا اسـتـوضـحنى عن البلدة التى جـئنا منهـا إلى القـاهرة ، فقلت: «بعضـها من أخميم والآخر من «جرجا» فتهلل وجـهه وهو يقول : قطعا نحن أقـرباء فـأنا أيضـا من جـرجا ، ثم أخـذ يشـرح للضـيوف وجلسـاء الندوة : أنساب العائلات العربية التى تشعبت فى مصر بتمكن واقتدار ، ولكى أحول دفة الحديث عنى وأنا أواصل النظر إلى مكتبته الهائلة قلت: لم أكن أعرف أن كتب التراث العربى بهذه الضـخـامة والتنوع ، عندئذ بادر إلى تصـويب سـؤالى - وتلك عادة عـرفت بعد ذلك أنهـا من ألصق عـاداته قـبل الإجـابة على السـؤال - وقـال لى : ليس هناك شئ باسم التراث العربى ثم شرح لى أن كلمة تراث تطلق على نتاج حضارة بادت واندثرت ، ثم نتناولها بالحـديث أو الكتـابة ، أمـا حضـارتنا العـربيـة فمازالت مستمرة باقية وليست تراثا ثم تعاظمت نبرة صوته وهو يشرح أدق التفـاصيل ، ولم يهدأ إلا بعد أن انتـهى من تصـويب كلمتى - التى قلتها عفوا من شدة خجلى - وبيان وجه الخطأ فيها ، ورأيه فيمن يقول ذلك .. وربما كـان سـيطيل أكثـر لولا ظهـور أولاده الصـغـار فى المكان الذى نجلس فيه .

وللاسـتـاذ مـحـمود شـاكر من الأولاد (فـهر) وكان عمره ، يوم كانت

أول زياراتي ، ست سنوات ، و(زلفى) وكان عمرها لا يتجاوز السنة والنصف ، وقد أكد لى صغر سنهما على ملمح من شخصيته ، ألا وهو أن علمه وفكره ، ومكتبته وبحثه ودرسه ، ومعاركه وآلامه ، وزملاءه وتلاميذه ، كل ذلك أخذ شطرا كبيرا من عمره قبل أن يتزوج .. ذلك أن الدكتور مندور قال لى أنه ومحمود شاكر كانا زميلين فى دفعة واحدة . وأولاد شاكر يمكن أن يكونوا أحفاد مندور . مع أن مندور تزوج بعد عودته من بعثته فى فرنسا .

وعندما رددت اسم (فهر) بشفتى بينى وبين نفسى - لأنه الاسم الذى يكنى به ويكتبه على عناوين كتبه ومقالاته (أبو فهر) - أحاول أن أتذكر مكانه بين نسب قريش ، قطع شيخنا علىّ تفكيرى .. وكأنه يقرأ مادار بخلدى : هو قرشى وهو الجد العاشر لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهنا أدركت أن شيخنا له فراسة نادرة ، إضافة إلى علم واسع غزير ، فذكرنى بالحديث الشريف «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» .

أما اسم ابنته «زلفى » فقد أعادنى إلى مقدمة كتبه لاسيما الظاهرة القرآنية «حيث يستهلها دومـــا» ، الحمد الله وحده لا شريك له حمـــــدا يقربنا إلى رضوانه ، وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، صلاة تزلفنا إلى جنته »

وقد أكد لى سلوك الأستاذ شاكر فى هذه الجلسة الأولى ما كتبه

عنه أحد تلامذته وأصدقائه الدكتور محمود الطناحى (١) حيث قال وشيخنا فى مجلسه طيب ودود ، يؤنس جلساءه ، ويجعل لكل منهم نصيبا مفروضا من وده وإقباله ، لا يصطنع وقارا كاذبا ، فيطرب للنادرة المهذبة الحلوة ، ويستزيد منها ويرويها » .

وقد حاولت أن أستأثر به لنفسى - دون مريديه - لأنهل منه وأتوغل فى طيات حياته - بحجة إجراء حوار معه - فذهبت محاولتى أدراج الرياح ، فتأكدت أنه لا يستهويه الإدلاء بالأحاديث ، ولا تغريه الصحافة فى شئ ، مما سبب لى شيئا من الحرج شعر به تلميذه الدكتور ناصر الأسد (٢) ، وكان من حضور الجلسة ، حيث انتحى بى جانبا يحاول أن يخرجنى مما أنا فيه فبدأ يحدثنى هو عن الاستاذ محمود شاكر ... وظروف تعرفه عليه وما وصله من شخصه وعلمه فقال : «كنت بصحبة زميلى الدكتور محمد يوسف نجم ، يوم زرته عام ١٩٥٥ بعد انتهائى من إعداد الماجستير وبداية إعداد رسالة «الدكتوراه» فأبدى رغبة فى أن تستمر المودة بيننا ، فتأكدت أن صداقة سريعة قد نشبت بيننا . وقد

---

(١) للتفصيل راجع الرحلة الرابعة مرحلة الأفذاذ من كتابه «مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي» .

(٢) كانت رسالة الدكتور ناصر لـ «الدكتوراه» عن الشعر الجاهلي - وقيل أن بصمات شاكر واضحة عليها ، ووقت إدلائه بهذا الكلام كان سكرتيرا للمنظمة العربية للثقافة والعلوم ، وهو رئيس المجمع الملكي الأردني ومؤسس الجامعة الأردنية ومديرها السابق .

أفدت من مجالس محمود شاكر مالم أفده من مجالس أخرى -ي جميع مراحل حياتي ، لا استثنى من ذلك مرحلة دراستى فى الجامعة فليس مبلغ علمه هذا الأسلوب الفريد الذى لا تخطئ فيه شخصية كاتبه مهما يكن الموضوع - فقها كان أم شعرا أو نحوا - فهو يصرخ دالا على صاحبه ، ونبض كل عبارة فيه بأصالة الكاتب وتفرده » .

وإذا كنت قد قرأت له «المتنبى» و«أباطيل وأسمار «ومقالاته في الرسالة» وبعض تعليقاته وشروحه وحواشيه على الكتب التى حققها ، فأنت فى غنى عن أن يدلك بالأمثلة على خصائص هذا الأسلوب المتميز وإلا فالمطلب عسير وإن كنت من أهل العربية العارفين بالتراث وأهله ، يذكرك أسلوبه بأساليب الأئمة الشامخين من أمثال : الجاحظ ، وأبى حيان التوحيدى ، وابن حزم ، على تفرد كل منهم ، وإنما جمعتهم الأصالة والامتياز » .

وبقدر ما لفتت هذه الكلمات نظرى إلى أن العطاء الفكرى لهذا الرجل لم يكن من خلال كتبه ومعاركه ، بل من خلال تلامذته المنتشرين فى الأرض العربية والإسلامية ، والتى كانت قبل استجلاب التليفزيون لمصر سنة ١٩٦٠ .. أما الآن فإن مجمل الزوار هم الذين يشكلون لون الجلسة. فإذا كانت الغالبية من العلماء والدارسين .. تألق الأستاذ محمود شاكر وحلق فى آفاق العلم أما إذا كانوا أناسا عاديين أقارب وأسر - حيث صار كل مريد يصطحب زوجته فإنها تصير جلسة مسامرات عادية موشاة بالعلم .. وفى كلا الحالتين كان الاستاذ محمود

شاكر يتنقل بين جلسائه ، يداعب هذا ويشاكس ذاك .. فى تحبب ،
ولأنى كنت جديدة على الجلسة فقد خصنى الاستاذ بقدر من الاهتمام
آثار حفيظة البعض .. لاسيما وقد لبى طلبى فى أن أستعير العدد
الممتاز للمقتطف الذى حوى دراسته عن المتنبى ، وأذكر أنى يوم زرته
خرجت من منزله ليلا متوجهة لميعاد سابق مع أسرة الشاعر صلاح
عبدالصبور وأخبرتهم بزيارتى للاستاذ محمود شاكر .. وشاهدوا معى
عدد المقتطف ، هنأنى صلاح لأننى حزت اعجاب الاستاذ ورضاه ،
وعندما استفهمت قال لأن الأستاذ شاكر لا يعير كتبه ، فالذى يريد أن
يقرأ فى كتاب نادر أو مخطوط وحيد لديه .. عليه أن يذهب إلى بيته
للإطلاع على ما يريده .. ثم يعيد الكتاب إلى المكتبة قبل المغادرة .

والحق أن ما أبداه الشاعر صلاح عبدالصبور أسعدنى ..
وأستأنست به على أن لدى الأستاذ محمود شاكر ثقة مبكرة بى .. فكان
علىَّ أن أثبت جدارتى بهذه الثقة .. وفى سبيل ذلك عكفت أقرأه بعناية
فائقة . وبكل ما أوتيت من قوة رحت أحيط بالكتاب من أطرافه أى
من النفثة القديمة ، التى أستروحها احتفاء بقدومه على الكتابة عن
المتنبى :

ذكرتك بين ثنايا السطور	وأضمرت قلبى بين الكلم
ولست أبوح بما قد كتمت	ولو حز فى النفس حد الألم
تمزقنى .. ما حييت – المنى	فأرقع ما مزقت بالظلم
فكم كتم الليل من سرنا	وفى الليل أسرار من قد كتم
تشابه فى كتم ما نستسر	سواد الدجى ، وسواد القلم

إلى أن وصلت إلى البيتين اللذين كثف بهما وقع شخصية وشعر المتنبى على نفسه :

فدتك نفوس الحاسدين ، فانها ... معذبة فى حضرة ومغيب

وفى تعب من يحسد الشمس ضوؤها

ويجهد أن يأتي لهـــا بضريب

محمود محمد شاكر

٣ شوال ١٣٥٤

٢١ ديسمبر ١٩٣٥

وقد استوقفنى أن الاستاذ محمود شاكر ، قد أثبت تاريخ هذين البيتين ولم يثبت تاريخ إنشاده للأبيات الخمس التى تكون «نفثة قديمة» فغيب علينا ما إذا كانت هذه الأبيات تتبع «ديوان البغضاء » الذى كان يصدر تحت شعاره جل شعره الذى سبق نشره فى المجلات والصحف .. أم أنها قصيدة ذات طابع خاص وسرى للغاية لا يمكن البوح به ، وأنها حقا «نفثة قديمة » .

*

الفصل السادس

معركة مع البحر المتلاطم

لم يكف الأسبوع الذى تخيلته امتحان قدرات للإحاطة بهذا السفر الانسانى فى دقته وتفرده ووفرته ، فأعطيت لنفسى مهلة للدراسة والفحص وأخذت أقرأ ما يساعدنى ثم توقفت مليا عند سبب إيراده للأبيات الخمسة الغزلية التى عنونها بـ «نفثة قديمة» ورحت أساوق بينها وبين ما جاء فى الفصل الثالث عشر حول حب المتنبى «لخولة» أخت سيف الدولة ، لا سيما وقد شعرت أن التقاطه لهذا الحب ، قد جعل الأستاذ فؤاد صروف يذكره وكأنه فكرة طائرة ليست ثابتة على قواعدها .. قلت لنفسى لو أن الأستاذ صروف التفت إلى «نفثة قديمة» ما جاء كلامه عابرا هكذا ولقال لنفسه إن شاكر كتب المتنبى فى ظلال تجربة حب كبير ، قر عزمه على كتمانها عن المحيطين به حتى لو كبده لهيبها اللاهث ما لا يطيق أو ما عاناه ، وهو يكتب بالمداد القاتم هذا البحث الشاق عن المتنبى .

لم أقل لنفسى يومهـــا إن هذه الأبيات التى عبرت عن حبه الدفين ، تشى بأنه أسقط تجربته الذاتية على المتنبى وحبه لخولة ، بقدر ما قلت إن هذا الحب هو الذى أعانه فى التقاط حب المتنبى لخولة ، لشدة الشبه فى ظروف عدم معرفة المحيطين بهما «المتنبى وشاكر» .

اتصل بى الأستاذ شاكر خلال الأسبوع المهلة .. ليسألنى : لماذا لم تأت يوم الجمعة الفائت ، فلم أشأ أن أطلعه على عرجى فى قراءة المتنبى بل قلت له - وكان هذا صحيحا - : إن فى باقة مريديك من بادرنى بالعداء فاستفهم : من ؟ قلت له : سيدتان - ولأنى لا أتذكر أسماء من يعادوننى - فقد وصفتهما له ، فما كان منه إلا أن انفجر فى الضحك وهو ينادى : «أم أفهر .. أم فهر .. تعالى واسمعى ماذا تقول عايدة ؟» تناولت الهاتف واستوضحتنى من ؟ فأعدت على مسامعها ما قلته للأستاذ .. فما كان منها هى الأخرى إلا أن انخرطت فى الضحك .. ثم أردفت .. إن هذا لا يجعلك تحجمين عن المجىء .. تعالى وغيظهما تعالى يوم الجمعة صباحا ..

بعد أن تأكدت من استيعابى النسبى للمتنبى كان ذهابى للأستاذ شاكر مبكرة حيث وجدت بيته فى هدوء تام ، لأن الاصدقاء والتلاميذ والمريدين لم يكونوا قد حضروا بعد ، انفردت به وسلمته عدد المقتطف ، فسألنى : هل فهمته جيدا ، قلت : لقد اجتهدت كثيرا رغم أنى قرأت لك وعنك قبل ذلك - إلا أن أسلوبك قد صعب على هذه المرة .. لماذا لا تكتب للناس العاديين .. لابد أن جمهورك سيتضاعف كثيرا .. فأجابنى وفى صوته شىء من السخرية وهو يقول : «إنه لا يشوقنى أن يكون لى جمهور قراء بقدر رغبتى فى أن يكون لى قلة من القراء ، يعرفون قدرى ويفهمون ما أكتب» لقد كتبت فى الرسالة يوما مقالا تحت عنوان «لمن أكتب» لكننى عندما عدت إلى الرسالة وجدت أن مقال «لمن أكتب» لا يخص أسلوبه ، وأنما هو الحلم الذى ينتظره الاستاذ محمود شاكر أن

يوافيه الزمن بفارس شجاع يجعل كلام علامتنا وكل المخلصين معه ، نبراساً فى البحث عن سعادة هذه الأمة العربية الاسلامية .

يومها – وبعدم الكف – الذى يصدم فى العادة كل ما يتحاور معى لأول مرة سمعتنى أقول – وكأن صوتى يأتى من آخر قائلا : وأين تضع نفسك ممن حكمه الله سبحانه وتعالى ، وقد أنزل القرآن على آيات مكية ومدنية وفقا لعقلية الناس فى البلدين ؟ .

تلقى الأستاذ محمود موجتى الهادرة هذه ، بالسخرية اللامبالية .. وهو يقول إن الأختلاف بين الآيات .. لم يأت بسبب ما أتفلسف به .

ولم يفسره لى «١» ، فقد استأذننى فى أن يتخفف من «البدلة» التى يرتديها لأنه عائد من صلاة الجمعة – وهو للعلم لا يرتدى البيجاما «والروب دى شامبر» كالعقاد مثلا بل يفضل الجلباب والعباءة شتاء – أما عندما يذهب إلى بلاد الجزيرة العربية ، فإنه يخرج بالجلباب أيضا .

عاد لى زمن الفهم .. فعرفت أننى تجاسرت على كاتب كبير ، ومن ثم ابتلعت كل الآراء التى كنت قد كونتها عن شخصيته العقلية والنفسية والخلقية ، فمن غير اللائق أن أقول له : إنه إنما بذل كل هذا الجهد الشاق فى كتابته عن المتنبى إلا ليقول للخلق أنه أقدر من العقاد

---

(١) عندما كان الرسول في مكة ، نزلت الآيات المكية التي تتعلق في الأغلب بأمور العقيدة والتعاليم الدينية .. أما حين انتقل الرسول إلي المدينة جاءت الآيات والسور التي تتعلق بالأحكام والقواعد .

وصديقه الرافعى و د . طه حسين وكل من كتب من الكبار قبله ، عبر الفهم العميق للعربية والسيطرة على أدواتها ومعرفة سليقتها ، خاصة وأنه بهذا البحث ومقدمته الشعرية يجمع بين قدرة النقد ، وقدرته على تفكيك القصيدة وإعادة تركيبها والخلق الشعرى فى شخص واحد . خجلت أيضا أن أجابهه بأن قصيدته الغزلية هى التى جعلته يهتدى إلى حب المتنبى لخوله .. فقد كانت الجلسة الأولى بعد التعارف .

جلست فى بهو البيت أتأمل مفرداته .. إنه ليس فخما أو متسعا بقدر ما هو شديد التنسيق والنظافة «يشف ويرف» كما سبق ووصفه الأستاذ يحيى حقى .. وأستطيع وصفه بالأجمال بأنه مكتبة بها بيت .. حيث الكتب تغطى جميع الجدران ، وتزحف إلى كل الأركان .. إلا البهو الذى أجلس فيه حيث الكتب متراصة حول المقعد الأثير لدى الأستاذ محمود شاكر .. وفى مواجهته حامل عليه التليفزيون . علقت على الجدران لوحات مختلفة الأحجام لآيات الذكر الحكيم .. وفى زاويتى الردهة .. لوحتان تحتويان على قصيدتين بمناسبة مولد ابنه فهر أبريل ١٩٦٤ م والثانية بمناسبة مولد ابنته زلفى سنة ١٩٦٩ م ، أما الأولى فمطلعها :

تحية مثل عبير الزهــــر   تهدى إلى فهر وآل فهر
أنت أبا فهر أديب العصر   وابنــك سر لك أى سـر

إلى ختامها :

عشت وعاش النجل طول العمر   فى مأمن من غدرات الزمن

أما الخاصة بزلفى فيقول مطلعها :

زلفـــى أنت بعد فهر	بالســـعد والإقبال
فرعان من بيـت مجد	جم المكـــارم عـالى

إلى ختامها القائل :

ما بين زلـــفى وفهر	كالشمس بعد الهلال
عطية اللـــــه ربى	الواهـــب المتعـــال
بقيت للعلم والفضــل	والعـــــلا والكمــــال

١٩٦٩ م

عندئذ دخل عليّ الأستـاذ شـاكر وقـد ارتدى الجلباب وسـألنى هل ستجلسين هكذا ؟ لماذا لا تعملين شيئا .. تعالى ودخل بى إلى حجرة الطعــام ، رتبى هذه الأطبــاق على المائدة ضــعى الملاعق والشـوك والسكاكين .. عندما دخلت زوجته أم فهر وأرادت أن تساعدنى رفض .. وبعد أن رتبت هذا الكم الكبير من الأطباق .. أخذ بيدى حيث أم فهر فى المطبخ وأمرنى - رغم معارضتها - أن أصنع «السلاطة» ، بعد ذلك عرفت أن الأسـتـاذ مـحـمـود شـاكـر .. إن لم يكن منغـمـرا فى القـراءة والكتابة فـهو يشارك بالمساعدة فى أعمال البيت الذى لا يستخدم عاملا أو عاملة تساعدهم فى تلبية مطالب الضيوف التى لا تنقطع .. وآه لو رأيته يجفف الأوانى الكثيرة بعد الغسل .. إنه يقوم بهذه المهمة فى حذق وجدية كما لو أنه يكتب بحثا دقيقا .

بعد ذلك بدأ جـــرس الباب يرن رنات متتالية تـوالى على أثرها

قدوم الزوار وبــدأت مع زوجته فى وضع أشهى المأكولات على المائدة .. ودخل الضيوف وأمرنا الأستاذ شاكر أن نسمى على طعامنا .. ففعلنا .

وقد سعدت كما لم أسعد من قبل فى حياتى لجلوسى إلى هذه المائدة العامرة .. ليس لأطايب طعامها - الذى وصفه الشاعر عبد الرحمن صدقى فى يوم جاء يصحبنى «إنه أكل الجنة» ووصفه آخر بأنه يؤكل ولو كان الأنسان ممتلئا - ولا للمناقشات التى تدور عليها فحسب وإنما للشخصيات الأسرة الجديدة علىّ ، فهذا هو المثقف الموسوعى السعودى «أحمد بن محمد بن مانع» وهو من أحبهم إلى الأستاذ محمود شاكر وأقربهم إلى مجلسه - يستمع إلى كلمات الحاضرين ويناقشها بدقة فكرية لا نظير لها .. الشاعر الفحل محمود حسن اسماعيل يشركه الأستاذ فى الحوار ليخرجه من صمته بحساسية مفرطة ، بعكس ما يفعله مع الأستاذ يحيى حقى حيث مداعباته له تقرب كثيرا من التحرش ، ومع ذلك يتلقاها الأستاذ يحيى بصدر رحب حتى لو كانت أمام مرءوسيه أو أمام جدد من الوافدين على الجلسة قد لا يعرفون كم تحمل هذه المداعبات من عظيم المودة وقدم الإعزاز ، نعم فجلسة الطعام هذه قد يجلس إليها ضيف قد أتى لأول مرة إلى بيت الأستاذ يستزيد من علمه فى مسألة لغوية أو نحوية أو شعرية فيستبقيه الأستاذ على الغداء مع أهله وعشيرته ، فهو يتبنى كل من آنس فيه خيرا لمستقبل العربية . وقد يجلس معنا «عم أنور» حلاق الأستاذ حتى لو كان بالجلسة وزراء سابقون ولاحقون كالدكتور ناصر الأسد وزير التعليم الأردنى ، والدكتور شاكر الفحام وزير التعليم السورى ، والدكتور عبد

الله الغنيم وزير التربية الكويتى .. بل قد يجلس إلى هذه المائدة انسان ليس له بالبيت علاقة ، كمن تعرف بهم الأستاذ فى سجنه ووقف على قدر عوزهم .. مبادراً إلى مساعدتهم مع فقراء الطلبة الذين دخلوا بيته تباعا دون أن يعرف أحد شيئا عن ذلك ..

وعندما يأتى الدكتور محمود الطناحى .. الذى يحضر مع زوجته وأولاده ، وكلما روى طرفة فإن الأستاذ محمود شاكر يأتى بطرفة مشابهة من أحداث حياته .. ثم يلتقط خيط الحديث أولاد أخيه الشيخ على «زهير وعبد الرحمن وعلى» ويغدو الحديث على مائدة طعامه من أمتع ما يكون الحديث .. ولا تخلو مائدته من «الملوخية» ولأنها غير معروفة فى كثير من البلاد العربية .. فهو يمازح ضيوفه العرب بأن يتذوقوها .. وهو دائما يذكر من منهم تردد أو أحجم أو أقبل عليها ، وأم فهر هى التى تضع الأكل فى طبقه ، وتقشر له الفاكهة التى يحبها ، وهو يحب من الحلوى صينية «قرع العسل» .

وغالبا ما ينتهى من طعامه قبل ضيوفه . لذلك فهو يتناول الحلوى متعجلا لكى يشعل سيجارة .. فهو مدخن تليد – أمره الطبيب بالإقلاع فامتنع عنها مدة سنتين ولكن لم يكتب فيها شيئا .. وهو الآن ممتنع عن التدخين ومن ثم فهو لا يكتب شيئا بأمر الطبيب !

وقد يسأل متعجل .. على رسلك .. ها أنت تصفين المائدة وصاحبها وأولاده وضيوفه .. ولم تذكرى شيئا عن كهرمانة البيت أم أولاده التى تتعهد هذا الجمع كل جمعة – كما تصفين الآن ..

زواجه بأم فهر

ولأجل عيون أم فهر أقفز فوق الأحداث والسنين إلى ما كان فى أحد أيام عيد ميلاد الأستاذ محمود شاكر سنة ١٩٨٣ .. الذى يوافق يوم عاشوراء ، حيث اصطحبت معى صديقتى الأثيرة الفنانة القديرة كريمة مختار .. التى أخذتها الدهشة مما كان فى مجلسنا الحافل هذا .. بمريديه الكثر .. هذا يلقى قصيدة ، والآخر كلمة ، والثالث ذكرى فى مناقب محمود شاكر وشمائله ، وكان الأستاذ عامر العقاد يقدم المتحدثين .. وفجأة سمعته يعلن عن رغبة الفنانة كريمة مختار فى الكلام ، وأسقط فى يدى وربما فى يديها .. إننى لم أحدثها قط عن الأستاذ فماذا ستقول ؟ هل خالت أن ما يدور حولها عرض فنى .. يجب عليها حياله أن تبرز عبقريتها ؟ وبغتة وصلنى صوتها يقول : إننى لم أقض مثل هذه اللحظات الجميلة فى حياتى ولم أر مثل ذلك الحب المتدفق من المريدين لشيخهم ، وقد دار فى ذهنى الآن سؤال : كيف يختار العلماء الأجلاء زوجاتهم ؟ فران الصمت عميقا فوق هامات المريدين وكأن على رءوسهم الطير .. فتوجهت أنظارهم واشرأبت أعناقهم وأصاخت آذانهم .. وبغتة أتانا صوت محمود شاكر بسماحته المعهودة مع الضيوف الجدد على مجلسه ، يقول : أنا من الناس الذين لا يجيدون الكلام .. لأن صنعتى هى الكتابة . ولزواجى بأم فهر قصة «عجيبة» .. ذلك أننى عندما تركت الجامعة كما تعرفون هاجرت إلى السعودية .. وبقيت هناك عامين ، ثم استدرك : لم يكن البترول قد ظهر فيها ومن ثم لم تكن ذات ثراء كما هى الآن «هناك كان لى صديق من

أسـرة كريمة ، هو الأستاذ حسين نصيف ، وكان بيني وبين أسرته مودة ، فحملني صديقي وأهله إلى الزواج وتحقق ذلك بخطبتي التي تمت بمشورتهم عام ١٩٢٩ ، بعدها ألمت بأهلي في مصر ملمة - لم يذكرها غير أني أظن أنها كانت وفاة أخته صفية - وبدأت أتلقى رجاء الأهل والأساتذة للعودة ، ورجعت إلى مصر في العام الذي ولدت فيه أم فهر ....

مرت الأيام وتوالت السنون ويشاء الله أن تتعرف أختي عزيزة بإحدى حفيدات الشيخ حسن الكفراوي شارح الأجرومية «قواعد اللغة» - الذي بنى له الخليفة علي بك الكبير - العصر العثماني - جامع أبو الذهب إمام الأزهر الشريف - وهو المسجد الوحيد في مصر ، الذي يعلو دكاكين الباعة ، أي أن الصعود له يكون عن طريق الدرج - «ليلقي فيه دروسه .. ولهذا الشيخ الجليل مسجد كبير في بلدته كفر الشيخ ..

أعلمتني أختي عمن قابلت مردفة بأن هذه الحفيدة قد هاجرت بها والدتها مع أخواتها من كفر الشيخ ، حثثت أختي بأن تصطحبها إلى بيتنا وحين رأيتها أعجبت بدماثة خلقها وحيائها .. ومن حماسي لهذه الفتاة النيرة ذهبت أقابل والدتها وأشاورها في أن أتبنى هذه الفتاة .. وعندما لفتت حماستي نظر من حولي .. نبهوني أنه ليس في الاسلام تبني ، قلت وأنا أكثر حماسة وغير متراجع ستكون ربيبتي . حفيدة الرجل الصالح ذي المقام المهيب ، هذه هي أم فهر ، التي بقيت معنا أنا

وأختى عزيزة من سنة ١٩٤٥ طفلة إلى أن بلغت الشباب ، حيث أخذ يتوافد عليها الخطاب .. وكلما جاء أحدهم بنية انتزاعها من بيتى اشتد إحساسى بأننى سأفقد شيئا عزيزا على نفسى ، حتى خلت أننى لن أحيا بفقدها أبدا .. فاقترح أحدهم علىّ الزواج بها .. فكان .. والفضل كله يرجع إلى الأستاذ أحمد المانع .

وهكذا كان هذا الزواج على خلاف الأشياء .. ذلك أنه فى سنة ٢٩ عندما خطبت فى السعودية ، كانت أم فهر نطفة فى بطن أمها ، وكأن القدر كان يرسم لى ولها مسارا غير متوقع أى خلاف الأشياء .. فهى إذن رعتنى قبل أن تكون زوجتى ، وأكرمتنى وحفظتنى – ثم انفجر فى البكاء وعاد يسمع بالكاد – وأكثر من ذلك أنها تحملتنى ، أكثر الله من خيرها ومن أمثالها ، تحملت الوحدة مع وليدها سنوات سجنى مرتين ، وتحملتنى خارجا منه مريضا نافد الصبر ثم تبسم من بين غمام بكائه ، ثم أردف قائلا : وهى صاحبة الفضل عليكم جميعا .

وبينما انفجر الجميع بالضحك والموافقة .. همس الدكتور محمود الربيعى فى أذنى . إن اصطحابك للسيدة كريمة مختار اليوم ، جعلت أستاذنا ينشر أنصع صفحة فى حياته قاطبة . فهذه السيدة أم فهر «نعيمة» جاءت على خلاف الأشياء بالفعل ، لأن الرجل منا يفتح بيته للأصدقاء طالما هو غير متزوج ، أما إذا تزوج فإنه يغلق بابه على جنته «كما وصف مالك بن أنس الزواج والبيت ليسعد أو ليهنأ .. أما هذه السيدة البشوش فقد فتحت بعد زواجها منه باب بيته على مصراعيه ، لجميع تلامذته من جميع الأقطار العربية والاسلامية ، حتى اتسع هذا البيت غير المتسع لكثير من قاصديه ينزلون عليه من بلادهم .

وأحسب أننى وكثيرين غيرى ، عندما يفكرون فى زيارة الأستاذ يكون وجه هذه السيدة الودود الكريم لائحا فى خيالنا . نعم فنحن قد نزور الأصدقاء الأساتذة ولكن على وجل من زوجاتهم ، بل إننا عندما نودع الأستاذ فى آخر زياراتنا ، وتكون هى مشغولة بشىء فإنه ينادى أم فهر أم فهر .. إن فلانا سيغادرنا فتعالى وسلمى عليه .. وهل تتصورين أننى أول مرة زرتهم فيها ألحت علىّ هذه السيدة الفاضلة أن أتناول الغذاء معهم .. إن هذا لا يحدث كثيرا عندما أزور أغلب قبيلتى !

قلت له وماذا أقول أنا وقد استمرت علاقتى بأسرة شاكر خمسة وعشرين عاما .. ولا أعرف وقع ما سأقوله من العقيدة .. ذلك أنه يخيل لى وهى تعد لإحدى مساعداتها الغذاء قبل أن تقدمه لأسرتها وضيوفها .. أن يدها السخية تعيد إلى ذاكرتى ما قرأته عن إحدى زوجات الرسول وهى تقتسم مع مساعدتها التمر الذى جاءها هدية ، إن أم فهر تحب الكائنات حتى إذا رأيت قططها يتحلقنها وكأنها أمهم، تلاطفهم ويلاطفونها ثم أخفضت صوتى وقلت صورتها قديسة فلو سمعنى الأستاذ محمود شاكر وانا أتداول هذا الوصف لنهرنى كما فعل سابقا .. ونهانى عن هذه اللفظة قائلا لى قولى طيبة صالحة ، مع أن كلمة قديسة وردت فى القرآن الكريم كثيرا ولكنه يدخلها فى ألفاظ غير الاسلام ! وضحك الدكتور الربيعى .. وقال شاكر أعرف بصحيح الألفاظ والمعانى !

شهادات حازها شاكر

أما ما يصف به الأستاذ يحيى حقى عظمة أم فهر .. فهو غاية فى الروعة .. حين يلمس الطاسات الفضية المرصعة بآيات الذكر الحكيم ليشرب بها ، ويشير إلى ماء الورد والزهر والنعناع .. أو القلل التى تقتنيها رغم الثلاجة وأحدث مبرد للماء ، ويقول : «لن تجدى مثل هذه الأشياء إلا فى بيت محمود شاكر ، إنها أنامل أم فهر .. نعم إنها أنامل أم فهر .. أم فهر التى بمعرفتى لها وازوجها انزاح عن كاهلى كثير من مشاكل حياتى المعيشية .. لقد صار لى فى بيتها ركن فى حصن أهجع إليه من هجير الحياة .. ولا شك أن كثيرين مثلى يشعرون بما أحس تجاه هذا البيت التليد .. فأين الآن البيت المفتوح على مصراعيه لاستقبال من ليس له أنيس؟ .. يدخله فى أى وقت وفى أى ظرف فيتلقاه بالبشر .. إننا لا نتعلم ولا نأكل فى هذا البيت فقط .. بل قد تتحفنا أم فهر بشىء نأخذه أيضا لبيوتنا .. فيا لهذا الوعد .. إن هذا البيت ترجم أمام ناظرى مقولات مثل «نزلت سهلا .. ولقيت أهلا وغيره من أمثال الترحيب ، وتعريفكم بالركن الركين لهذه الأسرة لايعنى أركان الأسرة العادية المكونة من زوج وزوجة وأولاد .. لا فهذا هيكل خارجى فقط .. أما المحتوى فإنه يختلف عن مألوف مانعرفه من رجل يذهب الى عمله والزوجة فى البيت والأولاد فى مدارسهم أو أعمالهم ، لا فالبيت هنا هو الحياة بأسرها لصاحب هذا البيت والذى تحيا فيه أيضا مشاعره نحو أمته ودينه .. وقد وصف موقع هذا الرجل من أمته ودينه الأستاذ

كمال النجمى «١» فقال : إنه ليقف اليوم وقد انتهت اليه الرئاسة فى علوم اللغة وآدابها، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدفع عنها الاعداء منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه لأن حربه التى أعلنها علي الفساد لاتضع أبدا أوزارها» .

أما عن صاحب البيت فقد كتب الدكتور ناصر الأسد عن طرف من أعماله وطريقته في إخراجه فقال : «وأمام هذا الصرح الممرد وقف المحقق الثبت الأستاذ محمود محمد شاكر سنوات طوالا يطرق بابه فى رفق حينا ، وفى عنف حينا آخر ، وفى تثبيت وعزم واصرار فى جميع الأحيان، حتى انفتح له، فولجه ، وجاس خلاله ، غرفة غرفة، وقاعة قاعة، يستبين معالمه ويستجلى خفاياه ، ويستخرج مكنونه وينصب فيه من المعالم والصور ، ما يهديه سبيله حين يعود إليه ليواصل سعيه ، وقد عاد مرات ومرات ، فلما أطمأن الى أنه مستطيع أن يجلو هذا الأثر الخالد لإيصاله بنى قومه عقد العزم ومضى يفرى طريقه فريا «٢» .

أما الدكتور شكرى عياد فعندما كتب عن منهج الأستاذ شاكر التذوقى استهل مقاله «عاشق العربية» «٣» يقوله «أحيى محمود شاكر

---

(١) ـ محمود محمد شاكر يكتب رسالة في ثقافتنا «جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٢٩٤ السبت ١٩٨٧/٢/٥ .

(٢) الجزء الخامس من تفسير الطبري .. مجلة معهد المخطوطات المجلد الثاني الجزء الأول سنة ١٩٥٦

(٣) «عاشق العربية» مجلة الهلال القاهرية أبريل سنة ١٩٨٩ .

عاشق اللغة العربية ، متى وجد نفسه أسير هواها ؟ أظنه وجد نفسه ! كأنه قيس إذ يقول في ليلاه :

تعلقت ليلى وهي بعد صغيرة

ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم ياليت أننا

صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

ولأنه في صدر مقاله أثبت أن شاكر عاش حياته مولعا باللغة العربية فقد استدرك قائلا لذلك سمينا أخانا وحبيبنا وأستاذنا محمود محمد شاكر في عنوان المقال عاشق العربية ، وفي صدر المقال عاشق اللغة العربية «١» فلا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين معنى العروبة نفسه ، بل لا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين الفن العربي والعلم العربي والفلسفة العربية ، والناس يحسبون التعمق في اللغة العربية حفظا للغريب ومهارة في حل الألفاز الإعرابية ، ولعلهم حين يسمعون مثل تلك التسمية لا يفكرون إلا في شاكر العالم اللغوي أو محقق الكتب القديمة . مع أنه فنان وعالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم لأن منهجه تذوقي ».

ويسترسل الدكتور شكري في أول شهادة من أستاذ جامعي فحل «جامعة القاهرة» في تقريظ المنهج التذوقي الذي لم يتوقف فيه إلا على

---

(١) الأستاذ شاكر لايستعذب أن تسبق العربية بكلمة اللغة . لأن العربية هي لسان العرب.

حب المتنبى لخولة .. ونسترسل نحن معه ، ويودنا لو أثبتنا مقاله كاملا ـ ليس لما به من درر وجواهر فقط ، بل لأنه ـ ربما ـ أول شهادة من أستاذ جامعي فحل تتلمذ على الدكتور طه ـ الذى أشاع عن توفيق الحكيم قوله «أنه ليس له عدو فى العلن ولا صديق فى السر، فهو أبو الهول الذى لايمكن دكه» .

ومن الغريب أننا لو قلبنا هذه المقولة لوجدناها تنطبق علي محمود شاكر الذى يكثر معارضوه في العلن مع أنهم فى السر موقنون كم هو على حق، مما يجعلنا نصدق إن للأقول الاستعراضية شهرة من الدرجة الأولي .. أما مكتشفوها فإن كلماتهم تذهب أدراج الريح مع أنهم هم الصادقون .

ثم يصف الدكتور شكرى اللحظة الفاصلة المعروفة فى حياة شاكر ، أو مجابهته للدكتور طه غضبا لأصالة الشعر الجاهلى ، أو على حد قول الدكتور شكرى ، «عندما رأى ذراعا غليظا تزيح تلك الدواوين نفسها من على منضدة الدرس لتسقط فى فراغ العدم .. ريع الفتى ، وأنكر .. فأخرسه احترام السن و.. ثم غلب الغيظ علي الكتمان ونطق الفتى» ولعلها

«نقطة صغيرة فى كتاب التاريخ ، غيرت المعنى كله» .

فهذه الحادثة الصغيرة التى زادت من تأثيرها جرأة الطالب وشهرة الأستاذ ـ في نظرى أنا على الأقل ، نقطة تحول فى تاريخنا الثقافى ـ وقبل أن تستكثروا منى هذا أرجو أن تتذكروا ماتعلمتوه جميعا فى

المدارس من أن ابتداء الفكر المعتزلى كان حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى» .

ومما يدعونا للتأمل .. أن نجد أن الدكتور شكرى قد قمص شاكر شخصية المعتزل واصل بن عطاء .. فى حين سبق لأستاذ شاكر وهو الرافعى أن قمص فى مقالاته عن الانتحار شخصية الحسن البصرى .. فهل تحوى شخصية شاكر كلا الشخصيتين «الإمام والمعتزل» إن هذا وارد بالطبع .. فشاكر قد اعتزل ليعلم نفسه وليصبح بعد ذلك معلما وربما ترجع نظرة كلا الكاتبين – الذى مر بينهما أكثر من خمسين عاما - إلى الزاوية التى صور بها محمود شاكر فأستاذه الرافعى أعطاه شخصية الحسن البصرى لأستشفافه . المستقبل الذى سيكون عليه محمود شاكر والشبيه بهذا الإمام الذى شهر بعلمه وفقهه وفصاحته ونسكه .. حتى أن استغفاراته هى أحسن ما ألف فى بابها وتذكرنا بالفعل بالاستغفارات التى استهل بها محمود شاكر بعد ذلك كل كتبه ومقالاته ومحاضراته، أما الدكتور شكرى فأعطاه شخصية واصل بن عطاء لأنه بلور حياة محمود شاكر ، التى ماهى إلا سلسلة من المعارك ، أو على حد قول محمود شاكر مراجعات وتصديات، وقد تسنى للدكتور شكرى هذا الربط الموفق لأنه وشاكر كانا من تلامذة الدكتور طه حسين، لكن شاكر كان أكثر جرأة وجسارة حين اعتزل درس أستاذهما .

أما عندما وقف علي أعتاب الكتابة عن محمود شاكر تلميذه

وصديقه الدكتور محمود الطناحي نجده قد احتار فقال : «ولكن كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل ، ومن أين أبدأ وكيف أمضى، وإلى أين انتهى ؟ والحديث عنك إنما هو تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة ، عقيدة ولغة وفكرا ورجالا وآمادا رحبة متطاولة ، لا يقدرها إلا أنت ، ولا يعرف كنهها إلا أنت ، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك ، ماثل أمام عينيك ، لم يغب عنك لحظة ، ولم تخدع عنه لحظة ، فماذا أنا قائل فيك ، وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك ؟

«ومعذرة ثم معذرة شيخى أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التى تراها (مع أنه كتب عنه أكثر من فصل في نفس الكتاب) أراك الله الخير كله ودلك عليه ، ورغبك فيه» .

«ثم معذرة من بابة أخرى : وهو أن أكثر ماستقرأه ، إن شاء الله منتزع من كلامك ، مدلول عليه بفكرك ، فأنا إنما أكتب «[1]» عنك بك وأتقدم منك إليك» .

أما ماقاله فيه الشعراء فيربو على الكتاب الضخم ، نجتزىء منه - على سبيل المثال - إنشاد الشاعر الفحل - محمود حسن اسماعيل من قصيدة طويلة في شاكر شيخ العربية .. استقبله بها يوم وصل الى الكويت في وجوده .

وأراك أنت بكل لج موجها

والهادر المشبوب فى شلالها

«١» كتاب الدكتور محمود الطناحي، مدخل الي تاريخ نشر التراث مع محاضرة في التصحيف والتحريف» .

وأراك أنت عليهما وكليمها

والجاذر الشبهات فى استدلالها

يحبو إليك الموغرون بكيدها

فتصدهم صد الرقى لثقالها

والعاطشون الحائرون تردهم

أغصان دوحتها وروض جمالها

وإن قال أحدهم إن محمود حسن اسماعيل هو الصديق الصدوق لمحمود شاكر ولابد أن يصفه هكذا .. بشكل أخاذ وجميل، فإننا نورد بعضا من قصيدة لتلميذ له كان فى الأصل تلميذ العقاد وهو الأستاذ شوقى هيكل يصور مكان محمود شاكر فى العربية فيقول :

حبذا الرابض فى صحن عرينه

يرقب الغيب بأحداق عيونه

فى حنان وحنين للمدى

يطلق النظرة من بين جفونه

شامخ الرأس عزيز مؤمن

تشرق العزة من غر جبينه

هادر النفس تبدى ساكنا

وهو بحر راعنا هول سكونه

صمته حكمة دهر صاغها

عقـــله الناطق عن وحى يقينه

قلبه الخـــــافق فيه رنة

تنشـــد الثورة فاسمع لرنينه

يبعث الماضى تراثا عاطرا

ينهل الخالد شذى من ياسمينه

كونه علم وفكـــــر وتقى

وكتاب خطـــه حـــر يمينه

وتلك بعض هذه الشهادات رأيتها مجسدة أمامي بعد التعرف على أستاذنا شاكر، حيث استهللت أول مقال لي عنه بمجلة الاذاعة (١) بأن «عالمه ليس من النوع المألوف الذى نقرأ عنه في صحفنا ومجلاتنا المعاصرة . إن صورته هي جزء من مجالس العلم القديمة التي يصلنا شذاها عبر سطور التاريخ ومن خلال صفحات أمهات الكتب العربية ، تلك المجالس التي اضاءت بمصابيح العبقرية العربية ، متمثلة في علمائها ورواتها وشعرائها وفقهائها وكل من انتظم في ذلك العقد الفريد من هؤلاء الرجال العظام الذين مكنوا لكل ماهو عربي أصيل في هذه الأرض .

واثباتي هنا طرفا من الشهادات التي حازها محمود شاكر والتي

---

(١) محمود محمد شاكر .. كاتبا شاعرا ورجل سياسة «مجلة الاذاعة المصرية» السبت ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٢ .

جاءت من أناس مختلفى الاتجاهات «صحفى» /رئيس مجمع لغوى بالأردن/ أستاذ جامعى/ وأستاذ درعمى ثم كاتبة صحفية غير معروفة لم تكن قبل لقائها به تعرف كيف يقام بيت الشعر ولاتستطيع بسهولة كجيلها المفرغ ، أن تقتحم وتفهم أثرا من ارث قومها ـ الذى ألف ونظر فيه محمود شاكر ، أو أن تتوغل فى قواعد النحو والصرف ، ولاتتعدي معرفتها برجال الفقه إلا ما درسته فى كلية الحقوق ، ولكنها رغم ذلك كله تتجاسر وتتصدى لتصوير شخصية عالم فى كل هذه الفروع بحجة أن هناك اختلافا بين دراسة الكتب التى ألفها محمود شاكر وبين دراسته هو ذاته ـ وأننى ما أوردت هذه الشهادات الا لتثبت أصالة فكره مبدئيا .. حتى لاتحسبن أننى أتناول حياة محمود شاكر بمنقبية أو شمائلية ـ وربما استشففتم دوافعها من شغفى السابق للتعرف عليه . لا فإنى عازمة إن شاء الله على النظر اليه كآدمى وإن بشريته توجب عليّ أن أصوره علي أنه صنيعة وراثية وبيئية ، أى إن كل ما أرجوه أن أقدم لوحة معبرة وناطقة تحيط بشخص وعمل كاتب كبير أعجبت بأدبه وشخصه ، حُرم أغلب هذا الجيل ـ للأسف من التعرف إليه ، وبودى ألا أتحين فيها له .. فأحاول الاحتفاظ بأبعاد شخصيته بحيث يتصف بالإعجاب والنقد معا . والمهم ألا يحمل عملى حماقات كثيرة وهنا يجب أن ألفت النظر الى منهج كتابتى حيث تطغى وجهة نظر الآخرين أحيانا، ومن ثم تتوارى انطباعاتى عنه .. وكأنى وراءهم .. ذلك أننى فى البداية اتخذت الأسلوب الذاتى ، فوجدته قاصرا فانتقلت إلى الأسلوب الموضوعى فوجدته جافا فاهتديت أخيرا إلى أن أوفى طريقة هى أن

أسلك بين الاسلوبين لتصوير شخصيته المترامية الاهتمامات فى علوم العربية ، حيث خلت وأنا أصوره كأنى أخرج فيلما ضخما أحتاج فى تنفيذه ، الى خبراء فى هذه العلوم يعرفون تاريخ حياته .. قبل أن أعرفها أنا ، كما أن أقوالهم غالبا ماتغنينى عن كثير من التفاصيل والتأكيدات .. وتظهر المحايدة .

ثم إن أوا لقاء بمحمود شاكر وأول مقال لي عنه مضى عليهما خمسة وعشرون عاما .. فكيف أصوره دفعة واحدة . لقد عايشته من أيام كان يثور ويفور إذا خدش أحد الجلساء حدود العروبة والإسلام الى أن صار يهز رأسه صامتا غير معلق إذا احدث ذلك الآن .. لايأسا .. فالتعس الحره لاتيأس من رحمة الله وإنما لأن المرض يلم به أحيانا ويعمل فى فت عزيمته إذ أن لجدران بهو منزله لسانا أو قلما لقص وكتب عن عوالم وعلماء من شتى بقاع الأرض وكيف تكلموا وتدارسوا .. موضوعات فى النحو والفقه والشعر والرجال والتاريخ مما يغطى رسائل جامعية كثيرة وأحسب أن القارىء ربما يكتشف ـ بالطبع ـ أن هذه الاستطرادات تشى بوجلى من دخول عالم محمود شاكر وكيف أتجاسر علي ذلك وقد وقف من هو أكثر منى علما طويلا ببابه دون استطاعته الدخول ، فقد كتب الدكتور أحمد عبيد الكبيسى وكيل كلية الحقوق والشريعة بجامعة الأمارات العربية المتحدة وهو عراقى : «لكى أكون جديرا بالكتابة عن واحد من القمم والشوامخ مثل محمود شاكر ، لابد لى من أن أكون فى مستواه أو قريبا منه ولست بذلك» .

«ولكى أكون قادرا على النظر فى فكره وآثاره ومناهجه ، لابد لى من

عمر طويل يحسب بحبات العرق وعدد الصفحات ولايحسب بالساعات والأيام .. ولكنى لا أجد ذلك» .

«ولكى أكون أمينا علي تاريخ سيرته وتسجيل وقائع حياته ومواقع حله وترحاله ، لابد لى من أن أكون قد تشرفت بمشاركته رحلة عمره ومسيرة أيامه ولكنى لم أكن كذلك» .

«وهكذا أدركت أننى خسرت فرصة العمر ، بقصورى عن الكتابة عنه وفرطت فى صفقة العقل بعجزى عن النظر فيه وأضعت متعة النفس حيث لم أؤرخ له» .

لاتحسبوا أنى مبهورة بعالم محمود شاكر ظنا منكم أنه العالم الوحيد الذى وصلت نفسى به لا فقد كتبت قبل ذلك مذكرات «شاهدة ربع قرن» الذى يشهد بأننى تجولت فى عوالم وتوثقت بعلماء وقمم كثر قبله .. وأقولها صادقة ليتنى بدأت بعالمه فلاشك أنه كان يجعلنى أكثر دقة وفطنة وأقل ثرثرة .

وأعود فأقول إننى وبعد توالي الزيارة عرفت أن وداعته الأولى معى كانت من باب حسن الاستقبال والضيافة العربية ، أما بعد أن أصبحت من الحاضرين الدائمين لمجلس الجمعة فقد توقفت على ما يتباين مع وداعته الأولى : ذلك أننى يوم ناقشته فى العدد الممتاز من المقتطف الذى كتبه عن المتنبى ، وند علي لسانى ذلك التعبير التلقائى المتسائل عن صعوبة أسلوبه ، ولماذا لايخفف منه حتى يكون قراؤه أكثر ؟ «أين تضع نفسك من الله تعالى وآياته مكية ومدنية وفقا لعقلية كلا البلدين» ثم سخريته غير الآبهة من كلامى .. كان بمثابة أول معول يهدم السد

الوهمى الذى كان قد حجزنى عنه طوال سنين شغفى بالتعرف إليه فانهار هذا السد وهدرت أمواجه العالية فى مواجهة أمواجى الاستفزازية دون برازخ تساوى بين علو أمواجه .. وعدم قدرتى التحكم فى إرادتى ، مما نتج عنه دوامات كثيرة .. وصادفته جنادل ثقيلة .

لقد جعل منى هذا الحوار الطائر .. إنسانة مشاكسة لمحمود شاكر، ذلك إننى وجدته أولا يسخر من كلامنا حول أغلب القضايا المطروحة علي صفحات مجلاتنا وجرائدنا، يهدم أمامى شخصيات أجلها .. لا يأبه بطريقة انشغالنا بالقضايا السياسية والاجتماعية .. فاذا تفوه أحدنا مثلا بأن محمد علي باشا وضع مصر على أول سلمات العصر الحديث قال بل إن الأستعمار هو الذى رفعه لهدم الدولة العثمانية، ثم إنه من هذا العلو سيسهل لهم إسقاطه إلى القاع .. وإذا قلنا أننا علي أهبة الدخول الي القرن الواحد والعشرين ، رد : بأننا حملنا الي القرن الواحد والعشرين فأين إسهاماتنا فيه .. مما جعلنى أحاور نفسى .. إن هذا الرجل لايعجبه شيء فى حياة مصر .. ثم إني كنت كبهلولة عبر مكابرتى الفكرية المحدودة ازاء تصديق أن كل ماغيرته وما أنجزته مصر على أرضها سياسيا واجتماعيا قد تم بدون حركة أصيلة وعريقة علي الجبهة الفكرية منذ أكثر من قرن ونصف ، ولا أظن أنها قد انتهت الي هذا «السيرك» أوما يصفها به محمود شاكر من أنه نصب وفهلوه .

لقد كنت عندما أسمع كل هذه الآراء ـ وقت ذاك ـ أروح فى غيبوبة مدوخة تعيدنى اندياح حلقاتها ، إلى مشارف فكرته عن نفسه يوم خرج للعالم ، من أنه التفاحة وسط البصل ، وهو وإن كان قالها فى سن

مبكرة بعد مغادرته الجامعة ثم فقدها واستنكرها من بعد، لأن إمكانات البصلة تؤهلها أن تقلب معادلته .. وأروح أتساءل هل مثل هذه الخبرات القوية لاتموت، وهل يمكن أن يكون لها تأثير ودلالات فى جميع مراحل ترقى صاحبها، لا أظن دليلى على ذلك قوله على كتاباته عن العالم السورى راتب النفاخ ، من أنه تلميذه ثم صار أستاذه أو ذكره لمراجعة الدكتور محمود على مكى له فى إحدى جزئيات ملحق المقتطف عن المتنبى ، وإثباتها عندما ظهرت كتابا .. بل إنه عندما استشهد علي انحراف العقلية العربية الآن اتكأ علي كتاب التفكير العلمى «للدكتور فؤاد زكريا ووصفه بأنه كتاب جيد رغم تباين اتجاهاتهما . إنه قرع نفسه بعد قراءته لكتاب «تاريخ الدعوة إلي اللغة العامية» تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد .. لأنها وحدها تتبعت ماجرى فى تاريخ هذه الدعوة بترتيب تاريخى متصل.

شيء آخر الجأنى إلى مشاكسة الأستاذ محمود شاكر ألا وهو رفضه المتكرر للإجابة عن تساؤلاتى حول حياته وكتبه ، وما أثر عليه من محن وعواصف وأباءه الجواب ، وإن لم يكن موجها إلىّ شخصيا أو بالذات ، وإنما موجه لكل من كتب عنه ، وقد ألمح الدكتور رشاد سالم عنه فى مقدمة الكتاب الذى كرمه به تلامذته .. وأهدوه له بمناسبة بلوغه السبعين حيث كتب : «وقد حاولت لجنة التكريم الحصول على معلومات وافية منه شخصيا ، ولكنه امتنع عن ذلك ، لكراهته الحديث عن نفسه ، وقد شاهدت طرفا من ذلك أيام كان الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى يعد رسالة الماجستير عن «أبى فهر محمود محمد شاكر بين الدرس

الأدبى والتحقيق» بكلية دار العلوم ، وظهرت كتب بعد ذلك عن دار الخانجى – ألا يضاعف كل ذلك من حيرتى فى الكتابة عنه ذاته .. إننى أتخيله فى مجلسه .. كما وصف الشيخ الخولى مالك بن أنس فى مجلسه ..

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة
والسائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار ، وعجز سلطان التقى
فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولقد شكوت إلى أصدقائه وتلامذته وعائلته هذا الصمت وكان لكل منهم مبرر لذلك، فأصدقاؤه قالوا : «يجب أن تعلمي أن رفضه الإجابة .. ترجع إلى أنه الأرض التي نبتت فيها كل خبراتك التى قضيت فيها عمرك هي الفنون أو القانون ثم تلقيطاتك المختلفة في مجال التاريخ والأدب العربى ، وهى أرض ربما شكلت نفسها على ثبت معين لا تتحمل الشرح الدقيق والطويل على إجابة أسئلتك والتى تحتاج إلى مراجع كثيرة .

وقال تلامذته : «إنه يخاف أن تكون إجابته عابرة ، ولأنه يعرف أنك تكتبين عنه دائما ، وربما نشرت هذا الرأى العابر ، فإن من يقرأ لك سيتصور أن هذا العابر ، هو كل الحصيلة .. أما أبناء شقيقه «الشيخ على محمد شاكر» عبد الرحمن ، وزهير ، وعلى ، فقد قالوا لى عليك بسؤالنا نحن أولا .. وإذا غمض عليك شيء مما نقوله .. فاسأليه بشكل

غير مباشر فهو لا يحب الاستعراض والفرجة بل يخافهما ويرهبهما .. وربما كانت تلك المشاعر هى التى حالت بين الكثيرين من أقطاب الإعلام وبين تحقيق مطلبهم فى أن يظهر فى أجهزة الاعلام من إذاعة : مرئية ومسموعة ، وصحافة .. فأنت مثلا شاهدت بأم عينك كيف يحمل الأستاذ محمود شاكر كل حب للأستاذ أحمد فراج . ومع ذلك راوغه كثيراً فى أن يظهر فى برنامجه «نور على نور» ونفس الشيء حدث مع الأستاذ فاروق شوشة . كما شاهدت العدد الهائل من الصحفيين الذين رفض أن يحاورهم .

قلت : لكنى سمعت أنه سجل حواراً للمذيعة اللامعة آمال فهمى وكانت قد كلفت بتسجيله الأستاذ أحمد فراج ، قال : لو عرفت وقت تسجيله لعلمت الأسباب التى أقنع بها الأستاذ أحمد فراج عمى .. أن آمال كانت أنذاك موقوفة عن العمل فى الإذاعة المصرية . وكانت تسجل البرنامج للإذاعة العربية ، لذلك ساعدهم عمى كما ساعد كثيرا من الصحفيين العرب إذا كان حديثه لهم هو السبب الأصلى لزيارتهم مصر.

امتثلت سريعا لطلب أولاد أخيه .. لأن جملتهم الأخيرة دلتنى على اللحظة التى لن يرفض فيها محمود شاكر إجابة أسئلتى .. ألا وهى تحين فرصة زيارة أحبائه العرب له - لا سيما عرب الجزيرة ، حيث يصفو مزاجه ويكون أسخى فى العطاء وهو وسطهم .. وبغتة إنهمرت ذكرياتى عن وجوده فى هذا الركن التليد من البلاد العربية .

فقد تذكرت أنه عندما زار الكويت فى وجودى بها .. دعته الجمعية

الأدبية هناك مرة .. كما دعاه الدكتور مرزوق الغنيم عميد كلية التربية وكان عندما يلبى هذه الدعوات يرفض الصعود إلى منبر المحاضر ، بل يجلس ويتحلقه من اجتمع .. فيسأله هذا وهذا فيجيب عفويا .

سأل سائل فى هذه الجلسات : «عن أن من مخلفات هذه الأمة أن الأدب العربى بكل محتوياته يقيم منذ أكثر من خمسين عاما ليس من داخله أى من جوهره ، إنما يقيم على ضوء ما يكتب الغرباء عنه ، وهذا أخطر ما تمر به الثقافة العربية».

فأجاب : «جئت إلى هذه الجلسة دون أن أحضر لموضوع معين أتحدث فيه ، ولكن لا بأس من مناقشة هذا الموضوع ، ففى البداية يجب أن تعلم أن الذى بين أيدينا ليس تراثنا ، والحقيقة التى ينبغى أن يعرفها الكثيرون أن الثقافة كل متكامل ، فالثقافة العربية الإسلامية كانت كلا متكاملا حتى أواخر القرن السادس عشر ، وكان ينبغى أن تظل هذه الثقافة بجميع أجزائها متكاملة ومحاورة للآخرين، وأن يكون جوهر المعرفة نابعا من داخلها .

ولكن ما حدث خلاف ذلك وهو أننا مع الأسف انهزمنا وانفصلنا انفصالا متتابعا عن الثقافة المتكاملة، وجاءنا شيء جديد تعلمناه ، من البعثات الدراسية فى بلاد ثقافات أخرى حجبت عنا ثقافتنا المتكاملة فوقعنا فى مأزقنا هذا.

والحقيقة تتمثل فى أننا بحاجة لثقافة متكاملة نستطيع من خلالها محاورة الآخرين ، وأعنى بالثقافة المتكاملة ، كل شيء من شهادة لا إله

إلا الله إلى الحروب التى استمرت ثلاثة عشر قرنا ، وما فى أنفسنا الآن شىء نابع من ثقافة الآخرين ، والمتعلمون منا لم يبذلوا حتى الآن أى جهد لاستعادة ثقافتهم الماضية ، والقضية الصعبة الأخرى هى صعوبة رسم تصور واضح للعملية وأن نكون بعدها محاورين . لأننا إلى الآن نقف بموقف المتلقين فقط.

لذلك فإن قضية الأصالة وإثارتها شىء لا معنى له ، لأنه يجب أن يكون كل شىء أصيلا، وأن يكون التجديد من داخل الثقافة ذاتها، وبعد أن تتجدد من ذاتها تقوم بمحاورة الثقافات الأخرى ، وذلك على أيدى أفراد تشبعوا بثقافتهم المتكاملة، لكن الواقع الآن يقول إن الأغلبية الساحقة ، ما هى إلا متلقية من الخارج ، فمحاورته لثقافته تشبه إلى حدٍ كبير محاورة المستشرق لثقافتنا والسبب أنه يحاورها بمعلومات «الخارج» فهو غير مستوعب فى الأساس لثقافته العربية الإسلامية .

سأله آخر عن تاريخ الأمة العربية والإسلامية الآن وهو ملىء بالاهانات والآهات مع أنه كان فى السابق مليئا بالإنتصارات فما هو طريق الخلاص من هذا الواقع فى رأيك ؟

يجيب قائلا : هذا سؤال سياسى ، وليس عندى بشكل محدد إجابة لكيفية الخلاص ، لكن أعتقد أن فى حياة الأمم وحضارتها مجموعة من الأسس يفترض وجودها لكى تنهض بدورها الحضارى ومن أهم هذه الأسس اللغة ، فهذه الأمة أنزل عليها كتاب هو «القرآن» وعلى هذا الأصل أى القرآن قامت حضارتنا الإسلامية والقرآن جاء تحديا باللغة، فبدون هذا الأصل لا يمكن أن يكون هناك خلاص.

تعجب إذ ترى أمة ثائرة على الإستعمار ، تتمثل أوائل ثورتها فى

إزالة اللافتات المكتوبة بلغات أجنبية على بعض المحلات في شوارعها ، ينتهي بها الحال إلى أن يصبح أرقى التعليم في أعين ذوي الوجاهة والسلطة فيها .. هو المدارس الأجنبية، التي يطلق عليها اسم مدارس اللغات .. أين التحرر من الإستعمار إذن في ظل تلك التبعية العقلية الصارخة ؟

يحدث عندنا ذلك وأكثر فأنت عندما تسير في أي شـــارع الآن .. لا تجد بين ألف اسم لمحل تجارة اسم عربي .. بينما العدو «المتفوق» الذي أنزل الهزيمة بنا ، يحرص على تأصيل ذاته في الأرض المغتصبة ، وانبعاث لغة وثقافة بادت منذ قرون وأقرب مثال لها الآن حرصه على تسمية ما نسميه بالضفة الغربية لنهر الأردن «يهوذا والسامرة»، يعلم أبناءه باللغة التي استحياها من كل الآداب وكل فنون العصر على السواء ، لمزيد من احيائها .. لدينا على سبيل المثال دعوة من نقيب الأطباء في مصر لترجمة علوم الطب العربية وتدريسه بها .. هل استجاب لها أحد؟

وبعد فقدان الأصالة يأتي فقدان الجدية : كيف يتأتى لأمة أن تبني صناعتها – وهو أحد أهدافنا المعلنة .. بينما العلوم التي تقوم عليها تلك الصناعة مازالت تدرس عندنا لفئة محدودة بلغات أخرى ، هيهات أن نتقنها أو نبلغ فيها مبلغ أهلها ، ما لم ندخلها إلى لغتنا وتصبح جزءا من كياننا الثقافي ، وتكون النتيجة أن يصبح «الاستيراد» أسهل باستمرار من «الإنتاج» سواء في السلاح أو غيرها مما نحتاج.وتنشأ عندنا «طبقة جديدة» كل همها أن تطارد الواردات الأجنبية في كل شيء، فيما يفيد وما لا يفيد .. وما هو ضروري وغير ضروري ، بل ضار في أحيانا كثيرة.

ولأن أراؤه تدل على فساد الثقافة العربية .. وجرى المثقفين وراء الثقافة الغربية فقد سأله السائل التالي : «ما هو السبيل للخلاص من الثقافة الأوربية».

فقال : « ان التصدى أو السبيل للخلاص سهل وذلك بعد أن نستوعب ثقافتنا ولكن بشكل متكامل ، بعد ذلك نصبح جاهزين لمحاورة أية ثقافة ، فالخطر أن تغزوك هذه الثقافة وأنت فى الأساس لا علاقة لك بثقافتك . والآن نحن فى أزمة «إننا لا نملك ثقافة» فمن غير المعقول أن تكون هناك ثقافة وأن تكون معها أزمة لو كان لنا حتى ثقافة ناقصة .. فالنقص ليس مشكلة ، إنها قضية سهلة يمكن إكمالها واتمامها، فكلمة ثقافة أضحت كلمة غير محددة المعاني ، مجوفة بدون معنى ، فيجب أن تعى أولا أننا نملك الثقافة أولا .

ليس لنا طريق إلا البداية من اللغة ، يجب أن يشعر كل واحد منا أنه ليس موجودا إلا باللغة .

أن نظام التعليم الدنلوبى الذى وضعه الإنجليز فى مصر ، وعندما نجحوا فى طمس هويتنا عمموه فى بقية البلاد العربية .. وحدث ما نراه الآن من تفريغ تلامذتنا من كل شيء يمت لأصولنا .

وأنا لا أنفى أن بعضنا مازال يحب اللغة العربية ، لكن الواجب أن تكون من شيمتنا عشق اللغة والمحافظة عليها ، وأعتقد أن هذه مهمة المثقفين والمدرسين والباحثين وأن بدء العمل من هذه النقطة، فلابد أننا سننجح وأعتقد أنها مسألة بحاجة إلى جهد شاق .. أو جهاد مجيد .. فاللغة ليست نحوا وصرفا وكلمات فقط ، فنحن بحاجة لاستيعاب جوهر اللغة ودواخلها .

ولما سألوه من أين نبدأ .

قال : يجب أن نبدأ من أنفسنا وتوسيع دائرة الاحساس باللغة ، حتى ننقلها للآخرين فإصلاح نظام التعليم بحد ذاته ليس حلا ، فمن الممكن أن يصلح النظام التعليمي ، لكن المدرسين مثلا لا علاقة لهم بالاصلاح أو بحب اللغة والتي هي أساس العودة للثقافة المتكاملة ، فما الحل ؟

وقد سألوه وفقا لنظرته هذه ، هل الثقافة تمثل هوية ؟

قال لا شك في أن الثقافة تمثل هوية ، وما يجعلنا نفقد هويتنا الآن أن الجيل الحالي لا يريد اللغة العربية أساس ثقافتنا ، أنه يريد اللغات الأجنبية، والدين كذلك مقوم أساسي من مكونات هويتنا الثقافية ، فعلى مر العصور وفي كل الحضارات كان الدين جذرا للحضارات ، لذلك نحن نقول أن الثقافة العربية هوية للعرب والمسلمين معا واعتقد أن سبب استلابنا الثقافي الحالي أننا لا نعد القرآن ولا الحديث على أنهما مكونان من مكونات ثقافتنا .

وكان لي دور في أنني فتحت جزءاً من الأبواب لننهل من ثقافة الماضي من ماضينا الحضاري ، وقد أخذ مني هذا العمل عمري كله، وقد ساهمت في ذلك من خلال أنني علمت أبناء لي وشبعتهم بهذه الثقافة وهم موجودون في أماكن عديدة من العالم العربي والإسلامي ، ولكنهم للآن لم يبذلوا شيئا يذكر ، فعملية بذل الجهد وفتح الأبواب للماضي الحضاري مسألة معروضة على الكل . فيجب أن نلبي هذه الدعوة .

الفصل السابع
سرد تاريخى

نشأته – ومشاركته
فى الحياة السياسية فى مصر

أما وقد وقفت طريقنا خصيصة كره محمود شاكر الكلام عن نفسه ونحن في سبيل سبر أغوار سيرة حياته، فإننا سنذللها بخصيصة أخرى لديه، وهى أنه يودع فى كتبه كثيرا من حياته ومعاناته ومحمود شاكر للعلم هو السابع فى ترتيبه بين إخوته.. «أحمد وعلى ، وصفية ومحمد ، وفاطمة وحسن ، ومحمود ، وعزيزة» «ولكن حسن توفى صغيراً وقد سجل الشيخ مجمد شاكر ميلاد ابنه محمود على جزء من الفتوحات المكية هكذا . المولود السابع :

بحمد الله ولد لكاتبه شيخ علماء الاسكندرية مولود فى مدينة الأسكندرية بمنزل حافظ باشا فى الساعة السادسة العربية والثانية عشر الأفرنجية من ليلة الاثنين عاشر المحرم وهى ليلة عاشوراء غرة

١٣٢٧ وأول فبراير ١٩٠٩ وقد سميته ولقبته بهذين الاسمين الكريمين محمود سعد الدين شاكر ، وجعلها تاريخ مولده بعد الالف أما الألف فتكون فى الجملة الآتية ولد عاشر المحرم ليلا نسأل الله أن ينبته نباتا حسنا .. محمد شاكر ..

وفى البداية نجد أننا لا نحيط من سنة ١٩٠٩ بما حدث لمحمود شاكر في طفولته إلى دخوله أول مراحل التعليم إلا ما قاله لى أخوه محمد الذى يكبره من أنه كان لأخيه محمود مربية سودانية عصبية المزاج وكانت إذا غضبت من أحد أفراد الاسرة.. فإنها تصعد به حيث حجرتها فلا تدع أحدا يحمله أو يداعبه .. بل إنها كانت إذا انشغل الطاهى عن إرسال الغذاء لها .. فإنها تستنكف ان تطلبه .. وبدلا من ذلك تصطاد العصافير وتشويها وتطعمه إياها .. بل إنها جعلته يستسيغ أكل الحريف من توابل الطعام كالشطة وغيرها ، والتى لازمته طوال حياته ، فقد كان قبل أن يلم به المرض ليمضغ طعامه بها ولا يستلذه بغيرها .

وهذه الكلمات العفوية التى جاءت على لسان أخيه محمد .. حلت لى لغزا شغلنى كثيرا أيام كان ابنه فهر طفلا صغيراً فقد كان كلما جاء أحدهم بلعبه كهدية لفهر.. فإن محمود شاكر الذى لم يعش طفولته كان يحجز هذه الدميه عنه ، خوفاً من أن يدمرها، بينما الحقيقة أن الأب كان يديرها خفية ويلعب بها مرات ومرات.. وأخيرا يسلمها لفهر بعد أن يعلمه طريقة تحريكها ، وربما يؤكد هذه المعلومة الطريفة ما جاء فى

وصفه للويس عوض كرسول للمستشرقين الغربيين بقوله : «أرأيت إلى الدمية التى تدير مفتاحها لتملأها ، فإذا هى تحرك يديها وتمشى برجليها وتترنح أحيانا وتعتدل وتختال أحيانا وتستقيم ، وتبتسم حينا وتوشك أن تبكى حينا آخر وتفتح عينيها تارة وتغمض جفنيها تارة أخرى، ومحركها فى خلال ذلك ، لا يبالى ولا عليه أن يتدخل فى أعمالها لأنها قلما تخطىء فى عمل ..»

وإذا كان ابن خاله الاستاذ عبد السلام هارون.. أورد هذا الوصف فى كلمة تقديمه لمحمود شاكر إلى المجمع.. ثم علق عليه : و «لست ادرى كيف غفل القوم عن تلقيب محمود شاكر بأمير الكتابة الساخرة، وإن كان مستقبل التاريخ يضمر له هذا اللقب فيما يضمره .» فإن حقيقة أمر وصفه لهذه الدمية ليؤكد القول «وذو الشيب يلعب» بقدر ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن محمود شاكر عاش طفولته مع طفولة ابنه وليس قبلها ، لأن الوصف هنا وصف دمية حديثة فلا أعتقد أنه فى سن ١٩٠٩ وسنين بعدها.. لم تكن مثل هذه الدمى «الزنبركية» قد ظهرت، وأن عدم مداعبته وهو صغير قد تركت فى نفسه اثارا، بل إنى أتجاسر وأقول إن محمود شاكر مازال أخضر رطبا فى كثير من تصرفاته .. ولا شك فى أن هذه الخصيصة هى التى جعلته يكبر ولا يشيخ، وأثبت أن الفنان فيه يكاد يطاول منزلة العالم..على نحو وترك محمود شاكر لأعمال كثيرة له بغير تمام أو مقدمة .. كما ستعرف أسبابها بعد ذلك ..

ويصف محمود شاكر المولع بالكلمة حياته فى هذه السنوات بقوله : فمنذ بدأت أعقل بعض هذه الدنيا وأرى سوادها وبياضها بعين باصرة . شغلتنى الكلمة وتعلق قلبي بها ، لأنى أدركت أول ماأدركت أن الكلمة وحدها التى تنقل إلى الأشياء التى أراها بعينى وتنقل إلى أيضا بعض علائقها التى تربط بينها والتى لاأطيق أن أراها بعينى .. وكان هذا إدراكا مبهما، لا تستطيع طفولتي يومئذ أن تستبينها كل الأستبانة .. ولكنى لا أزال أذكر لمحا كالوميض يلوح ويختفى من عهد طفولتى ، إذ كنت اسمع من كان فى بيتنا حين يتحدثون بطلاقة وذلاقة لا يطيق مثلها إنسان غض قريب عهد بصمت الطفولة الطويلة ، وبعجزها المتلهف إلى الإبانه ونزاعها الدائب إلى محاكاة الكبار ..

فى هذه السنوات حدثت بمصر أحداث شتى.. كان أهمها.. حرب طرابلس ثم انعقاد مؤتمر المسلمين فى القاهرة.. ردا على المؤتمر القبطى فى أسيوط، وانشاء الشيخ علي يوسف لجمعية الهلال الأحمر سنة ١٩١١ .. ثم سقوط أدرنه وحرب أدرنه ..

فى ١٩١٢ صدر كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية».. لمحمد فريد خليفة مصطفى كامل .. متفقا معه فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها تركيا.. وهذه النزعة الإسلامية كانت واضحة فى كتاب ذلك العصر وقادته ومفكريه .. وتستطيع تتبعها فى شعر أحمد شوقى ..

وفى ١٩١٣ كانت الجمعية التشريعية قد تكونت وقد اختير الشيخ

محمد شاكر عضوا فيها - ممثلا للتعليم الديني عام ١٩١٣.. كما رشح سعد زغلول نفسه لدائرتين فى العاصمة، أما فى سنة ١٩١٤ فقد أعلنت الحماية على مصر لأن بريطانيا دخلت الحرب العالمية الأولى فعزلوا الخديو عباس حلمى الثانى وولوا البرنس حسين كامل ، استقال الشيخ محمد شاكر من منصبه كوكيل للأزهر حتى ذلك يتفرغ للعمل السياسى، وقد بدأت المعارك الأدبية فى مصر حيث هاجم منصور فهمى الإسلام ، كما أن تركيا حاولت دخول مصر بجيش عثمانى وفشلت هذه المحاولة سنة ١٩١٥، وانحدر الشاعر حافظ ابراهيم من مناصبه الكثيرة إلى رئيس دار الكتب لتردده بين حب الانجليز وممالأة الخليفة كما وصل مكماهون .

فى ذلك الحين وتلك الظروف التحق الطفل محمود شاكر بأول مراحل التعليم بمدرسة الوالده أم عباس سنة ١٩١٦ حين تقدمت إنجلترا بمشروع برونيت لمنح مصر استقلالا ذاتيا ولكن مصر رفضت هذا المشروع، بعدها أى فى ١٩١٧ أثير موضوع أعمال السلطة الإنجليزية ، أو ما يعرف بالسخرة وظهور أغنية يا عزيز عينى أنا نفسى أروح بلدى وقد اجتاز محمود شاكر أول إمتحان فى العربية وهو على شفا الرسوب لأنه كان يتلقاها مع علوم الاسلام فى آخر الحصص بينما نجح بتفوق فى الانجليزية حيث فتن بحروفها الغريبة النطق التى يتلقاها على الريق فى أول حصة.. ولعل لهذه الحادثة أثراً فى أن تكون أول ثورته على نظام التعليم الدنلوبى .

فى عام ١٩١٨ تقدم الزعماء الثلاثة سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى بمطلب الاستقلال للمعتمد البريطانى وهو ما سمى بعيد الجهاد الوطنى يوم ٣ نوفمبر، ولما رفض هذا الطلب قامت ثورة ١٩١٩ ، فى هذه الاثناء عرف محمود شاكر طريقه إلى ركوب المواصلات العامة لانتقاله إلى مدرسته القريبة التى تبعد عن منزله برحبة عابدين.. وفى هذه المدرسة اجاد الانجليزية حتى أنه راسل بها هيئة غربية كانت قد اعلنت فى الصحف أن لديها طريقة غذاء مخصوص لكل شخص تجعل من يتبعها يتجاوز المائة عام ..

وعندما وصلت لجنة ملنر إلى مصر.. كان الخلاف قد وقع بين سعد زغلول وعدلى يكن حول رئاسة وفد المفاوضات .. وانشغل الشيخ محمد شاكر بهذا الخلاف كما عرفنا آنفا.. ورسب محمود شاكر فى شهادة الإبتدائية وفى العربية بالذات ، فهل كان الشيخ محمد شاكر هو الذى كان يراجع معه العربية؟ ام أن جو البيت لم يكن ملائما فقد كتب محمود شاكر بعد ذلك عن هذا الوقت فقال : «وكان مما قدر الله أن أفتح عينى على ثورة ١٩١٩ وعلى دار تموج بالثوار فعقلت من الأمر ما عقلت ورأيت بعينى رجالا ، وسمعت بأذنى آراء ورضيت بقلبى أو سخطت وأعانتنى فطرتى بضرب من التمييز ، كان يرج نفسى رجا شديدا، وأنا بعد فى غضارة الصبا. ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعا يفور بالمتناقضات ، يتشقق بالصراع المر فى ميادين مختلفة من الدين إلى العلم إلى الأدب إلى الفن، إلى السياسة إلى السنن الموروثة ، فخضت زمانى فى اول نشأتى بنفس غضه مجرحة بالتجارب،

ومضت بى الأيام، واشخنتنى التجارب وهلك رجال ، ونشأ رجال ، فرأيت وسمعت، ورضيــت وسخطت ، وعلمت من أسرار الصراع ما لم أكن أعلم ..

فاللحظة التاريخية التى كانت تمر بها مصر لم تنضج محمود شاكر وحده بل جعلت الشعب بكل طوائفه وأعماره ينغمسون فى السياسة ، فقد كان طلب الاستقلال والحرية هما من الأشياء الضرورية والملحة التى قامت من أجلها الثورة كما عبر أقرانه مثل نجيب محفوظ .

ولأن.. محمود شاكر كما لاحظنا سابقا من الناس الذين يرون في مآسى حياتهم ميزانا ، فإننا نجد أن ثورة ١٩١٩ وإن جعلته يخوض محنة زمانه بنفس مجرحة إلا أنها كانت خيرا له فى تحصيله وعلمه إذ يقول : وكان من رحمة الله بى أن ادركتنى ثورة مصر سنة ١٩١٩. وأنا يومئذ فى السنة الثالثة ، فلما كانت السنة الرابعة سقطت في إمتحان الشهادة الابتدائية ، ولا ملحق لها يومئذ وأعدت السنة على مضض لأنى كنت قويا كما كنا نقول فى الرياضة خاصة ، وفى سائر العلوم عامة، سوى العربية ، وصنع الله لى حين سقطت ، وأحسن بى إذ ملأ قلبى مللا من الدروس المعادة، واتسع الوقت، فصرت حرا اذهب حيث يذهب إخوتى الكبار إلى الازهر ، حيث أسمع خطب الثوار ، وأدخل رواق السنارية وغيره بلا حرج ، وفى هذا الوقت سمعت أول ماسمعت مطارحة الشعر، وأنا لا أدرى ما الشعر إلا قليلا . » .

وكتب الله لى الخير على يد أحد أبناء خالى، ممن كان يومئذ

مشتغلا بالأدب والشعر ، فأراد يوما أن يتخذني وسيلة إلى شيء يريده من عمته التي هي أمي رحمها الله ، فأبيت إلا أن يعطيني هذا الديوان الذي سمعتهم يقرأون شعره ويتناشدونه ، وقد كان فأعطاني ديوان المتنبي بشرح الشيخ اليازجي وكان مشكولا مضبوطا جيد الورق، فلم أكد أظفر به حتى جعلته وردي في ليلي وفي نهاري حتى حفظته يومئذ ، وكأن عينا دفينه في أعماق نفسي قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم وطفقت أنغام الشعر العربي تتردد في جوانحي، وكأني لم أجهلها قط ، وعادت الكلمة العربية إلى مكانها من نفسي ، وإن لم أجدها زحزحت شيئا من الكلمة الإنجليزية التي غرسها «دنلوب» اللعين في غضارة أيامي ..» (١)

ومع عودة الكلمة العربية إلى مكانها في نفس محمود شاكر التي كانت سبب نجاحه في امتحان الابتدائية سنة ١٩٢١ اعتقل ونفي « سعد زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل، ومنع الأنجليز التغني به فظهرت اغنيتا سيد درويش «قولوا لعين الشمس ما تحماشي .. و «يا بلح زغلول.. زغلول ياأحسن حبيب القلب صابح ماشي» رطب» ودخل محمود شاكر مدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة القسم العلمي ولكنه كما قال كان شغوفا بالشعر متيما بالأدب كلفا بالتاريخ ..

---

(١) أباطيل وأسمار صفحة ٥٥٧ - ٥٥٨ .

وفى هذه الأثناء بدأ يراسل الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى، بل إنه بعد اجتيازه السنة الأولى الثانوية، أخذ يتردد على الشيخ سيد ابن على المرصفى صاحب «رغبة الآمل» فحضر دروسه التى كان يلقيها بعد الظهر فى جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه فى بيته «الكامل/ للمبرد» و«الحماسة/ لأبى تمام»، وشيئا من الأمالى/ للقالى» وبعض أشعار الهزليين».

ووسط هذه القراءات كان أثر الشيخ المرصفى عليه أثرا شديدا، فقد أثار اهتمامه وصرف قلبه كله إلى الشعر الجاهلى.

وهنا نتوقف للتأمل.. ليس لأن هذا الانصراف إلى الشعر الجاهلى، كان هو التحول الثانى فى حياته.. بعد التحول الأول الذى تم بحفظه لديوان المتنبى، بل لأنه سيختلف بعد ذلك حول أصالة الشعر الجاهلى مع أستاذه الدكتور طه حسين، مع العلم أن الدكتور طه قد تتلمذ فيه هو أيضا على الشيخ المرصفى قبل ذلك، فلم تم هذا الإختلاف وأستاذهما فيه واحد؟.

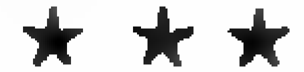
يجيب محمود شاكر على هذا السؤال بألمعية نادرة فى معرض رده على الدكتور عبدالعزيز دسوقى.. حين راجع قوله «إن الدكتور طه حسين لا بصر له بالشعر الجاهلى»، إذ حصر سبب ذلك فى طريقه تلقى كل منهما عن الشيخ المرصفى الذى كان حاله يختلف باختلاف المكان والسامعين، فهو عندما كان ينثر هذا الشعر للخاصة فى بيته، أى لمحمود شاكر وحده، فكان يقف على الكلمة، أو البيت وقفات يعيدها

ويرددها، يشير بيده وتبرق عيناه وتضيء معارف وجهه، ويهتز يمنة ويسرة، ويرفع قامته مادا ذراعيه ملوحا بهما يهم أن يطير، وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما، تراه كأنه يجد للكلمات فى فمه من اللذة والنشوة والحلاوة، ما يفوق كل تصور.. كنت أنصت وأصغى وأنظر إليه لا يفارقه نظرى، ويأخذنى عند ذلك ما يأخذنى وأطيل النظر إليه كالمبهوت، لا تكاد عينى تطرف وصوته ينحدر فى أقصى أعماق نفسى كأنه وابل منهمر تستطير فى نواحيه شقائق برق يومض إيماضا سريعا خافتا ثاقبا ـ أيام لم يبق منها إلا هذه الذكرى الخافتة، فإذا كف عن الإنشاد والترنم أقبل يشرح ويبين ولكن شرحه وتبيينه لهذا هو الذى حركه كل هذا التحريك، كان دون ما أحسه وأفهمه، ويتغلغل فى أقاصي نفسى من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردده كان دون ذلك بكثير، وكنت أحس أحيانا بالحيرة والحسرة تترقرق فى ألفاظه وهو يشرح ويبين كأنه كان هو أيضا يحس بأنه لم يبلغ مبلغا يرضاه فى الإبانة عن أسرار هذه الكلمات والأبيات».

ويردف محمود شاكر: «أما حالة الشيخ المرصفى وهو يلقى دروسه العامة، والتى كان يحضر أمثالها من قبلنا الدكتور طه حسين، فكان مختلفا كل الاختلاف، كان ملتزما بالجد والوقار يتخللها ذرو قليل من مزاح لاذع جارح أحيانا، ولكنه كان لا يقصر فى الإبانة والشرح، ولا فى التوقف عند الأبيات أو الكلمات الجياد الحسان المحكمة».

أى أن الذى أخذه الدكتور طه حسين من شرح الشيخ وصله عن

طريق الأذن فقط أما الذى وصل محمود شاكر فهو وليد السماع والمشاهدة والعيان، لا وليد الألفاظ والكلمات.



وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أصدر الإنجليز تصريحا يعلن استقلال مصر.. ولكن مصر رفضته، لأنه كان مكبلا بالشروط الأربعة المشهورة.. قطع الصلة بين مصر والسودان/ حماية الأقليات. حرية المرور فى قناة السويس.. ثم الامتيازات الأجنبية، طرحت الدعوة للجامعة العربية بما تحمله من ظلال فرنسية وإنجليزية وخلط بينهما وبين الجامعة الإسلامية.

أما فى عام ١٩٢٣ فقد أعلنت مصر الدستور، وكان للشيخ محمد شاكر دور بارز فيه، كما حضر إلى مصر الشيخ مصطفى صبرى فرارا من الكماليين قبيل استيلائهم على الآستانة.. وكان لقدوم هذا الشيخ إلى مصر دور وسبب فى تغيير فكرة المصريين عن كمال أتاتورك... وتغيير رأى الشيخ محمد شاكر بالتالى... مما جعله يكتب فى المقطم ما شعر به من خيبة الأمل فيما ظنه هو والمصريون فى كمال أتاتورك وكتابته مقالة «ما شأن الخلافة والحكم» ثم ظهر كتاب الشيخ على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم».

فى عام ٢٤ تشكلت أول وزارة شعبية وفدية برئاسة سعد زغلول بعد عودته من المنفى وتصادف أن قتل السردار «لى ستاك» فى ٢٤ نوفمبر .... تلاها سنة ١٩٢٥ أنتخابات أحمد زيور أو بداية تزوير الأنتخابات

فى مصر... وفى هذا العام كان محمود شاكر قد نجح فى أمتحان البكالوريا من القسم العلمي.

فى سنة ١٩٢٦ اضطر الأحرار للتحالف مع الوفد للوقوف ضد أوتقراطية الملك فؤاد ـ فشكلا الوزارة الإئتلافية الأولى، وجاءت الدعوة لاجتماع البرلمان بفندق الكونتنيتال، ودخل محمود شاكر كلية التجارة جامعة فؤاد الأول «القاهرة الآن»، ثم تحول إلى كلية الآداب، بواسطة الدكتور طه حسين الذي أقنع الدكتور لطفى السيد بجدارته لهذا... وحفظه لكتاب الأغانى ولسان العرب... وقد توفيت والدة محمود شاكر فى هذه السنة بمنزلهم برحبة عابدين... حيث نشر أول قصيدة فى رثائها بمجلة الزهراء تحت عنوان «يوم تهطل الشجون» ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.. ونذكر أن هذه السنة هى بداية بحثه عن منهجه التذوقى.

وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ توفى سعد زغلول.. وبدأ الصراع فى حزب الوفد وكتب الطالب محمود شاكر سماعا مقالين عن محاضرتين كان قد ألقاهما أستاذه «كارلو الفونسو نلينو» فى الجامعة المصرية أولاهما عن رواد اليمين من الأوربيين وثانتيهما عن المشتغلين بدرس آثار اليمين... تلاهما بمقال عن «الناسخون الماسخون» بمجلة الزهراء أيضا.

فى عام ١٩٢٨... وكان فى السنة الثانية بالجامعة.. وبينما هو منغمر فى الكتابة عن إكمال ثلاثة خروم من كتاب التنبيه على أوهام أبى علىّ فى أماليه للبكرى «ثم» من الخط البغدادى منشدا قصيدته «النجم

الواتر والصبح الثائر»... يحتدم الخلاف ـ الذى عرف به بعد ذلك ـ بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول أصالة الشعر الجاهلى ـ يتلوه مقاطعته للجامعة، بل مغادرته لمصر كلها إلى جزيرة العرب ـ بعد نشره قصيدته «كلمة مودع» فى مجلة الزهراء، وقد وصف محمود شاكر فى أحد كتبه تدرج لقائه بزملائه فى الجامعة بعد أربعين سنة وصفا بليغا بمناسبة مواجهة الدكتور مندور له فى بعض ما كتبه عن لويس عوض.

«أربعون سنة» لقاء مفاجىء على غير ميعاد، غرباء جمعتهم الغربة على طريق. نظر بعضهم فى وجوه بعض من بعيد وقريب، ومر جسد قريبا من جسد، وتحية يلقيها أحدهم على بعضهم بلا بشاشة، ثم يمضى وكأنه لا يبالى، ثم يلتفت من بعيد ليجس هذا الجثمان المنتصب بنظرة فاحصة، ثم يعودون مرة أخرى فتلتقى الوجوه وتتقابل، وتتصافح النظرات بالطرف الخفى، ثم يعرض هذا ويمضى كل إمرىء لطيته فى أرض الصمت.. ثم يعودون مرة ثالثة، فتقبل الأشباح على الأشباح، فتمتد الأيدى، ولكنها باقية فى مكانها مسدلة لم تتحرك من موضعها، وتقبل الخطى ولكنها تتردد، فيذهب هذا يمينا ويذهب هذا شمالا، وتنطوى الأيام يوما بعد يوم... وسرعان ما تجلت عنهم هذه الغربة الراغبة المعرضة وسرعان ما تكشف الإعراض والإقبال عن صداقة بلا مطمع، وعن مودة صافية بلا كدر وإذا شباب تستفزه جهالة الصبى وغرارة الطباع، وألسنة «ثرثارة» لحداثة عهدها بالإبانة عما فى سر

قلوبها وعقولها، وغمرات من الفرح تخوضها بجرأة وبلا تردد، واختلاف واتفاق ورضى وغضب وصوت يعلو وصوت يهمس، وليل ينساب فى نهار، ونهار يشق سدول ليل، وآت منقض ينفى الملالة عن ماض منهزم، ورأى متجهم ينشق عن مرح ضاحك واندفاع إلى غاية كالسيل الجارف، وارتداد عنها كمثل لمحة البرق، ووقار باد تهزه من تحته خفة كامنة، وطيش طليق يكف من غلوائه أدب وحياء».

«يومئذ لقيت» محمد مندور «وسائر إخوانى وزملائى أول ما لقيتهم منذ أربعين سنة، فى حدائق قصر الزعفران، مقر الجامعة، وكلنا غر بادى الغرارة وكلنا دون العشرين، ومضت أيام، وتصرمت الشهور، ومحت سنة أختها، وبدأت معالم الطريق تبدو لخطانا من حيث لاندرى ولا نحس. ولكنى كنت أولهم إحساسا بطريقى، وأسرعهم إدراكا له، وأمضاهم عزيمة على قطعه، وكما التقينا جميعا فجأة فارقت إخوانى فجأة غير متلفت إلى وراء، وغبت عنهم جميعا غيبة طويلة، غير أخ واحد، قدر لى وله أن يؤنسنى فى بعض طريقى الجديد برسائله الطوال المتتابعة، هو محمود محمد الحضرى بقيت لنا فى كتاب القدر سنوات من الصحبة لم يكن قد حان بعد حين انقضائها، ولكنها انقضت هى أيضا بعد قليل بغتة ثم سرت فى الطريق الطويل الغامض غريبا، وحيدا، منفردا عن ركب الغرباء الأول كيف كان هذا، ولم كان؟ لا أدرى» ربما كانت الجملة الأخيرة تشير إلى تركه لا الجامعة وحدها بل مصر كلها مهاجرا إلى الحجاز.

ولعل القارئ يتذكر أن الصديق الوحيد الذى كان يؤنس شاكر فى بعض طريقه الجديد برسائله كان هو نفسه صديقه الوحيد الذى سبقت الإشارة لوقوفه بجانبه يوم احتدام الخلاف بينه وبين طه حسين لأنه كان من قسم الفلسفة.

أما بعض طريقة محمود شاكر الجديدة ـ فى هذا الوقت ـ أنه وإن كان قد سخط على مدارس مصر لتدريسها وفق منهج دنلوب.. فإنه فى الحجاز لم يجد مدارس أصلا، فانشغل فى إنشاء مدرسة جدة الإبتدائية بناء على طلب الملك عبدالعزيز آل سعود.. ولم يكتب سطرا آنذاك وبدأت رسائل أصدقائه تحثه على العودة إلى مصر.

أخذت هذه الرسائل تتوغل فى نفس محمود شاكر إلى أن استقرت فى أعماقه، لاسيما أنها حملت له نبأ غروب شمس حياة أخته الصغرى صفية عقب نفاث الوضع ولم تتجاوز الثلاثين، فسماع أنباء الموت للمغترب شديدة الوطأة، حيث يهيىء له أنه لولا مغادرته لما حدث ماحدث، ومع أن الأعمار بيد الله إلا أن محمود شاكر رأى أن من واجبه تلبية رجاء العودة.. فحزم حقائبه على عجل وغادر الحجاز إلى مصر.. فوجد شعبها يمور بأمواج سياسية هادرة.. حيث ارتطم الأحرار مع الوفد بشدة. مما اضطر السرايه حيالهما لإجراء انتخابات حرة عام ١٩٢٩ فاكتسحها الوفد، وبعد أن شكل النحاس الوزارة.. سافر ليفاوض هندرسون إلا أنهما تخالفا حول فصل السودان ووضع الإنجليز فى القناة، وبعد أن رفض النحاس بنود هذه المفاوضات عاد

إلي مصر فوجد أن إسماعيل صدقي ـ أحرار ـ قد قام بانقلاب ضده.. لكن النحاس رغم ذلك دعا إلى اجتماع برلماني وعندما اجتمعت الأغلبية ـ وهي وفدية ـ في مبني البرلمان وجدوا أن قاعة المجلس قد أغلقت بالسلاسل فلما حضر النحاس وكان من سلطته السيطرة على حرس البرلمان أمر بتحطيم السلاسل، وعقد الاجتماع ـ وكان رئيس المجلس ويصا واصف ـ بل وأعلن إلغاء دستور ١٩٢٣.

يهيىء لي أن محمود شاكر العائد لتوه من الحجاز وقف حائرا يتلفت ويتأسف على وضع مصر السياسي، وسرعان ماعرف الكبار من علماء العصر بعودة الثائر الشاب الذى صحت آراؤه في أقوال الدكتور طه حسين، فالتفوا حوله كشخص له كيان مستقل بعد أن كان في نظرهم ابن الشيخ محمد شاكر.. فتبين منهم الأستاذ خضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيش، ومحمد أمين الخانجي، كما تعرف في العام نفسه على الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة ثم تزاورا في منزليهما، وعندما وقف محمود شاكر على حقيقة أن هؤلاء جميعا، ورغم صخب السياسة يواصلون الإنتاج، أمسك بالقلم فكتب مقالات لهذه الصحيفة وهذه المجلة.. كنشره بجريدة البلاغ عن «كتاب الأم» للشافعي.. ولكنه وجد نفسه غير قادر على المواصلة وسط هذا الفساد المنهجي المتخبط، ففضل العودة إلى تأصيل منهجه التذوقي فانغمر وذاب... حتى إنه ـ عندما أصدر الملك فؤاد أمرا بوقف الدورة البرلمانية.. أثر قولة العقاد الشهيرة: «إن الأمة على استعداد أن

تحطم أكبر رأس تمس الدستور»، وكان من نتيجة ذلك سجنه لمدة تسعة أشهر، خرج بعدها متوجها إلى ضريح سعد ليخطب فيقول: «إن الشهور التسعة التى سجن فيها ماهى إلا ميلاده الجديد» بعدها شكل النحاس الوزارة، ثم تحالف الوفد والأحرار ضد إسماعيل صدقى لإعادة الدستور.. وهتاف المتظاهرين فى الشوارع بسقوط الدكتاتور و ازاء هذا التخبط إنكب محمود شاكر فى البحث عن منهجه.

لقد نأى محمود شاكر بنفسه عن كلا الحزبين الجديدين، حيث كان تعاطفه مع الحزب الوطنى القديم وكانت هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ على محمد شاكر عضوا عاملا بالحزب الوطنى فصحب شباب الحزب الوطنى واتصل برجاله، ومنهم حافظ رمضان، وعبدالرحمن الرافعى، وأحمد وفيق، والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبدالعزيز جاويش، وقد جاء فى طى حديثه صدفة «أنه فى هذا الوقت كان يتردد على جمعية الشبان المسيحيين وبعد سماع محاضرة بها مع ابن خاله عبدالسلام هارون، خرجا وقد انبثق فى حوارهما معا فكرة إنشاء جمعية مثلها للمسلمين، وقد أنشأها بالفعل مع أصدقائهما الكبار محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور، والدكتور عبدالحميد سعيد.. ولكنه سرعان ما اختلف معهم محمود شاكر وذلك عندما وجد أن الجمعية حادت عن مبادئها التى سبق واتفقوا عليها

فقاطعهم.. وكتب بذلك مقالا كاستقالة نشرها فى مجلة الفتح رغم أن صاحبها هو محب الدين الخطيب الذى اختلف معه.

تعرف في هذا الوقت على الأستاذ فؤاد صروف صاحب مجلة المقتطف.. الذى أمكنه أن يسلس قيادته أى «محمود شاكر» وإقناعه أن يستروح عن نفسه بكتابة شيء غير ماهو عاكف عليه ـ منهجه ـ فاستجاب وكتب عرضا لكتابى «أدب الجاحظ للسندوبى» و«الصاحب بن عباد» لخليل مردم.

وفى سنة ١٩٣٣ جرت أضخم معركة فكرية عن القومية العربية.. أثارها الدكتور طه حسين، حيث كتب فى جريدة كوكب الشرق «الوفدية» «إن المصريين خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءتهم من الترك والفرنسيين» وقد هبت عاصفة صاخبة عقب هذه العبارة استمرت ثلاثة أشهر، بل إن عدواها سرت فى جميع الأقطار العربية حيث قرروا مقاطعة كتب الدكتور طه حسين، وإحراق الذى لديهم منها.

وعندما انسحب صدقى من رئاسة الوزارة، شكل عبدالفتاح يحيى، [١]

---

(١) «عندما نسجل إنتاج محمود شاكر من مؤلفات وتحقيقات فإننا نسجلها من كتاب «دراسات عربية وإسلامية» ، وهو كتاب أهدي لمحمود شاكر من تلامذته بمناسبة بلوغه السبعين.. حيث رصدوا في مقدمته مؤلفاته من صفحة ٢٠ إلي صفحة ٣٢ ... وفي صفحة ٣٠ منه نعرف أنه نشط سنة ١٩٣٣ فكتب اثني عشر مقالا للمقتطف بدأها بترجمة قصيدة «صانعة الدموع» وأنهاها بالكتابة عن وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي.

الذى كان سكرتيرا لحزب صدقى، وزارة استمرت حتى عام ١٩٣٤، وكان أحمد حسين رئيسا لحزب مصر الفتاة قد طرح مشروع «القرش» وكان هذا العام من أخصب أعوام محمود شاكر انتاجا، حيث تولى إدارة تحرير مجلة «المختار» ريدرزدايجست»، التى كان يصدرها صديقه فؤاد صروف، وقد استطاع خلال فترة عمله فيها أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عددا من المصطلحات الجديدة فى العربية للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع الطائرة النفاثة، ومازال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين المختار التى كان يصوغها نموذجا يحتذى فى هذا الباب، وكان عاما مليئا بالنشاط، فضبط وصحح وعلق على كتاب (فضل العطاء على العسر» لأبى هلال العسكرى.. كما كتب لأول مرة فى الرسالة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه قام بعرض ثلاثة وثلاثين كتابا (١)

---

(١) هى «حاضر العالم الإسلامى» لوثروب ستردارد، «ذكرى الشاعرين» لأحمد عبيد، «ماضى الحجاز وحاضره» لحسين محمد نصيف، «الوحى المحمدى» لمحمود رشيد رضا، «ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم» لأمين محمد سعيد «ابن عبدربه وعنده» لجبرائيل سليمان جبور، «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» لمصطفى فرج، «تنبيهات اليازجى على محيط البستانى» لسليم سمعون، «أنتم الشعراء» لأمين الريحانى، «تاريخ مصر الإسلامية» لإلياس الايوبى، «الا والرحمن فى تفسير القرآن» محمد جواد البلاغى النجفى، «ابن خلدون، حياته وتراثه الفكرى» عبدالله عنان، «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة، «مفتاح كنوز السنة» فنسنك، «ملوك الطوائف لدوزى» الينبوع، نظم أحمد زكى أبوشادى، «النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى»، لزكى مبارك، «ديوان عبدالمطلب» «المقتطف» مرشد المعلم «لجون ادمز وترجمة محمد أحمد الغمراوى» مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» لمحمد عبدالله عنان»، العاملين لرنبدرنات «طاغور» «القارئ يناجى شاعره» لرتشرد لاغالين.

للمقتطف مع ترجمة قصائد، أو على الأصح إفراغها فى القالب العربى هى «صاحب المسحاة» لأودين» ورحمة الله عليها» لأوسكار وايلد و«الشباب والشيخوخة» لروبنسون جفرز .

على عكس كتابات شاكر التى كانت زخمة فى العام الفائت . كان انتاجه سنة ١٩٣٥ ضئيلا جداً ، حيث لم يكتب «للمقتطف » سوى مقالتين، وأخرى للمقطم . لأنه كان يضع اللمساتّ الأخيرة فى منهجه التذوقى، مع صداقته للشاعر محمود حسن إسماعيل . ويحيى حقى ، وإن سبق قلمه فكتب أنه دخل بيت محمود شاكر عام ١٩٤٠ وأى ما كان التاريخ فقد سألت محمود شاكر عما ذكره الأستاذ يحيى حقى فى أعماله الكاملة أنه من خلال لقاءات كثيرة مستمرة ، وقراءتك لذخيرة ضخمة من كتب الإرث العربى استطعت أنت أن تكشف له عن روعة البيان وأسراره ، أو كما قال : إنك مكنته من سليقة العربية وأنك أجزته قال : ماذا تتخيلين عن هذه السنوات ؟ وهل كنا ننتهى من كتاب ونقبل على الآخر ؟ .. هذا عجيب .. لقد تخلل كل ذلك كثير من الحوارات ولعب النرد والورق ببراءة قبل أن ينقلب خيالك ، قلت له : الآن صدقت ما قاله الشيخ على الطنطاوى فى تليفزيون الكويت حيث أكد إنه تعرف عليك أيام زيارته لخاله محب الدين الخطيب .. وكنتما تلعبان كرة القدم ولكن أنت كنت تذهب لبيتك وتحقق ، حتى إن خاله أطلعه على جزء من كتاب «أدب الكاتبين» ، لابن قتيبة ، حققته أنت عام ١٩٢٦ ونشره لك فى دار الفتح فهز رأسه مؤكدا صحة الواقعة !

واقعة أخرى تشى بنبوغه المبكر توافق إعادة دستور ٢٣ عندما تكونت وزارة محمد توفيق نسيم ، ثم انتفاضه الطلبة بزعامة الطالب

عبدالحكيم الجراحى وهتاف الطلبة «رفعت القلم يا عبدالحكيم» . فى حين أن الدكتور طه حسين بدأ ينشر فى جريدة الجهاد مقالات تسع رجع فيها عن أقواله فى الشعر الجاهلى . بدأها بمقالة عنوانها : «أثناء قراءة الشعر القديم» ، وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : «إنكم لتشقون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوقه لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها .. ثم يتوالى نقده لهذا الصاحب طوال مقالاته التسعة ، بل علق بأن أمثال صاحبى هذا أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام .

وربما استراح محمود شاكر لعودة الدكتور طه إلى الحق فى مسألة الشعر الجاهلى . زد على ذلك أنه فى هذا العام أو قبله بقليل، كان الأستاذ فؤاد صروف ، قد كلفه أن يكتب كلمة مسهبة احياء لذكرى أبى الطيب المتنبى فى مرور ألف عام على وفاته ، وقد قال محمود شاكر أنه قد تلقى هذا التكليف متحمسا ، فقد كان ديوان المتنبى كما عرفنا هو أول ديوان حفظه عن ظهر قلب زد على ذلك أنه كان قد وصل إلى منهجه التذوقى وأراد أن يطبقه على ديوان المتنبى .

وقد صادف تشكيل وزارة وفدية ، ثم تشكيل الجبهة الوطنية برئاسة النحاس استعدادا لمفاوضات معاهدة سنة ١٩٣٦ . ظهر العدد الممتاز من مجلة المقتطف حيث صارت الكلمة المسهبة التى كلف محمود شاكر

بكتابتها صارت أول دراسة وافية عن المتنبى ، ألغى بها إلى حد كبير جميع المؤلفات التى سبقته عن المتنبى ، ويعتبر هذا العام عام شهرة محمود شاكر ... فقد أحدث هذا العدد الممتاز دويا لف هديره كل البلاد التى تنطق بالضاد ، جعلته يشعر بفترة من السعادة والارتياح . لأن هذا النجاح أثبت أن منهجه التذوقى – الذى لم يكن قد أبان عنه – قد نجح بنجاح أول ثماره .

وكأن محمود شاكر قد اعتبر المائة والسبعين صفحة التى احتلها بحثه هى نصيب المقتطف من وقته ، فلم يكتب لها شيئا غيره فى هذا العام ، حيث اتسعت خطواته خارجها إلى جريدة البلاغ ، ومجلة الرسالة ، فنشر فى الأولى أربع مقالات عن ترجمة القرآن الكريم فى صحيح البخارى ، وفى الكتب المنزلة . ونشر فى الرسالة أربع مقالات أخرى حول نبوة المتنبى ثلاث منها رد بها على الأستاذ سعيد الأفغانى والرابعة رد بها على الأستاذ عبدالمتعال للصعيدى .. مع ثلاث قصائد تدور حول معاناته للحب.. مما يعيدنا إلى الأبيات الستة أو «نفثة قديمة» التى استروحها استهلالا بكتابة بحث عنه «المتنبى» ، وكان شعاره الرئيسى لهذه القصائد وما تلاها «ديوان البغضاء» ، وربما جاء هذا الاسم الغريب من شاعر محب . لأن أول قصائده فيه كانت قصيدة «انتظرى بغضى» ثم قصيدتين «حيرة وعقوق» وقد تكون لنا مع محمود شاكر محبا وقفة مواتية .. إذ يستحسن الكلام بعد تمامها، ذلك أن فى السنوات المقبلة قصائد أخرى .

وما أن دخلت سنة ١٩٣٧ إلا ووجدنا محمود شاكر منكبا يقرأ فى

كتاب «مع المتنبى» الذى أصدره الدكتور طه حسين لأن من حق المتنبى عليه أن يقرأ كل ما كتب عنه . وهناك وقع نظره على أشياء وأشياء ، مما كتبه هو ذاته عن المتنبى فكتب عنها الرسالة اثنتى عشرة مقالة كانت الأولى فى ٣ مارس والأخيرة فى ١١ مايو ذلك أن الرسالة كانت تظهر ككل المجلات الأدبية أسبوعيا وليس شهريا أو فصليا كما هو الآن والسبب الذى دعا شاكر إلى التوقف عند هذا العدد ، أن صديقه الرافعى قد توفى فحزن عليه وانشغل به ، حيث عرض كتابه «وحى القلم» للمقتطف كما شيعه بقصيدة مرسلة نشرت فى الرسالة » .

فى عام ١٩٣٨ حدث انقسام بين صفوف الوفد وظهر السعديون بزعامة أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وعاد الدكتور طه حسين مرة أخرى إلى معارضة الجامعة العربية انتصارا للفرعونية ، وعندما هوجم بشدة نشر فصلا من كتابه «مستقبل الثقافة» حيث طرح رأيه بصورة أخرى ، وفى هذه الأثناء أخذ محمود شاكر امتياز مجلة العصور - العلمية ، العلمانية الاتجاه - التى كان يصدرها إسماعيل مظهر ليحولها إلى ثقافية أدبية فكتب فى ضوء المنهج الجديد افتتاحية شهر نوفمبر ثم اتحفها بمقال - إلى جانب رئاسته - عن تهيئة الشرق لوراثة الحضارات والمدنيات فى شهر ديسمبر . وكان قد كتب للرسالة خمس مقالات بعنوان «بين الرافعى والعقاد» كما رد على سيد قطب فى هجومه على الرافعى .. وكذلك على على طنطاوى، وفى سنة ١٩٣٩ عاد حزب الأحرار حيث شكل محمد محمود الوزارة ، وفى قاعة مجلس

النواب توفى حسن صبرى ، وهو يلقى كلمة فى اجتماع البرلمان ومن صدف الحياة أن يتوفى الشيخ محمد شاكر فى نفس السنة ، وفى بيت ابنه محمود ، وكان قد استقل بمنزل خاص وقرر أن يتولى مسئولية أبيه - فأحضر له ممرضة تشرف على تمريضه مع أخته عزيزة التى لم تكن قد تزوجت .

وقد توقفت مجلة العصور التى رأس تحريرها محمود شاكر .. بعد صدور عددين منها فى طباعة جميلة وإخراج مبهر ، ولما علم محمود شاكر أن الأستاذ الزيات غضب من إنشاء هذه المجلة كتب مقالا نشر في الرسالة بعنوان «من صاحب العصور إلى صاحب الرسالة» .

وكتب لمجلة الرسالة أيضا عن ذات النطاقين . ثم مقدمة حياة الرافعي التي تصدرت كتاب سعيد العريان الذى عمل مدة طويلة سكرتيرا للرافعي وبعدها تفاقمت أزمته المادية ، ربما بسبب وفاة والده .. وحرمانه مما كان يغدقه عليه . وهنا نذكر أنه كما قال الأستاذ فتحى رضوان عنه: «ولما بدأ حياته بهذه البداية ، التى ما كانت تليق إلا بشيخ، اضطرته كل وقائع حياته على ما يشبه هذه البداية ، ويليق بها . ولم يلق برجل أخذ على عاتقه أن يشن هذا الجهاد ويرفع أعلامه ، أن يكون موظفا يمد يده نهاية كل شهر إلى مرتب ينتظره ، وأن يكون للحكومة كلمة نافذة فى رزقه ومكانته ومكان عمله، فانقطع لعلمه وفكره ، ومكتبته وبحثه ودرسه ، وزملائه ، وتلاميذه ، كأنه الراهب المتعبد ، وقد كان المنتظر أن يكون فى مصر والبلاد العربية والإسلامية مئات بل آلاف

يتحررون تحرره وينقطعون للرسالة التى نذروا أنفسهم لها – انقطاعه ، ولكن للأسف الممض ، لم يكن لمحمود شاكر أشباه وأنداد فكان نسيجه صدقا وحقا» .

فى هذا الوقت أشار عليه أخوه الأكبر الشيخ أحمد شاكر أن يتجه إلى التحقيق .

كان عام ١٩٤١ أخصب إنتاج لمحمود شاكر على الإطلاق . فقد حقق وشرح وصحح كتابى «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء» و«الأموال والحفدة والمتاع» لتقى الدين المقريزى ، وكتاب المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب .. بجانب قصيدتين فى الرسالة مع حوالى عشرين مقالة للرسالة بجانب توليه تحرير «باب الأدب فى أسبوع» زد على ذلك أنه كتب للمقتطف «علم معانى أسرار الحروف – سر من أسرار العربية» . وأحد عشر مقالا للدستور أبرزها «خطاب مفتوح إلى على ماهر باشا » فقد كان عام وزارة حسين سرى وعلى ماهر ، ولا تظن أن دخل محمود شاكر زاد وربا من الرسالة .، فقد كتب الأستاذ عباس خضر فى مذكراته بمجلة الدوحة القطرية أنه ومحمود شاكر لم يتقاضيا من الرسالة أجرا مقابل مقالاتهما .

فى سنة ١٩٤٢ هبط إنتاج محمود شاكر من مئات الصفحات إلى صفحة واحدة عن امتاع الأسماع ، نشرها فى الرسالة .

★★★

وعندما نتذكر سنة ١٩٤٢ يتداعى إلى الذهن فورا حادث ٤ فبراير،

وما تطور عنه من أحداث – اختلف تفسير مؤرخى الوفد مع غيرهم فى تبريرها – وتأكد لمحمود شاكر أن نظرته كانت ثاقبة حيال بعده عن الوفد والأحرار معا .. وفى هذا الوقت .. بدأ يكتب للرسالة سلسلة من المقالات تحت عنوان أيام حزينة من مذكرات عمر بن أبى ربيعه .. «الطريق إلى الحق» كما ترجم «ذكرى أم كلثوم» للشاعر التركى إبراهيم صبرى ، وخص المقتطف بتعليق عن «عبقرية عمر» للعقاد .

فى سنة ١٩٤٣ نشر قصيدته «تحت الأنقاض» فى مجلة الرسالة وواصل الكتابة عن عمر بن أبى ربيعة فى مقالتين «جريرة معاد» ، و«صديق إيلين» وخص المقتطف بثلاث مقالات عن ذى الرمة «ولما كانت إقالة وزارة الوفد سنة ١٩٤٤ متوازية مع ظهور دعوة عبدالعزيز باشا فهمى لكتابة العربية بالأحرف اللاتينية – تقليدا لكمال أتاتورك فى تركيا – كتب محمود شاكر للرسالة مقالاً هاجم فيها هذه الدعوة بعنوان «الحرف اللاتينى والعربية » بجانب مواصلته للكتابة عن عمر بن أبى ربيعه «كما كتب أخوه أحمد شاكر كتيباً صغيراً موجها لعبد العزيز باشا فهمى تحت عنوان «الشرع واللغة» .

وفى سنة ١٩٤٥ غاب محمود شاكر عن الساحة الأدبية ولم يكتب سطرا فقد أغتيل على ماهر باشا .. وهو شخص كان محمد شاكر يأمل أن ينصلح حاله وان ينصلح به الحال، وعاد محمود شاكر سنة ١٩٤٦ للكتابة فى الرسالة.. ولكنه لم يكتب إلا مقالة واحدة كل شهر كان أبرزها مقالتين «احذروا أيها العرب» ، « من استرعى الذئب ظلم» .

وفى هذا العام أنشأ المرحوم فتحى رضوان بالاشتراك مع نور الدين طراف وسعد كامل ما سمى بالحزب الوطنى الجديد ، تمييزا عن الحزب الوطني الذى كان قائما برئاسته محمد حافظ رمضان ، كما ظهرت مجلة الكاتب المصرى بتمويل يهودى ، وقد رأس تحرير هذه المجلة طه حسين .

سنة ١٩٤٧ بدأت مفاوضات صدقي - بيفن - وقد ضاعف شاكر من قوته فى الكتابة حيث كتب ستا وعشرين مقالة للرسالة أخذ أغلبها الطابع السياسى الوطنى مثل «لا تدابروا أيها الرجال» ، «إنه جهاد لا سياسة» ، «الخيانة العظمى» ، «الجلاء الأعظم » ، «نحن العرب » ، «الحكم العدل » ، «هى الحرية » ، «قضى الأمر» ، «أسد أفريقيا» ، «شعب واحد وقضية واحدة» .

وربما كانت نبرة شاكر السياسية الوطنية ١٩٤٧ م تعبيرا عما يعتمل فى نفسه من أحاسيس وطنية لايرى صداها المتوجب فيمن حوله .. فقد قامت بعدها حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ودخل الجيش المصرى الحرب . حدث ماهو معروف «حصار الفالوجة» ثم أغتيل محمود فهمى النقراشى وشكل إبراهيم عبدالهادى الوزارة وبطش بجماعة الأخوان المسلمين . واستمرت نبرة محمود شاكر السياسية الوطنية عالية وفى الصميم تحت عناوين «ويحكم هبوا» «لا تملوا» ، «الفتنة الكبرى» ، ثم «لمن أكتب» .

وفى سنة ١٩٥٠ كان تعيين حسين سرى رئيسا للوزراء تمهيداً

لإجراء انتخابات جديدة ، وقد فاز الوفد فى هذه الانتخابات وذلك فى يناير ١٩٥٠ ولم يكتب محمود شاكر خلال هذه الفترة سوى مقالة واحدة للرسالة بعنوان «على حد منكب » . لحزنه على ما آلت إليه فلسطين .

وعندما أنشأ الأستاذ فتحى رضوان مجلة اللواء الجديد المعبرة عن مطامح الحزب الوطنى الجديد سنة ١٩٥١ ، انضم محمود شاكر إلى هيئة تحريرها فقد كانت الصداقة قد توطدت بينه وبين فتحى رضوان فى أوائل الأربعينات ، فكتب عدة مقالات سياسية «لاتنسوا» ، «عدوى وعدوكم» ، «أندية لا ناد واحد» ، «لاتخدعونا» «احذروا عدوكم» ، «فى خدمة الاستعمار» .. ولكن عندما نشر الأستاذ سيد قطب مقالات يهاجم فيها الدولة الأموية ، رد عليه محمود شاكر في جريدة «المسلمون» التى تصدرها جماعة الأخوان المسلمين التى ينتمى إليها سيد قطب بثلاث مقالات تحت عنوان «حكم بلا بينة» «تاريخ بلا إيمان » و «لاتسبوا أصحابى» .

وفى يوليو ١٩٥٢ اندلعت الثورة بزعامة جمال عبدالناصر ، وكان محمود شاكر من المتحمسين لها جدا .. وإن كان الحماس سيخفت كما سنرى بعد ذلك .

لذلك كله نجد أن محمود شاكر تألق فى أول هذا العام.. فقد واصل مراجعته للأستاذ سيد قطب فى جريدة «المسلمون» فكتب مقالته الشهيرة عن الدولة الأموية تحت عنوان «السنة المفترى عليها» وقد سبق

الإشارة إليها كما نشر قصيدته الشهيرة «إلقوس العذراء» في مجلة الكتاب «ودخل معركة حولها مع كل من الأساتذة جمال مرسى بدر ومحمد سعيد المسلم نشرت في «الكتاب» أيضا - كما حقق وشرح كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى لدار المعارف .

وما أن ألغت الثورة الأحزاب السياسية ، حتى وجدنا الفتور السياسي يدب في أوصال المجتمع وانعكس هذا في طابع مقالات محمود شاكر الأربع للرسالة حيث كتب يتساءل «فيم أكتب؟ » ، «وأبصر طريقك» ، «وباطل مشرق» إلى الكتابة نهائيا في الصحف فكانت مقالته «غرارة ملقاة» حيث أغلقت الرسالة - وقد توقف معه عن الكتابة في هذا الوقت الاستاذ نجيب محفوظ ، وهما للعلم متشابهان في كثير من جوانب الحياة - كما خبرتهما معا- ولا سيما الجوانب المادية وعدم الحرص عليها فضلا عن الصبر والجلد على بلوغ الغايات مهما كانت الثقة والمشقة! .

وعندما أبعد محمد نجيب من رئاسة الجمهورية ، وذلك بعد ما سمى بأزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، والتي تلاها اتفاقية الجلاء، ظهر الجزء الأول والثاني من تفسير الطبرى لدار المعارف أيضا . وتوالت الأجزاء الستة عشر ، وفقا لحركة المجتمع نشاطا وخمولا ، فظهر الجزء الثالث والرابع والخامس منه سنة ١٩٥٥م مع مؤتمر باندونج .. وظهور مبدأ الحياد الإيجابي وعدم الانحياز .

ومع ظهور الجزء السادس والسابع والثامن كان الاحتفال بجلاء

آخر جندى إنجليزى ، ومقاطعة مصر للإستيراد من الغرب ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية ، والاعتراف بالصين الشعبية ، ورفض الصندوق الدولى تمويل مشروع السد العالى ، وتأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثى على مصر - فشل العدوان - الانذار الروسى سنة ١٩٥٦ - النقطة الرابعة نظرية الفراغ - توازى مشروع ايزنهاور سنة ١٩٥٧ الخاص بنظرية شغل - إثر - خروج انجلترا وفرنسا من الشرق الأوسط ، ومحاولة أمريكا الحلول محلهما مع ظهور الجزء التاسع والعاشر ، والثانى عشر من الطبرى، كما أسس محمود شاكر فى نفس الوقت دار نشر «العروبة» مع زميليه: محمد رشاد سالم ، وإسماعيل عبيد .

وفى سنة ١٩٥٨ لم يظهر إلا الجزء الثالث عشر والرابع عشر من تفسير الطبرى . فقد توفى الشيخ : أحمد شاكر الذى كان يراجع أحاديثه .. فكتب عنه مقالا لمجلة «المجلة» ، التى كان يرأس تحريرها آنذاك صديقه يحيى حقى كما كتب «فصل فى إعجاز القرآن» كمقدمة لترجمة الدكتور عبدالصبور شاهين لكتاب» الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى .. وقد ظهر فى هذا الوقت الاتحاد القومى ، ثم تمت الوحدة بين مصر وسوريا . ثم تأييد عبدالناصر للثورة العراقية ١٩٥٩ ولقائدها عبدالكريم قاسم ، هذا الأمر الذى أشفق منه محمود شاكر على من لا يعرف قصة التمزيق الذى أحدثه الأستعمار فى كيان الأمة العربية والإسلامية ، منذ بدأ سلطانه عليها و ... و... ولما كانت

الأزمة مع الاتحاد السوفيتي . وخلاف عبدالناصر مع خريشوف سببا في القبض على الشيوعيين في مصر . وقد سبقهم الإخوان المسلمون وأصبح الشارع المصري يتهامس بما يدور في المعتقلات والسجون من تجاوزات .. كان محمود شاكر في حالة هلع فلا يخفي سخطه ، واستنكاره ...وكان أن دخل السجن لأول مرة في شهر فبراير إلى أكتوبر ١٩٥٩ ميلادية .. كما جاء على لسان الشيخ حسن الباقوري في معرض تبرير استقالته من وزارة الأوقاف ... ولم يكتب بالطبع سطرا واحدا ولكنه عندما خرج من المعتقل ، كان المؤتمر القومي للقوى الشعبية قد ظهر للوجود ، وأخرج محمود شاكر الجزء الخامس عشر من الطبري سنة ١٩٦٥ ، ثم السادس عشر، ولم تتم الأجزاء الأربعة عشر لخلافه مع دار المعارف وبعدها حدث انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة وعاد اسم مصر لها سنة ١٩٦١ . ومع قيام الأتحاد الأشتراكي ١٩٦٢ ، قامت الثورة اليمنية . وصدر القسم الأول من «جمهرة نسب قريش وأخبارها » للزبير بن بكار الذي شرحه وحققه محمود شاكر عن مكتبة دار العروبة ١٣٨١ هـ . الذي استنفد طاقة محمود شاكر حتى أنه لم يكتب سطرا في سنة ١٩٦٣ كما حدث انقلاب ١٤ رمضان بالعراق .

ومع التفكير في إنشاء التنظيم الطليعي وهو تنظيم سري ينبع من الأتحاد الأشتراكي العربي سنة ١٩٦٤ ميلادية خرج الشيوعيون من المعتقل ، وزار مصر خريشوف .. قرب نهاية تنفيذ مشروع السد العالي

– وتحويل مجرى النيل – ظهرت قصيدة القوس العذراء لمحمود شاكر في ديوان خاص ، وتزوج في هذا العام ، وتسنى له مراجعة كتاب «شرح أشعار الهزليين» صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكرى – ثلاثة أجزاء – الذى حققه عبدالستار أحمد فراج – وماهى إلا شهور حتى نشر الدكتور لويس عوض عدة مقالات تحت عنوان «على هامش الغفران شئ من التاريخ» بجريدة الأهرام ، وذهب فيهما إلى تأثر المعرى بحديث الإسراء والمعراج ، كما ألمح إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها فى الحديث النبوى ، ووجد محمود شاكر أن تهافت هذا الكلام فرصة مواتية يعلم فيه هذا الجيل شيئا من تاريخ الدمار الذى ألحقه الاستعمار بأبنيتنا اللغوية والثقافية والتعليمية ..

وعندئذ فك أصفاده التى كانت تحجبه عن الكتابة للصحف، وكتب لمجلة الرسالة الجديدة خمسة وعشرين مقالة تناول فيها ماطرأ على العالم من حركة التبشير ، وما انطوت عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل – كالمناداة بالكتابة بالعامية ، وغيرها . وقد طبع من هذه المقالات الجزء الأول من كتابه « أباطيل وأسمار» ثم ولد ابنه فهر .. وصار يلقب بعدها بأبى فهر .وإن كان هذا الاسم لم يتصدر هذا الكتاب لأن المجلد الثانى منه قد صودر ، حيث حدث ضد محمود شاكر تكتل من بعض شيعة الدكتور لويس عوض، كان من آثارها أن سيق محمود شاكر مرة أخرى إلى السجن ولبث فيه لثمانية عشر شهرا – حدثت خلالها أحداث من أبرزها تلبية الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر لآخر دعوات مصر له، التى لم يلبيها من قبل فى مارس ١٩٦٧

ليقول رأيه فى القضية التى سميناها مشكلة الشرق الأوسط - كما أنتجت المصانع الحربية المصرية صاروخين شدت بهما أم كلثوم «بالعمل وبحب ناصر انطلق ظافر وقاهر» .. ثم لم يكن لهما أصداء فى الحرب بعد ذلك بشهور أى الطامة الكبرى أو هزيمة يونيو ١٩٦٧ فأفرج عن المعتقلين .

ويقول ابن أخيه عبدالرحمن أن عمه محمود شاكر قال له بعد خروجه من السجن ، أن نبأ الهزيمة قد أصابه بالدوار حينما بلغه فى السجن، حيث رأى أن الاستعمار يفعل بجمال عبدالناصر وحركته ، ما فعله من قبل بمحمد على وحركته ، احتواها من الداخل ، ثم دمرها لمزيد من تدمير الأمة ودفع أبنائها إلى اليأس من كل شئ .

نقطة نظام :

لاشك أن القارئ ظن أن سردى للأحداث السياسية الموازية لحياة شاكر ... كان لإبراز رد فعل الأولى على الثانية ، ومن ثم فقد افتقدها ، مما يؤكد صحة مراجعة الكتاب الإنسانيين للمؤرخين حتى يكفوا عن تشبيه الإنسان بالدولة ، لأنهما مختلفان، فالدولة قد تنقلب رأسا على عقب بين عشية وضحاها .. بينما يرتبط يوم الإنسان بأمسه مستشرفا غده .. محصنا من هذا الانقلاب . والعصور تتغير ولكن الإنسان واحد ، زد على ذلك أن الحدث السياسى لاتفهم حقيقته إلا بعد كشف أسبابه الخفية فنحن فى الخامس من يونيو ٦٧ ... كنا نظن أننا سنصلى المغرب فى تل أبيب .. وبعدها عرفنا النكسة .. والأحداث السياسية

التى اختلف مظهرها عن مخبرها كثيرة فى كتب التاريخ ، وهذه فرصة لأذكر القارئ أننى ما أتيت بهذا التوازى إلا لتعريف القراء مالا يعرفونه عن محمود شاكر بما يعرفونه من الأحداث السياسية التى تعلمناها فى المدارس ..

لذلك نجد أنه فى سنة ١٩٦٨ عندما أعلنت أحكام الطيران .. ووجد الطلبة أنها لا تتناسب مع فداحة النكسة قاموا بمظاهرات .. هتفوا فيها ضد عبد الناصر . نجد شاكر ينشر فى مجلة العربى عن «قرى عربية» ومع بداية حرب الاستنزاف وإغراق المدمرة إيلات .. وقيام النميرى بإنقلاب فى السودان ١٩٦٩ ، لم يكتب محمود شاكر شيئا لا سيما وقد ولدت ابنته زلفى .

أما فى سنة ١٩٦٩ فقد قرأ محمود شاكر مقالات كتبها الدكتور عبد الغفار مكاوى عن تأثر الشاعر الألمانى جوته بالأدب العربى ، وبناء القصيدة فيه من خلال قصيدة للشاعر الجاهلى الصعلوك «تأبط شرا» .. ترجمها الكاتب عن الألمانية .. ووقع فى ترجمته لها فى هفوات لا يقع فى مثلها من له أدنى علم بالعربية ولكن يحيى حقى .. لسذاجته أو هكذا يقول محمود شاكر .. أعجب بهذه القصيدة بل اهتز لها .. ودعا إلى النظر إليها بعين هذا الأعجمى ، والإعجاب بها ، والتعظيم ، كما كان من جوته ، فكتب شاكر سبع مقالات يراجع بها الناشر والمترجم والمترجم له واستمرت شهور أبريل ، سبتمبر ، نوفمبر ، مارس ١٩٧٠

تحت عنوان «نمط صعب .. نمط مخيف» توغل فيهما فى دروب أدبية ولغوية متشعبة .

ومع آخر المقالات .. حاصر الملك حسين الفلسطينيين فيما سمى «بأيلول الأسود» وعقد عبد الناصر مؤتمر قمة طارىء لبحث هذه المشكلة ، ثم توفى أثر توديعه لآخر عضو فيه .. وتولى أنور السادات الحكم وهو شخصية محبوبة لدى الأستاذ محمود شاكر .. ومن الصدف السعيدة بالنسبة لى دخولى بيت محمود شاكر هذا العام . وكثيرا ما أسأل نفسى عن أهم ما حزته من مكاسب معرفية وإنسانية منذ دخلت البيت الشاكرى فأجدها تجل عن الوصف والحصر ، أذكر منه الأكثر وهجا .. ألا وهو مواكبة آثار معاناته وهو ليسمق ليطول منهجه التذوقى .. موشحة بجوانب أصيلة من نفسه ذاته، ماثلا أمام عينى على هوامش مكتبته المدروزة بالكتب ، كما وصفها الأستاذ يحيى حقى ، حيث أننى لم أستل كتابـــا من هذه المكتبة التى بها بعض بيته ، إلا وقرأت تعليقاته الجمة المتكاثرة تملأ الهوامش . وأغلبها ويا للعجب تصويبات لصاحب الكتاب ، ومن الأغرب أيضا أنه يصوب الفهرس ، حتى إذا كان المؤلف قد جاء بحكم ، ولم يبرره أو يوثقه أو يعنعنه ، فإنه يقوم بهذه المهمة تصحيحا للتاريخ ومصداقية والعلم حتى ينتفع به طلابه الذين يقصدونه تباعا ! .

ورغم أن الأستاذ شاكر كان يمنعنى من تسجيل هذه الهوامش

والاكتفاء بقراءتها فحسب فإننى استطعت تسجيل بعضها خلسة ، أذكر منها على سبيل المثال ، ما جاء فى هامش كتاب «على السفود» الذى كتبه الرافعى فى نقد العقاد وشعره سنة ١٩٢٦ . فعندما أنشد العقاد قصيدة فى «محمد بن صديقه المازنى» وعزوز «ابن أخت العقاد»:

وأيما أحلى وكن عادلا   فأنت من يقضى على بكره

ذر الثنايا فى عقيق اللثى   أم فمه الفارغ من دره

كتب الرافعى مراجعا العقاد : اللثى جمع لثة فى لغة العقاد وحده يعنى فى جهله وعاميته ، وإنما تجمع على لثات لا غير ، وهى مغرز الأسنان سميت كذلك لأن لحم الأسنان ليث بها أى دار بها ، ولو جمعت على «لثى» بالقصر لكان المغرز لثاه أو لثوه ، وهذا كله يصلح فى لغة العقاد وحدها .

فما كان من شاكر .. إلا أن كتب فى الهامش : هذا تهجم ، وظلم لرجل مكلوم ، فإنها تجمع على لثى وليثين .

وفى هامش آخر من نفس الكتاب ، كتب الأستاذ الرافعى مراجعا العقاد فى بيتين فى وصف رجل أحدب :

قصرت أخادعه «وغاب» قذاله ..   كأنه مترقب أن يصفعا

وكأنه قد ذاق أول صفعة ..   وأحس ثانيا لها فتجمعا

فكتب عنه الرافعى : فكأنه متربص أن يصفعا «من العامية» التى

لا ينقلها إلا عامي مثل العقاد ، لأن التربص يا عقاد الجرائد لا يكون إلا في الانتظار الطويل الذي لابد فيه من مكث وتلبث ، وبهذه الكلمة يفسد الوصف .. ويرجع هراء ، وهل إذا قصرت الأخادع وهي كناية عن قصر الرقبة يطول القفا ؟ أم ذلك الأحدب قد استعار قفا العقاد .. فانخسفت رقبته .. ومع ذلك طال قذاله : معجزة لجبار الذهن .

فكان تعليق محمود شاكر على هذا المقطع هكذا .. وضع خط أحمر تحت كلمة من العامية التي لا ينقلها إلا عامي ، ثم كتب في الهامش . أوردها الشهابي الخفاجي في رحابة الأحياء «منسوبين» لعبد الله بن النطاح» صفحة ٢٢٠ ، وأوردها «أبو السلط» وفي رسالة «أبو محمد عبد الله بن النطاح، الكاتب معاهد التنصيص صفحة ٢٢٨ ، وأوردهما «الشهابي» أيضا في طراز المجالس صفحة ١٧٤ ونسبها «لأحمد بن جّهور الأشبيلي» وخرافة الأدب صفحة ٢٢٠ ، ورواها «أبو السلط» في الرسالة المصرية ، و«نوادر المخطوطات» لأبي محمد بن الصوفي الحنبلي» .

هذا طرف من هوامش كتيب واحد لم يكتب مؤلفه «١» اسمه عليه .. وهو أستاذه الذي أخلص له حيا وميتا .. ورغم ذلك لم يتمالك محمود شاكر من شدة جبلته على الموضوعية والحق والحياد العلمي أن يسجلها على الكتاب يوم صدوره . وهي دفاع عن

---

(١) رمز الرافعي بدلا من اسمه بـ «بقلم إمام من أئمة العلم» .

العقاد «١» الذى كان يظن فى هذا الوقت أن شاكر هو ظهير الرافعى ضده .

ومما يؤكد لنا شدة محمود شاكر فى الحق والإنصاف ، وتطلبه الدقة فى التعبير والتحرى عن أصل اللفظ .. فاللغة والثقافة أن خلافه لم يكن موجها إلى الدكاترة طه حسين ، ولويس عوض ، وعبد الغفار مكاوى ، لأسباب مذهبية أو حزازات شخصية .. فها نحن نراه ثابتا على نهجه عند مواجهة أستاذه وحبيبه الرافعى الذى طالما آزره وتوسم أن يكون خليفته ، كذلك نجده يستدرك على أخيه العلامة أحمد شاكر فى بعض تخريجاته فى مسند أحمد وبعض الآثار التى أخرجها فى تفسير الطبرى .. كما لا ننسى استدراكاته على الأولين من علماء الأمة القدماء ، وإذا كان من المهاترة أن نحاول إثبات تكامل شطرى المنهج عند شيخ العربية أى تملكه للغة والثقافة العربية - فإن الهوامش والاستدراكات السابقة أثبتت لنا .. ونحن لسنا فى حاجة لهذا الإثبات - على إمتلاك محمود شاكر للركن الثالث .. وهو البعد عن الهوى أو الأصل الأخلاقى الذى قال عنه فى تذوقه إنه الداء المبير ، والشر

---

(١) نقد العقاد الرافعي في كتابه (الديوان) الذي اشترك في تأليفه مع الأستاذ إبراهيم المازني ، وكان نقد العقاد تحت عنوان «ما هذا يا أبا عمر ؟ ثم نقده أيضا في جريدة البلاغ في كلامه عن إعجاز القرآن ، ونشر هذا النقد في كتابه «ساعات بين الكتب» ، «تحت عنوان» كلمة في المعجزة وكلمة أخري في الكتاب» .

المستطير والفساد الأكبر ، إن هو ألم بأى عمل إلمامة خفية الدبيب بل الوطء المتثاقل أحاله إلى عمل كريه ، حتى لو جاء فى أحسن ثيابه وحليه وعطوره - كما سنرى عند عرضه .

وإذا كنا قد أبرزنا ملاحظاته عن كتيب صغير ، فذلك راجع إلى أن هوامشه على كتب إرثنا العربى شىء مهول حيث الهوامش والتعليقات تزيد على الكتاب نفسه ، ومثل هذا لا يحتاج كالكتاب الفائت إلى إشارات عابرة .. وإنما إلى رسالة جامعية كاملة لأنه يهتم فيها بكل شىء من المقدمة إلى الفهرس .. على نحو كتاب «معجم الشعراء» . «للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى «١» : الذى طبع معه كتاب «المؤتلف والمختلف» من أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وبعض شعرهم «للإمام أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى «٢» .. ولأن هذا الكتاب أو الكتابين المضمومين قد بدأ بفهرس للتصويبات والاستدراكات بقلم المستشرق «الدكتور فكرنكو» فإن الأستاذ محمود شاكر راح يصوب هذه التصويبات والإستدراكات نفسها ، ويشير إلى المصادر التى كان يجب على الدكتور المصوب الرجوع إليها .

والكتاب فى ٥٥٣ صفحة لم تخل صفحة واحدة من التصويب والتعليق ، وبطريقته المعهودة يضع خطا أحمر تحت الكلمة المشكوك

---

(١) المتوفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

(٢) المتوفي سنة سبعين وثلاثمائة .

فيها ، أو غير المؤيدة ، ثم يكتب علي الهامش تصويبها من المراجع المختلفة بالصفحات والسطور ، أما إذا زادت التعليقات ولم يكف الهامش ، فإنه يكتب فى الفراغ الذى يعلو الصفحة أو فى ذيلها .

ولأن هذا الكتاب بالذات حوى كتابين - بعض الكتب تحوى ثلاثة - فإنه يعلق فى الفجوات .. أى عندما يكون السطر قصيرا فى نهاية جملة .

أما الكتب المصورة فهو يضمن تعليقاته فى أوراق منفصلة ، يضعها أمام الصفحة ، وهذا كله ، وإن أثبت ذاكرته القوية اللماحة وغزارة وتنوع ما قرأ .. فإنها تفسر سبب قلة كتبه التى لم تبلغ المائة كما يرى عند بعض العلماء .. ولعل طغيان هذه التعليقات والهوامش علي أغلب كتبه تعيدنى دوما إلي رد «الأمام الليث بن سعد» - حيث تلاميذ محمود شاكر يشبهونه بهذا الفقيه - عندما سأله «محمد بن القاسم : امتع الله بك يا أبا الحارث ، إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك ، فقال الليث : أوكل ما فى صدرى فى كتبى ؟ مع إبدال الصدر فقط عند الليث بالهوامش وقوة الذاكرة عند محمود شاكر .. والتى صورها د . محمود الطناحى حيث كتب : «خرج من بيت محمود شاكر رسائل كثيرة ، أكل بها أصحابها الأموال ، تسنموا بها الذرى ، وإذا حدثك أحد أنه استفاد من مكتبة الأستاذ محمود شاكر ، فلا تظن أنه استفاد من مكتبة كتلك التى فى دور الكتب . إن مكتبة الأستاذ زاخرة بالحواشى والتصحيحات

والإحالات ، وإنى لأعلم علم اليقين أن بعض دواوين الشعر القديمة التى أعيد تحقيقها قد قامت على تصحيحات الأستاذ وتعليقاته التى قيدها على الهامش ..» . ولا يزال الأستاذ .. حفظه الله .. مع علو سنه ، على صلة وثيقة بالقراءة والإفادة . أما الدكتور ناصر الدين الأسد ، فكان تعبيره عن هذه الزاوية فى شخصية محمود شاكر هكذا : «ليس مبلغ علمه هذه الذاكرة العجيبة التي دربها فلا تكاد تخذله ، لطول معايشته لأمهات المصادر ونوادرها من مطبوع ومخطوط ولا هذه الأشارات التى دأب على تقييدها فى هوامش الكتب فى خزانته العامرة بكل نفيس ، يربط الكتب بعضها ببعض حتى أنه ليفتح كتاباً فى قضية بعينها فنرى فى الهامش مواضع ردود هذه القضية فى الكتب الأخرى ، فأصبح بذلك كل كتاب من كتبه دليلا يقودنا إلى الكتب الأخرى ومرشدا يدل على غيره ، ثم تلك الفهارس التى عني نفسه بصنعها الكثير من المصادر ذات الطبعات القديمة غير المفهرسة ، أو ينسخها بيده إذا لم يتيسر له اقتناؤها دونما كلل ولا فتور حتى أصبحت تيسر له المراجعة وتفتح أمامه مغاليق تلك المصادر ومستورها .

وأتذكر بالنسبة لهذه الذاكرة القوية أننى أيام تأليفى لكتابى «الانسان والطائر» ذكرت أمامه رأى المستشرق «جولد زيهر» .. أن اسم جمعية «إخوان الصفا» مستلهم من قصة الحمامة والطوق «فى كتاب كليلة ودمنة «للمقفع» حيث استخدم تعبير «إخوان الصفا» فى وصف

جماعة الكائنات المتآلفة من أجل هدف واحد . والتى يقوم نظامها الداخلى على إعلاء قيمة الغَيرية .

وما إن سمع الأستاذ محمود شاكر ذلك منى .. حتى انتفض ساخطا هذه الهرطقة : إن تعبير «اخوان الصفا» قد ورد كثيرا فى الشعر الجاهلى .. فأوس بن حجر مثلا أنشد قائلا :

لعمركَ ما أنسى طفيل بن مالك　　بنى عامر إذ ثابت الخيل تدعى

وودع إخوان الصفاء بِقُرزل　　يمر كمـريخ الوليد المفـزع

و قال عمر بن شأس الأسدى وهو جاهلى أيضا

تذكرت إخوان الصفاء تيمموا　　.. فوارس سعد واستبد بهم جهلا

أما دعوة الحمامة المطوقة لصويحباتها بالتلاحم .. فيقول الشعر الجاهلى على لسان جران العود وهو شاعر من بنى نمير :

وذكرنى الصبا بعد التناهى　　حمامة أيكه تدعو الحماما

أسيلا خـده والجيد منه　　تقلد زينـة خلقت لزاما

وظل الأستاذ محمود شاكر يأتى بالبيت الجاهلى تلو الآخر حتى أثبت بالفعل أن ابن المقفع هو الذى استلهم الاسم من الشعر الجاهلى وليس العكس كما يتصور بعض المستشرقين المتعجلين .

وستأتى المناسبة التى تعرفك لمَ يسخط الأستاذ محمود شاكر عندما يسمع قولا لمستشرق ولكن بعد أن أصف لك حالته الروحية وهو

يسمق ليطول منهجه التذوقي .. فقد وصف لى أخوه محمد الذى يكبره وبعفوية تامة .. أن أخاه محمود شاكر .. كان ينكب أياما وليالى على قراءة هذه الكتب – ويشير بيده نحو مكتبة أخيه «أكثر من عشر آلاف كتاب» – كان ينغمر فى القراءة لدرجة أنه لم يكن يسمع جلبة قدوم الأهل والأصدقاء إلى منزله ، ثم أردف ، بل إننا كنا نبيت بالأسبوع وهو لا يدرى بوجودنا ، وكان حتى لا يرانا ونحن نأكل معه .. لأن خاطره يكون شاردا عنا بما كان يقرأه قبل أن ندعوه مرارا وتكرارا ليقدم فيأكل .. ثم يتعجب من كان يراه فى هذه الأيام يحسب أنه أخانا الأكبر – مع أن العكس هو الصحيح – وذلك لأنه كان لا يتحسس شعر رأسه أو ذقنه ، ليعرف ؟ أنهما قد استرسلا وراء ظهره وإلى صدره .

والحق أن شاكرا هكذا إلى الآن إذا انغمر فى القراءة أو الكتابة ، فنحن فى هذه الأثناء نسير على أطراف أصابعنا .. ونتناول الحديث همسا .. فما يكون من أم فهر ، وفهر ، وزلفى إلا أن يطلبوا منا مبتسمين أن نتصرف على حريتنا فى السير أو الكلام . لأن الأستاذ محمود شاكر لن يحس بوجودنا حتى لو هللنا كما جمهور كرة القدم .

ومع ما أطلق عليه ثورة التصحيح سنة ١٩٧١ لم يكتب محمود شاكر شيئا وعندما طرد السادات الخبراء السوفيت ١٩٧٢ ثم حدثت مظاهرات الطلبة الثانية ، وانفصال بنجلاديش عن باكستان ، ثم الحرب بين باكستان والهند ، تشكلت وزارة مصرية برئاسة عزيز صدقى ..

سمح لمحمود شاكر فى ظلها بإصدار كتابه «أباطيل وأسمار» الذى أعتقل بسبب نشر جزء منه فى عهد جمال عبد الناصر .. بعد أن ضم إليه المقالات التى صودرت باغلاق الرسالة .. ثم أصدر الطبعة الثانية من ديوانه «القوس العذراء» كما كتب مقدمه لكتاب «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» الذى ألفه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ثم صمت بعدها عام ١٩٧٣ م ليس هو وحده .. بل كل المصريين معه .. وذلك لمتابعة حرب التحرير ، حرب السادس من أكتوبر .. وكان محمود شاكر يلهج اعجابا على تآخى الرئيس السادات والملك فيصل ويعتبرهما البطلين الحقيقيين لمعركة الكرامة .

وعبر عن إكباره لهذه المعركة ، وكيف أعادت لنا ثقتنا بأنفسنا كعرب ومسلمين ؟ فقال «١» إن هذا العالم قد مضى عليه أكثر من قرن كامل وهو يموج بالحركة ويغلى بالفكر ، حتى تجمعت فى هذه السنوات الأخيرة دلائل كثيرة على أن هذا العالم لن يبدأ حتى يحتل مكانته التى يستحقها بثرائه العظيم ، وبمساحته المترامية الأطراف ، وبسكانه الذين يزيد عددهم على ثمانمائة مليون من البشر ، وبما أودع الله فى أرضه من الذخائر والكنوز ، ما استغل منها وما لم يستغل – ولا يستطيع أحد أن يغمض عينه عن عالمنا هذا مرة أخرى ، بعد المعركة التى هزت قواعد العالم الآخر ، العالم المتفوق الذى كان يستغل غفلتنا

---

(١) محاضرة لمحمود شاكر ألقاها بعد عام واحد من حرب اكتوبر ، وذلك بجامعة الأمام محمد بن سعود الأسلامية في الرياض ونشرت بمجلة المجلة .

منذ أكثر من قرنين، استغلالاً لا شرف فيه ولا أمانة ولا رحمة ولا إنسانية ، ومع ذلك فواجبنا نحن اليوم أن نعلم علم اليقين أن هذه القوة التى فاجأت العالم وهزته هزا عنيفا، لم يكن مصدرها تفوقنا نحن بحضارتنا الموروثة، على هذا النوع الغريب من الحضارة، الممثلة فى القوى الحربية والصناعية والعلمية التى يمتلك زمامها العالم الذى نسميه عالم المستعمرين ، بل كل الذى حدث هو أننا استطعنا أن نستفيد فائدة جليلة من حركة الصراع بين القوى الكبرى فى عالم الاستعمار ، فاشترينا بأموالها السلاح المتفوق من إحدى القوتين العظمتين فى العالم ، لنواجه به سلاحاً متفوقا أيضا يستمده عدوانه من القوى الأخرى (١) ثم بلغنا درجة كاملة من حسن الاستعداد للمعركة ومن دقة التوقيت لساعة اللقاء هذه واحدة . أما الأخرى فهى أننا استطعنا أيضا بالجرأة والاتحاد أن نحبس عن عالم الاستعمار أهم مصدر من مصادر قوته وتفوقه، أو على الأصح ، أهم مصدر من المصادر التى يعتمد عليها تفوقه الحربى والصناعى ، وهو النفط (٢) ومنذ عهد غير بعيد حيث لم يكن فى قدرتنا أن نفعل هذا الذى فعلناه، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يعد ضربا من الأحلام التى لا مكان لها فى

---

(١) الآن سنة ١٩٩٧ نشغل برفض إسرائيل وعدم توقيعها علي معاهدة نزع السلاح النووي .

(٢) كتب أ. محمد حسنين هيكل عن هذه اللفتة التي تناولها محمود شاكر حول سلاح البترول في مقاله بعنوان «هل في مصر مستقبل؟ وتكلم فيها عن العوامل الثلاثة التى قلبت حياتنا العربية رأسا على

عالم الحقيقة، ورب قائل يقول، وهو صادق فيما يقول : إننا لم نصل إلى شراء السلاح المتفوق ولم نبلغ القدرة على حبس النفط، إلا بجهود متواصلة طويلة الأجل ، فلابد أن ينتبه هذا العالم إلى خصائصه وخصائص عدونا .

وفى سنة ١٩٧٤ كانت نفس محمود شاكر مازالت متعلقة بالمعركة وما أسفر عنها من مباحثات فك الاشتباك مع إسرائيل.. فأعاد إخراج

عقب وأولها ، زلزال قيام دولة إسرائيل ، وثانيا زلزال الثورات والانقلابات التى هزت شعوب المنطقة وأحدثت فيها حالة من الفوران طوال الخمسينات والستينات من القرن العشرين .. ثم جاء الزلزال الثالث فى السبعينات وهو زلزال ثورات البترول وفوائضها ، وكانت هذه ثورة عربية فى نوعها وفى ظروفها ، فهى ثورة لم تنشأ نتيجة عمل وتراكم ، أى أنها ثورة لا تنبع من تاريخ حضارى أو تكثيف جهود مشرفة .

– وإنما جاءت مرة واحدة كما يحدث الأنفجار – أى أنها بعكس المقولة الأولى التى فسرت بها كلامى «جاءت نتيجة جغرافية – ثم إن حجمها كان خرافيا لم يتح من قبل لأكبر أمبراطوريات التاريخ ، وكانت مفاتيحها جميعا من البئر إلى السوق إلى أيدى الآخرين . وأما المالك الأصلى فقد كانت فى يده السيولة النقدية يستعملها كما يهوى .

– وهى تجربة مختلفة عن ثورات الأمم من قبل ، فقد كان الغنى فى المدن وفى يد الطبقة المتوسطة القائمة على استثمار الزراعة والصناعة ، وأما فى هذه الحالة المستجدة فقد كان الغنى فى الصحارى وفى يد القبائل ، ولعبت المصادفات الجغرافية دورا لا يقل غرابة ، فقد كانت وفرة الثروات حيث ندرة البشر .. و .. وعصر البترول وفوائض معناه أن الغنى والفقر بين الشعوب العربية عبث جغرافى لا علاقة له بالتاريخ .

كتابة «طبقات فحول الشعراء» الذى كان قد حققه وشرحه ١٩٥٢ ميلادية ورأى فى عام ١٩٧٤ ميلادية رأيا جديدا فعلى غلاف الطبعة الجديدة وجدنا محمود شاكر وقد أقلع عن كلمة تحقيق وكتب بدلا منها «قرأه وشرحه محمود شاكر». فى هذا العام لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.. وهناك ألقى أهم محاضراته .. كان قد ألقى قبل ذلك سلسلة من المحاضرات عن الشعر الجاهلى ستصدر فى كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلى فى كتاب بن سلام الجمحى» - وكانت بعنوان «فى الطريق إلى حضارتنا» وهى بالطبع غير مقدمة الطبعة الثانية لكتابه عن المتنبى التى طبعتها دار الهلال ثلاث مرات فى كتاب منفصل.

وقد استهل هذه المحاضرة كما هى عادته فى جميع أعماله بحمد الله كثيرا ثم الصلاة والسلام على رسوله الكريم.. ثم قدم نبذة عن حياته الخصبة وعزلته وما فعلته به وباسمه ثم قال : «فلم يخطر ببالى قط أن يدعونى أحد لأنى منذ هجرت الكتابة فى المجلات والصحف، أكثر من عشرين عاما كنت قد وضعت اسمى فى صندوق مغلق، لا يعرف ما فيه إلا عدد قليل من قدماء القراء. أما الأجيال الحديثة، فهى تمر عليه بلا مبالاة، ثم لا تجد ما يحفزها على الكشف عما يحتويه هذا الصندوق المغلق، والكاتب إذا وضع قلمه صدىء القلم، وإذا حجب عن القراء ، نسى اسمه وانطمس رسمه، ودخل فى حيز الموتى، وإن كان يعد فى الأحياء ، فلما جاءتنى هذه الدعوة الكريمة ، تصدعت أسوار

العزلة التى اخترتها ورضيتها لنفسى واستردت لنفسى صورة أبدو فيها حياة بعد طول الرقاد، وحب الحياة شهوة خفية فى كل قلب، فإذا كان اللسان معبرا عن ظاهر الشكر لهذه الدعوة إلى الحياة فإن للباطن شكراً لا يكاد ينتهى».

أما المحاضرة نفسها «فى الطريق إلى حضارتنا» فهى محاضرة قيمة تناولت قضايا الاقتصاد والتسليح وما يدور فى العالم الإسلامى أو العالم الثالث من صراعات وما يحاك حوله من مؤامرات الدول الاستعمارية استيطانية وثقافية - لإدخال عناصر الفساد إلى عالمنا، ثم إن شراء السلاح، وحبس البترول وإن كان قد ساندنا مرة فإنه لن يسندنا على طول الحياة. ومن ثم فلابد أن يكون هدفنا هو صنع السلاح وتوجيه النفط توجيها إيجابياً.

وفى سنة ١٩٧٥ التى شهدت اتفاقية فصل القوات بين المصريين والإسرائيليين ثم الخلاف مع ليبيا .. لم يكتب محمود شاكر إلا مقالتين لمجلة الكاتب بناء على رغبة الشاعر صلاح عبد الصبور الذى عرفته عليه. الأولى بعنوان «وكانت الجامعة هى طه حسين»، والثانية بعنوان «مواقف» وكانت موجهة إلى الدكتور زكى نجيب محمود، بعدها أجرى عملية خطيرة فى عينه كتب له الشفاء منها ومع الأشتباك المصرى الليبى فى يوليو وأغسطس سنة ١٩٧٦ لم يكتب محمود شاكر فى ظلها إلا مقالا لجريدة الأهرام تحت عنوان «مع الشيطان الأخرس» أما مع زيارة السادات للقدس سنة ١٩٧٧ فقد صدرت الطبعة الثانية المزيدة لكتاب

المتنبى حيث أضاف إلى العدد الممتاز من المقتطف، قصة هذا الكتاب، ولمحة من فساد حياتنا الأدبية، ثم قضية المتنبى وهى مراجعة للدكتور طه الذى أصدر كتابه مع المتنبى بعد سنة واحدة من ظهور كتاب محمود شاكر المتنبى وهو فى أثنى عشرة مقالة نشرت فى صحيفة البلاغ بداية من فبراير ١٩٣٧، مع خمس مقالات بين محمود شاكر والأستاذ سعيد الأفغانى حول نبوة المتنبى.

وعلى إنه ما إن بدأ عام ١٩٧٨ .. إلا ووجد الدكتور عبد العزيز الدسوقى ينشر فى مجلة الثقافة عدد يناير مقالا عن «المتنبى بين محمود شاكر وطه حسين» يردفها فى شهر مارس بأخر عن «قضية التذوق الفنى بين شاكر وطه حسين» فما كان منه إلا وكتب ردا عليه فى ثلاث مقالات تحت عنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته» سبتمبر، أكتوبر ، ديسمبر، رغم أنها كانت وقت معاهدة كامب دافيد سنة ١٩٧٣. وبعدها أوقف محمود شاكر قلمه للتأمل فلم يكتب سطرا واحدا، وفى سنة ١٩٨٠ أصدر كتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وهو يتضمن الرد على نقد الدكتور على جواد الطاهر لكتابه «طبقات فحول الشعراء».

وشهد عام ١٩٨١ اعتقالات سبتمبر المشهورة والتى شملت اعتقال العشرات والمئات من المعارضين للسادات على اختلاف مذاهبهم وبعدها.. اغتيل السادات وسط قواد الجيش فى مناسبة احتفالات أكتوبر.. وتولى حسنى مبارك الحكم، وفى عهده حصل شاكر على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٢،التى حقق فيها كتاب «تهذيب الآثار وتفصيل

الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار» لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى حيث كتب على غلافه أيضا «قرأه وخرج أحاديثه» وضم السفر الأول منه «مسند على بن أبى طالب» ومسند عبد الله بن عباس» عن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . كما كتب «للإهرام» عن : «المستشرقون وقضية الشعر»، وللهلال «الفقيه الجليل ورموز التكنولوجيا» ولمجلة العربى «فساد حياتنا الأدبية بين السخف والخطأ والتضليل» بعدها سنة ١٩٨٣ لم يكتب أيضا.. ثم حصل على جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٤م ولها قصة طريفة ومحزنة فى آن واحد لهذا الرجل العظيم.

فى حضرة الملك فهد

فعندما أبلغ محمود شاكر بحصوله على الجائزة عن كتابه المتنبى قر فى ذهنه طبعا - أنها النسخة المزيدة لأنها التى أُطْلِقَ عليها كتاب - ولكنه بعد أن سافر إلى السعودية وقرأ براءة الجائزة التى شرفت به لإسهاماته القيمة فى مجال الدراسات التى تناولت الأدب العربى القديم ممثلة فى تأليفه كتابه المتنبى ١٩٣٦م.

عندئذ اسقط فى يد محمود شاكر .. فالعدد الممتاز من المقتطف عن «المتنبى» سنة ١٩٣٦ ليس كتابا .. ثم إن البراءة على هذا الشكل ألغت كل الزيادات، وهى شهادته على العصر ممثلة فى قصة الكتاب، ولمحة من فساد حياتنا الأدبية والمقالات الأثنتى عشرة والمعنونة بـ «بينى وبين طه حسين» .. فكيــف يقبل جائزة تغفل لب حياته ؟   ماذا يفعل ؟ .

خيل لى وأنا أعرف محمود شاكر إذا مسه الضر.. فإنه لا يحجم ولا يدارى ولا شك أن رفض الجائزة جاش فى خياله .. ثم عاد وتحيروذلك أن رفض جائزة الملوك شىء مهول نظر فى تلامذته - أساتذة الجامعة المعنيون فى السعودية - حتى خيل له قولهم : لن نرفع رءوسنا بعد رفضك الجائزة - لقد خذلتنا ، هذا أنت وهذه إحدى غضباتك .

ولابد أن محمود شاكر نام على الجمر - الذى سار عليه فى غضبته على الدكتور طه حسين وأتخيل أنه ختم صلاة الفجر فبرقت فى ذهنه وشرقت فكرة ترضى السلطات ولا تغضب تلامذته، وتلفت نظر أهل الجائزة إلى أن بعض المشرفين على الجائزة من تلامذة طه حسين.. قفزوا على الزيادات كلها، بحجة أن جائزة فيصل كجائزة نوبل للسلام، يجب أن تخلو من المعارك.. وفساد الحياة الثقافية، مع أن فيصل كان بطلا لحرب أكتوبر، عندما أوقف ضخ البترول وتصديره للغرب، فكان النصر الذى أدى إلى السلم بعكس نوبل التى كانت جائزته للسلام تكفيرا عن ندمه لصنعه البارود الذى أشعل الحرب.

لقد ألهم بصيغة ، تعيى أو تعجز - من يجيئوا بعده بشبيه لها .. فبعد التحية لله تعالى .. ووصف حالة عجزه وسط جمع المحتفلين ، صارحهم : «ولم يبق عندى شىء يمكن أن أقوله لكم، سوى أنى أجد حابسا يحبسنى عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم .. وحابس فى مكانى قصة محيرة لا أملك إلا أن أقصها عليكم .. وذلك أنى تلقيت من الأمانة العامة للجائزة تهنئة بحيازتى إياها هذا العام ، عن كتابى

«المتنبى» والذى نشرته عام ١٩٧٦ ، ولا كتاب لى عن المتنبى سواه، فلما كان بعد حين، وقرأت نص قرار الأمانة العامة، أذهلني العجب ، فقد تبين لى كل التبين أن الجائزة ممنوحة لكاتب آخر غيرى، وكان من تصاريف الأقدار أن اسمه يواطىء اسمى، واسم كتابه الصادر عام ١٩٣٦ .. يواطىء «اسم كتابى الصادر عام ١٩٧٦».

عند هذه الجملة رج الحاضرون وعلى رأسهم الملك فهد. لهذا الخطأ أو تلك المعادلة المقلوبة فإذا بمحمود شاكر يتمادى مبينا عدم احتفائه بقرار اللجنة المشرفة على الجائزة .. يكمل لغزه .. عن غياب صاحب كتاب المتنبى ١٩٣٦ واحتمال ظهوره بعد تسلمه هو الجائزة وسط حفل مهيب.. فقال : « ولكن أخوف ما أخافه ، أن يئوب الكاتب القديم من غيبته، ويخرج على الأمانة العامة من سردابه متأبطا كتابه ، يطالبها بحقه فى الجائزة، وهذا أمر مخوف على كل حال، ولكن ليست هذه قضيتى ، إنما قضية الأمانة العامة تقضى بها بما تشاء . أما أنا فهيهات أن يطالبنى أحد بشىء بما كان من تهنئتى ودعوتى لتسلم جائزة هذا العام علانية. وأكبر من ذلك فمعى قرار يلغى كل قرار، هو تقديمى كتابى المتنبى إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، فتقبله بأكبر الفضل علىّ وعلى كتابى الذى لا كتاب لى عن المتنبى سواه، وهذا حسبى وحسب كتابى من شرف باذخ.

بعد ذلك قام الدكتور أحمد الضبيب .. وهو أحد أعضاء لجنة

الجائزة .. فقال أن لكل عبقرى مجازاته فى الكلام و .. و .. مما هدىء الحاضرين . وجعل الملك فهد يبتسم فى وداد وارتياح .

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقد نشرت فى الصحف السعودية حوارات حول كلمة شاكر .. حيث شجبها الدكتور أحمد كمال زكى فلم يجد داعيا لهذه الكلمة مادام محمود شاكر قبل الجائزة .. ورد عليه الدكتور على أحمد السالوسة .. بأنها كانت متوجبة لعالم جليل قفزت براءة الجائزة فوق لب حياته وعندما سألت - بعد ذلك - الدكتور عبد القادر القط - وهو من أعضاء لجنة الترشيح لهذه الجائزة - عن سبب القفز فوق «لمحة عن فساد حياتنا الأدبية» «بينى وبين طه حسين» .. وهل هو المسئول عن ذلك ..؟

رد : «بأنه كان فى أعضاء اللجنة عضو عراقى من تلامذة طه حسين المتشددين وكان يفكر فى حجب الجائزة عن محمود شاكر ، فاقترحت حل وسط إعطاء محمود شاكر الجائزة عن الملحق الخاص بالمتنبى سنة ١٩٣٦».

ولكى لا تعشو عيوننا من التحديق فى الأضواء التى انبعثت حول حصول محمود شاكر على جائزة فيصل العالمية .. وما فجرته كلمته المتألقة من حوارات تجذب البصر قليلا إلى الأحدا ث السياسية.. فنجد أن الأنفراج الدولى قد حدث عام ١٩٨٥ ميلادية وبعده تمت معاهدة هليسنكى بين أمريكا وروسيا، تلتها عودة مصر للجامعة العربية العربية

في ١٩٨٩ .. حيث توجه في نهاية نفس العام محمود شاكر لأداء مناسك العمره .. شكرا لله على هذا التكريم الذي لحقه - في نفس العام - حصوله على تكريم الدول له.. على وسام للفنون والعلوم من الطبقة الأولى عن أعماله التي خدمت القرآن الكريم والسنة الشريفة سلمها له الرئيس حسني مبارك في احتفال وزارة الأوقاف بالمولد النبوي .. حيث لم يصدر محمود شاكر طوال هذه الفترة غير «تهذيب الآثار» للطبري ، و«دلائل الاعجاز».

شاكر باشا

هنا نستدرك الإشارة إلى مكون اجتماعي مهم في شخصين محمود شاكر يتعلق بنفسه وانتمائه العائلي ، وأذكر، أنه فيما يخص تواريخ أسرة محمود شاكر من ميلاد أو وفاة، والتي يظن القارىء أن الأستاذ قد أمدني ببعض المعلومات عنها.. وهو ما لم يحدث قط .. بل كل ما حدث هو أنني لاحظت أنه كلما تطرق الحديث بينه وبين أفراد عائلته حول تاريخ ميلاد فلان، من عائلته أو وفاته فإنني أجد الأستاذ محمود شاكر ينادي : فهر .. فهر أعطني الجزء «كذا» من الفتوحات المكية ..، ثم يفض الغلاف ويقرأ شيئا ، ثم يغلقه .. ويعود للحديث مصوبا أو موافقا .. مما لفتني إلى سر مكنون في هذا الكتاب.

وعندما استفسرته عنه .. لم أجد إجابة من الأستاذ محمود شاكر - كعادته - وفي خلال إحدى سفرياته أطلعني نجله الفاضل الدكتور فهر على أجزاء كتاب الفتوحات المكية فوجدت أن جده الشيخ محمد شاكر

قد اعتبر أن ميلاد أحد أبنائه فتحا مبينا عليه، فلجأ إلى كتابة ميلاد كل منهم على جزء من أجزاء الكتاب وقام الأستاذ محمود شاكر بعد أن استقل بمكتبته الخاصة ، بنقل كل ما كتبه والده على هذه الأجزاء فى نسخته الخاصة مضيفا إليها ما استجد بعد وفاة والده وذلك على النحو التالى :

«الفتوحات المكية .. مؤلف الكتاب هو الشيخ الأكبر ذو المجالس التى تبهر : محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الخاتمى ولد يوم الاثنين أو ليلة سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ هـ فى مرسية» وهى بضم الميم وسكون الراء وكسر السين .

● المولود الأول

اللهم لك الحمد والمنة

بعد فجر الجمعة التاسع عشر وغاية جمادى الآخر سنة ألف وثلاثمائة وتسعة من الهجرة النبوية وتاسع عشر يناير ١٨٩٢ م، ولد للعبد الفقير غلام فعلى بركة الله سميته بهذا الاسم «أحمد» شمس الأئمة أبو الأشبال وحمل اسمه تاريخ مولده وبالله التوفيق.

كاتبه محمد شاكر

نقلت هذا من خط والدى على نسخته

● توفى أخى الشيخ أحمد فى الساعة السادسة بعد فجر يوم السبت ٢٦ من ذى القعدة ١٣٧٧ هـ «سبع وسبعين وثلاثمائة بعد الألف

من الهجرة» ١٤ «من يونيه ١٩٥٨» ثمان وخمسين وتسعمائة بعد الألف، رحمه الله رحمة واسعة.

وكتبه أخوه

محمود محمد شاكر

● توفيت الوالدة رحمة الله عليها «أسماء هارون عبد الرازق» الساعة الواحدة والرابع بعد ظهر يوم الأحد الاثنين وعشرين خلت من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وأربع وأربعين» «٢٢ شعبان ١٣٤٤ الموافق ٧ مارس ١٩٢٦» بمنزلنا بشارع رحبة عابدين بالقاهرة.

وهكذا مع المولد الثاني والثالث و .. و .. و.. إلى المولد السابع.

محمد شاكر

نقلته أنا محمود من خط والدى على نسخته

وأذكر أنني عندما سألت عن سر مناداة أسرته له بالباشا ، وما إذا كان بسبب ميلاده بمنزل حافظ باشا أو لأنه كان أصغر أبناء الشيخ محمد شاكر ثم صار عميدها ، قالوا بل هو حاصل على الباشوية فعلا : فسألت كيف ؟ قالوا : لما كانت الصداقة قد توطدت بين الشيخ محمد شاكر وبين الخديو عباس حلمى الثانى وحدث أن زاره الخديوى مهنئا، وطلب رؤية المولود.. فأحضره، فسأل عن اسمه فقيل له «محمود سعد الدين شاكر» فحمله فى صدره وهو يقول : بل هو محمود باشا شاكر .

ولا تحسبن أن إيرادى طريقة الشيخ محمد شاكر فى تسجيل تاريخ ميلاد أولاده على أجزاء كتاب الفتوحات المكية ، أو ذكرى للقصة التى عرفتها عن حصوله على الباشوية .. ولا حتى ميلاده فى بيت حافظ باشا .. إننى ألمح إلى فكرة «إليوت» عن النخبة أو الصفوة الاجتماعية التى تحمل على كاهلها مهمة الإبداع الفنى والفكرى والعلمى وتقوم فى الوقت نفسه بالحفاظ على التقاليد الثقافية الراقية.

لا لأن محمود شاكر رجل شعبى لا يحب فى مجلسه إثارة النزاعات الطبقية.. ولا يفرق فى معاملته بين وزير وخفير .. فقد ذكرت لكم أنه قد يجلس إلى مائدة طعامه عم أنور الحلاق الذى يتعهد شعره.. بل إننى عرفت كيف استنكف هذا الوضع يوما .. أحد من ضيوفه وهم ، الشيخ حسن الباقورى ، والأستاذان محمد فؤاد جلال وزير الشئون الاجتماعية أوائل الثورة والأستاذ حسين ذو الفقار صبرى .. الأخ الأكبر لعلى صبرى .. اللذان تحادثا معا تليفونيا فى شجب هذا الوضع . فلما بلغ الأستاذ محمود شاكر قال : هذا بيتى وهذا هو سلوكى.

كما أن ذكرى لمناصب والده من أمين الفتوى إلى وكيل الأزهر.. وأن أكبر أخوته العلامة المحدث أحمد شاكر، وأوسط أخوته على شاكر وكان شاعرا وعضوا بارزا فى الحزب الوطنى أو أن أولاد خاله هما المحققان الكبيران إبراهيم وعبد السلام هارون وأن وأن .

كان ذكرى لهؤلاء ليس اثباتا لحسبه ونسبه بقدر ما رسمت عبر هذا

الرصد مفردات ثقافته التى ألهمته مذهبه التذوقى.. والجو الذى يتنفسه صباح مساء و ..

تلك كانت مجمل الأحداث التى عاصرها محمود شاكر فى حياته وكتاباته ، وإن كنت لم أذكر أحداث الأعوام الأخيرة منذ عام ١٩٨٩ . فهى على كثرتها لم تزل راهنة عالقة بالأذهان، كحرب الخليج الأول «العراق وإيران» والثانية «العراق والكويت» ثم ظهور البروسترويكا ، تلاها حرب البوسنة ، ثم محاولة روسيا لاسترداد الشيشان وما إلى ذلك وخلالها انكب شاكر على القراءة ومتابعة الأحداث السياسية .

وأتساءل بعد ذلك هل جلوت جلونا صورة محمود شاكر للقارىء؟ هنا وتحضرنى فى هذا المقام من الحديث، تحذير «يونج» من التمادى والتوغل فى التنقيب عن حياة المبدع .. إذ يقول : إن كل مبدع فى الحقيقة شخصان تراه فى جانب إنسانا فردا فى حياته الشخصية وفى جانب آخر نجده مجهولا مجرد عملية خلق وابداع.

وأنا أخط مقولة «يونج» الآن - خطر لى أن أطبقها على ما كتبناه آنفا عن محمود شاكر ، فوجدنا أنه كان حتى سنة ١٩٣٥ ميلادية مجرد عملية خلق وإبداع وبحث وتنقيب عن منهجه حيث كان أول تطبيقه له على ديوان المتنبى ، ففى منعطف وعر من مراحل إبداعه لهذا الكتاب يقول محمود شاكر : مع جهد الصوم وقلق النوم وقلة الراحة ، وغوائل الحيرة - كان غراما وعذابا والعجب أن عزيمتى الكتابية كانت تزداد قوة وشراسة.

وهل ننسى أنه فى شبابه لم يقع فى حب جارية شقراء مثلا، فلم يحب سمراء بعدها ولو كانت على نور الشمس، كما ذكر ابن حزم ، مثلا – فى طوق الحمامة .. بل وقع منذ أن كان ابن ثلاثة عشر عاما إلى أن بلغ السابعة والعشرين .وهى ضحا شمس حياته فى حب الشعر الجاهلى، بل إن نشوته بحبه فارت فجعلت تثبط همته عن الشعر الأموى والعباسى اللذين كان يحبهما قبلا :

وربما فسر ذلك سر غضبته على أستاذه طه حسين، لأنه شكك فى عرض حبيبته، أو على حد قول الدكتور شكرى عياد، عندما رأى ذراعا غليظا تزيحها عن مائدة الدرس لتسقط فى تيه العدم، فسافر إلى السعودية وربما تجسم الشعر الجاهلى فى الفتاة التى خطبها، .. ولكنها لم تكن كسفرته ليست خطبة من القلب.. حيث عاد إلى حبيبته الأولى الشعر الجاهلى يتملاه وكل الأوصاف التى وصف بها كيفية قراءته فى منهجه.

إننا بالطبع لا نعرف رأى علم النفس فى رجل أمضى ضحى حياته يغذى ذاكرته بينابيع علوم العربية من الجاهلية إلى الإسلام، ثم عصورها ودولها فسهل عليه بعد ذلك تذوق كتبها.. هل هو الرجل «الكمبيوتر» الذى لم تصافح عينه الدنيا إلا بعد أن ظهر المتنبى سنة ١٩٣٦ الذى أهداه السعادة جميعا.. وبدأنا نقرأ فى كتبه وكتب غيره عن تردده على ردهات المجلات والصحف .. ويرتاد السينما والمقاهى وقصائده الغزلية .. وآراءه فى المرأة وغيرها.

زد على ذلك أن الميزة المهمة فى منهجه التذوقى - الذى سنوضحه بعد ذلك - هذه الدقة جعلته .. ينجح فى إجادة أى عمل يخص العربية، فقد لاحظنا مثلا .. أنه لجأ إلى التحقيق للخروج فقط من أزمته المادية .. ومع ذلك جاءت تحقيقاته ذات منهج علمى مستقل ، معروف عنه ، ويحظى بالتقدير فى أوساط العلماء .. زد على ذلك أن تصفح كل أعماله بين التحقيق للإبداع حتى المقالات والقصائد .. تؤكد أنه رجل الرد فعل ولولا هذه الخصيصة لديه.. لصار يمتص ما فى الكتب ولا يسكبه فى كتاباته.

محمود شاكر والتراث

إن اهتمام محمود شاكر كان شديدا بالتراث .. لأنه يفيد المسلم فائدتين : الأولى .. معرفة تاريخ العلماء الذين مهدوا الطريق لنا ، وسلكوا دروبا مضنية ، واحتملوا عناء باهظا ، وأظهرونا على مداخل هذا التراث ، ومساربه ، حين قاموا على نشره وإذاعته .

وقد فطن محمود شاكر «١» من أول أمره إلى الأصول ، فكان اشتغاله بطبقات فحول الشعراء لابن سلام .. وكل تحقيقاته التي مرت علينا تقول لنا إن هذا الرجل نثرت أمامه العربية كلها ، فهو لم يشتغل بباب من العلم دون باب آخر ، فأنت تراه يقرأ ويفقه «المواقف» لعضد الدين الإيجي ، كما يقرأ ويفقه «كتاب سيبويه» و «تفسير الطبري» و«أغاني أبي الفرج» ثم إن له من وراء ذلك كله ، من فقه أسرار اللغة ، مالم يقف عليه أحد ، قديما وحديثا ، أقول قولي هذا وأنا أعلم أن كثيرا من أصحاب المناهج والدراسة الموضوعية ، والنقد والبناء سوف يضربون إلى رءوسهم ويقولون «متعصب مبالغ» فأقول نعم ولكن بموضوعية .

أما الفائدة الثانية التي نفيدها من تاريخ نشر التراث فهي معرفة

---

(١) كلمة التراث : لفظة لا يحبها شاكر ويفضل عليها لفظ الإرث ..

فرق ما بين الطبعات ، فإن كثيرا من كتب التراث قد طبع أكثر من طبعة، وتتفاوت هذه الطبعات كمالا ونقصا ، صحة وسقما ، وعلى سبيل المثال فإن كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام قد طبع عدة طبعات لا خير فيها ، وتعد أكملها جميعا طبعة شيخ العربية محمود شاكر .. لا سيما الطبعة التى رضى عنها .. متبرئا من الأولى التى لم يرض عنها .. وقد أقلع فى هذا الكتاب عن وصف نفسه بالمحقق ، تلك التى اخترعها أغانم المستشرقين وكتب بدلا منها «قرأه» .

«لقد تم لمحمود شاكر كل ذلك لأنه عالم فحل على دراية واقتدار بعمليتى التصحيف والتحريف وقد قال تعالى : «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» ، وهاتان العمليتان من أخطر مشكلات التحقيق أو القراءة ، ويعظم الخطب حين يبنى على اللفظ المصحف أو المحرف «أى موضع النقط» رأى فى العقيدة أو الأدب أو اللغة (١) فلفظة «الصليان» فى كتاب لويس عوض عن أبى العلاء .. وهو نبت معروف ، حرفه فتحول إلى «الصلبان» وبنى عليه مفهوما مخالفا : وهو تأثر أبى العلاء بالمسيحية ، فكان التاريخ مزيفا لثقافة أبى العلاء ، ولم يحظ من ذلك بطائل حتى قيض الله له من سامه سوء العذاب ، وهو علامتنا محمود شاكر» .

---

(١) الدكتور محمود الطناحي في كتابه المشار إليه سابقا «مدخل إلى تاريخ التراث» .

وهذه الأعمال التراثية جعلت محمود شاكر يحوز وحده على لقب شيخ العربية وشيخ العروبة الذى يجب أن يسمع صوته ويعمل بآرائه فى الدين ، والفقه ، والتاريخ ، وكل علوم العربية ، وإذا قال قائل إنه محض إنسان متدين فاتش التراث ، ونحن فى عالم غلبت عليه السياسة فنحن نقول : إذا كانت اسرائيل ليس لها دستور إلا الدين والعقيدة التى تسيطر على جميع خططها وأهدافها وأساليبها ، حتى أنه لا يمكن أن يمر قانون دون موافقته للعقيدة «التوراتية» فإننا فى اتجاه حربهم أو سلامهم لابد أن نعطى لديننا بعدا يناهض بعده عندهم ، وإذا كان أحد لا ينكر طبيعة الدين ورسالته العامة الخالدة . فإن واجب المسلمين فى كل عصر ومصر أن يحولوا المبادىء العامة إلى صيغ أكثر تحديدا ، تعالج المشكلات القائمة معالجة خاصة ، حتى لا تضيع فى تيه التعميمات السطحية التى لا تحدد الداء أو تقدم الدواء .. فليس ثم اختلاف فى أن هذا هو الأصل العام بالنسبة لدعاة أى دين .. والذى يجب أن يدركه مفكر اللحظة الزمانيــة ومكانها ، كما فعلت كل الدول التواقة إلى الرشد والنصر معا .

الفصل الثامن
التذوق منهج محمود شاكر

إذا كان لا حكم على مثقف إلا عن طريق منهجه في كتاباته . باعتبار أن هذا المنهج هو الركيزة الأولى التي تنير للناقد أسلوب وإنتاج ما ينقده فإن هذا المنهج نفسه ، غير مهم البتة لمن يكتب السيرة الأدبية لنفس هذا الكاتب . إلا أن عكس هذه النظرة هو ما ينطبق على محمود شاكر .. ذلك أن منهجه التذوقي ويعنى به معايشة النص قبل الحكم عليه حيث يدرس الأدب العربي كأعمال لغوية فنية تتلألأ في نفس أصحابه على صفحاته ، كما يضيئ اللؤلؤ بين آلاف الأصداف الفارغة . مناقضة تماما للمناهج التي تعم الساحة الأدبية قبله ، كمنهج أستاذه الدكتور طه حسين «تاريخ الأدب» الذي يدرس الأدب العربي ، وكأنه تاريخ محض مضى زمنه . فصار كالأصداف الفارغة .

وتناقض هذا المنهج مع ما قبله .. كما عرفنا من البحث وراء محاولته مفارقة الحياة يؤكد كيف قاد البحث عنه كل حياة محمود شاكر من يوم وعى لوجوده في الوسط الأدبي .. بدليل أنه كتبه في هيئة رسالة وكلنا نعرف ما تحمله هذه الصيغة من طابع شخصي يقرب من الترجمة

الذاتية .. حيث ذكر كيف محى من ذاكرته كل المذاهب الفاسدة من حوله .. محيلا إياها إلى صفحة بيضاء يسجل عليها رحلته كمستكشف يرتاد رحلة مجهده إلى ينابيع وكنوز إرث أجداده العرب القدماء .

ولأنه كان يشعر فى الوقت نفسه أنه يعبر طريق رحلته حتى يسير فيه من بعده – فقد وضع اللافتات الإرشادية والمنارات كما اعترت الرحلة الصعاب فى هيئة يوميات أو أوليات الشعر عامة والشعر الجاهلى خاصة ، والأدب بجميع فروعه والتاريخ وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفات بمذاهبها المتضاربة ولم يترك حتى العلوم البحتة كالحساب والجبر وما إليهما أى كل ماهو صادر عن الإنسان أبان عن نفسه – حتى يكتسب سليقة اللغة التى تمكنه من فهم إرث أجداده .

ينبئنا تاريخ حياة شاكر ، أنه كانت هناك ارهاصات أو محاولات سابقة للبحث عن هذا المنهج ولكنها كانت معرضة ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى لأن تكون محض زيادة فى ثقافته .. لولا حادثته الشهيرة مع د. طه حسين اذ رده صدى معاناته منها إلى العودة لمواصلة رحلته إليه ومن ثم تأصيله ، فهل نقول تبا لهذه الحادثة التى عرضته يوما لمفارقة الحياة وأخرى لفقد بصره أم نقول لكل مصيبة سلواها حيث إن أول كتاب صدر بهدى هذا المنهج وهو المتنبى قد حمل له السعادة بعد طول حرمانه منها بل إن هذا المنهج كان ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى .

وظل محمود شاكر مدة الأربعين عاما التالية لتأليفه لهذا الكتاب يطبق منهجه هذا تطبيقا بينا فى كل ما كتبه .. فى مقالاته التى نشرها فى الصحف والمجلات قديما وحديثا ، سواء كان ما كتبه بحثا أو نقدا أو تعبيرا عن ذات نفسه في كل منحى القول والبيان أو تعليقا على أصول الكتب القديمة .

فأنت تجده فى كتابه «أباطيل وأسمار» وكتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وفى قراءته وشرحه لكتاب «طبقات فحول الشعراء» الذى كتب البرنامج أصلا للدفاع عنه وعن منهجه التذوقى فيه ، كما ظهر بجلاء فى قراءته وتعليقه على كتاب «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار وفى مواضع كثيرة ومتفرقة فى قراءاته وتعليقه على كتاب أبى جعفر الطبرى ستة عشر جزءا ؟ فى تفسير القرآن وفى سائر ما كتب الله له أن ينشره من الكتب والقصائد الشعرية لاسيما «القوس العذراء» .

وطوال هذا الزمن أى من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥٩ والأستاذ محمود شاكر يظن أن ما وصل إليه سبقا لم تأت به المجامع قبله ولكنه فوجئ حين طبعت الرسالة الشافية «للإمام الجرجانى» حيث توقف فيها على فصل نفيس جدا، هو أوضح ما قرأه على الأطلاق فى إجراء التذوق على كل كلام، وفى كل علم مسطور .

ورغم أن محمود شاكر علق على هذا الفصل بقوله «وكلام هذا

الإمـام الجليل ، وأن لم يكن صـريحـا كل الصـراحـة فى الدلالة على منهجى إلا أنه أشبه شئ به «لماذا» ؟

لقد دله هذا الفصل حقـا على أصـالة منهجـه التذوقى وأن جذوره تضرب فى تاريخ أمته منذ عهد علماء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم زادت وضوحا عند علماء التابعين .. ثم اتسع الأمر واستعلن عند جلة الفقهاء والمحدثين من بعدهم .

أى أنه لم يبتدع هذا المنهج ابتداعا على غير سابقة : بل كل مـا أزعمه أنى بالجهد والتعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الركام من الكلام، جمعت شتات هذا المنهج فى قلبى ، وأصلت لنفسى أصوله ، مع طول التنقيب عنه فى مطاوى العبارات التى سبق بها الأئمة الأعـلام من أصحاب هذه اللغة .

ومحمود شاكر قد تكلم عن مذهبه التذوقى هذا بأسهاب ووضوح ليس فى «رسـالة فى الطريق إلى ثقـافـتنا/ فـقط بل فـصله أكـثر فى مـقالاته فى رده على الدكتور عبدالعزيز دسوقى التى كـانت بعنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته» ثم فى مقدمته لكتاب مالك بن نبى وفى كتابه «أباطيل وأسمـار» .. إلا أننا نركـز هنا على مـا جـاء فى الرسـالة لأن النقاد تناولوه منها .

فما هى أسباب إفصاحه عن منهجه التذوقى الذى طبقه فى كل ما كتب من سنة ١٩٣٦ ؟ وماهى أوجه الشبه والاختلاف بينه وبين منهج التذوق عند الجرجانى ؟

يرد محمود شاكر على السؤال الأول بقوله : «وببديهة العقل لم يكن من عملي ، ولا من عمل أى كاتب مبين عن نفسه ، أن يبدأ أول كل شئ فيفيض فى شرح منهجه فى القراءة والكتابة ثم يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس هاهو منهجى ، وها أنا قد طبقته ، هذا سخف مريض غير معقول ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبقا منهجه ، وعلى القارئ ، والناقد أن يستشف المنهج ويتبينه ، محاولا استقصاء وجوهه الظاهرة والخفية ، مما يجده مطبقا فيما كتب الكاتب.

ولكن فساد حياتنا الأدبية ، هو الذى يحيل العقول أحيانا حتى نغفل عن أبسط القواعد البديهية فى العقول الأنسانية .. وكفى بهذا فسادا وبيلا ، ولكن ألا يحتمل أن الكتاب تبينوه .. ولكن خوفا من الدكتور طه حسين .. لم يشيروا إلى ذلك .. لا سيما وأن الأستاذ فؤاد صروف ألمح إليه . بغير لفظ المنهج .. حتى إننى ولست معاصرة لظهوره استشففته من كلامه حيث قال : «فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أولا فيما قيل عن أصل المتنبى وذهابه إلى الكوفة لزيارة جدته وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة فى الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد ، ثم لما طبقه على نفسية المتنبى فى شعره وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبوته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر ، واستقام كذلك فهمها على منوال

يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث «العصر» وهذه النظرية مهدت في الكشف عن أشياء جديدة في حياة المتنبي وتاريخ عصره وروحه وصراعاته وانعكاسها على شخصية الشاعر وشعره يحقق كل هذا تحقيقا مفصلا في سفره المرتقب إن شاء الله .

ولا يسعني في هذه السطور أن أفصل القواعد التي بنى عليها الأستاذ شاكر رأيه ، فهي كثيرة مفرقة في جميع الفصول وهذا البحث الظريف في حياة المتنبي وأدبه لي إلا وليد تطبيقها

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبي ، متدبرا ، تنكشف أمامه معاني جديدة مغايرة في شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى .. فقد نفض به الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبي كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته في مدارس الأشراف العلويين فيها، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته التعليمية إلى وقت مصرعه وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية ونفي ما أتهم به المتنبي من النبوه مستدلا على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع أن يصل للسبب المعقول في تسمية أبي الطيب بالمتنبي» .

وقد درس حياته وهو إلى جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبي وأنهما

كان يعملان معا على تحقيق الأمل السياسى لرد الحكومة إلى العرب ، ونزعها من أيدى الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبين أثر هذه الصلة السياسية فى شعر أبى الطيب الذى قاله فى سيف الدولة .

وكشف فيما أثبته من تاريخ هذه الفترة عن أن أبا الطيب كان يحب خولة أخت سيف الدولة ، ودور هذا الحب وأثره فى سمو شعره وروعة أبياته ولكن الذى حز فى نفس الأستاذ محمود شاكر .. أنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٧٧ ولم يفز بعد بكلمة فؤاد صروف من ناقد أو قارئ يكشف فيه عن منهجه المغمور الذى تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة .. فاضطر أن يفصح عنه بنفسه .

أما أوجه الشبه والخلاف فى منهجه عن منهج الجرجانى فأوجه الشبه بينهما هو الجوهر التذوقى.. وأوجه الخلاف أن منهج محمود شاكر ذو شقين شق، تذوقى وشق تاريخى.. يمثل البعد بين عصريهما وما حدث فيه من إفساد للمنهج الاصلى اذ ان منهج الجرجانى المتوفى ٤٧٤هـ /١٠٧٦م يدل تاريخه على أنه جاء مغايراً لما لم ينقطع قبله ، أى أيام انصلاح الأحول العربية، وتآلف الدولة العباسية قبل أن يدخلها الفساد عن طريق العجم والخدم، وما بعدهم التتار ثم الحملات الصليبية.. وما أحدثه سقوط القسطنطينية من حقد أوربا على العرب ثم الحملة الفرنسية لاسيما رسالة نابليون لكليبر حتى الأستعمار الأنجليزى.

أما منهج شاكر وبالذات الشق التاريخي ، الذى أعطاه الصبغة الذاتية فقد جمع شتاته فى قلبه بعد ارتطامه بنتائج الأحداث التى تلت منهج الجرجانى حيث تنازل السلاح لمن هو أبشع منه ليقوم باختراق العالم العربى والأسلامى.

وهم طبقة المستشرقين حيث قاموا باستعمار هذه البلاد ثقافيا بعد ذلك سلموا الشعلة لدوجلاس دانلوب ليقوم بتفريغ الوعى القومى من الأرتباط بينابيع وكنوز العربية التليدة.. وبذلك عمت المناهج الفاسدة.. هذا يشك فى الشعر الجاهلى وآخر فى وثالث فى..

أى أن الشق التاريخى.. هو نفسه «الطبقة الترابية التى تكسلت فوق وجه الأدب العربى.. وأرهق محمود شاكر فى إزاحتها، والتى استغرقت العشر سنوات من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٦م وتعلم فيها علما يفوق علم عشرات الأكاديميين.. سيما وقد أجاد مرحلة الثقافة الشفاهية المتطلبة للعربية على يد أستاذه المرصفى حتى اعترف له أخيه وهو شيخ المحدثين فى عهدنا بالأقتدار على العربية ثم رشحه عنه فى تحقيق الستة عشر جزء من تفسير الطبرى كما كتب ذلك فى مقدمته.

نبدأ الآن الكلام عن الشق الأول فى منهج شاكر.. أى شق التذوق. ولأن محمود شاكر له تاريخ طويل مع ماسمى منهجا.. ويدرج جيدا الغموض الذى احاط بهذا اللفظ .. ويعرف ما أدى إليه من خلط كثير فى الآداب وتفسيرها وشرحها وأن هذا اللفظ يزداد مع الزمن غموضا

وابهاما لذلك ينبه: فأعلم أن حديثى هنا هو عن الذى يسمى «المنهج الأدبى» على وجه التحديد أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه، والتاريخ، وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الأنسان إبانة من نفسه وعن جماعته = أى يتنارل ثقافته المتكاملة المنحدرة إليه فى تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة. ووعاء كل ذلك وكله ومستقره هو اللغة واللسان لا غير «ذلك ينوه عن منهجه هو بالذات فيقول: ولفظ «المنهج» يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وأن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن، بل أريد به «ما قبل المنهج» أى الأساس الذى لا يقوم المنهج إلا عليه . فهذا الذى سميته هنا «منهجا ينقسم إلى شطرين: «شطر فى تناول المادة ، وشطر فى معالجة التطبيق.

فشطر المادة يتطلب قبل كل شئ جمعها فى مكانها على وجه الأستيعاب المتيسر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفراداته تمحيصا دقيقا، وذلك بتحليل أجرائها بدقة متناهية، وبمهارة وحذر حتى يتيسر للدارس أن يرى ما هو زيف جليا واضحا وما هو صحيح مستبينا ظاهرا، بلا غفلة، وبلا هوى وبلا تسرع أما شطر التطبيق فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نفى وتمحيص جيدها باستيعاب أيضا لكل احتمال للخطأ او الهوى أو التسرع، ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقة من الحقائق موضعا هو حق موضعها، لأن أخذى اساءة فى

وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليق أن يشوه عمود الصورة تشويها بالغ القبح والبشاعة.

وهو يطلب التدقيق والتنبيه على السطر الفائت بدقة: «إن شطر التطبيق» هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقول، وتتناصى الحجج والذى نسمع فيه صليل الألسنة «جهرة»، أو «خفية» وفي حومته تتصادم الأفكار بالرفق مرة وبالعنف مرة أخرى، وتفترق فيه الدروب والطرق أو تتشابك أو تلتقى ، هذه طبيعة هذا الميدان، وطبيعة النازلية من العلماء والأدباء والمفكرين وعندئذ يمكن أن ينشأ ما يسمى «المناهج» أو «المذاهب» ولا ينسى الأستاذ محمود أن ينبهنا لوقت الحاجة للشطر الأول أيضا بالنسبة للعلوم البحتة ، مثلا إلى ما سميته ما قبل المنهج ، إحتياجا ملزما ، إلا بعد أن تستوفى العلوم البحتة مثلا قدرا صالحا من النمو والإتساع ، حتى يحتاج إلى إعادة النظر للفصل بين تداخل أجزائها بعضها فى بعض لتصحيح مسيرة العلم ، وإعطاء كل علم حقه من الوضوح ، حتى تستقيم بكل نهجه وطريقه ونموه بلا خلط ولا تزييف.

ولأن لهذا الشطر مزالق وغوائل يمكن أن ينحدر إليها الباحث فلا يصل إلى غايته .. فقد اشترط الأستاذ محمود شاكر علي النازل إليه استيعاب مداخل ثلاثة استيعابا تاما .. وهى اللغة والثقافة والبعد عن الأهواء أى الأصل الأخلاقى .

وقد شرح الأستاذ محمود شاكر تداخلها وتراحبها وسمو مضامينها .. من صفحة ٢٤ إلى ١٢٢ في الرسالة .. ومن ومضاتها عن الأولى مثلا : أن بين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالق تزل عليها الأقدام ، ومخاطر يخشي معها أن تنقلب وجوه المعانى مشوهة الخلقة مستنكرة المرآة ، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المستكنة في هذه الألفاظ والتراكيب .

أما الثقافة : فهى معارف كثيرة لا تحصى ، متنوعة أبلغ التنوع لايكاد يحاط بها ، مطلوبة فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها أولاً عن طريق العقل والقلب ثم للعمل بها حتى تذوب فى بنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به » .

أما الأصل الأخلاقى وهو العامل الحاسم الذى يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام ترابطا بقدر ما يكون فى هذا الأصل الأخلاقى ، من الوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعا سواء فى ذلك النازلون فى ميدان «ماقبل المنهج» أو في ميدان «المنهج نفسه «وهم العلماء والمفكرون والأدباء ، والمتلقون عنهم تلامذة كانوا أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة .

ولأن الأستاذ محمود شاكر رجل أخلاقى فأنه يرى أن هذا الضابط الأخلاقي الرقيب يأتى من قبل «الثقافة » ورأس كان هو الدين ، أو ما

كان فى معنى «الدين» من عقائد أو ملك أو نحل أيا كان نوعها ، أو هو الذى بمعناه العام والذى هو فطرة الإنسان .

ولأن الأستاذ محمود شاكر يعرف أن المثقفين العرب يخرون عندما يسمعون رأى أى غربى فى موضوع كان فإنه فى ربطه للثقافة بالدين - أو أنه ليست هناك ثقافة بدون عقيدة - فقد استشهد برأى ت س إليوت فى هذا المدخل المهم لاسيما قوله : أليس ما نسميه «ثقافة» شعب ما ، ودين هذا الشعب مظهرين مختلفين لشئ واحد ؟ إذا الثقافة فى جوهرها تجسيدا لدين الشعب .

هذه لمحة خاطفة عن شق التذوق من منهج محمود شاكر كما كتبه فى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا وشدد فيه على دقة التذوق وقد سجلنا جزءا منه فى باب «محمود شاكر كما قرأته لاسيما بعد أن شعر أن قوة الوجود كلها قد انسكبت فى روحه» .

المتنبى قدر محمود شاكر

تعاظمت أعمال محمود شاكر وتنوعت - كما مر علينا - ومع ذلك بقى «المتنبى» الذى كتبه فى بواكير عمره ذا ألق مشع يخطف نظر من يتكلم عنه .. حتى لكأنه قدره الذى يهيمن على روحه من أول خطوة نحو الطريق المستقيم ، لقد حفظ ديوانه فى عام واحد ، هو عام رسوبه فى الشهادة الإبتدائية ، وفى اللغة العربية بالذات كما نعرف ، ويقول هو عن تأثير حفظه له : «وكأن عينا دفينة فى أعماق نفسى قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم ، وطفقت أنغام الشعر العربى تتردد فى جوانحى وكأنى لم أجهلها قط» .

وهذا يؤكد أن حفظه لديوان المتنبى قد أيقظ فى نفسه حاسة الشعر تذوقا وإنشادا بعد ذلك .. أى أنه ولد الشاعر فيه . إن كتابته عن صاحب هذا الديوان قد أهدته أسلوبه الفذ فى النثر وهو مازال ابن ستة وعشرين عاما حيث ذكر أنه قبل كتابته له لم يكن قد سطر إلا بعض الأشعار وحقق فصولا من كتب الإرث . لذلك صور لحظات تأهبه لكتابته بقوله «ظللت أميل الرأى بين أساليب الكتابة : أيها أختار وأيها أدع .. لم يكن لى أسلوب خاص . وخفت أن يأكل منى الزمن عزيمتى و .. و .. إلى أن قال : «وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت فى جانب من

الصفحة «أبياتا من شعر المتنبى» ومضيت أكتب كأنى أسطر ما يملى على . لا حيرة ولا بحث عن أسلوب وطريقة ، ولا تردد ، ولا هيبة من شىء ، ولا تحرج عن غرابة ما أقول وما أكتب ، وفرغت من الفصل الأول وهكذا دواليك يوما بعد يوم حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان وتم كل شىء» .

ثم إن منهج محمود شاكر ولب حياته قد طبقه أول ما طبقه وهو يضع عمود الصورة فى حياة المتنبى فى العدد الممتاز من المقتطف عام ١٩٣٦ .

وكان يوم ظهور هذا العدد مفاجـــأة لفتت أنظار الأدباء جميعا فى كل بلد ينطق اللسان العربى ، إلى اسم شــاب واعد كان يسمى بابن الشيخ محمد شاكر .. فصار من يومئذ اسما مشهوراً أو كاتبا مذكورا فى خفقة كخفقة البرق . أى أنه حمل له السعادة بعد طول حرمان .

وكان محمود شاكر قد انطلق بعد كتاب المتنبى يحتضن العالم ويرتد إلى إنسانيته ، مما يذكرنا بأقوال علماء النفس .. إن الإبداع يكمن فى تحقيق الذات .. لا سيما وقد عرفوا الإبداع بالأصالة ، ويتمثل فى الابتعاد عن النظرة الضيقة للأمور والنظر إليها بطريقة جديدة .. أو بمعنى عدم انصيـــاع محمود شـاكر لآراء من ســبقوه قبل إعمال فكره .

أما عندما صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى عام ١٩٧٧ التى

حوت قصته فى إبداعه له ، فقد أثبت لعلماء النفس أن الإلهام وحده غير قادر على تفسير عملية الإبداع ، فهو - أى الإلهام - وإن استطاع أن يفسر لهم لحظات الانسياب والطلاقة ، فسيعجز عن تفسير لحظات المقاومة والاضطراب والمسودات التى قدمها الأستاذ محمود شاكر لفؤاد صروف .. ثم مزقها مرات ومرات والتى صور حاله فيها : ومر نحو أسبوع وأنا لا أجد إلى هدوء نفس منفذا ، وأخذت ديوان أبى الطيب «المتنبى» مرة خامسة ، أقرأ لا أتوقف ولا أمل ولا أهدأ وأنا فى خلال ذلك أراجع كل ما فى تراجم أبى الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرهم تبعا للخواطر التى تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفى فجر الثانى عشر من شهر رمضان صليت ، فلما جئت آوى إلى فراشى طار النوم من عينى .. ومع طيرانه تبدد القتام الذى كان يلفنى ، وذهب التعب وما لقيت من النصب ، وتجلى لى طريق بان كأنى سلكته من قبل مرات فأنا به خبير ، وأخذت الأوراق التى كنت كتبتها فمزقتها وأنا على عجلة من أمرى ، ونبذتها وأعددت أوراقى وجلست على مكتبى وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت .. ومضيت أكتب .. كأنى أسطر ما يملى على لاخيره و .. و ...» .

وقصة الكتاب وإن أثبتت لعلماء النفس أن الاحتشاد غير الإلهام فقد أثبتت أيضا قوة ذاكرة محمود شاكر ، حيث قال لى إنه قد تذكرها بتفاصيلها كما حدثت عام ١٩٣٥ وكتبها عام ١٩٧٧ بفارق اثنين

وأربعين عاما .. فيالها من ذاكرة جعلته أول عربى يكتب عن لحظات إبداعه ليس فى الشعر وإنما فى النثر أيضاً .

وإذا كانت براءة حصول محمود شاكر على جائزة الدولة التقديرية فى مصر قد أعطيت له على مجمل أعماله والمتنبى ضمنها . فإنها تحددت فى براءة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى حيث كان البند الأول لحصوله عليها قد جاء هكذا : «تأليفه كتاب المتنبى سنة ١٩٣٦ م ، والذى حمل كثيرا من القيم العلمية والأدبية العالية ، منها التعمق فى الدراسة والجهد والاستقصاء ، والقدرة على الاستنتاج ، والدقة فى التذوق ، والربط المحكم بين الشعر وأهداف الحياة ، والكشف عن ذلك فى تطور أساليب المتنبى» .

ولولا الإيضاحات من محمود شاكر على منهج طه حسين فى بابه «بينى وبين طه» فى مراجعة عبد العزيز الدسوقى ، لما كان كتاب محمود شاكر «المتنبى ليتنى ما عرفته يأخذ طريقه إلى النشر» .

وهو يصف حالته بعد الانتهاء من المقالة المسهبة عن المتنبى التى صارت عددا ممتازا من المقتطف بقوله : «ولم يكن من نصيبى أن أمسك بيدى أول نسخة منه ، لأن أبا الطيب أراد أن يكافئنى ، فجعل مكافأتى على أثر الفراغ من الكتاب بالحمى التى ركبته فى أواخر أيامه بمصر» .

لذلك كله .. أجد خيالى دائما يصوره لى وكأنه أحد أئمه الإسلام

وفقهائه .. إلا أن خيالى عن هيئته يتشبث بكونه شديد الشبه بالمتنبى .

وقد لاحظت - عفوا - وأنا أخط حياته ، أن السنين التى تبدأ بالرقم ٦ لها دلالات سواء فى مراحل عمره ، أو فى كر السنين على أعماله ، مثل وصفه الرائع للكلمة فى نفسه وهو ابن ٦ سنين . دخوله المدارس النظامية سنة ١٦ .. أو دخوله الجامعة سنة ٢٦ ووفاة والدته فى نفس السنة .. وظهور المتنبى سنة ٣٦ ..

وهذا الرجل العجيب أسمى ديوانه فى النسيب والغزل وشكوى الحب «ديوان البغضاء» فهل أتى بهذا العنوان المتخالف ياترى ليؤكد أن الحب والبغض متجاوران كما قيل ؟ أم لأن أول قصيدة فيه كانت «انتظرى بغضى» أم أنه كان كذلك لما عاناه هو فى الحب ؟ أو لأنه كرجل قاموس نظر للحب وكأنه الحية ؟ .

لكى نجلى هذا لابد من تتبع حياة محمود شاكر مرحلة مرحلة . فنجد أنه ارتبط بمربيته السودانية عصبية المزاج وهو طفل ، وفى المراهقة وجدناه منغمسا بالكامل فى تذوق الشعر الجاهلى ، فى الشباب أو فى سن الخامسة والعشرين أى سنة ٣٤ كما قدرنا ، كتب لأستاذه الرافعى يصف حالته التى كادت تودى بحياته هذا التعبير : «وزادنى أنى كنت رجلا عزبا متعففا ، وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ، هذا هو العقل البليد وتلك هى الرجولة البليدة.وقد

عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ، وليتنى كنت ذاهلا مغلقا عقله، وكان قلبى مفتوحا لأفراح هذا الكون العظيم . ومضت أيامى يضرب بعضها فى بعض ويمرض بعضها بعضا ، حتى انتهت منتهاها ، وجاء اليوم المدنف الهالك الذى سيموت» .

هذا الحكم . ولا شك جاء نتيجة لمقارنته حياته ، بحياة من حوله من الشباب اللاهى . وكان حكمه لصالحهم ، وربما راوده فى هذا الوقت خاطر التخلى عن مشروعه فى البحث عن المنهج والسير معهم ، فالفراغ الناشب بين هذا وتلك كان فى أشد عنفوانه .. ليس هذا تحليلنا .. لأن الرافعى أردف المقالة التى جاء بها هذا التعبير ، بمقالتين عن الحب ، هذه واحدة .

أما الثانية : أنه عاد للقراءة والكتابة مستعملا قاموس الحب .. كقوله مثلا عن جهده فيهما بأنه كان غراما . إذ لا يعقل أن استعماله لكلمة غرام كانت بمعنى الشر الدائم كقوله تعالى : «إن عذابها كان غراما» لأن لفظة أغرم بالشىء تعنى ولع به .. ونحن عندما نقرؤها عند محمود شاكر نجد لها هذا الظل الأخير ، بدليل أنه قد يستهل مقالاته بمشاهد عاطفية كمقالته «لمن أكتب» .. ١٩٤٧ فهى وإن كانت عن حلمه بأن يوافيه القدر بفارس يجعل ما نادى به موضع التحقيق فإنه بدأها هكذا (بينى وبينها أيام معتقة كأنها الخمر من دنان الزمن ، فإذا ما قدر الله لنا أن نجتمع يوما ، طارت بلبى نشوة ترمى بى إلى عالم

ساكن ناضر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالما صاخبا محترقا لافح الرياح عاصف الأعاصير ، واجتماعنا هو إحدى الأمانى التى يقول مثلها الشاعر :

أمانى من سـعدى رواء كأنما

سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتنى بالسؤال لا أتوقعه فيردنى سؤالها إلى نفسى ردا عنيفا لا أملك معه إلا أن أديم طرفى إلى هذا الوجه الذى يخفى نفسا ثائرة ، ولكنها ساكنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات ، ولست أدرى أتلك إحدى لطائف الحيل التى تحب أن توقظنى بها من غفوة الأحلام أم تلك يقظة دائمة فى نفسى لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين يدعوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ وأى ذلك كان فهى قد أخذتنى أخذا شديدا حين استوت فى جلستها وقالت : حدثنى ، لمن تكتب هذا الذى تكتبه ، ثم تأتى المقالة» .

هذا كل ما التقطناه فى نثره عن الحب عنده .. أما نظرته هو فى الحب وما يفعله فى المحب المبدع فقد جاء فى الباب الثالث عشر من كتابه عن المتنبى وحبه لخولة أخت سيف الدولة حيث قال : «ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هى تمام نفس الرجل المحب وتكملتها . كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة إنما هى

دراسة للكون كله . فإن العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلا بعينى من يعشق ، وهى تلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورة فى دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة ، والحب القوى النافذ الذى يتملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر» وكأن محمود شاكر باستشفافه كل ذلك من شعر المتنبى يهمس فى أذننا : التفتوا لشعر المبدع .. لأنه فى فترة قد تسيطر عليه المثاليات .. بينما لا يستطيع أن يقول فى شعره سوى الحقيقة .

إذن فليس بين أيدينا إلا نفثة قديمة موصولة بقصائد «ديوان البغضاء» «انتظرى بغضى» و «حيرة» و «عقوق» سنة ٣٦ ، «ألست التى ..» سنة ٣٣ ، و «اذكرى قلبى» سنة ٤٠ ثم «تحت الليل» و «من تحت الأنقاض» وكانت آخر قصيدة نشرها فى شكوى الحب ، وإن كانت له قصائد مسجلة على أشرطة كاسيت مثل «اعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» ويهيأ لى أنها تنتمى لهذه المرحلة لأن بها قصيدة فيها سخرية الشباب وهى قصيدة «وعد» والتى أنشدها ، متفكها ، فى كلب صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل .

كان محمود شاكر وقت إنشاده لهذه القصائد شابا فى السابعة والعشرين إلى ما قبل الاكتمال بقليل .. أى فى عمر المتنبى تقريبا عندما أحب خولة .. حيث وصف المتنبى فى هذا العمر بقوله : وكان قد بلغ من

العمر أربعة وثلاثين سنة وهى السن التى تستحكم فيها الأصول ، وتستقر المذاهب . ويقف الرجل عندها لا يملك فى تبديل أمره حولا ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصة من كان مثل المتنبى قد عركته الأيام و ..... و ..... وإن محمود شاكر غير المتنبى فى الجملة الأخيرة .. ذلك أن المتنبى قد أحب قبل ذلك بل تزوج .. أما هو فكان غرا فى سنه هذه قليل التجربة .. بل قد تكون أميرته ذات السلطان التى توجه إليها فى هذه القصائد هى أول امرأة أخذها مأخذ الجد فى حياته..

ولأن عام ٣٦ كما قدرنا ، ونحن نقيم حياته ، كان الحد الفاصل بين كينونته التى كانت قبله مجرد تحصيل وإبداع وبين انفتاحه على الحياة سائرا على قدميه كخلق الله ، وأنه كان قبلها محروما إلى حد رهيب من الحب لا من المجد .. وقد حمل إليه المجد بنجاح المتنبى على الصعيد العربى زخات شديدة من الحب لم يحتملها بنيانه النفسى الهش الذى استنزف فى التحصيل والأخذ ، لذا أجهضت تجربة حبه وراحت نثارا ، فاطلق عليها هذا الاسم «ديوان البغضاء» ، لأن سذاجته العاطفية جعلته يحمل ورقة كربون يطبق نظريته فى الحب .. فإذا ما حدث أى خلاف .. فلا يكون هذا المعاش حبا .. بل بغضاء .

ونحن لا نستطيع أن نرد قصائد هذا الديوان إلى زمن نفسى معين .. لأنها نبعت من قلب محمود شاكر على فترات بين سنة ٣٦ و سنة ٤٣ .. وهى سنوات تأرجح فيها إنتاجه بين التدفق والانحسار .. مما يدلنا أنه خلالهما تناهبه الصفو والكدر ، والصحو والغمام .. وإن لاحظنا أن

فترات الغمام والكدر أو الليل المخيم قد التهمت الوقت الأعظم من هذه السنوات ، حتى أن أحد تلامذته استهول وهو فى معرض حديثه عن قصيدته «اذكرى قلبى» .. قائلا : فى مجلة الهلال (١) «فما هو هذا الشقاء والعناء الذى أخذ بشاعرنا ؟ وكيف كانت نجاة الشاعر من هذا المصير المخيف ؟ إنها أسئلة ملحة لا يستطيع الإجابة عنها إلا صاحب هذا الشعر ! فهل يوفر علينا الشيخ الجليل ذلك ويحدثنا عن حياته ويفتح لنا صفحته وتجربته ؟

ورغم أن أستاذا كبيرا (٢) فى علم النفس .. قد ضم صوته لهذا السائل بوجوب تلبية الأستاذ شاكر لهذا الرجاء .. فإن هذا النداء معلق مازال فلنستنطقه إذن لا بمنهج شاكر التذوقى ولكن عبر قراءة السيناريو المتأمل فى عناوين قصائد «ديوان البغضاء» حيث قصة حب لم يكتب له فيها النجاح .. كما قصيدته «نفثة قديمة» ، حيث أومأت إلى دفقة حب لا يعرفه إلا طرفاه ، أما قصيدة «انتظرى بغضى» وهى توعده للحبيبة بالبغض إن هى عقت حبه لها . فقد أردفها فى نفس العام بقصيدته «حيرة» وفيها يتساءل عما إذا كانت رصانة الحبيبة .. تدلل .. أم تباعد ، وفى العام نفسه كانت قصيدته «عقوق» إعلانا صريحا عن مفارقة الحبيبة ، التى فضل الحية عليها ، ومطلعها :

---

(١) الدكتور زكريا سعيد علي . مجلة الهلال القاهرية ديسمبر ١٩٩١م
(٢) الدكتور مصطفى سويف . مجلة الهلال القاهرية يناير ١٩٩٢م

هل بنا ، يا فؤاد : ننسى المودا ت ونلقى إلى العداوة حبا

وتعالى يا ربة «الارقش» الخدا ع وارعى ما بين جنبى خصبا

وأوسطها :

هذه كف خائض غمرات الـ حب أبلى فيها بلاء صعبا

ونهايتها :

فالد الأعداء من علمته محن الحب أن يعق الحبا

وها هو عام ٣٧ يستجمع خيوط قصة الحب من أولها لآخرها لنعرف من كان منهما المخطئ حين تساءل فى قصيدته «ألست التى ... ؟» .

بلى : كنت فى قلبى سراجا يضيئه فيفتر عن أنواره كل جانب

وكنت حياة للحياة تمدها بأفراحها فى عابسات المصائب

وتتوارد الأسئلة كنت وكنت ولكن ما إن يتبين له أنه لم يخطئ فى حقها حتى يأتى حكمه :

فإن يك بغضى كل ذنب جنيته إليك .. فإنى لست منه بتائب

وكيف .. وقد أنهكتنى وعرقتنى وقدت على قلبى جيوش النوائب

ذرينى ولكن الحياة مليئة بكن فما فى الأرض منجى لهارب

أما قصيدة «رماد» فتنبئنا بعدم تلبية الحبيبة رجاء العودة فكان رجع صدى هذا التعنت منها فى قصيدته «اذكرى قلبى» ، بل ظل ملازما له كلما طواه الليل تحت جناحه كما عبر فى قصيدته «تحت الليل» ، ولكن مرور الوقت جعل العلاقة برمتها «تحت الانقاض» ١٩٤٦

أما تمام مطابقة هذه القصة المتخيلة من شعر المحب فقد تبلور فى قصيدته «الربيع» حيث استهلها بتصوير فعل الربيع فى نفوس المحبين ، وأنهاها بفعل الربيع على حبه ذاته حيث أنشد :

هذا ربيع النـــاس وأحـزننى   وربـيـعى الأشـواك فى قلبى
أغـضى شـبابى فى مـلاوتـه   كـالشيخ تحت عـمـائم الشـيب
ودلفـت بالأيـام مـتـئـدا   حـملتـهـا خطبـا على خطب
أمـشى بأفكار مـحـيـرة   بالـشـوق أوانه وبالـرعب
هذا شـبـابى ، سـائر أبدا   بـربيـعـه فى مـقـفـز جـدب
أحـيا الشـبـاب ربيع حـبهم   - نعـمـوا به - وأمـاتنى حبى

ولا شك أن تصويره حالة ذاته مع الربيع الذى يختلف عن حال أغلب الناس .. ثبت خطاى فى كتابة هذا السيناريو الذى استقيت مفرداته من عناوين قصائده ، رغم أن البعض قد حذرنى من تناولها هكذا ، لأنهم يرون أن قصائد محمود شاكر الغزلية - كما هى غزليات المتصوفة أو مدائح صاحبه المتنبى فى كافور الاخشيدى ، وسيف الدولة الحمدانى - ذات ظاهر لا يقصده وباطن يعنيه بهذا الظاهر .

والذى يؤنسنى أن ما رحت إليه قريب الشبه بالحقيقة ، وأن بارقة انطفاء جذوة الشعر عند محمود شاكر كانت «القوس العذراء» ، التى اعتبرها بعض النقاد إرهاصا لفقدانه الشباب والأمل فى الحب.

أما زواج محمود شاكر فهو الحب كله ، وهو حظه السعيد الذى واتاه بإنسانة نقية تقية دمثة الخلق خبرها عن قرب كل القرب .. وتفهمته

ورعته وتحملته قبل أن تتزوجه .. إنسانة قلبت موازينه رأسا على عقب ونسفت جدران حصن الشك الذى بناه وعلاه ، ليقبع فيه بعيدا عن المرأة، بدليل أنه لم ينشر قصيدتيه «أعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» بعد زواجه .. وتركهما مسجلتين على أشرطة كاسيت ! .

ويمناسبة الحب والبغض فتساءل : هل كان محمود شاكر رجلا غير محبوب للمثقفين المتغربين لأنه نجح فى مهمته وهى كشفهم أم لأنه قال كل شئ .. فصعب على قرائه تصد

قصيدة القوس العذراء

أجمع النقاد على أن الشعر هو مفتاح شخصية محمود محمد شاكر ، ولولا تمازج شاعريته الأصيلة مع علمه الغزير ما ولد منهجه التذوقي ، وأن قصيدته «القوس العذراء» تحديدا هي مدخل الإدراك المعرفي لكل ما غلق على الفهم من أعمال محمود شاكر حتى التذوق نفسه .

وقد قرأت يوما عن فرضية تقول : «إن الإلهام ليس هو الحالة التي يوجد عليها الشاعر عندما يكتب قصيدته ، بل هو الحالة التي يأمل الشاعر أن يضع فيها القارئ الذي سيقرأ هذه القصيدة» .

فما هي قصيدة «القوس العذراء» هذه ولماذا فازت وحدها بكل هذا الثناء ؟ ولماذا أجمع نقاد محمود شاكر على أنها قمة أعماله ، بل منارتها ؟

هي صدى قصيدة شاعر جاهلي مخضرم ، هو الشماخ بن ضرار القيسي : وهي قمة إحساس الفنان لدى محمود شاكر ، حيث ترجم لها برسالة رائعة موشاة بالأفكار والخواطر والوسوسات التي انبعثت من نفسه بلقاء بينه وبين صاحب لا تبلى مودته ، دار بينهما حديث في شأن إتقان العمل ، فلما قفل عائدا إلى داره أبى هذا الحديث إلا

أن ينقلب عــائدا معه إلى الطريق .. يسر له بوسـوسة خفية ، بحيث أوحت لنفسه بالنظر إلى الإنســان وكل حى من حيث إتقانه عمله .. فوجد أن كل حى غير الإنسـان - نمـلة كانت أو طائرا - يمضى فى أمره وفى تدبيـر حياته ، على سنة لا تتبدل وهـدى واضح لا يلتبـس ، تمر الأحقـاب والقـرون وتخـتلف البقــاع . والنهــج فى كل درب من دروبها هو هو لا يتغير ، لذلك فتــاريخ أحـدثها مـيـلادا ، كتـاريخ أعرق أسلافها .

أما الإنســان فكـان فى مطلع فجره فى حال تشبه حال غيره من الكائنات الحيـة ، من حـيث قوة الفطرة ، واقـتيـادها له .. ولكنه ثبت عليها وعمر ، نظر إلى مـعروفـها فـاعـتـبر ، وهجم على مـجهولها فاستنكر ، أى أنه أعمل عقـله بالفكـر وحـرك نفسه بالهوى ، ومن يومئـذ حاد عن النهج الذى لا يختـل .. وبمقدار ما يحصـل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من الفطـرة السـليمة التى ضلها يوم قلق وحاد .

فما هى قصيدة الشمـاخ الأصلية التى اختارها محمود شاكر ليدخل قصيدته المبتكرة فيها ؟ أو يعارضها ؟

المعروف أن قصيدة النهج والمعارضة والتشطير والتخميس وما إليها توارد قولها على مر العصور لا فرق بين كبواتها وازدهارها ، واختلفت آراء نقاد الشعر حولها . فريق صنفها بمحاولات يبدأ الشعراء بها لصقل تجاربهم ، وغالبا ما تكون ضعيفة لا يجرؤ الشاعر على إضافتها

إلى قصائده الأخرى بعد أن يكون قد تمكن من قول الشعر ! والفريق الآخر نفى هذه الخاصية عن هذه القصيدة لأنها تنبثق دائما من شعور غامض وصراع مرير وقوة عارمة يترجمها صاحبها فى الكلمات والحروف التى تأخذ فى كثير من الأحيان شكل القصيدة الوجدانية .

وأيا ما كان الرأى لم تستطع هذه الطرق جميعا أن تخفى رياء تحتها ، أو تبرز فخارا فوقها .. فقد توهج المتألق فيها ، «فنهج البردة» مثلا وافاها ضياؤها عين البوصيرى حين استيقظ بعد رؤيته الرسول الكريم فى منامه ، ووجدها متطابقة مع معلقة امرئ القيس فشالت قصيدته وطارت غير عابئة علوا وفخارا .

وربما كان من استباق الأحكام أن نقول إن قصيدة «القوس العذراء» يقترب حكم النقاد عنها من حكمهم على قصيدة «نهج البردة» .. إذ تعيد إلى الذهن قوله تعالى فى سورتى «التين» و«الشرح» : «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» ، «وإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» ومع الحديث الشريف «إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه» .

والقصيدة الأم تحكى قصة ساذجة فى مظهرها عن قواس صنع قوسا فأتقن صنعها حتى أن رميتها لا تخيب ، والسهم المنطلق منها لا يضل الطريق إلى هدفه ، ثم اضطره فقره وحاجته إلى المال أن يبيع هذه القوس التى سواها بيديه ، فندم بعدها حتى كاد يحبط ، لولا أن

إرادته وافته فى أن يصنع غيرها ، فهو يصف لواعج القواس بعد ما باع قوسه بثمن لا تباع مثلها بمثله :

فلما شراها فاضت العين عبرة وفى النفس حزاز من الوجد حامن،

ولكن عالم الشعر عند محمود شاكر تخطى كل تلك الصعاب بعينه البصيرة إلى ما تجيش به نفس الشاعر من أحاسيس إنسانية .

وقد جاء صدى ما أثارته أبيات الشماخ «ثلاثة وعشرون بيتا» من صور ومعان فى نفس شاكر ، مع قصيدته هو على ثمانية أقسام فى «مائتين وتسعين بيتا ، منها سبعة وثلاثون كانت المقدمة .. تلاها بثمانية أبيات عرض فيها خبر عامر شقيق الخضر ، وحكاية القواس الذى ابتاع منه قوسه ، وتناول كل جزئية من الجزئيات التى جاءت فى كلام الشماخ بطريقة استفهامية مفصلة .. أداتها كيف .. يحث بها على استخراج المعانى من النفوس ويثير بها الشوق ، ويبعث بها الخواطر الداعية لحديث إتقان العمل . فجاء إنشاده هكذا :

«فدع الشماخ ينبئك عن قوسها البائس فى حيث أتاها :

أين كانت فى ضمير الغيب من غيل نماها ؟

كيف شقت عينه الحجب إليها ، فاجتباها ؟

كيف ينغل إليها فى حشا عيس وقاها ؟

كيف أنحى نحوها مبراته ، حتى اختلاها ؟

كيف قرت فى يديه ، واطمأنت لفتاها ؟

كيف يستودعها الشمس عامين .. تراه ويراها ؟

كيف ذاق البؤس .. حتى شربت ماء لحاها ؟

وبعد خمسة وأربعين بيتا تجيء ثلاثة أبيات من شعر الشماخ .. يتلوها مقطع طويل آخر من شعر محمود شاكر وهكذا دواليك .. ثم خاتمة نثرية يعتذر فيها عن التطويل .

وقد يستفهم البعض لماذا اختار محمود شاكر الشعر ليترجم به عن إتقان العمل ؟ فيجيب بأنه «مفكر يرى أن أعراف الأمة العربية وجذورها وعبقريتها المتميزة . ممتدة وراسخة من خلال لغتها الشريفة ، فلا يسلم شرفها ولايستقيم أمرها بدون سلامة الأصل الأول فى آدابها ، وهو الشعر الجاهلى ، ولو جردوها منه لصارت بلا أب ولا أم ولا قبيل ، فلا تقول شعرى وشعرائى ، وأجدادى وآبائى ، كما أنه أجدى وسيلة فى تقويم لسان الذين أسلموا من غير العرب .

قصيدة القوس العذراء نشرتها «مجلة الكتاب ، التى أغلقت لأن توزيعها كان ضئيلا سنة ١٩٥٢ .. إلا أن القراء عرفوها بشكل أكثر انتشارا عام ١٩٤٦م عندما ظهرت كديوان عن دار العروبة .. ومن الجميل أن الديوان نفسه قد ضم إبداعين لها . أولهما شعرى والآخر نثرى .. حيث أستهله بقصيدة غزلية فى القوس حيث إن للقوس فى الأدب العربى – منذ أقدم عصوره – وجودا يتجاوز حدود الواقع إلى الرمز.

وها هو الشاعر الفذ محمد حسن إسماعيل صديق محمود شاكر الحميم ينشد قصيدة ثم وينشرها بخطه الموسيقى الجميل استهلالا لديوان القوس العذراء . كانت بدايتها :

من قبل أن تخلق فى غصنها والدهر يروى سرها للأزل

وأوسطها :

نوبتها نورا .. وشعشعتهـا عذراء فى خلد ضحاه أهل

وخاتمتها :

ماهى قوس فى يـد نابل وإنما ألـواح سحر نزل

أمـا الإبداع النثرى الذى ختم به ديوان القوس العذراء فكان بقلم الأستاذ عادل الغضبان رفيق صبا محمود شاكر حيث قال ضمن ما قال : «ليست الجوانب الفنية فى قصيدة الشماخ ولا العواطف النبيلة فيها ، ولا الصلات الروحية بين الفن وصاحبه ، ليس كل هذا هو الذى حدانا لكتابة هذه الكلمة ، بل دفعنا إليها اغتباطنا بأن نجد الفن مجازا يصل بين الأرواح المجندة وموضوعا تجرى عليه رسائل الإخوان فترقى على سبحات الفن إلى سماوات الفكر وفراديس الأدب الخالدة» (١) ..

وربما كان لرفقة الأستاذ عادل الغضبان بصاحب القوس منذ الصبا أثرها فى ظهور إبداعه فى عام ظهور الديوان ، وأنه تسنى له قبل ذلك التعمق فى القصيدة وفهم مراميها من زمن إنشائها .. ذلك أنه مرت ثلاثة عشر عاما من وقت نشرها حتى نشرت مقالة الدكتور زكى نجيب محمود عن القوس فى نفس المجلة .. الأمر الذى يجعلنا نتساءل هل جاء نشر مقالة الدكتور زكى متأخرا .. أم أن إبداع شاكر استحوذ على كل هذا الوقت ؟ و .. فى ذلك يقول «درة ساطعة هذه بين سائر

«مجلة الكتاب فبراير سنة ١٩٥٢» .

الدرر ، وآية هذه من الفن محكمة بين آيات الفن المحكمات .. هو كتاب في ست وسبعين صفحة صغيرة ،رقمت أسطرها صفحة صفحة ، كما ترقم حبات الجوهر الحر يصفها الخازن في صندوق الذخائر ، لكي لاتفلت منها على الرائي جوهرة ، ولو كان قد كانت لي الكلمة عند طبع الكتاب لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة ، لأن لفظه نقطة من سطر لؤلؤ» .

ثم يقول «والكتاب قصة ترويها صفحاته ، فإذا هي قصة الفن الخالد .. كيف تنبثق آثاره من ينبوع الفطرة الإنسانية فيظل يتملاه ثم يضيف إليه» .. ويظل الدكتور زكي يستنطق الكلمات بين السطور .. ليصل إلى أن المعنى الأخير للقوس العذراء يمثل أصول المذهب الطوبائي الحديث (١) .

ومضت الأيام والسنون حتى كان عام ١٩٨٢ حيث ظهر كتاب «دراسات عربية وإسلامية» فنجد اثنين من تلامذة محمود شاكر يهدونه طيه بحثين عن «القوس العذراء» معتذرين عن إرجائهم الكتابة عنها طوال تلك المدة .

وأول الأبحاث المهداة لمحمود شاكر في هذا الكتاب .. كتبه الدكتور إحسان عباس «فلسطين» في ثلاث عشرة صفحة من القطع الكبير .. وضح فيها أن المحور الذي دارت حوله قصيدة القوس العذراء هو

---

(١) مجلة الكاتب سنة ١٩٦٥ .

العلاقة بين الإنسان والإبداع ، وأن محمود شاكر يؤمن أن العمل قد يقترن بالنفع بينما لايقترن الفن به ، ولكن كليهما لايتم خلقا سويا إلا بالإتقان ، لأن محمود شاكر كان ممتلىء النفس أيضا بقول الرسول الكريم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وهو دعوة إلى الإبداع فى كل صعيد . وهو ظل لم يكن له أثر فى قصيدة الشماخ الجاهلية» .

وعندما حكم الدكتور إحسان على القصيدة ، قال : «كل خصائص هذه القصيدة ١٩٥٢م كانت ترشحها لأن تكون معلما على طريق الشعر الحديث فلمَ لم تصب هذا الحظ ؟ ولمَ لم تثر كثيرا من الاهتمام يوم نشرت ، ولعل ذلك كان فى العام نفسه الذى نشر فيه بدر شاكر السياب قصيدته «المومس العمياء» وهو أبرز الشعراء المحدثين وأرسخهم قدما ؟ ثم يعلل الدكتور إحسان ذلك بأن قصيدة «القوس العذراء» نشرت فى مجلة لم تكن ذات قراء كثيرين .. فلم يتعرف إليها النقاد إلا بعد أن وضعت فى صورة كتاب .. وكان الشعر الحديث قد قطع شوطا بعيدا ، وكان طولها حائلا دون توفر الصبر اللازم لجلاء ماتنطوى وما ترمز إليه ، أضف إلى ذلك أن القصيدة لاتستطيع أن تستغنى عن مقدمتها النثرية ، لأنها تكون جزءا أصيلا منها وهذا شىء قد أفقدها الاستقلال وجعلها مفتقرة إلى فاتحة ، ثم إن محمود شاكر ملوم أيضا .. ولو شفعها بنظائر لرسخت قدمه فى مذهب شعرى جديد .

أما المقال الثانى فقد كتبه الدكتور محمد مصطفى هدارة «مصر» وكان بعنوانين نثرى وشعرى الأول «القوس العذراء - رؤية فى الإبداع الفنى» والثانى :

ماهى قوس فى يد نابل .·. وإنما ألواح سحر نزل

وقال ضمن كلام جيد كثير عن صعوبة شعر الشماخ صاحب القوس وبداءة فكره ، وكيف أعاد محمود شاكر تركيب قصيدته و.. و.. إنه يحس نحو «القوس العذراء» على الهيئة التى انتهت إليها .. إحساسا قويا بأنها قصيدة تحكى حدثا وتتضمن مقدمة تهيىء الأذهان لهذا الحدث ، وتتابع الشخصية الرئيسية فى القصة وهى القوس نفسها، فتحكى ماحدث لها من تطور وتغير وقائع مرتبطة بحياة صاحبها . وهذه التغيرات أخذت تتعقد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الذروة ، ثم كان الحل بعد ذلك للعقدة التى تجمعت فيها خيوط الحدث .. وهى أن الإنسان القادر على صنع التمثال الجميل إلى درجة عشقه ونسيان مادته وتمثله وجودا بتعبده ، قادر أيضا على تحطيمه وإعادة صنعه والارتداد إلى الحقيقة التى نسيها زمنا .

وهذا الختام يعبر عن فلسفة التفاؤل والإيمان بقدر الإنسان وشموخه ، وبأنه مزاج حى العقل والعاطفة والتخيل والواقع ، وبأن فى مقدور الإنسان أن يعود إلى العقل والواقع فلا يضيع فى ضباب العواطف والأوهام ، وبهذا كله أصبحت «القوس العذراء» رؤية جديدة وغير مسبوقة فى الإبداع الفنى ، تأخذ مكانها فى الذروة من الأعمال

الرائعـــة فى أدبنا المعـاصـر ، بل فى الأدب الإنسـانى فى كل زمـان ومكان .

ولايفوتنا أن ننوه إلى أن الدكتور هدارة وقد اعتبر «القوس العذراء» قصيدة قصصية قد أشاد بالمقدمة النثرية التى نعتها الدكتور إحسان بقـوله : «ألقت هذه المقـدمـة الأضـواء على الحـدث وتصـوره ، وعلى الشـخصية المحورية الحقيقية فيه وهى القوس ، والشـخصية الثانوية وهى صاحبها ، وأبانت كيف تطورت العلاقة بينهما منذ التقيا حتى حدثت مأساة الفراق» .

ولأن الدكتور محمد أبوموسى الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر لم يدرك نشر إبداعه عن «القوس العذراء» فى الكتاب التكريمى ولطول هذا الإبداع وتناوله مشكلة التراث ورؤيته حيـاله .. فقد نشـر إبداعه بعد ذلك تحت عنوان «القوس العذراء وقراءة التراث» حيث رأى أن «دراسة التراث لاتقف عند استيعاب كل مافيه .. إنما العناية به وأن «نستخرج مضمره .. ونجهر بهمسه ونبين عن وحيه .. وهذا ما فعله الأستاذ محمود شاكر فى «القوس العذراء» وكثير من ودائعه وروائعه التى تحتـاج إلى المدارسة والتحليل والمناقشة ، لأنها منهج مسـتقل وطريق مغايرة» .

أما عن المقدمة النثرية التى كتبها محمود شاكر لهذه القصيدة ، فقد اعتبرها الدكتور محمد أبو موسى جوهر القصيدة .. لأن فحواها أو معناها : «أن إتقان العمل ، وأخذ النفس ورياضتها عن طريق المثابرة

فى ذلك ، هو فى حقيقته سعى دائب نحو اكتشاف الذات ، ورحلة تتوخى القبس الهادى الذى خبا فى اعماق الانسان ، وبمقدار مايحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من شاطىء الحقيقة الأزلية المطمورة فى داخل نفسه ؟ والتى ضلها يوم قلق وحاد ، وهذه المعانى كما نرى غريبة مستورة ، لا أعرف أحدا من الذين يعالجون صنعة البيان شق حجبها بهذا التألق البيانى الفذ .. ولا أحسب هذه اللغة الشريفة كشفت عن جوهرها الشريف لواحد من أهل زماننا ، كما كشفت جوهرها الشريف لهذا العالم الجليل ، لما رأته حفيا بها أنبل ماتكون الحفاوة ، وفيا لها أكمل مايكون الوفاء .. كما أن التفكير فى هذه المسألة حين يقارن بما يقوله أهل النظر ، يرى حيويا وعلميا لأنه يجعل إتقان العمل والدأب فيه طريقا واصلا إلى استنباط ودائع الفطرة ، وإثارة كوامن الطاقات ، وبالمثابرة وحدها يمكن للمرء أن ينتقل من طور من أطوار الفكر والعمل إلى طور آخر ، أسمى وأسنى وقل مثل ذلك فى الجماعات والأمم» .

ويأتى عام ١٩٨٩ وفى شهر أبريل منه تنشر مجلة الهلال مقالة عاشق العربية محمود شاكر بقلم الدكتور شكرى عياد .. فنتوقف عندها بمـا ذكرته من قصيدة القوس العذراء حين أشار إلى أن «الشاعر القديم ، والجاهلى على الخصوص ، كان فيه حياء فطرى يمنعه فى معظم الأحيان أن يتحدث عن نفسه مباشرا ، ولكن عندما أدخل محمود شاكر قصيدته الخاصة فى قصيدته ، جاء النص الجديد يراوح بينهما

فى إتقان وإحكام .. حتى صار شعر شاكر ونثره حول قصيدة الشماخ كأنه مرايا تكبر وتصغر وتقرب وتبعد .

والعمل فى مجموعه عمل قديم فى قالب جديد يضاف إلى قالب المعارضات الذى لم يستنفد إمكاناته بعد ، بحيث إن القالبين يمكنهما أن يبدأ طورا جديدا وحديثا كل الحداثة عن أطوار الشعر العربى .

وليت الذين يتحدثون عن التناص ، أو تداخل النصوص ، من نقادنا الجدد يلتفتون إليه ، والشاعر الحديث يملأ قصيدته بالتفاصيل ، حيث يكتفى الشاعر القديم باللمسة ، ومن خلال هذه التفاصيل تترامى عاطفة الشاعر الحديث بل قصة حياته فى عشق العربية لغة وعروبة .

فالقوس العذراء: قصيدة فريدة فى الأدب العربى قديمه وحديثه والمظلومة أيضا بين كل ماكتب فى القديم والحديث» .

لمحة خاطفة عن

تفاصيل الشق التاريخى :

ترى ما هى الرواسب التى تراكمت فوق المنهج المستقيم ، الذى كان كالشمس المشرقة يهدى علماء هذه الأمة العربية السائرين على الطريق المستقيم حتى القرن الحادى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ، والذى استوجب الشق التاريخى فى منهج محمود شاكر الذى تجاوز منهج الجرجانى ، حتى تجلى نوره الوضاء - بعد عشر سنوات من البحث والمعاناة - ليسير عليه الخلف فيحقق أمجاد السلف ؟

يجيب محمود شاكر عن هذا السؤال .. بأن يأخذك فى رحلة إلى أعماق التاريخ لترى اللحظات الأولى للتصادم الصامت المخيف الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية حين سقطت الإمبراطورية الرومانية .. فعم الظلام .. والتى سماها أصحابها الأوروبيون «القرون الوسطى».

و «من القرون الوسطى» حتى جاء «عصر النهضة» فى القرن السادس عشر الميلادى كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلب على رقعة ممتدة من حدود اليمن إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب افريقية، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة بعد أن رد النصرانية وأخرجها

من الأرض، وحصرها في الرقعة الشمالية و.. ومن ثم بدأت «الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م» – ٤٨٩هـ وقعت الواقعة .. فبعد أن أكتسحت الأرض المسيحية في آسيا ، في شمال الشام ، ودخلت برمتها في حوزة الإسلام . سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرقي سنة ١٤٥٣م.

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها ، وعلى سرعة ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام منساحة في قلب أوربا ، لم تفت في عضد المسيحية الشمالية .. حيث دار الصراع بينها وبين الإسلام في مراحل أربع :

المرحلة الأولى : صراع الغضب لهزيمة المسيحية في أرض الشام ودخول أهلها في الإسلام ، والمرحلة الثانية : صراع الغضب المتدفق من قلب أوربا مشحونا ببغضاء جاهلة ، سفحت أول ما سفحت دماء أهل دينها من رعايا البيزنطية ، والمرحلة الثالثة : اندحار الكتائب الصليبية ، وإصلاح خلل الحياة المسيحية، بالاتكاء الشديد الكامل على علوم أهل الإسلام . أما المرحلة الرابعة : فهي مرحلة صراع الغضب المشتعل بلهب البغضاء والحقد وهو وحده الذي صنع لأوربا كل شيء من النهضة إلى يومنا هذا .. والذي رجه بقوة فتح القسطنطينية .. فأدى بهم إلى اليقظة الشاملة .

ومن يومئذ نحى السلاح جانبا وصارت القاعدة هي اجتناب

استثارة هذا العالم الضخم المبهم ، ثم العمل الدائب البصير الصامت الذى يتيح لهم يوما تقليم هذه الأظافر وخلعها من جذورها ، ثم استنفاد قوته بالمناوشة والمطاولة والمثابرة .. حتى يأتى عليه اليوم الذى لا يملك فيه إلا أن يستكين.

وكانت وسيلتهم فى تحقيق كل ذلك ، بعثه أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية تخرج لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكتب شراء أو سرقة ، وهم من عرفوا بعد ذلك بالمستشرقين ، حيث لبسوا لجمهرة المسلمين كل زى ، وتوغلوا بينهم يستخرجون كل مخبوء من الأحوال فى دار الإسلام عامته وخاصته ، وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد «الإستشراق» آلاف مؤلفة من مخطوطات من كتب دار الاسلام نفيسة منتقاة، مشتراة أو مسروقة ، والتى عرفوا أن فى مكنونها سر تفوق العرب وتقدمهم وسموهم، وبهذا العلم التليد كسبوا هم المعركة، وعلى علم هؤلاء المستشرقين وخبرتهم التى امتصوا رحيقها من إرث العرب والمسلمين أرسيت دعائم «الاستعمار» ورسخت قواعد التبشير بما أصدره من كتب فى جميع مناحى العربية من شعر إلى فقه إلى تشريع إلى .. إلى .. باللغة العربية .. حتى يقرأها المسشرقون فى البلاد بالتبادل فى شتى الدول الاوربية الاستعمارية .

ويحسب جمع من المثقفين العرب أن هذه الكتب أثرت العربية ، لذلك يحذرنا محمود شاكر . لأن المستشرق لا يمكن أن يصل إلى شىء يثرى العربية وهو لم يعرفها إلا بعد أن استوى على سوقه .. ثم إن ثقافته

التى ارتضع لبانها مخالفة للثقافة العربية .. كما أنه ليس بعيدا عن الهوى بل إن الهوى هو الذى يحركه .. ومن ثم لن يستطيع الإمساك بشطري المنهج .

ولاحظ شاكر أيضا أن المستشرقين لا يطبعون أكثر من خمسمائة نسخة من كتبهم وابحاثهن الاستشراقية توزع على مراكز الاستشراق فى أوربا وأمريكا .. بينما لا ترسل سوى نسخة أو نسختان أو عشر على الأكثر للبلاد العربية . لأنها وضعت أصلا للمثقف الأوربى حتى يعادى المسلمين والعرب على السواء .

وينبه الأستاذ شاكر إلى من يتصور مثلا أن فرنسا طوال حياتها فى صراع مع إنجلترا .. وربما انعكس ذلك على اختلاف رؤى ومواقف مستشرقيهم .. لكنه يؤكد أن الاستشراق فى أوربا كلها هيئة واحدة .. وهدف واحد ، وبغضاء واحدة للعرب وشره لكنوزه وثروته لتحقيق الرفاهية الأوربية .. لأنهم فى الأصل همج هامج .. نشأوا جياعا فى صحراء مجدبة .

ثم يلفت محمود شاكر نظر كل من يقولون أننا نفيء فى ظلال اختراعات الغرب فيطلب منهج الفصل بين ما يسمى «ثقافة» وبين ما يسمى اليوم «علما بحتا» لأن الثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد ، والعلم مشاع بين خلق الله جميعا فالجبر مقطوع من شجرة بينما للقصيدة أب يحميها .

لذلك يحذرنا من زخرف الألفاظ وتلألئها والتى دأب المستشرقون

على الترويج لها مثل الجديد والقديم ، والأصالة والمعاصرة ، والثقافة العالمية والحضارة العالمية فهذا كله تدليس يراد به سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة . لتبقى تبعا لها، لأن الثقافة لارتباطها بالدين متعددة الأديان والملل.

ذلك أنه فى الوقت الذى يقول فيه المستشرقون ذلك . فإن فجيعتهم بسقوط القسطنطينية مازال يعتمل أثرها فى نفوسهم .. حماسة وغضبا للمسيحية ، ويرسخ الإصرار فى قلوبهم على دفع غائلة الإسلام. عندئذ دخلت أوربا كلها فى عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار ، وبلغ السيل الزبى ، فكانت يقظة محسوسة فى جانب ، وغفوة لا تحس فى جانب، وشال الميزان ، فبعد سقوط الأندلس ، انطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الاسلام فى أطرافها البعيدة فإذا دار الإسلام محصورة فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية فى الشمال ، وشيئا فشيئا فقدت دار الخلافة فى القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة مقدرة !

ورغم حدوث ذلك .. كان الفرق بيننا وبينهم خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر، بل أكثر من ذلك، فإن اليقظة الأوروبية كانت بعد فى أول الطريق وتتكىء اتكاء شديدا على ما كان عندنا .

عندئذ توجس بعض علماء العرب متفرقين على ساحة الأمة .. توجسا غامضا لشر مستطير آت لا يدرى من أين ؟ فانبعثوا يحاولون

إيقاظ الجماهر المستغرقة فى غفوتها عن إرث أسلافهم العظام الذى أصابه الخلل في كل مناحيه .. من هؤلاء خمسة من الأعلام هم : «البغدادى ١٦٢٠ - ١٦٨٣» فى مصر ، «الجبرتى الكبير ١٦٩٨ - ١٧٧٤» فى مصر أيضاً ، «ابن عبد الوهاب ١٧٠٣ - ١٧٩٢» فى الجزيرة العربية «المرتضى الزبيدى ١٧٧٢ - ١٧٩٠م» في الهند وفى مصر ، «الشوكانى ١٧٦٠ - ١٨٣٤م فى اليمن».

هؤلاء الخمسة .. كان لهم فضل المبادرة إلى يقظة بلادهم ، يقظة كانت حقا متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال، ولكنها كانت قريبة التواصل ، وشيكة الالتئام ، لأنها منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضارتها فى حدود الإسلام ، بعكس يقظة أوربا التى كانت متفجرة بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفى، وشملها مجتمعهم بالضغينة المتقادمة ، بهدف العودة لاختراق دار الاسلام بالدهاء والخداع والمكر .

وكان أكبر الصراع المتوحش بين فرنسا وإنجلترا على الطرف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام فى دار الخلافة «تركية» أن تصنع لإنقاذها شيئا ذا بال .. فأنشأت إنجلترا «شركة الهند الشرقية البريطانية»، وتبعتها فرنسا ، فأنشأت «شركة الهند الشرقية الفرنسية» ، وظل الصراع محتدما حتى قضت الشركة البريطانية على الشركة الفرنسية ، قضاء مبرما .

وعندما عادت فرنسا من الهند تلعق هزيمتها ، كان الاستشراق قد

أعد لها وجبة دسمة .. وهى أن الحين قد حان لاختراق قلب دار السلام - مصر - من الشمال و حتى تداهم «اليقظة» التى أرقت منام الاستشراق كما هاجم الإنجليز اليقظة من الجنوب .. الامر الذى يفسر تطابق تواريخ تقارير المستشرقين عن مصر .. وتاريخ يقظتها .. ووجوب البدء في العمل لدى فرنسا لغزو مصر .

وهكذا فى أول يوليو سنة ١٧٩٨م ١٧ من المحرم ١٢١٣ هـ .هوى نابليون كالعقاب على مصر، وتستطيع أن تقف على حقيقة الحملة الفرنسية على مصر فى «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» فى مقدمة الطبعة الثانية من المتنبى . أو طبعاتها المتتالية التى أصدرتها «دار الهلال» منفصلة . حيث ركز فيها الأستاذ محمود شاكر على خطر رسالة نابليون - بعد أن هرب من مصر - إلى خليفته كليبر ، كما ركز على عمل المستشرقين فى تجنيد أعوان لهم من اليهود وشذاذ الآفاقين من الأرمن والأروام والمالطيين فى مصر .

حتى جاء الاحتلال الإنجليزى .. وبدأ الاستشراق الإنجليزى فى تكوين «حزب» قوى يناصره .. ووضع دنلوب أسس «التفريغ» الكامل لثقافة طلبة المدارس المصرية من ماضى أمتهم المتدفق فى دمائها مرتبطا بالعربية الإسلامية وقد أبان قصة هذا التفريغ فى «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» فى مقدمة كتاب المتنبى من صفحة ٢٠ حتى ٢٩ .

وهذا الفائت كله هو ما أحدث المناهج الأدبية الفاسدة التى أدركها الأستاذ محمود شاكر ورفضها رفضا صريحا قاطعا ، حيث بدأ وحده

تلك الرحلة التى كانت شاقة جدا وممتعة جدا، لأن الهدف الجميل هون عليه كل الضنى والتعب .

ووفقا لمنهج محمود شاكر بشقيه .. فإنه يعتبر أغلب من درسوا فى الخارج - وكانت أساتذتهم ومراجعهم استشراقية - «مستشرقيون عرب» - وإذا كان المستشرقون عرفوا ما أقدموا عليه .. فإن أغلب أصحاب البعثات عميان ، بدليل أن لطفى السيد هاجم بعد عودته من الخارج اللغة العربية ، كما هاجم المجامع اللغوية وقال بعدم جدواها ، ثم اشترك فى المجمع اللغوى بعد إنشائه ، بل رأسه عدة سنوات.

وإسماعيل مظهر كان يدافع قبل البعثة عن العربية لأنها التى تجمع بين البلاد العربية ، ولابد أن تكون موحدة فى اصطلاحاتها ، ولكنه لم يعد من البعثة بالداروينية التى تخالف الإسلام فقط بل اقترح أيضاً اتخاذ الحروف اللاتينية كرسم للكتابة العربية . وقد قرأنا من قبل ما قاله طه حسين .. وقال ذلك فى الكل إلا الدكتور زكى مبارك . الذى عقد مقارنات بينه وبين طه حسين فى الشكل والمضمون.

أما الأستاذ أحمد أمين وهو خريج المدارس الشرقية فإنه ما إن عمل مع الأساتذة المستشرقين أيام عمادته لكلية الآداب ، حتى رأيناه يهاجم الأدب العربى بل ثوابت ثقافتنا كلها، مما جعل الدكتور زكى مبارك يرده فى عدة مقالات سنة ١٩٣١ ، وما انشق الدكتور هيكل عن طه حسين ، إلا بعد أن عاد إلى الاسلام وقاطع العلمانية والفرعونية معا .

وربما كانت تلك التحولات الرديئة وراء عدم احترام محمود شاكر لبعض حاملي لقب الدكتوراه من الخارج فى علوم العربية وغيرهم من والمتهالكين على هذا اللقب ، بل يعتبر هذا البعض ذلك وباء وبلاء يضاف إلى السيرك الكبير والفهلوة من حولنا.

ولكنه لا يظلم منهم من أجاد فى عمله وبحثه واستمر فيه باقتدار على الابتكار والإضافة .. وإجلاله لكثير من هؤلاء الذين يشرفون أمتهم العربية الإسلامية أينما ذهبوا .. بل هو يستشهد بهم ويسجل ملاحظاتهم على كتبه .

ماذا قال نقاد منهج شاكر

إذا كان محمود شاكر قد أفصح عن منهجه التذوقى ص ١ «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» لأنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٨٧ م ولم يفز عنه بسطر واحد من ناقد، إلا أنه ما إن أفصح عنه حتى تلقفه النقاد الكتاب كل منهم يتفحصه من زاوية رؤيته .

فقد طار اليسار المصرى مثلا فوق شق التذوق فى الرسالة وركز على الشق التاريخى فكتب أستاذ الاقتصاد النابه الدكتور «محمود عبد الفضيل» فى جريدة الأهالى موافقا على ما أثبته «محمود شاكر» من اختراق ثقافتنا .

الدكتور «شكرى عياد» وجد فى صدور الرسالة فرصة للكتابة عن حبيبه محمود شاكر عاشق العربية ، منذ ان كان غضا فى السابعة عشرة من عمره المديد إلى أن توصل إلى منهجه التذوقى ،

الذى لم يتوقف فيه إلا فى أمر واحد، هو غرام المتنبى بخولة أخت سيف الدولة.

ثم كشف سر لماذا كان محمود شاكر بالذات هو الذى تمكن وحده - دون سائر المثقفين العرب - من الإمساك بهذا المنهج .. حيث قال :

«محمود شاكر فنان عالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم .. لأن منهجه تذوقى، ولم يسهل ذاك على غيره ممن لم يتمرسوا بذلك المنهج، فنجدهم إذا كتبوا فنا جنحوا إلى تفيهق العلماء، وإذا كتبوا علما شطحوا كما يشطح أصحاب الفن، على أنى أرى الفنان فى شاكر أكبر من العالم ، وأراه فى عرضه لمسألة «التذوق» نفسها وهى مسألة علمية يحسب بروز جانب العالم فيها حسب ما وصفناه يشق ويغلب بصنعة الفنان».

أما عندما حلل هذه الرسالة صديق محمود شاكر الأثير ، الدكتور مجدى وهبه .. فى مقال تحت عنوان «غضب مرتقب» ونشره بالإنجليزية بمجلة «يوميات الأدب العربى» ، وهى مجلة تعنى بشئون الاستشراق الجديد .. الذى يستهدف بدء صفحة جديدة تخالف نظرة الاستشراق القديم ، أو تطمح إلى ذلك على الأقل ؛ فقد استهل تحليل الرسالة وتجليتها برسم الخلفية التى تبرزها ، فألقى الضوء على الاتجاهات الاعتزازية للاستشراق الجديد ، ثم تتبع بزوغ الرغبة فى الحوار بينهم وبين المسلمين، ثم حدد أن يكون المحاور عن الإسلام هو صاحب «الرسالة» نفسه، وبرر ذلك بأن الحوار المرتقب لن يجدى فتيلا إذا مثل

جانب الإسلام فيه نماذج مثل طه حسين أو المثقف شبه الماركسى الحديث ، أو حتى من يسمون بالإسلاميين المعتدلين، حيث لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مثمر مع صورته فى المرآة .

وإذا لم يستطع الغرب تقبل كل ما تقوله هذه «الرسالة» قبولا مطلقا .. فإنه من الضرورى أن يلتحموا مع الغضب والاستياء الذى تعبر عنه .. لأنها صوت أصيل معبر عن عاطفة مشبوبة وألمعية بارعة عن أثر ما أحدثه الاستشراق فى العالم العربى بعد اثنى عشر قرنا من المواجهة.

أما الذين شجبوا رسالة محمود شاكر .. فنجدهم فئتين :

الأولى ذات منطلقات عربية تجاذبه الرأى ليرد عليهم .. فيكون فى رده إيضاح لما غمض فى الرسالة ، ونختار نموذجا لها ما كتبه الأستاذ كمال النجمى.

أما الفئة الثانية والتى كان غرض شجبهم إثبات قدرتهم على التصدى لمن قامت شهرته على التصدى .. ولأن تصدى محمود شاكر - كما أوضحنا - كان صدقا وعدلا ، فإن أمر تصديهم له شئ يطول ، ذلك أنهم يمثلون جماع مفردات صورة المستشرقين فى المرآة، ونختار نموذجا له ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى (١) .

ونبدأ بما كتبه الأستاذ كمال النجمى إذ يقول بعد مقدمته الرائعة

---

(١) مجلة المصور .

التى أتينا عليها فى غير هذا المكان : «على هذا الدرب مضت أفكار الأستاذ وأعماله وظلت ماضية فيه وسوف تظل فى سبيلها .. يلقى من العنت ما يلقاه كأنه أبو الطيب المتنبى يقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى

وللحب ما لم يبق منى وما بقى

وإنه ليقف اليوم وقد انتهت إليه الرياسة فى علوم اللغة وآدابها ، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدفع عنها «الأعداء» منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التى أعلنها على «الفساد» لا تضع أبدا أوزارها .

ولكن شيخنا على مرارة حفاظه واتقاد حميته ، لن يغضبه فيما نرجو ، أن نعترف له بأن الجديد - يقصد - فى الطريق إلى ثقافتنا ، الذى شرح به منهجه التذوقى وتاريخ وظروف التوصل إليه على طرافته وطلاوته ، هو أشد كتبه عسرا على الأفهام ، فقد تدفقت فيه خواطره وسوانحه تدفقا بالغ العنف تضرب فساد الجو الثقافى كما تضرب أمواج البحر صخور الشاطئ ، فيستهويك عملها ، ويعجبك مدها ، ويطربك هديرها ، ولكنك لا تتبين أولها من آخرها ، ولا ترى منها إلا الزبد الأبيض ممزقا على صدر البحر الغاضب ، طافيا على سطحه ، يحجب ما فى جوفه من كنوز اللؤلؤ والمرجان .

إن كلماته فى هذا الكتاب عن منهجه فى تذوق الشعر والنثر لمن أعلى طبقات الكلام ، ولكنه يوهم قارئه أن أدباء عصره، من أواخر

القرن التاسع عشر إلى الآن ، لم يحسنوا التذوق ، ولم يكن لهم فيه منهج صائب . وما نظن أن هذا رأيه على وجهه الصحيح ولكن الأستاذ أوشك فى حماسته لمنهجه أن ينكر التذوق على أدباء عصره أجمعين .

وهو يرى أن «الفساد» لم يدخل على ثقافتنا إلا بعد «التصادم المخيف الذى وقع بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة » أى منذ مائتى سنة تقريبا فى غزوة بونابرت لمصر ، ثم عصر محمد على الكبير .

أفيظن الأستاذ إذن أن ثقافتنا كانت قبل ذلك بخير ، فى أيام إبراهيم بك ومراد بك آخر مماليك العصر العثمانى ، أم يرى أنها كانت بخير قبل هذين المملوكين ؟

ويهيأ لى أننى لو سألت محمود شاكر الإجابة عن هذا المأخذ ، فإنه سيشرح لى الاختلاف بين أن تمر ثقافة أى أمة بأطوار من الركود بل الهبوط ، ولكن تبقى مع ذلك أصولها الراسخة سليمة مستقرة ، وهذا بالطبع مختلف عن الإفساد المتعمد الذى يحدثه الغازى الباغى لترويج نظرياته التى تطابق هواه هو ، فبعد أن يمحو كل ارتباط الأمة المستعمرة بجذورها القومية . يزرع فى نفوس مجتمعها أزرارا يحركها عن بعد فيحدث مرامهم ، حيث تفسد مناهجها لإغراقها بمناهج واردة .

والدليل على ذلك أنه بعد عصر هذين المملوكين ، جاء عصر الإحياء، على يد البارودى ، وشوقى ، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم وغيرهم.

ثم إن المبدأ الذى يدعو إليه محمود شاكر فى الرسالة تقع مسئوليته على أبناء الأمة العربية ، وهو أن يكون تجديدهم نابعا من إرث قومهم

وليس اتكاء على التجديد الذى ينادى به المستشرقون .. لأنهم فئة لا تستطيع أن تكون محايدة فى نظرتها إلى تراثنا .

بعدها نأتى إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى ، والذى وصفناه آنفا بأن أمره سيطول - فنجده قد استهل مقاله بقوله : «لابد أن أعترف فى بداية حديثى هذا بأنى مشفق وجل من لقاء صاحب هذا الكتاب الذى أعلق عليه هنا ، فالرجل الذى أواجهه أستاذ واسع العلم راسخ القدم فى الثقافة العربية التى قدم فيها أعمالا متنوعة ممتازة ، آخرها هذا الكتاب » .

«فالأستاذ شاكر مع علمه الواسع رجل مقاتل ، يرى لنفسه فى حياتنا الثقافية رسالة مقدسة يؤديها بحمية ، ويدافع عنها بجدارة ، لأنه لا يستطيع الفصل بين الثقافة والدين ، ولهذا يحسب الدفاع عن آرائه فى الشعر والنثر جهادا دينيا يلبس له لباس الحرب، ويختال فيه اختيالا ، ويمعن فى ضرب خصومه إمعانا ، فلا يكتفى بتجريح آرائهم ، وإنما ينال من أشخاصهم بنعوته الجارحة ، لا يرده عن ذلك أن فيهم من كانوا أساتذته ، مثل طه حسين الذى يصف الأستاذ شاكر منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى ، والمؤرخ عبدالرحمن الرافعى الذى يقول عنه إنه مؤرخ مدجن، ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » .

وقبل أن نوضح لحجازى وللقارئ لماذا وصف الأستاذ شاكر هؤلاء

الثلاثة بهذه الأوصاف ، نسأل حجازى عن معنى وصفه الأستاذ بأنه «يرى لنفسه» .. «و«يحسب الدفاع عن آرائه» وهل هناك من يوزع على المفكر الرقعة التى يتحرك فيها ، وهل الأستاذ «يحسب» أم أنه فعلا وكما قال الأستاذ النجمى يقف قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدافع عنها الأعداء منذ ستين عاما منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التى أعلنها على الفساد لا تضع أبدا أوزارها .

وبعد فإننا نأتى إلى أحكامه على أعمال وأقوال هؤلاء الثلاثة فنبدأ بالدكتور طه حسين فنقول : إذا قرأت مثلا – وليس على سبيل الحصر – كتاب «المعارك الأدبية» للأستاذ أنور الجندى فى وصف منهجه فى قراءة الشعر لوجدته من أوله إلى آخره شجباً ، لهذا المنهج على الصعيدين الأدبى والسياسى حيث وصلت «قضية الشعر الجاهلى» مرتين إلى قاعة مجلس النواب والشيوخ ، بل إن المظاهرات الشعبية عندما تحلقت بيت الأمة .. ظهر زعيم المرحلة سعد زغلول ليهدىء الثائرين بقوله : إن الدين الإسلامى متين ولا يهتز لكلمات طائشة ، وأنهى خطبته بقوله : ماذا يضيرنا إن لم تفهم البقر ؟

ليس هذا فقط بل إن الدكتور طه حسين . عندما وجد أن من أخذوا عنه لم يسيروا فى معالجة «القديم» حتى يخيل للناس أنه إحياء للقديم وتجديد له بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاص منه والاستخفاف به ، أحس الدكتور نفسه بالخطر ، وهو الذى أضاء لهم الطريق بالضجة التى أحدثها كتابه (فى الشعر

الجاهلى) وكان إحساسه بهذا الخطر الذى تولى هو كبر إحداثه ظاهرا جدا حتى عاد سنة ١٩٣٥ ينشر فى «جريدة» الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ ، وكانت محصلتها رجوعا صريحا عن ادعائه الأول فى سنة ١٩٢٦ .. استهلها بمقالة عنوانها « أثناء قراءة الشعر الجاهلى القديم الذى سبق وأشرنا له .

ثم قال بعد ذلك فى «حديث الأربعاء» : وقد تحدث إلي المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، هذا الكلام ليس من عندى أو من خارج كتاب فى الطريق إلى ثقافتنا الذى يناقشه حجازى فى هذا المقال .. بل من شهادة الأستاذ شاكر فى ذيل رسالته صفحة ٢٤٩ ، حيث يردف الأستاذ قائلا : «وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه» .

ويقول الدكتور طه : «والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرا غير قليل .. فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا» .

«وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه فى الأدب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ، ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما

اتخذوا منها صورا وأشكالا وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل » .

«والذين تلفتهم الحضارة الحديثة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم وتملأ نفوسهم إيمانا بأن لا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم ، وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمس حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفقوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين» .

هذه مقاطع من كتابات طه حسين التى يدين بها نفسه .. ومنها نتأكد أن «شاكر» كان على حق عندما وصف منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى.

أما قولة شاكر عن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى انه «مُدجَّن» التى وردت فى «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» فقد كانت بسبب الأحكام التى تمثل حطه من قدر المصريين وإعلاء لشأن أى غريب عليها مثل الفرنسيين وأسرة محمد على فى مثل قوله : «بعد زواج مينو من ابنة السيد محمد البواب ، وكانت حادثة زواج مينو فريدة فى بابها ، لم يسبق إليها أحد من قواد الجيش الفرنسى ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » .. مما أحزن الأستاذ شاكر ، فكتب يعلق على هذا

المقطع: يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة فى التعبير ، يعبر المسلم ويقول «تهكم زملائه» ؟ ثم يتساءل : ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات والآهات والحسرات ؟

ثم إن من يقرأ الأوصاف التى يزرى بها المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على مصر .. لا يسعه إلا أن يصفه بمثل ما وصفه به الأستاذ محمود شاكر أما قولة حجازى «ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » فهى تؤكد أن حجازى مع كل الذين علقوا على كتاب لويس عوض «أوراق العمر» وشجبوا فيه شاكر بغير اسم وإنما بمجاز من قال «أجاكس عوض» فإنهم جميعا ملكيون أكثر من الملك ذاته .. ذلك أن لويس عوض كتب فى مقدمة كتابه «على هامش الغفران » وهو مجموعة المقالات التى نقدها شاكر : «ولا شك أنى انتفعت بشئ قليل من نقد نقادى ، ولا سيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا» .

إذاً فإن لويس عوض نفسه قد أقر بكل المآخذ التى أخذها عليه الأستاذ شاكر ، وكان من الممكن أن يستفيد منها كثيرا لولا جنوح قلم شاكر ، أو قل لضيق صدر لويس عوض .. الذى فوجئ بمن يرقبه، ثم تعبير دكتور لويس بعد ذلك بسطور بشططه فيقول : «وإنى قد أصيب وقد أخطئ فيما أكتب وفيما أرى ، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير» .

هذه هى الأوصاف الجارحة لهؤلاء الكتاب الثلاثة ، التى جعلت

الأستاذ حجازى مشفقا وجلا وهو يتحدث عن رسالة الأستاذ شاكر «فى الطريق إلى ثقافتنا» وها هى تذهب جفاء . بعد أن تكلم أصحابها .

وإذا كان حجازى قد قال فى مقالته هذه : «وليس من طلب السلامة وليست لى حرمة الرافعى أو طه حسين أن أقول اننى أتفق مع الأستاذ شاكر فى عدد من آرائه التفصيلية حول المنهج الصحيح للقراءة ، وحول فساد الحياة الثقافية الراهنة وضعفها ، ولكنى أختلف معه كل الاختلاف فى عدد من المنطلقات الأساسية التى قامت عليها آراؤه ، ومن هذه المنطلقات أن الثقافة فى رأيه ظاهرة قومية ، لها قوانينها الخاصة وأسرارها المغلقة التى لا يمكن أن تنفتح إلا لأبنائها ، وعلى هذا فلكل شعب ثقافة لا يشاركه فيها أى شعب آخر ، ولا مجال لظهور ما يسمى بالثقافة العالمية ، ومن المنطلقات التى يتشبث بها الأستاذ شاكر ولا أستطيع الاقتناع بها أن الصراع بيننا وبين الأوروبيين كان ولا يزال حتى الآن صراعا دينيا لا مجال فيه لوضع السلاح أو التعايش أو الحوار .. وأخيرا يرى الأستاذ أن نهضتنا الحديثة ليست إلا مؤامرة نسجها الاستشراق والاستعمار فكل ما جد فى حياتنا السياسية والثقافية بداية من أوائل القرن الماضى إلى الآن إنما هو نتاج لهذه المؤامرة .. وكل من ظهر من علمائنا وأدبائنا ومفكرينا فى هذا العصر الحديث .. إنما كانوا أدوات للمستشرقين والمستعمرين .. ثم يقول حجازى : «صحيح أن ثقافة الأمة واحدة لا تتجزأ بتنوع فنونها

واختلاف أشكالها .. فالثقافة فى حقيقتها هى روح الأمة تكشف عن نفسها فى صور مختلفة وتعبر دائما عن خصائصها ، لهذا لا نستطيع أن نفهم آثارها مجزأة مفصولة ، بل ينبغى أن نتلقاها فى وحدتها وتكاملها ، خاصة ، إذا كانت مادتها واحدة ، كما هى الحال فى أدب اللسان » .

ونحن نتعجب من هذا النفى والإثبات المتلاحمين .. ولكننا نسير معه خطوة أخرى ، فنجده يعلق على الخطوات التى وضعها الأستاذ محمود شاكر ليكتسب منهجه فى قوله : «قلت لنفسى : الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه ، فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل فأقدمت إقدام الشباب الجرئ ، على قراءة كل ما يقع على كل كلام .. أيا ما كان هذا الكلام ، من كلام أسلافنا من تفسير لكتاب الله إلى .. إلى .. حتى العلوم البحتة».

ثم يصف حجازى شعوره : «وأنت لا تستطيع أن تدرك مدى سعادتى بقراءة هذا الكلام الجميل ، ليس لأنى لم أقرأ مثله من قبل، فالحقيقة التى يؤكدها الأستاذ شاكر نفسه فى كتابه أن من القدماء من سبق إلى كلام شبيه بهذا الكلام، ومن هؤلاء عبدالقاهر الجرجانى ، الذى كان يرى اللغة نظاما من العلاقات يتحقق فى أحسن صوره حين نضع كلامنا الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، ويعمل على قوانينه

وأصـوله ، وهذا سـر جـودة الكلام شـعـرا ونثـرا ، بل إن هذا هو سـر الإعجاز نفسه » .

ثم يعلق حجازى على ذلك : «الأستاذ شاكر لا يؤمن – إذاً – بنظرية الأنواع التقليدية ، ولا يتقيد في تذوقه للآثار اللغوية بالشروط الشكلية التى تميز الشعر عن النثر ، لأن ما يهمه فى النص اللغوى هو ما يتلقاه عن هذا النص ذاته بصرف النظر عن القالب الذى أخرجه صاحبه فيه ، بل إن الأستاذ يزيد على هـذا فلا يتقيد بالشروط التى تميز لغة الأدب عن لغـة العلم ، وهـذه فكرة جـديدة جريئة يتواضع الأسـتـاذ فـيـرجع أصولها إلى عـبدالقـاهر أيضـا ، والواقع أن أصـولهـا ليست قـديمة ، وليست عـربية ، بل هى أوربيـة مـعـاصـرة ، فـقد تعلم النقـاد الاوروبيون الجدد من طريقة الماركسية والفرويدية والبنيوية أن العـالم والنفس وأن المادة والفكر كلها فى حـركة دائمة ، وفى جدل لا ينقطع ، وأن الإنسـان مـادام ذاتا واحدة فنشاطه العقلى بالضرورة متواصل متجاوب ، وهذا النشـاط متنوع طبـعـا ، وصـادر عن ملكات مـختلفة ومتمـثل فى أشكال متمايزة ، لكنه كله يعود إلى أصل واحد ، ويقوم على قوانين موضوعية ، أو ينطوى على بنية واحدة ، وإن كنا نرى هذه البنية الواحدة تجمع بين الصور اللغوية المختلفة .. هكذا تخلى النقد الأوربى الجديد عن نظرية الأنواع الأدبية ، وعن التمييز بين النظم والنثر وأصبح مستعدا للإقرار بوجود عناصر مشتركة تجمع بين لغة العلم ولغة الأدب، كمـــا نرى مثلا

عند «موريس بلانشو» في كتابه «المجال الأدبي » وعند «رولان بارت» الذي يقول ان الكتابة توجد حيث نشم الكلمات » .

والحق أننا أخذنا أنفسنا بشدة عن التعليق على مقاطع هذه المقالة مقطعا مقطعا لنؤجل الحكم مع نهايتها .. ولكننا مع هذا المقطع الذي بدأ «فقد تعلم الاوروبيون الجدد و .. و ..» ، لا نستطيع ، لأنه لا يخرج عن مجموعة من الكلمات المتراصة عن تيارات شديدة التباين ، لا يجمعها في الحقيقة خط فكري واحد ، لذا جاءت منثورة على وجه المقال لتعطي صفة الموسوعية لكاتبها بغير حق فشتان بين الماركسية والبنيوية بل والفرويدية .. ففي حين تقر الماركسية بحركة الجدل وأهميته ، تنحى البنيوية إلى تثبيت الواقع من خلال أن يأتي من بنية محددة ، وإذا نحن تتبعنا تأثير هذه الحركات الثلاث على الأدب المعاصر ، وجدنا أن الماركسية أدخلت بُعد تأثير الظروف المادية والتاريخية على العمل الأدبي في حين اهتم فرويد بالبُعد النفسي للمبدع أكثر مما يهتم بإبداعه ، على حين تركز البنيوية على العمل الفني عينه بعيدا عن المبدع، فكيف نجمع هذه المناهج المشقشقة في سلة واحدة .

بعد ذلك نستحلف القراء وحجازي نفسه: أي المناهج أقدم.. منهج الجرجاني الذي توفي ٤٧٤ هـ.. أي منذ ما ينيف على الألف عام ، هو الأقدم والأصل أم المنهج الذي ظهر حديثا عند «موريس بلانشو» أو «رولان بارت» هو الأصل؟! إنها لمغالطة ظاهرة حقا، فمن المؤكد أن

الأستاذ محمود شاكر، أسس منهجه على الأقدمين وليس على المحدثين من الأوروبيين وهو الذى قاطع أدبهم منذ وقت طويل.. بل إن هذا المنهج قد توصل إليه الأستاذ محمود شاكر عام ١٩٣٥.. أى قبل ميلاد البنيوية، وقبل تعاظم دور فرويد.. وليس لفرويد فى الأصل دور فى النقد.

وبعد هذا المقطع وبدون فصلات أو نقط نرى حجازى يقول: «لكن ما نراه فى رأى الأستاذ على صواب، لا يحجب ما نجده فيه من مبالغة، فاللغة العلمية تختلف لا محالة عن اللغة الشعرية، والنحوى الذى يعرف الحرف فيقول: إنه يدل على معنى فى غيره لا يبين عن نفسه - كما يقول الأستاذ- بل يبين عن حقيقة علمية ندركها جميعا سواء كنا من أبناء اللغة أم من غير أبنائها. نعم إن التعرف قد يحمل آثارا من مزايا صاحبه العقلية أو النفسية فيظهر فيه الذكاء والبلادة والبساطة والتعقيد، لكنه يظل مع ذلك فى مكان من الثقافة يختلف عن مكان الإبانة عن النفس.. يظل لغة برهانية مقابل اللغة الشعرية، أو عبارة مقابل تعبير. لغة الشعر تشير الى الواقع النفسى، أما لغة العلم فتبرهن عليه، ونحن قد نتعلم الإنجليزية مثلا ونتلقى بها علوم الطب أو الهندسة أو الطبيعة فنتفوق فيها، حتى إذا أردنا أن نعبر عن ذات أنفسنا عدنا إلى لغتنا القومية لا محالة».

وذلك الكلام الذى جاء به حجازى لينقد به الأستاذ محمود شاكر، هو عين ما قاله فى منهجه، حيث أوضح أن هناك فرقا بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم ؛ فبقدر ما تتمتع به الثقافة من خصوصية وذاتية،

تفقد جوهرها بفقدانها، فإن العلم يتمتع بعمومية قوانينه ونظرياته.. فالكيمياء لا وطن لها.. ولكن اللغة لها وطن.. لذلك فـإن أى عنصـر خارجي أو وافد لثقافة أخرى لا يمكن أن يكتب له البقاء داخل ثقافة أى أمة إلا إذا تم هضمه وتمثله وفق قوانينها الخاصة كالذى حدث فى العصر العباسي عندما ترجموا الفلسفة، ولم يترجموا المسرح فدل ذلك لا على عدم التخل، بل لأن المسرح لم يكن فنا عربيا ، وإن جاء بعضهم بغير ذلك .. أى أن المسرح فن عربى.

ثم ينهى حجازى مقاله: «ولقد رأينا الأستاذ شاكر ينفى فى البداية قدرة الأوروبيين على النفاذ إلى حقيقة الثقافة العربية واستكناه سرها، لأنهم لا يفهمون لغة العرب حق الفهم ولا يؤمنون بالإسلام» .

وها نحن نراه فى الخاتمة يقول: «إن الاستعمار لم يحكم قبضته على مقدراتنا إلا بفضل المستشرقين الذين تسللوا إلى صميم افئدتنا. حتى لقد ادعوا الإسلام وتكلموا العربية وجاوروا فى الأزهر الشريف».. فكيف وفق بين ما رآه فى البداية وما رآه فى الخاتمة، يقول: إن معارفهم عن العرب والمسلمين إن كانت فاسدة من وجهة نظرنا، فهى صحيحة مفيدة للأوروبيين لأنها تصدهم عن الإسلام وتساعدهم على قهر المسلمين. وهذا مقياس لا أستطيع أن أوافق الأستاذ على دقته فى الحكم على المعرفة» .

ونحن من جانبنا نقول: إن الأستاذ كان دقيقا فى الحكم على المعرفة، ذلك أن منهج هؤلاء المستشرقين كان قائما على فكرة الملاحظة

بالمشاركة، لأن حركة الأنثروبولچيا بالتوازى مع حركة الاستشراق الأولى للبلاد الإفريقية بشكل خاص، والثانية للثقافة العربية ذات الجذور القديمة المتماسكة هى فى النهاية معرفة للآخر، فالأوربيون يريدون أن يعرفوا عنا حتى يستطيعوا أن يتحكموا فينا، وأذكر هنا مقولة لأحد الأساتذة الفرنسيين فحواها: نحن نظام رأسمالى يحاول أن يستبق الصراع، بمعنى أنه يريد أن يسيطر على الصراع قبل حدوثه.

• ويختم حجازى مقاله بقوله: «ومهما يكن الأمر فليست النوايا هى التى تهمنا وإنما الآثار والنتائج. فإذا كان حقا أن نشاط المستشرقين لم يكن مفيدا كله، فلاشك فى أن فيه جانبا عظيم الفائدة، حيث نرى صورتنا فى مرآتهم.. لا لنرى أنفسنا بعيونهم. أو نتخذ ما يقولونه عنا دينا وعقيدة» ... وتلك مغالطة أخرى.. ألا يعلم الأستاذ حجازى حتى بحكم احتكاكه ومجاورته للسوربون - كما جاورنا المستشرقون فى الأزهر الشريف - أن النية تعادل القصد فى فلسفة الفمونولوجيا، وأنها مقابل لفكرة اللاشعور عند التحليل النفسى الفرويدى، والذى يقول عنه صاحبه «اللاشعور».. وبلغتنا العربية : «النية» إنه مثل جبل الجليد يختفى ثلاثة أرباعه تحت الماء. فكيف تنتج النوايا السيئة آثارا ونتائج سليمة كما فى فكرة النية، كما يعرفها كلود ليفى شتراوس بأنها ذات طبيعة رمزية لا شعورية؟

وهكذا ترى أن كل ما أتى به حجارى لا يخرج عن مغالطات يريد بها أن يتماسك فوق الجسـر الهزاز الذى يقف عليه محاولا مجابهة

رجل يقول الحقيقة الموضوعية ، رجل كانت شهرته الأولى هى المجابهة.

نسينا فى زحمة المراجعات، المنطلق الثانى الذى لم يستطع حجازى الاقتناع به فى آراء الأستاذ محمود شاكر، من أن الصراع بيننا وبين الأوربيين كان ولايزال حتى الآن صراعا دينيا، فإنه اقتنع به.. ليس بعد أو وقعت حروب سراييفو والشيشان، وإنما فى مقالتيه» المنافقون يتلعثمون» و «أسباب التفاؤل» المنشورتين فى الأهرام بعد فلاحه فى نقد منهج الأستاذ محمود شاكر. حيث قال فى الأولى: إن هناك من الأوربيين والغربيين عامة من لا يحملون لنا غير المقت والكراهية، فكل طريق نسلكه خطر يهددهم.. هذا كان موقفهم منا فى الماضى البعيد والماضى القريب، كما هو موقفهم منا الآن.. و.. وأما فى المقالة الثانية.. وبعد تفاؤله بجمعيات الصداقة بيننا. فإن هذا التفاؤل ينطفىء بعد البيان الذى أعلنه بعض المثقفين الفرنسيين بشأن تأييدهم لهجرة اليهود السوفييت الى فلسطين: و.. انظر إلى سياسة فرنسا الثقافية فى بلاد المغرب العربى، سترى أنها تعرقل سياسة التعريب، بقدر ما تحاول المحافظة على الوضع الممتاز الذى تتمتع به اللغة الفرنسية دون حق، إذ هى لغة أجنبية تستطيع أن تكون الأولى فى بلاد المغرب، ولكن لا ينبغى أن تحل محل اللغة القومية وهى العربية.

محمود شاكر .. مفكرا مسلما

فى مقالاته التى نشرتها «الرسالة» التى تعرض فيها الدكتور محمد

حسن عواد الأستاذ بجامعة الأردن لموقف محمود شاكر من الإسلام ورؤيته الإسلامية يقول إنه مفكر تقوده الرؤية الإسلامية. وما تفرع عنها من ثقافة مختلفة الألوان، فهو يفهم الدين الإسلامى لا على أنه ضرب من الشعائر التعبدية المنفصلة عن واقع الحياة، بل على أنه جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته منذ يستيقظ من نومه إلى أن يئوب الى فراشه، ولإثباته لهذه الرؤية يسلط الأضواء على بعض القضايا التى يعج بها المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث، مستخرجا ما فيها من فساد وخبث آت من الأصول الفكرية الغربية، وإنها لقضايا متعددة الألوان.

قضايا ذات لون اجتماعى: منها رفض تعبير «رجال الدين» حملا على رجال الدين المسيحى، الذين يقصرون حياتهم على الطقوس الدينية وينقطعون للنظر فى مسائلها، ووفقا لذلك يرفض أن يعد الأزهر معهدا دينيا،. وهو بالتداعى قد شن حربا على الجاهلية الوثنية - بكل أشكالها كالفرعونية والفينيقية ونحوهما - التى طهرها الإسلام، الذى ختم الله به النبوات والأديان على هذه الأرض..

أما عن مقالاته السياسية التى يعرض فيها قضايا العالم الإسلامى مع الاستعمار، وسلط عليها الأضواء مكثفة تدل على حس سياسى عميق، وتحليل دقيق للأحداث ومتابعة ظاهرة لها، كل ذلك ببيان كاللهب يفيض حماسة وقوة واعتدادا، فهو لا يقنع فيها بتحرير البلاد من أقدام

الاستعمار، بل يتجاوزه إلى تحرير البلاد من أفكار هذا الباغى وقيمه وعاداته وتقاليده.

ومن آرائه السياسية أيضا، إعادة النظر فى شأن الجامعة العربية، والذى يدل اسمها على أنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذى وضعت له. وهو جامعة العرب، أو جامعة الإسلام، أو جامعة الشرق.

اما عن التجديد الذى تلهج به طائفة من المثقفين ثقافة عصرية ليس إلا تمنطقا بالكلام، لأن حقيقة التجديد أنه حركة دائبة فى داخل ثقافة متكاملة يتولاها الذين يتحركون فى داخلها حركة كاملة دائبة.

واللغة [1] العربية لغة القرآن حرص عليها محمود شاكر أشد الحرص فمنحها حياته، وأخلص لها، ونافح عنها، وكشف الخطط الرامية إلى تدميرها، وإضعافها كالدعوة الى اصطناع العامية. أو كتابتها بالحروف اللاتينية.

القسم الثاني: عن فساد حياتنا الأدبية.. فى هذا القسم نجد تحليلا عميقا للأسباب التى أدت إلى فساد الحياة الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى عامة وفى مصر خاصة. ويئول هذا الفساد إلى الحضارة الغربية التى تختلف فى أصولها الفكرية كل الاختلاف عن الأصول الفكرية للحضارة العربية، فحضارتهم الأدبية العصرية للقرن العشرين هى حضارة حيوانية الفضائل ليس فى أعمالها إلا فتنة بعد فتنة، ولا

(١) الأستاذ محمود شاكر لا يحب أن يسمع كلمة «العربية» تعريفا لها، وكأنها ليست لساننا .

نقول هذا فى العلم – معاذ الله – فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ فى بعض أسرار الكون بأسباب المعجزات، وهذه التفرقة الذكية بين الحضارة والمدنية، تصلح أساسا لهداية الحيارى ودرسا قاسيا عميقا لقادة الثقافة فى العالم الإسلامى، عندما اتخذوا من تمجيد حضارة القرن العشرين تدليسا يفتتون به الناس عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة.

القسم الثالث: طريق الإنقاذ: ويقوم عند محمود شاكر على أساسين هما: إنقاذ العالم الإسلامى من أسر التعبد للحضارة الغربية، وإنشاء مدنية منبثقة من الدين الاسلامى، فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب ان تسود العالم.

ولكن كيف يتحقق ذلك؟.. والجواب عن هذا السؤال عند الأستاذ شاكر أن هذا الركاز الباقى بعضه قائما فى العالم الإسلامى خليق أن يدفع العرب إلى حمل أمانة القرآن بحقها مرة أخرى، وحمل أمانة لغة القرآن بحقها مرة أخرى،

والأستاذ شاكر يغمره الأمل والثقة بهذا الجيل من عباد الله المطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة [(١)] .. وهو غير قانط من خير أمتنا بل لعله أشد إيمانا بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها، وكرم

---

(١) ولذلك نبغ أبناء العرب فى إثبات جدارتهم العلمية ، عندما ذهبوا إلى الغرب ، مثل الدكاترة «الباز» فى الفضاء، «زويل» فى الفيزياء، «يعقوب» فى القلب ، وغيرهم كثير.

غرائزها، بل لعله أشد إيغالا بأنها صائرة الى السؤدد الأعظم والشرف السرى، والغلبة الظاهرة، وهذه التمنيات الحارة الصادقة المنبعثة من قلب مؤمن واثق بدينه تستحق التحية والاحترام.. ولا أتردد - والكلام للدكتور محمد حسن عواد، أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأردنية - فى مشاركة الأستاذ شاكر فى كل ما ذكره، ولكن الطريق يظل فى النهاية طريقا عاما يحتاج الى تفصيل أكثر، وبيان للخطوات العملية التي يسير فى ضوئها الشباب المسلم حتى تتحقق الغاية المرجوة.. وننال الهدف الذى نصبو اليه، وهو سيادة هذه الحضارة الإسلامية.

هذا تكثيف شديد.. لمناقشة الدكتور محمد حسن عواد، لما كتبه الأستاذ محمود شاكر بمجلة «الرسالة» المصرية واعتمد فيه على واحد وسبعين عددا منها مع أضواء من كتبه «أباطيل وأسمار» و «مقدمة الظاهرة القرآنية» و«المتنبى».. وما كتبه فى مجلة الثقافة المصرية.. ويأمل الدكتور عواد لمن يريد الوقوف على هذه القضايا وقوفا متأنيا فليرجع إليها.. ولما كنت لا أستطيع إيجاد حيز لهذا الزخم من المراجع فإنى أشير له بأن مجلة الرسالة قد جمعت حديثا فى مجلدات.

محمود شاكر والعقيدة

لا نقصد بالعقيدة هنا التعريف الشامل لها من الخلق والعمل العادى، أو تقسيماتها إلى علم الكلام، وعلم الأخلاق، وعلم التصوف وعلم الفقه.. وما إلى ذلك، بل نقصد بالعقيدة اليقين والتسليم لله تعالى ورسوله فى القرآن الكريم والسنة المشرفة عند محمود شاكر.

فاليقين والتسليم عند هذا الرجل من القوة بحيث إن الموضوع الوحيد الذى لا يتكلم أو يفتى فيه هو العقيدة. ولكننا استشففناها عنده من بعض المناسك التى أديناها معه فى بيته أو خارجه.

فصلاة الجماعة فى بيته هى أروع منسك أديته فى حياتى بهذا الخشوع والانغمار ؛ ذلك أننى قبل زيارته ورغم أننى ابنة عالم أزهرى لم أكن أقوم بها بانتظام، ربما لأن تيار الوسط الثقافى والفنى الذى كنت أحيا وسطه طوح بى عنها، فبدأت مع دخولى إلى بيته أستعيد ما كنت عليه وأنا صغيرة ناسكة بل عاكفة عن مخالطة حتى أهلى.. بل كدت أتخيل أحيانا أننى سألد المسيح المنتظر، وعندما سألته عن كلمات التحيات، التى اختلف أداؤها بين كل من سألتهم، أجابنى لأنى كنت وشيكة الدخول الى جلسته.. وترغيبى فى الصلاة.. أن فى العالم الإسلامى ثلاث عشرة طريقة للتحيات.. أما أنا فأقرأها هكذا.

سألته يوما على أى المذاهب هو.. فنظر إلىّ مليا ولم يجب كما هى عادته.. فرحت أقول لنفسى.. هو بالطبع ليس شيعيا حيث يشجبهم مع المعتزلة لاحظت أيضا أنه لا يضع يده على قلبه، كما يفعل بعض المريدين الذين يؤمهم من الشافعية، وإن كان أستاذه المرصفى، كما هم أهل بلدته «مرصفة – بنها» على الشافعية - رغم أن إحكامه الشديد لوضوئه - حتى أثناء مرضه - تعيدنى إلى قول السيدة نفيسه يوم وفاة الإمام الشافعى: «كان يحسن الوضوء، رحمه الله» وعندما نوهت أمامه أن شهادة والدى العالمية كتب فيها أنه على المذهب

الحنفى، قال بأنها كانت مذهب الحكام.. ورغم تشدده فى أداء المناسك وكثرة استشهاداته برأى أحمد ـ الذى ظننت أنه يقصد شقيقه أحمد ـ قبل أن أتبين أنه الإمام أحمد بن حنبل الإمام المعروف.. فهو ليس بحنبلي. قلت له يوما إنك تشبه مالك بن أنس فى كثير من الأوجه ، فارتاب فى كلامى.. ويهيأ لى من مجمل هذا كله مع تصرفاته أنه على مذهب أهل السنة والجماعة.

والآن فى سنة ١٩٩٦.. وأنا أكتب عنه.. يحز فى نفسى كثيرا أن يوكل غيره فى إمامتنا ويصلى منفردا جالسا على مقعد.. وأرجوه دائما أن يتغلب على مرضه ويعود فيؤمنا، لاسيما وهو يصلى فى المسجد واقفا فيصمت ، وكأنه يقول إن الامامة شىء والصلاة شىء آخر، ذلك أننى أحيانا أراه أمامى بين صف الرجال وهو يحاول الصلاة معنا فيتطوح مرة فيسنده من بجانبه ويثبت أخرى وفقا لحالته الصحية والأدوية التى يتناولها.

ومن اليقين والتسليم عنده كراهته أن يتناول أحدهم سيرة أهل بيت الرسول بغير هيبة ولا خشوع، فقد كان أيام فتوته إذا سمع ذلك ينتفض ويستقيم هادرا بصوته الحاد: «هؤلاء آباء وأمهات المسلمين، فلا تتكلموا عنهم وكأنهم ناس عاديون».. أما مع تقدمه فى السن فقد صار يكشر عن وجهه ويوليه الجهة الأخرى رفضا للحوار، أما إذا قرأت استهلال كتبه فسيهولك هذا اليقين والتسليم، فيخيل إليك

أنك تقرأ لمراهق حديث عهد بالتدين يتحسس خطوه، ويستعين بالأدعية، اقرأ مثلا مقدمته الطبعة الثانية للمتنبى: «الحمد لله حمدا يبلغنى رضاه، وإن كان جهد الحمد لايفى بشكر نعمة واحدة من نعمه، اللهم تجاوز عن تقصيرى فى حمدك ومرضاتك، اللهم إنى فقير فاغننى، وضعيف فقونى، وحائر فسددنى، ومريض فاشفنى، وجاهل فعلمنى، وعاص مذنب فتب علىّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم صل على محمد صلاة أزدلف بها إلى مغفرتك، وسلم عليه تسليما يحشرنى فى زمرة أوليائه ويدخلنى فى شفاعته يوم لا شفيع إلا بإذنك ، وصل اللهم على أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم واسماعيل، وعلى سائر المخلَصين من أنبيائك ورسلك، رب اغفر لى وارحمنى برحمتك التى وسعت كل شىء.»

وهو لايطيل التسليم فى استهلال كتبه بمعرفة أن القارىء متمهل بطبيعته، ويطيل بها إذا تكلم أمام حشد قلق لسماع الخطبة نفسها كما حدث فى الكلمة التى ألقاها عند تسلمه جائزة الملك فيصل العالمية، أو استهلاله لمحاضرته «فى الطريق الى حضارتنا».

أما المناسبة التى أكدت لى صدق يقينه واستسلامه فقد وافتنى وأنا أرافقه وأسرته فى رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة . لقد شاهدت كيف يتحول هذا المارد إلى طفل يرتجف من لقاء الله عز وجل ، بل كاد بكاؤه الطفولى يخرجنى من الانغماس فى هذا الجو

الإيماني، بل لقد خرجت منه بالفعل، عندما وزع أحدهم علينا - أو ل ما أحرمنا - أورادا نلبى بها، إذ وجدت الاستاذ محمود شاكر ما أن قرأها حتى جمعها من بين اصابعنا ثم شطب تلبية زائدة عن المتوجب.. ضحكت لأن دقة التذوق لم تغادره وسط بكائه وارتجافه.

أما ما أحزنني وأبكاني أني بعد طواف الاستقبال ، وقفت معه أتأمل طواف الملايين حول الكعبة المشرفة، فعن لى ، وكنت وشيكة استكمال معرفتى آتية إليه من وسط مخالف له ، أن أعبر عما اراه وكأنه مشهد بحكم ما تعودته فى عملى ، وقلت: آه يا أستاذ محمود لو صاحب هذا الطقس - أعنى الجو - نوع من النداء او اللحن لاشك أنه سيصل لعنان السماء، ولم أكمل ملاحظتى حتى وجدت الاستاذ محمود شاكر يلتفت إلى رافعا كفه مرتعشا ساخطا : «طقس ياكافرة.. هل هذا «طقس» الكفرة الذين أتيت منهم ؟ إنها مناسك شريفة.. إنها.. إنها..» وقد كان سلوكه المفاجيء لى كضربة كرة فى حائط.. حيث رددت عليه على الفور: هؤلاء أنتم عائلة شاكر .. ألم يصطدم أبوك مع الشيخ محمد عبده ؟!» عندئذ فقط هدأ ليقول لى إنهما ماتا صديقين..

وقد ظل طوال فترة الحج أشعث أغبر، لا يمد يده إلى شعره، ولا جبهته ينفض الغبار عنهما، وكان فى كل مناسبات المناسك يشرح لنا اسبابها، وبعد أن أتممنا السعى بين الصفا والمروة.. وعدنا إلى منى للتحلل، لم يحلق فقط بل حلق لابنه «فهر» ولم يتجاوز

السادسة، وعندما توجهنا في اليوم التاسع من ذى الحجة الى جبل عرفات، تبعنا رجل لا نعرف مذهبه، استقر معنا في خيمتنا، ولكن الأستاذ محمود شاكر أشار لنا بطرف عينه ألا نبادل هذا الغريب الحديث، ولكن سرعان ما أخرج الغريب من حقيبته صفحة جريدة سعودية وقدمها لرفيقنا الأستاذ جمعة ياسين وطلب إليه أن يقرأها.. وكانت قصيدة طويلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ان أتم جمعة ياسين قراءتها طلب منه الغريب تفسيرها .. ولما كان تحذير الأستاذ محمود شاكر مستمرا .. فقد اعتذر جمعة عن عدم المناقشة بحجة أنه لايعرف المعاني، تعجب الغريب : كيف لاتعرف المعاني وانت لم تلحن في حرف طوال قراءتك للقصيدة.. فرد عليه : هكذا أنا اعرف القراءة ولا أعرف المعاني، وتم كل هذا ونحن في عجب من رفض الأستاذ محمود شاكر محاورة هذا الرجل، وفجأة أُذن لصلاة الظهر فقمنا وقام الغريب وراء الاستاذ محمود شاكر، ولكن الغريب سرعان مافتح عينيه في الصلاة، ورأى محمود شاكر وقد ترك صدره عاريا، فما كان منه إلا أن ختم الصلاة واستل نفسه منه ثم اخذ خفه وخرج من الخيمة.. تم هذا كله وماقبله ونحن ذاهلون لا نعرف هذه اللغة الخفية المتبادلة بين علامتنا والغريب.. وبعد تمام الصلاة والدعاء شرح لنا أستاذنا محمود شاكر أن هذا الغريب الذى قال إنه مغربي وأستاذ جامعي ومجاور في الحرم، إنما هو شيعي يريد لنا لا أن نتحاور بل أن نتجادل.. وقد

أمرنا الله أن نتعوذ من شتات الأمر فى هذا اليوم الكريم.. لأن «الحج عرفة» كما قال صلى الله عليه وسلم، ولأن الجدل منهى عنه فى الحج!

ومن بعد هذه الحادثة.. راح علامتنا فى كل مناسبة من المناسك يلفت نظرنا إلى أفعال أمثال الغريب الذى صحبناه فى عرفة.. ففى المدينة وعندما دخلنا إلى مسجد الرسول أخذنا نسلم على النبى صلى الله عليه وسلم ، لفتنى الأستاذ شاكر فسمعنا جماعة يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم بقولهم :«ياحامل الأذى بين جنبيك» وشرح لى أنهم يقصدون بالأذى - واستغفر الله - ابا بكر وعمر عليهما السلام.. لأنهما حجبا الخلافة عن سيدنا على.. اما عندما كنا نطوف طواف الوداع فقد لفتنى الأستاذ الى جمع منهم وقد تماسكوا بالأذرع والأرجل ووسطهم رجل يصلى على حجرة صغيرة وقال.، إن الصلاة بمحاذاة الكعبة حرام لأنه يعوق فى سير الحجاج والمعتمرين، وهاهم يخالفون السنة، أما هذا الحجر الذى يصلى عليه الرجل الذى يتحلقونه فهو، من كربلاء التى يعتبرونها أطهر من الكعبة رغم أنها بدعة ضلال!

ترى لو أننى أديت مناسك الحج مع غير أستاذى محمود شاكر، إذن لفاتنى كثير من ذخائر ما حزته من المعرفة والمدارك لاسيما عن الشيعة، لأننا بلد لم يعرف هذه النحل منذ عودة صلاح الدين وقضائه على الفاطميين فى مصر، وعودة الأزهر إلى تدريس المذهب السنى!

وكما يعاف الأستاذ شاكر الشيعة.. فإنه لا يقدر العلماء الذين يعتمدون فى بعض كتبهم على آراء المعتزلة، كما أنه لا يقر الصوفية لأن الإسلام دين حياة وإن كان لا ينكرها على المراهقين كمرحلة.

وبالإجمال يرى الأستاذ محمود شاكر أن الدين يكون قويا أو ضعيفاً، متهالكا هامدا أو حيا، حسب ما يعتقده أتباعه وما يحسونه ويشعرون به.

شاكر والحرية والثورة والالتزام

إن الأستاذ محمود شاكر لايرفض المادة والتاريخ ، ولايقف إلى جانب خصومهما حتى فيما يعارض روح الإسلام ومبادئه وجوهر دعوته كلها.. لكنه لايقف بجانب الظالمين فى مواجهة المظلومين.. ويحكى ابن أخيه فى مقالته عن عمه فى الكتاب التكريمى السابقة الإشارة إليه: «ذهبت إليه - فى ظل تأمل ما خلق الله - منتميا إلى إحدى الجماعات الدينية، فارتضى أشياء ولم ترضه أخرى، أهمها حكاية السمع والطاعة لأحد من خلق الله، فى ظل حماسة تنقصها الرؤية والنظر وتحصيل العلم بأمور ديننا ودنيانا الذى هو أساس لكل عمل صحيح».

«وكان أن ذهبت إليه مرة اخرى - بعدها بفترة - فى صورة من الفكر السياسى مناقضة تماما لما كنت عليه، ودخلت معه فى

مجادلات لا آخر لها، فيها كلها مايخالف رأيه وعقيدته وعلمه، ولكن ذلك لم يكن يغضبه، وإنما كان توجيهه أن على أن أقرأ وأعرف أولا قبل الاندفاع في هذا التيار أو ذاك.. وبالمناسبة فالتيارات (المتطرفة) لدى الشباب عنده تصدر كلها من ينبوع واحد هو «الانفعال الشعرى» أكثر منه الدرس الصحيح، وأن امتلاك «أدوات التفكير» ـ على حد تعبيره ـ بالمعرفة، ينبغي ان يكون سابقا على تكوين الرأى او التعصب.

أما رأيه في ثورة عام ١٩٥٢ ، فكان هو من أشد المتحمسين لإنجازاتها الاولى في القضاء على حكم أسرة محمد على وطرد الاستعمار البريطاني ، وتحقيق العدل الاجتماعي ، عبر الإصلاح الزراعي، بل كان من رأيه أن هذا القانون كان شديد التساهل إزاء الطبقات المستغلة التي شكلها محمد على والإنجليز من خدمهم وأتباعهم وعملائهم وأعوانهم على قهر الشعب المصرى واستعباده.

وكان هذا الرأى من جانبه صدمة لفريق كبير من المتدينين من أصدقائه الذين كانوا يبدون حساسية مفرطة إزاء تلك الاجراءات ويحاولون أن يلصقوا بها تهمة (١) مخالفة الشرع، وانتهاك حق الملكية المقدس وأنها تفوح منها رائحة اليسارية المستهجنة لديهم،

---

(١) ألا يذكرنا ذلك بتوقيعه علي برنامج الحزب الوطني الجديد.. فتحي رضوان وتملك الدولة لمؤسسات الإنتاج.

لكنه استمر على رأيه وخطأهم طيلة فترة الصدام بينهم وبين السلطة.. حتى كانت الوقيعة الكبرى بين الفريقين وزُج بالساخطين – إخوان مسلمين وشيوعيين – فى السجون والمعتقلات ، ووصلته أنباء عما يدور فيها من وسائل التعذيب .. فكان له رأى آخر يجاهر به فى كل مجلس ولايخفى سخطه امام من كانوا يعتبرون «شخصيات مسئولة» فى الدولة، يحاصرهم باستنكاره لهذا الأسلوب فى معاملة المخالفين ، وأذكر بعض تعبيره فى الدفاع عن حرية الإنسان فى رأيه مهما يكن مخطئًا، وأنه لاشىء يسوغ للحاكم أو لغيره أن يمتهن كرامة الانسان من حيث هو إنسان.. ولم يبال بأى نصيحة ليكف عن مهاجمة ماتفعله السلطة ، وتحذيره من مغبتها، وكان ان دخل السجن لأول مرة سنة ١٩٥٣، كما دخله مرة أخرى بعدأن نشر مقالاته المعارضة لفكر د. لويس عوض، حيث أغلقت الرسالة «الجديدة» سنة ١٩٦٥.

ويقول الأستاذ عبدالرحمن شاكر إن عمه قال له بعد خروجه من السجن أن نبأ الهزيمة قد دوخه حينما بلغه فى السجن حيث رأى الاستعمار يفعل بجمال عبدالناصر وحركته، مافعله من قبل بمحمد على وحركته، احتواها من الداخل ثم دمرها لمزيد من تدمير الامة ودفع ابنائها الى اليأس من كل شىء.

لذلك فهو يتشيع جدا للرئيس أنور السادات ، فهو الزعيم الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلى نصر ، يتشيع له ثم يقول: لقد رفع

الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ.. يتشيع له مع التسليم بمساوئ الانفتاح وتعاظم الرغائب عند المصريين، ولا ينكر الدوافع الوطنية للجماعة التى قتلته إلا أنه يؤكد أن المخابرات الأمريكية «C.I.A» كانت على علم بهم وسهلت أمرهم، لقد عمل العدو بكل الحيل على قتل بطلى حرب أكتوبر «السادات» و«فيصل» فى عقرى داريهما.. فيصل فى حضن أسرته.. والسادات وسط أهله وجيشه..

وهذا.. وذاك.. يوضح أن محمود شاكر لا يقف إلى جانب الجمود والمحافظة والتقليد الكلاسيكى، الذى يصمه به أعداؤه وعلى حساب الحركة التى أمر بها الإسلام بتحصيل المصالح وتكملتها وتعطيل المفاسد وتقليلها.. ولن يتم لنا ذلك فى رأيه إلا بالاجتهاد الذى تحوطه الضمائر اليقظة والنفوس الجسورة القادرة على التجديد بما يشد أزرنا فى لحظتنا الراهنة هذه، ويقينى أن محمود شاكر هو الكاتب الذى حقق الالتزام ، سواء بمعناه العام أومعناه عند سارتر.. لقد كانت ساحة الأدب فى وقته مليئة بالأسماء الرنانة.. ولم يكن أحد منهم مثله قادرا على أن يلتزم بهذه الطريقة وبهذا التجرد عن الغاية، فى مجابهة الغزو الثقافى الغربى وصده عن حياتنا حتى ارتبطت العربية به وارتبط هو بها.

فبينما كان شابا من أسرة كريمة فى رغد من العيش، ترفع عنه مطالب الحياة وشقوتها، يستطيع أن يحيا غرا هائما سابحا فى

سماوات الفكر واللهو الصافي مع صحبة زملائه بالجامعة وبعدها يتخرج فيعين مدرسا.. أو يواصل البحث ليكون أستاذا في الجامعة، لبحثه وترقيته وقت معلوم، نراه بدلا من ذلك يزج بنفسه في معتركات مهلكة، اعتقد بتلقائية ما صادفه في حياته أن يوجبها على نفسه.

فنراه حين عزم على البحث عن خلاصه ونجاة أمته، وقد حرس نفسه من أن ينفذ إليها ضعف يحول دون تفعيل طاقاته واستثمار كل حواسه وقواه، فجمعها حتى استطاع أن يهيىء لفكره فضاء هادئا مستريحا فيه بين آلاف من كتب أجداده سنة بعد أخرى ، نسى نفسه وزهرة عمره وسعادته وثرثرته حتى صار لا يعرف عن نفسه شيئا ، وإذ عن له يوما أن يتحسس ذقنه فذهب ليحلقها.. عندئذ رأى وجهه في المرآة وقد تكلح.. فحدث ما حدث كبشر لابد أن تتسلل السأمة إلى نفسه من العمل المكرور .. ولكنه ارتد أكثر قوة وصلابة وواصل المسيرة حتى جاء منهجه في مدة السنوات العشر هذه كعمل من الأعمال الخارقة، صحيح أنه ذكر طي منهجه أو «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» - أن الجبرتي الكبير قضى عشر سنوات ١١٤٤ حتى ١١٥٤ في جمع كل العلوم التي كانت تراثا مستغلقا على أهل زمانه، وعكف عليها حتى ملك ناصية الرموز كلها، ولكن عصره ليس كعصر محمود شاكر حيث الشواغل الاجتماعية والسياسية تلهى العابد عن عبادته!

ومع ذلك الإرهاق، وبالرغم من كل هذه الكدمات نجد محمود شاكر

يصف هذه السنوات العشر بقوله: «وقد مضى الشباب وطوى بساطه، ومضت تلك الأيام الفوابر المضيئة في حياتي حتى كان عام ١٩٣٥، وأنا في السادسة والعشرين من عمري حيث استوى المنهج واستبان»

ولكن هل وضع قلمه أو سيفه بعد ذلك واستراح؟

تعرفون أن ذلك لم يحدث إلى الآن.. مما يجعلنا نصفه بالثائر والمناضل الثقافي (١) فأنت حينما تقرأ له لا تجد ألفاظا على قرطاس، وإنما تحس بدم يتدفق ويترقرق أحمر قانيا ينبثق حارا فائرا لأنه عاش طوال حياته ممتشقا سيفه المهاب، كاشفا عن صدره لملاقاة أعدائه من المستشرقين والمتغربين من أمته مجابها إياهم ، ومبطلا دعواهم فى استحسان العامية على الفصحي أو كتابتها باللاتينية، شاجبا مناهجهم الفاسدة الفاشية، بغية تمزيق آخر عقدة فى الحبال والأسلاك التى أوثق بها الاستعمار جسد الأمة، وتبديد آخر سحابة سوداء تحجب سطوع الشمس عليها.

ثم ألم يصارح الكاتب محمد عودة عندما طلب منه الرفق بلويس عوض بأن غرضه ليس لويس وإنما هو الدفاع عن أمة برمتها (٢) ، «هى أمتى العربية، وقد جعلت طريقى إلى أن أهتك الاستار التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان، ورجال آخرون

---

(١) فتحي رضوان، «الأسلوب والرجل» الكتاب التكريمي.
(٢) مقدمة كتابة «أباطيل وأسمار» ، الكتاب التكريمي.

قد ورثوهم فى زماننا .. وهمهم جميعا كان : أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا و .و ..

ويقول عن مجابهة ذلك كله : «فصار حقا عليَّ واجبا ألا أتلجلج أو أحجم أو أجمجم أو أدارى ، مادمت قد نصبت نفسى للدفاع عن أمتى ما استطعت إلى ذلك سبيلا، وصار حقا واجبا أن أستخلص تجارب خمسين سنة من عمرى ، قضيتها قلقا حائرا ، أصارع فى نفسى آثار عدو خفى شديد النكاية، لم يلفتنى عن صراعه شىء ، منذ استحكمت قوتى، واستنارت بصيرتى و ... و ...»

ولكن هل نجح المناضل محمود شاكر بكل جهده البطولى الشاق المضنى والانتحارى فى أن يوقظ هذه الأمة العربية الإسلامية من غفوتها ، وأن يجعل الإنسان يتقن عمله حتى يصير أكثر سعادة ؟

لقد نجح فى أن يبلور عبر إنتاجه الفكرى تأليفا وتحقيقا .. رسالته إلى الناس .. حيث رأب صدوعا كثيرة نخرها فى الإرث العربى أصحاب الاستشراق وأصحاب الثقافات الغربية ، وحال دون هدفهم البعيد الغور فى انهيار الكيان العظيم الذى بناه أباؤنا وأورث تلامذته - وهم كثر - على امتداد الساحة العربية والإسلامية - الشغف بالنظر فى الإرث العربى على أنه كتاب واحد ، بحيث لاينشغلون بعلم فيه عن علم ، مع تأكيده لهم على قراءة الشعر العربى ، وبخاصة الجاهلى منه لأنه أفصح كلام العرب، ولأنه مفتاح العربية كلها، كما علمهم ترك الثرثرة بالكلام الغامض والمصطلحات المبهمة التى يتشدق بها الأدباء فى مجالسهم

هذه الأيام، كما ركز فى تعليمهم أن يكون عملهم خالصا لمرضاة الله .. وأن يمضوا فى إذاعة ما تيسر لهم من الإرث العربى دون أن يطلبوا به ذكرا عند النـــاس. مع تأكيده على الدقة والحذر فى التفسير عند القراءة (١) .

ولكن ظلت الأسماء التى عملت على انحراف العربية .. وروجت للتسطيح والتلخيص - كالدكتور طه حسين - والتى دخل بسببها عشرين معركة - تطن فى الآذان من كل جهات الإعلام الأربع، وكأنه أبو الهول الثانى لمصر .. مما يجعلنا نصدق أن أصحاب الآراء الإبتداعية الخاطئة لهم حالات شهرة من الدرجة الأولى أما مكتشفو هذه الآراء ومصححوها ، فإن كلماتهم تذهب أدراج الرياح وسرعان ما يطويهم النسيان مع الزمن، وإن كان هذا لن يحدث فى مواجهة محمود شاكر - كما سنرى - بل إن ما روجوه تسطيحا وتلخيصا مازال يغطى الساحة الفكرية .. فالكسالى صاروا يرفضون التراث - بقدر أو بآخر - لأنه لايتفق وحداثتهم أو إطارهم الذهنى المحدد الآفاق بالغرب، والذى لايكلفهم الجهد المضنى ، والثقافة العربية الحقة ليست إلا الجهد الشاق المتعب ، بل لقد سمعت من أستاذ دكتور يشغل الآن . منصبا يحرك المجال الفكرى قولا أغرب من الخيال ، إذ قال بمناسبة الاهتمام بالتراث: «إذا كان إرث الأمة هو والدها .. فعلينا أن نقتله كما قتل «أوديب اليونانى أباه وتزوج من أمه» وإذا ناقشنا هذا القول العبثى

(١) من الغريب أن يذكر د. «زويل» - خبير الليزر - في العالم - أن الدقة في الابتداء هي التي كتبت له النجاح .

وكأنه قول معقول ، فسنجد أولا أن أوديب عندما قتل الملك لم يكن يعرف أنه أبوه ، ولم يكن يعرف أن قتله أبا الهول سيؤدى لزواجه من جوكستا - التى هى أمه - أو ارتقائه العرشية، ولو عرف هذا ما أراده .

كان بوسع هذه الكلمات ومثيلاتها أن تجعل اليأس يتسلل إلى نفس محمود شاكر وتحيطه فيقوم بحرق مكتبته كما فعل أبو حيان التوحيدى إلا أن هذا لم يحدث لأنه أكثر تفاؤلا . بل إنه يبتسم لمثل هذه الأقوال وغيرها لأنه يعرف أكثر منها هولا، فقد كتب سنة ١٩٤٨(١) أنه يعلم أن بعض رجال السياسة عندنا لايعرفون إلى أين تمضى أهدافهم، وهم فوق ذلك قد لوثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لايمكن أن تؤدى إلى خير ، وهم أشربوا فتنة بأخلاق الطغاة التى امتحن بهم الغرب .

وهو (٢) يعلم أن بعض رجال العلم، من أى أقسامه كانوا ، لايزالون يتعبدون أنفسهم لكثير مما لانفع فيه لأممهم ، بل يبسطون ألسنتهم بسطا شديدا ، فيصفون شعوبهم بالفقر والجهل والمرض ، ثم يصرفون وجوهم إلى أوربا وأمريكا . كأنهم منها ومن صميمها .

ويعلم أيضـا أن بعض أهل السلطان فى هذا الشـرق لايزالون يعيشون فى عزلة لايبالون قليلا ولاكثيرا بما فيه خير بلادهم.. وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذائذ ، حتى لاتبالى أن تصب على أممها ضروبا من المظالم .

بل (٣) يعلم أن أهل الدين - إلا من رحم ربك وعصم - قد رعوا

---

(١) ، (٢) ، (٣) من مقال «لمن أكتب» المنشور بمجلة الرسالة سنة ١٩٤٨.

بدينهم ظهريا ، وإن لبسوا لباسه وشبهوا على الناس وغروهم باسم الدين . وهم يأكلون باسم الدين نارا حامية .. وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

ومع كل هذا الفساد الذى عم جميع المجالات ينادى الكثيرون بالثورة الثقافية ولكننا نجد مفكرا كبيرا ، كالدكتور جمال حمدان ، ينادى فى كتابه «شخصية مصر» بأننا لانحتاج إلى ثورة فكرية ، وأخرى سياسية، وثالثة اجتماعية .. بقدر ما نحتاج إلى ثورة على أنفسنا .

أما أعمال شاكر جلها فتقول : إننا قوم لاتعوزنا الثورات والانقلابات وإنما يعوزنا الرجوع إلى أسلافنا . أعمالهم ورجالهم، وأخلاقهم ، حتى نواصل ماحققوه .

ملامح في نفس محمود شاكر

إذا كانت الأيام قد أنضجت محمود شاكر فكريا .. فدرس وألف ونقى وترك للتاريخ ثمرة حياته ورسالة عمره .. إلا أنها التهمت كل نضجه الوجدانى، وتذكرون أين كان فى العاشرة، والثالثة عشر، وفى وفى .. لذلك تراه وسط ظهرانينا طفلا مايزال فى السادسة والثمانين، أو التسعين هجريا كما يَحلو له أو حين نتمنى لعمره أن يطول المائة بكثير جدا إن شاء الله .

نعم وأقولها عن معايشة ربع قرن .. إن محمود شاكر عندما يمسك القلم غير محمود شاكر وسط مريديه وأهله وعشيرته .. ففى بداية

معرفتى به مثلا كتلميذة سابقة للدكتور محمد مندور .. كان يغايظنى مداعبا فينتقده قائلا : كان رحمه الله «يحرث فى النقد كما يفلح الريفى فى الحقل» .. فأجبته . ها أنت تحقق ماقاله عنك . فاستفهم؟ قال أنك كنت زميلة فى الجامعة، ولكنك جننت في السنة الثانية .. بل إنك أنت المجنونة . ولاشك، ومع ذلك فإن محمود شاكر عندما أمسك القلم وكتب عن مندور .. تراه قد كتب عن صديق يجله ويحترمه يذكر ماله وما عليه.

ومن هنا أقول أن مثل هذا الرجل إذا صدرت منه أى هفوة عابرة سرعان ما أعيدها إلى طفولته الأبدية ، لأنه لو كان يحتد أو ينفعل عن سوء طوية ، لأثر ذلك فى أعصابه ودمرها، وهذا لم يحدث بحمد الله ، بل انه الطفل يريد التفاحة سليمة وإلا رماها على طول ذراعه ، ومن هنا نستطيع أن نفسر اعتزاله المجتمع الذى حفظ كرامته وكرامة قلمه إلى غضبة الطفل إذا مس أحدهم متاعه الأثير، وكأنه يباهيهم بأنهم لم يحوزوا ماحازه من العلم .

تابعه هنا يودع حبيبته «التفاحة الكاملة» التى آلمه فراقها كثيرا ستجده لايبكى على أطلالها أو يروح ليدمن شيئا يلهيه عنها ، بل يرميها على طول ذراعه أو على حد تعبيره عن «الفرزدق»: كان فحلا من فحول الشعر ، كان ينفض الشعراء بلسانه نفض النداف ضريبة القطن، بعد ذلك يضعها على السفود» .. أو على الأصح يطبق على العلاقة منهجه التذوقى وكأنه نص ، يريد التبحر فيه ، وليس آدميا يجب أن يغفر له .

اقرأ هذه القصيدة وهى بعنوان «لاتعودى» : .

لاتعودى أحرق الشك وجودى .. لاتعودى
اذهبى ما شئت أنى شئت فى دنيا الخلود (١)
واتركى النار التى أوقدتها تقضم عودى
هى بدر وسلام يتلظى فى برودى !!
فاأسعدى فى شقوة الروح ولكن لاتعودى

، و ، و

أنت والأقدار !!! كم قاسيت منهن ومنك
هى تأتى بيقين خائن فى إثر شك
ثم أنت الشك فى إثر يقين لم يخنك
وأنا سائلك الحيران عنهن وعنك
فأجيبى واذهبى إن شئت لكن لاتعودى
اللظى زادى !! فهل ينفعنى زاد مميت؟
اللظى روحك ؟ أم روحى سعير مستميت؟
كلما مرت به النسمة من وجدى حييت؟
أهى تحيينى إذا مرت بنارى أم تميت!!
خبرينى ، واذهبى إن شئت لكن لاتعوى
ويستمر الأستاذ محمود شاكر على طول ستة عشر مقطعا مختلفة يجيل النظر فى علاقته بهذه الحبيبة وما أشاعه هجرها ووداعه لها من ألم.

---

(١) تشي هذه اللفظة أن الحبيبة مبدعة .. تبحث عن الخلود .. فتفارقا.

وقد يتناول التكرار فى هذه القصيدة دارس لعلم النفس فيقول: إنها تدل بلاشك على أن صاحبها من أولئك الشخصيات الحوارية .. أولئك الذين ينظمون الحياة وفق مشيئتهم ، بحيث أن أى اختلال ولو كان بسيطا لأدى هذا الاختلال التنظيمى إلى إثارة القلق ، لأنهم مرتبطون بالقواعد ، القاعدة عندهم مقدسة، يا ويل من يخرج عنها أو عليها، لأنها حماية وأمانة عندهم ضد القلق والاضطراب .

وهنا أتذكر قول الدكتور عبد الصبور من أنه عندما ترجم كتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى - وكان مهندسا كهربائيا اشتغل بالفلسفة - خاف من أن يخالف المؤلف فى رواية النصوص فكان يترجمها كما هى على مسئولية المؤلف ، وعندما ذهب يهديها إلى الأستاذ محمود شاكر - وهو صديق للمؤلف - وتصفحها وتمعن فى بعض صفحاتها ، التفت إلى وشوانى شيا على السفود - كما يقولون طيلة ثمانى ساعات من الظهر إلى ما بعد العشاء.. علمنى فيها أن على المترجم أن ينقل النص بالعربية التى تليق وليس بالعربية التى تحاكى النص الفرنسى، فهذا نمط من الحرفية يضر أكثر مما ينفع بحيث تستعبدنا النصوص التى يرويها المستشرقون ومن لف لفهم، فإذا كانوا يتكلمون عن آيات قرآنية أو أحاديث نبوية فينبغى أن نتتبع هذه النصوص فى مظانها وأن نحققها ، وأن نأتى منها بالصحيح وأما الخبيث فننفيه أو نعلق عليه .

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين فى حديث إذاعى أنه بعد هذه

الجلسة قام متوجها إلى بيته : «وحملت فى تلك الليلة صحائفى تحت إبطى كأنما أحمل خيبتى تحت ذراعى ، وأنا أبكى من مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى - تخيلى : يقول للمذيعة - وسرت فى تلك الليلة وحدى لا أدرى بالطريق من الدوامة التى لفتنى، وشوانى، وأقول شوانى شيا مازالت أشعر بآثاره حتى الآن» .

ويردف الدكتور عبد الصبور فيقول : «ثم عدت إليه بترجمة أخرى لكتاب الظاهرة القرآنية .. والتى ترجمتها طبقا لمنهج الأستاذ محمود شاكر فشرفها بأن كتب لها مقدمة ، مع أنه ضنين فى كتابته لهذه المقدمات ».. أى أن شاكر غفر له وصالحه .

وإذا كان الدكتور عبد الصبور وصف عنف كلام محمود شاكر عليه بأنه سار باكيا فى الطريق بين مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى .. فإن آخر كان نائبا لرئيس الجمهورية أرجع سبب استقالته من هذا المنصب بسبب عنف كلام محمود شاكر ، فقد حكى الأستاذ حسن الباقورى (١) : «لقد استدعانى عبد الناصر وأسمعنى تسجيلا لأحد أصدقائى المقربين والتسجيل بصوته يتحدث مع الأستاذ يحيى حقى ، الذى يبلغه أن عبد الناصر رفض الوساطة له بأن يبقى سفيرا ، فرد عليه محمود شاكر بالقولة المعروفة : يمتحن الحر بأبناء « .....» ولما كانت المخابرات قد قوى جناحها وصارت تتجسس على الأماكن التى يتردد

---

(١) كتاب «ثائر تحت العمامة» لنعم الباز، الهيئة العامة للكتاب .

عليها الوزراء ، فقد اعتبروا أن التعبير الذى استعمله محمود شاكر كان يسب عبد الناصر فى عرضه وحينما استنكر يحيى حقى هذا الأسلوب منه قال له محمود شاكر: «جبان وخائف من عبد الناصر .. والشيخ الباقورى جنبى أهو سامعنى»، وكنت أصلى وعندما فرغت كانت المكالمة قد انتهت .. فقلت له يا أخى ذلك عيب ولايصح، ولكن التسجيل قد انتهى، ثم ذهب الى بيته ومكث فيه لايغادره خمس سنوات وخمسة شهور وخمسة أيام .

وأذكر من قبل هذه الأحداث أننى كنت يوما فى طريقى للأستاذ محمود شاكر فقابلت الدكتور عبد الغفار مكاوى، فعرضت عليه أن يصحبنى .. فرد معتذرا : هل أذهب إلى من جعلنى أخاف الإمساك بالقلم لمدة سنتين ؟ ولذلك ما يبرره فقد كتب الدكتور عبد الغفار مكاوى لمجلة «المجلة» عن الشاعر الألمانى جوتة – كما ألمحنا – : أما الخطأ الذى وقع فيه الدكتور عبد الغفار عندما ذكر قصيدة الشاعر العربى «تأبط شرا» التى تأثر بها جوتة ، فقد ترجمها عن الألمانية ولم يرجع الى النص الأصلى العربى للقصيدة مع هفوات فى الترجمة : ورغم اعتذار الأستاذ يحيى حقى – الذى كان رئيس تحرير مجلة المجلة وقتئذ – إلا أن الأستاذ محمود شاكر كتب أربع مقالات شديدة اللهجة أحزنت الدكتور عبد الغفار حتى أنه فكر فى اعتزال الكتابة .

وعندما وصلت إلى بيت الأستاذ محمود شاكر حدثته عمن قابلته فقال لى :

إنه – أى الدكتور عبد الغفار – رجل طيب .. ألا يعرف المثل القائل: دوانى بالتى كانت هى الداء» وقد نقلت هذا إلى الدكتور عبد الغفار فوافق على ذلك .

وعندما سألته : لم لم تأت معى يوم الجمعة الذى قابلتك فيه ؟ «قال: الحق أن أصدقاء لى ألمان كانوا يزورون مصر ، فأردت أن أطلعهم على المتحف الإسلامى، ولكنه كان مغلقا فقد كان يوم جمعة» .. ولما أفضيت إلى الأستاذ محمود شاكر بما حدث . فقال : «إن هذا يثبت مأخذى على هفواته .. فهو رجل نَسَّاء بجانب طيبته .. وهذا غفران آخر» .

يومها همسته لأقرب زميل لى فى الجلسة وكان الشاعر حسانى حسن عبد الله : وهل يتسع صدر محمود شاكر ويتسامح ليشمل أحد الرجال كالأستاذ عبد الله القصيمى الذى كتب عن العرب كتابا ضخما مضمونه وعنوانه «العرب ظاهرة صوتية» ؟ فقد هيىء أن المقابلة ستنتج عنها نافورة من الشرر تسقط شظايا علينا جميعا فنهانى حسانى عن محاولة تحقيق مثل هذا اللقاء ، والذى لن يتم ، وكانت حدة رد حسانى ملفتة لنظر الأستاذ محمود شاكر فسأل حسانى عما كنت أهمس به إليه، فأفصح بوجل عما كنت أعتزمه ، ومن العجب أن الأستاذ التفت إلىّ قائلا : «ولماذا لا تصحبيه معك يوما ، إنه رجل فاضل كتب أعظم كتاب عن الشيعة» قلت لنفسى : يبدو أن الأستاذ محمود شاكر – ويا للعجب – لم يطلع على التطورات التى حدثت فى أفكار الأستاذ القصيمى والتى أفضت به إلى أن يصدر كتابات متطرفة مخالفة لما ورد

فى كتابه عن الشيعة .. حتى أن المجلات التى تنشر مقالاته تمنع من الدخول الى البلاد العربية .. وفكرت أن أصطحب الأستاذ القصيمى يوما إلى منزل شاكر فأحظى بلقاء تاريخى مشهود بينهما .

ولأن جلسة الأستاذ القصيمى – وهو جارى فى السكن – تكون يوم الجمعة ، فقد انتهزت فرصة وجود الأستاذ محمود شاكر فى المغرب لقضاء فترة النقاهة بعد إجراء عملية جراحية لعينه فى أسبانيا . عند الطبيب المشهور «باركيره» بعد أن أرهقت عيناه من طول القراءة والتحصيل، ثم من المغرب الى أسبانيا لاستكمال العلاج .

اتصلت بالأستاذ القصيمى لأعلمه بأنى سوف أزوره يوم الجمعة الآتى ، وبالفعل ذهبت إليه ، فبادرنى : ما هو سبب حضورك بعد طول انقطاع من سنة ١٩٦٩/١٩٨٢ وقبل أن أجيبه ، فاجأنى قائلا: إياك إياك أن يكون حضورك لتحقيق غرضك فى ارتطامى بالأستاذ محمود شاكر .. دهشت لذلك واحترت فى كيفية معرفته لذلك ، ثم تذكرت أننى كتبت عن هذه الأمنية فى مقال ، ثم أردف الأستاذ القصيمى : لقد أتى أصحابى بمقالك المنشور بمجلة الدوحة القطرية .. وقد حذرنى عالم سعودى جليل هو صديقى وصديق الأستاذ محمود شاكر قائلا : احذر أن تقودك عايدة لهذا الصدام الذى لن تتحملاه ، معا على أرض واحدة يعد ضربا من المستحيل وإن المكان الوحيد لوجودكما كما معا هو اللقاء على الورق .

عند ذلك ابتسمت لأن مقالى وجد أذنا مصغية ، وكففت عن أى طلب

وأخذت أتحاور مع جلساء ندوته فوجدت لحوارهم طعما مختلفا عما كان من قبل ، فلقد كنت أشعر بذوبان هشاشة حلاوة «غزل البنات» في فمي وابتسم عندما كان يشتطوا في الحديث عن المقدسات .. أما في جلستي هذه فكنت أشعر بالغضب والضيق فأعارض وأدافع بحدة عن المقدسات مما دعا أحد الجلساء – وهو من اليمن الجنوبي – أن يقول : الظاهر أن الكويت ثبتت إيمانك – وكنت وقتها عائدة من الكويت حيث كنت أعمل – لكن الأستاذ القصيمي قال: بل إن أستاذها محمود شاكر وراء ذلك .

وعندما نقلت مادار في الزيارة إلى الأستاذ محمود شاكر بعد عودته من العلاج ، نهاني عما كنت أحاول تنفيذه ، لأنه تأكد من تحول الأستاذ القصيمي نهائيا عن كتاباته القديمة، فكان الرفض من الجانبين.

واذا كنت لم أحقق هذا المطلب لنفسي.. فقد حققت مطلبا آخر أكثر منه صعوبة .. فقد كنت قد عاهدت نفسي أن أزور الشاعر عبد الرحمن صدقي بعد انفضاض من كانوا حول كرسيه – كل يوم أحد بمصر الجديدة – فقد حدثت حوائل عن أن أزوره فترة، وعندما زرته يوم جمعة وأنا في طريقي للأستاذ محمود شاكر استقبلني متهللا وهو يقول: «والله لقد أنقذت حياتي من الموت يا عايده.. لقد خلت أنك أيضا قد قاطعتني».. قالها وشاب صوته نبرة حزن عميق تنبئ بتحرقة في وحدته، فتأسفت وعرضت أن أخرجه من هذه الوحدة بأن يصحبني إلى الأستاذ محمود شاكر، فتردد فترة قبل أن يقول لي: ليس قبل أن تعلميه بذلك، أو

تبقى معى، لم أعرف سبب ذلك، فاتصلت بالأستاذ محمود شاكر أعلمه بأنى سأقضى اليوم مع صدقى وزوجته، ولكن محمود شاكر رد بعفويته وطفولته: «ولماذا لا يتفضل هو بزيارتى» .. وكان .. وكانت جلسة شيقة للطرفين.

ولما هبط المصعد بالأستاذ صدقى مغادرا منزل شاكر .. التفت أنا إلى الأستاذ محمود شاكر قائلة: إن الأستاذ صدقى كان متخوفا من زيارتك، فقال: أعرف ذلك ومتأكد منه.. فسألته: لماذا؟ قال: إن لهذا تاريخا، فعندما عملت كمدير لتحرير مجلة المختار «ريدرزدايجست» كان على أن أكثف أطول ترجمة مقال إلى صفحة أو صفحتين على الأكثر، وعندما فعلت ذلك بترجمة الأستاذ صدقى ثار وأربد وسأل عمن فعل ذلك.. وحين عرف شتمنى.. وهو متأكد أن هذا كله قد وصلنى.

أما عندما اصطحبنا - صدقى وأنا - صديقه الكاتب المترجم الكبير على أدهم، وكان لدى الأستاذ محمود شاكر صديقه التليد يحيى حقى - أو جاء بعدنا لا أتذكر- فحدث أن تكلمنا فى موضوعات شتى طالت أربعة أقران ثقافتهم واهتماماتهم المتباينة، وفجأة توقف الحديث عند جمال الدين الأفغانى، فقد كان لويس عوض ينشر هجوما عنه بالأهرام ، وجدتهم كلهم يتعجبون من غموض هذه الشخصية، قال يحيى حقى - على ما أذكر - أن هذا الرجل نزل إلى بلاد شتى..

فرنسا ، تركيا، روسيا، إنجلترا، ومصر.. وفى كل مرة كان سكنه هو «الجيتو» أو حارة اليهود و«الخرنفش» فى مصر،» ثم استدرك صدقى قائلا: بل إن مذكرات ابن أخيه - أو أخته - عنه ذكر أن هناك شهرين فى السنة كان يغيب فيهما الأفغانى عن خريطة الوجود المعروف لدى عارفيه، ويعده نوه الأستاذ على أدهم إلى ماسونيته، وأنه كان - ربما - عميلا صهيونيا ثم دلل على ذلك بأن السلطان عبد الحميد لم يضع له السم فى علاج أسنانه إلا بعد أن عرف بصلته «بهرتزل» و.و... وأخيرا قال شاكر : لماذا تحتارون وتتلمسون .. سأريحكم وأذكر لكم أن الأفغانى والشيخ محمد عبده أغريا والدى بالانتساب إلى الماسونية ورفض وقاطعهما فى الوقت الذى يرى البعض أن الأفغانى ومحمد عبده استهوتهما الماسونية فى البداية من زاوية مظاهرها الأخلاقية والتطوعية لفعل الخير، وعندما اكتشفا مراميها البعيدة والخبيثة انفضا عنها!

قلت - مشاكسة - الأستاذ محمود شاكر : أخيرا تلاقت آراؤك مع آراء لويس عوض .. فقال: لا لم تتلاق، فأنا أذكر ماسونية الأفغانى للحقيقة.. وهو يذكر الأفغانى بسوء ولحساب الجنرال يعقوب، وقد يستمهلنى أحدهم ويسأل: ها أنت تذكرين من وقعوا ومن نجوا من مراجعات شاكر ولا تذكرين ما حدث معك.. رغم أنك أفصحت أنك هدمت جدار الغربة سريعا بينك وبينه .. بل أنك كنت تشاكسين أيضا.

وأقول: لقد تحملت كثيرا لدرجة أننى فكرت أكثر من مرة أن أتوقف عن زيارتى له وان أكتفى بقراءة ما يكتبه كما كنت أفعل قبل تعرفى به، وعندما كنت أحاول ذلك، كان دائما يسترضينى فأعود مرة أخرى.

وكان وقع كلامى عليه يختلف تبعا للحاضرين الذين يتصادف وجودهم فى لحظات المشاكسة، فإن كانوا ممن يرتاح لهم ويحبهم فإنه يكون متسامحا جدا معى إذا كانت مشاكستى له من قبيل الاقتصاص الضاحك لهم وكانوا ممن راجعهم يوما، أما إن كان بين الحضور من لا يرتاح لهم .. كما حدث يوم أن شاكست قولة الأستاذ «يحيى حقى» بأنه تعلم من الأستاذ محمود شاكر سليقة اللغة العربية و.. و.. حيث زل لسانى بأن الأستاذ شاكر لا يعرف كثيرا من معارف يحيى ، يومها كتم غيظه إلى أن ترك هؤلاء المجلس فالتفت إلىّ ليعاتبنى مرة ثم يقلب الأمر على وجه آخر فيعاتبنى مرة ثانية، وثالثة ورابعة حين أستقل العربة وهو يوصلنى مع أسرته، وأخرى عندما أودعه لأدخل بيتى، ثم يتصل بى فى اليوم التالى ليقول إن يحيى علمنى الكثير ولكنى نسيته، أى أنه صالحنى.

بعد هذا لم يعد فى استطاعتى البعد عنه وعن مجالسه، لأن تكرار مغاضبته وتكرار إرضائه لى، قد أبانا عن جوهره الثمين، ولم يكن تعنيفه لى بهدف إغضابى ولكنه يتمثل فى عبارة كتبها يوما: أن

من يخـوفك حـتى تلقى الأمــن أشـفق عليك ممن يؤمنك حـتى تلقى الخوف!

إن غـضبه الثـائر لم يكن إلا قشـرة خفيفة تخفى تحـتها روحا متسامحة وطيبة عميقة لاحد لها، وأتمنى من كل قلبى أن أعرف كل من نقدهم بطبعه الحقيقى، وهو الغفران الذى لا نهاية له، والذى يود به أن يصالح كل من نقدهم ويطيب خاطرهم ويمسح أثر كلامه باحتضانهم.. ومـا أقول ذلك تبـريرا لعدم القـدرة على مقـاطعته بل أقـوله عن تجـربة عايشتها.

ذلك أنه فى يوم من أيام عيد ميلاده «عاشوراء» حيث يجتمع حوله تلاميذه ومريدوه وأصدقاؤه وعائلته.. هذا يلقى كلمة وهذا ينشد قصيدة، جاء على لسـان أحد الحاضرين الحديث عن التلاميذ الذين قاطعوا صاحب الحفل.. فما كان من الأستاذ محمود شاكر إلا أن بكى بحرقة، لأنهم لم يفهموا طيبة قلبه عندما كان يغلف إرشاداته لهم بالعنف.

وربما تذكر الأستاذ محمود شاكر فى هذه اللحظة، مقاطعة تلميذه الأثير ناصر الدين الأسد يوم أثبت مغاضبته لأستاذه فى كلمته للكتاب التكريمى[1] حيث قال: «والمسارعة إلى الارتياب فى الناس، والحدة فى الطبع، وعنف القول شأنان عرفناهما فى هذا العالم الجليل، فقد كانت

---

(١) كتابات «دراسات عربية وإسلامية، مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر «محمود محمد شاكر» بمناسبة بلوغه السبعين، مطبعة المدنى القاهرة ١٤٠٣هـ /١٩٨٢م.

تشن علينا من حيث لم نكن نحتسب، وما أكثر ما كنا نطلب رضاه فى أمر فإذا هذا الأمر يصبح ذاته مبعث سخطه حتى إذا ما سخط هاج عظيما لا يترك أحدا ينجو منه حتى أقرب الناس إليه وأعزهم لديه، فيحطم كل وشيجة، ويدمر كل صلة».

ورغم أن الدكتور ناصر وضح أنه «إنما ذكرت ما ذكرت وأطنبت فيه لأفسر جوانب من صفات هذا العالم الجليل والتى كانت سببا فى أنه لم يغن المكتبة العربية بما كان يتوقع ممن كان فى مثل علمه، وسببا فى توقفه عن إكمال ما بدأه من كتب وبحوث: فكثيرا ما كان يركبه حران يمسكه عن المضى فيما كان شرع فيه فيتخلف، وقد كان السابق، ويسيطر عليه ما يجعله يبطئ به عن الشروع فيما كان حقه الشروع فيه، وكان يستبد به هاجس ارتياب فى الناس وعلاقتهم به .. يتدرج به من مرحلة إلى مرحلة حتى يفضى به إلى رفض كل ما يقترحونه ويعرضون عليه أو يشيرون به من قيامه بعمل علمى أو نشرهم له، إلى أن أصبح فى السنوات الأخيرة يستقل وحده بالأعمال كلها، فهو المؤلف أو المحقق، وهو الطابع بمطابع خاصة، وليست بدور نشر، وهو الموزع لما يطبع مستعينا بأصدقائه وتلاميذه فى بعض الأقطار العربية».

حزن محمود شاكر من هذه الكلمات التى قفزت من تحت سن قلم تلميذه الأثير ورفعها من النشر فى الكتاب التكريمى، ضاربا بكل ما جاء بها من حسنات مثل قولة الدكتور ناصر: وعلى ذلك فإن ما أصدره

هذا العالم الجليل من نفيس النتاج، شرحا وتحقيقا وتأليفا، ليعد ذخيرة عظيمة حقا من حيث عددها ومن حيث قيمتها على مدى خمسين عاما متواصلة منذ نشر عام ١٩٣٠ فصلا من كتاب «الأم» للشافعى فى جريدة البلاغ و.. و...

وربما نجد ما يساند هذا الكلام عن الحدة فى محمود شاكر فى كلام صديقه فتحى رضوان وصفيه الدكتور محمود الطناحى.. وإن كان قد بررها كل من وجهة نظره.

فالأستاذ فتحي رضوان عرف الخطوط الرئيسية في شخص محمود شاكر بأنه: «أولا صعيدى.. ثم مصرى ، ثم عربى، ثم مسلم، وعلى ذلك تكون «خاصية الغضب النفسية والخلقية التى تبرز من بين خصائصه وصفاته الأخرى، هى رد فعل صادق ومباشر لهذه الانتماءات، فهو يتقلب على مثل الجمر، لما يراه من مظاهر الضعف والانحلال، والهزيمة والاستسلام، الجهل والادعاء فى الأركان التى تقوم عليها حياة أهله وقومه، وأخذ الأمور كلها - ما دامت تهمه وتحرك وجدانه - بالشدة والصراحة والصرامة، إلى حد الإيلام أحيانا . ولكنك لا تخطئ فى جميع الظروف طيبته وبساطته وربما سذاجته».. وأقول أنا: «وطفولته».

أما صديقه الدكتور محمود الطناحى[1] فقال: «ودعوى حدة

---

(١) كتاب الدكتور محمود الطناحى «مدخل إلى نشر التراث» وقد ألمحنا إليه من قبل.

الأستاذ ويأسه وتعاليه من الكذب الخبيث. ولقد عرفت هذا الإمام الكبير وخالطته فى غضبه ورضاه سبعة عشر عاما - ظهر الكتاب ١٩٨٤- كنت خلالها قريبا منه جدا، وأشهد أننى ما رأيت مثله، فى صفاء نفس، ونقاء قلب.. تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأوّراقها عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم و.. و.. وأعود إلى تلك الحدة الكاذبة المزعومة، فأقول نعم.. إن فى شيخنا حدة، ولكنها تظهر منه إذا انتهك حد من حدود العلم، فهى الحدة التى جاءت فى الحديث الشريف، «الحدة تعترى خيار أمتى» وقال مجد الدين بن الأثير: الحدة كالنشاط والسرعة فى الأمور والمضاء فيها، مأخوذة من حد السيف والمراد بالحدة هنا المضاء فى الدين والصلابة والقصد فى الخير ومنه الحديث «خيار أمتى أحداؤها» وهو جمع حديد «شديد وأشداء» و.. و.. ومهما يكن من أمر فقد حارب الأستاذ محمود شاكر، فى جبهات كثيرة، كما رأيت وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها .. وكان ما كان من إقصائه من محافل الأدب وعضوية المجامع، ومؤتمرات الفكر، وبريق الجوائز، فلم يزده ذلك إلا إصرارا وثباتا، ووقف وحده فى ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرقب الزيف، ويرصده، ويدل عليه، ولم يجد خصومه وأعداؤه فى آخر الشوط إلا أن ينفروا الشباب عنه، ويبغضوه إليهم ، بما أشاعوا عنه من

حدته وبأسه وتعاليه، فنكص من نكص مسيئا فى نكوصه وثبت من ثبت محسنا فى ثباته.

على أنه رغم بلوغه الرجولة الكاملة - أى التعادل الذى ينسيه كل الأفكار المؤلمة - ورغم تقدمه فى تجربة الحياة.. وخبراته وإنتاجه الذى عم وطف.. ورغم أنه صالح الدكتور طه حسين كما أورد فى كتبه بل إن الدكتور طه هو الذى رشحه لعضوية المجمع... وكأن المرارة التى تخلفت فى نفسه من هذه التجربة كانت من القوة بحيث لم تفلح كل نجاحاته فى محوها من نفسه.. محققا بذلك ما قاله الأستاذ النجمى أن غضبته مع طه حسين.. تفسر ما كتبه أو قاله أو عمله طوال حياته الأدبية المريرة الوارفة الظلال، فهو حين أدرك أن ميول ابنه فى الالتحاق بكلية الآداب قسم اللغة العربية - التى كان طالبا فيها من قبل - علمية كأبيه فى سنه . لكن انزعج لذلك.. فرضخ الابن إلى رغبة أبيه، بل إن الأستاذ محمود شاكر أخذ يشجعه على التفوق حتى كان الطالب الوحيد بقسم الامتياز.. وأعفاه هذا من المرور بمرحلة الدبلوم التمهيدى للماجستير.. فكان وقتها أصغر المعيدين سنا بهذا القسم.. وكأن محمود شاكر يقول للدكتور طه .. ها هو بضعة منى يفوق كل دفعته فى التخرج.

ويوم أن هيأ القسم الأول «سيمنار» أو محاضرة يلقيها فهر على الأساتذة والمعيدين، عن «الأسطورة فى الشعر الجاهلى» صالح محمود شاكر» جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - بعد أكثر من ستين عاما

سنة ١٩٨٩، يومها خرج بعد أن استمع إلى فهر منتشيا فخورا ودودا.. فقد أدرك أن غرسه الإنسانى والثقافى قد أينع فها هو ابنه فهر يخطو أولى درجات البحث الأدبى الشاق بقدمين ثابتتين.

فى هذه اللحظات كان الأساتذة - بعد أن فرغوا من الإبن - قد تحلقوا حول الأب سائلين إياه عن شعوره وهو داخل الجامعة مرة أخرى بعد فراق زاد على ستين عاما، منذ ١٩٢٨ «اثر احتدام الخلاف بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين».

وربما لأن هذه الذكريات.. وتلك الواقعة على وجه التحديد كانت توجع مشاعره.. فقد أخذ يسوف فى الإجابة - على عادته - عندما لا تكون محببة إلى نفسه أو لا تنسجم مع حالته النفسية، أو لأنه يعف عن خوض مسأله خاضها من قبل مرارا وتكرارا، فهو تارة يتطلع إلى أبهاء الجامعة ثم يقطع انتظار الإجابة عن السؤال الذى يحاصره، بقوله: «لم يكن عالمى بالأمس على ما هو عليه عالمكم اليوم».. ينظر إلى أبهاء جامعة القاهرة - الآن - من حوله ثم يواصل حديثه عن عالمه هو: «كانت كلية الآداب التى درست فيها هى قصر الزعفران التى تحولت من بعد إلى مقر إدارة جامعة عين شمس، وكان الملك فؤاد الأول قد أخلى هذا القصر ضمن عديد من قصور أسرة محمد على لاستيعاب كليات الجامعة التى حملت اسمه».

ويحاول أحد الأساتذة أن يستنهض ذكريات الأستاذ شاكر حول الجامعة، وأنها كانت قد تبرعت بها الأميرة فاطمة إحدى أميرات الأسرة

المالكة، لكنه لا يستجيب لنداء الذكريات بل يذكره اسم فاطمة بابنته زلفى، فيبحث عنها بعينيه وسط الحاضرين حتى يجدها، فيقدمها إلى الجميع: «هذه ابنتى زلفى التى ستنتهى دراستها بكلية التجارة».

سأله أستاذ آخر فى دهشة: «كنا نظنك لفهر فحسب، لأنك توقع على معظم كتبك بأبى فهر وكأنه وحيدك».

هكذا حاول الأساتذة أن يستحثوا ذكرياته وهو يدخل الجامعة لأول مرة فى أعقاب خلافه مع الدكتور طه حسين.. وحين أدرك أخيرا أنه محاصر ولا سبيل للمراوغة عندئذ قال: «بادئ ذى بدء أود التأكيد على أن خلافى مع الدكتور طه حسين شئ.. ودخول فهر كلية الآداب شئ آخر فقد قلت لفهر الذى يعلم عن هذه الحادثة. ويقرأ عنها كثيرا: إنك ما دمت قد ارتضيت الجلوس إلى مقاعد الدرس فلابد أن تحترم أساتذتك وتجلهم، وتستمع إليهم وتناقشهم بالحسنى.. وللعلم فإنى رغم خلافى الشديد مع طه حسين لم أشعل يوما سيجارة فى حضرته.. ولا وضعت ساقا فوق ساق وأنا جالس أكلمه فى أى موضوع بعد ذلك».

وعندما سأله الدكتور «عبد المنعم تليمة: » هل تنصح «فهر» ألا يأخذ عنى شيئا لاختلافنا البين فى الاتجاهات السياسية والفكرية، عندئذ تأبطه الأستاذ شاكر فى حنو قائلا: أبدا، أبدا يا تليمه.. وتعال أعرفك بابن أخى عبد الرحمن شاكر.. رغم أنه على مذهبك.

تهلل الدكتور عبد المحسن بدر موافقا: أنا متأكد أننى على الرغم

من اختلافى فكريا مع الأستاذ شاكر إلا أنه عندما سيكتب عنى فلن يذكرنى إلا بالخير، فرد علامتنا: «لأنك دائما صادق مع ما وصلت إليه».. ثم شكا الدكتور عبد المحسن للأستاذ شاكر الطلبة وتقاعسهم عن التحصيل كلما حل وقت تخرجهم.. وذلك لأنهم يعرفون ما ينتظرهم من مشاكل فى التعيين .. ثم قلة العائد الذى لا يمكنهم من تحقيق آمالهم وطموحاتهم حيث لا يتمكنون من مواجهة غلاء المعيشة، ثم حيرة المعيدين بين السفر الذى يخلى بينهم وبين إتمام رسائلهم.. وعدم الإستقرار الذى يؤجل محاولتهم لتكوين أسرة .. ثم يخبره كيف أنه يسقط فى يده وهو ينصحهم .. فهو يجد نفسه غير قادر على استبقائهم لمعرفته أن البحث عن لقمة العيش أصبح أكثر إلحاحا من التفرغ للعلم.

أجاب شاكر: «إن كلامك عن حيرة المعيدين، بين السفر والبقاء كشفت وأجابت على مشكلة تؤرقنى بالفعل، عندما أسمع آسفا عن أساتذة بالجامعة يعطون لتلامذتهم دروسا خصوصية، أو يبيعون كتبهم ويغيرونها كل عام حتى يباع أكبر قدر منها – وأعتبره عيبا فادحا، رغم ظروف الضنك التى نمر بها.. لأن المدرس لابد أن يتبتل فى العلم وأن من يعطى الدرس أو يبيع الكتاب فهو يحط من منزلته وكأنه يبيع نفسه لطلبته فلن يحترموه أبدا..

بعد هذه المحاورات والمداعبات.. ودع الأساتذة محمود شاكر، الذى سار نحو عربة فهر ، وكأنه يمتطى السحاب مقرور النفس والروح.. حتى تمنيت فى هذه اللحظات أن تشرف جامعة القاهرة بإهداء الأستاذ

محمود شاكر الدكتوراه الفخرية كما كتب الأستاذ سامح كريم، يوم شاعت فكرة إهداء محمود شاكر الدكتوراه الفخرية بعد حصول الأستاذ يحيى حقى عليها من جامعة «المنيا».. لأن جامعة القاهرة وليست المنيا هى وحدها القادرة على مصالحة محمود شاكر على نفسه.. ففى قاعاتها ضاق صدره بالجامعة كلها ومل على أثرها المقام فى وطنه لكنه كان فى قمة الرضا والسعادة عندما حصل ابنه فهر علي درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة.

هذا هو محمود شاكر كما عرفته.. ولو كان قد أدلى إلىَّ ببعض دخائل نفسه وأسراره لكان عملي أكثر نضارة.. وأقصر سردا.. وأحسب فى النهاية أن كتابا واحدا لا يستطيع أن يغطى هذه الشخصية الثرية من أطرافها حتى لأقول مع الأستاذ حمد القيسى : «فليس أبو فهر ممن يقدر عمره بالأعوام حين تزول وأن عمره مالا يزول إن زالت، وليس أبو فهر ممن تقوم حياته بأوراق التقويم حين تبلى، وإن فى حياته مالا يبلى أن يلبث، وإنما تحسب بما فيها من معانى العلم والحكمة ونواحى الفضل والهمة.. وهى صفات لا يستوى فيها من يستوون بالأعوام والسنين».

ربما لاحظتم أننا فى الكتابة عن محمود شاكر لم نلجأ إلى أسطورة تروى عن حياته، ذلك أن تصرفاته وسلوكه ومناعة النفس أسطورة بحد ذاتها .

وهل يجوز لى بعد ذلك القول أن الأستاذ محمود لا يغير عادته ، فهو يستيقظ مبكرا، يتناول الإفطار وهو يقرأ الجرائد، ويخرج لصلاة الجمعة، ويذهب يوم الإثنين إلى المجمع، ولا يخرج بعدهما إلا للضرورة القصوى كالتهنئة والتعزية وعندما ألم به ألم الظهر نصحه أطباؤه بالسير الطويل.. ففعل ولكن بعد ذلك استبدله بالدراجة الطبية. وهو يتناول طعام الغداء فى الثانية والنصف.. ولا ينام بعد الظهر إلا إذا كان متعبا.. وهو يتابع بشغف مباريات كرة القدم عندما تذاع عبر شاشة التليفزيون، ويهلل إذا أعجبه اللعب، ويتحسر عندما يكون سيئا يتذكر لعب زمان، كما يتابع أيضا المسلسلات العربية والأجنبية إن أعجبته.. وينادى أم فهر كى لايفوتها مشهد، وهذا كله لايثير الابتسام لدى عارفيه والتعجب لدى غير عارفيه الذين يتصورون أنه رجل جهم نذر كل حياته للدرس، ولو شاهدته وهو يتابع برنامج «عالم الحيوان» بعد عودته من صلاة الجمعة لأدهشك حب هذا الرجل للكائنات - مثلى - وهو من لفت انتباهى إلى هذا البرنامج الرائع.

والأستاذ محمود لايسهر بعد الثانية عشرة، حتى فى أيام شهر رمضان ولكنه سهر إلى مابعد الواحدة - فى أخريات حياته - عندما شاهد مسرحية «الزعيم» لعادل إمام.. وهو كان من المغرمين جدا بهذا الفنان ومعظم أعماله التى يذيعها التليفزيون!

وهو قوة نفس وقوة بدن، ولاشك أن حفظه للقرآن الكريم وعلومه قد

حفظه في حياته.. فهو الآن فى الخامسة والثمانين من عمره المديد.. يصلى بنا قائما راكعا مطيلا.. وهو فى تناوله - حتى - للأدوية مقبل نشيط متذكر لمواعيدها، وقد لاحظتم كيف هى صراحته وصرامته وحدته.. فهو لايحب الرياء ولا الاغتياب مع الحضور القوى والبشاشة عند الاستقبال.

ومن أبرز خصاله أيضا عدم حرصه على المال، وليس الاشتغال به من شهوات نفسه وهموم فكره، فقد رأينا أنه لم يكن يتقاضى مردودا لمقالاته. بل إن دار الهلال طبعت «الطريق إلى ثقافتنا» ثلاث مرات، ورفض أجرها، لأنها كانت مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «المتنبى»، وعندما صار له منزل صغير رفض أخذ مقدم إيجار أو خلو رجل.. بل أن يتسلم إيجارا أقل من العقد، بل لايطلبه إذا لم يكن الساكن قد استقر به.. أو أن أمواله ضاعت فى خلاف سياسى مع الدولة، ولأن صمته عن المناقشة فى المجمع اللغوى «كما قال لى عضوه المحامى الشهير المغفور له أحمد مرعى»، بعد أن ضم المجمع من لايعرف العربية. صار يصف بعض الكلمات بالصعوبة التى يجب تذليلها، مع أنها كلمات وردت فى القرآن الكريم الذى يتردد على العامة صباح مساء ويفهمونها، فإن محمود شاكر لم يصرف الشيكات التى تصله من المجمع، وعندما شاهدها تلاميذته نصحوه بصرفها لأن للشيك تاريخ صرف.

وإذا ظن أحدهم أن محمود شاكر قد أثرى من مردود جائزة الملك فيصل العالمية.. فليعلم أنها لم تدخل فى ذمته المالية.. كل الذى حدث

بعدما أن صديقه محمود المدنى.. صاحب دار المدنى للطباعة كان يشكو له.. من قدم المطبعة. وأن إصلاحها يستحوذ بالكامل على كل مردودها.. فما كان منه إلا أن أعطاه قيمة الجائزة ليجدد بها مطبعته.. وحتى يحقق لنفسه هو- محمود شاكر - أن يطبع وفق مايختاره من كتب على هواه.

وهذه الزاوية في شخصية محمود شاكر هي التي ألمحت إلى أنه يشترك فيها مع الأستاذ نجيب محفوظ.. حيث يرضى بأقل أجر.. وكلاهما لايحب الفخفخة ولا المباهاة، وإن كان نجيب محفوظ يمتثل لأجهزة الإعلام لتفتيشه.

هل نال محمود شاكر حظه من التكريم ؟

ونأتى إلى ختام الكتاب فنتساءل .. هل كرمت الأمة العربية والإسلامية محمود محمد شاكر كما ينبغى له التكريم «؟» .

– بداية نجيب بنعم ، وربما استشهدت أيضا بما جاء فى مقال محمود شاكر منجم الأصالة العربية «الذى نشرته مجلة الهلال القاهرية» بعددها التذكارى «عمالقة وأحداث ١٩٨٩» .

واستهلته بـ : «شهدت حقبة الثمانينات من هذا القرن اعترافا متتابع الخطوط بمكانة «الأديب العربى الكبير محمود محمد شاكر» .

– انتخب عضوا مراسلا فى مجمع اللغة بدمشق عام ١٩٨٠ .

– حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر عام ١٩٨٢م ثم جائزة الجدارة أيضا عن كل جهوده فى نفس العام .

– أخيرا عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية فى مصر ١٩٨٣ تتويجا لحياة طويلة أمضاها فى البحث والدراسة والتنقيب .

– حاز على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى عام ١٩٨٤ عن كتاب «المتنبى» وفى عام ١٩٨٩ منح وسام العلوم والفنون من الطبقة

الأولى عن أعماله التى خدمت القرآن الكريم والسنة الشريفة سلمه له الرئيس حسنى مبارك فى احتفال وزارة الأوقاف بمناسبة المولد النبوى الشريف . وقد أهداه تلامذته على ساحة الأمة العربية والإسلامية ، كتاب «دراسات عربية وإسلامية» بمناسبة عيد ميلاده السبعين حيث قدم له الدكتور رشاد سالم من «مصر» ثم أهديت له الأبحاث مع الكلمات عن شخصه الكريم .. عن الدكتور إحسان عباس «فلسطين» الدكتور إحسان النص من «سوريا» ، القاضى إسماعيل بن على الأكوع «اليمن»، الدكتور حمد عبيد الكبيسى «العراق» ، الدكتور عبدالسلام الهراس من «المغرب» ، الدكتور عبدالله الطيب من «السودان» ، الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان من «السعودية» ، الدكتور محمد حسن عواد من «الأردن» ، الدكتور محمد يوسف نجم من «فلسطين» ، ثم عدد كبير من علماء مصر بينهم الدكاترة أحمد مختار عمر ، أيمن فؤاد سيد ، حسين نصار ، رمضان عبدالتواب ، عادل سليمان ، عبداللطيف عبدالحليم ، محمد عبدالخالق عضيمة ، محمد مصطفى هداره ، محمود الربيعى ، محمود على مكى ، محمود محمد الطناحى والأساتذة أحمد فؤاد سيد ، رجب إبراهيم الشحات ، السيد إبراهيم محمد ، أحمد حمدى إمام ، عبدالرحمن شاكر ، والشاعر شوقى على هيكل .

وقد تسترسل وتتذكر أن الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى ، حصل بدراسته عن «شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر» بين الدرس الأدبى والتحقيق «على رسالة الماجستير من كلية دار

العلوم ، وفي الطريق - كما قال الدكتور محمود الربيعي - رسالتا «دكتوراه» أولاهما عن طريقة التنقيط في كتب محمود شاكر والأخرى عن طريقته في فهرسته لكتبه .

وانهالت عليه الدعوات للمؤتمرات في المغرب حيث الدروس الرمضانية التي يعقدها الملك محمد الخامس ، وتركيا ، والسعودية ، والكويت ، ولندن حيث أنشأ الدكتور زكي اليماني مؤسسة الفرقان للإهتمام بمخطوطات التراث ... وغيرها وغيرها من البلاد العربية .

لكن هل اعتبر محمود شاكر هذا كله تكريما له ؟ لمعرفة ذلك نتوقف على سلوكه حيالها بعد أن عرفنا سلوكه نحو المجتمع ، فكان لزاما على أصدقائه وتلاميذه ومريديه اقناعه بضرورة قبوله لجوائز الدولة .

وعندما ذهب لإستلام جائزة الدولة التقديرية من مصر ، وكان الذي يسلمها رئيس الوزراء فؤاد محيي الدين ، وما أن نودي على اسم محمود شاكر إلا وصعد لاستلامها ، فاندهش فؤاد محيي الدين وراح يصافحه ويشد على يده «شاكر جدا لحضورك .. شاكر جدا لحضورك» لأن القائمين على الحفل ربما قد أوحوا له أن الأستاذ محمود شاكر لن يحضر لأنه رجل عازف عن الحياة العامة وعندما حمل إليه الدكتور حسين نصار جائزة الجدارة حيث تسلمها عنه - فقد أعادها

إلى الدولة مع الدكتور حسين نصار .. الذى أرهق فى إقناعه باستلامها لأنها خرجت من خزينة الدولة وإعادتها لها ، غير معروفة الإجراءات .. أما جائزة الملك فيصل فقد شهدنا كيف حاول رفضها فى البداية لولا رده تلامذته لأن موقفه يضر بهم .. وعندما اتصل به الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف ليعلمه بيوم تَسلم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى اعتذر له بشدة عن الحضور أو الحصول عليها من الأصل . فما كان من الدكتور محجوب إلا أن اتصل بالدكتور عبدالله محارب المستشار الثقافى لدولة الكويت ليقنعه بالذهاب ونجح فى ذلك .

ويحكى الذين حضروا معه بعض المؤتمرات التى لباها قصصا كثيرة من رفضه مثلا ركوب عربة كبيرة «باص» تقل العلماء من الفندق إلى المؤتمر .. واشترط أن يكون لكل عالم عربة خاصة .. بل أنه عندما جاء دوره فى مصافحة ملك المغرب حيث يكنى بأمير المؤمنين .. يجب الإنحناء لمصافحته وتقبيل يده صافحه محمود شاكر وهو مرفوع القامة . - حقا ما قيل إن التكريم يتراءى للناس شيئا محبوبا ، وحقا إن الذى لا يأبه للتكريم هو الذى يستحقه .. لأن لا يستوجب الدول ولا الناس الذين لا يعملون بنهجه .

إن محمود شاكر لم يكن شغوفا ولا أبها ، لأن يضع وساما على صدره .. أو وشاحا على كتفه .. أو أموال توضع له كرصيد فى بنك ..

ولا لقبا «كشيخ العربية» يطلق عليه .. وإنما هو محتاج أن تتخذ كتاباته مكانها في عقول المثقفين من أبناء الأمة العربية والإسلامية .. أن يحيا نهجه الذى نادى به في قلب مسئول يعمل على تنفيذه .. أن يقرر منهجه في الجامعة كما نادى الدكتور شكرى محمد عياد .. أن تختار إحدى صفحات كتبه للمطالعة والإملاء في مدارسنا الإبتدائية والثانوية ..

لقد جاء هذا التكريم متأخرا جدا عما كان ينبغي – وكأنهم [1] ألقوا له بطوق النجاه ، بعد أن وصل إلى الشاطئ – لقد [2] كرموه أخيرا لأنهم لم يجدوا أحدا ممن هم دونه يمكن أن يغالط به ويصلح لتوجه إليه التقديرات التي وجهت له أخيرا .. فان هذه التقديرات قد نالها قبل الآن من لا يقارنون به من بعيد أو قريب في فضله وخدمته لثقافتنا العربية قديما وحديثا .

وإذا قال أحدهم أن هذا التقدير المتأخر يعود بالدرجة الأولى إلى اعتزاله الكتابة للصحف وعزوفه عن الظهور في أجهزة الإعلام جميعا .. بحجة أن هذه الأخيرة ترسل للتسلية وليس للتثقيف .. فهناك كتبه التي لم ينقطع هديرها كما قرأنا في سرد حياته .. وعلى ذلك نقول [3] إن

---

(١) هذه كلمة قالها الأديب الانجليزي برناردو شو عندما رفض جائزة نوبل .

(٢) هذا تفسير قاله لي الأستاذ خليفه التونسي أحد قلائل منصفي العربية «رحمه الله» .

(٣) هذا قول الأستاذ محمد علي ماهر «رحمه الله» .

محمود شاكر لم يكن منزويا بقدر ما كان المنزوى هو قدرة الجو الثقافى العربى عن الحقيقة الكبرى التى يمثلها هذا الكنز البشرى أو الفكرى العربى الكبير . إن هذا التكريم المتأخر ليس اكتشافا لمحمود شاكر بقدر ما هو اكتشاف لأنفسنا ولقيام المؤسسات الفكرية واللغوية بدورها الحقيقى ، الذى كان يجب أن تنهض به منذ مطلع شباب محمود شاكر .

ويتساءل المولع بشاكر : إذا كان هذا التقدير المتأخر كان بسبب سطوة تلاميذ طه حسين فيا لهول وجبروت طه حسين .. وإذا كان نتيجة وصول تلامذته فى مصر وغير مصر إلى النفوذ الثقافى .. فيالبطء وصولهم .. وإذا كان بسبب اعتزاله لأجهزة الإعلام فيالسطوة هذه الأجهزة .

ولقد كنت أداعبه دوما بأنى كنت الفأل السعيد عليه ، وإن كتاباتى المستمرة عنه عرفته للعامة بعد الخاصة .. أقول له : «قبل أن أكتب عنك ، لم يكن يعرفك أحد لدرجة أننى كنت عندما أقول لأصدقائى إننى ذاهبة إلى الأستاذ محمود شاكر يسألونى هل هو ممثل ؟ ذكرينا بأدواره ؟ ، فى أى تمثيلية أو فيلم ظهر ؟ بل إنه يوم ظهور أول مقال لى عنك بمجلة الإذاعة انهالت المكالمات على رئيس ومدير التحرير سعيد عثمان ومحمود سالم . فقالوا لى ماذا حدث بالكون اليوم ، إننا ننشر منذ عشرات السنين ولم يحدث لنا هذا ، والحق أن مكالمة

بالذات قد أغاظتهم وكانت من المذيع اللامع أحمد فراج .. إذ قال لسعيد لو أنك لم تفعل شيئا رائعا فى حياتك فقد حققته اليوم بنشرك عن محمود شاكر .

ولن أنسى يوم ذكر الشيخ علىّ الطنطاوى اسمه فى تليفزيون الكويت .. حين حكى عن ذكرياته فى مصر . حيث تعرف على الشيخ أحمد محمد شاكر ، الذى كان محدث الجيل بلا منازع ، وأخيه محمود محمد شاكر الذى ليس فى بابته نظير فى الأدب .

بعدها تلقيت المكالمات بل الرسائل يبلغنى أصحابها من الأصدقاء .. أنه استمع للشيخ طنطاوى وأنه يوافقنى الآن على الاستمرار فى الكتابة عن محمود شاكر ، أما الأصدقاء الذين عادوا من السعودية .. فقد زفوا لى أنهم تعرفوا على محمود شاكر الذى أكتب عنه ولا يكادون يعرفونه من قبل ، لمجرد أنه أثار بكلماته الساخرة ضحكات العاهل السعودى الملك خالد بن عبدالعزيز خلال لقائه به فى الرياض .

وقد شاهدت صديقا فى معرض الكتاب بالكويت ينوء بحمل كتب كثيرة .. وصافحنى وهو يقول : لقد اشتريت كل كتب محمود شاكر الذى تكتبين عنه دوما .. وعندما نظرت فيما يحمله وجدته عن آخره كتب تاريخية .. فقلت للصديق أنها ليست لأستاذى وإنما لمؤرخ سورى له كنيته (حرستى) فحذفها ليوهم الناس أنه محمود محمد شاكر

«أبو فهر» فحزن حزنا شديدا .. بل إن رؤساء تحرير الصحف الكويتية عندما تبينوا الحقيقة صاروا يطالبونني بالكتابة عنه ، بعد أن كان مطلبهم في السابق أن أكتب عن الأستاذ نجيب محفوظ .

كنت أقول له ذلك مشاكسة .. لأني أعرف أنه استحق هذه الجوائز عن جدارة ، وعن تراكم أعمال التهمت زهرة شبابه ، كنت أقول له ذلك وأنا أعرف أنه ليس للحظ مكان في حياته .. فكل ما ناله من تقدير واحترام وشهرة كان نتيجة عمل دائب وكدح مستمر ، ورغم أن محمود شاكر لم يجد الصدى المتوجب لأعماله وأقواله من الشعب العربي المسلم ، الذي يكتب له وعنه .. فإنه لا يسخط ، بل لا يستسيغ من يطلق عليه أوصاف «كالشعوب المتخلفة» أو «العالم الثالث» ، أو «الدول النامية» أو النائمة ، التي تغط في نوم عميق ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على وقعها أو إحراقها . لمعرفته أن ما يمر بالعالم العربي والإسلامي ما هو إلا مرحلة استثنائية – نتجت من أن الغرب المسيحي لم ينس أبدا احتلال العثمانيين لقلب أوربا (تركيا) ، وتحويلهم كنيسة أياصوفيا إلى مسجد ، مما آثار فزع أوربا من جيوش الإسلام التي كانت تهدد فرنسا ذاتها .

ولكن عجلة التاريخ لن تتراجع إلى الخلف مرة أخرى – والذي حدث مرة سيعود ويتكرر .. فطبيعة الإسلام نفسه ، وجوهره وماضيه

وكفاحه الطويل والتحديات الكثيرة التى قابلها وصمد لها وتغلب عليها تقول ذلك .

واختتم كلامى بكلمة صدق جرت على لسان الدكتور عبداللطيف عبدالحليم وهو من تلامذة العقاد «كلام محمود شاكر يعلم الزهو والمجد أولا ويعلم الأدب والفكر ثانيا» ..

***

النهاية

عجلت باللمسات الأخيرة لهذا الكتاب بينما أستاذى محمود شاكر نزيل غرفة الإنعاش بمستشفى النزهة الدولى حتى انتهيت من مهمتى بحمد الله فجر الأول من أبريل عام ١٩٩٧ ، وكلى أمل أن أتمكن من إصدار الكتاب فى أقرب فرصة ، وإهدائه إلى السيدة الفاضلة «أم فهر» .. الزوجة الراضية الصبور التى تفهمته وغمرته بالحب ، ووفرت له أسباب الرعاية والإبداع ، وانجبت له ولنا خير خلف لخير سلف ، ووسع كرمها ومودتها أصدقاءه ومريديه وقاصديه من طلاب العلم .

«المؤلفة»

الفهـــرس

رقم الايداع
٩٧ / ١١٩١٧
I. S. B. N
977 - 07 -0558- 6

كتاب الهلال يقدم

عابر سبيل

بقلم

د. عصام الدين جلال

مع الباعة وفى المكتبات الكبرى

سلسلة الكتاب الطبى

متاعب جهازك الهضمى

تأليف

د . عبد الرحمن نور الدين

صدر عن دار الهلال

الثمن عشر جنيهات

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

هذا الكتاب

أول مؤلف يسجل لسيرة حياة شيخ العربية العلامة محمود شاكر الذي رحل مؤخرا عن عمر ناهز التسعين عاما ، مخلفا وراءه فيضا من عطائه المضنى فى تحقيق التراث ، وذخيرة من البحوث والابداعات الأدبية الثمينة ، وصفحات مشرفة من المعارك الفكرية التى خاض غمارها بشجاعة واقتدار منذ فجر شبابه وأثارت فى حينها جدلا شديدا لايزال متأججا حتى اليوم .

الكاتبة الأديبة عايدة الشريف مؤلفة الكتاب واحدة من أخلص تلاميذ الشيخ شاكر ، وعبر تواصل علاقتها الحميمة معه ، كان طريقها سالكا الى فهمه وسبر أغوار حياته وأفكاره ومواقفه ، والتصدى لتفسير أوجاع عزلته عن المجتمع الذى أبى أن ينصفه فى حياته .

وتشاء مصادفات الحياة أن ترحل المؤلفة قبل رحيل شيخها بأربعة شهور، بعد أن تركت لنا شهادتها الامينة عنه ، ولعلها قد فتحت الطريق أمام عشرات المفكرين والباحثين والنقاد والعارفين بفضله ، حتى يوفوا دينا ثقيلا فى أعناقهم لمحمود شاكر، ويجلوا صورته الوضيئة أمام الاجيال الجديدة ، حتى يتبوأ مكانته الرفيعة التى يستحقها عن جدارة كواحد من الفرسان الصناديد الذين أفنوا حياتهم دفاعا عن الثقافة والهوية والحضارة العربية الإسلامية .

